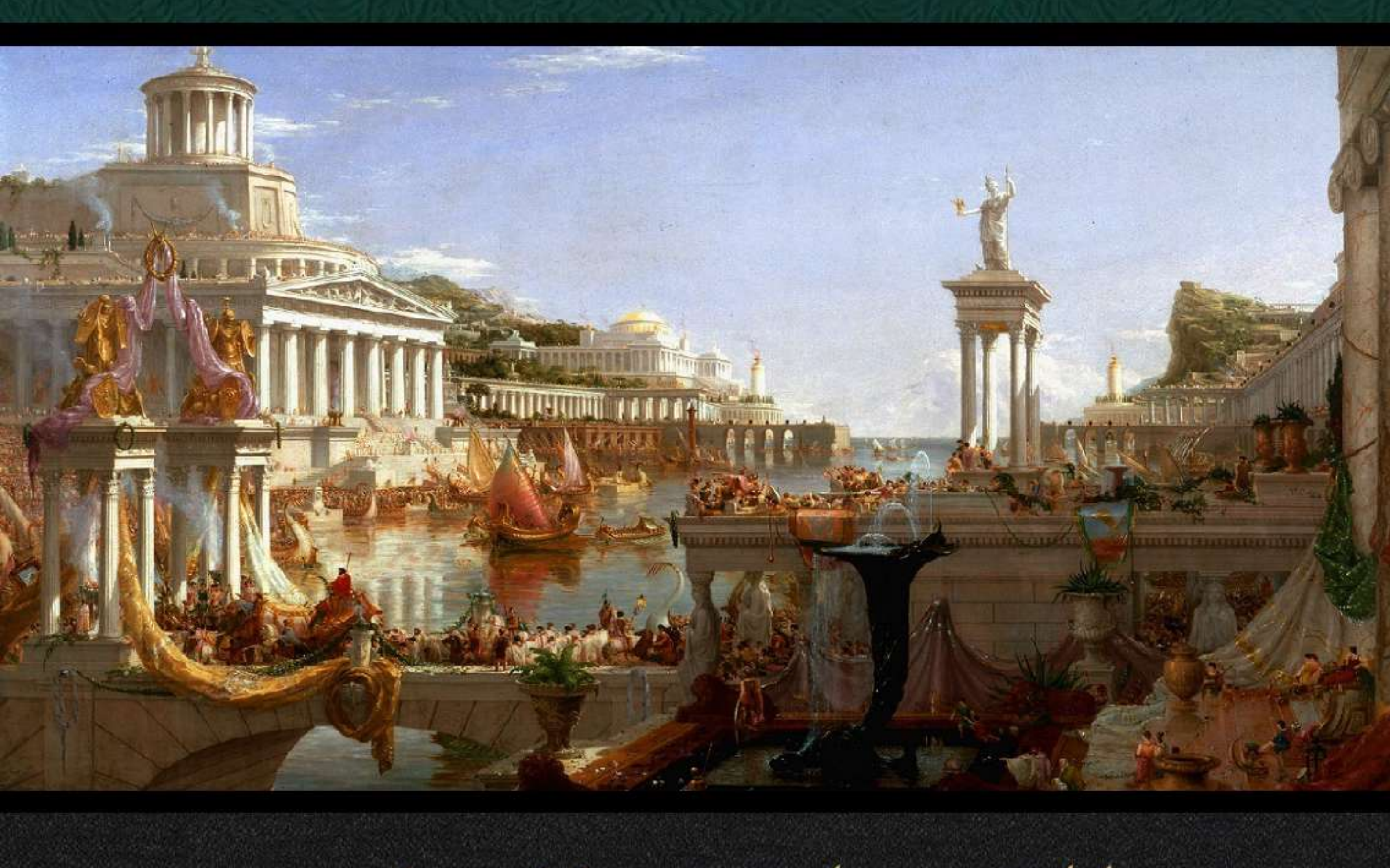
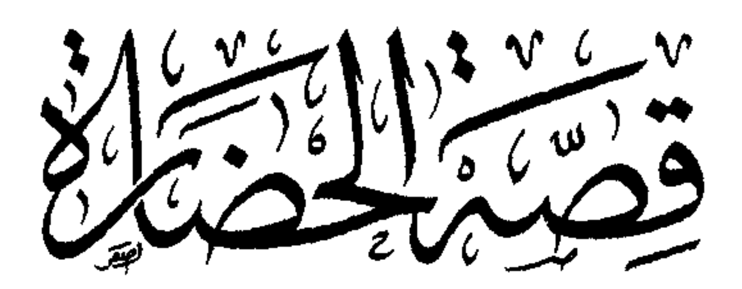
قصة الحضارة



المجلد السابع

ويل ديورانت



ول وايريل ديورانت

بداية عصر العقل

ترجمة
محمد علي أبو درة

مراجعة
علي أدهم

الجزء الأول من المجلد السابع





تونس



بيروت

فهرس

الجزء الأول من المجلد السابع

من قصة الحضارة

الكتاب الاول

ابتهاج غامر فى انجلترا

١٥٥٨ — ١٦٤٨

الفصل الاول

الملكة العظيمة

١٥٥٨ — ١٦٠٣

الفصل الثانى

انجلترا المرحة

١٥٥٨ — ١٦٢٥

الفصل الثالث

على سفوح بارناسوس

١٥٥٨ — ١٦٠٣

الفصل الرابع

وليم شكسبير

١٥٦٤ — ١٦١٦

الفصل الخامس

ماری ملكة اسكتلنده

١٥٤٢ — ١٥٨٧

الفصل السادس

جيمس السادس والأول

١٥٦٧ — ١٦٢٥

الفصل السابع

الدعوة إلى العقل

١٥٥٨ — ١٦٤٩

الفصل الثامن

الثورة الكبرى

١٦٢٥ - ١٦٤٩

الكتاب الأول

ابتهاج غامر فى إنجلترا

١٥٥٨ – ١٦٤٨

الفصل الأول

الملكة العظيمة

١٥٥٨ — ١٦٠٣

١ — مزايا المحنة

فى السابع عشر من نوفمبر ١٥٥٨ ، ركض أحد الرسل إلى فناء القصر الملكى فى هاتفيلد — على مسافة ٣٦ ميلا إلى الشمال من لندن — وأعلن إلى اليزابث تيودور أنها أصبحت ملكة على إنجلترا . ان أختها غير الشقيقة ، الملكة مارى ذات السمعة التى يرثى لها ، قد وافاها الأجل المحتوم فى غسق الصبح فى ذاك اليوم . وفى لندن عند ما تلقى البرلمان هذا النبأ هتف : « حفظ الله الملكة اليزابث ! فايطل أمد حكمها علينا ! » — ولم يكن يدور بخلده أو يحلم بأن حكمها سوف يمتد إلى خمسة وأربعين عاما. وعلى الرغم من أن الكنائس كانت توجس خيفة فإن صلاصل نواقيسها هز أجواز الفضاء . ومد الناس فى إنجلترا موائد الأفراح فى الشوارع ، كما فعلوا من أجل مارى من قبل ، وصبغوا السماء فى ذاك المساء بأضواء المشاعل التى تشف عن الأمل الخالد .

وفى يوم السبت التاسع عشر من نوفمبر ، احتشد كبار اللوردات والسيدات وأعضاء مجلس العموم من جميع أنحاء المملكة فى قصر هاتفيلد، ليقسموا يمين الولاء للملكة ، ويلتمسوا فى هذه المناسبة غنما ، وفى اليوم العشرين خطبت فيهم اليزابث فى أسلوب ملكى حقا ، قائلة :

أيها اللوردات : أن قوانين الطبيعة لتثير فى نفسى لواعج الأسى والحزن على أختى ، وإن العبء الذى ألقى على كاهلى ليذهلنى . ولكنى بوصفى من عباد الله ، يتعين

علىّ الامتثال لاختياره إياى لهذا المنصب . انى فوق ذلك سوف أخضع لمشيئته ، تحدونى الرغبة من أعماق قلبى ، فى أن يهبنى العون ، بفضله وكرمه ، على تنفيذ إرادته سبحانه وتعالى فى المهمة التى وكلت اليوم إلى ، وما أنا ، من الناحية المادية إلا بشر ، ولكنى بإذنه تعالى بشر سياسى عليه أن يحكم . فهل لى أيها اللوردات ، وخاصة النبلاء منكم ، كل على قدر مرتبته وسلطته — هل لى أن أطمع فى أن تكونوا عونا لى ، حتى أستطيع أنا بحكمى وأنتم بخدماتكم ، أن نقدم لله سبحانه وتعالى عملا مقبولا ، ونترك لأعقابنا على الأرض شيئا من الرفاهية والراحة[1] . »

وفى اليوم الثامن والعشرين من نوفمبر ، اخترقت اليزابث ، مرتدية ثوبا من القطيفة القرمزية ، شوارع لندن فى موكب عام ، إلى نفس « برج لندن » التى كانت سجينة فيه منذ أربعة أعوام ؛ تنتظر الموت . وفى طريقها ، أخذ الأهالى اليوم يهللون ويهتفون لها والمنشدون يتغنون بمجدها وعظمتها ، والأطفال يتلون عليها ، وهم يرتعدون ، ما حفظوه من عبارات الولاء والإجلال ، ورحبت طلقات المدافع والبنادق التى لم يسمع لها نظير من قبل ، بحكم قدر له أن يكون أزهى وأحفل بالرجال والعقول من أى حكم سبقه فى إنجلترا .

وكانت خمس وعشرون سنة من المحاكمات قد هيأت اليزابث لتسيطر وتتفوق . وفى ١٥٣٣ بدا أن من حسن طالعها أن يكون هنرى الثامن أبا لها ، ولكن كان خطرا عليها أن تكون أمها آن بولين . إن العار الذى لحق بأمها ثم إعدامها ، وقعا فى وقت لم تكن الطفلة فيه تعى أو تذكر شيئا (١٥٣٦) ، ولكن مرارة هذا التراث الكريه لازمتها وما انجابت عنها طيلة شبابها ، ولم تبرأ منها إلا بفضل بلسم الملك : ونص قرار أصدره البرلمان فى ١٥٣٦ على أن زواج آن باطل ، ومن ثم صارت اليزابث ابنة غير شرعية ، ولاكت الألسنة موضوع أبوة البنت ، واختلفت الأقوال فيه بشكل قاس ، وكانت فى نظر معظم الإنجليز ، على أية حال ، ابنة زنى . ولم تعد الشرعية إليها قط بحكم القانون ، ولكن قرارا آخر من البرلمان (١٥٤٤) ثبت حقها فى تولى العرش ، بعد ادوارد أخيها من أبيها ، ومارى أختها لأبيها . وفى أثناء حكم ادوارد (١٥٤٧ — ١٥٥٣) تمسكت اليزابث بالبروتستانتية ولكن عندما أعتلت

ماري الكاثوليكية العرش ، آثرت اليزابث الحياة على التمسك بمذهبها ، فتحولت إلى الطقوس الرومانية الكاثوليكية . ولما اخفقت ثورة ويات Wyatt (١٥٥٤) في خلع ماري ، اتهمت اليزابث بالاشتراك في المؤامرة ، وأرسلت إلى برج لندن (السجن). ولكن ماري قررت بأن التهمة غير ثابتة على اليزابث ، وأفرجت عنها لتعيش في وودستوك **Woodstock** تحت المراقبة . وأقرت ماري قبل وفاتها أن تخلفها أختها على العرش ، وأرسلت إليها مجوهرات التاج . وإنا لنعزو حكم اليزابث إلى شفقة ماري « السفاحة » .

وكان التعليم الأكثر منهجية لا ليزابث واسعا ، وكان معلمها الخاص المشهور — روجر أسكام — يتيه فخرا « بأنها تتحدث بالفرنسية والإيطالية بمثل ما تتحدث بالإنجليزية ، وأنها كثيرا ما تحدثت معي في يسر وطلاقة باللاتينية ، وإلى حد ما باليونانية[٢] » ، وكانت تتلقى في كل يوم لمحة من اللاهوت ، وتضلعت في العقيدة البروتستانتية ، ولكن يبدو أن معلميها الإيطاليين نقلوا إليها شيئا من مذهب الشك الذي رضعوه وتأثروا به من بومبوناتزي ومكيافللي وروحه في عصر النهضة .

ولم تكن اليزابث مطمئنة على تاجها وعرشها قط . وأكد البرلمان من جديد في ١٥٥٣ عدم شرعية زواج أمها من أبيها ، واتفقت الحكومة والكنيسة على أنها ابنة زنى ، واستبعد القانون الإنجليزي — متجاهلا وليم الفاتح — كل أولاد الزنى ، من ولاية العرش ؛ واعتقد العالم الكاثوليكي — وكانت إنجلترا لا تزال كاثوليكية إلى حد كبير — أن الوريثة الشرعية للتاج الإنجليزي هي ماري استيوارت ، ابنة حفيدة هنري السابع ؛ وقد أشير على اليزابث بأنها لو سالمت الكنيسة ، لمحا عنها البابا وصمة بنوة الزنى واعترف بحقها في الحكم . ولم يكن بها ميل شديد إلى هذا . فإن آلافا من الإنجليز كانوا قد وضعوا أيديهم على أملاك انتزعها البرلمان من الكنيسة في عهد هنري الثامن وادوارد السادس . وكان هؤلاء الملاك ذوو النفوذ يخشون العودة إلى الكاثوليكية . ومن ثم تفرض الكنيسة استعادة أملاكها . ولذلك كانوا على استعداد للنضال من أجل ملكة بروتستانتية . كما أن الكاثوليك في إنجلترا آثروا الملكة البروتستانتية على الحرب الأهلية . وفي ١٥ يناير ١٥٥٩ ، وسط هتافات لندن

البروتستانتية ، توجت اليزابث فى كنيسة وستمنستر « ملكة على إنجلترا وفرنسا وإيرلنده ، وحامية للعقيدة » . ذلك أن ملوك إنجلترا منذ عهد ادوارد الثامن طالبوا ، بانتظام ، بحقهم فى عرش فرنسا ، إنهم لم يقصروا فى شىء يثقل كاهل الملكة بالمتاعب .

إن اليزابث الآن فى سن الخامسة والعشرين ، وفيها كل الفتنة التى تقترن بنضج الأنوثة . وكانت متوسطة الطول ، حسنة المظهر ، مليحة القسمات ، ذات بشرة تميل إلى السمرة ، وعينين وضاءتين ، وشعر أسمر يضرب إلى الحمرة ، ويدين جميلتين عرفت كيف تظهرهما للعيان[٣] . ويبدا ضربا من المستحيل أن تتمكن مثل هذه الفتاة من آن تواجه بنجاح الفوضى التى تحيط بها ، فقد مزقت المذاهب الدينية المتصارعة أوصال البلاد ، جريا وراء السلطة ، مستخدمة السلاح ، وكان الفقر المدقع داء متوطنا ، وكان التشرد قد بقى على حاله بعد العقوبات الرهيبة التى فرضها عليه هنرى الثامن . وعوقت العملة الزائفة سير التجارة الداخلية ، وانتشرت هذه العملة الزائفة لمدة نصف قرن ، وكان لهـذا أثره فى هبوط رصيد الخزانة ، مما جعل الحكومة تدفع ١٤٪ فائدة على القروض ، واستغرقت العقيدة الدينية كل تفكير مارى تيودور ، إلى حد أنها لم تول شئون الدفاع الوطنى أية عناية ، وقبضت يديها عنه ، فأهملت الحصون وبقيت الشواطىء دون حماية ، ولم تعد البحرية صالحة ، وساءت رواتب الجيش وطعامه ، وشغرت الوظائف فيه . وباتت إنجلترا — التى كانت أيام ولزى تحتفظ بميزان القوى فى أوربا — باتت الآن كسيحا سياسيا مشلولا تتقاذفه كل من أسبانيا وفرنسا . ودخلت الجيوش الفرنسية إلى اسكتلندة ، وكانت إيرلنده توجه الدعوة إلى أسبانيا . وكان الحرمان من الكنيسة — حرمانا مطلقا أو جزئيا — سيفا مصلتا على رأس الملكة يهددها به البابا ، كما كان يهددها بغزو الدول الكاثوليكية لبلادها . وبدا الغزو وشيكا قطعا فى ١٥٥٩ . وكان الخوف من القتل يساورها دوما ، ولم ينقذها إلا دبيب الشقاق بين أعدائها ، وحكمة مستشاريها ، وشجاعة روحها . ولقد صعق السفير الأسبانى « بروح المرأة . . . . . أن بين جنبيها شيطانا يتملكها ، ويقودها حيث يريد[٤] » . ولم تكن أوربا تحسب أنها ستجد روح إمبراطور وراء ابتسامات فتاة .

٢ — حكومة اليزابث

برزت قدرة إليزابث على التميز وحسدة ذهنها ، على الفور ، فى اختيار معاونيها . انها مثل أبيها الذى كان يستعد دوما للمعركة . وعلى الرغم من خطابها السياسى فى هاتفيلد ، اختارت رجالا ليسوا من أصل عريق أو محتد كريم ، ذلك أن معظم قدامى النبلاء كانوا من الكاثوليك ، وحسب بعضهم أنهم أصلح منها لتولى العرش . فعينت وليم سيسل سكرتيرا ومستشارا أولا لها ، وهو الذى أصبحت عبقريته فى انتهاج سياسة حكيمة وفى الملاطفة وتدبر الأمور عاملا بارزا فى نجاحها ، إلى حد خيل معه إلى الذين لا يعرفون الملكة ، أنه هو الملك . وكان جده من صغار الأعيان الميسورين ، ثم أصبح سيدا من سادة الريف ، وكان أبوه موظفا فى خزائن الملابس فى قصر هنرى الثامن وهيأ صـــداق أمه للأسرة ضيعة مناسبة . وترك وليم جامعة كمبردج دون الحصول على درجة جامعية ، ودرس القانون فى Oray's Inn (أحد أجهزة العـــدل التى تمنح أجازة الاشتغال بالقانون فى لندن) . وقضى شبابه الداعر يعيث فسادا فى مواخير لندن(٥) . ودخل مجلس العموم فى سن الثالثة والعشرين (١٥٤٣) . وتزوج زوجته الثانية ملدرد كوك Mildred Cooke . وقد ساعدته بيوريتانيتها القاسية على التزامه المذهب البروتستانتى والتمسك به . وخـــدم الوصى « سومرست » ثم غريمه نورثمبرلند . وأيدليدى جين جراى لتخلف ادوارد السابع ، ثم تحول فى اللحظة الحاسمة إلى مارى تيودور ، وأصبح كاثوليكيا مطيعا بناء على اقتراح منها ، وندبته للترحيب بتقدم الكاردينال بول إلى إنجلترا . وكان رجل عمل ومصلحة ، لا يسمح لتقلباته اللاهوتية أن تخل بتوازنه السياسى . وعند ما عينته اليزابث سكرتيرا لها تحدثت ، بفطنتها المألوفة ، إليه قائلة : —

« لقد عهدت إليك بهذه المهمة . وهى أن تكون من بين أعضاء مجلس شورى الملكة . وترتضى أن تبذل أقصى الجهد من أجلى ومن أجل مملكتى . وانى لآنس فيك أنك لن تفسدك أية منحة أو هدية مهما يكن نوعها ، وأنك ستكون مخلصا للدولة ، وأنك ستمحضنى ما ترى أنه خير الرأى والنصيحة ، دون اعتبار لإرادتى الخاصة ،

وأنك إذا رأيت أن ثمة شيئا ضروريا يجب إبلاغى إياه سرا فستفضى به إلى وحدى ، وتأكد أنى لن أعجز عن التزام الصمت فى مثل هذه الحالة ، ومن ثم فانى أعهد إليك بهـذه المهمة(٦) » .

واحتفظت به سكرتيرا لمدة أربعة عشر عاما ، كانت بمثابة امتحان لأمانته وكفايته ، عينته بعدها وزيرا للخزانة لمدة ست وعشرين سنة أخرى ، حتى وفاته . ولقد رأس مجلس شورى الملكة ، وأدار دفة العلاقات الخارجية ، والشئون المالية العامة والدفاع الوطنى ، وقاد خطى اليزابث فى تدعيم المذهب البروتستانتى فى إنجلترا . انه ، مثل ريشيليو ، اعتبر أن سلامة بلاده واستقرارها يتطلبان الحكم الملكى المطلق الذى يعمل على التوحيد ، فى مواجهة النبلاء المتناحرين والتجار الجشعين ، والعقائد التى تحاول بعضها القضاء على بعض ، وكل أولئك يعمل على التفريق والتمزيق . واتبع بعض أساليب مكيافللى ، وقليلا ما كان قاسيا ، ولكنه أخذ المعارضة بلا رحمة وبلا هوادة(٧) ، وفكر مرة فى قتل ارل وستمورلند(٨) ، وكان ذلك فى لحظة نفد فيها الصبر ، حانت فى نصف قرن من التشبث الصابر والاستقامة الشخصية . وكان له عيون وجواسيس على كل شيء ولكن اليقظة الباطنية هى ثمن السلطة والقوة . وكان مقتصدا مولعا بالكسب ، ولكن اليزابث غفرت له ثراءه لقاء حكمته ، وأحبت فيه لتقتير الذى أعد الوسائل لقهر الأرمادا ، ولولاه لكان من المحتمل أن تضللها المظاهر البراقة والمغرورون المبذرون مثل ليستر وهاتون واسكس . وقال السفير الأسبانى فى تقرير له : « إن ذكاء سيسل يفوق كل ذكاء سائر أعضاء المجلس مجتمعين ، ومن ثم فهو موضع حسد الجميع وكراهيتهم(٩) » . وأصغت اليزابث أحيانا إلى ما يقوله عنه أعداؤه ، فعاملته من حين لآخر فى خشونة وجفوة إلى حد أنه كان يخرج من حضرتها محطما باكيا ، حتى إذا هدأت سورة غضبها أدركت أنه أثبت دعامة لملكها . وفى ١٥٧١ عينته « لورد برجلى » **Burghley** ، أى زعيم الارستقراطية الجديدة التى وقفت فى وجه النبلاء المعادين . فدعمت عرشها ورفعت من شأن مملكتها .

ويستحق صغار معاونيها أن نلم بهم فى بضعة سطور فى هذه العجالة التاريخية . لأنهم خدموها بكفاية وشجاعة ، ولم يجزوا الجزاء الأوفى ، حتى أفنوا حياتهم فى

خدمتها . منهم سير نيقولا بيكون — والد فرنسيس بيكون — وكان حامل الخاتم الملكي منذ بداية حكم اليزابث حتى وفاته ١٥٧٩ . وسير فرانسيس نولليس **Knollys** الذى كان عضوا فى مجلس شورى الملكة منذ ١٥٥٨ ، ورئيسا للخاصة الملكية حتى وفاته (١٥٩٦) ، كما كان سير نيقولا ثروكمورتون **Throckmorton** سفيرها البارع فى فرنسا ، وتوماس رندولف سفيرها فى اسكتلنده وروسيا وألمانيا ، وكان فى المرتبة الثانية ، بعد سيسل ، من حيث الاخلاص والدهاء ، وسير فرنسيس ولسنهام الذى تولى منصب الوزارة من ١٥٧٣ حتى وافته المنية (١٥٩٠) ، وكان رجلا دمثا مرهف الحس ، قال عنه سبنسر « إنه ماسيناس(*) العظيم فى عصره » ، روعته المؤامرات المتكررة على حياة الملكة حتى أنه أقام لحمايتها شبكة من الجاسوسية ، امتدت من ادنبره إلى القسطنطينية ، وأوقعت فى شراكها ملكة اسكتلنده المنكوبة الحظ . وقلما حظى حاكم بمعاونين على مثل هذا القدر من الكفاية والقدرة والولاء ، مع هذا القدر من الرواتب الضئيلة التى كانوا يتقاضونها .

وكانت الحكومة الإنجليزية نفسها فقيرة . وزادت الثروات الخاصة على الاعتمادات العامة . وبلغ مجموع الدخل ٥٠٠,٠٠٠(١٠) جنيه فى ١٦٠٠ ، وهو ما يعادل المبلغ التافه ٢٥ مليون دولار . وقلما فرضت اليزابث ضرائب مباشرة ، ولم تحصل من الرسوم الجمركية إلا على ٣٦,٠٠٠ جنيه ، واعتمدت عادة على دخل ممتلكات التاج ، وعلى منح من الكنيسة الإنجليزية ، وعلى قروض من الأغنياء ، كانت من الوجهة العملية إجبارية ، ولكنها كانت تسدد بانتظام(١١) . وأقرت الديون التى خلفها أبوها وأخوها وأختها ، وتمتعت بسمعة طيبة فى الوفاء بالدين إلى حد أنها استطاعت أن تحصل على القروض من أنتورب بفائدة قدرها ٥٪ على حين أن فيليب الثانى ملك أسبانيا لم يستطع فى بعض الأحيان أن يقترض قط ، وكانت الملكة مسرفة ، على أية حال ، فى الانفاق على ملابسها وحليها ، وفى المزايا الاقتصادية التى تغدقها على ذوى الحظوة لديها .

(*) **Moeceuas** أحد رجال الدولة الرومان ، فى القرن الأول ق . م . كان صديقا لهوراس ولفرجيل ، وكان كريما راعيا للآداب .

وقل أن دعت اليزابث البرلمان ، وعلى مضض منها ، لمساعدتها من الناحية المالية ، لأنها لم تكن تطيق المعارضة أو النقد أو المراقبة ، ولم تؤمن قط بنظريات سيادة الشعب أو البرلمان . وآمنت مع هوميروس وشكسبير بأن رأسا واحدا هو الذى يجب أن يتولى الحكم — ولم لا يكون رأسها هى ، الذى جرى فيه دم هنرى الثامن وتألقت كبرياؤه ؟ وتمسكت بحقوق الملوك والملكات الآلهية . وأودعت بعض الأفراد السجون بمحض إرادتها هى دون محاكمة ، أو سبب واضح ، وكان مجلس الشورى الذى ينعقد على هيئة محكمة عليا لمحاكمة المجرمين السياسيين ، يعطل ، دون استئناف ، حقوقهم فى المعارضة وفى قانونية حبسهم ، أو فى محاكمتهم أمام المحلفين[١٢]. وعاقبت أعضاء البرلمان الذين اعترضوا سبيلها فى تحقيق أهدافها . وأوحت إلى الأقطاب المحليين الذين يديرون شئون الانتخابات النيابية ويؤثرون فيها، أنه مما ييسر الأمور أن يختاروا مرشحين ليس لديهم نزعات صبيانية فى حرية الكلام ، إنها طمعت فى الحصول على المال دون أن يناقشها أحد الحساب ! واستسلمت برلماناتها الأولى إلى هذا الوضع بلباقة ، وخضعت البرلمانات غاضبة فى أواسط عهدها ، أما بعد ذلك فقد قاربت البرلمانات أن تثور .

وتغلبت إرادتها لأن الأمة آثرت حكمها المطلق الحكيم على عنف الأحزاب التى تتنافس على السلطة ، ولم يفكر أحد فى أن يدع الشعب يحكم ، وكانت السياسة — وهى كذلك دائما — صراعا بين الأقليات ، على أنها يحكم الأغلبية . واستاء نصف إنجلترا من سياسة اليزابث الدينية ، واغتاظت كل إنجلترا تقريبا من عزوبتها ، ولكن الناس فى جملتهم ، وهم يحمدون الضرائب المنخفضة والتجارة المزدهرة ، والنظام فى الداخل ، والسلام الذى طال أمده ، بادلوا الملكة حبا بحب . لقد أقامت لهم المهرجانات ، وقامت بجولات ملكية بينهم ، واستمعت إليهم دون أن يظهر عليها أى امتعاض ، وشاركتهم ألعابهم العامة . وبمائة أسلوب آخر تصيدت قلوب الناس[١٣] » . وكتب السفير الأسبانى ، وهو يذوب حسرة على اعتناقها البروتستانتية ، إلى الملك فيليب يقول : « إنها أشد التصاقا بالأهالى ، وهى على ثقة من أنهم جميعا إلى جانبها ، وهذا هو الحق بعينه[١٤] » . وزادت المحاولات

التي بذلت القضاء على حياتها من شعبيتها وسلطانها ، حتى أن البيوريتانيين الذين اضطهدتهم دعوا لها بالسلامة ، وأصبحت الذكرى السنوية لارتقائها العرش عيدا قوميا للشكر وإقامة الاحتفالات .

وهل كانت اليزابث هي الحاكم الفعلي ، أو مجرد واجهة محبوبة للطبقة الدنيا من النبلاء في إنجلترا ، والأقلية التجارية في لندن ؟ وكثيرا . ما صحح معاونوها أخطاء سياستها ، على الرغم من خوفهم من انفعالها ، ولكنها بدورها ، كثيرا ما صححت أخطاءهم كذلك . لقد أبلغوها حقائق مرة ، وزودوها بنصائحهم المعارضة لرأيها ، وامتثلوا لقراراتها ، انهم حكموا ولكنها ملكت . وقال السفير الأسباني : « إنها تصدر الأوامر ، وتفعل ما تريد ، تماما كما كان يفعل أبوها[١٥] » . وقلما أدرك سيسل نفسه ماذا اعتزمت أن تفعل ، واضطرب واغتاظ من رفضها المتكرر لمشورته التي وصل إليها بعد جهد شاق وتمحيص دقيق وعندما حثها على عدم التفاوض مع فرنسا ، والاعتماد فقط على تأييد البروتستانت ، انتهرته في قسوة وحدة « أيها السكرتير ، أفهم أني انتهيت من هذا الموضوع . ولسوف استمع إلى مقترحات ملك فرنسا ، ولن أكون بعد اليوم مربوطة إليك وإلى اخوتك في المسيحية[١٦] » .

ودفعت تصرفاتها في شئون الدولة الأصدقاء والأعداء إلى البكاء ، على حد سواء . فقد كانت متأنية مترددة إلى حد مثير ، في البت في الأمور ، ولكن ترددها عاد بالفائدة في أحوال كثيرة ، لقد عرفت كيف تتحالف مع الزمن الذي يحل من المشاكل أكثر مما يحل الرجال ، وكم هيأ تسويفها في البت ، للعوامل المعقدة في موقف ما ، أن تستقر وتتركز وتتضح . لقـــد أعجبت بالفيلسوف الأسطوري الذي ألحوا عليه في طلب الجواب ، فتلا حروف الهجاء في صمت قبل الادلاء به . واتخذت شعارا لها : « اني أرى وأنا صامت » . واكتشفت أنه في السياسة كما في الحب ، من لم يتردد يضيع نفسه . وإذا تذبذبت سياستها في غالب الأحيان ، فهـــذا هو شأن الحقائق والقوى التي يعمل حسابها . ولما كانت محاطة بالأخطار والدسائس ، فانها تحسست طريقها في حذر موسوم بالتسامح والصفح ، محاولة آنا سبيلا آخر ، فهي لا تدعي الثبات في عالم مائع . وتعثر ترددها في بعض أخطاء جسيمة ، ولكنها

احتفظت بانجلترا فى سلام حتى بلغت من القوة ما تستطيع معه أن تحارب . ولما كانت قد ورثت أمة تشيع فيها الفوضى من الناحية السياسية ، منهارة من الناحيــة العسكرية ، فقد كانت السياسة الوحيدة التى يمكن انتهاجها هى الحيلولة دون اتحاد أعدائها ضدها ، وتشجيع ثورة الهيجونوت ضد ملك فرنسا ، وثورة الأراضى الوطنية ضد أسبانيا ، وثورة البروتستانت ضد ملكة اسكتلنده الوثيقة الصلة بفرنسا . لقد كانت هذه سياسة مجردة من المبادئ الأخلاقية ، ولكن اليزابث آمنت مع مكيافللى بأن الوساوس لا تلتئم مع الحكام المسئولين عن الدول . ومهما يكن من أمر فان ضعفها الموسوم بالحذق والدهاء يشــير إلى أنها حافظت على بلادها من السيطرة الأجنبية ، وحافظت على السلام لمدة ثلاثين عاما ــ باستثناء فترات قصيرة ، وتركت إنجلترا أغنى مما كانت عليه فى أى وقت مضى ، ماديا وفكريا .

واستطاعت اليزابث الدبلوماسية ، أن تلقن وزراء الخارجية فى زمانها ، دروسا فى الإعلام النشيط السريع والوسائل اللبقة الماكرة والخطوات الكثيرة التى لا يمكن التنبؤ بها . وكانت أقدر أهل زمانها على الكذب . ومن بين النساء الأربع ــ مارى تيودور ، مارى ستيوارت ، كاترين دى مديتشى واليزابث ــ اللائى ضربهن نوكس Knox مثلا على « حكم النساء الرهيب » فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، تفوقت اليزابث عليهن بلا منازع فى الفطنة السياسية والبراعة الدبلوماسية . وذهب سيسل إلى أنها « أعقل امرأة وجدت ، لأنها فهمت ميول كل أمــير فى زمانها وما يولع به وما يستهويه . وكانت على علم تام بمملكتها إلى حد أن أيا من مستشاريها لم يكن لينبئها بشىء لم تكن تعرفه من قبل[١٧] . وهذا بطبيعة الحال يتطلب الرقية من الحسد ببعض حصوات من الملح ، وتمتعت الملكة بميزة التباحث مباشرة مع السفراء بالفرنسية أو الإيطالية أو اللاتينية ، ومن ثم كانت فى غنى عن الاعتماد على المترجمين والوسطاء . ويقول السفير الأسبانى : « ان هذه المرأة يتملكها مائة ألف شيطان ، ولكنها مع ذلك تزعم لى أنها تحب أن تكون راهبة ، تعيش فى صــومعة تتلو تسابيحها وصلواتها من الصباح إلى الليل[١٨] » ، لقد أدانتها كل حكومة فى قارة أوربا ، وفى نفس الوقت أعجبت بها وقال عنها البابا سكستس السادس : « لو لم تكن زنديقة لكانت تساوى عالما بأسره[١٩] » .

٣ — العذراء العاشقة

كانت عذرية اليزابث هي السلاح الخفي في دبلوماسيتها . وهــذا بطبيعة الحال تفصيل ثانوي عويص يجدر بالمؤرخين ألا يزعموا التيقن منه ، أو لنــكن نزاعين إلى الثقة ، مثل ســير والتررالي حين يطلق الاسم على مستعمرة ويعينها بذاتها . ولقد ساورت سيسل بعض شكوك عابرة عندما لاحظ عبث اليزابث الطويل الأمد مع لستر ومغازلتهما . ولـكن سفيرين أسبانيين لا يتورعان ولا يجدان حرجا في تشويه سمعة الملكة ، انتهيا إلى أنها شريفة[٢٠] . وذكرت الاشاعات التي انتشرت في البلاط — كما رواها بن جونسون لدروموند هوثورندن — « أن فيها غشاء يجعلها غير أهل لمعاشرة الرجال ، ولو أنها حاولت مع كثير منهم لمجرد اللهو والمرح . . . . » وأخذ جراح فرنسي على عاتقه أن يستأصلة ، ولـكن الخوف منعها من ذلك[٢١] . وكتب كاندن في حولياته ١٦١٥ : « صب الناس اللعنات على هويك Huic طبيب الملكة لأنه ثبط همتها في الزواج بسبب عائق وعاهة فيها[٢٢] » . غير أن البرلمان الذي توسل إليها مرارا لتتزوج ، افترض قدرتها على الحمل ، ولقد مني معظم ملوك آل تيودور بالاخفاق في هذه الناحية : فيحتمل أن تكون مصائب كاترين أوف أراجون في الولادة ترجع إلى داء الزهري الذي أصيب به هنري الثامن ، ومات ابنه ادوارد في سن الشباب نتيجة علة كريهة الوصف . وحاولت ابنته ماري محاولة شديدة أن يكون لها طفل ، وكل ما حدث أنها ظنت خطأ أن داء الاستسقاء حمــل ، وعبثت اليزابث ما شاءت ، ولـكنها لم تجرؤ على الزواج ، وقالت : « لقد كنت أنفر منه دائما » . وأعلنت منذ ١٥٥٩ عزمها على أن تبقى عذراء[٢٣] . وفي ١٥٦٦ وعدت البرلمان : « سوف أتزوج حالما أرى الوقت مناسبا . . . . وآمل أن يكون لي أطفال[٢٤] » . ولـكن في نفس العام ، عندما أنبأها سيسل أن ماري ستيوارت أنجبت طفلا ، كادت اليزابث تذرف الدمع وقالت : « ان ملكة الاسكتلنديين أم لابن جميل ، أما أنا فلست إلا أرضا مجدبة[٢٥] » . وهنا ولفترة وجيزة ، كشفت عن حزنها المقيم — لأنها لم تستطع أن تحقق أنوثتها .

وزادت التورطات السياسية فى عمق المأساة . وأعتقد كثير من رعاياها الكاثوليك أن عقمها ليس إلا عقابا وفاقا على خطايا والدها ، ووعد بأن مارى الكاثوليكية سوف ترث العرش . ولكن البرلمان وسائر إنجلترا البروتستانتية كانوا يوجسون خيفة من هذه التوقعات ، وألحوا عليها فى أن تجد لها زوجا . ولقد حاولت ، ولكنها بدأت بأن شغفت حبا برجل متزوج ، هو لورد روبرت ددلى وهو رجل مديد القامة وسيم كيس مصقول شجاع ، وهو ابن دوق نورثمبرلند الذى كان قد لقى حتفه على حبل المشنقة لمحاولته ابعاد مارى تيودور عن وراثة العرش لتجلس عليه جين جراى . وتزوج ددلى من آمى روبسار Amy Robsart ولكنه لم يكن يقيم معها . وراجت الإشاعات بأنه عابث خليع لاخلاق له . وكان بمعية اليزابث فى وندسور ، عند ما سقطت زوجته من على درج السلم فى Cumnor Hall فدق عنقها وقضت نحبها (١٥٦٠) . وحامت الشبهات عند السفير الأسبانى وآخرين غيره بأن ددلى والملكة دبرا هذه الميتة الشنيعة . وكانت الريب ظالمة[٢٦] . ولكنها قضت ، لبعض الوقت ، على آمال ددلى فى أن يصبح زوجا لاليزابث . ولما ذهب بها الظن إلى أنها ستقضى نحبها (١٥٦٢) توسلت أن يعين ددلى وصيا على المملكة ، واعترفت بأنها أحبته منذ زمن طويل ، ولكنها أشهدت الله : على أنهما لم يرتكبا عملا غير لائق[٢٧] . وبعد عامين قدمته إلى ملكة اسكتلنده ، وخلعت عليه لقب « ارل لستر » ، لتزيد من مفاتنه ، ولكن مارى كرهت أن يشاركها عشيق غريمتها فراشها فواسته اليزابث وهدأت من روعه بما أغدقت عليه من احتكارات ، وكان موضع عطفها ورعايتها حتى مات (١٥٨٨) .

واحتمل سيسل هذه الإشاعة فى اشمئزاز وقور ، وفكر لبعض الوقت فى الاستقالة من منصبه احتجاجا ، فقد اتجه تفكيره الخاص إلى زواج يعمل على تقوية إنجلترا ، بعقد أواصر الصداقة مع دولة قوية . ولمدة ربع قرن من الزمان حوم حول الملكة نفر عديد من الأجانب يطلبون يدها . وكتب أحد السفراء : « هنالك اثنى عشر سفيرا ينافس بعضهم بعضا فى طلب يد جلالتها ، ولسوف يأتى بعد ذلك دوق هولشتين ليطلب يدها لملك الدنمرك . وهنا دوق فنلنده الذى جاء رسولا عن أخيه ملك السويد ،

وهو يهدد بقتل مبعوث الإمبراطور ، ولشد ما تخشى الملكة أن يقطع كل منهم رقبة الآخر فى حضرتها[٢٨] . ولا بد أنها أحست بشىء من الرضا حين قدم لها فيليب الثانى ، وهو أعظم عاهل فى العالم المسيحى يده المحنكة (١٥٥٩) ، ولكنها رفضت هذه الحيلة لتحويل إنجلترا إلى ولاية كاثوليكية تابعة لأسبانيا . وتمهلت طويلا فى الرد على اقتراح من شارل التاسع ملك فرنسا ،

كانت آنذاك تسلك سلوكا محمودا . وشكا السفير الفرنسى « من أن الدنيا خلقت فى ستة أيام ، وأن الملكة قضت حتى الآن ثمانين يوما ، ولا تزال مترددة » . فأجابت هى جوابا بارعا ماكرا بأن الدنيا « خلقها من هو أعظم منها[٢٩] » . وبعد عامين أوعزت لوكلاء إنجلترا أن يقترحوا زواجها من شارل أرشيدوق النمسا ، ولكنها بتحريض من ليستر تخلت عن هذه الفكرة . ولما كان الموقف الدولى يقتضى مسايرة فرنسا (١٥٧٠) ، فقد تشجع دوق ألنسون (ابن هنرى الثانى من كترين دى مديتشى) على التفكير فى أن يصبح زوجا فى السادسة والعشرين للملكة فى السابعة والثلاثين ، ولكن المفاوضات توقفت بسبب ثلاث عقبات — مذهبه الكاثوليكى ، وشبابه غير الناضج وندوب فى أنفه . وانقضت خمس سنوات ذللت فيها إحدى هذه العقبات ، واتجه التفكير مرة أخرى إلى ألنسون الذى أصبح الآن دوق أنجو ، ودعى إلى لندن ، ولمدة خمس سنوات أخرى غررت اليزابث به وبفرنسا ؛ وعقب فترة أخيرة (١٥٨١) تلاشت هذه المغازلة المرحة ، وانسحب دوق أنجو من الميدان ، وهو يلوح برباط لجورب الملكة تذكارا لهذه الواقعة ، وكانت الملكة فى نفس الوقت قد منعته من الزواج من ابنة ملك أسبانيا ، ومن ثم حالت دون تحالف عدوتيها فرنسا وأسبانيا . وقل أن غنمت امرأة مثل هذا الغنم من عقمها ، أو نعمت بمثل هذا اللهو والسرور من عذريتها .

٤ — اليزابث وحاشيتها

وجدت الملكة فى تودد هذه الزمرة من رجال عصرها النشيطين المكتملين رجولة وقوة إليها وملاطفتهم إياها — نقول وجدت ارتياحا ورضا أكثر مما هو فى

مضاجعة شاب مريض بالزهرى مثلا . وان المغازلة لتبقى ما لم يقض عليها الزواج ، ومن ثم تلذذت اليزابث بالزلفى والملق والتودد طوال الوقت واستطابت ذلك كله فى نهم لا يشبع . وجر اللوردات الخراب على أنفسهم فى سبيل الاحتفاء بها وتسليتها ، وعبروا بالمواكب والمهرجانات ومظاهر الأبهة والمسرحيات التنكرية عن عظمة الملكة ومجدها ، وأغرقها الشعراء بقصائدهم واهداءاتهم ، وداعب الموسيقيون أوتار آلاتهم شدوا بمديحها . ولقد تغنت قصيدة غزلية بعينيها على أنهما كرتان ملكيتان تأسران الناظر إليهما وتقهرانه ، وصدرها على أنه « أكمة جميلة تكمن فيها الفضيلة والبراعة القدسية[٣٠]» وقال لها رالى إنها تحكى فى مشيتها فينوس ، وفى صيدها ديانا ، وفى ركوبها الخيل الأسكندر ، وفى غنائها ملاكا ، وفى لعبها أورفيوس[٣١] . وكادت اليزابث تصدق هذا . وكانت مزهوة ، وكأن كل مزايا إنجلترا وفضائلها لم تكن إلا الثمار المباركة لأمومتها ، وهذا حق إلى درجة ما . ولما كانت ترتاب فى مفاتن جسمها ، فقد لجأت إلى ارتداء أثمن الثياب التى تغيرها كل يوم تقريبا ، حتى لقد تركت عند موتها ألفى ثوب . وقد تحلت بالجوهرات فى شعرها وذراعيها ومعصميها وأذنيها وأثوابها ، وإذا ما استنكر أحد الأساقفة حبها للمجوهرات ، بعثت إليه بمن ينذره بألا يطرق هذا الموضوع ثانية ، وإلا لقى ربه قبل الأوان[٣٢] .

وقد يكون سلوكها وعاداتها مفزعة . فقد صفعت رجال حاشيتها أو لاطفتهم وداعبتهم ، بل حتى المبعوثين الأجانب . ولقد وخزت رقبة ددلى من الخلف حين انحنى ليتسلم براءة لقب ارل[*] ، وبصقت أنى شاءت — وذات مرة على معطف ثمين . وكانت عادة أليفة يسهل الوصول إليها . ولكنها تحدثت بلسان ذرب ، وربما غدت سليطة لا يمكن الرد عليها ، وأقسمت كما يقسم القرصان (وكانت كذلك بالوكالة) وكان من أخف الأيمان التى تقسم بها « بحق وفاة الرب » . وكان فى مقدورها أن تكون قاسية ، كما هو الحال فى لعبة القط والفأر ، التى لعبتها مع مارى ستيوارت ،

(*) يروى أوبرى قصة سمجة : « ان ادوارد دى فر de Vere ارل أكسفورد ، وهو ينحنى اجلالا للملكة اليزابث خرجت منه ريح فخجل وشعر بالعار . وغادر البلاد لمدة سبع سنين دأبا ، فلما عاد رحبت الملكة بعودته إلى الوطن وقالت سيدى اللورد ، لقد نسيت الريح[٣٣] .

أو فى ترك ليدى كاترين جراى تذبل وتهن حتى الموت فى « برج لندن » . ولكنها كانت أساسا عطوفة رحيمة ، وخلطت بين رقتها وضرباتها . وكثيرا ما ثارت وفقدت صوابها ، ولكن سرعان ما استعادت ضبط النفس والسيطرة على الأعصاب . وكانت تنفجر ضاحكة إذا تسلت ، وكثيرا ما حدث ذلك . وأولعت بالرقص فرقصت على قدم واحدة حتى بلغت التاسعة والستين وكانت تثب وتغامر وتصطاد . كما أحبت المسرحيات والحفلات التنكرية ، واحتفظت بروح معنوية عالية حتى حين هبطت مواردها .

وكانت غاية فى الشجاعة والذكاء عند مواجهة الخطر . وكانت معتدلة فى طعامها وشرابها ، شرهة فى المال والمجوهرات ، وكانت تجد لذة كبيرة فى مصادرة ممتلكات العصاة الأثرياء ، ودبرت أن تحصل على مجوهرات التاج فى اسكتلنده وبرجندى والبرتغال وتقتنيها ، بالإضافة إلى ذخيرة من الجواهر والأحجار الكريمة أهداها إليها اللوردات المرتقبون نفعا أو المرشحون للمناصب ، ولم تشتهر بعرفان الجميل ولا بالسخاء ، وحاولت فى بعض الأحيان أن تدفع أجور العاملين لديها كلمات حلوة بدلا من النقود ، وقد كان ثمة شىء من حب الوطن فى تقتيرها وكبريائها على السواء . وعند ما تولت العرش ، لم تكد توجد أمة بلغت من الفقر حدا تنظر معه إلى إنجلترا بعين الاجلال والتقدير ، أما عند مماتها فقد كانت لإنجلترا السيادة على البحار . كما كانت تتحدى سيطرة إيطاليا وفرنسا فى مجال الفكر والعقل .

وأى نوع من العقل كان لهذه المرأة ؟ لقد حصلت من التعليم على القدر الذى يمكن أن تحصل عليه ملكة دون عناء ، وقد استمرت أثناء حكمها فى دراسة اللغات . وتبادلت الرسائل بالفرنسية مع مارى ستيوارت ، وتحدثت بالإيطالية مع أحد سفراء البندقية ، ووبخت مبعوثا بولنديا بلغة لاتينية قوية . وترجمت سالوست Sallust وبوثيوس Boethius ، وألمت بقدر من اليونانية يكفى لقراءة سوفوكليس ولترجمة إحدى مسرحيات يوريبيدس . وزعمت أنها قرأت من الكتب عدد ما قرأ أى أمير فى العالم المسيحى ، والأرجح أن يكون الأمر كذلك . ودرست التاريخ كل يوم تقريبا ، ونظمت الشعر وألفت الموسيقى ، وعزفت ، مع شىء من التسامح ، على العود والعذراوية (آلة موسيقية تشبه البيان الصغير بدون قوائم) ، ولكن كان

عندها من الادراك ما تسخر به من منجزاتها ، وتميز به بين التعليم والذكاء . وإذا ما أطرى سفير معرفتها باللغات ردت عليه قائلة : « ليس غريبا أن تعلم امرأة أن تتكلم ، بل الأصعب منه كثيرا أن تعلمها كيف تكف عن الكلام[٣٤] . » وكان ذهنها حادا قدر حدة كلامها وكان ذكاؤها يجارى الزمن ولا يتخلف عنه . وقال فرنسيس بيكون : « إنه كان من عادتها أن تقول عن توجيهاتها لكبار موظفيها إنها مثل الثياب ، تكون محكمة محبوكة لأول مرة يلبسها الإنسان ، ولكنها تصبح يوما بعد يوم فضفاضة[٣٥] » وكانت رسائلها وخطبها بلغة إنجليزية من إنشائها وحدها : معقـــدة ملتوية متكلفة ، ولكنها زاخرة بالصيغ الغريبة ، ساحرة فى فصاحتها وأسلوبها .

وتحلت اليزابث بالذكاء أكثر منها بسداد الرأى . قال عنها ولسنهام : « انها غير صالحة لمعالجة أى موضوع له وزنه[٣٦] » . ولكنه ربما تحدث فى مرارة التفانى الذى لم يلق جزاءه . لقد كمنت براعتها فى الرقة الأنثوية ودقة الادراك الحسى ، لا فى المنطق المرهف . وفى بعض الأحيان كشفت نتيجة هذا كله عن حكمة أكبر فى تصرفاتها الماكرة منها فى تعليلها لها ، انها روحها التى يتعذر تحديدها أو تعريفها هى التى يعتد بها ، وهى التى حيرت أوربا وسحرت إنجلترا ، وأمدت بلادها بالقوة والقـــدرة على الازدهار والنمو . وأعادت اليزابث بناء الاصلاح الدينى من جديد ، ولكنها مثلت عصر النهضة — التلهف على أن يحيا الإنسان هذه الحياة الدنيا إلى أبعد مدى ، ينعم بها ويزينها كل يوم . ولم تكن نموذجا للفضيلة ، ولكن كانت مثالا للحيوية والنشاط . ان سيرجون هايوارد الذى كانت قد زجت به فى السجن لتزويده اسكس الأصغر ببعض الأفكار الثورية ، غفر لها ذلك فكتب عنها ، بعد تسع سنوات من مكافأتها إياه (بالادراج عنه) — كتب يقول : —

إذا كان ثمة إنسان أوتى من الموهبة أو الأسلوب ما يستطيع أن يكسب به قلوب الناس ، فهو هذه الملكة . وإذا أظهرت شيئا مثل هذا يوما ، فقد ظهر فى أنها تجمع بين اللطف والجلال كما كانت تفعل . وفى تواضعها الموسوم بالفخامة حتى مع أقل الناس شأنا . وكانت كل قدراتها فى حركة دائبة ، وبدت وكأن كل حركة بمثابة

عمل موجه أحسن توجيه . فقد تكون عيناها عالقتين بشخص ما ، على حين أرهفت أذنيها لآخر وأصدرت أمرا لشخص ثالث ، ووجهت حديثها لرابع ، وكأنما روحها تحوم فى كل مكان ، ومع ذلك تبدو منطوية على نفسها وكأنها غير موجودة فى أى مكان آخر . وكانت ترنى لبعض الناس ، وتطرى آخرين ، وتقدم الشكر لغيرهم ، وتداعب فريقا آخر فى سرور وسخرية ، دون أن تزدرى أحداً ، أو تغفل واجبا ، وكانت توزع ابتساماتها ونظراتها ولفتاتها بقدر من الدهاء والفطنة يضاعف معه الناس من مظاهر اغتباطهم وابتهاجهم(٢٧) .

وتطبعت حاشيتها بطباعها — يحبون ما تحب ، ويقوون من ميلها إلى الموسيقى والروايات والعبارات المشرقة ، ويرقون به إلى نشوة القصيد والغزليات والتمثيليات وحفلات الرقص ، والنثر الذى لم تشهد إنجلترا مثيلا له فيما بعد . وفى قصورها — هويتهول ، وند سور ، جرينتش ، رتشموند ، هامبتون كورت ، تنقل اللوردات والسيدات والفرسان والسفراء والمغنون والخدم والحشم بين ألوان عدة من المراسم الملكية والمرح الأنيق . وكان ثمة دائرة خاصة تعد ألوان التسلية إبتداء بالاحاجى والنرد إلى حلبات الرقص الصاخبة وروايات شكسبير ، وأقيمت الاحتفالات بانتظام فى عيد الصعود وعيد الميلاد وعيد رأس السنة والليلة الثانية عشرة ، وكاندلماس (عيد العذراء) ، وشروفتيد (عيد قبل الصوم الكبير) ، وزخرت بألوان الملاهى والتسلية ، والمباريات الرياضية ، والمقارعة بالسيوف ، والتمثيل التنكرى والمسرحيات وحفلات الرقص . وكانت الحفلات التنكرية شيئاً من الأشياء الكثيرة التى استوردت من إيطاليا إلى إنجلترا فى عهد اليزابث ، وكانت خليطا براقا من المهرجانات والشعر ، والموسيقى والقصص الرمزى والتهريج والباليه ، ضمها بعضها إلى بعض الروائيون والفنانون ، وكانت تقدم فى البلاط أو فى ضياع الأثرياء ، بأجهزة ووسائل وحركات معقدة ، تؤديها سيدات ورجال متنكرون يرتدون أغلى الثياب فى تصميم بسيط ، وكانت اليزابث مولعة بالتمثيليات ، وبخاصة الهزلية منها . ومن يدرى كم من روايات شكسبير كان يصل إلى المسرح أو إلى الأعقاب والأجيال القادمة ، لو لم تقف الملكة وليستر إلى جانب

المسرح وتدعمانه ضد كل الهجمات التى شنها عليه البيوريتانز .

ولم تقنع اليزابث بقصورها الخمسة ، فانطلقت كل صيف تقريبا فى جولات تجوب البلاد ، لترى الناس ويروها وتراقب اللوردات التابعين وتستمتع بما يبذلون لها من اجلال وتكريم كارهين . وكان يتبعها بعض رجال البلاط ، فرحين بالتغيير ، متذمرين لعدم توفر وسائل الراحة والبيرة . وارتدى أهالى المدن ثيابا من القطيفة والحرير ليرحبوا بها بالخطب والهدايا ، وكم أفلس النبلاء فى سبيل الاحتفاء بها ، وابتهل اللوردات المعسرون إلى الله ألا تعرج عليهم . وامتطت الملكة فى جولاتها صهوة جواد أو تنقلت فى محفة مكشوفة ، تحيى فى فرح وسرور الجموع التى احتشدت على الطريق . وابتهج الناس لرؤية مليكتهم التى لا تقهر ، وافتتنوا بتحياتها الكريمة وسعادتها التى انتقلت إليهم فغمرتهم ودفعتهم إلى تجديد الولاء لها .

وانتهجت الحاشية نهجها فى مرحها وحريتها فى السلوك ، وترفها فى الثياب . وولعها بالمراسم ، ومثلها الأعلى فى الكياسة ، فقد أحبت أن تسمع خشخشة الجوهرات ونافس الرجال المحيطون بها النساء فى تشكيل ما يحصلون عليه من منتجات الشرق على طرز إيطالية . وكان السرور واللهو يشكلان البرنامج المعتاد ولكن على المرء أن يكون على أهبة الاستعداد فى أية لحظة لأية مغامرات عسكرية نيا وراء البحار . وينبغى على من يقدم على اغواء الفتيات أن يكون على أشد الحذر ، لأن اليزابث كانت تحس بأنها مسئولة أمام آباء وصيفات الشرف اللائى يعملن لديها عن شرفهن . ومن ثم أبعدت ارل بمبروك عن البلاط لأن مارى فتون حملت منه سفاحا(٢٨) . وفى بلاطها — مثل أى بلاط آخر ، حيكت الدسائس مثل نسيج العنكبوت ، وتنافس النساء على الرجال ، وتنافس الرجال على النساء ، دون وازع من ضمير أو خلق ، وكل ذلك ارضاء للملكة وكسبا لعطفها ، وللمنح التى تغدقها نتيجة لذلك . ان هؤلاء السادة الذين رفعوا ، شعرا ، من شأن نقاوة الحب والأخلاق ، تلهفوا نثرا على المناصب الكبيرة التى تدر ربحا بلا عمل ، وقدموا الرشاوى أو أخذوها ، وعضوا بالنواجذ على الاحتكارات ، وشاركوا فى أسلاب القرصنة ، ونظرت الملكة الشرهة بعين التسامح إلى الرشوة التى تزيد من الأجر

الضئيل الذى يحصل عليه خدمها . وبفضل هباتها أو باذن منها أصبح ليستر أغنى لوردات إنجلترا ، واستولى سير فيليب سدنى على أراض شاسعة فى أمريكا ، وأخذ رالى أربعين ألف فدان فى إيرلنده ، ونعم ارل اسكس الثانى باحتكار استيراد النبيذ الحلو ، وارتفع سيركرستوفر هاتون من مجرد « كلب مدلل » لدى الملكة إلى أكبر منصب فى الدولة وحامل خاتم الملكة . ولم تعد اليزابث تحس بالعقول الجبارة قدر احساسها بالسيقان الرشيقة — لأن عمد المجتمع هؤلاء لم يكونوا قد غطوا سيقانهم بالبنطلونات بعد ، وعلى الرغم من كل أخطاء الملكة ، فانها اتخذت خطوة وشقت الطريق بغية ابراز الطاقات المختزنة فى رجال إنجلترا الأفذاذ ، واستثارت هممهم وشجاعتهم للقيام بالمشروعات الضخمة ، وعقولهم إلى التفكير الجرئ ، وسلوكهم نحو الكياسة والفطنة ، وإلى نظم الشعر والدراما والفن . وحول هذه الحاشية ، وهذه المرأة تكاد تكون قد تجمعت كل عبقرية إنجلترا فى أزهى عصورها .

٥ — اليزابث والدين

احتدمت معركة الاصلاح الدينى المريرة داخل البلاط الملكى والأمة ، وأثارت مشكلة اتجه تفكير كثير من الناس إلى أنها ستربك المملكة وتدمرها ، فقد كان ثلثا إنجلترا : وربما ثلاثة أرباعها من الكاثوليك[٣٩] . وكان معظم القضاة والحكام وكل رجال الدين من الكاثوليك . وكان البروتستانت محصورين فى الثغور الجنوبية والمدن الصناعية ، وكانت لهم الغلبة فى لندن حيث تضخم عددهم بسبب اللاجئين إليها من وجه الظلم فى القارة . أما فى المقاطعات الشمالية والغربية — وكلها زراعية تقريبا — فكان عددهم لا يكاد يذكر[٤٠] . وكانت روح البروتستانت على أية حال ، أشد حماسا وغيرة من الكاثوليك بشكل لا يقاس . وفى ١٥٥٩ نشر جون فوكس كتابا يصف فيه ، فى غضب شديد ، معاناة البروتستانت فى العهد السابق ، وترجمت مجلدات الكتاب فى ١٥٦٣ تحت اسم Aclesand Monuments (الأعمال والآثار) ، وكانت معروفة بين الناس باسم « كتاب الشهداء » وكان لها أثر مثير فى نفوس البروتستانت الإنجليز لأكثر من قرن من الزمان . وكان للبروتستانتية

فى القرن السادس عشر الطاقة المحمومة لفكرة جديدة تناضل من أجل المستقبل ، على حين كان للكاثوليكية قوة المعتقدات والأساليب التقليدية المتأصلة فى أعماق الماضى .

وفى الأقلية الآخذة فى الانتشار زاد الاضطراب الدينى من نزعة الشك ، بل حتى الالحاد ، هنا وهناك . وباتت العقول العملية الواقعية شكاكة فى كل النظريات اللاهوتية ، بسبب الصراع بين المذاهب ، والنقد المتبادل بينها ، وتعصبها الدامى والتناقض بين الإيمان الذى يجهر به المسيحيون وبين سلوكهم . وإليك ما قال روجر أسكام فى « المعلم » ١٥٦٣ :

ان الإيطالى الذى ابتدع لأول مرة المثل الإيطالى ضد رجالنا الإنجليز الذين تشبهوا بالإيطاليين ، لم يعد يقصد زهوهم وخيلاءهم فى حياتهم أكثر مما يقصد رأيهم القبيح فى الدين . وإنهم لأشد اعتدادا بعظات شيشرون منهم برسائل القديس بولص ، وبقصة من بوكاشيو منهم بقصص الكتاب المقدس ، وانهم ليعتبرون أسرار الديانة المسيحية من قبيل الأساطير الخرافية ، ويجعلون المسيح وانجيله فى خدمة السياسة المدنية ، ثم إن المذهبين كليهما (البروتستانتية والكاثوليكية) لا يأتيان خطأ إليهم . وفى الوقت المناسب يرفعون من شأنهما علانية ، وبين الجدران يسخرون منهما سرا .... وانى استطاعوا سبيلا ، ومع رفاقهم ، يضحكون أو يزدرون البروتستانتية والبابوية . ولا يلقون بالا إلى الكتب المقدسة ، وانهم ليهزأون بالبابا ، ويشكون مر الشكوى ، وبألفاظ جارحة ، لوثر ..... ان المعبود الذى يرتضون ليس إلا مسرتهم الشخصية ونفعهم الخاص . ومن ثم فانهم يعلنون فى وضوح أنهم يتبعون فى حياتهم مدرسة الأبيقوريين ، وأنهم من الناحية النظرية ملحدون[٤١] .

وشكا سيسل (١٥٦٩) من « أن الساخرين من الدين والأبيقوريين والملحدين موجودون فى كل مكان[٤٢] » . وفى ١٥٧١ صرح جون ستريب Strype « هناك كثيرون تخلوا عن الكنيسة تماما ، ولم يعودوا يحضرون لأداء واجباتهم الدينية[٤٣] » وذهب جون ليلى Lyty (١٥٧٩) إلى أنه « لم يكن بين الوثنيين الهمجيين مثل هذه

الفرق الدينية ، ولا مثل هذه المعتقدات الخاطئة بين الكفار ، مثل ما هو حادث الآن بين العلماء[٤٤] » . وألف علماء اللاهوت وغيرهم كتبا كثيرة ضد « الالحاد » وهو يعنى على أية حال الإيمان بالله ، وعدم الإيمان بألوهية المسيح . وفى ١٥٧٩ ، ١٥٨٣ ، ١٥٨٩ أحرق بعض الأفراد لانكارهم ألوهية المسيح[٤٥] : واشتهر عدد من الروائيين — جرين ، كد Kyd ومارلو — بأنهم ملحدون . إن الدراما فى عصر اليزابث — وهى فيما عدا ذلك تصور الحياة تصويرا شاملا — تتضمن أقل القليل عن صراع المعتقدات ، ولكنها تعرض الأساطير الوثنية أكبر عوض .

وفى رواية شكسبير Love's Labour's Lost هناك بيتان غامضان :

أى تناقض هذا ؟ السواد شارة الجحيم ،
ولون السجن و مدرسة الليل .

وفسر كثيرون[٤٦] العبارة الأخيرة على أنها تشير إلى الاجتماعات التى كان يعقدها والتر رالى ، والعالم الفلكى توماس هاريوت ، والعالم لورنس كيمس ، وربما الشاعران مارلو وتشابمان ، وغيرهم ، فى دار رالى الريفية فى شربورن ، لدراسة الفلك والجغرافيا والكيمياء والفلسفة واللاهوت . وقال أنتونى رود عالم الآثار عن هاريوت — ومن الواضح أنه الزعيم الفخرى لهذه الجماعة — « إنه كانت لديه أفكار غريبة عن الكتب المقدسة . وكان دائما يحط من قدر القصة القديمة عن الخلق (التكوين) . . . . . وألف لاهوتا نبذ فيه التوراة » . لقد آمن بالله ، ولكنه أنكر الوحى وألوهية المسيح[٤٧] » وكتب روبرت بارسونز — وهو من الجزويت — فى ١٥٠٢ عن « مدرسة والتر رالى للالحاد . . . . . حيث كانت السخرية من موسى وعيسى المخلص ، والتوراة والإنجيل على حد سواء ، ولقن التلاميذ أن يطرحوا الرب وراء ظهورهم[٤٨] » واتهم رالى بأنه استمع إلى بحث قرأه مارلو عن « الالحاد » . وفى مارس ١٥٩٤ أجتمعت لجنة حكومية فى Cerne Abbes فى دورست ، للتحقيق فى شائعات راجت عن مجموعة من الملحدين فى الأماكن المجاورة ، ومن بينها موطن رالى . ولم يؤد التحقيق إلى إجراء معروف لدينا اليوم . ولكن تهمة الالحاد وجهت إلى رالى أثناء محاكمته (١٦٠٣)[٤٩]. وفى

مقدمة كتابه « تاريخ العــالم » أشار إلى إيمانه بالرب ، على أنه نقطة يتناولها بالتفصيل فيما بعد .

وحامت الشبهات فى حرية الفكر حول اليزابث نفسها . ويقول جون ريتشارد جرين « لم توجد قط امرأة مثلها مجردة تجردا تاما من أية عاطفة نحو الدين(٥٠) » . ويقرر المؤرخ الإنجليزى فرود « أن اليزابث لم يكن لديها اقتناع عاطفى واضح . . وأنها ، وهى التى كان إيمانها بصــدق المذهب البروتستانتى والمذهب الكاثوليكى ضعيفا على حد سواء ، كانت تنظر باحتقار موســوم بالتسامح إلى كل الأفكار والنظريات اللاهوتية(٥١) » . لقد دعت الله بأغلظ الأيمان التى أزعجت وزراءها . أن يدمرها إذا هى نقضت عهدها بالزواج من ألنسون ، على حين أنها فيما بينها وبين نفسها سخرت من مزاعمه بطلب يدها(٥٢) . وصرحت الملكة لمبعوث أسبانى بأن الفرق بين المذاهب المسيحية المتناحرة لم يكن سوى « شىء تافه » ، ومن ثم استخلص أنها ملحدة(٥٣) .

وعلى الرغم من كل شىء ، فانها ، مثل كل الحكومات تقريبا قبل ١٧٨٩ ، اعتبرت كقضية مسلم بها ، أن شيئا من الدين وشيئا من مصدر القوة الخارقة وشيئا من الوازع الأخلاقى ، كل أولئك أمور لا يمكن الاستغناء عنها من أجل النظام الاجتماعى والاستقرار فى الدولة . ولفترة من الوقت ، حتى دعمت مركزها ، بدا أنها تتردد ، وتلاعبت على آمال زعماء الكاثوليك فى احتمال أن يكسبوها فى مذهبهم العام ، لقد أحبت الطقوس الكاثوليكية وعزوبة رجال الدين الكاثوليك ، ودراما القداس ، ولربما كان من المحتمل أن تعقد أواصر السلام مع الكنيسة ، لولا أن هذا كان يحمــل فى طياته الخضوع للبابا . وارتابت فى الكاثوليكية على أنها قوة أجنبية يمكن أن تؤدى بالإنجليز إلى وضع اخلاصهم للكنيسة فوق ولائهم للملكة . ولقد ترعرعت فى أحضان بروتستانتية والدها ، وهى تعنى الكاثوليكية بغــير البابوية ؛ وهذا ، أساسا ، هو ما عقدت العزم على إقراره من جديد فى إنجلترا . وراودها الأمل فى أن تهدئ الطقوس شبه الكاثوليكية فى كنيستها الإنجليزية من روع الكاثوليك فى الريف ، على حين يرضى نبذ البابوية البروتستانت فى المدن ، وتشكل

الرقابة الحكومية على التعليم الجيل وفى هذه التسوية التى دبرتها اليزابث ، فهدأ هذا الصراع الدينى الذى يمزق البلاد ، ويستتب السـلام . انها اتخذت من ترددها فى موضوع الدين ، مثل ترددها فى أمر الزواج ، وسيلة لخدمة أغراضها السياسية ، وأبقت على أعدائها الأقوياء مذهولين ممزقين حتى أصبح فى مقدورها أن تواجههم بحقيقة بارعة كاملة .

وحرضتها قوى كثيرة على استكمال الاصلاح الدينى . وكتب إليها المصلحون الدينيون فى أنحاء القارة شاكرين لها سلقا اعادة العبادة الجديدة . وأثرت فيها رسائلهم. وكان الذين استولوا على الأراضى التى كانت ملكا للكنيسة من قبل ، يرجون تسـوية بروتستانتية . وأغرى سيسل اليزابث بأن تجعل من نفسها زعيمة لأوربا البروتستانتية . وأبدى البروتستانت فى لندن مشاعرهم بتحطيم تمثال للقديس توماس والقائه فى عرض الطريق . وكان أول برلمان فى عهـدها — ٢٣ يناير — ٨ مايو ١٥٥٩) بروتستانتيا بأغلبية ساحقة ، وتمت الموافقة على الاعتمادات التى طلبتها دون تحفظ أو ابطاء . ومن أجل توفيرها فرضت ضريبة على كل الأفراد ، دينيين أو علمانيين . وصدر قانون التنسيق الجديد Act of Uniformity (١٨ أبريل ١٥٥٩) وبمقتضاه أصبح « كتاب كرامر للصلوات العامة » ، بعد مراجعته ، هو قانون الطقوس الانجليزية ، وحرم كل ما عداه من الطقوس الدينية ، وألغى القداس ، وطلب إلى كل الانجليز حضور صلوات يوم الأحد فى الكنيسة الأنجليكانية ، أو دفع غرامة قدرها شلن لمعونة الفقراء . وفى ٢٩ أبريل صدر « قانون السيادة » الجديد الذى نص على أن تكون اليزابث الحاكم الأعلى لانجلترا فى المسائل الروحية والزمنية على السواء . ووضع « قسم السيادة » يعترف بالسيادة الدينية للملكة ، وكان من المحتم أن يؤدى هذا القسم كل رجال الدين والمحامين والمعلمين ، والمتخرجين فى الجامعات والحكام والقضاة وكل موظفى الكنيسة والتاج ، وعهد إلى محكمة كنسية ذات سلطة عليا ، تختار الحكومة أعضاءها ، باجراء التعيينات الكبرى فى الكنسية واتخاذ القرارات الكنسية . وأى دفاع عن سلطة البابا على انجلترا كان عقابه السجن مدى الحياة لأول مخالفة والموت للثانية (١٥٦٣) . ولم تأت سنة ١٥٩٠ حتى كانت

كل الكنائس الانجليزية بروتستانتية .

وزعمت اليزابث أنها لم تضطهد حرية الرأى . فقالت ان لكل إنسان أن يتمتع بحرية الفكر وحرية العقيدة كما يشاء . شريطة أن يطيع القانون ؛ وان كل ما تتطلبه هو الانسجام الخارجى . حرصا على وحدة الأمة . وأكد لها سيسل : « أن هذه الدولة لن تستشعر الأمان والاطمئنان ، ما دام فيها تسامح نحو عقيدتين[٥٤] » — ولو أن هـذا لم يمنعها من طلب التسامح مع البروتستانت الفرنسيين فى فرنسا الكاثوليكية[٥٥] . ولم يكن لديها اعتراض على الرياء المسالم ، على ألا تكون حرية الرأى هى حرية الكلام . ومن ثم فان الوعاظ الذين لم يشاركوها وجهات نظرها فى أى موضوع هام كان مصيرهم أن تخرس ألسنتهم أو يطردوا[٥٦] . وحددت من جديد قوانين الهرطقة وطبقت . وحرم من حماية القانون طائفة الموحدين (الذين يقولون بالتوحيد لا التثليث) والقائلين باعادة تعميد البالغين[٥٧] . وأعدم أثناء حكم الملكة خمسة من المهرطقين ، وهذا رقم متواضع فى ذلك الزمان .

وحدد مجمع من رجال اللاهوت فى ١٥٦٣ المذهب الجديد . واتفق رأى الجميع على « القضاء والقدر » . فان الله بمحض مشيئته ، قبل خلق الدنيا . ودون اعتبار لمزايا الإنسان أو مثالبه . كان قد اصطفى أفرادا ليكونوا من الصفوة التى كتب لها الخلاص ، على حين ترك بقية البشر من الهالكين الملعونين . وتقبلوا فكرة لوثر عن الخــلاص بالإيمان بنعمة الله ، ودم المسيح المخلص ، على أنهم فسروا « القربان المقدس » بالمعنى الذى ذهب إليه كلفن ، أى أنه اتصال روحى أكثر منه مادى بالمسيح . وبمقتضى قرار من البرلمان (١٥٦٦) انتظمت المواد التسع ، والثلاثون العقيدة الجديدة . وأصبحت اجبارية على كل رجال الدين فى إنجلترا ، ولا تزال تعبر عن المذهب الانجليكانى الرسمى .

وكذلك كانت الطقوس الجديدة حلا وسطا . فالغى القداس ، ولكن مما أزعج البيوريتانز أن صدرت التعليمات إلى رجال الدين بارتداء الملابس الكهنوتية البيضاء عند تلاوة الصلوات وعند تقديم القربان المقدس . وكان يجب تناول القربان ركوعا — فى شكلى الخبز والنبيذ . واستبدل بالتوسل بالقديسين الاحتفال سنويا بذكرى أبطال

البروتستانتية ، واستبقى تثبيت العماد ورسامة الكهنة على أنهما طقوس مقدسة ، ولكن لا يعتبران من الأسرار المقدسة التي عينها السيد المسيح ، وشجع الاعتراف للكاهن في حالة دنو الأجل فقط . واحتفظ كثير من الصلوات بصيغته الكاثوليكية الرومانية ، ولكنها اكتست بالرداء الانجليزي ، وأصبحت جزءا بارزا عظيما من آداب الأمة . ولمدة أربعمائة سنة ، نفخت هذه الصلوات والتراتيل التي تتلوها الفرق أو الكاهن في الكاتدرائيات الفسيحة الفخمة ، أو في كنيسة الأبرشية البسيطة — نقول نفخت في روح الاسرات الانجليزية وحياتها ، وزودتها بالسلوى والتهذيب الخلقي والهدوء العقلي .

٦ — اليزابث والكاثوليك

والآن جاء دور الكاثوليك ليعانوا من الاضطهاد . فقد كان محرما عليهم — ولو انهم كانوا لا يزالون يشكلون الأغلبية — أن يقيموا الصلوات الكاثوليكية ، أو يكون لهم أدب كاثوليكي . وحطمت الصور المقدسة في الكنائس بأمر الحكومة ، كما أزيلت المذابح . وأرسل ستة من طلبة اكسفورد إلى « البرج » لمقاومتهم لإزالة صليب يمثل صلب المسيح من كنيسة كليتهم[٥٨] ، وخضع معظم الكاثوليك للتعليمات الجديدة في حزن وأسى ، ولكن عددا كبيرا منهم آثر دفع الغرامة على حضور الطقوس الانجليكانية . وجمع المجلس الملكي نحو خمسين ألفا من هؤلاء « العصاة المتمردين » في إنجلترا (١٥٨٠)[٥٩] . وشكا الأساقفة الانجليكانيون إلى الحكومة من أن القداس كان يقام في بيوت خاصة ، وأن الكاثوليكية بدأت تكون عبادة عامة ، وأنه كان من الخطر في بعض الجهات المتحمسة أن يكون المرء بروتستانتيا[٦٠] . ووبخت اليزابث رئيس الأساقفة باركر على تراخيه (١٥٦٥) ، ومن ثم طبقت القوانين بشكل أشد صرامة . وأودع السجن الكاثوليك الذين حضروا القداس في كنيسة سفير أسبانيا ، وفتشت البيوت في لندن — وأمر الأجانب الذين وجدوا فيها بالادلاء ببيان عن ديانتهم ، وطلب إلى الحكام أن يعاقبوا كل من يوجد في حوزته كتب المذهب الروماني الكاثوليكي (١٥٦٧)[٦١] .

ويجدر بنا ألا نحكم على هذا التشريع على أساس التسامح الدينى النسبى الذى أكسبنا اياه الفلاسفة والثورات فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فان المعتقدات آنذاك كانت تحارب بعضها بعضا ، وكانت متشابكة بالسياسة ؛ وفى هـذا المجال كان التسامح محدودا . فقد اتفقت كل الأحزاب والحكومات فى القرن السادس عشر على أن الانشقاق الدينى كان شكلا من التمرد السياسى . وأصبح الصراع الدينى — عندما أصدر البابا بيوس الخامس — بعد احساسه بأنه تأخر تأخيرا طويلا مملا — مرسوما (١٥٧٠) ، لم يحرم اليزابث من الكنيسة فحسب ، بل أحل رعاياها من الولاء لها كذلك ، وحرم عليهم الامتثال لتنبيهاتها وأوامرها وقوانينها » . ومتع انتشار المرسوم فى أسبانيا وفرنسا اللتين كانتا تخطيان ود إنجلترا آنذاك ، ولكن نسخة منه وضعت بطريقة سرية على باب مقر الأسقف البروتستانتى فى لندن وسرعان ماكشف المحرم وأعدم ، وعندما ووجه وزراء الملكة بهذا الإعلان للحرب ، طلبوا إلى البرلمان سن قوانين أشد صرامة ضد الكاثوليك ، وصدرت تشريعات تنص على أنه يعتبر من الجرائم التى يعاقب مرتكبوها بالاعدام : قذف الملكة بأنها هرطيقة أو منشقة أو مغتصبة . أو طاغية : أو ادخال مرسوم بابوى إلى إنجلترا ، أو تحويل بروتستانتى إلى الكنيسة الرومانية[٦٢]. وفوضت المحكمة العليا فى اختبار آراء أى فرد مشتبه فيه ، وأن تعاقبه على أية مخالفة لأى قانون ، لم يعاقب عليهـا من قبل ، بما فى ذلك الفسق أو الزنى[٦٣] .

ولم يجد ملوك أوربا الكاثوليك لديهم من الجرأة ما يحتجون به على هـذه الاجراءات الظالمة التى شابهت إجراءاتهم إلى حد كبير ، واستمر معظم كاثوليك إنجلترا على الخضوع فى سلام ، وأملت حكومة اليزابث فى أن تؤدى العادة إلى القبول والرضا ، ثم الايمان فى الوقت المناسب ؛ ولكن حال دون هذا أن وليم ألن Allen المهاجر الانجليزى أسس فى دوى Douai (مدينة فى شمال فرنسا) ثم فى الأراضى الوطيئة الأسبانية ، كلية ومعهدا لاهوتيا لتدريب المبعوثين الانجليز الكاثوليك لارسالهم إلى إنجلترا . وأفصح عن غرضه فى حماسة قائلا :

إن دراستنا فى المقام الأول . . . تقوم على أن نثير فى عقول الكاثوليك الحماسة

والازدراء المبنى على الحق بالمراطقة . وإنا لنفعل هذا بأن نضع أمام أعين الطلاب الجلال الفريد الذى تتميز به طقوس الكنيسة الكاثوليكية فى المكان الذى نعيش فيه . . . وفى نفس الوقت نعيد إلى الذاكرة النقيض الحزن الذى يحدث فى وطننا ، ألا وهو الدمار الشامل الذى حل بكل الأشياء المقدسة هناك . . . وأصدقائنا وأقربائنا ، وأعزائنا ، إلى جانب الأرواح التى لا تحصى ، ممن هلكوا فى الانشقاق والكفر ، وفى الأبراج المحصنة والسجون المكتظة عن آخرها ، لا باللصوص والأشرار ، بل بكهنة المسيح وخدامه ، بل كذلك بآبائنا وأنسبائنا وعشيرتنا . ومن ثم فليس هناك شيء يجدر بنا ألا نكابده، أكثر من أن نتعهد بعلاج ما تعانيه أمتنا من علل(٦٤) .

وعملت الكلية فى دوى حتى ١٥٧٨ ، حين استولى الكلفنيون على المدينة ، ثم فى ريمس ، ثم فى دوى ثانية (١٥٩٣) . وأخرج إنجيل دوى — وهو ترجمة إنجليزية عن الأصل اللاتينى الذى وضعه جيروم — فى ريمس ودوى (١٥٨٢ — ١٦١٠) وكان معدا للنشر قبل طبعة الملك جيمس بسنة واحدة . وفيما بين عامى ١٥٧٤ و ١٥٨٥ رسمت الكلية ٢٧٥ كاهنا من المتخرجين فيها ، وأرسلت ٢٦٨ منهم للعمل فى إنجلترا . واستدعى ألن إلى رومه وعين كاردينالا . ولكن العمل فى الكلية استمر ، وأرسلت ١٧٠ كاهنا آخر إلى إنجلترا قبل وفاة اليزابث (١٦٠٣) . ومن مجموع هؤلاء المبعوثين (٤٣٨) عوقب ٩٨ بالاعدام .

وانتقلت رياسة هذه الارساليات إلى رجل من الجزويت . هو روبرت بارسونز Parsons ، وهو رجل يتقد حماسة وجرأة وشجاعة ، قوى الحجة شديد المراس فى المناظرة والجدل ، بارع فى النثر الانجليزى . وأعلن بصراحة أن مرسوم خلع اليزابث يبرر قتلها . وصعق كثير من الكاثوليك الانجليز لدى سماع هذا التصريح ، ولكن تولوميو جالى ، أحد مستشارى البابا جريجورى الثالث عشر السياسيين أبدى موافقته على هذه الفكرة(٦٥) (*). وحرض بارسونز الدول الكاثوليكية على غزو

(*) يضيف مؤرخ كاثوليكى الى ذلك قوله : « إذا كان مستشار البابا أقر قتل اليزابث فان هذا يتفق مع القانون الذى كان نافذا آنذاك . كما أن جريجورى أيضا - ولا بد أن مستشاره كان قد عرض عليه الأمر قبل ارسال كتابه - وافق على هذه الفكرة (٦٦)

إنجلترا . ولكن السفير الأسبانى فى إنجلترا استنكر هـــذه الخطة على أنها « حماقة إجرامية » ، وحرم افرار مركوريان Everard Mercurian رئيس طائفة الجزويت — على بارسونز التدخل فى السياسة(٦٧) . ولم يرتدع ، وعقد العزم على أن يغزو إنجلترا شخصيا . وتنكر فى زى ضابط إنجليزى عائد من الخدمة فى الأراضى الوطيئة . وهيأت له عصاه العسكرية وسترته الموشاة بالخيوط الذهبية وقبعته ذات الريش ، الوصول إلى موظفى الحدود (١٥٨٠) ، بل انه كذلك مهد الطريق لرجل آخر من الجزويت ، ادموند كامبيون ، ليتبعه فى زى تاجر مجوهرات ، وأقاما سرا فى قلب لندن .

وزار الرجلان الكاثوليك المسجونين ، ووجدا أنهم يعاملون معاملة حســنة . وقد جندا معاونين علمانيين وروحانيين ، وشرعا فى العمـــل ، يحثـــان ويشجعان الكاثوليك على أن يبقوا مخلصين للكنيسة ، ويردان البروتستانت الحديثين إلى مذهبهم الأول . ولكن القساوسة المدنيين المختفين فى إنجلترا ، الذين روعتهم جرأة الرجلين ، أنذروهما بأنهما لا بد أن يكشف أمرهما ويقبض عليهما سريعا ، وان اكتشافهما سوف يسىء أكثر إلى الكاثوليك ، وتوسلوا إليهما أن يعودا إلى القارة . ولكن بارسونز وكامبيون تمسكا بموقفهما . وانتقلا من بلد إلى بلد ، يعقدان الاجتماعات ســـرا ويسمعان الاعترافات ، ويقيمان القداس ، ويمنحان البركات للمصـــلين الهامسين الذين نظرا إليهما على أنهما رسولان من عند الله . وقيل إنهما فى بحر سنة من قدومهما حولا عشرين ألف مرتد(٦٨)، وانشأا مطبعة ونشرا الدعاية ، ولقد وجدت فى شوارع لندن نشرات جاء فيها أنه ما دامت اليزابث قد حرمت من الكنيسة ، فانها لم تعد الملكة الشرعية لإنجلترا(٦٩) . وأرسل رجل جزويتى ثالث إلى ادنبره ليحرض الاسكتلنديين الكاثوليك على غزو إنجلترا من الشمال . ولبى ارل وستمورلاند نداء من الفاتيكان ، وأحضر معه من رومه إلى الفلاندرز مجموعة من السبائك الذهبية لتمويل الغزو من الأراضى الوطيئة . وفى صيف ١٥٨١ اعتقد كثير من الكاثوليك أن قوات دوق ألفا الأسبانية سوف تعبر البحر إلى إنجلترا(٧٠) .

وتلقت الحكومة الإنجليزية تحذيرات من جواسيسها ، فضاعفت جهودها للقبض

على الجزويت . أما بارسونز فقد شق طريقه عبر القنال الإنجليزى ، ولكن قبض على كامبيون فى يولية ١٥٨١ . ونقل إلى « برج لندن » عبر القرى المتعاطفة ولندن المعادية . وارسلت اليزابث فى طلبه وحاولت انقاذه . وسألته : هل يعتبرها عاهله الشرعى ؟ فرد بالإيجاب . وكان سؤالها الثانى هل يستطيع البابا قانونا أن يحرمها من الكنيسة ؟ فأجاب بأنه لا يستطيع أن يبت فى مسألة اختلف عليها أولو العلم . فأعادته إلى البرج ، مع توجيهات بحسن معاملته ، ولكن سيسل أصدر أوامره بتعذيبه حتى يعترف بأسماء رفاقه المتآمرين . وبعد يومين من الكرب والألم المبرح استسلم وأدلى ببضعة أسماء ، فألقى القبض على عدد آخر من الأفراد . فلما استعاد جرأته تحدى رجال الدين البروتستانت أن يشهدوا معه حوارا عاما . وعقد الحوار فى كنيسة برج لندن ، باذن من مجلس شورى الملكة ، وسمح لرجال البلاط والمسجونين والجمهور بحضوره ، ووقف الجزويتى على ساقيه الواهنتين عدة ساعات يدافع عن المذهب الكاثوليكى . ولم يقنع أحد الطرفين الآخر . ولكن عند ما قدم كامبيون إلى المحاكمة لم يتهم بالزندقة ، بل وجهت إليه تهمة التآمر على قلب الحكومة عن طريق التخريب الداخلى والغزو الخارجى . وأدين كامبيون وأربعة عشر شخصا معه ، وشنقوا فى أول ديسمبر ١٥٨١ .

إن أولئك الكاثوليك الذين تنبأوا بأن بعثة الجزويت سوف تغضب الحكومة وتؤدى بها إلى مزيد من الاضطهاد ، اثبتوا أنهم كانوا على حق . وأصدرت اليزابث نداء إلى رعاياها ، ليفصلوا بينها وبين أولئك الذين ابتغوا سبيلا إلى عرشها أو حياتها واصدر البرلمان (٥٨١) قانونا ينص على أن الارتداد إلى الكاثوليكية سوف يعاقب بتهمة الخيانة العظمى ، وأن أى قسيس يقيم قداسا يعاقب بغرامة قدرها مائتا مارك مع السجن لمدة عام ، وأن من يمتنع عن حضور الصلوات الأنجليكانية يعاقب بدفع عشرين جنيها فى الشهر(٢١) ، وهذا يكفى لافلاس الناس اللهم إلا أثرياء الكاثوليك . وكان العجز عن دفع الغرامة يستتبع الاعتقال ومصادرة الأملاك . وسرعان ما امتلأت السجون بالكاثوليك إلى حد أن القلاع القديمة استعملت بمثابة سجون(٢٢) . وساد التوتر كل الجوانب ، وزاد من حدته ما كان مرتقبا من إعدام مارى ستيوارت ،

والصراع المتزايد مع أسبانيا وروما . وفى يونية ١٥٨٣ قدم أحد سفراء البابا إلى جريجورى الثالث عشر خطة تفصيلية لغزو إنجلترا بثلاثة جيوش فى وقت واحد ، من إيرلنده وفرنسا وأسبانيا وأبدى البابا تقديره وتأييده لمشروع غزو إنجلترا ، واتخذت الإجراءات اللازمة له[٧٣] . ولكن الجواسيس الإنجليز تنسموا أخبار هذه التدابير ، واتخذت إنجلترا ترتيبات مضادة ، وأجل الغزو .

وثأر البرلمان بمزيد من تشريعات القمع . فكل القساوسة الذين رسموا منذ يونية ١٥٥٩ وظلوا على امتناعهم عن أداء « قسم السيادة » ، طلب إليهم أن يغادروا البلاد فى بحر أربعين يوما ، وإلا أعدموا بتهمة التآمر الموسوم بالخيانة العظمى ، وشنق كل من آووهم أو أخفوهم[٧٤] . وبمقتضى هذا القانون وغيره من القوانين أعدم فى عهد اليزابث ١٢٣ قسيسا و٦٠ من العلمانيين ، وربما قضى مائتان آخرون نحبهم فى السجن[٧٥] . واحتج بعض البروتستانت على قساوة هذا التشريع ، وارتد بعضهم إلى الكاثوليكية . وفر وليم ، حفيد سيسل إلى رومه (١٥٨٥) واقسم يمين الطاعة للبابا[٧٦] .

وكان معظم الكاثوليك الإنجليز يعارضون أى إجراء عنيف ضد الحكومة . وفى ١٥٨٥ وجهت زمرة منهم إلى الملكة اليزابث نداء أكدوا فيه ولاءهم ، والتمسوا « النظر بعين العطف والرحمة إلى ما يعانون من شقاء » . ولكن — وكأنما كان يؤيد ما زعمته الحكومة من أن إجراءاتها إنما تبررها الحرب — أصدر الكاردينال ألن (١٥٨٨) منشورا قصد به شحذ همم الإنجليز الكاثوليك لمساندة هجوم أسبانيا الوشيك على إنجلترا . ودمغ الملكة بأنها « ابنة زنى حمل بها وولدت فى الخطيئة لأم سيئة السمعة من محظيات البلاط » واتهمها « بأنها باعت جسدها ولوثته مع ليستر وكثيرين غيره ، . . . مما يندى الجبن لذكره ، وعما لا يصدق من ألوان الشهوة والفسق » ، وأهاب بالكاثوليك فى إنجلترا أن يهبوا فى وجه هذه الهرطيقة الفاسقة اللعينة المحرومة من الكنيسة » ، « ووعد بأكبر التسامح والغفران كل من يعاون فى خلع « رأس الخطيئة والمقت فى هذا العصر[٧٧] » فما كان جواب الكاثوليك فى إنجلترا إلا أن قاتلوا بمثل البسالة التى قاتل بها البروتستانت ضد الأسطول الأسبانى « الأرمادا » .

واستمر الاضطهاد بعد هذا الانتصار، كجزء من الحرب المستمرة ، وشنق ٦١ قسيسا و ٤٩ علمانيا فيما بين عامى ١٥٨٨ — ١٦٠٣ . واقتلع كثير من هؤلاء من المشنقة وسحبوا ونزعت أحشاؤهم وقطعوا اربا — وهم أحياء[٧٨] . وفى خطاب شهير قدم إلى الملكة فى عام وفاتها ، التمس ١٣ قسيسا الترخيص لهم بالبقاء فى إنجلترا . وتبرأوا من كل عدوان على حقها ، وانكروا أى سلطان للبابا فى خلعها ؛ ولكنهم لم يستطيعوا ، فى ضمائرهم ، أن يعترفوا بغير البابا على رأس الكنيسة المسيحية[٧٩] . ووصلت هذه الوثيقة إلى الملكة قبل وفاتها بأيام قلائل ، ولم يرد ذكر شىء عن نتيجتها ، ولكنها ، عن غير عمد ، ولمدة قرنين من الزمان ، رسمت المبادئ التى يمكن على أساسها حل المشكلة . ووافى الملكة أجلها منتصرة فى أعظم صراع شهده عهد لم يلطخ بشىء أسوأ من هذا الانتصار .

٧ — البزابث والبيوريتانيون (المتطهرون)

لم تنتصر اليزابث على العدو الذى كان من الواضح أنه أشد ضعفاً ، وهم حفنة من البيوريتان . وكانوا رجالا أحسوا بتأثير كلفن . وكان بعضهم قد زار جنيف فى أيامه بوصفهم لاجئين مريمين ، وقرأ كثيرون الانجيل الذى ترجمه وزوده بالملاحظات والتعليقات جماعة من أتباع كلفن بجنيف ، وكان بعضهم قد سمع أو قرأ عن نفخات بوق جون نوكس (واعظ ومصلح دينى بروتستانتى اسكتلندى فى القرن / ١٦) ، وربما كان بعضهم قد سمع أصداء حركة ويكلف وأتباعه « القساوسة الفقراء » . وقد اتخذوا من الانجيل دليلا لا يخطئ ، فلم يجدوا فيه شيئا عن الدرجات الأسقفية والملابس الكهنوتية التى نقلتها اليزابث عن الكنيسة الرومانية إلى الكنيسة الأنجليكانية ، بل إنهم على النقيض من ذلك وجدوا كثيرا عن المشايخ (الكهنة) الذين لم يكن لهم سيد أو ملك غير المسيح وأقروا بأن اليزابث رأس الكنيسة فى إنجلترا ، لا لشىء إلا لغل يد البابا ، ولكنهم فى أعماق قلوبهم ، رفضوا أية رقابة من الدولة على الكنيسة ، وتمنوا أن تكون لديانتهم الرقابة على الدولة . وبدئ حوالى ١٥٦٤ بتسميتهم « البيوريتانز » (المتطهرون) وهو لفظ أسئ استخدامه ، لأنهم طالبوا بتطهير المذهب البروتستانتى الإنجليزى من كل الطقوس والعبادات غير الواردة

فى العهد الجديد — الانجيل . واستمسكوا كل الاستمساك بنظريات القضاء والقدر ، والاصطفاء ، واللعنة الأبدية ، وأحسوا أنه لا مهرب من الجحيم إلا باخضاع كل ناحية من نواحى الحياة للدين والأخلاق . وكلما قرأوا الانجيل فى أيام الأحد المقدسة المهيبة فى بيوتهم ، كاد أن يتوارى شكل المسيح أمام الرب الحقود المحب للانتقام « يهوه » الوارد ذكره فى التوراة (اشارة إلى تشددهم وقسوتهم) .

وبدأت حملة البيوريتانز على اليزابث فى الظهور (١٥٦٩) عندما ألحت محاضرات توماس كارتريت أستاذ اللاهوت فى كمبردج ، على أوجه التناقض بين نظام المشيخية فى الكنيسة المسيحية القديمة والكيان الأسقفى فى الكنيسة الرسمية الانجليكانية . وأيد كثيرون فى الكلية كارتريت ، ولكن جون وتجفت Whitgift رئيس كلية ترنتى ، أبلغ الملكة بما كان من أمر كارتريت ووشى به لديها ، وحصل على موافقتها ، على فصله من هيئه التدريس (١٥٧٠) . وهاجر كارتريت إلى جنيف حيث نهل — تحت رياسة تيودور دى بيز de Bèze — أصول التيوقراطية الكلفنية فى أقوى صورها . ولدى عودته إلى إنجلترا ، أسهم مع والتر ترافرس وآخرين فى صياغة فكرة البيوريتانز عن الكنيسة . ومن رأيهم أن السيد المسيح كان قد استن أن يعهد بالسلطة الكنسية إلى الكهنة وكبار السن من العلمانيين . كل أولئك تنتخبهم كل أبرشية ومديرية ودولة . وتقرر الهيئة المشكلة على هـذا النحو ، المذهب والطقوس والقانون الأخلاق ، بما يتسق مع ما جاء فى الكتاب المقدس . وكان ينبغى أن يكون لهم حق الدخول إلى كل بيت ، والسلطة التى يفرضون بها الالتزام « بالحياة الربانية أو بأوامر الرب ونواهيه » ، من حيث المظهر الخارجى على الأقل ، كما يكون لهم الحق فى حرمان المتمردين من الكنيسة ، والحكم بإعدام الهراطقة . وكان على القضاة المدنيين أن ينفذوا هذه المراسيم التنظيمية ، على ألا يكون للدولة أى سلطان قضائى روحى بأى شكل من الأشكال(٨٠) .

وأسست أول أبرشية إنجليزية على هـذه المبادئ فى واندزورث Wandsworth فى ١٥٧٢ ، وقامت كنائس (مشيخيات) مماثلة فى المقاطعات الشرقية والوسطى . وفى هذا الوقت كانت أغلبية البروتستانت فى لندن وفى مجلس العموم من البيوريتانز

واستحسن الحرفيون فى لندن ، الذين تسربت إليهم بقوة مبادئ كلفن ، عن طريق اللاجئين الكلفنيين من فرنسا والأراضى الوطيئة — نقول استحسن هؤلاء الحرفيون ، هجوم البيوريتانز على النظام الأسقفى وعلى الطقوس : ونظر رجال الأعمال فى العاصمة إلى البيوريتانية على أنها حصن منيع للبروتستانتية ضد الكاثوليكية التى لا تنظر بعين الرضا بصفة تقليدية إلى « الربا » وإلى الطبقة المتوسطة . وكان كلفن « صارما » بعض الشىء فى نظرهم ولكنه كان قد أقر « الفائدة » واعترف بمزايا الصناعة والادخار ، وحتى المقربون إلى الملكة وجدوا بعض الخير لهم فى البيوريتانية ، بل أن سيسل ولستر ، وولسنجهام ونولليس راودهم الأمل فى أن يستخدموها سيفا يشهرونه فى وجه الكاثوليكية إذا وصلت مارى ستيوارت إلى عرش إنجلترا [٨١] .

ولكن اليزابث أحست بأن الحركة البيوريتانية تهدد كل التسوية التى دبرتها لتهدئة الصراع الدينى ، وارتأت أن الكلفنية شبيهة بنظرية جون نوكس الذى لم تغفر له الملكة قط احتقاره لحكم النساء . واحتقرت النظريات البيوريتانية المتشددة من كل قلبها ، وربما إلى حد أكبر من كراهيتها للكاثوليكية ، وكان لها ولع قديم بصورة المسيح المصلوب ، وغيرها من الصور الدينية ، وعندما دمرت الثورة ضد الصور المقدسة اللوحات والتماثيل والزجاج الملون فى أوائل حكمها[٨٢] ، قدمت التعويضات إلى ضحايا الثورة ، وحظرت اقتراف مثل هذا العمل فى المستقبل[٨٣] . ولم تكن تهتم بالتفاصيل الدقيقة فى كلامها ، ولكنها استاءت من الوصف الذى نعت به أحد البيوريتانيين « كتاب الصلوات بأنه نفاية مأخوذة من الاقذار البابوية : كتاب القداس » ، وما نعت به محكمة اللجنة العليا من أنها « خندق بغيض صغير[٨٤] » . كما رأت الملكة فى الانتخاب العام للكهنة وفى حكومة الكنيسة عن طريق المشايخ والمجالس الكنسية المستقلة عن الحكومة ، شيئا من النظام الجمهورى الذى يهدد الملكية . ورأت أن سلطتها الملكية فحسب هى التى يمكن أن تبقى على البروتستانتية فى إنجلترا ، أما الاقتراع الشعبى فيؤدى إلى عودة الكاثوليكية .

وشجعت الأساقفة على التنكيل بمثيرى الفتنة ، فأوقف رئيس الأساقفة باركر مطبوعاتهم ، وأخرس ألسنتهم فى الكنائس ، ومنع اجتماعاتهم . وكان رجال الدين

البيوريتانز ينظمون اجتماعات للمناقشة العامة فى نصوص الكتب المقدسة ، فأصدرت اليزابث أمرها إلى باركر بوضع حد لهذه « المواعظ » ففعل . وحاول خلفه ادموند جرندال أن يحمى البيوريتانز ، ولكن اليزابث أوقفته عن العمل . ولما مات (١٥٨٣) عينت فى منصب رئيس أساقفة كنتربرى ، قسيسها الجديد ، جون وتجفت Whitgift الذى نذر نفسه لاخراس ألسنة البيوريتانز . وطلب إلى جميع رجال الدين الانجليز أن يؤدوا قسما بقبول « المواد التسع والثلاثين » ، وكتاب الصلوات ، والسيادة الدينية للملكة ، واستدعى كل المعارضين للمثول أمام محكمة اللجنة العليا ، وهنا تعرضوا لتحقيق تفصيلى ملح عن سلوكهم ومعتقداتهم ، إلى حد أن سيسل وازن بين هـــذا الاجراء وبين محاكم التفتيش(٨٥) .

وازدادت حدة الثورة البيوريتانية ، وانشقت أقلية ذات عزم أكيد عن حظيرة الكنيسة الأنجليكانية ، وعقدت مجامع مستقلة لانتخاب الكهنة الخاصين بها ، ولم تعترف بأية رقابة أو سيادة أسقفية . وفى ١٥٨١ أقلع إلى هولنده روبرت براون — وكان تلميذ كارتريت (ثم أصبح عدوا له فيما بعد) ، وأول لسان ناطق باسم هؤلاء « المستقلين » أو « الانفصاليين » أو « الأبرشانيين » (الذين يقولون بالاستقلال الذاتى لكل أبرشية) ، وهناك نشر كراستين صاغ فيهما دستورا ديموقراطيا للمسيحية نص فيه على أنه يجب أن يكون لأية جماعة مسيحية الحق فى أن تنظم عبادتها ، وتشكل عقيدتها على أساس الكتاب المقدس ، وتختار رؤساءها وقادتها وتحيا حياتها الدينية متحررة من أى تدخل أجنبى ، ولا تعترف إلا بحكم الكتاب المقدس ، وسلطان المسيح ، وقبض فى إنجلترا على اثنين من أتباع براون واتهما بالطعن فى السيادة الدينية للملكة ، وشنقا (١٥٨٣) .

وفى الحملات الانتخابية لبرلمان ١٥٨٦ شن البيوريتانز حربا خطابية على كل مرشح غير متعاطف مع مبادئهم . ودمغ مثل هذا الشخص بأنه « مقامر ، مدمن على الخمر ، كما وصم آخر بأنه « أقرب إلى البابوية أو الكثلكة ، قلما يأتى إلى كنيسته وانه داعر خليل للبغايا » وتلك كانت أيام الكلام القوى الحاسم . وعندما اجتمع البرلمان قدم جون بنرى التماسا لاصلاح الكنيسة ، واتهم الأساقفة بالمسئولية عن مفاسد رجال

الدين وعن الوثنية الشائعة . وأمر وتجفت باعتقاله ، ولكن سرعان ما أفرج عنه . وتقدم أنطونى كوب Cobe بمشروع قانون بإلغاء الكنيسة الرسمية الأسقفية برمتها واعادة تنظيم المسيحية الانجليزية على أساس الخطة المشيخية (على أساس الانتخاب) . وأصدرت اليزابث أمرها إلى البرلمان بعدم عرض مشروع القانون هذا للمناقشة . وأثار بيتر ونتورث موضوع الحرية البرلمانية ، وأيده أربعة آخرون من الأعضاء . فما كان من اليزابث إلا أن زجت بالخمسة جميعا فى السجن فى برج لندن .

ولما خاب فأل البيوريتانز فى البرلمان ، انصرف بنرى وآخرون إلى المنشورات ، وتخلصا من رقابة وتجفت الشديدة على المطبوعات ، وأغرقوا إنجلترا (١٥٨٨ – ١٥٨٩) ، بوابل من الكراسات المطبوعة سرا ، وكلها ممهورة بتوقيع « Martin Marprelate Gentleman » هاجموا فيها سلطة الأساقفة وخلقهم الشخصى فى نقد لاذع بذئ ممتلىء بالسباب . وبث وتجفت واللجنة العليا كل أجهزة التجسس للكشف عن المؤلفين والطابعين . ولكن هؤلاء كانوا ينتقلون من بلد إلى آخر ، وساعدهم تعاطف الجمهور معهم على الافلات من أيدى الجواسيس حتى أبريل ١٥٨٩ . واستخدم الكتاب المحترفون – مثل جون ليلى ، وتوماس ناش – فى الرد على مارتن (صاحب التوقيع) ونافسوه أيما منافسة فى البذاءة . وأخيرا ، وعندما نفدت لغة السوقة ، خفت حدة الشتائم والتراشق ، ورثى الرجال المعتدلون لامتهان المسيحية على هذا النحو والانحدار بها إلى فن للمهارة والقدح .

وآلمت هذه النشرات الملكة أشد الايلام فأطلقت يد وتجفت فى كبح جماح البيوريتانز . ولقد عثر على من تولوا طبع Marprelate ، وزاد عدد المقبوض عليهم ، وتلا ذلك تنفيذ الاعدام ، وصدر الحكم بإعدام كرتريت ، ولكن الملكة أصدرت عفوا عنه . وفى ١٥٩٣ شنق أثنان من زعماء « حركة براون » ، هما جون جرينلند وهنرى بارو ، وسرعان ما لحق بهما جون بنرى . وأصدر البرلمان (١٥٩٣) قانونا ينص على أن كل من يعترض على السيادة الدينية للملكة ، أو يتغيب عمدا عن الصلوات فى الكنيسة الأنجليكانية ، أو يشهد « اجتماعات أو صلوات سرية غير مشروعة أو لقاءات تحت ستار ممارسة العقيدة أو ادعاء لممارستها » يعاقب بالسجن

— فإذا لم يتعهد بالتزام العقيدة الرسمية ، عليه أن يغادر إنجلترا دون رجعة ، وإلا كان جزاءه الموت[٨٦] .

وعند هذا الحد ، وسط هذا العنف البالغ والاضطراب الشديد ، ارتفع قس متواضع بموضوع النزاع إلى مستوى الفلسفة والتقوى والنثر الرائع . وكان ريتشارد أحد اثنين من رجال الدين عهد إليهما باقامة الصلوات فى معبد لندن ، أما الثانى فهو والتر ترافرس ، صديق كارتريت . وفى موعظة الصباح دافع هوكر عن سيادة اليزابث الدينية ، وفى المساء انتقد ترافرس حكومة الكنيسة من وجهة نظر البيوريتانز ، ووسع كل منهما عظته حتى صارت كتاباً . ولما كان هوكر يكتب أدباً كما يكتب اللاهوت ، فقد توسل إلى أسقفه أن ينقله إلى بيت ريفى هادئ . ومن ثم فإنه فى بسكوم Boscombe فى وانتشر أكمل الأجزاء الأربعة الأولى من مؤلفه « قوانين الدولة الكنسية » (١٥٩٤) ، وبعد ذلك بثلاثة أعوام ، فى Bishopsbourne أرسل الكتاب الخامس إلى المطبعة ، وهناك فى سنة ١٦٠٠ قضى نحبه ، وهو فى سن السابعة والأربعين .

ولقد أدهشت إنجلترا « قوانينه » بالوقار الهادئ غير المتحيز الذى اتسمت به مناقشته وحججه ، والعظمة الرزانة التى تميز بها أسلوب كتبه الذى كاد أن يكون لاتينيا . وامتدحه الأسقف ألن بأنه خير كتاب أخرجته إنجلترا . وأثنى عليه البابا كليمنت الثامن لفصاحته وغزارة علمه . وقرأته اليزابث شاكرة ممتنة على أنه دفاع مجيد عن حكومتها الدينية . وسكن روع البيوريتانز لما رأوا من الوضوح المهذب فى لهجته . وتلقته الأجيال بوصفه مجاملة نبيلة للتوفيق بين الدين والعقل ، وأدهش هوكر معاصريه بتسليمه بأن البابا نفسه يمكن تخليصه . وأذهل هوكر رجال اللاهوت بتصريحه بأن « توكيد ما نؤمن به بكلمة الرب ليس مقدا لنا قدر الاقتناع بما ندركه بالعقل[٨٧] » وأن موهبة التعليل والتعقل ، ان هى إلا هبة وإلهام من عند الله .

بنى هوكر نظريته فى « القانون » على فلسفة العصور الوسطى التى صاغها توماس الأكوينى ، وسبق نظرية « العقد الاجتماعى » التى جاء بها هوبز ولوك . وبعد أن أبرز ضرورة التنظيم الاجتماعى ونعمته ، جادل فى أن الاشتراك الاختيارى

فى مجتمع يتضمن قبول الحكم بقوانينه ، ولكن المنبع الأساسى للقوانين هو الجماعة نفسها . وقد يصدر الملك أو البرلمان القوانين بوصفه مفوضا أو ممثلا للجماعة فحسب. « ان القانون يصنع الملك ، وان أية منحة أو منة من الملك تتعارض مع القانون عقيمة لا قيمة لها . . . . ومن أجل الرضا السلمى من جانب الطرفين ، تبدو موافقة المحكومين ضرورية . . . وليست القوانين هى تلك التى لم يجعل منها الاستحسان العام قوانين(٨٨) » . وأضاف هوكر نبذة ربما أزعجت شارل الأول :

ان برلمان إنجلترا ، مع المجمع الكنسى الذى انضم إليه ، هو الأساس الذى تعتمد عليه كل حكومة فى هذه المملكة . بل انه جسم المملكة بأسرها ، انه ينتظم الملك وكل رعاياه على هذه الأرض ، لأنهم موجودون جميعا هناك بأشخاصهم ، أو انهم فوضوه مختارين(٨٩) .

وبدا الدين فى نظر هوكر جزءا لا يتجزأ من الدولة ، لأن النظام الاجتماعى ، ومن ثم الازدهار المادى نفسه ، يعتمدان على التنظيم الاخلاقى الذى ينهار إذا لم يغرسه الدين ويدعمه . ولذلك ينبغى على كل دولة أن توفر التعليم الدينى لشعبها . وقد يشوب الكنيسة الأنجليكانية بعض الشوائب . ولكن هــذا هو ما ينتظر من أية نظم يقيمها بنو آدم أو يعملون بها . « ان هذا الذى يجوب الآفاق ليقنع الناس بأنهم ليسوا كما ينبغى أن يكونوا عليه ، من أوضاع مرضية ، لن يعوزه من ينصتون إليه ويتعاطفون معه ، لأنهم يعرفون النقائص البشرية التى تتعرض لها أية حكومة أيا كان نوعها . أما العوائق والصعاب الخفية التى لا تحصى والتى لا يمكن تفاديها فى مجريات الأمور العامة ، فليس من المألوف أن يكون لأى الناس من التمييز والعقل ما يمكنهم من النظر إليها وتقديرها(٩٠) » .

وكان منطق هوكر غير مباشر بدرجة كان معها غير مقنع كما كان علمه تقليديا قديما بحيث لم يواجه قضايا عصره ، كما كان يلتزم الحذر والتحفظ إلى حد شكر معه النظام وامتدحه فلم يدرك اللهفة على الحرية . وأقر البيوريتانز بفصاحته ، ولكنهم ساروا فى طريقهم واضطروا إلى الخيار بين وطنهم وعقيدتهم ، فهاجر كثير منهم ، مؤلبين الحركة البروتستانتية فى القارة على إنجلترا ، ورحبت هولنده بهم وقامت

المجامع الإنجليزية فى مدلبرج وليدن وامستردام ، وهناك عمل المنفيون وذرياتهم بجد وعلموا ووعظوا وكتبوا ، وبذلك مهدوا الطريق فى شغف هادئ لانتصاراتهم فى إنجلترا وتوفيقهم فى أمريكا .

٨ — اليزابث وايرلنده

غزا الإنجليز أيرلنده بين عامى ١١٦٩ — ١١٧١ ، ووضعوا أيديهم عليها منذ ذلك الوقت ، على أساس أنها ، بغير ذلك ، سوف تستخدمها فرنسا وأسبانيا كقاعدة لشن الهجمات على إنجلترا . وعند اعتلاء اليزابث العرش كان الحكم الإنجليزى المباشر فى أيرلنده مقصورا على الساحل الشرقى ، حول دبلن وفى جنوبها «The Pale» . أما باقى الجزيرة فكان يحكمه شيوخ القبائل الايرلنديون الذين اعترفوا لإنجلترا بالسيادة الاسمية فقط . وعوق الصراع الدائم مع الانجليز الادارة القبلية التى كانت قد جلبت لايرلنده الفوضى والعنف ، ولكنها كذلك هيأت لها الشعراء والعلماء والقديسين ، وكانت الغابات والمستنقعات تغطى معظم الأرض ، وكان النقل والمواصلات بمثابة مغامرات بطولية ، وعاش السكان الأصليون الكلتيون وعددهم نحو ٨٠٠,٠٠٠ نسمة ، فى بؤس على حافة الهمجية لا يكاد يسود فيهم قانون . وكاد الانجليز فى إقليم « البال » أن يكونوا على مثل هذه الحال من الفقر ، وازدادت مشكلة اليزابث سوءا بفسوقهم واختلاساتهم وجرائمهم ، ودأبوا على اغتصاب أموال حكومة لندن ، مثل دأبهم على سلب الفلاحين الايرلنديين . وأثناء حكم اليزابث أخرج المستوطنون الانجليز ملاك الأراضى والمستأجرين عن أراضيهم عن طريق « بيوع التصفية » ، وناضل من انتزعت أملاكهم إلى حد ارتكاب جريمة القتل ، وأصبحت حياة الغالبين والمغلوبين ، على حد سواء ، جحيما لا يطاق من العنف والكراهية . وذهب سيسل نفسه إلى حد القول بأن « الفلمنكيين لم يكن لديهم ما يحملهم على الثورة على ظلم الأسبان ، مثل ما كان لدى الايرلنديين الثورة ضد الحكم الانجليزى[٩١] » .

وقامت سياسة اليزابث فى أيرلنده على اقتناعها بأن أيرلنده الكاثوليكية سوف

تكون خطرا يهدد إنجلترا البروتستانتية ، فأمرت بفرض البروتستانتية فرضا كاملا فى أنحاء الجزيرة . وحرم القداس ، وأغلقت الأديرة وتوقفت الصلوات العامة خارج اقليم « البال » الضيق . وظل القساوسة مختفين عن الأنظار ، وأدوا الأسرار المقدسة لقليل من الناس خفية . وكادت الأخلاق أن تختفى بعد الحرمان من الدين والسلام ، وانتشر القتل والسرقة والزنى والاغتصاب والسلب ، وغير الرجال زوجاتهم دون تذمر أو وخز من الضـــمير ، واستصرخ الزعماء الايرلنديون البابا وملك أسبانيا لحمايتهم أو نجدتهم . وخشى فيليب الثانى أن يغزو أيرلنده حتى لا يغزو الانجليز الأراضى الوطنية ويساعدوا ثوارها ، ولكنه أسس مراكز وكليات للاجئين الايرلنديين فى أسبانيا . وبعث بيوس الرابع إلى أيرلنده بجزويتى أيرلندى (١٥٦٠) هو دافيد ولف الذى جمع بين الشجاعة والاخلاص اللذين تميز بهما النظام الجزويتى . وأسس ولف بعثات سرية ، واســـتقدم أفرادا آخرين من الجزويت متنكرين واستعاد للكاثوليكية تقواها وآمالها ، وتحمس شيوخ القبائل وثاروا ، الواحد بعد الآخر ، ضد الحكم الانجليزى .

وكان أقوى الشيوخ هو شين (أى جون) أونل أوف تيرون . وكان رجلا يمكن أن تتغنى به الأساطير ويقاتل الأيرلنديون من أجله . ولقـــد دافع بضراوة عن لقبه (أونل) ضد أخ مغتصب . وتجاهل كل « الوصايا » وعبد الكنيسة ، وأحبط كل جهود الانجليز لإخضاعه . وغامر برأسه ليزور لنـــدن ويكسب التحالف مع اليزابث وتأييدها له ، وعاد ظافرا ليحكم ألستر كما كان يحكم نيرون ، واشتبك فى حرب ضروس مع عشيرة « أودونل » المنافسة ، وأخيرا هزم أمامها (١٥٦٧) ، عندما التجأ إلى آل مكدونل ، وهم المهاجرون الاسكتلنديون الذين سبق له أن هاجم مستوطنتهم فى أنتريم .

وكان تاريخ أيرلنده بعد موته عرضا من الثورات والمذابح والمندوبين السامين (ممثلى الملكة) . وخدم سير هنرى سدنى (والد فيليب) اليزابث فى هذا المنصب الجحود تسع سنين . واشترك فى هزيمة أونل ، وتعقب رورى أو مور حتى الموت ، واستدعى فى ١٥٧٨ لأن انتصاراته كانت باهظة التكاليف . وفى عامين من تولى

والتر دفريه — وكان ارل اسكس من قبل — هذا المنصب ، اشتهر اسمه بمذبحة فى جزيرة راتلين بعيدا عن شاطىء انتريم . وكان الثوار هناك — وهم آل مكدونل السابق ذكرهم ، قد أبعدوا زوجاتهم وأطفالهم وشيوخهم ومرضاهم ، حرصا على سلامتهم ، مع حرس يحميهم . وأرسل اسكس قوة للاستيلاء على الجزيرة . وعرضت الحامية الاستسلام إذا سمح لها بالابحار إلى اسكتلنده . ورفض هـذا العرض ، واستسلمت الحامية . فأعمل السيف فيهم وفى النساء والأطفال والشيوخ والمرضى . وكان عددهم نحو ستمائة شخص (١٥٧٥)(٩٢)

أما الثورة العظمى التى قامت فى أثناء حكم الملكة فى أيرلنده فهى ثورة عشيرة جيرالدين فى مونستر Munster فان جيمس فتزموريس فتزجرالد وقع فى الأسر وهرب مرات كثيرة ، استطاع بعدها أن يعبر إلى القارة ، حيث شكل فرقة من الأسبان والايطاليين والبرتغاليين والفلمنكيين والانجليز الكاثوليك المهاجرين ، ونزل بهم على ساحل كرى Kerry (١٥٧٩) ، وكل الذى حدث أنه لقى حتفه فى قتال طارئ نشب بينه وبين عشيرة أخرى . وقاد الثورة من بعـده ابن عمه جيرالد فتزجيرالد — الارل الخامس عشر لدسموند Desmond ، ولكن عشيرة بتلر المجاورة بزعامة ارل أورمند البروتستانتى انحازت إلى إنجلترا . ونظم الكاثوليك فى اقليم البال جيشا وهزموا قوات نائب الملكة الجديد ، آرثر لورد جراى (١٥٨٠) . ولكنه بعد أن وصـلته الامدادات حاصر قوات دسموند الرئيسية برا وبحرا من نتوء جبلى فى خليج سمروك Smerwick . ولما وجد الثوار الباقون على قيد الحياة وعددهم نحو ٦٠٠ ، أنهم عاجزون عن الدفاع عن أنفسهم ضد مدفعية جراى ، استسلموا والتمسوا العطف والرحمة ، ولكن كان مصيرهم القتل ، رجالا ونساء ، اللهم إلا بعض الضباط الذين يمكن أن يعـدوا بدفع فدية كبيرة(٩٣) . وخربت مونستر الحرب بين الانجليز والايرلنديين . وبين العشائر بعضها البعض ، إلى درجة قال عنها كاتب حوليات أيرلندى : « لم يسـمع خوار بقرة أو صوت رجل يحرث الأرض طوال هذه السنة من دنجل إلى صخرة كاشل » . وكتب أحـد الانجليز (١٥٨٢) : « أودت المجاعة بحياة ٣٠ ألفا فى مونستر فى أقل من نصف عام . غير

الذين شنقوا وقتلوا[٩٤] ، وكتب مؤرخ إنجليزى كبير « إن قتل أيرلندى من أهالى هذه المنطقة لم يكن ينظر إليه إلا على أنه قتل كلب مسعور[٩٥] » . وكادت مونستر أن تخلى من الايرلنديين وقسـمت إلى مستعمرات ومزارع للمستوطنين الانجليز (١٥٨٦)، ومنهم ادموند سبنسر الذى أكمل هناك رواية **The Faerie Queen** .

وثار الأيرلنديون اليائسون مرة أخرى فى ١٥٩٣ ، وانضمت قوات هيو أودونل إلى قوات هيو أونل ارل تيرون الثانى . ووعدت أسبانيا بالمساعدة ، حيث كانت آنذاك فى حرب مكشوفة مع إنجلترا . وفى فترة خلا فيها منصب نائب الملكة هزم أونل جيشا إنجليزيا هزيمة منكرة فى أرماغ ، واستولى على بلاكووتر ، وهو معقل إنجليزى فى الشمال (١٥٩٨) ، وأرسل قوة تعمل على اشعال نار الثورة من جديد فى مونستر ، ولاذ المستعمرون الانجليز بالفرار تاركين مزارعهم ، وعم الأمل والفرح أيرلنده ، بل إن الانجليز أنفسهم توقعوا أن تسقط دبلن نفسها .

تلك هى الأزمة التى عينت فيها اليزابث الشاب روبرت ديفريه ارل اسكس الثانى نائبا للملكة فى أيرلنده (مارس ١٥٩٩) . وزودته بجيش قوامه ١٧٫٥٠٠ رجل ، وهو أكبر جيش أرسلته إنجلترا إلى الجزيرة . وأمرته بمهاجمة أونل فى تيرون ، وألا يعقد صلحا إلا بعد استشارتها ، وألا يعود إلا بترخيص منها . وضيع ديفريه الوقت سدى أثناء الربيع ، وقام بمناوشات قليلة ، وفنى جيشه بسبب الأمراض ، ووقع مع أونل هدنة لم يكن لديه السلطة لإبرامها ، وعاد إلى إنجلترا فى سبتمبر ١٥٩٩ ، ليفسر للملكة أسباب اخفاقه . وسرعان ما خلفه فى منصبه شارل بلونت ، لورد مونتجوى الذى واجه فى بسالة وبراعة تكتل أونل الداهية مع أود ونل غير الهياب ، وأسطولا راسيا فى كنسال Kinsale يحمل جنوداً وأسلحة من أسبانيا . وغفرانا من البابا كليمنت الثامن لكل من يدافع عن أيرلنده وعن العقيدة . وأسرع مونتجوى إلى الجنوب ليقابل الأسبان ، فهزمهم فى معركة فاصلة إلى حد أن أونل استسلم ، وانهارت الثورة وصدر عفو عام أدى إلى سلام مزعزع (١٦٠٣) وفى تلك الأثناء كانت اليزابث قدماتت .

وانتقص سجل تاريخ اليزابث فى أيرلنده من مجـدها وعظمتها . لقد أساءت تقدير صعوبة الغزو فى بلد تكاد تنعدم فيه الطرق ، وسط شعب لا يربطه بالحياة

وبالوقار إلا حبه لبلده ولعقيدته . وأنحت باللائمة على نوابها لاخفاقهم الذى كان من أسبابه تقتيرها هى ، حيث عجزوا عن دفع رواتب الجند الذين وجدوا أنه من الأربح لهم أن يسلبوا الإيرلنديين من أن يحاربوهم . وتذبذبت بين المهادنة والإرهاب ، ولم تلتزم قط سياسة واحدة إلى نقطة حاسمة . وأسست كلية ترنتى وجامعة دبلن (١٥٩١) ولكنها تركت الإيرلنديين أميين كما كانوا من قبل . وبعد انفاق عشرة ملايين من الجنيهات ، تمخض السلام الذى أمكن الوصول إليه عن بيداء قاحلة غطت نصف الجزيرة الجميلة ، وعن روح كراهية لا توصف سادت الجزيرة بأسرها ، تنتظر الفرصة الملائمة لتستأنف القتل والتخريب من جديد .

٩ — البزابث وأسبانيا

كانت الملكة فى خير حال لدى تدبير الأمر مع أسبانيا ، لقد مدت للملك فيليب حبل الأمل فى أن تكون زوجا له أو لابنه ، وحبل الأمل فى الظفر بانجلترا مقابل خاتم العرس . وتذرع فيليب بالصبر حتى نفر منه أصدقاؤه وابتعدوا عنه ، وقويت البزابث ، فاربما رجاه البابا والإمبراطور وملكة اسكتلندة المنكودة الطالع أن يغزو إنجلترا ، ولكنه كان شديد الارتياب فى فرنسا ، وكان يلاقى أشد المتاعب فى الأراضى الوطيئة ، إلى حد لا يجرؤ معه على أن يوجه ضربة لا يمكن التنبؤ بنتائجها فى لعبة السياسة . ولم يكن يضمن ألا تنقض فرنسا على الأراضى الوطيئة الأسبانية فى اللحظة التى يتورط فيها مع إنجلترا . وكان يتردد فى تشجيع الثورة فى أى بلد ، أو على طريقته فى التباطؤ الثقيل ، وثق بأن البزابث قد تجد فى الوقت المناسب مخرجاً أو آخر من المخارج التى وهبتها إيانا الطبيعة الحاذقة فى حياتنا ، ومع ذلك لم يتعجل تسليم عرش إنجلترا إلى فتاة اسكتلندية وقعت فى غرام فرنسا . ومنع لعدة سنوات ، البابا من إعلان قرار حرمان البزابث من الكنيسة . واحتمل فى صمت كئيب معاملتها للكاثوليك فى إنجلترا ، واحتجاجاتها على معاملة الانجليز البروتستانت فى أسبانيا ، وحافظ ، قرابة ثلاثين عاما ، على السلام ، بينما شن القراصنة الإنجليز ، بأمر من الحكومة ، الحرب على مستعمرات أسبانيا وتجارتها .

إن طبيعة الإنسان لتكشف عن نفسها فى سلوك الدول ، لأن هذه الدول ليست إلا أشخاصاً فى جملتها ، وهى تتصرف على نفس النسق الذى يحتمل أن الإنسان كان يتصرف عليه قبل أن يفرض الدين والقوة أخلاقاً وقوانين . وإن الضمير ليسير وراء رجل الشرطة ، ولكن لم يكن ثمة رجال شرطة من أجـل الدول . ولم يكن ثمة « وصايا عشر » على البحار ، وإنما قامت التجارة بإذن من القراصنة ، واستخدمت مراكب القرصنة الصغيرة مداخل الشاطىء الإنجليزى مخابئ لها ، ومنها انطلقت لتستولى على كل ما يمكن أن تستولى عليه — وإذا كان الضحايا من الأسبان كان للإنجليز أن ينعموا بالحماسة الدينية التى يجدونها فى سلب ونهب رجل ينتمى إلى البابا . ودرب رجال جسورون من أمثال جون هوكنز وفرانسيس دريك عدداً كبيراً من القراصنة وكأن البحار ملك لهم . وتبرأت اليزابث منهم وأنكرتهم ، ولكنها لم تعكر صفوهم أو تزعجهم ، لأنها رأت فى القراصنة نواة أسطول لها ، وفى هؤلاء المغامرين أمراء البحر لها فى المستقبل : وصار ثغر الهيجونوت « لا روشـيل » مكانا أثيراً للقاء بين قوارب الإنجليز والهولنديين والهيجونوت ، « تنقض منه على تجارة الكاثوليك أياً كان العلم الذى ترفعه (٩٦) » ، وعلى تجارة البروتستانت أيضاً ، عند الحاجة

ومن هـذه القرصنة عبر هؤلاء المغامرون إلى تجارة الرقيق الرائجة التى كانت قد بدأها البرتغاليون قبل ذلك بقرن من الزمان . وكان المواطنون فى المستعمرات الأسبانية فى أمريكا يموتون تحت تأثير الكدح المضنى الذى لا يتناسب مع بيئتهم أو مع المناخ الذى يعيشون فيه . واقتضى الأمر المطالبة بسلالة من العمال أشـد وأقوى . واقترح المدافع عن المواطنين : لاس كاساس ، نفسه ، على شارل الأول ملك أسبانيا أن زنوج أفريقية أقوى من هنود البحر الكاريبى ، ويجب نقلهم إلى أمريكا لينهضوا بالعمل الشاق من أجل الاسبانيين هناك(٩٧) . ووافق شارل ، ولكن فيليب استنكر هذه التجارة ، وأمر الحكام الأسبـان فى أمريكا أن يمنعوا استيراد العبيد إلا بترخيص من الإدارة المحلية فى أسبانيا (٩٨) — وهذا أمر عسير وباهظ التكاليف . وقاد هوكنز وهو يعلم أن بعض الحكام الأسبان يراوغون فى هذه القيود — ثلاث سفن إلى أفريقية (١٥٦٢) وقبض على ٣٠٠ من الزنوج ، وأخذهم إلى جزر الهند الغربية ، وباعهم

إلى المستوطنين الأسبان ، مقابل السكر والتوابل والعقاقير . ولما عاد إلى إنجلترا أغرى لورد بمبروك وآخرين غيره ، بأن يسهموا بأموالهم فى مغامرة ثانية ، وحرض اليزابث على أن تضع سفينة من أحسن سفنها تحت تصرفه ، وفى ١٥٩٤ انطلق جنوباً بأربع سفن ، وأمسك بأربعمائة من زنوج أفريقية ، وأبحر إلى جزر الهند الغربية ، وباع العبيد إلى الأسبان ، تحت التهديد بضربهم بمدافعه إذا هم رفضوا الشراء . وعاد إلى إنجلترا حيث رحبوا به بوصفه بطلا . واقتسم الغنائم بينه وبين أنصاره وبين الملكة التى حصلت على ٦٠ ٪ نظير استثماراتها (٩٩) . وفى ١٥٦٧ أعارته سفينتها « يسوع » . وأبحر بها مع أربع سفن أخرى إلى أفريقية ، ووضع يده على كل ما أمكنه من العبيد ، وباعهم فى أمريكا الاسبانية بمائة وستين جنيها للواحد ، وفى طريق عودته ، ومعه غنمية تقدر قيمتها بنحو مائة ألف جنيه ، اعترضه أسطول أسبانى بعيداً عن شاطىء المكسيك ، عند سان جوان دى ألوا ، ودمر أسطوله فيما عدا مركبين صغيرين عاد فيهما هوكنز إلى إنجلترا صفر اليدين (١٥٦٩) ، بعد أن لاقى آلاف الأهوال والأخطار .

وكان ممن بقوا على قيد الحياة بعد هذه الرحلة ، أحد أقرباء هوكنز الصغار ، وهو فرنسيس دريك . ولما كان قد تربى على نفقة هوكنز ، فقد قيل عنه إنه من سكان البحر . وفى سن الثانية والعشرين تولى إمرة سفينة فى رحلة هوكنز الفاشلة . وفى سن الثالثة والعشرين ، بعد أن فقد كل شيء إلا اشتهاره بالبسالة ، أقسم أن ينتقم من الأسبان ، وفى سن الخامسة والعشرين حصل من اليزابث على براءة بالقرصنة . وفى ١٥٧١ ، وهو فى سن الثامنة والعشرين ، أسر قافلة من السفن الإسبانية محملة بسبائك الفضة قرب شاطىء بنما ، وعاد إلى إنجلترا ثريا منتقما من أسبانيا ، وأخفاه مستشارو اليزابث عن الأنظار لمدة ثلاث سنوات ، على حين كانت أسبانيا تطالب برأسه . ثم جهز له لستر وولسنهام وهاتون أربع سفن صغيرة يبلغ مجموع حمولتها ٣٧٥ طناً ، أبحر بها من بليموث فى ١٥ نوفمبر ١٥٧٧ ، فيما صار فيما بعد ثانى طواف حول الكرة الأرضية . ولما خرج أسطوله من مضايق ماجلان إلى المحيط الهادى واجهته عاصفة هوجاء ، أطاحت بالسفن بعيداً بعضها عن بعض ، ولم يلتئم شملها ثانية قط ، وسار

دريك وحده بالسفينة « بليكان » على الساحل الغربى للأمريكتين إلى سان فرنسيسكو مهاجما كل السفن الأسبانية فى طريقه ، ثم انعطف غرباً فى جرأة وبسالة ، إلى الفلبين وأبحر من جزر ملقا إلى جاوه ، وعبر المحيط الهندى إلى أفريقية ، وحول رأس الرجاء الصالح صعداً فى المحيط الأطلسى ، ليصل بليموث فى ١٦ سبتمبر ١٥٨٠ ، أى بعد مغادرتها بأربعة وثلاثين شهراً . ومعه من الأرباح ٦٠٠,٠٠٠ جنيه سلم الملكة منها ٢٧٥,٠٠٠ (١٠٠) ، وحيته إنجلترا على أنه أعظم ملاح وقرصان فى عصره وتناولت اليزابث العشاء على ظهر سفينته ، ومنحته لقب فارس .

ومن الوجهة الفنية ، كانت انجلترا طوال هذا الوقت فى سلام مع أسبانيا . وكم قدم فيليب إلى الملكة من احتجاجات ، فقدمت هى الاعتذارات ، وتشبثت بغنائمها ، وأشارت إلى أن الملك نفسه كان هو أيضاً يخرق « القانون » الدولى بإرساله المساعدات إلى الثوار فى أيرلنده . ولما هدد السفير الأسبانى بالحرب ، هددت هى بالزواج من ألنسون وبالتحالف مع فرنسا . ولما كان فيليب مشغولا بغزو البرتغال ، فقد أصدر أمره إلى سفيره بالإبقاء على السلام . وكما هى العادة ، انضم حسن حظ الملكة إلى عبقريتها الموسومة بالتردد ، فماذا كان عساه يحدث لها لو لم تشطر الحرب الأهلية فرنسا الكاثوليكية إلى شطرين ، ولو لم يرهق الأتراك بغاراتهم المتكررة الإمبراطور والنمسا الكاثوليكية ، ولو لم تكن أسبانيا متورطة مع البرتغال وفرنسا والبابا ورعاياها الثائرين فى الأراضى الوطيئة ؟

ولعدة سنوات كانت اليزابث تناور وتداور فى مكر وخداع فى الأراضى الوطيئة ، وتغير سياستها وفق الظروف المائعة . ولم تكن أية اتهامات بالتردد أو الخيانة تجعلها تسير فى طريق مستقيم واحد لا تحيد عنه . ولم تكن تحب الكلفنية فى الأراضى الوطيئة أكثر من حبها للبيوريتانية فى إنجلترا ، كما لم تكن تحب التحريض على الثورة أكثر من حب فيليب له . وأدركت أهمية التجارة المنتظمة مع الأراضى الوطيئة للاقتصاد الإنجليزى ، فعملت على تأمين الثورة ومساعدتها هناك بشكل يحفظها من الاستسلام لأسبانيا أو الارتماء فى أحضان فرنساء ، وما دامت الثورة قائمة ، انشغلت أسبانيا بها بعيداً عن إنجلترا .

وحانت لحظة مباركة ابتسم فيها الحظ السعيد للملكة ، فهيأ لها الفرصة لمساعدة الثوار مقابل كسب مغر يدخل إلى خزائنها . ذلك أن القراصنة الإنجليز ساقوا فى ديسمبر ١٥٨٨ إلى موانى القنال الإنجليزى عدة سفن أسبانية كانت تحمل ١٥٠,٠٠٠ جنيه لدفع رواتب جنود دوق ألفا فى الأراضى الوطيئة ، ورأت اليزابث — وكانت قد ترامت إليها لتوها أنباء الكارثة التى وقعت لهوكنز فى سان جوان دى ألوا — رأت أن العناية الإلهية هيأت لها هذه الفرصة لتعويض إنجلترا عما فقدته بسبب تلك الهزيمة . وسألت الأسقف جول Jewel : هل لها حق فى الأموال الأسبانية ؟ فحكم بأن الرب، وهو بروتستانتى قطعاً ، يسره أن يرى البابويين يسلبون . وفوق ذلك ، علمت الملكة أن فيليب كان قد اقترض هذا المبلغ من مصارف جنوه ، ورفض الاعتراف بملكيته حتى يصل سالماً إلى أنتورب . ونقل المال إلى خزائن الملكة ، وجأر فيليب بالشكوى وقبض دوق ألفا على كل ما وصلت إليه يداه من رعايا إنجليز وبضائع إنجليزية فى الأراضى الوطيئة ، واعتقلت اليزابث كل الأسبان فى إنجلترا . ولكن مقتضيات التجارة أعادت بالتدريج العلاقات الطبيعية بين الطرفين . وأبى دوق ألفا أن يستحث اليزابث على التحالف مع الثوار ، والتزم فيليب الهدوء والصبر ، واحتفظت اليزابث بالمال .

واستمر السلم المزعزع يجرر أذياله ، إلى أن ورطت الحملات الإنجليزية المتكررة على السفن الأسبانية وصرخات أصدقاء مارى ستيوارت المسجونين ، نقول ورطت هذه وتلك فيليب فى مؤامرة لقتل الملكة(١٠١) ، وكانت اليزابث مقتنعة باشتراكه فيها ، فطردت السفير الأسبانى (١٥٨٤) وساعدت الثوار علانية . ودخلت الجيوش الإنجليزية فلشنج ، بريل ، أوستند ، سليس Sluys ، وأرسل لستر ليتولى قيادتها . ولكن الأسبان هزموهم فى زوتفين Zutphen (١٥٨٦) . ولكن الآن ، على الأقل بلغ السيل الزبى ، وحانت ساعة الفصل . فقد استعد فيليب واليزابث بكل ما أوتيا من قوة لحرب التى قد تحدد لأيهما تكون السيادة على البحار ، كما تحدد ديانة إنجلترا ، وربما ديانة أوربا ، وربما ديانة الدنيا الجديدة .

وأثرت أسبانيا ثراء واسعاً بفضل كولمبس والبابا اسكندر السادس وقرارات التحكيم التى أصدرها (١٤٩٣) والتى منحت وطنه أسبانيا كل الأمريكتين تقريباً :

وبهذه الرحلات والمراسيم لم يعد البحر المتوسط مركز حضارة الرجل الأبيض وقوته، وبدأ عصر الأطلنطي . ومن بين دول أوربا العظمى الثلاث المطلة على المحيط ، كانت فرنسا مغلولة اليدين بسبب الحرب الأهلية فلم تشارك فى الصراع الدائر حول السيادة على المحيطات أما إنجلترا وأسبانيا فقد استمر الصراع بينهما ، وصارت كل منهما تمتد نحو الأرض الموعودة مثل الصخرة الناتئة فى البحر . وبدا من العسير زحزحة أسبانيا عن مكان الصدارة والغلبة فى أمريكا ، فما وافت ١٥٨٠ حتى كان لها فيها مئات المستعمرات ، على حين لم يكن لإنجلترا شيء قط . وتدفقت الثروات الهائلة من مناجم المكسيك وبيرو إلى أسبانيا ، وبدا قدراً محتوماً أن تحكم أسبانيا نصف الكرة الغربى ، وتدخل الأمريكيتين فى نطاق كيانها السياسى والدينى .

ولم يكن دريك راضياً عن هذا المشهد الذى توقعه ، أو قانعاً به . وكانت الحرب من أجل السيطرة على العالم ، لفترة من الوقت ، محصورة بينه وبين أسبانيا . وفى ١٥٨٥ أمده أصدقاؤه والملكة بالمال اللازم ، فجهز ثلاثين سفينة انقض بها على الإمبراطورية الأسبانية . ودخل مصب نهر فيجو فى شمال غرب أسبانيا ، وأعمل السلب والنهب فى ثغر فيجو ، وعرى تمثالا للعذراء ، وحمل معه المعادن النفيسة والملابس الثمينة من الكنائس . وأبحر إلى جزر الكنارى والرأس الأخضر واجتاح أكبرها ، وعبر إلى الأطلنطى ، وأغار على سان دومنجو ، وقبض ثلاثين ألفاً من الجنيهات ، منحة أو رشوة، لئلا يدمر مدينة قرطاجنه فى كولمبيا . وسلب وأحرق مدينة سانت أوجستين فى فلوريدا ، وعاد إلى إنجلترا (١٥٨٦) ، لا لشيء إلا أن الحمى الصفراء أودت بثلث بحارته .

تلك كانت حرباً دون أن تحمل اسم الحرب وفى ٨ فبراير ١٥٨٧ ، أعدمت الحكومة الإنجليزية ملكة اسكتلنده ، وهنا أبلغ فيليب البابا سكستس الخامس أنه على استعداد لغزو إنجلترا وخلع اليزابث . وطلب إليه الإسهام بمليونى كراون ذهباً . وعرض سكستس ستمائة ألف لا تدفع لأسبانيا إلا إذا وقع الغزو فعلا . وأصدر فيليب أمره إلى خير قواده ، أمير البحر مركيز سانتا كروز ، بإعداد أكبر أسطول عرف فى التاريخ حتى ذلك الوقت ، وتجمعت السفن أو بنيت فى لشبونه وأعدت المخازن والمستودعات فى قادس .

وألح دريك على اليزابث لتزوده بأسطول يدمر الأرمادا قبل أن يتخذ وضعا تتعذر معه مقاومته ، فوافقت ، وفي الثاني من أبريل ١٥٨٧ انطلق مسرعا من بليموث ومعه ثلاثون سفينة ، قبل أن تغير الملكة رأيها . وهذا ما حدث فعلا ، ولكن بعد فوات الأوان ، فلم تدركه . وفي ١٦ أبريل أسرع بأسطوله إلى ميناء قادس ، وأجرى مناورة بعيدا عن مرمى مدفعية الشاطىء ، وأغرق بارجة أسبانية ، وهاجم سفن النقل والتموين ، واستولى على حمولتها ، وأشعل النار في كل سفن العدو ، وارتحل دون أن يمسه أذى . وألقى مراسيه بالقرب من لشبونة وتحدى سانتا كروز أن يخرج لملاقاته . فأبى المركيز أن يفعل ، لأن سفنه لم تكن قد زودت بالسلاح بعد ، فسار دريك شمالا إلى لاكورونا واستولى على مؤن وذخائر كثيرة كدست هناك ، ثم إلى جـزر الآزور حيث استولى على سفينة أسبانية ضخمة (غليون) ، وعاد بها إلى إنجلترا بين سفنه . وعجب الأسبان أنفسهم لجرأته ومهارته البحرية وقالوا « لو لم يكن لوثريا ، بروتستانيا ، لما كان له نظير في العالم[١٠٢] » .

وأعاد فيليب بناء أسطوله ، في صبر ، ومات المركيز سانتا كروز في يناير ١٥٨٨ ، فعين مكانه دوق مدينا — سيدونيا ، وهو نبيل يتميز بكرم المحتد أكثر منه بالكفاية والقدرة . ولما اكتمل الأرمادا آخر الأمر ، كانت عدة سفنه ١٥٠ سفينة حمولة كل منها في المتوسط ٤٤٥ طنا ، وكان نصفها من سفن البضائع ، ونصفها الآخر من البوارج الحربية ، مزودة بثمانية آلاف وخمسين بحارا ، وأبحر عليها تسعة عشر ألف جندي . وفكر فيليب وقواده في اتباع الطريقة القديمة في الحروب البحرية — وهي القفز فوق ظهر سفن العدو . ومصارعة الرجل للرجل ، على حين كانت خطة الإنجليز أن يغرقوا سفن العدو بمن احتشد عليها من بحارة ، واطلاق النيران عليها دفعة واحدة من الجوانب ، وأصدر فيليب تعلياته إلى الأسطول بألا يجد في طلب السفن الإنجليزية ويهاجمها ، بل لا بد من الاستيلاء على رأس جسر ساحلي في إنجلترا ، والعبور إلى الفلاندرز ، لينقل إلى المراكب الثلاثون ألف جندي الذين كانوا قد أعدهم هناك دوق بارما ، والسير إلى لندن بعد الحصول على هذا المدد . وفي نفس الوقت هرب إلى إنجلترا (أبريل ١٥٨٨) رسالة دبجها كاردينال ألن

يأمر فيها الكاثوليك بالانضمام إلى الأسبان لخلع مليكتهم « المغتصبة الهرطيقة البغى[١٠٣] » . ورافق الأرمادا للمعاونة فى إعادة الكاثوليكية إلى إنجلترا مئات من الرهبان تحت رياسة النائب الأسقفى العام لمحاكم التفتيش[١٠٤] . وهزت روح دينية مخلصة مشاعر البحارة الأسبان وسادتهم ، وآمنوا إيمانا عميقا مخلصا بأنهم كانوا يؤدون مهمة مقدسة ، فأبعدوا البغايا ، وانقطع التجديف والدنس ، وامتنع القمار ، وفى صباح اليوم التاسع والعشرين من مايو ١٥٨٨ ، حين أقلع الأسطول من لشبونه ، تناول القربان المقدس كل من كان على ظهر السفن ، وأقامت كل أسبانيا الصلوات .

وواتت الريح البزابث ، على حين واجه الأرمادا عاصفة مدمرة ، فالتجأ إلى ميناء لاكورونا ، حيث ضمد جراحه ، وأقلع ثانية (١٢ يوليه) . وانتظرته إنجلترا فى مزيج محموم من الآراء المنقسمة والاستعدادات المتعجلة والعزيمة اليائسة ، والآن حانت الساعة لتنفق اليزابث الأموال التى كانت قد كنزتها فى ثلاثين عاما من التقتير والتهور والشرور ، وهب شعبها فى شجاعة وتصميم ، كاثوليك وبروتستانت على السواء ، لنجدتها ، وتدرب الحرس الوطنى المتطوع فى المدن ، وأمد تجار لندن الفرق بالمال اللازم ، وطلب إليهم أن يجهزوا خمس عشرة سفينة ، فأمدوها بثلاثين . وكان قد مضى على هوكنز عشر سنوات وهو يبنى السفن لبحرية المملكة . وأصبح دريك الآن نائبا لأمير البحر ، وأتى قراصنة البحر بسفنهم فى انتظار اللقاء الحاسم . وفى أوائل يولية ١٥٨٨ احتشد فى بليموث للقاء العدو القادم ، اثنتان وثمانون سفينة كاملة العدة ، تحت امرة شارل ، لورد هوارد افنجهام ، أمير البحر العام فى إنجلترا .

وفى ١٩ يولية(*) شوهدت طلائع الأرمادا عند مدخل القنال الإنجليزى . وأقلع الأسطول المدافع من بليموث ، وفى اليوم الحادى والعشرين بدأ العمل . وانتظر الأسبان حتى يقترب الإنجليز منهم إلى حد يكفى ليناوش الواحد منهم الآخر ، ولكن

(*) التقويم القديم ، وهو أسبق بعشرة أيام من الجريجورى الذى اقتبس فى أسبانيا ١٥٨٢ ، ولكن لم يؤخذ به فى إنجلترا إلا فى ١٧٥١ .

على العكس من ذلك ، فإن السفن الإنجليزية الخفيفة المبنية خصيصا للمياه الضحلة والمسالك الضيقة ، انطلقت مسرعة حول البوارج الأسبانية الثقيلة ، تمطرها بوابل من النيران من كل جانب ، وكانت سطوح المراكب الأسبانية عالية ، وكانت مدافعها تطلق قذائفها على بعد مرتفع فوق السفن الإنجليزية محدثة بها أقل الأضرار ، وجرت السفن الإنجليزية تحت النيران ، وتركت قدرتها على المناورة وسرعتها ، الأسبان عاجزين حيارى مضطربين . وعندما جن الليل هرب الأسبان فى اتجـــاه الريح ، تاركين احدى سفنهم ليأخذها دريك ، وأخرى نسفها أحد رجال المدفعية الألمان المتمردين ، ووقع حطامها فى أيدى الإنجليز . ولحسن الحظ كانت كلتاهما تحمل مؤنا وذخائر سرعان ما نقلت إلى أسطول الملكة . وجاء مزيد من المؤن والذخائر . ولكن الانجليز لم يكن لديهم منها حتى الآن إلا ما يكفى لقتال يوم واحد فقط . وفى الخامس والعشرين ، وبالقرب من جزيرة وايت ، قاد هوارد هجوما ، وسارت سفينة قيادته إلى قلب الأرمادا ، وتبادلت النار مع كل بارجة مرت بها ، وحطم تفوق النار الانجليزية الروح المعنوية لدى الأسبان . وكتب مدينا سيدونيا فى تلك الليلة إلى دوق بارما : « ان العدو يطاردنى . إنهم يرموننى بالنيران من الاصباح إلى المساء ، ولكن السفن لن تلقى مراسيها . . . وليس ثمة من علاج ، فهم سريعو الحركة ونحن بطيئون(١٠٥) » . وتوسل إلى بارما أن يرسل إليه ذخيرة ومددا ، ولكن ثغور دوق بارما كانت تحاصرها وتعترض سبيلها السفن الهولندية .

وفى اليوم السابع والعشرين ألقى الأرمادا مراسيه فى مداخل كاليه . وفى الثامن والعشرين أشعل دريك النار فى ثمان سفن صغيرة غير ضرورية يمكن الاستغناء عنها ، ووضعها فى مهب الريح لتسير وسط الأسطول الأسبانى . وتوجس مدينا سيدونيا شرا ، فأمر سفنه بالخروج إلى عرض البحر . وفى اليوم التاسع والعشرين هاجمها دريك فى جرافلين ، بعيدا عن الشاطىء الفرنسى ، فى حرب حقيقية . وقاتل الأسبان فى بسالة ، ولكن كان يعوزهم المدفعية والبراعة فى فن الملاحة . وظهر أسطول هوارد وصب الأسطول الإنجليزى بكامل عدده من النيران على الأرمادا ما أعجز بعض سفنه عن العمل وأغرق بعضها الآخر . واخترقت طلقات الإنجليز أبدان سفن

الأرمادا على الرغم من أن سمكها يبلغ ثلاثة أقدام ، وقتل آلاف من الأسبان ، وشوهدت الدماء تسيل من ظهور السفن إلى البحر . وما أن غربت شمس ذلك النهار حتى كان قد فقد من الأسبان أربعة آلاف رجل وجرح أربعة آلاف آخرون ، وأمكن بصعوبة الاحتفاظ بالسفن الأسبانية الباقية عائمة على سطـح الماء . ولما رأى مدينا سيدونيـا أن بحارته لا يستطيعون احتمال شيء بعد ما حدث ، أصدر أوامره بالانسحاب . وفى اليوم الثلاثين من يولية حملت الريح حطام الأرمادا إلى بحر الشمال . وتبعه الإنجليز شمالا إلى مصب نهر فورث ، وكانت تعوزهم الأغذية والذخيرة فعادوا إلى مراسيهم ، وكانوا قد فقدوا ستين رجلا ، ولم يفقـدوا سفينة واحدة .

أما بالنسبة لبقايا الأرمادا ، فلم يكن ملاذ أقرب من أسبانيا نفسها . فقد كانت اسكتلنده معادية ؛ وثغور أيرلنده فى أيدى القوات الإنجليزية . واستماتت السفن المصابة والرجال الذين يتضورون جوعا فى شق طريقهم حول الجزر البريطانية ، وكانت المياه هائجة والريح عاصفة ، فتحطمت الصوارى وتمزقت الأشرعة ، وما كان يمر يوم حتى يغرق مركب أو يغادره ملاحوه ، وألقيت جثث ألوف فى البحر . وتحطمت سبع عشرة سفينة على شواطئ أيرلنده الوعرة . وفى سليجو Sligo وحدها ظهر على شاطئها الرملى جثث ١١٠٠ من الغرقى الأسبان . ونزل بعض البحارة إلى البر فى أيرلنده يلتمسون بعض الطعام والشراب ، فلم يصيبوا شيئاً ، وبلغ المئات منهم من الهزال حدا لم يستطيعوا معه القتال ، فكان مصيرهم الذبح بأيدى أشباه المتوحشين من سكان السواحل من كل جنس . ومن المائة والثلاثين سفينة التى كانت قد غادرت أسبانيا أول الأمر ، عاد ٥٤ فقط ، ومن السبعة والعشرين ألفا من الرجال عاد عشرة آلاف معظمهم جريح أو مريض . ولما كان فيليب يحاط علما بأنباء هذه الكارثة الطويلة الأمد يوما بيوم ، فقد حبس نفسه فى صومعة فى الاسكوريال ، ولم يكن أحد يجرؤ على التحدث إليه . أما البابا سكستس الخامس فقد دفع بأنه ما دام لم يحدث غزو على إنجلترا قط ، فإنه لن يرسل إلى أسبانيا المفلسة بدوكات واحد .

وكانت اليزابث حريصة على المال قدر حرص البابا عليه . وكانت يقظة إلى أية اختلاسات فى البحرية ، وطالبت بحساب عن كل شلن انفقته البحرية والجيش قبل المعركة وفى اثنائها وبعدها . وعوض كل من هوارد وهوكنز من جيبه الخاص عن أى تناقض أو تضارب لم يستطيعا له تفسيرا (١٠٦) . وكانت اليزابث تتوقع حربا طويلة الأمد ، ومن ثم كانت تصرف للملاحين والجنود مؤنا قليلة ورواتب ضئيلة ، وانتشر الآن مرض فتاك ، أشبه بالتيفود ، بين الرجال العائدين ، قضى فى بعض المراكب على نصف من فيها من الملاحين أو أقعدهم عن العمل ، حتى تعجب هوكنز قائلا : ماذا كان عساه أن يكون مصير إنجلترا لو أن الوباء سبق العدو ؟

واستمرت الحرب البحرية حتى موت فيليب ١٥٩٨ . وسار دريك بأسطول وخمسة عشر ألفا من الرجال لمساعدة البرتغاليين فى ثورتهم ضد الأسبان (١٥٨٩) ولكن البرتغاليين أحسوا ببغض أكثر للبروتستانت منه للأسبان . وأفرط الإنجليز فى احتساء النبيذ الذى استولوا عليه إلى حد الثمل ، وباءت الحملة بالفشل والعار . وقاد لورد توماس هوارد أسطولا إلى جزر الآزور ليعترض طريق الأسطول الأسبانى الذى يحمل الفضة والذهب إلى أسبانيا ، ولكن أسطول فيليب الجديد أرغم السفن الإنجليزية على الفرار ، فيما عدا السفينة « ريفنج » Revenge التى أمسكوا بها تتسكع خلف سائر السفن ، فقاتلت قتالا بطوليا حتى تغلب عليها الأسبان (١٥٩١) . وقام دريك وهوكنز بحملة أخرى على جزر الهند الغربية (١٥٩٥) ولكنهما تنازعا وماتا فى الطريق . وفى ١٥٩٦ أرسلت اليزابث أسطولا آخر لتدمير السفن فى الثغور الأسبانية مثل قادس ، فوجد هناك ١٩ بارجة حربية و ٣٦ سفينة تجارية . ولكنها جميعا هربت إلى عرض البحر ، على حين أعمل اسكس السلب والنهب فى المدينة . وأخفقت هذه الحملة كذلك ولكنها أظهرت من جديد سيادة إنجلترا على الأطلنطى .

وكان لهزيمة الأرمادا أثرها على كل شىء تقريبا فى مدنية أوربا الحديثة . فكانت بداية تغيير حاسم فى تكتيك البحرية ، وأخلى القفز إلى سفن العدو ومصارعة الرجل الرجل مكانيهما للتراشق بالمدافع من جوانب السفينة وظهرها . وساعد

إضعاف أسبانيا الهولنديين على نيل استقلالهم ، وارتقى هنرى الرابع إلى عرش فرنسا ، وفتح أمريكا الشمالية أمام المستعمرات الإنجليزية . وبقيت البروتستانتية وقويت . وتضاءل شأن الكثلكة . وكف جيمس السادس ملك اسكتلنده عن مصادقة البابوات ومجاملتهم . ولو أن الأرمادا بنى بطريقة أحكم ، وسارت قيادته على وجه أكمل ، فلربما كانت الكاثوليكية قد استعادت إنجلترا ، وسادت أسرة جيز فى فرنسا . وخضعت هولنده ، ولم يظهر قط شكسبير وبيكون وهما رمزان لإنجلترا الظافرة وثمرتان من نتاجها ، ولربما كان على النشوة الغامرة فى عهد اليزابث أن تواجه محكمة التفتيش الأسبانية . وهكذا تحدد الحروب مصير اللاهوت والفلسفة ، كما أن القدرة على القتل والتدمير شرط أساسى للحصول على الترخيص بالحياة والبناء .

١٠ – رالى واسكس

على الرغم من أن سيسل وولسنهام ودريك وهوكنز كانوا الأدوات المباشرة للمجد والنصر ، إلا أن اليزابث هى التى تجسدت فيها إنجلترا الظافرة المنتصرة ، وكانت وهى فى سن الستين فى ذروة الشهرة والقوة والسلطان ، وتجعد وجهها قليلا ، وتساقط شعرها ، وفقدت بعض أسنانها ، وأسود البعض الآخر ، ولكنها فى مجوهراتها التى تبعث الرهبة فى النفوس ، من غطاء الرأس المخرم وطوق الرقبة المكشكش المهفهف ، والأكمام المحشوة ، والتنورة المطوقة وكلها تتألق بالجواهر واللآلئ ، وقفت مزهوة رافعة الرأس ، ملكة بلا منازع . وتذمر البرلمان من أساليبها الملكية ولكنه خضع واستسلم ، وقدم المستشارون القدامى نصائحهم فى رعدة الشباب الغض الذى يطلب يد المرأة ، ولكن الطلاب الشبان الذين انطلقت ألسنتهم بالتمجيد والتسبيح أحاطوا بالعرش . وقضى لستر وولسنهام نحبهما ، وسرعان ما يبتلع البحر دريك وهوكنز ، وقد ظنا أنهما سيحكمانه . أما سيسل الذى أطلق عليه بيكون[١٠٧] « نصف الإله الذى يحمل السماء على كتفيه Atlas فى هذه الدولة » ، فقد كبرت الآن سنه ، وكان يئن ويذبل بداء النقرس ، وكان على اليزابث الآن أن تتولى تمريضه فى مرضه الأخير وتطعمه لقيماته الأخيرة بيدها[١٠٨] واعتراها الحزن لفقدان

هؤلاء الرجال ، ولكنها لم تدع هذا كله يشوه فخامة جلالتها أو يقلل من حيوية بلاطها ومرحه ونشاطه .

وتألقت حولها وجوه جديدة ، جلبوا إليها شبابا بديلا . وكان كرستوفر هاتون رشيقا لدرجة أنها عينته مستشارا (١٥٨٧) . وظلت مترددة تسع سنوات فى قبول نصيحة برجلى فى تعيين ابنه الحصيف الأحدب روبرت سيسل وزيرا لها . وكانت أكثر استساغة لقسمات والتر رالى الجميلة وقعقعة سيفه ، ولم تعبأ بشكوكه الدينية الخاصة ، فقد كانت لها هى الأخرى شكوكها الخاصة كذلك .

ويكاد رالى أن يكون رجل عصر اليزابث الكامل : سيد مهذب ، جندى ، ملاح ، مغامر ، شاعر ، فيلسوف ، خطيب ، مؤرخ ، شهيد ، فكان « الرجل العالمى » الذى صورته أحلام النهضة الأوربية ، والذى جمع العبقرية من أطرافها ، ولكنه لم يدع الجزء قط ليكون كلا . ولد رالى فى ديفونشير فى ١٥٥٢ ، والتحق بجامعة اكسفورد فى ١٥٦٨ ، ولكنه فر من الكتب إلى الحياة ، وانضم إلى مجموعة شهمة من المتطوعين ذوى الأصل الكريم ، عبروا البحر إلى فرنسا ليناضلوا فى صفوف الهيجونوت . وربما كانت الأعوام الستة التى قضاها فى تلك الحروب قد علمته شيئاً من العنف المجرد من المبادئ الخلقية فى العمل والجرأة غير المكترثة فى الحديث مما شكل مصيره فى مستقبل أيامه ، وعاد إلى إنجلترا ١٥٧٥ وألزم نفسه بدراسة القانون ، ولكنه غادر البلاد ثانية فى ١٥٧٨ متطوعا لمساعدة الهولنديين ضد الأسبان . وبعد ذلك بعامين كان فى أيرلنده رئيسا فى الجيش الذى أخمد ثورة دسموند ، ولعب دورا فعالا فى مذبحة سمروك Smerwick . وكافأته اليزابث باثنى عشر ألف فدان فى أيرلنده ، وبضمه إلى بلاطها . ولابتهاجها بقوامه ومدنحه لها وتملقه إياها(*) وذكائه . أصغت إليه فى شك أقل ما اعتادت أن تنظر أو تسمع به إلى الناس ، عند ما اقترح عليها إنشاء مستعمرات إنجليزية فى أمريكا ، ومنحته امتيازا بذلك ، وفى ١٥٨٤ أرسل — ولكنه لم يصحب — أول حملة من عدة حملات ، حاولت

(*) أن قصة سجوده تحت قدميها ومعطفه ممرغ فى الوحل ، قصة خيالية .

تأسيس مستعمرة فى فرجينيا ، ولكنها أخفقت ، وبقى الاسم تذكارا خالدا لعدم وصول الملكة إلى مبتغاها ، وأثبتت اليزابث تركمورتون Throckmon tor — وهى وصيفة شرف فى البلاط — أنها أقرب منالا ، وارتضت رالى عشيقا لها ، وتزوجت منه سرا (١٥٩٣) . ولما كان محظورا على أى عضو فى البلاط أن يتزوج دون موافقة الملكة ، فان العروسين المتيمين قضيا شهر عسل غير متوقع فى برج لندن (السجن) . وظفر رالى باطلاق سراحه — مع اقصائه عن البلاط — بارساله كتابا إلى برجلى يصف فيه الملكة بأنها مزيج من كل ألوان الكمال والقداسة فى التاريخ .

وآوى رالى إلى ضيعته فى شربورن ، ونظم رحلات واكتشافات ، وتلاعب بالإلحاد ، ونظم شعرا كان لكل بيت فيه رنين متميز ولذع خاص . ولكن عامين من الهدوء والدعة استنفدا ثباته واستقراره ، وبفضل مساعدة أمير البحر هوارد وروبرت سيسل جهز خمس سفن وأقلع بها إلى أمريكا الجنوبية بحثا عن ألدرادو — وهى أرض أسطورية فيها قصور من ذهب ، وأنهار يجرى فيها الذهب ، ونساء محاربات (أمازونات) لا تذبل مفاتنهن . وسار مائة ميل صعدا فى نهر أورينوكو ، ولكنه لم يعثر على نساء محاربات ولا على ذهب ، ولقد حيرته وعوقته مساقط المياه وسرعة جريانها فعاد إلى إنجلترا صفر اليدين ، ولكنه روى كيف أن السكان الأمريكيين دهشوا وأعجبوا بجمال الملكة حين أراهم صورتها . وسرعان ما أعيد إلى البلاط . وأكد بيانه الفصيح عن « امبراطورية جويانا الشاسعة الغنية الجميلة » نقول أكد من جديد إيمانه بأن الشمس لا تشرق على أية ثروات فى أى جزء فى العالم » . أكثر منها فى إقليم الأورينوكو » . وألح دون كلل أو ملل فى اثارة الرغبة فى انتزاع ثروات أمريكا من أيدى الأسبان إلى أيدى الإنجليز ، وشرح نظرية سيادة البحار أكمل شرح ، « أن من يسيطر على البحار يسيطر على التجارة ، ومن يسيطر على تجارة العالم يسيطر على ثرواته ، ومن ثم يسيطر على العالم نفسه[١٠٩] » .

وفى ١٥٩٦ انضم إلى الحملة على قادس . وقاتل ببسالة — كما قال ، وأصيب بجرح فى رجله . وعاملته الملكة يومئذ « معاملة كريمة » وعينته قائدا للحرس . وفى ١٥٩٧ قاد قسما من الأسطول الذى كان تحت امرة اسكس إلى جزر الآزور ، وفصلت

العاصفة بينهما . ولكن أسطول رالى التحم مع العدو وهزمه ، ولكن اسكس لم يغفر له قط انتزاع قصب السبق منه .

وفاق روبرت دفريه ارل اسكس الثانى ، حتى رالى نفسه ، فتنة وسحرا . وكان له طموح رالى وحيويته وزهوه ، ويزيد عنه حدة فى الطبع ، ويقل عنـه ذكاء ، ويفوقه كثيرا فى الكرم والنبل . وكان رجل عمل مفتونا بالذكاء والفطنة ، حالفه النصر فى المقارعة بالسيف وفى ميدان الألعاب الرياضية ، يتميز بالبسالة والجرأة فى الحرب ، إلى جانب أنه كان مع ذلك صديقا نافعا للشعراء والفلاسفة مقدرا لهم . ولما أصبحت أمه الزوجة الثانية لارل لستر ، رفع مكانته فى البلاط ليتكافأ مع ما تميز به رالى من فتنة سارة مداهنة . ووقعت الملكة ، وهى فى سن الثالثة والخمسين ، فى حب الأمومة مع ابن العشرين الوسيم الشديد الحساسية (١٥٨٧) ، فهنا ولد يعزيها عن عدم انجابها أولادا ، وتجاذبا أطراف الحديث واستمعا إلى الموسيقى ، ولعبا الورق معا . وانتشر القيل والقال : « إن سيدى اللورد لا يعود إلى مسكنه قبل صياح الديكة عند الفجر[١١٠] » . وتوجع قلبها الهرم حين تزوج سرا من أرملة فيليب سدنى ، ولكن سرعان ما اغتفرت له هذا . وفى ١٥٩٣ صار عضوا فى مجلس شورى الملكة ، ومهما يكن من أمر فانه كان قليل الصلاحية لحياة البلاط وعمل رجل الدولة . وقال عنه خادمه كوف : « ان وجهه نم دوما بوضوح عما يكنه من حب وبغض ، ولم يعرف قط كيف يخفى هذا أو ذاك[١١١] » . وجلب عداوة رالى ، ووليم سيسل وروبرت سيسل ، وأخيرا عداوة بيكون العاق والملكة المستاءة الكارهة .

أما فرانسيس بيكون الذى قدر له أن يكون أكبر أثرا على الفكر الأوربى من أى شخص عداه من رجال عصر اليزابث . فقـد ولد فى ١٥٦١ فى قلب البلاط الملكى ، فى يورك هاوس ، المقر الرسمى للورد حامل خاتم الملكة ، وهو أبوه ، سير نيقولا ، وأطلقت اليزابث على الابن « حامل خاتم الملكة الصغير » وقد صرفه ضعف بنيته عن الألعاب الرياضية إلى الدراسة . وساعده ذكاؤه المتقد على التقاط العلم والمعرفة فى نهم . وسرعان ما باتت سعة اطلاعه إحدى عجائب تلك « الأزمنة

المترفة » . وبعد سنوات ثلاث قضاها فى كمبردج أرسل إلى فرنسا مع السفير الإنجليزى ليتيح له الفرصة ليتعلم فنون السياسة والحكم . وفى أثناء وجوده هناك مات أبوه فجأة (١٥٧٩) قبل أن يشترى الضيعة التى كان قد قصد شراءها لابنه فرانسيس ، وكان من أصغر أولاده . وفجأة ضعفت موارد فرانسيس فعاد إلى إنجلترا ليدرس القانون فى Oray,s Inn . ولما كان ابنا لأخت وليم سيسل ، فقد توسل إليه أن يعينه فى منصب سياسى ، وبعد أربع سنوات من الانتظار أرسل إليه كتابا غريبا يذكره فيه بموضوعه جاء فيه « أن الاعتراض على سنى سوف يزول مع طول سترتى[١٤٢] » . وبطريقة ما انتخب فى تلك السنة (١٥٨٤) عضوا فى البرلمان ، ولو أنه كان فى سن الثالثة والعشرين . واشتهر بتأييده لمزيد من التسامح مع البيوريتانز (وكانت أمه منهم) وتجاهلت الملكة حججه ، ولكنه أعاد اثباتها فى شجاعة ، فى منشور وزع سرا . مس فيه تناقضات كنيسة إنجلترا (١٥٨٩) واقترح فيه ألا يضار إنسان بسبب عقيدته الدينية إذا تعهد بالدفاع عن إنجلترا ضد أية سلطة أجنبية — بما فى ذلك البابوية — تهدد سيادة إنجلترا أو حريتها الكاملتين . ورأت الملكة وسيسل أن الفيلسوف الشاب قد تقدم قليلا . والحق أنه كان سابقا لزمانه .

واطمأن اسكس إلى حدة ذهن بيكون وطلب مشورته . وأشار الحكيم الصغير على النبيل الصغير أن يتظاهر بالتواضع ، أن لم يستطعه ، ويخفض من انفاقه ، ويلتمس وظيفه مدنية أكثر منها حربية ، حيث أن التخلص من آثار النكسات السياسية والتعويض عنها ، ميسوران أكثر منهما فى الهزائم العسكرية . كما أشار عليه بأن يعتبر أن كب حب الناس خطر عليه لدى الملكة[١٤٣] . وكان بيكون يراوده الأمل فى أن ينضج اسكس فيصبح من رجال الدولة ويهئ لناصحه المخلص أو معلمه الخاص فرصة للارتقاء والظهور .

وفى ١٥٩٢ ناشد سيسل مرة ثانية فى سطور مشهورة قال فيها : —

لقد أصبحت الآن أكبر سنا إلى حد ما . وان إحدى وثلاثين سنة ليست بالشيء اليسير فى عمر الإنسان . . . . وإن صغر ضيعتى يقلقنى بعض الشيء . واعترف أن عندى من الغايات التأملية الفكرية الواسعة قدر ما عندى من الغايات الدنيوية المتواضعة

أو المعتدلة ، أى أن ما عندى من التطلع إلى العلم والمعرفة يفوق كثيرا تطلعى إلى أى جاه مادى . لأنى اعتبرت العلم والمعرفة هما دنياى أو مجالى الخاص . وإذا كان هذا فضولا ، أو عظمة جوفاء ، أو طبيعة فىّ ، فهو راسخ فى ذهنى ، ولا يمكن محـــوه[١١٤] .

وعند ما ألح اسكس على وليم سيسل وروبرت سيسل والملكة لتعيين بيكون فى وظيفة المدعى العام الشاغرة ، ذهبت توسلاته أدراج الرياح ، واختير بدلا منه ادوارد كوك Coke وهو أكبر منه سنا وأكثر صلاحية من الناحية الفنية . وتحمل اسكس اللوم فى رقة وكياســة ؛ وأقطع بيكون ضيعة فى توكنهام تدر ١٨٠٠ جنيه[١١٥] . وقبل أن يستطيع بيكون الإفادة من هذه المنحة عانى من سجن قصير الأمد بسيط من أجل الديون[١١٦] . وفى ١٥٩٧ عين فى « المجلس العلمى » الذى يضم المحامين الذين كانوا يقدمون المشورة إلى مجلس شورى الملكة[١١٧] .

وعلى الرغم من نصيحة بيكون انضم اسكس إلى جماعة الحرب ، ودبر أن يكون على رأس الجيش . وهيأت له بسالته المندفعة فى قادس شعبية بالغة لدى المجلس . ولكن اخفاقه فى الآزور ، وكبرياءه لم تتضاءل قط ، وتبذيره ، ولسانه السليط ، كل أولئك نفر منه المجلس واهاج ثائرة الملكة . ولما رفضت صراحة توصيته بتعيين سير جورج كارو فى إحدى الوظائف فى أيرلنده ، أدار لها ظهره ، بإيماءة تنم على الاحتقار والزراية . فاستشاطت غيظا ولكمته على أذنيه صارخة : « اذهب إلى الشيطان » . فأمسك بسيفه وصاح فيها « هذه اساءة لن أصبر عليها ، وما كنت لأحتملها من يدى أبيك » . واندفع غاضبا من الغرفة ، وتوقع كل رجال البلاط أن يعجل بزجه فى السجن فى برج لندن (١٥٩٨)[١١٨] . ولكن اليزابث لم تفعل شيئا . بل على النقيض من ذلك ، وربما لتتخلص منه ، عينته بعد عدة أشهر من هذا الحادث ، نائبا للملكة ، فى أيرلنده .

وكان بيكون قد حذر اسكس من اللجوء إلى هذا العمل البغيض ، ألا وهو مقاومة العقيدة بالقوة . ولكنه طلب جيشا : وفى ٢٧ مارس ١٥٩٩ ارتحل إلى

دبلن ؛ وسط تهليل الجماهير ، وهواجس أصدقائه وريبهم ، وارتياح أعدائه ورضاهم . وأخفق فى مهمته ، وبعد ستة أشهر عاد مسرعا إلى لندن دون إذن من الملكة ، واندفع ، دون أن يعلن عن قدومه ، إلى غرفة ملابسها ، وحاول أن يفسر أعماله فى أيرلنده ، فأصغت إليه فى غضب مكظوم ، ثم أمرت بنقله إلى سجن قصر حامل الأختام فى يورك هاوس حتى يمكن الاستماع إلى التهم الموجهة إليه .

وتذمر الناس فى لندن لأنهم كانوا يجهلون اخفاقه ويذكرون انتصاراته . وأمر مجلس شورى الملكة ، بمحاكمة شبه علنية ، وفوض بيكون بوصفه عضوا فى مجلس العلماء ومحاميا تعهد بالدفاع عن الملكة ، فى أن يعد قرار الاتهام ، وطلب بيكون اعفاءه . ولكنهم ألحوا فقبل . وكان الاتهام الذى أعده معتدلا ، أقر اسكس بصحته ، وعرض خضوعه المتواضع وقد جرد من جميع وظائفه ، وأبلغ أن يلزم داره حتى تتفضل الملكة باطلاق سراحه (٥ يونيه ١٦٠٠) ودافع بيكون عنه ، فأعيدت إليه حريته فى ٢٦ أغسطس .

والآن وهو فى قصر اسكس ظل يواصل السعى وراء السلطة . فأرسل صديقا حميما له ، حامى شكسبير وراعيه هنرى ريوتسلى Wriothesley ، ارل سوثمبتون — أرسله إلى أيرلنده ليقترح على مونتجوى نائب الملكة هناك ، أن يعود إلى إنجلترا مع الجيش الإنجليزى ، ويعاون اسكس فى تولى حكم أيرلنده . ورفض مونتجوى . وفى أوائل ١٦٠١ كتب اسكس إلى جيمس السادس ملك اسكتلنده طالبا مساعدته مع وعد بتأييده خلفا لاليزابث على عرش إنجلترا . ورد عليه جيمس بكتاب مشجع ، وراجت الاشاعات الفظيعة فى العاصمة المهتاجة بأن روبرت سيسل كان خطط ليضع ابنة ملك أسبانيا Infanta ملكة على عرش إنجلترا ، ويزج باسكس فى برج لندن ، وأن رالى أقسم ليقتلنه . وحث سيسل الأصغر الملكة على أن تبعث برسالة إلى اسكس تطلب إليه الحضور إلى المجلس ، وربما كان الغرض من ذلك ارغامه على الافصاح عن نياته ، وحذره أصدقاؤه بأن هذا ربما كان خدعة للقبض عليه . وحجز أحد الأصدقاء وهو سير جيللى مرك للمستشار وصحبه مقاعد فى المسرح حيث كانت تمثل ذاك المساء فى سوثوارك Southwark ، رواية شكسبير

« ريتشارد الثانى » ، وهى تظهر كيف أن ملكا خلع عن عرشه عدلا وحقا(١١٩) .

وفى اليوم التالى (٧ فبراير ١٦٠١ احتشد ثلثمائة من أنصار اسكس المتحمسين المسلحين فى فناء داره . وعندما خرج إليهم اللورد حامل الأختام وثلاثة من الشخصيات الكبيرة ليسألوهم عن سبب هذا التجمع غير المشروع أغلق عليهم الحشد الأبواب وساقوا الارل الحائر معهم إلى لندن وإلى الثورة ، وكان يراوده الأمل فى أن يهب الناس لمساعدته ؛ ولكن الخطباء أمروهم بالتزام بيوتهم فامتثلوا . وكانت قوات الحكومة لهم بالمرصاد ، فتعقبوا المتمردين ، وقبض على اسكس وزج به فى برج لندن .

وسرعان ما قدم للمحاكمة بتهمة الخيانة . وأمر المجلس بيكون بمساعدة كوك فى إعداد قرار الحكومة . وربما كان رفضه يؤدى إلى تدمير حياته السياسية ، وقبوله إلى انهيار سمعته التى واتته بعد وفاة أبيه ، فلما تلعثم كوك فى عرض التهمة نهض بيكون وعرض المسألة فى وضوح مقنع يدين المتهم ، واعترف اسكس بجرمه ، وذكر أسماء شركائه(١٢٠) . وقبض على خمسة من هؤلاء وقطعت رؤوسهم ، وحكم على سوثمبتون بالسجن مدى الحياة ؛ وأفرج عنه جيمس الأول فيما بعد . وتروى أسطورة أن اسكس بعث إلى الملكة بخاتم كانت قد أعطته إياه يوما مع الوعد بأن تهب لنجدته إذا أعاده إليها فى ساعة العسرة . ولكن الخاتم لم يصل إليها ، ولو كان قد أرسل(١٢١) . ففى الخامس والعشرين من فبراير ١٦٠١ ، وهو فى الخامسة والثلاثين ، ذهب اسكس فى بسالة إلى المصير الذى كان طابع شخصيته . وبكى عدوه رالى عندما هوت الضربة على عنقه ، وعرض برج لندن ، لمدة عام ، الرأس المفصول عن جسده ، والذى أصابه الانحلال والعفن .

١١ — السحر يذوى ويذبل ١٦٠٠ — ١٦٠٣

إن منظر رأس اسكس ، أو ادراك اليزابث أن الرأس كان يحدق النظر إليها ليل نهار ، لا بد أن يكون قد شارك فى الكآبة التى خيمت على الملكة فى سنواتها الأخيرة ؛ فكانت تقضى الساعات الطوال جالسة وحيدة فى صمت ، حزينة تطيل

التفكير ، وأبقت على ملاهي حاشيتها ، وتظاهرت أحيانا ، تظاهرا جريئا بالمرح ، ولكن اعتلت صحتها ومات قلبها . ولم تعد إنجلترا تحبها ، حيث أحست بأنها عمرت أكثر مما ينبغي لهـا ، وأنه يجدر بها أن تخلى الطريق للملكية فتية . وثار آخر البرلمانات فى عهدها ثورة اتسمت بعنف أكثر من ذى قبل ، ضد انتهاكها لحرية البرلمان واضطهادها للبيوريتانية ، وطلباتها المتزايدة للاعتمادات ، واغداقهـا احتكارات التجارة على ذوى الحظوة لديها . ودهش الجميع حين استسلمت الملكة فى آخر لحظة ، ووعدت بوضع حد لهذا الخلل . وذهب كل أعضاء مجلس العموم ليقدموا لها الشكر ، وجثوا بين يديها حين وجهت إليهم الخطاب . وكان آخر خطاب لها (٢٠ نوفمبر ١٦٠١) ، وهو « خطابها الذهبي » الحزين ، قالت :

ليس ثمة جوهرة ، ارتفعت قيمتها بشكل لم يسبق له مثيل من قبل ، أوثرها على حبكم ... ان تقديرى له ليفوق تقديرى لأى كنز .... ولقد رفعنا الله إلى أعلى عليين ، ولكنى أحسب أن عظمة عرشى هى أنى حكمت بفضـل حبكم لى(١٢٢) .

وطلبت إليهم أن ينهضوا ثم استطردت فى الحديث قائلة :

لأن يكون الإنسان ملكا ويلبس التاج شيء سار لمن يراه ، أكثر مما هو سار لمن يحمله .... ومن ناحيتى أنا ، إذا لم يكن ارضاء لضميرى أن أنهض بالواجب الذى فرضه الله على ، وأن أحافظ على « مجده » وأوفر لكم الأمن والسلامة ، لوددت ، استجابة لطبيعتى ، أن أترك هذا المكان لغيرى ، وسعدت بالتحرر من هذه العظمة التى تقتضى جهودا مضنية ، لأنى لست راغبة فى أن أحيا أو أحكم أطول من عمرى ، وسيكون الحكم من أجل خيركم . وعلى الرغم من أنه قد حكمكم من قبل ، ولسوف يحكمكم من بعد ، ملوك أقوى وأعقل منى . من فوق هذا العرش ، فانكم لم تشهدوا ، ولن تشهدوا من هو أعظم حبا لكم منى(١٢٣) .

وكانت اليزابث تؤجل ما وسعها الجهد موضوع وراثة العرش ، فما دامت مارى ملكة اسكتلنده باقية على قيد الحياة ، ووريثة شرعية لعرش إنجلترا . فان

اليزابث لم يهدأ لها بال ، خشية أن تفسد مارى التسوية التى انتهت هى إليها مع البروتستانت ، أما الآن وقد ماتت مارى ، وكان جيمس السادس ملك اسكتلنده هو صاحب الحق الذى لا ينازع فى وراثة العرش ، فقد اطمأنت اليزابث إلى ذلك ، لعلمها بأن جيمس ، مهما كان متردداً أو مراوغاً ، فهو بروتستانتى . ووصل إلى علمها أن روبرت سيسل وآخرين من رجال البلاط كانوا يتفاوضون سراً مع جيمس لتيسير ارتقائه العرش ، وليصيبوا المغانم المرتقبة فى هذه المناسبة ، وأنهم كانوا يعدون الأيام الباقية على موتها .

وانتشرت الاشاعات فى كل أنحاء أوربا أن السرطان سيقضى عليها . ولكنها كانت تموت من امتداد حياتها إلى أكثر مما ينبغى . وما كان جسمها ليحتمل مزيداً من الأفراح والأتراح ، أو من أعباء وضربات السنين القاسية التى لا ترحم ، وعندما حاول ابنها بالمعمودية سيرجون هارنجتون ، أن يسرى عنها بأشعاره الفكهة الظريفة أخرجته من حضرتها وقالت « إذا أنت أحسست بالوقت يزحف زحفاً نحو بابك ، أى بدنو الأجل ، قل ابتهاجك بمثل هـذه الحماقات[١٢٤] » . وفى مارس ١٦٠٣ ، وكانت قد عرضت نفسها فى جرأة لبرد الشتاء ، انتابتها حمى انهكتها لمدة ثلاثة أسابيع ؛ وقضت معظم الوقت جالسة على كرسى أو مستندة إلى الوسائد ، ولم ترتض أن يعودها طبيب ، ولكنها رغبت فى الاستماع إلى الموسيقى ، فجاء بعض العازفين أخيراً . واقتنعت بالتزام الفراش ، وتمنى لها رئيس الأساقفة ويتجفت أن تطول حياتها فانتهرته ، وسجد إلى جانب سريرها وصلى ، وظن أنه أدى قدراً كافياً من الصلوات وحاول أن ينهض ، ولكنها أمرته أن يتابع الصلاة . ومرة ثانية « تعبت ركبتا الرجل العجوز » . فأشارت إليه أن يؤدى مزيداً من الصلوات . ولم ينقذه إلا أن غلبها النعاس فى ساعة متأخرة من الليل ، ولم تصح من رقدتها هذه قط ، وفى اليوم التالى (٢٤ مارس) كتب جون مانتجهام فى مفكرته : « فى نحو الساعة الثالثة من صباح اليوم فارقت جلالتها الحياة ، فى وداعة مثل الحمل ، ويسر مثل قطف التفاحة الناضجة من شجرة[١٢٥] » . وهكذا كان يبدو .

وأحست إنجلترا بهول المصيبة ، على الرغم من أنها كانت قد طال انتظارها

لموتها . وأيقن الكثيرون أن عهدا عظيما قد انقضى ، وأن يدا جبارة قط سقطت عن دفة السفينة . وخشى بعضهم ، مثل شكسبير ، حدوث الفوضى(١٢٦) . أما بيكون فقد قال إنها ملكة عظيمة إلى حد :

إنه لو كان بلوتارك الآن على قيد الحياة ، ليكتب عن سير الحياة بالتناظر ، فقد يجد مشقة فى أن يجد لها شبيها بين النساء . لقد وهبت هذه السيدة معرفة فريدة بين بنات جنسها ، بل حتى نادرة بين الأمراء والرجال . . . .

أما بالنسبة لحكومتها . . . فان هذا الجزء من الجزر البريطانية لم يشهد قط خمسا وأربعين سنة خيرا من هذه ، لا فى هدوء هذه الفترة فحسب ، بل فى الحكمة التى سادت الحكم . فلو نظرنا ، من ناحية ، إلى صدق العقيدة التى رسخت قواعدها ، والسلام والأمن الدائمين ، والإدارة الحسنة للعدالة ، والقصد والاعتدال فى استخدام الحقوق الملكية . . . . وازدهار المعرفة . . . . ثم لو نظرنا ، من ناحية أخرى ، إلى الخلافات الدينية ، ومتاعب البلاد المجاورة ، وأطماع أسبانيا ، ومعارضة روما ، ثم إلى أنها — أى الملكة — كانت وحيدة ، بنفسها ، أقول لو نظرنا بعين الاعتبار إلى هذه الأشياء كلها ، لما كان فى مقدورى أن أختار مثالا آخر حديثا ومناسبا إلى مثل هذا الحد ، وكذلك أظن أنه ما كان فى مقدورى أن أختار شيئاً أروع أو أبرز . . . . من اقتران المعونة لدى الأمير بالسعادة التى عاش فى ظلها الشعب(١٢٧) .

والآن ونحن ننظر إلى الوراء ، نتأمل طبيعة أحداث ذاك الزمان بعد وقوعها ، لا بد لنا من أن نظلل الصورة بعض الشيء ، ذاكرين أخطاء الملكة التى لا تضاهيها ملكة ، غافرين لها هـذه الأخطاء . إنها لم تكن قديسة ، أنها لم تؤت الحكمة ، ولكنها سيدة ذات مزاج وذات هوى مفعمة بحب الحياة . ولم تتركز تماما « حقيقة العقيدة » ، ولم يكن كل رعاياها ، كما زعم شكسبير ، « يأكلون فى ظل كرومهم التى زرعوها بأيديهم ، آمنين مطمئنين . وينشدون أغنيات السلام البهيجة(١٢٨) » وإن شيئاً من رشاد حكمها ليعود إلى حكمة معاونيها . وكان تذبذبها فى الرأى

يقترن فى غالب الأمر بحسن الطالع ، وربما كان ذلك بسبب ما يحدث مصادفة من تغيير ، وأدى هذا التذبذب أحيانا إلى ضعف فى السياسة إلى حد أن المتاعب الداخلية لدى أعدائها هى التى ساعدتها على البقاء بعد النكسة . ولكنها استطاعت البقاء ، بل وحققت نجاحا ، بوسائل مشروعة أو ملتوية ، لقد حررت اسكتلنده من ربقة فرنسا وربطتها بإنجلترا ، ومكنت هنرى نافار من إيجاد التوازن بين قداسه فى باريس وبين مقتضيات مرسوم نانت . ولقد وجدت إنجلترا مفلسة محتقرة ، وخلفتها غنية قوية ، وترعرعت ونمت منابع المعرفة والآداب فى ظل الثروة التى كان يرفل فيها شعبها ، وتابعت الحكم الاستبدادى المطلق على عهد أبيها ، ولكنها لطفت من حدته بالإنسانية والفتنة . لقد حرمت الزوج والولد ، وتبنت إنجلترا وجعلت من نفسها أما لها ، وأحبتها حبا خالصا ، وأفنت نفسها فى خدمتها ، فكانت أعظم حاكم عرفته إنجلترا .

الفصل الثاني

إنجلترا المرحة[1]

١٥٥٨ — ١٦٠٣

١ – فى العمل

أى نوع كانت إنجلترا تلك التى أمدت اليزابث بالقوة وهيأت لها النصر . ووهبت شكسبير اللغة والإلهام ؟ وأى صنف من الناس كان هؤلاء الإنجليز فى عصر اليزابث ، أولئك المغامرون فى تهور ، الصرحاء الممتلئون حيوية ونشاطا ؟ كيف عاشوا وعملوا ولبسوا وفكروا ، وأحبوا وشادوا وغنوا ؟

فى ١٥٨١ بلغ عدد السكان نحو خمسة ملايين ، معظمهم مزارعون ، ومعظم هؤلاء يفلحون الأرض لمصلحة المالك نظير جزء من المحصول ، وبعضهم يستأجر الأرض مقابل إيجار محدد يدفعه ، وكان ثمة عدد متزايد من صغار المزارعين الأحرار الذين يمتلكون الأرض ملكية مطلقة ، وبقيت مساحات من الأرض على المشاع حيث ثبت أن أرض المراعى تدر ربحا أكثر من الأرض المحروثة ، وكاد الرقيق أن ينقرض ، ولكن طرد المستأجرين عن طريق المساحات المشتركة المسورة وعن طريق الضم كان يخلق طبقة بائسة من العمال الذين غامروا ببيع عضلاتهم من مزرعة إلى مزرعة ، ومن حانوت إلى حانوت فى المدن الآخذة فى التوسع (التنقل من أجل الحصول على عمل نظير أجر) .

وباستثناء العاصمة ، كانت المدن لا تزال صغيرة ، على أية حال . وزاد عدد السكان قليلا عن عشرين ألفا فى كل من نوروك Norwich وبرستول ، وهما أكبر مدينتين بعد لندن . وكان لهذه المسألة جانبها المشرق : ذلك أن سكان المدن كانوا متوادين متحابين ينعمون بحسن الجوار . وحتى فى لندن نفسها ، كان لمعظم البيوت

حدائق ، أو أنها كانت قريبة من الحقول المكشوفة ، ومن ثم يمكن جمع مختلف أنواع الأزهار التى ترنم بها شكسبير . وحصلت البيوت على التدفئة بإحراق الخشب ، واستخدمت معظم المصانع الفحم لتوليد الطاقة ، ولكن أسعار خشب التدفئة ارتفعت كثيرا فى القرن السادس عشر ، وحدا ازدياد الطلب على الفحم بملاك الأراضى إلى التنقيب عن الرواسب فى أراضيهم . وجىء بالعمال الألمان لتحسين التعدين وعلم المعادن . وحرمت اليزابث استخدام الفحم فى لنـــدن ، ولكن ثبت أن أوامرها كانت أقل حسما من الضرورة الاقتصادية(٢) . وزادت محلات النسيج واتسعت بعد لجوء النساجين والقصارين إلى إنجلترا هربا من جور دوق ألفا فى الأراضى الوطيئة ، وجلب الهيجونوت من فرنسا مهاراتهم الحرفية والتجارية ، على أن رجلا إنجليزيا هو الكاهن الموقر « وليم لى » هو الذى اخترع (١٥٨٩) « جهاز الجوارب » شبه الآلى للحياكة . وكان صيد السمك أكثر الصناعات ازدهارا ، لأن الحكومة شجعتها بغية تعويد الناس على ركوب البحر والملاحة ، ومن ثم تهيئ احتياطيا للبحرية . ومن ثم انحنت اليزابث إجلالا للكنيسة الكاثوليكية ، وأمرت رعاياها أن يمتنعوا عن أكل اللحم يومين فى الأسبوع ، وأيام الصوم التقليدية فى الصيام الكبير .

وكانت نقابات التجار والصناع قد سلبتها القوة والفعالية قيود العصور الوسطى وتوجيهاتها ، ومن ثم ظلت النقابات تفقد أسواقها فى عصر النزعة الفردية والتجديد . وجمع المتعهدون المهرة رأس المال ، واشتروا المواد الخام ، ووزعوها على المتاجر والأسرات ، واشتروا الإنتاج ، ثم باعوه ، قدر ما تحتمل ظروف التجارة والمقايضة . وبدأت الرأسمالية فى إنجلترا فى البيت ، بعمل الأب والأم والابنة والابن ، للمقاول أو الملتزم . أما وقد نشأ الآن « هذا النظام المنزلى » فقد سار حتى أواخر القرن الثامن عشر . وكان كل بيت تقريبا ، بمثابة مصنع مصغر ينسج فيه النســاء ، ويغزلن الكتان والصوف ، ويخِطْن ويطرزن ، ويقمن بتحضير الأدوية من الأعشاب وتقطير المشروبات ، ونجحن إلى حد كبير فى النهوض بفن الطبخ فى إنجلترا .

وسنت حكومة اليزابث القوانين للاقتصاد بمثل ما سنت به للعقيدة ، من غيرة

وحماس . وأدركت أن القيود البلدية على الصناعة والتجارة ، تعوق النشاط التجاري والصناعي ، فاستبدلت بأنظمة الوحدات الإدارية نظاما قوميا واحدا . وقرر تشريع « التلمذة الصناعية » المشهور (١٥٦٣) مجموعة قواعد ومبادئ هامة للرقابة والإلزام الحكوميين ، وقد ظل قانون إنجلترا حتى ١٨١٥ . ومذ كان القانون يهدف إلى القضاء على الخمول والتعطل ، فانه تطلب من كل شاب قوى الجسم قادر على العمل أن يخدم كتلميذ لمدة سبع سنوات ، لأن الرجل « حتى يبلغ الثالثة والعشرين ، يكون فى أغلب الأحوال ، وليس دائما ، متهورا طائشا لا يحسن التمييز ، لم يؤت من التجربة والخبرة ما يستطيع معه أن يحكم نفسه[3] » . وكل متعطل عن عمد قبل الثلاثين من العمر ، ليس له دخل سنوى مقداره أربعون شلنا ، يمكن إجباره على العمل ، وفقا لتوجيه السلطات المحلية . وكل الأصحاء الذين لم يبلغوا الستين فى الريف يمكن إلزامهم بالعمل فى جمع المحاصيل . ويجب تأجير العمال بعقود سنوية نظير نوع من أجر سنوى مضمون . وخول قضاة الصلح سلطة تحديد الحد الأقصى والحد الأدنى لمكافأة كل عمل فى المنطقة التى يعمل بها كل منهم . وحدد أجر العامل فى لندن بتسعة بنسات يوميا . وفرضت غرامة قدرها أربعون شلنا على أصحاب العمل الذين يفصلون العمال بشكل تعسفى . أما المستخدمون الذين يتركون أعمالهم بغير سبب مشروع فكان يزج بهم فى السجن . وكان محظورا على أى مستخدم أن يترك مدينته أو أبرشيته دون إذن من رب العمل أو الحاكم المحلى . وحددت ساعات العمل باثنتا عشرة ساعة يوميا فى الصيف ، وبساعات ضوء النهار فى الشتاء . وكان الاضراب أيا كان نوعه محظورا ، وكانت عقوبته السجن أو الغرامة الثقيلة[4] .

وعموما كان لهذا التشريع مفعوله فى حماية أرباب العمل ضد من يستخدمون من العمال ، والزراعة ضد الصناعة ، والدولة ضد الثورة الاجتماعية . وكتبت نقابة البنائين بالأجر فى مدينة هل فى صدر قانونها المحلى هذه العبارة : « كل الناس متساوون بالطبيعة ، خلقهم خالق واحد من طينة واحدة » . ولكن لم يؤمن بهذا أحد ، وفى أقل القليل سيسل واليزابث ، ويحتمل أن يكون سيسل هو الذى

وجه التشريع الاقتصادى فى ١٥٦٣ ومن نتائجه بالنسبة للطبقات العاملة أنه جعل الفقر أمرا إجباريا . واقترح إعادة تحديد الأجور بصفة دورية وفقا لأسعار المواد الغذائية الأساسية ، ولكن الحكام المكلفين بهذا العمل كانوا ينتسبون إلى طبقة المستخدمين (أرباب العمل) . وارتفعت الأجور ، ولكن بمعدل أبطأ كثيرا من الأسعار . وفيما بين عامى ١٥٨٠ و ١٦٤٠ ارتفعت الأسعار بنسبة ١٠٠ ٪ ، على حين ارتفعت الأجور فى نفس الفترة ٢٠ ٪ فقط[٦] .

وفى خلال القرن من الزمان الذى يمتد من ١٥٥٠ إلى ١٦٥٠ كانت أحوال المهنيين والعمال تزداد سوءا يوما بعد يوم[٧] . وامتلأت ضواحى لنـــدن « بطبقة فقيرة نسبيا ، شريرة غالبا ، تقطن فى أحقر المساكن[٨] » ، تعيش فى بعض الأماكن على السرقة والتسول ، وفى جنازة ارل شروزبرى (١٥٩١) جاء نحو عشرين ألفا من المتسولين يلتمسون الصدقات[٩] .

وشنت الحكومة حملات على هذه الرذائل بمجموعة من القوانين الصارمة ضد التسول والاستجداء ، وبمجموعة إنسانية نسبيا من « قوانين الفقراء » (١٥٦٣ — ١٦٠١) التى اعترفت بمسئولية الدولة عن حماية رعاياها من الموت جوعا . وفى كل وحدة إقليمية جمعت ضريبة لرعاية الفقراء غير القادرين على العمل ، وتشغيل القادرين على العمل فى مصانع تديرها الدولة .

وتبين أن ارتفاع الأسعار كان حافزا للصناعة والتجارة قدر ما كان مأساة وكارثة على الفقراء . والأسباب الرئيسية فى هذا هو استخراج الفضة فى أوربا ، واستيراد المعادن النفيسة من أمريكا ، وغش الحكومات للعملة (تخفيض قيمتها بزيادة ما تحتويه من معدن خسيس) وفيما بين سنتى (١٥٠١ — ١٥٤٤ كانت جملة مقادير الفضة المستوردة أو المستخرجة فى أوربا تساوى نحو ١٥٠ مليونا من الدولارات بمعدلات ١٩٥٧ ، وفيما بين عامى ١٥٤٥ — ١٦٠٠ نحو ٩٠٠ مليون[١٠] . وكافحت اليزابث بشرف غش النقد الإنجليزى ، وتقبلت نصيحة مستشارها البعيد النظر ، سيرتوماس جريشام ، الذى حذرها (١٥٦٠) فى عبارة أصبحت « قانون جريشام » ، وهى

أن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة ، وأن العملة التى تحتوى على النسبة الصحيحة من المعدن النفيس قد تختزن أو ترسل إلى الخارج ، على حين أن العملة التى لاتحتوى على النسبة المقررة الصحيحة من المعدن النفيس تستعمل لسائر الأغراض الأخرى ، وبخاصة فى تسديد الضرائب أى « أن يدفع للحكومة النقد الذى سكته هى (وغشته) » ، وأصلحت اليزابث وسيسل النقد الذى كان قد غشه أبوها وأخوها ، وأعادت إلى العملة الإنجليزية النسبة الصحيحة من الذهب أو الفضة . وارتفعت الأسعار على الرغم من هذا ، لأن تدفق الذهب والفضة أو إنتاجهما ، وتداول العملة ، فاقا سرعة إنتاج السلع .

وأسهمت الاحتكارات فى رفع الأسعار . ورخصت اليزابث فى احتكار صناعة أو بيع الحديد والزيت والخل والفحم والرصاص ونترات البوتاسيوم أو الصوديوم (الملح الصخرى) والنشا والخيوط والجلد ، والجلود المدبوغة والزجاج ، ولقد مكنت هذه التراخيص ، من جهة لتشجيع رأس المال على تحسين الإنتاج ، وإقامة صناعات جديدة ، ومن جهة أخرى كتعويض أو مكافأة للوظائف والخدمات التى لا تحصل بدونها (أى تراخيص الاحتكار) على أجر كاف . ولما ارتفعت الشكوى من هذه الاحتكارات إلى حد أن البرلمان كاد أن يثور ، وافقت اليزابث على وقفها حتى يتم التحقيق فيها والتصديق عليها (١٦٠١) ، ومن ثم كان الاحتفاظ ببعضها .

ونتيجة لهذا التعويق نمت التجارة الداخلية بخطى أبطأ من تقدم التجارة الخارجية . وفيما عدا أيام المناسبات والأعياد ، لم يكن يسمح لأى إنسان أن يبيع السلع فى أية مدينة لا يكون هو من سكانها ، وكانت هذه المناسبات دورية فى كثير من المراكز ، وبلغت أكثر من مائة يوم فى السنة . وكان أكثرها شيوعا ، « يوم القديس برثلميو » الذى يقام فى شهر أغسطس من كل عام بالقرب من لندن ، مع « سيرك » يجذب الناس إلى السلع ، وكان انتقال البضائع على الماء أكثر منه بالبر ، وكانت الأنهار تعج بالحركة ، وكانت الطرق رديئة ، ولكنها آخذة فى التحسن . ويمكن السير فيها ركوبا لمسافة مائة ميل فى اليوم ، وقطع الرسول الذى حمل إلى ادنبره نبأ وفاة اليزابث

١٦٢ ميلا فى يومه الأول . وكانت الخدمات البريدية التى انشئت فى ١٥١٧ مقصورة على الحكومة وحدها . أما البريد الخاص فكان يرسل مع الأصدقاء أو الرسل أو السعاة أو أى مسافرين آخرين . وكان معظم السفر بالبر على ظهور الخيل ، أما المركبات فأدخلت حوالى ١٥٦٤ ، وظلت حتى ١٦٠٠ لونا من الترف لدى قلة من الناس ، وما جاءت سنة ١٦٣٤ حتى كثر عددها إلى حد إصدار بلاغ بتحريم استخدام الأفر د لها استخداما خاصا ، بسبب ازدحام حركة المرور[١١] . وكانت الأنزال (الفنادق) حسنة ، كذلك كانت النادلات فيها ، اللهم إلا عند الدفع . لكن كان ينبغى على عابر السبيل أن يحرص على كيس نقوده ، وأن يخفى وجهته[١٢] . لقد كان على المرء فى إنجلترا على عهد اليزابث أن يكون نشيطا حذرا مستعدا .

ونمت التجارة الخارجية بتقدم الصناعة . وكان تصدير المنتجات الكاملة الصنع هو الوسيلة المفضلة لتسديد ثمن ما يستورد من المواد الخام ومواد الترف الشرقية . وتوسعت السوق من الوحدة الإقليمية إلى الأمة بأسرها ، ثم إلى أوربا ، بل حتى إلى آسيا وأمريكا . واتسعت مجالات الحكومات الوطنية وأهدافها وسلطانها مع اتساع مدى التجارة ومشاكلها ، وقد رغبت إنجلترا — مثلما رغبت أسبانيا وفرنسا — فى تصدير السلع واستيراد الذهب . لأن « النظرية التجارية(*) » التى سادت آنذاك ، كانت تقيس ثروة الأمة بمقدار ما لديها من المعادن النفيسة . وواضح أن فرانسس بيكون كان أول من تحدث عن « ميزان تجارى[١٣] » مرض ، قصد به زيادة الصادرات على الواردات ومن ثم امتصاص الفضة أو الذهب ، أو تسربهما إلى داخل البلاد . وأعلن سيسل عن هدفه بقوله : « يجب ، بكل الوسائل ، أن نقصر استخدامنا للسلع الأجنبية على ما هو ضرورى لنا[١٤] » ولقد أدرك أن الفضة والذهب لا يؤكلان ولا يلبسان ، ولكنهما كانا نقدا دوليا ، يمكن أن يشترى به عند الضرورة

(*) Mercantilism وهو النظام الاقتصادى الذى نشأ فى أوربا خلال تفسخ الاقطاع لتعزيز ثروة الدولة ن طريق تنظيم حكومى صارم للاقتصاد الوطنى فى جميع نواحيه ، وانتهاج سياسة تهدف إلى تطوير الزراعة والصناعة وإنشاء الاحتكارات التجارية الخارجية . (المترجم نقلا عن قاموس المورد ، بيروت ١٩٧١) .

أى شىء تقريبا ، حتى الأعداء ، وتجب حماية الصناعة الوطنية زمن السلم ، حتى لا تعتمد الأمة على المنتجات الأجنبية زمن الحرب ، ومن ثم عوقت الحكومات الاستيراد عن طريق الرسوم الجمركية ، وشجعت التصدير عن طريق الاعانات ، وتكونت « شركات التجارة » لبيع المنتجات الإنجليزية فى الخارج وهيأ « التجار المغامرون » . الإنجليز منفذا للصادرات فى همبرج . ورأس أنطونى جنكنسون بعثة تجارية إلى روسيا (١٥٥٧) وأخرى إلى إيران (١٥٦٢) ، وذهبت بعثة أخرى إلى الهند (١٥٨٣ — ١٥٩١) . وأنشئت لجنة إنجليزية تركية (١٥٨١) . وأسست الشركة المسكوفية فى ١٥٩٥ ، وشركة الهند الشرقية الشهيرة فى التاريخ فى ٣١ ديسمبر ١٦٠٠ ، وكان المسرح ممهدا لهستنجز وكليف . وقام عشاق البحر أو المال بمغامرات عبر المحيطات بحثا عن طرق جديدة للتجارة . وكان علم الجغرافيا - من بعض النواحى ، نتيجة غير مقصودة لحماستهم . وقامت حركة ضخمة لبناء السفن ، بحثا عن الأسواق والمستعمرات . وتحولت أخشاب غابات إنجلترا إلى سفن وصوار . وشرعت بريطانيا تتحكم فى الأمواج وتحكم البحار . وولدت الامبراطورية البريطانية قولا وعملا .

ولما انتشرت التجارة واتسع مجالها ، تطورت النظم المالية لتيسير عملياتها وتعجيلها . وتضاعف عدد المصارف . وفى ١٥٥٣ أنشأ « التجار المغامرون » شركة مساهمة مشتركة للتجارة مع روسيا ، أصدرت ٢٤٠ سهما قيمة كل منها ٢٥ جنيها ، وكانت الأرباح توزع بعد كل جولة ، ويعاد رأس المال المستثمر[١٥] . ومولت شركة الهند الشرقية رحلاتها بمثل هذه الطريقة . وأدت الأرباح التى بلغت ٨٧ ½ ٪ فى أول رحلة إلى اندفاع المساهمين إلى الاشتراك فى المشروع أو المغامرة الثانية — ومنهم رجال البلاط ، والقضاة ، ورجال الدين ، والفرسان ، والأرامل ، والعوانس ، والحرفيون . وأحب الرجال والنساء آنذاك المال حبا جما ، كما هو الحال اليوم تماما . وكان البرلمان قد حرم الفوائد على القروض حتى ١٥٥٢ ، بوصفها « رذيلة ما أقبحها[١٦] » ، ولكن القوة المتزايدة لرجال الأعمال فى مجلس العموم ، أدت إلى صدور « قانون الربا » فى ١٥٧١ ، وقد ميز هذا القانون بين الفائدة والربا ،

وأجاز نسبة ١٠ ٪ سعرا للفائدة . ولما ازداد التعامل فى الأسهم أنشئت سوق الأوراق المالية (البورصة) لتبادل ملكية الأسهم والبضائع . وسك مزيد من النقود المتداولة ليتسنى شراء السلع وبيعها . وفى ١٥٦٦ أسس جريشام « البورصة الملكية » لتقوم بمثل هذه العمليات التجارية والمالية . وفى ١٥٨٣ أصدرت أقدم « بوليصة » تأمين على الحياة(١٧) .

ونمت الروح التجارية مذ أصبحت لنـــدن واحدة من أسواق ومراكز العالم المزدهرة . وتألقت الشوارع غير المضاءة بما تكدس فيها من بضائع . وحكم جواب آفاق طاف بأقطار كثيرة ، بأن منشآت الصياغ فى لندن أفخم مثيلاتها فى أى مكان آخر فى العالم(١٨) . وجن جنون أصحاب الأعمال للحصول على دور لهم ، واستعمل بعضهم صحن كاتدرائية سانت بول مقرا مؤقتا لمكاتبهم ، وكلهم ثقة بأن « المسيح » كان قد غير رأيه منذ ظهر كلفن ، وهناك تعامل المحامون مع عملائهم ، وأحصى الناس المـــال فوق المقابر ، وفى الفناء باع الباعة المتجولون الخبز واللحم والسمك والفاكهة والجعة والبيرة ، وتدافعت حشود المشاة والباعة المتجولون والمركبات وعربات النقل فى الشوارع الضيقة الموحلة . واستخدم نهر التاميز كطريق رئيسى تمر به مراكب نقل البضائع والمعديات ومراكب النزهة ، وكاد يوجد فى كل نقطة فيه مجدف أو معدّ معه قارب ، مستعد لنقل البضائع أو الركاب عبر النهر ، ضـــد التيار ، أو مع التيار . ومن ثم كانت صيحاتهم العالية (نداءاتهم للركاب) : « شرقاً » أو « غربا » ، التى أخذت عنها عنوانات « روايات جاكوب » . وكان النهر ، إذا زالت عنه رائحته — نعمة كبرى للتجارة والنزهة والعشاق ، وخلفية للمشاهد المسرحية الفخمة والمساكن الفاخرة . وكان جسر لندن الذى بنى فى ١٢٠٩ مفخرة المدينة ، والطريق الوحيد بين طرفيها الشمالى والجنوبى . وتخصص الجنوب فى الحانات والمسارح والمواخير والسجون . أما الشمالى فكان المركز الرئيسى للأعمال . وهنا كان التاجر هو السيد ، وكان اللورد صاحب اللقب يدخل بعد السماح له بالدخول . وكانت الشخصيات الملكية والنبلاء يقطن معظمهم فى قصور خارج لنـــدن . وكان حى وستمنستر ، مقر البرلمان آنذاك ، مدينة منفصلة . وهناك أيضا أجبرهم رجل الأعمال

على سماع صوته ،وما وافت سنة ١٦٠٠ حتى بات فى مقدوره أن يزعج المملكة ، وبعد نصف قرن تقريبا (حوالى ١٦٥٠) قطع رأس الملك .

٢ — فى المدارس

لم يكن عصر شكسبير متوفرا على التعليم . فتعلم العصـــر قليلا من اللاتينية ، وأقل منه من اليونانية ، مع قدر أكبر من الإيطالية والفرنسية ؛ وقرأ الكتب بنهم ، ولكن بسرعة ، واندفع يحكم عليها بالتجربة والاختبار ، وتعلم من مدرسة الحياة ، وأجاب معلمه بوقاحة لم يسمع بمثلها .

ولم تكن اللغة التى استعملها هذا العصر هى لغة المدارس . ولكنها كل لغـــة الحديث الموروثة عن عهود الكلت والرومان والسكسون والنورمنديين فى إنجلترا ، مزيدة بالغنائم اللغوية من فرنسا وإيطاليا ، كما انتزعت بعض الألفاظ العامية من شوارع لندن ، ومن اللهجات فى المقاطعات ، ولكن لغة العصر لم تقنع بهـــذا ، فجعلت الكلمات تلد كلمات ، وجعلت الخيال الواسع يتخبط فى الكلام الخلاق . وهل كان ثمة لغة حية قوية مرنة غنية مثلها ؟ ولم تتوقف لتضع لهجائها القواعد ، وقبل ١٥٧٠ لم توجد قواميس للارشاد إلى ضبط الهجاء والإملاء ، ولم يحدد شكسبير يوما كيف يتهجى اسمه . واستخدم الاختزال ، ولكنه لم يهدئ من روع أصحاب الأعمال المهتاجين ، ولم يسعف الشعر .

وقضى هنرى الثامن على تعليم البنات المنظم حين حل أديار الراهبات . أما التعليم الإبتدائى فكان ميسورا مجانا لأى ولد يمكنه الوصول إلى إحدى المدن . وفتحت اليزابث مائة مدرسة متوسطة مجانية Grammar School ، وأضاف إليها جيمس الأول وشارل الأول ٢٨٨ مدرسة أخرى . أما الأولاد (البنين) من ذوى الأصل العريق فقد كانت قد أسست لهم بالفعل مدارس خاصة Public School (مدارس ثانوية داخلية) فى ونشستر ، وايتون ، وسانت بول ، وشروزبرى ، وأضيف إليها الآن رجبى (١٥٦٧) ، وهارو (١٥٧١) ، ومدرسة Merchant Taylor's (١٥٨١) حيث لمع الاسم التربوى العظيم ريتشارد مولكاستر . وكان المنهج تقليديا ،

بالإضافة إلى الضرب ، وكان تعليم المذهب الأنجليكانى إجباريا فى جميع المدارس . وفى وستمنستر كانت الدراسة تبدأ فى السابعة وتنتهى فى السادسة ، مع فترات فيها شيء من الشفقة : لطعام الأفطار فى الثامنة ، ولسنة من النوم والخلوة بعد الظهر . وكان الآباء يصرون على أن تنهض المدرسة على أكمل وجه ، بإحدى مهامها الرئيسية ، ألا وهى تخليصهم من أبنائهم .

وظلت اكسفورد وكمبردج تحتكران التعليم الجامعى . وكانتا قد فقدتا هيبتهما والثقة بهما فى أثناء الاصلاح الدينى وما اقترن به من هياج وشغب ، كما انصرف عنهما آلاف الطلاب ، ولكنهما كانتا تستردان مكانتهما ، وفى ١٥٨٦ كانت كل جامعة منهما تضم نحو ١٥٠٠ طالب . وفى جامعة كمبردج تبرع سير والتر ميلدماى Mildmay بكلية عمانويل فى ١٥٨٤ ، وأسست فرانسس ، كونتيسة سسكس وعمة فيليب سدنى ، كلية سيدنى سسكس فى ١٥٨٨ . وفى اكسفورد أسست كلية يسوع بأموال حكومية وغير حكومية ١٥٧١ ، وأضيفت كليتا وادهام (١٦١٠) وبمبروك (١٦٢٤) فى عهد جيمس الأول . وشرفت كمبردج فى ١٥٦٤ بزيارة الملكة التى استمعت فى وقار وتواضع إلى خطاب رسمى باللاتينية فى مدحها ، وفى كلية ترنتى ردت باليونانية على خطاب باليونانية ، وفى الطرقات تبادلت الحديث مع الطلبة باللاتينية ، وفى نهاية الزيارة وجهت خطابا باللاتينية أعربت فيه عن أملها فى أن تفعل شيئا من أجل التعليم » وبعد ذلك بعامين زارت اكسفود مبتهجة مفاخرة بقاعاتها وملاعبها ، وعند مغادرتها الجامعة صاحت فى حماس : « وداعا رعاياى الأفاضل ، وداعا أبنائى الطلبة الأعزاء ، وفقكم الله فى دراستكم[١٩] » . لقد عرفت كيف تكون ملكة .

ونافست نساء إنجليزيات أخريات اليزابث فى مجال العلم والمعرفة . فاشتهرت بنات سير أنطونى كوك بعلمهن . واتخذت مارى سدنى كونتيسة بمبروك من بيتها ، فى ولتن منتدى للشعراء ورجال السياسة والفنانين الذين تبينوا فيها عقلا ناضجا يمكنها من تقدير أحسن ما يملكون أو يقدمون . وتلقى مثل هؤلاء السيدات معظم تعليمهن

على أيدي معلمين خاصين فى البيت . وكانت المدارس المتوسطة مفتوحة للجميع ، أما الثانوية الخاصة والجامعات فكانت قصرا على الذكور فقط .

وكان من أبرز سمات العصر أن أقدر الماليين فى عهد اليزابت أسس فى لنـــدن (١٥٧٩) « كلية جريشام » للقانون والطب والهندسة وعلوم البلاغة وغيرها من الدراسات النافعة لطبقة أصحاب الأعمال ، وحدد أن تكون المحاضرات بالإنجليزية واللاتينية على حد سواء ، طالما أن التجار وغيرهم من المواطنين سيلتحقون بها[٢٠] . وأخيرا كان تعليم طبقة ذوى اليسار أو ذوى الألقاب يكمل بالسياحة والرحلات . وقصد الطلبة إلى إيطاليا لاستكمال تدريبهم الطبي والجنسى ، وللتعرف على آداب الإيطاليين وفنونهم ، وتعلم كثيرون أن يعرجوا على فرنسا فى الطريق . ولم تكن اللغة عائقا آنذاك ، لأن كل متعلم فى غرب أوربا ووسطها كان يعرف اللاتينية . وعلى الرغم من ذلك فان المســافرين العائدين أتوا معهم إلى الوطن بأثارة من الإيطالية والفرنسية ، كما جاءوا بولع شديد بالأخلاقيات الهينة اللينة التى سادت إيطاليا فى عصر النهضة .

٣ — الفضيلة والرذيلة

إن كل تلميذ ليعرف تنديد روجر أسكام فى ١٥٦٣ بالرجل الإنجليزى الذى يتشبه بالإيطاليين ، حيث يقول : —

أنى لأعتقد أن الذهاب إلى هناك « إلى إيطاليا » . . . . خطر ، أى خطر . . . لقد جعلت الفضيلة يوما من هذه البلاد سيدة على العالم . ولكن الرذيلة جعلت منها الآن عبدا لمن كانوا من قبل يلذ لهم أن يخدموها . . . . انى على العكس من ذلك ، أعرف رجالا غادروا إنجلترا ممن عرفوا فيها بالحياة البريئة والمعرفة الواسعة عادوا من إيطاليا وقد رغبت نفوسهم عن الاستقامة فى الحياة وانصرفوا عن العلم ، ولم يعودوا إلى ما كانوا عليه قبل سفرهم إلى الخارج . وإذا ذهب بك الظن إلى أننا لا نقرر الحقيقة . فاستمع إلى ما يقوله الإيطاليون . . . « ان الإنجليزى الذى يتشبه بالإيطاليين ليحمل بين جنبيه شيطانا متجسدا فيه » . . . . وكنت أنا نفسي ذات مرة

فى إيطاليا ، وأحمد الله انى لم أمكث فيها إلا تسعة أيام فقط . ومع ذلك رأيت فى هذا الوقت القصير ، فى مدينة واحدة ، من الاباحية والمجون والإثم مالا أكاد أذكره عن مدينتنا الفاضلة لندن فى تسع سنوات[٢١] .

ولم يكن معلم اليزابث هو الوحيد الذى ضرب على هذه النغمة . فقد كتب ستيفن جسون Gosson فى كتابه « مدرسة الفساد » (١٥٧٩) « لقد سلبنا إيطاليا دعارتها ، انك إذا قارنت بين لندن وروما ، وبين إنجلترا وإيطاليا لوجدت أن مسارح الواحدة منهما ومفاسد الأخرى منتشرة انتشارا واسعا بيننا » . ونصح سيسل ابنه ألا يسمح لأولاده أن يعبروا جبال الألب . « لأنهم لن يتعلموا هناك شيئا سوى الغرور وعدم احترام المقدسات والإلحاد[٢٢] » . وفى كتابه « تشريح المفاسد » ، وصم فيليب ستبز Stubbs — وهو بيوريتانى — الإنجليز فى عصر اليزابث — بأنهم أشرار مترفون مزهوون ، يفاخرون بخطاياهم . ونعى الأسقف جول Jewel فى موعظة ألقاها أمام الملكة — نعى على الناس فى لندن أنهم فى سلوكهم وأخلاقهم « يهزأون بكتاب الله المقدس ، الإنجيل ، ومن ثم يصبحون أكثر فسقا وأكثر شهوانية وحبا للدنيا وأكثر دعارة ، مما كانوا عليه فى أى وقت مضى . . . وإذا كانت حياتنا تشهد بعقيدتنا وتنم عن ديننا ، فانها تنادى بأعلى صوت . . . . . ليس هناك إله[٢٣](*) .

إن مثار الضجة والنعى على الأخلاق يرجع فى كثير منه إلى أساتذة الأخلاق

(*) يروى أوبرى قصة تؤيد أسكام ، يقول « كان والتر رالى مدعواً إلى العشاء مع شخصية كبيرة . وكان ابنه يجلس إلى جواره ، محتشما غاية الاحتشام ، على الأقل طيلة نصف فترة العشاء . ثم قال : هذا الصباح ، ولم تكن خشية الله ماثلة أمام عينى ، قصدت إلى واحدة من بنات الهوى كنت شديد الهيام بها ، وأردت أن استمتع بها . ولكنها دفعتنى عنها واقسمت ألا أقربها ، قائلة إن أباك كان يضاجعنى منذ ساعة فقط . فما كان من والتر ، وقد فوجىء مفاجأة مذهلة ، وخاصة فى مثل هذه المأدبة العظيمة ، إلا أن لطم ابنه لطمة شديدة على وجهه . ولكن الابن ، رغم فظاظته وغلظته ، لم يضرب أباه ، بل لطم الرجل الذى كان يجلس إلى جواره ، وقال : لكمة هنا وهناك ستصيب أبى حالا . . . » (موجز سير الحياة Brief Lives — ص ٢٥٦) .

الذين نددوا أشــد التنديد بالنساء والرجال الذين لم يعودوا يلقون بالا إلى أهوال الجحيم أو يؤمنون بها . ويحتمل ألا يكون الناس فى مجموعهم شرا أو خيرا عما كانوا عليه من قبل ، ولكن ، كما تشددت الأقلية البيوريتانية فى أخلاقها وقترت فى أموالها واقتصدت فى بنات شفاهها ، كذلك اتفقت أقلية وثنية مع الإيطاليين على أن التمتع بالحياة ، أفضل من إرهاق أنفسنا بالتفكير فى الموت دون جدوى . ويمكن أن تكون الأنبذة الإيطالية ، التى كان الناس يقبلون عليها فى إنجلترا ، قد ساعدت على الإباحية فى الأخلاق ، وبالمثل على توسيع الشرايين ، وكان ذلك أبقى أثرا . وربما جاء من إيطاليا ومن فرنسا ومن الآداب القديمة ، معنى أصرح احساسا بالجمال . ولو أن هذا المعنى جلل بشىء من الحزن نتيجة شعور أقوى بقصر عمر الجمال . وحتى جمال الشاب النضير كان يثير الناس فى عصر اليزابث أشد إثارة . وأجرى مارلو (فى روايته دكتورفاوست) على لسان ميفستوفيلس . امتداحه لفاوست على أنه أجمل من السموات . وتأرجحت قصائد شكسبير (Sonnet تتألف من ١٤ بيتا) بين عشق المرء لأفراد جنسه وعشقه لأفراد الجنس الآخر . ولم يعد جمال المرأة مجرد خيال شعرى ، ولكنه ثمل سرى فى الدم وفى الآداب وفى البلاط ، وحول القراصنة إلى شعراء . وجمع نساء البلاط الظرف وخفــة الدم إلى التجميل والتطرية فسحرن ألباب الرجال كما أسرن قلوبهم . وكان فى التواضــع إغراء بالاقتناص ومضاعفة لسلطان الجمال . وضاعت الابتهالات إلى مريم العذراء وسط استنكار العذرية والانتقاص من قدرها . وتفجر الحب الرومانتيكى فى الأغانى مع حرارة الرغبة المتمنعة . وابتهج النساء إذ رأين الرجال يقتتلون من أجلهن ، وأسلمن أنفسهن ، بالزواج أو بغيره ، لمن تكون له الغلبة . وكان من سمات اضمحلال سلطان العقيدة أن موافقة الكنيسة أو مراسمها لم تعد الآن مطلوبة لصحة الزواج ، ولو أن الاعتراف به كان يعتبر إساءة للناموس العام ، تمييزا له عن القانون . وكانت معظم الزيجات تدبر عن طريق الوالدين ، بعد إطراء متبادل لمزايا الطرفين ، ومن ثم تصبح معبودة الساعة المشدوهة ، ربة بيت متحرره من الأوهام ، منصرفة بكليتها إلى أولادها ومهامها الشاقة ، هكذا يعمر الجنس البشرى .

وثمة انحلال خلقى أسوأ دمغت به الحياة العامة ، فقــد تفشى فى الوظائف الرسمية ابتزاز الأموال ، قلت أو كثرت ، وتغاضت عنه اليزابث ، كعذر لها عن عدم زيادة الرواتب[٢٥] . وكان أمين صندوق الحرب يحصل على ١٦٫٠٠٠ جنيه سنويا علاوة على راتبه . وبالاحتيال القديم قدم الأزل ، كانوا يحتفظون بأسمــاء الجنود الموتى فى قوائم الجيش ويضعون مخصصاتهم فى جيوبهم ويبيعون الملابس المخصصة لهم[٢٦] . وكان الجندى يساوى وهو ميت أكثر منه وهو حى ، وقبض ذوو المناصب الكبيرة مبالغ ضخمة من فيليب الثانى ليوجهوا سياسة إنجلترا نحو أهداف أسبانيا[٢٧] . ومارس أمراء البحر القرصنة وباعوا الرقيق . وباع رجال الدين رواتب الكنيسة[٢٨] ، وكان يمكن إغراء الصيادلة بتسميم الأدوية والأطباء بوصفها للناس . وغش التجار فى البضائع ، ووصل الأمر إلى فضيحة عالمية ، ففى ١٥٨٥ حدث من الغش فى الأقمشة الصوفية وغيرها فى إنجلترا أكثر مما حدث منه فى أوربا بأسرها [٣٠] ، وكانت الأخلاق العسكرية بدائية ساذجة . وكم من مرة حدث الاستسلام بلا قيد ولا شرط ، فكان جزاؤه إعمال الذبح فى الجنود وفى غير المحاربين على حد سواء . وكان السحرة والعرافون يحرقون . كما كان الجزويت يؤخذون من فوق المشنقة ليقطعوا اربا[٣١] . لقد جرت ينابيع الرحمة الإنسانية مستأنية فى عهد الملكة الفاضلة اليزابث .

٤ — العدالة والقانون

مازالت طبيعة الإنسان تنفر من المدنية ، على رغم القرون العديدة التى سادت فيها الديانات وقامت الحكومات ، وظلت تعبر عن الاستياء والاعتراض فى سلسلة طويلة من الخطايا والجرائم . لم تفلح القوانين والأساطير والعقوبات فى وقف سيلها . وكان فى قلب مدينة لندن أربع مدارس للقانون هى The Inner Temple, The Middle Temple Gray,s Inn Lincoln,s Inn، تعرف فى جملتهــا باسم دور القضــاء وأقام الطلبة فيها كما كانوا يقيمون فى قاعات كليــات أكسفورد وكمبردج . ولم يسمح بالالتحاق بها إلا لذوى المحتد الكريم ، وكان كل المتخرجين فيها يقسمون اليمين على خدمة التاج . وكان البارزون منهم أو الذين يسهل قيادهم يصبحون قضاة فى

محاكم الملكة . وارتدى القضاة والمحامون فى أثناء تأدية عملهم أردية تدل على الهيبة والوقار ، وكأن عظمة القانون وجلاله يكمنان فى خياطة الثياب .

وكانت المحاكم ، بالاجماع ، فاسدة . وعرف أحد أعضاء البرلمان قاضى الصلح بأنه : « حيوان يمكنه أن يستغنى بست دجاجات عن اثنا عشر قانونا[٣٢] » . وطلب فرنسيس بيكون مغريات أكبر . وفى رواية شكسبير قال الملك لير الذى روعه الحزن : « اكسوا الخطيئة بالذهب ، يتكسر سيف العدالة القاطع دون أن يؤذى أحدا[٣٣] » ، ولما كان القضاة يعزلون وفق مشيئة الملكة فانهم حسبوا لهذا حسابه فى أحكامهم ، وقبض ذوو الحظوة لديها الرشوة ليغروها بالتدخل فى قرارات المحاكم[٣٤] ، وظل نظام المحلفين معمولا به ، إلا فى تهمة الخيانة العظمى ، ولكن غالبا ما كان القضاة أو موظفو التاج يخوفون المحلفين ويكرهونهم على قضاء مآربهم بالتهديد[٣٥] ة وكان هناك توسع فى تعريف تهمة الخيانة العظمى لتشمل كل عمل يهدد حياة صاحب العرش أو جلاله . وكان نظر مثل هذه القضايا أمام محكمة قاعة النجم (The Star Chamber) — وهو مجلس شورى الملكة منعقدا على هيئة محكمة ليمارس سلطاته القضائية ، وهناك كان المتهم محروما من تحقيق المحلفين لقضيته أو المعارضة فى أمر حبسه ، أو من محام للدفاع عنه ، بل كان عرضة للاستجواب المرهق أو التعذيب ، وكان يحكم عليه عادة بالسجن أو الإعدام .

وقام قانون العقوبات على العوائق أكثر منه على المراقبة والكشف عن الحقيقة . ولما كانت القوانين ضعيفة فقد باتت العقوبات صارمة . وكان الإعدام هو العقوبة القانونية لأية واحدة من مائتى جريمة . منها الابتزاز بالتهديد ، وقطع الأشجار الصغيرة ، وسرقة أكثر من شلن واحد . وبلغ متوسط من شنقوا بسبب الجريمة ، سنويا ، فى إنجلترا المبتهجة ، فى عهد اليزابث ، ٨٠٠ شخص[٣٦] . أما الجرائم الصغرى فكان عقابها التعذيب بالمشهرة والمخلعة والجلد بالسياط ، وإحراق ثقب فى الأذن أو اللسان ، وقطع اللسان أو إحدى الأذنين أو اليدين[٣٧] . ولما كتب جون ستبز ، وهو محام بيوريتانى ، نشرة يستنكر فيها اقتراح زواج اليزابث من ألنسون ،

باعتبار هذا الزواج خضوعا أو استسلاما للكاثوليكية ، قطعت يده اليمنى بأمر القاضى ، فرفع جون الجدعة الدامية ، ورفع بيده اليسرى قبعته ، ثم هتف « لتحى الملكة[٣٨] » وقدم فيليب سدنى إلى الملكة احتجاجا على هذه الوحشية . واستشعر سيسل العار والخجل فعينه فى منصب حكومى ذى راتب كبير وجهد يسير . وكان التعذيب غير مشروع ، ولكن محكمة قاعة النجم استخدمته ، وإنا لنلاحظ أنه برغم أن آداب العصر كانت عميقة قوية ، فإن المستوى العام لمدنية العصر لم يبلغ مستوى المدنية فى إيطاليا أو أفنيون فى عهد بترارك ، وأقل كثيرا منه فى رومه على عهد أغسطس .

٥ — فى البيت

بدأت الحياة الإنجليزية بمحاولة التغلب على مشكلة وفيات الأطفال ، وكانت نسبتها عالية ، وكان سير توماس براون من أعلام الطب ، ومع ذلك مات ستة من أولاده العشرة فى سن الطفولة[٣٩] . ثم كانت الأوبئة ، مثل « مرض العرق » ١٥٥٠ ، والطاعون الذى حل بالبلاد ١٥٦٣ ، ١٥٩٢— ١٥٩٤ ، ١٦٠٣ . ولا بد أن متوسط الأعمار كان منخفضا ، قدرته بعض الاحصاءات بثمان سنوات ونصف سنة[٤٠] . وكبر الناس وأدركهم الهرم بأسرع مما هو حادث الآن . أما الذين عمروا فهم الشجعان ذوو القدرة على الاحتمال الذين صلبت أعوادهم وقويت أعصابهم بمقارعة الموت ، من أجل الخدع الحربية والأسلاب .

وكانت الرعاية الصحية آخذة فى التحسن . وبدأ الصابون يكون ضروريا بعد أن كان ترفا . وحوالى ١٥٩٦ ابتدع سيرجون هارنجتون مرحاضا فيه ماء جار . وكانت الحمامات الخاصة قليلة . واستخدمت معظم الأسرات حوضا خشبيا موضوعا أمام نار مكشوفة . وكان فى كثير من المدن حمامات عامة . وهيأ Bath and Buxton للطبقة العليا منشآت أنيقة للاستحمام . وقدمت « الدفيئات » (Hot Houses) حمام البخار ، وقدمت التسهيلات للأكلات واللقاءات الغرامية غير المشروعة ، وزودت بيوت الموسرين دون غيرهم بموارد مياه خاصة بهم فى منازلهم ، أما معظم الأسرات فكانت تلتمس الماء من قنوات عامة مفتوحة على ينابيع مزخرفة .

وبنيت البيوت في القرى والمدن من الآجر والجص ، تحت سقوف من القش ، ولا يزال كوخ آن هاثاواى بالقرب من ستراتفورد — أون — أفون ، محتفظا به فى حالة جيدة ، كنموذج لهذه المساكن . أما فى المدن الكبرى فكانت البيوت متلاصقة عادة ، واستخدم فى بنائها قدر أكبر من الآجر والحجر ، وكان لها سقوف من القرميد ، وكانت المشربيات المقسمة بأعمدة من الحجر والأدوار العليا الناتئة تلفت أنظار الذين لم يألفوا رؤيتها . وكانت البيوت من الداخل مزدانة بالنقوش والأعمدة . وكانت المدفأة تضفى على الغرفة الرئيسية أو القاعة الكبرى جلالا وتزودها بالدفء ، كما كان السقف — من الخشب أو الجص — يقسم إلى رسوم متماثلة أو غريبة . وكانت هناك المداخن التى تنفث الدخان إلى الخارج ، وكان من قبل يلتمس له منفذا من ثقب فى السقف . وكانت المواقد تساعد على تدفئة البيت . وكانت النوافذ الزجاجية شائعة آنذاك . ولكن ظلت الاضاءة فى الليل بالمشاعل أو الشموع . وغطيت أرضية البيوت بالأسل والأعشاب ذات الرائحة الزكية عندما تكون طازجة ، ولكنها لا تلبث أن تصبح كريهة الرائحة ، وتؤوى الحشرات . وجاء السجاد بعد ذلك بخمسة وأربعين عاما . وكانت الجدران تزدان بالأقمشة المزركشة بالصور والرسوم ، مما مهد الطريق لرسم اللوحات ، فى عهد شارل الأول . واستخدم معظم الناس المقاعد الطويلة لشخصين أو أكثر والكراسى ذوات الأرجل الثلاث ، أما الكرسى ذو الظهر فكان ترفا اختص به الضيف الكريم أو رب البيت أو ربته ، ومن هنا جاء التعبير « يأخذ الكرسى ذا الظهر » بمعنى « يترأس المجلس » ، وفيما عدا هـذا كان الأثاث متينا رائعا . فكانت ، صواوين المائدة (البوفيه) والمنضدة وخزائن النفائس (دولاب الفضية) والصناديق الثمينة والأسرة ذوات القوائم العالية تصنع وتحفر من خشب الجوز أو البلوط ، لتعمر قرونا طويلة . وكان السرير المزود بحشايا سميكة من الريش ، وبأغطية مطرزة ، وظلة حريرية (ناموسية) ، يتكلف ألفا من الجنيهات ، ويعتبر شيئا ثمينا يزهو به أهل البيت ويتوارثونه جيلا بعد جيل . وخلف البيت أو حوله ، فى كل الطبقات تقريبا ، كانت توجد حديقة زاخرة بالأشجار والشجيرات ، تهيئ لهم الظل ، وتمدهم بالأزهار التى اعتاد النساء أن

يستعملنها فى تزيين بيوتهن وشعورهن ، واعتاد شكسبير أن يعطر بهما شعره — زهرة الربيع ، الزنبق ، صريمة الجدى (شجيرة أزهارها غنية بالرحيق) وزهر العايق الجميل ، والقرنفل الملتحى ، والادريون (القطيفة) ، وزهرة كيوبيد وزنبقة الوادى ، وغيرها كثير ، بالإضافة إلى الورود البيضاء أو الحمراء . . . . ويقول بيكون : « ان الله سبحانه وتعالى غرس حديقة ، لولاها لكانت الأبنية والقصور التى شيدها الإنسان فظة غير مقبولة[٤١] » .

وغالبا ما تكلفت زينة المرء أكثر كثيرا من زخرفة بيته ولم يبز أى عصر من العصور عصر اليزابث فى فخامة الثياب . وكان من بين نصائح بولونيوس قوله : « إن ثمن الثياب مرهون بما تستطيع أن تدفع » . وعند الطبقات الموسرة اجتمعت كل الأزياء من فرنسا وإيطاليا وأسبانيا ، لتعوض الإنسان عما سلبته إياه الشهوة والزمن . وسخرت بورشيا من الشاب فالكنبردج قائلة : « أظنه اشترى صداره من إيطاليا وسرواله القصير من فرنسا ، وقلنسوته من ألمانيا وسلوكه من كل مكان[٤٢] » . وضربت اليزابث مثلا ونموذجا للتزين ، إلى درجة أنه فى عصرها تغيرت الأزياء مرارا وتكرارا ، لأن محاكاة الناس لها بشكل عام ، كادت تمحو الفروق الطبقية . وتبدى شخصية من شخصيات « أسمع جعجعة ولا أرى طحنا Much ado adout Nothing » « الحزن والأسف على أن » تغير الأزياء يفنى من الثياب أكثر مما يفنيه الإنسان[٤٣] . وحاولت قوانين الانفاق أن تضع حداً لهذا الاضطراب والفوضى فى حياكة الملابس ، نصدر قانون ١٥٧٤ ليعالج « التبذير والضياع عند عدد كبير من الشبان « الذين يلبسون ما يملكون من أرض فوق ظهورهم » . وحرم هذا القانون على غير الأسرة المالكة ، والدوق والمركيز والارل ، لبس اللون الأرجوانى ، أو الحرير أو القماش الموشى بالذهب ، أو فراء السمور ، كما حرم على غير البارونات وذويهم لبس الفراء والمخمل القرمزى . أو الأصواف المستوردة ، والملابس المطرزة بالذهب أو الفضة أو اللؤلؤ[٤٤] ، ولكن سرعان ما أمكن التهرب من هذه القوانين ، لأن البرجوازية الطامعة استنكرتها لا لأنها مثيرة للأستياء والغضب فحسب ، بل لأنها كذلك تعوق التجارة . فألغيت فى ١٦٠٤ .

واتخذت القبعات على أى شكل ومن أى لون ، من القطيفة أو الصوف أو الحرير أو الشعر الناعم الرقيق ، ووضع الناس قبعاتهم على رءوسهم دائما تقريباً ، خارج البيت أو البلاط ، وحتى فى الكنيسة كان الرجال يرفعون قبعاتهم — تمسكا بالمراسم — عند الالتقاء بالسيدات . ولكنهم يلبسونها فورا . واحتفظ الرجال بشعورهم الطويلة قدر ما احتفظت النساء بها . وأرخوا اللحى غزيرة . ووضع الجنسان كلاهما حول الرقبة طوقا مكشكشا وياقة من الكتان و « الكمبريكى Cambric » (قماش من القطن أو الكتان أبيض ناعم) موضوعة على اطار من الورق المقوى والأسلاك ، تيبست فى ثنيات أو طيات عريضة حادة ، « بمادة سائلة سموها النشا[٤٥] » ظهرت فى إنجلترا آنذاك لأول مرة . وكانت كترين دى مديتشى أدخلت هــذه البدعة إلى فرنسا ١٥٣٣ بوصفها شيئا للتزين والزخرف . ولكن الزى السائد (موضة العصر) توسع فيها حتى جعل منها آلة تعذيب تصل إلى الأذنين .

وجعلت الملابس من النساء لغزاً لا يمكن النفاذ إلى كنهه إلى حين . ولا بد أن نصف يومهم كان يستغرق فى اللبس والخلع . ويتم تجهيز السفينة وتزويدها بكل ما يلزمها بأسرع مما تتزين المرأة[٤٦] . حتى الشعر كان يمكن أن يلبس أو يخلع . لأن اليزابث رسمت لهم نموذجا فى لبس اللمة أو الشعر المستعار المصبوغ بلون خصلاتها الذهبية أيام شبابها . وكان الشعر المستعار شائعا لأن النساء الفقيرات — كما قال شكسبير — كن يبعن خصلات شعرهن « بالميزان[٤٧] » . وبدلا من القبعات آثر معظم النساء قلنسوة بالغة الصغر أو شبكة شفافة تسمح بابراز فتنة شعرهن . وكانت أدوات التجميل تصبغ الوجوه وتزجج الحواجب ، والأقراط تتدلى من الآذان ، والمجوهرات تتألق فى كل مكان . وكان الطوق المكشكش للنساء ، مثل ما هو للرجال ، ولكن كان صدر المرأة فى بعض الأحيان عاريا إلى حد ما[٤٨] . ولما كانت اليزابث ضامرة الصدر مستطيلة البطن ، فقد ابتدعت زيا تطول فيه السترة على شكل مثلث إلى رأس دقيق تحت الخصر المشدود . وكانت التنورة تمتد من الأوراك بواسطة الطوق الموسع . وكانت العباءة المصنوعة من قماش هفهاف بشكل محكم ، تغطى الأرجل ، وابتدعت الملكة الجوارب الحريرية . وكانت التنورات تتدلى

حتى تمس الأرض ، والأكمام منتفخة ، والقفازات مطرزة معطرة . وكانت السيدة تستطيع فى الصيف أن تتحدث بالمروحة المزدانة بالجواهر ، ومن ثم تأتى بأفكار فيها من الرقة مالا تعبر عنه الكلمات .

ولكن الحياة فى البيت نادرا ما كانت بملابس كاملة . وكان تناول الأفطار فى الساعة السابعة والغذاء فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، والعشاء فى الخامسة أو السادسة . وهكذا ينقضى النهار . وكانت الوجبة الرئيسية يتناولونها قرب الظهر ، وكانت وجبة زاخرة بألوان الطعام . وقال أحـــد الفرنسيين « إن الإنجليز يملأون بطونهم(٤٩) » . وظلت الأصابع تقوم مقام الشوكة التى بدأ استعمالها فى عهد جيمس الأول . وكانت الأطباق الفضية تزين البيوت الموسرة . وكان اختزانها بالفعل وقاء ضد التضخم . أما الطبقات الوسطى الدنيا فانها استخدمت أوانى من القصـــدير (البيوتر) . واستخدم الفقراء أطباقا من الخشب وملاعق من مادة قرنية (من القرون) . وكان اللحم والسمك والخبز هى الأطعمة الرئيسية ، وكان كل من يداوم عليها تقريبا يعانى من داء النقرس . وكانت منتجات الألبان شائعة مألوفة فى الريف لأن وسائل التبريد كانت لا تزال غير متوفرة فى المدن . وكان الفقراء فقط يستخدمون الخضروات بكثرة لأنهم كانوا يزرعونها فى أراضى حدائقهم . وكان البطاطس الذى جاء به والتر رالى أثناء رحلاته فى أمريكا ، من إنتاج الحدائق ، لأنه لم يكن قد أصبح من محاصيل الحقول . واشتهر الإنجليز « بالبودنج » (نوع من الحلوى) يستطيبون أكله فوق الفاكهة التى يختمون بها طعامهم . وكان الإنجليز يقبلون على الحلوى ، قدر اقبالهم عليها اليوم . ولهذا كانت أسنان اليزابث سوداء .

وتطلبت هذه الأكلات الشهية بعض السوائل المزلقة : الجعة ، البيرة ، النبيذ أو عصير الفاكهة . ولم يكن الشاى والقهوة قد أصبحتا مشروبات إنجليزية . وشاع شرب الويسكى فى أنحاء أوربا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر (وكان يسمى ماء الحياة) . وكان تقطيره من الحبوب فى الشمال ، ومن النبيذ فى الجنوب . وكان شرب الخمر بمثابة احتجاج على المناخ الرطب . وتوحى عبارة « ثمل كأنه لورد » بأن هذ العلاج كان يتمشى مع السلم الاجتماعى . وأدخل التبغ إلى إنجلترا على يد

جون هوكنز (١٥٦٤) ود ريك ، وسير رالف لين ، وجعل رالى من التدخين عادة مألوفة فى البلاط ، وأخذ منه نفثة أو نفثتين قبل ذهابه إلى المشنقة ، وكان التبغ فى أيام اليزابث غالى الثمن إلى درجة حالت دون انتشار التدخين ، وفى بعض التجمعات التى تسودها الألفة والبهجة ، كانوا يعمدون إلى تمرير غليون واحد على كل الضيوف حتى يستمتع كل منهم بنصيبه من التدخين وفى ١٦٠٤ شن الملك جيمس « هجوما عنيفا على التبغ » ، ناعيا ادخاله إلى إنجلترا محذرا من « سم معين » فيه . يقول : —

" أليس من أشد الحمق والقذارة أنه على المائدة ، وهى محل الاحترام والنظافة والتواضع ، لا يخجل الناس من أن يتقاذفوا الغلايين وينفثوا الدخان ، الواحد منهم فى وجه الآخر . فينبعث الدخان القذر والرائحة الكريهة على الأطباق . ويلوث الهواء ؟ .

لقد انتشر استعماله فى كل زمان وفى كل مكان بين الناس على اختلافهم . . . لأنهم ، على الأقل ، اضطروا إلى تناوله ، على كره منهم ، خجلا من أن يرموا بالشذوذ . . . وفوق ذلك ، وهذا اثم كبير ، فإن الزوج لا يخجل من أن يكره زوجته الرقيقة الصحيحة الجسم النظيفة البشرة على هذا الخطر العظيم — التدخين — فتفسد بذلك أنفاسها الزكية ، أو توطن النفس على أن تظل دوما فى عذاب الثمل . . . انها عادة ضارة بالعينين ، كريهة للأنف ، مؤذية للمخ ، خطرة على الرئتين . إن هذا الدخان الأسود الكريه أقرب الشبه بنار جهنم التى لا قرار لها(٥٠) ".

وبرغم هذا ، وبرغم الضرائب الباهظة ، كان فى لندن سبعة آلاف حانوت لبيع التبغ . ولم يحل اشعال الغليون ونفث الدخان محل الحديث والمناقشة ، فقد تحدث أفراد الجنسين بصراحة فى موضوعات يقتصر فيها الحديث الآن على قاعات التدخين وملتقى الشوارع ، أو على رجال العلم . وتنافس النساء مع الرجال فى حلف الأيمان التى تقارب الكفر والتجديف على الله . وفى الدراما فى عهد اليزابث يلتصق العاهرات بالأبطال . وترقش التورية « المأساة » العنيفة . وكانت آداب السلوك

متكلفة أكثر منها مهذبة . وغالبا ما تدرجت الكلمات إلى لطمات . وجاءت آداب كما جاءت الأخلاق ، من إيطاليا وفرنسا ، كما جاءت الكتيبات التى عالجت قواعد السلوك واللياقة ، وحاولت أن تجعل من الأرستقراطيين سادة أفاضل ، ومن الملكات سيدات فضليات . وكانت أساليب التحية مسرفة فى التعبير ، واقترنت بالتقبيل غالبا . وكانت البيوت بما فيها من الأضواء وحفلات الابتهاج الصاخبة ، أكثر مرحا عن ذى قبل ، أيام الارهاب فى العصور الوسطى ، وفيما بعد أيام البيوريتانية وما سادها من كآبة . وكانت الأعياد والمهرجانات كثيرة ، فأى شيء يمكن أن يبرر إقامة احتفال أو عرض ، فالزفاف ، أو الولادة ، بل حتى الجنازة ، قد تهيئ مناسبة للاحتفال ، أو على الأقل للولائم . ومارسوا الألعاب على اختلاف أنواعها فى البيوت والملاعب ، وعلى نهر التاميز . وقد ذكر شكسبير « البلياردو » ، وتحدث فلوريو عن « الكركت » وسخر الناس من القوانين الزرقاء وأيام الأحد الزرقاء (قوانين متشددة سنها البيوريتانز يحرمون بها الرقص والألعاب والمهرجانات يوم الأحد . . .) وإذا كانت الملكة قد خطت الخطوة الحميدة السارة ، فلم لا يترسم الناس خطاها ويحذون حذوها ؟ لقد رقص كل الناس تقريبا ، بما فيهم كما قال بيرتون « عجائز النساء والرجال الذين كان لهم من أصابع القدمين أكثر مما فى الأفواه من أسنان » . وكان كل الإنجليز يغنون .

٦ — الموسيقى الإنجليزية ١٥٥٨ — ١٦٤٩

إن الذين لا يعرفون من إنجلترا إلا الفترة التى أعقبت البيوريتانية ، لا يمكنهم أن يحسوا بالدور البهيج الذى لعبته الموسيقى أيام اليزابث . فمن البيت والمدرسة والكنيسة والشارع والمسرح ونهر التاميز ارتفعت ألحان الموسيقى المقدسة أو الماجنة — القداسات ، الموسيقى الطباقية المتعددة النغمات ، القصائد الغزلية ، الأغانى الشعبية ، وأغانى الحب الرقيقة القصيرة . مثل تلك التى وجدت لها مجالا فى روايات عهد اليزابث . وكانت الموسيقى برنامجا أساسيا فى مناهج التعليم ، وخصص لها فى مدرسة وستمنستر ساعتان فى الأسبوع ، وكان فى أكسفورد كرسى للموسيقى (١٦٢٧) وكان مفروضا أن يقرأ كل رجل مهذب الموسيقى ويعزف على كل بعض الآلات .

وفى كتاب توماس مورلى : « مقدمة واضحة ميسرة عن الموسيقى العملية » جاء ذكر رجل إنجليزى خيالى ساذج غير مثقف ، يعترف بخجله وعاره ، فيقول :

« بعد العشاء جىء بكتب الموسيقى ، كما كانت العادة ، وقدمت إلى سيدة البيت شيئا منها ، وطلبت فى رفق أن أغنى ، فاعتذرت كثيرا ، وامتنعت ، وقلت وأنا صادق فيما أقول ، انى لا أعرف ، فتعجب كل الحاضرين ، وتهامسوا متسائلين : كيف نشأ هذا الرجل ؟ (٥١)»

وكانت حوانيت الحلاقين تقدم للزبائن المنتظرين آلات موسيقية ليعزفوا عليها .

وكانت الموسيقى فى عهد اليزابث ، فى معظمها ، علمانية ، وبقى بعض الملحنين ، من أمثال طاليس وبيرد وبل ، على مذهبهم الكاثوليكى برغم القوانين ، وألفوا الموسيقى للطقوس الرومانية ، ولو أن تلك التآليف لم تكن تعزف علنا . واعترض كثير من البيوريتانيين على موسيقى الكنيسة باعتبار أنها تشتت أذهان المصلين وتصرفهم عن التقوى . وأنقذت اليزابث والأساقفة موسيقى الكنيسة فى إنجلترا ، كما أنقذها بالسترينا ومجلس ترنت فى إيطاليا . وساندت الملكة بعزيمتها المعهودة رؤساء المنشدين الذين نظموا الفرق الموسيقية الكبيرة والموسيقى الرسمية للكنيسة الملكية والكاتدرائيات . وأصبح كتاب الصلوات العامة ، مرجع النصوص الموسيقية الهائل للملحنين الإنجليز ، وكانت الصلوات الأنجليكانية تنافس الصلوات الكاثوليكية فى القارة فى فخامة فن تعدد الألحان ووقاره . وحتى البيوريتانيون أنفسهم ، منتهجين نهج كلفن ، أقروا انشاد جماعات المصلين للترانيم . وسخرت اليزابث منهم قائلة : « ان جنيف ترقص ، أما هؤلاء فقد ارتقوا إلى مستوى التراتيل والتسابيح الكريهة » .

ولما كانت الملكة تحمل بين جنبيها روحا دنيوية دنسة ، مولعة بالغزل والملق والملاطفة والتودد ، فقد كان من المعقول أن تكون القصيدة الغزلية هى مفخرة الموسيقى فى عهدها — أغنية حب فى طباق موسيقى — وهى جزء من أغنية لا تصاحبها الآلات الموسيقية . ووصلت القصيدة الغزلية من إيطاليا ١٥٥٣ ، ففتحت الطريق .

وحاول مورلى أن يسهم فى هذا المجال ، وشرحها فى حواره السهل الرشيق ، ودعا إلى تقليدها ، وثمة قصيدة غزلية لخمسة مغنين ، وضعها جون دلباى ، توحى بالأفكار الرئيسية فى هذه الأغانى .

واحسرتاه . أية حياة تعسة ، وأى موت هذا ،
حيث المحبوب الظلوم يسيطر ويتحكم !
ان نضارة أيامى تذبل وأنا فى ربيع العمر ،
وتلاشت أحلامى الجميلة تماما ، وحياتى تنصرم .
وتولت أفراحى الواحد بعد الآخر
وتركت أعانى سكرات الموت
من أجل تلك التى تحتقر آهاتى وأناتى .
آه ، انها لتهجرنى ، وتكبت حبى
وهى التى من أجلها ، واحسرتاه ، أموت شاكيا ، وهى متحجرة القلب[٥٢].

وكان وليم بيرد شكسبير الموسيقى فى عهد اليزابث ، اشتهر بالقداسات والقصائد الغزلية الملفوظة أو المعزوفة على الآلات ، والألحان على حد سواء . وكرمه معاصروه على أنه « رجل عظيم جدير بالذكر » . وقال عنه مورلى « انه حظى من الاجلال والاحترام ما يستحق معه أن يخلد اسمه بين الموسيقيين[٥٣] » وكان فى مثل مكانته العالية وتعدد براعاته وجوانبه أورلندوجيبون وجون بل Bull ، وهما عازفان على الأرغن فى الكنيسة الملكية . واشترك هذان مع بيرد ١٦١١ فى وضع أول كتاب عن لوحة المفاتيح للموسيقى فى إنجلترا ، وهو كتاب Parthenia ، أو باكورة أول موسيقى طبعت فى إنجلترا للعذراوية » (وهى آلة موسيقية شبيهة ببيان صغير بدون قوائم .) وفى نفس الوقت أكد الإنجليز شهرتهم فى تلحين الأغنية المنفردة (مع آلة واحدة أو مغن واحد) ، ذات العذوبة الجميلة المعبقة بعبير الريف الإنجليزى ، وحظى جون دولند الذى اشتهر بالعزف على العود ، بالمدح والثناء من أجل أغانيه ، ونافسه توماس كامبيون منافسة شديدة . ومن ذا الذى لا يعرف مقطوعة كامبيون : « الكرز الناضج — Cherry Ripe ؟ [٥٤] »

وكان الموسيقيون ينتظمهم اتحاد قوى ، انفصمت عراه بسبب الصراع الداخلى أيام شارل الأول(٥٥) ، وكادت الآلات تتنوع ، كما هى اليوم : العود ، القيثار ، الأرغن ، العذراوية ، أو البيان الصغير ، موترة المفاتيح (آلة موسيقية وترية مزودة بلوحة مفاتيح) أو البيــان القيثارى . الفلوت (آلة نفخ موسيقية) ، الصافرة ، المزمار ، البوق ، المرددة ، النفير . الطبول ، وأشكال كثيرة من الفيول ، حل محلها الكمان الحالى . وكان العود مفضلا فى العزف . وفى مصاحبة الغناء ، أما العذراوية ، وهى الأم المتواضعة للبيان ، فكانت محبوبة شائعة لدى السيدات الصغيرات ، وعلى الأقل قبل الزواج ، وألفت الموسيقى الآلية أساسا للعذراوية والفيول والعود . ولحن نوع من الموسيقى الحجرية (موسيقى الحجرة : يعزفها بضعة موسيقيين أمام نفر قليل من الناس .) للعزف على عدة فيولات تختلف فى الحجم والطبقة . وفى مسرحية تنكرية للملكة آن زوجة جيمس الأول ، استخدم كامبيون فرقة من عازفى العود وموترة المفاتيح والبوق مع تسعة فيولات . (١٦٠٥) وقد انحدر إلينا كثير من الموسيقى الآلية التى وضعها بيرد ومورلى ودولند وغيرهم . وهى مؤسسة إلى حد بعيد على أشكال الرقص ، كما تتبع النماذج الإيطالية ، وتتفوق فى الجمال الرقيق المرهف أكثر منها فى القوة والطبقة . وتطورت الفوجة وفن مزج الألحان ، ولكن دون تنوع فى الأفكار الرئيسية أو الموضوع ، أو براعة فى تغيير طبقة الصوت والانتقال من نغمة إلى أخرى ، أو نشاز مقصود أو تناغم لونى . ومع ذلك فاننا عندما ترهق أعصابنا بمشاق حياتنا الحديثــة ، نجد فى موسيقى عصر اليزابث ما يخفف عنا ويريح أعصابنا ، فليس فيها كلام طنان منمق ، ولا تنافر مزعج ، ولا خواتيم راعدة ، انك لا تسمع فيها إلا صوت شاب إنجليزى أو شابة إنجليزية تغنى فى حزن أو ابتهاج ، انشودة الحب السرمدى الذى تعترض العوائق سبيله .

٧ — الفن الإنجليزى ١٥٥٨ — ١٦٤٩

لم يكن للفن فى هــذا العصر شأن يذكر . وأنتج بعض صناع المعادن بعض

المشغولات الفضية الجميلة ، مثل مملحة موشين للمائدة ، والنوافذ المصبعة الفاخرة مثل الموجودة فى كنيسة سان جورج فى وندسور . ودخلت صناعة زجاج الزينة الفنيسى حوالى ١٥٦٠ . وفاقت قيمة الأوانى المصنوعة من هذا الزجاج قيمة مثيلاتها من الذهب أو الفضة . ولم يكن النحت وصناعة الخزف مشهورتين . وافتتح نيقولا هليارد مدرسة لرسم المنمنمات ، ومنحته اليزابث احتكار اخراج رسوم لها بهذا الأسلوب . أما رسامو الأشخاص فقد استقدموا من الخارج . فجاء فدريجو زوتشارو من إيطاليا ، وماركوس جيرار وابنه الذى يحمل نفس الاسم من الأراضى الوطيئة . وخلف لنا الابن صورة مهيبة لوليم سيسل فى ثياب متألقة فضفاضة فخمة ، وهى التى يرتديها الفرسان الذين يحملون وسام ربطة الساق[٥٦] . وفيما عدا هذا لا توجد فى إنجلترا لوحات أو رسوم عظيمة فيما بين هولبين ، وفانديك :

ولكن العمارة كانت فنا عظيما فى إنجلترا فى عهد اليزابث وجيمس . وتكاد تكون علمانية تماما . وبينما كانت أوربا تناضل من أجل المذاهب الدينية ، أهمل الفن الدين كما أهمله السلوك . وفى القرون الوسطى ، حين تأصلت جذور أعمق للشعر والفن فى السماء ، توفرت العمارة على بناء الكنائس : وجعلت من الدور شكلا من أشكال سجون الحياة . وفى إنجلترا على عهد أسرة التيودور ، هجر الدين الحياة إلى السياسة ، وذهبت أموال الكنيسة إلى أيد دنيوية ، وتحولت إلى صروح مدنية وقصور باذخة ، وتبعا لذلك تغير الطراز . وفى ١٥٦٣ عاد جون شوت Shute من إيطاليا وفرنسا مسرعا مع (أفكار) فتروفيوس وبالاديو ، وسرليو . ونشر على الفور « الأسس الأولى والهامة للعمارة » يمجد الطرز الكلاسيكية القديمة . ومن ثم انتقل إلى إنجلترا احتقار إيطاليا للفن القوطى ، وكافحت الأعمدة الرأسية القوطية لتجد لها متنفسا وسط أفقيات النهضة التى تطوقها .

إن هذا العصر يستطيع أن يفاخر ببعض المنجزات الجميلة فى العمارة المدنية : بوابة الشرف فى كلية كايوس ، والساحة الرباعية الزوايا بكلية كلار ، فى كمبردج ، ومكتبة بودليان فى أكسفورد ، وسوق الأوراق المالية فى لندن ، واحدى دور القضاء المسماة Middle Temple . ولما كان المحامون منذ أيام ولزى : قد حلوا

محل الأساقفة فى إدارة البلاد فى إنجلترا ؛ فقد كان من اللائق أن تكون تحفة النهضة المعمارية فى عهد اليزابث هى القاعة الكبرى فى مدرسة الحقوق التى كملت فى الدار سابقة الذكر ١٥٧٢ . ولم يكن فى إنجلترا كلها أشغال خشب أجمل من الحاجز المصنوع من خشب البلوط فى الطرف الداخلى لهذه القاعة . وقد دمرته القنابل فى الحرب العالمية الثانية .

وحالما تهيأت الأسباب لأقطاب عصر اليزابث ، شادوا قصورا نافسوا بها قصور الاقطاع الفرنسى على نهر اللوار . فشاد سيرجون ثين Thynne قصر لونجليت ، واليزابث كونتيسة شروزبرى قاعة Hardwick ، وبنى تومارس ارل سفوك Suffolk قصر Audley End الذى بلغت تكاليفه ١٩٠ ألف جنيه « حصل عليها أساسا من الرشا الأسبانية(٥٧) » . وشيد سير ادوارد فيلبس قصر مونتاكوت على طراز عصر النهضة البسيط غير المبالغ فى زخرفته ، كما بنى سير فرانسيس Willoughby قاعة Wollaton . كما أنفق وليم سيسل بعض ما جمع من مال فى ابتناء قصر ضخم بالقرب من ستامفورد ، وانفق ابنه روبرت ما يقارب هذا القدر على تشييد قصر هاتفيلد ، الذى يعتبر بهوه الطويل القائم على أعمدة ، أضخم الأجزاء الداخلية فى العمارة فى ذلك العصر . ومثل هذه الأبهاء الطويلة المقامة على أعمدة عالية ، حلت فى قصور عهد اليزابث محل القاعة الخشبية العظيمة فى قصر مالك الأرض . ان المداخن الكبيرة والأثاث الضخم المصنوع من خشب الجوز أو خشب البلوط ، والمدرج الفخم والدرابزين المنقوش ، والسقوف الخشبية — نقول إن هذه كلها ، هيأت لغرف هذه القصور من الدفء والعظمة ما كان ينقص الغرف الأكثر تألقا فى القصور الفرنسية ، ومبلغ علمنا أن مصممى هذه القصور كانوا أول من حصلوا على لقب مهندس معمارى . ان اللوحة المنقوشة على ضريح روبرت سميثسون Smythhshon ، الذى أنشأ قاعة وللاتون ، تسميه « البناء البارع » . أما الآن ، وأخيرا ، فقد وجدت المهنة العظيمة اسمها الحديث (الهندسة المعمارية) .

كذلك أصبح الفن الإنجليزى فى تلك الأيام فنا شخصيا ، حيث طبع الرجل عمله بطابع شخصيته وإرادته . ولد انيجو جونز فى سميثفيلد ١٥٧٣ ، وأظهر فى شبابه

ميلا إلى التصميم حدا بأحد النبلاء (ارل) أن يبعث به إلى إيطاليا (١٦٠٠) ليدرس عمارة عصر النهضة . ولما عاد إلى إنجلترا ١٦٠٥ أعد مناظر كثير من المسرحيات التنكرية للملك جيمس الأول وزوجته الدنمركية ، وزار إيطاليا ثانية (١٦١٢ — ١٦١٤) وعاد متحمسا للقواعد المعمارية القديمة التي سبقت له دراستها في ترجمتها الانجليزية للمهندس المعماري الروماني فتروفيوس (القرن الأول قبل الميلاد) ، والتي وجد خير مثال لها في أبنية بللاديو ، وبيروتزي ، وسان ميشيلي ، وسانسوفينو في فينيسيا وفيشنزا . ونبذ هذا الخليط الشاذ من الأشكال الجرمانية والفلمنكية والفرنسية والإيطالية التي كانت قد سيطرت على العمارة في عصر اليزابث . واقترح طرازا خالصا ، يمكن فيه الاحتفاظ بالنظم الدورية والآيونية والكورنثية متفرقة أو مجتمعة في تتابع ووحدة متجانستين .

وفي ١٦١٥ عهد إليه بكل الإنشاءات الملكية بوصفه مشرفا عاما على الأعمال . ولما احترقت قائمة الولائم في قصر هويتهول ودمرت ١٦١٩ ، عهد إلى جونز بتشييد قاعة جديدة للملك . فوضع تصميم مجموعة ضخمة من المنشآت — ١١٥٢ × ٨٧٤ قدما في جملتها — ولو اكتمل بناؤها لهيأت لعاهل بريطانيا قصرا أوسع بكثير من اللوفر أو التويلري أو الاسكوريال أوفرساي . ولكن جيمس آثر أن يعيش يومه عن أن يبني للقرون . واقتصر الانفاق على قاعة الولائم الجديدة ، التي لم يتوفر لها ما قصد من أبهة ، فباتت مظهرا كاذبا غير جذاب للخطوط القديمة وخطوط عصر النهضة . ولما طلب رئيس الأساقفة لود من جيمس الأول اصلاح كاتدرائية سانت بول القديمة ، ارتكب المهندس جريمة تغطية صحن الكنيسة القوطي الطراز بمظهر خارجي من طراز عصر النهضة ، ولحسن الحظ دمر الحريق الكبير الذي حدث ١٦٦٦ هذا المبنى . وحلت واجهات جونز المأخوذ تصميمها عن بللاديو . محل الطراز التيودوري . وسادت في إنجلترا حتى أواسط القرن الثامن عشر .

ولم يخدم جونز الملك شارل الأول بوصفه كبير مهندسيه فحسب ، بل انه تعلم كيف يحب هذا الرجل المنكود ، بشكل واضح ، إلى حد أنه عند ما نشبت الحرب الأهلية دفن مدخراته في **Lambeth marshes** وهرب إلى هامبشير (١٦٤٣) .

وقبض عليه جنود كرومول هناك ، ولكنهم أبقوا على حياته مقابل ١٠٤٥ جنيها(٥٨). وفى أثناء تغيبه عن لندن وضع تصميم قصر ريفى فى ولتشير من أجل ارل بمبروك ، كانت واجهته من طراز عصر النهضة البسيط ، أما الداخل فكان آية فى الفخامة والأناقة ، فان القاعة « المزدوجة التكعيب » — ٦٠ × ٣٠ × ٣٠ قدما ، قيل بأنها أجمل قاعة فى إنجلترا (٥٩) . ومذ استنفذت الجيوش الملكية ثروات الأرستقراطية ، فقد جونز الرعاية والحب والألفة ، وانزوى وأفل نجمه ، ومات فقيرا ١٦٥١ . لقد غلب النعاس على الفن ، على حين أعادت الحرب تشكيل الحكومة الجديدة فى إنجلترا .

٨ — الرجل فى عهد اليزابث

كيف نفهم الرجل الإنجليزى على عهد اليزابث من المواطن البريطانى المزعوم أنه رزين صامت ، والذى عهدناه فى شبابنا ، وهل يمكن أن يكون الخلق القوى من صنع الزمان والمكان والتغير ؟ لقد اعترضت البيوريتانية والميثودية (المنهجية — حركة اصلاح الكنيسة الانجليزية فى النصف الأول من القرن الثامن عشر) بين العصرين والنمطين : قرون سادت فيها مدارس ايتون ، وهارو ، ورجبى ، وعهود الغزاة الطائشين الذين يخمدون أنفاس الناس حين يسيطرون .

لقد كان الرجل الانجليزى فى عهد اليزابث سليل النهضة تماما . وفى ألمانيا قهر الاصلاح الدينى النهضة ، وفى فرنسا نبذت النهضة الاصلاح الدينى . وفى إنجلترا اندمجت الحركتان كلتاهما . فقد انتصر الاصلاح الدينى فى حكم اليزابث ، وانتصرت النهضة فى شخصها هى . وكان ثمة بعض البيوريتانيين من ذوى الحس المتبلد ، ولو لم يكونوا صامتين ، ولكنهم لم يطرقوا الباب . ولكن كان الرجل المهيمن فى ذاك العصر شعلة من نشاط ، متحررا من المبادئ والتعاليم والعوائق العتيقة ، ولو لم يكن مرتبطا بشىء جديد بعد ، ولم يكن ثمة حدود لطموحه وأطماعه ، وكان متطلعا إلى تنمية قدراته ، لا يقعده شىء عن المرح ، يتذوق الآداب إذا كانت تنبض بالحياة ، ميالا إلى العنف فى العمل وفى الحديث ، ولكنه ، وسط

كلامه المنمق الطنان ورذائله وقساوته ، يجاهد ليكون سيدا مهذبا . وتأرجح مثله الأعلى بين صفات الكياسة والمجاملة واللطف المحببـــة إلى النفوس والتى ذكرها كاستليونى فى كتابه « رجل البلاط » وبين ما جاء به ماكيافللى فى كتابه « الأمير » من لا أخلاقيات لا تعرف الرحمة إليها سبيلا . لقد أعجب بسدنى ، ولكنه تاق إلى أن يكون مثل دريك .

وشقت الفلسفة طريقها فى شرح العقيدة الدينية المتهاوية . وكانت أحسن العقول فى ذاك الزمان هى أشدها ارتباكا وحيرة . وكانت هناك نفوس محافظة سليمة العقيدة ، ونفوس وديعة مجبولة على الجبن ، وفى وسط هذا التدفق الذى لا يتوقف كان ثمة رجال أفاضل مثل روجر أسكام . ولكن تلاميذهم كانوا فى لجة المغامرة ؛ وإليك ما يقوله جبرايل هارفى عن كمبردج :

تعلموا الإنجيل ، ولم يعوه أو يحفظوه ، والمبدأ المسيحى فاتر ضعيف ، وليس ثمة شيء حسن إلا بنسبته إلى شخص ما . وباختصار ألغى قانون الطقوس الرسمى ، وأبطل قانون القضاء تماما من الوجهة العملية ، وتخلى الناس عن القانون الأخلاقى ، وألح الجميع فى طلب الجديد ، من الكتب والأزياء والقوانين ، وألح بعضهم فى طلب سموات جديدة ، وجهنم جديدة أيضا ، وفى كل يوم تظهر آراء جديدة مشكلة حديثا ، فى الهرطقة واللاهوت والفلسفة والإنسانية والسلوك . . ولم يكن الشيطان مكروها قدر كراهية الناس للبابا[٦٠] .

وكان كوبرنيكس قد قلب العالم ، وأطلق الأرض مندفعة هائمة فى الفضاء ، وجاء جيوردانو برونو إلى أكسفورد ١٥٨٣ وتحدث عن الفلك الحديث وعن العوالم اللانهائية ، وعن الشمس التى تفنى بفعل حرارتها ، وعن الكواكب السيارة التى تتلاشى فى ضباب ذرى . وأحس شعراء مثل جون دون ، ان الأرض تنساب من تحت أقدامهم .

وفى ١٥٩٥ شرع فلوريو فى نشر ترجمته لمونتانى . ولم يكن ثمة شيء يقينى بعد ذلك . وامتلأ الناس بالشك ، وكما أن مارلو هو مكيافللى ، فان شكسبير هو

مونتانى . وعلى حين شك الرجال العقلاء ، كان الشبان الصغار يخططون . وإذا بدا أن السماء ضاعت فى سحابة فلسفية ، فيمكن الشباب أن يعقدوا العزم على امتصاص الحياة جافة ، ويختبروا كل الحقيقة مهما تكن مميتة . وكل الجمال مهما يكن سريع الزوال ، وكل القوة مهما تكن سامة ، وهكذا رأى مارلو فى فاوست وتامبورلين .

إن انتزاع الأفكار القديمة ، وتحرير العقل ليعبران تعبيرا جبارا عن الآمال والأحلام الجديدة ، وهما اللذان خلدا عهد اليزابث فى إنجلترا . وماذا كان يهمنا من أمر منافساتها السياسية ، ونزعاتها الدينية وانتصاراتها الحربية ، إذا انحصر أدب عصرها فى تلك الأشياء العابرة ، ولم يعبر عن تطلعات النفوس المفكرة فى كل عصر . وحيرتها ونياتها . ان كل تأثيرات هذا العصر المثير انتهت إلى نشوة إنجلترا على أيام اليزابث . فان رحلات الغزو والكشف التى وسعت الكرة الأرضية والسوق والعقل ، وثراء الطبقة المتوسطة الذى وسع مجال المشروعات وأهدافها ، والكشف عن الآداب والفنون الوثنية ، وجيشان الإصلاح الدينى ، ونبذ النفوذ البابوى فى إنجلترا . والحوار اللاهوتى ، تلك التى ساقت الناس عن غير عمد ، من العقيدة إلى العقل ، والتعليم ، والاقبال المتزايد على الكتب والمسرحيات ، والسلم الطويل المفيد ، ومن ثم التحدى المثير والنصر الباهر على أسبانيا ، والتصعيد العظيم فى الثقة فى قوة الإنسان وفكره ، تلك كلها كانت الحوافز التى استحقت صعود إنجلترا فى مراقى العظمة والمجد ، وتلك هى الأصول التى نبت منها شكسبير . فالآن ، وبعد انقضاء نحو قرنين من الزمان منذ عهد تشوسر ، اندفعت إنجلترا فى لجة من النثر والشعر والدراما والفلسفة ، وتحدثت جهرا فى شجاعة إلى العالم بأسره .

الفصل الثالث

على سفوح بارناسوس

١٥٥٨ – ١٦٠٣

١ – الكتب

كانت الكتب يتزايد عددها بشكل رهيب ، حتى قال برنابى رتش فى ١٦٠٠ « ان من الأمراض الفظيعة فى هذا العصر هو هذا السيل الضخم من الكتب التى تثقل كاهل العالم غير القادر على هضم هذا القدر الكبير من المادة التافهة التى تخرج إليه كل يوم » كذلك كتب روبرت بيرتون (١٦٢٨) : إننا مهددون بفوضى وتشويش لا حد لهما من الكتب التى ترهقنا ، فتصاب أعيننا بسبب القراءة ، وتتألم أصابعنا بسبب تقليب الصفحات[1] » . وهذان الشاكيان كلاهما من مؤلفى الكتب .

إن النبلاء ، بعد أن تعلموا القراءة ، أجزلوا العطاء وبسطوا رعايتهم على هؤلاء المؤلفين الذين كانوا قد كرموهم وتملقوهم بأهداء مؤلفاتهم إليهم . وكان سيسل ، وليستر ، وسدنى ، ورالى ، واسكس ، وسوثمبتون ، وارل ودوقة بمبروك ، كان هؤلاء جميعا رعاة وحماة أفاضل أقاموا بين النبلاء الإنجليز وبين المؤلفين علاقة استمرت حتى بعد أن انتهر جونسون راعيه لورد تشستر فيلد ، وكان الناشرون ينقدون المؤلفين نحو ٤٠ شلنا عن كل كراسة ، ونحو خمسة جنيهات عن الكتاب ، وسعى بعض المؤلفين إلى أن يعيشوا على أقلامهم . وظهرت فى إنجلترا هذه الصناعة البائسة ألا وهى « صناعة الأدب » وكانت المكتبات الخاصة كثيرة لدى الأغنياء . ولكن المكتبات العامة كانت نادرة . وفى طريق العودة إلى الوطن من قادس ١٥٩٦ ، توقف اسكس فى فارو بالبرتغال ، واستولى على مكتبة الأسقف جيروم أوزوريوس ، وأهداها إلى سيرتوماس بودلى الذى ضمها إلى مكتبة بودلى التى وهبها لجامعة أكسفورد ١٥٩٨ .

وكانت حياة الناشرين أنفسهم قلقة مضطربة ، خاضعة لقوانين الدولة وهوى الجمهور أو نزواته . وكان منهم فى إنجلترا أيام اليزابث ٢٥٠ ، حيث كان النشر وبيع الكتب حرفة واحدة . وقام معظمهم بعملية الطباعة لأنفسهم ، لأن الفصل بين الطباعة والنشر بدأ حوالى نهاية عصر اليزابث . واتحد الناشرون والطابعون وباعة الكتب ١٥٥٧ فى « شركة القرطاسية » ، وأنشأ تسجيل المطبوعات فى هـذه النقابة « حق الطبع » ، على أن هذا لم يحم المؤلف بل الناشر فقط . وطبيعى أن هذه الشركة لم تسجل من الكتب إلا ما حصل على ترخيص قانونى بطبعه . فقد كان يعتبر جريمة كتابة أو طبع أو بيع أو اقتناء أية مادة تسئ إلى سمعة الملكة أو الحكومة ، كذلك نشر أو استيراد كتب الإلحاد أو المراسيم والرسائل البابوية ، أو اقتناء أية كتب تؤيد سيادة البابا على الكنيسة الإنجليزية[٣] . وكان ثمة جملة معاذير لخرق هذه المراسيم . وفوضت « شركة القرطاسية » هذه فى تفتيش كل دور الطباعة وإحراق أية مطبوعات غير مرخص بها ، وسجن ناشريها[٤] . وكانت الرقابة على المطبوعات فى عهد اليزابث أقسى منها فى أى وقت قبل الاصلاح الدينى . ولكن الأدب ازدهر ، كما شحذت العقول فى فرنسا فى القرن الثامن عشر ، بفضل مخاطر الطباعة .

وكان العلماء قليلين ، وكان عصر خلق وابداع أكثر من أن يكون عصر نقد ، وكان تيار الحركة الإنسانية (التوكيد على قيمة الإنسان وقدرته على تحقيق الذات عن طريق العقل) قد جف معينه فى تلك السنين التى حفلت بالاهتمام باللاهوت . وظل معظم المؤرخين من كتاب الحوليات ، يقسمون مدوناتهم حسب السنين . ولكن ريتشارد نولز Knolles أدهش برجلى ببراعته النسبية فى كتاب « التاريخ العام للأتراك » ١٦٠٣ . وأضفت « حوليات » رافائيل هولنشد على صاحبها مزيدا من الشهرة لم يبذل فيه جهدا ، ذلك أن هذه الحوليات أمدت شكسبير بسير ملوك إنجلترا . واصطبغت « حوليات إنجلترا » (١٥٨٠) لجون ستو Stow « بظلال من الحكمة ، ودعوات إلى الفضيلة وتنفير من الحقائق المرذولة[٥] » ، ولكن طابعها العلمى يرقى له ، وأسلوبها قوى مؤثر . وكان كتابه « استعراض لندن » ١٥٨٠ أدق بحثا وأوسع علما ، ولكنه لم يدر عليه ربحا ، وكان حريا به فى سنى شيخوخته أن يمنح رخصة

للتسول[٦] . وفى لغة لاتينية جيدة سجل وليم كامدن « جغرافية إنجلترا ومناظرها وآثارها » فى كتابه « بريطانيا » ١٥٨٢ . وفى كتابه « حوليات تاريخ إنجلترا فى عهد اليزابث » (١٥ — ١٦٢٧) الذى بنيت قصته على دراسة واعية للوثائق، مجد كامدن الملكة العظيمة دون حساب ، وامتدح سبنسر وأثنى على روجر أسكام ، ولكنه حزن لموت مثل هذا العالم الجليل فقيرا معدما بسبب حبه للعب النرد ومصارعة الديكة[٧] .

وترك أسكام عند موته ١٥٦٨ بوصف أنه كان سكرتيرا لمارى اللعينة ومعلما خاصا لاليزابث : أشهر الرسائل الانجليزية فى التعليم ، وهى « المعلم » (١٥٧٠) وموضوعها الأصلى تعليم اللاتينية ، ولكنها تضمنت فى لغة إنجليزية قوية بسيطة ، دعوة إلى احلال الرحمة المسيحية محل صرامة كلية ايتون فى التعليم . وروى أسكام كيف أنه كان يتناول الغداء يوما مع بعض عظماء الرجال فى حكومة اليزابث ، وتطرقت المناقشة إلى موضوع التعليم فى نقد لاذع ، وكيف أن سيسل آثر الوسائل الرقيقة ، وكيف أن سير ريتشارد ساكفيل اعترف سرا لأسكام « بأن معلما أحمق صرفه عن حب التعليم بأسره ، خوفا من الضرب[٨] » .

إن أكبر وأنفع مهمة يضطلع بها العلماء الانجليز كانت إخصاب العقل الانجليزى بالفكر الأجنبى . وفى النصف الثانى من القرن السادس عشر اكتسحت البلاد موجة من الترجمة ، من اليونان وروما وإيطاليا وفرنسا . وكان على هوميروس أن ينتظر حتى ١٦١١ لجورج ، تشابمان وربما أسهم عدم وجود الترجمات الانجليزية للروايات اليونانية فى صبغ دراما عصر اليزابث بالرومانتيكية أكثر منه بالشكل التقليدى القديم ، ولكن كانت هناك ترجمات لكتاب تيوكريتس « القصائد الرعوية »، وملحمة موزائيس Hero and Leander وكتاب ابكتيتس Enchiridion ، ولكتابى الأخلاق والسياسة لأرسطو ، وكتابى زينوفون Cyropaedia, Oeconomicus . وخطب ديموستين وايزوقراط ، ومؤلفات هيرودوت وبوليبوس وتيودور الصقلى وجوزيفس وأبيان فى التاريخ ، وقصص هليودوروس ولونجوس ، كما كان هناك ترجمة عن الفرنسية

قام بها سير توماس فورت لكتاب بلوتارك « السير » . وعن اللاتينية نقلت كتب فرجيل وهوراس وأوفيد ومارشال ولوكان ، وروايات بلوتوس وتيرنس وسنكا . ومؤلفات ليفى وسالوست وتاسيتس وسوتونيس فى التاريخ . وعن الإيطالية نقلت قصائد بترارك (Sonnets) و Filocopo and Fiammetta لبوكاشيو (ولكن لم يترجم ديكامرون حتى ١٦٢٠) ، ومؤلفات جوتشياردينى ومكيافللى فى التاريخ . وأشعار بويارد وواريوستو ، وكتاب كاستليونى « آداب السلوك » ، وكتاب تاسو عن تحرير أورشليم ، وكتاب جوارينى « Pastor fido » ومجموعة قصص خرافية لباندللو وآخرين دونت فى مجموعات مثل كتاب وليم بينتر Palace of Pleasure (١٥٦٦) ؛ ولم ينقل كتاب مكيافللى « الأمير » حتى ١٦٤٠ ، ولكن مادته كانت معروفة لرجال عصر اليزابث . ويذكر جبرابيل هارفى أن جامعة كمبردج نبذت دونز سكوتس وتومان الأكوينى وغيرهما من رعيل العلماء » واستبدلت بهم مكيافللى وجان بودان[٩] . وترجم عن الاسبانية واحدة من أطول القصص الغرامية الخيالية Amadis de Gaula ، وواحدة من أقدم القصص الأسبانية Lazarillo de Tormes وواحدة من الروايات الرعوية القديمة The Diana of Montemayor . وكان ما أخذ عن الفرنسية قصائد البلياد Pleiades (بنات أطلس السبع اللائى وضعهن زيوس بين النجوم) ومقالات مونتانى التى ترجمها جون فلوريو إلى لغة إنجليزية رائعة (١٦٠٣) .

وكان أثر هذه الترجمات على الأدب فى عصر اليزابث عظيما جدا ، وبدأت التلميحات القديمة — وظلت لمدة قرنين من الزمان — ترهق الشعر والنثر الانجليزيين . وكانت اللغة الفرنسية معروفة لدى معظم المؤلفين الجديرين بالذكر فى عهد اليزابث ، ومن ثم كان يمكن الاستغناء عن الترجمات . ولقد سحرت إيطاليا إنجلترا ، واتجه الشعر الرعوى الانجليزى بأفكاره إلى سانا زارو وتاسو وجوارينى . والقصائد الانجليزية المشهورة بالسونيت إلى بترارك ، والأدب القصصى إلى بوكاشيو والقصص ، وهذه الأخيرة هى التى أمدت مارلو وشكسبير ووبستر وماسنجر وفورد بالفكر الرئيسية فى رواياتهم . كما زودت الروايات فى عهد اليزابث بمواقع إيطالية . إن

إيطاليا التى نبذت الاصلاح الدينى ، كانت قد ذهبت بعيدا عنه لتحطم اللاهوت القديم ، حتى الأخلاق المسيحية ، وعلى حين أن العقيدة فى عهد اليزابث نازعت الكاثوليكية والبروتستانتية ، نجد أدب ذاك العصر ، وقد تجاهل هذا الصراع ، عاد إلى روح النهضة وحيويتها . ولما أصابت ايطاليا النكسة لبعض الوقت ، بسبب تحول طرق التجارة ، أسلمت مشعل الميلاد الجديد لأسبانيا وفرنسا وإنجلترا .

٢ — حرب الأدباء

وفى وسط هذه الوفرة والحيوية فى عصر اليزابث ، كان ثمة فيضان جارف من الشعر والنثر كليهما . وإنا لنعرف أسماء مائتين من الشعراء فى عهد اليزابث ، ولكن النثر كان هو الذى يجذب انتباه الناس ويطرق أسماعهم بقوة فى هذا العصر فى إنجلترا ، حتى أخرج سبنسر « فيرى كوين The Faerie Queen» (١٥٩٠) .

وكان جون ليلى أول من عمد إلى هذا اللون فى قصته الخيالية يوفيس **Eupheus** أو « تشريح الذكاء » فى ١٥٧٩ . وعرض ليلى أن يظهر كيف أن العقل السليم والخلق الكريم يمكن تكوينهما عن طريق التعليم والتجربة والأسفار والنصح الحكيم . ويوفيس (الكلام الطيب) شاب آثينى تقدم مغامراته مسرحا لحادثات مسهبة عن التعليم والسلوك والصداقة والحب والالحاد — ومما جعل هذا الكتاب أكثر الكتب رواجا فى عصره ، هو أسلوبه — فيض من الجناس والطباق والتشبيه والتورية ، والجمل المتوازنة والاشارات القديمة والأفكار ، مما هاج حاشية اليزابث ، وأصبح الأسلوب السائد لمدة جيل ، مثال ذلك :

إن هذا الشاب الأنيق الذى يتحلى بالذكاء أكثر مما يملك مالا ، بل يملك من المال أكثر ما لديه من الحكمة ، ومذ يرى أنه لا يقل عن غيره من حيث الأفكار الجميلة ، فقد حسب أنه يفوق الجميع فى التصرفات الأمينة . إلى حد حسب معه نفسه صالحا لكل شىء ، ومن ثم لم يتوفر على شىء قط(١٠) .

ولا يعرف على وجه التحديد من أين أصاب ليلى هذا المرض ، من مارينى الإيطالى ، أو من جيفارا الأسبانى أو من « بلاغة » الفلاندرز ، فهذا محل مناقشة ، ورحب ليلى على أية حال بهذه السموم العقلية ونقلها إلى كثير من رجال اليزابث . فأفسدت كوميديات (ملهاوات) شكسبير الأولى ، وتركت مسحة منها على أعمال بيكون ، وأثرت فى اللغة .

لقد كان العصر يعنى باللفظ . وبذل جبرائيل هارفى — من آساتذة كمبردج — كل نفوذه ليحول الشعر الإنجليزى من النبرات والقوافى إلى الأوزان القديمة المبنية على التفاعيل أو المقاطع . وبتحريض منه أسس سدنى وسبنسر فى لندن ناديا أدبيا الآريوباجوس areopagus ، كافح لبعض الوقت ليحول النشاط والطاقة الحيوية فى عصر اليزابث إلى أشكال فرجيل وصيغه . وقلد توماس ناش ، هازئا ، أوزان هارفى السداسية التفاعيل « التى تشبه فى وقعها الوثب على قدم واحدة » ، وسخر منها واعتبرها غير جديرة بالنظر والاهتمام فعلا . ولما جمع هارفى بين الشتائم والسباب والحذلقة فى التنديد بأخلاقيات جرين صديق ناش ، أصبح الهدف الرئيسى لحرب الكتيبات التى جلبت إلى إنجلترا كل ما عرف فى عصر النهضة من تراشق وذم وقدح .

إن حياة روبرت جرين لتمثل ألفا من سير الحياة الأدبية البوهيمية التى لا تقيم وزنا للأعراف والقيم ، إبتداء من فيللون Villon (شاعر فرنسى غنائى فى القرن الخامس عشر) إلى فرلين Verlaine (شاعر رمزى فرنسى فى القرن التاسع عشر ، وكان رفيق دراسة لهارفى ومارلو فى كمبردج) ، وسط « أوغاد لا يقلون عنه دعارة وفجورا » ، « أفنى معهم زهرة شبابه » :

كان يملؤنى الزهو والتيه والغرور . كانت الدعارة رياضتى اليومية ، وادمان الشراب ملذتى الوحيدة . . . وكنت أبعد ما يكون عن أن أرجع إلى الله ، وقليلا ما كنت أذكره . ولكنى كنت أجد لذة كبيرة فى الحلف والتجديف على الله . وإذا حققت رغبتى وأنا على قيد الحياة ، فانى راض قانع : فلآخذ طريقى إلى الموت

بأية حال ، انى لم أخش قضاة المحكمة أكثر مما أخشى حساب الله(١١) .

وجال جرين فى إيطاليا وأسبانيا ، ويقص علينا أنه هناك « رأى ومارس من أعمال الخسة والجرائم ما يندى الجبين لذكره . » فلما عاد أصبح شخصية بارزة فى حانات لندن ، بشعره الأحمر ولحيته المحددة وجواربه الحريرية وبطانته الخاصة . وتزوج وكتب كتابة رقيقة عن الاخلاص فى الزواج ونعمته . ثم هجر زوجته من أجل سيدة أنفق عليها كل ثروة الزوجة . ومن معرفته الخاصة المباشرة وصف أفانين حيـاة الرذيلة والاجرام فى كتاب ANotable Discovery of Cozenape (١٥٩١) كشف فيه الغطاء عن الدجالين والمحتالين ، وحذر فيـه زوار لندن القرويين من أحابيل المخادعين والغشاشين فى ورق اللعب ، والنشالين والقوادين والعاهرات . مما حدا بهؤلاء أن يحاولوا قتله . وإنه لمـا يبعث على الدهشة أن جرين ، مع انغماسه فى حياة الرذيلة إلى هذا الحد ، وجد وقتا ليكتب فى سرعة صحفية ونشاط وحيوية ، اثنتا عشرة قصة (بأسلوب يوفيس) وخمسة وثلاثين كتيبا ، وكثيرا من الروايات الناجحة . وعندما فتر نشاطه وقل دخله وجد للفضيلة بعض المعنى ، وندم ندما شديدا قدر ما كان يأثم اثما فاحشا ، وعبر عن ندمه واثمه أبلغ تعبير . ونشر فى ١٥٩١ كتابه « وداعا أيتها الحماقة » . وفى ١٥٩٢ نشر كتيبين لهما بعض الأهمية ، أحدهما : « ملحوظة ساخرة لرجل البلاط الناشىء » حمل فيه على جبرابيل هارفى ، أما الثانى « ما يساوى بضعة بنسات من ذكاء جرين يشترى بمليون من التوبة والندم » . وفيه هاجم شكسبير وأهاب برفاقه فى الفسق والفجور — وواضح أنه يقصد مارلو وبيل وناش — أن يقلعوا عن الآثام والخطايا وينصرفوا معه إلى التقوى والندم . وفى ٢ سبتمبر ١٥٩٢ أرسل إلى زوجته التى هجرها يتوسل إليها أن تدفع عشرة جنيهات إلى صانع أحذية لولا صدقته واحسانه « لكنت مت جوعا فى الطرقات » وفى اليوم التالى ، وفى دار صانع الأحذية هذا ، مات جرين — كما يقول هارفى — بسبب « تخمة أصابته من الافراط فى أكل سمك الرنجه المخلل وشرب نبيذ الراين » . وتجاوزت صاحبة الفندق عن ديونه من أجل أشعاره ، وتوجته بأكليل من الغار ، ودفعت نفقات جنازته(١٢) .

وكان توم ناش صديق جرين أشد مؤلفي الكتيبات في عصر اليزابث سلاطة لسان وأكثرهم قراءً . وكان ابنا لمساعد قسيس ، وضاق ذرعا بالحشمة والوقار ، وما أن تخرج في أكسفورد حتى أخذ يسرح ويمرح في لنـــدن ، ويكسب قوته بنفثات قلمه ، وتعلم كيف يكتب بسرعة « قدر ما تسعفه يده » . وألف في إنجلترا قصص المتشردين بادئا بقصته « السائح المنكود الحظ » — أو حياة جاك ولتون (١٥٩٤) . ولما مات جرين ، وهاجم هارفي بعنف جرين وناش في كتيبه « أربع رسائل » ثأر ناش بسلسلة من الكتيبات بلغت الذروة في كتيب « خذ معك إلى سافرن والدن Saffron Walden مسقط رأس هارفي في ١٥٩٦ :

«ابتهجوا أيها القراء ، فلن أدخر وسعا في أن أدخل عليكم السرور والبهجة . . . إن هذا لن يكلفني إلا إنحرافا عن الطريق المستقيم ، ولكنه سيطرد من الجامعة مدحورا . . . قبل أن أكف عنه . . . ماذا تمنحونني لو أني أتيت به إلى المسرح في أهم الكليات في كمبردج[١٤]» .

وعمر هارفي بعد هذه المحنة ، وعمر بعد هؤلاء البوهيميين ومات في ١٦٣٠ عن خمسة وثمانين عاما . وأكمل ناش رواية صديقه مارلو « Dido » واشترك مع بن جونسون في « جزيرة الكلاب » ١٥٩٧ ، واتهم بالتحريض على الفتنة ، وانزوى في غمرة من الحرص والحذر ، وتوج حياة العجلة بموت مبكر .

٣ — فيليب سدني ١٥٥٤ — ١٥٨٥

بعيدا عن هذا الحشد المخبول شق سدني طريقه في هدوء إلى نهاية أقرب ، وانا لتطالعنا صورته حتى اليوم في « قاعة الصور الوطنية » في لندن ، حيث يبـــدو رقيقا أكثر مما ينبغي للرجل أن يكون ، نحيل الوجه ، ذا شعر أسمر يضرب إلى الحمرة ، وكما يقول لانجيه « ليس فيه شيء من أمارات التمتع بصحة جيدة[١٥] » ، وقال أوبرى « كان آية في الجمال ، لم تكتمل سمات الرجولة فيه كما ينبغي ، ولكن يتميز بشجاعة عظيمة[١٦] » . وذهب بعض المتذمرين إلى أنه يداخله بعض الغرور[١٧] ، وأنه بالغ في الكمال والدقة إلى حد التطرف ، ولكن نهايته البطولية هي وحدها التي غفرت له فضائله .

ولكن من ذا الذى لا يتيه عجبا بأن أمه هى ليدى مارى ددلى إبنة دوق نورثمبرلند الذى حكم إنجلترا أيام إدوارد السادس ، وأن أباه هو سير هنرى سدنى رئيس ويلز ، ونائب الملك فى أيرلنده ثلاث مرات ، وأنه أخذ اسمه المسيحى عن فيليب الثانى ملك أسبانيا بوصفه أبا له فى التعميد . وقضى بعضا من عمر الزهر الذى عاشه فى قصر بنزهيرست الرحيب الذى تعد سقوفه المصنوعة من خشب البلوط ، والرسوم على جدرانه ، وثرياته البللورية من أجمل مخلفات ذلك العصر . وعين وهو فى سن التاسعة رئيساً علمانيا لاقطاعة كنسية تدر عليه ستين جنيها فى السنة . والتحق فى سن العاشرة بمدرسة شروزبرى التى لم تبعد كثيراً عن حصن لدلو Ludlow مقر والده بوصفه رئيسا لويلز . وكتب سير هنرى لولده وهو فى الحادية عشرة من عمره كلمات حب وإعزاز تشع منها الحكمة (١٨).

ووعى فيليب هذه الدروس جيداً . وأصبح أثيرا لدى خاله ليستر ، وصديق والده وليم سيسل . وبعد سنوات ثلاث قضاها فى أكسفورد أرسل إلى باريس فى منصب ثانوى فى بعثة إنجليزية . واستقبل فى بلاط شارل التاسع وشهد مذبحة سانت برثلميو . وجال على مهل فى فرنسا والأراضى الوطيئة وألمانيا وبوهيميا وبولنده والمجر والنمسا وإيطاليا . وفى فرنكفورت نشأت بينه وبين هيوبرت لانجيه صداقة العمر ، وهو أحد قادة الفكر لدى الهيجونوت . وفى فينسيا رسم له باولو فيرونيز صورته ، وفى بادوا رضع تقاليد قصائد بترارك من نوع السونيت . فلما عاد إلى إنجلترا رحب به البلاط ، وظل لمدة عامين تقريباً فى معية الملكة . ولكنه خسر عطفها لبعض الوقت . لمعارضته مشروع زواجها من دوق ألنسون . وكان يتحلى بكل صفات الفروسية — الاعتداد بقدرته على الاحتمال ، المهارة والبسالة فى المبارزة ، آداب اللياقة والسلوك فى البلاط ، الشرف فى كل المعاملات والفصاحة فى الحب ودرس كتاب كستليونى " رجل البلاط " وحاول أن يضبط سلوكه على المثل الأعلى للرجل المهذب الذى وضعه الفيلسوف الأديب ، وحاول آخرون أن يحاكوا سدنى . وأطلق عليه سبنسر اسم " ملك النبل والفروسية " .

وكان من مميزات هذا العصر أن الأرستقراطية التى كانت يوما تحتقر معرفة

القراءة والكتابة ، نظمت الآن الشعر ، وأذنت للشعراء في التردد عليهم . وأصبح سدني ، ولو لم يكن ثريا ، أعظم حماة لأدب في جيله . ومد يد المساعدة إلى كمدن وهاكلوت وناش وهارفي ودون ، ودانيل وجونسون ، وفوق كل شيء سبنسر الذي أزجى إليه آيات الشكر بوصفه " أمل العلماء جميعهم ، وحامي عروس الشعر الصغيرة عندي " (١٩) . ولم يكن يتفق مع طبيعة الأشياء أن يكون إهداء كتاب ستيفن جوسون " مدرسة الهجاء " موجها إلى سدني (١٥٧٩) ، وقد ورد في تقديم هذا الكتاب أنه " هجوم لطيف على الشعراء والزمارين والمغامرين والمهرجين ، وأمثالهم من توافه الرجال السلابين في البلاد " . وقبل سدني التحدي وكتب أول الروائع الأدبية في عهد أليزابيث " دفاع عن الشعر " واقتداء بأرسطو والنقاد الإيطاليين ، عرف سدني الشعر بأنه " فن المحاكاة " فهو يمثل أو يزيف أو يجسد صورة ناطقة . " قصد بها أن تعلم وتدخل البهجة (٢٠) " . وسما بالأخلاق كثيرا فوق الفن ، فبرر الفن على أنه معلم للأخلاق عن طريق النماذج المصورة يقول :

"إن الفيلسوف ... والمؤرخ ... قد يصلان إلى الهدف ، أولهما بالتعليم الأخلاقي ، والثاني بضرب المثل ، ولكن كلاهما لا يملكهما معا . ومن ثم يتعثر كلاهما . فإن الفيلسوف ، وهو يقرر الحقيقة المجردة للأخلاق ، عن طريق الحجج الشائكة ، قد يصعب عليه التعبير ، ويغلب عليه الغموض فيدق على المرء فهمه إلى حد أن الإنسان الذي لا يتيسر له مرشد غيره يخوض معه حتى يدركه الهرم قبل أن يجد مبررا كافيا لأن يكون أمينا . ذلك أن علمه يقوم على التجريد والتعميم ، حتى ليكون سعيدا من يستطيع أن يفهمه . أما المؤرخ من جهة أخرى ، فإنه ، وهو يعوزه القاعدة أو المبدأ الأخلاقي ، مرتبط ، لا بما يجب أن يكون ، بل بما هو كائن ... ومن ثم فإن المثل الذي ضربه يستتبع نتائج غير ضرورية ، ولذلك يكون نظرية أقل جدوى .

أما الشاعر الفذ فانه يؤدي الاثنين معاً ، لأنه يرسم صورة دقيقة لمن يظن أنه قام بما قال الفيلسوف بوجوب عمله . وهو بذلك يكمل الفكرة العامة بالمثال المحدد . وأقول بأنها صورة كاملة متقنة لأنه لا يقدم إلى قوى العقل صورة لم يقدم عنها

الفيلسوف إلا وصفا كلاميا لايستوقف النظر ولا ينفذ إلى الأعماق ولايتسم بالرؤية الروحية قدر ما للصورة من هذا كله[٢١] .

وعلى هذا فان الشعر ، فى نظر سدنى ، يشمل كل الأدب التخيلى التصويرى : الدراما ، النظم ، النثر التصويرى . « ليست القوافى والأوزان هى التى تصنع الشعر . وقد يكون ثمة شاعر بلا أوزان ، وقد يكون ثمة ناظم دون أن يكون شاعراً » .

لقد جمع سدنى بين التعليم الأخلاق والنموذج . وفى نفس العام الذى أخرج فيه « الدفاع عن الشعر » شرع فى كتابه « جنة كونتيس بمبروك » . وكانت أخته هذه من أكثر سيدات هذا القرن جمالا وجاذبية . ولدت ١٥٦١ ، أى أنها تصغر فيليب بنحو سبع سنوات . وتلقت من التعليم قدر ما احتملت ، بما فى ذلك اللاتينية واليونانية والعبرية ، ولكن فتنتها لم تذبل . وأصبحت عضوا فى آل بيت اليزابث ورافقتها فى رحلتها الملكية . وأسهم خالها ليستر فى المهر الذى مكنها من الزواج من هنرى ارل بمبروك . وكما يقول أوبرى « كانت داعرة شديدة الشهوة للرجال فاتخذت بعضا من الخلان أو العشاق لتكمل زوجها » ، ولكن هذا لم يمنع فيليب من تقديسها ، وكتابة « الجنة » بناء على طلبها .

واتخذ فيليب من « جنة » سانازارو (١٥٠٤) مثلا يحتذيه ، فتخيل فى تفصيل شديد وفى يسر ، عالما من الأمراء الشجعان والأميرات الرفيعات التهذيب ، ومعارك الفروسية والأقنعة المحيرة والمناظر الطبيعية الساحرة . « إن جمال افروديت (يورانيا) هو أعظم شىء يمكن أن يعرضه العالم ، ولكنه أقل ما يمدح فيها[٢٢] » وكان بللاديوس يتمتع ببصيرة نافذة مجردة من التباهى والتفاخر ، وأفكار عالية تتسم باللياقة وحسن الأدب ، وكانت الكلمات تخرج من فيه فى فصاحة عذبة ولكنها لاتسعفه فى التعبير . كما كان يتحلى بسلوك نبيل إلى حد أنه أضفى جلالا على المحنة[٢٣] .

" ومن الواضح أن سدنى قرأ يوفيس ، فالقصة متاهة غزلية ، لقد تنكر بيروكليز فى زى امرأة ليكون قريبا من فيلوكليا الجميلة ، ولكنها تخيب أمله بحبها إياه على أنه أخت لها ، ويقع أبوها فى غرامه حين حسب أنه سيدة ، وتقع أمها أيضا فى غرامه حين أدركت أنه رجل ، ومهما يكن من أمر فان كل شىء ينتهى طبقا لما

أمرت به الوصايا العشر . ولم يأخذ سدنى الحكاية مأخذ الجد كثيرا . ولم يصحح قط الأوراق التى سلمها لأخته . وأمر باحراقها وهو على فراش الموت ، ولكن احتفظ بها وطبعت ونشرت (١٥٩٠) وظلت لعقد من السنين أعظم ما يعجب به الناس من النثر فى عهد اليزابث .

وبينما كان سدنى يكتب هذه القصة الرومانتيكية و " الدفاع عن الشعر "، ووسط حياته الدبلوماسية والعسكرية نظم مجموعة قصائد من السونيت (١٤ بيتا) مهدت الطريق أمام قصائد شكسبير التى من هذا النوع . وكان فى حاجة إلى شيء من الحب الفاشل ، فعثر عليه فى بنلوب دفريه **Penelope Devereu** ابنة ارل اسكس الأول ، ورحبت بآهاته وأشعاره على أنها لهو مشروع ، ولكنها تزوجت من بارون رتش (١٥٨١) . واستمر سدنى يوجه قصائده إليها ، حتى بعد زواجه هو من فرانسس ولسنهام . ولم يصعق من رجال عصر اليزابث لهذا الفجور الشعرى إلا نفر قليل ، ولم يتوقع أحد أن يكتب رجل شعرا حتى ازوجته هو ، التى أخذ كرمها شاعريته ، ونشرت المجموعة ١٥٩١ ، بعد وفاة سدنى ، تحت عنوان **Astrophel and Stella** — (عاشق النجم والنجم) وقد نهجت نهج بترارك الذى استبقت محبوبته لورا بشكل عجيب عينى يلوب وشعرها وحاجبيها وخديها وبشرتها وشفتيها . وكان سدنى يدرك تماما أن هواه ليس إلا تغنية أو عماية شعرية . وكان هو نفسه قد كتب : " لو كنت أنا نفسى محظيه لما استطاع الشعراء كتاب السونيت أن يقنعونى بأنهم يحبوننى (٢٤) " وما أن قبلت قصائد السونيت على أنها لهو برىء حتى باتت أحسن شيء من نوعها قبل سونيتات شكسبير . وحتى القمر كان مريضا بالحب :

بأية خطى حزينة تصعد إلى السموات أيها القمر ، وفى
أى صمت ، وبأى وجه شاحب ؟
ماذا ، هل حتى فى السموات .
يحاول رامى السهام النشيط أن يجرب سهامه الحادة .
حقا ، لو أن هذه العيون التى خبرت الحب طويلا

تستطيع أن تحكم على الحب . لشعرت بقضية حبيب ،
لقد قرأتها فى نظراتك وفى جمالك الذى يذبل .
إن حالاتك لتكشف لى عن بعد ، أنا الذى أحس بمثل
ما تحس به . إذن ، حتى بحق الزمالة أيها القمر خبرنى .
أيعتبر الحب الدائم هناك نقصا فى العقل ، وهل
ذوات الجمال هناك مزهوات كما هن هنا ، هل
يحظين بما هو فوق الحب ، ومع ذلك يحتقرن المحبين
الذين يأسرهم الحب .
وهل يسمون الفضيلة هناك ضربا من الجحود(٢٥) ؟

وفى ١٥٨٥ أرسلت اليزابث فيليب سدنى لمساعدة ثوار الأراضى الوطيئة ضد أسبانيا ، وعين حاكما على فلشنج ، ولو لم يبلغ الحادية والثلاثين من العمر ، وأغضب الملكة المقترة بطلب مزيد من المؤن والأجور لجنوده الذين كانوا يتقاضونها عملة مزيفة مخفضة القيمة(٢٦) . وقاد جنوده إلى الاستيلاء على آكسل بالقرب من فلشنج (٦ يوليه ١٥٨٦) ، وحارب فى المقدمة . ولكنه فى معركة زوتفين (٢٢ سبتمبر) أتى من ضروب البسالة أكثر مما ينبغى ، فقد قتل جواده فى الهجوم ، وقفز سدنى إلى جواد آخر ، وشق طريقه فى صفوف العدو ، فنفذت طلقة بندقية إلى فخذه ، وهرب جواده جافلا إلى معسكر ليستر(*) . ومن ثم أخذ سدنى إلى دار خاصة فى آرنهيم ، ولمدة خمسة وعشرين يوما عانى من عجز الجراحين وجهلهم وسرى التسمم ، وفى ١٧ اكتوبر استنبل عجيبة زماننا الموت بصدر رحب (كما رثاه سبنسر) وقال فى يومه الأخير " لن استبدل بابتهاجى امبراطورية العالم(٢٨) " ونقل جثمانه إلى لندن ، وأودع مقره الأخير فى جنازة لم تشهد لها انجلترا مثيلا قبل وفاة نلسون .

(*) تروى قصة لم تتأكد صحتها ، أنه عندما قدم إلى سدنى الجريح زجاجة من الماء ، ناولها إلى جندى كان يعانى سكرات الموت بالقرب منه قائلا : إن حاجتك إليه أشد من حاجتى (Fulke Greville حياة مشاهير الرجال — سير فيليب سدنى) (٢٧)

٤ — إدموند سبنسر ١٥٥٢ ١٥٩٩

وكتب سبنسر « مات سدنى ، مات صديقى بهجة الدنيا وزينتها[٢٩] » إن سيدنى هو الذى أمد سبنسر بالشجاعة لينظم القريض . نشأ إدموند ابناً لايبشر بحسن المستقبل لصانع ملابس باليومية ، وكان ينتمى من بعيد لآل سبنسر الاستقراطيين ، مما لم يتح للصبى أية فرصة للظهور . ومكنته أموال البر والصدقات من الالحاق بمدرسة Merchant Taylors ثم كلية بمبروك فى كمبردج حيث عمل ليكسب أجر إقامته بالقسم الداخلى بها . وما أن بلغ سن السابعة عشرة حتى كان يكتب ، بل حتى ينشر ، شعراً . وحاول هارفى أن يوجهه إلى القوالب والموضوعات الكلاسيكية القديمة . وحاول سبنسر فى تواضع أن يرضيه ، ولكن سرعان ما تمرد على القيود التى فرضتها الأوزان البغيضة على عروس الشعر عنده . وفى ١٥٧٩ عرض على هارفى القسم الأول من ملحمته « الفيرى كوين » ، ولم يتذوق هارفى محتواها المجازى الذى يشبه أسلوب العصور الوسطى ، ولم يقدر وزنها الشعرى الرقيق ، ونصح للشاعر أن يتخلى عن مشروعه ، ولكن سبنسر تابع العمل .

إن هارفى ، النكد المتجهم المشاكس ، هو الذى هيأ لسبنسر مكانا فى خدمة إرل ليستر . وهناك التقى الشاعر بسدنى وأحبه وأهدى إليه « تقويم الراعى » (١٥٧٩) قلد فيها من حيث الشكل تيوكريتس ، ولكنه اتبع فيها خطة التقاويم الشعبية المألوفة التى تحدد أعمال الرعاة تبعاً لفصول لسنة . وقامت فكرتها الرئيسية على حب غير مرغوب فيه من جانب الراعى كولين كلوت لروزيلاند القاسية . وليست مما يوصى أحد بقراءتها ، ولكن أطراء سدنى لها أكسب سبنسر شيئاً من الإقبال عليها أو التهليل لها . وارتضى الشاعر ، رغبة منه فى كسب العيش ، منصب سكرتير آرثر لوردجراى نائب الملكة الجديد فى إيرلنده (١٥٧٩) ، ورافقه إلى ساحة القتال . وشهد وأقر ما عمد إليه آرثر من ذبح من استسلموا من الإيرلنديين فى سمروك . وبعد سبع سنوات من الخدمة الكتابية للحكومة الأنجليزية فى إيرلنده ، منح من الأملاك المصادرة من الثوار الإيرلنديين ، قصر كالكولمان Kilcolman على الطريق بين مالو وليمرك ، بالإضافة إلى ٣٠٠٠ فدان .

وهناك أخلد سبنسر إلى حياة الزراعة الهادئة وانصرف إلى الشعر الرقيق . وخلد ذكرى موت سدنى بمرثية بليغة ولكنها مطولة عنوانها « أستروفيل » (١٥٨٦) ، ثم صقل وطول فى ملحمته « فيرى كوين » وعبر البحر ، وهو ممتلىء حماسة إلى انجلترا ، وقدمه رالى إلى الملكة ،فكتب لها إهداء "الأجزاء" الثلاثة الأولى ، "لتبقى فى ظل خلود شهرتها . " وليضمن الترحيب بالقصيدة صدرها ببضعة أبيات فى المديح موجهة إلى كونتيس بمبروك ، وليدى كارو ،وسير كرستوفر هاتون ،ورالى ، وبرجلى ، ووالسنهام . واللوردات هنزدن وبكهيرست وجراى وهوارد افنجهام ، وارل إسكس ونورثمبرلند وأكسفورد وأورمند وكمبرلند . ولما كان بيرجلى يناصب ليستر العداء ويحمل له الاضغان ، فانه قال عن سبنسر إنه شاعر خامل ، ولكن كثيرا من الناس هللوا له بوصفه أعظم شاعر منذ عهد تشوسر . وتلطفت الملكة فمنحته معاشا سنوياً قدره خمسون جنيها ، وتلكأ بيرجلى ، بوصفه وزير الخزانة ، فى دفعه . وكان سبنسر يأمل فى شئ أكثر سخاء . فلما خاب أمله عاد أدراجه إلى قصره فى إيرلنده ليتابع ملحمته المثالية ، وسط الهمجية والكراهية والخوف .

وكانت خطته أن تكون القصيدة فى إثنى عشر جزءاً ، نشر الثلاثة الأولى منها فى ١٥٩٠ ، وثلاثة أجزاء أخر فى ١٥٩٦ . ولم يذهب إلى أبعد من هذا . ومع هذا فإن الفيرى كوين ضعف الإلياذة وثلاثة أمثال " الفردوس المفقود " . وقدم كل جزء على أنه قصة رمزية — للقداسة والاعتدال وضبط النفس والعفة والصداقة والعدالة واللياقة والكياسة ، وقصد الأجزاء جميعها " أن تصوغ أو تشكل سيدا ماجدا " أو إنسانا نبيلا ذا خلق فاضل وديع(٣٠) ، بتزويده بالأمثلة التى تعين على تشكيله ، وكل هذا يتفق مع فكرة سدنى فى أن الشعر عبارة عن تعاليم أخلاقية تنقلها نماذج متخيلة . وإذ التزم سبنسر جانب الحشمة والوقار ، فانه لم يجز لنفسه إلا بضع قطع قليلة شهوانية أو حسية . فهو يلقى نظرة عجلى على " صدر عاجى عار للانقضاض عليه غنيمة باردة (٣١) " ، ولكنه لايذهب إلى أبعد من هذا . وإنه فى ستة من الأقسام الرئيسية فى قصيدته ليشدو بأعلى أنغام حب الفروسية والشهامة ، باعتباره خدمة خالية من الأثرة للسيدات الجميلات .

أما نحن الذين نسينا الفروسية والشهامة ،فإننا نضيق ذرعاً بالفرسان وتربكنا المجازات

والاستعارات والقصص الرمزية ، فان ملحمة الفيرى كوين ، تكون لنا فى أول الأمر بهيجة سارة بشكل غريب ، ولكنها أخيرا شئ لايحتمل . إن تلميحاتها السياسية التى فرح بها أوأستاء لها المعاصرون، فقدت قيمتها لدينا، وإن المعارك اللاهوتية التى تشير إليها لهى الارهاصات الراسبة فى صبانا ، وإن قصصها لهو فى أحسن الأحوال ، أصداء شجية لفرجيل وآريستو وتاسو ، وليس ثمة قصيدة فى الأدب العالمى تفوق " الفيرى كوين " فى أفكارها المتكلفة ، وتغيراتها الكثيبة فى الأوضاع السوية للكلمات والاسلوب ، وألفاظها المهجورة وتعبيراتها الجديدة الطنانة ، ومبالغتها الرومانتيكية الحمقاء التى لم تلطفها ابتسامة آريستو . ومع ذلك فان كيتس وشللى أحبا سبنسر وجعلاه " شاعر الشعراء " فلماذا ؟ ألان شيئاً من الجمال الحسى للشكل عوض عن سخف العصور الوسطى وأسلوبها ، أم لأن فخامة الوصف زركشت شيئاًزائفاًغير واقعى ؟ وكان المقطع الجديد ذو الأبيات التسعة صعبا من ناحية التعبير الفنى ، وكثيراً ما يروعنا سبنسر باتقانه الكامل وسهولته الدافقة . ولكنه ، كم من مرة أفسد منطقه من أجل قافية !

وانقطع عن ملحمة " فيرى كوين " لينظم قصائد موجزة ربما كانت تبرر شهرته : من ذلك قصيدته " حبي الصغير " ، على شكل السونيت ، التى كانت تشبه هوى بترارك ونزواته وخيالاته . أوأنها ربما كانت تعكس أيام خطبته التى دامت عاما لاليزابيث بويل . وقد تزوجها فى ١٥٩٤ ، وشدا بأفراح الزفاف فى أرق قصائده Epithalamium . وإنه ليقتسم معنا مفاتن العروس ، دون أثرة أو أنانية . يقول :

أنبئونى يا بنات التجار هل رأيتم
مخلوقا جميلا مثل هذا فى بلدكم من قبل
يمثل هذه الملاحة والوسامة والرقة مثلها .
تزينها نعمة الجمال وكنز الفضائل
وعيناها الواسعتان وكأنهما لؤلؤتان تشعان نورا ،
وجبهتها الناصعة البياض كالعاج

ووجنتاها وكأنهما تفاحتان كستهما الشمس بحمرة الورد ،
وشفتاها كثمرتين من الكرز تسحران الرجال ليقضموهما .
وصدرها الذى يشبه وعاء من قشدة لم تتخثر بعد ،
وثدياها أشبه بزنبقتين تفتحتا
وعنقها الناصع البياض مثل عمود من المرمر ،
وجسمها بأسره وكأنه قصر جميل ...
ولما انتهى الحفل والولائم أمر مدعويه أن ينصرفوا دون إبطاء ، قائلا
هيا ، الآن اكففن أيتها الآنسات ، لقد انتهت مسراتكن ،
كفى ، ان النهار كله كان لكن
والآن ولى النهار ، والليل يرخى سدوله .
فأحضرن العروس إلى منزل العريس . . .
وضعنها فى مخدعها
وأحطنها بالزنبق والبنفسج
وضعن الأستار الحريرية فوقها ،
مع الملاءات المعطرة والأغطية المزركشة .
وليكن الليل هادئا ساكنا
دون زوابع عاصفة أو شجارات صاخبة محزنة .
كما رقد جوبيتر مع ألكمينا . . .
ولتكف الآنسات والشبان عن الغناء ،
ولا تدعن الغابات يجبنهم أو يرجعن أصداءهم .
فهل ثمة عذراء زفت بمثل هذه العذوبة والحلاوة ؟

ودعم سبنسر هذا التحليق ، وهذه الانطلاقة « بأربع ترانيم » (١٥٩٦) يمجد فيها الحب الدنيوى والجمال الدنيوى ، والحب الإلهى والجمال الإلهى . ونهج نهج أفلاطون وفيسينو ، وكاستايونى ، ومهد الطريق للشاعر كيتس ، فأقر بما اقترف من « أعمال شريرة كثيرة » ، فقرر فى نفسه أن ينفذ إلى أعماق الجمال الطبيعى

ليجد ويشعر بالجمال الإلهي الذي يكمن بدرجات متفاوتة في كل ماهو على الأرض.

ولما كان سبنسر يعيش على بركان من الشقاء في إيرلنده ، فانه كان من الموت قاب قوسين أو أدنى ، في كل يوم . وقبل أن ينفجر بركان الثورة ثانية ، كتب في نثر رقيق (لأن الشاعر وحده هو الذي يستطيع أن يكتب نثرا جيدا) « رأيه في الحالة الراهنة في إيرلنده » يدافع فيها عن طريقة أفضل لاستخدام الأموال وترتيب الجنود الانجليز لإخضاع الجزيرة . وفي اكتوبر ١٥٩٨ قام الايرلنديون الذين جردوا من أملاكهم في مونستر بثورة وحشية ، وطردوا المستوطنين الانجليز وأحرقوا حصن كلكلمان . ونجا سبنسر وزوجته بحياتهما وهربا إلى انجلترا . وبعد شهور ثلاثة ، وقد انتهى رصيد الهوى والمال ، قضى الشاعر نحبه (١٥٩٩) ، ودفع ارل اسكس الأصغر — الذي قدر له أن يلحق بسبنسر بعد فترة وجيزة ، دفع نفقات الجنازة ، التي سار فيها النبلاء والشعراء الذين نثروا الأزهار ، وألقوا المراثي على قبره في كنيسة وستمنستر .

وسادت انجلترا الآن لهفة جنونية على نظم " السونيت " ، نافست اللهفة على الدراما ، وكلها تقريبا غاية في براعة الشكل ، ذات قالب واحد من حيث الموضوع الرئيسي والعبارة ، وكلها تقريبا موجهة إلى العذارى أو الحماة ، تنعى عليهم أنهم يغلون أيديهم إلى أعناقهم أولا يبسطونها إلى الشعراء ، وكانوا يستحثون الجمال على أن يأذن بقطف ثماره قبل أن تذبل على سوقها . وقد تقتحم القصيدة في بعض الأحيان نغمة مبتكرة ويبشر العاشق سيدته بمولود مكافأة لها على الاقتران السريع . وينقب كل شاعر فيجد فتاة أحلامه — دانيل : دليا ، لودج : فيليس ، كونستابل : ديانا ، فولك جريفيل : ساليا . وكان أشهر ناظمي السونيت هؤلاء ، هو صمويل دانيل ، على أن بن جونسون — الذي كان " قاسيا " أكثر منه " ناقدا " — قال عنه إنه " رجل أمين وليس شاعراً[٣٢] " وحومت قصيدة ميشيل درايتون " Pegasus " حول كل أشكال الشعر ، بما كان له من قـــدم في النثر . ولكن إحدى قصائده ضربت على نغمة جديدة ، فوخزت الفتاة ونبهتها إلى مغبة صدودها ، بأن آذنها بالوداع — " إذا لم يكن ثمة رجاء أو عون ، تعالى ، نتبادل القبل ثم نفترق " .

وكان الأدب الإنجليزى فى جملته فى عهد اليزابث — فياخلا الدراما — متخلفاً جيلا عن الأدب الفرنسى . كان النثر قوياً مرناً ، وفى الغالب معقداً مطنباً إلى حدالضجر ، خيالياً ، ولكنه أحياناً يحرك المشاعر بجلاله الملكى أو ايقاعه الفخم . ولم ينتج النثر الإنجليزى أحداً مثل رابليه أو مونتانى ، وقلد الشعر الأشكال الأجنبية فى حرص وحذر ، باستثناء The Faerie Queen, Epithalamium ولم يجد سبنسر قراء له فى القارة قط ، كما لم يجد رونسار (شاعر فرنسى فى القرن السادس عشر) قراء له فى انجلترا . فان الشعر يخلق من اللغة والعاطفة موسيقى لا يمكن الاستماع إليها خارج حدود الكلام ، لقد اتصلت الأغانى الشعبية البسيطة بالناس ووصلت إليهم ، بشكل أشد وثاقاً مما فعل شعر القصور والبلاط ، فان الأغانى كانت معلقة على جدران البيوت والحانات ، وكانت تغنى وتباع فى الشوارع ، وما زالت أغنية « لورد راندال » تهز مشاعرنا بلحنها الحزين[٣٣] . وربما كان هذا الشعر الشعبى — لا المحسنات البارعة اللطيفة — فى قصائد السونيت ، هى التى مهدت عقول الناس فى عصر اليزابث ليقدروا شكسبير .

٥ — المسرح

كيف إذن ، صعد الأدب الإنجليزى التافه إلى هذا الحد فى فترة الجفاف الطويل بين تشوسر وسبنسر ، نقول إذن كيف صعد هذا الأدب إلى شكسبير ؟ لعله بسبب نمو الثروة وانتشارها ، والسلام الطويل المثمر ، وبسبب الحرب المثيرة الظافرة ، والآداب الأجنبية والأسفار التى وسعت عقول الإنجليز . وكان بلوتس وترنس Terence يعلمان انجلترا فن الملهاة كما يعلمها سنكا أساليب معالجة المأساة . ومثل الممثلون الإيطاليون فى انجلترا (١٥٧٧ وما بعدها) وأجريت آلاف التجارب . وفيما بين عامى ١٥٩٠ و ١٦٤٢ شاهدت انجلترا ٤٣٥ ملهاة تمثل . وتطورت الهزليات والفصول الإضافية إلى الملهاة . وتخلت الأسرار الدينية والتعاليم الأخلاقية عن مكانها للمسرحيات المأساوية الدنيوية ، كما فقدت الأساطير المقدسة سلطانها على القصيدة . وفى ١٥٥٣ أخرج نيقولا يودال فى Ralph Roister Doister أول ملهاة

إنجليزية فى شكل كلاسيكى قديم . وفى ١٥٦٢ مثل المحامون فى The Inner Temp e مسرحية Gorboduc وهى أول مأساة فى شكل كلاسيكى .

وبدا لبعض الوقت أن ذلك الشكل ، المنحدر من رومه ، كان محتوما عليه أن يصوغ المسرحية الإنجليزية فى قالبها ، فى عصر اليزابث . ودافع الجامعيون مثل هارفى ، والمحامون الشعراء مثل جورج جاسكوين ، والذين تلقوا تعليما كلاسيكيا مثل سدنى — دافعوا عن ضرورة ملاحظة ثلاث « وحدات » فى الرواية ، أى أنه لابد أن يكون هناك " عمل " (موضوع) ، وأن هذا لابد أن يجرى فى " مكان " واحد ، ويتمثل فى " يوم " واحد لا أكثر . ومبلغ علمنا أن هذه الوحدات صاغها لأول مرة لودوفيكو كاستلفترو (١٥٧٠) فى تعليق على " شعريات " أرسطو . إن أرسطو نفسه لا يتطلب إلا وحدة العمل ، ويوصى بأن يجرى هذا العمل " خلال دورة واحدة للشمس " ويضيف ما يمكن أن نسميه وحدة الحالة النفسية بمعنى أن الملهاة " التى تمثل الطبقة الدنيا من الناس " لا يجوز أن تختلط بالمأساة " وهى تمثل العمل البطولى(٣٤) " . وأخذ سدنى فى كتابه " دفاع عن الشعر " ، نظرية وحدات المسرحية عن كاستلفترو ، وطبقها بدقة ، ولكن فى مرح لطيف . على الروايات فى عصر اليزابث ، تلك التى كانت الجغرافية طاغية فيها :

فترى فيها آسيا فى ناحية ، وأفريقية فى الناحية الأخرى ، وكذلك ممالك سفلى كثيرة ، حتى أن الممثل حين يدخل ، لابد أن يبدأ بأن يخبرك أين هو . . . . أما عن الزمن فانهم أكثر تحرراً ، وإنه لأمر عادى أن يقع أميران شابان فى شرك الغرام ، وبعد عوائق جمة تحمل العشيقة فى طفل من شاب وسيم . . . ثم ينمو حتى يصبح رجلا يقع فى شراك الغرام ، مستعداً لأن ينجب طفلا آخر . وكل هذا على مدى ساعتين(٣٥) .

واتبعت فرنسا القواعد الكلاسيكية وأنجبت راسين . أما انجلترا فنبذتها وهيأت لمسرحيتها المأساوية حرية رومانتيكية ومجالا يغلب عليه المذهب الطبيعى ، وأنجبت شكسبير . وكان المثل الأعلى لعصر النهضة فى انجلترا فكان الحرية والإرادة

والمرح والحياة . وكان جمهور النظارة فى عصر اليزابث يتألف من صغار اللوردات ومن متوسطى الحال ومن محتلى مقاعد الدرجة الثالثة ، وكان ينبغى أن يقدم لهذا الجمهور غذاء دسم متنوع ، حيث كان له قدرة على الضحك ملء أشداقه ، ولم يكن يعبأ بحفارى قبور يتجاذبون أطراف الحديث فى المذاهب الفلسفية مع أمير ،وكان لهذا الجمهور خيال لم يروض بعد ، يمكن أن يقفز من مكان إلى مكان ويعبر قارة بأسرها ، لأية إشارة أو تلميح . وكانت المسرحيـــة فى عهد اليزابث تمثل الإنجليز فى أيامها ، لا الإغريق فى عهد بريكليز ، ولا الفرنسيين فى عهد البوربون ، ومن ثم أصبحت الفن القومى ، على حين أن الفنون التى اتبعت نماذج أجنبيةلم تتغلغل جذورها فى انجلترا .

وكان على المسرحية الإنجليزية أن تخوض معركة أخرى قبل أن تخطو إلى مارلو وشكسبير ، فقد نبذت الحركة البيوريتانية الناشئة مسرح اليزابث على أنه وكر للوثنية والتجديف الدنس ، واستنكرت وجود النساء والبغايا بين الجمهور ، واقتراب المواخير من المسارح . وفى ١٥٧٧ نشر نورثبروك نقداً لاذعاً عنيفاً ضد "لعب النرد والرقص والروايات . والفصول الضاحكة ":

> إنى مقتنع بأن الشيطان ليس لديه وسيلة أسرع ولا مدرسة أصلح ،
> لينفذ رغبته ، ويلقنها ، ويوقع الرجال والنساء فى شراك الغواية
> والفسق والشهوات الدنيئة لدى بنات الهوى الداعرات الشريدات ،
> من هذه الروايات والمسارح . ومن ثم فانه من الضرورى أن تحظر
> هذه الأماكن ويمنع هؤلاء الممثلون ، وأن يقضى عليهم ، وأن
> تهدم المسارح بأمر السلطات ، كما هو الحال بالنسبة للمواخير
> وبيوت الدعارة[٢٦] .

وكان كتاب ستيفن جوسون " مدرسة لهجاء " معتدلا نسبيا . واعترف بأن ثمة روايات وممثلين ، " لاغبار عليهم " . ولكنه عندما رد عليه لودج ، أقلع جوسون عن أى تمييز . وفى كتابه " Players Confuted in Five Actions " ، وصف الروايات بأنها " غذاء للخطيئة وللشغب وللزنى " ، والممثلين بأنهم "أساتذة

الرذيلة ومعلم الخلاعة والفجور(٣٧) . " ورأى النقاد فى الملهاة صورا للرذيلة تفسد الأخلاق ، وفى المأساة أمثلة مثيرة للقتل والخيانة(٣٨) والتمرد . وفى السنوات الأولى من حكم اليزابث كان يوم الأحد هو اليوم المخصص للتمثيليات . وكانت الأبواق تعلن عنها ، كما تدعو أجراس الكنائس الناس إلى صلوات المساء . وكم فزع رجال الدين من تسلل جمهور الكنيسة خلسة من صلواتهم ليزحموا المسرح . وتساءل أحد الوعاظ : أليست رواية قذرة تستحث بنفخة من بوق ألفا من الناس للحضور بأسرع مما تحضر دقات الناقوس لمدة ساعة مائة منهم لسماع موعظة(٣٩) ؟ » وذهب نورثبروك إلى أبعد من ذلك فقال : « إذا كنتن تعرفن كيف تخدعن أزواجكن ، أو خداع الأزواج لزوجاتهم ، وكيف تمثلن دور بنات الهوى ، وكيف يكون الملق والمداهنة والكذب والقتل والتجديف على الله ، وترديد لأغانى القذرة ... فهلا تتعلمن كيف تمارسن كل هذا فى مثل هذه الفصول الماجنة ؟(٤٠) »

ورد الكتاب المسرحيون على هذا بنشرات أصدروها ، وبالسخرية من البيوريتانيين فى مسرحياتهم . من ذلك ما أورد مالفوليو فى رواية « الليلة الثانية عشرة » ، حيث يسأل سير توبى بلش لمهرج فى تلك الرواية : " هل تظن أنه لن يكون هناك كعك وجعة لأنك رجل متمسك بأهداب الفضيلة ؟ " فيجيب المهرج " نعم ، وبحق سانت آن ، وسيكون الزنجبيل كذلك ساخنا فى الفم(٤١) . " واستمر هؤلاء الكتاب ، حتى شكسبير نفسه ، يملحون رواياتهم بشىء من أعمال العنف والغضب وسفاح ذوى القربى والزنى والدعارة . وهناك فى رواية شكسبير " بريكليز " مشهد يعرض حجرة فى ماخور يشكو مديره العام من أن : " العاملات عنده بتن من العمل المتواصل ، فى أسوأ حال(٤٢) "

وذهبت سلطات مدينة لندن — وكان بعضهم من البيوريتانيين — إلى أن البيوريتانيين ألزموا معارضيهم الحجة . وفى ١٥٧٤ حرم « المجلس العام » تمثيل الروايات إلا بعد فحصها وإجازتها ، ومن هنا جاء بيت شكسبير " لقد كممت السلطات أفواه الفن (٤٣) . ولكن ، لحسن الحظ ، كانت اليزابث ومجلس شورى الملكة مغرمين بالمسرحيات : وكان لبعض اللوردات فرق من الممثلين ، وفى ظل

رقابة متراخية على المصنفات ، أجيزت ست فرق لإخراج الروايات فى المدينة .

وقبل ١٥٧٦ كانت الأعمال المسرحية تجرى أساسا على منصات مؤقتة فى أفنية الفنادق . ولكن فى تلك السنة بنى جيمس بوربدج أول مسرح دائم فى إنجلترا ، وأطلق عليه ببساطة اسم " المسرح " . وللافلات من سلطان الجهات المسئولة فى لندن أقيم المسرح خارج حدود المدينة نفسها ، فى ضاحية شوردتش ، وسرعان ما أقيمت مسارح أخرى : The Curtain (١٥٧٧؟) The Black Friars , (١٥٩٦) The Fortune (١٥٩٩) . وفى تلك السنة الأخيرة هدم ريتشارد وكوثبرت بوربدج مسرح والدهما ، وأقاما المسرح المشهور Globe فى سوثوارك على نهر التامز تماماً . وكان مثمن الأضلاع فى شكله الخارجى ، ولكن ربما كان مستديرا فى الداخل ، ومن ثم أطلق عليه شكسبير "هذه الدائرة الخشبية " This Wooden O (٤٤) وكانت كل مسارح لندن من الخشب قبل ١٦٢٣ . وكان معظمها عبارة عن مدرجات كبيرة تتسع لنحو ألفين من المتفرجين جالسين فى صفوف من شرفات محيطة . ويمكن لألف آخرين أن يشاهدوا الرواية وقوفا فى الساحة التى حول المنصة أو خشبة المسرح . وهؤلاء " الالف " هم " جمهور الدرجة الثالثة " الذين وجههم هملت بأنهم « المشهد الصامت والضجيج (٤٥) » وكان المشاهد الواقف يدفع بنساً واحداً ، أما الجالس فى الشرفات فيدفع بنسين أو ثلاثة ، أما المقعد على المنصة فكان يكلف أكثر من ذلك قليلا . وكانت هذه المنصة عبارة عن منبسط يخرج من أحد الجدران إلى وسط الساحة . وفى المؤخرة كانت غرفة الملابس ، وفيها يرتدى الممثلون ملابسهم ، ويتولى " خازن المسرح " أمر أدوات التمثيل والإخراج المسرحى ، وكانت تشمل قبوراً وحماجم وصناديق أشجار ، وشجيرات الورد ، وعلب مجوهرات وستائر ومراجل ، وسلالم وأسلحة ، وأدوات ، وقوارير دم وبعض رؤوس مفصولة وكان يمكن بواسطة الآلات إنزال الآلهة والالهات من السماء ، أو رفع العفاريت والسحرة من الأرض ، كما يمكن إسقاط المطر بشد حبل ، وتعليق الشمس فى السماء " بحزام مزدوج (٤٦) " . وكان على هذه الأدوات أن تعوض عن جهاز المسرح . وعوقت المنصة المكشوفة غير المحجوبة سرعة تغيير الوضع . وعوضاً عن ذلك كان

التمثيل وسط الجمهور تماماً ، حتى ليكاد يحس بأنه جزء من الحدث .

ولم يكن النظارة يشكلون جزءاً صغيراً من المسرح . وكان متعهدو الحفلات يبيعون التين والتفاح والبندق والكتيبات للمتفرجين ، وفيما بعد ذلك — إذا صدقنا وليم برين البيوريتانى ، — كانت الغلايين تقدم للنساء(٤٧) . وجاءت النساء إلى الروايات أفواجاً ، لايعوقهن عن ذلك تحذيرات المنابر بأن مثل هذا الاختلاط يعرض على الغواية . وفى بعض الأحيان — حين كان الصراع الطبقى يعترض المسرحية ، كان جمهور الدرجة الثالثة يقذفون بمخلفات طعامهم على المتأنقين الجالسين على المنصة ؛ ويجدر بنا ، لكى نفهم الرواية فى عصر اليزابث ، أن نذكر هذا الجمهور : العاطفة التى تهلل لقصة حب ، والمرح القلبى الحماسى الذى تلهف على رؤية المهرجين مع الملوك ، والخيلاء التى استساغت البلاغة ، والحيوية الفظة التى استمتعت بمشاهد العنف — كما نتذكر قرب المنصـــة المثلثة الجوانب التى تغرى بالمناجاة والكلام على انفراد .

وكثرالممثلون ، وكاد الممثلون جوابو الآفاق أن يظهروا فى أية مدينة تقريباً فى أيام الأعياد والاحتفالات ، يمثلون فى ميدان القرية ، أو فى فناء الحانة ، أو فى حظيرة للماشية أو فى قصر من القصور ، وفى أيام شكسبير لم يكن هناك ممثلات ، وكان الأولاد يمثلون الأدوار النسائية ، فكان يمكن للمشاهدين فى أيام اليزابث أن يروا ولداً يمثل امرأة متنكرة فى زى فتى أو رجل . وفى المدارس الخاصة الاستقراطية قدم الطلبة مسرحيات كجزء من تدريبهم أو دراستهم . ونافست فرق الممثلين الأولاد هذه فرق الممثلين الكبار ، عن طريق عرض الروايات فى مسارح خاصة للجمهور وللمتفرجين الذين يدفعون أجوراً ، وشكا شكسبير من هذه المنافسة(٤٨) ، وتوقفت بعد ١٦٢٦ .

وحتى يتفادى الممثلون البالغون إدراجهم فى مصاف المتشردين ، نظموا أنفسهم فى فرق تحت رعاية وحماية النبلاء الأثرياء — ليستر ، سسكس ، أكسفورد ، اسكس وكان للورد أمير البحر فرقة ، وكذلك للورد كبير الأمناء ، وكان هؤلاء الرعاة والحماة يدفعون أجور الممثلين عن العروض التى يقدمونها فى قاعات البارونات والنبلاء . وفيما عدا هذا عاش الممثلون مزعزعين غير مستقرين على أنصبتهم فى فرقهم .

ولم تكن الأنصبة توزع توزيعا عادلا ، فكان للمدير الثلث ، واستولى نجوم الممثلين على نصيب الأسد من الباقي . وترك ريتشارد بوريدج — وهو أشهر هؤلاء النجوم — أملاكاً تدر ٣٠٠ جنيه سنوياً ، أما منافسه إدوارد اللين Alleyn فقد شاد وتبرع بكلية دلوتش فى لندن . وكوفىء مشاهير رجال المسرح باعجاب الجمهور الأعمى بهم ، ويتهافت السيدات عليهم يخطبن ودهم .

ويروى لنا جونماننجهام فى مذكراته عن مارس ١٦٠٢ قصة مشهورة :

ذات مرة ، حين مثل بوريدج " ريتشارد الثالث " ، كانت هناك مواطنة قريبة الشبه به إلى حد بعيد : لدرجة أنها قبل أن تنصرف من الرواية حددت له موعداً ليحضر إليها تلك الليلة باسم ريتشارد الثالث . وكان شكسبير يسترق السمع إلى الحديث ، فسبقه إليها ، ولقى ترحيباً ونفذ خطته قبل حضور بوريدج . ثم جاء رسول يقول إن ريتشـــارد الثالث بالباب ، فرد شكسبير الرسول ليقـــول إن وليم الفاتح سبق ريتشارد الثالث(٤٩) .

٦ — كرستوفر مارلو ١٥٦٤ — ١٥٩٣

لم يجن كتاب المسرح من الربح قدر ما جنى الممثلون . ذلك أنهم باعوا رواياتهم دون تحفظ إلى الفرق المسرحية لقاء مبلغ يتراوح بين ٤ و ٨ جنيهات ، ولم يحتفظوا بحقهم فى المخطوطة أى فى أصل الرواية ، وحظرت الفرقة عادة نشر النص لئلا تستخدمه فرقة منافسة . وسجل كاتب الاختزال الرواية أحياناً فى الوقت الذى تمثل فيه . وربما أصدر صاحب المطبعة من هذا التسجيل طبعة مسروقة محرفة لا يصيب المؤلف منها إلا ضغط الدم الشديد . ولم تحمل مثل هذه الطبعات دوما اسم المؤلف ومن ثم ، فان الروايات مثل Arden of Faversham (١٥٩٢) عمرت عدة قرون دون أن تحمل اسم مؤلفها .

وبعد ١٥٩٠ عاش المسرح الإنجليزى على روايات لا بعض القيمة ، ولو أن عددا قليلا منها فقط هو الذى عمر لأكثر من يوم . وزخرف جون ليلى ملهياته بأغان شعبية ساحرة فقد مهد السحر الرقيق فى روايته Endymion لرواية « حلم منتصف ليلة صيف » .

وربما تبادلت رواية روبرت جرين« Friar Bacon and Friar Bungay »(١٥٨٩) التي عالجت عجائب السحر ، نقول ربما تبادلت الفكرة مع رواية مارلو « دكتور فاوست » (١٥٨٨ ؟ — ١٥٩٢ ؟) . وروت « المأساة الأسبانية » لتوماس كد (١٨٥٩ ؟) قصة قتل دامية كادت لا تبقي على أحد في النهاية ، وأوحى نجاحها إلى كتاب الرواية في عصر اليزابيث ودفعهم إلى منافسة القواد والأطباء في سفك الدماء . وهنا ، كما هو الحال في هملت نجد « شبحا » يطالب بالثأر ، كما نجد رواية داخل رواية .

وعمد كريستوفر مارلو قبل تعميد شكسبير بشهرين اثنين ، وهو ابن صانع أحذية في كنتربري ، ومن ثم فإنه ما كان ليحظى بالتعليم الجامعي لولا أن رئيس الأساقفة باركر قدم له منحة دراسية . وطوال سني دراسته بالكلية استخدمه سير فرانسيس ولسنهام جاسوسا للتحري عن أية مؤامرات ضد الملكة . ولقد زعزعت دراسته لآداب الإغريق والرومان من عقيدته الدينية ، كما أضفى اطلاعه على آراء مكيافللي على تشككه اتجاها إلى المذهب الكلبي (السخرية) . وانتقل إلى لندن بعد الحصول على درجة الأستاذية (١٥٨٧) ، وأقام في غرفة مع توماس كد . وانضم إلى حلقة المفكرين الأحرار التي تزعمها رالي وهاريوت . ورفع ريتشارد بارنز — أحد عمال الحكومة — إلى الملكة في ٣ يونية ١٥٨٩ تقريرا جاء فيه أن مارلو كان قد أعلن أن أول أصل في الدين لم يكن إلا إبقاء الناس في رعب وفزع .. وأن المسيح كان ابن زنى . . . وأنه إذا كان ثمة ديانة حقة فهي الكاثوليكية ، لأن عبادة الله عندهم تقوم على مزيد من الطقوس ، وأن جميع البروتستانت حمير مراءون منافقون . . . وأن العهد الجديد (الإنجيل) كله مكتوب بشكل قذر بذيء . ويضيف بارنز « ثم أن مارلو هذا . . . في كل اجتماع يحضره تقريبا . . . يحرض الناس على الإلحاد ، ويريدهم ألا يخشوا « البع بع » والغيلان ، مزدريا كل الازدراء الرب ورسله[٥٠] . » كما أن بارنز (الذي أعدم شنقا في ١٥٩٤ لفعلة شائنة) أضاف — ليحكم التدبير — أن مارلو دافع عن اللواط[٥١] . ووصف روبرت جرين في دعوته أصدقاءه إلى الاصلاح ، وهو على فراش الموت ، نقول « وصف مارلو

بأنه ميـال إلى التجديف والإلحـاد(٥٢) وقرر توماس كذ — وقد قبض عليه فى ١٢ مايو ١٥٩٣ — تحت تأثير التعذيب ، أن مارلوكان مارقا مدمنا للخمر ، قاسى القلب » ، معتـادا على « السخرية من الكتب المقدسة » و « الاستهزاء بالصلوات(٥٣) » .

وقبل أن تصل هذه التقارير إلى الحكومة بوقت طويل ، كان مارلو قد كتب وأخرج للمسرح روايات تشير إلى كفره وشكوكه فى الكتب الدينية . ومن الواضح أنه ألف Tamburlaine The Great فى الكلية وأنه أخرجها فى عام تخرجه ، وإن تمجيدها للمعرفة والعلم والجمال والقوة ليكشف عن مزاج الشاعر المصطبغ بمبادىء فاوست (فيلسوف يبيع نفسه للشيطان مقابل حصوله على العلم والمعرفة).

إن نفوسنا التى تستطيع بما أوتيت من مواهب
أن تدرك عجيب صنع العالم ،
وتقيس مدار كل كوكب سيار ،
ولا تزال تصعد وراء المعرفة اللانهائية ،
وتنتقل دائما مثل الأجرام التى لا يقر لها قرار
تريدنا أن نفنى أنفسنا ، وألا نهدأ ،
حتى نصل إلى أنضج الثمار فى كل شىء(٥٤) .

وكانت الروايتان اللتان كتبهما عن تيمور تنمان عن فجاجتهما ، وكان تصوير الشخصيات مبسطا أكثر مما ينبغى التبسيط — فكل شخص يمثل صفة واحدة ، فتامبورلين هو الزهو بالقوة ، ويكاد الزهو أن يكون غرور طالب جامعى منتفخ الأوداج ببدع وأشياء جديدة لم يتمثلها جيدا فى عقله ، لا أن يكون ثقة هادئة بالنفس لدى ملك ظافر : وتجرى القصة على أنهار من الدماء تعترضها السدود أو الاحتمالات البعيدة . والأسلوب ينزع إلى الكلام المنمق الرنان . ماذا إذن أكسب هذه الرواية أعظم النجاح ، إلى هذا الحد ، فى عصر اليزابث ؟ يحتمل أن يكون ذلك راجعا إلى ما فيها من عنف وسفك دماء وتنميق ، ولكنا أيضا قد نؤمن بأنه يرجع إلى ما فيها من زندقة وهرطقة وفصاحة ، ففيها أفكار تدوى بجرأة أكثر ،

وصور يحس بها المرء إحساساً أعمق . وعبارات استخدمت بذكاء أكثر مماسمع أو عرف فى المسرح الاليزابيثى من قبل . وهنا كانت عشرات من « الأبيـات العظيمة » مما حدا بجونسون أن يمتدحها ، وقطع تتسم بجمال شجى ، حتى لقد ذهب سوينبرن إلى أنها فريدة فى نوعها .

وأعجل التهليل والهتاف مارلو ، فأسرع الخطى ، وكتب بكل ما أوتى من قوة الروح أعظم أعماله : « التاريخ الفاجع لدكتور فاوست » (١٥٨٨ ؟). إن أخلاق العصور الوسطى التى ربما أقرت « أن بهجة المعرفة بهجة يعروها الحزن والأسى[٥٥]، وأن فى المزيد من الحكمة مزيدا من البلية[٥٦]» كانت قد دمغت اللهفة الجامحة على المعرفة بأنها إثم عظيم ، بيد أن طموح العصور الوسطى تحدى هذا الحظر ؛ حتى إلى حد مناشدة السحر والشيطان بغية الوقوف على أسرار الطبيعة وقواها . وإن مارلو ليمثل فاوست على أنه طبيب ويتبرج العالم الشهير الذى يتميز غيظا من الحدود الضيقة لمعرفته وعلمه ، ويحلم بوسائل سحرية تجعله يحيط بكل شىء علما .

إن كل شىء يتحرك بين القطبين الساكنين
سوف يكون تحت أمرى . . .
وهل أجعل الأرواح تأتينى بكل ما أريد ،
وتبدد كل غموض والتباس .
وتقوم بكل مغامرة يائسة أبتغيها ؟
سأجعلها تطير إلى الهند من أجل الذهب
وتنقب فى المحيطات وراء لآلىء الشرق
وتفتش فى كل أركان الدنيا المكتشفة حديثا
من أجل الفاكهة الشهية وكل ألوان النعيم والترف ،
وسأجعلها تتلو على غرائب الفلسفة .
وتقص على أنباء الملوك الأجانب[٥٧] .

وبناء على نداء منـه ، يظهر مفستوفيلس ، ويعرض عليـه أربعا وعشرين سنة من السعادة والقوة ، شريطة أن يبيع نفسه إلى لوسيفر ويوافق فاوست ويوقع

العقد بدم ذراعه المقطوعة . وكان أول مطلب له هو أن يأتيه بأجمل فتاة فى ألمانيا لتكون زوجة له ، " لأننى شهوانى لعوب داعر " ، ولكن مفستوفيلس يثنيه عن الزواج ، ويقترح بدلا منه مجموعة متعاقبة من الخليلات والمحظيات . ويطالب فاوست بهيلين غادة ترواده ، فتأتى إليه ويغرق هو فى غمرة النشوة والابتهاج :

هل هذا هو الوجه الوحيد الذى هاجم ألف سفينة
وأحرق أبراج ترواده الشاهقة ؟
أيتها الجميلة هيلين امنحينى الخلود بقبلة منك . . .
آه . . . إنك أحلى من نسيم المساء
مكسوة بجمال ألف من النجوم

وعولج المشهد الأخير فى قوة هائلة : التوسل الأخير إلى الله فى شىء من الرحمة ، أو على الأقل فى فترة من اللعنة والعذاب — « فليعش فاوست ألف سنة بل مائة ألف سنة فى الجحيم ، لينجو فى النهاية » — ثم اختفاء فاوست عندما آذنت الساعة بحلول منتصف الليل ، وسط ضجة هائلة من السحب المعتمة المصطدمة بعضها ببعض . وتنشد الفرقة الموسيقية كلمات تخليد ذكراه — وذكرى مارلو :

انقطع الغصن الذى نما وترعرع مستقيما عاليا ،
واحترق فرع الغار الذى يكلل أبوللو

ربما استطاع مارلو ، فى هذه الروايات ، أن يظهر ميوله الخاصة نحو المعرفة والجمال والقوة ، ولكن تطهير العواطف ، أو أثر التنقية والتنظيف — ذلك الذى عزاه أرسطو إلى المسرحية المأساوية ، كان يظهر فى المؤلف أكثر منه فى جمهور المشاهدين . وفى مسرحية « يهودى مالطه » (١٥٨٩ ؟) تأخذ الرغبة فى القوة شكلا متوسطا من جشع المـــال والثروة ، وتدافع عن نفسها فى الخطبـة التى ألقاها مكيافل :

إنى لأعجب لأولئك الذين يبغضوننى كل البغض .
وعلى الرغم من أن بعضهم يندد علانية بكتبى
فانهم ، سيقرأونها ، ومن ثم يصلون

إلى كرسى بطرس ، وعندما يتخلصون منى
سيكون أعدائى الصاعدون خطراً عليهم
وإنى لأعتبر الدين لعبة أطفال ،
وأعتقد أنه ليس ثمة خطيئة غير الجهل .

ومرة أخرى نجد أن باراباس مقرض النقود صفة واحدة مجسدة ، هى الجشع إلى حد الكراهية لكل من يعوق سبيل مكاسبه فى صورة ساخرة بغيضة عولجت برذائل مهيبة .

لقد تعلمت فى فلورنسة كيف أقبل يدى
وأرفع ذراعى عندما ينادوننى يا كلب ،
وأتوارى ذليلا مثل أى أخ عارى القدمين
أملا فى أن أراهم يموتون جوعاً فى حظيرة(٥٨) .

وإنه ، وهو يدقق التأمل فى مجوهراته ، يهتز طرباً " لثروتهم التى لا حد لها ، فى غرفة صغيرة(٥٩) "وعندما تستعيد ابنته حقائب أمواله المفقودة ، يصيح فى خليط من المشاعر ، سبق بها شيلوك ، " آه يا ابنتى ، ذهبى ، ثروتى ، بهجتى(٦٠) " . وفى هذه الرواية قوة تكاد تكون ضراوة ، وفيها وخز بالألقاب وقوة فى العبارة ، أدت بمارلو ، بين الحين والحين ، إلى الاقتراب كثيراً من شكسبير .

وكان أشد اقتراباً منه فى رواية إدوارد الثانى (١٥٩٢) : فلما أن توج الملك الصغير أرسل إلى صديقه الأغريقى " جافستون ، وأغدق عليه بسخاء القبلات والمناصب والأموال ، فثار النبلاء الذين أهملهم وخلعوا إدوارد الذى اتجه إلى الفلسفة ، فنادى رفاق الباقين :

تعال يا سبنسر ، تعال يا بالدوك ، اجلسا إلى جوارى
جربا الآن تلك الفلسفة ،
التى فى بيوت حضانتنا المشهورة للفنون
كنتم ترضعونها من أفلاطون وأرسطو .

إن هذه الرواية (إدوارد الثانى) — بهذا البنيان المحكم ، وبالشعر المفعم بالحساسية والخيال والقوة ، وبهذه الشخصيات التى رسمت فى وضوح وتماسك ، وبهذا الملك الممزوج من اللواط والزهو ، ومع ذلك يمكن الصفح عنه فى بساطة صباه وجماله الغض — نقول إن هذه الرواية بكل ماذكرنا ، كانت قيد خطوة من رواية شكسبير « ريتشارد الثانى » التى أعقبتها بسنة واحدة .

وماذا كان عساه ينجز هذا الكاتب المسرحى الذى بلغ من العمر سبعاً وعشرين سنة ،إذا اكتمل نموه . فى مثل تلك السن كان شكسبير يكتب توافه مثل: Two Gentlemen of Verona, Acomedy of Errors Love,s Labour's Lost وفى « يهودى مالطة » كان مارلو يعرف كيف يجعل كل منظر يدفع أمامه مكيدة مرتبة ، وفى « إدوارد الثانى » تعلم كيف يعرف الشخصية الواحدة على أنها أكثر من صفة واحدة مجسدة ، وربما تيسر له فى عام أو عامين تطهير رواياته من الكلام المنمق الطنان والأحداث المثيرة ، ولربما سما إلى فلسفة أرحب أفقا ، وإلى تعاطف أعظم مع أساطير بنى الإنسان ونقاط الضعف فيهم . وربما كانت نقيصته المعيبة هى الحاجة إلى الفكاهة ، فليس ثمة ضحك لطيف فى رواياته ، فاللهو العارض — كما هو الحال فى روايات شكسبير ، لا يؤدى مهمته الصحيحة فى المأساة — ألا وهى تهدئة روح المستمع قبل الارتفاع به إلى ذروة المأساة . وكان يستطيع أن يقدر الجمال الحسى أو المادى فى النساء ، ولا يقدر ضعفهن وقلقهن وكياستهن . وليس فى رواياته شخصية نسوية قوية نشيطة ، حتى فى الروايتين اللتين لم يكملهما « ديدو » و « ملكة قرطاجة » .

ولم يبق أمامنا إلا الشعر . وأحيانا تغلب الخطيب على الشاعر ، فصاح الخطيب « بخطبة عظيمة مدوية»[٦١] . ولكن كم من مشهد كان الشعر المشرق ينساب فيه بصور حية وألفاظ متناغمة إلى حد أن الإنسان قد يخطئ بعض السطور فيظنها من فيض خيال شكسبير . وأثبت الشعر المرسل عند مارلو أنه الأداة الصحيحة للمسرحية الإنجليزية ، وقد يكون أحيانا مملا على وتيرة واحدة ، ولكنه عادة متنوع فى أوزانه ، محقق لاتصال وترابط يبدوان طبيعيين .

وأسدل الستار الآن فجأة على « تاريخه الفاجع » الخاص ، فنى ٣٠ مايو ١٥٩٣ ، اجتمع ثلاثة من جواسيس الحكومة — انجرام فريزر ، نيقولا سكيرز ، روبرت بولى — بشاعرنا مارلو — وربما كان هو الآخر لايزال جاسوسا — اجتمع الأربعة للعشاء فى منزل أو حانة فى دتفورد ، على بعد أميال من لندن . وطبقاً لما جاء فى تقرير وليم دانبي — المحقق فى أسباب الوفيات المشتبه فيها — « تراشق فريزر ومارلو بألفاظ نابية قبيحة فى تبيان السبب الذى من أجله لم يتفقا . . على دفع نفقات العشاء . فما كان من مارلو إلا أن استل خنجرا من حزام فريزر وطعنه به فأصابه ببعض جروح سطحية . فأمسك فريزر بيد مارلو وسدد الخنجر إليه فورا ، وأصابه بجرح قاتل عمقه بوصتان فى عينه اليمنى . . . . مات المدعو كرستوفر مورلى متأثرا به فى الحال » ، حيث وصل النصل إلى المخ . وقبض على فريزر فترافع بأنه كان فى حالة دفاع عن النفس . وأفرج عنه بعد شهر . أما مارلو فقد وورى التراب فى أول يونية فى قبر غير معروف الآن [٦٢] . وقد بلغ من العمر تسعة وعشرين ربيعاً .

وبالإضافة إلى Dido ترك مارلو شذرتين غاية فى السمو . أما Hero and Leander فهى قصيدة رومانتيكية ، من المقاطع ذوات البيتين من نوع الملحمة ، عن قصة موزائيس التى حكت فى القرن الخامس عن شاب قطع الدردنيل سبحا ليوفى بموعد لقاء . وإن أنشودة « الراعى المشبوب العاطفة فى الطريق إلى حبيبته » . لهى واحدة من أعظم الأغانى الشعبية فى عهد أليزابث . واعترف شكسبير اعترافاً جميلا بفضل مارلو ، فأجرى فقرات من هذه القصيدة على لسان سير هيو أيفانز فى رواية « الزوجات المرحات فى وندسور » ، كما أشار إليها إشارة رقيقة فى رواية « على هواك As You Like It » :

أيها الراعى الذى قضى نحبه ، إنى أرى الآن قولك المأثور فى القوة
« من ذا الذى أحب ، إذا لم يكن أحب لأول نظرة ؟ »

وهذا هو البيت رقم ٧٦ من رواية مارلو Hero and Leander

لقد أنجز مارلو الشئ الكثير فى العمر القصير . ولقد جعل من الشعر المرسل كلاما مرناً قوياً . وأنقذ المسرح على أيام البزابث من دعاة القديم ومن البيوريتانيين وأضفى أشكالهم المحددة الواضحة على مسرحيات الأفكار ومسرحيات التاريخ الإنجليزى. وترك بصماته على شكسبير فى روايتى تاجر البندقية وريتشارد الثانى ، وفى شعر الغزل ،وفى الاسلوب البليغ الفخم . وبظهور مارلو ،وكد Kid ؛ ولودج ، وجرين، وبيل Peele ، كانت الطرق قد فتحت ، وكان شكل المسرحية وبنيانها وأسلوبها ومادتهاقد هيئت كلها . فلم يكن شكسبير معجزة ، بل كان منفذا ومنجزا لمـــا بدأ به هؤلاء جميعهم .

الفصل الرابع

وليم شكسبير

١٥٦٤ — ١٦١٦

١ — أيام الشباب ١٥٦٤ — ١٥٨٥

فلنلخص الآن ، استكمالا للبحث ، مايعرفه نصف العالم عن شكسبير . واليوم وقد عكف الباحثون المخلصون على فحص مخلفاته ودراستها لثلاثة قرون ، فإنه يهمنا أن نقيس مانعرف عنه — وهناك شيء كثير يطرح جانبا لأنه غير جدير بالمناقشة ؛ وهناك الشكوك التي تثار حول تأليفه لكل الرويات التي نسبت إليه تقريباً .

ومهما يكن من أمر فإننا لسنا على يقين من اسمه . فقد أباحت اليزابث من الحرية في هجاء الكلمات أكثر مما أباحت في حرية العقيدة ، ولربما حملت نفس الوثيقة الواحدة عدة طرق لهجاء كلمة واحدة بعينها ، ولربما وقع رجل بعينه اسمه بأشكال مختلفة تبعا لمزاجه وسرعته في الكتابة . وهكذا كتب المعاصرون مارلو ، مارلين ، مورلى وغيرها ، أما توقيعات شكسبير الستة الباقية فهي كما تقرأ : Willm Shaksp ، Willjam Shakspeare — Willm Shakspere — Wm Shakspe - William Shakespe وهو الهجاء السائد الآن ، وليس له مايؤيده في مخطوطاته ، والتوقيعات الثلاثه الأخيرة تنبع من نفس الفكرة .

وكانت أمه مارى آردن ، من أسرة قديمة في وروكشير . وقد قدمت إلى جون شكسبير ، ابن مستأجر أرض والدها ، صداقا ضخما نقداً وأرضاً ، وأنجبت له ثمانية أطفال كان ثالثهم وليم . وأصبح جون من رجال الأعمال الأثرياء الناجحين في ستراتفورد على نهر الآفون ، واشترى دارين ، وخدم بلده ذائقاً للجعة . ومسئولا عن الأمن ، وعضوا في مجلس المدينة ، ومساعدا لمأمور التنفيذ ، وأحسن إلى الفقراء

بسخاء . وبعد ١٥٧٢ انحطت موارده . وأقيمت عليه دعوى من أجل ثلاثين جنيهاً ، وأخفق فى دفع التهمة عنه ، وصدر أمر بالقبض عليه . وفى ١٥٨٠ ، ولأسباب مجهولة ، مثل أمام المحكمة ليقدم ضمانا بعدم الإخلال بالأمن . وفى ١٥٩٢ سجل اسمه ضمن الذين « لايحضرون إلى الكنيسة شهريا طبقاً لما نصت عليه قوانين صاحبة الجلالة » . واستنتج بعضهم من هذا أنه كان كاثوليكيا « عاصيا » ، وآخرون أنه كان بيوريتانيا ، كما استنتج غيرهم أنه لم يكن يجرؤ على مواجهة دائنيه . واستعاد وليم فيما بعد مالية أبيه ، ولما قضى الوالد نحبه (١٦٠١) بقى فى شارع هنلى منزلان باسم شكسبير .

وسجلت كنيسة الأبرشيه فى ستراتفورد تعميد وليم فى ٢٦ أبريل ١٥٦٤ . ودون نيقولا رو — وهو أول من كتب سيرة حياته — فى ١٧٠٩ ، اسطورة ستراتفورد التى يصدقها الجميع الآن ، وهى أن الوالد ربى ابنه . . . لبعض الوقت فى مدرسة مجانية . . . ولكن سوء ظروفه وحاجته إلى مساعدة ابنه له فى موطنه . . . أجبرتاه على سحب ابنه من المدرسة (١) . وفى المرثية التى ظهرت فى مقدمة طبعة فوليو الأولى لروايات شكسبير ، قال بن جونسون يخاطب منافسه الذى مات « لقد تعلمت قليلا من اللاتينية ، وأقل منه من اليونانية » . . ومن الواضح أن الكتاب المسرحيين اليونانيين ظلوا على حالهم يونانيين بالنسبة لشكسبير (لم يطلع عليهم .) ولكنه تعلم من اللاتينية مايكفى لملء رواياته الصغيرة بشذرات لاتينية وتوريات ثنائية اللغة ، ولو أنه تعلم المزيد منها فلربما كان يصبح عالماً آخر ، مجداً نشيطا ، مجهولا ، وتصبح لندن مدرسته .

وثمة أسطورة أخرى سجلها ريتشارد ديفيز حوالى ١٦٨١ وصفت وليم الصغير بأنه « كثيرا ماكان سيىء الحظ فى سرقة الغزلان والأرانب ، وبخاصة من سير توماس لوسى الذى كان غالبا مايجلده بالسوط ، وأحيانا يسجنه (٢) » . وفى ٢٧ نوفمبر ١٥٨٢ عندما كان هذا الوغد المزعوم فى سن الثامنة عشرة ، حصل هو وآن هاثاواى ، وكانت هى فى نحو الخامسة والعشرين ، على إذن بالزواج . وتشير الظروف إلى أن أصدقاء آن أرغموا شكسبير على الزواج منها (٣) . وفى مايو ١٥٨٣ — أى بعد زواجهما بستة أشهر ، ولدت لها طفلة أسمياها سوزانا ، وأنجبت آن فيما بعد للشاعر

توأمين عمدا تحت اسم هامنت وجوديث فى ٢ فبراير ١٥٨٥ . ويحتمل أنه حوالى نهاية هذا العام هجر شكسبير زوجته وأولاده . وليس لدينا أية معلومات عنه فيما بين عامى ١٥٨٥ — ١٥٩٢ . حين نعثر عليه ممثلا فى لندن .

٢ — تطور الشاعر ١٥٩٢ — ١٥٩٥

أن أول إشارة لشكسبير هنا تحط من قدره . وفى ٣ سبتمبر ١٥٩٢ أصدر روبرت جرين وهو على فراش الموت تحذيراً إلى أصدقائه ، بأنه يزحزحهم عن مكانهم فى مسرح لندن " غراب ناشىء يزدان بريشنا نحن ، وأنه فى جرأة وحشية (له قلب نمر) يرتدى جلد الممثلين : (وفى هذا تهجم لاذع على بيت فى مسرحية هنرى السادس) ، ويظن بذلك أنه قادر على أن يطنطن بالشعر المرسل كأحسن فرد فيكم أنتم . وبما أنه مستخدم يؤدى كل المهام ، ففى تصوره أنه أحسن ممثل فى أى بلد(٤) " . وأعد هذه القطعة للطبع باعتبارها جزءاً من كتاب جرين « مايساوى بضعة بنسات» من ذكاء جرين — أعدها هنرى شاتل ، الذى قدم فى رسالة لاحقة ، اعتذاراً إلى أحد الرجلين (ويحتمل أن يكونا مارلو وشكسبير) اللذين هاجمهما جرين .

إننى لم تكن لى صلة بأى من هذين الرجلين المعتديين ، ولا أعبأ قط بأننى لن تكون لى صلة بأحدهما . أما الآخر ، فانى آسف لأنى رأيت بنفسى أن سلوكه لم يكن أقل لطفاً ، كما لم يكن هو أقل امتيازاً فى المهنة التى يدعيها ، وفوق ذلك فان مختلف العادات تؤكد استقامة تصرفاته ، التى تنم على أمانته وكياسته فى الكتابة التى تؤيد فنه(٥) .

ويبدو أنه ليس ثمة شك فى أن هجوم جرين واعتذار شاتل كانا يشيران إلى شكسبير . وما أن جاءت سنة ١٥٩٢ حتى كان سارق الصيد فى ستراتفورد ممثلا وكاتباً مسرحياً فى العاصمة . ويروى دودال (١٦٩٣) وررو (١٧٠٩) أنه « استقبل فى المسرح كخادم فى مرتبة وضيعة جداً(٦) » ، وهذا أمر محتمل . ولكن صدره كان يجيش بأشد الطموح " يتلهف على فن هذا ومقدرة ذاك ، دون أن ينصرف تفكيره إلى شىء سوى الجلال والعظمة(٧) " وسرعان ما كان يمثل أدواراً صغيرة ، جاعلا من نفسه متعة وبهجة للنظر(٨) . ثم مثل دور " آدم الشفوق " فى رواية

"على هواك" والشبح فى هملت وربما صعد إلى مرتبة أعلى لأن اسمه تصدر قائمة الممثلين فى رواية جونسون Everyman in His Humour أو فى رواية جونسون Sejanus (١٦٠٤) هو ويوريدج بأنهما "الممثلان المأساويان الرئيسيان(٩)". وفى أواخر ١٥٩٤ أصبح مساهماً فى فرقة تشمبرلين للممثلين. ولم يكسب ثروته من كونه كاتباً مسرحياً، بل لكونه ممثلا ومساهماً فى فرقة مسرحية.

ومهما يكن من أمر فانه فى ١٥٩١ كان يكتب الروايات. ويبدو أنه بدأ "طبيباً للرواية" (يعالجها ويفحصها) فحرر المخطوطات ونقحها وكيفها للفرقة. وانتقل من مثل هذا العمل إلى الاشتراك فى التأليف. وإن الأجزاء الثلاثة من "هنرى السادس" (١٥٩٢) لتبدو أنها من مثل هذا الإنتاج المشترك. وبعد ذلك كتب روايات بمعدل اثنتين كل عام، حتى بلغت جملتها ستا وثلاثين أو ثمانى وثلاثين رواية. وإن عدة من رواياته الأولى مثل Two Gentlemen of Venoma, Acomedy of Errors(١٥٩٤)، Loves Labours Lost (١٥٩٤) — توافه هزلية مليئة بالمزاح المرهق لنا الآن. وإنه لمن الدروس المفيدة أن نعلم أن شكسبير صعد سلم المجد بالعمل الشاق والجهد المضنى. ولكن الصعود كان سريعاً. وأوحت إليه رواية مارلو "إدوارد الثانى" أن يلتمس فى التاريخ الإنجليزى أفكاراً لموضوعات مسرحية كثيرة وضارعت رواية "ريتشارد الثانى" (١٥٩٥) رواية مارلو. أما رواية "ريتشارد الثالث" (١٥٩٢) فكانت بالفعل قد بزتها. ووقع إلى حد ما فى خطأ خلق شخص واحد من صفة واحدة — الملك الأحدب من الطموح الموصوم بالخيانة والقتل، ولكنه بين الحين والحين ارتفع بالرواية عن مستوى مارلو بعمق التحليل وقوة الإحساس وومضات من العبارة المشرقة. وسرعان ما أصبحت عبارة "جواد! جواد! مملكتى مقابل جواد!". ذائعة على كل الألسنة فى لندن.

ثم فترت العبقرية فى Titus Andronicus (١٥٩٣). وغلب التقليد، وعرض رقصة الموت البغيضة، فان تيتس يقتل ابنه، وآخرين صهره أو زوج ابنته، على المسرح، وتغتصب عروس وراء الكواليس فتأتى إلى خشبة المسرح، وقد قطعت يداها، وقطع لسانها، والدم ينزف من فمها. ثم يقطع أحد الخونة يد

تيتس بفأس أمام جمهور الدرجة الثالثة الذين تكاد عيونهم تلتهم المشهد . وتعرض رأسا ابنى تيتس المفصولان ، وتقتل إحدى المرضعات على المسرح . وجهد النقاد الذين يجلون شكسبير ليحملوا المشتركين فى التأليف جزءاً من مسئولية هذه المذبحة ، طبقاً للنظرية الخاطئة القائلة بأن شكسبير لايكتب هراء ، ولكنه كتب بالفعل قدرا كبيرا منه .

وألف شكسبير حوالى هذه المرحلة من مراحل تطوره ، شعره القصصى وقصائد السونيت ، وربما كان الطاعون الذى تسبب فى إغلاق كل مسارح لندن بين ١٥٩٢ — ١٥٩٤ ، هو الذى تركه فى فراغ أليم بائس ، ورأى أنه من صواب الرأى أن يوجه شيئا من الشعر المؤمل إلى أحد رعاة الشعر . وفى (٣، ١٥) أهدى فينوس وأدونيس إلى هنرى ريوتسلى أرل سوثمبتون الثالث . وكان اودج قد اقتبسها من قصة أوفيد Metamorphoses ، واقتبسها شكسبير عن لودج . وكان الارل شابا وسيامنغمسا فى الملذات الجنسية والصيد والقنص ، وربما تألمت أوكيفت لتلائم ذوقه . ويبدو كثير منها غذاء تافها عديم القيمة فى هذه السنوات العجاف ، ولكن فى غمرة هذا الإغراء الشديد هناك قطع ذات جمال حسى مثل الأبيات من (٦٧٩ — ٧٠٨) مما قل أن قرأت إنجلترا مثله من قبل . وتشجع شكسبير بما لقيت القصيــدة من استحسان عام ، وبهدية من سوثمبتون فأصــدر فى ١٥٩٤ The Ravyshement of Lucrece حيث تم الإغراء باقتصاد أكبر فى الشعر . وكانت هذه آخر ما أصدره بمحض اختياره .

وحوالى ١٥٩٣ بدأ يكتب ولكنه حجز عن المطبعة قصائد السونيت التى كانت أول ماثبت مكانته الرفيعة بين شعراء عصره . وهى من الناحية الفنية أدق أعمال شكسبير تقريبا ، وقد نهلت كثيرا من معين بترارك من قصائد السونيت — الجمال العابر للمحبوبة وترددآتها وتقلباتها القاسية . وتثاقل خطوات الزمن الذى يضيع سدى رغبرة الحبيب وظمؤه الاتل . وتفاخر الشاعر بأن قريضه سوف يخلد جمال الحبيبة وشهرتها إلى الأبد . بل إن هناك عبارات وألقابا ونعوتاً منتحلة من كونستابل ودانيل . وواطسون — وغيرهم من شعراء السونيت الذين كانوا هم أنفسهم حلقات

فى سلسلة السرقات الأدبية . ولم يفلح أحد فى ترتيب قصائد السونيت فى نظام قصصى ثابت ، وكانت كلها عملا طارئا فى أيام متباعدة . ويجدر بنا ألا نأخذ بكثير من الحد حبكتها الغامضة — حب الشاعر لشاب يافع ، وميله إلى « سيدة سمراء » فى البلاط. وصدودها عنه ، وترحيبها بصديق له ، وظفر شاعر منافس بذلك الصديق ، وسهاد شكسبير اليائس وتفكيره فى التخلص من الحياة . ومن الجائز أن شكسبير ، وهو ممثل فى البلاط ، اختلس النظرات فى لهف بعيد إلى الوصيفات المحيطات بالملكة ، واللائى تضمخن بعطور ذات رائحة مثملة ، وارتدين ثيابا تبهر الأنظار ، ولكن ليس من المرجع أنه تحدث إليهن أو حاول اقتناصهن قط . ولقد أصبحت واحدة منهن ، وهى مارى فتون Fitton خليلة أرل بمبروك ، ويبدو أنها كانت شقراء ، أو أن هذا كان مجرد أصباغ زائلة، ومهما يكن من أمر فقد كانت غير متزوجة . فى الوقت الذى خانت فيه زوجة شكسبير « عهـد الزوجية » بحب الشاعر و « محبوبه »(١٠) .

وفى ١٦٠٩ نشر توماس ثورب قصائد السونيت ، وواضح أن هذا كان بدون موافقة شكسبير ، لأن المؤلف لم يكتب فيها إهداء ، ولكن ثورب نفسه صدرها بإهداء حير الأجيال : « إلى الوحيد الذى يقدر القصائد التالية ، السيد و . هـ . مع كل مابشر به شاعرنا الخالد من سعادة وخلود ، مع أطيب التمنيات للمغامر الذى يبغى الخير ، فيما يعتزم من ترحال . » ويحتمل أن التوقيع ا ت : ث . «.توماس ثورب » . ولكن من هو « و . هـ . » ؟ ربما كان هذان هما الحرفان الأولان من وليم هربرت أرل بمبروك الثالث الذى أغوى مارى فتون ، والذى قدر له هو وأخوه فيليب أن يتلقيا إهداء الكتاب الذى نشر بعد وفاة مؤلفه ، على أنه أعظم راع لرجال العلم والأدب من أى نبيل فى عصره أومنذ ذلك العصر» . وكان هربرت فى عامه الثالث عشر فقط حين بدأت قصائد السونيت ١٥٩٣ ، ولكن تأليفها امتد حتى ١٥٩٨ ، حين كان بمبروك قد اشتد عوده ونضج للحب ورعاية الأدب والأدباء . ويتحدث الشاعر بحرارة عن حبه « للمحبوب الفتى » . وغالباً ما استخدمت كلمة الحب بمعنى الصداقة . ولكن القصيدة رقم ٢٠ تطلق على الفتى

« سيد — سيدة هيامى وهواى » وتنتهى بتورية تصور الحب الجنسى . والقصيدة ١٢٨ (والظاهر أنها موجهة « للفتى الوسيم » الوارد ذكره فى القصيدة ١٢٦) تتحدث عن نشوة العشق والغرام . وكان بعض الشعراء فى عصر اليزابث أدباء لوطيين قادرين على تهيئة أنفسهم للحب الطروب المبهج ، لأى رجل من ذوى اليسار .

إن أهمية قصائد السونيت لاتكمن فى قصصها بل فى جمالها . فكثير (مثل القصائد التى تحمل أرقام ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٩٧ ، ١٠٦ ، ١١٧) زاخرة بسطور يتجلى فيها عمق التفكير وحرارة الأحاسيس وروعة التصوير وجزالة العبارة ، مما جعل صداها يرن لعدة قرون عبر العالم الذى يتحدث باللغة الانجليزية .

٣ — تفوق الشاعر : ١٥٩٥ — ١٦٠٨

ولكن نظم السونيت وما تطلبه من صنعة وفرضه من قيود ، قصقص أجنحة الخيال ، ولابد أن شكسبير ابتهج بما هيأ له الشعر المرسل من حرية واسعة ، حين أطلق لنفسه العنان ، وهو بعد يافع متحمس ، فى إحدى قصائد الحب العظيمة الباقية على مر الزمان ، لقد جاءت قصة « روميو وجوليت إلى إنجلترا من قصص مازوتشيو وباندللو ، وأعاد آرثر بروك صياغتها (١٥٦٢) فى شعر قصصى . ونقلا عن بروك ، وربما عن رواية أخرى أسبق فى نفس الموضوع ، أخرج شكسبير للمسرح روايته « روميو وجوليت » حوالى ١٥٩٥ . وأسلوبها محشو بأخيلة وأوهام ربما علقت بقلمه من نظم قصائد السونيت ، فجاءت المجازات جافة شاذة ، ورسمت شخصية روميو بشكل ضعيف إلى جانب مركوشيو المنفعل المهتاج . وحل العقدة عبارة عن سلسلة متصلة من السخافات . ولكن من ذا الذى يذكر الشباب ، أو يرسب فى أعماقه حلم ، يستطيع أن يستمع إلى هذه الموسيقى العاطفية الرومانسية الحلوة ، دون أن ينبذ كل معايير الثقة والتصديق ، وينهض لاهثا أو حابسا أنفاسه نحو الشاعر وهو يشق طريقه إلى هذا العالم بما فيه من غيرة جامحة وقلق مرتجف ، وفناء حزين ؟

والآن يسير شكسبير من نصر إلى نصر فى عالم المسرح ، فى كل عام تقريبا : ففى ٧ يونية ١٥٩٤ أعدم ردريجو اوبيز ، طبيب الملكة اليهودى ، بتهمة قبول رشوة ليدس السم للملكة . ولم يكن الدليل قاطعا ، وترددت الزابث طويلا فى التصديق على حكم الاعدام ، ولكن العامة فى لندن أخذوا جريمته قضية مسلما بها. واستعرت روح العداء للسامية فى الحانات(١١) . ويمكن أن يكون شكسبير قد تأثر إلى حد أن يضرب على هذا الوتر الحساس ، أو أنه كلف بذلك ، فكتب « تاجر البندقية » (١٥٩٦ ؟) ، وشارك إلى حد ما مستمعيه فى مشاعرهم ، فأجاز أن يمثل شيلوك فى شخصية هزلية فى ثياب رثة مع أنف عريض مصطنع ، ونافس مارلو فى إبراز كراهية مقرض النقود وجشعه . ولكنه أضفى على شيلوك بعض الصفات المحببة التى لا بد أنها جعلت الحمقى يحزنون ، ثم أنه أورد على لسانه عرضا للقضية من أجل اليهود ، بلغ من الوضوح والجرأة حدا جعل كبار النقاد لايزالون يجادلون فيما إذا كان شيلوك قد صور مفترى عليه أكثر منه آثما مذنبا(١٢) ؟ وهنا ، فوق كل شيء ، أظهر شكسبير براعته فى أن يؤلف صورة متناسقة الأجزاء من خيوط مختلفة من قصص جاءت من الشرق ومن إيطاليا ، كما جعل جسيكا المرتدة متلقية مثل هذا الشعر العاطفى الرومانتيكى ، كما لا يمكن أن تتصوره إلا روح ذات حساسية عالية .

وانصرف شكسبير طيلة أعوام خمسة إلى الملهاة بصفة أساسية . وربما أدرك أن الجنس البشرى المنهوك يختص بأسخى جوائزه أولئك الذين يستطيعون إلهاءه بالضحك والخيال . إن رواية « حلم منتصف ليلة صيف » هراء قوى عوض عنه مندلسون. ولم تنقذ هيلينا رواية « Allis Well That Ends Well » . أما رواية « أسمع جعجعة ولا أرى طحنا » فهى تتفق مع اسمها . ورواية « الليلة الثانية عشرة » محتملة فقط لأن فيولا تمثل فتى وسيما جدا . ورواية « ترويض النمرة » زاخرة بمرح صاخب بشكل لا يصدق، ومن المستحيل ترويض النساء ذوات الألسنة السليطة.

---

(١) قارن Two Gentlemen of Verona ، ٢ — ٣ ، ٦٠ و Merry Widows of Windsor ١ — ٢ .

هذه الروايات كلها كانت إنتاجاً لمجرد كسب المال : وإرضاء جمهور الدرجة الثالثة، ووسائل لإبقاء القطيع داخل الحظيرة ، وإبقاء الذئب بعيداً عن الباب .

ولكن بجزئي " هنرى الرابع " (١٥٩٧/١٥٩٨) صعد الساحر العظيم ثانية إلى القمة ، وجمع بين المهرجين والأمراء —فولستاف وبستول . هتسبير والأمير هال — في نجاح كان يمكن أن يجعل سدني يتردد . واستساغت لندن استخدام تاريخ الملوك على هذا النحو ، مزخرفاً بالأوغاد ، والمومسات . وتابع شكسبير العمل فأخرج " هنرى الخامس " (١٥٩٩) ، يهز بها مشاعر المشاهدين ويسليهم في وقت معاً ، ثرثرة فولستاف الذى يعانى سكرات الموت : " أيتها المروج الخضر " ، ويثيرهم بجعجعة أجنكورت ، ويبهجهم بمغازلة الملك الذى لا يقهر للأميرة كيت Kate بلغتين . وإذا اعتقدنا فى صحة كلام رو ، فإن الملكة لم تكن ترتضى الراحة لفولستاف وأمرت منشئه (مؤلف الرواية) أن يحييه ويعرضه فى مشهد عشق وغرام(١٣) . ويضيف جون دنيس (١٨٠٢) وهو يروى نفس القصة ، أن اليزابث رغبت فى أن تتم المعجزة فى مدى أسبوعين . وإذا كان كل هذا صحيحاً ، فإن رواية " الزوجات المرحات فى وندسور " كانت عملا مدهشاً من أعمال البراعة والقوة ، لأنها برغم كونها صاخبة لأنها حافلة بالخشونة والعنف متخمة بالتوريات . ففيها فولستاف فى ذروة نشاطه وحيويته ، حتى ألقى به إلى النهر فى سلة غسيل . وقيل لنا إن الملكة كانت مسرورة .

وأنه لشىء مروع أن نجد كاتباً مسرحياً ينتج فى موسم واحد (١٥٩٩ — ١٦٠٠ ؟) مثل هذا الهراء التافه ، ثم ينتج بعده هذه المقطوعة القصصية الرومانتيكية البالغة الرقة " على هواك " وربما كان سبب هذا هو أنها استرشدت بمقطوعة لودج " روزاليند" (١٥٩٠) ، وموسيقى الرواية صافية نقية — لا تزال معوقة بالمزاح والهزل الجاف غير الممتع ، ولكنها ناعمة رقيقة من حيث الإحساس ، مرحة رشيقة من حيث الكلام . فأية صداقة كريمة هنا بين سليا وروزاليند ، وهذا أورلندو يحفر اسم روزاليند فى لحاء الشجر ، معلقاً القصائد الغنائية على أشجار الزعرور البرى ، والمراثى على الأشجار كثيرة الشوك ، وأى رصيد سديد من الفصاحة ينثر عبارات خالدة

على كل صحيفة — وأية أغان رجبت بها ملايين الشفاه : " تحت الشجرة الخضراء هب ، هب يا نسيم الشتاء ، " " فهناك كان عشيق وفتاته " . إن التدفق أو الإنتاج بأسره كان حماقة وعاطفة لذيذتين محببتين ، لا يمكن مباراته فى أى أدب .

ولكن وسط هذه الوفرة من الحلوى يضع مسيو ميلانكولى جاك شيئاً من الفاكهة المرة . معلنا أن " مسرح الحياة الواسع العالمى يعرض مهرجانات وأبهة فارغة أفجع أو أشد حزناً مما يقدم المشهد الذى نمثله " على خشبة المسرح ، وليس ثمة شىء محقق يقينى إلا الموت ، ولكنه عادة يأتى بعد مرحلة من الشيخوخة لا طعم لها ، يفقد المرء فيها أسنانه وبصره :

وهكذا من ساعة إلى ساعة ننمو وننضج ، وبعد ذلك ، من ساعة إلى ساعة نذبل ونذوى ، حتى نصبح حديثاً بعدنا(١٤) .

وهكذا أنذرنا شاعر آفون أن رواية " على هواك " كانت آخر روائع المرح والبهجة ، ومن بعدها ، حتى إشعار آخر ، عرض أن يسبر غور الحياة ليظهرنا على حقيقتها الدامية ، وهو الآن يريد أن يفيض علينا من معين " الروايات المأسوية " ، ويجمع بين المرارة وطيب المذاق .

فى ١٥٧٩ عرض كتاب توماس نورث عن بلوتارك ذخيرة نفيسة من المسرحيات ، أخذمنها شكسبير ثلاثاً من " سير الحياة " وصاغها فى مسرحية " يوليوس قيصر " (١٥٩٩ ؟) . ووجد أن ترجمة نورث مفعمة بالحيوية إلى حد أنه أخذ منها عدة قطع بأكملها كلمة كلمة بالنص ، وكل ماعمله هو أنه حول النثر إلى شعر مرسل ، ومهما يكن من أمر فإن خطبة أنتونى أمام جثمان قيصر كانت من ابتداع الشاعر نفسه ، جاءت تحفة رائعة فى فن الخطابة والرقة والدقة ، ثم الدفاع الوحيد الذى أجازه لقيصر . وربما أثر فيه إعجابه بدوق سوثمبتون وإرل بمبروك ، وإرل إسكس الشاب ، فرأى القتل من وجهة نظر النبلاء الأرستقراطيين المتآمرين المهددين بالخطر . ومن ثم يصبح بروتس محور الرواية . ولكنا ، نحن الذى حصلنا على تفاصيل مومسن عن الفساد ذى الرائحة الكريهة فى " الديمقراطية " التى أطاح بها قيصر ، أشد ميلا إلى التعاطف مع قيصر . كما فوجئنا بموت بطل الرواية فى مستهل الفصل الثالث .

وإن الماضى ليقف عاجزا بين يدى الحاضر الذى كثيرا مايعيد تشكيله ليصبح من نزوات الساعة .

وفى كتابة هملت استعان شكسبير برواية سابقة فى نفس الموضوع وتحداها . وكانت هملت قد أخرجت فى لندن قبله بست سنوات فقط . ولسنا ندرى كم أخذ من هذه « المأســاة » المفقــودة ، أو من كتاب بلفورست « التواريخ الفاجعة » (١٥٧٦) ، أو من « تاريخ الدنمرك » (١٥١٤) للمؤرخ الدنمركى ساكسو جراماتيكوس ، كما أننا لا نستطيع القول بأن شكسبير قرأ « أمراض الاكتئاب والحزن » ، وهى ترجمة إنجليزية حديثة لكتاب طبى فرنسى ألفه دى لورنس . وإنا ، ونحن نشك فى غير انفعال أو تذمر ، فى كل محاولة لتحويل الروايات إلى سيرة حياة ذاتية ، ليباح لنا أن نتساءل عما إذا كان شىء من الحزن الشخصى — بالاضافة إلى تأديب الليل والنهار — قد انضم إلى التشاؤم الذى شاع فى هملت ، واشتدت مرارته فيما أعقبها من روايات . وكان يمكن أن يكون هذا تحررا جديدا من وهم الحب ، وهل كان القبض للمرة الأولى على اسكس (٥ يونية ١٦٠٠) ، أو إخفاق ثورة اسكس ، أو اعتقال اسكس وسوثمبتون ، أو إعدام اسكس (٢٥ فبراير ١٦٠١) ؟ ويفترض أن هذه الأحداث كلها هزت مشاعر شاعرنا المرهف الحس ، الذى كان قد امتدح ، فى حرارة بالغة ، اسكس فى مقدمة الفصل الأخير من « هنرى الخامس » : كما كان فى إهداء « لوكريس » إلى سوثمبتون ، قد عاهده على الولاء له إلى الأبد . ومهما يكن من أمر ، فان أعظم روايات شكسبير كتبت أثناء هذه النكبات أو فيما بعدها . فهى أدق فى حبكة الرواية ، وأعمق فى التفكير ، وأروع فى اللغة من سابقاتها . ولكنها تعبر كذلك عن أمر اللوم والعتاب للحياة فى الأدب بأسره . إن إرادة هملت المذبذبة ، بل « عقله الملكى الممتاز » على الاغلب قد أصابهما بالاعتدال والاضطراب اكتشاف الحقيقة واقتراب الشر . وتشبعه بفكرة الانتقام ، حتى تملكته هو نفسه قساوة لا ترحم ولا تهدأ ، فأرسل أوفليا ، لا إلى دير للراهبات ، بل إلى الجنون والموت . وفى النهاية تجىء مذبحة عامة . لم يفلت منها إلا هوراشيو ، وقد قارب أن يصاب بلوثة .

وفى الوقت نفسه وجدت البزابث ، هى الأخرى ، البلسم الأخير . وأصبح جيمس السادس ملك اسكتلنده ، ملكا على إنجلترا تحت اسم جيمس الأول . وما أن جلس على العرش حتى ثبت وتوسع فى إمتيازات فرقة شكسبير التى أصبحت « رجل الملك » . ومثلت روايات شكسبير أمام الملك بانتظام ولقيت تشجيعاً ملكيا كبيرا . وصعدت المواسم الثلاثة بين ١٦٠٤ — ١٦٠٧ بالشاعر إلى ذروة عبقريته وأقصى مرارته ، فرواية « عطيل » (١٦٠٤ ؟) قوية بقدر ماهى بعيدة عن التصديق . فقد أثار إخلاص ديدمونا وموتها شفقة المشاهدين ، كما افتتنوا بخبث ياجوالدال على ذكائه : ولكن فى تصوير مثل هذا الشر المحض الذى لا باعث عليه فى الانسان ؛ وقع شكسبير فى خطأ مارلو : ألا وهو الشخصيات القائمة على وحدة كاملة . وحتى عطيل نفسه ، على الرغم من أنه جمع بين البراعة العسكرية والغباء ؛ كان ينقصه هذا المزيج الفنى من العناصر التى تضفى الروح الإنسانية على هملت ولير وبروتس وأنطونى .

ولا تزال « ماكبث » (١٦٠٥ ؟) تأملا أشد رهبة فى الشر الذى لا تخف حدته . وكان شكسبير يستشهد بهولنشد فى الحقائق المطلقة ، ولكنه زاد فى عتامة القصة وكآبتها بتحرره من الوهم بشكل انفعالى غاضب وانحطت هذه الحالة النفسية إلى الحضيض ، كما بلغ الفن ذروته فى رواية « الملك لير » (١٦٠٦ ؟) وكان جوفرى أوف مموث قد طور القصة ، ثم نقلها هولنشد ، وأخرجها للمسرح مؤخراً كاتب مسرحى مجهول الآن تحت عنوان « التاريخ الصحيح للملك لير » (١٦٠٥) وكانت حبكات الرواية ملكا مشاعا . ونهجت المسرحية القديمة نهج هولنشد فى أنها هيأت للملك لير خاتمة سعيدة ، عن طريق احتمائه بابنته كورديليا واستعادة العرش ، وواضح أن شكسبير آثم فى جنون الملك وموته بخلعه من العرش كما أنه أضاف الإعماء الدامى الفظيع الذى أصاب جلوستر على المسرح . إن المرارة هى النغمة الأساسية السائدة فى الرواية ، وإن لير ليأمر الفسوق أن ينتشر والزنى أن يزداد « لأنى يعوزنى الجنود (١٥) » وكل الفضيلة ، فى نظرته القاتمة ، ما هى إلا واجهة للفسق والفجور ، وكل الحكومة رشوة ، وكل التاريخ عبارة عن الإنسانية تفترس نفسها أو بنى البشر

يأكل بعضهم بعضا . وهو يصاب بالجنون وهو يرى عمق الشر وانتصاره الواضح . وهو يضع كل إيمانه وثقته « بالعناية الإلهية » التى تشد من أزره وتأخذ بيده .

وتصل رواية « أنطونى وكليوبطره » إلى آفاق وأعماق أقل . وثمة شيء أنبل فى هزيمة أنطونى منه فى سورة غضب لير ، شيء أكثر تصديقاً واحتمالا فى افتتان الرومان بالملكة المصرية منه فى قساوة البريتون البغيضة مع ابنة صريحة صراحة حمقاء ؛ وفى جبن كليوبطره فى الحرب ، وروعتها فى الانتحار . وهنا كانت لدى شكسبير روايات سابقة يعمل على أساس منها ، فتناولها أيضا بالتحسين ، وجدد فى القصة التى طال ترديدها ، وزادها إشراقا وتألقا ، بتحليل أدق للخلق ، وبسحر بيانها المتلألىء الذى لا يعرف الكلل . أما التشاؤم فى رواية « تيمون الأثينى » (١٦٠٨؟) فهو تشاؤم تهكمى ، لم يتخلص منه . ويصوب لير سهامه إلى النساء ، ولكنه يحس ببعض الرثاء المتأخر للبشر ، ويحتقر بطل « كوريولانس » الناس على أنهم النتاج المتقلب الذليل الأبله للإهمال والطيش ، ولكن تيمون يذم الجميع رفيعهم ووضيعهم ، ويصب اللعنة على المدنية نفسها على أنها أفسدت أخلاق البشر . وكان بلوتارك فى سيرة أنطونى قد ذكر تيمون على أنه مبغض للبشر مشهور ، وكان لوشيان قد أورده فى حوار ، كما كانت رواية إنجليزية قد ألفت عنه قبل أن يأخذ شكسبير الفكرة مع مساعد مجهول بثمانى سنوات . وكان تيمون ثريا (مليونير) أثينيا يحيط به أصدقاء متملقون متفتحون يسارعون إلى تقبل أفكاره ، وعندما يفقد ماله ، ويرى أصدقاءه يختفون بين عشية وضحاها ، ينفض غبار المدنية عن قدميه ويأوى — جادا صارما — إلى العزلة فى غابة ، حيث يأمل أن « يجد أشد الحيوانات وحشية أكثر رفقا وشفقة من بنى الإنسان (١٦) » وهو يتمنى لو « أن ألسبيادس » كان كلبا « حتى أكن لك شيئاً من الحب (١٧) » ويعيش على جذور الشجر ، وينقب فيجد ذهبا ، وهنا يظهر الأصدقاء من جديد فيطردهم ويحتقرهم ويهجوهم ألذع هجاء . ولكن عندما تأتى العاهرات وبنات الهوى ينفحهن بالذهب ، شريطة أن ينقلن الأمراض التناسلية إلى أكبر عدد ممكن من الرجال :

انشرن الأمراض والعلل

لتنخر فى عظام الرجال الجوفاء ، واضربن على طنابيبهم

وأفسدن عليهم زيجاتهم ، وأخرسن
صوت المحامى
حتى لا يعود يترافع عن اللقب الزائف
وتدوى مرافعاته عالية رنانة ، وجللن بالمشيب
ذاك الكاهن
الذى يسلق الناس بألسنة حداد من أجل طبيعتهم الشهوانية
وهو لا يصدق نفسه ، حطمن الأنف
حطمنها ، وأكسرن قصبتها تماما ،
ولتدعن دعاة الحرب المتبجحين الذين ليس فيهم أثر لجراح
ينقلوا عنكن الأمراض الموجعة . اصببن العذاب على الجميع
حتى يقهر ويقمع نشاطكن
مصدر كل بناء وتعمير — ثمة مزيد من الذهب .
هل تردن إدانة آخرين ، فلتنصب اللعنة عليكن(١٨)

وفى سورة الكراهية يأمر تيمون الطبيعة أن تكف عن النسل ، ويأمل أن تتكاثر الوحوش الضارية لتستأصل الجنس البشرى ، إن هذا الاسراف فى بغض البشر يجعله يبدو غير حقيقى ، ولا يمكن أن نصدق أن شكسبير قد أحس بهذا التشامخ السخيف على الخطائين ، وبأنه غير مؤهل بمثل هذا الجبن لمتاع الحياة الدنيا . إن مثل هذه المبالغة فى تقدير توافه الأمور لتوحى بأن الداء قد عالج نفسه بنفسه ، وأن شكسبير لابد ستعود إليه الابتسامة سريعاً .

٤ — براعة شكسبير الفنية

كيف تسنى لأمرئ لم يتلق من العلم إلا أقله أن يخرج على الناس بروايات تعددت وتنوعت فيها ألوان المعرفة المكتسبة بالاطلاع والدرس ؟ ولكنها لم تكن [حقا معرفة على هذا النحو . ولم تكن شاملة أو واسعة فى أى من حقولها اللهم إلا فى علم النفس ، ولم يكن شكسبير يعرف من الكتاب المقدس إلا ما أتاحت له دراسته فى صباه أن يطالعه ، وكانت مراجعاته واشاراته إلى الكتاب المقدس عادية . وجاء علمه بالآداب القديمة اليونانية واللاتينية

مصادفة عن غير قصد ، ودون اتقان أو تعمق(*) ، وواضح أنه كان مقصورا على المترجمات . وعرف معظم المعبودات الوثنية ، حتى أقلها شأنا وأكثرها خلاعة ، وربما استقى هذه المعرفة من الترجمة الانجليزية لكتاب أوفيد Metamorphoses ووقع فى أخطاء صغيرة ، ما كان بيكون مثلا ليقع فيها ، من ذلك أنه قال عن تيسيوس بأنه « دوق » وجعل هكتور من القرن الحادى عشر قبل الميلاد يشير إلى أرسطو فى القرن الثالث ق . م . [19] وأجاز لأحد أشخاص رواية كوريولانوس[20] (القرن القرن الخامس ق . م . أن يقتبس من كاتو (من القرن الأول) .

وكان على المام يسير بالفرنسية ، وأقل منه بالإيطالية ، وله بعض المام بالجغرافية ، فزود رواياته ببعض أماكن ومواقع دخيلة من اسكتلنده إلى إفسس ، ولكنه خلع على بوهيميا شاطئا على البحر(*) . وأرسل اثنين من فيرونا إلى ميلان بحرا[23] . وبروسبيرو من ميلان فى قارب عابر المحيط[24] . وأخذ معظم ما عرف من التاريخ الرومانى عن بلوتارك ، ومعظم ما عرف من التاريخ الانجليزى عن هولنشد وعن روايات قديمة ، ولم يقدر للزلات التاريخية أية أهمية للكاتب المسرحى ، فوضع ساعة الحائط فى رومه على عهد قيصر ، والبليارد فى مصر على عهد كليوبطره . وكتب « الملك جون » دون ذكر للعهد الأعظم (ماجنا كارتا) ، و « هنرى الثامن » دون التعرض للاصلاح الدينى ، ومن ثم نرى من جديد أن الماضى يتغير مع كل حاضر . ومن ناحية الايجاز والعرض العام نجد أن مسرحياته التاريخية الانجليزية صحيحة من وجهة نظرنا السائدة ، أما من حيث التفصيل فهى غير جديرة بالثقة ، وهى تصطبغ ، من وجهة نظرنا ، بصبغة الوطنية — فان جان دارك فى رأى شكسبير ساحرة داعرة . وعلى الرغم من هذا كله ، اعترف بعض الانجليز مثل القائد مارلبورو بأنه استقى معظم معلوماته عن التاريخ الانجليزى من روايات شكسبير .

واستخدم شكسبير — مثل غيره من كتاب المسرح فى عهد اليزابث ، كثيرا

(*) انقض بن جونسون على هذا فى أحاديثه مع دروموند فى هوثورندن[21] ، ونقله شكسبير عن قصة لروبرت جرين ؛ وهو متخرج فى الجامعة ؛ فتحت حكم أوتوكار الثانى (١٢٥٣ — ٧٨) مدت بوهيميا سلطانها إلى شواطىء الأدرياتيك[22] .

من المصطلحات القانونية استخداما غير صحيح أحيانا : وربما كان قد التقطها من دور القضاء — مدارس الحقوق التي أخرجت فيها ثلاث من رواياته — أو من القضايا التي انشغل بها هو ووالده . وكانت لديه ذخيرة كبيرة من المصطلحات الموسيقية ، وواضح جدا أنه كان يتمتع بحس موسيقى مرهف — « أليس غريبا أن أحشاء الغنم تذهب بالأرواح لتحلق بعيدا عن أجسامها[٢٥] » ؟ وإنه ليذكر فى رقة وحنان أزهار انجلترا ، وينظمها فى عقد فى رواية « قصة الشتاء » ، ويكسو بها أوفيليا عندما انتابتها الحمى وأخذت تهذى . وهو يلمح إلى مائة وثمانين نوعا مختلفا من النبات ، وكان ملما بالألعاب الميدانية وبسباق الخيل ، ولكنه لم يهتم إلا قليلا بالعلوم ، التى سرعان ما افتتن بها بيكون . وكما فعل بيكون ، حفظ شكسبير فلك بطلميوس[٢٦] . وبدا فى بعض الأحيان (سونيت ١٥) أنه يؤمن بالتنجيم ، فتحدث عن روميو وجوليت بأنهما « عاشقان منحوسان[٢٧] » ؛ ولكن ادموند فى « الملك لير » وكاسياس فى « يوليوس قيصر » يرفضان التنجيم بشدة . « إن الخطأ ، ياعزيزى بروتس ، ليس فى نجومنا (فى طالعنا) بل فى أنفسنا ، ذلك أننا أتباع أذلاء[٢٨] » .

وجملة القول ، إن كل الدلائل تشير إلى أن شكسبير حصل على المعرفة العارضة التى يتسنى الحصول عليها لرجل الأعمال المشغول أعظم الشغل بالتمثيل والادارة ، الذى عاش لينكب على الكتب . وعرف أفظع آراء مكيافللى ، وأشار الى رابيليه ، واقتبس من مونتانى . ولكن ليس من المرجح أنه قرأ مؤلفيهم . ووصف جونزالو للدولة الديمقراطية[٢٩] مأخوذ من بحث مونتانى « أكلة لحوم البشر » . وربما أراد شكسبير بشخصيته كاليبان (العبد الرقيق الذى كان يمتلكه برسبيرو فى رواية العاصفة) — أراد أن يهجو مونتانى لأنه أضفى الصفات المثالية على هنود أمريكا . أما التشكك عند هملت ، وهل ينسب شيء منه إلى شكوك مونتانى اللطيفة ، فهو مسألة لم تحل بعد . فقد نشرت المسرحية فى ١٦٠٢ ، أى قبل طبع ترجمة فلوريو بعام واحد ، ولكن شكسبير عرف فلوريو ، وربما اطلع على المخطوطة وربما ساعد نقد مونتانى الدقيق على تعميق فكر شكسبير ، ولكن ليس فى كتاب الرجل الفرنسى

ما يماثل مفاجأة هملت ، أو الذم الشديد للحياة فى الملك لير ، كريولانوس ، تيمون ، ماكبث ، . إن شكسبير دو شكسبير يسرق الموضوعات والقطع والعبارات والأبيات ، من كل مكان ، ومع ذلك فهو أعظم الكتاب فى كل الأزمان أصالة وامتيازا وخلقا وإبداعا .

وتكمن الأصالة فى اللغة والأسلوب والخيال والفن المسرحى والدعابة وأشخاص الرواية والفلسفة . فلغته أغنى اللغات فى كل الأدب : فهناك خمسة عشر ألف لفظ ، بما فيها المصطلحات الفنية وشعارات النبلاء ورموزهم ، والموسيقى والألعاب والمهن ، ولهجات المقاطعات : ولهجات رواد الأرصفة فى الشوارع، بالإضافة إلى ألف من الابتكارات المتعجلة أو البطيئة — Occulted, unkenneled, Fumitory, Burnet, Spurring . . . لقد استساغ ألفاظا ، ونقب فى مختلف أركان اللغة وجوانبها ، وأحب الألفاظ عامة ، فانسابت منه فى حيوية دافقة ، مرحة ، فاذا ذكر اسم زهرة ، فانه لابد يتابع حتى يسمى اثنى عشرة زهرة ، وإن الألفاظ نفسها ليفوح منها عبير الزهر . وأجرى على ألسنة الأشخاص فى رواياته كلمات متعددة المقاطع يتشدقون بها ويدورون بها حول المعنى . وكان يخرب فى النحو والصرف تخريبا لطيفا ، فيحول الأسماء والصفات ، بل حتى الظروف إلى أفعال ، ويقلب الأفعال إلى صفات ، كذلك الضمائر إلى أسماء ، ويضع فعل الجمع للفاعل المفرد ، أو الفعل المفرد للفاعل الجمع ، ولكن لم يكن هناك حتى ذاك الوقت استخدام للنحو ولا الصرف فى الانجليزية ولا قواعد لها . ولقد كتب شكسبير على عجل ، ولم يتيسر له وقت فراغ للندم .

وللأسلوب الرائع « الأنيق المتميز الباروكى(٣٠) » (يتسم بالزخرفة والتعقيد والصور الغريبة) نقول إن لهذا الأسلوب أخطاء ثروته غير الخاضعة لقانون: فى عبارات متكلفة أو ملتوية بشكل غريب ، وصور بعيدة الغور ، وتلاعب باللفظ معقد بشكل مرهق ، وتورية وسط المأساة ، ومجازات واستعارات يهبط بعضها فوق بعض فى فوضى وتناقض ، وتكرارات لا حصر لها ، وتفاهات مبتذلة حافلة بالحكم ، وهنا وهناك كلام منمق مملوء بالمرح الصاخب والهراء تتشدق به أبغض الأفواه غير

المرغوب فيها . ولاشك أن التعليم الكلاسيكى ربما هذب وبسط الأسلوب ، وقضى على التورية والغموض ، لكن تدبر ، ماذا عسانا كنا نفقد حينئذ ؟ ولعله كان يفكر فى نفسه حين أورد وصف أوريانو باعتباره رجلا على لسان فرديناند :

إن لديه فى مخه داراً لسك العبارات ،
وإن عباراته لتسلب الألباب
وكأنها الإيقاع الساحر .
ولكنى أحتج ، أحب أن أسمعه يكذب[٣١]

ومن هذه الدار صدرت عملة من العبارات تكاد تكون عالمية : شتاء استيائنا[٣٢] ، تضييع وقت السلم سدى[٣٣] ، أريد أباً للفكر[٣٤] ، قل الحق وأخجل الشيطان[٣٥] ، يسكن الريح فى هذا الركن[٣٦] ؟ لا يستقر قرار للرأس الذى يحمل التاج[٣٧] . يطلى الزنبق[٣٨] ، لمسة واحدة من الطبيعة تجعل العالم كله أسرة واحدة[٣٩] ، أى حمقى هؤلاء البشر المعرضون للفناء[٤٠] . إن الشيطان ليستطيع أن يقتبس من الأسفار المقدسة ما يخدم غرضه[٤١] ، جنون منتصف الصيف[٤٢] طريق الحب الصادق مملىء بالأشواك[٤٣] ، ألبس قلبى على كمى (أحمل رأسى فوق كفى)[٤٤] ، فى كل بوصة ملك[٤٥] ، قدر الطاقة[٤٦] ، الإيجاز روح الفطنة[٤٧] ، . . وربما كان هذا تلميحاً لنا للاكتفاء بهذا القدر . هذا إلى جانب ألف مجاز واستعارة قد نفيد منها « قد نرى الأشرعة تحمل وينتفخ بطنها بالريح الفاجرة[٤٨] » . كما أن هناك قطعاً بأكلها تكاد تكون مألوفة بنفس القدر ، مثل العبارات : آنية أزهار أوفيليا المضطربة ، أنطونى أمام جثة قيصر ، كليوباترا تحتضر ، لورنزو على موسيقى الكون ، كما أن هناك ذخيرة من الأغانى : « من هى سيلفيا[٤٩] » ؟ ، « هارك ! القبرة تغرد على باب السماء[٥٠] » ، أبعدوا ، أبعدوا هذه الشفاه عنى[٥١] » ، وربما حضر جمهور نظارة شكسبير من أجل هذه الزخارف ، ومن أجل القصص معاً .

" إن الخيال ليتمثل المجنون والعاشق والشاعر منضمين فى صورة واحدة[٥٢] » ، واجتمع فى شكسبير اثنان من هؤلاء ، وربما مس الثالث مساً . إنه ليخلق فى كل رواية عالما ، ولا يقنع بهذا ، فيملأ الامبراطوريات والغابات والمروج المتخيلة بسحر

صبيانى ، وجن سريع العدو ، وسحرة مرعبين وأشباح . وإن خياله ليجعل أسلوبه الذى يفكر با صور ، يحول كل الأفكار إلى صور ، وكل التجريدات إلى أشياء محسوسة أو مرئية : فمن غير شكسبير (وبترارك) كان يمكنه أن يجعل روميو ، وقد نفى من فيرونا ، يتميز غيظاً وحقداً ، لأن قططها وكلابها قد تحدق النظر إلى جولييت ، على حين لا يباح له هذا ؟ ومن غير شكسبير (اللهم إلا بليك) كان يستطيع أن يجعل الدوق المطرود فى رواية " على هواك " ، يأسف لأنه لابد أن يعيش على صيد حيوانات هى فى الغالب أجمل من الإنسان ؟ لاعجب أن روحاً قوية بكل معانى الكلمة ، لابد أن تكون قد انفعلت انفعالا شديداً بالقبح والكآبة والجشع والقسوة والشهوة والألم والحزن ، مما بدا فى بعض الأحيان أنه يشيع فى النظرة الشاملة إلى العالم .

ولم يؤت شكسبير من الأصالة فى الفن المسرحى إلا أقلها ، لقد عرف ، بوصفه رجل المسرح ، أفانين مهنته . فبدأ رواياته بمشاهد أو ألفاظ تشد انتباه جمهور المشاهدين الذين يقضمون البندق ويلعبون الورق ويحتسون الجعة ويتبادلون النظرات الغرامية مع النساء . وأفاد أكبر فائدة من " أدوات " المسرح فى عهد اليزابث وآلاته . ودرس رفاقه فى التمثيل وخلق الأدوار الملائمة لخصائصهم الجسمية والذهنية . واستخدم كل حيل التنكر والتعرف ، وكل تغييرات المناظر ، وكل تعقيدات رواية داخل رواية . ولكنه ، مع مهارته الفنية ، لم يتفاد آثار العجلة والتسرع . فإن الحبكة داخل الحبكة قد تشطر القصة إلى اثنتين أحيانا ، فماذا كان شأن كارثة جلوستر بكارثة لير ؟ فكل القصص تقريباً تنقلب إلى مصادفات بعيدة الاحتمال ، وهويات خفية ، ورؤى ملائمة إلى حد بعيد ، وقد يطلب منا بحق أن نؤمن بالمسرحية كما نؤمن بالأوبرا ، من أجل القصة أو الأغنية ، ولكن يجدر بالفنان أن يحصر فى أقل الحدود " البناء القائم على غير أساس " لحلمه ، أو اختلاقه دون مبرر . وأقل من هذا أهمية تناقضات الزمن والخلق(٥٣) ، ويحتمل أن شكسبير الذى فكر فى سرعة الإنتاج . لا فى النشر الدقيق ، قدر أن هذه العيوب والأخطاء قد تمردون أن يلحظها أحد من الجمهور المتأثر ، وإن المعايير القديمة والذوق الحديث لتنكر العنف الذى يصطبغ

به مسرح شكسبير ، وهذا امتياز آخر منح لشاغلى المقاعد الرخيصة ، ومحاولة لمواجهة مدرسة " القتل والذبح " عند المسرحيين فى عهد اليزابث وجيمس الأول .

ولما أخذ شكسبير بأسباب النمو والتطور ، عوض عن العنف بالدعابة والمرح ، وتعلم الفن الشاق ، فن تكثيف المأساة بالترويح الفكاهى . وكانت الروايات الهزلية (الملهيات) القديمة ذكاء وبراعة ودعابة غير مجسمة ، والروايات التاريخية القديمة ثقيلة مملة حيث كان يعوزها المرح والدعابة ، وفى مسرحية هنرى الرابع تعاقبت المأساة والملهاة على التوالى ، ولكنهما لم تتكاملا تكاملا تاما . ولكن التكامل تحقق فى هملت ، وتبدو الدعابة فى بعض الأحيان بذيئة أكثر مما ينبغى ، ولا بد أن سوفوكليس وراسين كانا يشمئزان من النكات التى تدور حول غازات بطن الانسان(٥٤) أو تبول الخيل(٥٥) . وإن نكتة جنسية لهى أكثر استساغة لدى الذوق الحديث . ودعابة شكسبير ، بصفة عامة ، بهيجة ودية ، بعكس البغض الوحشى للجنس البشرى عند سويفت ، فقد أحس شكسبير بأن العالم يكون أفضل بوجود مهرج أو اثنين ، واحتمل المهرجين فى صبر وأناة ، وشارك الرب رأيه فى أنه ليس ثمة فرق كبير بينهم وبين الفلاسفة الذين يفسرون العالم .

وإن أعظم مهرجيه لينافس هملت ، وهو أسمى وأروع ما أنجزه شكسبير ، فى خلق أشخاص الرواية — وهذا أشق اختبار يواجهه المؤلف المسرحى . إن ريتشارد الثانى وريتشارد الثالث ، وهوتسبير ، رولزى وجونت وجلوستر وبروتس وأنطونى ليبعثون من زوايا النسيان فى التاريخ إلى حياة ثانية . وليس هناك فى المسرحية اليونانية ، ولا حتى فى بلزاك ، أشخاص خياليون أسبغ عليهم مثل هذه الشخصية المتماسكة والقوة والحيوية . وكانت أصدق الشخصيات التى خلقها هى تلك التى تبدو فقط متناقضة ، بسبب تعقيدها — فالملك لير قاس ثم رقيق رؤوف ، وهملت دائم التفكير متهور ، شجاع . والشخصيات فى بعض الأحيان بسيطة إلى حد كبير — ريتشارد الثالث مجرد خسة ونذالة ، وتيمون مجرد شك وسخرية وتهكم ، وياجو مجرد كراهية . وتبدو بعض النساء فى مسرحيات شكسبير ، وكأنهن اقتطعن من نفس العجينة — بياتريس روزالند ، كورديليا وديدمونة ، ميراندا وهرميون —

وإنهن يفقدن الحقيقة والواقع . ثم فى بعض الفترات ، تبعثهن بضع كلمات قليلة إلى الحياة ، من ذلك أن أوفيليا ، حين يبلغها هملت أنه لم يكن يحبها فى يوم من الأيام . تجيبه دون اتهام مضاد ، ولكن فى بساطة حزينة مؤثرة : «كنت أنا المخدوعة أكثر» . إن الملاحظة والإحساس والتشخيص وتفتح الحواس المدهش ، ونفاذ البصيرة والانتقاء الرشيق للتفاصيل الهامة المميزة ، والذاكرة المتماسكة — كل هذه تأتى جميعها معاً لتعمر المدينة الحية بالأموات أو الأنفس الخيالية . أو فى مسرحية بعد أخرى تنمو هذه الشخصيات إلى الحقيقة والواقع والتعقيد والعمق ، حتى ينضج الشاعر فى هملت ولير إلى فيلسوف . وتصبح مسرحياته أدوات متألقة للفكر .

٥ — فلسفة شكسبير

«ألك أية فلسفة ، أيها الراعى(٥٦) ؟» هكذا يسأل تتشستون Toutchstone الراعى كورين (فى رواية «على هواك») ونحن بدورنا نوجه هذا السؤال إلى شكسبير . ويجيب أحد منافسيه المعترف بهم على السؤال بالنفى(٥٧) . وإنا لنقبل هذا الحكم . كما قصده برنارد شو — ليس لدى شكسبير ميتافيزيقا (فيما وراء الطبيعة) ولا فكرة عن الطبيعة النهائية للحقيقة ، ولا نظرية عن الإله . وكان شكسبير أعقل من أن يذهب إلى أن أى مخلوق يستطيع تحليل خالقه . أو أنه حتى عقله المرتكز على قطعة لحم ، يمكنه أن يدرك الكل . أى هوراشيو ، إن فى السماء والأرض لأشياء أكثر مما تحلم به فى فلسفتك(٥٨) . وإذا راوده خاطر احتفظ به لنفسه ، ومن ثم أثبت به أنه فيلسوف . وهو يتحدث دون اكتراث أو إجلال للفلاسفة المشهود لهم . ويشك فى أن واحداً منهم احتمل يوماً ألما فى أسنانه صابراً متجلداً(٥٩) . وهو يسخر من المنطق . ويؤثر عليه نور الخيال ، وهو لا يعرض أن يفك طلاسم الحياة أو العقل . ولكنه يشعر بها ويبصر بها بقوة تزرى بافتراضاتنا أو تعمقها . وإنه ليقف بعيداً . ويرقب أصحاب النظريات يدمر بعضهم بعضاً ، أو يتفسخون ويتحللون فى غمرات الزمان . وإنه ليخفى نفسه فى شخصياته ، وليس من اليسير أن تعثر عليه . ويجدر بنا أن نحذر نسبة أى رأى إليه ، إلا إذا عبر عنه فى شىء من التوكيد اثنان على الأقل من مخلوقاته (شخوص مسرحياته) .

وإنه ، لأول وهلة ، عالم نفسانى ، أكثر منه فيلسوف ، ولكنه كذلك ليس نظريا ، بل على الأرجح ، مصور فكرى عقلى ، يضع يده على الأفكار الخفية والأفعال العرضية التى تكشف عن طبيعة الانسان . ومهما يكن من أمر ، فانه ليس واقعيا سطحيا ، فان الأشياء لاتقع ، والناس لا يتكلمون ، فى الحياة ، كما يحدث فى رواياته ، ولكننا فى النهاية نحس من خلال هذه الأشياء البعيدة الاحتمال وهذه المغالاة . أننا نقترب من لب الفطرة الانسانية والفكر الانسانى ، وإن شكسبير ليعلم جيدا ، مثل شوبنهور « أن العقل يقود الارادة[٦٠] وأنه ليعتنق مذهب فرويد اعتناقا كاملا ، حين يورد قصائد الجنس على اللسان العــذرى ، لسان أوفيليا المخبولة التى تتضور جوعا ، ويذهب فيما وراء فرويد إلى دوستوفسكى فى دراسة ماكبث ونصفه « الردىء » (زوجته) .

وإذا فسرنا الفلسفة ، لاعلى أنها علم ما وراء الطبيعة ـــ الميتافيزيقا ، بل على أنها رسم متطور لأحوال الانسان ، أو نظرة تعميمية ، لا للكون والعقل وحدهما ، بل للأخلاق والسياسة والتاريخ والعقيدة كذلك ـــ نقول إذا فسرنا الفلسفة على هذا الأساس ، لكان شكسبير فيلسوفا أعمق من بيكون ، مثلما أن مونتانى أعمق من ديكارت ، فليس الشكل هو الذى يصنع الفلسفة . إنه ليقر النسبية فى الأخلاق « ليس ثمة شىء حسن أو ردىء ، ولكن التفكير هو الذى يجعله كذلك[٦١] » . « وإن فضائلنا لتخضع لتفسير الزمن[٦٢] . وأنه ليحس بلغز مذهب الجبرية (القضاء والقدر) المحير فى أن بعض الناس أشرار بالوراثة « على حين أنهم غير مذنبين ، طالما أن الأخلاق لاتستطيع أن تختار أصلها أو منشأها[٦٣] » . وإنه ليعرف نظرية ثراسياخوس (فيلسوف سفسطائى أغريقى فى القرن الخامس ق . م) فى الأخلاق : فيعتقد ريتشارد الثالث أن « الضمير ليس إلا كلمة يستخدمها ،الجبناء ابتكرت ،أول ما ابتكرت ، لتلقى الرعب فى قلوب الأقوياء ، فلتكن سواعدنا المفتــولة هى ضميرنا ، ولتكن أسيافنا قانوننا[٦٤] » . أما ريتشارد الثانى فيقرر « أن أجدر الناس بالتملك هم أولئك الذين يعرفون أقوى السبل وأكثرها ضمانا للكسب[٦٥] » . ولكن هذين الشخصين اللذين اتبعا مذهب نتيشه باءا بخاتمة محزنة . ويلحظ شكسبير ،

أيضا خلق الارستقراطية الاقطاعية الذى يتمسك بالشرف ، ويصفه بعبارات عظيمة ، ولكنه يستنكر (كما ورد على لسان المهرج هتسبير) نزوعه إلى الزهو والعنف ، و« سوء السلوك والحاجة إلى ضبط النفس[٦٦] » . أما الأخلاق عنده هو ، فتقوم فى النهاية على اعتدال ارسطو وضبط النفس عند الرواقيين . وكان الاعتدال والتعقل الموضوع الرئيسى فى حديث يوليسيز الذى أنب فيه أجاكس وأشيللس[٦٧] ، ومهما يكن من أمر ، فان العقل وحده لايكفى ، ولا بد أن يدعمه خيط من توجيه الرواقيين :

على المرء أن يحتمل
ذهابه هناك قدر احتماله قدومه هنا
والنضج هو كل شىء[٦٨] .

والموت أمر يمكن التجاوز عنه مادمنا قد حققنا أنفسنا . وشكسبير يؤيد ابيقور كذلك ، ولايسلم بتناقضات فاصلة بين اللذة والحكمة ، ويرد على البيوريتانيين بشدة فيورد على لسان الخادمة ماريا قولها لمالفولبو : " اذهب وهز أذنيك[٦٩] " أى " أنت جحش " . وهو يتسامح ، مثل البابا ، فى خطايا الجسد ، ويجرى على لسان لير المجنون أنشودة مرحة صاخبة للاتصال الجنسى[٧٠] .

أما فلسفته السياسية فتتسم بروح المحافظة . وأدرك آلام الفقراء ، وجعل لير يرددها فى إحساس عميق . ولحظ صياد سمك فى " بركليز " (١٦٠٩ ؟) أن الأسماك تعيش فى البحر :

مثلما يعيش الناس على الأرض — تأكل كبارها صغارها ، ولا يمكن أن أقارن أغنياءنا البخلاء ، مقارنة سليمة ، إلا بالحوت ، يلعب ويلهو ويسوق صغار السمك المسكين أمامه ، وفى النهاية يلتهمه دفعة واحدة ، ولقد سمعت عن مثل هؤلاء الحيتان على الأرض ، لايفتأون يفغرون أفواههم حتى يبتلعوا الأبرشية بأسرها والكنيسة ، والبرج ، والأجراس ، وكل شىء[٧١] » .

ويحلم جنزالو فى " العاصفة " بشيوعية فوضوية " يكون فيها كل ما تنتجه الطبيعة ملكا مشاعا " . ولايكون فيها قوانين ولاقضاة أو حكام ولا عمال

ولاحرب[٧٢] . ولكن شكسبير يهزأ بهذه « المدينة الفاضلة » — يوتوبيا — لأن طبيعة الانسان تجعل من المستحيل قيامها . ولابد ، فى ظل أى دستور ، من أن تأكل الحيتان السمك .

وماذا كانت ديانة شكسبير ؟ . إن البحث عن فلسفته فى هذا المجال ، بوجه خاص ، شاق عسير . فهو من خلال أشخاص مسرحياته يعبر عن كل المعتقدات ، فى تسامح لابد أنه كان يحمل البيوريتانيين على القول بأنه كافر . وكثيرا ما استشهد بالكتاب المقدس فى إجلال وتقديس ، وجعل هملت ، المفروض أنه متشكك ، يتحدث ، عن إيمان ، عن الله والصلاة والسماء والجحيم[٧٣] . ولقد عمد شكسبير وأبناؤه وفقا للطقوس الانجليكانية[٧٤] . وبعض أبياته تنم على بروتستانتية قوية ويتحدث الملك جون عن « الغفران البابوى » على أنه « شعوذة وسحر » . وكأنه يستبق هنرى الثامن :

. . . لن يفرض قسيس إيطالى
دفع العشور أو يقرع الناقوس فى أرضنا ،
ولكن ، كما أننا نرفع الرأس عاليا تحت السماء ،
فستكون لنا السيادة العظمى فى وجود الله العلى العظيم ،
حيث نملك ونحكم ، ونثبت الملك وحدنا ،
هكذا أنبئوا البابا ، مع كل الاحترام
له ولسلطانه المغتصب[٧٥] .

على أن جون ، بطبيعة الحال ، يكفر عن خطيئته ، آخر الأمر . وثمة رواية بعد هذه ، هى « هنرى الثامن » ، اشترك شكسبير فى جزء منها فقط ، تزودنا بصور مؤيدة لهنرى وكرانمر (أسقف كنتربرى) ، وتنتهى بمديح اليزابث — وكلهم كبار مهندسى الاصلاح الدينى فى انجلترا . وثمة مسحة انحياز للكاثوليكية ، مثلما جاء فى تصوير كترين أراجوان والراهب لورنس ، بشكل فيه تعاطف[٧٦] ، ولكن الشخصية الإخيرة كانت قد جاءت إلى شكسبير ، كما شكلت فى أخبار الكاثوليك الإيطاليين .

وهناك بعض إيمان باق فى الروايات المأساوية . ويظن الملك لير ، من فرط ما يشعر به من مرارة :

إننا بالنسبة للآلهة ، مثل الذباب بالنسبة للأطفال الأشقياء
يقتلونه من أجل اللهو واللعب(٧٧) .

ولكن إدجار الطيب يرد على ذلك بقوله « ولكن الآلهة عــدول ، وإنهم ليتخذون من رذائلنا السارة أدوات لتعذيبنا(٧٨) » ، كما يؤكد هملت إيمانه « بإله يشكل نهاياتنا ويقطعها دون صقل كيفما نشاء (٧٩) .. » وعلى الرغم من الايمان الذى يصطرع فى النفوس ، بعناية إلهية تتصرف معنا تصرفا عادلا ، هناك فى أعظم روايات شكسبير سحابة من عدم الايمان بالحياة نفسها ، فان جاك (أحد أتباع الدوق المطرود فى رواية على هواك .) لايرى فى « العصور السابقة » للانسان شيئا إلا كان بطىء النمو سريع العطب . ونسمع مثل هذه « اللازمة » فى رواية الملك جون :

الحياة مملة مثل حكاية تروى مرتين
فترهق الأذن الثقيلة لرجل نعسان(٨٠) .

وفى ذم هملت للدنيا .

تبا لها آه ، تبا لها ، إنها حديقة ملأى بالأعشاب الضارة .
التى تنمو وتتكاثر ، وكل شىء يحدث ويكبر فى الطبيعة ،
نمتلكه فحسب (٨١) .

وفى ماكبث :

انطفئى ، انطفئى أيتها الذبالة القصيرة !
ليست الحياة إلا خيالا عابرا ، أو هى أشبه بممثل مسكين يختال ويضيع وقته فوق المسرح ، ثم لايعــود يسمع له صوت ، إنهــا حكاية يرويها معتوه ، تعج بالضجيج والعنف ،
ولكنها لاتعنى شيئا(٨٢) .

وهل ثمة شىء من فكرة الخلود يخفف من حدة هذا التشاؤم ؟ إن لورنزو — بعد أن وصف لجسيكا موسيقى النجوم ، يضيف أن « مثل هذا التناغم أو الانسجام

موجود فى الأنفس الخالدة .(٨٣). وتخيل كلوديو فى رواية Measure For Measure حياة آخرة ، ولكن بالشكل القائم فى جحيم دانتى أو فى مثوى الأموات :

آه ولكنا نموت ، ونذهب إلى حيث لاندرى ،
ونرقد فى حفرة باردة بعيدين عن الأنظار ، ونتعفن ،
وتتحول الحركة الدائبة المحسوسة إلى كتلة من طين معجون ،
وتستحم الروح المرحة فى بحار من نار ، أو تسكن
فى صقع متماوج من جليد متراكم تراكما كثيفا
أو تسجن فى الرياح غير المنظورة
التى تهب فى عنف لايهدأ حول
العالم المتدلى . . . . أن هذا شىء بالغ الرهبة(٨٤) .

وتحدث هملت عرضا عن النفس ، على أنها خالدة(٨٥) . ولكن مناجاته لاتؤكد أية عقيدة أو إيمان . وكلماته على فراش الموت فى النسخة القديمة « فلتستقبل السماء نفسى » ، غيرها شكسبير إلى أن الراحة هى السكون (الموت) .

ولسنا نستطيع أن نقول ، على وجه التحقيق ، كم من هذا التشاؤم ، جاء نتيجة لمتطلبات المسرحية المأساوية . وكم منه كان يعبر عن حالة شكسبير النفسية ، ولكن تكراره وتوكيده يوحيان بأنه — أى التشاؤم — عبر عن أحلك مراحل فلسفته . وإنما كان التخفيف الوحيد الذى جاء فى الروايات التى توجت أعماله ، كان اعترافا حائرا مترددا بأنه يوجد هناك وسط رذائل هذه الدنيا نعم وبركات ومباهج ، كما يوجد وسط الأشرار الأوغاد كثير من الأبطال وبعض القديسين ، فهناك إلى جانب ياجو وجدت ديدمونه ، وإلى جانب جونريل وجدت كورديليا ، وإلى جانب ادموند وجد ادجار أوكنت ، وحتى فى هملت ، يهب نسيم عليل من وفاء هوراشيو ، ومن رقة أوفيليا وحنانها الموسومين بالحزن والكآبة . وبعد أن يغادر الممثل والكاتب المسرحى المنهوك لندن بما فيها من فوضى ووحشية برغم الازدحام ، إلى المروج الخضر والسلوى الأبوية فى بيته فى ستراتفورد ، فاسوف يستعيد الحب الشديد للحياة لدى الانسان .

٦ ــ الرضا والقناعة

ومهما يكن من أمر ، فليس ثمة سبب واضح يدعو شكسبير إلى الشكوى من لندن ، فقد هيأت له النجاح والهتاف باسمه والثروة . وثمة أكثر من مائتى إشارة ومرجع له ، وكلها مؤيدة له وتشيد بذكره ، فى الأدب الباقى من عصره . وفى ١٥٩٩ أورد كتاب فرانسيس ميرز « خزانة المفكرين الموهوبين » ،سدنى ،سبنسر ، دانيل ، درايتون ، وارنر ، شكسبير ، مارلو ، تشابمان ، بهذا الترتيب ، على أنهم أقطاب المؤلفين فى إنجلترا ، ووضع شكسبير على رأس الكتاب المسرحيين(٨٦). وفى نفس العام أعلن ريتشار بارنفيلد ــ وهو شاعر منافس ــ أن أعمال شكسبير (التى لم يكن أفضلها قد ظهر بعد)قد وضعت اسمه فى « سجل الشهرة الخالد(٨٧)» وكان محبوبا مألوفا حتى عند منافسيه . وكان درايتون وجونسون وبوريدج من بين أصدقائه الحميمين . وعلى الرغم من أن جونسون انتقد أسلوبه الطنان ، وتساهله الطائش فى التأليف ، وإغفاله الشنيع للقواعد الكلاسيكية (القديمة) ، فان جونسون نفسه ، فى المقدمة رفع شكسبير فوق كل الكتاب المسرحيين قديمهم وحديثهم ، وقرر أنه « ليس فريدا فى عصر بعينه ، بل فى كل العصور » وفى الأوراق التى خلفها جونسون عند موته ، كتب يقول « لقد أحببت الرجل . . . الشبيه بالصنم الذى يحبه الانسان حبا أعمى(٨٨) » .

وتحدثنا الأخبار بأن جونسون وشكسبير التقيا فى اجتماعات رجال الأدب فى حانة مرميد فى شارع « Bread Street » ، فتعجب فرانسيس بومونت الذى كان يعرف الرجلين كليهما :

ما هذا الذى رأيناه؟
فى مرميد ! سمعنا كلاما يفيض
رقة ، ويتقد حرارة
وكأنما جاء كل إنسان من حيث أتى
قاصدا أن يفرغ كل ذكائه وتفكيره فى نكتة ،

معتزماً أن يقضى ، مهرجاً ، بقية
حياته البليدة[٨٩] .

وقال توماس فولر فى كتابه « الشخصيات البارزة فى انجلترا (١٦٦٢) :

كم كانت الحرب الفكرية سجالا بين شكسبير وجونسون . وإنى لأنظر إليهما ، وكأنهما سفينة شراعية أسبانية ضخمة وبارجة إنجليزية ، ومستر جونسون (وهو كالأولى) ، علا كعبه فى العلم والمعرفة ، وهوراسخ وطيد الأركان ، ولكنه يطىء فى أداء عمله . أما شكسبير . . . فهو أقل فى البنيان ولكنه أخف حين يمخر عباب الماء ، يستطيع أن يتجه حيث يتجه الموج ، ويغير اتجاهه حيث شاء ، ويستفيد من كل ريح ، بفضل سرعة بديهته وابتكاره[٩٠] .

وتابع أو برى حوالى ١٦٨٠ الأخبار المتواترة التى يسهل تصديقها عن شكسبير و « بديهته الحاضرة اللطيفة المتدفقة » وأضاف أنه كان « رجلا رشيقاً وسيما لطيف المعشر[٩١] » ، والشبيه الوحيد الموجود له الآن هو التمثال النصفى الموضوع على مقبرته فى كنيسة ستراتفورد ، والصورة الموجودة فى « الكتاب الأول » ، وهما يتفقان إلى حد كبير فى إبراز رجل نصف أصلع ، ذى شارب ، و (فى التمثال) ذى لحية ، وأنف حاد ، وعينين متأملتين ، ولكنهما لا تبديان أية إشارة إلى الشرر الذى يتقد فى الروايات . وربما ضللتنا الروايات فيما يتعلق بأخلاقه ، فإنها توحى برجل ذى طاقة عصبية ، شديد الحساسية ، سريع الانفعال ، يتذبذب بين قمتى الفكر والشعر ، وشفيرى الكآبة واليأس ، على حين يصفه معاصروه بأنه مهذب أمين لا تأخذه العزة بالإثم ، ذو طبيعة صريحة منطلقة[٩٢] » ، يستمتع بالحياة ولا يأبه بالنسل ، تبدو عليه مسحة من الروح العملية التى لا تلائم الشاعر . وسواء كان عن طريق الاقتصاد فى الانفاق أو عن طريق المنح والهبات ، فإنه كان بالفعل فى ١٥٩٨ ثريا إلى حد يسمح له بالمشاركة فى تمويل « مسرح جلوب » . وفى ١٦٠٨ شيد هو وستة آخرون مسرح The Black Friars وزادت أنصبته فى مثل هذه المشروعات من عائداته بوصفه ممثلا وكاتباً مسرحياً ، وعادت عليه بدخل كبير ، اختلف تقديره بين ٢٠٠[٩٣] و ٦٠٠[٩٤] جنيه سنوياً . ويبدو أن الرقم الأخير أصلح لأنه يفسر لنا شراءه للعقارات فى ستراتفورد .

ويقول أوبرى إن شكسبير « تعود أن يزور مسقط رأسه مرة كل عام (٩٥) » . وتوقف أحيانا على الطريق فى أكسفورد ، حيث كان جون دافنانت يدير نزلا ، وكان سير وليم دافنانت (شاعر البلاط ١٦٣٧) يحب أن يوحى بأنه نتيجة غير مقصودة لتخلف شكسبير فى هذا النزل (٩٦) . وفى ١٥٩٧ اشترى الكاتب المسرحى « البيت الجديد » New Place بستين جنيها ، وكان ثانى أكبر بيت فى ستراتفورد ، ومع ذلك ظل يقطن لندن . ومات أبوه فى ١٦٠١ تاركا له منزلين فى شارع هملى فى ستراتفورد، وبعد ذلك بعام واحد ، اشترى١٢٧ فدانا من الأرض بالقرب من المدينة ، بثمن قدره ٣٢٠ جنيها ، ويحتمل أنه أجرهذه الأرض لمستأجرين مزارعين وفى ١٦٠٥ اشترى بمبلغ ٤٤٠ جنيها أسهما فى العشور الكنسية المرتقبة فى ستراتفورد وثلاث دوائر أخرى . وفى إثناء انشغاله بكتابة أعظم رواياته فى لندن ، كان معروفا فى ستراتفورد بأنه رجل أعمال ناجح ، أساسا ، مشغول فى الغالب بالتقاضى من أجل ممتلكاته واستثماراته .

وكان ابنه هامنت قد توفى فى ١٥٩٧. وفى ١٦٠٧ تزوجت ابنته سوزانا من جون هول . وهو طبيب مشهور فى ستراتفورد، وبعد عام واحد جعلت من الشاعر جداً، ومن ثم كانت روابط جديدة تشده إلى مسقط رأسه . وحوالى ١٦١٠ هجر لندن واعتزل المسرح ، وآوى إلى « البيت الجديد » . ومن الواضح أنه كتب هناك «Cymberline» (١٦٠٩ ؟) و« قصة الشتاء (١٦١٠ ؟) و« العاصفة» (١٦١١؟). ولم يكن لاثنين من هذه الروايات كبير قيمة . ولكن « العاصفة » تظهر أن شكسبير كان لايزال يحتفظ بكل قواه . فهنا ميراندا التى تكشف منذ البدايه عن طبيعتها ، حين تشاهد من الشاطئ غرق سفينة فتصرخ « أوه لقد تألمت مع هؤلاء الذين رأيتهم يتألمون (٩٧) » . وهنا كاليبان الذى يرد به شكسبير على روسو . وفيها أيضاً بوسبيرو الساحر الرقيق الفؤاد الذى يتخلى عن صولجان فنه ويودع دنياه المرحة وداعاً حنونا ، وهناك صدى لاكتئاب الشاعر ، فى الفصاحة التى لم يعتورها أى وهن فى أبيات بروسبيرو :

انتهى الآن مرحنا وصخبنا . إن ممثلينا هؤلاء

كما تنبأت لكم ، كانوا أرواحا ،
ذابت فى الهواء ، فى الهواء الرقيق ،
ومثل كيان هذه الرؤيا الواهن القائم على غير أساس
تكون الأبراج التى يتوجها السحاب والقصور الشامخة
والمعابد الرهيبة ، والأرض الواسعة نفسها ،
نعم ، وكل ماترثه سوف يذوب ويفنى ،
كما ذبلت هذه الأبهة الفارغة المتهافتة ،
لاتتركوا مصدرا للألم وراءكم ، إننا مصنوعون
من نفس المادة التى تصنع منها الأحلام ، وحياتنا القصيرة
يحف بها النوم (٩٨).

ولكن ليست هذه هى الحالة النفسية الغالبة الآن ، بل على النقيض من ذلك فالرواية هى شكسبير يسترخى ويستجم ، ويتحدث عن الغدران والأزهار ، ويشدو بأغنيات عذبة ، « Where the Bee sucks there Suckl., Full fathom five » — وعلى الرغم من كل المعترضين واعتراضاتهم ، فان الشاعر الذى تقدمت به السن هو الذى يتحدث على لسان بروسبيرو وهو يودع الحياة :

. . . إن الأجداث ، بأمر منى
أيقظت النيام ، فيها ، وفتحت أبوابها وأطلقتهم
بفضل فنى الفعال . ولكن هذا السحر الشاق
أعد بأن أتخلى عنه هنا . . . ولسوف أحطم عصاى
وأدفنها بضع أقدام تحت الأرض ،
وفى مكان أعمق من أن ترن فيه رصاصة الفادن(*)
سوف أغرق كتابى (٩٩) .

وربما كان شكسبير أيضا ، الذى ابتهج ببناته وحفيده هو الذى صاح على لسان ميراندا :

(*) الفادن — أداة مؤلفة من خيط فى طرفه قطعة رصاص . يسبر بها غور المياه .

عجباً !
كم من المخلوقات الوسيمة أرى هنا !
ما أجمل بنى الإنسان ! أيتها الدنيا الجديدة الرائعة
التى يعيش فيها مثل هؤلاء الناس(١٠٠) !

وفى ١٠ فبراير ١٦١٦ تزوجت جوديت من توماس كوينى . وفى ٢٥ مارس كتب شكسبير وصيته . فترك ممتلكاته لسوزانا ، و ٣٠٠ جنيه لجوديت ، وأوصى بمبالغ لرفاق التمثيل ، و « بسريره الثانى » لزوجته التى كان قد هجرها ، وربما كان قد رتب مع سوزانا أن ترعى أمها . وعاشت آن هاثاواى سبع سنوات بعده . وذكر جون وارد قسيس كنيسة ستراتفورد (١٦٦٢ — ١٦٨١) ، أن « شكسبير ودرايتون وبن جونسون اجتمعوا فى جلسة مرحة ، ويبدو انهم أسرفوا فى الشراب ، لأن شكسبير مات إثر حمى أصابته بعد ذلك(١٠١)* » . وحم القضاء فى ٢٣ أبريل ١٦١٦ ، وورى جثمانه التراب تحت الهيكل فى كنيسة ستراتفورد ، وهناك بالقرب من هذا المكان توجد بلاطة الضريح التى لا تحمل اسما ، وقد نقش عليها عبارة تخليد الذكرى ، تنسبها أقوال متواترة محلية إلى شكسبير نفسه :

أيها الصديق الكريم ، بحق يسوع المسيح ، تحمل
أن تحفر التراب الذى يحيط بهذا المكان ،
وليبارك الله الرجل الذى يحافظ على هذه الأحجار ،
ولعنة الله على من ينقل عظامى .

٧ — بعد موت الشاعر

ومبلغ علمنا ، أن شكسبير كان قد اتخذ خطوات لنشر رواياته . وطبعت الروايات الست عشرة التى كثيراً ما ظهرت فى حياته ، وواضح أن هذا دون تعاون منه ، فى قطع الربع عادة ، وعلى درجات متفاوتة من حيث التحريف فى النص .

(*) ليس هناك ما يدعو إلى نبذ هذه الرواية — [illegible] . ك . تشيمبرز فى كتابه " وليم شكسبير " الجزء الأول ص ٨٩ .

وأثارت هذه القرصنةوالانتحالات اثنين من زملائه السابقين : جون همنج وهنرى كوندل ، فأصدرا فى ١٦٢٣ « الكتاب الأول » ، وهو مجلد من القطع الكبير به نحو ٩٠٠ صحيفة على نهرين ، يضم النص الموثوق لست وثلاثين رواية . وجاء فى تصدير الكتاب « إننا لم نفعل إلا أن أدينا خدمة للراقد تحت التراب ، ولم نبغ من وراء ذلك ربحا لنا أو شهرة ، بل نهدف إلى تخليد ذكرى صديق عظيم ماثل بيننا . . . شكسبير » وكان يمكن شراء المجلد آنذاك بجنيه واحد . أما النسخ الباقية حتى الآن ، وعددها مائتان تقريبا ، فتقدر قيمة الواحدة منها بسبعة عشر ألفا من الجنيهات ، أى أغلى قيمة من أى كتاب آخر ، باستثناء انجيل جوتنبرج .

وتأرجحت شهرة شكسبير بشكل عجيب من حين لآخر . ففى ١٦٣٠ امتدحه ملتون وقال « شكسبير الأعز ، ثمرة الذوق والفن » . ولكن على عهد البيوريتانيين ، حين أغلقت المسارح ١٦٤٢ — ١٦٦٠ ، خبت شهرة الشاعر ، وعادت بعودة الملكية . وفى الصورة التى رسمها فان ديك لسيرجون سكلنج (والمحفوظة بقاعة فريك فى نيويورك) ، ترى سكلنج يمسك « بالكتاب الأول » مفتوحا على رواية هملت . ويمتدح دريدن ، معجزة أواخر القرن السابع عشر ، شكسبير على أنه « من بين الشعراء الحديثين ، وربما القدامى أيضا ، أعظم نفس وأوسعها إدراكا.. وكان دوما عظيما إذا عرضت له مناسبة عظيمة » ولكن «كثيرا ما انحط فنه الهزلى (الملهاة) التافه الفاتر إلى فن مرهق قيل تضيق النفوس به ذرعا ، كما انحط تمثيله الجاد إلى مجرد كلام منمق طنان[١٠٢] . . . » وذكر جون افلين فى مفكرته (١٦٦١) « أن الروايات القديمة تثير اشمئزاز هذا العهد المهذب ، حيث أن صاحب الجلالة عاش طويلا فى الخارج » ويقصد بهذا أن شارل الثانى والملكيين العائدين جلبوا معهم إلى انجلترا المعايير المسرحية من فرنسا ، وسرعان ما أخرج المسرح بعد عودة الملكية أشد الروايات دعارة وفجورا فى الأدب الحديث ، وظلت روايات شكسبير تمثل ، ولكن عادة ، بعد تعديلها بمعرفة دريدن أو أتواى Otway أو غيرهما ممن يمثلون ذوق « عودة الملكية » .

وأعاد القرن الثامن عشر روايات شكسبير إليه . فنشر نيقولا رو (١٧٠٩) أول طبعة انتقادية وأول سيرة حياة للشاعر . وأصدر بوب وجونسون طبعات وتعليقات . أما بترتون وجاريك وكمبل ، والممثلة ساره سيدونز فقد جعلوا شكسبير معروفا مألوفا محبوبا بشكل لم يسبق مثيل على المسرح . وفى ١٧٧٨ خلد توماس بودلر Bowdler اسمه هو نفسه بنشر . نسخة مهذبة حذف منها « كل ما ينافى الحشمة والفضيلة ، مما لا يمكن قراءته جهرا فى الأسرة » . وفى أوائل القرن التاسع عشر احتضنت الحركة الرومانتيكية شكسبير ، وحولته مبالغات كولردج وهازلت ودى كوينسى وتشارلز لام إلى معبود قبلى :

واعترضت فرنسا — فما جاءت سنة ١٧٠٠ حتى كان رونسار وماليرب وبوالو قد شكلوا معاييرها الأدبية وفق التقاليد اللاتينية ، من حيث الترتيب والشكل المنطقى والذوق المهذب والتحكم العقلانى . وكانت فرنسا قد أقرت ، فى أعمال راسين القواعد الكلاسيكية فى المسرحية . وقد أزعجها وعكر صفوها شكسبير بتلاعبه الفارغ بالألفاظ ، والسيل الجارف من العبارات ، وعواصفه العاطفية ، ومهرجيه الأفظاظ ، وجمعه بين الملهاة والمأساة . وعندما عاد فولتير من انجلترا (١٧٢٩) أتى معه ببعض التقدير لشكسبير ، فهو يقول « أظهرت الفرنسيين لأول مرة على بعض اللآلىء التى عثرت عليها بين الأكداس الهائلة(١٠٣) » . ولكن إذا وضع أحدهم شكسبير فى مرتبة أعلى من راسين ، انبرى فولتير للدفاع عن فرنسا بقوله « إن شكسبير همجى محبوب »(١٠٤) . وفى القاموس الفلسفى (١٧٦٥) أجرى فولتير بعض التعديل « إن لهذا الرجل نفسه قطعا تلهب الخيال وتنفذ إلى القلب . . . . . لقد أدرك هذه المنزلة من الرفعة والسمو دون أن يسعى إليها (١٠٥) » وساعدت مدام دى ستاى (١٨٠٤) وجيزو (١٨٢١) وفيلمين (١٨٢٧) — ساعدوا فرنسا على الاصغاء لشكسبير فى أناة وصبر . وأخيراً فان ترجمة الروايات إلى نثر فرنسى جيد ، تلك الترجمة التى قام بها فرنسوا بن فيكتور هيجو أكسبت شكسبير احترام فرنسا له ، ولو أنه لم يصل إلى مستوى

الاعجاب القلبي المخلص الذى أسبغتـه على راسـين .

وكان حظ الشاعر من الطباعة أسعد فى ألمانيا ، حيث لم ينافسه كاتب مسرحى محلى . فإن الكاتب المسرحى الألمـانى العظيم الأول جوتهلد لسنج ، هو الذى أنبأ مواطنيه (١٧٥٩) بأن شكسبير يسمو على كل الشعراء القدامى والمحدثين ، وأيده فى هـذا هردر . ورفع أوجست فون سكلجل ولودفيج تيك وغيرهما من زعماء المدرسة الرومانتيكية راية شكسبير ، وأسهم جيته بمناقشة حماسية عن هملت فى « قاعة ولهلم » (١٧٩٦)(١٠٦) . وأصبح شكسبير معروفا محبوبا على المسرح الألمانى ، وانتزع العلماء الإلمان من انجلترا مقام الصدارة ، فى دراسة حياة شكسبير ورواياته وتوضيحها .

ويتعذر التقدير الموضوعى أو المقـارنة الموضوعية على هؤلاء الذين شبـوا وترعرعوا وهم ينشقون عبير شكسبير . فان الذى يعرف لغة الإغريق على عهد بريكليز وعقيدتهم وفنهم وفلسفتهم ، هو وحده الذى يحس بالمسرحية المأساوية الديونيسية وسموها الذى لا مثيـل له ، وبساطتها الواضحة ، وبالمنطق القوى فى بنيانها ، وبضبط النفس الباعث على الفخر فى القول والفعـل ، وبالشرح الذى يهز النفوس فى ترانيم مجموعة المغنين فيها ، وبالمغامرة النبيلة فى مشاهدة الانسان من زاوية مكانه وقدره فى الكون . كما أن الذى يعرف اللغة الفرنسية والخلق الفرنسى ، وخلفية « القرن الأعظم » (السابع عشر) يمكنه وحده أن يحس ، فى روايات كورنى وراسـين — لا مجرد عظمـة الشعر وموسيقاه فحسب — بل يحس كذلك بالجهد البطولى للعقل فى إثارة العاطفة وبعث الانفعال ، والتمسك الحكيم الرزين بالمعايير الكلاسيكية العسيرة ، وتركيز المسرحية فى بضع ساعات تشـد فيها الأعصاب ، لتلخيص حيـاة الانسان والفصل فيها ، كذلك فان الذى يعرف اللغـة الانجليزية ، فى كمالهـا أيام اليزابث ، ويتعمق ويجد لذة واستمتاعا فى البلاغة والأغانى والتراشق فى عهد اليزابث ، ولا يغل المسرح عن أن يعكس صورة الطبعة ويحرر الخيال ، نقول إن هذا وحده هو

الذى يستطيع أن يهيء لروايات شكسبير ما تستحقه من تقدير وترحيب قلبا وقالبا : ولكن مثل هذا الرجل لا بد أن يرقص طربا لروعة لغتها ، ويهتز من الأعماق وهو يتابع ويسير غور الفكر فيها ، تلك هى الفترات الثلاث التى نعمت بموهبة المسرحية فى العالم . ويجدر بنا ، على الرغم من عجزنا ، أن نرحب بها جميعا من أعماقنا ، شاكرين لتراثنا من الحكمة الاغريقية ، ومن الجمال الفرنسى ، ومن الحياة فى عصر اليزابث .

الفصل الخامس

مارى ملكة اسكتلنده

١٥٤٢ — ١٥٨٧

الملكة الجنية

وسط المسرحية المتشابكة ، مسرحية الإصلاح الدينى فى اسكتلنده مع السياسة فى عصر اليزابث ، جرت مأساه مارى ستيوارت ، بكل مافيها من سحر الجمال والحب المشبوب والصراع الدينى والسياسى ، والقتل والثورة والموت البطولى ، وكاد أسلافها ، أن يؤكدوا لها خاتمة عنيفة. وكانت ابنة ستيوارت الخامس ملك اسكتلنده ومارى أميرة جيز واللورين وفرنسا . وحفيدة مرجريت تيودور ابنة هنرى السابع ملك إنجلترا ، ومن ثم كانت بنت أخت ومن باب التساهل — بنت عمة ، « مارى اللعينة » واليزابث ، وكانت باجماع الآراء الوريثة الشرعيه للتاج الإنجليزى . إذا توفيت اليزابث دون عقب ، وفى رأى هؤلاء الذين اعتبروا اليزابث ابنة زنى ، ومن ثم غير مؤهلة للملك — مثل الكاثوليك (وهنرى الثامن فى وقت ما) ، أنه كان لا بد أن ترتقى عرش إنجلترا ١٥٥٨ ، مارى ستيوارت لا اليزابث . ولتصبح المأساه يقينا ، أباحت مارى، عندما أصبحت ملكة فرنسا (١٥٥٩) — نقول أباحت لأتباعها ولوثائق الدولة أن يلقبوها ملكة إنجلترا . فثمة ادعاء فارغ ساد منذ أمد طويل بأن يكون ملوك فرنسا ملوكاً على إنجلترا أيضا ، كما يكون ملوك إنجلترا بدورهم ملوكاً على فرنسا ، ولكن الادعاء فى هذه الحالة قارب حقاً معترفا به بصفة عامة . وما كان لأليزابث أن تطمئن على تاجها طالما بقيت مارى على قيد الحياه . وما كان ينقذ الموقف إلا النيات الطيبة أو النظرة الصائبة للأمور ، ولكن الملوك قل أن يطأطئوا رءوسهم إلى هذا الحد .

وعرضت الممالك على ماري ، في مدة سنة من ولادتها . فقد جعلها موت أبيها في بحر أسبوع من مولدها ، ملكة إسكتلنده ، واقترح هنري الثامن ، أملا منه في ضم اسكتلنده كمقاطعة ملحقة بانجلترا — اقترح أن تخطب الطفلة إلى ابنه إدوارد وترسل إلى إنجلترا . وتربى فيها . مع افتراض أن تكون بروتستانتية ، لتكون ملكة مع ابنه إدوارد . ولكن بدلا من هذا ، قبلت أمها الكاثوليكية عرض هنري الثاني ملك فرنسا (١٥٤٨) أن تزوجها لأكبر أبنائه (الدوفين) . وحماية لماري من اختطافها إلى إنجلترا . أسرعوا بها وهي في سن السادسة إلى فرنسا ، حيث بقيت هناك ثلاثة عشر عاما ، وتلقت العلم مع أولاد الأسرة المالكة ، وتأصلت فيها الروح الفرنسية تماما . حيث كانت نصف فرنسية بحكم الدم . ولما نضجت واكتمل شبابها ، تجلت كل مفاتن الأنوثة في جمال القسمات والقوام ، وحدة الذهن .والكياسة المرحة في السلوك والحديث ،وغنت غناء عذبا،وعزفت على العود عزفا جيداً . وتحدثت باللاتينية ، وكتبت شعرا تكلف الشعراء إطراءه، وخفقت قلوب الحاشية ، لرؤية وجهها النقي الناصع البياض كالثلج » (برانتوم [١]) « وشعرها المقصوص المضفر » (رونسار [٢]) ، ورشاقة يديها النحيلتين ، وصدرها الممتلىء . وحتى أن لوبيتال الوقور الرزين ذهب إلى أن مثل هذا الجمال لا يمكن إلا أن يكون لأحد الآلهة .[٣] وأصبحت أكثر الشخصيات جاذبيةوأعظمها كياسة في أكثر بلاط أوربا تهذيباوصقلا. ولما بلغت السادسة عشرة تزوجت ولي عهد فرنسا (الدوفين) في ٢٤ أبريل ١٥٥٨. وما أن بلغت السابعة عشرة ، حتى أصبحت ، بارتقائه العرش ، ملكة على فرنسا. ويبدو أن كل آمال حلم خيالي قد أصبحت حقيقة .

ولكن في ٥ ديسمبر ١٥٦٠ مات فرنسوا الثاني (زوجها) بعد حكم دام سنتين. وفكرت ماري التي باتت أرملة وهي في سن الثامنة عشرة ، في أن تأوي إلى ضيعة في تورين ، لأنها أحبت فرنسا . ولكن اسكتلنده في تلك الأثناء تحولت إلى البروتستانتية ، وكانت على شفا ضياعها من فرنسا بوصفها حليفة . ورأت الحكومة الفرنسية أن من واجب ماري أن تذهب إلى أدنبره ، وتقود وطنها الأصلي إلى التحالف مع فرنسا . وإلى العقيدة الكاثوليكية من جديد . وارتضت ماري كارهة أن تترك

مباهج المدنية الفرنسية ورفاهيتها ، لتعيش فى اسكتلنده التى تصورتها أرض الهمجية والبرودة . وكتبت إلى زعماء الأشراف مؤكدة إخلاصها لاسكتلندة ، ولكنها لم تذكر لهم أنها فى عقد زواجها ، حولت ملك اسكتلندة إلى ملوك فرنسا إذا توفيت دون عقب . وافتتن بها النبلاء ، البروتستانت منهم والكاثوليك على حد سواء ، ودعاها برلمان اسكتلندة لتتبوأ عرشها . وطلبت إلى اليزابث امتياز المرور بأمان عبر انجلترا ، فرفض طلبها ، فأبحرت مارى من كاليه فى ١٤ أغسطس ١٥٦١ ، مودعة فرنسا بالدموع ، محدقة فى الشاطىء الذى يتراجع من خلفها ، حتى لم يبق أمامها شىء إلا البحر .

وبعد خمسة إيام ألقت السفينة مراسيها فى « ليث » ثغر ادنبره واكتشفت مارى اسكتلندة .

٢ — اسكتلندة ١٥٦٠ — ١٥٦١

كانت أمة ذات أصول عريقة وأساليب عتيقة ، قيدتها الأراضى الجبلية الوعرة فى الشمال بنظام إقطاعى ، يتحكم فيه أمراء مستقلون تقريباً ، يحيون حياة نصف بدائية قوامها الصيد والرعى ، واستئجار الأرض القابلة للزراعة . أما الجنوب فقد تميز بأرض منبسطة خصبة بفضل ماء المطر ، ولكنها مظلمة معتمة بسبب شتائها الطويل والبرد القارس الذى يشل الحركة . فهنا شعب يكافح ليخلق نظاماً أخلاقياً وحضارياً ، من حمأة الأمية واختلاط الأنساب والفساد والتمرد على القانون والعنف ، شعب أعمته الخرافات ، وإرسال السحرة إلى الإعدام حرقاً ، يفتش فى عقيدة دينية متشددة عن حياة أقل قساوة ومشقة . ورغبة فى موازنة قوة البارونات التى مزقت أوصال البلاد ، كان الملوك ساندوا وشجعوا رجال الدين الكاثوليك وأغدقوا عليهم الثروات ، مما جرهم إلى الفساد وقبول الرشوة وعدم المبالاة ومعاشرة الخليلات(٤). وتحرق النبلاء لهفاً على ثروة الكنيسة ، فانتقصوا من قدر رجال الدين ، بملء الوظائف الكنيسة بأبنائهم الخبراء بشئون الدنيا ، ونادوا بالإصلاح الدينى ، وجعلوا البرلمان الاسكتلندى الذى تحكموا فيه سيداً للكنيسة والدولة على حد سواء .

وكان الخطر الخارجى أقوى حافز على الوحدة الداخلية . ولم تحس انجلترا

بالطمأنينة فى جزيرة يشاركها فيها الإسكتلنديون الذين لم يروضوا بعد . وسعت من حين لآخر ، بالطرق الدبلوماسية أو الزواج أو الحرب ، إلى إخضاع إسكتلنده للحكم البريطانى . وأشار سيسل على اليزابث بمساندة النبلاء البروتستانت ضد مليكتهم الكاثوليكية ، ومن ثم تصبح إسكتندة ممزقة ، ولا تعود تشكل خطراً على انجلترا أو دعامة لفرنسا . وفوق ذلك يمكن لزعماء البروتستانت ، إذا حالفهم التوفيق ، أن يخلعـــوا مارى ، ويتوجوا نبيلا بروتستانتيا ، ويحولوا إسكتلنده كلها إلى البروتستانتية . وراود سيسل بصفة خاصة حلم توحيد إسكتلندة على هذه الصورة مع انجلترا بإغراء اليزابث بالزواج من مثل هذا الملك(٥) . فلما أرسلت فرنسا إلى إسكتلندة قوة لإخماد البروتستانت سارعت اليزابث بإرسال جيش لحمايتهم وطرد الفرنسيين . ولما حاقت الهزيمة بفرنسا فى ميدان القتال ، وقع ممثلوها فى إسكتلندة فى أدنبره (٦ يولية ١٥٦٠) معاهدة مشؤومة لا تنص على خروج الفرنسيين من إسكتلندة فحسب ، بل على عدم مطالبة مارى بأى حق فى عرش انجلترا . كذلك ، ورفضت مارى ، بناء على مشورة زوجها فرنسوا الثانى ، التصديق على المعاهدة . وعلمت اليزابث بذلك .

وكان الوضع الدينى مضطرباً ، بنفس القدر . ذلك أن « برلمان الإصلاح الدينى » الإسكتلندى الذى التأم ١٥٥٠ ، ألغى الكاثوليكيـــة رسمياً ، وقرر أن تكون البروتستانتية الكلفنية دين الدولة ، ولكن مارى لم تصدق على هذه القرارات البرلمانية حتى تصبح قوانين نافذة المفعول فى البلاد . وظل القساوسة الكاثوليك يشغلون معظم الوظائف الكنسية ذوات الدخول فى إسكتلندة . وكان نصف النبلاء « بابويين » ، وظل جون هاملتون الذى يجرى فى عروقه الدم الملكى ، يذهب إلى البرلمان بوصفه زعيم الكاثوليك فى إسكتلندة . ومهما يكن من أمر فإن نسبة كبيرة من الطبقة المتوسطة فى أدنبره وسانت أندروز وبرث وسترلنج وأبردين ، انحازت إلى الكلفنية ، بفضل الوعاظ المخلصين المتحمسين ، بزعامة جون نوكس Knox .

وفى العام الذى سبق مجىء مارى أخرج نوكس ومعاونوه كتاباً فى قواعد السلوك والانضباط « Discipline » يحدد مذهبهم وأغراضهم ، فالديانة لا تعنى

إلا البروتستانتية ، و « الربانيون والأتقياء » لا يقصد بهم إلا الكلفنيون وحدهم ، أما « الوثنية » فإنها تشمل « القداس ، والتضرع إلى القديسين وعبادة الصور . . . والاحتفاظ بها » ، أما « المتمسكون بهذه الأشياء البغيضة والداعون إليها ، فلا ينبغى أن يفلتوا من عقاب القضاة والحكام المدنيين . « وكل مذهب أو نظرية » تتنافى " مع الإنجيل ، يجب " القضاة عليها قضاءاً تماماً ، على أنها لعينة تحول دون خلاص الإنسان[٦] " . أما القساوسة فينبغى أن ينتخبوا فى المجامع ، وعليهم أن ينشئوا المدارس ويفتحوها لكل أبناء الرب ، مع خضوعها لرقابة الجامعات الإسكتلندية — سانت أندروز ، جلاسجو ، أبردين . ويجب أن تخصص أموال الكنيسة الكاثوليكية والعشور الكنسية المستمرة لحاجيات القساوسة البروتستانت وتعليم الشعب ومعونة الفقراء . وعلى " الكنيسة الإسكتلندية الوطنية " ، الجديدة — لا السلطة المدنية — أن تصدر تشريعات الأخلاق ، وتفرض العقوبات على مخالفاتها — السكر والجشع والتجديف والإسراف فى الثياب ، ظلم الفقراء والفحش والفسق والزنى ، وكل من يعارض المذهب الجديد ، أو يتغيب عمداً عن طقوسه ، يحال إلى السلطة المدنية ، مع توصية من الكنيسة الإسكلندية الوطنية بإعدامه[٧] .

على أن اللوردات الذين سيطروا على البرلمان أبوا أن يقروا " قواعد السلوك والانضباط " (يناير ١٥٦١) . ولم يستسيغوا قيام كنيسة وطنية قوية مستقلة . وكانت لهم خططهم الخاصة فى استخدام أموال الكنيسة المنحلة . وظل " كتاب قواعد السلوك " هدفاً ونبراساً يهتدى به فى تطوير الكنيسة الإسكتلندية الوطنية وتنميتها .

ولما أخفق نوكس فى إقامة حكومة لاهوتية يتولاها قساوسة يدعون أن لهم حق الكلام نيابة عن الرب ، بذل جهداً جباراً فى إصرار بالغ ، فى تنظيم الكهنوت الجديد ، وإيجاد الاعتمادات اللازمة لتدعيمهم ، وانتشارهم فى كل أرجاء إسكتلندة ، لمواجهة رجال الدين الكاثوليك الذين ظلوا يؤدون وظائفهم ، وخلقت قوة العقيدة فى مواعظه التى كان يلقيها وحماسة طائفته — نقول خلقت منه قوة فى أدنبره وفى الحكومة . وكان لزاماً على الملكة الكاثوليكية ، مارى ، أن تصفى حسابها معه . حتى تستطيع تثبيت دعائم ملكها .

٣ — مارى ونوكس ١٥٦١ — ١٥٦٥

اتخذت مارى الترتيبات لتصل إلى إسكتلندة . قبل الموعد المضروب بأسبوعين ، حيث خشيت بعض المقاومة فى دخولها إلى البلاد ، ولكن ما أن انتشر فى العاصمة خبر وصولها إلى ليث حتى اكتظت الشوارع بالأهالى ، الذين عرتهم الدهشة ليروا ملكتهم غادة جميلة مرحة مفعمة بالحيوية ، لم تبلغ بعد التسعة عشر ربيعاً . وحياها معظمهم وهتفوا لها وهى على ظهرجوادها الصغير إلى قصر هوليرود . Holyrood وهناك رحب بها اللوردات : بروتستانت وكاثوليك فخورين بأن يكون لإسكتلندة ملكة فاتنة إلى هذا الحد ، يمكن يوماً ما ، بشخصها أو بشخص ابن لها ، أن تخضع إنجلترا الحكم ملك إسكتلندى .

وإن صورتيها(٨) اللتين وصلتا إلينا لتؤكدان اشتهارها بأنها من أجمل نساء عصرها . ولسنا ندرى إلى أى حد استطاع الرسامان اللذان نجهل الآن اسميهما ، أن يمثلاها ، ولكنا نلحظ فى اللوحتين كلتيهما ، القسمات الوسيمة واليدين الناعمتين والشعر الكستنائى الغزير الذى سلب ألباب البارونات وكتاب السير . ومع ذلك فإن هاتين الصورتين لا تكادان تكشفان لنا عن الجاذبية الحقيقية للملكة الصغيرة — روحها المرحة ، وثغرها الباسم ، وحديثها العذب البارع ، وحماسها المتدفق ، وروح الألفة والحنان والمودة فيها ، وتلهفها على الحب . وإعجابها المتهور بالأقوياء من الرجال ، وكانت طامتها الكبرى أنها أرادت أن تكون امرأة وملكة معاً — أى أن تحس بدفء العاطفة ، دون أن تنقص من امتيازات الملك . لقد فكرت فى ذاتها بلغة قصص الفروسية — حسناوات مزهوات ولكنهن وديعات رقيقات ، عفيفات شهوانيات فى وقت معاً ، وأهل للهفة المتقدة والألم الحسى ، والإشفاق الرقيق ، والولاء الذى لا تفسده الرشوة ، والشجاعة التى تظهر عند الشدة . وكانت بارعة فى ركوب الخيل ، تقفز بجوارها فوق الأسوار ، وتتخطى الخنادق فى اندفاع وتهور ، وتستطيع احتمال مشاق الحملات دون كلل ولا شكوى . ولكنها لم تكن من الناحية الجسمية أو العقلية صالحة لأن تكون ملكة . فقد منيت بالاعتلال والضعف فى كل شىء اللهم إلا قوة الأعصاب ، وكانت عرضة لنوبات من الإغماء

تبدو وكأنها صرع . مصابة بعلة لم يتيسر تشخيصها . غالباً ما شلت حركتها وجعلتها تتلوى من شدة الألم(٩). ولم يكن لها ذكاء الرجال الذى تميزت به اليزابث ،وكانت فى الغالب بارعة حاذقة . ولكن قل أن اتسمت بالحكمة ، وكثيراً ما أطلقت العنان للهوى والعاطفة فأفسدتا الدبلوماسية ، وأظهرت فى بعض الأحيان قدراً كبيراً من ضبط النفس والجلد واللباقة ، ثم عادت فأودت بهذا كله ، نتيجة الانفعال السريع واللسان السليط . لقد كان جمالها نقمة عليها ، ولم توهب المقدرة العقلية . وكان فى أخلاقها قضاء عليها .

وبذلت مارى جهداً مضنياً لتواجه الأخطار المتشعبة فى موقفها ، متأرجحة بين اللوردات الجشعين ، والوعاظ المعادين ، والإكليروس الكاثوليكى المتفسخ الذى لم يرع حرمة عقيدتها التى تدعو إلى الثقة فيهم . واختارت لزعامة مجلس شورى المملكة اثنين من البروتستانت : أخاها غير الشقيق، الابن غير الشرعى ، لورد جيمس ستيوارت (لورد مورى فيما بعد) . وكان فى سن السادسة والعشرين ، ووليم ميتلند لثنجتون ، وكان فى سن السادسة والثلاثين ، وكان فيه من الذكاء أكثر مما تحتمله خلقه ، وقد تحول من جانب إلى جانب . مؤثراً تسوية الأمور والحلول الوسط بين الأطراف المتنازعة ، حتى وفاته . وكان هدف سياسة لثنجتون رائعاً ممتازاً — وهو توحيد انجلترا واسكتلنده لأنه البديل الوحيد للعداء الذى يودى بالبلدين كليهما ، وفى مايو ١٥٦٢ أوفدته مارى إلى انجلترا ليرتب لقاء بينها وبين اليزابث . ووافقت اليزابث ، ولكن مجلس الشورى اعترض ، خشية أن أى تسليم مهما كان غير مباشر بحق مارى فى عرش انجلترا ، قد يشجع الكاثوليك على محاولة قتل اليزابث . وتبادلت الملكتان الرسائل فى مودة دبلوماسية ، على حين كانت كل منهما تحاور وتداور وتتحين الفرصة للانقضاض على زميلتها ، أو كانتا تلعبان معاً لعبة القط الفأر .

وفى الأعوام الثلاثة الأولى حالف التوفيق حكم مارى فى كل ناحية ، فيما عدا الدين . وعلى الرغم من أنها لم تستطع قط أن تطيب نفساً بمناخ إسكتلندة أو ثقافتها ، فإنها سعت . بحفلات الرقص والتمثيليات الممتعة والجمال ، أن تجعل من قصر هوليرود " باريس » صغيرة فى منطقة مجاورة للمنطقة المتجمدة الشمالية . وتحرر

معظم اللوردات وأطلقوا لأنفسهم العنان فى ظل مرحها وبهجتها . وتذمر نوكس وزمجر بأنهم سحروا . وفوضت الملكة مورى ولثنجتون فى تدبير شئون المملكة ، فقاما بالمهمة خير قيام . وبدا ، لبعض الوقت ، أنه حتى المشكلة الدينية قد وجدت حلا بفضل تنازلات الملكة . ولما حثها مندوبو البابا على إعادة الكاثوليكية ديناً رسمياً للبلاد ، أجابت بأن هذا مستحيل فى الوقت الراهن ، وإلا تدخلت البزابث بالقوة . ورغبة فى تهدئة خواطر البروتستانت الإسكتلنديين ، أصدرت مارى فى ٢٦ أغسطس ١٥٦١ بياناً يحرم فيه على الكاثوليك محاولة إحداث أية تغييرات فى الديانة القائمة ، ولكنها طلبت أن يرخص لها هى نفسها فى ممارسة الشعائر سراً ، وأن يقام لها القداس فى الكنيسة الملكية الخاصة[١٠] . ويوم الأحد ٢٤ أغسطس أقيم القداس هناك . وتجمع نفر قليل من البروتستانت خارجها وطالبوا « بإعدام القسيس الذى يعبد الأصنام [١١] » ، ولكن مورى حال دون دخولهم الكنيسة ، على حين اقتاد معاونوه القسيس إلى مكان آمن . . وفى يوم الأحد التالى استنكر نوكس سماح اللوردات بالقداس ، وأعلن إلى جماعة المصلين فى كنيسته أن قداسا واحداً كان أكثر إساءة إليه من عشرة آلاف عدو مسلحين[١٢] .

وأرسلت الملكة فى طلبه ؛ تستعطفه وتناشده التسامح . وفى قصرها ، فى ٤ سبتمبر ، ألتقت العقيدتان لقاء تاريخياً ، لم تصل إلينا تفاصيل ما جرى فيه إلا من تقرير نوكس نفسه[١٣] . وانتهرته مارى لإثارته الفتنة ضد سلطة أمها الشرعية ؛ ولكتابته « هجومه العنيف » ضد " جماعة النسوة الخاطئات " ، الذى أساء إلى كل السيدات اللائى تولين الملك . فأجاب " بأنه إذا كان استنكار الوثنية معناه إثارة الرعايا ضد حكامهم ، فهلا يمكن التماس العذر فيه والصفح عنه ، فإن الله قد ارتضى . . . أن أكون واحداً (من بين الكثيرين) ممن أوصدوا أبواب هذه المملكة ضد باطل العقائد البابوية وضد خداع هذا الرومانى عدو المسيح ، البابا ، وغروره وظلمه . أما الهجوم العنيف . فإنه يا سيدتى قد كتب بصفة أخص ضد المرأة الفاسقة فى انجلترا مارى تيودور . ويستطرد تقرير نوكس :

قالت الملكة : هل تظن أن الرعايا قد يقومون فى وجه حكامهم ؟

فأجاب نوكس : إذا تجاوز الحكام حدودهم ، فلا ريب فى أنهم يلقون المقاومة ، حتى ولو بالقوة .

ونهضت الملكة من مقعدها ، وقد تولتها الدهشة .. ثم قالت فى النهاية : حسنا ، إذن ، أرى أن رعاياى سوف يمتثلون لك وليس لى .

فقال نوكس : إن الله يحرم على أن آخذ على عاتقى أن آمر أحدا بطاعتى ، أو أن أترك الناس أحراراً يفعلون ما يشاءون . ولكن رسالتى أن يلتزم الأمراء والرعايا جميعهم بطاعة الله . وهذا الخضوع لله وللكنيسة المجيدة — ياسيدتى — هو اسمى منزلة يمكن أن يحظى بها الانسان على هذه الأرض .

فقالت : ولكنكم لستم الكنيسة التى سوف أرعاها وآخذ بيدها ، سوف أدافع عن كنيسة رومه ، لأنى أعتقد أنها كنيسة الله الحقة .

فقال نوكس : لن تشكل مشيئتك سببا ياسيدتى ، ولن يجعل مجرد تفكيرك أنت من هذه الفاجرة الداعرة الرومانية القرينة الحقة الطاهرة التى تحمل بلا دنس، ليسوع المسيح . . . ولا تعجبى ياسيدتى لأنى أطلق على رومه ، المومس الفاجرة ، لأن هذه الكنيسة ملوثة تلوثا تاما بكل ألوان الفجور الروحى .

فقالت : لا يحدثنى قلبى بهذا .

ولو كان هذا الحديث منقولا نقلا أمينا لكان مواجهة محزنة بين الملكية والديمقراطية اللاهوتية ، وبين الكاثوليكية والكلفنية . ولو كان لنا أن نصدق نوكس ، فإن الملكة تلقت توبيخات دون أن تقابل الأذى بمثله ، ولم ترد على أن قالت :

« لقد جاوزت الحد فى إيلامى » وانصرفت إلى العشاء ، وذهب نوكس إلى كنيسته . وناشد لثنجتون نوكس أن يعامل الملكة برفق أكثر ، لأنها أميرة يافعة لم تخضع لأى تحريض أو إغراء(١٤) .

ولم يشعر أتباعه بأنه كان قاسيا عليها . ولما ظهرت فى المحافل العامة قال بعضهم بأنها وثنية ، وصاح فيها الأطفال بأن الاستماع إلى القداس خطيئة . وأصدر حكام

ادنبره قرارا بنفى الأشخاص الأقذار (كذا) « الرهبـــان ، أعضاء الأخوات الدينية ، القساوسة الراهبات ، الزناة[١٥] » . فعزلت مارى هؤلاء الحكام وأمرت بإجراء انتخابات جديدة . وفى سترلنج طرد القساوسة الذين أرادوا أن يقيموا لها القداس والدم ينزف من رءوسهم ، « على حين انفجرت هى باكية ، حيرة وعجزا[١٦] » . واجتمعت الجمعية العامة للكنيسة الوطنية الاسكتلندية وطالبت بمنعها من حضور أى قداس فى أى مكان ، ولكن لوردات مجلس الشورى أبوا أن يستجيبوا لهذا . وفى ديسمبر ١٥٦١ قام خلاف حاد بين المجلس والكنيسة حول توزيع إيرادات الكنيسة . فخصص للقساوسة البروتستانت السدس ، وللملكة سدس آخر ، واختص رجال الدين الكاثوليك (ولا يزالون يشكلون الغالبية) بثلثى الايراد . فأوجز نوكس هذه القسمة فى قوله : أعطى للشيطان ثلثان ، وقسم الثلث الأخير بين الشيطان والرب[١٧] . وقبض الكهنة البروتستانت فى المتوسط مائة مارك (٣٣٣ر٣ شلنات ؟) سنويا[١٨].

واستمر رجال الكنيسة الوطنية ، طوال العام التالى ، يندددون بالملكة ، وقد روعتهم التمثيليات والعربدة والصخب وحفلات الرقص والمغازلات التى تجرى فى بلاط مارى ، واقتصدت الملكة فى ملاهيها ومباذلها استجابة للاحتجاجات ، ولكن القساوسة أحسوا بأن عليها أن تفعل شيئا أكثر من هذا ، لأنها ما زالت تشهد القداس . وكتب أحد المعاصرين : « أ . جون نوكس يرغى ويزبد ويدوى كالرعد من فوق المنبر ، إلى حد أنى لا أخشى شيئا أكثر من أنه يوما ما سيفسد علينا كل شىء ، إنه يسود ويتحكم ، ويخشاه الناس جميعا[١٩] » . وهنا أيضا اشتبك الاصلاح الدينى مع النهضة .

وفى ٥٥ ديسمبر ١٥٦٢ استدعت مارى نوكس ، واتهمته ، فى حضرة مورى ولثنجتون وغيرهما ، ببذر بذور الكراهية لها فى نفوس أتباعه . ويقول هو بأنه رد عليها بقوله : « إن الأمراء والحكام درجوا على اللعو واللهو وتضييع الوقت سدى أكثر منهم فى قراءة أعظم كلمات الله والاستماع إليها ، وأن العابثين واللاهين أعظم قيمة فى أعينهم من الحكماء والرجال الجادين الوقورين ، الذين قد يستطيعون

بشئ من النصح الكريم أن يستأصلوا بعض الغرور الباطل والزهو الكامن فى نفوس الناس جميعاً . ولكنها صفات تتأصل وتقوى فى نفوس الأمراء والملوك بفعل التعليم السئ » فما كان جواب الملكة — على حد قول نوكس نفسه ، إلا أن قالت (فى حلم غير معهود فيها) : « إذا سمعت عنى مايغضبك تعال وأبلغنى إياه ولسوف أصغى إليك . » فرد عليها : « أنا ياسيدتى ، مكلف برسالة عامة فى كنيسة الرب ، وعينت من قباه لأحاسب على خطايا ورذائل الناس جميعاً . ولست مكلفا بأن آتى لكل فرد على حدة لأظهره على إثمه. فهذا عمل لاينتهى . وإذا تفضلت جلالتك بحضور المواعظ العامة ، فلا يخامرنى أى شك فى أنك ستعرفين تماما ما أريد وما أبغض . »

وتركته ينصرف فى سلام ، ولكن استمر الصراع بين العقائد . وفى عيد الفصح ١٥٦٣ قبض الموظفون المحليون على عدة قساوسة كاثوليك ، كانوا قد خالفوا القانون بإقامة القداس ، وهددوهم بالموت لوثنيتهم (٢١) . وسجن بعضهم، وهرب آخرون واختفوا فى الغابات فأرسلت مارى فى طلب نوكس مرة أخرى ، وتوسطت للإفراج عن القساوسة المسجونين ، فأجابها بأنها إذا طبقت القانون ، فإنه يكفل لها انصياع البروتستانت وطاعتهم ، وإلا فإنة يعتقد أن هؤلاء البابويين كانوا جديرين بتلقينهم درسا . « فقالت : إنى أعد بتحقيق رغبتك » . ودامت صداقتهما لبعض الوقت . ويأمر منها حوكم أسقف سانت أندروز وسبعة وأربعون قسيساً آخرون لإقامتهم القداس . وحكم عليهم بالسجن . وابتهج الكهنة البروتستانت بهذا . ولكن بعد أسبوع ، (٢٦ مايو ١٥٦٣) عندما شهدت مارى ووصيفاتها البرلمان فى أبهى حلة ، وهتف بعض الناس « بارك الله ذاك الوجة الجميل » ندد هؤلاء الكهنة البروتستانت بتبرجهن وأذيال ثيابهن وماتدلى منها من حواش . وكتب نوكس : لم تشهد اسكتلنده مثيلا لهذه الأبهة البغيضة فى السيدات من قبل (٢٢) .

وترامى إلى سمع نوكس بعد ذلك بقليل أن لثنجتون كان يحاول عقد زواج بين مارى ودون كارلوس ابن فيليب الثانى ملك أسبانيا . وإحساسا منه بأن مثل هذا الزواج سيكون ضربة قاضية على البروتستانتية فى أسكتلنده ، أعلن نوكس عن رأيه بصراحة فى موعظة ألقاها على النبلاء الذين شهدوا البرلمان :

والآن أيها اللوردات ، وللقضاء على كل شيء ، أسمع عن زواج الملكة . . . واسمحوا لى أن أقول أيها اللوردات إنه حينما يعترف نبلاء اسكتلنده للسيد المسيح برضاهم عن أن يكون أحد الكفار (وكل أتباع البابا كفار) على رأس مملكتكم ، فانكم بذلك تبذلون أقصى ما فى وسعكم لإبعاد يسوع المسيح عنها(٢٣) .

وفقدت الملكة صوابها ، فاستدعته ، وسألته — كما يقرر هو نفسه : « ماشأنك بزواجى ؟ ومن أنت فى هذه الدولة ؟ » فأجاب جوابه المشهور « فرد ولد فى هذه البلاد نفسها ياسيدتى . ومع أننى لا إرل ولا لورد ولا بارون ، فى هذه الدولة ، فقد اختارنى الله (مهما كنت حقيراً فى عينيك) عضوا نافعا فيها(٢٤) » فانفجرت مارى باكية ، وأمرته بالانصراف .

وبلغت جرأة نوكس ذروتها فى اكتوبر (١٥٦٣) ذلك أنه أحاط مرة أخرى بالكنيسة الملكية الخاصة جمع من الناس احتجاجا على القداس الذى كان على وشك أن يقام . ودخل أندرو آرمسترونج وباتريك كرانزتون إلى الكنيسة وأرهبا القسيس حتى انصرف ، فأمرت الملكة التى لم تكن فى الكنيسة آنذاك ، بمحاكمة هذين الرجلين الكلفنيين بتهمة اقتحام حرمها الخاص . وفى اكتوبر أرسل نوكس كتابا يأمر فيه « الاخوة من كل الطبقات ، الذين آثروا طريق الحق » بأن يشهدوا المحاكمة . وحكم مجلس الملكة بأن هذه الدعوة خيانة عظمى ، ودعا نوكس للمثول للمحاكمة أمامها . وحضر نوكس (٢١ ديسمبر ١٥٦٣) ولكن حشدا هائلا من مؤيديه تجمع فى الفناء ، وعلى الدرجات « حتى وصل إلى باب القاعة التى جلست فيها الملكة ومجلسها » ودافع هو عن نفسه دفاعا مجيدا إلى حد أن المحكمة برأته ، وقالت الملكة « تستطيع يامستر نوكس أن تعود إلى دارك الليلة . » فأجاب هو « أدعو الله أن يطهر قلبك من رجس البابوية(٢٥) » .

وفى يوم أحد السعف ١٥٦٤ تزوج « الرسول » الذى لا يقهر ، وهو فى سن التاسعة والخمسين ، زوجته الثانية ، مرجريت ستيوارت ، التى تربطها

بالملكة ، صلة قرابة بعيدة ، وهى فى سن السابعة عشرة : وبعد سنة واحدة ، تزوجت الملكة للمرة الثانية .

٤ – الملكة تقع فى شراك الغرام ١٥٦٥ — ١٥٦٨

من ذا الذى تستطيع الملكة أن تختـاره زوجا لها ، دون أن تقع فى ورطة دبلوماسية ؟ أميرا أسبانيا ؟ . ولكن لابد أن تحتج فرنســا وانجلترا ويغضب البروتستانت فى اسكتلنده . « فرنسيا » ؟ ولكن انجلترا لابد أن تناوم ، حتى بحد السيف ، تجدد التحالف الفرنسى الاسكتلندى ، « أميرا نمسويا ، الأرشيدوق شارل » ؟ ولكن نوكس أنذر وحذر من فوق المنبر ، من الاتحاد مع « كافر » كاثوليكى ، كما أن اليزابث أخطرتها بأن الزواج من آل هبسبرج — الأعداء القدامى لآل تيودور — يعتبر عملا عدائيا .

وفى لحظ من الانفعال قطعت مارى العقدة الدبلوماسية . ففى اكتوبر ١٥٦٤ رأى ماتيو ستيوارت أنه قد آن الأوان العودة إلى اسكتلندة — وكان ماتيو ، إرل لنوكس يعتقد أنه المرشح التالى لعرش اسكتلنده بعد مارى ، وكان قد فقد كل أراضيه بمساندته هنرى الثامن ضد اسكتلندة ، وهرب إلى انجلترا تفاديا لانتقام الاسكتلنديين آنذاك . ولحق به فى اسكتلنده بعد قليل ابنه ، هنرى ستيوارت لورد دارنلى البالغ من العمر تسعة عشر عاما ، والذى هو ، عن طريق والدته ، من نســل هنرى السابع ملك انجلترا ، مثل الملكة مارى . وفتنت مارى بالشاب الأمرد وأعجبت بمهارته فى لعب النرد والعزف على العود ، وتجاوزت عن غروره ، بوصفه أمرا يلتئم مع طلعته الجميلة ، واندفعت فى الغرام قبل أن تستطيع أن تتبين فيه الغباء والحمق . وفى ٢٩ يولية ١٥٦٥ ، وعلى الرغم من احتجاج اليزابث ونصف أعضاء مجلسها الخاص ، اتخذت مارى من هــذا الفتى زوجا ، وأسمته ملكا . واستقال مورى من المجلس وانضم إلى أعداء الملكة العنيدة الجامحة .

ونعمت ، لشهور قلائل ، بالسعادة المشوبة بالمتاعب . لقد استبد بها توقها الشديد إلى الحب طيلة السنوات الأربع التى قضتها أرملة . وقد أثلج صدرها أن تجد من يرغب فيها. لقد منحت زوجها حبها بلاقيد ولا شرط ، وأغدقت عليه كل

شيء بلا حدود » ، قال توماس راندولف سفير اليزابث : « لقد أولته كل ألوان الجلال والرفعة وألقاب الشرف ، ولا ينشرح صدرها لأى رجل لا يرضى عنه الملك الفتى ، وتنازلت عن إرادتها من أجله هو(٢٦) . . » ولكن الحظ السعيد أفسد عقل الفتى . فأصبح دكتاتوراً مستبداً وقحاً وطالب بأن يشارك الملكة سلطانها : وفى نفس الوقت أقام الحفلات الصاخبة وأسرف فى الشراب ، وأبعد المجلس ، وأصابته نوبات من الحقد ، وارتاب فى أن مارى ترتكب الزنى مع دافيد رتشيو .

ومن يكون رتشيو هذا ؟ أنه موسيقار إيطالى كان قد قدم إلى إسكتلندة ١٥٦١ ، وهو فى سن الثامنة والعشرين ، فى معية السفير (من سافوى) . ولما كانت مارى مولعة بالموسيقى ، فقد ألحقته بخدمتها كمنظم للمهرجانات الموسيقية ، ولقد سعدت بفطنته وسرعة بديهته ، وتنوع ثقافته التى اكتسبها من القارة (أوربا) ؛ ولما كان يعرف الفرنسية واللاتينية معرفة جيدة ، ويكتب بلغة إيطالية جميلة ، فقد اتخذته كذلك سكرتيراً لها ، وسرعان ما عهدت إليه بإعداد مراسلاتها الأجنبية وكتابتها . وأصبح مستشاراً لها ، وبات قوة لا يستهان بها ، وأسهم فى توجيه السياسة . وجلس إلى مائدة الملكة يشاركها غذاءها ، وخلا بها أحياناً إلى ساعة متأخرة من الليل . ومذ رأى النبلاء الإسكتلنديون أن رتشيو قد نحاهم عن مكانتهم وحل محلهم ، وارتابوا فى أنه يناصر الكاثوليك ، فإنهم تآمروا على تدميره .

وكان الايطالى الداهية فى بداية الأمر قد صرلب دارنلى نفسه ، فكانا يسرحان ويمرحان معاً وينامان معاً ، ولكن على حين أن المهام المنوطة برتشيو وامتيازاته وتكريمه والحفاوة به زادت ، فإن حماقة دارنلى هبطت به إلى مستوى العجز السياسى ، فانقلب حب الملك للخادم الذى أصبح وزيراً إلى مقت وبغض . ولما حملت الملكة مارى ذهبت الظنون بالملك إلى أنها حملت بولد رتشيو . واعتقد روندولف فى صحة هذا بل إنه فى الجيل التالى أبدى هنرى كواتر ملاحظة ساخرة فقال إن جيمس الأول ملك انجلترا لا بد أن يكون « سليمان الحديث » طالما أن أباه هو دافيد العازف على القيثارة(٢٧) . وإذ لعب الويسكى يوماً برأس دارنلى ، وألهب جرأته ، انضم إلى

إرل مورتورن ، والبارون روثفن وغيرهما من النبلاء فى تدبير قتل رتشيو ، ووقعوا « عهداً » تعاهدوا فيه على تدعيم البروتستانتية فى إسكتلندة ، وعلى منح دارنلى « تاج الزواج » — أى كل حقوقه وسلطاته بوصفه ملكاً على إسكتلندة — وأن يكون له الحق فى العرش عند وفاة مارى . ووعد دارنلى بحماية الموقعين على " العهد " من نتائج "أية جريمة " قد ترتكب ؛ وبإعادة مورى وسائر اللوردات المنفيين(٢٨) .

وفى ٦ مارس ١٥٦١ كشف راندولف للورد سيسل النقاب عن المؤامرة(٢٩) . وفى ٩ مارس نفذت : واقتحم دارنلى حجرة الملكة حيث كانت تتناول العشاء مع رتشيو وليدى آرجيل ، وأمسك بالملكة واحتجزها ، واندفع مورتون وروثفن وآخرون إلى الحجرة ، واقتادوا رتشيو خارجها ، رغم احتجاجات واعتراضات لا غناء فيها من مارى ، وعلى السلم كالوا له الطعنات حتى الموت — ستا وخمسين طعنة ، إحكاماً للتدبير وضماناً للقضاء عليه ودق أحدهم ناقوس الخطر فى المدينة ، فسار حشد كبير من المواطنين المسلحين إلى القصر ، واقترحوا تمزيق مارى « إربا(٣٠) » ولكن دارنلى أقنعهم بالتفرق ، وبقيت مارى طوال الليل وطيلة اليوم التالى سجينة السفاحين فى قصر هوليرود . وفى نفس الوقت لعبت على فزع دارنلى وحبه لها ، فساعدها وصحبها ، عندما هربت فى الليلة التالية ولجأت إلى دنبار Dunbar وهناك أقسمت أن تنتقم ، فأصدرت نداء إلى مؤيديها المخلصين ، ليهبوا لنجدتها والدفاع عنها . وأعادت مورى إلى المجلس ، وربما فعلت هذا رغبة فى إشاعة الفرقة بين أعدائها .

وكان أكثر من عرضوا مساعدتها وحمايتها فعالية وأثراً جيمس هيبرن Hepburn ، إرل بوثول Bothwell الرابع . وكان شخصية غريبة سيئة الطالع ، ولم يكن وسيما ، ولكن قوى الجسم والعاطفة والإرادة . مغامراً فى البر والبحر ، يحذق الضرب بالسيف والمغول (سيف مستقيم مستدق الرأس ذو حدين) . يرهب الرجال بجرأته الهادئة ، ويفتن النساء بحديثه وتهوره واشتهاره بالقدرة على إغوائهن . ولكنه كان كذلك على درجة عالية من التعليم ، ومحباً للكتب ، ومؤلفاً ، فى وقت لم يكن فيه كثير من النبلاء الإسكتلنديين يعرفون كتابة أسمائهم . وكرهته الملكة أول الأمر ،

لأنه أساء إليها في أحاديثه ، ولكن هذه طريقة في كسب اهتمام المرأة . ولما عرفت صفاته العسكرية عينته قائداً للحدود ، ولما سمعت بدرايته بالسفن والملاحة عينته أمير الأسطول ، ولما علمت برغبته في الزواج من ليدى جين جوردون عجلت بإتمام الزواج .

وكانت الآن تخشى قتلة رتشيو وترتاب في اشتراك زوجها في جريمتهم . ومن ثم ولت شطر بوثول تسأله الحماية والنصح . ولم تندفع مارى إلى هذا الرجل على عجل ، بل إن صفات الرجولة فيه : الشجاعة والحيوية والقوة والثقة بالنفس ، كانت هي الصفات التي تصبو إليها طبيعتها الأنثوية ، ولم تجدها في فرنسوا الثاني أو دارنلى . وقد لحظت كيف أن الاحترام لسيفه ولجنوده أدى بالمتآمرين إلى الاختفاء أو الخضوع ، وسرعان ما أحست بالأمان والاطمئنان إلى حد العودة إلى قصر هوليرود ، وعلى الرغم من أن نوكس كان قد أقر قتل رتشيو ، فإن مارى هدأت من روع القساوسة البروتستانت لبعض الوقت بوضع شروط أفضل لأرزاقهم والإبقاء عليهم . أما عامة الاسكتلنديين الذين لم يكونوا في يوم من الأيام يكنون ذرة من الحب للوردات ، فإنهم تعاطفوا معها ، وتمتعت الملكة لعدة أشهر بعد ذلك بشعبية عامة : وكتب السفير الفرنسي يقول : « لم أر الملكة قط تحظى بمثل هذا الحب والتقدير والتكريم ، أو بمثل هذه الألفة بين رعاياها[٣١] . » على أنها عندما اقترب موعد الوضع ، انتابتها الهواجس واستبدت بها فكرة أنها لا بد أن تقتل أو تخلع ، وهي راقدة لا حول لها ولا قوة ولا عون[٣٢] . ولما وضعت ، في سلام وأمان ، طفلا ذكراً في ١٩ يونيـة ١٥٦٦ ابتهجت إسكتلندة بأسرها ، وكأنها تنبأت بأن هذا الصبي سيكون ملكاً على إسكتلندة وانجلترا معاً . وكانت مارى في أوجها .

ولكنها كانت تعسة بدارنلى الذى استاء من تجديد ثقتها بمورى ، ومن إعجابها المتزايد ببوثول . وتناثرت الإشاعات بأنه قد يخطف الطفل الملكي ويحكم باسمه[٣٣] . واتهم دارنلى النبلاء بقتل رتشيو ، وطالب براءته هو . فما كان منهم ، انتقاماً منه ، إلا أن بعثوا إلى الملكة بدليل اشتراكه في الجريمة[٣٤] . واقترح آرجيل ولثنجتون وبوثول على الملكة أن تطلقه ، فاعترضت بأن هذا قد يعرض العرش للخطر ،

فأجاب لثنجتون على هذا بأنه من الميسور إيجاد طريقة لتخليصها من دارنلى دون الإضرار بابنها فلم توافق وعرضت أنهـا تفضل الخروج من إسكتلندة ، وترك الحكم لدارنلى ، وأنهت الحديث بقولها : محذرة ، أريد منكم ألا تفعلوا شيئاً يلوث شرفى أو ضميرى ، ولذلك أتوسل إليكم أن تتركوا الأمور كما هى ، وأن نحتمل حتى يقضى الله فيها برحمتـه[٣٥] » . وكم من مرة تحدثت آنذاك عن الانتحار[٣٦] .

وفى أكتوبر ١٥٦٦ ، أو نحو ذلك . وقع آجريل وسير جيمس بلفور وبوثول ، وربما كان معهم لثنجتون ، على ميثاق بالتخلص من دارنلى . وترامى إلى مسامع إرل لينوكس نبأ هذه المؤامرة ، وحذر ابنه دارنلى الذى كان يعيش بعيداً عن مارى ، مع والده فى جلاسجو (ديسمبر ١٥٦٦) . وهناك مرض دارنلى ، وكان من الواضح أنه مريض بالجدرى ، رغم انتشار إشاعة بأنه مسموم . وفى الوقت نفسه حامت الشبهات حول مارى وعلاقتها الآثمة مع بوثول ، نتيجة لنمو المودة والألفة بينهما . ونعتها نوكس صراحة بأنها بغى عاهرة[٣٧] . ويبدو أنها اتصلت برئيس الأساقفة هملتون لاتخاذ الترتيبات لطلاق بوثول من زوجته . وعرضت على دارنلى أن تزوره ، ولكنه بعث إليها برد ملؤه التقريع والإهانة . وعلى الرغم من هذا ذهبت إليه (١٢ يناير ١٥٦٧) وأكدت إخلاصها له ، وأيقظت فيه من جديد حبه لها ، وتوسلت إليه أن يعود إلى إدنبره ، حيث وعدت أن ترعاه وتعيد إليه موفور الصحة والسعادة .

وهنا تدخل الرسائل المعروفـة باسم « رسائل الصندوق الفضى » إلى مسرح الحوادث لتكمل المشهد . وتتوقف بقية القصة إلى حد ما على صحة تلك الرسائل ، وهذه قضية لا تزال بعد مضى أربعمائة سنة مثار خلاف ومناقشة . وزعموا أن تلك الرسائل وجدت فى صندوق صغير من الفضة كانت مارى قد أهدته إلى بوثول ، ثم استولى عليه ، فى ٢٠ يونية ١٥٦٧ ، من أحد خدم بوثول ، بعض وكلاء النبلاء الذين كانوا يسعون آنذاك إلى خلع الملكة . وفتح الصندوق فى اليوم التالى بمعرفة مورتون ولثنجتون وغيرهم من أعضاء المجلس الخاص : وسرعان ما عرضت

بعد ذلك على برلمان إسكتلندة ، ثم أخيراً على اللجنة الإنجليزية التي تولت محاكمة ماري في ١٥٦٨ . وكانت عبارة عن ثمانية خطابات وبعض شذرات متناثرة من قصائد شعرية ، وكلها بالفرنسية ، غير موجهة لأحد ، ولا تحمل تاريخاً ، ولكنهم زعموا أنها من ماري إلى بوثول . وأقسم اللوردات أعضاء المجلس أمام البرلمان أن الرسائل صحيحة ، ولم يحدث فيها أي تلاعب ، ولكن ماري ادعت أنها مزيفة . والظاهر أن ابنها اعتبرها «حقيقة ، لأنه أتلفها[٣٨] ، ولم يبق إلا صور منها» . ولما أطلع ملوك القارة على هذه الصور تصرفوا وكأنما وثقوا من صحتها[٣٩] . وارتابت اليزابث أول الأمر في صحتها ، ثم عادت فسلمت بها في شيء من التردد ، وأول ما يتبادر إلى الذهن عند قراءة الرسائل ، هو الارتياب في أن امرأة تتوسط في قتل زوجها ثم تفصح في طيش وإسهاب بالغين عن مقاصدها في رسائل تعهد بها إلى رسل يمكن أن يعترض أحد سبيلهم أو يرشوهم ، ثم أنه يبدو من المستحيل أن يحتفظ بوثول بمثل هذه الرسائل التي تدينه وتورطه في جريمة . ثم من غير المحتمل بنفس القدر أن يوجد في اسكتلندة أحد حتى الداهية لثنجتون نفسه (المشتبه فيه بصفة خاصة) كان في مقدوره أن يزيف أي جزء هام من هذه الرسائل في سحابة اليوم الذي مضى بين الاستيلاء على الصندوق وعرض الرسائل على المجلس أو البرلمان . والرسالة الثانية التي تحمل أكبر إدانة ، مطولة بشكل غريب . وتقع في عشر صفحات بالمطبعة . ولو كانت مزيفة ، لكانت أكبر عملية تزييف غير عادية ، لأن محتواها العاطفي يبدو متطابقاً مع طبيعة ماري ، قدر تطابق الكتابة مع خط ماري . وإنها لتمثل ماري شريكة ضالعة في قتل دارنلي ، مترددة تملؤها الحسرة والأسى ، وتشعر بالعار والخجل من أجل ذلك(*) .

وسمح الملك العليل المتخوف الواثق بأن ينقل عبر اسكتلنده في محفة ليقيم في بيت

(*) يميل النقاد إلى القول بأن الرسائل حقيقية في معظمها مع بعض التحريف . وذهب لورد أكتون وهو رجل خبير كاثوليكي أمين ، إلى أن أولها من هذه الرسائل حقيقية (٤٠) ؛ وأن الرسالة الثانية مزيفة ويمكن قراءة هذه الرسائل في كتاب أندرو لانج Mystery of Mary Stuart ؛ ص ٢٩١ — ٤١٤ .

قسيس «كيرك أو فيلد» القديم فى ضواحى أدنبره ، وفسرت مارى عدم نداءه فوراً إلى قصر هوليرود بأنها خشيت انتقال العدوى إلى طفلهما . وهناك رقد لمدة أسبوعين ، حيث كانت مارى تزوره يومياً . وثابرت على تمريضه والعناية به حتى استرد صحته ؛ وكتب إلى والده (٧ فبراير ١٥٦٧) « . . . . إن صحتى الجيدة هى . . . . النتيجة السريعة لحسن رعاية . . . . الملكة التى أؤكد لكم أنها كانت طيبة طيلة هذه المدة ، ولا تزال ، تسهر على العناية بى ، على أنها الزوجة الطبيعية المحبة . ومع ذلك لا زلت آمل أن يمن الله علينا بما يدخل الفرح على قلوبنا التى أضنتها المتاعب طويلا[٤١] » . ولماذا كانت تقوم على تمريضه والعناية به طيلة أسابيع مملة إذا كانت تعلم أنه كان سيقتل حتما ؟ « إن هذا جزء من السر الكامن وراء مارى استيوارت . وفى مساء ٩ فبراير تركته لتشهد حفل زفاف إحدى وصيفاتها فى هوليرود » وفى تلك الليلة حدث انفجار فى بيت كيرك أوفيلد » وفى الصباح وجد دارنلى ميتاً فى الحديقة .

وسلكت مارى فى أول الأمر مسلك المرأة البريئة . فحزنت وولولت وأقسمت أن تثأر . وأمرت أن تجلل غرفتها بالسواد وأن يحجب عنها الضوء ، وبقيت تعانى الظلام والوحدة . وأمرت بالتحقيق القضائى فى الحادث ، وأعلنت عن جائزة من المال والأرض لمن يدلى بأية معلومات تؤدى إلى القبض على الجناة . ولما ظهرت الإعلانات على الجدران فى المدينة تتهم بوثول بالقتل ، وكان بعضها يورط الملكة فى الحادث ، صدر بيان يهيب بموجهى الاتهام أن يتقدموا بأدلتهم ، ويعد بحماية المبلغين ومكافأتهم ، ورفض واضعو الإعلانات أن يظهروا ، ولكن إرل لنوكس حث الملكة على تقديم بوثول للمحاكمة على الفور . وأيد بوثول هذا المطلب ، وفى ١٢ أبريل مثل أمام المحققين . ولكن لنوكس لم يبرح جلاسجو ، لأنه كان يعوزه دليل الاتهام ، أو أنه كان يخشى جنود بوثول فى العاصمة . وانتهى التحقيق إلى تبرئة بوثول ، وأعلن البرلمان براءته رسمياً . وفى ١٩ أبريل أقنع آرجيل وهنتلى ومورتون واثنى عشر نبيلا آخرين بتوقيع « عهد آنسلى » يثبتون فيه ثقتهم ببراءته ، ويتعهدون بالدفاع عنه ، ويوافقون على زواجه من مارى التى أولت بوثول آنذاك عطفها وحبها علانية ، وزادت على ما كانت قد أغدقت عليه من هدايا ثمينة .

وفى ٢٣ أبريل زارت ابنها فى سترلنج ، وقد قدر لها ألا تراه بعد اليوم أبداً . وفى طريق عودتها إلى دبلن مع لثنجتون كمن لها بوثول وجنوده وهاجموها وحملوها بالقوة إلى دنبار (٤ أبريل) . واحتج لثنجتون وهدده بوثول بالقتل . ولكن مارى أنقذته وأطلق سراحه ، وانضم بعد ذلك إلى أعداء الملكة . وفى دنبار استؤنفت المفاوضات لطلاق بوثول . وفى ٣ مايو عادت مارى وبوثول إلى أدنبره ، وأعلنت أنها طليقة من كل قيد ، وفى ٧ مايو منح بوثول الطلاق . وفى ١٥ مايو ، حين رفض قسيسها الكاثوليكى تزويجهما (هى وبوثول) ، تزوجا وفق الطقوس البروتستانتية ، أمام أسقف أوركنى الذى كان فيما مضى كاثوليكياً . وانقلبت ضدها ، بوصفها نفساً هالكة ، أوربا الكاثوليكية التى كانت يوماً تناصرها . ونأى عنها رجال الدين الكاثوليك ، ونادى القساوسة البروتستانت بخلعها . ووقف الأهالى منها موقفاً عدائياً . أما الأقلية التى تعاطفت معها فقد عزت غرامها الطائش إلى جرعة حب أعطاها إياها بوثول .

وفى ١٠ يونية أحاطت عصابة مسلحة بقصر بورثوك Borthwick حيث كانت تقيم مارى وبوثول ، فهرب الاثنان ، وكانت مارى فى ثياب رجل . وفى دنبار جمع بوثول ألف رجل ، سعت مارى وبوثول بهم أن يشقوا طريقهم عائدين عنوة إلى أدنبره : فاعترضهما فى كاريرى هل (١٥ يونية) قوة مماثلة ترفع راية نقش عليها صورة دارنلى الميت وصورة الطفل جيمس السادس . وعرض بوثول تسوية الموضوع بالنزال الفردى ، ولكن مارى رفضت أن تسمح له بذلك . وارتضت أن تستسلم إذا سمح لبوثول بالهرب . وادعت فيما بعد أن زعماء الثوار كانوا قد وعدوها بالولاء لها إذا لحقت بهم دون قتال[٤١] . ولاذ بوثول بالفرار إلى الشاطىء واتخذ طريقه إلى الدنمرك . وهناك بعد عشر سنوات قضاها فى السجن بأمر ملك الدنمرك قضى بوثول نحبه وهو فى سن الثانية والأربعين (١٥٧٨) .

ورافقت مارى معتقليها إلى أدنبره وسط صيحات الجنود والأهالى . « أحرقوا العاهرة اقتلوها أغرقوها[٤٢] » واحتجزت تحت الحراسة فى دار رئيس البلدية وهناك ، تحت نافذتها التى ظهرت منها شعثاء الشعر نصف عارية ، استمرت

الخضوع تهددها بأقذع العبارات . وفى ١٧ يونية ، رغم احتجاجاتها واعتراضاتها الشديدة نقلت إلى سجن سحيق وأكثر أمناً ، فى جزيرة فى بحيرة لوك ليفن ، على بعد نحو ثلاثين ميلا إلى الشمال من العاصمة . وهناك طبقاً لما رواه سكرتيرها كلود وضعت توأمين قبل الأوان(٤٤) . وأرسلت ملتمساً إلى الحكومة الفرنسية ولكنها رفضت التدخل ، وأصدرت اليزابث تعليمات إلى مبعوثها بالوعد بحماية مارى ، وتهديد النبلاء بأشد العقاب إذا مسوا الملكة بأى أذى ، ودعا نوكس إلى إعدام مارى ، وأنذر بأن الله سوف يرسل إلى إسكتلندة بطاعون فظيع إذا أبقت على حياة مارى(٤٥) . وفى يونية أعاد اللوردات « رسائل الصندوق الفضى » ، وتوسلت مارى إلى البرلمان أن يستمع إليها ، (إلى مارى) ، ولكنه رفض على أساس أن الرسائل أوضحت قضيتها بما فيه الكفاية . وفى ٢٤ يولية وقعت وثيقة تخليها عن العرش ، وعين مورى وصياً على ابنها .

وبقيت لنحو أحد عشر شهراً أسيرة فى قصر لوك ليفن ، وخففت قيود السجن تدريجياً فتناولت الطعام مع أسرة وليم دوجلاس صاحب القصر ، ووقع أخوه الأصغر جورج فى غرامها ، وساعدها على الهرب (٢٥ مارس ١٥٦٨) واعتقلت ، ولكنها فى ٢ مايو عاودت المحاولة وأفلحت . ووصلت تحت حماية دوجلاس الصغير ، إلى داخل البلاد حيث التقت بجماعة من الكاثوليك ، وركبت فى ظلام الليل إلى لسان فورث ، وعبرته ، وآوت إلى بيت آل هملتون ، وهناك فى بحر خمسة أيام ، تجمع ستة آلاف رجل ، وأقسموا أن يعيدوهـــا إلى العرش ، ولكن مورى دعا البروتستانت فى إسكتلندة إلى حمل السلاح . والتقى الجمعان فى لانجسيد بالقرب من جلاسجو (١٣ مايو) ، ودحر جيش مارى السيء التنظيم . وهربت مرة أخرى ، وجدت السير على ظهر جوادها فى تهوّر ، ثلاث ليال سوياً ، إلى دندرينان أبى على خليج سولواى . وآنذاك أعادت إلى مانحها ، الماسة التى كانت اليزابث يوماً قد أهدتها إلى « أختها العزيزة » ، مع رسالة تقول « إنى أعيد تلك الجوهرة إلى ملكتها ، وكانت رمزاً لصداقة ومعونة موعودتين(٤٦) » . وفى ١٦ مايو ١٥٦٨ عبرت خليج

سولواى فى قارب مكشوف لصيد السمك ، ودخلت إنجلترا ، ووضعت مصيرها بين يدى غريمتها .

5 — التكفير ١٥٦٨ — ١٥٨٧

ومن مدينة كارليل Carlisle (فى شمال غرب إنجلترا) أرسلت مارى رسالة ثانية إلى اليزابث تطلب مقابلتها لتشرح لها موقفها وسلوكها . وكانت اليزابث من حيث المبدأ تناهض مساعدة الثوار ضد أى حاكم شرعى . ومن ثم مالت إلى دعوة مارى لمقابلتها . ولكن مجلس شورى الملكة أوقعها فى حيرة وارتباك بما ساق لها من تحذيرات : فلو أن مارى سمح لها بالذهاب إلى فرنسا ، لأغريت الحكومة الفرنسية بارسال جيش إلى اسكتلنده لإعادة مارى إلى العرش . ولإعادة اسكتلنده حليفة كاثوليكية لفرنسا وشوكة فى ظهر انجلترا . وعند ذلك تساند فرنسا دعوى مارى فى عرش انجلترا بقوة السلاح . كما يساندها الكاثوليك الانجليز . ولو بقيت مارى حرة طليقة فى انجلترا فمن الممكن أن تكون مصدر بؤرة ميسورة الثورة الكاثوليك ، وانجلترا لاتزال فى أعماق قلبها كاثوليكية فى الكثير الغالب . وإذا أرغمت انجلترا النبلاء الاسكتلنديين على إعادة مليكتهم إلى عرشها فإن حياة هؤلاء النبلاء تتعرض للخطر . كما تفقد انجلترا حلفاءها البروتستانت فى اسكتلنده ؛ وربما اتفق سيسل مع هللام فى الرأى القائل بأن احتجاز ملكة الاسكتلنديين أو تقييد حريتها قسرا ، إنما هو خرق لكل قانون ، طبيعى أو عام أو محلى(٤٧) . ولكنه أحس بأن مسئوليته التى تطغى على كل ماعداها ، هى حماية انجلترا .

ولما كان من إحدى مهام الدبلوماسية أن تخلع على الواقعية ثوب الأخلاقية ، فقد أبلغت مارى أنه ينبغى عليها قبل الاستجابة إلى طلبها فى اللقاء مع الملكة اليزابث ، أن تبرىء نفسها من عدة اتهامات أمام لجنة تحقيق . فأجابت مارى بأنها ملكة ، ولا يمكن أن تحاكم أمام مندوبين عاديين ، وبخاصة من بلد آخر . وطلبت أن تكون لها حرية العودة إلى اسكتلنده أو الذهاب إلى فرنسا . كما طلبت أن تلتقى بمورتون ولثنجتون فى حضرة اليزابث . ووعدت باثبات إدانتهما فى قتل دارنلى . وفى ١٣ يولية ١٥٦٨ أمر المجلس الانجليزى بنقلها من كارليل (لقربها الشديد من

الحدود) إلى قصر بولتون بالقرب من يورك . وهناك خضعت ماري للسجن البسيط بناء على وعد اليزابث : « ضعي نفسك بين يدي دون تحفظ ، ولن ألقي بالا إلى أي شيء يسيء إليك . وسيكون شرفك في مأمن من أي خدش . ولسوف تعادين إلى عرشك(٤٨) » . ولما هدأت اليزابث من روع ماري بهذا الشكل ، وافقت الأخيرة على تعيين ممثلين لها في لجنة للتحقيق ؛ وحاولت أن ترضي اليزابث بادعائها قبول المذهب الانجليكاني ، ولكنها أكدت لفيليب ملك أسبانيا أنها لن تتخلى عن قضية الكاثوليك(٤٩). ومن ذلك الوقت باتت ماري واليزابث فرسي رهان في سباق للنفاق ، الأولى تلتمس لنفسها العذر بأنها سجين ملكي خانوه وغدروا به ، والثانية بأنها ملكة تكتنفها المخاطر .

واجتمعت لجنة التحقيق في يورك في اكتوبر ١٥٦٨ . ومثل ماري فيها سبعة أشخاص أهمهم جون ازلي أسقف روس الكاثوليكي ، ولورد هريز Herries من إقليم المستنقعات الغربية في اسكتلنده ، وهو كاثوليكي أيضا ، وعينت اليزابث ثلاثة من البروتستانت . هم دوق نورفولك ، وارل سسكس ، وسير رالف سادلر . ومثل أمام اللجنة موري وومورتون وليثنجتون الذين عرضوا « رسائل الصندوق الفضي » على الأعضاء الانجليز سرا . وقالوا إنه إذا أقرت ماري أن يكون موري وصيا على العرش ، وقبلت أن تعيش في انجلترا على راتب تقاعد كبير تدفعه لها اسكتلنده ، فلن تذاع الرسائل . ولكن نورفولك — الذي كان يحلم بالزواج من ماري ، ومن ثم يصبح ملكا على انجلترا بعد وفاة اليزابث ، رفض هذا العرض . أما سسكس فقد كتب إلى اليزابث بأنه يبدو من المرجح أن تكسب ماري قضيتها(٥٠) .

وأمرت اليزابث بأن تنتقل المحاكمة إلى وستمنستر . وهناك وضع موري الرسائل أمام المجلس ؛ وانقسم الرأي حول حجية الوثائق ؛ ولكن اليزابث قضت بأنها لن تستقبل ماري قبل أن تثبت عدم صحتها . وطلبت ماري أن تطلع على الرسائل الأصلية أو صورها ولكن اللجنة رفضت هذا الطلب ؛ ولم تطلع ماري قط على أصل الرسائل أو صورها(٥١) . وفي ١١ يناير ١٥٦٩ انفضت اللجنة دون أن تصدر قرارا . واستقبلت اليزابث موري ثم أعيد إلى اسكتلنده ومعه الرسائل . ونقلت

مارى — وهى غاضبة متحدية إلى سجن أشـــد قيودا فى تتبرى Tutbury على نهر ترنت ، واحتجت الحكومات الأجنبية ، ولـكن اليزابث أجابت بأنهم لو اطلعوا على الأدلة التى قدمت إلى اللجنة لاعتبروا معاملتها لمارى لينة هينة . لا قاسية(٥٢) . وأشار السفير الأسبانى على فيليب بغـــزو انجلترا ووعده بمعاونة شمال انجلترا الكاثوليكى له ، ولـكن فيليب تشكك فى مثل هذه المعاونة ، كما أنذره دوق ألفا بأن اليزابث قد تأمر بقتل مارى عند أول بادرة للغزو أو الثورة .

وقامت الثورة . فى ١٤ نوفمبر ١٥٦٩ قاد ارل نورثمبرلند وارل وستمورلند جيشا قوامه ٥٫٧٠٠ من الثوار إلى درهام ، وأطاحوا بمكتب الطائفة الانجليكانية وأحرقوا كتاب الصلوات العامة ، واستردوا المذبح الكاثوليكى ، واستمعوا إلى القداس ، ودبروا هجوما على تتبرى لاطلاق سراح مارى ، ولـكن اليزابث فوتت عليهم الفرصة بنقـــل مارى إلى كوفنترى فى ٢٣ نوفمبر ١٥٦٩ . وعجل ارل سسكس على رأس جيش معظمه من الكاثوليك ، باخماد الثورة . وأمرت اليزابث « بشنق المقبوض عليهم من المتمردين وأتباعهم المتواطئين معهم ، وألا تنقل جثثهم بل تظل فى أماكنها حتى تتساقط اربا(٥٣) » . وبهذا أمكن التخلص من نحو ستمائة رجل وصودرت أملاكهم للتاج ، وفر نورثمبرلند ووستمورلند إلى اسكتلنده . وفى فبراير ١٥٧٠ قاد ليونارد داكريس ثورة أخرى من الكاثوليك . ولـكنه هزم أيضا ، وهرب عبر الحدود .

وفى يناير ١٥٧٠ كتب نوكس إلى سيسل يشير عليه باصدار أمره بقتل مارى فورا ، « فانك إذا لم تستأصل الجذور عادت الأغصان التى تبدو ذابلة متكسرة إلى النمو والازدهار(٥٤) » ، وكان قد فرغ آنذاك من كتابه « تاريخ الاصلاح الدينى فى مملكة اسكتلنده » — وهو كتاب لا يدعى عدم التحيز : قصصى غير دقيق ، ولـكنه مفعم بالحيوية زاخر بالمعلومات عن سير الأفراد ، ذو أسلوب طريف فردى لاذع لأنه صادر عن واعظ لا يخشى فى الحق لومة لائم ، يصارح كلا بما فيه دون مواربة . وهو رجل موجع قاس ولـكنه عظيم ، حقق حلمه فى القوة والسيطرة أكثر مما فعل كلفن ،

وكان يبغض من كل قلبه ، ويناضل فى بسالة وجرأة ، ويستنفد آخر خفقة من الطاقة الجبارة إلى حد لا يصدق لارادته الحديدية . وما جاء عام ١٥٧٢ حتى كان قد استنزف قوته ، فلم يعد يستطيع المشى — إلا إذا أعانه عليه أحد . ولكنه كان يلوذ بمن يأخذ بيده يوم الأحد حتى يصل إلى المنبر فى كنيسة سانت جيلز St. Giles وألقى آخر موعظة له فى ٩ نوفمبر ١٥٧٢ ، ورافقه كل شعب الكنيسة إلى مسكنه ، ووافاه الأجل فى ٢٤ نوفمبر ، وهو فى السابعة والستين من العمر ، فقيرا كيوم ولدته أمه . « انه لم يتجر بكلمة الرب » وترك للأعقاب أن تحكم عليه . لن يدرك هذا العهد الجحود ماذا كان بالنسبة لبلدى ، ومع ذلك فإن الأجيال القادمة سوف تضطر أن تكون شواهد عدل على الحقيقة . (٥٥) إن قلة من الناس هى التى أثرت تأثيرا حاسما فى معتقدات الشعب ، وإن قلة من أهل عصره ضارعته فى تشجيعه للتعليم وفى التعصب وفى ضبط النفس . ولقد اقتسم نوكس ومارى روح اسكتلنده ، وكان هو يمثل الاصلاح الدينى ، وهى تمثل عصر النهضة ، واندحرت مارى لأنها — شأنها شأن البزابث — لم تعرف كيف تزاوج بينهما :

وحاولت مارى — مثل نمر قلق هائج حبيس — كل إمكانات الهرب ووسائله . وفى ١٥٧١ قام روبرتودى ريدولفى ، وهو فلورنسى من أصحاب المصارف ذوى النشاط فى لندن — قام بدور الوساطة بين مارى والسفير الأسبانى ، وأسقف روس ، ودوق ألفا ، وفيليب ملك أسبانيا ، والبابا بيوس الخامس . واقترح أن يرسل ألفا على انجلترا قوات أسبانية من الأراضى الوطيئة ، وأن تغزو انجلترا فى نفس الوقت قوة كاثوليكية من اسكتلنده ، وأن تخلع البزابث عن العرش ، وتنصب مارى ملكة على انجلترا واسكتلنده ، وأن يتزوجها نورفولك بهذه الخطة ، فلم يوافق عليها موافقة صريحة ، ولم يكشف عنها لأحد . وأقرتها مارى بصفة مؤقتة .(٥٦) ودفع البابا لريدولفى بعض المال على ذمة المشروع ، ووعد بأن يوصى فيليب بقبوله ، ولكن فيليب علق رأيه على موافقة ألفا الذى دمغ المشروع بالسخافة والحمق ، على أنه مشروع خيالى ، وأنه لن ينتهى الا بكارثة على أصدقاء مارى . وضبطت رسائل ريدولفى ونورفولك لدى من قبض عليهم من خدم مارى والدوق . وأودع السجن

نورفولك وروس وعدد من النبلاء الكاثوليك . وحوكم نورفولك بتهمة الخيانة ، وصدر الحكم عليه . وترددت أليزابث فى التصديق على حكم الإعدام على مثل هذا النبيل البارز العظيم . ولكن سيسل والبرلمان الانجليزى وأقطاب الكنيسة الانجليكانية ، طالبوا بإعدام نورفولك ومارى كليهما . واتخذت اليزابث حلا وسطا فأرسلت نور فولك إلى السجن (٢ يونية ١٥٧٢) . ولما ترامت إلى انجلترا أنباء مذبحة سانت برثلميو (٢٢ أغسطس) تعالت الصيحات من جديد ، للمطالبة بإعدام مارى [٥٨] . ولكن اليزابث أصرت على الرفض .

ولن نستطيع أن ندرك مدى يأس مارى ومدى شعورها بفداحة الذنب ألا إذا تذكرنا أنها قضت فى الأسر قرابة تسعة عشر عاما . وكان مكان احتجازها يتغير ، باستمرار ، مخافة أن العطف الذى يشعر به نحوها أهالى البلاد المجاورة أو سجانوها ، يأتى بمؤامرات أخرى أو يغرى بها ، وكانت شروط احتجازها تتسم بالروح الانسانية ، حيث سمح لها بتسلم معاشها — الفرنسى — ١٢٠٠ جنيه سنويا — وأعطتها الحكومة الانجليزية مبلغاً محترما للطعام والعلاج الطبى والخدم ووسائل الترفيه وسمح لها بحضور القداس وغيره من الصلوات الكاثوليكية ، وحاولت أن تشغل الساعات الطوال بالتطريز والقراءة ، وفلاحة البستان واللعب مع كلابها المدللة ولما تلاشت آمالها فى الحرية ، فقدت حرصها على العناية بنفسها ، ولم تتريض إلا قليلا . وأصبحت مترهلة بدينة ، وأصيبت بالروماتيزم ، وتورمت رجلاها فى بعض الأحيان إلى حد لا تستطيع معه المشى . وفى ١٥٧٧ ، وهى بنت الخمسة والثلاثين عاما فقط ، ابيض شعرها فغطته بشعر مستعار .

وعرضت ، فى يونية ١٥٨٣ ، أن تنزل عن أى حق لها فى تاج إنجلترا ، إذا أطلق سراحها ، وألا تتصل بمتآمرين قط ، وأن تعيش فى أى مكان فى إنجلترا تختاره اليزابث ، وألا تبتعد عن مقر إقامتها بأكثر من عشرة أميال . وأن تخضع لرقابة جيرانها واشرافهم . ولكن أشير على اليزابث بألا تثق فيها .

واستأنفت مارى مشروعات الهرب ، وبعدة وسائل يائسة متنوعة سعت إلى الاتصال

بسفيرى فرنسا وأسبانيا وحكومتيهما . وبأنصارها فى اسكتلنده وبممثلى البابا . وكانت الرسائل تهرب منها وإليها فى ثياب الغسيل وفى الكتب ، وفى العصى ، وفى الشعر المستعار ، وفى بطانة الأحذية . ولكن جواسيس سيسل وولسنهام كشفوا عن كل وأمرة فى حينها . وحتى بين الطلبة والقساوسة فى كلية الجزويت فى ريمس ، كان لولسنهام عملاء ووكلاء يبلغونه بكل شىء .

ولكن الهالة الرومانسية التى أحاطت بمارى الأسيرة حركت الشفقة والعطف فى قلوب كثير من الشبان الانجليز ، كما ألهبت حماسة الشبان الكاثوليك . وفى ١٥٨٣ دبر فرانسيس ثروكمورتون ، وهو كاثوليكى ، وابن أخت المغفور له سفير اليزابث لدى فرنسا ، دبر مؤامرة أخرى لإطلاق سراح مارى ، ولكن سرعان ما كشف أمره وعذب حتى اعترف . وصرخ مولولا : « لقد كتمت كل أسرارها ، تلك التى كانت أعز ما لدى فى هذه الدنيا بأسرها[٥٩] » . ومات بضربة من فأس الجلاد وهو فى سن الثلاثين .

وبعد ذلك بعام واحد ، أقنع وليم بارى parry ، وهو أحد الجواسيس الذين يعملون فى خدمة سيسل ، أقنع القاصد الرسولى فى باريس ، بأن يقدم إلى جريجورى الثالث عشر طلبا بالغفران التام ، على أساس أنه سوف يقدم على محاولة خطيرة لإطلاق سراح مارى ستيوارت وإعادة انجلترا إلى حظيرة الكاثوليكية . ورد وزير البابا (٣٠ يناير ١٥٨٤) بأن قداسته اطلع على التماس بارى ، وابتهج لما اعتزم القيام به ، وأنه سيرسل إليه الغفران المطلوب ، ويكافئه على جهوده[٦٠] . وحمل بارى هذا الرد إلى سيسل . واتهم جاسوس انجليزى آخر — يدعى ادموند نفيل — اتهم بارى بتحريضه على قتل اليزابث . وقبض على بارى ، واعترف ، فشنق ، ومزقت أوصاله[٦١] ، وهو لا يزال ينبض بالحياة .

ولما اشتد غضب مجلس الملكة اليزابث بهذه السلسلة الطويلة من المؤامرات ، وجزع وفزع لمقتل وليم أورانج ، صاغ « التعهد بالتكاتف والترابط » ، يتعهد الموقعون عليه بألا يرتضوا قط خلفا لمليكتهم ، أى شخص جرت لمصلحته أية محاولة للقضاء على اليزابث ، وأن يعذبوا حتى الموت أى فرد اشترك فى مثل هذه

المحاولة . ووقع هذا التعهد كل أعضاء المجلس ومعظم أعضاء البرلمان ، كما وقعه ذوو المكانة فى طول انجلترا وعرضها ؛ وبعد سنة أسبغ البرلمان على هذه الوثيقة صفة القانون النافذ المفعول أو المعمول به .

ولكن هذا لم يحل دون مزيد من المؤامرات . ففى ١٥٨٦ أغرى جون بللارد وهو قسيس كاثوليكى رومانى ، أنتونى بابنجتون ، وهو شاب ثرى كاثوليكى ، أغراه بتدبير مؤامرة لقتل اليزابث وغزو انجلترا بجيوش من فرنسا وأسبانيا والأراضى المنخفضة ، وتنصيب مارى على العرش . وكتب بابنجتون إلى مارى بهذا ، وأبلغها أن ستة من النبلاء الكاثوليك اتفقوا على التخلص من مغتصبة العرش ، وسألها إقرارا للخطة . وفى خطاب مؤرخ فى ١٧ يولية ١٥٨٦ قبلت مارى مقترحات بابنجتون ، ولم توافق موافقة صريحة على قتل اليزابث ، ولكنها وعدت بالمكافأة عند نجاح المشروع (٦٢) . وكان الرسول الذى عهد إليه سكرتيرها بحمل هذا الرد عميلا سريا لولسنهام . فأخذ صورة من الرسالة وأرسلها إلى ولسنهام ، وأرسل أصل الرسالة إلى بابنجتون . وفى ١٤ أغسطس قبض على بابنجتون وبللارد ، وبعد ذلك بقليل أودع السجن نحو ثلثمائة من أبرز الكاثوليك ؛ واعترف الزعيمان ، وأغرى سكرتير مارى بالاعتراف بصحة خطابها (٦٣) . وأعدم ثلاثة عشر من المتآمرين ، وأطلقت الصواريخ النارية فى سماء لندن ، ودقت النواقيس . وأنشد الأطفال التسابيح شكرا لله على نجاة الملكة اليزابث . ودوت الصيحات فى انجلترا البروتستانتية تطالب بموت مارى :

وفتشت حجرات مارى ، وجمعت كل أوراقها ، وفى أكتوبر نقلت إلى قلعة فوذرنجاى Fotheringay . وهناك جرت محاكمتها أمام لجنة مؤلفة من ثلاثة وأربعين من النبلاء . ولم يسمح لها بندب من يدافع عنها ، ولكنها دافعت عن نفسها فى عزم وإصرار . وأقرت باشتراكها فى مؤامرة بابنجتون ، ولكنها أنكرت إقرارها للقتل ، واحتجت بأنها ، كانسان سجن ظلما وعدوانا لمدة تسعة عشر عاما ، لها كل الحق فى تخليص نفسها بأية وسيلة كانت . وأدانتها اللجنة بالاجماع . وطلب البرلمان إلى اليزابث أن تصدر أمرها باعدامها . ولكن هنرى الثالث ملك فرنسا قدم طلبا مهذبا

للرأفة . ولكن اليزابث قالت إن مثل هذا الطلب جاء بسند ضعيف من حكومة ذبحت آلافاً من البروتستانت دون محاكمة . ودافع معظم إسكتلنده الآن عن مليكتهم ، ولكن ابنها قام بوساطة تعوزها الحماسة ، حيث ارتاب فى أنها أنكرته وتبرأت منه فى وصيتها لأنه بروتستانتى . وأوعز ممثله فى لندن إلى ولسنجهام إلى أنه - ابنها ، جيمس السادس - ولو أنه حريص على ألا تقتل أمه ، سوف يعتبر الموضوع منتهياً ، ويقنع بأن يثبت البرلمان الانجليزى حقه فى أن يخلف اليزابث على العرش ، وتزيد اليزابث من مبلغ المعاش الذى ترسله إليه . وضيع الإسكتلندى المحاذر الحريص - الوقت سدى ، بدافع من الطمع شديد ، إلى حد أن أهالى إدنبره كانوا يطلقون عليه صيحات الاستهزاء والاستهجان ، وينعبون كالبوم فى الشوارع(٦٤) . ولم يبق بين مارى وبين الموت إلا تردد اليزابث .

وانقضت قرابة أشهر ثلاثة تجرر الأيام فيها أذيالها متثاقلة ، قبل أن تحزم اليزابث المنهوكة المنزعجة أمرها ، ثم لم تفعل شيئاً . كانت قادرة على السماحة والرحمة : ولكنها سئمت حياة الفزع من أن يعاجلها بالقتل فى أية لحظة أنصار امرأة تدعى حقاً فى عرشها ، كما وضعت فى اعتبارها خطر غزو انجلترا من جانب فرنسا وأسبانيا وإسكتلنده احتجاجاً على إعدام ملكة ، كما فكرت فى إمكان موتها هى ، ميتة طبيعية أو بيد أثيمة ، وفى وقت يتيسر فيه لمارى وللكاثوليكية أن ترثا انجلترا : وحثها سيسل على توقيع التصديق على حكم الإعدام ، ووعد بأن يتحمل هو كل مسئولية نتائجه ، وفكرت فى أن تتفادى هى الحسم فى الموضوع بالإلماع إلى سير أمياس بولت Amias Paulet ، المعين لحراسة مارى ، بأنه يمكنه أن يضع حداً لهذا الارتباك ، بأن يأمر بإعدام مارى ، بناء على مجرد فهم شفوى بأن الملكة أو مجلسها يرغبان فى ذلك . ولكن بولت أبى أن يتصرف دون أمر كتابى من اليزابث ، وأخيراً وقعت التصديق على الحكم ، وحمله سكرتيرها وليم دافيسون إلى المجلس الذى أرسله فى الحال إلى بولت قبل أن تغير اليزابث رأيها .

أما مارى التى كانت طيلة هذا الإمهال الطويل ، قد عاودها الأمل ، فإنها لم تصدق النبأ فى بداية الأمر ، ثم واجهته بشجاعة . وكتبت إلى اليزابث رسالة مؤثرة ،

سألتهافيها أن تسمح « لخدمى البؤساء الذين باتوا بلا صديق أو معين ». أن ينقلوا رفاتى ليدفنوها فى أرض مقدسة ، مع سائر ملكات فرنسا » : وقيل إنها فى صباح اليوم الذى أعدمت فيه ، نظمت باللاتينية قصيدة قصيرة ، تشيع فيها كل الحماسة والرشاقة اللتين تتسم بهما ترانيم العصور الوسطى :

يا إلهى لقد وضعت كل أملى فيك
أنقذنى الآن يا يسوع العظيم ،
إنى أرسف فى الأغلال وأعانى أشد الآلام ، إنى أضرع إليك »
متلهفة باكية راكعة ، أسبح بحمدك ، وأتوسل إليك
أن تخلصنى .

وطلبت أن يسمح لها بالاعتراف أمام كاهنها الخاص الكاثوليكى ، فلم تجب إلى طلبها ، وأحضر لها سجانوها بدلا منه قسيساً أنجليكانياً ، فرفضته : وارتدت الملابس الملكية لتقابل بها الموت ، وصففت شعرها المستعار بعناية ، وغطت وجهها بخمار أبيض ، وتدلى من عنقها صليب ذهبى ، كما كان فى معصمها صليب من العاج : وتساءلت لماذا منعت وصيفاتها من شهود إعدامها ، فقيل لها إنهن قد يحدثن اضطراباً ، فوعدت بأنهن لن يفعلن شيئاً . فرخص لها أن تصحب اثنتين منهن وأربعة رجال ؛ وسمح لنحو ثلثمائة من الإنجليز بأن يشهدوا تنفيذ الإعدام ، فى القاعة الكبرى فى حصن فوذرنجاى (٨ فبراير ١٥٨٧) وسألها اثنان من الجلادين المقنعين مغفرتها ، وتلقياها منها . ولما بدأت وصيفتاها فى الصراخ والعويل منعتهما قائلة « لقد تعهدت بالنيابة عنكما » ، ثم ركعت وصلت ووضعت رأسها فى المقصلة ، وسقط الشعر المستعار عن رأسها المفصول عن جسدها ، وكشف عن شعرها الأشيب : وكانت فى سن الرابعة والأربعين .

الصفح والمغفرة للجميع ، والعفو والمغفرة لمارى التى بذلت الجهد بشجاعة لتكون ملكة عادلة بهيجة على حد سواء : ولسنا نعتقد أنها ، وهى التى سهرت طويلا على العناية بزوجها حتى استرد صحته وعافيته ، كانت قد رضيت عن قتله ، ويمكن أن نصفح عن المرأة الشابة التى تخلت عن كل شىء مقابل حب مهماً كان

طائشاً ، وينبغى أن نرثى للمرأة البائسة التى تخلى عنها أصدقاؤها ، والتى قدمت إلى انجلترا تلتمس ملجأ وملاذاً ، فلاقت بدلا منه تسعة عشر عاماً فى غيابة السجن ، ويمكننا أن ندرك محاولاتها الجبارة لاسترداد حريتها . كما يمكن كذلك أن نغفر للملكة العظيمة (اليزابث) التى أصر مستشاروها على أن احتجاز مارى بين جدران السجن ، أمر حيوى بالنسبة لأمن انجلترا وسلامتها ، والتى رأت أن حياتها وسياستها مهددتان دوماً بالمؤامرات من أجل إطلاق سراح منافستها ، مارى ، وإعادتها إلى العرش ، والتى أطالت مدة هذا الأسر البغيض القاسى ، والتى لم تقنع نفسها بإنهائه بالتصديق على إعدام مارى . وكانتا امرأتين نبيلتين ، الواحدة منهما نبيلة سريعة الانفعال ، والأخرى نبيلة وحكيمة عاقلة مع شىء من التردد . وترقد كلتاهما الآن فى انسجام، الواحدة قرب الأخرى ، فى كنيسة وستمنستر وقد سويت الخلافات بينهما ، فى ظل الموت والسلام :

الفصل السادس

جيمس السادس والأول

١٥٦٧ — ١٦٢٥

جيمس السادس ملك اسكتلنده ١٥٦٧ — ١٦٠٣

توج جيمس السادس ملكا على اسكتلنده (٢٩ يولية ١٥٦٧) حين كان عمره ثلاثة عشر شهرا ، حين كانت أمه سجينة فى لوكليفن . وكان عمره ثمانية أشهر حين قتل دارنلى الذى يفترض أنه والده ، كما كان يبلغ من العمر عشرة أشهر حين رأى أمه للمرة الأخيرة ، ولم تعد له إلا اسماوخيالا تغشيه وتلطخه مأساة بعيدة مزرية . وتربى على أيدى لوردات نهازين باحثين عن مصلحتهم ومعلمين معادين لأمه : وتلقى قدرا كبيرا من العلوم الانسانية ، وقدرا أكبر مما ينبغى فى اللاهوت ، وقدرا ضئيلا جدا فى الأخلاقيات ، حتى أصبح أعظم العلماء المسرفين فى الشراب فى أوربا .

وتولى الحكم باسمه أربعة أوصياء على العرش على التوالى — مورى ، لنوكس ، مار ، ثم مورتون ، وكلهم عدا واحدا ، ماتوا ميتة غير طبيعية : ودافعت جماعات النبلاء المتنافسة عن شخص الملك حصن سلطانهم وقوتهم : وفى ١٥٨٢ احتجزه بعض اللوردات البروتستانت تساندهم الكنيسة الاسكتلندية الوطنية ، فى قلعة رثفن Ruthven خشية أن يخضع لنفوذ قريبه الكاثوليكى ازمى ستيوارت ، فلما أطلق سراحه وعد بالدفاع عن العقيدة البروتستانتية ، ووقع تحالفا مع انجلترا البروتستانتية ، ولما بلغ السابعة عشرة من العمر ، نهض بالمهام الفعلية للملك .

وكان شاذا بين الملوك : وكان سلوكه خشنا غير مهذب ، وكانت مشيته بشعة ، وصوته عاليا ، وكان حديثه محنة يبتلى بها سامعه لما فيه من الغلظة والحذلقة المفتقرة

إلى الحكمة . وقال أحد المراقبين الذين لا يكنون له كثيرا من الحب : « كانت معرفته باللغات والعلوم وشئون الحكم أكثر من أى فرد فى اسكتلنده(١) » ولكن نفس المراقب أضاف : « أنه كان مغرورا بشكل غير عادى » . وربما كانت هذه السمة أو الميزة ضرورية للمحافظة على الحياة فى خضم من المتاعب ، بقدر ما هى المظهر المضلل لرجل لا يستطيع أن يسترجع فى ذاكرته يوما لم يكن فيه ملكا . ولا بد أن يتحلى بشىء من الذكاء المتقد ليحتفظ بتاجه على رأسه فى اسكتلنده ، ويلبس تاجا أعظم فى انجلترا حتى يموت ميتة طبيعية . وكان متقلبا إلى حد ما بالنسبة للجنس ، فتزوج من الأميرة الدنمركية الكاثوليكية ، آن ، ولكن لم يكن به ميل شديد إلى النساء ، وانغمس فى التودد إلى المحظيات إلى حد ساعد على القيل والقال .

وكان عليه أن يشق طريقه بالحيلة والدهاء وسط الأفكار العنيفة المتصارعة فى أيامه . فان أسرة جيز فى فرنسا ، والملك فيليب فى أسبانيا ، والبابا فى رومه ، تعاهدوا معه على استعادة اسكتلندة إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية . ولكن الكنيسة الاسكتلندية الوطنية كانت تحسب عليه أنفاسه خشية أن ينحرف عن مذهب كلفن . ولكنه لم يحرق الجسور من خلفه ، فتبادل الرسائل المهذبة مع الدول الكاثوليكية ، وكان به ميل إلى تخفيف القوانين المفروضة على العبادة الكاثوليكية فأطلق خفية سراح أحد الجزويت ، وتواطأ فى تهريب آخر(٢) . ولكن المؤامرات الكاثوليكية أغضبته ، وأثرت فيه البروتستانتية الظافرة فى انجلترا . وتنبأ بما قدر له مع الكنيسة الوطنية الاسكتلندية .

ولم تكن هذه الكنيسة رفيقا مشجعا مريحا ، وما حلت سنة ١٥٨٣ حتى كان قساوستها يشكلون الأغلبية العظمى من رجال الدين الاسكتلنديين ، وكانت مواردهم ضعيفة وحظهم من علوم الدنيا ضئيلا ، ومن ثم انصرفوا إلى العبادة والورع والتقوى ، وتحلوا بالشجاعة والاقدام ، وكدوا وجدوا فى إعادة الكنائس المهملة ، ونظموا المدارس ، وتولوا أمر الصدقات ، وحموا الفلاحين من ظلم اللوردات ، وألقوا المواعظ المسهبة التى استوعبها ووعاها مستمعوهم ، بدلا من الكتب والمادة

المطبوعة . وفى جلسات الكنيسة وفى المجامع الإقليمية وفى الجمعية العامة . حظى الاكليروس الجديد بقوة تنافس تلك القوة التى كانت هيئة الكنيسة الكاثوليكية قد استخدمتها ضدهم ببراعة . ولما كانوا يزعمون أنهم يتلقون الوحى من عند الله، ومن ثم فانهم معصومون من الخطأ فى ناحية العقيدة أو فى الناحية الأخلاقية ، فانهم فرضوا على السلوك العام والخاص رقابة أقسى بكثير منها على عهد حراس أو حماة المذهب القديم المتراخين . وفى كثير من المدن فرضوا غرامات على الاسكتلنديين الذين لم يحضروا الصلوات البروتستانتية ، وفرضوا توبة علنية ، وفى بعض الأحيان عقوبات بدنية ، على مايضبط من خطايا[٣] . وروعوا بانتشار الفجور والزنى ففوضوا رؤساء الكنائس ، فى أن يتنبهوا بتشديد خاص إلى أية انحرافات جنسية ، وأن يبعثوا بتقارير عنها إلى المجامع الكنسية البروتستانتية عند انعقادها ، وصعقوا بالفحش والفجور فى المسرح الإنجليزى فسعوا إلى تحريم التمثيل المسرحى فى سكتلنده ، فلما عجزوا عن ذلك ، حظروا على أتباعهم أن يشهدوه ، وفعلوا مافعله أسلافهم من اعتبار الهرطقة جريمة عقوبتها الاعدام . وتعقبوا السحرة فى حماسة بالغة وأقروا إعدامهم حرقا[٤] . وأقنعوا البرلمان بأن يصدر قانونا يفرض عقوبة الإعدام على أى قسيس يقرأ القداس ثلاث مرات ، ولكن هذا المرسوم لم يطبق على أية حال ، وعندما ترامت إليهم أنباء مذبحة سانت برثلميو ، دعت الكنسية الاسكتلندية البروتستانتية إلى تدبير مذبحة مماثلة للكاثوليك فى اسكتلندة ، ولكن الحكومة أغفلت هذا النداء[٥] .

وباستثناء ادعاء نزول الوحى على القساوسة وعصمتهم من الخطأ ، كانت الكنيسة الوطنية الاسكتلندية (البروتستانتية) أكثر النظم ديمقراطية فى عصرها . وكان قسيسو الدوائر أو الأقسام يختارون رؤساء الكنائس شريطة موافقة شعب الكنيسة ، وكان جمهور المؤمنين يشهدون الجلسات والمجامع والجمعية العامة . وأهاجت وأغضبت هذه الإجراءات الديمقراطية البرلمان الارستقراطى والملك الممسوح بالزيت . ولما كان جيمس يفكر ويجادل — وربما يعتقد ويؤمن — فى أنه يحكم بمقتضى الحق الإلهى ، فانه شكا من أن « جماعة من القساوسة الملتهبين حماسة وغيرة

فى الكنيسة البروتستانتية ، ملكوا قيادة الشعب على هذا النحو ، وأنهم عندما استساغوا طعم الحكم وتلذذوا بحلاوته ، بدأوا يفكرون فى شكل ديموقراطى ... لقد شوهوا سمعتى وافتروا على فى مواعظهم ، لا لأية رذيلة فى شخصى ، بل لأنى ملك اعتبروه أكبر رذيلة(٦) » . وبذلك استؤنف نزاع العصور بين الكنيسة والدولة .

واتخذ النزاع آنذاك شكل هجوم أو حملة من القساوسة على الأساقفة . وكان هؤلاء — وهذا تراث كاثوليكى للكنيسة الاسكتلندية البروتستانتية — يختارون شكلا بواسطة القساوسة ولكن كانوا فعلا يعينون ، وغالبا ما يفرضون على الاكليروس بواسطة الوصى أو الملك . وكانوا يسلمون قدرا كبيرا من إيراداته الكنيسة إلى الحكومة . ولم يجد القساوسة فى الكتب المقدسة سندا أو أساسا للنظام الأسقفى ، ومن ثم عقدوا العزم على التخلص منه فى اسكتلنده ، على أنه لا يلتئم مع التنظيم الشعبى السائد فى الكنيسة الاسكتلندية الوطنية الجديدة .

وكان زعيمهم أندرو ملفيل ، اسكتلنديا عنيفا متحمسا هيأته الطبيعة لبرث عباءة جون نوكس . وبعد أن أنهى تعليمه الجامعى فى سانت أندروز ، تابع دراسته فى باريس ، ورضع لبان مذهب كلفن على يد بيز Béze فى جنيف . ولدى عودته إلى اسكتلنده (١٥٧٤) عين ، وهو فى التاسعة والعشرين من العمر ، رئيسا لجامعة جلاسجو ، فأظهر مقدرة وكفاية فى إعادة تنظيم المناهج . وقواعد الضبط والسلوك فيها . وفى ١٥٧٨ أسهم فى جمع « الكتاب الثانى لقواعد الانضباط والسلوك » الذى ندد بالنظام الأسقفى باسم المساواة الكهنوتية . ودافع عن الفصل النهائى بين مجالات كل من الكنيسة والدولة . وكان لهذا أثره فى الفصل بينهما فى الولايات المتحدة ، ولكنه طالب بحق القساوسة فى تدريب الحكام المدنيين على ممارسة سلطاتهم « على أساس كلمة الله(٧) » . على أن جيمس ، على أية حال ، أراد أن يكون حاكما مطلقا مثل هنرى الثامن واليزابث ، وآمن بأن نظام الأساقفة ضرورى للادارة الكنسية ، كما أنهم وسطاء مريحون بين الكنيسة والدولة ؛

وفى ١٥٨٠ « لعنت » الجمعية العامة للكنيسة الوطنية الإسكتلندية (البروتستانتية) وظيفة الأسقف ودمغتها بأنها « حماقة من ابتداع الإنسان » . وصدر الأمر إلى جميع الأساقفة — تحت التهديد بعقوبة الحرمان من الكنيسة ، بأن يكفوا عن مباشرة أعمالهم ، والتقدم إلى الجمعية العامة بطلب الترخيص لهم بأن يكونوا مجرد كهنة عاديين. ونبذت الحكومة « الكتاب الثانى لقواعد السلوك والانضباط » ، وتمسكت بأن الحرمان من الكنيسة لايصبح نافذ المفعول إلا إذا صدقت عليه الدولة . وفى ١٥٨١ رشح لنوكس ، وكان آنذاك وصياً على العرش ، روبرت مونتجمرى رئيساً لأساقفة جلاسجو . ولكن قساوسة جلاسجو البروتستانت أبوا أن ينتخبوه ، ولكنه على الرغم من هذا أصر على أن يتولى مهام منصبه ، فقررت الجمعية العامة بزعامة ملفيل حرمانه من الكنيسة (١٥٨٢) ، ورضخ مونتجمرى وانسحب . واتهم ملفيل بالتحريض على (الفتنة)، فرفض المحاكمة المدنية ، وطالب بأن يحاكم أمام محكمة كنسية . ولما أدين بتهمة احتقار المحكمة ، هرب إلى انجلترا (١٥٨٤) . وأقنع جيمس البرلمان بأن يعلن أنه يعتبر خيانة : رفض الخضوع للقضاء المدنى ، وتدخل القساوسة فى شئون الدولة ، ومقاومة حكومة الأساقفة ، وأية اجتماعات كنسية لايرخص الملك بعقدها : فآثر كثير من القساوسة أن يلحقوا بملفيل فى منفاه ، على الامتثال لهذه الأوامر . فما كان من جيمس ، تمسكاً بسيادته العليا واستمتاعاً بها ، إلا أن أمعن فى حكم الإرهاب : فعوقب الكهنة لأنهم صلوا من أجل إخوتهم المنفيين ، وأعدم اثنان آخران بتهمة التآمر .

وقاوم رجال الدين والمترددون على كنائسهم ، بما عهد فى الاسكتلنديين من عناد وصلابة ، وشوهت النشرات التى لم يعرف مصدرها سمعة الملك . ونددت الأغانى بطغيانه والعار الذى لحق به من أجله ، وحتى النساء كنّ له نقداً ساخراً لاذعاً ينذرنه فيه بالجحيم وسوء المصير . وتناقص شيئاً فشيئاً ما كان يحصل عليه أساقفته من الأموال ، وسلموا الدولة منها الأقل فالأقل ، ووجد جيمس أنه بات صفر اليدين ، بلا مال — وهو مصدر قوة إرادته ، واشتد ضعفه سنة بعد أخرى ، وأقر برلمان ١٥٢٩ ، بموافقته التامة ، مرسوماً يحتفظ للكنيسة الإسكتلندية الوطنية (البروتستانتية)

بحريتها ، ويعيد إليها سلطانها فى الشئون القضائية والضبط ، ويلغى نظام الأساقفة : وعاد المنفيون .

وإذ اشتدت جرأة ملفيل عن ذى قبل ، واجه جيمس بقوله : « خادم الرب الأبله » ، وألقى عليه الحقيقة اللاهوتية التى لا ريب فيها ، فى ١٥٩٦ ، بمثل الثبات ورباطة الجأش اللتين واجه بهما جريجورى السابع الامبراطور هنرى الرابع قبل ذلك بخمسمائة عام (١٠٧٧) فقال : « إن فى إسكتلندة ملكين ومملكتين . فهناك يسوع المسيح ومملكته ، وهى فى الكنيسة ، وأحد رعاياها الملك جيمس . . . وما هو بملك ولا رئيس ولا لورد ، ولكن مجرد عضو[٨] » . وقال — دافيد بلاك — وهو قسيس كنيسة سانت أندروز ، لجماعة المصلين (١٥٩٦) إن جميع الملوك أبناء للشيطان ، وأن اليزابث كافرة ملحدة ، وأن جيمس هو الشيطان بعينه[٩] . واحتج السفير الإنجليزى ، واستدعى مجلس الشورى القس بلاك للتحقيق ، فأبى أن يذهب قائلا إن الجرم الذى يرتكب من فوق المنبر لا يخضع إلا لمحكمة الكنيسة ، هذا فضلا عن أنه تلقى رسالته من عند الله . وأمر جيمس بمحاكمته غيابياً . فذهبت إليه لجنة من القساوسة ، ولكن الملك لم يعالج الأمر بنجاح ، بل على العكس ، طالب بأن تخضع لتصديقه كل قرارات الجمعية الكنسية والبرلمان . ودعا القساوسة إلى صوم عام ، وأعلنوا منذرين متشائمين ، أنه مهما حدث من شىء « فإنهم أبرياء من دم جلالته[١٠] » .

وتجمع حشد من المشاغبين حول المبنى الذى كان يقيم فيه جيمس (١٧ ديسمبر ١٥٩٦) فهرب إلى قصر هوليرود . وفى صباح اليوم التالى غادر إدنبره مع كل حاشيته . وأعلن إلى سكانها ، عن طريق مناد ينطق باسمه ، أنها لم تعد تصلح لتكون عاصمة ، وأنه لن يعود إليها إلا لتنفيذ الحكم على الثوار والعصاة ، وأمر كل الاكليروس وغير المتوطنين بمغادرة المدينة . ولما لم يجد المشاغبون أحداً ليقتلوه ، تفرقوا . وحزن التجار على فقدانهم ما كان يعود عليهم من ربح فى التعامل مع الحاشية . وتساءل المواطنون فى دهشة : هل كان النزاع يستحق الاستشهاد الاقتصادى ، وعاد جيمس إلى المدينة فى ظفر مشوب بالغضب (١ يناير ١٥٩٧) ،

وعرضت الجمعية العامة المنعقدة فى برث ، خضوع الكنيسة الوطنية الإسكتلندية ، ووافقت على ألا يعين أى قسيس فى المدن الرئيسية دون موافقة الملك وشعب الكنيسة ، وألا يتعرض القساوسة فى خطبهم لقرارات البرلمان أو مجلس الشورى ، وألا يهاجموا شخص أى إنسان من فوق المنبر . وسمح للقساوسة البروتستانت بعد ذلك بالعودة إلى العاصمة (١٥٩٧) . ولكن أعيد نظام الأساقفة . وغطت هدنة كئيبة منكودة على الحرب القديمة بين الكنيسة والدولة .

وبرزت فى الأدب الإسكتلندى تلك فى الحقبة شخصيتان عظيمتان : الملك نفسه ، وأشهر معلميه . وكانت سيرة حياة جورج بوكانان مدهشة ، فقد ولد فى سترلنجشير فى ١٥٠٦ ، ودرس فى باريس ، وخدم العلم فى فرنسا واسكتلندة ، ونهل الحماسة الفلسفية والسياسية من محاضرات جون ميجور ، وعاد من أجل الحب والعلم إلى باريس : ورجع أدراجه إلى اسكتلندة هرطيقاً هجاء لاذعاً ، وأودعه السجن الكاردينال بيتون ، فهرب إلى بوردو ، وقام هناك بتدريس اللاتينية ، وكتب قصائد ومسرحيات بلغة لاتينية جيدة إلى حد كبير ، وشاهد تلميذه مونتانى يمثل فى إحدى هذه الروايات ، ورأس إحدى الكليات فى كوامبرا ، وسجنته محكمة التفتيش الأسبانية لسخريته من الأخوة (فى فرقة دينية) ، وعاد إلى إسكتلندة وفرنسا ، ثم اسكتلندة حيث تولى تعليم مارى ملكة إسكتلندة (١٥٦٢) ، وعين رئيساً للجمعية العامة (١٥٦٧) وأعلن صحة « رسائل الصندوق الفضى » واتهم بتزييف قسم منها[1] . وأدان — مارى بلا هوادة ولارحمة فى كتابه « كشف النقاب عن حكم مارى » (١٥٧١) وتولى التدريس لابنها على الرغم من اعتراضها على ذلك ، وتخلى عن هذه المهمة (١٥٨٢) . وجد وجاهد فى كتابه « تاريخ إسكتلندة » (١٥٧٩) لتخليص تاريخ بلاده من « القيود الإنجليزية والغرور الإسكتلندى » : وأكد من جديد فى رسالته « الحكم الشرعى فى إسكتلنده » — على الرغم من تلميذه الذى سيصبح عما قريب ملكاً مستبداً — أكد نظرية العصور الوسطى القائلة بأن المصدر الوحيد للسلطة السياسية ، بعد الله ، هو الشعب ، وأن كل مجتمع يرتكز على عقد اجتماعى ضمنى يقوم على التزامات وقيود متبادلة بين المحكومين والحكام ،

وأن لإرادة الأغلبية ، بحق ، أن تحكم الكل ، وأن الملك يجب أن يخضع للقوانين التي يقرها ممثلو الشعب ، وأنه يمكن بحق أيضا مقاومة الطاغية أو عزله أو قتله[١٢] ؛ فأنت ترى أن أسطورة العقد الاجتماعي ظهرت هنا قبل هوبز بقرن من الزمان ، وقبل مجيء روسو بقرنين . وشجب البرلمان الاسكتلندي كتاب بوكانان ، وأحرقته جامعة أكسفورد ، ولكن كان له أثر شديد . وذهب صمويل جونسون إلى القول بأن بوكانان هو العبقري الوحيد الذي أنجبته اسكتلنده[١٣] . وأسبغ هيوم ، في تواضع ، هذا الامتياز على نابير (عالم رياضيات اسكتلندي ١٥٥٠ - ١٦١٧ ، مخترع اللوغاريتمات) ، أما المؤرخ الاسكتلندي كارليل فقد خص به نوكس ، حيث كان من أشد المعجبين به . أمـــا جيمس السادس فقد كان له آراؤه الخاصة في هذه المسألة .

وكان الملك مزهواً فخوراً بكتبه قدر زهوه وفخره بحقوقه وامتيازاته . وفي ١٦١٦ نشر مجلدا ضخما « أعمال الأمير الأعظم والأقوى جيمس » ، وهو مهدى إلى يسوع المسيح . وكتب قصائد ، ونصائح إلى الشعراء ، وترجمة « للمزامير » ، ودراسة لسفر الرؤيا ، ورسالة عن « الشياطين » وكتابين من (قطع الثمن) دفاعا من الملكية المطلقة ، أحدهما وهو « الهبة الملكية » (١٥٩٨) كان كتاب نصائح لابنه هنري في فن الحكم وواجباته ، أكد حكم الكنيسة على أنه « ليس بالجزء اليسير من مهمة الملك » . أما الثاني وهو « القانون الحقيقي للملكيات الحرة » فقد شرح فيه الحكم المطلق ودافع عنه في فصاحة هائلة : إن الملوك مختارون من عند الله ، مادامت الأحداث الهامة تفرضها العناية الإلهية ، وأن تعيينهم ومسحهم بالزيت يشكلان سرا مقدسا لا يجوز النطق به ، مثلهما في ذلك مثل أي سر مقدس آخر . ومن ثم كان لهم كل الحق في أن يكون حكمهم مطلقا ، وأن معارضتهم تعتبر حماقة وجريمة ؛ وإثما من شأنه أن يفضي إلى الضرر أكثر من أي طغيان . إن هذا الذي كان بالنسبة لاليزابث أسطورة نافعة ، أصبح بالنسبة لجيمس مبدأ عاطفيا ، ولد لأم ملكة . وورث عنه ابنه شارل النظرية ، ودفع الثمن أو تلقى القصاص .

ومهما يكن من أمر فان انجلترا لم تتنبأ في ١٥٩٨ بما حدث في ١٦٤٩ ، وبعد

أن شوب جيمس نخب البروتستانتية وتعهد بالتزامها ، اعترف مجلس شورى المملكة اليزابث به وريثا للتاج الانجليزى ، عن طريق أمه ماري . وبعد مضى أربعة أيام على وفاة اليزابث ، بدأ جيمس (٥ أبريل ١٦٠٣) رحلة بهيجة مرحة من ادنبرة إلى لندن ، وتوقف ، متمهلا ، فى الطريق ، ليحتفى به النبلاء الانجليز ، وفى ٦ مايو وصل إلى المدن التى أخذت زخرفها وأزينت للترحيب به — انحنت الجماهير له ، وقبل اللوردات يديه . وبعد ألف سنة من صراع عقيم لا غناء فيه اتحدت الأمتان (ولم يتحد البرلمانان قبل ١٧٠٧) وهكذا كان عتم اليزابث نافعا مثمرا ؛

٢ — جيمس الأول ملك انجلترا : ١٦٠٣ — ١٦١٤

أى صنف من الرجال كان قد أصبح جيمس فى سبع وثلاثين سنة ؟ كان متوسط القامة ، ذا رجلين ضعيفتين ، وكرش صغير ، يرتدى سترة ضيقة و بنطلونا محشوين أو مبطنين حتى يمنعا وصــول نصال السفاحين إلى جسمه ، وكان شعره ذا لون أسمر بنى ، وخداه متوردين ، وأنفه مكور ، تشع من عينيه الزرقاوين نظرات الارتياب والحزن ، وكأنما كان الرب خجلا من جسمه . وكان كسولا نوعا ما ، فآثر الراحة من عناء العمل ، اعتمادا منه على اليزابث ، وكانت لغته فظة ، يتميز لهوه وتسليته بالخشونة ، وكان يتمتم ويتلعثم كثيرا ، وكثيرا ما كان لسانه الخشن يفلت بغير حساب . وكان مزهوا كريما ، جبانا مخادعا ، لأنه كثيرا ما تعرض للخطر ، وخدع وغرر به ، مستعدا لتبادل الإساءة ، وليصفح ويلتمس الصفح ، من ذلك أنه عندما أنكر جون جب أنه ضيع بعض الوثائق الهامة ، فقد جيمس صوابه ، وركله بقدمه ، فلما عثر على الأوراق ، جثا أمام معاونه الذى أخزاه وأذله ، وأبى أن ينهض حتى يصفح عنه جب . وكان متسامحا وسط جو من التعصب وعدم التسامح . وكان فى بعض الأحيان صلبا قاسيا ، ولو أنه عادة حنون عطوف . وكان يرتاب فى ابنه هنرى لشعبيته البالغة ، ويحب ابنه شارل إلى حد الحمق . ولم تشب علاقته بالنساء أية شائبة ، ولكنه كان ميالا إلى ملاطفة الشبان الوسيمين . وكان يؤمن بالخرافات ، كما كان عالما . وكان سخيفا لاذعا ، يؤمن بالعفاريت والسحرة فى الوقت الذى يعطف فيه على بيكون وجونسون ، يحسد العلمــاء ،

ويولع بالكتب ، وإن من أول قراراته بوصفه ملكا أنه منح جامعتي أكسفورد وكمبردج حق إرسال ممثلين لهما إلى البرلمان . ولما رأى مكتبة بودلى صاح قائلا : « لو لم أكن ملكا لآثرت أن أكان جامعيا ، ولو قدر لى أن أسجن ، وكانت لى الخيرة من أمرى ، لما آثرت مكانا أسجن فيه غير هذه المكتبة ، ملازما لهؤلاء المؤلفين الأفاضل والأساتذة الذين قضوا نحبهم(١٤) . وصفوة القول انه كان رجلا يعوزه الاتزان والحزم ، إلى حد ما ، ولو أنه كان فى قرارة نفسه سمحا ودودا ، يسخر منه الأذكياء ، ولكن يغفر له قومه ، لأنه حتى اقتربت نهايته المحزنة ، وفر لهم الأمن والطمأنينة والسلام .

ولم يكن جيمس يحب الماء كثيرا إلى حد أنه كره استخدامه لأغراض الغسل : وكان يدمن على الشراب ، وأباح فى بعض حفلات حاشيته أن تسرف النساء والرجال فى الشراب حتى تلعب الخمر برءوس الجميع وينتهى الأمر إلى ثمل عاطفى. ودرجت الحاشية على الاسراف فى الملابس وفى الحفلات ، إسرافا لم يسبق له مثيل فى بلاط اليزابث . وكانت اليزابث تميل إلى التمثيليات التنكرية ، ولكن أما وقد كتب بن جونسون الرواية ، وصمم إنيجو جونز الملابس والمناظر ، وقام بالأدوار فيها اللوردات العظام والسيدات الفاتنات ، وكأنما ارتدى الجميع ، من شدة البذخ ، أموال المملكة ، فإن الفن الخرافى الغريب غير الواقعى بلغ الآن ذروته . وبلغ الاستهتار والخلاعة. والفساد فى البلاط مبلغاً لم يسبق له مثيل . حتى جاء على لسان سيدة فى إحدى روايات جونسون قولها . « أعتقد أننى إذا لم أجد من يحبنى غير زوجى المسكين ، فلسوف أشنق نفسى(١٥) » . وقبل أفراد الحاشية « هدايا » قيمة مقابل استغلال نفوذهم فى الحصول على المراسيم والتراخيص والاحتكارات والمناصب لمن يطلبها . من ذلك أن البارون مونتاجو دفع عشرين ألفاً من الجنيهات مقابل تنصيبه وزيراً للخزانة(١٦) . وروى بسند ضعيف ، أن رجلا حساساً رقيقاً مرض وفاضت روحه عند ما سمع كم دفع أصدقاؤه مقابل تعيينه قاضياً محلياً(١٧) .

ولم يول جيمس مثل هذه المسائل كلها اهتماماً كبيراً : ولم يجهد نفسه كثيراً فى شئون الحكومة : وترك إدارة البلاد لمجلس الشورى الذى يتألف من ستة من

الإنجليز ومثلهم من الإسكتلنديين ، والذى يرأسه روبرت سيسل الذى عينه إرل سالسبورى (١٦٠٥) : وورث سيسل كل شىء إلا الصحة . فقد أقعده عن الحركة ظهره الأحدب ، حتى بات منظره يبعث على الحزن والأسى . ولكنه تحلى بكل ما كان لأبيه من فطنة فى اختيار الرجال وتوجيههم ، وتشبث صامت وكياسة ماكرة ، تفوق بها جميعاً على منافسيه المحليين وعلى أفراد أى بلاط أجنبى . ولما مات « كلب الصيد الصغير » وقع جيمس تحت سيطرة شاب وسيم هو روبرت كار ، وعينه إرل سومرست ، فهيأ له أن يخلف فى مجال السياسة والإدارة ، من هم أكبر منه سناً ، وأكثر صقلا وعلما ، مثل فرانسيس بيكون وإدوارد كوك .

وكان كوك تجسيداً للقانون ، وحارساً أميناً عليه ، اشتهرته محاكمته للورد إسكس فى ١٦٠٠ ، ورالى فى ١٦٠٣ ، والمشتركين فى مؤامرة البارود فى ١٦٠٥ ؛ وخرج على الناس فى ١٦١٠ برأى تاريخى :

> يبدو فى كتبنا أنه فى حالات كثيرة ، يطغى القانون العام
> على قرارات البرلمان ، وفى بعض الأحيان يعتبرها باطلة ؛
> لأنه إذا كان قرار البرلمان مخالفاً للحق العام أو العقل . . . .
> أو يستحيل تطبيقه ، فإن القانون العام لا بد أن يلغيه أو
> يقضى عليه بالبطلان(١٨) .

وربما كان البرلمان لا يسيغ مثل هذا الرأى ، ولكن جيمس عين كوك رئيساً للمحكمة العليا (١٦١٣) وعضواً فى مجلس الشورى ؛ وانقلب من كونه رجل الملك ، إلى رجل يزعج الملك ويقض مضجعه ، يستنكر البحث أو التحقيق فى الآراء الخاصة ، ويؤيد حرية أعضاء البرلمان فى الكلام ، وتناول بالتجريح سلطة الملك المطلقة فى مذكرات لاذعة تؤكد أن الملوك ليسوا إلا خدماً للقانون . وفى ١٦١٦ اتهمه منافسه بيكون بارتكاب أعمال محظورة ، وعزل كوك ، ثم أعيد إلى البرلمان ليستمر فى تزعم حركة المقاومة ضد الملك ؛ وأودع سجن لندن ١٦٢١ ، ولكن سرعان ما أطلق سراحه ؛ ومات غير نادم (١٦٣٤) ، مخلصاً أشد الإخلاص لنصوص القانون

وصرامته ، وترك لنا أربعة مجلدات من « مجموعة القوانين » لا تزال تشكل مرجعاً هاماً فى القضاء الإنجليزى(*) .

وفى نفس الوقت كان جيمس يتابع مع البرلمان مناقشته التى كان لا بد أن تتمخض فى عهد ابنه عن الحرب الأهلية وقتل الملك . إنه لم يكتف بممارسة كل السلطات التى كان هنرى الثامن واليزابث قد سيطرتا بها على مشرعيهما المتلمرين أو الذين روعهم التهديد ، إنه صاغ دعاواه على أنها أوامر إلهية : فأعلن إلى برلمان ١٦٠٩ :

إن مقام الملكية هو أسمى شىء على الأرض ؛ لأن الملوك لا يقومون مقام الله على الأرض ويجلسون على عرش الله ، فحسب ، بل إن الله نفسه يسميهم آلهة أو أرباباً . . . إن الملوك يسمون بحق آلهة ، لأنهم يمارسون شيئاً شبيهاً بالسلطة الإلهية على الأرض . فانكم لو تدبرتم فى صفات الله لوجدتموها مجتمعة ومتفقة فى شخص الملك : إن الله قادر على الخلق أو التدمير والإفناء ، على البناء والهدم ، وفق مشيئته ، يبعث الحياة أو يرسل الموت ، يحاسب كل الناس ولا يحاسبه أحد . . . وللملوك نفس القدرة أو القوة : إنهم يصنعون رعاياهم أو يحطمونهم ، ولهم القدرة ، ولهم الكلمة العليا على كل رعاياهم ، وفى كل الأمور ، ومع ذلك لا يحاسبهم أحد إلا الله وحده . ولهم السلطة فى أن يجعلوا . . . من رعاياهم قطع شطرنج يحركونها كيف شاءوا — فالبيدق يطيح

(*) يروى أن زوجة كوك الثانية — وهى أرملة سيروليم هاتون كانت حاملا عندما بنى بها كوك ؛ وعندما آوى إلى الفراش وضع يده على بطنها فلحظ جنيناً يتحرك ؛ فسألها : « ما هذا ؟ لحم فى الوعاء ؟ » أجابت « إلا لما تزوجت طباخا » (هذا تلاعب بالالفاظ فى الانجليزية Cook - Coke) ويمكن أن نضيف أنها كانت قد رفضت الزواج من منافسه بيكون .

بأسقف أو بفارس — فيرفعون أياً من رعاياهم إلى عنان السماء
أو يخسفون به الأرض ، وكأنما يتصرفون في أموالهم(٣٠) .

وكانت هذه خطوة إلى الوراء ، لأن النظرية السياسة في العصور الوسطى ، كانت قد جعلت الملك دوما . نائباً عن الشعب صاحب السيادة . والبابوات فقط هم الذين أعلنوا أنهم نواب الله على الأرض ، ولكي نضفي على هذه الدعوى أفضل واجهة فلسفية ، يجدر بنا أن نفترض أن البابوات — بوصفهم الرؤوس العليا للسيادة والسلطان في العصور الوسطى ، كانوا قد آمنوا بأن الدوافع الفردية في الإنسان قوية إلى حد أن الإبقاء على النظام الاجتماعي لا يتأتى إلا بأن يغرس في نفوس الناس ، إجلال تقليدي للسلطة الدينية ، وللبابوات بوصفهم صوت الله وممثليه . ولكن إضعاف الإصلاح الديني للسلطة البابوية أو هدمها . كان قد ترك السلطات السياسية مسئولة في المقام الأول ، أو في النهاية ، عن النظام الاجتماعي . وحكم هؤلاء أيضاً بأن السلطة البشرية الخالصة عرضة للتحدي ، إلى درجة أنها لاتقوى على كبح جماح النزعات غير الاجتماعية في الإنسان ، بطريقة فعالة أو من الناحيه الاقتصادية. ومن ثم نمت نظرية حق الملوك الالهي ،جنبا إلى جنب ، مع تطور القومية والانتقاص من سلطة البابوات . وبعد أن تولى الأمراء اللوثريون في ألمانيا ، السلطات الروحية التي كانت للكنيسة القديمة في بلادهم ، أحسوا بأنهم محقون في أن يحيطوا أنفسهم بالهالة الالهية التي اعتقد معظم الحكام والملوك قبل ١٧٨٩ أنها أساسية لا يستغنى عنها للسلطة الأدبية والسلام الاجتماعي . وأخطأ جيمس في التعبير عن هذا الافتراض بوضوح أكثر مما ينبغي ، وفي أشد صيغة تطرفا .

وكان من الجائز أن يتقبل البرلمان ، قبولا نظريا (مع ابتسامات خاصة) هذه الاستبدادية الملكية ، إذا كان أعضاؤه ، كما كان الحال مع اليزابث وهي في أوج عظمتها ، من كبار ملاك الأراضي — الذين كانوا مدينين لملوك التيودور بأعمال جليلة بطولية .ولكن مجلس العموم الآن كان يضم بين أعضائه البالغ عددهم ٤٦٧ عضوا ، كثيرا من ممثلي الطبقات التجارية الناشئة الذين لايستسيغون سيطرة ملكية بلا حدود على أموالهم — إلى جانب كثير من البيوريتانيين الذين ينكرون على الملك

دعواه فى أن يحكم ديانتهم . وحدد المجلس حقوقه فى إغفال جرئ لألوهية جيمس، أو حقوقه الإلهية . وأعلن أنه له القول الفصل فى صحة انتخاب أعضائه . وطالب بحرية الكلام ، وحصانة أعضائه ضد القبض عليهم فى أثناء انعقاده ، وأثبت أنه بغير هذا لا يكون للبرلمان أى معنى أو قيمة : واقترح أن يتولى التشريع فى المسائل الدينية ، وأنكر سلطة الملك فى الفصل فى مثل هذه المسائل دون موافقة البرلمان . على أن الأساقفة الأنجليكانيين على أية حال طالبوا بحق المجمع الكنسى الأنجليكانى فى الفصل فى الأمور الكنسية ، على أن تخضع قرارته لموافقة الملك . وأبلغ رئيس مجلس العموم جيمس أنه ليس للملك أن يسن قانونا ، ولكن يستطيع فقط أن يعتمد أو يرفض أى قانون يجيزه البرلمان : وأعلن المجلس فى يونية ١٦٠٤ : « أن امتيازاتنا وحرياتنا هى حقوقنا وتراثناالقانونى : : : وليست بحال من الأحوال أقل شأنا من أراضينا ومتاعنا . . . ولا يمكن انتزاعها منا ، دون أن يكون فى ذلك إساءة صارخة إلى المملكة بأسرها[٢١] » :

وهكذا نسجت خيوط النزاع التاريخى بين « حقوق » الملك و « امتيازات » البرلمان ، هذا النزاع الذى قدر له أن يخلق ديموقراطية انجلترا ، بعد مائة من السنين توالت فيها الانتصارات والهزائم :

٣ — مؤامرة البارود : ١٦٠٥

وفوق الصراع الاقتصادى والسياسى استعرت نار الحرب الدينية ، ضاربة فيه بجذور عميقة . وكانت معظم النشرات التى سممت الجو ، عبارة عن حملات عنيفة شنها البيوريتانيون على الأساقفة والطقوس الانجيليكانية ، أو الانجليكانيون على صرامة البيوريتانيين وعنادهم ، أو شنها هؤلاء وهؤلاء على مؤامرات الكاثوليك لإعادة انجلترا إلى حظيرة البابوية . ولم يقدر جيمس فظاعة هذه البغضاء ، وكان يحلم « بوفاق شبه ودى » بين البيوريتانيين والأنجليكانيين ، ولهذا الغرض دعا زعماء الفريقين إلى مؤتمر فى « هامبتون كورت » (١٤ ينـاير ١٦٠٤) : ورأس هو الاجتماع ، وكأنه « قسطنطين آخر » ، وأدهش الطرفين كليهما بعلمه اللاهوتى

وبراعته فى الجدل والمناقشة ، ولكنه أصر على « مذهب واحد ، ونظام واحد ، وديانة واحدة شكلا وموضوعا[٢٢] » ، وأعلن أن النظـام الأسقفى أمر لا معدى عنه . وذهب أسقف لندن إلى أن الملك ملهم من عند الله ، « وأنه لم ير له مثيل منذ عهد المسيح[٢٣] » . ولكن البيوريتانيين شكوا من أن الملك تصرف وكأنه طرف فى الدعوى ، أكثر منه حكما أو قاضيا فيها ، ولم يتمخض المؤتمر عن شىء اللهم إلا القرار التاريخى الذى لم يكن يتوقعه أحد ، إلا وهو إعداد ترجمة جديدة للكتاب المقدس . وأصدر المجمع الكنسى الانجليكانى فى ١٦٠٤ بعض القوانين التى تطلب من كل رجال الدين اتباع قواعد الكنيسة الانجليكانية : وفصـل الذين رفضوا الامتثال ، وسجن آخرون ، واستقال كثيرون ، وهاجر فريق آخر إلى هولنده وأمريكا .

وجلب جيمس على نفسه الخزى والعار باحراق اثنين من طائفة الموحدين (الذين يرفضون التثليث ويقولون بالتوحيد) بتهمة الشك فى ألوهية المسيح ، برغم البراهين التى قدمها الملك إليهم (١٦١٢) . ولكنه أحسن صنعا فى أنه لم يجز بعـد ذلك الاعدام بسبب الخلاف الدينى ، فكان هذان الاثنان آخر من لقى حتفه بتهمة الكفر فى انجلترا . وباطراد التحسن فى الحكومة الدنيوية ، أخذت تسود ، فى بطء ، الفكرة القائلة بأن التسامح الدينى ينسجم مع الأخلاق العامة والوحدة الوطنية ، وتغزو ما كان راسخا فى الأذهان ، بطريقة تكاد تكون شاملة ، من أن النظام الاجتماعى يتطلب ديانة وكنيسة لا ينازعهما أحد . وحاول ليونارد بوشر فى كتابه « السلام الدينى » (١٦١٤) أن يدلل على أن الاضطهاد الدينى يوسع هوة الخلاف ويؤدى حتما إلى النفاق ، ويضر بالتجارة ، وذكر جيمس بأن « اليهود والمسيحيين والأتراك المسلمين متسامحون فى القسطنطينية ، ومع ذلك فهم جميعا مسالمون ، ويعيشون فى سلام[٢٤] » على أن بوشر هذا يرى أن الأفراد الذين تشوب عقيدتهم شائبة الخيانة — ولعله يقصد الكاثوليك الذين يرفعون البابا فوق منزلة الملك — ينبغى أن يحرم عليهم عقـد الاجتماعات ، أو الاقامة فى أبعد من عشرة أميال من مدينة لندن .

كان جيمس فى أغلب الأحوال دوجماتيا متسامحا (الجزمية ، الدوجماتية : توكيد الرأى أو القطع به ، بفطرته ودون مبرر كاف ، أو دون أن يكون مبنيــا على مقدمات سليمة موثوقة) . لقد أغضب البيوريتانيين بتشجيعه الألعاب الرياضية فى أيام الآحاد ، شريطة حضور الصلوات الأنجليكانية أولا .وكان ميالا إلى إرخاءقبضة القانون على الكاثوليك . وبرغم معارضة روبرت سيسل والمجلس ، أوقف قوانين العصيان ، وأباح للقساوسة دخول الريف وإقامة القداس فى الدور الخاصة . وعلى طريقته الفلسفيةغير المحكمة ، راوده حلم التوفيق بين الكاثوليكية والبروتستانتية فى العالم المسيحى[٢٥] . ولكن عندما تكاثر عدد الكاثوليك بفضل هذه البارقة من النور والأمل ، وندد البيوريتانون بتساهله ، أجاز تجديد قوانين البزابث المعادية للكاثوليك ، والتوسع فيها وتطبيقها (١٦٠٤) . من ذلك أن ارسال أى فرد للدراسة فى جامعة أو معهد لاهوتى فى الخارج كان يعاقب عليه بغرامة قدرها مائة جنيه . ونفيت وأبعدت كل الارساليات الكاثوليكية ، وحرم أى تعليم كاثوليكى ، وفرض على كل الكاثوليك الذين يمتنعون عن إقامة الصلوات الأنجليكانية غرامة قدرها عشرون جنيها فى الشهر ، ويستتبع أى تخلف عن دفع مثــل هذه الغرامات مصادرة الممتلكات الأصلية أو الشخصية ، والاستيلاء على الماشية فى أرض المقصر فى الدفع ، وعلى أثاثه وملابسه ، لمصلحة التاج[٢٦] .

ورأى أشباه المخبولين من الكاثوليك أنه لم يعــد أمامهم الآن من علاج لهذه الحالة إلا القتل . وكان روبرت كاتسبى قد شهد أباه يعانى من السجن بتهمة العصيان فى عهد البزابث ، وانضم إلى ثورة اسكس ضد الملكة . وهو الذى فكر الآن فى مؤامرة البارود لنسف قصر وستمنستر ، فى الوقت الذى يجتمع فيه الملك والأسرة المالكة ، واللوردات والنواب لافتتاح البرلمان . وأشرك معه فى المؤامرة توماس ونتر ، وتوماس برسى ، وجون رايت ، وجى فوكس Ouy Fawkes ، وتعاهد الرجال الخمسة فيما بينهم وأقسموا على سرية الموضوع ، ووثقوا عهدهم بتناول القربان المقدس من يد مبعــوث جزويتى اسمه جون جيرار . واستأجروا دارا ملاصقة للقصر ، وظلوا يعملون ستة عشرساعة يوميا ليحفروا نفقا من قبو إلى قبو ، وأفلحوا

فيما أرادوا . ووضعوا ثلاثين برميلا من البارود تحت قاعة الاجتماع فى مجلس اللوردات مباشرة . وعطل تكرار تأجيل إنعقاد المجلس مرة بعد أخرى ، تنفيذ مشروع المؤامرة ، تعطيلا مشوباً بالقلق والشك . وطيلة عام ونصف العام كان على المتآمرين أن يزكوا نار الغضب فى صدورهم ، فكم خامرهم الشك فى فضيلة أو صواب مغامرة يروح ضحيتها كثير من الأرواح البريئة . مع من يظن الكاثوليك بلا هوادة ولا رحمة أنهم مذنبون . وسأل كاتسبى ، رغبة فى إعادة الطمأنينة إلى نفوس المتآمرين — سأل هنرى جارنت أسقف الجزويت فى انجلترا : هل يجاز فى الحرب الاشتراك فى أعمال قد تودى بحياة أناس غير محاربين . فأجاب جارنت بأن كل الشرائع السماوية تجيز هذا الأمر ، ولكنه حذر كاتسبى من أية مؤامرة على حياة العاملين فى الحكومة ، لن تجر إلا مزيداً من الشقاء على الكاثوليك الإنجليز ، ونقل الأسقف مخاوفه وشكوكه إلى البابا وإلى زعيم الجزويت ، فأمروه بالابتعاد عن كل دسائس سياسية ، وأن يحبط أية محاولات ضد الدولة[٢٧] . وأفضى كاتسبى إلى رجل آخر من الجزويت — اسمه أوزوالد جرينواى — « أثناء الاعتراف » بسر المؤامرة التى تضمنت الآن اتخاذ تدابير أخرى لقيام الكاثوليك فى انجلترا بثورة عامة . وأبلغ جرينواى زميله جارنت بالموضوع « وحار الرجلان الجزويتيان بين أمرين : إفشاء سر المتآمرين إلى الحكومة ، أو الصمت ، وآثرا السكوت ، ومع ذلك بذلا قصارى جهدهما ليثنيا المتآمرين عن تنفيذ خطتهم .

وسعى كاتسبى — ليخفف من وخز الضمير عند زملائه ومن مخاوفهم — إلى اتخاذ الترتيبات بأن يتسلم أعضاء البرلمان الموالين لهم ، فى صبيحة اليوم المحدد للاجتماع رسائل عاجلة تستدعيهم إلى خارج وستمنستر . وأنذر فرد صغير الشأن بين المتآمرين ، صديقة لورد مونتجال قبل موعد الانعقاد بعدة أيام . فأطلع مونتجال روبرت سيسل على جلية الأمر ، فنقل الخبر إلى الملك ، فدخل عملاؤهم وأعوانهم إلى الأقبية ، وهناك وجدوا فوكس ، كما وجدوا المتفجرات فى أماكنها ، وفى ٤ نوفمبر ١٦٠٥ قبض على فوكس واعترف بما كان يقصد إليه من نسف البرلمان فى اليوم التالى ، ولكنه على رغم التعذيب الشديد رفض الإدلاء بأسماء المشتركين

معه . ولكن هؤلاء على أية حال ، كشفوا عن أنفسهم بحمل السلاح ومحاولة الهرب . فطوردوا ، وجرى قتال أصيب فيه كاتسبي ، وبرسي ، ورايت ، بجروح قتالة . وجرى البحث عن أتباعهم وأودعوا السجن. وعندما قدم المسجونون للمحاكمة اعترفوا صراحة بالمؤامرة . ولكن أى تهديد أو تعذيب لم يحملهم على توريط القساوسة الجزويت فيها . واقتيد فوكس وثلاثة آخرون ، وسط شوارع المدينة من السجن إلى دار البرلمان حيث أعدموا (٢٧ يناير ١٦٠٦) . ولا تزال إنجلترا تحتفل بيوم ٥ نوفمبر على أنه يوم جى فوكس ، بإطلاق الصواريخ والألعاب النارية وحمل تماثيل أو صور جى والطواف بها فى الشوارع .

وفر جيرارد وجرينراى إلى القارة ، ولكن قبض على جارنت ومعه جزويتى آخر يدعى أولدكورن . وفى السجن وجد هذان الاثنان من الوسائل ماحسباه سبيلا لاتصال خفى بينهما . ولكن الجواسيس نقلوا أحاديثهما بنصها . واتهم كل منهما على انفراد بهذه الأحاديث فأنكرها جارنت ، وأقرها أولدكورن . فاعترف جارنت بأنه كان كاذبا . وانهارت قواه فسلم بأنه كان على علم بالمؤامرة ، ولكن بما أن أنباءها وصلت اليه عن طريق جرينواى الذى تلقاها على انها سر من أسرار « الاعتراف » . فإنه لم يشعر بأنه حر فى افشائها . ولكنه على أية حال بذل كل مافى طاقته لإحباطها . فأدين بالتستر على المؤامرة ، لا بالتآمر . وتمهل الملك لمدة ستة أسابيع فى التصديق على الحكم باعدامه ، وأبلغوه كذباً أن جرينواى فى سجن لندن « البرج » فأرسل إليه خطاباً وضع الرقباء أيديهم عليه . وسئل جارنت عما إذا كان قد اتصل بجرينواى فأنكر ، فواجهوه بخطابه ، فدافع بقوله إن المراوغة مباحة لشخص فى سبيل إنقاذ حياته . وفى ٣ مايو أعدم شنقاً ، ومزق إرباً[٣٨] .

وأحس البرلمان أنه على حق فى تشديد القوانين ضد الكاثوليك ، فمنعوا من مزاولة الطب أو الاشتغال بالقانون ، ومن استخدامهم أوصياء أو حراساً قضائيين ، وحظر عليهم أن يبعدوا بأكثر من خمسة أميال عن مساكنهم ، كما طلب إليهم أن يؤدوا قسما جديداً ، لا ينكر سلطة البابا فى خلع الحكام المدنيين فحسب ولكنه كذلك يدمغ الإصرار على هذه السلطة بأنه عمل موصوم بالعقوق والفسوق والكفر ،

يستوجب اللعنة[٢٩] . وحرم البابا بول الخامس تأدية — مثل هذا القسم ، وامتثل للبابا أغلبية الكاثوليك الإنجليز وارتضت القسم أقلية كبيرة . وفى ١٦٠٦ أعدم ستة من القساوسة لرفضهم القسم وإقامتهم القداس . وفيما بين عامى ١٦٠٧ و ١٦١٨ أعدم ستة عشر آخرون[٣٠] . وامتلأت السجون بعدة مئات من القساوسة وعدة آلاف من الكاثوليك العاديين . وبرغم هذا الإرهاب كله ، استمر الجزويت فى دخول انجلترا ، ففى ١٦١٥ كان يوجد منهم ٦٨ على الأقل ، وفى ١٦٢٣ كان منهم ٢٨٤[٣١] . وشق بعض الجزويت طريقهم إلى إسكتلنده . وهناك أعدم واحد منهم — جون أوجيلفى — فى ١٦١٥ ، بعد أن سحقت رجلاه فى « الدهق » (آلة التعـذيب) ، وإبقائه يقظاً لمدة ثمانية أيام بليـالها بغرز الدبابيس فى لحمه[٣٢] . وهكذا وقعت أوزار الكنيسة القديمة على رأسها هى ، على يد الحقائق والقوى والسلطات الجديدة .

٤ — المسرح فى أيام جيمس

تابعت نشوة انجلترا مسيرتها فى الأدب ، كما تابعتها فى الدين . وإنى لأنسب إلى عصر جيمس ، النصف الأروع فى روايات شكسبير ، وكثيراً من روائع تشابمان ، ومعظم روائع جونسون ، وويبستر ، ومدلتون ، ودكر ، ومارستون ، وبعضاً من أحسن أعمال ماسنجر ، وكل روائع بومونت وفلتشر ، وفى الشعر دون ، وفى النثر بيرتون . وأروع وأكرم من هذا كله الكتاب المقدس ترجمة الملك جيمس ، وتلك أمجاد تكفى لأن يتألق بها أى عصر ، وكان الملك يتذوق المسرحية . وفى أحد الاحتفالات بعيد الميلاد مثلت أربع عشرة رواية فى البلاط الملكى . وفى ١٦١٣ احترق مسرح « الجلوب » عن آخره نتيجة إطلاق مدفعين استلزم إطلاقهما تمثيل رواية هنرى الثامن ، ولكن سرعان ما أعيد بناؤه . وفى ١٦٣١ كان فى لندن أو بالقرب منها نحو سبعة عشر مسرحاً .

وكان جورج تشابمان يكبر شكسبير بخمس سنوات ، وعمر بعده ثمانية عشر عاماً ، وشهد ثلاثة عهود (١٥٥٨ — ١٦٣٤) . وشق طريقه فى أناة وروية

حتى صار فحلا فى فنه ، وكان فى ١٥٩٨ قد أكمل بنجاح رواية مارلو Hero and Leander ،ونشر سبعة كتب من الإلياذة ، ولكنه لم ينجز ترجمة هوميروس حتى ١٦١٥ ، وظهرت أحسن رواياته فيما بين ١٦٠٧ و ١٦١٣ . وفتح للمسرحية الإنجليزية مجالا جديداً ، حين اقتبس من التاريخ الفرنسي الحديث فكرة رواية Bussy d, Ambois (١٦٠٧؟) — خمسة فصول من الخطابة الصاخبة المليئة بالتهديد والوعيد ، لا يكاد يلطف من عنفها شيء من سحر البيان ، ولكنها تقوى إلى حد مزعج فى صحيفة يتبادل فيها بوسى وعدوه التحيات الساخرة التهكمية العسيرة الهضم قدر عسر هضم الحقيقة . ولم يفق تشابمان قط من التعلم أو لم ينقطع عنه ، فإن القدر الكبير الذى حصله من اليونانية ، والقدر الأكبر من من اللاتينية استحوذا على كل تأملاته وتفكيره ، بشكل خانق ، وإن قراءة رواياته اليوم لهى ضرب من الجهد المضنى لمجرد الاطلاع والدرس ، لا حباً فى الروايات أو الاستمتاع بها . ولن نبتهج كما فعل كيتس ، « لأول نظرة نلقيها على ترجمة تشابمان لهوميروس » . فثمة حيوية دافقة هنا وهناك فى الترجمة السباعية التفاعيل تسمو بها فوق ترجمة بوب ، التى هى أفضل بصفة عامة ، ولكن موسيقى الشعر تضيع فى الترجمة ، فإن التفاعيل السداسية الوثابة فى الأصل تداعبنا بتناغم أسرع مما تفعل التفاعيل الموزونة المقيدة فى الشعر المقفى . إن أية قصيدة إنجليزية طويلة مقفاة لم تتخلص من النعاس الذى يغلب على أناشيد بحارة البندقية . وحول تشابمان إلى « شعر ملحمى » أبياتاً عشرية المقاطع ليتفق كل اثنين فى القافية — حول الأوديسية فى ترجمته لها بنفس قوة التهدئة . ولابد أن جيمس غلبه النعاس تحت هذه الأغطية الثقيلة ، إلى جانب إيماءات هوميروس العارضة ، لأنه أهمل فى دفع مبلغ الثلثمائة جنيه التى كان الأمير الراحل هنرى قد وعد بدفعه إلى تشابمان ، عند إتمام الترجمة . ولكن ارل سومرست أنقذ الشاعر العجوز من الفقر .

وهل نتوقف قليلا عند توماس هايوود ، وتوماس مدلتون ، وتوماس دكر ، وسيريل تورنير ، وجون مارستون ، أو يسمحون لنا بأن نمر عليهم مر الكرام مع تحية متواضعة لشهرتهم المتأرجحة ، أما فلتشر ، فلن نستطيع أن نبخسه حقه .

فانه فى ذروة مجده (١٦١٢ ـ ١٦٢٥) رفعته انجلترا ، فى مجال المسرحية ، إلى المرتبة التالية لمرتبة شكسبير وجونسون . كان فلتشر ابن أحد أساقفة لندن ،وابن أخ أو ابن عم لثلاثة شعراء من طراز متواضع ، فرضع الشعر وتربى على القوافى، وأضاف هو إلى هذا التراث ماكسب من ميزة اشتراكه مع شكسبير فى « هنرى الثامن » ، « القريبان النبيـــلان » ، ومع ماسنجر فى « الخورى الأسبانى » ، واشتراكه بأعظم النجاح مع فرانسيس بومونت .

ومن هذا الطر ز أيضا ولد فرانك . وكان ابنا لأحد القضاة البارزين ، واخا لشاعر صغير الشأن ، ولد قبله بعام ومهد له طريق الحياة . وأخفق بومونت فى اتمام دراسته فى أكسفورد أوفى أحد معاهد الحقوق The Inner Temple وحاول أن يجرب قلمه فى شعر المرح ، وانضم إلى فلتشر فى كتابة الروايات . وشارك الأعزبان الوسيمان الواحد منهما الآخر ، فى الأكل والنوم ، والأمتعة والملابس ، والخليلات والأفكار ، أو كما قال أوبرى « كانت ثمة مرأة شركة بينهما ، وكان ثمة تشابه غريب فى أفكارهما وصورهما الذهنية[٣٣] » . وتعاون الاثنان على مدى عشر سنوات فى إخراج روايات مثل The Maids' Tragedy, Loves Liesa-Bleeding, Philaster The] Knight of the Burning Pestle والحوار قوى ، ولكنه عاصف طنان ، وحبكات الرواية متشابكة تشابكا بارعا ، ولكن حل عقدها كان متكلفا. وقل أن ارتقى التفكير إلى مستوى الفلسفة . ومع ذلك فان هذه الروايات كما يؤكد لنا دريدن ـــ كان لها فى أواخر القرن ، من الشعبية على المسرح ، ضعف ما كان لروايات شكسبير[٣٤] .

وتوفى بومونت فى سن الثلاثين ، فى العام الذى توفى فيه شكسبير ، وبعد ذلك كتب فلتشر بمفرده أو مع آخرين ، سلسلة طويلة من الروايات الناجحة التى جر عليها النسيان ذيوله ؛ ونبعت ملهاة من رواياته التى قامت على دسائس ملتوية صاخبة مرحة ، نبعت من نماذج أسبانية ، كما أنها بدورها ـــ بتركيز ها على الزنى ـــ مهدت للمسرحية فى « فترة عودة الملكية » . ولما تعب من هذه المناظر الدامية أو الداعرة ، أخرج فى (١٦٠٨) رواية رعوية « الراعية المخلصة » خالية من الهراء والحمق ، مثل

رواية شكسبير « حلم ليلة منتصف الصيف » . بل أنها تنافسها أحيانا من حيث الشعر . فان كلورين ، بعد أن مات حبيبها الراعى تأوى إلى كوخ ريفى بسيط بالقرب من مقبرته وتقطع على نفسها عهدا ألا تبرحه حتى يوافيها الأجل المحتوم :

سلاما أيتها الأرض المقدسة التى تحتضن بين ذراعيها الباردتين ، أصدق رجل أطعم قطعانه على سهول تساليا الدسمة المثمرة ، وهكذا أحيي جدثك ، وأوتى بنذورى الأولى ، وأقدم نظرات الأكبار والاجلال لرفاتك التى لاتزال موضع حبي . وهكذا أحرر نفسى من دفء وحرارة أى حب ينشأ من بعدك ، وأودع كل رياضة أو بهجة أو ألعاب سارة ، يعتز بها الرعاة . ولن يتوج بعد الآن جبينى بالأكاليل الغضة النضيرة ، لأتصـدر حلبة الرقص . ولن أفرح أو أبتهج بعد اليوم بصحبة الغادات اليانعات والرعاة المرحين ،ولا بصوت المزمار ذى الأنغام العالية السارةفى واد ظليل ، حين يداعب النسيم العليل الأغصان ، ولسوف أكون بمنأى عن هذا كله ،مادمت أنت نأيت عنى ، يامن كنت أجلس كثيرا إلى جواره السعيد متوجة بالأزهار الناضرة ، بوصفى ملكة الصيف ، على حين يرتدى صبية الرعاة اللون الأخضر الزاهى المفعم بالحياة ، مع المنجل المزوق . والحقيبة المتدلية المصنوعة من الجلد الناعم الجميل . ولكنك وليت ، وقد ولت هذه كلها معك ، لقد فنى كل شىء ، اللهم إلا ذكراك العزيزة ، التى سوف تبقى من بعدك ، والتى سوف تنمو وتنتعش ، طالما كانت هناك مزامير تصرخ أورعاة مبتهجون يغنون .

وألقيت هذه القصيدة الرعوية مرة واحـــدة ثم اختفت من المسرح . وأى حظ من الطهارة والعفة لمثل هذه التسبيحة ، فى عصر لايزال يجيش بانفعالات عهد اليزابث ؟

أما أقوى الكتاب المسرحيين فى عهد جيمس وأسوأهم ، فهو جون وبستر . ونحن لانكاد نعرف شيئا عن حياته ، وهى فى الحقيقة مجهولة . ونحن نستنتج حالته النفسية من مقدمة أحسن رواياته « الشيطان الأبيض » (١٦١١) حيث يطلق على جمهور المشاهدين « الحمير الجهلة » ويشهد مقسما بأغلظ الأيمان « بأن الأنفاس التى تخرج من الجمهور العاجز كفيلة بأن تسمم أعمق مسرحية مأساوية . والرواية هى قصة فكتوريا أكورامبونى ، التى هزت آثامها ومحاكمتها كل إيطاليا (١٥٨١ — ١٥٨٥) أيام طفولة وبستر . وتحس فكتوريا بأن دخل زوجها لا يتفق مع جمالها ، فتستجيب للملاطفات دوق براتشيانو الثرى ، واقترح بأن يعمل هو على التخلص من زوجها ومن زوجته ، فيولى الموضوع عنايته على الفور ، بمعونة أخ قواد فاجر لفكتوريا هو فلامنيو الذى كان يقدم لمثل هذه الجرائم أشد الأشعار سخرية فى الأدب الانجليزى . وقبض على فكتوريا للاشتباه فيها ، ولكنها تدافع عن نفسها فى جرأة وبراعة إلى حد يجعل أى محام يفزع من لغته اللاتينية وأى كاردينال من قلنسوته. ثم اختطفها براتشيانو من بين يدى العدالة . فطورد الاثنان وأخيرا ، قتل الاثنان مع من كانوا يتعقبونهما ، قتلة مفاجئة مثيرة أشبعت رغبة وبستر إشباعا تاما طيلة سنة كاملة ، لقد عولجت حبكة الرواية علاجا حسنا ، ورسمت الشخصيات رسما متماسكا متناغما . وكانت اللغة غالبا قوية أو كريهة ، والمناظر العصيبة قوية . وارتفع الشعر أحيانا إلى مستوى فصاحة شكسبير . ولكن الرواية بالنسبة للدوق الذى أصابته المدنية بالوسوسة وشدة الحساسية ، شوهتها فظاظة فلامنيو المتكلفة وحيرته الحقيرة البائسة ، كما شوهتها اللعنات والشتائم التى انسابت حتى من أرق الشفاه . « أواه : لو أنى أستطيع قتلك أربعين مرة فى اليوم الواحد ، وأؤجل هذا أربع سنوات سويا ، لكان هذا شيئا قليلا جدا »(٣٥) ، كما كان يشوه الرواية الفحش المنتشر فيها ، حيث ترددت لفظة « البغى » فى كل صحيفة أخرى ، ثم الألفاظ المزدوجة المعانى التى ربما خجل منها شكسبير نفسه .

وعاد وبستر إلى الأرض المخضبة بدماء القتلى فى رواية « دوقة ملفى » (١٦١٣) فإن فرديناند دوق كالابريا ، يحرم على دوقة أمالفى ، أخته الشابة الأرملة الزواج

مرة ثانية ، لأنها إذا ماتت بلا زوج ، فإن أخاها الدوق يرث أموالها . فترثى الدوقة للطهارة المتكلفة التى أكرهت عليها :

إن الطيور التى تعيش فى المروج وفق هوى
الطبيعة الجـامحة ، تحيـا حياة أسعد من
حياتنا ، حيث تستطيع أن تختـار رفيقاتها
وتشدو بألحانها العذبة للربيع(٣٦) .

واستبدت بها الشهوة والحرمان ، فأغرت قهرمانها أنطونيو بالزواج سراً ، وبمضاجعة عاجلة . فدبر أخوها فرديناند قتلها . وفى الفصل الأخير نرى شخصاً يقتل فى كل دقيقة تقريباً ، فالأطباء يستعدون بالسموم ، والمتوحشون بخناجرهم ، ولم يتذرع أحد بالصبر انتظاراً لقصاص عادل أو حكم مشروع . أما أسوأ الأشرار الأوغاد فى الرواية — الذى قتل الدوقة واستولى على ممتلكاتها ، واتخذ له خليلة ثم قتلها — فهو كاردينال ، ولم يكن وبستر من أنصار البابوية . وهنا أيضاً توجد توريات فى صراحة بالغة ، وتصميم على استنفاذ ألفاظ اللعنة والبغض ، واستنكار وحشى مشوش لحياة الإنسان . وترى شيئاً من النبل أو الإخلاص أو الرقة فى الأركان السحيقة لهذه الحلبة المظلمة ، فان فرديناند ينسى نفسه ، ويبتسم بالشفقة لبعض الوقت ، وهو ينظر إلى أخته التى لا تزال جميلة فى رقدة الموت .

« غطـا وجهها ! عيناى تنبهران ! لقد ماتت فى عنفوان شبابها(٣٧) !
ولكن سرعان ما يستعيد وحشيته .

ولنتأمل فى شيء أعذب وأحلى من هذا كله عند الرجل الذى كتب « اشربى من أجلى أنا وحدى ، بعينيك » . Drink to me only with thine Eyes

٥ — بن جونسون : ١٥٧٣ ؟ — ١٦٣٧

ولد فى وستمنستر بعد وفاة أبيه بشهر واحد ، وعمد تحت اسم بنيامين جونسون ؛ وأسقط من اسمه حرف الباء تمييزاً لشخصه ، ولكن دور الطباعة ظلت تستخدمه ،

ولو أنه مات ، حتى ١٨٤٠ ، ولا زال يظهر على لوحة معلقة على جدران كنيسة وستمنستر . وكان الزوج الأول لأمه قسيساً . وكان زوجها الثانى بناء بالأجر . وكانت الأسرة فقيرة معدمة . وكان على بن أن يشق طريقه إلى التعليم بصعوبة بالغة . وما كانت إلا الشفقة التى ملأت قلب صديق بصير لتزوده بالمال ليلتحق بمدرسة وستمنستر ، وساقه حظه إلى الوقوع تحت إشراف « وكيلها » المؤرخ العالم الأثرى وليم كامدن ، وإنصرف إلى الدراسات القديمة ، مع عداء أقل من العادى ، وأحب شيشرون وسنكا ، وليفى وتاسيتس ، وكونتليان ، وزعم بعد ذلك ، وواضح أنه على حق — « أنه يعرف من اليونانية واللاتينية أكثر من شعراء انجلترا جميعهم[٣٨] » على أن « مرحه » السريع الاهتياج والإثارة ، وعالم لندن الخشن العنيف بلا حدود ، هما اللذان حالا دون أن يدمر تعليمه فنه .

وبعد تخرجه فى وستمنستر التحق بكمبردج حيث « بقى — كما يقول أول مؤرخ لحياته — أسابيع قليلة ، لحاجته إلى مورد رزق آخر[٣٩] » ، وأراد له زوج أمه أن يكون صبى بناء ، وقد نتخيل بن جونسون وهو يتصبب عرقاً ويضطرب لمدة سبع سنين دأبا ، وهو يرص الطوب ويفكر فى الشعر . ثم فجأة خرج إلى الحرب ، وانساق فى تيارها ، واندفع إليها بنشاط وحيوية أكثر منه إلى صناعة البناء . وخدم فى الأراضى الوطيئة ، وبارز جندياً من الأعداء ، فصرعه ، وسلبه ما معه ، وعاد إلى الوطن يروى قصصاً مفصلة . وتزوج وأنجب أطفالا ، وارى منهم التراب ثلاثة أو أكثر . ووقع الشجار بينه وبين زوجته فهجرها لمدة خمس سنوات ، ثم عاد وعاش معاً عيشة ينقصها الوفاق والانسجام حتى ماتت . ولا تعرف كليو نفسها كيف كان بن جونسون — زوجها — يدبر معاش الأسرة .

ويكون السر أعمق حين نعلم أنه أصبح ممثلا (١٥٩٧) ، ولكن تفجرت منه أفكار مشرقة وأشعار ابقة . واهتز فرحاً حين دعاه توم للمشاركة فى رواية « جزيرة الكلاب » ولا شك فى أنه حمل نصيبه من المسئولية فى « المادة المثيرة للفتنة والتى تتضمن قذفاً وتشويهاً للسمعة » التى وجدها مجلس الشورى فى الرواية . وأمر المجلس بوقف التمثيل وإغلاق المسرح والقبض على المؤلفين . أما ناش الذى كان خبيراً

عتيقاً بمثل هذه المآزق ، فقد قضى نحبه فى يارموث . ووجد جونسون نفسه فى السجن ، ولما كان نظام السجن يقتضيه أن يدفع نفقة طعامه وإقامته وأصفاده فقد اقترض أربعة جنيهات من فليب هنسلو ، فلما أطلق سراحه انضم إلى فرقة هنسلو (وشكسبير) المسرحية (١٥٩٧) .

وبعد سنة ، كتب ملهاته الهامة الأولى : « Everyman in his humour » ورأى شكسبير يمثل فيها فى مسرح « الجلوب » . ومن الجائز أن المؤلف المسرحى العظيم (شكسبير) لم يستسغ مقدمة الرواية التى اقترحت — على الرغم من النموذج السائد — اتباع الوحدات الكلاسيكية ، أو التقليدية القديمة ، وحدة العمل والزمان والمكان ، لا أن :

تجعل طفلا ، ملفوفاً الآن فى قماطه ، ينهض حتى يستوى رجلا
ويطوى ، بلحية وملابس حداد ، ستين عاماً مضت ، إنك
سوف تسر اليوم إذ تشهد رواية يجب أن تحتذى مثالها كل
الروايات ، رواية ليس فيها كورس ينطلق بك فيما وراء البحار ،
ولا عرش ينهار ، مما يفرح له الأولاد . . . بل فيها أعمال ،
ولغة مثل تلك التى يستخدمها الناس ، وأشخاص ممن يجب
أن تنتقيهم الملهاة ، إذ كان لها أن تصور الزمان ، وتسلى
الناس بحماقات الإنسان لا بالجرائم .

وهكذا أدار جونسون ظهره للمزاح أو الهزل الارستقراطى فى ملهيات شكسبير الأولى ، وللجغرافيا والكرونولوجيا وتعيين تواريخ الأحداث وترتيبها وفقاً لتسلسلها الزمنى الخارقتين فى المسرحية « الرومانتيكية » . وأتى بأكواخ لندن إلى المسرح ، وتخلى عن ثقافته ومعرفته الواسعتين الخارقتين ليبرز إبرازاً مشهوداً لهجات الطبقات الدنيا وأساليبها . وكان أبطال الرواية رموماً كاريكاتورية أكثر منها ابتكارات فلسفية معقدة ، ولكنهم يعيشون . وكانوا تافهين لا قيمة لهم ، ولكنهم من بنى الإنسان ، ولم يكونوا معقولين ولا مهذبين ، ولكنهم لم يكونوا قتلة ولا سفاحين .

وكان اللاتينيون قد استخدموا لفظة Umor لتعنى « الرطوبة » أو السائل ، كما استخدمت تقاليد أبقراط الطبية لفظة *Hu*mor لتدل على أربعة سوائل فى الجسم — الدم ، البلغم ، الصفراء السوداء ، والصفراء الصفراء . وتبعا لغلبة الواحدة أو الأخرى من هذه المواد فى جسم الانسان، كان يقال إنه ذو « مزاج» دموى ، (متفائل) ، أو بلغمى (بارد)، أو سوداوى (مكتئب) ، أوصفراوى (سريع الغضب) أما جونسون فقد حدد تفسيره لهذا الاصطلاح :

عندما تتملك إنسانا صفة بعينها ، وتسيطر على كل أحاسيسه
وأنشطته وقواه ، حتى تسير كلها فى اتجاه واحد — فهذا
مايمكن أن يقال عنه بحق « المزاج » (Humour)[٤٠]

وظهرت الكلمة فى التصوير المرح للكابتن بوباديل ، وهو تحدر مباشر من رواية باريس « المحاربون الأمجاد » ، ولكنه يمور مورا « بمزاجه » الخاص به المميز له ، ومرحه غير الواعى — فهو دوما شجاع إلا عند الخطر ، مندفع إلى القتال إلا عندما يتحداه أحد ، فهو رب السيف المكنون فى غمده .

واستقبلت الرواية استقبالا حسنا ، وكان فى مقدور بن الآن أن ينغمس فى حماقات الشباب وشهواته على نطاق أوسع ، وكان فرحا بالثقة ، مزهوا بأنه شاعر يتحدث إلى اللوردات فى أنفة وكبرياء ، ويقف راسخ القدمين ، يتعجل التمتع ويستسيغ الصراحة والمرح الصاخب ، ويغوى النساء من آن لآن ، ولكنه أخيرا (كما قال لدروموند) « آثر جور الزوجة على خفر الخليلة[٤١] » — وهجر التمثيل، وعاش عيشة طائشة على قلمه ، وازدهر لبعض الوقت بتأليف التمثيليات التنكرية للبلاط ، وتلاءمت الأشعار الخيالية التى نظمها مع المناظر التى صممها جونز ، ولكن بن كان حاد الطبع ، فكثرت مشاجراته . ففى عام نجاحه الأول اشتبك مع أحد الممثلين ، وهو جبريل سبنسر ، وبارزه وقتله ، فأودع السجن بتهمة القتل (١٥٩٨) . ومما زاد الطين بلة ، أنه ارتد إلى الكاثوليكية فى السجن ، ولكنه مع ذلك حوكم محاكمة عادلة ، وأجيز له أن يدفع « بالحصانة الاكليريكية » لأنه تلا « المزامير » باللاتينية « كما يفعل رجل الدين » . وأطلق سراحه

بعد أن وشم ابهامه بحديد محمى بحرف T ، حتى يمكن فى الحال اكتشاف أنه مجرم عائد ، إذا ارتكب جريمة القتل مرة ثانية ، وظل بقية حياته مدموغا بأنه مجرم .

وبعد سنة قضاها مطلق السراح أعيد إلى السجن من أجل دين عليه لم يسدده . ومرة أخرى أطلق سراحه بكفالة هنسلو . وفى ١٦٠٠ سعى جونسون وراء تسديد ديونه بكتابة رواية Every Man out of His Humour . وأثقل الملهاة باقتباسات زخرفية كلاسيكية ، وأضاف إلى أشخاص المسرحية ثلاث شخصيات استخدمت كفرقة للتعليق على الأحداث ، وأمطر بوابل من المذمة والقدح ، البيوريتانيين الذين «كان الدين بين طيات ثيابهم ، والذين حلقوا شعر رءوسهم أقصر من شعر حواجبهم » ولوح بمعرفته وعلمه للكتاب المسرحيين الذين كانوا يحطمون« وحدات أرسطو » . وبدلا من الروايات الرومانتيكية المستحيلة الحدوث حول اللوردات الذين لا يصدق وجودهم ، عرض جونسون أن يكشف للندن عن ذاتها بلا هوادة ولا رحمة :

فليواجهوا مرآة كبيرة قدر كبر المسرح الذى نمثل عليه ،
ولسوف يرون فيها علل العصر ونقائصه . مشرحة تشريحا
دقيقا مفصلا فى كل ناحية فيها ، فى شجاعة لا تلين
ولا تفتر . وفى ازدراء لأى خوف(٤٢)

وصنعت رواية من العداوات أكثر مما جلبت من أموال . وليس من يوصى اليوم بقراءتها . ولما لم يكن جونسون راضيا عن جمهوره الصاخب فى مسرح الجلوب ، فانه كتب ملهاته الثانية Cynthia's Revels (١٦٠١) لفرقة من الممثلين الشبان ونخبة صغيرة من الجمهور فى مسرح « Black Friars » ، وأحس دكر ومارستون أن الرواية تناولتهما بالهجاء . ولما استشاطت فرقة تسمبرلين غضبا لمنافسة أولاد مسرح « Black Friars » لها ، أخرجت فى ١٦٠٢ رواية دكر « Satiromastix » (ضرب المؤلف الهجاء بالسياط) وفيها تشهير بجونسون بأنه سفاح وبناء تافه مغرور متحذلق ، جسمه ملىء بالبثور . وانتهى الشجار بتبادل المديح وتقارض الثناء : وابتسم الحظ

لبعض الوقت . واستضاف أحد المحامين النابهين بن جونسون فى بيته وأرسل ارل بمبروك إلى الشاعر عشرين جنيها « ليشترى بها كتبا[٤٣] » . وما أن أصبح فى أمان من الفقر والحاجة حتى أمسك بالقلم مجاولا تأليف « مسرحية مأساوية » ، موضوعها « سيجانوس » الصديق الشرير الأثير لدى تيبيريوس . واعتمد فى روايته بدقة على كتابات تاسيتس وسوتونيوس وديو كاسياس وجوفينال ، وأخرج تحفة رائعة ثقافية فيها بعض مناظر مؤثرة (الفصل الخامس — ١٠ مثلا) وأبيات من الشعر الرائع . ولكن جمهور المشاهدين كره الخطب الطويلة والتوجيه الأخلاقى الممل الصادر عن شخصيات تعوزه الحيوية . وسرعان ماسحبت الرواية من المسرح . وطبع جونسون النص ، وأورد على الهامش مراجعه القديمة مع بعض ملاحظات باللاتينيـــة . وتأثر لورد Aubigny ، فهيأ للمؤلف المحزون مأوى آمنا لمدة خمس سنوات .

وعاد جونسون إلى الحلبـــة فى ١٦٠٥ بأعظم رواية له « Volpone — أو الثعلب » ، هاجم فيها ، فى هجاء مقذع شهوة المال التى اجتاحت لندن : وكما هو مألوف فى الملهاة — من عهد بلوتس إلى رواية The Admirable Crichton — فان محور الرواية هو خادم ماهر . ويحضر الخادم موسكا (ذبابة بالايطالية) إلى سيده البخيل فولبون (الثعلب) الذى يدعى أنه مريض مرضا شديدا ، مجموعة من صيادى الميراث الوصيـــة — فولتوز : نسر ، ثم كورباتشيو : غراب ، ثم كورفينو : غراب أسحم — وكل منهم يترك للسيد المريض (الثعلب) هدية ثمينة ، على أمل أن يسمى وريثا له . ويتقبل « الثعلب كل هدية بنهم جشع ، إلى حد استعارة زوجة كورباتشيو لليلة واحدة . وينتهى الأمر بأن يخدع الخادم موسكا سيده فولبون حتى يعينه هو وريثا وحيدا له . ولكن بوناريو (الطبيعة الطيبة) ، يكشف الخيانـــة ، ويرسل مجلس السناتو فى البندقيـــة كل الممثلين تقريبا إلى السجن . وجعلت هذه المسرحية ، آخر الأمر ، رواد مسرح الجلوب يركعون بين يدى جونسون .

وسرعان ما انتقل من نجاح إلى محنة . فقد اشترك مع مارستون وتشابمان فى

مسرحية Eastward ho (١٦٠٥) واعتقلت الحكومة المؤلفين على أساس أن الملهاة أساءت إلى الاسكتلنديين : وهدد المعتقلون بقطع أنوفهم وآذانهم ، ولكن أفرج عنهم دون أن يمسوا بأذى ، واشترك بعض ذوى المقامات الرفيعة — مثل كامدن وسلدن — فى المأدبة التى أقامها الثالوث الذى استرد حريته . ثم ، فى ٧ نوفمبر ١٦٠٥ ، استدعى جونسون إلى مجلس الشورى ، باعتباره كاثوليكيا يمكن أن يكون لديه معلومات عن مؤامرة البارود . وعلى الرغم من أنه كان قد تناول العشاء مع المدبر الرئيسى كاتسبى ، قبل ذلك بشهر ، فانه تفادى كل تورط فى المسألة . ولكن فى ٩ يناير ١٦٠٦ دعى إلى المحكمة بوصفه متمردا مخالفا للقانون . ولما كان فقيرا معدما إلى حد لا يستطيع معه دفع غرامة مجزية ، فان المحكمة لم تتشدد فى الاتهام . وفى ١٦١٠ ارتد إلى المذهب الأنجليكانى ، فى حماسة بالغة إلى حد أنه أتى على كل مافى كأس النبيذ حين جلس إلى « العشاء الربانى »(٤٤)

وفى تلك السنة أخرج أشهر مسرحياته « الكيميائى القديم The Alchemist » ، وهجا فيها ، لا مجرد الكيمياء القديمة (محاولة تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب) ، وهذه مسألة تافهة ، بل هجا كذلك ألوانا كثيرة من الدجل والخداع التى غزت لندن بالشعوذة . إن سير ابيقور مامون واثق من أنه وقف على سر الكيمياء القديمة فيقول :

> « الليلة سأحول كل مافى بيتى من معدن إلى ذهب ، وفى الصباح الباكر أرسل إلى كل المشتغلين بالقصدير والرصاص ليبيعونى مالديهم من هذا وذاك ، وأرسل إلى لوثبرى من أجل كل مافيها من نحاس .... ولسوف أشترى ديفونشير وكورنوال ، وأجعلهما مثل جزر الهند الشرقية تماما . فإنى أريد أن يكون لى من الزوجات والخليلات مثل ما كان لسليمان ، الذى كان عنده خاتم مثل ماعندى . وسيكون لى بفضل إكسير الحياة

ظر قوى صلب مثل هركيوليز ، فأصرع من الأعداء خمسين
فى الليلة الواحدة . أما المتملقون لى فسيكونون من الكهنة ،
الأطهار الوقورين ، الذين يمكن أن أستحوذ عليهم بمالى ....
وسيقدم لى اللحم فى أصداف هندية وأطباق مصنوعة من
الذهب ومرصعة بالعقيق والزمرد والصفير والياقوت الأزرق
والأحمر . أما ألسنة الشبوط (سمك نهرى) ، والسنجاب ،
وكعوب الأبل ... والفطر العتيق ، والصدور المكسوة بالدهن
لخنزيرة سمينة حامل ، والتى قطعت لتوها :... فسأقول عنها
لطباخى « هاك الذهب » فتقدم ، ولتكن فارسا[٤٥] :

وقلما كان سيرابيقور تافها ، ولكن بقية أشخاص الرواية كانوا حثالة ، وكان كلامهم بغيضا بما احتوى من معالجة موضوعات الدعارة القذرة ، وإنه لما يدعو إلى الأسى والحسرة أن نرى بن المثقف خبيرا بهـذا الغثاء وتلك النفاية ، وبلغة الأكواخ واللصوص والمتشردين . وهاجم البيوريتانيون مثل هذه الروايات تجاوزا ، فانتقم منهم جونسون بتصويرهم فى صور كاريكاتورية ساخرة فى رواية The Bartholomew Fair ١٦١٤ .

وأخرج مسرحيات هزلية أخرى كثيرة مفعمة بالحياة ممتلئة بالعكارات

وتمرد هو نفسه فى بعض الأحيان على واقعيته الخشنة ، فى مسرحية « الراعى الحزين » وأطلق لخياله العنان ليسرح دون مبالاة :

إن وطء أقدامها لا يثنى ورقة عشب ،
أو يهز الطائر الأزغب فى عشه
ولكنها مثل الرياح الغربية الخفيفة انطلقت مسرعة
وحيثما ذهبت تعمقت جذور الأزهار
وكأنما زرعتها بأقدامها العطرة[٤٦] .

ولكنه ترك الرواية دون أن يكملها ، وقصر رومانتيكيته ، (أو خياله

وعواطفه) بقية حياته ، على أغنيات رقيقة تناثرت فى ملهاواته، مثل الجواهر وسط القـاذورات ، من ذلك أنه فى ملهاة « الشيطان حمار The Devil is an Ass » (١٦١٦) ، يغنى فجأة :

هل شهدت الا سوسنة متألقة تنمو
قبل أن تمسها الأيدى الخشنة ؟
هل شهدت إلا تساقط الثلوج
قبل أن تلطخها التربة ؟
أو لم تلمس فراء السمـور
أو ريش البجعة قط ؟
وهل نشقت رائحة براعم الورد البرى
أو رائحة الناردين وهو يحترق ؟
وهلا تذوقت شهد النحلة ؟
أوه ! يا لبياضها ، أوه ! يالرقتها ، أوه ! يا لحلاوتها ؟

وأجمل من هذا بالطبع ، أغنيـة « إلى سـليا To Celia » التى سرقها من اليونانية من فيلوستراتوس ، وحولها بدقة وبراعة إلى « اشربى من أجلى أنا وحدى بعينيك » .

وبعد موت شكسبير أصبح جونسون الرئيس المعترف به لجماعة الشـعراء . وأصبح شاعر البلاط غير المتوج فى انجلترا — ولو أنه لم يعين رسميا ، ولكن الحكومة اعترفت به فى معظم الأحوال ، ومنحته معاشا سنويا قدره مائة قطعة ذهبية ، وأدرك الأصدقاء الذين التفوا حوله فى حانة مرميد أن طبيعته الطيبة الحافة تختفى وراء مزاجه الحاد ولسانه السليط ، فأفادوا من حديثه المثمر ، وهيأوا له أن يلعب دور الزعامة كما كان الحال مع سميه فى القرن التالى .

وكان بن آنذاك بدينا ، كما سيكون الحال مع سميه صمويل جونسون فيما بعد ، وما كان أكثر وسامة ولارشاقة ، وكم حزن على « كرشه الفظيع » ووجهه المتجعد

المملوء بالبثور نتيجة الأسقربوط . وقل أن زار صديقا دون أن يكسر كرسيا . وفى ١٦٢٤ نقل الندوة إلى « حانة الشيطان Devil Tavern » فى شارع فليت . وهناك التقى بانتظام مع جماعة نادى أبوللو الذى كان قد أسسه هو من قبل . ليتزودوا بالطعام والشراب والدعابة وثمار الفكر ، وكان لجونسون مقعد مرتفع فى أحد طرفى الغرفة له درابزين يؤدى بجسمه الضخم إلى العرش . وجرى العرف على تسمية أتباعه « قبيلة بن » ، وكان من بينهم جيمس شيرلى وتوماس كارو وروبرت هرك . الذين سموه القديس بن (٤٧) » .

وكان جونسون فى حاجة إلى صبر أيوب ، وهو غير مفطور على الصبر ، ليحتمل الفقر والمرض فى السنين التى كان يتحطم فيها . وقدر أن كل رواياته لم تدر عليه إلا مبلغا يقل عن مائتى جنيه كان ينفقها بسرعة ، ويتضور جوعا طيله الأيام التى لا يعمل فيها . وكان يفتقر إلى شئ من الحاسة أو الخبرة المالية التى جعلت شكسبير خبيرا فى إقتناء الأملاك الثابتة أو العقار ، وتابع شارل الأول صرف المعاش المخصص لجونسون ، ولكن عندما خفض البرلمان المخصصات الملكية . لم يكن المعاش يدفع دائما . على أن شارل أرسل إليه مائة جنيه فى ١٦٢٩ وقرر رئيس كنيسة وستمنستر وجماعة الرهبان فيها خمسة جنيهات «لمستر بنيامين » جونسون فى أيام مرضه وفاقته(٤٨) ولم تصب رواياته الأخيرة أى نجاح ، وذبلت شهرته ، وأختفى أصدقاؤه ، وقضت زوجته وأولاده نحبهم ، وماجاءت سنة ١٦٢٩ حتى عاش وحيداً قعيداً ، ملازما الفراش بسبب الشلل ، مع سيدة عجوز تتولى العناية بأمره . وظل يعانى من المرض والفقر ثمانى سنوات أخرى ، ودفن فى وستمنستر ، ونقش جون يونج على حجر يواجه القبر . العبارة المشهورة :

« أى بن جونسون الفذ »

ولم يبق منها إلا الكلمتان الأوليان . ولكن أى انجليزى مثقف متعلم يستطيع أن يكمل العبارة

٦ — جون دون ١٥٧٣ — ١٦٣١

فى مؤتمر هامبتون كورت اقترح مندوب بيوريتانى ترجمة جديدة للكتاب المقدس

فاعترض أسقف لندن بأن التّرجمات الموجودة صالحة تماما . فقاطعة الملك جيمس وأمر بأن تتخذ إجراءات خاصة لترجمة رسمية موحدة يقوم بها أفاضل العلماء فى كلتا الجامعتين ، ويراجعها الأساقفة ثم تقدم إلى مجلس الشورى ، ثم يعتمدها الملك حتى يمكن تلاوتها دون غيرها فى كل الكنائس (٤٩) » . ونهض بهذه المهمة سير هنرى سافيل وستة وأربعون عالما آخرون ، مستندين إلى ترجمات ويكلف وتندال القديمة ، وأنجزوا عملهم فى سبع سنين (١٦٠٤ — ١٦١١) وأصبحت هذه الترجمة المعتمدة » رسمية فى ١٦١١ ، وكان لها أثرها البالغ على الحياة والأدب الحديث فى إنجلترا . ودخل إلى اللغة الانجليزية من هذه التّرجمة ألف من العبارات البليغة ، وكان تقديس الانجيل آنذاك قويا جداً فى هذه البلاد البروتستانتية ، ولكنه الآن تزود بدفعة جديدة من القداسة والاقبال عليه فى انجلترا ، كما إزدادت معرفة البيوريتانيين ثم الميثوديين ثم الكويكرز بنصوصه والتعبد به ، بشكل لا يعدله إلا حب المسلمين للقرآن الكريم وتمسكهم به . وكان أثر الترجمة على أسلوب الأدب الإنجليزى مفيدا كل الفائدة ، فقد وضعت حدا للتعقيدات الطويلة الغريبة فى النثر الإنجليزى فى عهد اليزابث ، وانتهت به إلى جمل قصيرة قوية واضحة طبيعية وأحلت محل المصطلحات والتراكيب الأجنبية ألفاظا أنجلوسكونية واصطلاحات انجليزية مفعمة بالحيوية . وكان فيها ألف من الأخطاء العلمية ، ولكنها حولت العبرية الرفيعة واليونانية العادية فى الكتاب المقدس بقسميه إلى أروع تحفة فى النثر الانجليزى .

وثمة مؤلفان آخران من النثر الرفيع ميزا هذا العصر . كتاب سير والتر رالى « تاريخ العالم » (وهو ثانيهما فى الظهور) ، وكتاب روبرت بيرتون « تشريح الكآبة Anatomy of Melancholy (١٦٢١) (*) — وهو المرجع الضخم الذى وضع فيه قسيس سان توماس فى أكسفورد نبذاً مما جمعه من المعلومات اللاهوتية

(*) اكتسب بعض النثر العادى منزلة تاريخية : من ذلك نشرات الاخبار التى كانت تملأ لندن فى أيام جيمس ، والتى تدرجت فى ١٦٢٢ حتى أصبحت أول صحيفة انجليزية باسم "الانباء الاسبوعية" " The Weekly News

والتنجيمية ، والقديمة والفلسفية . وحسب أساتذة الجامعة أول الأمر أنه « مرح فكه ظريف » ولكنه أصبح فى حياته فيما بعد مكتئبا إلى حد أنه لم يكن يسره ويسعده إلا بذاءة بحارة الزوارق فى نهر التاميز(٥٠) . وللتخلص من كآبته «النهم » «بيرتون» « المؤلفين » الذين أمدته بهم مكتبة بودليان . وفى هذه الكتب وفى مخطوطه وفى علم التنجيم وفى الخدمات الكهنوتية : قضى أيامه الكئيبة ولياليه المستائة بالنجوم . وحسب طالعه الخاص ، وتنبأ باليوم الذى سيوافيه فيه الأجل المحتوم بدقة : إلى حد أن تلاميذ اكسفورد ارتابوا فى أنه شنق نفسه ليثبت أنه يعلم الغيب(٥١) .

أنه نشيط مفعم بالحيوية فى كتابه . ولما شرع فى فحص وسواس المرض عنده ووصف العلاج له ، وجد أن الاستطراد ألطف من خطته . وبالمرح الشاذ ، الذى يشبه مرح رابليه فى موضوعاته غير المطروقة ، ناقش كل شىء عن غير قصد كما كان يفعل مونتانى ، ويتبل صفحاته هنا وهناك بشىء من اللاتينية واليونانية ، ويغرى قارئه شيئا فشيئا بشكل لطيف ، إلى لا شىء ، وهو لايدعى الأصالة ، ويشعر بأن كل التأليف سرقة : « ما أراننا نقول إلا معادا من لفظنا مكرورا . وربما كان الانشاء والمنهج من عندنا فحسب(٥٢) . » ويعترف بأنه عرف الدنيا عن طريق الكتب وعن طريق الأنباء التى تتسرب إلى اكسفورد فحسب .

أنى لأسمع أنباء جديدة كل يوم ، كما أسمع الاشاعات العادية
عن الحرب والطاعون والحرائق والفيضانات والسرقات ،
وحوادث القتل والمذابح والنيازك والمذنبات والأطياف
والأعاجيب والأشباح ، وعن المدن التى تم الاستيلاء عليها .
والمدن التى حوصرت فى فرنسا وألمانيا وتركيا ، وإيران وبولنده
.... الخ والتجمعات والاستعدادات اليومية وغيرها ، مما يتم
فى هذه الأيام العاصفة : فتنشب المعارك ، ويذبح كثير من
الرجال : كما نسمع عن غرق السفن وأعمال القرصنة
والمعارك البحرية ؛ ثم الصلح وتكوين العصبات ، ثم من
خدع حربية وإنذارات جديدة ، أنها فوضى هائلة من العهود

والرغبات والأعمال والقرارات ، والظلامات والقضايا البينات
والدفوع والقوانين والتصريحات . . . . والآراء والانشقاقات
والهرطقات .... والأعراس،والمسرحيات التنكرية وشعارات
الرثاء والحفلات ، واحتفالات اليوبيل....والجنازات[٥٣]

وأنه ليحس (مثل ثورو) أنه إذا قرأ أخبار يوم واحد ، فقد يكتفى بها ويأخذها قضية مسلمة بقية العام ، مع مجرد تغيير فى الأسماء والتواريخ . وهو يرتاب فى أن الانسان سائر على طريق التقدم ، ومع ذلك يقول « لســوف أصنع يوتوبيا (دنيا مثالية) خاصة بى ... أتحكم فيها بمحض حريتى » ويصفها فى تفصيل خيالى غريب . والواقع ، على أية حال ، أنه كان يؤثر تصفح الكتب فى هدوء فى مكتبه أو على ضفاف التاميز ، على الانصراف إلى إصلاح البشر . ويقدم له كل مؤلفى العالم أحسن ما لديهم ، ويثقل كاهله ما يجمع من اقتباسات ، فيعود مكتئبا مغتما من جديد ، وبعد مائة وأربع عشرة صحيفة ممتلئة ، يعقد العزم على التوصل إلى أسباب الكآبة ، وهى الخطيئة ، والشهوة الجامحة ، والافراط ، والشياطين . والسحرة ، والنجوم ، والامساك ، والاسراف الجنسى ، .... وأعراضها (أى الكآبة) ومن بينها : « ريح تقرقر فى البطن .... وتجشؤات كريهة .... وأحلام مزعجة[٥٤]» . وبعد أن أكمل مائتى استطراد ، تراه يصف أنواع العلاج للكآبة : الصلوات ، الغذاء ، الدواء ، الملينات ، إدرار البول ، الهواء الطلق ، الرياضة ، الألعاب ، الحفلات المسرحية ، الموسيقى ، الصحبة المرحة ، النبيذ ، النوم ، فصد الدم ، الاستحمام . ثم يستطرد من جديد ، إلى حد أن كل صحيفة تغدو مخيبة للآمال ومفرحة معا — إذا توقف سير الزمن .

أما فى الشعر فقد اختفى شعراء « السونيت » ، وظهر « شعراء ما وراء الطبيعة » : ريتشارد كروشو ، أبراهام كاولى ، جون دون ، جورج هربرت — الذين عبروا فى جمال وديع ، عن الهدوء والتقوى فى بيت الكاهن الأنجليكانى ، ولقد سماهم صمويل جونسون « ميتافيزيقيين » ، من ناحية واحدة فقط ، لأنهم نزعوا إلى الفلسفة واللاهوت والجدل ، وأساسا لأنهم اختاروا عن ليلى ، أوجونجورا ، أو البلياد — أسلوبا يتميز بالبدع والنزوات اللغوية ، والذكاء اللفظى والتركيبات

المعقدة ، والمقتطفات الكلاسيكية ، والغموض المتكلف . على أن شيئاً من هذا كله لم يحل دون أن يكون « دون » أرق شعراء العصر .

وعاصر جون دون — مثل جونسون وتشابمان — ثلاثة عهود : ففي عهد اليزابث كتب في الحب ، وفي عهد جيمس عن التقوى ، وفي عهد شارل عن الموت ؛ ومنذ نشأ كاثوليكياً ، وتعلم على أيدي الجزويت وفي أكسفورد وكمبردج ، فقد خبر مرارة الاضطهاد وهدأة الاختفاء . واعتقل أخوه هنري لإيوائه كاهناً محكوماً عليه بالموت ، وقضى هنري نحبه في السجن ، وزاد من اكتئاب جون انصرافه في بعض الأحيان إلى كتابات سانت تريز ولويس دي جرانادا الروحية . ولكن في ١٥٩٢ نبذ عقله الفتي النابض بالحيوية ، ما ورد في ديانته من معجزات وكرامات ، وحام في العقد الثالث من عمره حول المغامرات العسكرية والجنسية وفلسفة التشكك .

ولفترة من الزمن قصر جون دون شعره على الاتصال الجنسي غير المشروع صراحة ، ففي القصيدة رقم ١٧ من قصائده التأملية التي تعزوها الكآبة ، امتدح « أحلى شيء في الحب : التنوع (لذة الهوى في التنقل) :

ما كان أسعد آباءنا في الزمان الأول
أولئك الذين لم يجدوا في تعدد العشاق جرماً[٥٥] .

وفي قصيدته التأمليـــة رقم ١٨ سبح في « الدردنيل بين ستوس وأبيدوس في صدرها » وفي القصيدة رقم ١٩ « إلى حبيبته وهي تأوي إلى مخدعها » نزع عنها ثيابها ، وفي خيال واسع ، طلب إليها : اسمحي ليدي « أن تجوسا حيث تشاءان » ؛ وخلط بين علم الحشرات والعشق ، وحاول أن يبرهن على أنه ما دام أن البرغوث عضهما معاً فانه قد خلط دمه بدمها فقد تزوجا آنذاك بالدم ، ومن ثم يسرحان في نشوة لا إثم فيها[٥٦] : ولكنه أتخم بالمظاهر فسئمها ، ووجد أنه ليس كريماً منه أن يرتكب الفاحشة مع كرائم السيدات ، ونسى مفاتنهن الموقوتة ، ولم يتذكر إلا الحيل التي كن قد تعلمنها من دنيا لا قلب لها ، وصب على عشيقته جوليا أكبر

اللعنات ، ونصح قارئه أن يختار رفيقة طبيعية غير متكلفة لأن « الحب المبنى على الجمال » سريع الفناء مثل الجمال(٥٧) » ثم أنشد مقطوعة شعرية مضادة لفيللون ، ووضع ميثاقاً شعرياً كان كل مقطع فيه يهوى على « العشق » بضربة قاتلة .

وفى ١٥٩٦ أبحر مع اسكس ، وساعد فى الحملة على قادس ، وأبحر معه ثانية فى ١٥٩٧إلى جزر الآزوروأسبانيا.ولما عاد إلىانجلترا وجد وظيفة محترمة ، سكرتيراً لسير توماس أجرتون « حامل الأختام الملكية » ، ولكنه هرب مع ابنة أخيه وتزوجها (١٦٠٠)، ونشط فى أن يعولها بالشعر ، وواتاه الأولاد بمثل السهولة التى واتته بها القوافى . وغالباً ما عجز عن غذائهم وكسائهم . وساءت صحة زوجته ، وكتب بدافع عن الانتحار . وأخيراً رق قلب سير أجرتون فارسل إلى الأسرة مبلغاً من المال (١٦٠٨) ، ووهبها سير روبرت درورى مسكناً فى قصره (١٦١٠) فى Drury Lane . ولكن بعد عام واحد فقد سير روبرت ابنته الوحيدة ، فنشر دون ، بلا توقيع ، أولى قصائده العظمى ، رثاء لها ، بعنوان An Anatomy of The world ، وفيها ضخم من موت اليزابث درورى تضخيما حتى جعل منه فناء الإنسان ثم الكون باسره :

وهكذا يفنى العالم منذ اللحظة الأولى . . . .
وتدعو الفلسفة الجديدة كل الناس إلى الشك .
وخمد عنصر النار ،
وضاعت الشمس والأرض . ولا يستطيع عقل أى إنسان
أن يوجهه التوجيه الصحيح للبحث عنها .
ويعترف الناس صراحة أن الدنيا قد ولت ،
على حين أنهم فى الكواكب وفى القبة الزرقاء
يلتمسون الكثير من الجديد ثم يرون أن كل هذا
قد انهار من جديد . . . .
لقد تفتت كل شىء ، وضاع التماسك ،
كل الزاد الكريم ، وكل علاقة(٥٨) .

وهكذا حزن لأنه يرى كيف أن هذه الأرض « عرجاء مشلولة » . وكانت يوماً مشهد الافتداء السماوى ، والآن فى الفلك الجديد ، مجرد « ضاحية » للدنيا . وفى إحدى حالاته النفسية نراه يمجد « الظمأ المقدس إلى العلوم » . وفى حالة أخرى يتساءل متعجباً هل سينتهى العلم بالجنس البشرى إلى الدمار

إنا نحارب أنفسيا بالأمراض الجديدة
وبالفيزياء الحديدة هناك آلة جديدة للحرب أسوأ كثيراً(٥٩) .

وكذلك تحول إلى الدين . فان تكرار إصابته بالأمراض والعلل ، والموت المشئوم لأصدقائه الواحد بعد الآخر ، انتهيا به إلى خشية الله فانه . ولو أن عقله ظل يحاول فى اللاهوت ، فانه كان قد تعلم ألا يثق فى العقل كذلك ، على أنه عقيدة أخرى . وقرر أن المذهب القديم يجب قبوله دون مزيد من النقاش ، إذا كان يوفر هدوء البال ولقمة العيش . وفى ١٦١٥ صار قسيساً إنجليكانيا ، ولم يقتصر حينئذ على إلقاء المواعظ فى تركيب مؤثر . ولكنه نظم كذلك بعضاً من أكثر الأشعار الدينية تأثيراً فى اللغة الإنجليزية . وفى ١٦١٦ عين قسيساً خاصاً لجيمس الأول ، وفى ١٦٢١ أصبح رئيس كهنة سانت بول . ولم ينشر قصائده الغنائية الخنسية التى نظمها فى شبابه ، ولكنه كان قد سمح بتداول نسخ مخطوطة منها ، أما الآن فانه — كما روى جونسون « يندم أشد الندم ؛ ويسعى إلى إعدام كل قصائده(٦٠) » . وكتب بدلا منها « قصائد مقدسة من نوع السونيت . وتحدى الموت . وهو يصفر فى الظلام .

أيها الموت . لا تزه ولا تتكبر . ولو أن بعضهم قد أسموك
جباراً رهيباً ، لأنك لست كذلك .
لأن هؤلاء الذين تظن أنك صرعتهم
لا يموتون . أيها الموت الحقير ، إنك كذلك لن تستطيع أن تصرعنى ...
لقد انقضت غفوتنا القصيرة ؛ ولسوف نكون فى يقظة أبدية .
ولن يكون ثمة موت بعد الآن ؛ ولسوف تموت أنت أيها الموت(٦١) .

وبعد أن أبل من مرض شديد ، كتب فى مذكراته فى ١٦٢٣ ، سطوراً مشهورة : « إن موت أى رجل يهد من كيانى لأنى جزء متشابك فى الجنس البشرى ، ومن ثم لا أرسل

أحدا لأستفسر عمن تنعى النواقيس ، إنها تنعانى أنا[٦٢]» . وفى أول يوم جمعة من الصوم الكبير ١٦٣١ ، نهض من فراش مرضه ليلقى العظة التى بادر الناس فقالوا انها عظة جنازته هو ، وكان معاونوه قد حاولوا أن يثنوه عن الكلام ، لما رأوا (كما قال صديقه المخلص ازلك والتون) أن علته قد اشتدت حتى تركته مجرد جلد على عظم[٦٣] » . وما أن انتهى من إلقاء موعظته التى كان فيها فصيحا فى التعبير عن الايمان بالبعث ، « مبتهجا أشد الابتهاج لأن الله أعانه على القيام بهذا الواجب المرغوب فيه ، حتى أسرع إلى بيته الذى لم يغادره ... إلا محمولا على أيدى رجاله الأتقياء إلى قبره [٦٤] » . ووافاه الأجل (٣١ مارس ١٦٣١) بين ذراعى أمه التى كانت قد احتملت صابرة آثامه ، كما استمعت فى حنان وعطف إلى عظاته .

لقد كانت حياة حافلة متوترة ، انتظمت كل العواطف من شهوة وحب ، وشك وانحلال ، واختتمت فى عزاء دفىء ، هو عزاء الايمان القديم . إننا نحن أبناء اليوم الذين يسارع إلينا النعاس حين نقرأ سبنسر ، لنجد أنفسنا ، وقد هزها من سباتها هذا الواقعى الخيالى على نحو عجيب ، هذا الروح الوسيط معا ، عند قراءة كل صفحة من صفحاته تقريبا . إن شعره خشن ، ولكنه هكذا أراده : إنه نبذ اللطائف المتكلفة فى حديث الاليزابيثيين واستطاب الألفاظ التى لم تبل جدتها ، وبحور الشعر الأخاذة . وأحب الأنغام الناشزة المتنافرة التى يستطيع تحويلها إلى أنغام متناسقة لم تألفها الأذن . ولم يكن ثمة شىء مبتـــذل فى شعره بعد أن تخرج فى المواخير . إن هذا الرجل الذى صقل الفحش ، كما صقله كاتوللوس من قبل ، اكتسب من رقة الشعور والفكر ، ومن أصالة فى العبارة والعاطفة ، مالم يضارعه فيه شاعر آخر فى ذلك العصر ، اللهم إلا شكسبير نفسه .

٧ — جيمس يثير العاصفة ١٦١٥ — ١٦٢٥

إن الحب والدبلوماسية رفيقان شيمتهما الخيانة والغدر . ففى ١٦١٥ أحب الملك جيمس ، بأسلوبه الرقيق ذى الوجهين ، جورج فلير Villiers ، الشاب الوسيم الجرىء الثرى ، ذا الثلاثة والعشرين ربيعا ، فخلع عليه لقب ارل ، ثم مركيز ثم

دوق بكنجهام ، ثم بعد ١٦١٦ أطلق يديه فى توجيه سياسة الدولة . وكانت زوجة بكنجهام ، ليدى كاترين مانرز تتبع الطقوس الإنجليكانية فى الظاهر ، ولكنها فى أعماق قلبها كاثوليكية ، وكان من الجائز أن تقنعه بصداقة أسبانيا .

إن الملك چيمس نفسه كان رجل سلام ، ولم يكن ليدع اللاهوت أو القرصنة لتورطه مع القارة . وما أن تولى العرش حتى وضع حداً للحروب الطويلة التى كانت إنجلترا قد شنتها على أسبانيا . ولما فقد فردريك أمير البلاتينات (إقليم غرب الراين) — وزوج ابنة چيمس المحبوبة اليزابث — أمارته فى بداية « حرب الثلاثين عاما » ، راود چيمس الأمل فى أن استرضاء ملك أسبانيا وهو من (آل هبسبرج) استرضاء جادا كريما ، قد يؤثر على امبراطور آل هبسبرج فرديناند الثانى ، فيسمح لفردريك باسترداد عرشه . وأثار چيمس استياء الشعب واشمئزازه حين اقترح لهذا الغرض على فيليب الرابع زواج أخته « الأميرة ماريا » الأسبانية من الأمير شارل .

ولقى رالى نهايته الأليمة ضحية السياسة الأسبانية . وكان رالى يعارض سراً إرتقاء چيمس عرش إنجلترا ، كما كان يعارض بشدة اسكس ، سند چيمس ومؤيده . وسرعان ماوصل چيمس إلى لندن حتى فصل رالى من جميع مناصبه الحكومية . وبانفعال واندفاع تميز بهما والتر ، سمح لنفسه بالتورط فى عدة محاولات لخلع الملك (٦٥) . فأودع السجن ، واحتج بأنه برئ وحاول الانتحار . وحوكم ، وأدين بناء على أدلة مشكوك فى صحتها ، وحكم عليه بالإعدام ، فى ١٣ ديسمبر ١٦٠٣ رقاسى كل ألوان التعذيب ، على أنه خائن . وفى ٨ ديسمبر كتب إلى زوجته رسالة تفيض رقة وتقى — لم يشهدها العالم فيه من قبل . ورفض چيمس توسلات الملكة والأمير هنرى للعفو عنه . ولكنه سمح للسجين بالبقاء على قيد الحياة لمدة خمس عشرة سنة أخرى ، مع بقاء حكم الإعدام سيفا مصلتا على رأسه ، وسمح لزوجة رالى بالإقامة معه فى بيت صغير بناه فى تخوم البرج (السجن) . وأمده أصدقاؤه بالكتب وأجرى بعض التجارب الكيميائية ، ونظم بعض القصائد الرائعة ، وألف كتابه « تاريخ العالم » . وبدأ الكتاب — كما نشر ١٦١٤ بمقدمة ورعة مشوشة معقدة مطولة مملة ، تكشف عن عقل منهوك شديد الاضطرابات والخبل . وبدأت القصة

بنينوى ، وانتقلت عبر مصر وجنوب فلسطين ، وإيران وكلديا واليونان وقرطاجة ، وانتهت برومه الامبراطورية . ولم يحرص رالى على الوصول إلى الأزمنة الحديثة « لأن من يتوخى الصدق كل الصدق فى كتابة التاريخ ، قد لاينجو من الأذى » وتحسن أسلوبه بتتابعة الكتابة ، حتى بلغ مرتبة عالية فى وصف معركة سلاميس ، وبلغ الذروة فى المناجاة الختامية « للموت البليغ العادل الجبار (٦٨) » .

ولكن رالى لم يرتض الهزيمة ولم يقنع بها ، فنى ١٦١٦ ، بعد أن جمع ١٦٠٠ جنيه ، رشا دوق بكنجهام ليتوسط له لدى الملك (٦٩) ، ووعده ، فى حال إطلاق سراحه ، بالإبحار إلى أمريكا الجنوبية ، ليكشف عما ظن أنه مناجم الذهب الغنية فى جويانا ، ويعود بالغنائم الملكية للخزانة الظمأى . فأفرج عنه جيمس افراجا مؤقتا مشروطا ، ووافق على أن يحتفظ رالى وشركاؤه بأربعة أخماس أية كنوز قد يستولى عليها من « الوثنيين المتوحشين » ولكن الملك الحذر البعيد النظر أبقى حكم الإعدام نافذ المفعول إغراء بحسن السلوك . وأشار السفير الأسبانى كونت جوندومار إلى أن هناك فى جويانا جاليات أسبانية ، ورجا ألا يضاروا أو يعكر صفوهم . فما كان من جيمس الحريص على السلام ،وعلى المصاهرة مع أسبانيا ، إلا أن حظر على رالى — تحت طائلة تنفيذ حكم الإعدام — التدخل فى شئون أية جاليات مسيحية فى أى مكان والأسبانية منها بوجه خاص (٧٠) ، ووافق رالى كتابة على هذه التحذيرات(٧١) ، واستمر جوندومار يعترض ويحتج ، فما كان من جيمس إلا أن أقسم على تنفيذ حكم الإعدام إذا خالف رلى تعلياته (٧٢) .

وجهز رالى بمعونة أصدقائه ، أربع عشر سفينة أبحر بها فى ١٧ مارس ١٦١٧ إلى مصب نهر الأورينوكو . ولـكن مستوطنة سانتا توماس الأسبانية اعترضت الطريق عبر النهر إلى المناجم المزعومة ،وتلك مسألة أسطورية تماما . ونزل رجال رالى إلى البر — وبقى هو على ظهر السفينة — وهاجموا القرية وأحرقوها وقتلوا حاكمها . وفترت همة القوة المنهوكة بما لقيت من مقاومة أسبانية بعد ذلك ، وتخلت عن ضالتها المنشودة فى الذهب ، وعادت صفر اليدين إلى السفن .

وانخلع قلب رالى عندما علم أن ابنه قد ذبح فى الهجوم ، وأنب الرجل الذى يليه فى القيادة ، فانتحر الرجل نتيجة لذلك . ولكن رجال رالى فقدوا ثقتهم به ، وتخلت السفن عن أسطوله الواحدة بعد الأخرى ، ولما عاد إلى انجلترا ، ووجد أن الملك غاضب عليه أشد الغضب ، أجرى مفاوضات للهرب إلى فرنسا ، ولكن قبض عليه ، فعاود محاولة الهرب ، ووصل إلى جرينتش . ولكن جاسوسا فرنسيا غدر به ، فقبض عليه وأودع السجن ، وأمر الملك ، الذى كان يستحثه جوندومار ، بتنفيذ حكم الاعدام .

وكان رالى ، آخر الأمر ، قد سئم الحياة ورحب بنعمة الموت العاجل ، فسار فى ٢٩ أكتوبر ١٦١٨ ، إلى ساحة الاعدام فى وقار هادىء ، جعل منه بطل شعب يمقت أسبانيا . وقال للموكلين بتنفيذ الحكم : « هيا ، أنجزوا مهمتكم ، لقد حانت ساعتى ، ولن أدع أعدائى يظنون أنى أرتعد فرقا » . واختبر بابهامه نصل البلطة ثم قال « هذا علاج ناجح عادل لكل ما أعانى من مرض وشقاء[٧٣] » وطالبت زوجته الوفية بجثته ودفنتها فى إحدى الكنائس . وكتبت « لقد أنعم علىّ السادة بجثته ، ولو أنهم أنكروا علىّ حياته . اللهم احفظ على عقلى وألهمنى الصبر[٧٤] » .

إن رحلة رالى كانت واحدة من رحلات كثيرة ، حملت رعايا جيمس إلى أمريكا ، يحدوهم الأمل . فالفلاحون المتلهفون على امتلاك أرض خاصة بهم ، والمغامرون الذين يجرون وراء الثراء من التجارة أو الأسلاب ، والمجرمون الذين يريدون الافلات من قبضة القانون ، والبيوريتانيون المصممون على رفع راية مذهبهم فوق أرض عذراء — هؤلاء جميعا وغيرهم ركبوا الصعاب وتحملوا مشاق البحر ليؤسسوا « انجلترا » جديدة فى كل مكان . فأسست فرجينيا فى ١٦٠٦ — ١٦٠٧ ، وبرمودا فى ١٦٠٩ ، ونيوفوندلند فى ١٦١٠ ، وهرب رجال الدين « الانفصاليون » الذين رفضوا كتاب الصلوات والطقوس الخاصة بالكنيسة الأنجليكانية ، إلى هولنده مع أتباعهم فى ١٦٠٨ . ومن دلفت (يولية ١٦٢٠) وسوثمبتون ويليموث (سبتمبر) أبحر هؤلاء الحجاج عبر الأطلسى . وبعد ثلاثة

أشهر من المحن والمخاطر . ألقوا مراسيهم على صخرة بليموث (٢١ديسمبر) .

وفى آسيا . اقتصرت شركة الهند الشرقية الانجليزية على ٣٠ ألف جنيه و ١٧ سفينة . حاولت بها عبثا أن تنتزع الثغور والطرق التجارية من شركة الهند الشرقية الهولندية التى كان لها ٦٠ سفينة و ٣٤٠ ألف جنيه ، ولكن بعثة سير توماس رو (١٦١٥) انتهت إلى إنشاء مستودعات تجارية فى أحمدأباد وسورات وأجرا ، وغيرها ، فى الهند . وأنشىء وعزز بالأسلحة فورت سان جورج ، لحمايتها (٤٠ ٦١) . لقد اتخـــذت الخطوات الأولى لتأسيس الامبراطورية البريطانية فى الهند .

وعلى الرغم من مغريات المصالح التجارية ، والاستحثاثات البرلمانية والغيرة الوطنية الشعبية : ظل الملك جيمس لمدة ستة عشر عاما متمسكا بسياسة السلام ؛ وتوسل إليه مجلس العمـــوم أن يدخل حرب الثلاثين عاما إلى جانب البروتستانت المهددين بالخطر فى بوهيميا وألمانيا . وأهاب به أن يزوج ابنه الوحيد الباقى على قيد الحياة ، لا من أميرة أسبانية ، بل من أميرة بروتستانتية . وندد بتراخيه فى تنفيذ القوانين المعادية للكاثوليكية ، وحثه على الأمر بفصل الأطفال الكاثوليك عن آبائهم ، وأن ينشأوا على البروتستانتية ، كما حـــذره مجلس العموم من أن التسامح لابد أن يؤدى إلى نمو كنيسة كاثوليكية مفطورة صراحة على التعصب وعدم التسامح[٧٥] .

إن اختلاف وجهات النظر بين البرلمان والملك فى ١٦٢١ كاد أن يكون بمثابة تجريب للصراع بين البرلمان الطويل وشارل الأول (١٦٤٢) . واستنكر النواب اسراف البلاط ، والاحتكارات الدائبة على تعويق التجارة ، وفرضوا الغرامة والنفى على المحتكرين ، رافضين دفاعهم بأن الصناعة الناشئة لابد من حمايتها ضد المنافسة . فلما أنب جيمس مجلس العموم على تدخله فى أعمال « السلطة التنفيذية » أصدر المجلس (فى ١٨ ديسمبر) « الاحتجاج الأعظم » التاريخى الذى أكد من جديد أن « الحريات والاعفاءات والامتيازات ، وسلطة البرلمان ، هى التراث القديم وحق المولد غير المشكوك فيهما لأبناء انجلترا » . وأضاف : « أن المسائل الشائكة العاجلة

التى تتعلق بالملك والحكومة والدفاع عن المملكة .. كلها موضوعات ومادة صالحة للمشورة والمناقشة فى البرلمان[٧٦] » . ومزق جيمس فى غضب شديد ، من مضبطة البرلمان ، الصفحة التى دون فيها الاحتجاج ، وحل البرلمان (٨ فبراير ١٦٢٢) وأمر بأن يودع السجن أربعة من الزعماء البرلمانيين : سوثمبتون ، سلدن ، كوك ، بيم ، وعجل بتحقيق رغبة بكنجهام فى التحالف العسكرى مع أسبانيا .

وأغرى الوزير المستهتر آنذاك مليكه بأن يسمح له فى اصطحاب الأمير شارل إلى مدريد ، متباهياً ، ليرى الأميرة الأسبانية ، ويتمم الزواج ، ووافق جيمس على كره منه ، لأنــه خشى أن فيليب قد يرد شارل إلى انجلترا خائبــاً ، فيكون أضحوكة أوربا .

ووصل الأمير شارل ودوق بكنجهام إلى مدريد (مارس ١٦٢٣) ، فوجد أن الأميرة الفاتنة لا يمكن الوصول إليها أو الاقتراب منها ، وأن الشعب الأسبانى غاضب أشد الغضب لمجرد التفكير فى زواجها من أمير بروتستانتى ، قدر استياء الإنجليز لفكرة عودة أميرهم بعروس كاثوليكية إلى انجلترا . وقام فيليب ووزيره أوليفار بمراسم الحفاوة والتكريم للضيوف ، وكتب لوب دى فيجا رواية تظهر من مظاهر الترحيب ، ورسم فيلاسكيه لوحة للأمير شارل ، وامتدح بكنجهام المفاتن الأسبانية إلى حد الامتياز والشرف . ولكن وضع لإتمام الزواج شرط أساسى لا مناص منه ، وهو منح الحرية الدينية للكاثوليك الإنجليز . ووافق شارل على الفور ، ووافق جيمس آخر الأمر ، ووقعت معاهدة الزواج ، ولكن عندما طلب جيمس فيما بعد من فيليب أن يعد باستخدام الأسلحة الأسبانية ، إذا اقتضى الأمر ، فى استعادة فردريك لإقليم البلاتينات ، أبى فيليب أن يلزم نفسه بشىء ، وأمر جيمس ابنه بالعودة إلى الوطن الحبيب . وإنا لنلمس الجانب الإنسانى فى الملك فى رسالته إلى شارل (١٤ يونيه ١٦٢٣) : « أنا الآن أعض بنان الندم ، وأتألم أشد الألم ، لأنى سمحت برحيلك . عنى أنا لا أعبأ بالزواج ولا بغيره ، طالما أراك بين أحضانى ثانية . أعادك الله إلى أعادك الله إلى أعادك الله إلى[٧٧] » أما الأميرة الأسبانية فانها ، عند توديعها الأمير شارل ، جعلته يقطع على نفسه الوعد بالاهتمام بأمر الكاثوليك فى انجلترا

ورعايتهم[٨٧] . وحيت انجلترا الأمير العائد بوصفه بطلا ، لأنه لم يأت بعروس ، بل أتى بدلا منها بمجموعة من لوحات تشيان (Titian — رسام من البندقية ١٤٧٧ — ١٥٧٦) .

أما بكنجهام الذى غضب الآن أشد الغضب لأنه خدع نفسه فى أسبانياوارتكب هذه الحماقة هناك (كما أكد له أوليفار ذلك) فقد ولى وجهه شطر فرنسا ليعقد معها حلف مصاهرة ، وهيأ لشارل الزواج من صغرى كريمات هنرى الرابع — وهى هنريتا ماريا التى كان مذهبها الكاثوليكى شوكة من الأشواك فى جنب البرلمان القادم . واستعاد الوزير الشاب المتهور شعبيته فى مجلس العموم ، بالالحاح على جيمس — الذى تدهورت صحته وانحطت قواه العقلية — ليعلن الحرب على أسبانيا. وعاد البرلمان إلى الاجتماع فى فبراير ١٦٢٤ ، وانتهج سياسة قوامها ، من جهة ، المصالح التجارية المتلهفة على الاستيلاء على المكاسب أو المستعمرات أو الأسواق الأسبانية ، ومن جهة أخرى ، صرف أسبانيا عن مد يد المساعدة إلى الامبراطور الكاثوليكى ضد البروتستانت فى ألمانيا . إن الشعب الذى قال بأن جيمس جبان لأنه يحب السلام ، قال عنه الآن أنه طاغية لأنه يجند الرجال للخدمة العسكرية؛ ولم تكن الكتائب التى أعدت ولا الأموال التى اعتمدت كافية . وأحس جيمس بالمرارة ، لاختتام حكم سلمى بحرب عقيمة .

وتكاثرت عليه العلل والأدواء فى أعوامه الأخيرة ، وكان قد سمم جسمه بالاسراف فى الطعام والشراب دون تمييز ، وكان يعانى الآن من التهاب بالجهاز التنفسى ، والتهاب المفاصل والنقرس والحصى فى الكلى واليرقان والاسهال والبواسير ، وكان لابد من فصده يوميا ، حتى جعلت أقل متاعبه الملكية من هذا الفصد أمرا غير ضرورى[٨٩] . ورفض تناول الدواء . وتناول الأسرار المقدسة الخاصة بالكنيسة الأنجليكانية ، وفاضت روحه فى ٢٧ مارس ١٦٢٥ ، وهو يتمتم بآخر راحة لنفسه فى عقيدته .

وعلى الرغم من غرور جيمس وخشونته كان ملكا أفضل من بعض ملوك

يزوه فى النشاط والشجاعة والمغامرة . وكان « حكمه المطلق » بالدرجة الأولى عبارة عن « نظرية لطف الجبن من حدتها » وغالبا ما استسلمت لبرلمان قوى . ولم تحل مزاعمه اللاهوتية دون إرادة التسامح عنده ، وهو تسامح أكرم كثيرا من تسامح من خلفوه . وهيأ حبه الجرىء للسلام لانجلترا الازدهار ، وكبح جماح الولع بالقتال فى برلمانه ، وهو ولع يشوبه الفساد والرشوة ، وما يقابله من حماسة فى شعبه . وكان متملقوه قد أطلقوا عليه «سليمان » البريطانى لحكمته الدنيوية . ولما عجز صلى Sully عن توريطه فى النزاع فى القارة (أوربا) أطلق عليه "أعقل البلهاء فى العالم المسيحى" ، ولكنه لم يكن فيلسوفا ولا أبله ، ولكنه كان عالما يمثل دور الحاكم ، ورجل سلام فى عصر جن جنونه بالأساطير والحرب . إن الكتاب المقدس الذى تمت ترجمته فى عهد الملك جيمس أفضل من تاج أى غاز أو فاتح .

الفصل السابع

الدعوة إلى العقل

١٥٥٨ — ١٦٤٩

١ - الخرافة .

هل الناس فقراء لأنهم جهلاء ، أم جهلاء لأنهم فقراء ؟ تلك مسألة انقسم عليها الفلاسفة السياسيون إلى محافظين يؤكدون أهمية عامل الوراثة (التفاوت الفطرى الموروث فى القدرة العقلية) ، ومصلحين يعتمدون على البيئة (أهمية التعليم وإتاحة الفرصة) . وبازدياد الثروة وتوزيعها ينمو العلم ويتقلص ظل الخرافة . ومع ذلك فانه حتى فى البلد المزدهر ازدهارا كبيرا — وبخاصة بين الفقراء المنهوكين والأثرياء الخاملين — نجد أن الفكر يعيش فى متاهة من الخرافات : علم التنجيم ، حساب الجمل (دراسة المعانى السحرية أو التنجيمية للأعداد) ، قراءة الكف ، الأعاجيب ، الحسد ، السحرة ، الغيلان ، الأشباح ، العفاريت ، التعزيم لاستحضار الجن ، التعاويذ والرقى ، تفسير الأحلام ، الكرامات والمعجزات ، الشعوذة والدجل ، الخصائص الخفية ، الشافية أو المؤذية ، للمعادن والنباتات والحيوانات . فلنتدبر إذن الجو الخانق الذى يسمم جذور العلم بثماره ، فى شعب ذى ثروة ضئيلة أو مركزة فى أيدى فئة قليلة . إن الخرافة لدى ضعاف الأجسام والعقول عنصر ثمين فى قصيدة الحياة ، تضىء أيامهم الكئيبة بالأعاجيب المثيرة ، وتخفف من بؤسهم بالقوى السحرية والأمانى الخفية .

وفى ١٦٤٦ احتاج سير توماس براون إلى ٦٥٢ صحيفة ليعدد ويعالج فى إيجاز الخرافات المنتشرة فى أيامه(١)، إن كل هذا الايمان بالقوى الخفية تقريبا ، نما وازدهر

بين البريطانيين فى عهد اليزابث وأوائل عهد آل ستيوارت . ففى ١٥٥٧ نشر الملك جيمس السادس كتاباً يعتبر مرجعاً « الإيمان بالشياطين » وهو من المروعـات فى الأدب . وفيه ينسب إلى السحرة القدرة على ارتياد البيوت ، وغرس الحب و البغض فى قلوب الرجال والنساء بعض لبعض ، ونقل المرض من شخص إلى آخر ، والقتل بإحراق تمثال أو دمية من الشمع ، وإثارة العواطف المدمرة . وبرر عقوبة الإعدام للسحرة والمشعوذين — بل حتى لزبائنهم[٢] . وعندما كادت زوبعة تودى بحياته فى طريق عودته من الدنمرك مع عروسه ، أمر بتعذيب أربعة اشتبه فيهم حتى اعترفوا بأنهم كانوا قد تآمروا على القضاء عليه بوسائل سحرية . وأحرق واحد منهم حتى الموت ، وهو جون فين ، بعد أن عذب تعذيباً وحشياً[٣] .

واتفقت الكنيسة الوطنية الإسكتلندية مع الملك فى هذا الشأن ، وهدد القضاة المدنيون الذين يتساهلون مع السحرة بالحرمان من الكنيسة[٤] . وفيما بين عامى ١٥٦٠ — ١٦٠٠ أحرق نحو ثمانية آلاف من النسوة باعتبارهن ساحرات فى اسكتلندة التى لم يكن عدد سكانها يبلغ المليون[٥] . وكاد الاعتقاد فى السحر فى انجلترا أن يكون عاماً شاملا ، وشارك فى هذا الاعتقاد أطباء علماء مثل وليم هارفى وسير توماس براون . ونصت اليزابث العنيدة فى القوانين التى سنتها ١٥٦٢ على أن الاشتغال بالسحر جريمة عقوبتها الإعدام . وأعدم من أجلها إحدى وثمانون امرأة فى عهدها[٦] . وخفف جيمس السادس من تزمته بعد أن أصبح جيمس الأول ملك انجلترا ، وأصر على محاكمة المتهمين بالسحر محاكمة عادلة . وفضح الاعترافات والاتهامات الباطلة وأنقذ حياة خمس من النسوة اتهمهن صبى مخبول[٧] . وكادت المطاردة أن تنقطع بعد اعتلاء شارل للعرش ، ولكنها استؤنفت ، وبلغت أقصاها أيام حكم البرلمان الطويل ، حيث أعدم فى عامين اثنين (١٦٤٥ — ١٦٤٧) مائتان من السحرة[٨] .

وفى وسط هذه الموجة العاتية من الضراوة والعنف ارتفع صوت واحد يناشد العقل ويتحكم إليه ، هو ريجنالد سكوت ، وهو إنجليزى على الرغم من اسمه ، وقد نشر فى لندن ١٥٨٤ « الكشف عن السحر » . ولم يسبقه إلا جوهان فير فى كتابه

« خدعة الشيطان » (بازل ١٥٦٤) فى هذه المحاولة الخطيرة ، محاولة التخفيف من الخرافة البالغة القسوة . ووصف سكوت الساحرات بأنهن نسوة عجائز بائسات لا يستطعن الإضرار بأحد ، وأنهن ، حتى لو تصرف الشيطان عن طريقهن ، أولى بالرثاء والإشفاق ، أكثر منهن بالإحـراق ، وقال إن فى نسبة المعجـزات إلى هاتيك العجائز الشمطاوات ، امتهاناً لمعجزات السيد المسيح . وفضح سكوت ألوان التعذيب التى جعلت اعترافات السحرة غير ذات قيمة ، وإجراءات المحاكمة المجافية للعدالة ، والمشوبة بالمخالفات والتراخى . والشكوك التى يزدردها القضاة والمحققون . ولـكن لم يكن ثمة أثر للكتاب .

وفى هذا الجو حاول العلم أن يشب على قدميه .

٢ — العـلوم

ومع ذلك ، فإن تقدم التجارة والصناعة كان يفرض تقدم العلوم . وكان من العسير أن تتسق النزعات الأفلاطونية والفنية فى عصر النهضة مع الاقتصاد المتوسع . واشتدت الحاجة إلى نهج عقلى يمكن أن يعالج الأرقام والحقائق . قدر ما يعالج النظريات والأفكار . ونشطت تجريبية أرسطو بعد تجريدها من أقنعة الفلسفة الهللينية المتأخرة فى الأسكندرية ومن أقنعة فلسفة العصور الوسطى . وقد أفسح توكيد الفلسفة الإنسانية الإيطالية على أمجاد الآداب القديمة وعظمتها ، نقول أفسح الطريق لتركيز أقل دقة لى الحاجيات العملية الراهنة . وكان لزاماً على الناس أن تعد وتحصى ، وأن تقيس وتصمم أو تخطط . فى دقة وسرعة تحكمها المنافسة واحتاج الناس إلى أجهزة للرصد والتسجيل . ونشأت المطالب التى تحققت باختراع اللوغاريتمات والهندسة التحليلية وحساب المثلثات والآلات . والمجهر (الميكروسكوب) . وطرق الإحصاء ، والموجهات الملاحية . والأجهزة الفلكية ، وتوافرت الحياة فى أوربا الغربية منذ الآن فصاعداً . على مواجهة تلك الحاجيات .

واقترح جون نابير فى إسكتلندة ١٦١٤ ، وجوست بورجى فى سويسرا ١٦٢٠ ، كل على حدة ، اقترحا طريقة للوغاريتمات (أى منطق الأرقام) يمكن بوساطتها إجراء

عمليات الضرب والقسمة وإيجاد الحدود في سهولة ويسر من الجداول الرياضية (جداول اللوغاريتمات) بأساس معين. وفى ١٦١٦ عدل هنرى برجز الطريقة من أجل الحساب العادى، بجعل الأساس ١٠ ونشر جداول تعطى لوغاريتمات الإعداد من١ إلى ٢٠٫٠٠٠. وللآن يمكن إيجاد حاصل ضرب عددين، بأن يستخرج من مثل هذه الجداول العدد الذى يكون لوغاريتمه هو مجموع لوغاريتمى العددين المطلوب ضربهما. كما يمكن قسمة أ على ب، بإيجاد العدد الذى لوغاريتمه هو الفرق بين لوغاريتمى أ و ب. (لو أ ب = لو أ — لو ب. وأعد وليم أوترد Oughtred (١٦٢٢) وادموند جنتر (١٦٢٤) مساطر حاسبة يمكن بوساطتها إجراء العمليات الحسابية فى ثوان قليلة. وقد وفرت هذه المخترعات نصف الوقت الذى كان يصرفه الرياضيون والفلكيون ورجال الإحصاء والملاحون والمهندسون، فى عملياتهم الحسابية، وأطالت فى الواقع حياتهم(٩). ووجه كبلر، الذى استخدم الطريقة الجديدة فى حساب حركات الكواكب، مديحاً حماسياً إلى لورد مارشستون (فى إسكتلندة) ١٦٢٠، ولم يكن يدرى أن نابيير كان قد قضى نحبه قبل سنوات ثلاث، وكان نابيير نفسه قد وقع فى خطأ يسير فى التقدير والحساب، حين حدد أن العالم سينتهى فيما بين عامى ١٦٨٨ و ١٧٠٠(١٠).

وظل الرياضيون والفلكيون متكاتفين تكاتفاً وثيقاً من أجل حساب حركات الأجرام السماوية، وحساب التقويم، وتطلب توجيه الملاحة معالجة بارعة معقدة للقياسات الفلكية. ووضع توماس هاريوت، بوصفه عالماً رياضياً، الشكل القياسى للجبر الحديث، وأدخل علامات الجذر «أكبر من» و «أقل من» وأحل الحروف الصغيرة محل الكبيرة القبيحة المنظر، لتدل على الأرقام، وعثر مصادفة على الطريقة الناجحة، وهى وضع كل المقادير فى المعادلة فى طرف واحد، ووضع الصفر فى الطرف الثانى (المعادلة الصفرية) وبوصفه فلكياً اكتشف البقع الشمسية، وقام بارصاده لتوابع المشترى، مستقلا عن جاليليو. إن جورج تشابمان نفسه، وهو من فحول العلماء، قدر أن علم هاريوت «لايباريه فيه أحد، وأنه لا حدود له(١١)».

وكان علم الفلك لايزال ينضح بالتنجيم . وكان تنجيم « الساعة » يقرر هل تلائم النجوم مشروع الساعة أولا تلائمه . وتنبأ التنجيم « الشرعى أوالقضائى» بالأحداث عامة ، فى تعميم غامض متسم بالحكمة عادة . أما التنجيم « الطبيعى » فكان يكشف عن قدر الفرد وحظه من برجه — أى اختيار موقع النجوم ساعة مولده — وكل هذا موجود فى روايات شكسبير (ولو أنه لايدل على إيمانه به)، وفى أيامنا هذه . وتقول نظرية التنجيم بأن القمر يحدث المد والجزر ، والبكاء ، والجنون ، واللصوصية (رواية شكسبير هنرى الرابع ١ — ٢—١٥) . وكانت كل علامة فى البروج تتحكم فى طبيعة وفى مصير أعضاء بعينها فى جسم الانسان (الليلة الثانية عشرة الفصل الأول ، ٣—١٤٦—١٥١) . واستخدم جون دى Dee الرموز فى الزمن بادماج التنجيم والسحر والرياضيات والجغرافيا، واشتغل بالعرافة البللورية وكتب Treatise of the Rosie Crucean Secrets ، واتهم بممارسة السحر ضد الملكة مارى تيودور (١٥٥٥) ورسم خرائط جغرافية ومائية للملكة اليزابث . واقترح طريقا عبر الشمال الغربى إلى الصين . وابتدع عبارة « الامبراطورية البريطانية » وألقى محاضرات عن اقليدس أمام جماهير غفيرة فى باريس ، ودافع عن نظرية كوبرنيكس ، وأيد استخدام التقويم الجريجورى (قبل أن تروض انجلترا نفسها على هذه البدعة البابوية بمائة وسبعين عاما) . ومات عن إحدى وثمانين سنة ، وكانت حياة حافلة . وعزز تلميذه توماس دجز Digges تقبل فرضية كوبرنيكس فى انجلترا ، واستبق فكرة برونو عن الكون اللانهائى[١٢] . واستخدم توماس وأبوه ليونارد دجز « العدسات البللورية » ومن المحتمل أنها كانت بشيرا بظهور التلسكوب . واخترع وليم جاسكوان (حوالى ١٦٣٩) المصغر (الميكرومتر : أداة تستعمل مع التلسكوب أو فى الميكروسكوب لقياس الأبعاد والزوايا البالغة الصغر) الذى مكن الراصدين من ضبط التلسكوب بدقة لم يسبق لها مثيل . أما أرميا هوروكس ، وهو قسيس فقير من لنكشير مات فى سن الرابعة والعشرين ، فقال إن للقمر مدارا بيضاويا . وتنبأ — كما رصد (١٦٣٩) لأول مرة سجلها التاريخ — انتقال الزهرة حول الشمس . وساعدت تأملاته فى القوى التى

تحرك الكواكب ، نيوتن فى نظرية الجاذبية الأرضية .

وفى نفس الوقت كانت دراسة المغناطيسية الأرضية تمهد الطريق أمام نيوتن . فان جورج هارتمان ، وهو من رجال الدين الألمان (١٥٤٤) وروبرت نورمان، وهو انجليزى يشتغل بصنع البوصلة (١٥٧٦) ، اكتشفا ، كل منهما بمفرده بعيدا عن الآخر ، انحراف الابرة المغناطيسية ، حين تكون معلقة تعليقا حرا من مركز ثقلها ، وميلها إلى الانحراف عن الوضع الأفقى إلى وضع يصنع زاوية مع سطح الأرض . وذهب نورمان فى كتابه « الحديد الجذاب » إلى القول (١٥٨١). بأن « عامل الجذب » الذى تنحرف إليه الابرة يقع فى الأرض نفسها[١٣] .

وجاء بعد هذه الطليعة الباهرة ، وليم جلبرت ، طبيب اليزابيث . وبعد سبعة عشر عاما من البحث والتجربة — التى اعتمد فى تمويلها على ثروته الموروثة ، كما عاونته الملكة أحيانا — نشر النتائج التى توصل إليها فى أول مؤلف انجليزى كبير للعلوم : « فى المغناطيس ... والمغناطيس الأعظم وهو الأرض » (١٦٠٠) . لقد وضع إبرة بوصلة محورية ، على التعاقب : فى نقط مختلفة ، على حجر مغناطيس كروى . وسجل بخطوط على الكرة الاتجاهات التى اتجهت إليها الإبرة على التوالى ، ومد كل خط ليشكل دائرة كبيرة حول الحجر ، ووجد أن كل هذه الدوائر قطعت الكرة فى نقطتين متقابلتين تماما ، وكان هذان هما القطبان المغناطيسيان اللذان اعتبرهما جلبرت خطأ ، فى حالة الأرض ، القطبين الجغرافيين . ووصف الأرض بأنها مغناطيس ضخم ، وفسر ، بناء على ذلك سير الابرة المغناطيسية ، وأظهر أن أى قضيب حديدى يترك لمدة طويلة فى وضع شمالى جنوبى لابد أن يصبح ممغنطا . والمغناطيس الذى يوضع على أى من قطبى حجر المغناطيس الكروى . يأخذ وضعا عموديا على الكرة . وإذا وضع فى أية نقطة متوسطة بين القطبين (وهى النقط التى تكون خط الاستواء المغناطيسى) يأخذ وضعا أفقيا . وانتهى جلبرت إلى أن انحراف الإبرة يكون أعظم ، كلما وضعت أقرب إلى القطبين الجغرافيين للأرض . وعلى الرغم من أن هذا لم يكن صحيحا تماما ، فقد أكده تقريبا هنرى هدسن فى ارتياده

المنطقة المتجمـــدة الشمالية (١٦٠٨) . ومن ملاحظاته الخاصة ، رسم اتجاهات لحساب خط العرض من درجة الانحراف المغناطيسي . وذهب إلى أنه « من حول جسم مغناطيسي تنتشر القوة المغناطيسية فى كل ناحية » . ونسب دوران الأرض إلى تأثير هذا المجال المغناطيسي . وانتقل جلبرت من هذا إلى دراسة الكهرباء — ولم يكن قد تم فيها شيء يذكر منذ القدم — وأثبت أن ثمة مواد أخرى كثيرة — غير الكهرمان ، يمكن بحكها أن تولد كهرباء بالاحتكاك . ومن اللفظة اليونانية لكلمة Amber (كهرمان) . كون لفظة Electric (كهرباء) لتدل على قوة تحرف الابرة المغناطيسية . واعتقد بأن كل الأجسام السماوية مزودة بالمغناطيسية ، واستخدم كبلر هذه الفكرة لتفسير حركة الاجرام السماوية . والحق أن معظم عمل جلبرت كان مثالا يدعو إلى الاعجاب للنهج التجريبي ، وأن آثاره على العلـــوم والصناعة لا حدود لها .

وظهر تقدم العلوم أكثر إثارة فى جهود النفوس المغامرة أو المولعة بالتحصيل والكسب ، لا كتشاف « المغناطيس الأعظم » لأغراض جغرافية واقتصادية . وفى ١٥٧٦ نشر سير همفرى جلبرت (ولا يمت بصلة إلى وليم جلبرت) « مقالا موحياً .... عن طريق جديد إلى الصين » . مقترحا الابحار فى اتجاه الشمال الغربي ، عبر كندا أو حولها . وفى نفس العام أبحر ســـير مارتن فروبشر بثلاث سفن صغيرة ليكتشف طريقا مثل هذا . وغرقت إحدى سفنه ، وهجر الثانية ملاحوها ، وسار هو قدما بالسفينة « جبرابيل » البالغة الصغر والتى لم تتجاوز حمولتها ٢٥ طنا . ووصل إلى بفن لاند ، ولكن الاسكيمو حاربوه ، فعاد إلى انجلترا طلبا لمزيد من الرجال والمؤن . وانحرفت رحلاته بعد ذلك عن الجغرافيا للبحث عن الذهب دون جدوى ، ثم تمسك جلبرت بضالته المنشودة ، وهى الطريق الشمالى الغربى إلى الصين . ولكنه أغرق وهو يحاول ذلك (١٥٨٣) . وبعد ذلك بأعوام أربعة اندفع جون دافيز فى المضيق المسمى اليوم باسمه ، وحارب الأرمادا ، ثم انطلق إلى البحار الجنوبية مع توماس كافندش واكتشف جزر فولكلند ، وقتله القراصنة اليابانيون بالقرب من سنغافورة (١٦٠٥) وارتاد كافنـــدش الجزء الجنوبى من أمريكا

الجنوبية وأكمل ثالث طواف حول الكرة الأرضية،ومات فى البحر (١٥٩٢)، وسار هنرى هدسن فى نهر هدسن (١٦٠٩) ، وفى رحلة أخرى وصل إلى خليج هدسن ، ولكن بحارته الذين ذهبت الصعب بعقولهم ، واشتد بهم الحنين إلى الوطن ، تمردوا عليه ، وأنزلوه هو وثمانية معه فى قارب صغير مكشوف ، (١٦١١) ولم يسمع لهم ذكر بعد ذلك قط ، واكتشفت وليم بفن الخليج والجزيرة اللتين تحملان اسمه،وغامر حتى وصل إلى خط عرض ٤٥ر٧٧ — وهو مالم يصل إليه أحد مرة أخرى قبل مضى ٢٣٦ سنة — وكان له امتياز آخر ، وهو إيجاد خطوط الطــول لأول مرة برصد القمر . وشهد ريتشارد هاكلوت فى هذه السفن المأخوذة من خشب البلوط فترة من البسالة والرعب تفوق أية البإذة ، ونشر قصصها فى مجلدات ظهرت تباعا ، من أحسن ماعرف منها هومانشر تحت اسم « الابحارات الرئيسية ، رحلات الأمــة الأنجليزية وكشوفها » (١٥٧٩ ، ١٥٩٨ ، ١٦٠٠) ، وزاد صمويل بوركاس فى هذا السجل بكتاب « رحلات بوركاس (١٦٢٥) . وهكذا كان الطمع فى الحصول على الذهب ، والتحمس لمواجهة الأخطار ومشاهدة البلاد البعيدة سببا فى تقدم الجغرافيا دون قصد .

وكان أحسن ما حققه العصر فى الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا من عمل القارة . أما فى انجلترا ، على أية حال ، فان سيركنلم دجبى Kenelm Digby اكتشف ضرورة الأكسجين لحياة النبات ، كما أيد روبرت فلد Fludd ، وهو متصوف وطبيب ، فكرة التطعيم ، قبل جنر Jenner بمائة وخمسين عاما . واستمرت وصفات الدواء تعتمد على إثارة الاشمئزاز ليكون للأدوية أثرها . وأوصى الدستور الرسمى للأدوية فى لندن ١٦١٨ ، بالمر ، وعصارة النبات (الدم) وتشريط الجلد ، وعرف الديك ، والفراء ، والعرق واللعاب والعقـــارب وجلد الثعبان وحمار القبان (حشرة) ونسيج العنكبوت ، على أنها وسائل للعلاج ، وكان فصد الدم أول شىء يلجأون إليه(١٤) — وعلى الرغم من ذلك ، فان هذه الحقبة تفاخر بتوماس بار « بار العجوز Old Parr » الذى قدم إلى شارل الأول ١٦٣٥ ، على أنه يتمتع بصحة جيدة مع أنه كان كما زعموا ، فى الثانية والخمسين بعد المائة من عمره . ولم

يدع بار أنه يعرف سنه على التحقيق ، ولكن ولاة الأمور فى أبرشيته دونوا تاريخ ميلاده فى ١٤٨٣ ، وادعى أنه التحق بالجيش فى ١٥٠٠ ، وتذكر تفاصيل حل الأديار فى عهد هنرى الثامن . (١٥٣٦) ، فقال له الملك شارل الأول « لقد عمرت أطول من أى أناس آخرين ، فماذا فعلت أكثر مما فعلوا هم ؟ » فأجاب بار ، بأنه كان عمره فوق المائة حين ضاجع فتاة فحملت ، وأنه كفر عن خطيئته بأشد كفارة . وكان بار قد عاش ، تماماً تقريباً ، على البطاطس والخضر والخبز الجاف واللبن المخيض ، ونادراً ما ذاق اللحم . ولفترة من الوقت أصبح بار مشهوراً فى ردهات لندن وحاناتها ، وكانوا يقدمون له فيها ما لذ وطاب ، حتى أنه مات فى بحر عام من لقائه مع الملك . وفحص سير وليم هارفى جثته بعد وفاته فوجد أنه غير مصاب بتصلب الشرايين ، وشخص موته بأنه نتيجة لتغيير الهواء والغذاء[١٥] .

إن هارفى هو الذى هيأ لهذا العصر ذروة المجد العلمى بشرحه للدورة الدموية ، وهو « أجل حدث فى تاريخ الطب منذ عهد جالينوس[١٦] » . ولد فى فولكستون (١٥٧٨) ، ودرس فى كمبردج ثم فى بادوا على فابريزيو دكوابندانت ، فلما عاد أقام فى لندن ومارس الطب فيها ، وأصبح الطبيب الخاص لجيمس الأول ثم شارل الأول ، وعكف صابراً مثابراً ، سنين طوالا ، على إجراء التجارب والتشريح ، على الحيوانات والجثث ، ودرس ، بصفة خاصة تدفق الدم ومجراه فى الجروح . ووصل إلى نظريته الأساسية فى ١٦١٥[١٧] . ولكنه نشرها ، متأخراً ، فى فرانكفورت ١٦٢٨ ، على أنها « تجارب متواضعة فى تشريح الجثث ودماء الحيوان » . وهى أول وأعظم أثر فى الطب فى انجلترا .

وإن الخطوات التى تدرج فيها الكشف الذى توصل إليه هارفى لتوضح عالمية العلم . فإن وظائف القلب والدم ، ظلت لأكثر من ألف عام ، تفسر كما فسرها جالينوس فى القرن الثانى الميلادى . وكان جالينوس قد افترض أن الدم يتدفق إلى الأنسجة من الكبد والقلب سواء بسواء ، وأن الهواء يمر من الرئتين إلى القلب ، وأن الشرايين والأوردة بها مجريان للدم ، يدفعهما ويستقبلهما القلب ، فى حركة مد وجزر ، وأن الدم يجرى من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر من القلب عبر

مسام فى الحجاب الحاجز بين التجاويف . وعارض ليونارد ودافنشى (حوالى ١٥٠٦) فكرة مرور الهواء من الرئتين إلى القلب ، وأنكر فيساليوس (١٥٤٣) وجود مسام فى الحجاب الحاجز . وكشفت رسومه البارعة للشرايين والأوردة عن أن نهاياتها أو أطرافها دقيقة ومتلاصقة حتى لا تكاد توحى بالمرور والدورة . وأوضح فابريزيو أن الصمامات فى الأوردة تجعل من المستحيل تدفق الدم الوريدى من القلب . وتلاشت نظرية جالينوس . واكتشف ميشيل سرفيتس (١٥٥٣) ، وريالدوكولومبو (١٥٥٨) ، الدورة الدموية الرئوية — أى مروره من الجانب الأيمن من القلب عبر الشريان الرئوى إلى الرئتين ومن خلالها ، وتنقية الدم هناك بوساطة التهوية ، وعودته عن طريق الوريد الرئوى إلى الجانب الأيسر من القلب . واستبق أندريا سيسالبينو (حوالى ١٥٧١) — كما سنرى النظرية الكاملة للدورة ، وتحولت النظرية إلى حقيقة واضحة جلية بفضل ما قام به هارفى .

وبينما كان فرانسيس بيكون ، المريض الذى يتولاه هارفى ، يمجد الاستقراء ، توصل هارفى إلى النتيجة الرائعة عن طريق الجمع اللافت للنظر بين الاستنتاج والاستقراء . إنه بتقديره كمية الدم المندفع من القلب فى كل انقباض أو تقلص بأنها نصف أوقية سائل ، حسب أنه فى ساعة ، لابد أن يصب القلب فى الشرايين ، ما يزيد على ٥٠٠ أوقية سائل ، وهى كمية تزيد على ما يحتويه الجسم كله ، فمن أين يأتى كل هذا الدم . وبدا من المستحيل أن مثل هذا القدر الكبير يمكن أن ينتج من ساعة إلى ساعة ، من هضم الغذاء . فاستنتج هارفى أن الدم الذى يخرج من القلب يعاد إليه ، وأنه ليس ثمة طريق آخر لهذا سوى الأوردة . وبفضل التجارب والملاحظات البسيطة . وعلى سبيل المثال ، الضغط بالأصبع على أى وريد سطحى — تبين فى الحال وبسهولة ، أن الدم الوريدى تدفق من الأنسجة نحو القلب .

> عندما استعرضت مجموعة الشواهد التى لدى ، سواء ما استقيتها من تشريحات الأحياء وتأملاتى فيها ، أو من تجاويف القلب والأوعية التى تدخل إليها أو تخرج منها . . . . والتى كثيراً ما أمعنت التفكير فيها بشكل جدى . . . ما عساها تكون كمية

الدم التى تنقل . . . ووجدت من المستحيل أن تكون مستمدة من عصارات الغذاء الذى يدخل إلى الجسم ، دون أن تجف الأوردة تدريجياً ، من جهة ، وأن تنفجر الشرايين لفرط امتلائها بالدم ، من جهة أخرى ، إلا إذا وجد الدم له ، بطريقة ما ، مخرجاً من الشرايين إلى الأوردة ، ومن ثم يعود إلى الجانب الأيمن من القلب . . . أقول إنى عندما استعرضت كل هذه البيانات والشواهد ، بدأت أفكر فى أنه يمكن أن يكون هناك ، « حركة ، كما لو كانت فى دائرة . » . . . والآن يمكن أن أستبيح لنفسى أن أدلى بفكرتى عن الدورة الدموية(١٨) .

وتردد طويلا فى نشر النتائج التى توصل إليها ، لما كان يعلم من روح المحافظة التى سادت مهنة الطب فى عصره . وتنبأ بأن أى فرد فوق الأربعين لن يقبل نظريته(١٩) . وروى أوبرى « سمعته يقول إنه بعد صدور كتابه : الدورة الدموية ، تدهور تدهوراً شديداً فى عمله ، حتى أعتقد السوقة أنه قد اختل عقله (٢٠) . وحتى أثبت مالبيجى Malpighi (١٦٦٠) وجود الأوعية الشعرية التى تحمل الدم من الشرايين إلى الأوردة ، لم تكن دنيا العلم تسلم بأن الدورة الدموية حقيقة واقعة . إن الفكرة الجديدة أضاءت كل مجالات الفسيولوجيا تقريباً وأثرت على المشكلة القديمة ، مشكلة العلاقة المتبادلة بين الجسم والعقل . ويقول هارفى :

إن أى شعور فى العقل ، مصحوب بألم أو لذة ، بأمل أو خوف ، هو سبب فى اثارة يمتد أثرها إلى القلب ... وفى كل عاطفة تقريبا . . . تتغير ملامح الوجه ، ويظهر الدم جاريا هنا وهناك . وفى حالة الغضب تتقد العينان ، ويتقلص إنسان العين . وفى حالة التواضع تغمر الوجنات حمرة الخجل . أما فى حالة الشهوة فما أسرع ما يتضخم أو ينتفخ العضو بالـــدم (٢١) .

وظل هارفى فى خدمة شارل حتى الخاتمة الأليمة التى منى بها الملك تقريبا ، فقد رافقه حين طوحت الثورة بالملك إلى خارج لندن ، كما رافقه فى معركة ادجهل Edgehill ، حيث نجا من الموت بأعجوبة[٢٢] . وفى نفس الوقت نهب الثوار داره فى لندن ، وعبثوا بمخطوطاته ومجموعات التشريح التى كان يحتفظ بها . وربما كان هارفى قد جلب على نفسه عداوة كثير من الناس نظرا لحدة طبعه وآرائه . ولم يعتبر هارفى الانسان « إلا قردا ضخما شريرا كريها » كما قال أوبرى ، وذهب إلى « أننا نحن الأوربيين لم نعرف كيف نسوس نساءنا ونحكمهن ، وأن الأتراك هم الشعب الوحيد الذى استطاع أن يستخدمهن بحكمة[٢٣] . ولما كان محتفظا بنشاطه وحيويته وهو فى سن الثالثة والسبعين ، فانه نشر رسالة فى « علم الأجنة » (١٦٥١) ، نبذ فيها الاعتقاد السائد فى التوالد التلقائى لكائنات دقيقة من أجسام متحللة . واعتقد هارفى « بأن كل الحيوانات حتى هذه التى تنتج صغارها أحياء ، بما فى ذلك الانسان نفسه — تتطور وتخرج من بيضة ، وصاغ عبارة « كل حيوان يخرج من بيضة » . ومات بعد ذلك بست سنين بسبب شلل أصابه ، واهبا معظم ثروته التى تبلغ عشرين ألف جنيـــه لكلية الأطباء الملكية ، وعشرة جنيهات لتوماس هوبز « رمزاً للمحبة » .

٣ — صعود فرانسيس بيكون وسقوطه : ١٥٦١ — ١٦٢١

نحن الآن أمام أكبر عقل وأنشطه وأكثره مدعاة للفخر ، لقد وقفنا على مولده ونسبه ، ودراسته للأدب والدبلوماسية والقانون ، وفقره غير المتوقع ، والتماسه للوظيفة ، دون أن يسمع به أحد ، وتحذيره لصديقه المحسن الخير المجرم ، ومقاضاته أياه على كره منه . ولقد استنفد العلم والمعرفة والطموح كل طاقته ، حتى لم يعد به ميل إلى النساء ، على أنه على أية حال ، كان يحب الشبان[٢٤] . وفى سن الخامسة والأربعين (١٦٠٦) تزوج من أليس برنهام Barnham التى هيأت له ٢٢٠ جنيها فى العام . ولكنه لم ينجب أطفالا .

وعندما اعتلى جيمس الأول عرش انجلترا بعث إليه بيكون بكتاب مسرف فى

الزلفى والملق ، يعرض فيه نفسه على الملك على أنه صالح لتقلد المناصب وأهل لها ولما كان ابن حامل أختام الملك ، وابن أخ لآل سيسل أو من أبناء عمومتهم أو خؤولتهم ، فإنه أحس بأن طول انتظاره للوظيفة الحكومية يعكس شيئا من روح العداء من جانب الوزراء المتربعين على كراسى الحكم ، وربما كانت انتهازيته المتبرمة ، نتيجة ، وفى نفس الوقت سببا فى تأخر تعيينه فى أحد المناصب . وكان قد خدم بالفعل فى البرلمان لمدة تسعة عشر عاما ، دافع فيها عادة عن الحكومة ، واشتهر بسعة الاطلاع ، والفكر البناء ، والعبارة الواضحة الأخاذة . وكان يرسل بين الحين والحين . إلى الملك « مذكرات » تفيض بالآراء السديدة فى كيفية النهوض بالتفاهم المتبادل والتعاون بين مجلس العموم واللوردات ، وتوحيد برلمانى انجلترا واسكتلنده ، وإنهاء الاضطهاد الدينى للمخالفين ، وتهدئة أيرلنده باستمالة الكاثوليك فيها ، واعطاء الكاثوليك فى انجلترا مزيدا من الحرية دون فتح الباب للمزاعم البابوية ، وإيجاد وسيلة للتوفيق بين الانجليكانيين والبيوريتانيين . وقرر مؤرخ درس الشئون السياسية فى تلك الحقبة دراسة مستفيضة — قرر « أن تنفيذ هذا البرنامج لم يكن يعنى الا تغيير كل مساوئ النصف الثانى من هذا القرن (٢٥) » . وطرح جيمس هذه المقترحات جانبا على أنها غير عملية فى ظروف التفكير السائدة . واكتفى بضم بيكون إلى طبقة الفرسان الثلاثمائة الذين وزعهم ١٦٠٣ ، وتذرع بيكون بالصبر وظلى يمنى نفسه .

وعلى الرغم من كل شئ ، فان براعته بوصفه محاميا لم توفر له الغنى والثراء إلا فى شئ من البطء . وفى ١٦٠٧ قدرت ثروته بنحو ٢٤,١٥٥ جنيه (٢٦) . وفى ضيعته التى زودها بكل ألوان الترف ، فى جورهامبرى ، كما هيأ لها نخبة من العاملين المرتفعى الأجور والسكرتيرين اليقظين مثل توماس هوبز ، نقول انه فى هذه الضيعة استطاع أن ينعم بالجمال والراحة اللتين أحبهما فى حكمة أكثر مما ينبغى ، ورعى صحته بالعمل فى الحديقة التى بنى فى وسطها ركنا فاخرا يأوى إليه ليخلو إلى نفسه يتفرغ إلى الدرس والبحث ، فكتب كما يكتب الفلاسفة وعاش كما يعيش الأمراء ،

اله لم يجد سببا يبرر أن يكون العقل مفلسا ، ويبرر ألا يكون « سليمان » (أى الحكيم) ملكاً .

إن بيكون لم يطل به الأمد حتى يبلغ الهدف ، فان الملك جيمس الذى قدره حق قدره آخر الأمر عينه فى ١٦٠٧ مساعدا للنائب العام وفى ١٦١٣ نائبا عاما ، وفى ١٦١٦ عضوا فى مجلس شورى الملك ، وفى ١٦١٧ حاملا للأختام ، وفى ١٦١٨ قاضيا للقضاة . وخلعت عليه ألقاب كريمة جديدة لتزين مواهبه وقدراته : ففى ١٦١٨ عين بارون فيرولام الأول ، وفى يناير ١٦٢١ فيكونت سانت ألبانز . ولما غادر جيمس انجلترا إلى اسكتلنده ، ترك قاضى قضاته ليحكم البلاد . « واستقبل بيكون السفراء يحف به الجلال والعظمة » وعاش فى جورهامبرى تحوطة الفخامة والأبهة « حتى بدا أن البلاط الملكى هنا (فى قصر جورهامبرى) ، وليس قصر هويتهول أو فى قصر سان جيمس (٢٧) » .

لقد حظى بيكون بكل شىء إلا الشرف . ففى سعيه وراء المناصب كثيرا ماضحى بالمبادىء ، فاستغل نفوذه ، كمساعد للنائب العام ، لاصدار الأحكام القضائية على الصورة التى يرغب فيها الملك (٢١) ودافع ، وهو حامل للأختام الملكية ، عن أشد الاحتكارات تعسفا وظلما ، وحماها واضح أنه فعل هذا ابقاء على رضاء بكنجهام . وقبل ، وهو قاض ، هدايا ثمينة من المتقاضين أمام محكمته . ولم يكن كل هذا إلا شيئا من فساد هذا العصر ورخاوته ، ان الموظفين العامين كانوا يتقاضون رواتب هزيلة ، فعوضوا عنها « بالهدايا والعطايا » ممن يساعدونهم . واعترف جيمس قائلا : إذا كان لا بد لى من معاقبة الرشوة ، لما تركت واحدا من الرعايا » . ان جيمس نفسه كان يقبل الرشوة (٢٩) .

وثارت ثائرة البرلمان الذى اجتمع فى يناير ١٦٢١ ضد الملك — وكره بيكون ، لأنه أكبر مدافع عنه ، وأنه هو الذى قضى بشرعية الاحتكارات ، وإذا لم يكن فى مقدور البرلمان بعد أن يخلع الملك ، فان فى مقدوره تجريح وزيره ومساءلته . وفى فبراير عين لجنة لتقصى الحقائق فى دور القضاء خاصة . وفى مارس قدمت اللجنة تقريرا

أثبتت فيه أنها وجدت مخالفات كثيرة ، لاسيما فى تصرفات قاضى القضاة وسلوكه ، واتهمته بثلاث وعشرين حالة محددة من حالات الفساد . وأهاب بيكون بالملك أن ينقذه ، متنبأ بأن « هؤلاء الذين يطعنون قاضى القضاة الآن ، سرعان مايطعنون التاج بعده (٣٠) » . وأشار عليه جيمس باقرار الاتهام ، ومن ثم يضرب مثلا يحول دون الفساد فى الوظائف العامة مستقبلا ، وفى ٢٢ أبريل أرسل بيكون اعترافا إلى مجلس اللوردات . وسلم بأنه أخذ هدايا من المتقاضين ، كما فعل سائر القضاة ، وأنكر أن أحكامه تأثرت بها — فانه كان قد أصدر فى قضايا كثيرة أحكاما ضد مقدمى الهدايا. وحكم عليه مجلس اللوردات « بدفع غرامة قدرها أربعون ألفا من الجنيهات . وبالسجن فى برج لندن لمدة يرضاها الملك ، ولا يكون له إلى الأبد الحق فى تولى المناصب العامة ، وألا يدخل البرلمان فى الدولة بأسرها » . وسيق فى ٣٠ مايو إلى برج لندن ، ولكن أفرج عنه بعد أربعة أيام بأمر من الملك الذى ألغى كذلك الغرامة التى تبهظ كاهله . وآوى قاضى القضاة المعاقب إلى جورهامبرى ، وحاول أن يحيا حياة أكثر بساطة . ووجد راولى Rawley وهو أول من كتب سيرة حياة بيكون — على ورقة كتبها عند وفاته ، بالرمز « كنت أعدل قاض فى إنجلترا فى هذه السنوات الخمسين ، ولكنه كان كذلك أعدل تقريع من البرلمان فى هاتين المائتين من السنين» (٣١)

وكانت لهذا الاتهام والمحاكمة آثار طيبة ، ذلك أنها خففت من الفساد فى الوظائف العامة ، ولا سيما فى دور القضاء ، كما وضعت سابقة مسئولية وزراء الملك أمام البرلمان . كما أنها صرفت بيكون عن ميدان السياسة ، الذى كان فيه متحررا فى التفكير ، رجعيا فى التنفيذ ، وردته ثانية إلى مجال بديل ، هو مجال العلم والفلسفة حيث أمكنه « أن يدق الناقوس لتجتمع العبقريات معا » وأن ينادى فى نثر رائع بثورة العقل ومنهجه .

٤ — التجديد الكبير

كانت الفلسفة لأمد طويل ، الملجأ الذى يلوذ به بيكون ، هربا من عناء العمل ، إن لم تكن حبه الدفين الذى يطوى علية جوانحــه ، وأسعــد مايصبو اليه ويقبل عليه ، وكان بالفعل قد نشر فى ١٦٠٣ — ١٦٠٥ مؤلفا عظيما The Proficience

and Advancement of Learning (اتقان المعرفة والنهوض بها) ولكن بدا له أن هذا مجرد برنامج تمهيدى وليس انجازا . وفى ١٦٠٩ كتب إلى أسقف إلى Ely : أرجو أن يأذن الله لى فى أن أكتب كتابا مستفيضا منصفا فى الفلسفة ... (٣٢) » ، وفى ١٦١٠ كتب إلى كازوبون (عالم لاهوتى وكاتب فرنسى معاصر له) :« إن ما أهدف إليه هو أن أحدث تنظيما أفضل لحياة الانسان ... بفضل التأمل الصحيح الصادق(٣٣) » .

وفى أثناء السنوات التى أزعجته فيها المناصب ، كان بيكون قد أبصر — فى افتراض طائش فى أيام السعة والثراء — بخطة وقورة لتجديد العلم والفلسفة . وقبل سبعة شهور من سقوطه ، أعلن الخطة فى كتاب باللاتينية موجه إلى كل أوربا ، أسماه فى جرأة « التجديد الكبير » . وكانت صحيفة العنوان نفسها تحديا ، ذلك أنه قد رسم عليها قارب يعبر بأقصى سرعته أعمدة هرقل إلى الأطلسى ، ووضع بين الأعمدة أحد شعارات العصور الوسطى « لا تذهب إلى أبعد من ذلك » وكتب بيكون « إن كثيرين سوف يمرون عبره ، ولسوف تزداد المعرفة والعلم » . وأضافت المقـدمة المزهوة « إن فرانسيس فيرولام (بيكون) قد تدبر هذا بينه وبين نفسه ، وحكم بأنه من مصلحة الأجيال الحاضرة والمستقبلة أن تتعرف على أفكاره(٣٤) . »

ولما وجد أن « ما يجرى فى مجال العلم الآن ليس إلا مجرد دوران حوله ، وحركة دائبة تنتهى إلى حيث تبدأ ، خلص إلى أنه » :

> ليس ثمة إلا سبيل واحد أمامنا .... وهو أن نحاول الأمر كله من جديد ، وفق خطة أفضل ، وأن نشرع فى أن نقيم من جديد ، إقامة تامة ، صرح العلـوم والفنون العملية ، وكل المعرفة الانسانية ، على أساس سليم .... وفضلا عن ذلك فانه لما لم يكن يعلم كم من الزمن قد ينقضى قبل أن تتيسر هذه الأفكار لأحد غيره ... فانه

عقد العزم على أن ينشر على الفور كل مايستطيع انجازه ، حتى يبقى ، فى حال وفاته ، موجزا أو خطة لما كان قد فكر فيه . إن كل المطامح بدت لناظريه هزيلة ضئيلة إذا قورنت بالعمل الذى هو بصدده(٣٥) .

وجعل إهداء المشروع برمته إلى جيمس الأول مع رجاء المعذرة « لأنى سرقت من الوقت المخصص لانجاز المهام التى وكلتها إلى ، وقتا اقتضاه هذا العمل » ، ولكن مع أكبر الأمل فى « أن يكون فى نتيجته تخليد لذكرى اسمك وتشريف لعهدك » — وهذا ماحدث ، فان جيمس كان رجلا معروفا بسعة الاطلاع والنوايا الطيبة ، فلو أمكن اقناعه بتمويل الخطة ، فأى تقدم كان يمكن تحقيقه ؟ وكما كان روجر بيكون قد أرسل قبل ذلك بزمن طويل (١٢٦٨) إلى البابا كليمنت الرابع « العمل العظيم » يلتمس منه العون على تنفيذ اقتراح بالنهوض بالعلم والمعرفة ، فان سميه أهاب الآن بالملك أن يأخذ على عاتقه « مهمة ملكية » هى تنظيم البحث العلمى ، والتوحيد الفلسفى لنتائجه ، من أجل الخير المادى والأدبى للجنس البشرى. وذكر جيمس « بالملوك الفلاسفة » — نرفا ، تراجان ، هادريان ، أنطونينوس ، بيوس ، ماركوس أوريليوس ، الذين هيأوا للامبراطورية الرومانية حكومة فاضلة لمدة قرن من الزمان (٩٦ — ١٨٠) بعد الميلاد . فهل كان من أجل حاجته إلى الاعتمادات الحكومية وأمله فى الحصول عليها ، أنه أيد الملك بمثل هذا العناد والاصرار ، وبشكل جر عليه الخراب ؟ .

وفى مقدمة أخرى طلب بيكون من القارىء أن يلقى نظرة على العلم السائد وقد هلهلته الأخطاء ، وركد بشكل مخز . لأن :

« العباقرة العظام ، على تعاقب العصور ، كانوا يرغمون على الانحراف عن طريقهم ، إن الرجال ذوى القدرة والفكر ، فوق مستوى السوقة ، كان يسرهم ، من أجل الشهرة ، أن ينحنوا أمام حكم الزمن والجماهير ، وهكذا

فان أى تفكير من مستوى رفيع ظهر فى أى مكان ، كانت
تعصف به رياح الأفكار السوقية(٣٦) » .

ولكى يهدىء من روع رجال اللاهوت الذين كانوا متسلطين على الشعب أو الملك ، فان بيكون حذر قراءه من أن « يقصروا معنى » مايضطلع به « فى حدود الواجب ، فيما يتعلق بالمسائل الالهية أو الدينية » . وتنصل من أى قصد له فى التعرض للعقائد أو الشئون الدينية . « إن المهمة التى بين يدى ليست رأيا يجب اعتناقه ، بل هى عمل يجب القيام به . . . إنى لاأكد وأنصب فى وضع أساس أى مذهب أو نظرية ، بل أساس منفعة الانسان وقوته(٣٧) » . واستحث الآخرين أن يقبلوا عليه وينضموا إليه فى عمله ، ووثق فى أن الأجيال المتعاقبة ستواصله .

وفى نشرة تمهيدية رائعة عرض بيكون خطة للمشروع :

فأولا ، يمكن أن يحاول تصنيفا جديدا للعلوم القائمة أو المرغوب فيها ، ويفرد لها مسائلها ومجالات البحث فيها ، وهذا هو ما أنجزه فى " النهوض بالمعرفة " ، الذى ترجمه ووسع فيه فى كتاب (التوسع فى العلوم) ١٦٢٣ ، حتى يصل إلى القراء فى القارة .

ثانيا : ، يمكن أن يتفحص مواطن الضعف فى المنطق المعاصر ، ويسعى إلى " استغلال أدق وأكمل للعقل البشرى " مما صاغه أرسطو فى رسائله المنطقية ، المعروفة فى جملتها باسم Organon ، وهذا مافعله بيكون فى كتابه Novum Organum (١٦٢٠) .

ثالثا : يمكن أن يشرع فى " تاريخ طبيعى " " لظواهر الكون " — الفلك ، الفيزياء ، البيولوجيا .

رابعا : يمكن أن يعرض فى " سلم الفكر " نماذج من التحقيق العلمى ، طبقا لطريقته الجديدة .

خامسا : يمكن أن يصف مثل هذه الأشياء ، بوصفها بشائر ، " كما كشفتها أنا بنفسى " .

سادسا : يمكن أن يشرع فى تفسير تلك الفلسفة التى تعقبها فى مختلف العلوم على هذا النحو ، ومن ثم يجب إيضاحها وإثبات صحتها . « ان اكمال الجزء الأخير ». . فوق طاقتى وأكثر مما أصبو إليه » . ويبدو لنا ، نحن الذين نتخبط ونلهث اليوم فى خضم المعرفة والتخصصات ، ان برنامج بيكون عقيم أشد العقم . ولكن المعرفة لم تكن آنئذ بمثل هذه السعة والدقة ، وأن روعة الأجزاء التى أنجزت لتغفر جراءة الكل . وعندما أفضى بيكون إلى سيسل بقوله « انى ضممت كل المعرفة إلى نطاق ولايتى » ،فانه لم يكن يقصد أنه فى مقدوره أن يستوعب كل العلوم تفصيلا ، ولكنه قصد أن يستعرض العلوم ، وكأنما يمسحها أو يلقى عليها نظرة عامة « من عل » ، بغرض تنسيقها وتشجيعها . وقال وليم هارفى عن بيكون إنه « كتب الفلسفة ، على نهج قاضى القضاة فى الكتابة (٣٨) » ، بل وخططها كما يخطط القائد الامبراطورى معركة .

وانا لندرك اتساع مجال العقل وحدة الذهن عند بيكون إذا نحن تتبعناه فى كتاب «النهوض بالمعرفة »، إنه يعرض أفكاره فى تواضع غير مألوف ، على أنها « ليست أفضل كثيرا من الصوت ... الذى يحدثه الموسيقيون حين يضبطون آلاتهم (٣٩) » . ولكنه يعزف هنا كل نغماته المميزة ، إنه يدعو إلى مضاعفة عدد الكليات والمكتبات والمعامل وحدائق الأحياء والمتاحف العلمية والصناعية ، وتدعيمها جميعا ، كما يدعو إلى تحسين رواتب المعلمين والباحثين ، وتخصيص اعتمادات أكبر لتمويل التجارب العلمية ، وإلى اتصال متبادل وتعاون أوثق وخطة أفضل لتوزيع العمل بين جامعات أوربا (٤٠). انه ، فى تقديسه أو عبادته للعلم ، لم يفقد رؤيته الصحيحة للأشياء أو وجهة النظر السليمة ، فهو يدعو إلى تعليم عام متحرر ، يشمل الأدب والفلسفة ، لأنه يهيئ للوصول إلى حكم سليم على الغايات التى تقترن بتحسين الوسائل على أساس علمى (٤١) . وهو يحاول أن يصنف العلوم فى ترتيب منطقى ،ويحدد مجالاتها وحدودها ويوجه كلا منها إلى أمهات المسائل التى تنتظر الفحص والحل وتحقق كثيراً من مطالبه عن طريق العلوم — تسجيل أفضل لتطورات المرض عند المريض ، إطالة الحياة باستعمال الأدوية الواقية ، الفحص الدقيق « للظواهر النفسية » ، والنهوض بعلم

النفس الاجتماعى . حتى لقد استبق دراستنا المعاصرة فى وسائل النجاح[٤٣] .

أما القسم الثانى والأكثر جراءة من « التجديد الكبير » فكان محاولة لصياغة منهج للعلم . لقد عرف أرسطو الاستقراء ، ودعا اليه أحيانا ، ولكن الأسلوب الغالب فى منطقه هو الاستنباط ، والمثل الأعلى فيه هو القياس . وأحس بيكون بأن المنهج القديم Organon قد أبقى العلم راكدا ، بتوكيده على الفكر النظرى أكثر منه على الملاحظة . الواقعية . أما « المنهج الجديد » فقد عرض فيه بيكون نظاما وأسلوبا جديدين للفكر — الدراسة الاستقرائية للطبيعة ذاتها ، عن طريق الخبرة والتجربة . وهذا الكتاب أيضا ، ولوأن بيكون تركه دون أن يكمله ، وعلى الرغم من كل عيوبه ، هو أروع انتاج فى الفلسفة الانجليزية ، وأول دعوة صريحة واضحة إلى عصر العقل . ولقد كتب باللاتينية ، ولكن فى عبارات مشرقة بليغة ، جرى نصفهامجرى الحكم وجوامع الكلم . إن السطور الأولى جمعت أطراف فلسفة ... تعلن الثورة الاستقرائية ، وتؤذن أو تنذر بالثورة الصناعية ، وتضع مفتاح التجريبية فى يد هوبزولوك ومل وسبنسر .

> ان الانسان بوصفه خادم الطبيعة ومفسرها ، يمكن أن يعمل ويفهم الكثير، والكثير حقاً من مجرى الطبيعة ، مادام قد لاحظ الطبيعة واقعيا ، أوبفكره ... أما ما وراء هذا فهولا يستطيع أن يدرك شيئا أويعمل شيئا . إن المعرفة الانسانية والقدرة البشرية تلتقيان فى الانسان الواحد ، وحيثما لايعرف مجرى الطبيعة ، لايمكن إنتاج الأثر المطلوب . ولكى تسيطر على الطبيعة . ينبغى أن تمتثل لها (*)

وكما اقترح ديكارت بعد ذلك بسبعة عشر عاما ، فى « بحث فى المنهج » ، أن يبدأ الفلسفة بالشك فى كل شىء ، فان بيكون هنا يتطلب تنقية الفكر «كخطوة أولى فى التجديد» . ذلك أن «المعرفة الانسانية كما نعهدها فى انفسنا ، ان هى إلا خليط وأكداس

(*) العبارة المشهورة « المعرفة قوة » لاترد بهذه الصيغة فى مؤلفات بيكون الموجودة الآن . ولكن فى نبذة من « التأملات المقدسة » كتب يقول « المعرفة نفسها قوة » (٤٣) والفكرة ، بطبيعة الحال ، سائدة فى كل كتابات بيكون .

لم يتيسر هضمها ، مكونة من كثير من السذاجة وسرعة التصديق ، وكثير من المصادفات والأعراض غير الجوهرية ، وكذلك من الأفكار الصبيانية التي تشربناها في أول الأمر[٤٤] » . ومن ثم يجدر بنا ، منذ البداية ، أن نخلي أذهاننا ، قدر الطاقة ، من أية انشغالات سابقة وتحيزات وافتراضات ، بل يجدر بنا حتى أن ننصرف عن أفلاطون وارسطو ، ونكتسح من أفكارنا « الأصنام » أو الأوهام الخالدة التي ولدها فينا فرط الحساسية في الحكم على الأشياء أو المعتقدات والتعاليم التقليدية السائدة في مجتمعنا ، ويجب أن ننبذ الحيل المنطقية التي يمليها التفكير لمجرد الرغبة في شيء ما ، والحماقات اللفظية للتفكير الغامض ، ويجب أن نخلف وراء ظهورنا ، كل طرق الاستنباط الفخمة ، تلك الطرق التي عرضت أن نستنبط ألفاً من الحقائق الباطنة من بضع بديهيات أو مبادىء قليلة . وليس في العلم قبعة سحرية ، وكل ما يؤخذ من القبعة لخدمتنا يجب أن يوضع أولا عن طريق الملاحظة أو التجربة . ولكن لا يقصد هنا مجرد الملاحظة العابرة ؛ أو « السرد البسيط » للمعطيات ، ولكن « الخبرة . . . . المطلوبة للتجربة » . وعلى هذا نجد أن بيكون الذي غالباً ما انتقص من قدره على أنه يتجاهل المنهج الحقيقي للعلم ، يتقدم ليصف المنهج الفعلي للعلم الحديث :

> إن المنهج الصحيح للاختبار ، يشعل النور أولا (بالافتراض) ، ثم بوساطة هذا الضوء ينير الطريق ، بادئاً بالاختبار ترتيباً سليما . ومنه يستنتج بديهيات « الثمار الأولى » ، (النتائج المؤقتة) ومن البديهيات الراسخة تبدأ ثانية تجارب جديدة . . . إن التجربة نفسها هي التي ستقرر وتحكم[٤٥] .

ومهما يكن من أمر فإن بيكون كان على حذر من الفرضيات . حيث كانت في الكثير الغالب توحي بها التقاليد أو التحيز أو الرغبة ، أي توحي بها (مرة أخرى) « الأصنام » . فكان يرتاب في أي نهج تقليدي تصطفي الفرضية فيه ، قصداً أو عن غير قصد من التجريب معطيات مثبتة أو مؤكدة لها ، وتفسر تفسيراً خاطئاً أو تتعامى عن الشواهد العكسية أو المضادة . وتجنباً للوقوع في هذا الشرك ، اقترح بيكون استقراء شاقاً ، بتجميع كل الحقائق الوثيقة الصلة بالمسألة ، وتحليل هذه الحقائق ومقارنتها

وتصنيفها ، وربطها بعضها ببعض ، ثم « بعملية صحيحة من « الاستبعاد والنبذ » أى التخلص من فرضية بعد أخرى ، على التعاقب ، حتى يمكن الكشف عن " الصيغة " أو القانون الأساسى الضمنى وجوهر الظاهرة(٤٦) . إن معرفة « الصيغة » سوف يهيىء تحكماً متزايداً فى الحدث ، فيعيد العلم بالتدريج صنع البيئة ، بل من المحتمل صنع الإنسان نفسه .

وأحس بيكون بأن هذا هو الهدف النهائى — أى أن منهج العلم سوف يطبق على التحليل البالغ الدقة للشخصية الإنسانية ، والصميم على إعادة تشكيلها . ويحث بيكون على دراسة الغرائز والعواطف ، وهذه وتلك وثيقة الصلة بالذهن ، قدر صلة الرياح بالبحر(٤٧) . ولكن هنا بصفة خاصة ، لا يكون الخطأ فى مجرد التماس المعرفة ، بل فى نقلها . ويمكن إعادة صنع الإنسان عن طريق التعليم المستنير ، لو أننا كنا نريد أن تجذب إلى ميدان التربية عقولا من الطراز الأول بمنحهم الرواتب الكافية وتكريمهم(٤٨) . ويبدى بيكون إعجابه بالجزويت ، وتمنى لو أنهم « كانوا على مذهبنا وفى صفنا(٤٩) » ، ويستنكر الملخصات ، ويحبذ التمثيل فى الكليات ، ويدعو إلى مزيد من العلم فى البرامج ، فإذا نظرنا إلى العلم والتعليم على هذا الأساس ، فإنهما (كما جاء فى « قارة أطلنطس الجديدة » لن يكونا من خدم الحكومة وأدراتها . بل مرشدها وهدفها ؛ ويختم قاضى القضاة الأمين بقوله « إنى أراهن بكل شىء فى سبيل نصرة الفن على الطبيعة فى سباقهما » .

٥ — فلسفة رجل الدولة

هنا نحس بعقل جبار ؟ ى — رجل واحد على مدى قرن ، متمكن من الفلسفة ومن السياسة على حد سواء . وقد يشوقنا أن نقف على تفكير الفيلسوف فى السياسة ، وتفكير السياسى فى الفلسفة .

وعلى الرغم من أنه كان لبيكون منهج فى الفلسفة ، وأنه ترك عرضاً حسن الترتيب لفكره ، باستثناء المنطق ، فإن اتجاه أفكاره كان واضحاً ، ولو أنها اتخذت شكلا يدل على رجل كان لزاماً عليه كثيراً أن يخرج عن هدوء الفلسفة لينظر فى قضية

قانونية ، أو ليقف فى وجه المعارضة فى البرلمان ، أو ليمحض الرأى والنصح ملكاً لا يجدى معه الرأى والمشورة . ويجدر بنا أن نجمع آراءه من تعليقاته العابرة ومن نبذه الأدبية ، بما فى ذلك « مقالاته » (١٥٩٧ ، ١٦١٢ ، ١٦٤٥) . وفى إهدائه هذه المقالات إلى بكنجهام ، وفى غرور صناعة الكتابة ، كتب بيكون ، « إنى أرى . . . . أن الأثر قد يبقى ما بقيت الكتب » . وكان أسلوبه فى رسائله متكلفاً ملتوياً ، حتى لقد اعترفت زوجته : « إنى لا أفهم كتابته الملفوفة المليئة بالألغاز[٥٠] » . وبذل فى « المقالات » جهداً أكبر ، وراض قلمه على الوضوح ووصل إلى قوة هائلة فى التعبير ، لا تباريه فيها إلا صحائف معدودة فى النثر الانجليزى ، من حيث المادة ذات المغزى الهام الزاخرة بالتشبيهات المشرقة الواضحة فى صياغة دقيقة ، وكأنما أولع تاسيتس (مؤرخ رومانى — القرن الأولى الميلادى) بالفلسفة ، وتنازل ليكون واضحاً .

إن حكمة بيكون دنيوية إنه ينصرف عن الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) إلى الخفى أو الطائش من الأمور ، وقليلا ما قفز طموحه الوثاب من الجزء إلى الكل . ومهما يكن من أمر فإنه يبدو أحياناً أنه يخوض فى مادية حتمية : « لا يوجد فى الطبيعة حقاً ، شىء عدا الأجسام الفردية التى تؤدى أعمالا فردية صرفة طبقاً لقانون محدد[٥١] » . وإن البحث فى الطبيعة ليأتى بأحسن النتائج حين يبدأ بالفيزياء وينتهى بالرياضيات[٥٢] ولكن " الطبيعة " هنا قد تعنى العالم الخارجى . لقد آثر بيكون الفلاسفة المتشككين قبل سقراط ، على أفلاطون وأرسطو . وامتدح ديموقريطس الفيلسوف المادى[٥٣] . ولكنه حينئذ يرتضى تمييزاً دقيقاً بين الجسم والنفس[٥٤] ، ويستبق انتقاد برجسون للفكر على أنه « مادى أساسى » . « إن إدراك الإنسان يتأثر برؤية ما يجرى فى الفنون الميكانيكية . . . . ومن ثم يتخيل أن شيئاً شبيهاً بهذا يجرى فى الطبيعة الأشياء[٥٥] » . ويرفض مقدماً البيولوجيا الميكانيكية عند ديكارت .

ومع ما يعتمل فى نفسه من عواطف متصارعة نحو الدين ، نراه « يتبل » فى حرص ، فلسفته « بالدين ، وكأنما يتبل بالملح[٥٦] » « الأفضل عندى أن أصدق الخرافات التى

فى حياة القديسين وفى التلمود وفى الكتب المقدسة ، على أن يكون هذا العالم بلا عقل[٥٧] » . ويضع الالحاد فى مكانه فى قطعة تكررت مرتين[٥٨] . وإن تحليله لأسباب الالحاد لتوضح فكرة هذا الكتاب : —

> إن أسباب الالحاد هى الانقسامات فى العقيدة ، إذا كانت كثيرة ، لأن أى انقسام أساسى يلهب حماسة الفريقين كليهما وغيرتهم ، ولكن الانقسامات الكثيرة تقود إلى الالحاد ، وثمة سبب آخر ، وهو أعمال القسس المخزية . وأخيراً ، عصور المعرفة ، وخاصة إذا سادها السلم والرخاء ، فان المتاعب والعداوات تزيد فى اتجاه عقول الناس إلى الدين[٥٩] .

إن بيكون يؤكد قاعدة أن " الدين يحد من كل ألوان المعرفة[٦٠] " . وطبقاً لما رواه قسيسه راولى « كان يذهب كثيراً إلى الصلاة فى الكنيسة ، إذا سمحت ظروفه الصحية » . . . ولقى ربه على العقيدة الصحيحة للكنيسة الانجليزية »[٦١] وعلى الرغم من ذلك ، فانه أفاد ، مثل خلفه العظيم وليم أوكهام ، من التمييز بين الحقيقة اللاهوتية والحقيقة الفلسفية ، فقد يمسك الدين بمعتقدات لا يجد العلم والفلسفة عليها دليلا ، ولكن الفلسفة يجب أن تعتمـــد على العقل فقط ، كما أن العلم ينبغى أن يلتمس تفسيرات دنيوية صرفة ، على أساس سبب ونتيجة ماديتين[٦٢] .

وعلى الرغم من تحمس بيكون للمعرفة ، فانه يخضعها أو يضعها فى المحل الثانى من الأخلاق . فليس ثمة نفع للانسانية إذا لم يؤد التوسع فى المعرفة إلى الخير . « إن طيبة النفس هى أهم مزايا العقل ومنازله الرفيعة [٦٣] » ومهما يكن من أمر فان حماسته المألوفة تفتر حين يتحدث عن الفضائل المسيحية . ومن الواجب ممارسة الفضيلة باعتدال ، لأن الأشرار قد يخدعون الاخيار غير الحكماء[٦٤] . وقليل من الخداع أو الرياء ضرورى للنجاح ، إن لم يكن المدنية . والحب ضرب من الجنون ، والزواج نوع من الشرك أو الفخ : « إن الذى له زوجة وأولاد ، يضع عقبات فى سبيل النجاح ، لأنهم عوائق فى سبيل المغامرات والمشروعات الكبيرة . . .

إن أفضل الأعمال وأعظمها أثرا على النـــاس نبعت من إناس ليس لهم زوجة ولا أولاد . " وأقر بيكون — مثل اليزابث وهلدبراند — عزوبة رجال الدين ". إن حياة العزوبة تصلح لرجال الكنيسة ، لأن الصدقات لاتكاد تروى الأرض ، إذا كان لزاما عليها أولا أن تملأ بركة(٦٥) " (لاحظ نزعته إلى الاستعارة والمجاز والايجاز الأنجلوسكسونى) . إن الصداقة خير من الحب : وإن المتزوجين ليكونون صداقات غير ستقرة . إن بيكون يتكلم عن الحب والزواج بأسلوب رجل ضحى بالعواطف الرقيقة فى سبيل الطموح ، ورجل أمكنه أن يحكم مملكة أفضل من أن يحكم بيته .

أما فلسفته السياسية فقد واجهت حالات وظروفا أكثر مما واجهت نظريات . وأوتى من الشجاعة ما امتدح معها ماكيافللى . وارتضى صراحة المبدأ القائل بأن الدول ليست مقيدة بالقانون الأخلاقى الذى تلقنه لرعاياها . وأحس — مثل نيتشه ، بأن الحرب الجيدة ترحب بأى سبب ،» ويجب ألا نستمع إلى رأى أساتذة وفلاسفة العصور الوسطى الذى يقول بأنه ليس من العــدل أن تشن الحرب إلا إذا سبقها وقوع الضرر أو الاستفزاز ... إن الخوف الحقيقى من خطر محدق ، ولولم تحدث أية ضربات ، سبب مشروع للحرب . » وفى أية حادثة « فان الحرب العادلة الشريفة هى الطريقة المثلى » للمحافظة على الأوضاع السليمة للأمة(٦٦) . وإنه لمن أقصى درجات الأهمية ، من أجل الامبراطورية والعظمة ، أن تؤمن الأمة بأن « سلاحها هو مناط شرفها ، وهو هدفها وشغلها الشاغل ». والبحرية القوية ضمان لاحترام الجيران . « والسيادة على البحار هى الرمز الحقيقى للملكية(٦٧) » . وفى شباب الدولة تزدهر الأسلحة ، وفى وسط عمر الدولة ، تزدهر المعرفة ، ثم تزدهر الأسلحة والمعرفة كلتاهما معا لفترة من الزمن ، وفى عصر اضمحلال الدولة تنتعش الأعمال التجارية والتجارة(٦٨) . وسكان المدن محاربون ضعاف ، والفلاحون أو القرويون أفضل منهم فى الحرب ، ولكن صغار ملاك الأرض الأحرار أفضل الجميع . ومن ثم فان بيكون — مثل مور ، استنكر المساحات الزراعية الكبيرة

المسورة ، لأنها تقلل من نسبة ملاك الأراضي فى السكان . واستنكر تركيز الثروة على أنه سبب هام من أسباب الفتن والثورات :

> وأول علاج أو مانع لهذه ، هو أن نزيل بكل الوسائل الممكنة ، السبب المادى . . . وهو الحاجة والفاقة . . . ونهتم بكل مايخدم التوسع فى التجارة وتوازنها ، وتعزيز الصناعة والقضاء على الخمول ، والتبديد والتبذير ، بسن قوانين الحد من الانفاق وتنظيمه . وتحسين التربة وعدم إرهاقها وتحديد أسعار الحاجيات المبيعة وتخفيف الضرائب . . . . وفوق هذا كله ، انتهاج سياسة حكيمة فى عدم تجميع ثروات الدولة وأموالها فى أيد قليلة .... إن المال مثل السماد ، لاخير فيه ، إلا إذا انتشر(٦٩) .

وارتاب بيكون فى البرلمان ، بوصفه مشكلا من ملاك الأراضي والتجار غير المتعلمين المتعصبين أووكلائهم ، وفكر فى أن جيمس الأول ، بالمقارنة بهؤلاء ، متعلم يتحلى بروح إنسانية ، بل إن نظرية الملك فى " الحكم الاستبدادى المطلق " بدت فى نظره خيرة كبديل عن الزمر الجشعة والمذاهب العنيفة . واعتبر — مثل معاصره ريشيليو — أن تركيز السلطة فى يدالملك ،واخضاع كبار ملاك الأراضي له ، خطوة ضرورية لإقامةحكومة منظمة. وذهب ،مثل فولتير :إلى أن تعليم رجل واحد أيسر من تعليم الجماهير . إن الثروة الهائلة الخاصة لم تزعج الملك . وكان جيمس مشدودا فى عناد بالغ إلى التبذير والضرائب والسلام .

وسخر بيكون من « الفلاسفة » الذين « يسنون قوانين خيالية لدول خيالية ، إن مقالاتهم أو محاضراتهم ، كالنجوم التى لاتعطى إلا قليلا من الضوء لأنها على ارتفاع شاهق » . ولكنه فى أيام سأمه ، أغرى بأن يصور نوع المجتمع الذى يريده للناس ليعيشوا فيه . ولا ريب فى أنه كان قد قرأ " يوتوبيا " مور (١٥١٦) ، وكان كامبانللا قد نشر لتوه كتابه " مدينة الشمس " (١٦٢٣) ، والآن فى ١٦٢٤

كتب بيكون " القارة الجديدة " (The New Atlantis) " أبحرنا من بيرو التي كنا قد قضينا فيها سنة كاملة إلى الصين واليابان عبر البحر الجنوبي " : هدوء تام ، أرزاق محدودة ، جزيرة تحوطها العناية الإلهية ، شعب يحيا حياة سعيدة في ظل قوانين سنها لهم المغفور له الملك سليمان . وبدلا من البرلمان . مجلس سليمان — مجموعة من المراصد والمعامل والمكتبات وحدائق الحيوان والنبات ، مزودة برجال العلم ورجال الاقتصاد والفنيين والأطباء وعلماء النفس والفلاسفة ، مختارين (كما هو الحال في جمهورية أفلاطون) بعد اختبارات متكافئة بعد فرص تعليمية متكافئة ، ثم (دون إجراء انتخابات) يحكمون الدولة ، أو بالأحرى ، يحكمون الطبيعة ، لمصلحة الانسان . ويشرح أحد هؤلاء الحكام للمتبربرين القادمين من أوربا فيقول : " إن غاية مؤسستنا هي معرفة أسباب الأشياء وحركاتها الخفية ، وتوسيع حدود " امبراطورية الانسان ، من أجل التأثير في كل الأشياء الممكنة(٧٠) " ، وفي هذه " الفتنة " التي تقع في جنوب المحيط الهادي اخترع سحرة سليمان بالفعل الميكروسكوب والتلسكوب والساعات الذاتية الملء ، والغواصات والسيارات والطائرات ، واكتشفوا المسكنات والتنويم المغناطيسي ، ووسائل المحافظة على الصحة وإطالة العمر ، ووجدوا طرق تطعيم النبات وتوليد أنواع جديدة ، وتحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة . ونقل الموسيقى إلى أماكن بعيدة . وفي مجلس سليمان ترتبط الحكومة والعلم معا . وكل الأدوات وتنظيم البحث ، وهو ما كان بيكون قد توسل إلى جيمس أن يزود به البلاد ، موجودة هنا ، في القارة الجديدة ، كجزء من عدة الحكومة وأدواتها . والجزيرة تتمتع باستقلال اقتصادي ، وهي تتحاشى التجارة الخارجية لأنها شرك ينصب الحرب . إنها تستورد المعرفة لا السلع . وهكذا يحتل الفيلسوف المتواضع مكان رجل الدولة المزهو بنفسه ، كما أن نفس الرجل الذي كان قد نصح بالحرب أحيانا عند الاقتضاء ، بوصفها دواء مقويا أو منشطا اجتماعيا ، نراه الآن ، وقد آذنت شمس حياته بمغيب ، يحلم بجنة من السلام .

٦ — صيحة العقل

استمر بيكون يعمل حتى النهاية . فنشر بعد عام واحد من تقاعده ، " تاريخ

حكم هنرى السابع » ، سجل به مستوى جديدا لكتابة التاريخ ، فهو تفسير واضح صريح ، فى نثر رشيق قوى ، للقضايا والسياسات والأحداث ، وصورة وصفية أدبية منصفة نزيهة أخاذة لحاكم بعيد عن المثالية ، حقيقية إلى حد بعيد(٧١) . وأعقب هذا مجموعة من الرسائل : " دراسة فى الرياح " " دراسة فى الكثافة والتخلخل " . " دراسة فى الحياة والموت " ، وأبحاث أخرى ، لقد تهيأ له الآن من الفراغ مالم يكن يتوقعه ، فليس ثمة دار ولا أهل ولا أصدقاء ، فان كل طلاب المنافع الذين كانوا يزدحمون على بابه أيام نفوذه وسلطانه ، تمسحوا الآن بأعتاب أخرى . وسأل مرة أحد من يتبادل معهم الرسائل : " من معك من الزملاء فى عملك ؟ فأجاب انى الآن فى وحدة تامة(٧٢) " .

وفيما كان يحاول أن يختبر كم من الوقت يمكن أن يحفظ الجليد اللحم من التعفن والفساد ، قطع الرحلة ذات يوم من أيام الربيع ليشترى دجاجة ، وذبحها وحفظها فى الجليد ، فوجد أنه أصيب بقشعريرة . فلجأ إلى دار لورد أروندل Arundel المجاورة ، حيث وضعوه فى الفراش ، وظن أنه سقم عارض لايلبث أن يزول ، وكتب أن التجربة " نجحت نجاحا تاما " ؛ إنه حفظ الدجاجة ، ولكنه فقد حياته. لقد قضت عليه الحمى ، وخنقه البلغم فى ٩ ابريل ١٦٢٦ . ومات فى سن الخامسة والستين . وانطفأت الشمعة المتوهجة فجأة .

لم يكن بيكون ، كما ظن بوب " أحكم وأذكى وأحط بنى الانسان (٧٣) " . فان مونتانى كان أحكم ، وفولتير أذكى ، وهنرى الثامن أحط ، وقال أعداء بيكون عنه إنه كان عطوفا نافعا ، يبادر إلى الصفح والمغفرة . وكان أنانيا إلى حد الخنوع والاستسلام ، ومزهوا إلى حد اغضاب الآلهة . ولكننا نشاركه هذه الأخطاء إلى حد نغتفر معه طبيعته البشرية من أجل الأضواء التى نشرها . إن غروره كان القوة الدافعة فيه . وإذا كنا نرى أنفسنا كما يرانا غيرنا لشلت حركتنا وتوقفنا عن العمل .

ولم يكن بيكون من رجال العلم أو الأفراد العلميين ، ولكنه كان فيلسوف علم. وكان مدى قوة الملاحظة عنده هائلا ، ولكن مجال تأمله وتفكيره كان فسيحا إلى

حد لا يهيىء له الوقت الكافى للبحث الخاص . وحاول شيئا من هذا دون نتيجة تذكر . . . وتخلف كثيرا عن تقدم العلم المعاصر . ونبذ آراء كوبرنيكس الفلكية ، ولكنه أورد أسبابا وجيهة لذلك(٧٤) . وتجاهل كبلر وجاليليو ونابيير . وكثيرا ماتنبه (كما حدث فى " القاره الجديدة ") إلى دور ملكة الخيال والافتراض والاستنباط فى البحث العلمى ، ولكنه ظل ينتقص من أهميته، وأتى اقتراحه بطول الأناة فى تجميع الحقائق وتصنيفها ، بأحسن النتائج فى علم الفلك ، حيث زودت الأرصاد النجمية والتسجيلات التى قام بها آلاف الباحثين — زودت كوبرنيكس بمادة استقرائية ، لاستنباطاته الثورية ، ولكنها لم تكن قريبة الشبه بالطرق الفعلية التى كشفت فى عصره قوانين حركات الكواكب وتوابع المشترى وجاذبية الأرض والدورة الدموية .

ولم يزعم بيكون أنه اكتشف الاستقراء ، وعرف أن أناساً كثيرين مارسوه من قبل . ولم يكن أول من " أطاح " بأرسطو . فان رجالا مثل روجر بيكون ، وبتروس راموس ، فعلا هذا لعدة قرون خلت . ولكن أرسطو الذى أطاحوا به (كما تحقق بيكون أحيانا) لم يكن أرسطو الاغريق الذى كان كثيرا ما استخدم وامتدح الاستقراء والتجريب ، ولكن أرسطو الفيلسوف الذى صنعه العرب وأتباع الفلسفة السكولاستية (الفلسفة النصرانية فى العصور الوسطى) . إن الذى أراد بيكون أن يقضى عليه هو المحاولة الخاطئة لاستنباط عقـائد العصور الوسطى من الميتافيزيقا القديمة ، لقد ساعد بيكون على أية حال ، على تخليص أوربا النهضة من الاذعان البالغ التزمت للقديم .

ولم يكن بيكون أول من أكد أن المعرفة طريق القوة . فقد فعل روجر بيكون هذا من قبل ، وقال كامبانالا ، فى بلاغة بيكون : " إن قوتنا تتناسب مع معرفتنا(٧٥) " . وربما أفرط رجل الدولة فى الالحاح على الغايات النفعية (طبقا للمذهب المنفعة) للعلوم . ومع ذلك فانه أقر بقيمة " العلوم البحتة " بمقارنتها " بالعلوم التطبيقية " — تمييزا " لنور العلم " عن " ثماره " . وحث على دراسة الغايات والوسائل بقدر سواء ، وأدرك أن قرنا من الاختراع لا بد أن يخلق مشاكل كبرى ،

أكثر من أن يحل المشاكل القائمة ، إذا ترك الدوافع الانسانية على حالها دون تغيير ؛ وربما تبين بيكون ، فى انحلاله الخلقى هو نفسه ، الهوة التى خلقها تقدم المعرفة إلى ما هو أبعد من تهذيب الخلق ؛

ترى ماذا تبقى بعد ما أسلفنا من استنتاجات متأخرة ؟ يبقى أن بيكون كان أقوى أهل الفكر والذكاء وأعظمهم أثرا فى زمانه . لقد بزه شكسبير بطبيعة الحال فى الخيال والفن الأدبى . ولكن عقل بيكون حلق فى الكون كله ، مثل نور كشاف يحدق ويحقق مستطلعا ، فى كل الزوايا والخفايا ، فتمثلت فيه كل حماسة النهضة المتقدة اليقظة ، وكل الانارة والزهو اللذين تملكا كولمبوس وهو يبحر مسعورا إلى عالم جديد . استمع إلى هذه الصيحة المرحة من الديك روبين Cock Robin وهو يؤذن بانبلاج الفجر :

> وهكذا انتهيت من هذا القسط من التعليم الذى يمس المعرفة المدنية ، وبهذه المعرفة المدنية ختمت الفلسفة الانسانية ، وبهذه الفلسفة الانسانية ، انتهيت من الفلسفة بصفة عامة . والآن وقد توقفت قليلا ، أنظر إلى الوراء ، إلى ما مررت به أو تصفحته ، فانه يبدو لى ، قدر ما يستطيع الانسان أن يحكم على نفسه ، أن هذه الكتابة ليست أفضل كثيرا من الصخب أو الصوت الذى يحدثه الموسيقيون عند ضبط آلاتهم ، مما لا يطرب الانسان لسماعه ، ومع ذلك فان هذا الضبط سبب فى حلاوة الموسيقى فيما بعد . وكذلك قنعت أنا بضبط آلات الوحى والتأمل حتى يكون العزف أفضل والأيدى أقدر . وحقا ، أنى إذ أضع أمامى حالة هذه الأزمان التى قامت فيها المعرفة بزيارتها أو جولتها الثالثة ، بكل خصائصها ، مثل تفوق عباقرة هذا الزمان وحيويتهم ، والمساعدات والأنوار التى حصلنا عليها من أعمال الكتاب القدامى ، وفن الطباعة الذى ينقل الكتب إلى كل الناس من جميع المستويات ، وانفتاح العالم بفضل

> الملاحة التى كشفت النقاب عن تجارب لاحصر لها ، وعن قدر كبير من التاريخ الطبيعى ... أقول حقا إنى إزاء هذا كله ، لاأملك إلا أن أصل إلى الاقتناع بأن هذه الحقبة الثالثة من الزمن تفوق كثيرا عهد المعرفة اليونانية والرومانية ... أما عن جهودى وأعمالى ، إذا كان ثمة جهود وأعمال لى ، فانه إذا عنى الانسان أن يسر نفسه أو يسر الآخرين بالانتقاص من قيمتها أو نقدها ، فانها ستعود إلى المطلب القديم المتسم بالصبر والجلد ، اضربنى إذا ما أردت ، ولكن اسمعنى فقط ، فلينتقد الناس وليقرعوا ماشاءوا ، فانهم بذلك سوف يلاحظون ويقدرون(٧٦) .

إن بيكون عبر عن أنبل مشاعر عصره — لتحقيق حياة أفضل عن طريق التوسع فى المعرفة — ومن ثم فان الاعقاب خلدوا ذكراه بتذكار حى ، هو تأثرهم به ، لقد حركت روحه — لا طريقته — العلماء وبعثت فيهم القوة والنشاط . فكم أنعشهم وشحذ عزائمهم ، بعد قرون كانت العقول فيها حبيسة قواعدها ، أو واقعة فى شراك عناكب من نسج الرغبات لا الحقائق ، أن يصادفوا رجلا أحب صوت الحقيقة مهما كان عنيفا ، وأحب جو البحث والكشف ، وهو جو يبعث على الحياة ، رجلا وجد متعة فى القاء ظلال الشك على دياجير الجهل والخرافة والخوف . وظن بعض رجال ذلك العصر ، مثل دون ، أن العالم فى طريقه إلى الاضمحلال والانحلال ، وأنه يسير بسرعة إلى نهاية الفناء والتحطيم ، فأعلن بيكون إلى عصره أنه مرحلة شباب عالم ، زاخرة بفورات الحياة .

ولم يكن الناس لينصتوا إلى بيكون فى بداية الأمر ، فانهم فى انجلترا وفرنسا وألمانيا آثروا تحكيم السلاح فى صراع العقائد ، فلما خفت حدة هذا الصراع ، فان هؤلاء الذين لم يكونوا مغلولين بقيود الحقائق ، احتشدوا ، تحدوهم روح بيكون ، ليزيدوا من سيطرة الناس ، لا على الناس ، بل على ظروف حياة الانسان وما يعتورها

من عقبات . وعندما أسس رجال من الانجليز « الجمعية الملكية فى لندن للنهوض بالمعرفة الطبيعية » (١٦٦٠) ، كان تكريما لفرانسيس بيكون وتخليدا لذكراه ، أن يكون مصدر وحى الجمعية وملهمها ، ومن الجائز أن : « مجلس سليمان » فى « القارة الجديدة » هو الذى حدد هدفها[٧٧] . وحيا ليبنتز بيكون باعتباره خالقا للفلسفة من جديد[٧٨] . وعندما تكاتف فلاسفة عصر التنوير لتأليف دائرة معارفهم التى هزت العالم (١٧٥١) فانهم أهدوها إلى فرانسيس بيكون . وكتب ديدرو فى نشرتها التمهيدية : « إذا كنا أدينا مهمتنا بنجاح ، فاننا نكون مدينين بأكبر الفضل لقاضى القضاة بيكون الذى اقترح خطة قاموس عالمى للعلوم والفنون ، فى عصر لم يوجد فيه — إذا صح التعبير — علوم ولا فنون ، وأن هذا العبقرى الفذ ، كتب فى عصر كان من المستحيل فيه كتابة تاريخ لما هو معروف — كتب تاريخا أو دراسة لما هو ضرورى أن نتعلمه أو نعرفه » . وفى غمرة الحماس قال دالمبرت عن بيكون « إنه أعظم الفلاسفة وأفصحهم وأكثرهم شمولا » . ولما تمخضت جماعة التنوير عن الثورة الفرنسية قررت نشر مؤلفات بيكون على حساب الدولة[٧٩] . ونهج الفكر البريطانى فى مغزاه ومبناه ، من هوبز إلى سبنسر — باستثناء بركلى وهيوم والهيجليين الانجليز — منهج بيكون ، فان نزعته إلى إدراك العالم الخارجى على أساس من المذهب الذرى عند ديموقريطس ، هى التى حركت هوبز إلى المادية ، وتوكيده على الاستقراء هو الذى وجه هوبز إلى علم النفس التجريبى الذى تتحرر فيه دراسة العقل من ميتافيزيقا النفس ، كما أن تركيزه على « المنافع » و « التطبيقات » أسهم مع فلسفة هلفشيوس فى توجيه بنتام إلى تعيين « النافع والصالح أو الحسن » . وأخيرا فان روح بيكون هى التى هيأت انجلترا للانقلاب الصناعى .

ومن هنا جاز لنا أن نضع بيكون فى قمة عصر العقل . إنه لم يكن مثل بعض من جاءوا بعده ، يحب العقل حبا أعمى ، فانه ارتاب فى أية أفكار أو خطط لم يتحقق منها التجريب الفعلى ، وفى كل النتائج التى شابتها الرغبة . « إن الادراك الانسانى ليس ضوءا جافاً ، إن الارادة والعواطف تنفخ فيه ، ومن ثم تنطلق العلوم التى يمكن تسميتها : بعلوم يريدها الانسان ، لأن مايرى الانسان أنه يكاد يكون

حقيقيا ، يصدقه ويؤمن به على الفور » (٨٠) . وآثر بيكون " ذلك العقل المنتزع من الحقائق ، .... ومن تحالف أوثق وأنقى بين هاتين القوتين : التجريبية والعقلانية ، يمكن أن نأمل فى خير كثير (٨١) " .

كما أن بيكون لم يقل ، مثل فلاسفة القرن الثامن عشر ، بأن العقل عدو الدين أو أنه بديل عنه ، إنه أفسح لكل منهما مجالا فى الفلسفة وفى الحياة . ولكنه كره الاعتماد على التقاليد والنصوص والمراجع ، وطالب بتغييرات عقلانية طبيعية بدلا من الافتراض أو الحدس العاطفى ، ومن الاعتراضات الخارقة للطبيعة ، والأساطير الشعبية المألوفة . إن بيكون رفع راية كل العلوم ، وجذب للانضواء تحتها أشد العقول تلهفا فى الأجيال القادمة . وسواء شاء أو لم يشأ ، فان العمل الذى دعا إليه — التنظيم الشامل للبحث العلمى ، والتوسع فى المعرفة ونشرها فى العالم بأسره— نقول ان هذا العمل يحوى فى طياته بذور أعمق مسرحية فى الأزمنة الحديثة : المسيحية ، كاثوليكية أو بروتستانتية ، تناضل من أجل حياتها ، ضد انتشار العلم والفلسفة وقوتهما ، وكانت المسرحية الآن قد ألقت مقدمتها على العالم .

الفصل الثامن

الثورة الكبرى

١٦٢٥ – ١٦٤٩

١ – الاقتصاد المتغير

إن الثورة التي سودت برلماناً وقتلت ملكاً – قبل أن يكفر لويس السادس عشر عن ذنوب أسلافه ، بمائة وأربعة وأربعين عاماً – كانت لهـا جذورها في الصراع الاقتصادي والخلاف الديني .

كان الإقطاع تنظيما يعتمد كل الاعتماد على الزراعة . وكانت الملكية تنظيما بلغ بالإقطاع ذروته . وكانت مرتبطة أشد الارتباط باقتصاد يقوم على الملاك والأرض . وحدث في انجلترا تطوران اقتصاديان قطعاً هذه الجذور الإقطاعية . أحدهما نمو طبقة كرام المحتد ذوى الملكيات الصغيرة من غير ذوى ألقاب النبالة (Gentry) ، وهم في موقف وسط بين الأشراف أو النبلاء ذوى الألقاب ، وبين صغار مالكي الأرض الأحرار أو المزارعين الذين يملكون أرضاً . وكانت أيديهم مغلولة في ظل ملك وحاشية ومجموعة من القوانين لا تزال تفكر أو تصاغ بعقلية النظام الإقطاعي . ولقد اشتروا المقاعد في مجلس النواب أو استولوا عليها عنوة ، وتطلعوا إلى حكومة خاضعة لبرلمان خاضع لهم هم أنفسهم . أما التطور الثاني فهو نمو ثروة البرجوازية – أصحاب المصانع والمحامون والأطباء – ومطالبتها بتمثيل سياسي يتناسب مع قوتهم الاقتصادية ، ولم يكن لهذه الدوافع الثورية مصلحة مشتركة ، بل تعاونوا لمجرد أن يحاولوا كبح جماح الملاك ذوى النسب والحسب والحاشية المنتفخة الأوداج ، وملك اعتبر أن الاستقراطية الوراثية ، مصدر ضروري للنظام الاقتصادي والسياسي والاستقرار .

وكان النظام الاقتصادى يغير ، من عام لعام ، قاعدته ونقطة ارتكازه من الأرض الثابتة إلى المال المتحرك . وقبل ١٥٤٠ كان مصنع النحاس يتطلب توظيف ٣٠٠ دولار ، (بعملة الولايات المتحدة ١٩٥٨) وفى عام ١٦٢٠ ، ١٢٥ ألف دولار . وما جاء عام ١٦٥٠ حتى كانت المشروعات الرأسمالية التى تستلزم إنفاق اعتمادات ضخمة ، قد نهضت بمصانع حجر الشب فى يوركشير ، ومصانع الورق فى دارتفورد ، ومصانع صب المدافع فى برنديلى ، والمناجم البعيدة العمق التى ازداد التهافت عليها للحصول على مزيد من الفحم والنحاس والزنك والحديد والرصاص . وفى ١٥٤٠ كان هناك عدة مناجم أنتج الواحد منها عشرين ألف طن . واعتمد الحرفيون والصناع الذين يستخدمون المعادن ، على التعدين والصناعات المعدنية التى تركزت فى أيدى الرأسماليين ، وزودت مؤسسات النسيج بالمواد اللازمة . الحوانيت التى كانت تستخدم ما بين ٥٠٠ وألف عامل ، والنساجين والخياطين الذين انتشروا فى آلاف الدور فى المدن والقرى . وكانت الزراعة تسهم فى التحول الرأسمالى فى الإنتاج . واشترى الرأسماليون مساحات كبيرة من الأرض وسوروها ، بغية إمداد المدن باللحوم ، والمصانع بالصوف داخل انجلترا وخارجها . وارتفعت تجارة انجلترا الخارجية إلى عشرة أمثالها فيما بين عامى ١٦١٠ و ١٦٤٠ .

ولم يدر بخلد انجلترا أن الهوة كانت سحيقة جداً بين الغنى والفقير ، و « انحطت تعويضات العمال إلى أدنى مستوى لها فى النصف الأول من القرن السابع عشر ، لأن أسعار الطعام زادت على حين بقيت الأجور على ما هى عليه[1] » . فإذا اتخذنا (١٠٠) كأساس ، فإن الأجور الحقيقية للنجارين الإنجليز كانت ٣٠٠ حوالى سنة ١٣٨٠ ، و ٣٧٠ فى سنة ١٤٨٠ ، ٢٠٠ فى عهد اليزابث ، ١٢٠ فى عهد شارل الأول — وهذا أدنى أجر فى بحر أربعمائة سنة[2] . وفى ١٦٣٤ كانت البطالة فظيعة إلى حد أن شارل أمر بتدمير مصنع ميكانيكى لنشر الخشب أنشىء حديثاً ، لأنه عطل كثيراً من النشارين عن العمل[3] . وكانت الحرب مع فرنسا سبباً فى رفع الضرائب ، كما كانت الحرب فى فرنسا سبباً فى تعطيل تجارة الصادرات ، وسوء المحاصيل (١٦٢٩ — ١٦٣٠) سبباً فى تضخم الأسعار حتى صارت البلاد على حافة

المجاعة(٤) . وأخذ هذا الاقتصاد المتضخم في الهبوط فجأة (١٦٢٩ ، ١٦٣٢ ، ١٦٣٨) ؛ وتضافرت كل هذه العوامل مع الصراع الديني في أن تدفع بكثير من الأسرات الإنجليزية إلى أمريكا ، وتوقع انجلترا في حرب أهلية غيرت وجه الأمة ومصائرها .

وكذلك أصبحت حرب الطبقات صراعاً بين المذاهب الدينية والقوانين الأخلاقية . وكان الشمال زراعياً بأغلبية ساحقة ، وكاثوليكيا في معظمه ولو في الخفاء . أما لندن والجنوب فكانت تنمو فيها الصناعة والبروتستانتية بشكل متزايد . وعلى حين تعلقت قلوب طبقة رجال الأعمال الجديدة باحتكاراتها وبتعريفة الحماية الجمركية . فإنها في نفس الوقت طالبت باقتصاد حر تتحدد فيه الأجور على قدر العمل والسلع ، وحيث لا تكون ثمة سيطرة إقطاعية ولا حكومية على الانتاج والتوزيع والربح والملكية ، وحيث لا توصم بوصمة العار ، الأعمال التجارية ، ولا تقاضي الفوائد على الأموال ، ولا المضاربة بالثروة . وتمسك البارونات وفلاحوهم بمفهوم الإقطاع عن الالتزام المتبادل والمسئولية الجماعية ، وتنظيم الدولة للأجور والأسعار ، وضوابط العرف والقانون لشروط الاستخدام والربح . واحتج البارونات بأن الاقتصاد التجاري (المركنتلي(*)) الجديد ، الذي ينتج لسوق وطنية أو دولية ، كان يمزق العلاقات بين الطبقات ويقوض الاستقرار الاجتماعي . وأحسوا (كما أحس صغار ملاك الأراضي والحكومة) أن قدرتهم على الوفاء بديونهم والتزاماتهم مهددة بخطر آثار التضخم على قيمة الرسوم والإيجارات والضرائب التي اعتمدوا عليها . ونظروا في ازدراء غاضب إلى المحامين الذين أسهموا بشكل واضح في الإدارة ، وإلى التجار الذين حكموا المدن ، وأوجسوا خيفة من سلطان لندن التي سادتها الروح التجارية (المركنتلية) ، والتي كان عدد سكانها يبلغ نحو ٣٠٠ ألف نسمة ، من مجموع سكان انجلترا البالغ خمسة ملايين ، ومن ثم كانت تستطيع تمويل جيش وثورة .

(*) Mercantile ، نظام اقتصادي نشأ في أوروبا خلال تفسخ الاقطاعية لتعزيز ثروة البلاد عن طريق التنظيم الحكومي للاقتصاد ، وانتهاج سياسة تهدف إلى تطوير الزراعة والصناعة ، وإنشاء الاحتكارات التجارية الخارجية .

٢ — مرجل الديانة ١٦٢٤ — ١٦٤٩

إن الملك الجديد الذى ارتقى العرش فى ظل النظام الإقطاعى والاجتماعى العتيق المعتمد على الأرض ، والذى أحس باليأس والضياع فى لندن بتجارها والبيوريتانيين فيها ، نقول إن هذا الملك لقى من التعب والنصب فوق ما يحتمل الصبر ، من جراء تعدد المعتقدات الدينية وحدتها . إن عملية الاجتهاد أو تكوين الرأى الفردى التى دعا إليها كل رأى جديد حتى سادت وسيطرت ، تضافرت مع انتشار الكتاب المقدس ، على تشجيع اختلاف الشيع والطوائف ، حتى لقد أحصى منها أحد المؤلفين ٢٩ طائفة فى ١٦٤١ ، وأحصى آخر ١٨٠ منها فى ١٦٤٩ . وفضلا عن الانقسام بين الكاثوليك والبروتستانت ، كان هناك الانقسام الحاد بين البروتستانت إلى أنجليكانيين ومسيخيين وبيوريتانيين ، وانقسام البيوريتانيين إلى المستقلين الذين كانوا يحلمون بالجمهورية ، والكويكرز الذين يعارضون الحرب والعنف وحلف الأيمان ، والمؤمنين بالعصر الألفى السعيد — أو طائفة الملكية الخامسة — الذين كانوا يعتقدون أن السيد المسيح سوف يعود سريعاً ليقيم حكمه على الأرض ، والأنتينوميين (طائفة تقول بأن الإيمان وحده — لا الامتثال للقانون الأخلاقى — ضرورى للخلاص) الذين كانوا يحاجون بأن المصطفين من عند الله مستثنون من القوانين الإنسانية ، والانفصاليين أتباع براون ، والباحثين **Seekers** ، والمشاغبين **Ranters** . وشكا أحد أعضاء البرلمان من أن « الرجال الميكانيكيين » (الحرفيين) كانوا يقيمون المنابر ويبشرون بألوان عقائدهم المتحمسة ، وكان كثيرون منهم يكسون مطالبهم الاقتصادية أو السياسية بنصوص من الكتاب المقدس ، وكان هناك الذين يقولون بتعميد البالغين فقط **Anabaptists** ، والمعمدانيون الذين انشقوا على الانفصاليين (١٦٠٦) وانقسموا (١٦٣٣) إلى معمدانيين عامين رفضوا النظرية الكلفنية فى القضاء والقدر ، ومعمدانيين خاصين قبلوها .

(*) **Presbyterians** رجال كنيسة بروتستانتية يدير شئونها شيوخ منتخبون يتمتعون جميعاً بمنزلة متساوية .

إن تعدد الطوائف والشيع ، ومساجلاتها الحادة الجريئة ، أدت بنفر من الناس إلى الشك فى جميع صيغ المسيحية وأشكالها . ورثى الأسقف Fotherby (١٦٢٢) « لأن الكتب المقدسة فقدت سلطانها على كثير من الناس ، وظن أنها لاتصلح إلا للجهلة والحمقى[٥] » — وفى ١٦٤٦ تحدث الحبر الجليل جيمس جرانفورد عن « الجماهير التى غيرت عقيدتها إما إلى التشكك . . . أو الإلحاد ، ولم يؤمنوا بشىء[٦] . » وفى كتيب عنوانه « Hell Broke Loose » انفتحت الجحيم على مصراعيها » : بيان بالأخطاء السائدة ، والهرطقة والتجديف فى هذا العصر ، (١٦٤٦) وكان على رأس قائمة الهرطقات ، الرأى القائل بأن الكتاب المقدس سواء كان مخطوطاً حقيقياً (نصاموثوقا) أم لم يكن . . . فإنه لا يعدو أن يكون من صنع الإنسان ، وأنه عاجز عن أن يكشف عن إله فى السماء[٧] » ، وجهرت هرطقة أخرى « بأن العقل السليم هو الحكم فى العقيدة ، أو قاعدة الإيمان . . . ويجدر ألا نصدق بالكتب المقدسة و نظريات التثليث والتجسد والبعث إلا بقدر موافقتها للعقل ، وليس إلا[٨] » . وأنكر عدد كبير من المتشككين وجود الجحيم وألوهية المسيح . وسعى نفر متزايد من المفكرين الذين أطلق عليهم اسم « الربوبيين » إلى التوفيق بين مذهب التشكك والدين باقتراح مسيحية تقتصر على الإيمان بالله والخلود . وهيأ إدوارد، لورد هربرت شربرى لهذا « الطريق الوسط » أساساً فلسفياً فى بحث رائع عن « الحقيقة ١٦٢٤) . قال هربرت إن الحقيقة مستقلة عن الكتب المقدسة ، ولا يمكن أن تقررها كنيسة أو أية سلطة أخرى ، وإن أفضل اختبار للحقيقة هو موافقة الناس جميعاً عليها ، وتبعاً لذلك تكون أحكم ديانة هى ديانة « طبيعية » ، لا ديانة « موحى بها » ، تحصر نفسها فى النظريات التى تتقبلها كل المذاهب : وهى أن هناك « كائناً » ، وأنه تجب عبادته بالحياة الفاضلة المستقيمة أساساً ، وأن السلوك المستقيم يثاب ، وأن السلوك السيىء يعاقب عليه ، إما هنا فى الحياة الدنيا ، أو هناك الحياة الآخرة . ويقول أو برى إن هربرت مات « فى هدوء » بعد أن أبوا عليه الأسرار المقدسة[٩] .

وكان البرلمان أشد قلقاً وانشغالا بالكاثوليكية منه بالهرطقة . فى ١٦٣٤ قارب الكاثوليك فى انجلترا أن يشكلوا ربع السكان[١٠] ، على الرغم من كل القوانين والأهوال التى كان يقاسيها نحو ٣٣٥ من الجزويت ، واعتنق النبلاء البارزون المذهب القديم ، وفى ١٦٢٥ أعلن جورج كلفرت ، لورد بلتيمور تحوله إلى الكثلكة ، وفى ١٦٣٢ منحه شارل مرسوماً بإنشاء المستعمرة التى عرفت باسم ماريلاند . وفى ١٦٣٣ أرسلت الملكة الكاثوليكية هنريتا ماريا إلى رومه مبعوثاً يستجدى منصب الكردينال لأحد الرعايا البريطانيين . وعرض الملك الأنجليكانى أن يسمح بإقامة أسقف كاثوليكى فى انجلترا إذا أيد إربان الثامن خطة شارل فى عقد بعض زيجات دبلوماسية (١٦٣٤) ولكن البابا رفض . وطالب الكاثوليك بالتسامح الدينى . ولكن البرلمان — الذى يعى فى ذاكرته تعصب الكاثوليك ، ومذبحة سانت برتلميو ، ومؤامرة البارود ، والاشمئزاز من إجراء تحقيق فى مستندات ممتلكات بروتستانية كانت يوماً كاثوليكية — طالب ، بدلا من ذلك ، بالتطبيق الكامل للقوانين التى صدرت ضد الكاثوليكية . وساد شعور قوى شعاره « لا كثلكة » ، وخاصة بين طبقة صغار الملاك والطبقة الوسطى ، يعارض بالمثل، تدفق القساوسة الكاثوليك إلى انجلترا ، كما يقاوم ازدياد التقريب بين الفكر والطقوس الأنجليكانية والكاثوليكية .

وتمتعت الكنيسة الرسمية بحماية الدولة لها حماية كاملة . وكانت العقيدة والعبادة الأنجليكانية إجباريتين قانوناً ، وجعلت المواد التسع والثلاثون قانوناً من قوانين البلاد ١٦٢٨ . وادعى الأساقفة الأنجليكانيون « الخلافة الرسولية » — أى أنهم كانوا قد رسموا بوساطة الرسول ، ورفضوا توكيد المشيخيين والبيوريتانيين أن يرسموا الكاهن شرعاً ، وكان كثير من رجال الدين الأنجليكانيين فى ذاك العصر ، رجالا يتحلون بعلم واسع وشعور كريم . وكان جيمس أشر Usher رئيس أساقفة أرماج Armagh عالماً حقاً ، برغم حسابه المشهور (فى كتابه Annales Veteris Testamenti ، ١٦٥٠) أن الله خلق العالم فى ٢١ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ ق . م . — وهذه غلطة فى الحساب الزمنى جعلت شبه رسمية فى طبعات الكتاب المقدس[١٢] . ودعا جون

هيلز ، قسيس السفارة الإنجليزية فى هولنده — إلى الشك والعقل والتسامح :

> إن الطرق التى توصلنا إلى . . . . أى علم أو معرفة ليست إلا اثنتين ، أولاهما الاختبار وثانيتهما الاستدلال المنطقى ، إن الذين يأتونك ليلقوا إليك بم يجب أن تؤمن وماذا يجب أن تفعل ، دون أن يذكروا لك السبب فى هذا أو ذلك ، ليسوا أطباء بل إنهم متطفلون دجالون . . . إن أهم مصدر وقوة للحكمة ليس من السهل التصديق بهما . . . إن تلك الأشياء التى نجلها لقدمها ، ماذا كانت فى بداية نشوئها ؟ هل كانت زائفة ؟ إن الزمن لايستطيع أن يضفى عليها حقيقة وصدقا . إن عامل الزمن . . . مجرد شىء خارج عن موضوع البحث . . . وليس تعدد الآراء ، ولكن إرادتنا الفاسدة الشريرة — التى تظن أنه من الملائم أن نتخيل كل شىء (من نفس الفكر) كما نتصوره نحن نفسنا — هى التى أزعجت الكنيسة إلى هذا الحد . ألم نكن مستعدين لأن يلعن بعضنا بعضاً حين لم نكن متفقين فى الرأى ؟ ويمكن أن تكون قلوبنا متحدة . . . هناك شيئان يصنعان رجلا مسيحياً كاملا — إيمان صادق وسلوك قويم . ولو أن الثانى يبدو أجدر بالاعتبار ، ويخلع علينا اسم المسيحيين ، ولكن الثانى فى النهاية ، سيثبت أنه الأقوى والأرسخ ، وليس ثمة رجل . . . حتى ولو كان همجياً أو وثنياً ، لاتصل إليه أنسام الشفقة المسيحية[١٣] .

ولم يستجب بعض " عبدة الأصنام " لكرم هيلز . وكتب جزويتى بتوقيع " إدوارد نوت نبذة عنوانها Charit Mistaken (١٦٣٠) قال فيها إنه لن يكتب الخلاص لأى بروتستانتى ، إلا بمحض الصدفة[١٤] . ولكن أعاد الطمأنينة إلى قلوب البروتستانت الذين أدانهم المقال السابق ، وليم تشلنجورث ، Chillingworth الذى كان كتابه " العقيدة البروتستانتية هى الطريق المأمون للخلاص ، ١٦٣٧ " أشهر

بحث لا هوتى فى ذالك ، العصر ، لقد عرف تشلنجورث الفريقين كليهما ، فقد كان قد ارتد إلى الكاثوليكية ، ثم عاد إلى البروتستانتية ، وما زالت لديه تحفظاته ، وقال عنه كلارندون « إنه تعود الشك حتى أصبح شيئا فشيئا لايثق فى شىء قط ، ومتشككا على الأقل فى أعظم الأسرار الدينية[١٥] » .

وكان جرمى تيلور أفصح الأنجليكانيين فى عهد شارل ، ولاتزال عظاته تقرأ ، كما أنها أشد تأثيرا من عظات بوسويه ، حتى أنها هزت مشاعر أحد الفرنسيين[١٦]. وكان تيلور ملكيا متحمسا ، وقسيسا فى جيش شارل الأول . وعندما سيطر المشيخيون والبيوريتانيون على البرلمان ، وأساءوا ، فى تعصب شديد ، معاملة الأنجليكانيين الذين كانوا يوما متعصبين ، أصدر تيلور كتاب « حرية الوعظ » (١٦٤٦) وهو دعوة حذرة إلى التسامح : إن أى مسيحى قبل عقيدة الرسل يجب أن تتلقاه الكنيسة بين أحضانها ، ويجب أن يترك الكاثوليك أحرارا ، إلا إذا أصروا على سيادة على انجلترا وعلى الملوك(*) ، وقبض حزب البرلمان على تيلور وأودع السجن فى الحرب الأهلية ، ولكن بعد عودة الملكية ، انضم إلى حكومة الأساقفة فى الكنيسة ، وخف تحمسه للتسامح .

وظهر أثر الكاثوليكية المتزايد فى الرجل الأنجليكانى البارز ذى النفوذ فى عصره ، وهو وليم لود ، الذى كان رجل فكر وإرادة ، ولد ليسيطر ويحكم أو يموت . وكان متمسكا بأهداب الفضيلة أشد تمسك ، متزمتا أشد التزمت ، وطيد العزم إلى حد العناد مع سرعة الغضب . ورأى لود - كأى رجل صالح من رجال الكنيسة ، أنه من القضايا المسلم بها أن المعتقد الدينى الموحد أمر لاغنى عنه للحكومة الناجحة وأن الشعائر المعتمدة ضرورية لكل عقيدة مهدئة مؤثرة ، وما كان أشد حزن المسيحيين والبيوريتانيين وأسفهم عندما اقترح لود إعادة الفنون إلى خدمة الكنيسة ، لتجميل المذبح والمنبر وجرن التعميد ، وإعادة الصليب إلى الطقوس ، والمدرعة (الرداء الكهنوتى الأبيض) إلى الكهنة . وعلى هيئة جبل خاص للخطايا ، أمر بوضع مائدة

(*) فى ١٦٣١ ، فى مستعمرة خليج مساشوست نادى روجر وليم بالتسامح بلا حدود مع الكاثوليك واليهود والكفار .

العشاء الربانى التى كانت توضع حتى الآن وسط الهيكل (وكانت تستخدم فى بعض الأحيان لوضع القبعات عليها)، نقول أمر لود بوضع هذه المائدة خلف حاجز فى الطرف الشرقى من الكنيسة، وكانت هذه التغييرات فى معظمها إحياء لأعراف البزابث وقوانينها، ولكنها فى نظر البيوريتانيين الذين أحبوا البساطة، كانت تمثل رتدادا إلى الكاثوليكية، وتجديدا للفصل الطبقى بين القسيس وجمهور المصلين. ويبدو أن لود أحس بأن الكنيسة الكاثوليكية كانت على حق فى أحاطة الديانة بالمراسم والشعائر، واضفاء هالة من القداسة على القسيس[١٧]. وقدرت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية أراءه إلى حد أنها قدمت إليه منصب الكاردينال [١٨]. ولكنه رفض رفضا مهذبا. ولكن يبدو أن هذا العرض أيد لوم البيوريتانيين وتأنيبهم، وأطلقوا عليه النذير بقدوم المسيح. وعينه شارل ١٦٣٣ رئيسا لأساقفة كنتربرى وعضوا وزارة الخزانة. وعين رئيس أساقفة آخر قاضيا للقضاة فى اسكتلندة فشكا الناس من أن رجال الكنيسة يعودون إلى السلطة، كما كانت الكنيسة فى أوج عظمتها فى العصور الوسطى.

وشرع كبير أساقفة انجلترا، من قصره فى لامبث Lambeth فى إعادة تشكيل الطقوس والأخلاقيات الإنجليزية، وخلق مائة عدو جديد حين فرض عن طريق «محكمة اللجنة العليا» (وهى هيئة قضائية أقامتها البزابث، وهى الآن كنسية بشكل واضح): فرض غرامات فادحة على المتهمين بالزنى، ولم تطب نفوس الضحايا باستخدامه الغرامات فى اصلاح كاتدرائية سانت بول المتهدمة، وطرد المحامين والبائعين المتجولين والمترثرين من أبهائها[١٩] وحرم الكهنة الذين رفضوا الطقوس الجديدة من رواتبهم، أما الكتاب والخطباء الذين نقدوها مرارا وتكرارا. أو ارتابوا فى العقيدة المسيحية، أو الذين عارضوا نظام الأساقفة فكانوا يحرمون من الكنيسة ويوضعون فى آلة تعذيب خشبية ذات ثقوب تبيد فيها رجلا المذنب ويداه، أو تقطع أذناه.

ويجب أن نتخيل بشاعة ووحشية العقوبات التى فرضت فى عهد لود، حتى ندرك مصيره. فان الكاهن البيوريتانى اسكندر ليتون Leighton، حوكم أمام

محكمة قاعة النجم لأنه المؤلف المعترف به لكتاب يقول بأن نظام الأساقفة ، نظام شيطانى معاد للمسيحية . فقيد فى الاغلال وسجن فى مكان موحش لمدة خمسة أسابيع فى زنزانة شديدة البرد « مليئة بالجرذان والفيران ، معرضة للثلوج والأمطار » ، فتساقط شعر رأسه ، وتقشر جلده ، وربط إلى خازوق ، وتلقى ستا وثلاثين جلدة بحبل سميك على ظهره العارى ، ووضع فى المشهرة (آلة تعذيب) لمدة ساعتين فى صقيع نوفمبر وجليده ، ودمغ بسمة العار فى وجهه ، وشق أنفه وقطعت أذناه ، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة[٢٠] . وفى ١٦٣٣ فرضت على لودويك بوير Ludowyc Bowyer ، الذى كان قد اتهم لود بأنه كاثوليكى فى دخيلة نفسه ، غرامة . ودمغ بسمة العار ، وبترت أطرافه ، وشوه جسمه ، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة[٢١] . واتهم وليم برين ، وهو من غلاة الدعاة البيوريتانيين فى « أنباء من أبسويك » (١٦٣٦) ، اتهم أساقفة لود بأنهم خدم للبابا وللشيطان[٢٢] ، وأوصى بشنق الأساقفة . فدمغ بسمة العار على خديه كليهما وقطعت أذناه ، وأودع السجن حتى أفرج عنه البرلمان الطويل (١٦٤٠)[٢٣]. وسجنت لمدة أحد عشر عاما امرأة أصرت على اعتبار السبت يوم راحة وعبادة[٢٤] .

واتفق ألد أعداء لود ، وهم البيوريتانيون ، معه على ضرورة التعصب أو عدم التسامح . وذهبوا إلى أنه حكم نهائى معقول من الأصل السماوى للمسيحية والكتب المقدس ، فان أى فرد يعارض عقيدة قامت على هذا الأساس ، لابد أن يكون مجرما أو معتوها ، وتجب حماية المجتمع من كثير من الخطايا واللعنات التى قد تنصب على المجتمع من جراء تعاليمه . وناشد المشيخيون البرلمان -- (١٦٤٨) أن يشرع عقوبة السجن مدى الحياة لمن يستمرون على نشر تعاليم الكاثوليك والمعمدانيين والأرمينيين والكويكرز ، وعقوبة الاعدام للذين ينكرون نظريات الثالوث الأقدس ، أو التجسد . ولكن المستقلين أتباع كرومويل ، على أية حال ، عرضوا التسامح مع كل من يقبل أساسيات المسيحية ، ولكنهم استبعدوا الكاثوليك والموحدين والمدافعين عن حكومة الأساقفة[٢٥] .

وكان فى البيوريتانيين شيع كثيرة إلى حد يصعب معه جمعهم فى تعميم واحد

ينطبق عليهم جميعا . وتمسك معظمهم بكلفنية صارمة ، وبحرية سياسية فردية ، وبحق جمهور كل كنيسة فى إدارة شئونها دون إشراف الأساقفة ، وبعبادة غير موسومة بالمراسم والشعائر ، متسمة بالمساواة ، وتخلوا عن الفن الدينى الذى يلهى المصلين ويشتت أفكارهم ، واتفقـــوا مع المشيخيين فى اللاهوت ولكنهم رفضوا مجامعهم الكنسية ، لأنها تنزع إلى ممارسة سلطة الأساقفة ، وأصروا على تفسير حرفى للكتب المقدسة ، واستنكروا القول بحكم العقل على الحق الموحى به ، وكانوا يجلون العهد الجديد والعهد القديم بقدر سواء ، وطبقوا على أنفسهم الفكرة اليهودية « شعب الله المختار » ، وعمدوا أطفالهم بأسماء بطارقة « العهد القديم » وأبطاله ، وفكروا فى الرب على أساس « يهوه » الصارم القاسى ، وأضافوا إلى ذلك إيمان الكلفنية بأن معظم الناس هم « أبناء العقاب الإلهى » قضت عليهم الإرادة المتحكمة من لدن إله لا يرحم بالخلود فى الجحيم ، وعزوا خلاص القلة « المختارة » ، لا إلى صالح الأعمال ، بل إلى نعمة الهية ينعم الله بها على من يشاء متى شاء . وذهب بعضهم إلى أنه كلم الله ، وظن بعضهم أنهم ملعونون فهاموا فى الشوارع يئنون ويتأوهون ، استباقا لخلودهم فى العذاب . وبدا أن الله يسلط الصواعق دوما على رؤوس الناس .

وفى وسط هذا « الارهاب » الذى فرضته البلاد على نفسها كادت « انجلترا المرحة » أن يتقلص ظلها واستسلمت « انسانية عصر النهضة » و « طبيعية » عصر اليزابث المفعمة بالحيوية إلى شعور بالذنب وخوف من الانتقام الإلهى . وبهذا الخوف وذلك الشعور نظر الناس إلى مسرات الحياة وكأنها أرجاس من عمل الشيطان أو تحديات للاله . وعاودت قسما أكبر من الناس لم يعهد له مثيل من قبل فى التاريخ المعروف ، نقو عاودتهم المخاوف من الطبيعة البشرية والجسد ، التى كانت سائدة بين الرهبان فى الأديار . وأعلن بريم Pryme أن كل عناق « دعارة » ، وكل رقص مشترك « فسق وفجور[٢٦] » . وفى نظر معظم البيوريتانيين كانت الموسيقى والزجاج الملون والصور الدينية والأردية الكهنوتية البيضاء والكهنة الممسوحون بالزيت — كلها أمور تحول دون الاتصال بالله والاتجاه إليه . ودرسوا الكتاب

المقدس بعناية فائقة ، واقتبسوا عباراته فى كل حديث وفى كل فقرة تقريبا ، وطرز بعض المتحمسين المتعصبين ثيابهم بنصوص مقدسة ، وأضاف المغالون فى التقى والورع لفظة « حقا » إشهادا على اخلاصهم أو صدقهم . وحرم البيوريتانيون الصالحون استخدام مستحضرات التجميل وترتيب الشعر ، على أنهما ضرب من الزهو والغرور والتفاهة . وحظوا بالاسم المستعار « ذوى الرءوس المستديرة Roundheads لأنهم قصوا شعورهم بشكل قصير جدا . ونددوا بالمسرح على أنه مخز (وهكذا كان) ، وبمطاردة الدببة والثيران على أنها عمل وحشى ، وبأخلاق البلاط على أنها وثنية . كما استنكروا الاحتفالات والأعياد الصاخبة ، ودق النواقيس ، والتجمع حول عمود أول مايو المزدان بالأشرطة والأزهار والرقص حوله ، وشرب الأنخاب ، ولعب الورق . وحرموا كل الألعاب أيا كانت فى يوم الراحة ، وقالوا انه يوم الرب ، ويجب ألا يسمى بعد الآن بالاسم الوثنى « الأحد » . ورددوا صيحات الغضب — ومن بينهم ملتون — حين أصدر شارل الأول ولود — تجديدا لمرسوم جيمس الأول — « إعلان الألعاب » ١٦٣٣ ، أجازا فيه الألعاب فى يوم الأحد بعد تأدية الصلوات . ومد البيوريتانيون تشددهم فى تحريم الألعاب والملاهى وفى الانقطاع إلى العبادة والراحة فى أيام الآحاد (قوانين الأحد الزرقاء) ، إلى يوم عيد الميلاد ، ورثوا لأسلوب الاحتفال بمولد المسيح بالمرح والرقص والألعاب ، وكانوا على حق فى أنهم نسبوا معظم تقاليد عيد الميلاد إلى أصول وثنية ، وطالبوا بأن يكون عيد الميلاد يوما مهيبا للصوم والكفارة ، وفى ١٦٤٤ أقنعوا البرلمان بعد لأى ، باقرار هذه الفكرة بمقتضى القانون .

وكما أكدت البروتستانتية على العظة أكثر مما فعلت الكثلكة ، فان البيوريتانيين كذلك توسعوا فيها حتى إلى أبعد مما جرى عليه البروتستانت ومزق التعطش إلى المواعظ بعض القلوب ، وانتقل عمدة نوروك إلى لندن ليستمع إلى مزيد من الوعظ ، واستقال بزاز من الأبرشية لأنها لا تقدم إلا عظة واحدة كل يوم أحد ، وقام « محاضرون » خاصون لإطفاء هذا الظمأ — وهؤلاء عبارة عن رجال

عاديين تستأجرهم الأبرشية لالقاء عظة يوم الأحد ، بالاضافة إلى مايلقيه الكاهن المعتاد . ونهض معظم الوعاظ البيوريتانيين بمهمتهم فى جدية بالغة فأرهبوا مستمعيهم بأوصـــاف الجحيم ، واتهم بعضهم الآثمين علنـــا بالاسم ، وأفصح واحد منهم عن مدمنى الخمر فى شعب الكنيسة ، وضرب ، وهو يتحدث عن البغايا ، مثلا بزوجة أحد أهالى الأبرشية المشهورين ، وقال آخر لمستمعيه إنه إذا كان الزنى والحلف والغش واغفال طقوس يوم الراحة ، إذا كانت هذه كلها تؤدى بالانسان إلى الجنة ، فسيكتب الخلاص للأبرشية بأسرها (٢٧) . وأحس القساوسة البيوريتانيون أن من واجبهم أن يصفوا للناس – أويحرموا عليهم – قواعد السلوك ، وأنواع اللباس ووسائل التسلية ، فحرموا الاحتفال بأيام العطلة أو الأعياد فى الأعراف الوثنية أو الكنيسة الكاثوليكية ، وبذلك أضافوا نحو خمسين يوم عمل إلى السنة (٢٨) ؛ ودوت صيحة الواجب فى الخلق البيوريتانى ، مقترنه بغرس الشجاعة والاعتماد على النفس والحزم والاقتصاد والعمل فى النفوس ، وكان هذا نظاما أخلاقيا يلتئم مع الطبقة الوسطى ، فانه حث على العمل الجاد النشيط ، وأجاز من الوجهة الدينية المشروعات والمغامرات التجارية والملكية الخاصة . وكان الفقر ، لا الغنى ، فى نظرهم ، هو الخطيئة ، لأنه ينم على الافتقار إلى الخلق الشخصى وإلى نعمة الله (٢٩)

وكان البيوريتانيون ، من الناحية السياسية ، يتوقون إلى حكومة دينية ديمقراطية ، لا يكون فيها بين الناس إلا فروق أخلاقيه ودينية ، ولا يكون فيها حاكم غير المسيح . ولا قانون سوى كلمة الله . وكرهوا الضرائب الباهظة التى تعول الكنيسة الانجليكانية . وشعر رجال الأعمال منهم أن هذه الكنيسة الرسمية العليا الباهظة النفقات تحلبهم وتستنزف أموالهم . وقال أحد المؤلفين « إن هذه الهاوية الأسقفية تلتهم تجارة الأمة » (٣٠) . ودافع البيوريتانيون عن الثراء . ولكنهم احتقروا الترف الخامل الذى كان يرفل فيه النبلاء ، وتمسكوا بالأخلاقيات إلى حد التطرف ، كما فعلت الأجيال التالية بالحرية . ولكن ربما كانت مبادئهم القاسية تصحيحا ضروريا للانحلال الخلقى فى عصر اليزابث . وأنجبوا بعضاً من أقوى الشخصيات فى التاريخ – كرمول وملتون ، والرجال الذين فتحوا الفيافى والقفار الأمريكية .

ودافعوا عن الحكومة البرلمانية ونظام المحلفين ونقلوها الينا ، وإن إنجلترا لمدينة لهم؛ بشكل جزئى ، بالرصانة الحقه فى الخلق الإنجليزى ، واستقرار الأسرة البريطانية ؛ ونزاهة الحياة الرسمية فى بريطانيا . ولم تفقد شيئا .

٣ — البيوريتانيون والمسرح

إن أول انتصار أحرزه البيوريتانيون كان فى حربهم ضد المسرح . فإن كل ما تميزوا به — من لاهوت قائم على « الاصطفاء » و « الرفض » وخلق متزمت ، ومزاج قاس ، وحديث انجيلى — كان يتناوله المسرح بالتجريح والتسخيف ، عن طريق الصور الكاريكاتورية الفاضحة التى لا تغتفر ، وكانت الطامة الكبرى فى ١٦٢٩ : فإن ممثلة فرنسية تجاسرت على إسناد دور نسائى إلى شاب فى رواية مثلت على مسرح Black Friars فقذفوها بالتفاح والبيض الفاسد .

وربما أرضى الكتاب المسرحيون الجدد جماعة البيوريتانيين ، لأنهم كانوا فى جملتهم مهذبين ، ولو أنهم ، من حين إلى حين ، حاولوا بالبذاءات ، إرضاء جمهور الدرجة الثالثة ذوى الأذواق السقيمة واجتذابهم . إن رواية فيليب ماسنجر « طريقة جديدة لتسديد الديون القديمة (١٦٢٥) لم تكن تهجو الفضيلة المتزمتة : بل جشع الاحتكارات . ولم يكن ثمة شعر خلق ، ولا ذكاء يدوى ، ولا مجازات وتخيلات صارخة ، ولكن الرجل المبتز المجرد من الضمير والمبادىء الخلقية وقع فى يدالعدالة آخر الأمر . وتعاقبت خمسة فصول دون أن تظهر واحدة من البغايا أو بنات الهوى . وتحايل جون فورد على تصيد الجمهور بأن جعل عنوان الرواية " يا حسرتاه إنها مومس " ، ولكن هذه الرواية ، ورواية " القلب الكسير " (كلتاهما ١٦٢٣) احتفظتا بشىء من الاحتشام ، وربما أمكن تمثيلهما الآن لو أن الجمهور الحديث استطاع أن يتحمل العذاب فى حل عقد الرواية .

وسدد البيوريتانيون أعنف ضرباتهم للمسرح ، حين أرسل أشد أنصارهم جرأة وشجاعة ، وليم برين ، إلى الصحافة (١٦٣٢) مقاله « سوط الممثلين Players Scourge وكان برين محامياً ، ولم يدع النزاهة والتجرد ، وقدم إلى

المدعى مذكرة من ألف صحيفة ، وبالاقتباس من الكتب المقدسة ومن كتابات آباء الكنيسة بل حتى من كتابات الفلاسفة الوثنيين ، أثبت أن المسرحية من عمل الشيطان ، فإنها بدأت كصيغة أو شكل لعبادته . إن معظم الروايات ممتلئة بالتجديف والدعارة والفحش ، زاخرة بعناق العشاق ، والإيماءات الخليعة ، والموسيقى والأغانى والرقص الذى يثير الشهوة ، وإن كل أنواع الرقص من عمل شيطانى ،وكل خطوة فيه إن هى إلا خطوة إلى الجحيم ، وإن كل الممثلين مجرمون فجرة كفرة » .« إن كنيسة الله ، لا المسرح ، هى المدرسة الوحيدة الصالحة ، والكتاب المقدس والعظات والكتب الدينية المخلصة الورعة . . . هى المحاضرات " أى القراءات الوحيدة الصالحة للمسيحيين . فإذا أرادوا التحول عنها :

> فإن أمامهم مشاهد متعددة فى الشمس والقمر والكواكب والنجوم وسائر المخلوقات التى لا نهاية لتعددها وتنوعهـــا ؛ ليمتعوا بها أنظارهم . وإن أمامهم تغريد الطيور ليشنفوا به آذانهم ، وإن لديهم الشذا الرقيق الجميل والروائح الزكية المنبعثة من الأعشاب والأزهار والفواكه لينعشوا بها أنوفهم . . ولديهم المذاق الجميل لكل ما يصلح للأكل . . . والمسرات والمتعة التى تقدمها لهم البساتين والأنهار والحدائق والبرك والغابات ، والبهجة التى يوفرها لهم الأصدقاء والأقرباء والأزواج والزوجات والأولاد ، والمقتنيات والثروة ، وسائر النعم الظاهرة التى أنعم الله بها على الإنسان(٣١)

وكانت الحجة قوية بليغة ، ولكنها وصمت كل الممثلات بالدعارة والبغاء ، وكانت الملكة لتوها قد استقدمت من فرنسا بعض الممثلات ، وكانت هى نفسها تتدرب على تمثيل دور فى البلاط ، وجرح شعور هنريتا ماريا واستاءت ، واتهم لود برين باثارة الفتنـــة ، ودفع المؤلف بأنه لم يكن يقصد الطعن فى الملكة أو التشهير بها ، واعتذر عن عدم مراعاة الاعتدال فى كتابته . ولكن على أية حال ، فى قسوة عاقت بأذهان البيوريتانيين طويلا ، منع من الاشتغال بالمحاماة وفرضت

عليه غرامة يستحيل دفعها ، ٥٠٠٠ جنيه (٢٥٠٫٠٠٠ دولار ؟) ، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة . ووضع فى المشهرة وقطعت أذناه كلتاهما(٣٢) ، ومن سجنه أصدر (١٦٣٦) " أنباء من أبزوك " اتهم فيه الأساقفة الأنجليكانيين بأنهم خونة شيطانيون ، وذئاب ضارية ، وأوصى بشنقهم . فعذب فى المشهرة من جديد ، واستؤصلت بقايا أذنيه ، وبقى فى السجن حتى أفرج عنه البرلمان الطويل ١٦٤٠ .

وفى ١٦٤٢ أصدر البرلمان أمراً بإغلاق كل مسارح انجلترا . وكان هذا فى أول الأمر ، فن تدابير حرب ، بدا أنها محدودة بهذه الأوقات الفاجعة . ولكنها استمرت حتى ١٦٥٦ . وآذنت بزوال الحياة الطويلة للمسرحية الإليزابثية ، وسط مسرحية أكبر لم يشهد لها المسرح الإنجليزى مثالا قط .

٤ — النثر فى عهد شارل الأول

كان هناك فى انجلترا ، رجلان على الأقل ، يستطيعان أن يطلا على المشهد المضطرب فى مقدرة وهدوء . وكان جون سلدن Selden واسع الاطلاع والعلم حتى قال عنه الناس : لا يعلم أحد أى شىء لا يحيط به سلدن علما . إنه كرجل مهتم بالآثار والتاريخ القديم ، جمع بيانات عن الدولة فى انجلترا قبل عهد النورمنديين ، وسجلا موثوقاً عن « ألقاب الشرف » (١٦١٧) ، وبوصفه مستشرقاً ، ذاع صيته فى كل أوربا ، بدراسته فى الشرك وتعدد الآلهة ، وبوصفه من رجال القانون شرح قانون الأحبار وكتب «تاريخ العشور» ودحض فكرة أنها فرضت من عندالله ، وبوصفه عضواً فى البرلمان أسهم فى اتهام بكنجهام ولود وفى صياغة « ملتمس الحقوق » . وأودع السجن مرتين . وشهد « اجتماع وستمنستر » كمندوب علمانى عادى « يشهد اقتتال الحمير المتوحشة » ودعا إلى الاعتدال فى المنازعات الدينية . وبعد وفاته أصبح كتابه « حديث المائدة » الذى سجله سكرتيره ، من الآثار الأدبية الإنجليزية ، نقتطف هنا نموذجاً منه :

إنه لمن العبث أن نتحدث عن هرطيق ، لأن الإنسان لا يعتقد
إلا بما يراه أو يفكر فيه هو نفسه . وفى العصور البدائية كان ثمة

> آراء كثيرة ، اعتنق واحدا منها أحد الأمراء ، ودمغت سائر الآراء بأنها هرطقات . ولا يمكن أن يكون رجل ما أعقل الناس من أجل علمه ومعرفته ، فقد يجيء هذا موضوعا للمناقشة ولكن الذكاء والحكمة تولدان مع الانسان . . . . إن العقلاء لا يتفوهون بشيء فى أوقات الخطر .
> إن الأسد دعا الشاة ليسألها إذا كانت ثمة رائحة تخرج من فمه ، فلما أجابت بالايجاب عضها فأطاح برأسها لأنها غبية حمقاء . فدعا الذئب وأعاد عليه نفس السؤال فأجاب بالنفى ، فمزقه الأسد إربا لأنه متملق . وأخيرا نادى على الثعلب وكرر عليه السؤال ، فتعجب وقال إنه مصاب بالبرد ولا يستطيع أن يشم(٣٣) .

وكان توماس براون « ثعلبا » . إنه ولد فى لندن ١٦٠٥ وتلقى علومه فى مدرسة ونشستر ، واكسفورد ومونبيلييه وبادوا وليدن ، واستزاد من العلوم والفنون والتاريخ كلما وجد إلى ذلك سبيلا ، ثم انصرف إلى الاشتغال بالطب فى نورو‌ك . وهذب من « تحليلاته للبول » بتدوين ملاحظاته وأفكاره « عن كل هذه الأشياء ، وعن قليل غيرها » On all things and a few others وأخفى بلباقة نظريته فى الدين فى كتابه « الطب الدينى » (١٦٤٢) ، وهو يمثل مرحلة فى تاريخ النثر الانجليزى . وإنك لتجد فى شخصه « مونتانى بريطانى » ، فهو مثله فى طرافته وخياله ، وفى تذبذبه وتعدد جوانبه ، وربما اقتبس عنه فيما كتب عن الصداقة(٣٤) ، وهبط بتشككه إلى الامتثال للكنيسة الانجليزية مستسيغا العقل ومعلنا إيمانه . وملأ براون كلامه بالاشارات والاشتقاقات التقليدية ولكنه أحب فن الألفاظ وموسيقاها ، مستخدما أسلوبا كأنه دواء « مضاد للبلى والفساد » .

وكان بطبيعة دراسته وتعليمه نزاعا إلى الشك . وفى أطول مؤلفاته وعنوانه « الأقوال الزائفة الشائعة » شرح وهذب مئات من « الآراء الفاسدة الشائعة » فى

أوربا — منها أن العقيق الأحمر يضيء فى الظلام ، وأن الفيل لا مفاصل له ، وأن العنقاء تتوالد بذاتها من رفاتها ، وأن السمندر (نوع خرافى من الضفادع) يمكن أن يعيش فى النار ، وأن وحيد القرن (حيوان خرافى له جسم فرس وذيل أسد) له قرن واحد فى وسط الجبهة ، وأن البجع يغنى قبل موته ، وأن الفاكهة المحرمة كانت التفاح ، « وأن ضفدع الطين يبول وبهذه الطريقة ينفث سمه(٣٥) » ولكنه كأى مهاجم للتقاليد والمعتقدات القديمة ، كان له معتقداته ، فانه آمن بالملائكة والشياطين وقراءة الكف والسحرة(٣٦) ، وشارك فى ١٦٦٤ فى اتهام امرأتين بأنهما ساحرتان ، وشنقتا بعد ذلك على الفور ، وهما تؤكدان براءتهما(٣٧) .

ولم يكن به ميل إلى النساء ، وذهب إلى أن « الجنس » أمر مرذول فقال

لم أتزوج غير مرة واحدة فقط ، وإنى لأمتدح أولئك الذين يعقدون العزم على ألا يتزوجوا مرتين ، وإنى لأتمنى أن نتكاثر ، مثل الشجر ، دون اتصال جنسى ، أو أن تكون هناك وسيلة أخرى للابقاء على الجنس البشرى ، انه أقبح عمل يأتيه الرجل العاقل فى حياته ، وليس ثمة شيء يوهن من عزيمته ويؤذى خياله أكثر من تفكيره فى أية حماقة تافهة شاذة قد ارتكبها(٣٨) .

أما بالنسبة لموضوعه الرئيسى فانه مسيحى بحكم الدفاع عن المسيحية :

أما من حيث ديانتى ، فانه على الرغم من الظروف الكثيرة التى قد تغرى العالم ، فليس لدى منها شيء قط (مثل الخزى العام فى مهنتى ، المجرى الطبيعى لدراساتى وأبحاثى ، عدم التحيز فى سلوكى وفى أحاديثى فى الموضوعات الدينية ، فلا أتحمس فى الدفاع عن دين ، ولا أعارض دينا آخر بمثل هذا العنف الذى اعتاد الناس أن يعارضوا به الديانات الأخرى) ، ولكن برغم كل شيء ، فانى أتجاسر ، دون أى إكراه ، على اعتناق المسيحية الكريمة . لا لأنى أدين بلقبى لجرن المعمودية ، ولا من أجل

تعليمى ، أو المناخ الذى ولدت فيه ، .... ولكن لأنى
فى أيام نضجى وحكمى السليم على الأمـــور ، عرفت كل
الأديان وخبرتها(٣٩) .

ويحس براون بأن عجائب الدنيا ونظامها تنم على عقل إلهى — « إن الطبيعة هى فن الإله(٤٠) » ويعترف بأنه ارتكب بعض الهرطقة ، وينزلق إلى شىء من الارتياب فيما جاء بالكتاب المقدس عن الخلق والتكوين(٤١) ، ولكنه الآن يحس بالحاجة إلى ديانة مقررة ترشد الحائرين والمترددين من الناس ، ويرثى لتفاهة الهراطقة الذين يعكرون صفو النظام الاجتماعى بتوفيقهم فى عملهم(٤٢) . ولم يكن يحب البيوريتانيين ، وبقى على ولائه وإخلاصه لشارل الأول ، أثناء الحرب الأهلية ، وكافأه شارل الثانى على جهوده برفعه إلى مرتبة الفارس .

وفى سنواته الأخيرة أغراه بالتأمل والبحث فى الموت ، الكشف عن بعض المقابر فى نورفولك ، وسجل ملاحظاته وأفكاره فى تحفة من روائع النثر الانجليزى غير ذات موضوع محدد : Hydriotaphia Urne - Buriall. (١٦٥٨) . وينصح باحراق الموتى ، كأخف الوسائل عقبا لتخليص الأرض منـــا . « إن الحياة بريق صاف ، واننا لنعيش «بشمس» خفية فينا » ، ولكنا نومض ثم نخبو بسرعة مخزية . وإن الأجيال لتمضى ، على حين يبقى الشجر ، وان الأسرات العريقة لا تعمر قدر ماتعمر ثلاث بلوطات(٤٣) » ويحتمل أن العالم نفسه » يقترب من نهايته » فى هذه الساعة الفاصلة من الزمن » . ونحن بحاجة إلى الأمل فى الخلود ليثبتنا ضد قصر الحياة هذا ، وإنه لسند قوى لنا أن نحس بالخلود ، — ولكن يحزننا أشد الحزن أن تدفعنا أطياف الجحيم فى التياع إلى الاحتشام واللياقة(٤٤) . وليس الملأ الأعلى « فراغا سماويا » ولكنه « فى نطاق هذا العالم المحسوس » فى حالة من الرضا والهـــدوء . ولكن براون يستدرك بسرعة حتى لاينزلق إلى هاوية الهرطقة ، فيختم تأملاته الدينية بدعاء خاشع إلى الله :

اللهم أنعم على فى هذه الحياة براحة الضمير ، وبالسيطرة

على عواطفى ، وامنحنى حبك وحب أصدقائى الأعزاء ،
وبهذا أكون سعيدا إلى حد الاشفاق على قيصر . تلك ،
يا إلهى ، رغباتى المتواضعة التى يمليها على طموحى المعقول .
وهو كل ما أجرؤ على القول بأنه السعادة على الأرض ،
التى لا أضع فيها قاعدة ولا حدا لنعمتك وعنايتك . وأمنتى
كما تشاء حكمتك فان مشيئتك سوف تنفذ ولو فى القضاء
على (٤٥) .

٥ — الشعر فى أيام شارل

وظهرت فى نفس الحقبة طائفة من الشعراء الثانويين الأقل شأنا — الذين حظى كل منهم بأعظم الحب لدى هـذا أو ذاك من الناس — واللذين أمتعوا الناس ، وملأوا وقت فراغهم بقوافى الغزل وقصائد التقوى الرخيمة . وحيث أن الملك كان يميل إليهم ويرضى عنهم لأنهم كانوا أبواقا له ولسان حاله فى كل التقلبات ، فان التاريخ يعرفهم باسم « الشعراء الفرسان » . وكان روبرت هرك **Herrick** يدرب قلمه عند بن جونسون ، وظن لبعض الوقت أن قدحا من النبيذ يمكن أن ينظم مجلدا من القصائد ، وكان يحتسى الخمر لعدة ساعات دون انقطاع ، من أجل باخوس (إله الخمر والعربدة عند اليونان والرومان) ، ثم درس ليهيئ نفسه للانخراط فى سلك رجال الدين ، وتلقى درسا فى العشق والغرام ، وقطع على نفسه عهدا أن يؤثر الخليلات على الزوجات(٤٦) . وأشار على العذارى « بجمع براعم الورد » عند تفتحها . أما عشيقته كورنا **Corinna** فانه يستحثها بقوة :

انهضى ، انهضى ، يا للعار إن الصبح المتفتح يمثل بأجنحته
قدرة الله كاملة . انظرى كيف أن الفجر ينبثق فى الجو عن
خيوط الضوء الجديد الجميـــل . انهضى أيتها الغادة النؤوم
وانظرى كيف تزين قطرات الندى العشب والشجر .... تعالى ،
ولنذهب ونحن فى ريعان شبابنا لنسرح ونمرح فى اللهو البرىء

> فى أيامنا . سوف يدركنا الهرم بسرعة ونفنى قبل أن نستمتع بحريتنا . . . وعنـــدما يسعفنا زماننا ، وقبل أن نذبل ونذوى ، تعـــالى ياحبيبتى كورنا ، تعـــالى ننعم بربيع الحياة(٤٧) .

وهكذا فى كثير من قصائده الماجنـــة التى نشرها (١٦٤٨) فى مجموعة Hesperides ، حيث نجد أنها ، حتى فى أيامنا الفاجرة ، فى حاجة إلى تهذيب ، حتى تلائم كل الناس . ولكن كسب العيش ضرورى كذلك . ومن ثم غادر هرك لندن الحبيبة إلى نفسه (١٦٢٩) — حاملا معه حبه للقصيد والقوافى — وقصد وهو محزون ، ليعمل قسيسا ويقيم فى بيت متواضع فى ديفونشير النائية .

وسرعان ماشرع فى نظم قصائد تفيض بالتقى والورع ، بادئا بدعاء الغفران :

> أما عن قصائدى الجافية للدين ، والتى كتبتها فى أيام طيشى ومجونى ، عن كل جملة أو عبارة أو لفظة فيها ، لم يرد فيها ذكرك ، يا إلهى ، فتجاوز عنها يارب ، وامح من كتابى كل سطر لم تلهمنى فيه الصواب(٤٨) .

وفى ١٦٤٧ عزله البيوريتانيون من وظيفته . وتضور جوعا ، فى خضوع وولاء ، طوال الأيام السود فى حكم كرومول ، ولكنه عاد إلى أبرشيته بعودة الملكية ، ومات هناك ، وهو فى سن الرابعة والثمـــانين ، وضاعت كورنا فى زوايا النسيان .

ولم يعمر توماس كارو Carew مثلما عمر هرك ، ولكنه مثله ، وجد فسحة من الوقت للخليلات والمحظيات . وتمثل كارو بالمفاتن التى تدق عن الوصف فى المرأة . فتغنى بها فى تفصيل جذل نشوان فى « نشوة ARapture » ، وفى ازدراء جرىء للطهر والعفة حتى أن الشعراء الآخرين عابوا عليه دقته الفاسقة . ولم يغفر البيوريتانيون لشـــارل الأول تعيينه فى المجلس الخاص . ولكن ربما تجاوز عن الموضوع من الناحية الشكلية . لقد اقتبس الشعراء فى أيام شارل كل الرقة والأناقة

الفرنسيتين فى شعر رونسار وبنات أطلس ليزوقوا بالفن الرشيق مجون الشهوات] وبعدها عن اللياقة والاحتشام .

وحظى سيرجون سكلنج Suckling بثروة طائلة فى حياته القصيرة التى لم تجاوز الثلاثة والثلاثين ربيعا . ولد فى ١٦٠٩ ، وورث فى الثامنة عشرة من عمره أموالا كثيرة . وطاف بأنحاء أوربا ليكمل دراسته ، وضمه شارل الأول إلى طائفة الفرسان ، وحارب تحت إمرة جوستافوس أدولفوس فى حرب الثلاثين عاما . وعاد إلى انجلترا (١٦٣٢) ، ليصبح بفضل وسامته وذكائه وثرائه الواسع من ذوى الحظوة فى البلاط الملكى . ويقول عنه أوبرى إنه « كان من أشجع أهل زمانه وأكثرهم شهامة وتودداً إلى النساء ، ومن أكبر المقامرين فى لعبة البولنج (اللعب بالكرات الخشبية) ولعب الورق . . . وقد تأتى أخواته إلى . . . ساحة اللعب ، تتعالى صيحاتهن وصراخهن خوفا من ضياع أنصبتهن فى القمار[٤٩] . » وابتدع نوعا من لعب الورق Cribbage (كربج) . ولم يتزوج قط فى حياته . ولكنه صاحب « عددا كبيرا من السيدات ذوات المكانة » . وفى إحدى الحفلات أهدى السيدات جوارب حريرية . وكأنها حلوى ، ثم مضى الحفل فى بذخ هائل[٥٠] . وأخرجت روايته أجلورا Aglaura فى مناظر باذخة مسرفة ، دفع نفقاتها من جيبه الخاص ، وحشد قواته للقتال إلى جانب الملك ، وخاطر بحياته فى محاولة لانقاذ سير توماس ونتورث ارل سترافورد ، وزير الملك ، من السجن (فى برج لندن) . فلما أخفق هرب إلى القارة ، وهناك حين حرم من كل ثروته . تناول السم ومات .

كذلك خدم ريتشارد لفلاس Lovelace الملك فى الحرب والشعر معا ، كما كان أيضا ثريا وسيما . رآه أنتونى وود فى اكسفورد فقال عنه انه « ألطف وأجمل إنسان وقعت عليه عيناه »[٥١] وفى ١٦٤٢ رأس وفدا من كنت يلتمس من البرلمان الطويل (وكان مشيخيا لأمد قصير) ، إعادة الطقوس الأنجليكانية . ومن أجل هذه الجرأة فى التمسك بمعتقداته ، قضى فى السجن سبعة أسابيع . ولما جاءت معشوقته ألثيا Althea تزوره وتواسيه فى السجن ، خلدها بهذه الأبيات :

عندما يرفرف الحب بأجنحة طليقة حول الأبواب ، ويأتى
بلاكه الطاهر ألثيا تهمس من خلف القضبان . وعندما
أرقد متشابكا فى شعرها لاأحول بصرى عن عينيها ، فان
الطيور التى تسبح فى الهواء لاتعرف حرية مثل هذه .

إن بعض الجـدران لاتصنع سجنا ، ولا تصنع بعض
القضبان قفصا ، لأن العقول البريئـة الهادئة تتخذ من
هذا وذاك صومعة . وإذا كنت أنعم بالحرية فى حبى ، وإذا
كانت نفسى طليقة . فان الملائكة الذين يحلقون فى السماء
هم وحدهم الذين ينعمون بمثل هذه الحرية(٥٢) .

وخرج إلى الحرب ثانية فى ١٦٤٥ ، معتذرا إلى خطيبته (لوسى ساكفرل Sacheverell) فى قصيدة : To Lucasta, Going to the Wars

لاتقولى ياعزيزتى انى قاس لاأرحم ، لأنى من معبد
صدرك الطاهر وبالك الخالى ، أطير إلى ساحة الحرب
وأمتشق الحسام . . . .
على أنك أنت نفسك سوف تقدسين مثل هذا التحول لأنى
لم أكن لأحبك ، إذا لم يكن الشرف أحب إلى منك(٥٣) .

وطبقا لأنباء كاذبة عن موته فى ساحة القتال تزوجت لوكاستا (لوسى الطاهرة) من شخص آخر طلب يدها . ولما أن فقد لفلاس فتاة أحلامه وثروته فى سبيل الدفاع عن الملكية ، ساءت أحواله إلى حد الاعتماد على إحسان أصدقائه وبرهم ليقيم أوده . وبات هذا الذى كان يرفل فى ثياب موشاة بالفضة والذهب ، يرتدى الآن أسمالا بالية ويأوى إلى الأكواخ . ومات من السل والهزال ١٦٥٨ ، وهو فى سن الأربعين .

وكان من الممكن أن يتعلم لفلاس فن البقاء من ادموند وولر Waller الذى نجح فى الاحتفاظ بنشاطه لمدة ستين عاما ، ممالئا جانبي الثورة الكبرى كليهما ،

وأصبح أكثر شعراء زمانه شعبية ، وعمر بعد ملتون ، ومات فى سريره ١٦٨٧ وهو فى سن الواحدة والثمانين . ودخل البرلمان فى السادسة عشرة من عمره ، وأصابته لوثة من الجنون فى سن الثالثة والعشرين ، ثم شفى وتزوج فى سن الخامسة والعشرين من سيدة فى لندن آلت إليها ثروة ضخمة ، وواراها التراب بعد ثلاث سنوات من زواجهما . وسرعان ماتودد إلى ساكاريسا (ليدى دوروثى سدنى) ، بأسلوب جديد لموضوع قديم .

اذهبى أيتها الوردة الجميلة ، وأبلغى هذه التى تضيع
وقتها وتضيعنى ، إنها الآن تعرف حق المعرفة أنى
إذ اشبهها بك ، كم تبدو هى جميلة فاتنة .
أبلغيها ، وهى فى ريعان الشباب ، وتتجنب أن يختلس
أحد النظر إلى مفاتنها ، أنك لوكنت (أيتها الوردة) ،
نشأت فى الصحراء ، حيث لايقطن إنسان ، لأصابك الذبول
دون أن يتغنى أحد بجمالك . . . .
ثم تفنى تلك التى نقرأ فيها المصير المشترك لكل ماهو
فذ نادر ، وما أقصر الأيام التى نقضيها مع ربات الحسن
الرائع والجمال المذهل .

وثمة شاعر آخر يكاد يكون من الشعراء الأقل شأنا يدخل فى زمرة شعراء هذه الحقبة ، وهو ريتشارد كراشو ، الذى امتلأ بالحماس الدينى أكثر مما أغرم بمتاع الدنيا . وكتب والده ، وهو من رجال الكنيســة الأنجليكانية ، مقالات ضد الكاثوليكية ، وملأ قلب ابنه بالمخاوف من البابوية . ولكن ريتشارد اعتنق الكاثوليكية ، وفصل من كمبردج (١٦٤٤) لمناصرته الملك ، فهرب من انجلترا إلى باريس . وهناك تعزى عن فقره « بتجليات الذات الإلهية » ، كان المتصوفة الأسبان فى نظره كشفا مقدسا عن النشوة الدينيةوالورع . وحين وقف أمام صورة للقديسة تريزا غبطها على ماظفرت به من اختراق سهم المسيح لقلبها ، وتوسل إليها أن تقبله تلميذا لها ، منكرا لذاته :

استحلفك بملء ملكوت هذه القبلة الأخيرة التى أمسكت
بروحك الطاهرة ، وختمتك ملكا للمسيح ، وبكل
السموات التى لك فيه (ياشقيقة الساروفيم الجميلة) ،
وبكل مانجده فيك من صفاته ، ألا تتركى فى شيئا من
نفسى ، وأن تدعينى أتأمل حياتك ، بحيث أموت عن
كل حياتى .

قدم كراشو للعالم هذه القصيدة وقصائد غيرها فى ديوانه « خطوات إلى المعبد » (١٦٤٦) ، وهى خليط متناقض يجمع بين النشوات الدينية والنزوات الشعرية : وإنا لندرك من خلال هذا الشاعر ، وشاعر آخر مثله متأخر عنه ، هو هنرى فوجان ، أنه فى تلك الأيام العصيبة المحمومة ، لم تكن انجلترا منقسمة إلى بيوريتانيين وكلفنيين ، بل وسط حرب الشعر واللاهوت ، وجدت بعض الأرواح أن الدين ليس كامنا فى الأضرحة الضخمة والطقوس المنومة ، ولا فى التعاليم الرهيبة والاختيار المرسوم بالكبرياء والزهو ، ولكن فى الاتصال البرىء الواثق ، للنفس الحائرة الخاشعة ، بالله الغفور الودود .

٦ — شارل الأول يواجه البرلمان ١٦٢٥ — ١٦٢٩

أى طراز من الرجال كان هذا الملك الذى كان على انجلترا بأسرها أن تقاتل من أجله ؟ وقبل أن تنتزع العاصفة كل آثار الرحمة والشفقة من قلبه ، كان رجلا فاضلا إلى حد معقول — كان ابنا عطوفا بارا ، وزوجا مخلصا بشكل غير عادى ، وصديقا وفيا ، وأبا يحبه أبناؤه حب العبادة ، وكان قد بدأ صراعه فى الحياة بعلة خلقية فى جسمه ، فلم يكن يستطيع المشى إلى أن بلغ السابعة من العمر . وتغلب على هذه العاهة بالدأب على ممارسة ألعاب قوية ، حتى استطاع فى سنى الشباب والنضج أن يتقن ركوب الخيل والصيد على أحسن وجه . وعانى من عجز عن النطق ، فكان حتى سن العاشرة لايكاد يستطيع الابانة فى كلامه . وفكر أبوه فى إجراء عملية له فى لسانه ، وتحسن شارل شيئا فشيئا ، ولكن ظل حتى آخر لحظة فى

حياته يتلعثم ، وكان عليه أن يتغلب على هذه العقبة بالتزام البطء فى الكلام(٥٤) .

وعندما قضى أخوه هنرى نحبه ، وكان محبوباً لدى الشعب ، وتركه الوريث الظاهر للعرش ، حامت الشبهات حول اشتراك شارل فى موته ، وكان اتهاماً ظالماً ، ولكنه أسهم فى اكتئاب الأمير وسوء حالته النفسية . فآثر العزلة المملة على المرح الصاخب والإدمان على الخمر فى بلاط والده . وبرع فى الرياضيات والموسيقى واللاهوت ، وتعلم شيئاً من اليونانية واللاتينية ، وقليلا من الأسبانية . وأحب الفن ، فاحتفظ بمجموعة أخيه ، وزاد عليها ، فأصبح جامعاً للتحف مع التمييز بين الغث والثمين منها ، وراعياً كريماً للفنانين والشعراء والموسيقيين . ودعا إلى بلاطه الرسام الإيطالى أورازيو جنتلسكى ، ثم روبنز وفانديك وفرانس هالز ، ورفض هالز ، وجاء روبنز أساساً بوصفه سفيراً . ولكن العالم كله عرف شارل على أنه الملك المزهو الوسيم ، مع فنديك بلحيته ، وكم من لوحة للملك بريشة فانديك . واستمر وليم دوبسون ، تلميذ فانديك يصور الأسرة المالكة .

وأسهمت أبوة شارل وزواجه فى القضاء عليه . لقد ورث عن أبيه فكرته عن الحق المطلق للملك ، وسلطته فى سن القوانين وتنفيذها ، والحكم بلا برلمان ، وإلغاء القوانين التى يسنها البرلمان . وبدا أن هذه الفكرة تبررها السوابق ، وكانت قضية مسلماً بها فى فرنسا وأسبانيا ، وكان يشجع شارل على اعتناقها ، بكنجهام والحاشية والملكة جميعاً . نشأت هنريتا ماريا فى البلاط الفرنسى فى نفس الفترة التى كان فيها ريشيليو قد جعل من أخيها لويس الثالث عشر حاكماً مطلقاً مستبداً على فرنسا بأسرها ، فيما عدا ريشيليو نفسه . وقدمت الملكة إلى انجلترا ، وهى تجهر عنده بها الكاثوليكى ، مصطحبة معها فى ركب عرسها الكهنة الكاثوليك ، وزاد من تشددها فى التمسك بمذهبها ما رأت من العنت الذى يلاقيه الكاثوليك فى انجلترا . وتحلت الملكة بسحر الجمال والحيوية والذكاء ، وبكل نزوع آل مديتشى إلى الاشتغال بالسياسة . ولم يكن بد من أن تحث زوجها المخلص على التخفيف من آلام الكاثوليك فى انجلترا ، ولا ريب فى أنها كانت تحلم بتحويل الملك نفسه إلى الكثلكة . وأنجبت له ستة أطفال . ولابد أنه لقى عناء شديداً فى مقاومة رغبتها فى تنشئة

الأطفال على العقيدة الكاثوليكية . ولكنه كان قد انتهج نهجاً مخلصاً فى التمسك بالعقيدة الأنجليكانية . وتحقق أن بلاده ، انجلترا ، بروتستانتية إلى حد كبير ، معادية للبابوية التى تنذر بالأخطار .

فى ١٨ يونية ١٦٢٥ اجتمع أول برلمان فى عهد شارل : مائة من اللوردات — نبلاء وأساقفة — تمتعوا بعضوية مجلس اللوردات ، وخمسمائة رجل ثلاثة أرباعهم من البيوريتانيين[٥٥] ، انتخبوا لمجلس العموم ، بمختلف طرق الاحتيال المالى والسياسى[٥٦] ، ولم يزعم أحد بأنه كان ثمة ديمقراطية . ومن المحتمل أن مستوى الكفاية فى هذا البرلمان أعلى مما كان يمكن أن يأتى به اقتراع البالغين ، فقد ضم كوك وسلدن وبيم وسيرجون اليوت وسير توماس ونتورث . وغيرهم ، ممن خلد التاريخ ذكرهم . وزادت جملة ثروات أعضاء مجلس العموم على ثلاثة أمثال ثروات اللوردات[٥٧] . وتكشفت نزعة مجلس العموم فى مطالبته بتطبيق القوانين المعادية للكثلكة . وطلب الملك تخصيص أموال للنفقات الحكومية وللحرب مع أسبانيا ، فاعتمد المجلس مبلغ ١٤٠ ألف جنيه (٧ ملايين دولار ؟) ، وتعمد أن يكون هذا المبلغ غير كاف ، فإن الأسطول وحده كان يتطلب ضعف هذا المبلغ . وجرى العمل لمدة قرنين من الزمان ، على منح الملوك الإنجليز طيلة مدة حكمهم . حق فرض رسوم على الصادرات والواردات ، وكانت عادة شلنين أو ثلاثة شلنات عن كل برميل كبير Tun (وحدة سعة٢٥٢جالوناً عادة) ومن ستة إلى إثنا عشر بنساً لكل باوند . ولكن القانون الذى سنه البرلمان آنذاك « Tonnage and Poundage » سمح للملك بممارسة هذا الحق لمدة عام واحد فقط . واحتج بأن الاعتمادات السابقة كانت حاشية الملك جيمس تبددها فى إسراف وتبذير . كما شكا من أن الضرائب كانت تفرض دون موافقته ، وتقرر منذ الآن أنه لابد من دعوة البرلمان سنوياً ليفحص كل عام مصروفات الحكومة . واستاء شارل من هذه التدابير والنيات . ولما باتت لندن مهددة بالطاعون ، اتخـذ من ذلك ذريعة لحل البرلمان فى ١٢ أغسطس ١٦٢٥ .

كان بكنجهام يقبض آنذاك على زمام الأمور فى الحكومة ، فإن شارل لم يرث عن أبيه الدوق اللطيف المستهتر فقط ، بل إنه كان كذلك قد تربى فى أحضانه ، ورافقه فى أسفاره ، فى صحبة كان من الصعب معها على الملك (شارل) أن يرى فى صديقه مستشاراً غير حكيم يجر عليه الكوارث . وكان بكنجهام ، بتأييد من البرلمان ، قد دفع جيمس إلى الحرب مع أسبانيا ، أما الآن فقد رفض البرلمان اعتماد الأموال اللازمة للحرب . وجهز الدوق أسطولا ضخماً ليقلع ويهاجم البضائع والثغور الأسبانية ويسلبها ، ولكنه أخفق إخفاقاً تاماً ، أما الجنود العائدون ، الذين لم يتسلموا رواتبهم ، والذين ساءت روحهم المعنوية ، فقد أعملوا السلب والنهب ونشروا الروح الانهزامية فى المدن الساحلية الإنجليزية .

ولما اشتدت حاجة شارل إلى المال ، راض نفسه على دعوة برلمانه الثانى ، وقويت المعارضة باشتداد حاجة الملك . وحذره مجلس العموم من فرض الضرائب دون إقرار البرلمان لها . ووصم اليوت الدوق (وكانا يوماً صديقين) بأنه رجل فاسد عاجز ازداد ثراء كلما أخفقت استراتيجية البلد أو سياستها . وعين البرلمان لجنة لمساءلة بكنجهام . فأنبه الملك قائلا : « أنا لا أسمح بأن يحقق المجلس مع خدمى ، فما بالكم برجل قريب منى إلى هذا الحد . » فأشار اليوت على المجلس بوقف أية اعتمادات حتى يسلم الملك بحق البرلمان فى إسقاط أى وزير ، وذكر شارل البرلمان غاضباً ، بأن فى مقدوره أن يفضه فى أية لحظة ، فرد المجلس على ذلك بمحاكمة بكنجهام رسمياً — متهمين إياه بالخيانة ومطالبين بعزله عن منصبه (٨ مايو ١٦٢٦) وأبلغ الملك بأنه لن يقر أية اعتمادات ، حتى يتم ذلك . فحل الملك البرلمان فى ١٥ يونيه ، وترك البت فى موضوع المسئولية الوزارية للمستقبل .

وبات شارل مرة أخرى معوزاً فى مسيس الحاجة إلى المال ، وبيع مقدار كبير من الصحاف الملكية الفضية والذهبية . وطلب إلى البلاد بأسرها أن تبعث بالهبات والهدايا للملك ، ولكن ما جمع منها كان يسيراً ، فإن الثروات البريطانية كانت تناصر البرلمان ، وأمر شارل أعوانه أن يجمعوا رسوم الصادرات والواردات سالفة الذكر . برغم عدم حصوله على موافقة البرلمان ، وأن يستولوا على بضائع التجار

الذين يعجزون عن الدفع . وأمر الثغور بالانفاق على الاسطول ، وأمر وكلاءه بسوق الرجال إلى الخدمة العسكرية عنوة . وهزم رجال الامبراطور القوات الانجليزية الدنمركية التي كانت تقاتل من أجل البروتستانتية في ألمانيا شر هزيمة . فطالب الدنمركيون حلفاء انجلترا بالمعونة التي كانت وعدتهم بها . وأمر شارل بعقد قرض إجباري — فكان على كل دافع ضرائب أن يقرض الحكومة ١ ٪ من قيمة أرضه و ٥ ٪ من ثمن ممتلكاته الشخصية . وأودع الخصوم الأثرياء السجون ، وسيق المعارضون الفقراء إلى الجيش أو البحرية . وفي نفس الوقت حمل التجار البريطانيون المؤن والذخيرة إلى بوردوو لاروشيل للهيجونوت المشتبكين في حرب مع ريشيليو . فأعلنت فرنسا الحرب على انجلترا (١٦٢٧) ، وقاد بكنجهام أسطولا لمهاجمة الفرنسيين في لا روشيل ، ولكن الحملة أخفقت. وسرعان ما نفد المبلغ الذي جمع من القرض وقدره ٢٠٠ ألف جنيه . وبات شارل مرة أخرى على شفا الافلاس ، فدعا برلمانه الثالث .

اجتمع البرلمان في ١٧ مارس ١٦٢٨ ، وأعيد كوك واليوت وونتورث وجون هامدن . وأرسلت مدينة هنتنجدون لأول مرة أحد ملاك الأرض الأقوياء الشكيمة ممثلا عنها ، هو أوليفر كرومويل . وفي خطاب العرش طالب شارل بالاعتمادات متجهما ، ثم قال في وقاحة وبغير اكتراث : « لا تأخذوا هذا على أنه تهديد ، فاني احتقر أن أهدد إلا من هم أنداد لي[٥٨] واقترح البرلمان اعتماد مبلغ ٣٥٠ ألف جنيه ، ولكن قبل التصويت على ذلك ، طلب موافقة الملك على « ملتمس الحقوق » (١٨ مايو ١٦٢٨) الذي أصبح أحد المعالم التاريخية في الطريق إلى « سيادة البرلمان » :

إلى صاحب الجلالة الملك المعظم
إننا في خشوع واحتشام نعرض على مليكنا وسيدنا ... أنه من حيث أنه قد أعلن وطبق بقانون .... من ادوارد الأول ، أنه لا ضريبة ولا معونة يمكن أن توضع أو تفرض ،

بغير الارادة الخالصة لرؤساء الأساقفة والأساقفة وكل ارل
وكل بارون وكل فارس ، وممثلى المدن والجامعات والأحرار
من العامة . وورث رعاياك هذه الحرية ،أى أنهم لا يجبرون
على الاسهام فى أية ضريبة أو رسـوم أو معونة أو أى
تكليف آخر من هذا القبيل ، لا يكون قد وضع بموافقة
البرلمان موافقة عامة .

ومضى « الملتمس » يحتج على القروض الاجبارية ، وإهدار الملك لحق الفرد فى التحقيق فى قانونية الاعتقال ، وحق المحاكمة أمام المحلفين كما وردا فى « العهد الأعظم ١٢١٥ » . وقال كوك : « إننا سنعرف عن طريق هذا الملتمس ما إذا كتب للبرلمان أن يحيا أو يندثر » . ووافق شارل على الملتمس موافقة غامضة ملتوية، وطالب البرلمـان برد أكثر صراحة ووضوحا . وظل على موقفه من وقف الاعتقادات . فوافق الملك موافقة رسمية أو شكلية . وأحست لندن بأهمية هذا الاستسلام ومغزاه ، وقرعت النواقيس بشكل لم يسمع له مثيل لعدة سنوات من قبل .

وخطا البرلمان خطوة أخرى ، فطالب الملك بعزل بكنجهام ولكنه رفض ، وفجأة روع الطرفان حين وجـد أن هذه المشكلة خرجت من أيديهما . ذلك أن جون فلتون — وهو محارب قديم جريح أثقلته الديون ، غاضباً من أجل متأخرات معاشه ، متأثرا أشد التأثر بالنشرات — اشترى سكين جزار ، ومشى ستين ميلا من لندن إلى بورتسموث ، وغمس السكين فى صدر بكنجهام ، وسلم نفسه للسلطات (٢٣ أغسطس ١٦٢٨) . وانهارت أمام الجثة زوجة بكنجهام التى كانت على وشك الوضع ، واستولى الشعور بالندم على فلتون فأرسل إليها باعتذاراته وطلب منها الصفح ، فأجابته إلى طلبه . ولكنه أعدم دون تعذيب .

وحذر البرلمان الملك بأن استمراره فى تحصيل رسوم الصادرات والواردات إهدار للملتمس الحقوق ، فأجاب شارل بأن مثل هذه الرسوم لم يرد ذكرها فى الوثيقة ، فشجع البرلمان التجار على الامتناع عن دفعها(٥٩) وتوكيدا لحق البرلمان

فى سن التشريع الدينى ، برغم سيادة الملك الدينية ، نادى بكلفنية صارمة ، وبتفسير مضاد لآراء أرمينيوس* للمواد التسع والثلاثين باعتبارها قانون انجلترا ، واقترح ، استنادا إلى السلطة المخولة له ، فرض الخضوع للكنيسة الانجليزية على هذا الأساس ، وفرض العقوبات على الكاثوليك والأرمينيين على حد سواء[٦٠] . فأمر الملك بفض البرلمان ، وغادر رئيسه مقعد الرياسة امتثالا لهذا الأمر ، ولكن المجلس أبى أن يفض الاجتماع ، وأرغم رئيسه على العودة إلى كرسيه . نحن الآن فى ٢ مارس ١٦٢٩ حيث قدم جون اليوت ثلاثة قرارات تنص على أن تكون جريمة كبرى عقوبتها الاعدام : إدخال المذاهب البابوية أو الأرمينية أو أية أفكار أخرى تخالف تعاليم الكنيسة القويمة الصحيحة ، والاشارة أو الاشتراك بأى شكل من الأشكال فى جمع رسوم الصادر والوارد التى لم يقرها البرلمان ، ودفع مثل هذه الضرائب غير المعتمدة . ورفض رئيس المجلس أخذ الرأى على هذه الاقتراحات . فقام أحد الأعضاء بهذه العملية ، وقابلها المجلس بالهتاف والتصفيق وأقرها . ومذ علم أعضاء المجلس بأن جنود الملك على وشك الدخول إلى قاعة المجلس وطردهم ، فانهم قرروا فض اجتماعهم ، وانصرفوا .

وفى مارس أمر شارل بسجن اليوت وسلدن وسبعة أعضاء آخرين بتهمة إثارة الفتنة . وسرعان ما أطلق سراح ستة منهم ، وحكم على الثلاثة الباقين بغرامات فادحة وبالسجن لمدد طويلة ، ومات اليوت فى السجن وهو فى سن الثامنة والثلاثين (١٦٣٢) .

٧ — شارل حاكم مطلق : ١٦٢٩ — ١٦٤٠

ومضت إحدى عشرة سنة — وهى أطول فترة من نوعها فى تاريخ انجلترا لم يجتمع فيها البرلمان . وبات شارل آنذاك حرا فى أن يكون حاكما مطلقا . إنه من الوجهة النظرية لم يطالب بأكثر مما ذهب إليه جيمس واليزابث وهنرى الثامن ،

(*) جاكوب أرمينيوس (١٥٦٠ — ١٦٠٩) — وهو لاهوتى هولندى بروتستانتى عارض آراء كلفن ، فى القضاء والقدر وحرية الارادة والخلاص .

ولكنه من الوجهة العملية ذهب إلى أكثر مما ذهبوا إليه ، لأنهم لم يلغوا بسلطات الملك وحقوقه قريبا من حد التوتر والانفجار كما كان يفعل شارل ، بفرض الضرائب غير المقررة ، وعقد القروض الاجبارية ، وإيواء الجنود لدى المواطنين ، وإجراء الاعتقالات التعسفية ، وإنكار حق المسجونين فى طلب التحقيق فى أمر حبسهم وفى المحاكمة أمام المحلفين ، وتشجيع طغيان محكمة « قاعة المنجم » ، ومحكمة اللجنة العليا وقساوتهما ، الأولى فى المحاكمات السياسية ، والثانية فى القضايا الكنسية ؛ ولكن غلطة شارل الأساسية هى عجزه عن أن يدرك أن الثروة التى يمثلها مجلس العموم أعظم كثيرا من الثورة التى يسيطر عليها الملك أو الثروة الموالية له ، وأن سلطة البرلمان لابد أن تزداد تبعا لذلك .

وفى أثناء هذه الأزمة ، وقبل أن تستنزف دماء الأمة ، ازدهر الاقتصاد ، لأن شارل — مثل والده — كان رجل سلام ، وأبقى انجلترا بعيدة عن الحرب طيلة معظم حكمه ، على حين أرهق ريشيليو فرنسا ، كما أصبحت ألمانيا خرابا بلقعا . وبذل الملك المنهوك أقصى الجهد فى التخفيف من التركيز الطبيعى للثروة . فأمر بوقف المساحات المسورة وألغى ما أقيم منها فى خمس مقاطعات داخلية بين عامى ١٦٢٥ و ١٦٣٠ ، وفرض غرامات على ٦٠٠ من ملاك الأرض المتمردين[٦١] وأمر برفع أجور عمال النسيج فى ١٦٢٩ ، ١٦٣١ ، ١٦٣٧ ، وأمر قضاة الصلح بفرض رقابة أدق على الأسعار . وعين بلجانا لحماية مستوى الأجور ، والاشراف على إعانة الفقراء . وخلق لود لنفسه أعداء جددا ، بتجذيره أرباب العمل من « إذلال الفقراء واضطرارهم إلى إراقة ماء وجوههم[٦٢] » ولكن فى نفس الوقت منحت الحكومة الاحتكارات فى الملح والصابون والنشا والبيرة والنبيذ والجلود ، وأفادت منها . واحتفظت لنفسها باحتكار الفحم . فكانت تشتريه بأحد عشر شلنا للعبوة ، وتبيعه بسبعة عشر فى الصيف وتسعة عشر فى الشتاء[٦٣] . وتلك أيضا احتكارات أرهقت الفقراء إلى أبعد حد ، وهاجر إلى انجلترا الجديدة أكثر من ٢٠ ألفا من البيوريتانيين .

ودفع شارل بأنه كان لابد له من إيجاد وسيلة لتغطية نفقات الحكومة . وفى

١٦٣٤ حاول محاولة مشئومة : فرض ضريبة جديدة . ذلك أن السوابق جرت من قديم على مطالبة المدن الساحلية بأن تمد الأسطول بالسفن اللازمة له زمن الحروب ، مقابل حمايته لها ، أو أن تدفع ، بدلا من ذلك ، « مال السفن » للحكومة لتنفق منه على الأسطول . ولكن شارل الآن ، ونحن فى ١٦٣٥ ، فرض « ضريبة السفن » هذه ، وبغير سابقة ، على كل انجلترا بأسرها فى زمن السلم ، متذرعاً (وهذا حق تماماً) بالحاجة إلى إعادة بناء البحرية الخربة ، استعداداً للطوارى ، ولتتولى حماية التجارة البريطانية ضد قراصنة القنال الإنجليزى . وعارض الكثيرون هذه الضريبة الجديدة ، ورفض جون هامدن دفعها ، اختباراً لمشروعيتها ، فأودع السجن ثم أطلق سراحه . وكان بيوريتانياً موسراً من بكنجهامشير . قال عنه أحد أنصار الملكية — كلارندن ، إنه ليس من مثيرى الفتن بل إنه رجل هادىء « يتميز برزانة ودقة غير عاديتين(٦٤) » . أخفى صلابته فى كياسته ومجاملته ، وأخفى زعامته فى تواضعه .

وتأخرت محاكمة هامدن طويلا ، ولكن أخيراً بدىء بنظر القضية فى نوفمبر ١٦٣٧ ، وأورد محامو التاج سوابق "ضريبة السفن" وقالوا بأن للملك فى ساعة الخطر الحق فى أن يطلب المعونة المالية دون انتظار لانعقاد البرلمان . فأجاب محامو هامدن بأنه لم يكن ثمة ضرورة ماسة تقتضى العجلة ، و حالة طوارىء . وأنه كانت هناك فسحة من الوقت لدعوة البرلمان ، ثم أن فرض الضريبة انتهك ملتمس الحقوق الذى قبله الملك . وصدر الحكم لمصلحة التاج بأغلبية سبعة ضد خمسة من القضاة ، ولكن الرأى العام ساند هامدن ، وارتاب فى نزاهة القضاة الذين هم عرضة لانتقام الملك . وسرعان ما أطلق سراح هامدن . واستمر شارل حتى ١٦٣٩ يجمع ضريبة السفن . واستخدم الجزء الأكبر منها فى بناء البحرية التى قاتلت الهولنديين وانتصرت عليهم فى ١٦٥٢ .

وفى الوقت نفسه جاوزت أخطاء الملك الجسام انجلترا إلى اسكتلنده ، فإنه أزعج المشيخيين الاسكتلنديين بزواجه من كاثوليكية ، ومده سلطان الأساقفة على

كنائسهم . ورُوع نصف الأشراف « بقانون الإلغاء » (١٦٢٥) الذى يقضى بالغاء كل ما منح من أراضى التاج أو الكنيسة منذ ارتقاء مارى ستيوارت إلى العرش . وعين خمسة من الأساقفة ورئيساً للأساقفة أعضاء فى المجلس المخصوص فى اسكتلنده ، ثم عين هذا الأخير وهو جون سبوتيزود Spottizwoode قاضياً للقضاة — وهو أول رجل من رجال الكنيسة يعين فى هذا المنصب منذ عهد الإصلاح الدينى . ثم إنه لما قدم ، بعد إبطاء أو تمهل مثير ، إلى اسكتلنده ليتوج عليها (١٦٣٣) ، سمح للأساقفة بإجراء الطقوس التى تكاد تكون فى معظمها مراسم كاثوليكية فى الكنيسة الأنجليكانية — الملابس والشموع والمذبح والصليب . ولما كان الأساقفة الإسكتلنديون قد وطدوا العزم على فرض سلطانهم على المشيخيات ، فانهم وضعوا مجموعة من القواعد الطقسية التى صارت تعرف — باسم " قوانين لود " ، وقد أولت هذه القوانين الملك سلطة كاملة فى الفصل فى قضايا الكنيسة ، وحرمت اجتماع رجال الدين إلا بدعوة من الملك ، وقصرت حق القيام بالتدريس على من يجيزهم الأسقف ، ونصت على ألا يرسم قسيساً إلا من يرتضى هذه القوانين(٦٥) . وأقر شارل هذه القوانين وأمر باعلانها فى كل كنائس اسكتلنده . واحتج القساوسة المشيخيون على أن نصف الإصلاح الدينى بهذه الطريقة قد نسف ، وحذروا من أن شارل يمهد لإخضاع بريطانيا لرومه . وثارت ثائرة الجمهور فى كنيسة سانت جيل فى إدنبرة عند محاولة إقامة الشعائر على الشكل الجديد ، وقذف بالعصى والحجارة الكاهن الذى تولى إقامة الشعائر ، وطوحت جنى جدز Jenny Geddes بكرسيها فى رأسه صارخة " أيها اللص القذر ، هل أنت الذى ستتلو القداس ؟ (٦٦) " وانهالت الظلامات والالتماسات على شارل من كل الطبقات تطالب بالغاء " القوانين الكنسية " السابق ذكرها . فكان جوابه أنه دمغ هذه الملتمسات بالخيانة . وبدأت إسكتلنده الثورة ضد الملك .

وفى ٢٨ فبراير ١٦٣٨ وقع ممثلو الكنيسة الإسكتلندية وسواد الناس فى إدنبره " الميثاق الوطنى " يؤكدون فيه من جديد مذهب المشيخية وطقوسها ، ويرفضون القوانين الجديدة ، وينذرون أنفسهم للدفاع عن التاج وعن " العقيدة الصحيحة " .

وبتحريض من القساوسة أيدت إسكتلنده كلها تقريباً هذا الميثاق . وهرب سبوتزوود وكل الأساقفة فيما عدا أربعة ، إلى انجلترا . وطردت الجمعية العامة للكنيسة الإسكتلندية فى جلاسجو كل الأساقفة ، وأعلنت استقلالها عن الحكومة . وأرسل الملك أوامره بفض الاجتماع ، وإلا وجهت إلى المشتركين فيه تهمة الخيانة . ولكنهم واصلوا عقد جلساتهم . وحشد الملك جيشاً قوامه ٢١ ألف جندى تعوزهم الحماسة ، ساربه إلى إسكتلنده ، على حين جمع " الميثاقيون " قوة من ٢٦ ألف رجل ألهبهم الحماس الدينى والغيرة الوطنية . وعندما تلاقى الجمعان وافق شارل على عرض القضية على برلمان إسكتلندى حر وجمعية غير مقيدة من الكنيسة الإسكتلندية ، ووقعت الهدنة فى بروك Berwick فى ١٨ يونية ١٦٣٩ وبذلك انتهت « حرب الأساقفة الأولى » دون إراقة دماء . ولكن الجمعية الجديدة انعقدت فى إدنبره فى ١٢ أغسطس ١٦٣٩ ، وأكدت القرارات " الخائنة " التى اتخذت فى مؤتمر جلاسجو ، وصدق البرلمان الإسكتلندى على قرارات الجمعية . واستعد الطرفان " لحرب الأساقفة الثانية " .

ودعا الملك للوقوف إلى جانبه ، فى هذه الأزمة ، رجلا ثابت العزم كامل المزايا (وكانت هذه الكلمة شعاره) بقدر ما كان الملك متردداً عاجزاً . وكان توماس ونتورث Wentworth قد وصل إلى مقاعد البرلمان وهو فى سن الحادية والعشرين (١٦١٤) ،وكان غالباً ما يصوت ضد الملك . وكسبه شارل إلى جانبه بتعيينه رئيساً «لمجلس الشمال " ، وكافأه على نشاطه فى تنفيذ سياسة الملك بضمه إلى مجلس شورى الملك وبعث به نائباً للملك فى إيرلنده (١٦٣٢) حيث أخمدت الثورة هناك سياسته " البارعة " التى ارتكزت على كفاية مجردة من الرحمة ، وأقامت سلاماً مشوباً بالغضب . وفى ١٦٣٩ عين ارل سترافورد ورئيساً لمستشارى شارل . ونصح الملك بحشد جيش كبير ، لقمع " الميثاقيين " ومواجهة البرلمان المتمرد بقوة لا قبل له بمقاومتها . ولكن الجيش الكبير يتطلب اعتمادات من العسير تدبيرها بدون البرلمان . فدعا ، على كره منه ، برلمانه الرابع ، فلما اجتمع هذا " البرلمان القصير " (١٣ أبريل ١٦٤٠) عرض عليه الملك رسالة ضبطت ، التمس فيها الميثاقيون نجدة لويس الثالث عشر(٦٧) . واحتج الملك بأن له الحق ، إزاء مثل هذه الخيانة ،

فى أن يحشد جيشا ، واتصل جون بيم سرا بالميثاقيين ، وقرن أن مشكلاتهم مماثلة لقضية البرلمان ضد الملك ، وحرض البرلمان على منع المعونات المالية عن الملك ، وعلى التحالف مع الاسكتلنديين . فحل شارل البرلمان القصير بتهمة الخيانة (٥مايو ١٦٤٠) . واندلعت الفتنة فى لندن ، وهاجم الرعاع قصر رئيس الأساقفة لود ، فلما لم يجدوه قتلوا كاثوليكيا رفض الصلاة البروتستانتية(٦٨) .

وسار شارل إلى الشمال بجيش جمع ارتجالا ، وتقدم الاسكتلنديون نحو الحدود وهزموا الانجليز (٢٠ أغسطس ١٦٤٠) واستولوا على شمال انجلترا . ووافق الملك البائس على دفع ٨٥٠ جنيها يوميا حتى يتم التوصل إلى معاهدة مرضية ، ولكنه عجز عن الدفع ، وبقى الجيش الاسكلندى حول نيوكاسل ، بوصفه حليفا حاسما للبرلمان الانجليزى فى حربه ضد الملك . فدعا شارل ، وقد تولاه اليأس والذهول والحيرة ، مجلسا من النبلاء للاجتماع به فى يورك . فنصحوه بأن سلطانه بات على شفا الانهيار ، وأنه لابد له من تسوية مع أعدائه . وللمرة الأخيرة دعا الملك البرلمان ، وهو أطول البرلمانات وأشـــدها حسما وأكثرها شؤما فى تاريخ انجلترا .

٨ — البرلمان الطويل

اجتمع البرلمان فى وستمنستر فى ٣ نوفمبر ١٦٤٠ . وكان مجلس العموم يضم نحو ٥٠٠ عضوهم « زهرة الطبقة العليا والعامة المتعلمين .... مجلس ارستقراطى لا شعبى(٦٩) » ، يمثلون ثروة انجلترا أكثر مما يمثلون شعبها ، ولكنهم يناضلون من أجل المستقبل ضد الماضى . وأعيدت أغلبية أعضاء البرلمان القصير ، متحفزين للانتقام . وتبوأ سلدن وهامدن وبيم أماكنهم من جديد . وكان كرومول رجلا مرموقا ، ولو أنه لم يرق إلى الزعامة بعد .

وإنه ليتعذر ، على بعد الشقة ، أن نصور كرومول تصويرا موضوعيا . فان المؤرخين منذ ظهر حتى اليوم ، يصفونه بأنه منافق طموح(٧٠) ، أو قديس سياسى(٧١) .... إنه شخصية متناقضة ، ربما جمع — وربما وفق فى بعض

الأحيان — فى خلقه بين الصفات المتعارضة التى أدت إلى اختلاف الناس فى تقديرهم له . وهذا هو مفتاح سيرة كرومويل .

كان كرومويل من ملاك الأرض من غير ذوى الحسب والنسب ، الذين لم يتمتعوا ببريق الوظائف الحكومية ، ولو أنه أسهم عن غير طيب نفس فى الانفاق عليها . ، مع ذلك فانه كان له أسلافه . فكان والده روبرت كرومويل يملك ضيعة متواضعة فى هنتنجدون تدر ٣٠٠ جنيه فى العام . وكان جده الأكبر ريتشارد وليامز ابن أخى توماس كرومويل أحد قساوسة هنرى الثامن ، فغير اسمه إلى كرومويل ، وحصل بوصفه كاهنا ، أو من الملك ، على شيء من الضياع والموارد المصادرة من الكنيسة الكاثوليكية (٧٢) ، وكان أوليفر واحداً من بين عشرة أطفـال ، وهو الوحيد الذى عمر ، على حين مات الباقون فى سن الطفولة وكان معلمه فى المدرسة الثانوية واعظا متحمساً ، كتب رسالة يثبت فيها أن البابا عدو المسيح ، وأخرى يعدد فيها العقوبات الالهية للخطائين المعروفين بسوء السمعة . والتحق أوليفر (١٦١٦) بكلية سدنى سسكس فى كمبردج ، وكان ناظرها صمويل وارد الذى مات فى السجن (١٦٤٣) لاتخاذه موقفا بيوريتانيا عنيدا ضـد بدع لود و « إعلان الألعاب » الذى أصدره شارل . والظاهر أن أوليفر ترك كمبردج قبل التخرج . وأخيرا فى ١٦٣٨ اتهم نفسه بمقارفة شيء من طيش الشباب ونزقه :

> تعلمون أية حياة كنت أعيشها . آه لقد عشت فى ظلام محبب إلى نفسى ، وكرهت النور . كنت زعـيما ، ولكن زعيم الخطائين الآثمين . إن هذا حق : كان التقى بغيضا إلى قلبى ، ولكن الله حبانى رحمته ، آه ببركات رحمته سبحانه ، احمدوه واشكروه وأثنوا عليه من أجلى — وتوجهوا إليه من أجلى بالدعاء ، لعل من أسدى هـذا الصنيع الجليل أن يتمه يوم المسيح ، أو يوم الحساب (٧٣) .

ومارس كرومويل كل ضروب الندم ، وانتابه هذيان الموت وكل مظاهر القلق العقلى، مما بقى معه مكتئبا باستمرار، وتحدث بقية حياته بأسلوب الورع البيوريتانى .

ثم استقر وتزوج وأنجب تسعة أطفال ، وأصبح مواطناً نموذجياً ، إلى حد أنه في ١٦٢٨ ، وهو في سن الثامنة والعشرين ، انتخب ليمثل هنتنجدون في البرلمان . وباع ممتلكاته في هنتنجدون بمبلغ ١٨٠٠ جنيه (١٦٣١) وانتقل إلى سانت إيف St. Ives ، ثم بعدها إلى Ely . وعندما أعادته كمبردج إلى البرلمان (١٦٤٠) وصفه عضو آخر بقوله : " يرتدي بشكل عادي جداً حلة من قماش بسيط . . . . ولم تكن ملابسه الداخلية نظيفة كل النظافة . . تلطخ ياقته الصغيرة بقعة أو بقعتان من الدم " . . وكان وجهه منتفخاً يميل إلى الحمرة ، وصوته حاداً مجرداً من التناغم — وكان طبعه متقداً إلى حد بعيد ، ولكن مع القدرة على ضبط النفس[٧٤] ، — وكان يتحين الفرصة الملائمة ، ويخاطب الرب . وكان له قوة عشر رجال . ومهما يكن من أمر ، فان الله حتى هذه اللحظة ، اصطفى أدوات أخرى .

إن جون بيم هو الذي كشف عن الغضب الذي ساد البرلمان باتهامه سترافورد بأنه يناصر البابوية سراً ، وأنه يدبر قدوم جيش من إيرلنده للإطاحة بالبرلمان ، و « تغيير القانون والديانة[٧٥] » . وفي ١١ نوفمبر ١٦٤٠ اتهم مجلس العموم إرل سترافورد ، حيث لم يغفر له المجلس قط تخليه عن الملك — بالخيانة وأمر بإيداعه السجن . وفي ١٦ ديسمبر ، وبعد أن أعلن المجلس أن القوانين الأنجليكانية الجديدة باطلة قانوناً ، اتهم رئيس الأساقفة لود « بالكثلكة » والخيانة ، وأمر بإيداعه السجن كذلك ، واعترف سلدن فيما بعد بقوله : « إننا نعلم أنهم لم يرتكبوا جريمة من هذا القبيل[٧٦] » . أما شارل فقد أصابه الذهول والحيرة إزاء هذه الخطوات العنيدة القاسية ، إلى حد أنه لم يتخذ أي إجراء لحماية معاونيه . وبررت الملكة مخاوف البرلمان حين طابت إلى كاهن الاعتراف الخاص بها أن يلتمس العون من البابا[٧٧] .

وعادت موجة التأثر والانفعال لدى الفريقين كليهما . وظهر بين المتطرفين في لندن حزب Roota nd Branch (استئصال الأصل والفرع) — وكان يضم ملتون — وتقدم إلى البرلمان بملتمس يطلب فيه إلغاء الحكومة الأسقفية ، واستعادة حكومة الكنيسة إلى الشعب ، ويستنكر فيه ما يقول به بعض الأساقفة من « أن البابا ليس

عدو المسيح ، وأن الخلاص يمكن تحقيقه فى العقيدة الكاثوليكية[٧٨] » . ورفض المجلس هذا الملتمس . ولكنه أقر تحريم ممارسة الأعمال التشريعية والقضائية على رجال الكنيسة . ووافق اللوردات شريطة احتفاظ الأساقفة بمقاعدهم فى مجلس اللوردات . وهذا ، على أية حال ، هو ما كان يريده بالضبط أعضاء مجلس العموم ، لأنهم توقعوا أن الأساقفة فى مجلس اللوردات سوف يصوتون دائماً إلى جانب الملك . وزاد النار اشتعالا ، تلك النشرات التى انهالت ، دفاعاً عن حكومة الأساقفة أو هجوماً عليها . ذهب الأسقف جوزيف هول إلى أن لحكومة الأساقفة حقاً إلهياً ، على أن الرسل ، أو المسيح ، هم الذين أسسوها . فرد عليه خمسة من المعلقين المشيخيين ، فى نشرة مشهورة ممهورة باسم مستعار Smectymnuus مكون من الأحرف الأولى لأسمائهم . وأعقبها خمس هجمات عنيفة شنها ملتون . وفى ١٧ مايو ١٦٤١ عاد كرومويل فاقترح إلغاء حكومة الأساقفة إلغاء تاماً . وأقر مجلس العموم المشروع ورفضه مجلس اللوردات . وفى أول سبتمبر قرر أن تزال من كل الكنائس الإنجليزية كل " الصور الخليعة " وأن يمنع فى " يوم الرب " (يوم الأحد) الرقص والألعاب الأخرى . واجتاحت انجلترا موجة أخرى من تحطيم الصور المقدسة والقضاء على المعتقدات التقليدية ، فأزيلت أسيجة المذبح وأستاره ، وحطمت النوافذ ذات الزجاج الملون ، ومزقت الصور إرباً[٧٩] . وعاد مجلس العموم فأقر مشروعاً بإقصاء الأساقفة فى ٢٣ أكتوبر . فأهاب الملك باللوردات ، معلناً أنه قرر الاستشهاد فى سبيل المحافظة على مبدأ الكنيسة الأنجليكانية ونظامها ، وقد كان . وضمن تدخله عدم إقرار المشروع . ولكن الجموع المعادية منعت الأساقفة من دخول البرلمان . ووقع إثنا عشر منهم احتجاجاً أعلنوا فيه أن أى تشريع يقر فى غيبتهم يعتبر باطلا عقيما . فأدانهم البرلمان وأودعهم فى السجن . وأخيراً أقر مجلس اللوردات قانون إقصاء الأساقفة (٥ فبراير ١٦٤٢) . ولم يعد الأساقفة يتخذون مقاعدهم فى البرلمان .

وتابع مجلس العموم تدعيم سلطانه ، فاقترض من مدينة لندن المال اللازم لتغطية نفقاته . وأقر مشروعات قوانين تنص على أن تكون مدة البرلمان ثلاث

سنوات ، وتحرم حل أى برلمان قبل مضى خمسين يوماً من بدء اجتماعه ، وحل البرلمان الحالى دون موافقته . وأصلح نظام الضرائب والقضاء . وألغى محكمة قاعة النجم ومحكمة اللجنة العليا . وقضى على الاحتكارات وعلى ضريبة السفن . وألغى الحكم الصادر ضد هامدن ؛ ومنع الملك حق جمع رسوم الصادرات والواردات ، إلا لفترات يحددها البرلمان وحده . ووافق شارل على هذه الإجراءات ، ولكن البرلمان جاوز الإصلاح إلى الثورة .

وفى مارس ١٦٤١ قدم المجلس ارل سترافورد إلى المحاكمة ، وأدانه بتهمة الخيانة ، وأرسل الحكم إلى الملك لتوقيعه . وخلافاً لما نصح به لود ، شخص شارل إلى مجلس اللوردات ، وأعلن أنه على الرغم من استعداده لعزل سترافورد من منصبه ، فإنه لن يوافق قط على إدانته بالخيانة . فأعان أعضاء مجلس العموم أن فى حضور الملك انتهاكاً لحرمة البرلمان وإهداراً لحريته وفى اليوم التالى تجمعت « حشود ضخمة حول مجلس اللوردات وقصر الملك وهى تهتف « العدالة ، العدالة » : وتطالب باعدام سترافورد . وتوسل مجلس الشورى الذى تولاه الجزع ، إلى الملك أن يذعن ، فأبى . وضم رئيس أساقفة يورك رجاءه لى رجائهم فى أن يوقع الملك على الحكم ، وأنذره النبلاء بأن حياته وحياة الملكة وحياة أطفالهما فى خطر ، ولكنه أصر على الرفض . وأخيراً أرسل إليه نفس الرجل المحكوم عليه بالإعدام رسالة ينصحه فيها بالتوقيع ، الذى هو البديل الوحيد « لعنف الرعاع[٨٠] » . فوقع شارل ، ولكنه لم يغتفر لنفسه هذا العمل قط . . وفى ١٢ مايو ١٦٤١ سيق سترافورد إلى ساحة الإعدام ، ومد لود يديه بين قضبان الزنزانة ليباركه أثناء مروره . ومات « الرجل الكامل » دون أنين أو تشنج ، أمام أعين جمهور معاد .

ووسع إعدام سترافورد هوة الخلاف فى المجلس وانقسامه إلى ما عرف فيما بعد بحزبى الأحرار والمحافظين — أولئك الذين أيدوا ، والذين عارضوا انتقال سلطة من الملك إلى البرلمان إلى حد أبعد . إن رجالا مثل لوسيوس كارى (فيكونت

فولكلند) وادوارد هايد (ارل كلارندون فيما بعــد) وكان كلاهما يساندان البرلمان - نقول إن هؤلاء الرجال تساءلوا : أولا يكون الملك ، بعد تأديبه وتهذيبه بمثل هذه القسوة ، حصنا مرغوبا فيه ضد حكم الرعاع فى لندن ، وضد تحكم البيوريتانيين فى الدين ، وضد برلمان جامح يمكن أن يقوض أركان الكنيسة ، ويهدد الملكية الخاصة ، ويعرض للخطر الكيان الطبقى فى الحياة الانجليزية بأسره ؟. وربما سلم بيم وهامدن وكروموبل بهذه الأخطار ، ولكن كان ثمة خطر آخر كان يعتلج فى نفوسهم ، ألا وهو خوفهم على حياتهم هم أنفسهم إذا استعاد الملك قوته وسلطانه . إن الملك قد يأتى فى أية لحظة بجيش نصف كاثوليكى من إيرلنده ، كما اقترح سترافورد من قبل . وقرر البرلمان ، من أجل سلامته وحمايته ، الاحتفاظ بالجيش الاسكتلندى الموالى له فى شمال انجلترا ، وأرســل إلى الاسكتلنديين منحة مبدئية قدرها ٣٠٠ ألف جنيه ، ووعد بدفع إعانة شهرية قدرها ٢٥ ألفا من الجنيهات[٨١] .

وازدادت مخاوف البرلمان باندلاع ثورة عنيفــة فجأة فى إيرلنده (أكتوبر ١٦٤١) . ودعا فليم أونل و رورى أومور الثالث ، وغيرهما من الزعماء ، إلى حرب التحرير - تحرير ألستر من مستعمريها الانجليز ، وتحرير الكاثوليك من ربقة الظلم ، وتحرير ايرلنده من نير انجلترا . وألهبت الثوار ذكريات الاضطهادات الفظيعة ، وانتزاع الملكية وطرد الأهالى بصورة أثمة ، فقاتلوا قتالا عنيفا وحشيا . أما الانجليز فى ايرلنده - دفاعا عما بدا لهم آنذاك أنه ممتلكات شرعية لهم ، وعن حياتهم - فانهم قابلوا الضراوة بأشد منها ، وغدا كل انتصار بمثابة مذبحة . واشتبه البرلمان الانجليزى خطأ فى أن الملك أذكى نار الثورة لاستعادة الكثلكة إلى ايرلنده ، ثم بعد ذلك إلى انجلترا ، فرفض طلب الملك مالا لحشد جيش لانقاذ الانجليز فى شرق ايرلنده ، خشية أن يوجه مثل هذا الجيش ضد البرلمان ذاته . واستمرت ثورة إيرلنده فى غمرة ثورة انجلترا .

واشتدت الثورة حين رفع شارل إلى مرتبة أعلى ، اثنين من الأساقفة المبعدين الذين حوكموا ، فاقترح النواب الناقمون « الاحتجاج الأعظم » يلخصون فيه قضيتهم

ضد الملك ويعلنون عنها ، ويمكن أن يرغم الملك على منح البرلمان حق الاعتراض على التعيينات فى الوظائف الكبرى . وأحس كثير من المحافظين أن مثل هذا الاجراء سوف ينقل السلطة التنفيذية إلى البرلمان ويشل يد الملك . وازداد الانقسام الحزبى حدة ، والمناقشات عنفا ، واستل الأعضاء سيوفهم ليؤكدوا وجهات نظرهم . وصرح كرومويل فيما بعد بأنه لو كان هذا الاقتراح رفض لركب البحر إلى أمريكا(٨٢). ولكنه أقر بأغلبيـــة ١١ صوتا . وفى أول ديسمبر ١٦٤١ قدم إلى الملك . وبدأ « الاحتجاج الأعظم » بتوكيد ولاء البرلمان للتاج ، ومضى يعدد بالتفصيل إساءات الملك إلى البرلمان ، والأضرار التى ألحقها بالبلاد ، واستعرض العيوب التى عالجتها الاصلاحات البرلمانية ، واتهم " الكاثوليك . . . والأساقفة ، والقسم الفاسد من رجال الدين " والمستشارين ورجال الحاشية الأنانيين ، بالتآمر على رد انجلترا إلى الكاثوليكية . وأشـــار إلى تكرار خرق " ملتمسى الحقوق " وتكرار حل البرلمانات المنتخبة حلا تعسفيا استبداديا . وطالب الملك بالدعوة إلى عقد جمعية من علماء اللاهوت لاعادة المذهب الأنجليكانى إلى ما كان عليه قبل قوانين لود ،واقترح على الملك أن يعزل من مجلس الشورى كل المناوئين لسياسة البرلمان ، وأن يستخدم فقط منذ الآن . " مستشارين وسفراء ووزراء ممن يرى البرلمان مبررا للوثوق بهم . وبدون هذا لن يستطيع الأعضاء أن يقدموا لجلالته الامدادات اللازمة له ، أو المساعدات للبروتستانت فيما وراء البحار ، كما أراد جلالته (٨٣) " .

وتمهل شارل فى الرد على هذا الانذار النهائى . فتخطاه البرلمان إلى الشعب ، وأمر بنشر " الاحتجاج الأعظم " ثم رد شارل فوافق على دعوة مجمع كنسى ليقمع كل " غزوات كاثوليكية " ، ورفض حرمان الأســاقفة من حق التصويت فى البرلمان ، وأصر على حقه فى أن يختار لمجلس شورى الملك أو للوظائف العامة كل من يرى أنه صالح . ثم طلب مرة أخــرى اعتمادات ماليــة . ولـكن البرلمان بدلا من هذا ، اقترح " قانون الميليشيا " الذى يخوله حق السيطرة على الجيش .

ولكن شارل"، فى غمرة الحيرة والتردد ، كما هو شأنه دائما ، عمد إلى توجيه ضربة جريئة إلى البرلمان الذى شجبها على أنها عمل من أعمال الحرب . ذلك أنه فى ٣ يناير ١٦٤٢ اتهم النائب العام ، باسم الملك ، أمام اللوردات ، خمسة أعضاء من مجلس العموم — بيم ، هامدن، هوللز ، هسلريج ، سترود — اتهمهم بالخيانة لعملهم على أن يشق الجيش عصا الطاعة على الملك ، وتشجيعهم " دولة أجنبيـــة " (اسكتلنده) على غزو انجلترا وشن الحرب على الملك . وفى اليوم الثانى دخل شارل ، تظاهره قوة من ثلثمائة جندى تركهم عند الباب ، إلى مجلس العموم للقبض على الرجال الخمسة ، فلم يجدهم هناك . فقال الملك الحائر المرتبك ، وقد صار فى مأمن ، " أرى أن كل الجبناء ، قد هربوا " ، وشيعته وهو فى طريقه إلى الخروج صيحات الاستنكار والتوبيخ " الحصانة " . لأن مثل هذا الغزو الملكى المسلح للبرلمان كان غير مشروع بشكل واضح صريح . وخشية الاعتقال بالجملة ، انتقل النواب إلى دار البلدية " جلد هول " تحت حماية المواطنين . وعندما غادر شارل لندن إلى هامبتون كورت ، عاد النواب ، بما فيهم الخمسة المتهمون إلى وستمنستر . وهربت الملكة هنريتا سرا إلى فرنسا ومعها مجوهرات التاج لتشترى بها العون للملك . وسافر شارل إلى الشمال ومعه أختامه . وحاول أن يدخل هل لتأمين المؤن العسكرية هناك ، ولكن المدينة أبت عليه ذلك . فغادرها إلى يورك . وأصدر البرلمان أوامره إلى جميع القوات المسلحة بألا تمتثل إلا للبرلمان وحده (٥ مارس ١٦٤٢) . وانسحب من البرلمان خمسة وثلاثون من اللوردات وخمسة وستون من النواب ، وانضموا إلى الملك فى يورك . وأصبح إدوار هايد آنذاك كبير مستشارى الملك .

وفى الثانى من يونية نقل البرلمان إلى شارل تسعة عشر مقترحا رأى أن قبولها ضرورى للصلح . منها أن عليه أن يخول للبرلمان سلطة الاشراف على الجيش وجميع المواقع المحصنة . وأن يكون له حق تعديل الطقوس الدينية وحكومة الكنيسة ، وتعيين وعزل وزراء التاج وحراس أبنـــاء الملك ، وأن يكون له سلطة إقصاء الاشراف الذين يعينون فيما بعد ذلك ، عن مجلس اللوردات ، ورفض شارل هذه

المقترحات ، على أنها ، عمليا ، تفويض للملكية . وعين البرلمان — وكأنما كان يتدرب على دور الثورة الفرنسية — لجنة " الأمن العام " ، وأمر بأن " يحشد جيش على الفور ، (١٢ يوليه) " وسافر كرومويل وآخرون إلى مواطنهم لجمع المتطوعين وتنظيمهم . وفى نداء إلى الأمة (٢ أغسطس) أسس البرلمان ثورته ، لا على رغبته فى السيادة البرلمانية ، بل على تفاقم الكاثوليكية فى انجلترا ، وحذر البلاد من أن انتصار الملك لابد أن يعقبه مذبحة عامة للقضاء على البروتستانت(٨٤) . أوفى ١٧ أغسطس استولى وكلاء البرلمان على المخازن العسكرية فى هل . وفى ٢٧ غسطس ١٦٤٢ نشر شارل رايته فوق نوتنجهام ، وبدأت الحرب الأهلية الأولى.

٩ — الحرب الأهلية الأولى : ١٦٤٢ — ١٦٤٦ :

انشقت انجلترا الآن — بصورة لا يكاد يكون لها مثيل من قبل فى تاريخها المعروف ، وانحاز إلى صف البرلمان لندن والثغور والمدن الصناعية ، وبصفة عامة الجنوب والشرق ، ومعظم الطبقة الوسطى ، وجزء من الطبقة العليا ، وعمليا كل البيوريتانيين . وانضم إلى جانب الملك اكسفورد وكمبردج والغرب والشمال ،ومعظم الارستقراطيين والمزارعين ،وكل الكاثوليك والانجليكانيين الأسقفيين تقريبا . وكان مجلس العموم منقسما على نفسه ، حيث ناصر الثوار نحو ٣٠٠ عضو ، على حين بلغ عدد الملكيين نحو ١٧٥ عضوا . وبلغ عدد مجلس اللوردات ١١٠ ، انحاز إلى جانب البرلمان نحو ٣٠ منهم فى بداية الأمر ، ورجحت كفة الثورة ضد الملك . وكان فى لندن نصف ثروة الأمة ، وقدمت للثورة القروض بسخاء عظيم ، على حين عجز الملك عن الاقتراض من أى مكان . وكان الأسطول يناصبه العداء ، فسد المنافذ على كل معونة أجنبية . ولم يكن أمام الملك إلا أن يعتمد على الهبات والمنح وعلى رجال من الضياع الكبيرة التى أحس أصحابها أن مصلحتهم فى تلك الأرض تتحقق بانتصاره ، وانبعثت من جديد فى الأسرات القديمة بعض فضائل الفروسية ومشاعرها ، وقدموا المال للملك بلا قيد أو شرط ، وقاتلوا وسقطوا فى الميدان كما يسقط كرام الرجال . واندفع الفرسان المفعمون فتوة وحيوية ،بشعورهم المعقوصة وخيلهم المطهمة بأبهى السروج إلى غمار حرب بطولية ، ومعهم كل الشعراء

إلا ملتون . ولكن الثروة كانت إلى جانب البرلمان .

والتقى الجمعان لأول مرة فى ادجهل Edgehill (٢٣ أكتوبر ١٦٤٢)، وكان كل جيش يتألف من ١٤ ألف رجل . . . وكان الملكيون تحت قيادة الأمير روبرت Rupert ابن اليزابث أميرة بوهيميا أخت شارل ، وكان فى الثانية والعشرين من عمره . أما " ذوو الرءوس المستديرة " أو البرلمانيون فكان يقودهم روبرت دفريه ارل اسكس الثالث . ولم تكن المعركة فاصلة . ولكن اسكس سحب قواته ، وتقدم الملك إلى اكسفورد ليتخذها مقراً لقيادته . ولكن نحميا والنجتون — وهو بيوريتانى متحمس أو سياسى ، أسماها فوزامبينا للبرلمان وللرب ، فهو يقول :

> هنا ندرك رحمة الله الواسعة . . . لأن جملة القتلى من الجانبين ، كما سمعت ، كان ٣٫٥١٧ ، ولكن قتل من الأعداء عشرة مقابل كل واحد فقدناه منا . ولكن انظر إلى حسن صنيع الله ، فان اللذين قتلوا مناكان معظمهم من اللذين ولوا الأدبار . أما الذين صمدوا واستبسلوا فقدكتبت لهم النجاة . . . . كم أود أن أوتى القدرة على أن أروى كيف أن يد العناية الإلهية صوبت بشكل رائع مدافعنا وقذائفنا لتدمير العدو . . . يا للعجب ، كيف وجه الله قذائفهم . . . إن بعضها سقط أمامهم (من جانبنا) وبعضها مر مرورا عابرا ، وبعضها عبر فوق رءوسهم، وأخرى سقطت إلى جانبهم . . . يا لله ، ما كان أقل من مس بأذى برصاص الأعداء ممن وقفوا فى وجوههم وقاوموهم ببسالة . . . هذا صنع الله ، وما أروعه فى نظرى(٨٥) .

على أن الأمور تأزمت فى صفوف البرلمانيين فى الربيع التالى . فان الملكة هنريتا تسللت إلى انجلترا ،حاملة معها بعض الأسلحة والذخيرة ولحقت بالملك فى اكسفورد .

وضيع إسكس الوقت سدى ، على حين كان الهرب والمرض ينخران فى جيشه ، وأصيب هامدن بجرح مميت فى بعض المناوشات عند شالجروف فيلد . وهزمت قوة برلمانية فى أدوالتون مور (٣٠ يونيه ١٦٤٣) ، ودمرت قوة أخرى فى راوندواى داون (١٣ يوليه) . وسقطت برستول فى يد الملك . ولما ساءت أقدار البرلمان إلى هذا الحضيض ، ولى وجهه شطر اسكتلنده طلباً للعون . وفى ٢٢ سبتمبر وقع مندوبو اسكتلنده « تحالفاً وميثاقاً مقدسين » ، تعهد الاسكتلنديون بمقتضاه بإرسال جيش لمساعدة البرلمان مقابل ٣٠ ألف جنيه شهرياً ، شريطة أن يقيم البرلمان فى انجلترا وإيرلنده مذهب البروتستانتية المشيخية — أى حكومة المشايخ فى الكنيسة ، دون سيطرة الأساقفة ، وفى نفس الشهر عقد شارل صلحاً مع المتمردين الإيرلنديين ، المتقدم بعضهم للقتال فى صفوفه فى انجلترا . وابتهج الكاثوليك الإنجليز لهذا . وتزايد عدد البروتستانت الذين انقلبوا على الملك . وفى يناير ١٦٤٤ هزم الغزاة الإيرلنديون فى نانتوتش وتقدم الجيش الاسكتلندى نحو انجلترا . والآن كانت الحرب الأهلية تضم ثلاث أمم وأربعة مذاهب .

وفى يولية ١٦٤٣ انعقدت « جمعية وستمنستر » — ١٢١ من رجال الدين الانجليز ، ٣٠ من العلمانيين الانجليز ، وثمانية مندوبين اسكتلنديين (انضموا فيما بعد) — لتحدد البروتستانتية المشيخية الجديدة فى انجلترا . ولقد عوقت السيطرة البرلمانية أعمال هذه اللجنة حتى باتت تجرر أذيالها فى مؤتمرات تعقدها لمدة ست سنوات . وانسحب نفر قليل من الأعضاء كانوا يظاهرون الحكومة الأسقفية . وطالبت فئة قليلة من البيوريتانيين المستقلين ألا يشهد الاجتماع مشيخيون ولا أساقفة . أما الأغلبية — وفاء بتعهد البرلمان ونزولا على إرادته ، فإنها أيدت أن يتولى الأمور الدينية فى انجلترا أو إيرلنده وإسكتلنده شيوخ الكنيسة ومجلسهم والمجامع الإقليمية والجمعيات العامة . وألغى البرلمان الحكومة الأسقفية الإنجليكانية (١٦٤٣) ، وأقر التنظيم المشيخى والمذهب المشيخى ، ووضع لهما القوانين (١٦٤٦) ، ولكنه احتفظ لنفسه بحق الاعتراض على أية قرارات كنسية . وفى ١٦٤٧ أصدرت الجمعية « اعتراف وستمنستر بالعقيدة والتعاليم الكبرى والتعاليم الصغرى » وكلها تثبت

مذهب كلفن فى القضاء والقدر ، والاصطفاء ، والرفض (أى الإخراج من زمرة الإبرار(*)) وأهملت الكنيسة الانجليكانية وعودة الملكية إلى أسرة ستيورت ، جمعية وستمنستر ، ولكن « الاعتراف والتعاليم » بقيت معمولا بها نظرياً فى الكنائس المشيخية فى البلاد الناطقة بالانجليزية .

واتفقت الجمعية والبرلمان على رفض ما تقدمت به الفرق الصغيرة من إلتماس التسامح الدينى . والتمست مدينة لندن المتحدة من البرلمان القضاء على كل الهرطقات . وفى ١٦٤٨ قدم أعضاء مجلس العموم مشروعات تقضى بعقوبة السجن مدى الحياة على خصوم تعميد الأطفال ، وبعقوبة الإعدام على من ينكرون الثالوث الأقدس أو المتجسد أو نزول الكتاب المقدس بوحى من عند الله ، أو خلود الروح[٨٧] . وأعدم عدد من الجزويت فيما بين عامى ١٦٤٢ و ١٦٥٠ . وفى يناير ١٦٤٥ ، اقتيد رئيس الأساقفة لود ، وهو فى الثانية والسبعين ، من السجن إلى ساحة الاعدام ، ولكن البرلمان أحس أنه مشغول بالحرب إلى أقصى حد ، وأنه ليس ثمة مجال للرفق والمجاملة . ومهما يكن من أمر فإن كرومول ناضل فى سبيل شىء من التسامح . وفى ١٦٤٣ شكل فى كمبردج فرقة أطلق عليها « ذوو الدروع الحديدية **Ironsides** » وهو اسم أطلقه فى الأصل الأمير روبرت على كرومويل نفسه ، ورحب بكل الأفراد الذين ينضمون إلى الفرقة من كل الملل والنحل — باستثناء الكاثوليك وأنصار حكومة الأساقفة — « ممن لا تفارق خشية الله نفوسهم » ، وممن يتدبرون

(*) مقتطفاة من « اعتراف » وستمنستر ، فقرة ٣ « بأمر الله ، وإظهاراً لمجده وعظمته ، قدر على بعض الناس والملائكة الحياة الخالدة ، وقضى على آخرين بالموت الأبدى . أما الذين كتب عليهم الحياة الخالدة من البشر ، فإن الله — قبل وضع أساس العالم ووفقاً لمشيئته الخالدة الثابتة التى لا تتغير ، وما اقتضت إرادته الخفية — قد اختارهم فى المسيح لمجد خالد ، منه ونعمة وحباً ، دون تنبؤ بالعقيدة أو صالح الأعمال ، أو المثابرة على أى منهما ... وكل هذا وفق مشيئته الخالصة سبحانه . أما بقية البشر فقد اقتضت إرادته التى لا مرد لها ، أن يبسط إليهم رحمته ، أو يقبضها عنهم كما يشاء ، لأنه المهيمن على كل خلقه فيتغاضى عنهم ، أو يوقعهم فى الخزى ويسلط عليهم العذاب جزاء بما كسبت أيديهم إقراراً للعدالة الإلهية (٨٦) .

ما صنعت أيديهم[٨٨] . وعندما أراد ضابط مشيخي أن يطرد — من الفرقة ضابطا برتبة مقدم من أنصار تجديد التعميد (إعادة تعميد البالغين ورفض تعميد الأطفال) ، اعترض عليه كرومويل قائلا . « سيدى ، إن الدولة حين تختار موظفيها لا تلتى بالا إلى آرائهم ، طالما أنهم جادون فى خدمتها بإخلاص ، وهـذا يكفى[٨٩] » . وفى ١٦٤٤ طالب إلى البرلمان « أن يلتمس وسيلة ما للتسامح ، وفقا لما جاء فى الكتاب المقدس ، مع ذوى النفوس الضعيفة الذين لا يستطيعون فى كل الأحوال أن يخضعوا لحكم الكنيسة[٩٠] » . وتجاهل البرلمان هذا الطلب ، ولكن كرومويل ظل يمارس تسامحا نسبيا فى فرقته ، وطوال سيطرته على انجلترا .

وكان ارتقاء كرومويل إلى مرتبة القيادة مفاجأة من مفاجآت الحرب . إنه شارك لورد فرديناندو فيرفاكس أمجاد النصر فى ونسبى (١١ أكتوبر ١٦٤٣) . ولقد هزم فيرفاكس فى مارستون مور (٢ يوليـة ١٦٤٤) ولكن رجال كرومويل « الحديديون » أنقذوا الموقف . إن قوادا برلمانيين آخرين ، مثل إرل اسكس وإرل مانشستر ، تراجعوا أو عجزوا عن متابعة انتصارهم وأقر مانشستر صراحة بعدم رغبته فى الاطاحة بالملك . وبغية التخلص من هؤلاء القادة ذوى الألقاب ، اقترح كرومويل « قرار انكار الذات » (٩ ديسمبر ١٦٤٤) ، يعتزل كل أعضاء البرلمان بمقتضاه قياداتهم . وهزم الاقتراح ، ولكن عرض من جديد وأقر (٣ أبريل ١٦٤٥) . واعتزل اسكس ومانشستر ، وعين توماس فيرفاكس — ابن فرديناندو— قائدا أعلى — وسرعان ما عين كرومويل قائدا للفرسان ، وأمر البرلمـان بتكوين جيش « على طراز جديد » ، من ٢٢ ألف جندى ، وأخذ كرومويل على عاتقه مهمة تدريبه .

ولم يكن لدى كرومويل سابق خبرة عسكرية قبل الحرب . ولكن قوة شخصيته وخلقه ، وثبات أردته وصموده لتحقيق الهدف ، وبراعته فى التلاعب بالأحاسيس الدينية والسياسية لدى الناس ، كل أولئك هيأ له القدرة على تشكيل قواته على نظام فذ وولاء فريد : فكان المذهب البيوريتانى يضارع الخلق الاسبرطى فى صنع جنود لا يقهرون ، انهم لم « يؤدوا القسم مثل الفرسان » ، بل على النقيض من ذلك

لم يسمع حلف الأيمان فى معسكراتهم قط ، بل إنها كانت تدوى بالعظات والصلوات . انهم لم يسلبوا ولم ينهبوا ، ولكنهم اقتحموا الكنائس ليجردوها من الصرر الدينية ، ويخلصوها من الأسقفيين أو البابويين (٩١) » . وكانوا يهتفون فرحين أو غاضبين حين يلاقون العدو . ولم تنزل بهم الهزيمة قط . . وعند ما كان الملكيون يطاردون مشاة سير توماس فيرفاكس فى ناسبي (١٤ يونية ١٦٤٥) ، حول كرومول بفرسانه الجدد الهزيمة إلى نصر مبين ، إلى حد أن الملك فقد كل مشاته ومدفعيته ونصف خيالته ، ونسخا من مراسلاته التى نشرت لتكشف عن خطته فى استقدام مزيد من القوات الايرلندية إلى انجلترا ، وإلغاء القوانين المناهضة للكاثوليكية .

ومنذ تلك اللحظة أخذت أحوال الملك تزداد سوءا وبسرعة . فإن مركيز مونتروز ، قائده البطل فى اسكتلنده ، بعد عــدة انتصارات ، هزم فى فيلبهو وهرب إلى النارة . وفى ٣٠ يوليه ١٦٤٥ استولى جيش البرلمان على باث ، وفى ٢٣ أغسطس تخلى روبرت عن برستول إلى فيرفاكس ، والتمس الملك ، دون جدوى ، العون من كل الجهات . وأحس جنوده بأن قضيتهم خاسرة ، فتذرعوا بمختلف المعاذير وتخلفوا عنه وانضموا إلى العــدو . وحاول بالمفاوضات الملتوية مع كل فريق على حدة أن يوقع الانقسام فى صفوف أعدائه — فيفرق بين المستقلين والبرلمان ، وبين البرلمان والاسكتلنديين ،ولكنه أخفق فى ذلك . وكان لتوه قد أرسل زوجته الحامل ، عبر أراضى معادية ، لتبحر إلى فرنسا ، وأمر الآن الأمير شارل بالفرار من انجلترا بأيه وسيلة ممكنة . وتنكر هو ، مع اثنين من المرافقين ، وشق طريقه إلى الشمال حيث استسلم للاسكتلنديين (٥ مايو ١٦٤٦) . ووضعت الحرب الأهلية الأولى ، بالفعل أوزارها .

١٠ — المتطرفون : ١٦٤٦ — ١٦٤٨

وراود شارل الأمل فى أن يعامله الاسكتلنديون ، وكأنه لا يزال ملكا عليهم ، ولكنهم آثروا أن يعتبروه سجينا لديهم . وعرضوا عليه أن يعاونوه على استرداد عرشه ، إذا قبل التوقيع على « التحالف والميثاق المقدسين » وبمقتضى ذلك . يكون مذهب المسيحية المشيخية إجباريا فى كل الجزر البريطانية ، ولكنه أبى عليهم ذلك . وبعث

البرلمان الانجليزي بمندوبيه إلى الاسكتلنديين فى نيوكاسل يعرض عليهم ارتضاء شارل ملكا ، شريطة أن يقبل الميثاق ، ويوافق على إقصاء زعماء الملكيين ، ويسمح بسيطرة البرلمان على كل القوات المسلحة ، وتعيين كبار موظفى الدولة ، ولكن الملك رفض . وعرض البرلمان على الاسكتلنديين مبلغ ٤٠٠ ألف جنيه لتسديد متأخراتهم ونفقاتهم ، إذا عادوا إلى اسكتلنده وسلموا الملك إلى المندوبين الانجليز . ووافق برلمان اسكتلنده ، وقبل المال ، لا على أنه ثمن الملك ، بل على أنه تعويض عن نفقات الحرب . وأحس شارل ، على أية حال ، بأنهم قايضوا عليه بالذهب . ونقل إلى هولمبي هاوس فى نورثمبتو نشير (يناير ١٦٤٧) على أنه سجين البرلمان البريطانى .

واستعرض الجيش الانجليزى المعسكر آنذاك فى سافرون والدن ، على بعد أربعين ميلا من لندن ، استعرض انتصاراته ، وطالب بمكافآت متساوية . ان الاحتفاظ بجيش يبلغ ثلاثة وثلاثين ألف رجل ، اضطر البرلمان إلى رفع الضرائب إلى ضعف أعلى معدل لها أيام شارل ، ومع هذا تأخر للجند رواتب ما بين أربعة إلى عشرة شهور . وفوق ذلك فإن البوريتانيين الذين انهزموا فى البرلمان ، كانت لهم اليد الطولى فى الجيش ، وحامت الشبهات حول زعيمهم كروموبل فى أن له أطماعا لا تتفق مع سيادة البرلمان . وأسوأ من هذا كله ، أنه كان فى فرقته « أنصار المساواة Levelers » الذين يرفضون أى تمييز بين المراتب فى الدولة وفى الكنيسة ، والذين نادوا بحق الاقتراع للبالغين وبالحرية الدينية . وكان نفر قليل منهم شيوعيين فوضويين . رأعلن وليم والوين أن كل شيء يجب أن يكون مشاعا مشتركا ، ومن ثم لن تعود هناك حاجه لقيام حكومة ، لأنه لن يكون هناك حينذاك لصوص ولا مجرمون(٩٢)» وكان جون للبورن Lilburne أعظم دعاة أنصار المساواة يزداد ، بعد كل اعتقال وعقاب ، شعبية فى لندن (١٦٤٦) (٩٣) . وهوجم كروموبل على أنه من « أنصار المساواة » ولكنه برغم تعاطفه معهم ، كان يعارض آراءهم ، احساسا منه بأن انجلترا آنذاك لابد أن تؤدى فيها الديمقراطية إلى الفوضى .

واستياء البرلمان ؛ وهو آنذاك « مشيخى » . لما ينطوى عليه من خطر ، وجود جيش عرمرم مزعج ، فى مكان قريب ، وهو جيش مستقل ذو قوة . فأقر مشروعا بتسريح نصفه ، وتسجيل الباقى متطوعين للخدمة فى أيرلنده . فطالب الجنود بمتأخر رواتبهم ، فأقر البرلمان صرف جزء منها نقدا والباقى وعودا . ورفض الجنود أن يتفرقوا إلا إذا دفعت استحقاقاتهم ورواتبهم كاملة . وجدد البرلمان المفاوضات مع الملك ، وكاد أن يصل معه إلى اتفاق على إعادته إلى العرش ، شريطة قبوله « الميثاق » لمدة ثلاثة أعوام . وحذر الملك من قبول هذا العرض ، ولكن جماعة من الفرسان هاجمت هولمى هاوس وأسرت الملك ، واقتادته إلى نيوماركت (٣ — ٥ يونيه ١٦٤٧) ، وأسرع كروموبل إلى نيوماركت ، وجعل من نفسه رئيسا « لمجلس من الجيش » ، وفى ١٠ يناير بدأ الجيش مسيرة غير متعجلة إلى لندن . . وفى الطريق أرسل إلى البرلمان أعلانا صاغه أساسا صهر كروموبل القدير ، هنرى أيرتون Ireton ، ندد فيه باستبداد البرلمان الذى لم يكن خيرا من استبداد الملك ، وطالب بانتخاب برلمان جديد مع توسع فى حق الانتخاب . ووقع البرلمان بين نارين ، فإن التجار والصناع وأهل لندن كانوا يخشون احتلال الجيش للمدينة ، وطالبوا ، فى صخب شديد بعودة الملك ، وفق أية شروط كانت ، تقريبا . وفى ٢٦ يوليه اقتحمت الجموع البرلمان وأرغموه على دعوة الملك إلى لندن ، ووضع المليشيا تحت قيادة المشيخيين . وترك سبعةوستونمن « المستقلين » البرلمان إلى الجيش .

ودخلت القوات لندن فى ٦ أغسطس ، وأتوا بالملك معهم ، وأعيد « المستقلون » السبعة والستون إلى أماكنهم فى البرلمان ، الذى سيطر عليه الجيش منذ تلك اللحظة إلى أن قبض كروموبل على زمام الأمور . ولم تشب تصرفات الجيش شائبة من الفوضى أو التشويش ، ولم تكن مجردة من المبادىء ، بل حافظ على النظام فى المدينة ، وفى القوات المسلحة نفسها ؛ بل إن الأجيال التالية أجازت مطالبه التى يحتمل أنها كانت غير عملية فى أوانها . وفى نشرة بعنوان « قضية الجيش مدونة بصدق وأمانة » (٩ أكتوبر ١٦٤٧) طالب بحرية التجارة وإلغاء الاحتكارات ، وإعادة الأراضى العامة إلى الفقراء ، وألح على ألا يرغم إنسان على الشهادة ضد نفسه

فى المحكمة(٩٤) . وفى « اتفاقية الشعب » (٣٠ أكتوبر) أعلن « أن كل السلطة أصلا وأساساً فى مجموع الشعب بأسره » ، وأن الحكومة العادلة الوحيدة هى التى تكون عن طريق ممثلين ينتخبون انتخاباً حراً يتوفر فيه حق الاقتراع للبالغين ، وأنه بناء على هذا ، فإن الملوك واللوردات ، إذا سمح لهم بالبقاء فيجب أن يكونوا خاضعين لمجلس العموم ، وأنه لا يجوز إعفاء أحد من سلطة القانون ، وأنه يجب تمتع الجميع بالحرية الدينية الكاملة(٩٥) . قال الكولونيل رينزبورو « إن كل من ولد فى انجلترا ، الفقير أو أحط الناس فى المملكة ، يجب أن يكون له صوت فى اختيار أولئك الذين يضعون قوانين البلاد ، تلك القوانين التى يعيش ويموت فى ظلها(٩٦) . »

وخفف كرومويل من حدة المناقشة بدعوة زعمائها إلى الصلاة . واتهمه « أنصار المساواة » بالنفاق والتفاوض سراً لإعادة الملك ، واعترف بأنه لا يزال يؤمن بالملكية ، وأوضح لهم أن معارضة مقترحاتهم ستكون شديدة إلى حد لا يمكن معه التغلب عليها ، « بقوة العضلات » وحدها . وبعد نقاش طويل أقنع الزعماء بأن يخففوا من مطالبهم بالاقتراع العام إلى طلب التوسع فى حق الانتخاب . ورفض بعض الجنود هذا الحل الوسط ، وعلقوا « اتفاقية الشعب » فى قبعاتهم ، وتجاهلوا أمر كرومويل بالانصراف . وقبض على ثلاثة من زعماء الفتنة ، وحوكموا أمام محكمة عسكرية قضت بإعدامهم . فأمرهم كرومويل بإجراء القرعة على حياتهم ، ومن يخسر يعدم . وعاد النظام سيرته .

وفى الوقت نفسه تمكن الملك من الهرب من سجانيه العسكريين ، واتخذ طريقه إلى الشاطىء وإلى جزيرة وايت حيث وجد مأوى أميناً فى قلعة كارسبروك (١٤ نوفمبر ١٦٤٨) . وشدد من عزيمته ما ترامى إليه من أنباء ثورة الملكيين ضد البرلمان فى الريف وفى الأسطول ، وعرض عليه المندوبون الإسكتلنديون فى لندن سراً ، أن يمدوه بجيش يعيده إلى عرشه إذ قبل إقامة النصرانية المشيخية وإبطال ما عداها من المذاهب المسيحية . وارتضى الملك هذا « الارتباط » ولكنه حدده

بثلاث سنوات . وغادر المندوبون لندن ليحشدوا جيشاً . واعتمد البرلمان الإسكتلندى خطتهم لغزو انجلترا ، وأصدر فى ٣ مايو ١٦٤٨ بياناً يطالب كل الانجليز بالالتزام « بالميثاق » ، ويحظر كل الأشكال الدينية فيما عدا المشيخية ، ويأمر بحل جيش « المستقلين » ورأى البرلمان الانجليزى أن تنفيذ هذه المقترحات لا يعنى شيئاً إلا القضاء عليه وإخضاع انجلترا لإسكتلندة . وأسرع بمصالحة كرومويل ، وأقنعه بأن يقود قواته ضد الإسكتلنديين . ولا ريب أن البرلمان سر لإبعاد كرومويل ، والإلقاء به إلى التهلكة ، وبعد ثلاثة أيام من الأخذ والرد أقنع الجيش بأن يتبعه إلى ميدان المعركة . وتبعه الجيش على كره منه ، وأقسم بعض الزعماء أنهم إذا قدر لهم إنقاذ انجلترا فلسوف يكون من « واجبهم أن يستدعوا رجل الدم ، شارل ستيوارت ، ليقدم حساباً عن الدماء التى سفكها(٩٧) . »

١١ — وأسدل الستار : ١٦٤٨ — ١٦٤٩

استطاع كرومويل بفضل ما أوتى من طاقة أن يقصر من أمد الحرب الأهلية الثانية . فعلى حين أخمد فيرفاكس ثورات الملكيين فى كنت ، اتجه أوليفر غرباً واستولى على معقل ملكى فى ويلز . وعبر الاسكتلنديون نهر تويد فى ٨ يوليه ، وتقدموا فى سرعة مذهلة حتى صاروا على بعد نحو ٤٠ ميلا من ليفربول . وفى برستون ، فى لنكشير ، التقى جيش كرومويل المكون من تسعة آلاف جندى ، مرتين ، بهذا الجمع من الاسكتلنديين والخياله الملكيين وأوقع بهم هزيمة منكرة (١٧ أغسطس) .

وبينما كان كرومويل وجنوده يعملون على إنقاذ البرلمان ، دبر البرلمان أن يحمى نفسه منهم ، بفتح باب المفاوضات من جديد ، لإعادة الملك . ولكنه أصر على أن يوقع الملك « الميثاق » وأن يضعه موضع التنفيذ ، فرفض الملك . وعرض الجيش العائد أن يؤيد عودته إلى العرش مع الحد من حقوقه الملكية إلى أضيق الحدود ، فأبى (١٧ نوفمبر) . وبغية أن يقطع الجيش الطريق على البرلمان ليعيد الملك إلى العرش ، قبض عليه ثانية وأودعه قلعة هيرست المواجهة لجزيرة وايت ، وشجب البرلمان هذا التصرف ، واقترع على قبول شروط الملك أساساً لتسوية النزاع — فأعلن قادة الجيش الذين

كانوا يتوقعون الموت ، إذا عاد شارل ، أنه لن يسمح بالدخول إلى مجلس العموم إلا لمن ظلوا على « ولائهم وإخلاصهم للمصلحة العامة» . وفى بواكير يوم٦ ديسمبر أحاطت قوة من الجنـد تحت قيادة كولونيل توماس برايد ، بمجلس العموم ، واقتحمته ، ومنعت أو طردت ١٤٠ من الأعضاء الملكيين والمشيخيين ، وأودعت السجن أربعين عضوا أبدوا شيئا من المقاومة (٩٨) . واستحسن كروميل هـذا الاجراء . واشترك فى الاقتراع على سرعة محاكمة الملك وإعدامه .

لم يبق الآن من الأعضاء الخمسمائة الذين كان يتألف منهم مجلس العموم ١٦٤٠ إلا ستة وخمسين . وأقر هذا « البرلمان الأثارة » (الذى لم يبق فيه إلا نفرٌ قليل) ، بأغلبية ستة أصوات ، قانونا ينص على أن شن الملك الحرب على البرلمان خيانة عظمى ، ورفض اللوردات القانون على أنه ليس من سلطة مجلس العموم ، وعندئذ (٤ يناير ١٦٤٩) ،قرر النواب أن الشعب « بعد الله مصدر كل سلطة عادلة « وأن النواب ، وهم يمثلون الشعب » ، « أصحاب السلطة العليا فى هذه الأمة ، وأنه بناءعلى ذلك تكون لتشريعاتهم قوة القانون ، دون موافقة اللوردات أو الملك» . وفى ٦ يناير عين النواب ١٣٥ عضوا لمحاكمة الملك ، وأبلغ أحد الأعضاء — وهو ألجرنون سدنى — كرومول بأنهم ليس لديهم سلطة قانونية ، ليحاكموا ملكا . ففقد كروميل صوابه وصاح فى وجهه قائلا : « أؤكد لك أننا سنقطع رأسه وفوقه التاج (٩٩) » وبذل قادة الجيش آخر محاولة لتفادى قتل الملك . فعرضوا تبرئة شارل إذا وافق على بيع أراضى الأساقفة ، وتنازل عن حقه فى الاعتراض برفض قرارات البرلمان . ولكن الملك أجاب بأنه لا يستطيع إلى ذلك سبيلا ، لأنه أقسم اليمين على أن يكون مخلصا لكنيسة انجلترا . وليس ثمة من ينازع فى شجاعته .

وبدأت المحاكمة فى ١٩ يناير ١٦٤٩ . وجلس القضاة المرتجلون الستون أو السبعون على منصة مرتفعة فى طرف من قاعة وستمنستر ، واصطف الجنـد فى الطرف الآخر ، واكتظت الدهاليز والشرفات بجمهور المتفرجين ، وأجلس شارل وحده وسط القاعة . وتلا جون برادشو رئيس الجلسة قرار الاتهام ، وطلب إلى الملك أن

بجيب ، فأنكر شارل سلطة المحكمة فى محاكمته أو صحة تمثيلها لشعب انجلترا ، وقال بأن حكومة يديرها برلمان يسيطر عليـه الجيش ، هى أسوأ طغيانا من أى طغيان أظهره هو قط ، فضجت الشرفات بالهتاف « حفظ الله الملك » ودوت المنابر باستنكار المحاكمة وشجبها . وخشى برادشو على حياته فى الشوارع ، وأرسل الأمير شارل من هولنده صحيفة لا تحمل إلا توقيعه ، ووعد القضاة بالموافقة على أية شروط يدونونها فوق اسمه ، إذا هم أبقوا على حياة والده (١٠٠) . وعرض أربعة من النبلاء أن يقدموا حياتهم فـداء للملك (١٠١) ، فرفض عرضهم . ووقع تسعة وخمسون من القضاة ، من بينهم كرومويل ، الحكم بالاعدام . وفى ٣٠ يناير سار الملك فى هدوء إلى الموت ، أمام جمهور غفـير تملكه الرعب . وبضربة واحـدة من بلطة الجلاد قطع رأسه . وكتب شاهد عيان « لقد تعالت أنات آلاف الحاضرين وقتئذ وآهاتهم ، بشكل لم أعهده قط من قبل ، وأرجو ألا أسمعه من بعد » (١٠٢) .

وهل كان الاعدام عملا مشروعا ؟ إنه بطبيعة الحال لم يكن كذلك . فإنه طبقا للقانون المعمول به ، يكون البرلمان شيئا فشيئا ، وبشكل قاس ، قد انتحل لنفسه الحقوق الملكية التى أقرتها السوابق لمائة عام . فالثورة على التحديد أمر غير مشروع ، ولبس أمامها من طريق لتدفع بالجديد إلى الأمام إلا هدم القديم . وكان شارل مخلصا فى الدفاع عن السلطات التى ورثها عن اليزابث وجيمس ، لقد أثموا ضده قدر ما أثم هو ، وكانت غلطته القاتلة أنه لم يدرك أن التوزيع الجديد للثروة ، اقتضى ، من أجل الاستقرار الاجتماعى ، توزيعا جديدا للسلطة السياسية .

وهل كان الاعدام عدلا ؟ إذا نحى القانون جانبا ، بالاحتكام إلى السلاح ، فقد يلتمس المغلوب الرحمة ، ولكن يمكن للغالب أن يفرض أقصى العقوبة إذا رأى أن هذا ضرورى لمنع تجدد المقاومة ، أو لتعويق الآخرين ، أو للحفاظ على حياته وحياة أتباعه . والمفروض أن أى ملك منتصر كان يمكن أن يطيح برأس كرومويل وأيرتون وفيرفاكس وكثيرين غيرهم ، وربما مع مختلف ألوان التنكيل والعذاب التى يتعرض لها عادة كل من يتهمون بالخيانة .

وهل كان الاعدام عملا حكيما ؟ من المحتمل ألا يكون كذلك ، ومن الواضح أ

أن كروموبل اعتقد بأن بقاء الملك على قيد الحياة ، مهما يكن من اطمئنان إلى ضمان سجنه ، يمكن أن يحفز الملكيين الى معاودة الثورة المرة بعد المرة ، ولكن كذلك سوف يكون حافزا على تجدد المقاومة من جانب ابن الملك الذى لا يمكن الوصول إليه فى فرنسا أو هولنده ، والذى لم تلوثه أخطاء والده ، والذى لا بد أن تكلل هامته وشيكا بأمجاد البطولة . إن إعدام شارل الأول أدى إلى تحول كان يمكن التنبؤ به فى الشعور الوطنى الذى استرد مساره على مدى أحد عشر عاما ، ويوحى التاريخ اللاحق بأن الرحمة كانت عين العقل والحكمة فإنه عند ما وقع چيمس الثانى ، ابن شارل ، بالمثل ، فى الخطأ الجسيم ، تدبرت ثورة ١٦٨٨ الجليلة الأمر ، فى دهاء ارستقراطى ، وسمحت له عمدا بالهرب إلى فرنسا ، وكان لخلعه نتائج ثابتة دائمة . ومهما يكن من أمر ، فإن الثورة السابقة هى التى مكنت للثورة اللاحقة فعاليتها السريعة .

إن الثورة الكبرى تماثل ثورات الهيجونوت فى فرنسا القرن السادس عشر ، كما تماثل ، برغم الفوارق الكثيرة ، الثورة الفرنسية ١٧٨٩ — فهناك فى الحالة الأولى العصيان المسلح للكالفنية البسيطة العابسة التى شدت من أزرها الثورة التجارية ، ضد الكنيسة الشديدة التمسك بالشعائر والطقوس وضد الحكومة الاستبدادية المطلقة . وهناك فى الحالة الثانية ثورة الجمعية الوطنيه التى تمثل سلطان المال وقوة الطبقة الوسطى ، ضد ارستقراطية تمتلك الأرض يتزعمها ملك حسن النية ولكنه متخبط مرتبك . وما وافى عام ١٧٨٦ حتى كان الانجليز قد استوعبوا ثورتهم ، وكان فى مقدورهم أن ينظروا بعين الفزع القلق ، عن اقتناع ، إلى ثورة خضبت بالدم ، مثل ثورتهم ، أرض دولة وقتلت ملكا ، لأن الماضى حاول أن يقف جامدا لا يريم .

NOTES المراجع

CHAPTER I

1. Froude, *Reign of Elizabeth*, I, 11.
2. Neale, *Queen Elizabeth*, 26.
3. Ibid., 37.
4. Froude, I, Introd., vii.
5. Read, C., *Mr. Secretary Cecil and Queen Elizabeth*, 32.
6. Ibid., 119
7. Hughes, P., *The Reformation in England*, III, 46.
8. Froude, *Elizabeth*, III, 306.
9. Froude, I, 448.
10. Barnes, H. E., *Economic History of the Western World*, 205.
11. Hallam, *Constitutional History of England*, I, 245.
12. Lingard, J., *History of England*, VI, 324.
13. Christopher Hatton in *Shakespeare's England*, I, 80.
14. Neale, 61.
15. Ibid., 75-6.
16. *Shakespeare's England*, I, 5.
17. Neale, 386.
18. Froude, I, 120.
19. *Cambridge Modern History*, III, 289.
20. Froude, IV, 61.
21. Thornton, *Table Talk from Ben Jonson to Leigh Hunt*, 9.
22. Hallam, I, 133.
23. Neale, 80.
24. Read, 561.
25. Froude, II, 84.
26. *Camb. Mod. History*, II, 581.
27. Froude, I, 300.
28. Ibid., 101.
29. Ibid., 491.
30. Creighton, *Queen Elizabeth*, 154.
31. Church, R. W., *Spenser*, 116.
32. Lingard, VI, 181.
33. Aubrey, *Brief Lives*, 105.
34. Chute, *Shakespeare of London*, 145.
35. Bacon, Fr., *Philosophical Works*, 860, Apophthegm 55.
36. Froude, V, 106.
37. Sir John Hayward in Muir, K., *Elizabethan and Jacobean Prose*, 1.
38. Chute, *Ben Jonson*, 163.
39. Froude, I, 8, 14.
40. Ibid. and 141, II, 258; Allen, J. W., *History of Political Thought in the Sixteenth Century*, 199-200.
41. Ascham, *The Scholemaster*, 81.
42. Froude, III, 4.
43. Taine, *English Literature*, 160.
44. Smith, Preserved, *The Age of the Reformation*, 634.
45. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 5, 6.
46. Bradbrook, *The School of Night*, 7; Boas, *Marlowe and His Circle*, 90; and the ed. of *Love's Labour's Lost* by A. T. Quiller Couch and J. Dover Wilson, London, 1923.
47. Bradbrook, 39.
48. Ibid., 12.
49. Robertson, *Freethought*, II, 10.
50. Green, J. R., *Short History of the English People*; ch. vii, sect. 3.
51. Froude, I, 183; IV, 65; V, 228.
52. Ibid., IV, 385-6.
53. *Camb. Mod. History*, II, 562.
54. Chute, *Ben Jonson*, 79.
55. Roeder, *Catherine de' Medici*, 492.
56. Froude, IV, 119; Neale, 215.
57. Payne, E. A., *The Anabaptists of the 16th Century*, 19; Lingard, VI, 170.
58. Pastor, *History of the Popes*, XVII 250.
59. McCabe, *Candid History of the Jesuits*, 150.
60. Froude, I, 329.
61. Ibid., II, 345; Hughes, III, 159.
62. Macaulay, *Critical and Historical Essays*, I, 6; *Camb. Mod. History*, III, 349.
63. Lingard, VI, 122
64. Hughes, III, 289.
65. Pastor, XIX, 441-2.
66. Ibid.
67. McCabe, *Candid History*, 148.
68. Ibid., 150.
69. Froude, IV, 284.
70. Ibid., 294-5.
71. Lingard, VI, 165; Froude, IV, 297.
72. Pastor, XIX, 458.
73. Hughes, III, 315-6.
74. Neale, 265.
75. Hughes, III, 363; Williams, F. B., *Elizabethan England*, 10.
76. Froude, V, 238.
77. Hughes, III, 380; Neale, 299.
78. Hallam, I, 169; Lingard, VI, 257.
79. Hughes, III, 391-6.
80. Allen, J. W., *History of Political Thought in the Sixteenth Century*, 216-7; Hallam, I, 190.
81. Hallam, I, 198.
82. Hughes, III, 408.
83. Lea, H. C., *Studies in Church History*, 508
84. Neale, 178.
85. Hallam, I, 205.
86. *Camb. Mod. History*, III, 345.
87. Walton, Izaak, *Life of Richard Hooker*,

in Clark, B. H., *Great Short Biographies of the World*, 556.
88. Hooker, Richard, *Works: Laws of Ecclesiastical Polity*, I, x, 4, 8.
89. Ibid., VIII, vi, 11.
90. Ibid., I, i, 1.
91. Froude, IV, 237.
92. Ibid., 191.
93. D'Alton, E. A., *History of Ireland*, III, 199.
94. Froude, IV, 233, 236.
95. Ibid., 233.
96. Froude, II, 466.
97. *Encyclopaedia Britannica*, 14th ed., XV, 778b.
98. Froude, II, 211.
99. Nussbaum, F. L., *History of the Economic Institutions of Modern Europe*, 122; Froude, II, 468.
100. Barnes, *Economic History*, 265.
101. Acton, J. E., *Lectures on Modern History*, 152; Davies, E. Trevor, *The Golden Age of Spain*, 212; Froude, III, 309; V, 37.
102. Froude, V, 344.
103. Ibid., 400.
104. Michelet, Jules, *Histoire de France*, IV, 4.
105. Froude, V, 413.
106. Ibid., 430-1.
107. Spedding, J., *Life and Times of Francis Bacon*, I, 56.
108. Strachey, *Elizabeth and Essex*, 173.
109. In Eddy, Sherwood, *The Challenge of Europe*, 205n.
110. Strachey, *Elizabeth and Essex*, 6.
111. Clarendon, *Robert Devereux and George Villiers*, in Clark, *Great Short Biographies*, 603.
112. Spedding, I, 21.
113. Ibid., 179.
114. Ibid., 56.
115. Strachey, 65.
116. Spedding, I, 231.
117. Spedding, note to Rawley's *Life of Bacon*, in Bacon, *Philosophical Works*, 3.
118. Strachey, 172; Spedding, *Life of Bacon*, I, 227; Creighton, *Queen Elizabeth*, 279.
119. Holzknecht, *Backgrounds of Shakespeare's Plays*, 301; Chambers, E. K., *William Shakespeare*, I, 354; Strachey, 241.
120. Spedding, I, 343-8.
121. Strachey, 264-5.
122. Creighton, 295.
123. Strachey, 279.
124. In Muir, *Elizabethan and Jacobean Prose*, 39.
125. Ibid., 40.
126. *Hamlet*, III, iii, 15-23.
127. Bacon, *Advancement of Learning*, Preface to the King.
128. *Henry VIII*, V, v, 18.

CHAPTER II

1. A phrase of unknown origin, as old as 1300.—Mencken, H. L., *New Dictionary of Quotations*, 343.
2. Bernal, *Science in History*, 284; Wolf, A., *History of Science in the Eighteenth Century*, 630.
3. Trevelyan, *English Social History*, 191.
4. Rogers, *Economic Interpretation of History*, 38; Traill, *Social England*, III, 365; Froude, *Henry VIII*, I, 19; Lipson, *Growth of English Society*, 157f..
5. *Shakespeare's England*, I, 320.
6. Rogers, *Economic Interpretation*, 37; Rogers, *Six Centuries of Work and Wages*, 84, 88, 100.
7. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 94; *Shakespeare's England*, I, 331.
8. Creighton in Traill, III, 373.
9. Gasquet, *Henry VIII and the English Monasteries*, II, 515n.
10. Smith, P., *Age of the Reformation*, 476.
11. Beard, Chas., *Toward Civilization*, 227.
12. Trevelyan, *Social History*, 160-1.
13. Wolf, *History of Science in the Sixteenth and Seventeenth Centuries*, 614.
14. Thompson, J. W., *Economic and Social History of Europe in the Later Middle Ages*, 497
15. Sée, H., *Modern Capitalism*, 55.
16. Trevelyan, *Social History*, 120.
17. Sarton, G., *Introduction to the History of Science*, IIIa, 324.
18. Addison, J. D., *Arts and Crafts in the Middle Ages*, 26.
19. Froude, *Elizabeth*, II, 88.
20. Chute, *Shakespeare of London*, 63.
21. Ascham, *Scholemaster*, 71-8 and end.
22. Einstein, Lewis, *Italian Renaissance in England*, 160.
23. Hughes, III, 137.
24. Goethe, *Faust*, Part II, lines 616-18, quoted in Haydn, H., *The Counter-Renaissance*, 362.
25. *Camb. Mod. History*, III, 363.
26. Chute, *Ben Jonson*, 41.
27. Trend, J. B., *Civilization of Spain*, 110.
28. Hughes, III, 144.
29. *Shakespeare's England*, I, 416.
30. Froude, *Elizabeth*, V, 462.
31. Trevelyan, *Social History*, 140.
32. Lingard, VI, 323.
33. *King Lear*, IV, vi.
34. Lingard, VI, 323.
35. Hallam, I, 35.

36. *Shakespeare's England*, I, 398.
37. Froude, *Elizabeth*, IV, 122-3; *Shakespeare's England*, I, 400.
38. Hallam, I, 234; Spenser, E., *Poetical Works*, Introd., xxiii.
39. Browne, Sir Thos., *Religio Medici*, Introd., x.
40. Garrison, *History of Medicine*, 819.
41. Bacon, Essay "Of Gardens," in *Philosophical Works*, 791.
42. *Merchant of Venice*, I, ii.
43. *Much Ado about Nothing*, III, iv.
44. Holzknecht, 44.
45. Philip Stubbs in James, B. B., *Women of England*, 250.
46. Wright, Thomas, *Womankind in Western Europe*, 334.
47. *Merchant of Venice*, III, ii, 89.
48. *Shakespeare's England*, II, 94.
49. Wright, Thomas, *History of Domestic Manners and Sentiments in England*, 456.
50. James I, *A Counterblast to Tobacco* (1604), in Muir, 89.
51. McKinney and Anderson, *Music in History*, 278.
52. *Oxford History of Music*, II, 221.
53. Ibid., 208.
54. Haydn, H., *The Portable Elizabethan Reader*, 666.
55. Burney, C., *General History of Music*, II, 306.
56. In the National Portrait Gallery, London.
57. Blomfield, R., *Short History of Renaissance Architecture in England*, 37.
58. Bishop, A. T., *Renaissance Architecture of England*, 34; Blomfield, 86.
59. Ibid.
60. Haydn, *Counter-Renaissance*, 13.

CHAPTER III

1. Burton, Robert, *Anatomy of Melancholy*, 7.
2. *Shakespeare's England*, II, 183.
3. Putnam, G. H., *Censorship of the Church of Rome*, II, 258.
4. *Shakespeare's England*, II, 217.
5. Cambridge *History of English Literature*, III, 369.
6. Garnett and Gosse, *English Literature*, II, 68.
7. Camb. *History of English Literature*, III, 372.
8. Ascham, *Scholemaster*, 17-23.
9. Haydn, *Portable Elizabethan Reader*, 183.
10. Lyly, *Euphues: The Anatomy of Wit*, 3.
11. Greene, Robert, *A Groats-worth of Wit Bought with a Million of Repentance*, in Taine, *English Literature*, 168.
12. In Muir, 28.
13. Symonds, J. A., *Shakespeare's Predecessors*, 435.
14. Saintsbury, *History of Elizabethan Literature*, 233.
15. Bourne, *Sir Philip Sidney*, 75.
16. Aubrey's *Brief Lives*, 278.
17. Bourne, 115.
18. Ibid., 27-30.
19. Ibid., 277.
20. Sidney, Philip, *Works: Defense of Poetry*, 9.
21. Sidney, *Works*, III, 14.
22. Ibid., I, 7.
23. Ibid., I, 16.
24. *Defense of Poetry*, 41.
25. Sidney, Sonnet xxxi.
26. Bourne, 326.
27. In Haydn, *Elizabethan Reader*, 394.
28. Bourne, 349.
29. Spenser, *Poetical Works*, 559.
30. Prefatory Letter to Raleigh, in *Poetical Works*, 407.
31. *Faerie Queene*, II, xii, 78.
32. Thornton, *Table Talk*, 1.
33. Van Doren, *Anthology of World Poetry*, 1026.
34. Aristotle, *Poetics*, 1449-50.
35. *Defense of Poetry*, 38.
36. Mantzius, *History of Theatrical Art*, III, 11.
37. *Shakespeare's England*, II, 241.
38. Chambers, E. K., *The Elizabethan Stage*, I, 255.
39. Holzknecht, 110.
40. Chambers, *Elizabethan Stage*, I, 258.
41. Shakespeare, *Twelfth Night*, II, iii.
42. *Pericles*, IV, ii.
43. Chambers, *Elizabethan Stage*, IV, 273-5.
44. *Henry V*, I, i, 13.
45. *Hamlet*, III, ii, 10.
46. Holzknecht, 153.
47. *Shakespeare's England*, II, 277.
48. *Hamlet*, II, ii, 354.
49. Mantzius, III, 228.
50. Marlowe, *Works*, Appendix, 428-30.
51. Bakeless, John, *Tragicall History of Christopher Marlowe*, 112.
52. Symonds, *Shakespeare's Predecessors*, 437.
53. Bakeless, 113.
54. Marlowe, *Tamburlane*, Part I, Act II, vii.
55. France, A., *The Gods Are Athirst* 57.
56. Ecclesiastes, i, 18.
57. Marlowe, *Faustus*, I, i.
58. *The Jew of Malta*, II, iii.

59. Ibid., I, i.
60. Ibid., II, i.
61. *Tamburlane*, Part I, Act I, i.
62. Bakeless, 156; *Esquire Magazine*, December 1954.

CHAPTER IV

1. Chambers, *William Shakespeare*, II, 264.
2. Ibid., 257.
3. Lee, Sidney, *Life of William Shakespeare*, 22.
4. Chambers, *Shakespeare*, II, 188.
5. Ibid., 189.
6. Ibid., 259, 265.
7. Shakespeare, Sonnet XXIX.
8. Sonnet CX.
9. Chute, *Shakespeare*, 269.
10. Sonnet CLII.
11. Lee, 68.
12. Raleigh, W., *Shakespeare*, 150.
13. Chambers, *Shakespeare*, I, 434.
14. *As You Like It*, II, vii.
15. *King Lear*, IV, vi, 120.
16. *Timon of Athens*, IV, i, 35.
17. Ibid., IV, iii, 54.
18. Ibid., IV, iii, 151f.
19. *Troilus and Cressida*, II, ii, 166.
20. *Coriolanus*, I, iv, 57.
21. Thornton, *Table Talk*, 5.
22. *Encycl. Brit.*, III, 781b.
23. *Two Gentlemen of Verona*, I, i, 71.
24. *The Tempest*, I, ii, 129.
25. *Midsummer Night's Dream*, II, iii, 61.
26. *Hamlet*, II, ii, 310.
27. *Romeo and Juliet*, I, ii, 139
28. *Julius Caesar*, I, ii, 139.
29. *Tempest*, II, i, 47.
30. Hauser, A., *Social History of Art*, I, 422.
31. *Love's Labour's Lost*, I, i, 166.
32. *Richard III*, I, i, 1.
33. Ibid., I, i, 24.
34. *2 Henry IV*, IV, iv.
35. *1 Henry IV*, III, i.
36. *Much Ado about Nothing*, II, iii.
37. *2 Henry IV*, III, i.
38. *King John*, IV, ii.
39. *Troilus and Cressida*, III, iii.
40. *Midsummer Night's Dream*, I, iii.
41. *Merchant of Venice*, I, iii.
42. *Twelfth Night*, III, iv.
43. *Mid. Night's Dream*, I, i.
44. *Othello*, I, i.
45. *King Lear*, IV, vi.
46. *Hamlet*, I, iv.
47. Ibid., II, ii.
48. *Mid. Night's Dream*, II, i.
49. *Two Gentlemen of Verona*, IV, ii.
50. *Cymbeline*, II, iii.
51. *Measure for Measure*, IV, ii.
52. *Mid. Night's Dream*, V, i, 7.
53. Examples in Chambers, *Shakespeare*, 228-30.
54. *Comedy of Errors*, III, i, 76.
55. *Tempest*, IV, i, 199.
56. *As You Like It*, III, ii.
57. Shaw, Bernard, *Man and Superman*, Preface, xxviii.
58. *Hamlet*, I, v.
59. *Much Ado about Nothing*, V, i.
60. *Hamlet*, III, iv, 88.
61. Ibid., II, ii.
62. *Coriolanus*, IV, vii
63. *Hamlet*, I, iv, 25.
64. *Richard III*, V, iii.
65. *Richard II*, III, iii.
66. *1 Henry IV*, III, i; cf. Haydn, *Counter-Renaissance*, 601f.
67. *Troilus and Cressida*, I, iii.
68. *King Lear*, V, ii, 9.
69. *Twelfth Night*, II, iii.
70. *King Lear*, IV, vi, 112f.
71. *Pericles*, II, i.
72. *Tempest*, II, i, 147-64.
73. *Hamlet*, IV, iv, 35.
74. Raleigh, *Shakespeare*, 61.
75. *King John*, III, i.
76. *Henry VIII*, II, ii; *Romeo and Juliet*, IV, ii.
77. *King Lear*, IV, i, 36.
78. Ibid., V, iii, 169.
79. V, ii, 10.
80. *King John*, III, iv, 108.
81. *Hamlet*, I, iii, 126-28.
82. *Macbeth*, V, v, 23.
83. *Merchant of Venice*, V, i.
84. *Measure for Measure*, III, i, 118.
85. *Hamlet*, I, iv, 67.
86. Chambers, *Shakespeare*, II, 194.
87. In Lee, *Shakespeare*, 179.
88. Jonson, *Timber*, in Chute, *Ben Jonson*, 340.
89. Lee, 177.
90. Ibid., 178.
91. Aubrey, 275.
92. Jonson, *Timber*, in Lee, 277.
93. Chambers, *Shakespeare*, I, 84.
94. Lee, 203.
95. Aubrey, 275.
96. Ibid., 85.
97. *Tempest*, I, ii, 5.
98. Ibid., IV, i, 148.
99. V, i, 48.
100. V, i, 181.
101. Chambers, *Shakespeare*, I, 89.
102. Holzknecht, 380-1.
103. Voltaire, Letter of July 19, 1776, in Desnoiresterres, G., *Voltaire et la société française au xviiime siècle*, VIII, 108.

104. In Croce, B., *Ariosto, Shakespeare, and Corneille*, 284.
105. Voltaire, article on Dramatic Art, in Holzknecht, 387.
106. Goethe, *Wilhelm Meister*, Book II, chs. xiii-xvi.

CHAPTER V

1. Brantôme, *Book of the Ladies*, 92.
2. Ibid., 124.
3. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 6.
4. Pastor, XVI, 283.
5. Lingard, VI, 12.
6. *Book of Discipline*, Heads I and III, in Knox, *History of the Reformation in Scotland*, II, 281-3.
7. Knox, *History*, II, 321-2.
8. In National Portrait Gallery, London, and in Uffizi Gallery, Florence.
9. Lang, Andrew, *Mystery of Mary Stuart*, 13, 61.
10. Knox, *History*, II, 10; Froude, *Elizabeth*, I, 255.
11. Knox, II, 8.
12. Ibid., 12.
13. Ibid., 13f.
14. Lang, *History of Scotland*, II, 107.
15. Ibid.
16. Muir, Edwin, *John Knox*, 240.
17. Knox, *History*, II, 29.
18. Lang, *History*, II, 110.
19. Fosdick, *Great Voices of the Reformation*, xxix.
20. Knox, *History*, II, 44-6.
21. Lang, *History*, II, 126.
22. Knox, II, 71-7; Lang, II, 127; Muir, *Knox*, 253.
23. Knox, II, 81.
24. Ibid., 83.
25. Ibid., 93.
26. Zweig, *Mary Queen of Scots*, 108.
27. Neale, *Queen Elizabeth*, 141.
28. Lang, *History*, II, 160.
29. Ibid.; Froude, *Elizabeth*, II, 50.
30. Lang, II, 162.
31. *Camb. Mod. History*, III, 272.
32. Lang, *Mystery*, 75.
33. Ibid., 108-11.
34. *Camb. Mod. History*, III, 273.
35. Lang, *History*, II, 171; Lingard, VI, 67.
36. Lang, II, 170-2.
37. Ibid.; Knox, *History*, lxxiii.
38. Zweig, 158.
39. Lang, *Mystery*, 236.
40. Acton, *Lectures*, 150-2; Lang, *Mystery*, 295, 353, 362.
41. Ibid., 133.
42. Lang, *History*, II, 188.
43. Neale, 161.
44. Lang, *Mystery*, 194.
45. Froude, *Elizabeth*, II, 307, 310.
46. Brockway and Winer, *Second Treasury of the World's Great Letters*, 112.
47. Hallam, I, 167.
48. Froude, *Elizabeth*, II, 407.
49. Ibid., 404; Lang, II, 200.
50. Lang, II, 203.
51. Lang, *Mystery*, 286.
52. Lingard, VI, 97.
53. Froude, III, 110.
54. Muir, *Knox*, 282.
55. Knox, *History*, I, vii.
56. Lingard, VI, 126.
57. Ibid., 128; Hughes, III, 278.
58. Roeder, *Catherine de' Medici*, 491.
59. Neale, 263.
60. Pastor, XIX, 450-2.
61. Lingard, VI, 187.
62. Ibid., 205-6; Pastor, XXI, 7-19.
63. Ibid., 25; Froude, V, 259-61.
64. Williams, Chas., *James I*, 76, 80-3; Froude, V, 294.
65. Zweig, 291.

CHAPTER VI

1. Fontenoy in Froude, V, 74.
2. Lang, *History*, 276, 294-6, 305, 395; Lingard, VI, 183.
3. Lea, *Studies in Church History*, 502-8.
4. Ibid., 500.
5. Lang, *History*, II, 243.
6. James I, *Basilikon Doron*, in Gooch, *English Democratic Ideas in the Seventeenth Century*, 41.
7. Lang, *History*, II, 278.
8. *History Today*, March 1956, 159.
9. Buckle, *History of Civilization*, IIa, 199.
10. Williams, *James I*, 132.
11. *Encycl. Brit.*, IV, 310.
12. Allen, J. W., *History of Political Thought*, 339-40; cf. Carlyle, R. W., *History of Medieval Political Theory*, 332f; Figgis, J. N., *From Gerson to Grotius*, 167-72.
13. Allen, op. cit., 342.
14. Quoted by Oliver Dick in Introduction to Aubrey's *Brief Lives*, xxx.
15. In Chute, *Ben Jonson*, 249.
16. Ibid., 268.
17. Ibid., 217.
18. Bowen, C. D., *The Lion and the Throne*, 315.
19. Aubrey, 67.
20. In Robinson, J. H., *Readings in European History*, 349; Allen, 254; Dunning, W. A., *History of Political Theories*, II, 217.
21. Allen, J. W., *English Political Thought*, 26.
22. Ibid., 124.

23. Lingard, VII, 17.
24. Allen, *English Political Thought*, 223.
25. Williams, *James I*, 192-3.
26. Lingard, VII, 19-22.
27. Ibid., 29.
28. Ibid., 40-3.
29. Ibid., 46-8.
30. Ibid., 50, 96.
31. McCabe, *Candid History of the Jesuits*, 198.
32. Lang, *History*, II, 508.
33. Aubrey, 21.
34. Hallam, H., *Literature of Europe*, III, 324.
35. Webster, *The White Devil*, in Webster and Ford, *Plays*, p. 91.
36. Webster, *Duchess of Malfy*, in Webster and Ford, p. 145.
37. Ibid., IV, ii.
38. Thornton, *Table Talk*, 15.
39. Thomas Fuller in Chute, *Ben Jonson*, 37.
40. Jonson, *Every Man out of His Humour*, Induction.
41. Thornton, 7.
42. Jonson, *Every Man out of His Humour*, Induction.
43. Thornton, 8.
44. Chute, *Ben Jonson*, 161.
45. Jonson, *The Alchemist*, II, i.
46. Baskerville, Read, etc., *Elizabethan and Stuart Plays*, 1077.
47. Herrick, *Poems*, 241.
48. Chute, *Ben Jonson*, 310.
49. Williams, *James I*, 189.
50. Introduction to Burton, *Anatomy of Melancholy*, p. x.
51. Ibid.
52. Burton, *Anatomy of Melancholy*, 8.
53. Ibid., 3.
54. Ibid., 79-80.
55. Donne, *Poems*, 83.
56. Ibid., 26.
57. Elegy XIII; Elegy II.
58. *Poems*, 182.
59. Ibid., 180.
60. Thornton, 4.
61. *Poems*, 253.
62. In Peterson, *Treasury of the World's Great Speeches*, 91.
63. Ibid., 92.
64. Walton, *Life of Dr. Donne*, in Peterson, 95.
65. Hallam, *Constitutional History*, I, 347; *Encycl. Brit.*, XVIII, 961b; Lingard, VII, 7.
66. Text in Schuster, M. L., *Treasury of the World's Great Letters*, 82-4.
67. Raleigh, Sir Walter, *Selections*, 61.
68. Ibid., 117.
69. Lingard, VII, 101.
70. Spedding, *Life of Fr. Bacon*, II, 188-9; Wallace, *Sir Walter Raleigh*, 261f
71. Lingard, VII, 102.
72. *Encycl. Brit.*, XVIII, 961b.
73. Wallace, *Raleigh*, 315.
74. Raleigh, *Selections*, Introduction, 28.
75. Lingard, VII, 117.
76. Williams, *James I*, 258.
77. Hallam, *Constitutional History*, 109.
78. Ibid., 122.
79. MacLaurin, C., *Mere Mortals*, 137.

CHAPTER VII

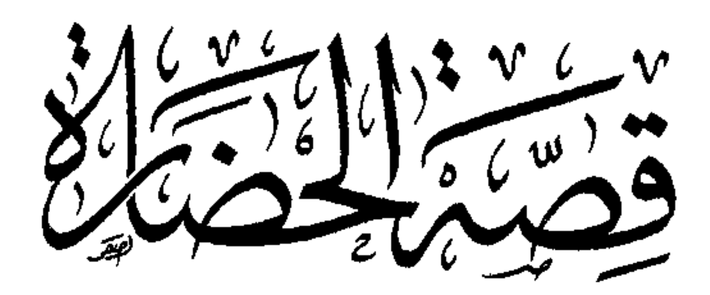
1. Browne, Sir Thomas, *Pseudodoxia Epidemica*, in *Works*, Vols. II and III.
2. Thorndike, Lynn, *History of Magic and Experimental Science*, VI, 548-9.
3. Lecky, *Rationalism in Europe*, I, 180; Williams, *James I*, 106-10.
4. Lang, *History*, II, 434.
5. Hughes, *Reformation*, II, 286n.
6. Ibid., 285.
7. Thorndike, VI, 550; Chute, *Ben Jonson*, 229.
8. Trevelyan, *English Social History*, 232.
9. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, I, 97.
10. Ibid., 95.
11. Robertson, *History of Freethought*, II, 13.
12. Huntington Library Bulletin, April 1934, p. 99.
13. Wolf, *History of Science*, I, 292.
14. Ibid., 426.
15. John, Evan, *King Charles I*, 153; Kellogg, *The New Dietetics*, 847.
16. Garrison, *History of Medicine*, 248.
17. Sigerist, *The Great Doctors*, 141.
18. Harvey, *Exercitatio anatomica de motu cordis et sanguinis*, in Hammerton, *Great Books*, 273.
19. Walsh, J. J., *The Popes and Science*, 396.
20. Aubrey, 131.
21. Prinzmetal, *Heart Attack*, 121-2.
22. Aubrey, 128.
23. Ibid., 130.
24. Ibid., 11.
25. Gardiner, S. R., in Garnett and Gosse, *English Literature*, II, 12.
26. Spedding, *Life of Bacon*, I, 542.
27. Aubrey, 9.
28. Macaulay, *Critical and Historical Essays*, II, 326-8.
29. Bowen, *The Lion and the Throne*, 418; *Camb. Mod. History*, III, 571.
30. Spedding, *Life*, II, 463.
31. Ibid., 633.
32. Ibid., I, 563.
33. Ibid., 569.

34. Bacon, *Philosophical Works*, 241.
35. Ibid.
36. Ibid., 244.
37. Ibid., 247.
38. Aubrey, 130.
39. Bacon, *Phil. Works*, 167.
40. Ibid., 76, 78; *De Augmentis scientiarum*, Preface.
41. *Philosophical Works*, 76.
42. *Advancement of Learning*, ch. 8.
43. Bacon, *Works*, ed. Spedding and Ellis, VII, 241.
44. *Novum organum*, i, 97.
45. Ibid., i, 81; and "Plan of the Work" in *Philosophical Works*, 250.
46. *Novum organum*, ii, 13, 17.
47. *Philosophical Works*, 144.
48. Ibid., 77.
49. Ibid., 50.
50. Spedding, *Life*, I, 111.
51. *Novum organum*, ii, 2.
52. Ibid., ii, 8.
53. Ibid.
54. *De Augmentis*, iv, 3.
55. *Novum organum*, i, 66.
56. *De Augmentis*, end.
57. Essay "Of Atheism"
58. Ibid.; *Advancement of Learning*, in *Philosophical Works*, 45; *De Augmentis*, iii, 2.
59. Essay "Of Atheism."
60. *Valerius Terminus*, ch. i, in *Philosophical Works*, 186.
61. Rawley's *Life*, in *Phil. Works*, 9.
62. *De Augmentis*, ix, 1.
63. Essay "Of Goodness."
64. Ibid.
65. "Of Marriage and Single Life."
66. Essays "Of Empire" and "Of the True Greatness of Kingdoms."
67. *De Augmentis*, viii, 3, in *Phil. Works*, 610-11.
68. "Of Vicissitude of Things."
69. "Of Seditions and Troubles."
70. *Phil. Works*, 717.
71. *History of Henry VII*, in *Works*, VI, 238-45.
72. In Nichol, J., *Fr. Bacon*, II, 4.
73. Pope's *Essay on Man*, line 282.
74. *Thema coeli*, in *Phil. Works*, 705; *Descriptio globi intellectualis*, ibid., 685.
75. In Friedell, *Cultural History of the Modern Age*, I, 335.
76. *The Advancement of Learning*, in *Phil. Works*, 167.
77. Wolf, *Science in the Sixteenth Century*, 640; Bernal, *Science in History*, 305.
78. Hallam, *Literature of Europe*, III, 72.
79. Nichol, J., II, 235.
80. *Novum organum*, i, 49.
81. Ibid., i, 26, 95.

CHAPTER VIII

1. Rogers, *Six Centuries of Work and Wages*, 103.
2. Ibid., table at p. 73.
3. John, *Charles I*, 167.
4. French, Allen, *Charles I and the Puritan Upheaval*, 100-2.
5. Robertson, J. M., *Freethought*, II, 24.
6. Ibid., 77.
7. Ibid., 76.
8. Ibid.
9. Aubrey, 135.
10. Belloc, H., *Richelieu*, 49.
11. McCabe, *Candid History*, 202.
12. Toynbee, A., *Study of History*, IX, 178.
13. Allen, *English Political Thought*, 237.
14. Ibid., 242.
15. Ibid.
16. Taine, *English Literature*, 259-62.
17. Hume, D., *History of England*, IV, 183.
18. Gardiner, S. R., *History of England 1603-42*, VII, 302.
19. French, *Charles I*, 281.
20. Lingard, VII, 181; Taine, *English Literature*, 265.
21. *Camb. Mod. History*, IV, 279.
22. Allen, *English Thought*, 194.
23. Carlyle, T., *Oliver Cromwell*, I, 93.
24. French, 306.
25. Schaff, *History of the Christian Church: The German Reformation*, I, 79.
26. Allen, *English Thought*, 283.
27. French, 281.
28. Markun, L., *Mrs. Grundy*, 114.
29. Weber, Max, *The Protestant Ethic*, 177.
30. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 387.
31. Allen, *English Thought*, 279f; Lingard, VIII, 190.
32. Ibid., 191n.
33. Thornton, *Table Talk*, 72, 106.
34. Browne, *Religio Medici*, 77.
35. Browne, *Works*, II, 216.
36. *Religio Medici*, 70, 34.
37. Singer, *Studies in the History of Science*, 222.
38. *Religio Medici*, 82.
39. Ibid., 1.
40. Ibid., 18.
41. Ibid., 25.
42. Ibid., 10.
43. Ibid., 179.
44. Ibid., 60.
45. Ibid., 92.
46. Herrick, *Poems*, 181.
47. Ibid., 178.
48. Ibid., 398.
49. Aubrey, 287.
50. Ibid., 189.
51. Ibid., 192.

52. Lovelace, *Poems*, 78.
53. Ibid., 18.
54. MacLaurin, *Mere Mortals*, 143-4; John, *Charles I*, 4; French, 16.
55. Bishop, *Renaissance Architecture*, 25.
56. John, *Charles I*, 65.
57. Ibid., 66.
58. Ibid., 133; Lingard, VII, 164.
59. Gardiner, S. R., *History of England 1603-42*, VII, 1.
60. Ibid., 41-3.
61. Tawney, *Religion and the Rise of Capitalism*, 173.
62. Ibid., 174; Allen, *English Thought*, 360.
63. Rickard, *Man and Metals*, II, 799
64. Clarendon, *History of the Rebellion*, I, 323.
65. Ibid., 188f.
66. Carlyle, *Oliver Cromwell*, I, 94.
67. Lang, *History of Scotland*, III, 71.
68. John, *Charles I*, 207.
69. Morley, *Oliver Cromwell*, 72.
70. Clarendon, *passim*; Hume, D., *History of England*, IV, 174, 401.
71. Carlyle, *Oliver Cromwell*; Firth, *Oliver Cromwell*; Buchan, *Oliver Cromwell*.
72. Morley, *Cromwell*, 9.
73. Carlyle, *Cromwell*, I, 98.
74. Ibid., 108.
75. Clarendon, I, 300; Gardiner, *History of England*, IX, 230.
76. Thornton, *Table Talk*, 108.
77. Gardiner, IX, 251-2.
78. Allen, *English Thought*, 346f.
79. Morley, *Cromwell*, 91; Hallam, *Constitutional History*, II, 119; Allen, 354.
80. Clarendon, I, 452.
81. Ibid., 466.
82. Firth, *Cromwell*, 61.
83. Clarendon, II, 49 f.
84. Allen, *English Thought*, 313, 403-4.
85. Robinson, J. H., *Readings*, 356.
86. Schaff, *History of the Christian Church: The Swiss Reformation*, II, 565.
87. Firth, 149; Bury, J. B., *History of Freedom of Thought*, 86; Robertson, J. M., *Freethought*, II, 76.
88. *Camb. Mod. History*, IV, 312
89. Firth, 147.
90. Ibid.
91. Macaulay, *History of England*, I, 100.
92. Gooch, *English Democratic Ideas*, 119, 179.
93. Ibid., 124.
94. Ibid., 128.
95. *Camb. Mod. History*, IV, 345.
96. Firth, 175.
97. Morley, *Cromwell*, 240.
98. Lingard, VIII, 110.
99. Morley, 267.
100. John, *Charles I*, 294.
101. Hume, *History*, IV, 485.
102. Churchill, W. S., *History of the English-Speaking Peoples*, II, 213.
103. Robinson, *Readings*, 359.



قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

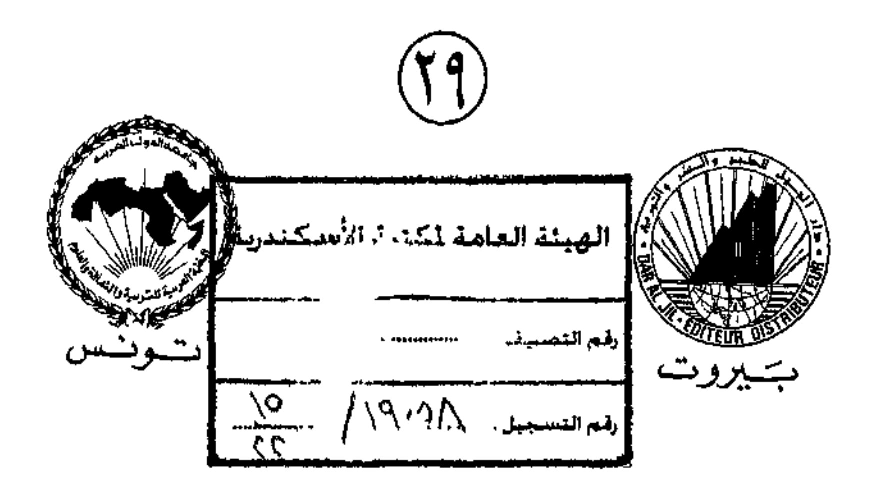
بداية عصر العقل

ترجمة
فؤاد أندراوس

مراجعة
علي أدهم

الجزء الثاني من المجلد السابع

(٢٩)



دار الجيل : ص.ب ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دار جيلاب - بيروت - لبنان

الكتاب الثاني

صراع العقائد على السلطة

١٥٥٦ - ١٦٤٨

فهرس

الجزء الثاني من المجلد السابع

صراع العقائد على السلطة

١٥٥٦ — ١٦٤٨

الفصل التاسع

إيطاليا : الأم الخيرة

١٥٦٤ — ١٦٤٨

الفصل الثالث عشر

الصراع على فرنسا

١٥٥٩ — ١٥٧٤

الفصل الرابع عشر

هنرى الرابع

١٥٥٣ — ١٦١٠

الفصل الخامس عشر

ريشليو

١٥٨٥ — ١٦٤٢

الفصل السادس عشر

فرنسا إبان الحروب

١٥٥٩ — ١٦٤٢

الفصل التاسع

إيطاليا الأم الخيرة

١٥٦٤ — ١٦٤٨

١ — « الحذاء السحرى »

بعد أن هدأ عنف المعركة التى خاضتها إيطاليا فى ميدانى النهضة والاصلاح البروتستنتى ، راحت تستكين إلى حكم الأسبان استكانة يزعجها الفقر ، ويواسيها الدين ، ويضفى عليها السلام بريقا خداعا . كانت معاهدة كاتو — كامبريزى (١٩٥٩) قد خلعت دوقية سافوا على إمانويل فيليبرت ، أما جنوا ولوكا والبندقية وسان مارينو فقد مد فى أجلها فبقيت جمهوريات مستقلة . وأما مانتوا فظلت خاضعة لأمراء جونزاجا ، وفيرارا لأمراء استنزى ، وبارما لأمراء فارنيزى . وحكمت أسرة مديتشى توسكانيا — فلورنسة وبيزا وأريتزو وسيينا — ولكن موانيها كانت تحت سيطرة أسبانيا . وحكمت أسبانيا عن طريق نواب ملكها دوقية ميلان ومملكة نابلى التى كانت تضم صقلية وكل إيطاليا جنوب الدويلات البابوية . وحكم هذه الدويلات ، التى اخترقت وسط شبه الجزيرة من البحر المتوسط إلى الأدرياتى ، بابوات تحدق بهم القوة الأسبانية .

على أن هذه القوة لم تكن عدوانية عسكريا ، فهى لم تتدخل فى الشئون الداخلية للدويلات ، اللهم إلا ميلان ونابلى ، ولكن عزوفها عن التجارة وخوفها من الفكر الحر ألقيا حجابا كثيفا على الحياة الايطالية . وكان من أثر استيلاء أمم الأطلنطى على تجارة الشرق وأمريكا أن انتقلت إليها تلك الثروة التى كانت من قبل تنفق على حركة النهضة ، فأصبحت الآن تغذى الازدهار الثقافى الذى بدأ فى أسبانيا وإنجلترة والأراضى المنخفضة . وعانت إيطاليا فوق ذلك من اضمحلال الموارد البابوية نتيجة لحركة الاصلاح

البروتستنتى . كان الفلاحون الصابرون يكدحون ويصلون ، والرهبان الذين يفوقون الحصر يتعبدون ، أما التجار ففقدوا الجاه والثروة ، وأما النبلاء فضيعوا الحياة جريا وراء الألقاب وتعلقا بمظاهر البذخ والترف .

ومع ذلك أنجبت إيطاليا وسط هــذا الانهيار السياسى جاليليو أعظم العلماء فى جيله ، ووهبت العالم فلسفة برونو الجريئة البعيدة النظرة ، وهبته برنينى أعظم مثالى العصر ، ومونتيفردى أكبر مؤلفيه الموسيقيين أثرا ، ووهبته أشجع مبعرثيه الدينيين ، وواحدا من أعظم الشعراء الإيطاليين هو تاسو ، كذلك وهبته — فى بولونيا ونابلى وروما — مذاهب فى التصوير لا ضريب لها إلا فى الأراضى المنخفضة الوافرة الثراء . وهكذا ظل لواء الثقافة معقودا لإيطاليا .

١ — فى سفوح الألب

يطيب لنا أن نجوس من جديد خلال تلك الحديقة وقاعة الفن المسماة إيطاليا ، ولو بالفكر والقلم ، وأن نمر بها ولو مرور الكرام . فأما تورين فقد غدت عاصمة كبيرة تحت حكم كفء على رأسه إيمانويل فيليبرت ، وبفضل تشجيع زوجته مرجريت الأميرة الفرنسية السافواوية للأدب والفن . وأما ميلان فظلت محتفظة بأبهتها على الرغم من خضوعها لأسبانيا . قال ايفلين عام ١٦٤٣ فى وصفها : « انها من أفخم مدن أوربا ، ففيها ١٠٠ كنيسة ، و ٧١ ديرا ، ٤٠,٠٠٠ من السكان . فيها القصور الباذخة ، وفيها الفنانون النادرون[1] » وبعد أن دمرت النار داخل باسليقا سان لورنزو ماجيورى (١٥٧٣) عهد كارلو بوروميو ، مطران ميلان الورع ، إلى مارتينو باسى ببناء داخلها وفق الطراز البيزنطى الرائع الذى بنيت به كنيسة سان فيتالى فى رافنا . وبنى الكردينال فيديريجو بوروميو ، وهو ابن أخى كارلو ، قصر أمبروز (١٦٠٩) ، وشيد فيه مكتبة أمبروز الشهيرة . أما قصر بريرا ، الذى بدىء تشييده عام ١٦١٥ ليضم كلية لليسوعيين ، فقد أصبح منذ عام ١٧٧٦ مقرا لأكاديمية الفنون الجميلة ، ومنذ عام ١٨٠٩

لقاعة بربرا الذائعة الصيت ، التى أصابتها الحرب العالمية الثانية بأضرار بالغة ، ولكنها رممت الآن ترميما جميلا ، وفيها نجد الكثير من آثار أسرتى بروكاتشيني وكرسبى ، وهما الأسرتان اللتان غلب تأثيرهما على التصوير الميلانى فى العصر الذى نتناوله .

وأما جنوه ، « الهادئة جدا » ، فما زالت من تلالها المرصعة بالقصور تختال فوق بحر متوسط انتشرت فوق أمواهه المراكب الجنوية . حقا لقد فقدت هذه الجمهورية التاجره أملاكها الشرقية التى استولى عليها الترك ، وانتقلت بعض تجارتها مع دول الشرق إلى دول الأطلنطى ، ولكن التل الكبير الذى تقوم فوقه فيض لها ميناء ممتازا ظلت بفضله ، وما زالت إلى اليوم ، أهم الثغور الايطالية . هنا شاد أمراء التجارة أو ملوك المال طائفة من أعظم بيوت إيطاليا ترفا . وفى رأى ايفلين أن « الشارع الجديد » الذى صممه روبنز وازدان بقصور من الرخام المصقول « يزرى بأى نظير له فى أوربا »(٢) . وقد صمم جاليازو أليسى وتلاميذه الكثير من هذه القصور الفاخرة التى اشتهرت بما حوت من قاعات فن ، وسلالم فخمة ، وجدران زينت باللوحات أو الرسوم الجصية ، وأثاث مترف — « موائد وأسرة كاملة من الفضة الثقيلة » ، ولا عجب ، فقد حذق أقطاب المال الجنويون تحويل عرق الشعب إلى ذهب . وفى عام ١٥٨٧ بنى « جاكومو ديللا بورتا » باسليقا « البشارة المقدسة » التى كانت أعمدتها المحززة ، ومنبرها البديع ، وقوسها المزخرف ، مفخرة الأتقياء من أهل جنوه . على أن هذه الكنيسة وكثيرا غيرها من كنائس جنوه وقصورها لحقها دمار كثير فى الحرب العالمية الثانية .

وأما فلورنسة فقد ظلت ، حتى إلى عهد فازارى ، تلقب بأثينة إيطاليا ، إذ تميزت بخصوبتها سواء فى الأدب أو الدرس أو العلم أو الفن . لقد زكا فيها كل شىء إلا العفة ، ففى عهد الدوق الكبير فرانشسكو الأول (١٥٧٤ — ٨٧) انحدرت أسرة مديتشى العظيمة إلى حمأة الفجور والدعارة . ثم تخلى الكردينال فرديناندو مديتشى عن وظيفته الكهنوتية

وأصبح « الدوق الكبير فرديناند الأول » ، فأتاح بذلك لتوسكانيا طوال اثنين وعشرين عاما (١٥٨٧ — ١٦٠٩) عهدا من العدل والاستنارة ، ووسع تجارتها إذ جعل ليفورنو (ليجهورن) ثغراً حراً مفتوحا لكل التجار من كل الأديان ، وأصلح بالقدوة الفاضلة أخلاق شعبه . أما خلفاه كوزيمو الثانى وفرديناند الثانى فكان لهما فضل إعانة جاليلو بالمال . ونقش بارتولوميو أماناتى نافورة نبتون الكبرى لميدان « السنيوريا » بفلورنسة ، وصمم قصر دوكالى بلوكا . وفى عام ١٥٨٣ أكمل جوفانى دابولونيا « اغتصاب السابين » ، وهو التمثال القائم فى « لوجا (قاعة) دى لانزى » ، وصب تمثال هنرى الرابع الذى أهداه كوزيمو الثانى إلى مارى مديتشى لبزين « البون نوف » فى باريس . وواصل اليساندرو أللورى وابنه كريستوفانو التقليد الذى درج عليه التصوير الفلورنسى من خيال جامح فى التلوين ، فى شىء من التخفيف ، وأشرف بيترو دا كورتونا على الكمال فى رسومه الجصية التى زين بها سقوف قصر بيتى ليصور مناقب الدوق كوزيمو الأول .

وأما بارما فقد كان يحكمها فى هذه الفترة دوق مشهور يدعى اليساندور فارنيزى ، ولكن بلغ انشغاله بقيادة الجيوش الأسبانية فى الأراضى المنخفضة حدا لم يتح له أن يتربع على عرشه قط : وفى عهد ابنه رانوتشو ذاع صيت جامعة بارما فى أرجاء أوربا ، وبنى أليوتى (١٦١٨) مسرح فارنيزى الذى اتسع لسبعة آلاف متفرج فى مدرج نصف دائرى لا يضارعه فى إيطاليا الحديثة سوى المسرح الأولمبى الذى بناه أستاذه باللاديو .

وأما مانتوا فقد دخلت عهدا من الرخاء أعاد إلى الأذهان ذكرى أيام ايزابللا ديستى المجيدة . فبفضل صناعة النسيج المزدهرة أقبل الناس على شراء القماش المانتوى ، حتى فى انجلترة وفرنسا المنافستين لمانتوا . وظل بيت جونزاجو الذى حكم هذه الدوقية منذ عام ١٣٢٨ ينجب الأكفاء من الرجال . ففى الدوق فنشنزو الأول تمثلت من جديد فضائل أمراء النهضة : رجل حلو الصورة لطيف المعشر ، يرعى روبنز المحظوظ وتاسو التعس على

السواء ، بجمع الآثار القديمة ، والتحف الصينية ، والآلات الموسيقية ، والنسيج المرسوم الفلمنكي ، وأزهار الطوليب الهولندية ، والنساء الجميلات ؛ يهوى الشعر والقمار ، مقاتل باسل ورجل دولة جرئ ، ولكنه ينهك نفسه بالفجور والحرب ، ويموت غير متجاوز الخمسين (عام ١٦١٢) . ثم يخلفه ثلاثة أبناء على التوالى ، وآخرهم وهو فنشنزو الثانى لم يعقب ، وكان من أثر تنافس فرنسا والنمسا وأسبانيا على تعيين خلف له والتحكم فى هذا الخلف أن غدت الدوقيـة مسرحا عاجزا لحرب الوراثة المانتوية (١٦٢٨ — ٣١) وكانت حربا ضروسا أوشكت أن تمحو مانتوا من سجل التاريخ .

وأما فيرونا فقد تكاسلت ثقافيا خلال هذه الحقبة واعتمدت على تراث النهضة . ففى فيتشنزا كانت واجهات باللاديو الكلاسيكية تحـدد الطراز الذى اتبعه كرستوفر رن فيما بعد . وقد أكمل فنشنزو سكاموتزى مسرح باللاديو الأولمبى ، ثم صمم قصر تريسينو — بارتون . وأصبح سكاموتزى همزة الوصل بين الكلاسيكية وفن الباروك بفضل ولعـه بالزخرف ، وهو ولع لم يستطع باللاديو كبحه فى فنه .

ب — البندقيـــة

كان اضمحلال ملكة الأدرياتى ، كاضمحلال روما القديمة ، طويلا بهيا . انها تفقد تجارتها البحرية مع الهند لتستولى عليها البرتغال ، وعما قليل ستشعر بمنافسة الهولنديين لهـا . لقد تحملت وطأة توسع الأتراك بحرا ، وكانت بحريتها وقوادها عاملين رئيسيين فى الانتصـــار عليهم فى ليبانتو (١٥٧١) ، ولكنها تخلت عن قبرص بعدها بشهور ، ومن ثم غدت تجارتها مع بحر المشرق مرهونة برضى الأتراك وشروطهم . ولقد كافحت ببسالة لتواجه تحدى الزمن المتغير ، فاستطاعت باتصالها بالقوافل القادمة من وسط آسيا عند حلب أن تعوض بعض التعويض ما خسرته من تجارتها البحرية مع الشرق . وظلت سفنها تسيطر على الأدرياتى ، وشاركت فى

أرباح تجارة الرقيق التى أصبحت الآن تسيء إلى سمعة البرتغال وأسبانيا وانجلترة ، أما أملاكها فى البر — وهى فنشنزا وفيرونا وتويسته وترنت واكويلا وبادوا — فقد أثرت وكثر سكانها ، وأما صناعتها فقد واصلت تفوقها فى الزجاج والحرير والمخرمات والطرف الفنية المترفة. كذلك كان لمصرفها المسمى « بانكو دى ريالتو » والذى أنشأته عام ١٥٨٧ بعد أن أخفق كثير من المصارف الخاصة ، الفضل فى دعم مالية البنادقة بقوة الدولة ، وكان المثال الذى احتذته بلاد أخرى فى إنشاء مؤسسات مماثلة فى نورمبرج وهمبورج وامستردام . وقد تعجب الرحالة من جمال عمارتها ، وفتنة نسائها ، ونظافة شوارعها ، وثبات حكومتها فى حزم وإصرار .

استهدفت سياستها الخارجية حفظ توازن القوى بين فرنسا وأسبانيا مخافة أن تبتلع احداهما الجمهورية التى لم تعد قوية البأس كما كانت من قبل . ومن هنا مبادرتها إلى الاعتراف بهنرى الرابع ملكا على فرنسا دعما لبلد مزقته الحرب . وفى عام ١٦١٦ اشترك الدوق أوزونا ، نائب ملك أسبانيا فى نابلى ، مع السفير الأسبانى فى البندقية ، فى مؤامرة للاطاحة بمجلس شيوخها واخضاع الجمهورية لحكم أسبانيا . وبارك فيليب الثالث المشروع ، ولكنه جريا على أسلوب الحكومات المهذب ، أمر أوزونا بالمضى فيه « دون أن تدع أحدا يعلم أنك تنفذه بعلمى ، وتظاهر بأنك تتصرف دون أوامر منى[٣] » . غير أن حكومة البندقية كانت تستخدم أبرع الجواسيس فى أوربا ، فكشفت المؤامرة ، وقبض على المتآمرين المحليين ، وذات صباح تعلم الناس درسا ينفعهم ، إذ رأوهم يتدلون من المشانق فى ميدان القديس مرقس ، محدقين فى الحمائم السعيدة بعيون انطفأ نورها .

هذه الاوليجركية الهادئة الصارمة ، التى اتجرت مع الناس من جميع العقائد ، ومنحتهم الحرية الدينية ، كان موقفها من البابوية مستقلا على نحو ملحوظ . جبت الضرائب من رجال الدين ، واخضعتهم للقانون المدنى ، وحظرت بغير موافقتها بناء أى معابد أو أديار جديدة ونقل ملكية الأراضى

الكنيسة : وراح حزب من ساسة البندقية يتزعمهم ليوناردو دوناتو ونيكولو كونتاريني ، يقاوم بصفة خاصة دعاوى البابوية بأن لها سلطانا على الأمور الدنيوية . وفي عام ١٦٠٥ ارتقى كاميللو بورجيزي كرسي البابوية باسم بولس الخامس ، وفي السنة التالية اختير دوناتو « دوجا » للبندقية ، ووقف الرجلان اللذان كانا بالأمس صديقين ، يوم كان دوناتو مبعوثا لدى روما ، يواجه أحدهما الآخر في صراع بين الكنيسة والدولة ردد عبر قرون خمسة أصداء ذلك النضال الذي احتدم من قبل بين البابا جريجوري السابع والامبراطور هنري الرابع . وكانت صدمة للبابا بولس أن يعلم أن الزعيم الفكري للحزب المناهض للاكليروس في البندقية راهب سمى له ، ينتمي لجماعة « خدام العذراء » هو فرا باولو ساربي .

وساربي هذا كان في رأي مولمنتي « ألمع العقول التي أنجبتها البندقية قاطبة(٤) » . كان أبوه تاجرا ، والتحق الصبي بجماعة « الخدام » وهو في الثالثة عشرة ، وتشرب العلم في شغف ، وحين بلغ الثامنة عشرة دافع عن ٣١٨ قضية علمية في جدل على مانتوا ، ووفق في دفاعه توفيقا حمل دوقها على تعيينه لاهوتيا لبلاطه . ثم رسم كاهنا في الثانية والعشرين ، وأصبح أستاذا للفلسفة ، وفي السابعة والعشرين انتخب ممثلا اقليميا لرهبنته لدى جمهورية البندقية . وواصل دراساته في الرياضيات ، والفلك ، والفيزياء ، وشتى العلوم . واكتشف انقباض القزحية ، وكتب مقالات علمية ضاعت ، وشارك في الأبحاث والتجارب التي قام بها « فابريزو داكوابندنتي » و « جامباتيستا ديللا بورتا » ، الذي قال انه لم يصادف قط « رجلا أغزر علما ولا أكثر دقة في محيط المعرفة بأسره(٥) » وربما آذت هذه الدراسات الدنيوية عقيدة باولو ، فقد رحب بصداقة بعض البروتستنت ، وقدمت التهم ضده لمحكمة تفتيش البندقية — وهي نفس الهيئة التي لن تلبث أن تلقي القبض على جوردانو برونو . ورشحه مجلس الشيوخ اسقفا ثلاث مرات ، وثلاث مرات رفض الفاتيكان الترشيح ، وقوت ذكرى هذه الهزائم من عدائه لروما .

وفى عام ١٦٠٥ قبض مجلس الشيوخ على كاهنين وأدنهما بجرائم خطيرة فطالب البابا بولس الخامس بإحالة الرجلين إلى القضاء الكنسى ، وأمر بالغاء القوانين الموجهة ضد الجديد من الكنائس والديورة والطرق الدينية . ورفضت حكومة البندقية فى أدب ولباقة . فأمهل البابا الدوج والحكومة ومجلس الشيوخ سبعة وعشرين يوما للامتثال لأوامره . وهنا استدعوا فرا باولو باعتباره مستشاراً فى القانون الكنسى ، وأشار ساربى بمقاومة البابا ، وحجته فى ذلك أن سلطانه لا يسرى إلا على الأمور الروحية ، واعتنق مجلس الشيوخ رأيه هذا . وفى مايو ١٦٠٦ حرم البابا دوناتو والحكومة وأوقع حظراً على جميع الخدمات الدينية فى أراضى البندقية . وأصدر الدوج تعلياته للكهنة البنادقة بتجاهل الحظر ومواصلة أداء وظائفهم ، ففعلوا إلا اليسوعيين والثياتين والكبوشيين . ورحل اليسوعيون بجملتهم عن البندقية ، لأن قوانينهم تلزمهم بطاعة البابوات ، وذلك برغم انذار الحكومة لهم بأنهم ان رحلوا فلن يسمح لهم بعدها بالعودة . ونشر ساربى خلال ذلك ، ردا على الكردينال بللارمينى ، كراسات دعا فيها إلى تقييد سلطة البابا ، وأعلن أن للمجامع العامة سلطانا يسمو على سلطان البابوات .

ولجأ بولس الخامس إلى أسبانيا وفرنسا ، ولكن أسبانيا هذه طالما رفضت المراسيم البابوية ، أما هنرى الرابع ملك فرنسا فكان مدينا للبندقية بصنيعها معه . على أنه أوفد إليها رجلا حكيما هو الكردينال دجوايوز ، الذى ابتكر ما اقتضاه الموقف من صيغ تحفظ ماء الوجوه . فافرج عن الكاهنين وسلما إلى السفير الفرنسى ، الذى أسلمهما بعد قليل إلى روما ، ورفض مجلس الشيوخ الغاء القوانين التى اعترض عليها البابا ، ولكنه — أملا فى المعونة البابوية ضد الترك — وعد بأن الجمهورية « ستسلك بما عهد فيها من ولاء » . وأوقف البابا لومه ، ورفع جوايوز الحرم عن المحرومين . يقول مؤرخ كاثوليكى « لقد غلت مزاعم البابا بولس الخامس فى تشبهها بمزاعم القرون الوسطى غلوا جعل تحقيقها ضربا من المحال[٦] » . وكانت هذه آخر مرة أوقع فيها الحرم على دولة بأسرها .

وفى ٥ أكتوبر ١٦٠٧ هاجم بعض القتلة المستأجرين سارپى وتركوه وهم يحسبونه ميتا . ولكنه أفاق ، ويروى أنه علق على الهجوم بهـذه الحكمة ، التى فيها من البراعة ما يجعل صدورها عنه لحظتها بعيد الاحتمال ، « انى تبين أسلوب الادارة اليابوية الدقيق[٧] »(*) . ووجد القتلة الحماية والاستحسان فى الدويلات البابوية[٨] . بعد هذا عاش سارپى معتكفا فى صومعته يتلو القداس كل يوم ، ولكن « مرقمه » لم يكن معطلا . ففى عام ١٦١٩ نشر تحت اسم مستعار وعن طريق دار نشر لندنية « تاريخ مجمع ترنت » ، وهو اتهام ضاف للمجمع ، صور فيه حركة الاصلاح الدينى تصويرا بروتستنتيا خالصا ، وأدان المجمع لأنه باذعانه التام للبابوات حال دون رأب الصدع فى الكنيسة . وتحمس العالم البروتستنتى للكتاب ، وأطلق ملتن على مؤلفه « ممزق القناع العظيم » . أما اليسوعيون فعهدوا إلى فقيه منهم يدعى سفورتزا باللافتشينو بكتابة تاريخ معارض (١٦٥٦ — ٦٤) كشف تحيز سارپى وعدم دقته وباراه فيهما[٩] . وعلى الرغم من تحيز الكتابين فانهما سجلا تقدما فى جمع الوثائق الأصلية واستخدامها ، وفى سالة سارپى المسهبة سحر البلاغة النارية ، وهذا تشويق اضافى ذو خطر . لقد كان الرجل متقدما كثيرا على جيله فى الدعوة إلى الفصل التام بين الكنيسة والدولة :

فى ظل هذه الحكومة الأبية ، وفوق تلك القنوات المطمئنة العطرة ، واصلت البندقية سعيها وراء المال والجمال تسترضى المسيح بالعمارة ، والعذراء بالابتهالات ، فلكل أسبوع عيد يتذرع للاحتفال به بقديس ما ، وفى رسوم جواردى نرى أمثلة من هذه الانتشاءات الجماهيرية ، وتلحظ فى صور الأشخاص ذلك الترف الشرقى الحسى ، ترف الثياب والحلى .

(*) التورية هنا فى كلمة Stilus و Style . والكلمة الأولى كانت فى الأصل تعنى حديدة مستدقة الطرف ، ثم سناً من حديد استعمل فى الكتابة على ألواح من الشمع ، ثم قلما، ثم طريقة فى الكتابة ، أى أسلوبا . والتصغير الايطالى Stiletto كان له معنيان : المرقم ، والخنجر الصغير .

وكان فى وسع المرء فى أية أمسية أن يسمع الموسيقى تعزف فى الزوارق (الجوندولا) . ولو وطئت قدماه زورقا من هذه الزوارق السحرية ولم يفه بأى توجيه للملاح ، لمضى به دون كلام كثير إلى بيت مومس شريكة له . وقد دهش مونتيني لكثرة بنات الهوى البندقيات ، وغلوهن فى التحرر ، وما هو بالرجل المغرض المتحيز ، وكن يدفعن ضريبة للدولة ، لقاء سماحها لهن بأن يسكن حيث شئن ، ويلبسن ما يشتهين ، ولقاء دفاعها عنهن ضد الزبائن الذين يأكلون حقوقهن(١٠) .

واكتسبت « القناة الكبرى » وأفرعها مزيدا من الحسن عاما بعد عام بفضل ما قام على ضفافها من كنائس فخمة أو قصور جديدة مشرقة أو جسور رشيقة . ففى عام ١٦٣١ عهد مجلس الشيوخ إلى بالداسارى لونجينا ببناء كنيسة رائعة للعذراء « سانتاماريا ديللا سالوتى » وفاء بنذر لأنها ردت إلى أهل المدينة عافيتهم عقب طاعون كبير . وفى ١٥٨٨ — ٩٢ أقام انطونيو دا بونتى بدلا من الجسر الخشبى العتيق « جسر ريالتو » الجديد الذى امتد عبر القناة الكبرى فى قوس واحد من الرخام طوله تسعون قدما ، وقامت المتاجر على جناحيه . وحوالى عام ١٦٠٠ بنى « جسر التنهدات » (بونتى دى سوسبيرى) عاليا فوق قناة تجرى بين قصر الدوج وسجن القديس مرقس — « فقصر على طرف وسجن على الطرف الآخر — »(١١) . وأتم سكاموتزى كنيسة باللاديوو « سان جورجو » ومكتبة فيكيا التى بدأها سانسوفينو . وبنى سكاموتزى ولونجينا « البروكوراتى نوفى » (١٥٨٢ — ١٦٤٠) الملاصق لميدان القديس مرقس ليستخدم مكاتب جديدة لحكومة البندقية . وقامت الآن قصور شهيرة على ضفاف القناة الكبرى : بالبى ، وكونتاربنى ديلى سكريني ، وموتشينجو ، حيث عاش بايرون فى ١٨١٨ . والذين لم يروا من قصور البندقيــة سوى ظاهرها لا يستطيعون أبدا تصور ما فى باطنها من بذخ — يجعله الذوق الرفيع سائغا : تلك السقوف ذات الرسوم الجصية أو الزخارف الغائرة ، والجدران المزدانة بالصور أو قطع النسيج المرسوم ، والمقاعد المكسوة بالساتان ،

والكراسى والموائد والصناديق المنقوشة ، والدواليب المطعمة بالصدف والعاج ، والسلالم العريضة الفخمة التى بنيت لتعيش القرون الطويلة . هنا نمت أوليجركية غيور ، قوامها عـدة مئات من الأسر ، بكل ثراء أقطاب التجارة ، وبكل المعايير الفنية المرهفة التى أتيحت للأرستقراطيات العريقة .

ولا يبرز فى هذه الفترة بين مثالى البندقية غير مثال واحد هو أليساندرو فينوريا ، ولكن فن التصوير البندقى أنجب اثنين من مصورى المرتبة الثانية . فقد أورث بالما فيكيو (مات ١٥٢٨) فنه عبر الأجيال إلى حفيد لأخيه يدعى بالما جوفانى — أو ياكوبو بالما الأصغر — الذى مات بعد موت جده بمائة عام تماما . والرأى فى فن جوفانى — إنه « منحط » لأن الرجل كان يرسم فى عجلة يشوبها الاهمال ، ولكن بعض صوره ، كصورة « البابا اناكليتوس » فى كنيسة الصلب ، تدنو من العظمة ، وفى هذه السطور التى خلفها مولمنتى يقفز هـذا الفنان الأصغر المهمل إلى الحياة .

« لم يكن لبالما جوفانى من هدف . . . سوى فنه ، الذى عجز أشد الأحزان عن أن يصرفه عنه . ففى فنه التمس العزاء عن موت ولديه ، اللذين مات أحدهما فى نابلى ، وقضى الآخر فى حياة الفجور . وبينما كانت زوجته تحمل إلى قبرها عكف على الرسم هروبا من الألم »(١٢) ؟

أما برنارد و ستروتزى فقد حصر بين ساقيه قمة الحذاء السحرى ، إذ ولد فى جنوه ، ومات فى البندقية (١٦٤٤) ، وخلف صورا لكل قاعة فن تقريبا بين البلدين . انفق بعض عمره راهبا كبوشيا ، ثم خلع رداء الرهبة ، ولكنه لم يستطع قط ان يخلع كنيته « الكبوشى » . وبعد أن بذل محاولات كثيرة ، وجد التسامح والتوفيق فى البندقية ، وفيها انتج أنتج أفضل أعماله . ويكفى أن نذكر مثلا منها « هو صورة أخ دومنيكى » (برجامو) : فـ « البيريه » العالية تزين الجبين العريض ، والعينان عابستان

مركزتان ، والأنف والفم ناطقان بقوة الشخصية ، واليد الرقيقة تنئ بعراقة الأصل ، أن تتسيانو نفسه لم يكن في وسعه أن يبدع خيرا من هذا الفن . ولو ظهر هــذان الوريثان للعمالقة من السلف فى أى وطن آخر لحسبا من العمالقة .

حـ — من بادوا إلى بولونيا

انحصر فخر بادوا بجملته الآن فى جامعتها . ففيها درس هارفى فى هذه الحقبة ، وفيها علم جاليليو . وفى إمارة فيرارا لم يبد الفونسو الثانى (حكم ١٥٥٩ — ٩٧) تقاعسا أو فتورا فى همة آل ايستى الذين حكموا الامارة منذ ١٢٠٨ . وصورته التى يحتفظ المتحف البريطانى بنسخة منها غفل من التوقيع يطل منها رأس قوى . ولحية آمرة ، وعينان تنبئان بعقل حازم مكتئب . كان فى وسعه أن يكون قاسيا لا يرحم الذين يقاومونه ، رفيقا بغيرهم ، صبورا على غضبات تاسو ، جريئا فى النزال ، مشتطا فى فرض الضرائب . وقد واصل التقليد الذى جرت عليه أسرة ايستى فى بسط رعايتها على الأدب والعلم والفن ، وجمع ثمارها كلها فى ثقافة بلاطه وبهائه ومرحه . أما الشعب فكان عليه أن يقنع بالكفاف — وأن يستمتع بثمار كده فى شخص وكلائه . وقد أخفق الفونسو فى أن يعقب ولدا برغم جبروته كله ، وبرغم زواجه من ثلاث نساء على التعاقب ، وأصبحت فيرارا دويلة بابوية فى ١٥٩٨ بمقتضى اتفاق كان قد أبرم فى ١٥٣٦ ، بعد أن ظلت طويلا اقطاعة بابوية — وهكذا انتهى تاريخها الثقافى .

أما بولونيا التى خضعت للحكم البابوى منذ ١٥٠٦ فقد اتيح لها فى هذا العصر ازدهار ثان تمثل فى مدرسة للتصوير سادت ايطاليا مدى قرنين ومدت نفوذها إلى أسبانيا وفرنسا وفلاندر وانجلترا . عاد لودوفيتشو كاراتشى ، وهو ابن جزار غنى ، إلى بولونيا بعد أن درس الفن فى البندقية وفلورنسة وبارما ومانتوا . وكان تنتوريتو قد حذره بأنه لم يوهب عبقرية التصوير ، ولكنه أحس أن الاجتهاد يمكن أن يقوم مقام العبقرية ،

ثم أن العبقرية لا تعوزه : وبعث بحماسته الحمية فى اثنين من أبناء عمومته هما أجوستينو وأنيبالى كاراتشى — وكان أحدهما صائغا والآخر خياطا ، فرحلا إلى البندقية وبارما ليدرسا فن تيشان (تتسيانو) وكوريدجو : فلما عادا انضما إلى لودوفيتشو وفتح الثلاثة أكاديمية « للبادئين على الطريق (١٥٨٩) . وقد وفروا فيها تعليم أصول الفن وتاريخه وطرائقه ، والدرس المدقق لأئمة الفن ، ورفضوا التشديد على « اللازمات » أو الاغرابات التى التزمها أى من الفنانين ، بل آثروا الجمع بين نعومة رفائيل الأنثوية ، وبلاغة كوريدجو الرقيقة ، وفحولة ميكلانجلو ، وتنويع ليوناردو الضوئى ، وتلوين تيشان الدافئ — كلها فى مذهب شامل واحد . هذه « المدرسة الانتقائية » أتاحت لبولونيا أن تنافس روما ، عاصمة فنية لايطاليا .

والصور التى خلفها المصورون كاراتشى لا تحصى ، وكثير منها محفوظ فى أكاديمية بولونيا للفنون الجميلة ، وبعضها فى اللوفر ، ولكننا نجدها فى أماكن أخرى كثيرة . ونتاج لودفيتشو أقلها جاذبية ، ولكنه يبلغ غايته فى صورة « البشارة » المشرقة ، وصورة « استشهاد القديسة أورسولا » ، وكلتاهما فى « قاعة صور الأكاديمية . أما اجوستينو ففنه يتجلى فى لوحة « عشاء القديس جيروم » القوية — التى لم تمنعه من الاستجابة للطلب الكثير على نسخ من الصور الفاجرة . وأما أنيبالى فكان ألمع أفراد الأسرة موهبة ،وقد نقل عن كوريدجو رهافة فى الخطوط والألوان ندر أن طاولها ابناء عمه . تأمل الأناقة الشهوانية فى لوحته «الباخوسية» المحفوظة بقاعة الأوفتزى ، وصورة الأنثى الكاملة فى « الحورية والساطير » المحفوظة بقصر بتى ، وصورة الذكر الكامل فى « عبقرية الشهرة » المحفوظة بدرسدن ؛ وقد أبدع فى لوحته « المسيح والمرأة السامرية » (فينا) آية من آيات الفن فى هذه الحقبة — صورا جديرة بريشة رفائيل ، ومنظرا طبيعيا سبق به بوسان .

وفى عام ١٦٠٠ قبل أنيبالى وأجوستينو دعوة الكردينال فارنيزى لهما ليذهبا إلى روما ويرسما صالة قصره فيها . فاختارا موضوعا مناسبا ورسما « انتصار باخوس » ، وهى مهرجان روبنزى من المفاتن الأنثوية .

ومن روما انطلق أجوستينو إلى بارما حيث رسم لوحـة جصية هائلة للكازينو ، ومضى أنيبالى إلى نابلى حيث يرى فى متحفها القومى إلى اليوم ذلك المزج الذى اختص به بين لوحة « العائلة المقدسة » ولوحة « فينوس ومارس » . وقد ودع أبناء العم الثلاثة الحياة متفرقين ، وهم الذين طالما جمع الفن بينهم . فمات أجوستينو فى بارما (١٦٠٢) ، وأنيبالى فى روما (١٦٠٩) ، ولودفيتشو فى بولونيا التى ظل وفيا لها — فكان أول الوافدين عليها وآخر الراحلين عنها (١٦١٩) .

لقد دربت المدرسة الجديدة نفرا من أشهر رسامى ذلك العهد . وكان لأحدهما — وهو جيدو رينى — من الأتباع أكثر مما كان لأى مصور فى أوربا . فبعد تفتح مواهبه المبكر بفضل عناية المصورين كاراتشى ، استسلم لإغراء روما (١٦٠٢) ، واشتغل فيها عشرين عاما — ثم عاد إلى بولونيا ليرسم صورا فيها من حس التقوى ، وجمال العاطفة ، ما جعلها همزة وصل مرحبا بها بين سنية الايمان وهرطقات الجسد . أما جيدو نفسه فيبدو أنه كان مخلصا فى تدينه ، واثر عنه احتفاظه بعذريته كاملة إلى النهاية . وصورته الذاتية المحفوظة بمتحف الكابيتوليني تظهره فى شبابه ، فتى وسيما كالصبايا ، أشقر الشعر أبيض البشـرة أزرق العينين . وأروع صـوره صورة « الفجر » الجصية المرسومة على سقف قصر روسبليوزى بروما . وفيها ترى ربة الفجر تحلق فى الجو ومن خلفها جياد رشاق تجر فيبوس الأشعث فى مركبته ، تصحبه راقصات ملاح الوجوه حسان الأجساد ، يمثلن ساعات اليوم ، وكاروبيم مجنح كأنه خاتم المسيحية على هذه النشوة الوثنية . ورسم جيدو أساطير أخرى — مثل « اغتصاب هيلانة » فى اللوفر ، و « تفاحات الهسبريد » فى نابلى ، ولوحة « فينوس وكيوبد » الشهوانية فى درسدن . وعن العهد القديم أخذ لوحته المشهورة « سوسنه والشيوخ » (الأوفتزى) . ولكنه فى أكثر رسومه قنع باعادة تصوير الموضوعات القديمة القريبة إلى قلوب الناس المحببة إلى الكنيسة ، كقصة المسيح وأمه .—

وكلها ينضح بما ندد به قساة النقاد من اسراف « مجدلى »(*) فى العاطفة ، على أنه أجاد فى تصوير الرسل ، كما تشهد بذلك لوحة « القديس متى » المحفوظة بالفاتيكان ، وقد رسم رأسا رائعا للقديس يوسف (بريرا) ، وفى لوحة « استشهاد القديس بطرس » بالفاتيكان جرب واقعية كارافادجو الصارمة . وحين عاد إلى العاطفة رسم لقاعات الفن لوحـة « القديس سباستيان » المشهورة ، وفيها يبدو القديس وهو يتلقى السهام فى جسده الكامل هادئا رابط الجأش . وفى كل آثاره نلمح براعة الأسلوب المدرب خير تدريب ، ولكنا حين نقارن هذه اللوحات المقدسة ، المفرطة الحلاوة ، بلوحة رفائيل « ستانتزى » أو بسقف كنيسة السستين الذى رسمه ميكلانجلو ، لا يحركنا فى فن رينى غنى اللون ولا نعومة الخط ، بل « الافتقار إلى الجرأة » . كان يحلم حلما يغتفر له حين كتب يقول : « أحب أن اخلع على الوجه الذى ارسمـه جمالا كالجمال الكامن فى الفردوس[١٣] » ، ولكنه فضح نفسه حين فاخر بأن لديه « مائتى طريقة لجعل العيون تتطلع إلى السماء[١٤] » .

اتبع دومنيكينو (دومنكيو تزامبيرى) سياسة جيدو فى ارضاء الوثنيين والمتدينين جميعا ، ولما كان هذان فى كثير من الأحيان واحدا فان الخطة أثمرت . كان معقدا أكثر من جيدو ، فيه تواضع وحياء ، يحب الموسيقى ويعشق زوجته . وقد تعلم هو أيضا التصوير فى بولونيا ثم انطلق إلى روما سعيا إلى الفن والمال . وأثار نجاحه هنالك حسد منافسيه فيها ، فاتهموه بانتحال صور غيره ، فقفل إلى بولونيا راجعا ، ولكن جريجورى الخامس عشر استدعاه ليكون كبير معمارى الفاتيكان ومصوريه . فصمم فيللا لودوفيزى بروما ، وهى اليوم أثر بعد عين ، كما صمم جزءا من فيللا الدوبراندينى بفراسكاتى ، مستعينا فى فنه بشىء من تعدد البراعات الذى

(*) لاحظ أن هذه الكلمة maudlin تحريف لكلمة magdalen — التى ما زالت تنطق « مودلن » فى أسمى كلية مودلن باكسفورد ، وكلية مودلن بكمبردج . أما مريم المجدلية ذاتها فلم تعفها ريشة جيدو الحسية من المطاردة الحلمة .

أثر عن رجال النهضة . ولما انتقل إلى نابلى بدأ سلسلة من الصور الجصية فى كاتدرائيتها . وكاد يتم مهمته برغم ما لقى من مشاق ضاعف منها مصورو نابلى ، ولكنه مات (١٦٤١) فى الستين من عمره وهو لا يزال فى عنفوان فنه . وأعظم لوحاته «عشاء القديس جيروم الأخير» المحفوظة بالفاتيكان . واستنادا إلى هذه الرائعة لم يفضل بوسان عليه من المصورين سوى رفائيل[١٥] ، ونحن نحترم هذا التحمس أكثر مما نحترم الحكم . أما رسكن ففى رأيه أن دومنيكينو «عاجز بصورة واضحة عن الإتيان بشىء حسن ، أو عظيم ، أو صواب ، فى أى ميدان ، أو سبيل ، أو فرع ، كائنا ما كان[١٦]» ، ونحن لا نعجب بالحكم ولا ببلاغة العبارة هنا .

أما آخر تلاميذ آل كاراتشى الثلاثة المشهورين فقد شهر بكنية مؤسفة هى جويرتشينو — «الأحول» — ما أصاب عينه من تشويه أثر حادث وقع له فى طفولته ، ولكن أمه سمته جوفاني فرانشسكوباربيرى . مارس التصوير فعلا ، متأثراً بأسلوب كارافادجو القوى ، قبل أن يأتى ليدرس على يد آل كراتشى ، لذلك توسط فى فنه بين بولونيا وروما . وظل أعزب مثل جيدو ، وعاش عيشة التقشف ، وأظهر خير فضائل حركة الاصلاح الكاثوليكى فى حياته الهادئة الكريمة . وقد خلف لنا الكثير من الصور اللطيفة ، منتشرة من روما إلى شيكاغو ، وكان أضعف مصورى المدرسة البولونية وأحبهم إلى الناس .

إن النظرية الأساسية التى قامت عليها المدرسة الانتقائية — وهى أن فى الاستطاعة تكوين الفنان العظيم بمحاولة الجمع بين مختلف المزايا التى تفرد بها سابقوه — هذه النظرية كانت خطأ بغير شك ، ذلك لأن شيمة العبقرية كثيرا ما تكون التعبير عن شخصية وشق مسالك جديدة ، بيد أن «أكاديمية البادئين على الطريق» أفادت فى بث تقليد ونظام ربما اشتطت العبقرية لولاهما وأغربت .

والنجاح الذى أصابته المدرسة يعزى جزئيا إلى تعاونها الحاضر مع

حاجات الكنيسة ، فقد احتاجت البابوية بعد اصلاحها ، كما احتاج اليسوعيون بعد اتساع منظمتهم ، إلى ألوان جديدة من التعبير عن قصة المسيح ، ومن التحريض الحي على التقوى والإيمان . وقد مس المصورون البولونيون كل وتر عاطفي فى العابدين ، وانتشرت الصور التى رسموها للعذراء والعائلة المقدسة فى العالم المسيحى الكاثوليكى قاصيه ودانيه . ومنذا الذى ينكر أن الناس أقروا بالفضل لهذه الإلهامات ، أو أن الكنيسة حين وفرتها اثبتت أنها أعظم السيكولوجيين فى التاريخ فهما لطبائع البشر ؟

كانت الدولات البابوية قد استوعبت منذ زمن فورلى ورافنا وريمنى وأنكونا ، ثم ضمت إليها أوربينو عام ١٦٢٦ ، وبيزارو عام ١٦٣١ . وإذا اتجهنا جنوبا ، مارين بفودجا وبارى وبرنديزى حتى كعب « الحذاء السحرى » — ومارين بتارانتو وكروتونى وريدجو كالابريا حتى ابهامه ، وعرضا من سيلا إلى كاريبديس مخترقين صقلية ، وشمالا على طول الساحل الغربى إلى كابوا — وجدنا مملكة نابلى ، التى أصبحت ولاية أسبانية منذ ١٥٠٤ . هنا كان ثلاثة ملايين من السكان المشبوبى العاطفة ، يكدحون فى ذل الفقر بين أرجاء هذه المملكة المنبسطة فى غير نظام ليدبروا المال الذى تطلبه بهاء عاصمتها المتألقة . وقد رأى ايفلين نابلى عام ١٦٤٥ وقال فى وصفها : —

« إن كبار الحكام يفتنون فى الاثراء من كد الشعب التعس لما فيهم من شره شديد للمال . وعمارة المدينة إذا قيست بحجمها أفخم من أى نظير لها فى أوربا : فالشوارع واسعة جدا ، جيدة الرصف ، كثيرة الأنفاق لصرف الأقذار ، ومن ثم أصبحت غاية فى الجمال والنظافة . . وتملك المدينة أكثر من ٣٠,٠٠٠ كنيســة ودير ، وهى خير ما فى إيطاليا بناء وزخرفا . والقوم شديدو التظاهر بالوقار الأسبانى فى لباسهم ، وهم يهوون الجياد الفارهة ؛ والشوارع حافلة بالوجهاء المتأنقين يمتطون الخيل أو

يركبون المركبات أو المحفات . أما النساء فملاح الوجوه عموما ، ولكن فيهن شبق شديد[١٧] » .

كان الكل يبدون مرحين ، تفيض نفوسهم بالموسيقى والشعر والتقوى ، ولكن تحت هذا السطح المرح ، وتحت بمصر محكمة التفتيش ، كانت النفوس تجيش بالهرطقة والثورة . ففي هذا العهد عاش الفيلسوف تيليزيو ومات (١٥٨٨) ، وفي نولا ، القريبة من نابلي ، ولد برونو (١٥٤٨) . وفي عام ١٥٩٨ اشترك كامبانيللا في حركة تمرد استهدفت جعل كالابريا جمهورية مستقلة ، ولكن المؤامرة فشلت ، وقضى الشاعر الفيلسوف بعدها سبعة وعشرين عاما في غياهب السجن .

وفي عام ١٦٤٧ انتاب نابلي ضرب من الهوس من جراء انتفاضة من هذه الانتفاضات المسرحية التي عطلت بين الحين والحين الاستغلال الزراعي في إيطاليا . ذلك أن تومازو أنييللو ، المشهور بمازانييللو ، كان بائع سمك متجولا حكم على زوجته بغرامة كبيرة لتهريبها القمح . فلما فرض الحاكم الأسباني ضريبة على الفاكهة ليمول البحرية ، وأبى زراع الفاكهة وباعتها أداء الضريبة ، دعا تومازو الناس إلى العصيان المسلح . فتبعه مائة ألف إيطالي حين زحف على قصر الحاكم مطالبا بسحب الضريبة . وروع الحاكم فأذعن للطلب ، وأصبح تومازو — الذي كان يومها في الرابعة والعشرين — سيداً على نابلي ، وحكمها عشرة أيام ، أعدم خلالها ألفا وخمسمائة من الخصوم في حمى الدكتاتورية ، وسعر الخبز بثمن أقل ، وكان عقاب خباز رفض الامتثال للتسعيرة ان شوى حيا في فرنه[١٨] — ولكن أعداء تومازو هم الذين كتبوا التاريخ ، وذكروا أن تومازو ، الذي ارتدى ثوبا من الذهب ، أحال بيته المتواضع إلى قصر يرفل في مظاهر السلطان ، وطاف حول الخليج في زورق فاخر . ولكن فتاكا استأجرتهم أسبانيا اغتالوه في ١٧ يوليو . وأخذ أتباعه الجثة التي قطعت أوصالها فجمعوا الأشلاء وشيعوها في مشهد جليل . وماتت الحركة بعد أن فقدت قائدها .

استطاع ضرب من الفن الديني القائم أن يحتفظ بالحياة برعاية المطارنة والحكام . ففي عام ١٦٠٨ انفقت الكنيسة مليونا من الفلورينات لتشيد في كاتدرائية سان جينارو كنيسة صغيرة تسمى «كابيللا ديل تيزورو» لتكون ضريحا لأنائين يحتويان الدم المتخثر الذي تخلف عن القديس يانواريوس حامي نابلي . وقيل للشعب انه لا بد أن يسيل الدم ويجرى مرتين في العام لكي تزدهر نابلي وتأمن غائلة فيزوف .

أما التصوير في نابلي فقد ظل يهيمن عليه حينا ثلاثي من الفنانين الغيورين — كورينتزيو ، وكاراتشولو ، وريبيرا — الذين عقدوا العزم على أن يكون كل التصوير في نابلي وقفا عليهم أو على أصحابهم . وقد بلغ من تهديداتهم لانيبالي كاراتشي أنه أكره على الفرار إلى روما ، حيث ادركه الموت بعد قليل من جراء رحلته المحمومة التي اضطر إليها تحت شمس حامية[١٩] : وحين حضر جيسدو ريني لزخرفة «كنيسة الكنز» تلقى انذارا بأن يرحل عن نابلي أو يموت ، فرحل من فوره تقريبا وهو لم يكد يبدأ مهمته . وأركب اثنان من مساعديه بقيا بعد رحيله سفينة كبيرة لتشغيل العبيد وانقطع خبرهم بعدها . ثم حضر دومنيكينو ، وأتم اربع صور جصية في الكنيسة على الرغم من أن الصور محيت غير مرة ، وأخيرا فر من تهديدات ريبيرا ، ثم عاد بعد أن تعهد الحاكم بحمايته ، ولكنه مات بعد قليل ، ربما مسموما[٢٠] .

على أننا لا بد أن نشيد بذكر جوزى أو جوزيبي ريبيرا ، برغم كل جرائمه ، لأنه أعظم مصوري هذا العهد في إيطاليا . وتدعيه أسبانيا لنفسها استنادا إلى أنه ولد في زاتيفا قرب بلنسيه (١٥٨٨) ، وقد درس حينا على فرانشيسكو دي ريبالتا ، ولكنه قصد روما في بواكير شبابه . هناك عاش في فقر مدقع ، ينسخ الصور الجصية ولا يجمع غير الفتات ، حتى قيض الله له واحدا من هؤلاء الكرادلة عشاق الفن كان لا يزال يشعر بوحي النهضة ، فاستضافه في قصره ويسير له الغذاء والفراش والألوان

والكساء . وراح جوزيبي ينسخ في جد ومثابرة لوحات رفائيل في الفاتيكان وصور آل كاراتشي في قصر فارنيزي . ثم فر « الأسباني الصغير » إلى بارما ومودينا ليدرس كوريدجو حين وجد أن الراحة إطفأت حماسته . وعاد إلى روما ، وتشاجر مع دومنيكينو ، ثم انتقل إلى نابلي . وفيها أو في روما وقع تحت تأثير كارافادجو ، الذي زاده أسلوبه الوحشي رسوخا في المذهب الطبيعي القاتم ، ولعله أخذه من قبل عن ريبالتا . واستلطفه تاجر صور غني فعرض عليه أن يتزوج ابنته الحسناء . وظن جوزيبي المملق أن الرجل يسخر منه ؛ ولكن حين اعاد العرض قفز صاحبنا إلى حياة الزواج والثراء .

ورسم الآن لوحته المسماة « سلخ جسد القديس برتولميو » ، وفيها من احتمال الحقيقة الدامي ما جعلها — حين عرضت — تجتـذب حشدا من المتفرجين استهواهم الدم أكثر من الفن . أما الحاكم الأسباني — وهو أوزونا الذي عرفناه متآمرا على البندقية — فقد أرسل في طلب اللوحة والمصور ، وافتتن بهما ، ثم عهد إلى ريبيرا بكل أعمال الزخرفة في القصر . وأقصى الأسباني النهم كل منافسيه ، حتى عهـد إلى جوفاني لانفرانكو صديقه برسم الصور الحصية لكنيسة الكنز ، . وقام هو نفسه بتنفيذ صور المذبح التي مثل فيها يانواريوس ، القديس الذي لا تؤذيه النار ، يخرج من أتون مشتعل دون أن يمسه لهيبه .

بعد هـذا أصبح ريبيرا إمام فنه غير منازع في نابلي . وبدا أن في استطاعته إن شاء أن يضارع نعومة رفائيل وكوريدجو دون أن يقع في عاطفية جيدو ريني أو موريللو ، وأن يرتفع بواقعية كارافادجو إلى مزيد من القوة بفضل حدة تصوره وعمق تلوينه . وحسبنا أن نستشهد بلوحتين فقط من لوحاته « بييتا » و « الرثاء » ، في كنيسة سان مارتينو وديرها — « عمل إذا نظر إليه على أنه تجسيد لجلال الحزن الرهيب لهبطت كل التعبيرات المماثلة له في ذلك القرن إلى درك المشاهد المسرحية [٢١] » ، أو خذ من الأساطير لوحته « أرخميدس » . في متحف البرادو — فهو بالضبط ذلك

الصقلى العجوز المتغضن الذى قد يلتقى المرء بأشباهه اليوم فى سيراقيوز . وحين انتقل ريبيرا من الكتاب المقدس والتاريخ إلى الشارع ، وجد التنويع لفنه فى لقطات واقعية من صميم الحياة العامة ، فكان فى لوحة « الصبى الحافى » المثال الذى احتذاه فلاسكويز وموريللو (*) .

وعيوب ريبيرا تقفز إلى العين — غلو فى العنف ، وولع بالتجاعيد والضلوع ، وظمأ للدم . وقد لاحظ بايرون أن « هذا الأسبانى الصغير لوث ريشته بكل دماء القديسين[٢٢] » . ان ألوانه الكابية وتشديده على الجانب القاتم من الحياة يروع ويغم ، ولكن هذا الأسلوب المظلم وجد تقبلا حاضراً فى بلد كنابلى كابد حكم الأسبان وتقلبات مزاجهم . وتنافست عليه كل كنيسة أو دير جديد ، وكان فيليب الرابع وحكام نابلى بعض زبائنه الشرهين . وانتشرت رسوم ريبيرا ومحفوراته فى أسبانيا انتشارا أوسع من أعمال فيلاسكويز — الذى زاره مرتين فى إيطاليا . أما بيتــه فكان من أفخم بيوت نابلى ، وأما ابنتاه فايتان فى الفتنة السمراء ، وقد شرفت إحداهما باغواء « دون خوان » آخر لهـــا! هو الابن غير الشرعى لفيليب الرابع ، الذي هرب بها إلى صقلية ، ولكنه سرعان ما ملهـا وهجرها ، فاعتكفت فى دير للراهبات ببالرمو . أما ريبيرا فأشرف على التلف كمدا وعارا ، والتمس العزاء فى صور للعذراء يخلع عليها الملامح التى لم ينسها ، ملامح ابنته ماريا روزا التى فقدها ، ولكنه مات بعد مأساتها بأربع سنوات (١٦٥٢) .

٢ — روما والبابوات

أصبحت عاصمة الدويلات البابوية(**) وقصبة العالم الكاثوليكى الرومانى

(*) يجد رواد المتاحف من صور ريبيرا ثلاثا وستين فى البرادو ، وملء نصف قاعة فى رواق الصالون كاريه باللوفر : وتحتفظ نيويورك بصورة « العائلة المقدسة » فى متحف المتروبوليتان للفنون ، وبصورة المجدلية فى الجمعية الأسبانية .

(**) أهمها هذه المدن وما يحيط بها : روما ، وأوستيا ، وفيتربو ، وتيرنى ، وسبوليتو ، وفولينو ، وأسيسى ، وبيروجه ، وجوبيو ، وأوربينو ، ولوريتو ، وأنكونا ، وبيزارو ، وريمينى ، وفورلى ، ورافينا ، وبولونيا ، وفيرارا .

مدينة من مدن المرتبة الثانية ، فيها من الأنفس ٤٥,٠٠٠ عام ١٥٥٨ ، زادوا إلى ١٠٠,٠٠٠ فى عهد سيكستوس الخامس (١٥٩٠) . وحين وفد عليها مونتيني عام ١٥٨٠ خيل إليه أنها أكثر من باريس اتساعا ، ولكن بيوتها لا تعدو ثلث بيوت باريس ؛ وبين السكان عدد غير قليل من المجرمين والبغايا (قبل سيكستوس الخامس) ، وكان كثير من النبلاء يحتفظون بنفر دائم من الفتاك . أما الفقر فمنتشر ولكنه هين تكسر من حدته احسانات البابا ، والاحتفالات الكنسية ، والأحلام الدينية . وأما عشائر النبلاء العريقة — كأورسيني ، وكولونا ، وسافللى ، وجيتانى ، وكيجى — فقد تناقص دخلها وسلطانها وإن لم تفتر دعاواها وكبرياؤها ، وكانت الأسر الأحدث عهدا — كألدوبرانديني ، وباربريني ، وبورجيزى ، وفارنيزى ، وروسبليوزى — تتصدر غيرها ثراء ونفوذا ، بفضل اتصالاتها بالبابوات عادة . وظفر أقرباء البابا بعهد جديد من المحاباة . فجنى آل ألدوبرانديني المنافع من انتخاب كلمنت الثامن ، وآل لودوفيزى من انتخاب جريجورى الخامس عشر ، وآل باربريني من انتخاب أوربان الثامن ، وآل بورجيزى من انتخاب بولس الخامس . ووضع الكردينال سكيبيونى بورجيزى ابن أخى بولس خطة لبناء فيللا بورجيزى ، وبنى الكازينو (١٦١٥) ، إذ كان يتمتع بأكثر من دخل كنسى وبراتب قدره ١٥٠,٠٠٠ سكودى فى العام ، ثم انشأ بالكازينو مجموعته الفنية الغنية ، ونال قسطا لا بأس به من الخلود فى الرخام على يد محسوبه برنيني . وقد استخدم كثير من الكرادلة مالهم فى تشجيع الآداب والفنون .

وأعان كنيسة روما على البقاء سلسلة من البابوات الأقوياء الشكيمة برغم فقدها ألمانيا والأراضى المنخفضة واسكندناوة وبريطانيا — وكلها سلختها منها حركة الاصلاح البروتستنتى . وكان مجمع ترنت قد أكد سيادة البابوية على المجامع وزاد منها ، كذلك كانت جمعية يسوع (اليسوعيون) الفتية القوية تدين بالولاء للبابوية وتخلص لها الحب . وفى عام ١٥٦٦ ارتقى أنطونيو جيسليرى — الأخ الدومنيكى والرئيس الأعلى لمحكمة التفتيش —

عرش البابوية باسم بيوس الخامس وهو فى الثانية والستين . . . وخيل إليه أن قداسة حياته الشخصية تنسجم تمام الانسجام مع الصرامة التى تعقب بها البدع الدينية . فسحب من كاثوليك بوهيميا الحق الذى منحوه من قبل ، حق تناول الأسرار بالخمر كما يتناولونها بالخبز . وحرم اليزابث ملكة انجلترة وأحل الكاثوليك الانجليز من الولاء لها . وحض شارل التاسع ملك فرنسا وكاترين مديتشى على مواصلة الحرب على الهيجونوت حتى يبادوا بغير رحمة(٢٣) . وامتدح الأساليب الفظة التى اتبعها ألبا فى الأراضى المنخفضة(٢٤) . وجاهد بقواه المحتضرة لتجهيز الأرمادا الذى هزم الترك فى ليبانتو . وما خفف فى حياته حكما كنسيا(٢٥) ، بل شجع محكمة التفتيش على تنفيذ قواعدها وعقوباتها بالقوة .

على أنه عنف مثل هذا العنف فى فرض الاصلاح الكنسى . فالأساقفة الذين يغفلون الاقامة فى اسقفياتهم يشلحون ، وعلى الرهبان والراهبات أن يعتزلوا الناس اعتزالا تاما ، وكل اخلال بالوظائف الكنسية يجب أن يكشف أمره ويعاقب . وحين شكا بعض من طردوا من رجال الحاشية الزائدين عن الحاجة من أنهم سيموتون جوعا ، أجاب بيوس بأنه خير للانسان أن يموت جوعا من أن يخسر نفسه(٢٦) . وكانت الكفاية ، لا المحسوبية ولا محاباة الأقرباء ، رائده فى التعيينات والترشيحات . أما هو فكان دءوبا على العمل ، يجلس الساعات الطوال يقضى فى الدعاوى ، لا يكاد يصيب من النوم أكثر من خمس ساعات فى اليوم ، ويضرب المثل لرجال الاكليروس بما أخذ به حياته الخاصة من بساطة وتقشف . فهو كثير الأصوام ، لا يزال يلبس قميص الرهبان الصوفى الخشن تحت عباءته البابوية . ولقد أفنى نفسه بهذا النسك الصارم ، فكان فى الثامنة والستين يبدو أكبر من عمره بعشر سنين — شيخا نحيل الجسد ، أعجف الوجه ، غائر العينين ، قد اشتعل رأسه شيبا . وأصر وهو لا يكاد يقوى على المشى على أن يحج إلى باسليقات روما السبع ، راجلا أكثر الرحلة . ولم تمض

على ذلك الحج تسعة أيام حتى مات بعد شهر من العذاب ، مرتديا ثوب القديس دومنيك . كتب مؤرخ بروتستنتي كبير يقول « قليل من البابوات من تدين لهم الكاثوليكية بفضل أكثر من دينها لبيوس الخامس ، حقا لقــد قسا فى اضطهاد البدع ، ولكن ادراكه لضرورة الاصلاح ، وعزمه الوطيد على تنفيذه ، ردا إلى الكنيسة كثيرا من الاحترام الذى فقدته[٢٧] . وقد أدخلت الكنيسة بيوس فى عداد القديسين عام ١٧١٢ .

وواصل جريجورى الثالث عشر (١٥٧٢ — ٨٥) اصلاح الكنيسة بروح أكثر اعتدالا . ونحن نذكر فيه الرجل الذى أعطانا تقويمنا واحتفل بمذبحة القديس برتولوميو بقداس شكر لإله رحيم . على أنه كان رجلا فاضلا ، عيوفا ، رقيق الخلق . وكان له ولد غير شرعى قبل أن يدخل فى زمره الكهنوت ، ولكن أمثال هذه الزلة كان يغتفرها أهل روما الشهوانيون . كان سخيا فى العطــاء ، دءوبا فى الادارة . وقد أثنى البروتستنت على اختياره لمن يلون مناصب الكنيسة[٢٨] . ورأى فيه مونتيني عام ١٥٨٠ « شيخا وسيما ، ذا وجه يطفح هيبة ، ولحية بيضاء طويلة ، صحيح البدن موفور العافية مع أنه ينيف على الثامنة والسبعين . . . دمث الطبع قليل الارتباك بشئون الدنيا[٢٩] » .

بيد أن مشاريعه الجزيلة — كتمويل المدارس اليسوعية ، وقمــع الهيجونوت ، وخلع اليزابث — كانت تحتاج إلى المال . ولكى يجمعه أمر بتطبيق القانون بحذافيره على ملاك الضياع الكائنة فى الأملاك البابوية وعلى عقود التمليك . وهكذا صــادر البابا كثيرا من الأملاك التى كان مآلها إلى البابوية لانقطاع خط الوراثة المباشر ، أو لعدم أداء الضرائب المفروضة على الاقطاعات البابوية . على أن ضحايا هذا الأمر البابوى ، الحاليين منهم أو المنتظرين ، سلحوا أتباعهم ، وقاوموا نزع ملكياتهم ، واتخذوا قطع الطريق سبيلا للانتقام . فتزعم رجال من أسر نبيلة ، كألفونسو بيكولوميني وروبرتو مالاتستا ، عصابات من طريدى العدالة واستولوا على

المدن وسيطروا على الطرق . فاستحال بعد ذلك جمع الضرائب ، وسد الطريق على الذهب المتدفق على روما ، وما لبثت الفوضى أن عمت الادارة البابوية . هنا أوقف جريجورى مصادراته ، واصطلح مع بيكولوميني ، ثم مات في ذل الهزيمة وهوانها .

يقولون ان الضرورات صانعةُ الرجال ، وقد صنعت هذه الضرورة من فليتشي بيريتي (سيكستوس الخامس ١٥٨٥ — ٩٠) رجلا من أعظم البابوات وأجلهم قدرا . رأت عيناه النور أول مرة في جروتاماري ، قرب أنكونا ، في كوخ كان سقفه مهلهلا حتى لقد نفذت منه أشعة الشمس ، قال وهو كبير على سبيل المزاح انه « ولد في بيت منير[٣٠] » . تعلم في دير فرانسسكاني بمونتالتو ، وحصل على دكتوراة اللاهوت بدراسته في بولونيا وفيرارا ، ثم ارتقى سريعا بفضل بلاغته واعظا وكفايته إداريا . فلما اختير لكرسي البابوية وهو في الرابعة والستين ، كان الدافع لهذا الاختيار أن مجمع الكرادلة تبين فيه الشخصية الصلبة التي تتطلبها سلامة الدويلات البابوية وكفايتها المالية .

بيد أن أقاربه تزاحموا من حوله يمدون إليه أكفهم فلم يقو على ردهم ، وهكذا عادت محاباة الأقرباء ترفع عقيرتها ، ولكنه في غير ما يتصل بأسرته كان رجلا صلبا لا تلين له قناة . كان في مظهره ذاته ما يستوقف النظر : رجل قصير القامة ، عريض المنكبين ، متين البنية ، واسع الجبين ، أبيض اللحية كثها ، كبير الأنف والأذنين ، ضخم الحاجبين ، له عينان نفاذتان قادرتان على إسكات المعارضة دون كلمة . وكان وجهه المتورد ينسجم مع عنف طبعه ، ورأسه الكبير يوحي بارادة لا تنثني . على أنه مع كل صرامته كان يملك معينا من روح الفكاهة ومن النكتة الذكية النفاذة أحيانا كثيرة . وقد تنبأ بأن هنرى الرابع سيهزم ماين ، لأن هنرى ينفق في الفراش وقتا أقل مما ينفقه ماين على موائد الطعام[٣١] . أما هو نفسه فكان قليل النوم شديد العكوف على العمل .

عقد العزم أولا على الضرب على أيدى قطاع الطرق المنتصرين . فبدأ بتنفيذ حظر مفروض على حمل الأسلحة الفتاكة ولكنه كان مهملا إلى حد كبير . وفى اليوم السابق لتتويجه قبض على أربعة شبان لانتهاكهم هذا الحظر ، وأمر سيكستوس بشنقهم فوراً . والتمس أقرباؤهم العفو عنهم أو تأجيل التنفيذ ، فأجاب « ما دمت على قيد الحياة فلا بد أن يموت كل مجرم أثيم » ؛ وما لبثت أن تدلت أجسادهم من مشنقة نصبت على مقربة من جسر سانتانجيلو ، وسط احتفالات التتويج ، فكان هذا بمثابة الخطاب الافتتاحى لسيكستوس والبيان لسياسته فى أمر الجريمة .

وأمر البابا النبلاء بطرد فتاكهم ، ووعد كل قاطع طريق يسلم إليه آخر حيا أو ميتا بالعفو عنه ومكافأته ، أما المكافأة فتدفعها أسرة اللص الأسير أو موطنه . فإذا أذاع لص منهم تحديه للأمر ، أمر سيكستوس أسرته بأن يعثروا عليه ويأتوا به أو يلقوا الموت جزاء لهم . وقد أرضى دوق أوربينو البابا(٣٢) . بأن حمل بغالا طعاما مسموما وأمر سائقيها بالمرور بمخبأ قاطع طريق منهم ، وسرق اللصوص الحمل وأكلوا الطعام وماتوا . ولم يكن هناك أى اعتبار للمراتب الكهنوتية أو الاجتماعية ، فالمذنبون من « الأسر الأولى » يعدمون دون رحمة أو تأجيل ، وكان بين المشنوقين قسيس خارج على القانون . وما لبث الريف أن انتشرت فوق ارجائه الجثث تتأرجح فى الريح ، وقال ظرفاء روما إن عـــدد الرءوس المقطوعة المعلقة على جسر سنتانجيلو يفوق عدد ثمار الشمام المعروضة فى أكشاك السوق(٣٣) . ولغط الناس بقسوة البابا الهمجيه ، ولكن السفراء أخبروه أنهم « أينما ساروا فى دويلاته كانوا يجتازون بلدا رفرف عليه السلام والأمن(٣٤) » وأمر الحبر الفخور بضرب عملة كتب عليها Noli me tangere « حذار أن تمسنى » . وفى غضبة مضرية للفضيلة أمر بحرق قسيس وغلام جزاء ارتكابهما اللواط ، وأكره شابة على أن تشهد شنق أمها التى باعتها للبغاء . أما كل جرائم الزنى التى يكشف أمرها فجزاؤها الموت الزؤام . وكان يقبض على الناس لجرائم

ترتد إلى تاريخ بعيد، حتى أن اعلانا جداريا نقل عن القديس بطرس ارتعاده فرقا ، مخافة أن يوجه سكستوس إليه التهمة لقطعه أذن مالخوس عند إلقاء القبض على المسيح .

على أنه فى غمرة هذه المطاردة المجنونة وجد الوقت للحكم والاصلاح . فانهى حرب المصادرات التى خاضها جريجورى الثالث عشر مع الأشراف . ووفق بين عدوين قديمين هما آل أورسينى وآل كولونا إذ وحد بينهما بالزواج . ووزع الكرادلة على أحد عشر « جمهورا » جديدا من العابدين وأربعة من القدامى ، وقسم بين هؤلاء وظائف الادارة البابوية . وأمر رجال الاكليروس باتباع جميع مراسيم الاصلاح الصادرة عن مجمع ترنت ، وطلب إلى الأساقفة تفقد الاديرة دوريا واصلاحها . وكانت عقوبة مضاجعة راهبة هى الموت للمذنبين جميعا . وقد نفخ الحياة فى جامعة روما فنشطت بكامل قوتها . ورغبة فى تدبير المكان الكافى للعدد المتعاظم من الكتب كلف دومنيكو فونتانا بتصميم بيت جديد فخم يضم مكتبة الفاتيكان . وأشرف بنفسه على طبعة منقحة من ترجمة جيروم اللاتينية للكتاب المقدس — وهى تضارع فى روعتها الترجمة الانجليزية للكتاب فى عهد الملك جيمس الأول .

بيد أنه لم يشارك أسلافه من بابوات النهضة شعور الاحترام لمخلفات الفن الوثنى . فأتم هدم سبتزونيوم سيفيروس ، ليوفر الأعمدة لكنيسة القديس بطرس . واقترح هدم مقبرة سسيليا ميتيللا . وهدد بهدم الكابيتول ذاته ان لم تنزع منه تماثيل جوبيتر تونانس ، وأبوللو ، ومنيرفا ، ثم أبقى على منيرفا ، ولكنه أطلق عليها اسما جديدا هو روما ، واستبدل برمحها صليبا . وأخرج الشياطين من أعمدة تراجان وماركوس أوريليوس بأن وضع فوق قمتها تماثيل للقديس بطرس أو القديس بولس وأطلق اسميهما على الأعمدة . وامعانا فى الرمز على خضوع الوثنية للمسيحية كلف دومنيكو فونتانا بأن ينقل إلى ميدان القديس بطرس المسلة التى جلبها كاليجولا من

من هليوبوليس وأقامها نيرون فى ملعب مكسيموس . وكانت هذه الكتلة الواحدة من الجرانيت الوردى تعلو ثلاثة وثمانين قدماً ، وتزن أكثر من مليون رطل رومانى . وكان أساطين المعمار ، من أمثال أنطونيو دا سانجاللو وميكلانجلو ، لقد أفتوا بأن لا طاقة لمهندسى النهضة بنقلها . واستغرق انجاز هذه المهمة عاماً كاملا من دومنيكو وأخيه جوفانى (١٥٨٥ — ٨٦). وأنزلت الآلات الضخمة هذا الأثر ونقلته ، وقام ثمانمائة من الرجال تشد أزرهم الاسرار المقدسة ، و ١٤٠ حصاناً ، بجر أربعة وأربعين حبلا سمك الواحد منها كذراع الرجل ، ليقيموا المسلة فوق موقعها الجديد . وغدا دومنيكو بطل روما بعد نجاحه فى المهمة ، أما سيكستوس فضرب المداليات التذكارية ، وأعلن النبأ رسمياً للحكومات الأجنبية . واستعيض عن الكرة التى فى قمة المسلة بصليب يحوى قطعه من «الصليب المقدس» الذى مات عليه المسيح . وأحس سيكستوس أن المسيحية استعادت سلطانها بعد أن عطلته النهضة حينا .

وجدد هذا البابا الذى لم يعرف الكلل عمارة روما غير الدينية خلال بابويته القصيرة التى لم تزد على خمس سنوات ، فجلب لها كمية جديدة من الماء الصالح — تغذى سبعا وعشرين عيناً جديدة — وذلك بإعادة بناء أكوا ألسندريا ، التى أطلق عليها اسمه « أكوا فيليتشى » . وطهر الهواء بتمويل تجفيف المستنقعات ، وأمكنه تحقيق تقدم طيب فى هذا الميدان واستصلح من الأراضى ٩,٦٠٠ فدان ، ولكن المشروع هجر بعد موته . وتنفيذاً لأمره شق دومنيكو فونتانا شوارع فسيحة جديدة وفق النظام الكلاسيكى ، نظام الخطوط المستقيمة ، ومد طريق سيستينا وغير اسمه إلى طريق فيليتشى ، وأصبحت كنيسة سانتا ماريا مادجورى الرائعة مركزاً يتوسط عدة شوارع تتفرع منه ، وبدأت روما تتخذ شكلها الحديث . ولكى يمول سيكستوس مشاريعه وخزائنه التى كانت خالية الوفاض عند البدء بتنفيذها فرض الضرائب حتى على ضروريات الحياة ، وملق العملة ، وباع المناصب ، وأصدر

تأميناً بدخل سنوى يدفع مدى الحياة لقاء ما يقدم للخزانة البابوية من عطايا ، وقد أدار ماليته بكفاية وعناية ، وخلف خمسة ملايين كراون فى خزانته عند موته .

أما شغله الشاغل فكان السياسة الخارجيه . فهو لم يطلق الأمل قط من إعادة إنجلتره وألمانيا إلى حظيرة الكاثوليكية وتوحيد كلمة العالم المسيحى ضد الإسلام . أعجبته كفاية التزابث فى السياسة والحكم ، ولكنه مد يد المعونة للمؤامرات التى استهدفت خلعها . ووعد بالمساهمة فى نفقات الأرمادا الأسبانية ، ولكنه ارتاب فى تباطؤ فيليب ، واشترط فى دهاء أن تكون معونته رهناً بنزول الجيوش الإسبانية فعلا على أرض إنجلتره . وكانت فرنسا مشكلته الكبرى . فالهيجونوت الذين افترض أنهم أبيدوا عام ١٥٧٢ كانوا يزحفون على باريس بقيادة هنرى نافار الذى لا تفل له عزيمة . وكان فيليب الثانى يموّل الحلف ليتقذ فرنسا من براثن البروتستنتية ويحفظها للكاثوليكية — ولأسبانيا . وكان على سيكستوس أن يختار بين أمرين : فإما أن يترك فرنسا تنحرف إلى البروتستنتية ، وإما أن يعين فيليب على تحويل فرنسا إلى ولاية أسبانية . ولكن توازن القوى بين فرنسا وأسبانيا بدا أمراً لا غنى عنه للبابوية إن أرادت التحرر من سلطان القوى الدنيوية . وفى عام ١٥٨٩ وعد سيكستوس بالاشتراك فى حرب ضد هنرى ، ولكنه انسحب من هذه الخطة حين تعهد هنرى باعتناق الكاثوليكية . وهدد فيليب بسلخ أسبانيا من واجب الطاعة للبابا ، وندد يسوعى أسبانى بالبابا لأنه يحرض على الهرطقة ، ولكن سيكستوس لم يهتز ، فاستقبل سفير هنرى بالترحيب ، وتبين آخر الأمر أنه على حق فى ثقته بهنرى ، فقد استنقذت الكنيسة فرنسا ؛ واستمرت فرنسا ميزان قوة ضد أسبانيا .

وكان هذا آخر انتصاراته ، ولعل الجهد الذى بذله فيه أضناه . ولم يحزن على موته (١٥٩٠) لا الكرادلة ولا الأشراف ولا الشعب ، أما الكرادلة فقد أجفلتهم صرامته ، وأما الأشراف فقــد أكرهوا على طاعة

القانون برغم ما ألفوا من عادات تقدست كثيراً بحكم القدم ، وأما الشعب الذى فرض عليه أقصى ما يمكن فرضه من ضرائب وأدّب ليلزم سلاماً لم يألفه ، فقد حاول تحطيم التمثال الذى أقيم لسيكستوس فى الكابيتول ، ولكن بعد أن فقدت الضربات التى كالها لذعتها ، استطاع الخلف أن يوازنوا بين انجازاته وبين قسوته وكبريائه وولعه بالسلطة . وفى رأى « ليكى » المؤرخ العقلانى أنه « وإن لم يكن أعظم الرجال الذين ولوا عرش البابوية ، فهو إلى حد كبير أعظم رجل دولة بين البابوات[٣٥] » .

ومن خلفائه فى هذه الحقبة تفرد بالذكر رجلان . أما أولهما وهو كلمنت الثامن (١٥٩٢ - ١٦٠٥) فكان أقرب ما يكون إلى روح المسيحية . يقول صلى الهيجونوتى « كان بين جميع البابوات الذين تربعوا منذ أمد طويل على كرسى روما أخلاهم من الهوى الحزبى ، موفور الحظ من تلك الوداعة وذلك الحنو اللذين أوصى بهما الإنجيل[٣٦] » بيد أنه رفض الرأفة على بياتريشى تشنشى (١٥٩٩) ، وأذن لمحكمة التفتيش بحرق جوردانو برونو (١٦٠٠). وأما الثانى فهو أوربان الثامن (١٦٢٣ - ٤٤) ، الذى قدم المعونة أول الأمر لأسبانيا والنمسا فى حرب الثلاثين سنة ، ولكنه خشى أن تطوقاه حين حاولتا ابتلاع مانتوا ، فاتجه بمناوراته الدبلوماسية إلى التعاون مع ريشليو فى استخدام جيوش جوستاف أدولف البروتستنتية لإضعاف قوة الهابسبورج . وقد سرت إليه العدوى من روح العصر العسكرية ، فأخضع الشئون الدينية لمقتضيات التوسع شأن الملوك ، واستولى على أوربينو وفرض عليها الضرائب الثقيلة - كما فرضها على دويلاته الأخرى - ليموّل جيشاً بابوياً يعده لمحاربة دوق بارما . ولكن الجيش كان عاجزاً لا خير فيه ، وخلف موته المملكة البابوية « فى حال من الانحلال والأعياء » كما يقول سفير بندقى « بحيث يستحيل أن تقوم لها قائمة بعد اليوم[٣٧] » . على أن السفير كان مخطئاً فى حكمه ، فقد ظهرت عناصر الانتعاش فى كل مكان فى الكنيسة ، وشقت طريقها صعداً إلى البابوية . فالشعب الإيطالى البسيط ،

هذا الشعب الذى كان يتعزى عن شقائه الطويل بالتمسك بأهداب الدين وبالورع الخصب الخيال ، ظل أفراده يقلسون مزاراتهم كما كانوا يفعلون من قبل ، ويمشون خاشعين فى المواكب الدينية ، ويتجاذبون حديث المعجزات الجديدة ، ويصعدون « السلم المقدس » على ركبهم فى وجد صوفى أليم . لقد كشف قديسون كفيليب نيرى ، وفرنسيس سيلز ، وفانسان دبول ، عن قدرة الكنيسة العريقة على أن تلهم أتباعها أعمق مشاعر التقوى والولاء ؛ وهكذا نرى يسوعياً مثل الويسيوس جونزاجا يموت غير متجاوز الثالثة والعشرين وهو يخدم ضحاياالطاعون فى روما (١٥٩١) . لقد تقهقر الفساد والحرص اللذان ابتليت بهما الإدارة البابوية أمام هجمات المصلحين البروتستنت ، وحض القديسين ، والقدوة الملهمة التى أتاحها للناس أحبار كالقديس شارل بوروميو الميلانى . فنمت ، ولو فى شىء من التعثر ، حركة الاصلاح الذاتى من بابا إلى آخر . ونفخ من جديد فى الطوائف الدينية القديمة واستكثر من الطوائف الجديدة — الأوراتوريون (١٥٦٤) ، ومنذورو القديس أمبروز (١٥٧٨) ، وصغار الكهنة النظاميون (١٥٨٨) ، واللعازريون (١٦٢٤) ، وأخوات البر (١٦٣٣) ، وكثير غير هؤلاء . وانشئت الكليات اللاهوتية فى أرجاء العالم المسيحى لإعداد طبقة متعلمة من أكليروس غير منتسب إلى رهبنة . وانطلق المبعوثون الكاثوليك إلى كل بد غير مسيحى ، يقابلون المكاره والأخطار ، ويعنون بالمرضى ، ويعلمون الصغار ، ويبشرون بالدين . أما اليسوعيون المدهشون ، الذين لا تفل لهم عزيمة ، فقد تحركوا فى كل مكان ، يصارعون البروتستنتية فى ألمانيا ، ويدبرون المؤامرات السياسية فى فرنسا ، ويموتون فى سبيل عقيدتهم فى إنجلتره ، ويحملون الإيمان إلى « الوثنيين » فى قارات الدنيا الخمس .

٣ — اليسوعيون

١ — فى أوربا

بعد أن مات دييجو لاينز (١٥٦٥) ، اختارت « جمعية يسوع » فرانشسكو بورجيا قائداً لها ، وكان خلقه وسيرته علامة على جيله . فهذا الرجل الذي ولد غنياً ، والذى كان حفيداً للبابا اسكندر السادس ، وارتقى دوقا لجانديا ثم حاكماً لقتلونيا ، والذى صاحب الملوك — هذا الرجل دخل الطائفة الجديدة عام ١٥٤٦ ، ووهبها كل ثروته الشخصية ، واكتسب مرتبة القديسين بما اتصفت به حياته من قداسة صارمة . أما خليفته ايفرارد مركوريان فلم يترك أى أثر فى التاريخ ، ولكن كلوديو أكوافيفا قاد الجمعية بكثير من الحكمة واللباقة خلال أربعة وثلاثين عاماً من المتاعب (١٥٨١ — ١٦١٥) حتى ليعده كثير من اليسوعيين الآن أرفع مكانة من جميع قادتهم بعد لويولا . وحين تقلد الزعامة كان عدد اليسوعيين زهاء خمسة آلاف ، وحين مات كان عددهم ثلاثة عشر ألفاً .

وقد وضعت لجنة من فقهاء اليسوعيين تحت إدارته (١٥٨٤ — ٩٩) خطة للتعليم ظلت إلى عام ١٨٣٦ تقرر نظام الدراسات فى الكليات اليسوعية وطريقتها . فهذا النظام الدراسى الذى يتسلم الأولاد من سن الحادية عشرة إلى الرابعة عشرة ويمتد ست سنوات ، كان يتيح لهم ثلاث سنوات من دراسة اليونانية واللاتينية لغة وأدباً ، أما السنوات الباقية فتخصص للفلسفة بأوسع معانيها ، فتشمل العلوم الطبيعية والمنطق والميتافيزيقا والأخلاق . وتجمع الشواهد على أن هذه المواد كلها كانت تدرس على نحو يدعو للإعجاب . صحيح أن الفلسفة كانت وسيطة (سكولاستيه) ولكن لم يكن عنها بديل مقبول بعد . أما الأحياء والتاريخ الدنيوى الحديث فقد أهملا إلى حد كبير كما كان الشأن فى جميع مدارس العصر تقريباً ، ربما لأن بساطة الإيمان الوائقة كانت تتأذى من بشاعة مشهد الصراع على البقاء بين الحيوان،

ومن موكب الحرب الذى لا يكاد ينقطع بين بنى الإنسان . لقد كانت خطة الدراسة فى جملتها توفيقاً ماهراً بين العصور الوسطى والنهضة . ففى قدرة بالغة على التكيف ، رحب اليسوعيون بمولد الدراما من جديد ، فترجموا وألفوا ومثلوا المسرحيات ، واكتشفوا فى المسرحيات المدرسية وسيلة حية لتعليم الكلام والبلاغة ، وتقدموا عصرهم فى إدارة المسرح ومشاهده . واستعانوا بالمناظرات شحذاً للذكاء وقوة الحجة ، ولكنهم ثبطوا أصالة الفكر فى المعلم والطالب على السواء . ولقد كان هدفهم فيما يبدو إعداد صفوة متعلمة ولكنها محافظة ، قادرة على القيادة الذكية العملية ولكنها بنجوة من متاعب الشكوك العقائدية ، راسخة فى الإيمان الكاثوليكى لا تحيد عنه قيد أنملة .

وكانت المدارس اليسوعية فى جميع الحالات تقريباً يقوم بإنشائها ومنح الهبات لها السلطات الزمنية أو زعماء الكنيسة أو الأفراد الميسورون ، ولكن اليسوعيين احتفظوا بالهيمنة الكاملة عليها . ومع أن بعض كلياتهم أنشىء خصيصاً لأبناء الأشراف ، فإن كلها تقريباً كان مفتوحاً ، دون رسوم تعليم ، لأى طالب مؤهل فقيراً كان أو غنياً(٣٨) . أما المدرسون الذين كانوا عادة من رجال الطائفة فأفضل إعداداً من نظرائهم البروتستنت ؛ أوفياء لمهنتهم لا يتقاضون عنها أجراً ، يتيح لهم ثوب الكهنوت وتأثيره سلطاناً محترماً مكنهم من حفظ النظام دون اللجوء إلى التخويف أو العقاب البدنى . وقد أرسل كثيرون من البروتستنت أبناءهم إلى الكليات اليسوعية(٣٩) لكى ييسروا لهم ، فضلا عن الإلمام السليم بالدراسات الكلاسيكية ، تدريباً رفيعاً على الفضيلة وآداب السلوك وقوة الخلق . يقول فرانسس بيكون « أما الجانب التربوى فأقصر قاعدة أن يقال لك استشر مدارس اليسوعيين ، لأنه لم يجرب ما هو خير منها »(٤٠) . وفى عام ١٦١٥ كان لليسوعيين ٣٧٢ كلية ، وفى عام ١٧٠٠ كان لهم ٧٦٩ ، وأربع وعشرون جامعة منبثة فى أرجاء العالم . وفى الدول الكاثوليكية كاد التعليم

الثانوى بأسره يكون فى قبضتهم ، مما أتاح لهم نفوذاً هائلا فى تشكيل الفكر القومى .

ثم التمسوا مسمع الملوك فى طرف السلم الآخر . وقد حظر عليهم أكوافينا أن يصبحوا كهنة اعتراف للملوك ، ونهاهم عن الاشتراك فى السياسة . ومع ذلك فحتى فى عهد أكوافيفا قبل الأب كوتون دعوة هنرى الرابع له ليكون مرشده الروحى ، وبعد هذا وافق اليسوعيون على رأى ألمع تلاميذهم فولتير ، وهو أن خير السبل لتشكيل الشعب هو تشكيل ملكه . وما وافى عام ١٧٠٠ حتى كانوا آباء الاعتراف لمئات من أبرز الشخصيات . وكان النساء على الأخص شديدات الشعور بحسن آدابهم وبتقبلهم السمح للدنيا ، وبفضل تلقيهم اعترافات لنساءذوات أهمية ، استطاع الآباء الدهاة أن يصلوا إلى رجال ذوى أهمية .

وإذ جهروا بنية الاختلاط بالناس بدلا من الاعتزال فى الأديرة ،فقد كيفوا مبادئهم الخلقيةوفق طرق البشر العصية على الاصلاح . ففى رأيهم أن الأخلاق المسيحية الصارمة لم تكون ميسورة إلا للنساك والقديسين ، فواقع الطبيعه البشريه يقتضى بعض التخفيف من قاعدة الكمال . ومثل هذه التوفيقات للقانون الخلقى وضعها أرسطو رداً على نزعه أفلاطون الكماليه ، ووضعها معلمو الناموس اليهود ليلائموا بين الشرائع العبريه القديمه والظروف الجديدة للحياة الحضرية . ومع أن اليسوعيين فى مذهبهم - وفى تطبيقهم للمذهب عادة - يحتقرون الجسد ، فإنهم فهموا الجسد ، وأتاحوا له ملاذا خلقياً لكيلا يكره الخطاة على التمرد فتخسرهم الكنيسة . ورغبة فى تخفيف التوتر بين ناموس المسيح وطبيعة البشر ، طور اللاهوتيون من اليسوعيين وغيرهم فكرة الإفتاء - أى تطبيق التعاليم الخلقية على الحالات الخاصة . ولكن لنترك الآن هذا العلم العويص حتى نصل إلى أعدى أعدائه بليز باسكال .

ويمكن القول عموماً بأن اليسوعيين مالوا فى لاهوتهم إلى الرأى السمح

والنظرة المتحررة . كان من رأى بعضهم ، كالأب ليس والأب هامل فى لوفان (١٥٨٥) ، إنه ليس من الضرورى الإيمان بأن كل كلمة أو كل تعليم فى الكتاب المقدس موصى به من الله (٤١). وقد أكد كل اليسوعيين تقريباً المعتقد السكولاسى القائل بأن الحكومات الزمنية تستقى سلطتها من الشعب ، وقد بشر عدد غير قليل منهم — مثل ماريانا وبوزنباوم — بحق الشعب عن طريق ممثليه الشرعيين فى أن يعزل ، بل أن يقتل ، الملك « الفاسد » ، ولكن « الفاسد » فى هذا المجال كان معناه المهرطق ، وربما كان مبعث هذا التشديد الديمقراطى رغبة اليسوعيين ، بحكم ولائهم المطلق لسيادة روما ، فى الاعلاء من سلطة البابا التى تفردت بالقداسة والسمو . وعلى النقيض من لوثر ، آمن اليسوعيون بفعالية الأعمال الصالحة فى نيل الخلاص ، واستنكروا التأكيد على الخطية الأصلية ، وقابلوا الجبرية القاتمة التى قال بها بولس ، وأوغسطين ، ولوثر ، وكلفن ، ويانسن ، بالتأكيد من جديد لحرية الإرادة . ولقد أثار لويز مولينا ، وهو يسوعى أسبانى ، ضجة لاهوتية حين زعم أن الإنسان يستطيع تقرير مصيره الأبدى بإرادته وأعماله ، وأن اختياره الحر يمكن إما أن يتعاون مع النعمة الإلهية أو يغلبها . وطالب اللاهوتيون والدومنيكان بإدانة مولينا بالمرطقة ، ولكن اليسوعيين خفوا للدفاع عنه ، وحمى وطيس الجدل إلى حد دعا كليمنت الثامن إلى أمر الفريقين بالكف عنه (١٥٩٦) .

ونضافرت أخلاقيات اليسوعيين ، الرحيمة بالقياس إلى أخلاقيات غيرهم ، مع أفكارهم الراديكالية ، واتصالاتهم المحافظة ، وسلطانهم المتسع ، لتزهد فيهم الاكليروس الكاثوليكى غير المنتسب إلى الرهبنات وتثير كراهية البروتستنت لهم . فرماهم القديس شارل بوروميو بالتساهل المخزى مع ذوى النفوذ من الخطاة (٤٢) . وقال ساربى لو أن القديس بطرس كان مرشده كاهن اعتراف يسوعيا لوصل به الأمر إلى إنكار المسيح دون أن يحسب ذلك عليه خطيئة (٤٣) . أما موتيو فيتيللسكى ، قائد

اليسوعيين الذى خلف أكوافيفا ، فقد نبه أفراد الطريقة إلى أن حرصهم على جمع المـال يثير اللوم عليهم من جمع الناس (٤٤) . وأما القساوسة البروتستنت فى انجلترا ، الملتزمون بعقيدة الحق الإلهى للملوكهم فى الحكم ، فقد صدمتهم آراء اليسوعيين فى سيادة الشعب وقتل الملوك أحيانا . وندد روبرت فيلمر برأى الكردينال بللارمينى القائل بأن « السلطة الزمنية أو المدنية . . كائنة فى الشعب ، إلا إذا خلعها على ملك. » (٤٥) . أما البروتستنت الألمان فحاربو اليسوعيين زاعمين أنهم « مخلوقات من الشيطان تقيأتهم جهنم » ، وطالب بعضهم بحرقهم كما تحرق الساحرات (٤٦) . وفى عام ١٦١٢ ظهر فى بولنده كتاب « التعليمات السرية » ، وهو يوهم قارئه بأنه تعليمات سرية لليسوعيـــين فى فن الظفر بالتركات والوصول إلى السلطة السياسية . وأعيد طبع الكتاب اثنين وعشرين مرة قبل عام ١٧٠٠ . وكان يصدق إلى وقتنا هذا تقريبا، ولـكن أغلب الرأى فيه الآن أنه أما هجاء ذكى أو تزوير وقح (٤٧) .

ب — فى الأقطار غير المسيحية

كان الرأى عند الجماهير الكاثوليكية أن أخطاء اليسوعيين لهـا ما يرجحها كثيرا من فضائل فى التعليم وجرأة فى التبشير . صحيح أن طرقا دينية أخرى شاركت فى هذه المغامرة التقية ، مغامرة نشر الدين ، ولـكن أين هذا من جرأة اليسوعيين وإقدامهم واستشهادهم فى الهند والصين واليابان والأمريكتين ؟ ففى الهند مثلا دعا السلطان المغولى المستنير أكبر بعض اليسوعيين إلى بلاطه فى فاتحبور سكرى (١٥٧٩) ، واستمع إليهم فى حب استطلاع وتعاطف ، ولـكنه أبى أن يطرد حريمـه . وانضم شريف إيطالى يدعى «روبرتودى نوبيلى إلى جماعة اليسوعيين ، وذهب إلى الهند مبشرا (١٦٠٥) ، وهناك درس العقائد والطقوس الهندية، واتخذ لباس البراهمة واتبع نظامهم، وألف الكتب بالسنسكريتية ،

وحول البعض إلى المسيحية . ومارس يسوعيون آخرون اليوجا ، وعملوا بين الطبقات الدنيا . وعبر المرسلون اليسوعيون الهملايا إلى التبت حوالى عام ١٦٢٤ وزودوا أوربا بأول معلومات وثيقة — وآخرها حتى وقت طويل — عن ذلك العالم المحجوب .

أما اليابان فقد دخلها اليسوعيون فى تاريخ مبكر (عام ١٥٤٩) ، وفى عام ١٥٨٠ زعموا أنهم حولوا إلى المسيحية ١٠٠,٠٠٠ ، وفى عام ١٥٨٧ أمروا بالرحيل عن الجزر ، وفى عام ١٥٩٧ لقى اليسوعيون والفرنسسكان اضطهادا عنيفا صلب فيه القساوسة والرهبان وآلاف المسيحيين اليابانيين — وهى طريقة جديدة زعم قاتلوهم أنهم أخذوها عن الأناجيل . وحوالى عام ١٦١٦ دخلت فئة جديدة من اليسوعيين اليابان وكسبوا مسيحيين جددا لا يستهان بعددهم ، ولكن التجار الهولنديين والانجليز حرضوا الحكومة على اضطهادهم من جديد ظنا منهم بأنهم يمهدون الطريق للتجارة البرتغالية أو الأسبانية (٤٨) ، فأعدم من اليسوعيين واحد وثلاثون ، ولم تحل سنة ١٦٤٥ حتى اختفت المسيحية من اليابان .

وأما الصين فكانت خطراً يتحدى اليسوعيين ، إذ توعد الأباطرة أى مسيحى يجرؤ على دخول « المملكة الوسطى » بالموت. وقد رأينا فى غير هذا الموضع من الكتاب كيف مات اليسوعى فرانسيس زافير (١٥٥٢) وهو قاب قوسين من الصين بعد أن عول على كسبها للمسيحية . وفى عام ١٥٥٧ أنشأ التجار البرتغاليون مستعمرة فى مكاو ، على ساحل الصين الجنوبى الشرقى . هناك انقطع بعض اليسوعيين لتعلم لهجات الصين وعاداتها. وأخيرا دخل اثنان منهم ، وهما ماتيو ريتشى وميكيلى رودجيرى ، ولاية كوانتونج مسلحين باللغات والفلك والرياضة والساعات كبيرها وصغيرها والكتب والخرائط والآلات . وافتتن حاكم الإقليم بهذه الطرف وكانا يتخذان أسماء صينية ولباسا صينيا ، ويعيشان عيشة البساطة ،

ويشتغلان بجد ، ويسلكان مسلك التواضع الذى توقعه الصينيون من أبناء حضارة حديثة العمر قليلة النضج كحضارة أوربا ، لذلك سمح لهما بالبقاء . واتخذ ريتشي سمته إلى كانتون حيث أثار أعجاب المندريين (كبار الموظفين) بمعارفه العلمية والجغرافية . وهناك أقام المزاول ، ورسم الخرائط المريحة الوثيقة ، وأجرى الحسابات الفلكية العويصة . ثم أدخل أصدقاءه الجدد إلى حظيرة المسيحية بكتابته خلاصه مفرغة فى أسئلة وأجوبة شرحت العقائد الأساسية للمسيحية ، ودعمت بمقتبسات من النصوص الشرقيه القديمه . وشجعه التسامح الذى لقيه فانتقل إلى ضاحيه من ضواحى بكين (١٦٠١) وأرسل ساعة كبيرة إلى الأمبراطور كانج . هسى . فلما تعطلت الساعه ولم يستطع أحد من العلماء الصينيين أن يديرها من جديد ، أرسل «ابن السماء» فى طلب مهديها . وحضر ريتشي ، وضبط الساعه ، وقدم إلى الحاكم الطلعة مزيدا من الأدوات العلمية ، وما لبث ريتشي وآخرون من اليسوعيين أن ثبتوا فى بلاط مينج . ولم يضع الامبراطور الطيب أى عقبه فى سبيل اعتناق كثير من علية الصينيين للمسيحية . وبعد موت ريتشي (١٦١٠) واصل يسوعى آخر يدعى « يوهان آدم شال فون بل » عمل البعثه العلمى والتبشيرى . فأصلح التقويم الصينى ، وصنع المدافع الممتازة للجيوش الصينية ، وغدا الصديق الحميم للامبراطور وموضع أكرامه ، ولبس الحرير المندرى ، وسكن قصرا ، وقامر بالسياسة ، ثم ألقى فى أحد السجون ، ومات بعد سنة من الافراج عنه .

وقد تكون بقية القصة ، التى اتصلت إلى القرن الثامن عشر ، باعث تسلية لمؤرخ فلسفى النزعة . ذلك أن اليسوعيين فى الصين كانوا بفضل تبحرهم فى العلم ، قد نفضوا عنهم تزمت اللاهوت . فحين درسوا آداب الصين الكلاسيكية تأثروا بما كشفوه فيها من حكمة سامية . وبدت لهم عبادة الصينيين لأسلافهم كأنها دافع رائع على الاستقرار الخلقى والاجتماعى ، وكان فى كونفوشيوس الكثير مما يبرر تبجيله . ولكن مرسلين

آخرين شكوا إلى محكمة تفتيش روما (١٦٤٥) من أن اليسوعيين يغضون من قدر الصليب وعقيدة الخلاص الإلهى لما قد يصدم الصينيين منهما إذ لا عهد لهم بفكرة البشر يقتلون إلها ، ومن أن اليسوعيين يتلون القداس بالصينية دون اللاتينية ، وأنهم أذنوا لمن نصروهم بأن يحتفظوا بكثير من شعائر دينهم القومى ، وأن المبعوثين اليسوعيين يقتنون المال لأنهم يعملون أطباء وجراحين وتجارا ومرابين ومشيرين للقواد والأباطرة . أما اليسوعيون فقد راعهم إصرار الدومنيكان والفرانسسكان على أن يقولوا للصينيين إن المسيحية هى الملاذ الوحيد من الهلاك الأبدى ، وأن الأسلاف الذين يعبدونهم إنما يصلون نار جهنم . وأمر أنوسنت العاشر اليسوعيين بحظر قرابين اللحم والشراب التى تقدم لظلال الأجداد . وكان الآباء اليسوعيون خلال ذلك يرسلون إلى أوربا أوصافا لحياة الصين ودوبنها وفكرها ، وهى الأوصاف التى قدر لها أن تشارك فى ازعاج السنية المسيحية فى القرن الثامن عشر .

وأما فى أمريكا الجنوبية فقد اكتسب المرسلون اليسوعيون احترام الوطنيين وثقتهم بفتحهم المدارس والمراكز الطبية ، وبذلهم الجهود الشاقة للتخفيف من وحشية السادة الأسبان . وقد صنفوا المعاجم وكتب النحو ، وارتادوا المجاهل الداخلية الخطرة ، ودفعوا الجغرافية دفعة هائلة . وأرسلوا إلى أوربا قشرة الشجرة البيروية التى أصبحت — فى هيئة الكينين — العقار الثابت لعلاج الملاريا . وفى براجواى أنشأوا مجتمعا مثاليا شيوعيا .

هنالك فى سهول الپامپز والغابات التى تحف بنهر أوروجواى ، وفوق الشلالات الخطرة التى ثبطت همة المستعمرين ، نظموا مستوطناتهم الهندية . وأذن لهم فيليب الثالث ملك أسبانيا فى أن يحظروا الإقامة فيها على جميع البيض فيما خلا اليسوعيين وحاكم المستعمرة . وقالوا إنهم وجدوا فى الأهالى براءة ومودة — ومائتا ألف من الهنود صالحون من جميع

الوجوه لملكوت الله . » (٤٩) . فتعلموا لغة الأهالى ولم يعلموهم الأسبانية ولا البرتغالية ، وثبطوا كل اتصال بالمستعمرين . واستمالوا الناس إلى المسيحية بالمحبة والرحمة والموسيقى . وأنشأوا المدارس لتعليم الموسيقى ، وألفوا الفرق الموسيقية التى تعزف على جميع الآلات الأوربية الهامة وتؤدى كل ألوان الألحان تقريبا ، حتى المختارات من الأوبرات الايطالية . وسرعان ما تعلم الأهالى أن ينشدوا أضخم ألحان الكورال . وقيل على التحقيق إنه فى فرقة من ألف صوت لم تسمع نغمة ناشزة واحدة . وكانت فرقة الموسيقى تتقدم الناس فى غدوهم ورواحهم ، وتصحب جهدهم فى المتاجر والحقول . واحتفل القوم بالأعياد المسيحية بالغناء والرقص والألعاب الرياضية ، وألف الآباء اليسوعيون المسرحيات الفكاهية وعلموا الرعية كيف يؤدونها .

ولقد هيمنوا على الاقتصاد كما هيمنوا على شئون الحكم . وأبدى الأهالى استعداداً ملحوظاً لمحاكاة المنتجات الأوربية ، حتى صناعة الساعات المعقدة ، والمخرمات الهفافة ، والآلات الموسيقية . وكان العمل إجبارياً ، ولكن للشباب الحرية فى اختيار حرفهم ، ويباح الفراغ اللازم للترفيه والتثقيف . أما يوم العمل فثمانى ساعات فى المتوسط . وحدد اليسوعيون ساعات العمل والنوم والصلاة واللعب . وكان جزء من الأرض يملكه الأفراد ، ولكن أكثرها ملك مشاع . ونتاج العمل الجماعى يسلم للحكومة ويفرز جزء منه للبذر أو لسنوات الجدب ، وجزء يؤدى فرضة رءوس لملك أسبانيا ، وأكثره يوزع على العشرين ألف أسرة كل حسب حاجته ، ومن المسلم به أن جزءاً كان يخصص ليعول ، على مستوى متواضع (٥٠) ، اليسوعيين المائة والخمسين الذين يعملون مديرين وملاحظين وأطباء ومعلمين وقساوسة . وقد حرم عليهم بمقتضى مرسوم ملكى اقترحه اليسوعيون أن يشاركوا فى أرباح الاقتصاد ، وطلب إليهم أن يقدموا حساباً دورياً لرئيسهم الإقليمى . أما القانون فيطبقه قضاة وشرطة من الوطنيين ، وأما العقوبات

فهى الجلد والسجن والنفى وليس فيها الإعدام . ولكل مستوطنة مستشفاها وكليتها وكنيستها ووسائلها للتيسير على الشيوخ أو العجزة . لقد كانت شيوعية دينية ، ينال فيها الوطنيون الرزق والأمن والسلام وقسطاً من الحياة الثقافية نظير قبولهم المسيحية والنظام .

من أين يا ترى استقى اليسوعيون فكرة هذا النظام العجيب ؟ ربما بعضها من « يوتوبيا » مور (١٥١٦) ، وبعضها من الأناجيل ، وبعضها من دستور جماعتهم التى كانت هى ذاتها أشبه بجزيرة شيوعية وسط بحر يدين بالفردية . أياً كان الأمر ، فقد أثبت النظام أنه محل حب الوطنيين لأنه أقيم على الإقناع دون ضغط ، وحافظ على كيانه ١٣٠ عاماً (تقريباً ١٦٢٠ — ١٧٥٠) ، وحين هوجم من الخارج دافع عن نفسه بحماسة أذهلت المهاجمين ، وكان مثار الإعجاب حتى من شكاك حركة التنوير الفرنسية . يقول دالمبير « أقام اليسوعيون بالدين سلطة ملكية (؟) فى برجواى ، لا تستند إلا على ما أوتوا من قوة فى الإقناع وترفق فى الحكم . وإذ كانوا السادة المتصرفين فى البلد فإنهم أسعدوا الشعب الذى حكموه . » أما فولتير فوصف هذه التجربة بأنها « انتصار للإنسانية »[٥١] .

وقد انتهى النظام بكارثة لأنه لم يستطع عزل نفسه عن العالم الخارجى فالتجار الأسبان نعوا على اليسوعيين اشتغالهم بالتجارة ، والمستعمرون الأسبان كرهوا أن يحال بينهم وبين منطقة تغرى باستغلال الموارد والبشر[٥٢] . وراحت عصابات خطف الرقيق تهاجم المستوطنات اليسوعية المرة بعد المرة ، وأخلى الآباء ورعاياهم الأقاليم الأكثر تعرضاً لغاراتهم . فلما أوغلت الغارات حصل اليسوعيون على إذن من ملك أسبانيا بتسليح الأهالى بأسلحة أوربية ، وبعدها أمكن مقاومة الغارات بنجاح . على أن خطراً أكبر على المستعمرة كان يكمن فى مجرى السياسة والفكر الأوربيين . ذلك أن الدسائس السياسية المستمرة التى تورط فيها اليسوعيون فى فرنسا وأسبانيا والبرتغال تضافرت مع نهضة الفكر الحر والعداء للاكليريكية لتفضى إلى طرد جماعة اليسوعيين

من جميع الأقطار تقريبا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . ونشط المركيز بومبال — وهو وزير حاكم فى البرتغال — نشاطاً ملحوظا فى حركة العداء لليسوعيين . ففى عام ١٧٥٠ رتب إبرام معاهدة بمقتضاها نزلت البرتغال لأسبانيا عن مستعمرة سكرمنتو ، على مصب ريو دلابلاتا ، لقاء أراض أسبانية أبعد منها شمالا — شملت سبع مستوطنات يسوعية تضم ثلاثين ألف هندى . وراجت خلال ذلك شائعة تزعم أن بهذه الأراضى ذهبا وأن اليسوعيين يختزنونه . وأمرت السلطات البرتغالية الآباء والأهالى بالرحيل عن المستوطنات السبع خلال ثلاثين يوما . أما اليسوعيون فأشاروا بالتسليم (كما توقع الناس) ، وأما الهنود فآثروا المقاومة ، وردوا الهجمات البرتغالية طوال سنوات خمس . ولكن فى عام ١٧٥٥ جلب الجيش البرتغالى المدفعية ، وذبح المئات من الهنود ، أما الباقون ففروا إلى الغابات أو استسلموا ، وأصدر الرؤساء اليسوعيون فى أوربا لمرءوسيهم الأمر بالعود، إلى أسبانيا . وهكذا اختتمت تجربة « المسيحية السعيدة » كما سماها موراتورى[٥٣] .

أما قصة المبعوثين اليسوعيين فى أمريكا الشمالية فهى أشهر ، ويكفى أن نلم بها إلمامة سريعة لنحيط بمجال النشاط اليسوعى فى هذه الحقبة . فقد دخلوا المكسيك عام ١٥٧٢ وشاركوا فى تحويل الوطنيين بسرعة إلى المسيحية ، ولكن عبء هذه المغامرة الأكبر وقع على كاهل الدومنيكان والفرانسسكان . وترك الفرنسسكان قافلة من البعثات والهيئات اللطيفة للرهبان « المتسولين » على طول الطريق من المكسيك إلى المدينة الفاتنة التى تحمل اسم مؤسس طريقتهم . ولقى كثير من اليسوعيين العذاب وأبشع الميتات فى محاولتهم ضم الهنود إلى حظيرة الكاثوليكية . من ذلك أن إسحاق يوجس شوه جسده واستعبد ثم قتل . أمان جان دربيبوف ، وجابرييل لالمانت ، وأنتونى دانيال ، وغيرهم من اليسوعيين ، فقد أحرقوا أو غلوا على النار خلال عامى ١٦٤٨ — ٤٩ . لقد نختلف مع هؤلاء الرجال على

اللاهوت الذى حاولوا بثه ، ولكن يجب أن نحترم إنسانيتهم وإخلاصهم ، ولو لمجرد كونهما النقيض المؤسف لقسوة المستعمرين والمسيحيين وجشعهم ، هؤلاء الصيادين الجلابين للرقيق ، الذين شكوا من أن نشاط المبشرين الإنسانى يحول دون تحضير الهنود .

٤ — أيام إيطاليا ولياليها

كتب مونتينى حين رأى أهل روما عام ١٥٨١ « إنهم يبدون أقل تديناً من أهل المدن الصالحة فى فرنسا ، ولكنهم أكثر ولعاً بالمراسم والطقوس.(٥٤) » وكانت احتفالات أسبوع الآلام تشمل مواكب من أفراد يجلدون أنفسهم حتى تسيل دماؤهم ، وإذاعة قرارات الحرم البابوى ، وعرضاً للقناع الذى مسحت به فيرونيكا العرق من جبين المسيح . « رأيت فى عشية القيامة بكنيسة القديس يوحنا لاتيران رأس القديسين بولس وبطرس ، المعروضين هناك ، والمحتفظين بلحمهما ، وجلدهما ، ولحيتهما ، كأنهما حيان (٥٥) » . وكان إخراج الأرواح النجسة يمارس بطقوس شديدة الوقع فى النفوس ، ربما كضرب من العلاج النفسى الجماعى . ولقد تجاهلت الكاثوليكية فى إيطاليا عن عمد عقول الصفوة من الناس وقدمت لجماهير الشعب ناموساً خلقياً خيراً ولكن غير مرحب به ، لف فى الشعر والدراما والرمزية والتنفيس والرجاء ؟

وشهد مونتينى بتحسن عام فى أخلاق الناس ، ولكن ما زالت العلاقات بين الجنسين يشوبها كثير من التراخى القديم . فقد بلغ من خلاعة المسرح الإيطالى سواء فى الحركة أو الحوار أن مجلس شيوخ البندقية طرد جميع الممثلين من أراضيه (١٥٧٧) (٥٦) مع أنه كان يغضى عن البغاء . وكان الأدب الفاجر يشترى فى أى مدينة كبيرة كما هى الحال اليوم فى أى مكان تقريباً من العالم المسيحى . وحين اعتبر البابا بيوس الخامس اللواط جريمة كبرى جزع للقرار شباب روما من النبلاء . وقد دخل ثمانية لواطيين

برتغاليين فى زواج رسمى ، فقبض عليهم وأحرقوا (٥٧) . كذلك أمر بيوس بطرد البغايا من الدويلات البابوية (١٥٦٦) . وشكا رجال الأعمال من أن المرسوم سيقفر المدينة،فأذن البابا لبعض المومسات بالبقاء فى حى معزول، وقدم المعونة الكبيرة للنساء اللاتى حاولن الانتقال إلى مهنة أحدث عمراً . أما سيكستوس الخامس ، ذلك الذى قهر قطاع الطرق ، فلم يصب غير انتصارات باهظة الثمن على الغانيات ، كما تشهد مراسيمه المتكررة فى ١٥٨٦ و ١٥٨٨ و ١٥٨٩ .

وإذ كان الحب الرومانسى لا يزال نزوة خارج الرباط الزوجى ، والزواج تزويج المال بالمال ، والطلاق محظوراً بأمر الكنيسة ، فقد انغمس الأزواج من أرباب الخيال فى الزنى . وفكر بيوس الخامس فى اعتبار الزنى جريمة كبرى . وقد ورد فى تقرير بتاريخ ٢٥ أغسطس ١٥٦٨ « إن التهديد بتقرير الإعدام عقوبة على الزنى أمر متوقع ، فإما أن يتمسك كل امرئ بالفضيلة أو يرحل عن المدينة. » على أن بيوس لان وقنع بعقوبات أخف : فصدر حكم على سيدة من أشراف روما بالسجن المؤبد ، وجلد مصرفى بارز بالسوط علانية ، ونفى الكثيرون من المذنبين غير هؤلاء .

وفى أواخر القرن السادس عشر دخلت عادة وصفاء الزوجات إلى إيطاليا من أسبانيا بطريق نابلى وميلان : فكان للزوج من علية القوم أن يأذن لصديق بأن يكون وصيفا (تابعاً شريفاً) لزوجته ، والظاهر أن هذه العادة نشأت فى أسبانيا إبان الحروب المتكررة وطول غياب الزوج عن بيته . وكان الوصيف الفارس يخدم السيدة النبيلة منذ استيقاظها حتى نومها، ولكن العرف لم يكن قد أغضى بعد عن الزنى الذى كثيراً ما رافق هذه العادة فى إيطالية القرن الثامن عشر .

أما الجريمة فقد أفرخت برغم المعوقات اللاهوتية . فكثر الفتاك فى بيوت النبلاء ، ورجال العصابات فى الطرق العامة ، والقراصنة فى البحر المتوسط ، والاغتيالات السياسية والغرامية . من ذلك أن باولو جوردانو

أورسيني خنق إيزابللا مديتشي في فراشها كما فعل عطيل بزوجته ؛ وقتل بييرو مديتشي زوجته لشبهة الزنى ، وقد رأينا كيف نقل جون وبستر عن قصة فيتوريا أكورامبوني الدامية روايته « الشيطان الأبيض » ، ومثل هذا سيفعله شلي مع بياتريتشي تشنتشي ، التي كان أبواها فرانشسكو تشنتشي مضرب المثل في الرذيلة والتوحش . وفي عام ١٥٩٤ حوكم بتهمة اللواط ، ولكنه أفلت بغرامة قدرها ١٠٠٫٠٠٠ سكودي . وماتت زوجته الأولى بعد أن ولدت له اثني عشر طفلا ، ثم تشاجر مع أبنائه ، فغادر روما مع بياتريتشي وزوجته الثانية لوكريتسيا بتروني ، وانتقل إلى قلعة منعزلة في الطريق إلى نابلي . هناك حبسهما في عليتين وعاملهما بمنتهى القسوة ، ولو أننا لا نملك دليلا على وجود علاقة محرمة بينه وبين ابنته . ووجدت بياتريتشي وسيلة للدخول في علاقة غير شرعية بينها وبين حارس القلعة . وبتحريض بياتريتشي ، وزوجة أبيها ، وشقيقيها جاكومو وبرناردو ، أو لقاء أجر دفعوه له ، قتل الحارس الأب في فراشه (١٥٩٨) ، مستعيناً بأحد القتلة المحترفين . وقبض على المتآمرين وحكموا ، فدفعوا بالاستفزاز الذي لا يحتمل ، وتقدم مواطنون كثيرون بطلب الرأفة إلى كلمنت الثامن ، ولكنه أبى . فقطع رأسا بياتريتشي ولوكريتسيا ، وعذب جاكومو حتى الموت(٥٨) .

ومع ذلك أخذت الأخلاق تنصلح ، وآداب السلوك ترق ، وكان للمجتمع الإيطالي مفاتن ولطائف لا يباريه فيها غير الفرنسيين . فاللباس عند الطبقات العليا بهاء ملون من المخمل والساتان والحرير . وحوالي هذه الفترة بدأت نساء النبلاء يؤطرن وجوههن ، ويكللن رءوسهن ، ويطرحن على أكتافهن الحرير الأسود « المانتيليا » وكان زياً فاشياً في أسبانيا . وظل وجهاء القوم يلبسون الجوارب الطويلة . أما العوام والتجار الذين ألفوا الزي التركي فأخذوا يعتادون لبس السراويل . وهزأت المسرحيات الفكاهية الإيطالية بهذه العادة في شخص « بانتاليوني » الهزلي المألوف ، الذي اشتق

منه لفظا « بانتالونز » و « بانتز » (فى الإنجليزية) .

أما الملاهى فكانت كثيرة كما هى الحال فى معظم الأقطار اللاتينية . فكان لروما كرنفالها السنوى قبل الصوم الكبير ، وكانت الشوراع كما شهدها إيفلين عام ١٦٤٥ « تعج بالبغايا والمهرجين والغوغاء من كل شكل و لون»[٥٩]. وكانت هناك سباقات فى الكورسو ، ترى فيها الجياد المغربية الفارهة ، لا يمتطيها فارس ولكن تدفعها مهاميز تتدلى على جوانبها ، وسباقات للحمير ، والجواميس ؛ والشيوخ ؛ والرجال العرايا ، والغلمان ، وكانت المسرحيات تمثل على مسارح متنقلة فى الهواء الطلق . وكانت فنون الرقص والحديث والغزل تزين البيوت والحدائق والشوارع . وهل كان هناك إيطالى يجهل الغناء ؟ .

٥ — مولد الأوبرا

لقد شارك الدين ، والحب ، والرقص ، والبلاط ، بل حتى العمل ، فى مولد الموسيقى . ووجد إيفلين أهل الريف الإيطالى «غاية فى المرح وإدمان الموسيقى ، وحتى الزراع كانوا كلهم تقريباً يعزفون على القيثارة . . . ويمضون عادة إلى الحقل ومعهم كمانهم[٦٠] » وكان لكل بلاط دوق فرقة مرتلين وقائد للعازفين فى الكنيسة ؛ وفى فيرارا أثار رباعى من النساء اشتهر باسم « فرقة موسيقى السيدات » الدموع فى عينى تاسو وأطلق قلمه بالقوافى . ونسجت أغانى الحب الشعرية شكاواها المتعددة الأصوات ، فجعلت التعبد للمرأة حتى زواجها موضع توقير يكاد يرقى إلى توقير الابتهالات الموجهة إلى والدة الإله . وانطلقت القداديس وصلوات المساء والألحان والتراتيل يصدح بها ألف أرغن . وحوالى عام ١٦٠٠ بدأت فرق من خصيان صغار تشنف آذان المصلين . ووصف زائر بروتستنتى موسيقى الكنيسة الكاثوليكية « التى يرتلها خصيان وأصوات أخرى نادرة ، تصحبهم الآلات الموسيقية ، كالعود والبيان القيثارى والفيول ؛ ترتيلا كاد

يذهب بألبابنا (٦١) ، ودرب الرهبان والراهبات فى فرق ترتيل تبعث الإيمان القويم حتى فى الصدور المتوحشه . واجتذب أندريا جبريلى ، وكلوديو ميرولو ، وجوفانى جبريلى (ابن أخى أندريا) على التوالى ألوف المستمعين إلى كنيسة القديس مرقس بالبندقية لينصتوا لعزفهم على الأرغن ولفرقهم الموسيقية ولفرق المرتلين التى يقودونها . وحين عزف جيرولامو فرسكوبالدى على الأرغن الكبير فى كنيسة القديس بطرس احتشد ما لا يقل عن ثلاثين ألفاً فى الكنيسة أو من حولها ليستمعوا لعزفه . وقد أثرت ألحانه المنوعه ، المعقدة بتجاربها العويصة ، فى دومنيكو سكارلاتى ، ومهدت للتطورات الهارمونية التى جاء بها يوهان سباستيان باخ .

وكانت الآلات الموسيقية متنوعة تنوعها اليوم تقريباً . وحوالى منتصف القرن السادس عشر بدأ الكمان ، المتطور عن القيثارة ، يحل محل الفيول . وكانت بريشيا مقر أول صانعين من صناع الكمان العظام ، وهما جاسبارو داسالو وتلميذه جوفانى ماجينى . ويلوح أن أندريا أماتى أخذ الفن عنهما وحمله إلى كريمونا ؛ حيث أسلمه أبناؤه إلى آل جوارنيرى وآل ستراديفارى . وقد لقيت الآلة الجديدة مقاومة من أولئك الذين آثروا أنغام الفيول الأكثر نعومة ورقة . وقامت المنافسة بين الفيول والعود والكمان قرناً من الزمان . ولكن حين وجد آل أماتى الوسائل للتخفيف من حدة صوت الكمان ارتقت الآلة الجديدة إلى مقام الصدارة غير منازع ، يعينها عليه ازدياد غلبة أصوات السوبرانو فى الموسيقى الصوتية .

كانت الألحان لا تزال توضع للصوت أكثر منها للآلة . وإلى هذه الفترة تنتمى شخصية شاعرية هى شخصية كارلو جزوالدو ، أمير فينوزا ، الذى زين النبالة بالموسيقى ؛ والقتل بالأغانى الشعرية . ولد فى نابلى (حوالى ١٥٦٠) وأصبح عازف عود ممتازاً ، وتزوج سيدة عريقة المولد ؛ ودبر قتلها هى وعشيقها لشبهة الزنى ؛ ثم هرب إلى فيرارا ، وتزوج دونا اليونورا ديستى ؛ ونشر خمسة كتب من أغانى الغزل تنقلت أنغامها

الجرئية وانتقالات طبقاتها الحادة من قوالب النهضة إلى قوالب الأصوات المتعددة الحديثة . وفى فبراير ١٦٠٠ أخرج إميليو دى كافاليرى ، فى مصلى القديس فيليب نيرى بروما ، قصة رمزية شبه مسرحية ، الحركة فيها للرمز فقط ؛ ولكن يصاحبها الأوركسترا والرقص والخورس والمغنون المنفردون. هـذه الموشحة الدينية « الأوراتوريو الأولى » ، سبقت أوبرا بيرى المسماة « أوريدينشى » بثمانية شهور لا أكثر ، وشابهتها من وجوه كثيرة . وبعد مرور جيل آخر ألف جاكومو كاريسيمى أوراتوريوات وكنتاتات أثرت تراتيلها الفردية فى تطور الإلقاء الأوبرى الملحون .

والتقت خطوط كثيرة أخرى من التطور الموسيقى لتخرج لنا الأوبرا . فبعض « التمثيليات المقدسة » التى خلفتها العصور الوسطى أضافت الموسيقى والغناء إلى الحركة . ففى هذه ، وفى موسيقاها المعبرة عن آلام المسيح ، كانت الكنيسة أما للأوبرا أو حاضنة لها كما كان شأنها فى كثير من الفنون الأخرى . فقد كانت المقاطع الملحونة المصحوبة بالموسيقى تسمع فى القصور أواخر العصور الوسطى . وذكر علماء النهضة أن قطعاً من المآسى اليونانية كانت تغنى أو ترتل بمصاحبة الموسيقى . وفى بلاط مانتوا ، عام ١٤٧٢ ؛ جمع إنجيليو بولتسيانو بين الموسيقى والدراما فى مسرحيته القصيرة «فافولا دى أورفينو»(خرافة أورفينو) ، وبدأت هذه الأسطورة الحزينة تشق الآن طريقها الطويل إلى الأوبرا . كذلك شقت مسرحية الأقنعة « الماسك » التى اشتد الإقبال عليها فى قصور القرن السادس عشر طريقاً آخر إلى الأوبرا ؛ ولعل الباليه ، والمشاهد المسرحية المترفة ، والملابس الفخمة التى نراها فى الأوبرا الحديثة ، منحدرة من الرقص والمواكب والثياب الفاخرة التى غلبت على الحركة فى مسرحيات الأقنعة أيام النهضة .

وفى أخريات القرن السادس عشر اقترح فريق من المتحمسين للموسيقى والأدب التقوا فى بيت جوفانى باردى بفلورنسة أن يحيوا مسرحية اليونان الموسيقية بتحرير الأغنية من تعدد الأصوات الشديد ومن لغة القصائد

الغزلية المغرّقة المكتومة، وردها إلى ما كانوا يعتقدونه أسلوب المأساة القديمة الفردى (المونودى) . فقام أحدهم وهو فنشنزو جاليلى ، أبو الفلكى ، بتأليف موسيقى مونودية لأجزاء من جحيم دانتى . ووضع عضوان آخران من الجماعة ، هما الشاعر اوتافيو رينوتشينى والمغنى ياكوبو بيرى ، النص والموسيقى لما يمكن أن نعده أول أوبرا واسمها « دافنى » ، وقد أخرجت فى بيت ياكوبو كورسى فى ١٥٩٧[٦٢] . وقوبل الأداء بالاستحسان الكبير حتى أن رينوتشينى دعى إلى وضع الكلمات للحن أهم ، وبيرى وجوليو كاتشينى إلى تأليف موسيقى اللحن ، وذلك احتفالا بزفاف هنرى الرابع وماريا دى مديتشى بفلورنسة (٦ أكتوبر ١٦٠٠) . و « الأوريديتشى » التى مثلت هناك هى أقدم الأوبرات الباقية على قيد الحياة . وقد اعتذر بيرى عن عيوب هذا العمل المستعجل ،راجيا « أن أكون قد فتحت الطريق لموهبة غيرى من المؤلفين ، ليتأثروا خطاى نحو هذا المجد الذى لم يتح لى بلوغه[٦٣] » .

هذا المجد بلغه أحد الفحول فى تاريخ الموسيقى ، وهو كلوديو مونتيفردى . حذق العزف على الكمان فى مسقط رأسه كريمونا ، حتى أنه عين عازفا للكمان فى قصر دوق مانتوا وهو لا يتجاوز الثانية والعشرين (١٥٨٩) ، وفى الخامسة والثلاثين أصبح قائد فرقة المرتلين فى الكنيسة . وقد ندد النقاد تنديدا شديدا بكتبه الخمسة فى الأغانى الشعرية (١٥٨٧ — ١٦٠٥) لما أخلوه عليها من تنافر شديد ، و « نقلات شديدة التحرر » ، ومتواليات هارمونية « غير قانونية » ، وخروج على قواعد مزج الألحان (الكونتر بنط) . كتب جوفانى أرتوزى فى « مثالب الموسيقى الحديثة » (١٦٠٠ — ٣) يقول « هؤلاء الملحنون المحدثون يحلو لهم فيما يبدو أن يخرجوا أعظم ما يستطيعون من ضوضاء بالجمع بين عناصر لا رابط بينها اطلاقا ومجموعات متعاظمة من الأنغام المتنافرة[٦٤] » .

ووجه مونتيفردى محاولاته المتهورة إلى الشكل الجديد الذى سمعه فى

فلورنسة ، فأخرج فى مانتوا أول أوبرا من تلحينه ، وهى « أورفيو » أخرى (١٦٠٧) يشارك فى عزفها أوركسترا من ستة وثلاثين عازفا . وسجلت الموسيقى والحركة فى هـذه الأوبرا تقـدما عظيما على أوبرا « أوريديتشى » لبيرى . وفى الأوبرا الثانية التى لحنها مونتيفردى ، واسمها « أريانا » (١٦٠٨) كانت الحركة أشد مسرحية والموسيقى أكثر استهواء للسامعين . وبدأت إيطاليا كلها تردد عويل أريادنى التى هجرها حبيبها « دعونى أمت » ، وفى توسيع مونتيفردى للأوركسترا وإعادة تنظيمه ، وفى تمييزه المتكرر لكل شخصية بلحن خاص ، وفى افتتاحياته (سنفونياته) التى استهل بها أوبراته ، وفى تجويده للموسيقى الصوتية والألحان ، وفى جمعه الحميم ، المعقد ، بين الموسيقى والدراما ، فى هذا كله سجل من التقدم الحاسم فى الأوبرا ما كان يفعله معاصره شكسبير فى المسرح .

وانتقل مونتيفردى فى ١٦١٢ إلى البندقية قائدا للمرتلين بكنيسة القديس مرقس . ولحن مزيدا من الأغانى الشعرية ، ولكنه غير من هـذا اللون الآخذ فى الانحلال مسرفا فى العنصر الالقائى اسرافا حدا بالنقاد إلى اتهامه بأنه يخضع الموسيقى للدراما (على نحو ما سيتهم به برنينى من اخضاع النحت للدراما) ، ومما لا ريب فيه أن أوبرا مونتيفردى — ككل أوبرا تقريبا — ضرب « من الباروك » الموسيقى . وافتتحت البندقية أول دار عامة للأوبرا « تياترو دى سان كاسيانو » ، وفيها استمر عرض أوبرا مونتيفردى « أدونى » من عام ١٦٣٩ إلى كرنفال ١٦٤٠ ، بينما كانت أوبرا أخرى له تسمى « أريانا » تشغل مسرحا آخر بين الحين والحين . فلما أخرج آخر أوبراته « تتويج البابا » (١٦٤٢) اغتبطت إيطاليا لأنها رأت أنه ما زال فى عنفوانه رغم بلوغه الخامسة والسبعين (شأن فردى الذى اخرج « عطيل » وهو فى الرابعة والسبعين) . وبعد عام مات تاركا دنيا الموسيقى بعد أن ألهمتها وجددت شبابها ثورته الخلاقة .

٦ — الآداب

يدهش المرء حين يرى إيطاليا جياشة بالعبقرية فى كل ميدان ، حتى فى فترة الاضمحلال المزعوم هذه . لقـد كان عصراً مثمراً فى الأدب الإيطالى كما وتوقدا ، ولا يحول بيننا وبين انصافه هنا سوى الافتقار إلى الوقت والحيز والمعرفة .

كان طبيعياً أن يضمحل العلم الإيطالى بعد ما لحق الهام النهضة من كلال ؛ فما كان فى الإمكان أن يمضى الناس فى الكشف من جـديد عن اليونان والرومان إلى ما شاء الله . لذلك ترك الاهتمام بالآداب إلى الأكاديميات الأدبية ، التى كانت محافظة بحكم نظامها . وكان لكل مدينة تقريباً فى إيطاليا معهد أو جماعة منقطعة لبث الآداب وتبادل الشعر فى سماحة . وقد سبقت أكاديمية كروسكا (أى الهشيم) التى أنشئت بفلورنسة عام ١٥٧٢ ، الأكاديمية الفرنسية إذ صنفت قاموساً للغة (١٦١٢ وما بعدها) وحاولت تنظيم الأسلوب والذوق الأدبيين .

أما المؤرخون الإيطاليون فكانوا خيرة مؤرخى العصر . وقد رأينا كتاب ساربى النارى « تاريخ مجمع ترنت » . كذلك أخرج الكردينال جويدو بنتيفوليو تاريخاً للثورة فى الأراضى المنخفضة مشرباً بروح التعاطف الشديد . وكان من الجائز أن ينتج المزيد ، لولا أنه مات فى مجمع الكرادلة فى اللحظة التى بدا اختياره للبابوية قاب قوسين . وقد أفضى إلى موته ، كما يقول نيكيوس اريتراوس ، شخير كردينال فى الحجرة المجاورة حرمه النوم إحدى عشرة ليلية متعاقبة(٦٥). ومؤرخ آخر هو الكردينال شيزارى بارونيوس صنف تاريخاً ضخماً للكنيسة (الحوليات الكنسية ١٥٨٨ — ١٦٠٧) يقع فى اثنى عشر مجلداً من القطع الكبير زاده العلماء بعد ذلك إلى ثمانية عشر . وكان حكم رانكيه عليها أنها عاطلة من التشويق(٦٦) ، ولكن جيبون وجد فيها عونا له ، وقد بذل الكردينال جهداً مشكوراً

ليكون منصفاً ، فقال « سأشعر بالحب الصادق للرجل الذى يصحح أخطائى بكل صرامة وقسوة[٦٧] » ، وتكفل إسحاق كازوبن بهذه المهمة ، ولكنه أقلع عنها بعد أن كتب مقدمة ناقصة فى ثمانمائة صفحة من القطع الكبير .

وأما المسرح فقد زكا ، ولكن الدراما اضمحلت . فقل من التمثيليات الباقية الذكر ما ألف ، ولكن كثر ما أخرج منها ، وأخرج بسخاء فى المناظر وبراعة فى التمثيل جعلت اينيجو جونز يعجب ويتعلم . واشتد الطلب على الممثلين الإيطاليين فى القارة طولا وعرضاً . وبينما كانت أدوار النساء يقوم بها الغلمان فى المسرح الإنجليزى ، كانت النساء يؤدينها فى إيطاليا . كان الناس يعبدون الممثلات ؛ وقد كتب تاسو سونيتة لأيزابللا أندرينى ، التى لم تكن ممثلة جميلة فحسب ، بل شاعرة لا بأس بها وزوجة فاضلة كذلك .

وتطالعنا فى هذا العصر تمثيليتان ممتازتان ؛ من جهة لأنهما أرستا لوناً جديداً على المسرح — وهو الدراما الرعوية . وقد أعطاها تاسو دفعة بتمثيليته « أمينتا » (١٥٧٣) ، أما جوفانى باتيستا جوارينى فقد أخرج مثلها الكلاسيكى فى درامته « الباستور فيدو » (الراعى الوفى) (١٥٨٥) . قال تاسو « إذا لم يكن قرأ أمينتا فهو لم يبزها[٦٨] » وقد وبخه الكردينال بللارمينى لما فى التمثلية من إباحية ، وقال إنها ألحقت بالعالم المسيحى من الضرر فوق ما ألحقته كل هرطقات لوثر وكلفن ؛ على أن البحث الدءوب لم يعثر على منظر أكثر وقاحة من منظر كورسيكا الجميلة وهى تقدم «تفاحتى» صدرها لسيلفيو الذى لا يقدرهما ، وهو صياد « يفرح بحيوان واحد يصيده . . . أكثر من فرحته بكل حوريات البحر[٦٩] » وإذا استثنينا سيلفيو هذا وجدنا فى المسرحية — كشكل شعر هذه الفترة الإيطالى تقريباً — حرارة فى الحس تصهر الحياة كلها فى الحب . وتتجلى الحركة فى ضرب من « الأركاديا » الرعوية ، فى ذلك « العصر الذهبى الجميل ، حين كان اللبن غذاء الناس الأوحد » ، فلا رذيلة ، ولا حزن يلوث الإنسان ، أما

الحب فخلو من كل لوم وقيد[٧٠] . وتضافرت « أمينتا » ودرامة « الراعي الوفي » هذه ، وتمثيلية مونتمايور « ديانا العاشقة » ، وتمثيلية سدني « أركاديا » وتمثيليه فلتشر « الراعية الوفية » لتطلق نصف جمهور القراء الأوربيين ليسرحوا في المراعي .

وقد عدّ كرستشمبيني من ناظمي السونيتة ٦٦١ في إيطاليا لم يعبهم العثور على قواف رنانة لقصائدهم المغايرة قليـــلا لسونيتات بترارك[٧١] . ومن أروع سونيتات العصر ما كتبه كامبانللا وبرونو ، وكأنه شرار نفثته نار فلسفتهما . وقد هجا الساندرو تاسوني كتاب السونيته وعشاق بترارك وماريني وتاسو في قصيدة من عيون الشعر الإيطالي تدعى « الدلو المسروق » . وأبى الناشرون أن ينشروها لأن ضحيتها كان نبيلا ذا سطوة ، ولكن الطلب عليها اشتد حتى لقـــد أثرى النساخ بنسخها وبيعها بسعر ثمانية كراونات للمخطوطة ، وأخيراً طبعت في فرنسا وهربت إلى إيطاليا . ولم يفتتن القراء الإيطاليون بما في تعليقاتها اللاذعة من ذكاء وحدة فحسب ، بل بفواصل من الشعر المصفى تخللت ذلك المرح الصاخب — قصة غرام أنديميون مروية جنباً إلى جنب تقريباً مع صورة لعضو في مجلس الشيوخ يسافر إلى الجنة على كرسي مرحاض .

ولم يبز تاسوني فيما حظي به من استحسان في هذه الحقبة سوى شاعرين إيطاليين — هما تاسو وجوفاني باتيستا ماريني . أما جيوفاني فقد ولد في نابلي ونشئ ليكون محامياً ، ولكنه هجر المرافعات إلى القوافي ، واستمتع حيناً بحياة التشرد . ثم منحه المركيز مانسو حجرة في قصره مغتفراً له إباحية شعره الغنائي ، وهناك استطاع الفتى أن يشهد ، على بعد خاشع ، تاسو المحزون المشرف على الفناء . ثم ألقي به السجن لأنه ساعد صديقاً على خطف فتاة ، ولما أفرج عنه مضى إلى روما ، حيث عينه الكردينال السمح بيترو ألدوبراندينو سكرتيراً خاصاً له . ثم اصطحبه الكردينال إلى تورين وهناك أخذه منه شارل إمانويل دوق سافوا . وراح ماريني يرشف حيناً ما في حياة البلاط من خمر وخل .

وتهكم بشاعر منافس يدعى جسبارو مورتولا ، كمن له فى الطريق ، وأطلق عليه النار ، ولكنه أخطأ وأصاب خادماً من خدم الدوق . وحكم على مورتولا بالإعدام ، ولكن مارينى حصل له على العفو ، وناله أشد النكران من غريمه . وبعد أن سجن مارينى عقاباً له على هجائيات موجهة ضد أصحابها توجيها مكشوفاً ، قبل دعوة من مارى مديتشى ليكون زينة بلاطها فى باريس (١٦١٥) . ورحب به الإيطاليون فى حاشيتها باعتباره الصوت المعبر عنهم فى فرنسا ، وكان محل الإعجاب الشديد ، وتلقى وظائف شرفية دسمة ، وأجزل له النبلاء والنبيلات المال تمناً لنسخ من ملحمته « أدونى » قبل نشرها. ووجدت نسخة منها طريقها إلى الكردينال بنتيفوليو ، فناشد مارينى أن ينقى القصيدة من فقراتها الفاجرة ، ولا ندرى إلى أى حد حاول المؤلف ذلك . ونشرت أدونى بباريس فى ١٦٢٣ ، وأدرجت فى قائمة الكتب التى تحرمها الكنيسة ، وأصبحت البدعة الفاشية فى إيطاليا والموضوع الذى تلوكه الألسن . وحين عاد مارينى إلى نابلى (١٦٢٤) ، رمى قطاع الطرق عربته بالورد ، وخرج النبلاء لمرافقته ، وهفت الحسان إليه من شرفاتهن . ولم يمض عليه عام حتى مات غير متجاوز الثانية والخمسين وقد بلغ ذرى الثروة والشهرة .

أما أدونى هذه فقصيدة من عيون الشعر حتى فى بلد يكاد الشعر أن يكون فيه كالغناء سجية وطبعاً . وطولها يوقفنا — ألف صفحة بها ٤٥,٠٠٠ بيت . أما أسلوبها فيستغرق فى كل ألاعيب الكلام التى أطربت لايلى فى إنجلترة ، وجويفارا وجونجورا فى أسبانيا، وبعض « متحذلقات » الأوتيل درامبوييه فى فرنسا ؛ لقد كان التأنق اللفظى جزءاً من وباء أوربى . وكان لهذا الإيطالى الماهر غرام بالألفاظ يكاد يكون شهوانياً ، فراح يقذف بها فى مفارقات رنانة ، وأخيلة غريبة ، وإطنابات بارعة ، بل فى نكت وتوريات رشيقة . ولكن الجمهور الإيطالى فى القرن السادس عشر ، بما طبع عليه من تدفق بالحديث الحار ، لم يسوءه هذا الولع بحيل الألفاظ وألاعيبها .

وأى بأس بهذه الألاعيب اللفظية فى عصر كان أنشودة تسبيح للجنس فى شتى صوره — العادى منه والوحشى ، والشــاذ ، والحرام ؟ هنا رويت أساطير هيلاس الغرامية فى رقة وظرف ، هنا يلهو مارس وفولكان مع أفروديت ، وهنا زيوس يغوى جانيميد ، ومفاتن جسم الرجل هى حديث القوم السائر ، وحاسة اللمس يشاد بها لأنها المصدر المدهش لألذّ مباهج الإنسان . هنا تتغزل النساء والرجال والوحوش فى أدونيس البطل الذى حبته الآلهة حسن الصبايا كله ، وتتودد إليه فينوس بحيلها الناعمة ، ويحاول زعيم عصابة أن يجعل منه محظيته ، وينتهى أمر الفتى المحبوب حباً يوقفه موقف العاجز ، بأن يجرح فى أصل فخذه جرحاً مميتاً أصابه به خنزير برى مدفوعاً بأحرّ النيات الغرامية . ترى هل كان هــذا التركيز المخنث على الجنس تفريجاً وملاذاً من الغلو فى الدين والإفراط فى تسلط الأسبان ؟

٧ — تاســو

توافر لتوركواتو تاسو الكثير من المغريات بالشعر . ولد فى سورنتو (١٥٤٤) حيث البحر ملحمة ، والسماء أغنية ، وكل ربوة من الأرض أنشودة . وكان أبوه برناردو شاعراً ، وموظفاً فى البلاط ، وإنساناً مرهف الحس مشبوب العاطفة ، تآمر على الحاكم الأسبانى ، ونفى فى مملكة نابلى (١٥٥١) ، وجاب الأرض من بلاط إلى بلاط تاركاً وراءه زوجته وولده فى عوز وضنك . وتنتمى أمه بورنسيا دى روسى إلى أسرة توسكانية عريقة تجرى الثقافة فى عروقها . ودرس الصبى ثلاث سنوات فى مدرسة لليسوعيين بنابلى ، فشرب اللاتينية واليونانية فى جرعات تحطم الأعصاب ، ودرب على التقوى العميقة التى أثارت فيه الرجفة اللاهوتية تارة ، ووهبته الســلام الذى يجل عن الوصف تارة أخرى . وفى العاشرة لحق بأبيه فى روما ، وتركه موت أمه بعد عامين شديد التأثر طويل الحسرة . ثم رافق أباه إلى أوربينو والبندقية ، وهناك نشر برناردو قصــيدته « أماديجى » (١٥٦٠) التى حكى فيها بالشعر قصة غرام من العصر الوسيط .

وكان توركواتو نفسه يجيش الآن بالشعر . أرسل إلى بادوا ليدرس القانون ، ولكن قدوة أبيه كانت أقوى من مبادئه ، فأهمل الفتى درس الشرائع وراح ينظم القوافى ، وكان منذ أمد بعيد قد وقع أسيراً لسحر فيرجل . فعزم الآن على أن يطبق الأسلوب المانتوى الرفيع الجاد على أساطير الفروسية التى عالجها أريوستو علاج المازح العابث . وهكذا فاجأ أباه برواية فى اثنى عشر قسما تسمى « رينالدو » . وكان شعور برناردو مزيجاً من الحزن والابتهاج ، فقد تكشف له ما سيلقاه من صروف الأيام شاعر لا يملك غير عبقريته ، ولكنه طرب لرؤية ولده الذى لم يجاوز الثامنة عشر ربيعاً ينافس أشعر شعراء العصر رقة وخيالا . ونشرت الملحمة الصغيرة بأمزه (١٥٦٢) . واغتبطت نفسه بما لقيت من استحسان ، فأذن لتوركواتو بأن يهجر دراسة القانون فى بادوا ويستبدل بها الفلسفة والأدب فى بولونيا . وهناك أثارت موهبة الفتى المتاعب ، لأنه كتب « الأبجرامات » اللاذعة فى مدرسيه ، فهددوه برفع دعوى القذف ضده ، وعاد من فوره إلى بادوا .

واقنع برناردو الكردينال لويجى دستى ، أخا الدوق الفونسو الثانى أمير فيرارا ، بأن يستخدم توركواتو سكرتيراً له (١٥٦٥) . والتحق الشاعر مغتبطاً بهذا البلاط الذى كان يعد يومها أينع زهرة فى بستان الثقافة الإيطالية . هناك ألفى مجتمعاً يزخر بالموسيقى والرقص والأدب والفن والدسائس والحب . وافتتن تاسو بأختين للكردينال ، لوكريتسيا المتغطرسة الجميلة بنت الواحدة والثلاثين ، وليونورا ، بنت التسعة والعشرين ، المعاولة التقية التى جعلتها مشاجراتها مع الفونسو معبودة البلاط . وتروى الأساطير (كما نقرؤها فى مسرحية جوته وفى قصيدة بايرون « عويل تاسو ») عن الشاعر وقوعه فى غرام ليونورا ، وما من شك فى أنه طارحها القصائد المشبوبة كما اقتضى العرف ، وفى أن السيدتين قبلتاه فى صداقة طوقت بهالة النبالة ، ولكن أحداهما كانت تكبره بأحد عشر عاماً ، والأخرى بتسعة أعوام ، ويبدو

أن واحدة منهما لم تمنحه شيئاً أدفأ من أذنيها . ولم يتزوج تاسو قط ، إذ لم يكن فى وسعه أن يعشق إلا أميرات ، أما الأميرات فلم يكن فى وسعهن الزواج إلا من ذوى اليسار . ولعله خشى مطالب الزواج وقيوده ، فقد جمع بين ضعف الثقة فى قدراته ، والتيه بشعره .

وفى عام ١٥٦٩ مات أبوه وهو لا يملك شروى نقير ، واضطر تاسو إلى الاستدانة ليدفنه . وبعد عام اصطحبه الكردينال دستى إلى باريس ، فجزع حين وجد شارل التاسع يخالط زعماء الهيجونوت فى لطف وود ، وجاهر بنقد الحكومة على انسجامها مع المهرطقين . أما الكردينال الحريص على رضاء الملك فقد رد سكرتيره المتعب إلى إيطاليا . ولم يغتفر له تاسو هذه الفعلة قط .

وعزّى ألفونسو الشاعر بأن ألحقه ببيته وأجرى عليه معاشاً سنوياً دون أن يحمله من المسئوليات شيئاً غير أن يهدى الدوق الملحمة التى عرف أنه يكتبها عن الحرب الصليبية الأولى . تلك كانت سنوات سعيدة بالقياس إلى غيرها . فنى صيف عام ١٥٧٣ أنجز فى البلاط درامته الرعوية « أمينتا » ، وقد أثلج صدره ما لقيت من نجاح . فسادة فيرارا وسيداتها الذين كانوا يعيشون على استغلال الفلاحين انتشوا حين رأوا نعيم الريفيين — على المسرح . وأطربت كل وجهاء البلاط صورة العصر الذهبى الذى كانت فيه كل الأشياء السارة حلالا وخيراً :

لك الله أيها العصر الذهبى الجميل !
لست جميلا لأن أنهارك كانت تفيض لبناً ،
ولا لأن أشجارك كانت تقطر مناً ،
بل لأن ذلك الألم الكاذب الذى خلقناه لأنفسنا ،
وصنم الخطيئة ، ذلك المحتال المعبود ،
وذلك الشرف — الذى سمته كذلك عقول العوام المرتاعة — ،
لم يكن قد استبدّ بطبيعتنا بعد ،

لم يكن قد جاء ليكدر صفو الحظيرة الحلوة السعيدة ،
حظيرة البشرية الوادعة ،
ولا قيد ناموسه القاسي نفوساً ربيت على الحرية ،
بل كان هناك قانون جميـل ،
قانون ذهبي سـعيد ،
خطتـه يد الطبيعة :
« كل لذيذ حـلال » (٧٣)

ولكن جرأة الروح غير المعهودة فيه فارقته حين وجد نفسه ينهى ملحمته « أورشليم المحررة » (١٥٧٤) . لقد كان هذا الجهد ذروة جهود حياته ، فلو أنه باء بالفشل ، أو لو أن الكنيسة أدانته بالإباحية أو الهرطقة لودع السعادة إلى الأبد . وفي رهبة وخوف بعث بمخطوطته إلى سبعة نقاد مستفتياً في حبكة القصيدة وشخوصها ولغتها وآدابها . وقد بلغ نقدهم لها من الكثرة ما جعله يلقي القصيدة جانباً لأنه لم يعرف كيف يرضيهم جميعاً . فظلت محبوسة عن النشر خمس سنوات . إنه وهو عليم بأنه كتب رائعة اشتط في مطالبه من النقاد ومن الحياة . وقد اعترف بأنه « لم يطق العيش في مدينة لا يخلى نبلاؤها مكان الصـدارة له ، أو على الأقل يسوون بينه وبينهم مساواة مطلقة » . ولا ريب أنه كان يستحق هذه المساواة ، ولكنه أضاف أنه « كان يتوقع أن يعبده الأصدقاء ، ويخدمه الخدم ، ويعانقه أهل البيت ، ويكرمه السادة ، ويحتفل بذكره الشعراء ، ويشير إليه الجميع بأصابعهم.»(٧٤) وكثرت في فيرارا فئة تنقد شعره ، وخلقـه ، ودعاواه . فبدأ يحلم بمكان ألين في قصور ألطف وأرق .

كانت المنغصات البدنية والنفسية قد هزت أعصابه : حمى الملاريا ، ونوبات الصداع المتكررة ، والصدمات المتراكمة إثر نفي أبيه ، وموت أمه ، وإملاق أبيه وهو مشرف على الموت ، يضاف إلى هذا كله أن الشكوك اللاهوتية التي ساورته — شكوك الجحيم والخلود ، وألوهية المسيح — ألقت على عقله ظلا ثقيلا من الاحساس بالإثم ودفعته إلى الاكثار من

الاعتراف وتناول الأسرار[٧٥] . وقد وقر فى نفسه أنه مارس قوة السحر الأسود (أى الشيطانى) ، وتراءت له الرؤى المرعبة عن الدينونة الأخيرة ، وشهد الله يسوق الهالكين إلى النار الأبدية [٧٦] . وانتابته أوهام الاضطهاد — فخامرته الظنون فى افشاء الخدم لأسراره ، واعتقد أن أمره أبلغ لمحكمة التفتيش ، وتوقع كل يوم أن يدس له السم . لقد كان ضيفا عسير الارضاء[٧٧] .

ولكن الفونسو ترفق به ؛ ذلك أن أروع قصائد العصر — برغم كل شىء — أهديت إليه وأفردت نصف قسم منها (السابع عشر) للأشادة بنسبه . فأعفى الشاعر من الحضور إلى البلاط ، وأرسله إلى فيللا بلريجواردو اللطيفة ليعينه على التغيير والسكينة . ولكن صبره نفد حين وجد أن تاسو يتفاوض خفية مع فرانشسكو مديتشى — أقوى منافسى الفونسو وأعدى أعدائه — ليقبله متقاعدا بمعاش فى بلاط فلورنسة . وفى نوفمبر ١٥٧٥ غادر الشاعر فيرارا زاعما أنه ذاهب إلى روما لينال غفران اليوبيل . ومضى إليها ، ولكنه عرج على فلورنسة مرتين فى الطريق . على أنه لم يقع من نفس الدوق الكبير موقعا حسنا ، وكتب فرانشسكو إلى صديق له (٤ فبراير ١٥٧٦) يقول « لست أدرى هل أدعوه إنسانا مجنونا أم ذكيا مسليا » ؛ وبعد عام قرر أنه « ليس فى حاجة إلى وجود رجل مجنون فى بلاطه » [٧٨] وقفل تاسو إلى فيرارا كسير الخاطر محزونا .

وطلب إلى الفونسو أن يعينه فى وظيفة المؤرخ الرسمى للبلاط ، فنال الوظيفة . وفى يناير ١٥٧٧ مثل أمام محكمة التفتيش فى بولونيا واعترف بأنه ارتاب آثما فى العقيدة الكاثوليكية ، وأعادته المحكمة بكلمات من المواساة والتشجيع . وفى يونيو من ذلك العـــام ، بينما كان فى مسكن لوكريتسيا دستى ، شهر سكينه على خادم أثار شبهته . فأمر الفونسو بحبس الشاعر فى حجرة بالقلعة ، ولكنه أفرج عنه بعد قليل وأخذه إلى بلريجواردو . كتب تاسو يقول ان الدوق عامله « وكأنه أخ له لا أمير عليه »[٧٩] . وطلب

الشاعر أن يرسل إلى دير القديس فرنسيس ، فأمر الفونسو بارساله إليه ، وأوصى بأن يعطى مسهلا . وخضع تاسو ، ولكن ثائرته ثارت في الدير ، فاتهم الرهبان بأنهم يغشون نبيذه ، وطلب الرهبان اعفاءهم من وجوده . فرد إلى قلعة الدوق ووضع تحت الحراسة . ولكنه هرب متخفيا فى ثوب فلاح ، وضرب فى الأرض سيرا على قدميه وحيدا عبر الأبنين حتى بلغ بيت أخته كورنيليا فى سورنتو . فاستقبلته بحنان مشرب بالمحبة .

وكان ممكنا أن يظفر بشيء من صفاء الذهن والسعادة هناك لولا قلقه على مصير القصيدة العظيمة التي ما زالت محبوسة عن النشر والتي خلفها وراءه فى فيرارا ، ولعله بعد أن طال إلفه لحياة القصور افتقد أسباب الراحة التي صاحبت شدائده ، فذهب إلى روما ورجا سفير فيرارا أن يتشفع له عند الفونسو . وأرسل الدوق مالا للعناية به ووافق على عودته شريطة أن يتعهد بالتزام الهدوء والخضوع للعلاج الطبي . وحين وصل إلى فيرارا (١٥٧٨) أعطى مسكنا خاصا خارج القصر ، وزود بخادم ، ووافوه بالطعام من مائدة الدوق . وقبل تاسو المسكنات والمسهلات طائعا ، وواصل كتابة الشعر الرائع . ولكنه كان يأمل فى العودة إلى مكان الحظوة فى البلاط ، فوجد بدلا من هذا أن كل إنسان تقريبا يعامله كأنه مجنون . ولم يعد الدوق ولا الأميرتان يسمحون له بمجالستهم . أما شر الاهانات فأمر الفونسو بأن تؤخذ مخطوطات الشعر منه ، ومن بينها « أورشليم » مخافة أن يتلفها .

وفى يونيو ١٥٧٨ هرب تاسو مرة أخرى من فيرارا ، وذهب إلى مانتوا وبادوا والبندقية وأوربينو وتورين . وهناك أكرم الدوق شارل امانويل مثواه ، وبذل له كل أسباب الراحة التي عهدها فى فيرارا . ولكن ما مضت ثلاثة أشهر حتى التمس الشاعر القلق من الفونسو أن يرده ، ربما حرصا منه على استرداد مخطوطاته . ووافق الفونسو ، وفى فبراير ١٥٧٩ أسكن تاسو مرة أخرى قصر الكردينال لويجي دستي . ولكن الفونسو

التواق إلى وريث كان يتزوج للمرة الثالثة ، ولم يكن ليعير الشعراء أذنه ، ولم يدع تاسو إلى الحفلات . وظل أسبوعين يحتمل هـذا الإغفال مغيظا محنقا ، وأخيرا غادر مسكن الكردينال (١٢ مارس ١٥٧٩) ، واقتحم قصر بونتيفولى وهو يصيح مهاجما الدوق ، والدوقة الجديدة ، وجميع الحاشية . وجرى إلى القلعة ، مصرا على لقاء الدوقة واستعادة مخطوطاته . وأمر الدوق بايداعه مستشفى قريبا لمرضى العقول يدعى سانتانا ، وهناك ظل حبيسا أكثر من سبع سنين .

لم يكن مجنوناجنوناً مطبقاً . فقد كانت له أويقات صفاء كتب فيها الشعر واستقبل الأصدقاء . وزعم مونتيني أنه زاره . ووفدت عليه سيدات من البلاط ليطيبن خاطره ، واصطحبته لوكريتسيا مرة لبيتها فى بلفـديرى ، ولكن عنفه روعها فرد إلى المستشفى بناء على طلبها .لقد كان العقل المحطم نهبا لرعب متقطع تثيره هلوسات بأصوات أشباح يسمعها ، وبأرواح علوية تغزو حجرته وتسطو على قصائده .

وأخيرا نشرت ملحمته . ذلك أن المحتفظين بمخطوطتها أرسـلوها للناشرين بعد أن علموا أن قراصنة الكتب نسخوها (١٥٨٠) . وظل النقاد يتسقطون الأخطاء فيها ، ولكن إيطاليا استقبلتها استقبالا حماسيا ، وأطرى رجال الكنيسة موضوعها وتقواها . وتتابعت طبعات القصيدة ، وبيع منها فى يوم واحد ألفا نسخة ، ورددت البيوت والقصور أنغامها ، واختلف الناس فى أمر تاسو ، أيضعونه فى صف أريوستو أم فى صف بترارك . وفضل فولتير القصيدة على الالياذة وهو على ما نعلم من بعد عن التحيز للمسيحية[٨٠] . أما اليزابث ملكة إنجلترا فبعد أن استمعت إلى أجزاء منها مترجمة إلى اللاتينية حسدت دوق فيرارا على أنه عثر على هوميروس يخلد ذكره[٨١] .

ونستطيع إذا همزنا حاستنا التاريخية أن نبدأ فى فهم السبب فى استجابة أوربا بهذه الحماسة لهذه القصة المثيرة — قصة الحرب الصليبية الأولى .

لقد رحبت بها باعتبارها ملحمة العالم المسيحى التى طال انتظارها ومسته الحاجة إليها . ذلك أنه حين بدأ تاسو قصيدته كانت أوربا تحشد الأسطول الذى التحم بالأتراك فى ليبانتو . ودارت رحى المعركة الهائلة بينما الشاعر ينظم ملحمته ، وكسب الأوربيون المعركة ، ولكن انتعاش الأتراك السريع كان يهدد أوربا ، لا سيما إيطاليا ؛ وتعرضت روما ، معقـل المسيحية ، للخطر والقصيدة تكتمل . وساد الخوف من الاسلام أرجاء العالم المسيحى إذ ذاك ، كخوف أوربا اليوم من شرق نفخت فيه الحيـاة من جديد . وفى هذا الجو قرأ الرجال والنساء فى شعر يأخذ بالألباب قصة تشدد عزائمهم إذ تحكى كيف قاد جودفرى أمير بويون فى ١٠٩٩ جيشاً مسيحيا ظافرا برغم ما لحقه من ضربات واستولى به على أورشليم .

وهكذا يبدأ تاسو قصيدته متفاخرا ، ذاكرا عبارة فرجل « Arma virumque cano » ومتحدياً إياها ، « انى أتغنى بذكر الجيوش الصالحة والقائد الذى حرر قبر المسيح العظيم » . وهو يناشد ربة الشعر أن تلهب صدره بحماسة من السماء ، ويهدى قصيدته إلى الفونسو ، الأمير الهمام الذى أنقذه من زعازع الخطر وهيأ له مرفأ طيبا . ويرسل الله رئيس ملائكته جبريل ليأمر جودفرى بأن يحزم أمره ويزحف قدما على أورشليم . وحين يدنو المسيحيون من المدينة يأمر حاكمها التركى علاء الدين رجاله بأن ينقلوا تمثالا للعذراء من كنيسة مسيحية إلى جامع للمسلمين ، مؤمنا بأن التمثال سيجلب النصر لمالكه . على أن التمثال يسترد فيخفيه للمسيحيون ، ويأمر علاء الدين بذبح كل من بقى بأورشليم من المسيحيين . وتقدم العذراء سوفرونيا نفسها قربانا عن شعبها ، وتخبر علاء الدين كذبا أنها سرقت التمثال وأحرقته ، فيحكم بحرقها . على أن حبيبها الذى لا تبادله الحب ، أوليندو ، يحاول افتداءها ويزعم أنه المذنب ، فيحكم عليهما جميعاً بالموت ، ولكن البطلة المسلمة كلوريندا تنقذهما . ويدعو بلوتو رب العالم السـفلى مجمعاً من أتباعه للنظر فى طرق هزيمة المسيحيين الذين يحاصرون المدينة ،

فيقع اختيارهم على أرميدا الحسناء أداة لتنفيذ خطتهم ، وهى عذراء دمشقية ذات قوة سحرية . ويقع رينالدو وغيره من الفرسان فى فخ حديقتها المسحورة ، ويرتاح رينالدو بين ذراعيها . أما تانكرد ، الفارس المسيحى المثالى ، الشهم الهمام ، فيعجب بشجاعة كلوريندا ويقع فى غرامها برغم حواجز العقيدة . وفى جزء من أجمل أجزاء القصيدة (١٢) تتخفى كلوريندا وتقاتل تانكرد حتى تقتل ، ثم تتوسل إليه وهى فى النزع أن يدخلها فى دينه. ويرسل جودفرى الجند للعثور على رينالدو والفرسان المفقودين ، فيكتشفون قلعة أرميدا ، ويتجنبون « الحسان العرايا » اللاتى يسبحن فى بركتها ، ويحررون الأسرى . وتغضب أرميدا لهجر رينالدو لها ، فتعرض نفسها مكافأة لمن يقتله . ويضطلع تسيفرنيس بالمهمة ، ولكن رينالدو ينفذ رمحه فيه . وتنوى أرميدا الانتحار ، لكن رينالدو يثنيها عنه بحب متجدد ، فترتضى اعتناق المسيحية ، وتستسلم له بعبارة مريم العذراء « هوذا أنا أمة الرب » . ويتسلق المسيحيون الأسوار ، ويذبحون جيش المسلمين ، ويقدمون الشكر لله . ولكن القصة لا تسترسل إلى ذكر حرق اليهود .

كان أريوستو يرمق قصة الفروسية بابتسامة ساخرة . أما تاسو فقد أحياها بملء الجد ، وأضاف سحر العصر الوسيط ومعجزاته إلى الجهاز الكلاسيكى — جهاز الأرباب التى تتدخل فى الأحداث . وكانت الحركة المعارضة للإصلاح البروتستنتى قد قمعت حيناً روح الفكاهة الإيطالى القوى . والافتقار إلى الفكاهة مهد لجنون تاسو ، فالكون يجب ألا يؤخذ مأخذ الجد الخالص . ولكن تاسو فى ملحمته هو الإيمان غير منازع ، والعاطفة لا مخفف لها . وهو يزين القصيدة بأخيلة جعلت جاليليو يشبهها بمتحف من الغرائب(٨٣) ، ويكتب نقداً غاضباً على هامش نسخته (٨٤) . والتقليد فى الملحمة واضح : تقليد هومر فى مناظر القتال ، وفرجل فى زيارة الجحيم ، وأريوستو فى الغراميات ، وفرجل ودانتى وبترارك فى الأفكار وفى أبيات بأسرها . أما السحر فصبيانى ، وأما الأمازونيات فغير معقولات . ولعل ملحمة «أورشليم»

ليست ضرباً فى عظمتها للإلياذة، ولا آخذة بالألباب كالأوديسة ، ولا رفيعة كالأنياده ، ولكنها تحتفظ بتشويق القارئ كأى ملحمة ، وأسلوبها مرصع بانعطافات النغم وتدفقاته الموفقة ، وشخوصها حية ، وأحداثها مذابة بمهارة فى موضوعها الرئيسى . وكثير من مشاهدها وأحداثها ألهم الفنانين لوحات شهيرة . وقد أعان شعرها وروحها سبنسر على تأليف ملحمته « ملكة الجان » . أما مقاطعها فحين لحنت كانت عزاء لملاحى الجندولا البنادقة عن رتابة عملهم المضنى .

لم يجن تاسو فى أوقات صفائه غير السرور القليل ، والربح الأقل ، من نجاح قصيدته . فلم ينل فلساً واحداً من الناشرين . وكانت أوقية من اللوم ترجح عنده رطلا من المديح كما هو الشأن مع أكثر المؤلفين . وقد جزع حين قرأ النقد القاسى الذى وجهه إليه نقاده ، الذين زعموا أن قوافيه فى أكثرها ليست إلا صلصلات ، وأن مشاهد حبه مسرفة فى الشهوانية ، وأن مسلميه يثيرون الإعجاب فوق ماينبغى، وأن بطلاته فى الأغلب مسترجلات. ولكن باقى الإيطاليين هللوا له كأنه فرجيل ولد من جديد ، وعلت الأصوات مطالبة بمعاملة أرفق للشاعر المنكوب . على أن زواره رأوا حاجته للملاحظة الدقيقة ، وأن الفونسو يعالج الأمر بكل الرعاية التى تتوقع من رجل أسيء إليه كثيراً وشغلته تبعات الحكم .

وصلحت حال الشاعر . وفى يوليو ١٥٨٦ حصل فنشنتزو جونزاجا ، الوريث الشرعى لدوقية مانتوا ، على الإفراج عنه بعد أن تعهد بالعناية به . وعاش تاسو فى مانتوا شهرا ثم رحل عنها إلى برجامو ، ومودينا ، وبولونيا ، ولوريتو ، وروما ، يبيع قصائده ومدائحه لمن يشتريها . ولقى حسن الاستقبال فى روما ، ولكنه سرعان ما بدأ الترحال من جديد ، فمضى إلى سينا ، ففلورنسه ، ثم عاد إلى مانتوا ، ثم لنابلى مرة أخرى ، حيث صادقه المركيز مانسو ، ثم عاد إلى روما حيث أنزله الكردينالان تشنزيو وألدوبراندينو مسكنهما بالفاتيكان (١٥٩٤) . وأراد العودة إلى

فيرارا ليموت فيها ، غير أن الفونسو رفض الأذن له . ورتب له البابا كلمنت الثامن معاشا وأعد العدة لتتويجه شاعراً للبلاط البابوى . ولكن فى أبريل ١٥٩٥ لم يكن بد من نقل الشاعر الذى انهارت قواه وأدركته الشيخوخة والعجز وهو بعد فى الحادية والخمسين ، إلى دير سان أونوفريو بروما ، ليجد رعاية أفضل . هناك ، وبعد غضبة أخرى من غضباته ، مات (٢٥ أبريل) وهو يتمتم « فى يديك يا رب أستودع روحى » ووضع على نعشه أكاليل الغار الذى لم يعش ليلبسه . وحمل جثمانه فى مشهد إلى كنيسة القديس بطرس وخرج منها تشيعه حاشية البابا وأشراف روما وعلماؤها ، ووورى التراب فى كنيسة الدير وفوق مثواه قبرية بسيطة ، « هنا يرقد توركواتوس تاسوس » وأصبحت الصومعة التى نزلها مزاراً للحجاج كما هى اليوم .

٨ — مجىء الباروك : ١٥٥٠ — ١٦٤٨

كان الفن الكلاسيكى — كالبارثينون وأفريزه ، ومنحوتات ميرون وبولكليتوس ، وساحة روما ، والإيناد ، وستانزا رفائيل بالفاتيكان ، وصور كنيسة مديتشى لميكلانجلو — هذا الفن كان اختزال الفوضى إلى نظام ، والتعدد إلى وحدة ، والحركة إلى ثبات ، والشعور إلى فكر ، وغير المميز إلى مميز ، والمعقد المبهم إلى البسيط الواضح ؛ كان المادة مصوغة فى الشكل . ولكن كل شىء حتى الكمال يزهده الناس حين يطول به العمر . فالتغيير ضرورى للحياة ، والحس ، والفكر ؛ والجديد المثير قد يبدو جميلا لهذه الجدة ذاتها ، حتى يعود القديم المنسى على عجلة الزمن فيرحب به الناس على أنه فنى وجديد . وهكذا طردت النهضة الفن القوطى من إيطاليا باعتباره فنا همجيا ، حتى إذا ضاق الفنانون ورعاة الفن بالنسب الجميلة والتناسق المقيد ، وضحكوا كما ضحكت تماثيل الكاتدرائيات البشعة الوجوه على الأعمدة والاعتاب

والقواصر الـكلاسيكسية ، أعادوا الروح القوطية ممثلة فى شذوذات الباروك وتفصيلاته الزاخرة بالحيوية والمرح (*).

كان الفن الكلاسيكي ينشد الافصاح عن الموضوعى ، اللاذاتى ، الكامل ، أما الباروك فقد أتاح للفنان الفرد ، حتى لنزوته العارضة ، أن تجد التجسيد فى عمل لا يمثل موضوعا يصور تصويرا واقعيا (كما فى التصوير الهولندى) بقدر ما يمثل انطباعا أو شعورا موضعاً عن طريق أشكال متخيلة جزئيا . وهكذا نرى أن صور الجريكو النحيلة الطويلة ليست صور رجال أسبان بل صور ذكرياته أو بدواته هو ؛ وصور العذراء التى رسمها موريللو وجويدو رينى لم تكن صور الأمهات المرهقات اللاتى عرفاهن بل الورع المثالى الذى طلب إليهما التعبير عنه . يضاف إلى هذا أن بلدا كإيطاليا زلزلت إحساسه حركة الإصلاح البروتستنتى وشحذ عاطفته الدينية من جديد أفراد كلويولا ، وتريزا ، وزافير ، وشارل بوروميو — إيطالية ما بعد لوثر هذه ما كان فى الأمكان أن تستكين إلى سلام المثل الكلاسيكى ، ذلك السلام الهادئ الفخور ، لذلك راحت تؤكد عقيدتها من جديد ، وتبدى رموزها فى تحد ، وتزين هيا كلها ، وتسكب فى الفن دفقا جديدا من اللون والاحساس ، وتنوعا جديدا وحرية فى التركيب والحركة لا يمكن التنبؤ بها ، انطلقت من عقال القواعدوالضوابط والخطوط الكلاسيكية . لقد أصبح الفن تعبيرا عن الشعور بالحلية ، لا ضغطا للفكر لإحداث الشكل .

أما العمارة فلم تعد رياضيات يونانية أو هندسة رومانية ، بل موسيقى ، وأحيانا أوبرا ، مثل دار الأوبرا فى باريس . واتجه المصممون والبناؤن من الثبات إلى السيولة والايقاع ، فرفضوا التناسق الساكن مؤثرين عليه عدم التوازن وعدم الوحدة المتعمدين ، وفصموا

(*) الباروك مشتقة من الكلمة البرتغالية barroco ، وهى صدفة غير منتظمة الشكل كثيراً ما تستعمل حلية .

الأعمدة والأعتاب أو لووها عن قصد. وسئموا السطوح الساذجة والكتل الثقيلة، وقطعوا الكرانيش، وشطروا القواصر شطرين، وبعثروا النحت فى كل اتجاه. أما المثالون فقد ضاقوا بأطراف الجسد الكاملة، والملامح الساكنة، والوقفة الأمامية الجامدة، فاتخذوا لأشكالهم أوضاعا غير متوقعة، داعين الناظر إلى اتخاذ نظرات منوعة، واستخدموا مؤثرات التصوير فى صناعة التماثيل، فنحتوا الأضواء والظلال فى الحجر، والحركة فى الجسد، والفكر والشعور فى الوجه. وأما المصورون فتركوا الخطوط النقية، والضوء الصافى، والسكينة البريئة — تركوا هذا كله لبيروجينو، وكوربدجو، ورفائيل، وغمروا الدنيا فى اللون كما فعل روبنز، أو ظللوها بالغموض كما فعل رمبرانت، أو أيقظوها للحس مثل رينى، أو كدروها بالعذاب والوجد مثل الجريكو. وأما نقاشو الخشب فبعثروا الزخرف على الأثاث، وأما صانعو الأدوات المعدنية فقد حولوا مادتهم إلى أشكال غريبة أو مضحكة. وحين عهد اليسوعيون عام ١٥٦٨ إلى فينولا برسم «كنيسة يسوع» فى روما، اشترطوا أن تجمع كل الفنون فى فيض من الأعمدة، والتماثيل، والصور، والمعدن النفيس، تصمم لا للتعبير عن الهندسة، بل لتلهم الإيمان وتشيعه فى النفوس.

ولما كانت إيطاليا لا تزال فى الفن قائدة أوربا، فإن الأسلوب الجديد فى الزخرفة والعاطفة والتعبير لم ينتقل إلى أسبانيا وفلاندر وفرنسا الكاثوليكية فحسب، بل حتى إلى ألمانيا البروتستنتية حيث بلغ بعضاً من أكثر أشكاله مرحاً وبهجة. أما الأدب فأحس تأثير الباروك فى لعب مارينى وجونجوزا ولايلي المسرف بالألفاظ، وفى لغة شكسبير الرنانة الطنانة، وفى مسرحية مارلو «الدكتور فاوستس» ومسرحية جوته «فاوست». وأما الأوبرا فما هى إلا موسيقى بأسلوب الباروك. على أن الأسلوب الجديد لم يحقق انتصاراً فى كل مكان، فقد آثر الهولنديون الواقعية الهادئة على انفعالات

الباروك : وفيلاسكويز فى أفضل أعماله كلاسيكى أو واقعى ، أما سرفانتس فبعد أن عاش حياة رومانسية ألف « دون كخوته » فى اتزان وهدوء كلاسيكيين . ولكن هل كان الفنانون والأدباء الكلاسيك دائماً كلاسيكيين ؟ وهل هناك أكثر باروكية من لاوكون المناضل ، القبيح ؟ إن التاريخ يبتسم سخرية من كل المحاولات التى تبذل لإكراه مياهه على أن تجرى فى قوالب نظرية أو أخاديد منطقية ،وهو يعبث أشد العبث بتعمياتنا ، ويحطم كل قواعدنا . إن التاريخ ضرب من الباروك .

على أن عاملا قوياً واحداً ظل ثابتاً فى الفن الإيطالى ، فما زالت الكنيسة أنشط رعاته وأقدرهم على تشكيله . كان هناك بطبيعة الحال رعاة آخرون ومؤثرات أخرى . فقد شيدت أسر الأمراء والكرادلة المثقفون القصور الخاصة ، وواصلوا فى تزيينها بعض الموضوعات الوثنية ، مثال ذلك أن أودواردو فارنيزى عهد إلى المصورين كاراتشى بأن يرسموا له « انتصار باخوس » و « حكم الغرام » . ولكن مجمع ترنت وحركة الإصلاح الكاثوليكى التالية له حددا للفن اتجاهاً أكثر صرامة ، فتراجعت الأجساد العارية من الفن الإيطالى ، ولم تعد الموضوعات الدينية تستخدم مطية للحس ولم يثن البابا كلمنت الثامن عن تغطية لوحة ميكلانجلو « الدينونة الأخيرة » كلها ، وسراويل دانييلى دا فولتيرا وما حولها ، إلا توسلات فنانى روما . وقد دافع المجمع عن الصور الدينية ضد هجمات الهيجونوت والبيوريتان ، ولكنه أصر على أن توحى هذه الرموز بالخشوع لا أن تلهب الدم فى العروق . وبينما استنكر المصلحون عبادة مريم والابتهالات إلى القديسين ، روى مصورو إيطاليا ومثالوها فى فترة معارضة الإصلاح البروتستنتى ، من جديد ، عذابات الشهداء ، ورووها بواقعية قاسية أحياناً ، وحكوا مرة أخرى قصة العذراء أم الإله ، بعاطفة واعية . وتعاون حرص الكنيسة على تجريد الفن من الوثنية وبث العقيدة والتقوى

فى النفوس ، مع انتكاسات إيطاليا السياسية والاقتصادية ، على جعل هـذا العصر آخر صدى من أصداء النهضة .

٩ — الفنون فى روما

ظلت روما قصبة العالم الفنية . صحيح أن عصر التصوير الرومانى العظيم قد انتهى ، ولم يعد الآن إيطالى ينافس روبنز أو رمبرانت ، ولكن العمارة الرومانية أزهرت ، وظل برنينى أشهر فنانى أوربا طوال جيل من الزمان . ومع أن بولونيا سطت على زعامة روما فى التصوير ، فإن نجوم هـذه المدرسة كانوا يفدون على روما استكمالا لازدهارهم ، وقد وصل فازارى عام ١٥٧٢ ليرسم الصور الجصية للصالة الملكية فى الفاتيكان . واحتشد فى « بوتيجى » روما الرسامون الذين ما زالوا محل التبجيل من أقليات مغرمة : ناديو وفدريجو زوكارو ، وجيرولامو موتزيانو ، وفرانشيسكو دى سالفياتى ،وجوفانى لانفرانكو ، وبرتولوميو مانفزيدى ، ودومنيكوفيتى وأندريا ساكى . وأكثر هؤلاء يصنفون عادة تحت اسم « أصحاب اللازمات » — أى الفنانون المقلدون لطريقة فنان بعينه من أساطين الفن أيام عز النهضة ؛ ويجوز أن نعتبر هذه « اللازمية » (١٥٥٠ — ١٦٠٠) مرحـلة أولى للباروك .

أما فيديريجو زوكارو فقد نشر قلوعه فوق أمم أربع . فى فلورنسة أكمل الصور الجصية التى بدأها فازارى فى قبة الكتدرائية ، وفى روما رسم « المصلى البولسى » فى الفاتيكان ، وفى فلاندرصمم سلسلة من الرسـوم المزلية ، وفى إنجلتره رسم لوحات مشهورة للملـكة اليزابث ولمارى ستيوارت ، وفى أسبانيا شارك فى زخرفة الأسكوريال ، وحين عاد إلى روما أنشأ أكاديمية القديس لوقا ، التى أوحى نظامها لرينولدز بأكاديمية الفنون الملكية بانجلتره . وكان الإقبال على فنه أعظم من جميع الرسامين الإيطاليين فى ذلك الجيل ، ولكن الخلف فضلوا عليـه بييترو بريتينى

داكورتونا . وبروح الكفايات المتعددة التى أثرت عن فنانى النهضة صمم بييترو قصرى باربرينى وبامفيلى بروما ، ورسم فى قصر بيتى بفلورنسه صوراً جصية تزخر بالأشكال الغريبة فى كل غزارة الباروك وتدفقه .

أما القطب الحقيقى للتصوير الرومانى فى هذا العهد فهو ميكلانجلو مريزى دا كارافادجو . كان رجلا فيه روح تشلينى ، وقد ولد لبناء بالحجر فى لومبارديا ، ودرس فى ميلان ، وانتقل إلى روما واستمتع بعدة مشاجرات ، وقتل صديقاً فى مبارزة ، ثم هرب من السجن ، وفر إلى مالطة وقطانيا وسراقيوز ، ومات بضربة شمس على أحد شواطىء صقلية وهو فى الرابعة والأربعين (١٦٠٩) ، وفى الفترات التى تخللت هذه المغامرات أحـدث ما يشبه الثورة فى مزاج التصوير الإيطالى وأسلوبه . وقد أحب التناقضات العنيفة بين الضوء والظل ، واستخدم حيلا كإضاءة المنظر من مدفأة مخفاة ، وشكل صوره بالضوء ، وأخرجها من خلفية معتمة ، وبدأ فى إيطاليا عهد « الفن المعتم » الذى تزعمه جويرتشينو ، وريبيرا ، وسلفاتور روزا . وإذ احتقر عاطفية الرسامين البولونيين المثاليه ، فقد روع العصر بواقعيته التى أشرفت على الوحشية . كان إذا تناول موضوعاً دينياً يجعل الرسـل والقديسين يبدون وكأنهم عمال ضخام غلاظ نقلهم عن عمال أرصفة الموانى . وقد أكسبته « لوحة لاعبى الورق » (المحفوظة بمجموعة روتشيلد بباريس) شهرة دولية . أما لوحة « الموسيقيين » — وهم ثلاثة من المغنين وعواد جميل — فقد تراكم عليها التراب ثلاثة قرون قبل أن يعـثر عليها فى متجر للتحف القديمة بشمالى إنجلتره حوالى ١٩٣٥ ، وبيعت لجراح بمبـلغ مائة جنيه ، ثم اشتراها متحف المتروبوليتان بنيويورك (١٩٥٢) بخمسين ألف دولار . وقد درجت الكنيسة على رفض صور كارافادجو الدينية باعتبارها مشرفة فى الابتذال مفتقرة إلى السمو ، أما اليوم فهى مشتهى كل ذواقة للفن . وقد بلغ إعجاب روبنز بلوحة هذا الإيطالى المسماة « مادونا ديل روزاريو » مبلغاً حمله على جمع ١,٨٠٠ جولدن من فنانى أنتورب ليشتريها

ويهديها إلى كنيسة القديس بولس[٨٥] : ولوحة « عشاء عمواس » (بلندن) لا تبلغ فى عمقها نظيرتها التى رسمها رمبرانت ، ولكنها تصوير قوى لأشكال الفلاحين . أما « موت العذراء » (المحفوظة باللوفر) — وهى أيضا صورة ريفية — فكانت احدى الصور التى وطدت مدرسة « الطبيعيين » فى إيطاليا والواقعيين فى أسبانيا والأراضى المنخفضة . لقد أكثر كارافادجو من تأكيد ميلودراما العنف والخشونة ، ولكن التاريخ كالخطابة قلما يقرر نقطة دون أن يبالغ فيها . وقد اقشعر لمرأى عمال الشحن مفتولى العضل هؤلاء جيـل استنفد موضوعات العاطفة ، ثم قبلهم على أنهم مدخل منشط دخل به إلى الفن رجال منسيون . والتقط ريبيرا فرشاة كارافادجو القائمة ولحق به ، واقتفى رمبرانت أسلوب الإيطالى فى توزيع الضوء والظل وجوده ، وحتى مصورو القرن التاسع عشر شعروا بهذا التأثير العاصف .

أما المعمار فقد شهد مجىء الباروك وذروته . وراح البابوات الواحد تلو الآخر يحيلون عرق المؤمنين الراضين ودراهمهم أمجادا لروما . فأكمل بيوس الرابع البلفديرى وقاعات أخرى فى الفاتيكان . وبنى جريجورى الثالث عشر كلية روما وبدأ تشييد قصر الكويرينال — الذى أصبح مسكنا للملك عام ١٨٧٠ . أما دومنيكو فونتانا ، الأثير بين المعماريين عند سيكستوس الخامس ، فقد صمم قصر اللاتيران الجديد ، ومصلى السيستين فى كنيسة سانتا ماريا مادجورى ، ومقبرة بيوس الخامس فى هذا المصلى ، وهى باروك مسرف . وأضاف الكرادلة والنبلاء خلال ذلك إلى روما قصوراً جديدة (جوستنيانى ، ولا نشلوتى ، وبورجيزى ، وباربرينى ، وروسبليورى) ، وفيللات جديدة (بامفيلى ، وبورجيزى ، ومديتشى) . كذلك واصل الهدم أفاعيله ، ففى هذه الفترة هدم بولس الخامس حمامات قسطنطين التى عمرت منذ عهد أول الأباطرة دون أن يمسها سوء تقريبا .

وكثر عدد المعماريين الأكفاء ، ومنهم جاكومو ديللا بورتا الذى أكمل بكفاية عدة معابد خلفها أستاذه فنيولا ناقصة ، كواجهة كنيسة يسوع وقبة كنيسة القديس بطرس ، وبهذه الضخامة صمم كابيللا جريجوريانا الفخمة ،

ولمس قصر فاريزى لمساته الأخيرة ، وكان ميكلانجلو قد بدأه ؛ وهو صاحب الفضل فى نافورتين رائعتين تضفيان على روما رواء شباب لا يشيخ. وابدعهما نافورة السلاحف التى أقامها تاديو لونديني أمام قصر ماتيى واشترك مارتينو لونجى الأب مع ديللا بورتا فى تشييد قصر الكونسرفاتورى نقلا عن رسوم لميكلانجلو ، وبدأ هو ذاته قصر بورجيزى ، الذى أكمله فلامينو بونتزيو للبابا بولس الخامس . وأسهم دومنيكو فونتانا بنافورة « الفونتانونى » ديل أكوا فيليتشى ، وفونتانا ديل أكوا باولينا ، وشيد « قاعة البركة » الجميلة على الرواق المعمد الشمالى للاتيران القديس يوحنا . وخلفه ابن أخته كارلو مادیرنا معماريا لكنيسة القديس بطرس ، فغير خطتها الأساسية من صليب ميكلانجلو اليونانى إلى الصليب اللاتينى ، وصمم واجهة هذا الضريح العظيم ، ووجد فى حمامات كاراكاللا ودقلديانوس إلهاما بصحنها الهائل . وأعاد فرانشسكو بوروميني ، تلميذ مادیرنا ، بناء مدخل لاتيران القديس يوحنا بناء فاخرا ، وبدأ رائعته — كنيسة سانت أجنيس — الفخمة الأنيقة التى تضارع « كنيسة يسوع » فى بيانها للباروك الرومانى .

أما كنيسة يسوع فقد صممها (١٥٦٨) جاكومودا فنيولا تحقيقا لرغبة اليسوعيين فى معمار تروع فخامته العابدين وتلهمهم وتسمو بنفوسهم . وصمم المعمارى وخلفاؤه صحنا فسيحا دون أجنحة ، فيه الدعامات والسبندلات والتيجان والكرانيش المزخرفة ، ثم مذبح مهيب ، وقبة مضيئة ، وحلية رائعة من الصور والتماثيل والرخام والفضة والذهب . وفى عام ١٧٠٠ أضاف أندريا ديل بوتزو ، وكان هو ذاته يسوعيا ، مقبرة القديس اغناطيوس ومذبحه الرائعين . وقد اختلفت نظرة اليسوعيين للحياة عن نظرة غيرهم من رجال الكنيسة الكاثوليكية ، وكانت النقيض التام لنظرة البيورتان ، فالفن فى رأيهم يجب أن يطهر من الحس الدنيوى ، ولكن يجب أن يرحب به فى تزيين الحياة والإيمان . على أنه لم يكن هناك « أسلوب يسوعى » بعينه . كانت كنيسة يسوع باروكا فى الحجر ، وكثير من

كنائس اليسوعيين لا سيا فى ألمانيا كانت باروكا ، ولكن كل كنيسة اتبعت الأشكال والأمزجة المحلية والفاشية .

وكان اكمال كنيسة القديس بطرس آخر منجزات الفن الرومانى . فقد خلف ميكلانجلو نموذجا للقبة ، ولكن « الطبلة » وحدها هى التى كانت ممدودة حين ارتقى سيكستوس الخامس كرسى البابوية . وكان قطرها ١٣٨ قدما . ولم يجرؤ على تغطية مساحة هائلة كهذه دون دعامات تتخللها سوى برونولليسكى بفلورنسه . وأحجم المعماريون والمهندسون أمام العمل الذى اقترحه بووناروتى (ميكلانجلو) ، وشكا رجال المال من أنه سيكلف مليون دوكاتية وجهد عشر سنين . ولكن سيكستوس أمر بالشروع فى العمل آملا أن يحيى القداس تحت القبة الجديدة قبل أن يودع الحياة . وتكفل جاكومو ديللا بورتا بالمهمة يساعده فيهـا دومنيكو فونتانا . وراح ثمانمائة من الرجال يكدحون ليل نهار — فيما عدا الآحاد — من مارس ١٥٨٩ ، إلى أن أعلنت روما فى ٢١ مايو ١٥٩٠ ، قبل موت الحبر الجرىء بثلاثة أشهر ، بأن « البابا المقدس سيكستوس الخامس ، قد أتم عقد قبة كنيسة القديس بطرس ، لمجده الدائم وخزى أسلافه » (٨٦) .

وقد انتقص من وقع منظر القبة ، إلا على بعد ، واجهة الباروك التى أقامها ماديرنا فى ١٦٠٧ — ١٤ . أما الكنيسة نفسها فقد كرست نهائيا عام ١٦٢٦ ، بعد ١٧٤ سنة من البدء بتخطيطها . وفى عام ١٦٣٣ صب برنينى بالبرونز البلداكينو (أى المظلة) المزوقة فوق « مقبرة القديس بطرس » والمذبح المرتفع . وقد أنقذ النحات العظيم نفسه باحاطة المدخل إلى الضريح بصف أعمدة بيضى هائل (١٦٥٥ — ٦٧) أعان على جعـل كنيسة القديس بطرس أفخم بناء على وجه الأرض ، كما أن قبتها ذروة توجت كل ما بلغه الفن الحديث من انجازات .

١٠ — برنينى

جمع جوفانى لورينتزو برنينى [فن روما القرن السابع عشر فى عمر

مسيطر واحد (١٥٩٨ – ١٦٨٠) . أخذ النحت عن أبيه المثال الفلورنسى، ولعله أخذ عن أمه النابولية حدة العاطفة وحرارة الإيمان . وفى عام ١٦٠٦ دعى الأب إلى روما للعمل فى كنيسة سانتا ماريا مادجورى . هناك درج « جان » فى جو من النحت الكلاسيكى والتقوى اليسوعية . وقد انتشى بتماثيل الفاتيكان « أنطنووس » و « أبوللو بلفديرى » ولكنه كان أعمق تأثرا بكتاب القديس اغناطيوس فى « الرياضات الروحية » ، التى مارسها حتى أحس الرعب والتقوى اللذين شعر بهما رجل جرّب آلام الجحيم ومحبة المسيح . وكان يستمع إلى القداس يوميا ، ويتناول الأسرار المقدسة مرتين فى الأسبوع .

وجرب التصوير ، حتى بلغت صوره المائة . وقد ظفرت إحداها ، وهى لوحة « القديسين أندراوس وتوما » فى مجموعة باربرينى بأعظم الثناء ، ولو أننا نفضل عليها صورته الذاتية المحفوظة بقاعة الأفتزى — فتى أسمر وسيم يجنح إلى التأمل الحزين . على أنه جوّد أكثر من هـذا فى العمارة . وقد أكمل قصر باريرينى لمافيوباريرينى ، فلما ولى راعى فنه هذا كرسى البابوية باسم أوربان الثامن ، عين برنينى كبير معمارى كنيسة القديس بطرس وهو فى الحادية والثلاثين . وهناك بنى — بالاضافة إلى صف الأعمدة والمظلة — فى الجزء الثانى من البناء « كاتدرا بترى » المزخرفة لحفظ المقعد الخشبى الذى اعتقد المؤمنون أن الرسول بطرس كان يستعمله، ومن حوله جمع أربعة تماثيل قوية الشخصية لآباء الكنيسة ، ومن فوق البناء العجيب كله نثر تماثيل الملائكة بحماسة رجل يملك فى ذهنه معينا لا ينضب من الروائع . وعلى مقربة منـه اختار مكانا لمقبرة ضخمة لحبره المحبوب أوربان الثامن . وصمم الشرفات ، وكثيرا من التماثيل التى تزين الركائز التى تسند القبة . وتحت القبـة وضع تمثالا ضخما للقديس لونجينوس ، وفى الجناح الأيمن أقام أثرا تذكاريا مترفا لماتيلدا كونتيسة توسكانيا . وفى خارج الكنيسة أعاد تخطيط الصالة الملكية التى ترقى إلى قصر الفاتيكان مارة بأعمدة مهيبة ، وذلك بأسلوب أكثر

نقاء ، وفى فجوة فى هذا السلم الملكى أقام تمثالا لقسطنطين راكبا جواده وهو يطالع فى السماء دعوته لاعتناق المسيحية ؛ وأصبحت حرارة العاطفة فى هذا التمثال قالبا احتذاه عصر الباروك.وفى أخريات أيامه بنى فى مصلى السر المقدس بكنيسة القديس بطرس مذبحا لم تبدله رخاماته الساطعة ، وما توجه من ظلة وهيكل وقبة وملائكة مستغرقين فى العبادة — لم يبد له هذا كله تجسيدا مسرفا فى البهاء لسر القربان الذى ينطوى عليه القداس . كل هذا الجهد فى كنيسة القديس بطرس وما حولها يرى فيه الفنان العصرى اسرافا مسرحيا ومخاطبة خداعة للحواس ، أما برنينى فقد رأى فيه الأداة الخصبة لإيمان حار يصل إلى قلوب العابدين .

كان يمزج بين العمارة والنحت فى كل مكان ، ويحلم بفن يجمع بين العمارة والنحت والتصوير فى كل يستنهض الروح . وفى كنيسة سانتا ماريا ديللا فتوريا جمع قطع الرخام الثمين — الأخضر والأزرق والأحمر — وأطلق لخياله الزخرفى العنان ليبنى مصلى الكورنارو ، ذا الركائز المحززة والأعمدة الكورنثية الرشيقة ، وقد أودعها أعظم تماثيله فتنة وحرارة ، تمثال القديسة تريزا ، منهكة القوى غائبة عن الوعى فى نوبة من الوجد الصوفى ، وملاك حلو يتأهب لشق قلبها بسهم ملتهب رمزا لاتحاد القديسة مع المسيح . ووجه تريزا الذى يبدو كأن الحياة فارقته هو أحد انتصارات الباروك الإيطالى ، والملاك الذى يريش سهمه ان هو إلا أغنية فى الحجر .

كان لبرنينى منافسون . وقد أعجب مونتينى أيما أعجاب بتمثال العدالة الذى نحته جاكومو ديللا بورتا على قبر بولس الثالث فى كنيسة القديس بطرس . وصب تورجانو تمثالا نصفيا لسيكستوس الخامس ، فيه قوة وواقعية ، وهو الآن محفوظ بمتحف فكتوريا والبرت . ومزج بورومينو النحت بالعمارة مثل برنينى ، كما نرى فى قبر الكردينال فيللا مارينو بكنيسة سانتى أبوستولى فى نابلى . وبلغ اليساندرو ألجاردى مستوى برنينى فى ثلاثة تماثيل نحتها لمقبرة ليو الحادى عشر بكنيسة القديس

بطرس ، وفاقه فى النقوش البارزة التى مثل بها « لقاء البابا ليو الأول وأتيلا » ، وهى أيضاً بكنيسة القديس بطرس . أما تمثال إنوسنت العاشر النصفى الذى نحته الجاردى فى قصر دوريا بامفيلى ، فأكثر ارضاء للناظر من التمثال الذى نحته برنينى ، ويكاد يعدل فى القوة لوحة فيلاسكويز . ولكن أحداً فى هذا العصر لم يضارع برنينى فى خصوبته الفنية وخياله ومجموع منجزاته .

ثم شرح صدر روما بالنافورات الغريبة : فونتانا ديل تريتونى ، وفونتانا دى فيومى — حيث نقش مثالون أقل شأناً أربعة تماثيل للدانوب والنيل والجنج والبلاتا . وقد اختار إنوسنت العاشر من بين تصميمات المتسابقين المقدمة لهذه النافورة تصميم برنينى قائلا « على المرء ألا ينظر إلى تصميماته ما لم يكن مستعداً لقبولها »(٨٧) ولا بد أن ولع برنينى بالآثار القبرية الفخمة قد أوحى إلى رعاته بتقبل لذيذ لفكرة الموت . وقد عمر أوربان الثامن حتى رأى المقبرة التى أعدت لرفاته فى كنيسة القديس بطرس .

ونافس الكردينال سكيبونى بورجيزى البابا أوربان فى منح برنينى المال وتكليفه بالمهام . فصنع له المثال تمثالا حيا سماه « اغتصاب بروزرين » ، هو حلم من عضلات الذكر وانعطافات جسد الأنثى ، وتمثال « داود » يضرب جالوت بمقلاعه ، وتمثال « أبوللو ودافنى » — وهو تعبير مسرف فى الكمال عن شباب الرجل والمرأة . هذه التماثيل (وكلها فى قاعة بورجيزى للفنون) جرت على برنينى تهمة « اللازمية » والمغالاة المسرحية . وقد صور الكردينال نفسه فى تمثالين نصفيين ، هما تجسيد للطبع اللطيف والشهية الطيبة ، وأشد من هذين فتنة بطبيعة الحال التمثال النصفى لكونستانزا بووناريللى الجميلة ، المحفوظ بمتحف فلورنسه الوطنى ، وكانت زوجة مساعد برنينى ، ولكن برنينى — كما قال ابنه — نحتها فى الحجر ، بينما هو يعشق جسدها عشقاً مشبوباً (٨٨) .

ويعكس برنيني عيـوب الباروك أكثر من أى فنان آخر . فخطابه للعاطفة مسرف فى الوضوح ، وقد حسب التكلف دراميا ، واللطف جمالا ، والإفراط فى العاطفة تعاطفا ، والضخامة جلالا . وخلع على النحت تعبير الوجوه الحاد بينما هو ميزة اختص بها التصوير عادة . وقد أضعفت واقعية التفاصيل ، المغالية فى الدقة ، من التأثير السيكولوجى لفنه أحيانا . وقل أن بلغ فى تماثيله ذلك السكون الذى يضفى تفوقا خالدا على منحوتات أثينا فى عهد بركليس . ولكن لم يجب أن يعبر التمثال دائما عن السكون ؟ ولم لا تغزو الحركة والشعور وحرارة الحياة الرخام والبرونز وتبعث فيهما الحياة ؟ أنها فضيلة فى نحت الباروك وليست عيبا أنه جعل الحجر يحس ويتكلم . لقد اتبع برنيني المبدأ الهوراسى وأحس بما عبر عنه — بنعومة بشرة الفتاة ، وحيوية الشباب الرشيقة ، وهموم القادة ومتاعبهم ، وورع القديسين ووجدهم .

ولقد تقبله الناس قرابة خمسين عاما إماما لمعماريى عصره . وفى عام ١٦٦٥ ، حين فكر كولبير ولويس الرابع عشر فى إعادة تخطيط اللوفر وتوسيعه ، وجها الدعوة إلى برنيني ليحضر إلى باريس ويضطلع بهذه المهمة . فذهب إليها وصمم ، لا بحكمة بل بغلو فى البراعة — وجاوز فى الفخامة الذوق والمال الفرنسيين . وفضلت على تصميمـه واجهـة بيرو الأكثر صرامة ، وقفل برنيني إلى روما يجرر أذيال الخيبة . هنا (١٦٦٧) رسم لنفسه تلك الصورة الطباشيرية الرائعة ، المحفوظة الآن فى قلعة ونزر — خصل بيضاء تتراجع فوق رأس قوى البأس ، ووجه خلف عليه الجهد التجاعيد والعقد ، أما العينان الوديعتان بالأمس فقد أصبحتا جامدتين خائفتين ، كأنهما تريان إلى أين تفضى مدارج المجد . ولكنه لم ينهزم بعد ، فقد ظل ثلاث عشرة سنة أخرى يبنى وينحت فى عنف ، « حاداً فى روحه ، راسخاً فى عمله ، حاميا فى غضبه (٨٩) » وحين خبت جذوته (٢٨ فبراير ١٦٨٠) كان قد عمر إلى ما بعد النهضة الإيطالية :

حين زار ملتن إيطاليا عام ١٦٣٨ ذكران العلماء الإيطاليين أنفسهم أحسوا أن مجد وطنهم قد زال بمجيء الحكم الأسبانى والحركة المعارضة للاصلاح البروتستنتى . ولعل التسلط والرقابة ألحقتا الضرر بفكر إيطاليا وفنها — ولو أن سرفانتس وكالديرون وفيلاسسكويز كانوا يزدهرون فى ظل محكمة تفتيش أشد عتوا فى أسبانيا . ولكن الذى أنهى النهضة الإيطالية لم يكن قائداً أسبانيا ، ولا قائمة كتب حرمتها الكنيسة ، بل ملاحا برتغاليا ، هو فاسكودا جاما الذى عثر على طريق يمخر كله البحر إلى الهند ، طويل حقاً ولكنه أرخص من طرق التجارة البندقية والجنوية التى أغنت إيطاليا . وأخذت التجارة البرتغالية والهولندية تحل محل التجارة الإيطالية ، والمنسوجات الفلمنكية والانجليزية تنتزع الأسواق من الفلورنسيين . أما حركة الإصلاح البروتستنتى فكانت قد هبطت بالذهب المتدفق على روما من ألمانيا وإنجلتره إلى النصف .

وتألقت إيطاليا فى اضمحلالها . حقاً لقد هبط الفن من علياء رفائيل وميكل انجلو ، وفقد الفكر السياسى عمق مكيافللى وشجاعته ، ولكن لم يكن هناك اضمحلال بل نهوض فى السياسة والإدارة من ليو العاشر إلى سيكستوس الخامس ، وفى العلم من ليوناردو إلى جاليليو ، وفى الفلسفة من بومبوناتزى إلى برونو ، وفى الدراما الموسيقية من بوليتيان إلى مونتيڤردى ، اللهم إلا اضمحلال فى الشعر مختلف عليه من أريوستو إلى تاسو . وكانت إيطاليا خلال خلال ذلك ، كالأم الرءوم ، تسكب فنها وموسيقاها ، وعلمها وفلسفتها ، وشعرها ونثرها ، فوق الألب إلى فرنسا وفلاندر ، وفوق المانش إلى إنجلتره ، وفوق البحر إلى أسبانيا .

الفصل العاشر

فخامة أسبانيا وانحطاطها

١٥٥٦ — ١٦٦٥

١ – الحياة الأسبانية

إن الذين ربوا منا على المؤرخين الإنجليز قد ينسون بسهولة أن أسبانيا كانت بعد هزيمة الأرمادا ، كما كانت قبلها ، أعظم الإمبراطوريات على وجه الأرض وأعتاها وأكثرها اتساعاً ، وأنها اعتـبرت نفسها – ولها العذر – أرقى من إنجلتره الإليزابيثية فى الأدب ، ومن إيطاليا المعاصرة فى الفن . فحين ارتقى فيليب الثانى العرش (٢٥٥٦) كانت الملكية الإسبانية تحـكم أسبانيا ، وروسيون ، وفرانش كونتيه ، وسـته ، وأوران ، والأراضى المنخفضة ، ودوقية ميلان،ومملكة نابلى ، وصقلية ، وسردانيا، والفلبين ، وجزر الهند الغربية ، ومعظم أمريكا الجنوبية ، وجزءاً من أمريكا الشمالية ، وكل أمريكا الوسطى ، يضاف إلى هـذا (١٥٨٠ – ١٦٤٠) البرتغال والأملاك البرتغالية فى آسيا ، وأفريقيا ، والبرازيل ، كذلك محمية فى سافوى ، وبارما ، وتوسكانيا ، وحلف مع الامبراطورية الرومانية المقدسة التى حكمها فرديناند الأول عم فيليب× وكانت أسبانيا تمتلك جيشاً عدته خمسون ألف مقاتل اشتهروا بالبسالة وحسن النظام ، تحت امرة أفضل قواد العصر ، وأسطولا من ١٤٠ سفينة ، ودخلا سنوياً يبلغ عشرة أمثال دخل إنجلترة× وكان ذهب أمريكا وفضتها يتدفقان على الموانئ الأسبانية . أما البلاط الأسبانى فى هذا العصر فأفخم بلاط فى العالم ، وأما الاستقراطية الاسبانية فأشد الارستقراطيات كبرياء وعجباً . وكان

الملايين من الناس خارج أسبانيا يتكلمون الأسبانية ، وفى كثير من الأقطار تعلمت الطبقات المثقفة اللغة الأسبانية كما تعلمت بعد ذلك اللغه الفرنسية فى القرن الثامن عشر . كذلك زينت العمارة الأسبانية المدن فى خمس قارات .

وبلغ عدد سكان أسبانيا الآنزهاء ثمانية ملايين . واضمحلت الزراعة بتحويل المزيد من الأرض إلى مراع للأغنام لإنتاج الصوف . وقد بلغ عدد عمال النسيج فى طليطلة وحدها خمسين ألفاً حوالى عام ١٥٦٠ ، وحفزت مطالب المستعمرات الأسبانية صناعات أسبانيا ، وأصبحت أشبيلية من أهم الثغور فى أوربا ، وأرسلت المستعمرات نظير ذلك الشحنات من الفضة والذهب . ورفع تدفق المعادن النفسية الأسعار رفعاً جنونياً — فبلغت نسبة الغلاء فى الأندلس ٥٠٠ فى المائة فى القرن السادس عشر ، وصعدت الأجور لتلحق بتكاليف المعيشة فى سباق محموم أصبح فى النهاية عديم الجدوى . وكان كثير من الصناعة يقوم على أكتاف المغاربة (المورسكو) — وهم المسلمون الذين اعتنقوا المسيحية ظاهرياً . أما الخدمة فى البيوت فألقى أكثر عبئها على العبيد المأسورين فى الغارات على أفريقيا أو فى الحروب التى شنت على « الكفار » : لقد كان عامة الأسبان يحتقرون العمل ويقنعون بالقليل فى تفلسف ، فالنوم فى كوخ ، والاصطلاء فى الشمس ، ومداعبة القيثارة ، والبكاء على شح الحسان — ذلك خير من الكدح والعرق شأن العبيد أو المسلمين . وقد ساهم طرد المغاربة عام ١٦٠٩ مع غلاء المنتجات الأسبانية فى اضمحلال الصناعة فى أسبانيا .

وكان طرد اليهود عام ١٤٩٢ قد ترك فراغاً فى بناء أسبانيا التجارى والمالى : وأصبح الجنويون والهولنديون أهم النقلة لتجارة أسبانيا الخارجية . أما أسبانيا التى كان يحكمها نبلاء تمرسوا بالدبلوماسية والحرب أكثر مما تمرسوا بشئون الاقتصاد، فقد تركت ثروتها تعتمد على استيراد الذهب، وازداد ثراء الحكومة حيناً بينما ظل الشعب فى فقره ، ولكن كثيراً من هذا الذهب كان ينزح لاستخدامه فى الحرب ، أو يأخذه التجار الأجانب

الذين ينقلون تجارة أسبانيا، حتى كادت الحكومة تفتقر كالشعب . ورفضت أسبانيا الوفاء بديونها المرة بعد المرة (١٥٥٧ و ١٥٧٥ و ١٥٩٦ و ١٦٠٧ و ١٦٢٧ و ١٦٤٧) أو حولتها بالاكراه إلى قروض جديدة ، وهـذه الأزمات المالية هى التى ألجأتها إلى انهاء حربها مع هنرى الثانى عام ١٥٥٩ ، ومع « الأقاليم المتحدة » عام ١٦٠٩ . ففى التاريخ علينا أن نفتش لا عن « المرأة » بل عن « المصرف » .

وفى أسبانيا علينا كذلك أن نفتش عن الكاهن . ذلك أن الدين لم يفرض مثل هذا السلطان على الشعب ، ومن ثم على الحكومة ، فى أى بلد آخر من بلاد الله ، ولم تكتف أسبانيا برفض حركة الاصلاح البروتستنتى فحسب ، بل تجاوزتها إلى رفض النهضة أيضا — اللهم ألا لحظة إرزمية عابرة . وظلت « وسيطة » فى عالم حديث ، قانعة بنصيبها هذا . وكان فقر الشعب يتهلل لثراء الكنيسة . كان الكل متدينين ، من الملوك « الأشد كثلكة من البابا »[1] إلى قطاع الطرق الذين لم يروا قط إلا حاملين المداليات أو الشارات الكتفية الدينية . وفى عام ١٦١٥ سار نحو أربعين ألف أسبانى فى مظاهرة مطالبين بأن يجعل البابا من « حمل العذراء غير المدنس » (أى خلوها من لوثة الخطيئة الأصلية) عقيدة فى صلب الإيمان — أى اعتقاد الزامى على جميع الكاثوليك[2]. وفى كل مكان كنت تجد القساوسة والرهبان والأخوة ، لا متسامحين أو راضين عن مباهج الحياة والحب كما فى إيطاليا أو فرنسا ، بل ملقين جوا من اكتئاب الجريسكو على كل شىء الا مصارعات الثيران . وأصبح فى أسبانيا الآن ٠٨٨ ر ٩ ديرا ، و ٠٠٠ ر ٣٢ أخ دومنيكى وفرنسسكانى[3] ، وعدد متزايد من اليسوعيين . وكانت الكنائس معتمة ، تزخر بالرفات الرهيبة ، وتزدان بالمرعبات الواقعية فى فنها . أما قصص القديسين ومعجزاتهم فهى الشعر الذى يعتز به الشعب . وحبب الناس فى التصوف أغانى القديس يوحنا الصليبى وكتابات القديسة تريزا ووجدت الكنيسة لزاما عليها أن تحتج

على ما ادعاه « المهذبون » من صلة حميمة بالله ومن رؤى طوباوية ، وفى عام ١٦٤٠ وقعت فى براثن محكمة التفتيش طائفة من الألومبرادو — « أى المستنيرين » — زعموا أن اتحادهم الصوفى بالاله يطهرهم من كل اثم حتى وهم فى نشوات الجنس . علينا اذن أن نذكر هذا التدين الواسع الانتشار ، الشديد التحمس ، إن أردنا أن نفهم لم استطاع الشعب الأسبانى أن يرقب فى استحسان قوى حرق المهرطقين ، وأن يجود بماله حتى الأفلاس والأعياء دفاعا عن العقيدة فى ألمانيا والأراضى المنخفضة . لقد كان فى هذا الجنون شيء من النبل ، وكأن الأمة أحست بأنه ما لم يكن إيمانها صادقا فإن الحياة تصبح سخفا لا معنى له .

وهكذا مضت محكمة التفتيش فى وحشيتها التى أملاها عليها ضميرها ، فحددت بالعقوبات « المعتدلة » — كجلد المذنب مائة جلدة — من بدع كتلك التى زعمت أن الزنى ليس خطيئة ، أو أن الزواج مقدس كالتبتل الديرى . أما المارانو « المرتدون » — وهم اليهود الذين اعتنقوا المسيحية من قبل ثم ارتدوا إلى اليهودية سرا — فكان التكفير المقرر عن جريمتهم هو الموت أو السجن المؤبد . وحين وصل فليب الثانى إلى أسبانيا (١٥٥٩) استقبل فى بلد الوليد بتنفيذ حكم للمحكمة شهد فيه ٢٠٠٫٠٠٠ شخص يرأسهم الملك عشرة من المهرطقين يشنقون واثنين يحرقان أحياء[٤]. والتمس أحد المحكوم عليهم الرأفة من فليب فرفض ، واكتسب اعجاب الشعب بقوله « لو أن ابنى كان شقيا مثلك لحملت بنفسى الحطب لأحرقه »[٥] وقد قاوم فليب أحيانا جنوح محكمة التفتيش إلى توسيع سلطانها على حساب السلطة المدنية ، ولكنه على العموم شجع هذه المؤسسة باعتبارها أداة تعين الحماسة والوحدة القوميتين . وقد أراحه بعض الشيء أنه استطاع استخدام المحكوم عليهم عبيدا على السفن[٦]، وأنه فى سنة واحدة (١٥٦٦) تسلم ٢٠٠٫٠٠٠ دوكاتية من الذهب هى نصيب الثلثين المستحق للحكومة من غرامات محكمة التفتيش ومصادراتها .

واعتزت محكمة التفتيش بصونها عقيدة العصر الوسيط نقية لا غش فيها ، وبإنقاذها أسبانيا من الفرقة الدينية التي تتلوى فرنسا تحت قبضتها . وترك اهتمامها بالعقيدة دون السلوك حماية الفضيلة لرجال الاكليروس — وكانوا هم أنفسهم مشهورين بالتهاون في سلوكهم — وللموظفين المدنيين الذين حد من سلطانهم على الشعب خضوعهم لما تصدره محكمة التفتيش من أحكام بالسجن أو الغرامة . أما عفة النساء فلم يقم حارسا عليها الدين والقانون فحسب ، بل « البونتو » ، أي حق الدفاع عن العرض ، وهو مبدأ يلزم كل ذكر بأن يدافع أو يثأر بالسيف لعرض أية امرأة في أسرته هدد أو انتهك . وكانت المبارزة غير قانونية ولكنها محببة إلى الشعب . وكان كرام النساء يلزمن بيوتهن في احتجاب شبيه بما كان عند العرب ، يأكلن بمعزل عن الرجال ، وقلما يصحبنهم علانية ، ويركبن المركبات المقفلة إذا انتقلن من بيوتهن . وكان طلاب يد الفتاة يتوددون بالموسيقى تعزف من الشارع للعذراء المحتجبة خلف نوافذ ذات قضبان ، وقل أن يؤذن لهم بدخول البيت حتى يصل والدا الطرفين إلى اتفاق ، ومع ذلك كثرت زيجات الغرام (٧) . وفي عهد فليب الثاني احتفظ بمستوى الأخلاق عاليا على قدر ما سمحت به فتنة النساء أو خيال الرجال ، وخفف من فساد الموظفين الطبيعي يقظة الملك ، وإلى هزيمة الأرمادا كان يصون روح الشعب المعنوية اعتقادهم بأن أسبانيا تخوض حربا مقدسة ضد الإسلام ، والأراضي المنخفضة ، وانجلتره ، فلما تحطم الحلم انهارت أسبانيا جسدا وروحا .

على أن الحياة الأسبانية كان لها بهاؤها وسحرها الملازمان لطبعتها . فالاحسان واسع الانتشار ، والسلوك المهذب يسود جميع الطبقات . ونصف الأمة يزعم لنفسه عراقة الأصل ، ويحاول الارتفاع بحياته إلى آداب الفروسية ، ويصر على أن يرتدي لباس العشر الأعلى من السكان . وكان اللباس في عهد فليب الثاني متوسط البساطة ، فالرجال يلبسون أطواق الرقبة والصدرات

والجوارب الطويلة القائمة الضيقة ، والأحذية ذات المشابك ، أما النبيلات (وكلهن نبيلات) فيغطين ما استدار من أجسادهن بالمشدات القاسية المستوية ، ويحجبن عن الجنس الآخر كل وجوههن فيما عدا العيون (وهي في نساء الأسبان شديدة التوقد) ، ويخفين أقدامهن في خفر بحيث كانت لمحة واحدة إليها أعظم المكافآت المثيرة التي تجزى بها توسلات العاشق الولهان(٨) . وأصبح لباس النساء أكثر بهاء إبان التراخي الخلقي الذي أعقب موت فيليب ، فالمراوح ترف في مداعبة بلا كلام ، والصباغ الأحمر يلمع على الوجوه والأكتاف والنحور والأيدي ، والسيقان التي يلفها الغموض تختفي في تنانير بلغ من سعتها أن أصحاب المسارح كانوا يتقاضون أجر كرسيين من كل امرأة تعاظم حجمها على هذا النحو .

وظلت مصارعة الثيران الفرجة المفضلة . وقد أصدر البابا بيوس الخامس مرسوما بحظرها عام ١٥٦٧ ، ولكن فيليب الثاني احتج بأن هذا الحظر سيطلق ثورة في أسبانيا ، فأهمل المرسوم . وأضافت المواكب الدينية شيئاً من الشعر الحزين إلى الأيام العادية الخالية من الاثارة . وسترت أقنعة الكرنفال كثرة من الخطايا . أما الموسيقى فغرام لا يفوقه غير الدين والعشق — وهو وثيق الصلة بهما . فالفويلا الشبيهة في شكلها بالقيثارة تعزف الحانا شجية تلازم العلاقات الغرامية . وقد حظيت الأغاني الشعرية القصيرة بشعبية مؤقتة . ونافست أسبانيا إيطاليا في الموسيقى الكنيسة . وقد نشأ توماس لويس دي فكتوريا، وهو بمثابة فلاسكويز الموسيقى الأسبانية، في أفيلا (آبله)، بلد القديسة تريزا ، ولعله وقع تحت تأثيرها . وكان يملك الصوت والوظيفة، ولعله رسم قسيسا عام ١٥٦٤، ومن المؤكد أن فيليب أجرى عليه إعانة ليدرس الموسيقى في إيطاليا . ونحن نراه في سنة ١٥٧١ رئيسا لفرقة المرتلين في الكلية الجرمانية بروما . وفي عام ١٥٧٢ أصدر كتابا من من الألحان يحوي موسيقى « Ovos omnes » (يا جميع الآلهة) الملهمة المرافقة لمراثي أرميا لأورشليم . ولما عاد إلى أسبانيا قدم لفليب الثاني

كتاب قداديس احتـــوى على لحن من أرفع ألحانه ، وهو قداس « Oquam gloriosum » (ما أمجدك) . وكتب قداسا جنائزيا عميق التأثير لمأتم ماريا أخت فيليب ، وأرملة الامبراطور مكسليان الثانى ، وضعه مؤرخ نابه للموسيقى فى صف « أروع الألحان المدونة قاطبة[٩] » . وقد سمـاه أغنيته التم » ، وبعد نشره (١٦٠٣) تفرغ بكليته لواجباته الكهنوتية . وكان من ألمع النجوم فى أشهر عهد من عهود الملكية الأسبانية .

٢ — فيليب الثانى : ١٥٥٥ — ٩٨

هنا رجل من أغرب وأقوى شخصيات التاريخ ، متعصب ، ذو ضمير حى ، مكروه أشد الكره خارج أسبانيا ، محبوب أحر الحب داخلها ، يتحدى أى دارس يحاول جاهدا أن يكون موضوعيا . كان نسبه قدره المكتوب ، فأبوه شارل الخامس ، الذى خلف له ملكا والتزاما بالتعصب ، وجدته لأبيه جوانا لا لوكا ابنة فرديناند الكاثوليكى المجنونة ؛ فالصوفية والجنون إذن فى عروقه ، والعقيدة والاستبداد فى ميراثه . وكان لأمه ايزابللا البرتغالية ولدان آخران مات كلاهما بالصرع فى طفولته ، وماتت هى نفسها فى السادسة والثلاثين حين كان فيليب فى الثانية عشرة . ولد فى بلد الوليد عام ١٥٢٧ يوم كانت جيوش أبيه تنهب روما وتسجن البابا ، وربى على أيدى قساوسة ونساء أغرقوه فى التدين واقنعوه بأن الكنيسة الكاثوليكية هى السند الذى لا غنى عنه للفضيلة والملكية . وعلى حين كان أبوه — الذى نشأ فى فلاندر — قد شب رجل دنيا ، أصبح فيليب — الذى عاش فى أسبانيا معظم حياته — أسبانيا وجها وعقيدة ، جسدا وعقلا ، برغم جلده الأبيض ، شعره الأصفر الحريرى .

لم يكد يستمتع بشباب ، ففى الثالثة عشرة عين حاكما على ميلان ، وفى السادسة عشرة وصيا على عرش أسبانيا — وهى وصاية لم تكن مجرد اسم بلا مسمى . فقد رتب شارل مشيرين له ، وشرح له طباعهم ببصيرة نافذة ، وأمره ان يؤلب المشير على المشير ، وحضه على أن يحتفظ لنفسه

بكل السلطة الحقيقية وكل القرارات النهائية — وهو ما فعله فيليب إلى آخر نسمة من حياته . وفى تلك السنة (١٥٤٣) تزوج فيليب ابنة خاله الأميرة ماريا البرتغالية ، ولكنها ماتت عام ١٥٤٥ ، عقب أن أنجبت له ابنا « سيئ الطالع » هو الدون كارلوس ، فعقد فيليب زواجا من احدى بنات الشعب هي إيزابيلا دى أوزوريو ، التى أنجبت له عدة أطفال . وألح عليه أبوه فى فسخ هذا الزواج ، وكان لزاما على كل أمير هابسبورجى أن يعين على تأليف نطاق من الحلفاء حول العدو القديم فرنسا . لذلك وجب على فليب — لكى يؤمن قوة أسبانيا فى الأراضى المنخفضة من تدخل إنجلتره — ان يبتلع حاسته الجمالية ويتزوج مارى تيودور ملكة إنجلتره الكاثوليكية . وينجب منها بنين يحتفظون بانجلتره فى حظيرة الكاثوليكية . وهكذا نراه فى عام ١٥٥٤ يعبر المانش ، ويتزوج مارى الدميمة ، العليلة ، المؤملة فى الخلف (وكانت تكبره بأحد عشر عاما) ، ويبذل قصاراه لاخصابها ، ولكنه يخفق ، فيرحل (١٥٥٥) ليصبح حاكما للأراضى المنخفضة .

وتمضى السنون وأعباؤه تثقل . ففى عام ١٥٥٤ كان قد نصب حاكما لمملكة نابلى وصقلية المزدوجة . وفى عام ١٥٥٦ تخلى له شارل عن تاج أسبانيا . وظل فيليب أربع سنوات يحكم أملاكه المبعثرة من بروكسل . وقد ناضل للتوفيق بين رزانته الأسبانية وبين المرح الفلمنكى والمالية الهولندية . لم يكن يستطيب الحرب ، ولكن قواده كسبوا له فى سانت كوينتين (١٥٥٧) معركة حملت الفرنسيين على ابرام معاهدة كاتو — كامبريزى . ورغبة منه فى إقامة بعض روابط الصداقة مع فرنسا تزوج فيليب من اليزابث فالوا ، ابنة هنرى الثانى وكاترين مديتشى ، وبعد أن خال الأمور قد استقرت ودع الأراضى المنخفضة وأبحر من غنت (أغسطس ١٥٥٩) وحبس نفسه بقية حياته فى أسبانيا .

ونقل العاصمة من طليطلة إلى مدريد (١٥٦٠) ، وما لبث أن حمله حبه للعزلة ، وعدم ارتياحه إلى الوجود وسط الجماهير ، على تكليف

خوان باوتستا وخوان دى هيرايرا بان يشيدا له على سبعة وعشرين ميلا شمال غربى مدريد مجمعا من العمائر يحوى قصرا ملكيا ، ومركزا إداريا ، وكلية ومدرسة لاهوتية ، وديرا ، وكنيسة ، وضريحا — ولا غرو فقد أصبح فليب الآن متدينا على قدر ما تسمح به مقتضيات السياسة . ففى معركة سانت كوينتين هدمت مدافعه كنيسة مكرسة للقديس لورنس ، وتكفيرا عن هذا الانتهاك للمقدسات وعرفانا بالجميل على انتصاره ، كان نذر أن يقيم للقديس ضريحا فى أسبانيا . وهكذا سمى مجمع العمائر الشاسع هذا السيتيوريال دى سان لوريزو « — أى المقر الملكى للقديس لورنس ، ولكن الزمن سماه الإسكوريال ، نسبة لمدينة قريبة ، اشتقت هى نفسها اسمها من لفظ « سكوريا » ومعناه خبث مناجم الحديد المحلية(١٠) . وكان الاعتقاد أن القديس لورنس قد أحرق حتى الموت على مشواة من حديد ، لذلك صمم خوان باوتستا خطة الأرض على هيئة مشواة تقطعها الصالات من جنب إلى جنب ، قاسمة الفراغ الداخلى إلى ستة عشر فناء .

ويعجب المرء وهو يركب السيارة من مدريد إلى هذا المكان كيف استطاع فيليب ، فى عصر لم يتح له من وسائل الانتقال ما هو أسرع من ظهور الخيل ، أن يحكم ملكه العالمى من مثل هذا الحرم الذى يتوه وسط تلال كثيبة ؛ ولكن مدريد كانت أكثر منه بعدا عن العالم . وقد هجر هذا المجمع العظيم اليوم إلا من الرهبان وخدماتهم ، ولكنه كان أيام عزه ، بواجهته المبنية بطرز النهضة والبالغ طولها ٧٤٤ قدما ، وبقلاعه وأبراجه ، وبقية كنيسته الضخمة ، رمزا رهيبا للسطوة الأسبانية التى تبلت بالتقوى والفن . هنا كان يحكم نصف العالم المسيحى ، ووحد الدين والحكومة فى متاهة واحدة من السياسة والحجر ، وهنا كان فى استطاعة الملك أن يعيش كما يشتهى ، لا بين حاشيته ، بل بين القساوسة والرهبان والرفات المقدسة ، ويسمع مرات كل يوم الأجراس المعلنة للقداس . هنا كان البانثيون مزمعا أن يتلقى رفات ملوك أسبانيا وملكاتها ، والمكتبة أن تصبح من أغنى المكتبات فى أوربا ، ومتحف الصور أن

يضم عما قليل روائع بريشة رفائيل ، وتتسيانو ، وتنتوريتو ، وفيرونيزى ، والجريكو ، وفلاسكويز ، وهنا أقبل بلجرينو تيبالدى ، وبارتولوميو كاردوتشي ، وفدريجو زوكارو ، من إيطاليا للانضمام إلى خوان فرنانديز نافاريتى ، ولويزدى موراليس ، ولويز دى كاربايال ، وغيرهم من الفنانين الأسبان ليرسموا الصور الجصية على الجدران والبوا كى التى لا نهاية لها . أما القصر الملكى فتركه بسيطا كل البساطة ، ولكن الكنيسة برغم بنائها على الطراز الدورى الصارم ، كان مذبحها يتلألأ بالرخام السماقى واليشب والذهب ومن خلفه رافدة ذات حلية معقدة . وكانت القاعة المخصصة لاستقبال كبار القوم شاسعة حافلة بالزخرف ، أما حجرة فليب فأفقر حجرات البناء ، متواضعة كأنها صومعة عابد (١١) . كان البناء رمزا لسطوة فليب ، أما الحجرة فتعبير عن خلقه .

لقد جهد غاية الجهد ليكون قديسا ، ولكنه لم ينس أنه ملك . كان يعلم أنه أقوى حاكم على ظهر البسيطة ويشعر بالتزام سياسى بالكبرياء ، ولكنه كان فى لباسه آية فى البساطة حتى أن بعض الغرباء الذين صادفوه فى الاسكوريال حسبوه تابعا ، وسمحوا له أن يكون دليلهم (١٢) . وكان خليقا بهم أن يتعرفوا عليه من ذقنه الهابسبورجية الناتئة ، لأنها كانت تحديا بارزا للعالم . وفى عام ١٥٥٩ ، قبل أن يقسيه الزمن والتجارب ، وصفه سفير بندقى بأنه « يبدى دائما من الرقة والانسانية مالا يبزه فيه أمير (١٣) » ، وقال عنه سفير انجليزى أنه « ذو خلق لطيف ، وطبع لين ، وميل إلى الهدوء (١٤) . ولم يجد فيه أحد أى ميل للمزاح أمام الناس ، وذكر أعداؤه القساة أنه لم يبتسم فى حياته كلها غير مرة — وذلك حين سمع بمذبحة القديس برتلميو . على أنه فى حياته الخاصة كان يستطيب الدعابة والنكتة ويضحك من كل قلبه (١٥) . وكان يجمع الكتب بذوق ولذة ، ولكنه آثر الفن على الأدب ، فهو الراعى المرهف الذوق لتتسيانو ، والناقد لإلجريكو ، يحب الموسيقى ويعزف على القيثارة

حين لا يرقبه العالم ، تحليه كل آداب السلوك الأسبانية، ولـكنه يرتبك حياء ويجمد فى المناسبات الرسمية ، رشيق الجسم إلى أن أعجزه النقرس لولعه بالفطير والحلوى . كان منذ شبابه مستهدفا للمرض ، وإذا كان قد أدرك السبعين كاملة فإنما الفضل فى ذلك لتصميمه العنيد على اتمـام واجباته . وقد اتخذ الحكم واجبا مقدسا ، وراح يكد فيه ويكدح يوما بعد يوم طوال خمسين عاما . ويبدو أنه آمن حقا بأن الله اختاره لوقف المد البروتستنتى ، ومن هنا ما عرف عنه من عناد شديد وقسوة على مضض ، « ولم يكن بطبيعته يؤثر الطرق العنيفة [١٦] » ولم ينس قط صنيعا (اللهم إلا حالة أجمونت) . ولا نسى اساءة . كان المتقم أحيانا،الشهم الصفوح غالبا . وزع الصدقات بسخاء عليه الضمير [١٧] . كان فى عدمر فاسد غير قابل للافساد ، وما كان لرشوة أو هدية أن تثنيه عن الاضطهادات التى دفعه إليها تدينه .

أما فى أخلاقيات السياسة فكان شبيها كل الشبه بمعاصريه — يكره الحرب ، ولم يبدأ حربا قط ، واحتمل من إهانات انجلتره جيلا كاملا تقريبا قبل أن يجرد عليها الارمادا . كان قادرا ، بل أقدر من معظم الحكام ، على الخداع المتخفى وراء التقوى ، والظاهر أنه شارك فى مؤامرة لقتل اليزابث حين أعيته الحيل لانقاذ مارى ستيوارت [١٨] . وكان حكمه لأسبانيا أوتوقراطيا ولكنه عادل ، « يهتم الاهتمام الشديد برعاياه، ويصلح أى مظالم اجتماعية يجد الوقت لاكتشافها [١٩] » .

أما خلقه الشخصى فيفضل خلق أكثر ملوك القرن السادس عشر . كان فى شبابه ببروكسل ، إذا صدقنا أعداءه ، « شديد الاباحية » و « لهوه المفضل أن يخرج ليلا متخفيا ليمارس شتى الشهوات المبتذلة فى المواطن المألوفة للرذيلة [٢٠] » ؛ وبعد سنوات اتهم وليم أورنج ، وهو يقود ثورة الأراضى المنخفضة ، ناسك الاسكوريال هذا بأنه قتل ابنه ودس السم لزوجته الثالثة [٢١] ، ولكن رجلا ساخطا مثل وليم لا يعتمد

عليه فى كتابة التاريخ . على أن مؤرخا لا يتطرق الشك إلى عظمته وجرأته ، وهو ماريانا اليسوعى الأسبانى ، يصدر عليه حكما عدائيا كهذا، فبينما هو يشيد بـ «سماحة فليب وعزيمته ويقظته وزهده فى الطعام والشراب» يتهمه بـ « الشهوانية ، والقسوة ، والكبر والغدر ، وعدة رذائل أخرى »(٢٢) ولكننا نجد مؤرخا هولنديا محدثا يخلص إلى أن « فليب الثانى لا يمكن اتهامه بالفجور و . . والخلاعة والفساد ، فهو على قدر علمنا عاش بعد عودته إلى أسبانيا حياة فاضلة إلى حد الصرامة (٢٣) » زوجا وفيا وأبا شديد الاهتمام بأبنائه . وحين مرضت زوجته الثالثة اليزابث قالوا بالجدرى (وكان يومها فتاكا أغلب الأحيان) ظل ملازما لها لا يبرحها إلا نادرا مع أن وزراءه ألحوا عليه فى ألا يعرض نفسه لخطر العدوى . وبعد موت اليزابث عقد فليب زواجا دبلوماسيا آخر (١٥٧٠) بأميرة نمساوية من أميراتها العديدات المسميات « آن » ، وماتت آن هذه عام ١٥٨٠ وبعدها كرس عواطفه العائلية الحميمة لبناته . ورسائله لهن رسائل إنسانية فيها دعابة ومحبة (٢٤). وأصبحت اليزابث كلارا رفيقه الحميم وعزاءه الكبير وسط هموم الشيخوخة وهزائمها . وقد وصفها فى وصيته بأنها نور عينيه . أما أبناؤه فلم يجد فيهم أى عزاء .

وتضافرت الأسطورة والأدب (*) والشفقة الانسانية لتجعل من ابن فليب الأكبر رجلا أشهر من أبيه . كان كارلوس ضعيف البنية ، مستهدفا للحمى المتقطعة ، والاكتئاب ، ونوبات الغضب والكبرياء . كان سخيا فى إسراف ، شجاعا فى شراسة ، كان يضحك جده ، الذى كان بالأمس شارل الخامس العظيم . بلومه إياه على أنه فر من موريس أمير سكسونيا فى إنزبروك (١٥٥٢) — « لو كنت مكانك لما

(*) اتخذ هؤلاء الكتاب الدون كارلوس موضوعا لمسرحياتهم : شيلر ، والفييرى ، وأوتواى ، وماری جوزف دشنييه ، وخوان بيريز دمونتالفين . . . الخ .

قررت قط ! » (٢٥) وفى المحادثات التمهيدية لمعاهدة كانو — كامبريزى كان هناك وعد بزواج كارلوس — وهو يومها فى الرابعة عشرة — من اليزابث فالوا ، ولكن فى المعاهدة نفسها اتخذ فليب هذه الأميرة زوجة له بعد أن ترمل بموت مارى تيودور ، وذلك ليحول الصداقة الفرنسية من انجلترا إلى أسبانيا ، وبعد عام وصلت العروس إلى مدريد (١٥٦٠). ولعل كارلوس حين رأى جمالها المتوارى خلف قناع من الحشمة ساءة هذا التحوير لحق « السيد الاقطاعى » ، ولكن ليس هناك دليل على وجود أية علاقة غرام بينه وبين الملكة ذات الأربعة عشر ربيعا(٢٦) .

وكان من المسلم به رسميا أن كارلوس وريث للتاج برغم علته . وفى عام ١٥٦١ أرسل إلى جامعة ألكالا « القلعة » . وهناك سقط من درجات سلم خلال مطاردته فتاة يغازلها ، فكسرت جمجمته ، وراح يهذى فى غيبوبته . ونشر الجراح الكبير فيزاليوس عظم رأسه فأنقذ حياة الصبى ، ولكن تحسن حالته عزاه الناس إلى رفات أخ فرنسسكانى تقى — مات قبل قرن — أخذت من تابوتها ووضعت على الفراش إلى جوار الأمير . وخلال نقاهة الفتى الطويلة مكث فليب « القلعة » وأنفق الوقت الكثير إلى جانبه . وأعيد كارلوس إلى مدريد، وهناك استرد من العافية ما سمح له بالانضمام إلى شباب النبلاء فى حوادث العنف يرتكبونها فى الشوارع ضد الرجال والنساء . وقوت اعتداءاته القاسية الصاخبة ، الشبهة فى أن سقطته قد ألحقت بمخه أذى لاشفاء له منه . ولم يكن مما يعينه على كسب عطف فليب أنه أعرب عن تعاطفه مع الثوار فى الأراضى المنخفضة . ولما عين ألفا قائدا للجيش هناك احتج كارلوس بأن هذه المهمة كان يجب أن تعهد إليه ، فنهى ألفا عن الذهاب ، وهاجم الدوق بخنجر شهره عليه حين أصر على الذهاب (٢٧) . ويبدو أن الأمير خطر له حينا أن يهرب إلى الأراضى المنخفضة ويضع نفسه على رأس الثورة (٢٨) . وكلف فليب بعض

وزرائه ، الزاهدين فى المهمة ، بأن يراقبوه . ووضع كارلوس الخطط للهروب ، وبعث بعملائه لجمع المال ، وجمع ۰۰۰ر ١٥٠ دوكاتية ، وأمر بأن يؤتى له بثمانية جياد لهروبه (يناير ١٥٦٨) . غير أنه أسر بخطته لدون جوان النمساوى ، الذى أفضى بها إلى الملك . وخاف فليب أن تستعمل اليزابث ملكة انجلترا ، أو وليم أورنج ، ابنه — إذا سمح له بمغادرة أسبانيا — منافسا لأبيه تمهيدا لعزله ، فأمر بتشديد الرقابة على الأمير ، وهدد كارلوس بالانتحار ، فجرده فليب من كل سلاح وحبسه فى القصر الملكى بمدريد .

إلى هنا كان مسلك فليب يسمح بالدفاع عنه ، ولكن التعصب بدأ يعمق المأساة . ذلك أن الملك حين اشتبه فى هرطقة ابنه أمر بألا يسمح له بأى كتاب الا كتاب صلوات يومية وبعض كتب العبادة . ورفس كارلوس الكتب وأهمل كل الطقوس الدينية . وأنذره قسيس بأن مسلكه قد يحمل محكمة التفتيش على التحقيق فى صحة مسيحيته ، وحاول كارلوس أن يقتل نفسه ، ولكن حيل بينه وبين ذلك ، على أنه حقق هدفه بأن رفض كل طعام قدم إليه طوال أيام ثلاثة ، ثم أتخم نفسه باللحم والماء المثلج ، فأصيب بالدوسنتاريا ، ورحب الأمير بالموت ، وتناول القربان لآخر مرة ، وسامح أباه ، ثم مات غير متجاوز الثالثة والعشرين (٢٤ يوليو ١٥٦٨) . واتهم انطونيو بيريز — عدو فليب المنفى — الملك بأنه دس السم لكارلوس ، وصدقت معظم أوروبا التهمة ، ولكن البحث دحضها (*) . على أن صرامة سجن الفتى من النقط السوداء الكثيرة التى تلوث سجل الملك .

(*) « فى الحادث الأليم ، حادث سجن الدون كارلوس وموته ، سلك فليب مسلكا شريفا » — الموسوعة البريطانية ، ١٧ ، ٧٢٢ . قارن مارتن هيوم فى كتابه « أسبانيا ، عظمتها وانحلالها » ١٥٠ ، ور . تريفور ديفز « القرن الذهبى لأسبانيا » ١٤٩ .

وقد ألقى مسلكه من أخيه لأبيه ، دون جوان النمساوى ، ظلا آخر على الصورة . فيبدو أن هذا الابن غير الشرعي لشارل الخامس وبربارا بلومبرج أثار فى نفس فليب أعجابا تشوبه الغيرة . ومع ذلك رفع جوان إلى مرتبة الأمراء ، وعهد إليه بتنظيم حملة على قراصنة الجزائر . وأبلى جوان فيها بلاء حسنا . وقلده فليب قيادة القوات البرية ضد مغاربة غرناطة ، وأنفذ جوان مهمته دون أن يضيع وقتا أو يسرف فى رأفة . فعينه فليب — وهو بعد فى الرابعة والعشرين — أميرالا أكبر للأساطيل الموحدة فى « الحرب الصليبية الأخيرة » ، وهزم جوان الترك فى ليبانتو ، وغدا بطل العالم المسيحى . هنا شعر بأنه جدير بعرش مملكة ، ولكن شق عليه أن يكتفى فيليب بتنصيبه حاكما عاما على الأراضى المنخفضة .

ثم لام الناس الملك الصموت ، الذى كان على الدوام يأبى لكبريائه أن يفسر مسلكه أو يدافع عن نفسه على منبر الرأى العام ، لاموه أشد اللوم على مأساة أخرى . ذلك أنه رقى إلى منصب المستشارية لديه رجلا من عامة الشعب ذكيا أنيقا يدعى أنطونيو بيريز ، وكان الاعتقاد أنه الابن غير الشرعي لأخص أصدقاء فليب وأحوزهم لثقته ، وهو روى جوميز أمير ايبولى . فلما مات جوميز (١٥٧٣) ، أصبح بيريز الصديق الحميم — وربما العشيق (٢٩) — لآنا دى مندوزا ، أميرة ايبولى — الأرملة المغرقة فى الدس . وقيل أن فليب نفسه كان له علاقة بهذه الحسناء العوراء قبل أحد عشر عاما ، ولكن لعل « التاريخ » هنا لفق هذه القصة (٣٠) . وتآمر بيريز معها بغية الافادة من اطلاعها على أسرار الدولة . فلما هددهما خوان دى اسكوبيدو بأن يفضح نشاطهما المريب ، أقنع بيريز فليب بأن اسكوبيدو يتآمر على خيانته ، وأعطى فليب الأمر باغتيال خوان . واحتفظ بيريز بالأمر ستة أشهر ، ثم نفذه (١٥٧٨) مما أدهش فليب وأربكه . وبعد عام أقنعت أوراق دون خوان النمساوى السرية فليب ببراءة اسكوبيدو ، فقبض على بيريز ، وحبس الأميرة

فى قصرها . واعترف بيريز بجريمته تحت ضغط التعذيب ، ووافق على أن يرد للخزانة ٠٠٠ر٠٠٠ر١٢ مارافيدى . ولكنه فر إلى اراجون بمساعدة زوجته ، وهناك طاردته محكمة التفتيش بتحريض فليب باعتباره مهرطقا . ففر إلى فرنسا ، وعزا اضطهاده إلى غرام فليب بلا ايبولى غراما لم يسله ، وأفشى مواطن ضعف أسبانيا الحربى والمسالك الحكومىّ فرنسا وانجلتره ، وحرض ايسيكس على الاغارة على السفن والشواطئ الأسبانية . وأخيرا مات بباريس عام ١٦١١ بعد أن حاول عبثا الحصول على عفو فليب الثالث وحمايته (٣١) .

لقد وجد فليب مبررا كافيا لاتباع نصيحة أبيه له بألا يثق بمساعديه. ذلك أن أشراف الأسبان — كالنبلاء الفرنسيين — كانوا غيورين من سلطة الملكية لا يتورعون عن الكيد للملك . ولقد أبقى على خلافاتهم فيما بينهم ، وضرب بعضهم ببعض ، وتلقى تقارير ملخصة عن آرائهم المتعارضة ، ثم اتخذ قرارته . ولما فقد الثقة فى مرءوسيه ، أكبّ بشخصه على دقائق الحكم والإدارة فى كل ميدان — فى السياسة البابوية ، والأشغال العامة ، والرذائل المحلية ، والطرق والكبارى ، وتطهير الأنهار للملاحة ، وانشاء المكتبات ، واصلاح القانون الأسبانى وجمعه وتنسيقه ، والاشراف على مسح جغرافى وتاريخى واحصائى واسع لأسبانيـا ما زالت مجلداته الخمسة عشر ذات القطع الكبير دون نشر (٣٢) . على أن اضطلاعه بأعباء ينوء بها كل كاهل حتّى كاهله أفضى به إلى سياسة التسويف والتأجيل ، فقد لاحظ أن كثيرا من المشكلات تفقد إلحاحها أو معناها إذا أجلت عمدا ، ولكن مجرى الأحداث فى عدة حالات — كحالة الأراضى المنخفضة — فصل فيها على عكس ما يشتهى بينما هو يزن ما للحلول وما عليها أو يضعها على الرف . وفى مهجعه الملكى كان يملى أو يكتب بيده التعليمات لموظفيه الذين عينهم فى خمس قارات . وقد افترض أن السلطة الملكية يجب أن تكون مطلقة ، وأغفل أو طغى على « الكورتيز » أو المجالس الاقليمية.

إلا فى الأراجون، وأصدر المراسيم — حتى مراسيم الاعدام — دون محاكمة علنية، وهدأ أوتقراطيته باليقين بأن هذا سبيله الأوحد إلى حماية الفقراء من الأغنياء[٣٣]. وأنشأ تدريجا وبجهد، داخل حكمه المستبد، فى قارة استشرى الفساد فى كل ارجائها تقريبا، بيروقراطية وقضاء امتازا بالقياس إلى غيرهما بالكفاية والعدل [٣٤].

كان يحترم الكنيسة باعتبارها المشكل التقليدى للفضيلة والحارس القديم للملوك، ولكنه أخضع الدين للدولة فى أسبانيا كما فعل هنرى الثامن أو اليزابث الأولى فى انجلتره. وعلق أهمية كبرى على الوحدة الدينية باعتبارها أداة للحكم، حتى أنه رأى «أنه خير للملك ألا يملك اطلاقا من أن يملك على مهرطقين». [٣٥] فلما اقتنع بأن المغاربة فى أسبانيا ما زالوا يمارسون شعائر الاسلام برغم تظاهرهم بالكثلكة، أصدر (١٥٦٧) أمرا عاليا يحرم كل العادات الاسلامية ويحظر استخدام اللغة العربية واقتناء الكتب العربية. وتمرد المغاربة (١٥٦٨)، واستولوا على اقليم كبير جنوبى غرناطة، وذبحوا المسيحيين، وعذبوا الكهنة، وباعوا النساء والأطفال رقيقا للبربر نظير البارود والبنادق. ولكن التمرد أخمد بعد سنتين من الفظائع التى تنافس الفريقان فى ارتكابها. وطرد جميع المغاربة من اقليم غرناطة وشتتوا بين الجماعات المسيحية فى قشتالة، وأودع أبناؤهم البيوت المسيحية، وجعل الحضور إلى المدارس اجباريا على جميع الأطفال — وهو أول الزام من نوعه فى أوربا [٣٦]. واشتبه فليب فى أن المغاربة الباقين فى بلنسية وقتالونيا يتآمرون مع العدو، وكان فى حرب مع الترك، ولكن كثرة أعبائه أكرهته على أن يترك آخر مراحل المشكلة لخلفه.

وكان أبوه قد خلف له مهمة الدفاع عن العالم المسيحى ضد الإسلام باعتبارها جانبا هاما من سياسة الهابسبورج. ففى عام ١٥٧٠ انضم إلى البندقية والبابوية فى حرب صليبية تنهى سيادة الترك على البحر المتوسط.

وسقطت قبرص فى يد الترك بينما كان فليب يضع الخطط والحلفاء الثلاثة يحشدون أسطولهم . وما وافى عام ١٥٧١ حتى كانوا قد جمعوا فى مسينا ٢٠٨ سفينة شراعية كبيرة و ٥٠٠٠٠ بحار ، و ٢٩٠٠٠ جندى ، ورفع فوق مقدم كل سفينة صليب ، ومنحت البركة للرايات ، وارتفعت الصلوات جملة إلى عنان السماء ، وأصدر الامبرال الشاب الملهم الصيحة الصليبية ، «المسيح قائدكم ، أنكم تخوضون معركة الصليب». وفى ١٦ سبتمبر ١٥٧١ أقلع الأسطول وحقق انتصارا قضى على تفوق الترك فى البحر المتوسط . وإذ كانت أسبانيا قد أسهمت بأكثر من نصيبها من السفن والرجال ، فإن بهاء ليبانتو سطع على دون جوان والملك ، وقارب فليب عندها ذروة مجده قبل انحداره . وواتته هذه الذروة حين ورث عرش البرتغال (١٥٨٠) فضم هذا البلد الاستراتيجى إلى ملكه المتعاظم .

أما همه المقيم فكان ثورة الأراضى المنخفضة . فقد علم ساخطا أن أن كولينى ، الزعيم البروتستنتى ، كاد يقنع شارل التاسع بأن فرنسا يجدر بها أن تتحالف مع الثوار . فلما بلغ فليب نبأ مذبحة القديس برتولوميو التى أطلق شارل وحوشها على الهيجونوت طرب له وشدد النكير على الأراضى المنخفضة . فحرض على اغتيال وليم أورنج ودفع أجر الجريمة ، وحاول شراء صداقة هنرى نافار ؛ ولكن هنرى لم يكن ممن تشترى صداقتهم بالمال . ومن ثم اشترى فليب آل جيز والحلف الكاثوليكى ؛ وحلم بجعل ابنته ملكة على فرنسا ، وعندها تتحالف قوى أسبانيا وفرنسا فتخضعان الأراضى المنخفضة ، وتنصبان مارى ستيوارت ملكة على انجلتره ، وتقطعان دابر البروتستنتية من كل مكان . فلما أرسلت اليزابث المعونة لهولندة (١٥٨٥) ؛ وشيعت مارى إلى آخرتها (١٥٨٧) ، وبعد سنين صبر فيها فليب وصابر على الغارات التى شنها قراصنة اليزابث على سفن أسبانيا وشواطئها وكنوزها . جنح آخر الأمر إلى الحرب ، فخرب مالية حكومته ليمول الأرمادا . وساندت أسبانيا كلها هذا الجهد وصلت من أجل النصر ، شاعرة بأن مصير الأسطول سيفصل فى تاريخ أوربا .

وتجلد فليب فى ظاهر الأمر لذل الكارثة وعارها ، وقال انه أرسل سفنه لتقاتل البشر لا الأنواء . ولكن الهزيمة حطمت روحه وكادت تحطم أسبانيا ، هذا برغم أنه عاش بعدها وقاتل عشر سنوات أخرى ، وأن أسبانيا استغرقت قرنا حتى سلمت بخرابها . إنه لم يستطع أن يصدق أن الله تخلى عنه بعد ثلاثين عاما من الكفاح فى سبيل الإيمان ، ولكن لا بد أن هذه الحقيقة الكئيبة طالعته فى النهـــاية ، وهى أنه بعد أن أفقر شعبه بالضرائب ، أخفق فى كل شىء إلا فى اكتسابه البرتغال بمحض الصدفة ، ورده الترك مؤقتا — وكانوا قد استولوا من جديد على تونس وأخذوا يستردون سطوتهم . لقد كان هنرى الرابع يسير إلى النصر فى فرنسا ؛ والأراضى المنخفضة فى ثورة لا سبيل إلى التصالح فيها ؛ وأبى البابا أن يتحمل فلسا من نفقات الأرمادا ؛ وقبضت البروتستنتية على ناصية الشمال الغنى ، وأخذت إنجلتره تهيمن على البحار ومن ثم على أمريكا والشرق بعد قليل ، أما تلك السليطة البزابث ، فهى متربعة على عرشها المنيع وسط المياه ظافرة بعد أن تفوقت على كل ملوك عصرها فطنة ودهاء .

واصطلح على الملك الثكل ، والعزلة ، والمرض — اصطلحت عليه كلها لتذله بعد عز وتوهن من اعتداده بنفسه . كانت زوجته الرابعة قد ماتت عام ١٥٨٠ ، ولم يبق على قيد الحيـــاة من الأطفال الثلاثة الذين أنجبتهم غير غلام قليل الكفاية لا بد أن يورث أول امبراطورية لا تغرب الشمس فوق رقعتها . ان الشعب ما زال يحمل لفليب الاجلال برغم أخطائه وهزائمه ، فهو مقتنع بأنه ناضل من أجل قضية مقدسة ، وأنه لعب لعبة القوة دون أن يفوق أعداءه تحللا من مبادئ الشرف ، وهو صابر فى غير لوم على الشقاء الذى أوقعته فيه سياساته الاقتصادية ونظام ضرائبه وهزائمه . وقد أصاب أطرافه بالآلام المبرحة فى شيخوخته ، وأعجزه بالشلل ، ذلك النقرس الذى كان آخر تركة ورثها عن أبيه ، وخيمت على احدى عينيه سحابة من السد ، وشوهت جلده القرح المنفرة .

وفى يونيو ١٥٩٨ حمل على محفة إلى الاسكوريال ، إلى غرفته الأثيرة التى يستطيع خلال نافذتها أن يتطلع إلى مذبح الكنيسة المرتفع . وظل ثلاثة وخمسين يوما يبلى جسده فى فراشه ، محتملا كل شيء وهو واثق أنه امتحان الأله لإيمانه ، محتفظا بذلك الإيمان إلى النهاية الرهيبة ، متشبثا بصليب لا يفتأ يلثمه مرددا الصلوات المرة بعد المرة . وأمر بالافراج عن السجناء ليكون ذلك آخر عمل من أعمال الرأفة . وأرسل فى طلب ابنه ، وأوصاه بالرأفة والانصاف ما دام حيا ، وأمره بأن يعتبر بالخاتمة المهينة التى تنتهى إليها القوة الدنيوية . ثم انتهى عذابه فى ١٣ سبتمبر ١٥٩٨ .

لقد بذل قصاراه بعقل غلت التربية فى تقييده ، عقل أضيق من أن يسع امبراطوريته ، وأصلب من أن يطوع نفسه لتبعاته المنوعة . وليس فى مقدورنا أن نعرف هل كان إيمانه زائفا ؛ وكل ما نشعر به أنه إيمان متعصب قاس ككل إيمان فى عصره تقريبا ، وأنه أظلم عقله وشعبه بينما واسى فقر هذا الشعب وسند كبرياء الملك . ولكن فليب لم يكن الغول الذى صورته أقلام خصومه المشبوبة . فقد كان — على قدر ما أوتى من بصيرة — لا يقل فى عدله وسماحته عن أى حاكم فى قرنه إلا هنرى الرابع . وكان مهذبا فى حياته الزوجية ، محبا لأسرته محبوبا منها ، صابرا على الاستفزاز ، شجاعا فى الشدة ، مخلصا فى الجهد . لقد دفع إلى التمام ثمن تركته الغنية المهلكة .

٣ — فليب الثالث : ١٥٩٨ — ١٦٢١

أما وريثه فكان فليبا آخر يختلف كل الاختلاف عن أبيه . لقد حزن أبوه حين رأى تراخى الفتى وقصر نظره قائلا « ان الله الذى رزقنى هذا الملك العريض لم يرزقنى ولدا يصلح لحكمه[٢٧] » كان فليب الثالث ، الذى بلغ العشرين الآن ، أتقى حتى من أبيه ، فترددت الشائعات فى رميه بأى خطيئة ولو عارضة . ولما كان خجولا وديعا ، شديد العجز عن القيادة ، فقد أسلم كل سلطات الحكم ومتطلباته إلى فرانشسكو جومز دى ساندوفال أى روجاس ، دوق ليرما .

أما الدوق فكان فيه شيء من البر بالناس ، لأنه رقى كل أقاربه تقريبا إلى المناصب الدسمة ، ولم يغفل ذاته فى بره ، ففى العشرين سنة التى رأس فيها الوزارة جمع ثروة طائلة قدرها الشعب المغيظ بمبلغ ٤٤,٠٠٠,٠٠٠ دوكاتية[٣٨] ، وهو رقم يستحيل تصديقه . وقد وفر للخزانة من المال ما يكفى لتجهيز أسطولين صخمين ضد إنجلترة (١٥٩٩ و ١٦٠١) ، ولكن كليهما حطمته الأنواء العاتية . وكان للبرما من الحصافة ما جعله يرحب بعروض السلام التى قدمها جيمس الأول ، وهكذا أبرمت أسبانيا وإنجلترة صلح لندن (١٦٠٤) بعد تسعة عشر عاما من الحرب . أما الحرب فى الأراضى المنخفضة فاستمرت ، واستنزفت الذهب من أسبانيا بأسرع من وصوله إليها من أمريكا ، ووجد لبرما أنه ليس فى طاقته أن يشبع من موارد بلد مرهق حاجات قواده المعوقين ، وجيبه الخاص . وإذا أدرك أنه لم يعد هناك جدوى من بذل مزيد من الجهود لرفض منح « الأقاليم المتحدة » استقلالها ، فقد وقع معها هدنة تمتد اثنى عشر عاما (١٦٠٩) .

ولكن مشروعه التالى كان لا يقل تكلفة عن الحرب . كان مسقط رأسه بلنسبة ، حيث يعيش ثلاثون ألفا من أسر المغاربة ، وكان فيه من التقوى ما يكفى لتبغيضه فى هؤلاء المزارعين والصناع الذين كان لجدهم واقتصادهم الفضل فى احتفاظهم باليسر وسط فقر المسيحيين المستكبر العاجز . وكان يعلم أن هؤلاء المسلمين المتنصرين قد احتفظوا — بدافع من سخطهم لاضطهاد فليب الثانى لهم — باتصالات خائنة مع مسلمى أفريقيا وتركيا ، ومع هنرى الرابع ملك فرنسا ، الذى أمل أن يفجر الثورات فى أسبانيا فى الوقت المناسب[٣٩]. ورأى أنه ليس من الوطنية فى شيء أن يعاف المغاربة الخمر ويزهدوا فى أكل اللحم ، فنتيجة هذا أن يقع عبء الضرائب المفروضة على هذه السلع ، كله تقريبا ، على كواهل المسيحيين من الأسبان . وأعرب سرفانتس عن الخوف من أن هؤلاء المغاربة الذين ارتفعت نسبة المواليد فيهم عنها فى « المسيحيين القدامى » لندرة العزوبة عندهم ، سيسودون

أسبانيا عما قليل (٤٠) . وقدم خوان دى ريبيرا رئيس أساقفة بلنسية المذكرات إلى فليب الثالث (١٦٠٢) يحضه فيها على طرد جميع المغاربة الذين تزيد أعمارهم على السابعة ، وقال فى تفسيره للكوارث التى نزلت بأسبانيا ، بما فيها تدمير الأرمادا ، إنها عقوبات أنزلها الإله لإيوائها الكفار ، فهؤلاء المسيحيون المزيفون يجب ترحيلهم ، أو ارسالهم لسفن العبيد ، أو شحنهم بالمراكب إلى أمريكا ليشتغلوا عبيدا فى المناجم (*) (٤١) . وبرغم تحذيرات البابا ، وبرغم احتجاجات ملاك الأراضى الذين كانوا ينتفعون من مستأجريهم المغاربة ، أصدر ليرما (١٦٠٩) مرسوما أمر به جميع مسلمى اقليم بلنسية — مع بعض الاستثناءات — بأن يستقلوا خلال ثلاثة أيام مراكب أعدت لهم لينقلوا إلى أفريقيا ، غير حاملين معهم من المتاع أكثر مما تطيقه ظهورهم . وتكررت الآن المناظر التى رافقت طرد اليهود قبل ١١٧ عاما . وأكرهت الأسر البائسة على بيع أملاكها بخسائر فادحة ، وساروا إلى الموانئ يتعثرون فى شقائهم ، وسرق الكثيرون منهم ، وقتل البعض ، فى طريقهم إلى السفن أو وهم على ظهورها . فلما وصلوا إلى أفريقيا تهللوا لبلوغهم أرضا مسلمة ، ولكن ثلثيهم هلكوا جوعا أو قتلوا باعتبارهم مسيحيين (٤٢) . وفى شتاء ١٦٠٩ — ١٠ أجلت حركات طرد أخرى من بقى من المغاربة فى غير بلنسية ، وهكذا نزعت أملاك ٤٠٠٫٠٠٠ من أكثر أهل أسبانيا انتاجا وأقصوا عن البلاد . وكان هذا فى أعين الشعب أمجد منجزات الحكم ، وتطلع الأسبان السذج إلى عهد أكثر رخاء ، بعد أن استرضوا الإله بتخليص أسبانيا من الكفار . واغتبطت الحاشية بالحصيلة التى تجمعت من مصادرة أملاك المغاربة ، فكان نصيب ليرما منها ٢٥٠٫٠٠٠ دوكاتية ، ونصيب ابنه ١٠٠٫٠٠٠ ، ونصيب ابنته وصهره ١٥٠٫٠٠٠ (٤٣) .

(*) أدخل خوان دى ريبيرا فى زمرة القديسين عام ١٩٦٠ .

وما حلت سنة ١٦١٨ حتى كان جشع ليرما وأهماله ، وأسراف الملك وحاشيته ، وفساد الموظفين ، وتمزق الاقتصاد بخروج المغاربة ، قد هبط بأسبانيا إلى درك نبه حتى هذا الملك الخامل إلى ضرورة التغيير . وفى فورة من فورات العزيمة طرد ليرما (١٦١٨) ، ولكن ليقبل ابنه — الدوق أو سيدا — رئيسا لوزرائه . واعتزل ليرما فى لباقة ، وتقبل قبعة الكردينالية وعاش سبع سنين أخر رافلا فى حلل التقوى والثراء . وفى عام ١٦٢١ أنذر مجلس قشتاله الملك بأن ملكه « فى طريقه إلى الافلاس والدمار لفداحة الأعباء والضرائب والرسوم » (٤٤) ، وتوسل إليه أن يعتدل فى نفقاته . فتقبل النصيحة ولكنه مضى يسلك مسلكا ملكيا مترف الجهاز والصيانة . فى هذه السنة بعينها مات مخلفا لولده ملكا عريضا لاحول له ولا قوة ، وحكومة فاسدة لا كفاية فيها ، وشعبا هوى إلى درك الفاقة والتسول والسرقة ، وطبقة استنكفت من أن تؤدى ضرائبها ، وكنيسة خنقت فكر الشعب وحطمت ارادته وأحالت خرافاته أكداسا من الذهب .

٤ — فليب الرابع : ١٦٢١ — ٦٥

خالف الولد أباه فى كل شيء إلا الإسراف . ونحن نعرفه ظاهرا من الصور الكثيرة التى رسمها له فيلاسكويز ، ففى متحف المتروبوليتان للفنون بنيويورك يطالعنا وهو بعد فى التاسعة عشرة (١٦٢٤) ، فتى وسيما أشقر الشعر متفتحا للحياة ، وفى متحف الصور الأهلى بلندن نراه مرحا واثقا بنفسه فى السابعة والعشرين ، ثم بدينا وقورا فى الخمسين ، وفى البرادو نراه فى خمس مراحل بين البهاء والانحلال ، كذلك نرى صوره فى فلورنسة ، وتورين ، وفينا ، وسنسناتى — لا بد أن هذا الرجل أنفق نصف حياته فى مرسم فيلاسكويز . ولكن هذه اللوحات لا تكشف إلا عن ملامحه الرسمية ، فهو لم يكن فى حقيقته بهذه الرزانة والكبرياء ، وقد نكون أكثر انصافا فى تصوره إذا تأملنا أطفاله فى لوحات فيلاسكويز ، وأغلب الظن أنه أحبهم حبا يفوق العقل كما نحب أطفالنا . كان فى صميمه رجلا

لطيفا ، كريما مع الفنانين والمؤلفين والنساء ؛ لا نصف قديس كأبيه ؛ بل مستمتعا بالطعام ، والجنس ، والتمثيليات ، والصور ؛ وحياة البلاط ، والصيد ، عازما على أن ينهل من الحياة ما استطاع حتى فى بلد محتضر كأسبانيا .

ولعل استطابته الخالصة للحياة هى صاحبة الفضل فى ازدهار الشعر والدراما ، والتصوير والنحت ، فى عهده ازدهارا لم تشهد أسبانيا له نظيرا من قبل ولا من بعد . كان إذا بدت لذاته مشتطة فى فوضاها استكثر من الصلوات ، واعتمد على نياته الطيبة فى أن تعبد له الطريق إلى السماء . أنجب من الأطفال غير الشرعيين اثنين وثلاثين ، اعترف منهم بثمانية (٤٥) . وإذ لم يكن فى وقته متسع لشئون الحكم ، فقد فوض بسلطاته وواجباته رجلا من أبرز الشخصيات فى دبلوماسية القرن السابع عشر .

هذا الرجل — الدوق جاسبار دى جوزمان ، كونت أوليفاريس — جرت حياته موازية ومعارضة لحياة ريشليو . فقد لعب هذا الكونت العظيم مع الكردينال الداهية ، طوال واحد وعشرين عاما (١٦٢١—٤٢) ، لعبة دامية من الذكاء والحرب للتسيد على أوربا . وقد أطلعنا فيلاسكويز على شخصية أوليفاريس — رجل خلا من الخوف والملامة ، فيه كل عدوان القوة ، تلتف شواربه الكبيرة المشذبة كأنها سيف معقوف رهيب ، وعباءات منصبه وأحزمته وسلاسله ومفاتيحه تنطق بالسلطة (٤٦) . أما العيوب التى شابت خلقه ، وهى الغطرسة والنزق والعناد الشديد ، فقد أقصت عنه كل الناس إلا من خبروا أيضا غيرته المتفانية ، وعكوفه الشديد على خدمة أسبانيا . وأمانته الصريحة فى بيئة فاسدة ، واحتقاره للذات الدنيا إلا أن تكون سبيلا لإرباك الملك ، وقصده فى الطعام وبساطة حياته الخاصة ، ومساندته الحارة للآداب والفنون . وقد ناضل مخلصا للتخفيف من الرذائل ، ولوقف الرشوة ، ولرد الأموال المختلسة إلى الخزانة ، وللتقليل من نفقات بلاط الملك ، ولفرض الاقتصاد والاعتدال

فى اللباس والأثاث ، وحتى للحد من قسوة محكمة التفتيش. اضطلع بكل أعباء الحكم ، والسياسة ، والدبلوماسية ، والحرب ، فكان يبدأ مهام يومه قبل طلوع الفجر ويواصلها حتى بعد أن يخر إعياء . وكانت اللعنة التى ابتلى بها ما عمد إليه ريشليو — بمثل هذا التفانى — من استنزاف لقوة الهابسبورج فى النمسا وأسبانيا فى بطء ، ودهاء، وعناد . وقد اقتضى لقاء هذا التحدى الرهيب وجود الجيوش فى قتلونيا والبرتغال وفرنسا وقابلى ومانتوا والممرات الفالتلينية والأراضى المنخفضة، وفى بالوعة حرب الثلاثين سنة الشاسعة الدامية . ولكن الجيوش تحتاج إلى المال ، والمال يتطلب فرض الضرائب . لذلك رفع « القبالة » أى ضريبة البيوع إلى ١٤ ٪ ، فاختنقت التجارة ؛ وكان الجباة يختلسون ثلثى الضرائب قبل أن يصل باقيها إلى الخزانة . وهكذا أوهن أوليفاريس، بعزيمة وطنية، اقتصاد أسبانيا لينقذ سطوتها السياسية .

وليس حتماً أن نتتبع كل تحركات لعبة الشطرنج الدامية هذه ، فهى لا تضيف شيئاً إلى معرفتنا أو تقديرنا للبشرية . لقد كانت صراعا بين القوة لا بين المبادئ ، صراعا يغفل فيه كل طرف مذهبه فى سبيل الانتصار العسكرى ، فترى ريشليو يمول الجيش البروتستنتية فى ألمانيا ضد النمسا الكاثوليكية ؛ وأوليفاريس يبعث ٣٠٠,٠٠٠ دوكاتية كل سنة للدوق روهان ليطيل أمد ثورة الهيجونوت فى فرنسا (٤٧) . وتحطمت أسبانيا فى النهاية ؛ فقضى الهولنديون على قوتها فى البحر فى معركة داونز (١٦٣٩). وقضى الفرنسيون على قوتها فى البر فى روسيون(١٦٤٢) وروكروا (١٦٤٣) وانتهزت البرتغال وقتالونيا فرصة ضعف أسبانيا فانتزعتا حريتهما(١٦٤٠)، وخاضت جمهورية قتلونيا الحرب ضد قشتالة مدى تسعة عشر عاما بمعونة فرنسا . وأخيرا طرد الملك اللطيف وزيره على كره بعد أن كان محل ثقته خلال عشرات الكوارث (١٦٤٣) . وفر أوليفاريس من مدريد المناوئة إلى منفاه الاختيارى فى تورو البعيدة ، وهناك مات مخبولا بعد سنتين .

واضطلع فليب بالمهمة شخصيا إلى حين . فخفض نفقاته وكرس نفسه مخلصا للحكم . غير أن أسباب اضمحلال أسبانيا كانت فوق ادراكه أو سيطرته . واستمرت الحرب، ولم تخفف الضرائب ، وتناقص الإنتاج، وتقلص السكان . وفى صلح وستفاليا (١٦٤٨) كانت أسبانيا عاجزة ، فاضطرت إلى النزول عن الاستقلال للأقاليم المتحدة ، بعد حرب عقيمة امتدت قرابة قرن من الزمان . وختم صلح البرانس (١٦٥٩) بخاتمه مصدقا على السيادة الفرنسية فى أوربا . وسط هذه النكبات ماتت ازابيللا البوربونية زوجة فليب الوفية الصابرة (١٦٤٤) ، ولحق بها بعد عامين ولدها الوحيد الباقى على قيد الحياة ، دون بالتازار كارلوس ، الذى صوره فيلاسكويز بأسلوب خلاب . ولم يبق للملك غير طفلة شرعية واحدة هى ماريا تريزا ، التى زوجها للويس الرابع عشر . وإذ كان فليب تواقا لوريث للملكه فقد تزوج (١٦٤٩) وهو فى الرابعة والأربعين ابنة أخ لا تتجاوز الرابعة عشر ربيعا ، هى ماريانا النمساوية التى كانت مخطوبة لبالتازار ، فمنحته ولدين : فليب ابروسبر الذى مات فى الرابعة ، وولدا آخر أصبح فيما بعد كارلوس سيجوندو (شارل الثانى) . أما الملك المرهق ، الذى هد قواه حصى المرارة ، وأوهنه نزف البواسير ، ولم يكف عن مطاردته الرهبان المتجرون بالسحر ، فقد استسلم للموت (١٦٦٥) تعزيه فكرة وجود وريث له ، ولكنه أعفى من العلم بأن ولده نصف الأبله هذا سيوصى بملك أسبانيا كله لفرنسا .

٥ — البرتغال : ١٥٥٧ — ١٦٦٨

تميزت هذه السنوات بثلاثة أحداث فى البرتغال . فقدت استقلالها ، ثم استردته ، وكتب كاموئنش « اللوسياد » .

لقد شاركت أسبانيا نشوة التوسع وشراسة العقيدة ، ثم سبقتها إلى الاضمحلال . وكان من أثر سرعة تطورها الاستعمارى أنها استنزفت وراء البحار أكثر أبنائها مغامرة ، وأهملت الزراعة أو ترك أمرها للعبيد

الخائرى الهمة ، وفاحت فى لشبونة رائحة المرتشين ، والتجار الجشعين ، والعمال المفلسين ، وكلهم يعيش فى النهاية على الاستغلال الامبريالى أو التجارة الخارجية . واقترح الملك الشاب سباستيان ، الذى ألهمه اليسوعيون الحماسة الدينية ، على ابن عمته فليب الثانى الاشتراك فى فتح المغرب وتنصيرها . ولكن فليب تردد لكثرة شواغله ، فاقترح سباستيان أن يضطلع بالمغامرة منفردا ، وحذره فليب من قصور موارد البرتغال عن انفاذ هذه الحملة ، فلما أصر سباستيان قال فليب لمجلسه ، « لو كسب الحرب أصبح لنا صهرا مفلحا ، ولو خسرها آل الينا ملك حسن[٤٨] » وغزا سباستيان المغرب فغلب على أمره وقتل (١٥٧٨) فى معركة القصر الكبير . ولم يعقب سباستيان وريثا لأنه كان أعزب وفيا لعزوبته ، فولى العرش عمه الأكبر الكردينال هنرى ، ولكن هنرى نفسه مات دون عقب عام ١٢٨٠ ، فانتهت بذلك أسرة أفيز التى حكمت البرتغال منذ عام ١٣٨٥ .

هنا واتت فليب الفرصة التى ترقبها . وكان هو وفيليبرت إمانويل أمير سافوا الوريثين المباشرين للعرش الخالى باعتبارهما حفيدى مانويل ملك البرتغال . واعترف مجلس لشبونة بفليب وريثا ، وقاوم بعض المطالبين بالعرش من منافسيه دخوله ، ولكن ألفا الجبار انتصر عليهم ، وفى عام ١٥٨١ دخل فليب الثانى لشبونة باسم فليب الأول ملك البرتغال . وحاول بالمجاملات والرشا أن يكسب صداقة الأمة . فنهى جيشه عن نهب الريف ، وشنق الدوق ألفا من جنوده جزاء جرائم كهذه عددا كبيرا خشى معه نقصا فى الحبال ، ووعد فليب بابقاء الأملاك البرتغالية فى يد حكام من البرتغال ، وبعدم تعيين أى أسبانى فى منصب بالبرتغال ، وبصون امتيازات الشعب وحرياته . وأوفت أسبانيا بهذه العهود ما دام فليب حيا . وهكذا ورث فليب بسهولة مذهلة البحرية البرتغالية ومستعمرات البرتغال فى أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية . وزال خط الحدود القديم الذى وسمه

البابا ليفصل الممتلكات الأسانية عن البرتغالية ، واستعد أقوى ملوك أوربا ، الذى ازداد الآن قوة على قوة ، لتدمير نفسه بغزو إنجلتره .

وبينما كانت إمبراطورية البرتغال تؤول إلى أسبانيا والهولنديين ، كان اعظم شعرائها يتغنى بأمجاد فتوحها. هنا أيضا تقوم حواجز القومية واللغة سدا منيعا أمام رغبتنا فى الفهم . فأنى لقوم لم يربوا على التاريخ البرتغالى ، ولا أحسوا بمعنى الكلام البرتغالى وموسيقاه ، أن ينصفوا لويز فاز دى كاموئز — المعروف لنا باسم كاموئنش ويوفوه حقه من التقدير .

لقد عاش أغنيته قبل أن يكتبها ، كان أحد أجداده جنديا شاعرا مثله ، وجدته قريبة لفاسكودا جاما بطل اللوسياد ، أما أبوه ، القبطان الفقير ، فقد تحطمت سفينته قرب جنوه ومات هناك عقب مولد لويز فى لشبونه أو كويمبرا . والراجح أن الفتى درس فى الجامعة ، لأن قصيدته تصدح بأصداء كاتللوس وفيرجل وهوراس وأوفيد . وبدأت تجربته العاطفية فى إحدى الكنائس ، فى لحظة تعبد ، إذ تراءت له حسناء « لها وجه ناصع البياض كالثلج ، وشعر فى صفرة الذهب » ، فتحرك فيه هاتف الشعر . ولا بد أن بعض شعره ساء القصر ، إذ أنه نفى إلى قرية على أعلى نهر تاجه ، وهناك حلم بملحمة « تزيد البرتغال فخرا ، وتثير حسد أزمير مسقط رأس هومر(٤٩) » . ولكن الحكومة التى لم تقدر شعره أرسلته إلى المنفى ، أو إلى الخدمة العسكرية فى سبته ؛ وهناك فقد احدى عينيه فى معركة أو عراك ، ولما عاد إلى لشبونه دافع عن بعض أصحابه فى مشاجرة ، وطعن رجلا من الحاشية ، فزجوه فى السجن ثمانية أشهر ، ثم أفرج عنه فى أغلب الظن بعد تعهده بالانخراط فى سلك الجندية خارج البرتغال . وفى ٢٦ مارس ١٥٥٣ أبحر إلى الهند جنديا عاديا على سفينة أمير الأسطول فرناو ألفاريس كابرال ، وكان يومها فى التاسعة والعشرين من عمره .

واحتمل ضجر الليالى الرطبة فى الرحلة التى استغرقت نصف عام بنظم

القسمين الأولين من اللوسياد . وفى سبتمبر رست السفينة على جوا ، وهى « سدوم » البرتغالية فى الهند . واشترك فى حملات كثيرة . على ساحل ملبار وتجاه شواطىء جزيرة العرب ، وفى ممبسة ، وفى جزر الهند الشرقية ، فى مكاو ، « سدوم » البرتغالية فى الصين ؛ وهو يصف نفسه ملوحاً بالسيف فى يد ، وبالقلم فى الأخرى ، ولقبه رفاقه بـ « ترنكافورتيس » — أى المتفاخر الطائش — ولعلهم احترموا سيفه أكثر من قلمه . وفى مكاو إلى اليوم غار يرى للزائرين على أنه المكان الذى كتب فيه كاموئنش بعض قصيدته . وتروى قصة غير مؤكدة أنه أعيد من مكاو فى الأغلال بعد أن قبض عليه لأسباب لا نعرفها . وتذكر قصة أخرى (جردته من أغلاله) كيف تحطمت سفينته تجاه ساحل كمبوديا فسبح لوبز إلى الشاطىء وملحمته بين أسنانه (٥٠) . على أنه فقد فى غرق السفينة خليلته الصينية المحبوبة . وبعد أشهر من الشقاء وجد طريقه إلى جوا ، ولكنه طرح فى السجن هناك . وأفرج عنه ، ثم ردّ إلى السجن بسبب الدين هذه المرة . وأطلق حاكم صديق سراحه ، واستطاع الشاعر أن يستمتع برهة وجيزة بالحياة وبشتّى الخليلات من كل لون . وفى عام ١٥٦٧ اقترض بعض المال واستقل مركباً إلى البرتغال ، ونفدت نقوده فى موزمبيق ، فتسكع فى الفاقة عامين . ودفع بعض الأصدقاء العابرين ديونه وأجرة سفره وعادوا به لشبونة آخر المطاف (١٦٧٠) ، وهو لا يملك من حطام الدنيا غير قصيدته . وأجرى عليه الملك سباستيان معاشاً متواضعاً . وأخيراً وصلت القصيدة إلى المطبعة (١٥٧٢) ، وأتيح لكاموئنش أن يعيش فى الفقر مع السلامة ثمانى سنوات . ومات فى لشبونة عام ١٥٨٠ ، ودفن مع غيره من ضحايا الطاعون فى مقبرة مشتركة . وتحتفل البرتغال بذكراه فى ١٠ يونيو ، وهو يوم عطلة تذكارية، وتعتز بقصيدته « أوس لوسيادس » ملحمة قومية ، وعنوانها معناه « البرتغاليون » وقد أخذ كاموئنش لفظ لوسيا من الاسم الرومانى القديم للجزء الغربى من أسبانيا وهو لوزيتانيا .

أما القصة الكثيرة التلاقيف فتدور حول رحلة فاسكو داجاما التاريخية (١٤٩٧ — ٩٩) من البرتغال إلى الهند دورانا حول رأس الرجاء الصالح. وقد استهلها الشاعر بدعاء للملك سباستيان و « حوريات نهر تاجه » . ثم تمضى القصة مع أسطول داجاما صعدا على الشاطىء الشرق لأفريقيا . ويرى الشاعر لزاماً عليه أن يقلد هومر وفرجل ، فتراه يصـــور اجتماعاً للأرباب يتناقشون فيه حول البعثة ، وهل يسمحون لها بالوصول إلى الهند : أما باخوس فيقول لا ، ويؤلب مسلمى موزمبيق ليهاجموا البرتغال ، الذين يرسون على البر بحثاً عن الماء . وأما فينوس فتتشفع للملاحين عند جوبيتر . ويرد المغاربة على أعقابهم ، ويأمر جوبيتر داجاما بالمضى قدماً . ويرسو الأسطول على شاطىء كينيا فيستقبله الأهالى بالترحاب . ويسلك الملك الوطنى وفق خطة الشاعر ، فيطلب إلى فاسكو أن يقص عليه تاريخ البرتغال . وبعد لأى يستجيب أمير البحر للطلب ، فيروى مأساة اينيس دى كاسترو ، ويصف معركة ألجبروتة الحاسمة (١٣٨٥) ، حيث انتزع البرتغال أولا حريتهم من أسبانيا ، ويختم بإقلاع بعثته هو من لشبونة . وبينما يعبر هؤلاء المغامرون الجدد المحيط الهندى يبتليهم باخوس ونبتون بعاصفة هوجاء ، وهنا يرى الشاعر الذى جاز بمثل هذه العاصفة ، متجلياً فى وصف مثير . ولكن فينوس تهدىء ثائرة الأمواج ، ويصل الأسطول ظافراً إلى كاليكوت .

وفى رحلة العودة تعد فينوس وابنها كيوبيد وليمة للبحارة الذين نال منهم التعب ، فتخرج بأمرها « ناريدات » حسان من البحر ، يكدسن موائد القصر بأطايب الطعام والزهر ، ويذهـــبن تعب البحارة بالطعام والشراب والحب :

« أى قبل جائعة تلك التى تبودلت فى الغابة ! وأى صوت رقيق علا بالشكوى الحنون ! أى عناق لذيذ ، وكم من طبع حيى غضوب تحول تحولا لطيفاً بفضل هذا اللهو المرح ! لقـــد ظلوا من مطلع الفجر حتى

الظهيرة ينهلون من هـذه المتع التى أجنجبت فينوس لحبها ، والتى يؤثر الرجال ارتشافها على ذمها ، بل يؤثرون ذم الذين لا يستطيعون تذوقها (٥١) » .

ومخافة أن يشكو بعض البرتغاليين من أن فى هذه الأبيات إهانة لمبدأ الزواج بامرأة واحدة أكد لنا كاموئنش أن هذا الغرام ليس إلا رمزاً، وأن الحوريات « لسن إلا جوائز . . . ترفع بها الحياة وتهذب » ؛(٥٢) أياً كان الأمر ، فإن البحارة يتعثرون رمزيا عائدين إلى سفنهم ، ويجد الأسطول طريقه عوداً إلى لشبونة . وتختتم القصيدة بتوسل إلى الملك أن يحسن جزاء الكفايات أينما كانت ، وليس أقلها جـدارة بالمكافأة هذه الأغنية الوطنية .

ويستطيع القارئ الأجنبي ، ولو خلال ضباب الترجمة ، أن يشعر بما فى هذه القصيدة الرائعة من موسيقى رقراقة ونشوات غنائية ، ويحس بالدم الدافئ الذى يجرى فى عروق جندى شاعر ينقل لنا صلابة البرتغاليين وتاريخهم الحافل بالمغامرات فى أيام التوسع تلك : ويروى أن تاسو قال إن كاموئنش هو الشاعر المعاصر الوحيد الذى لا يقيس نفسه به قياس المطمئن الواثق ؛ وقد فضل لوبى دى فيجا القصيدة على الإلياذة والأنياده ، يوم لم يكن بين الأسبانيه والبرتقالية ما بينهما الآن من بون ساشع(٥٣) . واليوم تعد القصيدة رباط وحدة ، وراية فخر ورجاء ، أينما نطق الناطقون بلغة كاموئنش — فى لشبونة الجميلة ، وفى جوا ومكاو المنحطتين ، وفى البرازيل النشيطة ، المتفتحة ، الرخية .

وروى أن كاموئنش قال حين نمى إليه استيلاء فليب على البرتغال ، وكانت هذه آخر كلماته قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة « لقد أحببت وطنى حباً يجعلنى أموت معه .(٥٤) » لقد سارت أمور هذا الوطن الأسير سيراً لا بأس به فى حياة فليب ، ولكن خلفاءه حنثوا بعهوده . واقترح

أوليفاريس توحيد الأمتين واللغتين ، واستولت أسبانيا على معظم المكاسب. التي غلتها مستعمرات البرتغال وتجارتها ، أما الإنجليز والهولنديون ، الذين كانوا في حرب مع أسبانيا ، فقد أسروا البرتغاليين ، كما أسروا الأسبان ، أو نهبوا ممتلكاتهم وأسواقهم وأساطيلهم . وملأ الأسبان المناصب البرتغالية ، وملأ الكنسيون الأسبان الكراسي الدينية البرتغالية ، وألقت محكمة التفتيش حجاباً كثيفاً على الأدب والفكر البرتغاليين .

وكان سخط الشعب يزداد كلما هبط الدخل القومي ، حتى انتهى الأمر بأن قاد الأشراف والأكليروس الأمة المحنقة إلى الثورة . وأعلن الوطنيون بتشجيع من إنجلتره وريشليو ، يوحنا دوق براجانزا ملكا على البرتغال (١٦٤٠) . وأرسلت فرنسا والهولنديون أساطيل إلى نهر تاجه لتحمي البرتغال ، وتعهدت فرنسا بألا تعقد صلحاً مع أسبانيا ما لم تعترف باستقلال البرتغال . وكانت الحرب الخارجية قد أرهقت أسبانيا إلى حد أعجزها عن تدبير المال أو الرجال لقمع انتفاضة جارتها ، ولكن حين خفت الضغوط الأخرى عليها ، جردت على الحكومة الجديدة جيشين عدتهما ٣٥,٠٠٠ مقاتل (١٦٦١) . ولم يكن في طاقة البرتغال أن تحشد أكثر من ١٣,٠٠٠ جندي ، ولكن تشارلز الثاني ملك إنجلتره أرسل إلى البرتغال قوة يقودها القائد الألمعي فريدريك شومبيرج ، وذلك لقاء عروس هي كاترين أميرة براجانزا ، ولقاء مهر أجمل من العروس ، ومعاهدة رابحة تبيح التجارة الحرة مع الموانيء البرتغالية في جميع القارات . وهزم الغزاة الأسبان في أيفورا (١٦٦٣) ومونتس كارلوس (١٦٦٥) ، وفي عام ١٦٦٨ اعترفت أسبانيا المنهوكة القوى باستقلال البرتغال .

الفصل الحادي عشر

العصر الذهبي للأدب الأسباني

١٥٥٦ — ١٦٦٥

١ — السيجلو دى أورو (القرن الذهبي)

كتب سرفانتس عام ١٥٨٤ يقول « ما أكثر العباقرة الملهمين الذين يعيشون اليوم في وطننا أسبانيا ». [1] وأغلب الظن أنه هو ، دون سواه، الذي عرف أنه أعظمهم ، ولم يكن بعد قد ألف « دون كخوته » (١٦٠٤) فحين وافى هذا التاريخ فيما بعد كان « القرن الذهبي » (١٥٦٠ — ١٦٦٠) قد بلغ شأوه وتألق بكل سنائه ومجده .

ترى ما الذى أطلق هذا التفجر الثقافي ، هذا الحشد الرائع من نجوم الأدب والفن؟لعله انتصارات أسبانيا في ميادين السياسة والاقتصاد والدين — فتح الأمريكتين واستغلالهما ، وقوة أسبانيا ومكاسبها في إيطاليا، والأراضي المنخفضة ، والبرتغال ، والهند ، والنصر على المسلمين في أسبانيا والترك في ليبانتو . ونحن لا نستطيع اليوم ، لما بيننا وبين أزمات الروح الأسبانية من بعد الشقة ، أن نفهم كيف أججت مخاطر هذه السنوات المثيرة وانتصاراتها حماسة الإيمان الكاثوليكي وجعلت أكثر الأسبان يفخرون بدينهم فخرهم بأنسابهم ؛ أما رقابة المطبوعات ومحكمة التفتيش اللتان قد نحسبهما خانقتين للحريات ، فقد تقبلتهما الأمة على أنهما من الاجراءات الحربية الضرورية للوحدة القومية في الحرب الصليبية ضد الإسلام . وهكذا راح العقل الأسباني ، الذى حظر عليه أن يشت بعيدا عن العقيدة المقدسة ، يحلق داخل حدوده المقيدة، وسط عالم رفيع من القصص والشعر والدراما والعمارة والنحت والتصوير .

ولكنه كان إلى ذلك عصر العلماء الأمناء والمؤرخين الأجرياء ، عصر المؤلفات البارزة فى اللاهوت والحكم والقانون والاقتصاد والجغرافيا والدراسات الكلاسيكية والشرقية . وفى رأى العلامة هالام أن « العلم كان فى عهد فليب الثانى أكثر تقدما منه فى عهد إلزابث [٢] » . ولا ريب فى أن التعليم كان أوفر وأعم . فقد وجد الفقراء والأغنياء على السواء طريقهم إلى الجامعات الكثيرة ، وأضيف فى هذه الفترة عشرون جامعة جديدة إلى الجامعات المشهورة ، وكانت جامعة سالامانكا وحدها تضم ٥٨٥٦ طالبا عام ١٥٥١ [٣] . « لا يستطيع انسان أن يزعم أنه كابالليرو (جنتلمان) مالم يكن كذلك أديبا » .[٤] وفتح الملوك والوزراء والنبلاء والأحبار خزائنهم للعلماء والشعراء والفنانين والموسيقيين . على أنه كان هناك بعض النشاز فى هذا التصعيد ، ذلك أن الكنيسة شهرت سوطا فوق رءوس المعلمين . وحرم فليب الثانى على الشباب ، حرصا منه على الاحتفاظ للجامعات الأسبانية بملئها من الطلاب وجعل العقول الأسبانية نقية من الناحية اللاهوتية ، حرم عليهم أن يدرسوا فى أى جامعات أجنبية الا كوامبرا وبولونيا وروما . ولعل هذا التزاوج الفكرى المحصور لعب دورا فى عقم أسبانيا الثقافى بعد العصر الذهبى .

وهناك رجلان بارزان من اليسوعيين يدخلان الصورة هنا . أما أولهما ، بالتازار جراثيان ، مدير كلية لليسوعيين فى تاراجونا ، فقد وجد الوقت ليكتب (١٦٥٠ — ٥٣) رواية من ثلاثة مجلدات تدعى « الكريتيكون » يصف فيها تحطيم سفينة لسيد أسبانى على جزيرة القديسة هيلانة ، وتعليمه للرجل المتوحش الوحيد الذى وجده هناك (أهذا مصدر لروبنسن كروزو ؟) ، ثم أسفارهما معا فى أرجاء العالم ، ونقدهما النفاذ للحضارة الأوربية . وقد أطرب تشاؤمهما وكرههما للنساء شوبنهاور ، فوصف الكتاب بأنه « من خيرة الكتب فى العالم[٥] » وتفحص أحد الأصدقاء

جراثيانِ بعض العملة الدولية إذ اختار من كتبه ثلاثمائة فقرة نشرها تحت هذا العنوان « الوحي الميسر ، وفن الحكمة الدنيوية ». وقد قام شوبنهاور بترجمة من ترجماتها الكثيرة . وإلى القارئ عينات من هذه :

« حذار من أن يكسف ضوءك ضوء السيد . . . لقد كان التفوق دائما مكروها ، وكلما عظم اشتد الكره له . وشيء من الحذر كفيل بتغطية فضائلك العادية كما تخفى حسنك باللباس المهمل[٦] .

ان التوسط فى الكفاية يحرز بالاجتهاد تقدما أكثر مما يحرزه التفوق بدونه[٧] .

للحظ قواعد ، فالعقلاء لا يرون الأشياء كلها وليدة الصدفة[٨] .

ليس الكمال فى الكم بل فى الكيف . . . بعض الناس يحكمون على قيمة الكتب بركبهم ، وكأنها كتبت لتمرين الأذرع[٩] .

فكر كالقلة ، وتكلم كالكثرة . . . ان الحقيقة للقلة . . . ليعتصم الحكيم بالصمت ، فإذا سمح لنفسه أحيانا بالكلام فليكن فى حمى القليلين والفاهمين[١٠] .

تعلم كيف تقول لا . . . لا يكن الرفض قاطعا ، فالحقيقة تتجلى تدريجيا . . . عليك بالمجاملة تملأ بها فراغ الرفض[١١] .

قد نتبين نضج امرئ من البطء الذى يصدق به ما يسمع[١٢] .

هناك دائما متسع من الوقت تضيف فيه كلمة ، ولا وقت لسحب كلمة[١٣] » .

كان المؤرخون الأسبان فى هذه الفترة خير المؤرخين فى أوربا . وجمع فليب فى دار المحفوظات بسيمانكاس مجموعة هائلة من الأوراق الرسمية وغيرها من الوثائق ، لأن « الاخباريين والمؤرخين قاصرو العلم بشئون

الدولة ، ورغبة فى تفادى هذا العيب كان من المرغوب فيه جمع ما أمكن من مواد قد تكون ذات فائدة »(١٤) على حد قوله . وأصبحت هذه المحفوظات ذخرا للمؤرخين منذ ذلك الحين . وقد رجع جيرونيمو دى زوريتا إلى آلاف الوثائق الأصيلة فى إعداد كتابه « حوليات مملكة أراجون » (١٥٦٢ — ٨٠) ، واشتهر فى أوربا بأسرها بـ « أعظم الكتاب تدقيقا » .

أما أعظم المؤرخين الأسبان قاطبة ، وهو خوان دى ماريانا ، فقد بدأ حياته ابنا غير شرعى لكاهن فى طلبيرة . وإذ ترك فى صباه ليدير شئونه بنفسه ، فقد شحذ ذكاءه على حجر الضرورة القاسية والفقر الطاحن . وزوده اليسوعيون بتعليم صارم بفضل ما عهد فيهم دائما من سرعة فى تبين الموهبة . فلما بلغ الرابعة والعشرين أرسلوه للتدريس فى كليتهم بروما ، ثم إلى صقلية ، ثم إلى باريس ، حيث اجتذبت محاضراته عن توما الأكوينى جماهير المستمعين المتحمسين . على أن صحته انهارت ، فسمح له وهو فى السابعة والثلاثين (١٥٧٤) بالاعتكاف فى بيت الطائفة اليسوعية فى طليطلة ، فلزمه لا يبرحه إلا نادرا طوال سنيه التسعة والأربعين الباقية من عمره . وهناك كتب رسائل هامة أثارت إحداها ضجة دولية (كما سنرى) ، ورسالة أخرى « فى عملة المملكة » كانت هجوما جريئا على غش ليرما للعملة ، وثالثة تركها دون نشر شرحت « الأخطاء فى حكومة جمعية يسوع » . وقد أفرغ أكثر جهده فى الأربعين سنة الأخيرة من حياته فى تأليف « كتاب فى تاريخ أسبانيا » (١٥٩٢) — الذى كتبه باللاتينية ليتيح لكل الأوربيين المثقفين أن يعرفوا كيف ارتقت أسبانيا إلى مقام الزعامة والقوة . وقد ترجم أكثر الكتاب إلى أنقى اللهجات القشتالية بحضى من الكردينال بمبو تحت عنوان « تاريخ أسبانيا » (١٦٠١) ، وهو أجل المنجزات فى تأليف التاريخ الرسمى الأسبانى ، نابض بالحياة فى سرده ، بديع فى أسلوبه ، متمكن فى رسمه

للأشخاص ، جرىء فى أمانته — « أروع ما شهده العالم من جمع بين العرض الزمنى المثير ، والتاريخ الرصين[١٥] » .

وكما أن كتب الأخبار المعروضة حسب تسلسلها الزمنى ، تدرجت (كما نرى فى مؤلفات كالتى ذكرنا) إلى كتب التاريخ بوصفه ضربا من الأدب والفلسفة ، كذلك نرى القصص الأسبانى فى هذا العصر ينتقل من رواية الفروسية والقصة الرعوية ليبلغ فى قفزة واحدة أرفع القمم فى تاريخ القصة ؛ لقد ظلت روايات الفروسية كثيرة يقبل عليها فى نهم كل أسبانى من القديسة تريزا إلى سرفانتس ، وربما كانت عند بعض القراء تفريجا من حدة الدين الأسبانى المتسامية ، لأن عقيدة هذه الروايات كانت الغرام ، وولاء الفرسان لم يكن للعذراء مريم بل لمن اختاروا أو هووا من النساء ؛ وفى سبيل الدفاع عنهن أو تملكهن تراهم على استعداد لتكسير النصال الكثيرة وتحطيم عدد غير قليل من نواميس الله والبشر . ولكن التهافت على مثل هذه القصص كان يتناقص حين كتب سرفانتس ، وكان مونتيى وخوان لويز فيفز قد سخرا منها ، وكان مجلس قشتاله شكا منذ سنين طويلة (١٤٣٨) من أن « كثيرا من الأذى يلحق بالرجال والفتيان والفتيات وغيرهم » بسبب هذه الروايات ، وان الكثيرين « قد أضلتهم هذه القصص عن التعليم المسيحى الصحيح[١٦] » .

وبلغت الأمور الذروة بفضل تطور آخر . ففى عام ١٥٥٣ كان كاتب مجهول الهوية قد كتب فى « لاثاريللو دى تورمس » أول قصة بأسلوب البيكارسك (أى التشرد) الذى جعل من أحد الوضعاء الظرفاء بطلا يكفر عن فقره بالتمرد على القانون ، وعن تمرده على القانون بالفكاهة الذكية . وفى عام ١٥٦٩ نشر ماتيو أليمان قصة مرحة سماها « حيـــاة المتشرد جوثمان دى الفاراتشى » . وبعد خمس سنوات تناول سرفانتس هذين المزاجين — حـــلم الفارس الشهم الآخذ فى الزوال ، وحكمة رجل الشارع الممزوجة بالفكاهة ، وجمع بينهما جنبا إلى جنب فى أشهر القصص قاطبة وأروعها اطلاقا .

٢ ــ سرفانتس : ١٥٤٧ — ١٦٦٦

في ٩ أكوبر ١٥٤٧ ، وجريا على العادة الأسبانية بتسمية كل طفل باسم القديس الذي يحتفل بذكراه في يوم ميلاده ، عمد خالق دون كخوتة وسانشو بانزا باسم « ميجل دى سرفانتس » في « القلعة » . وقد أضاف — وربما أضاف أبوه أيضا — اسم سافيدرا ، من الأسرة القشتالية التي تزاوج فيها أسلافه الغاليسيون في القرن الخامس عشر . وكان الأب طبيبا غير مرخص ، ثقيل السمع قليل المال ، يتنقل من بلد إلى بلد ليجبر العظام ويطبب الاصابات الخفيفة ، ويبدو أن الصغير ميجل صحبه إلى بلد الوليد ، ومدريد ، واشبيلية . أما تعليم الصبي فلا نعرف عنه شيئا ، فيلوح انه لم يحظ بتعليم عال برغم مولده في مدينة جامعية ، ومن ثم لم تطهره الدراسات الكلاسيكية ولا زحمته ، واضطر إلى التقاط معرفته بالحياة من العيش فيها .

وأول ما نملك من الحقائق عنه بعد سجل عماده أن معلما من مدريد نشر عام ١٥٦٩ مجلدا احتوى ست قصائد بقلم « تلميذنا العزيز المحبوب » سرفانتس . وفى سبتمبر من تلك السنة قبض على المدعو ميجل دى سربانتس بتهمة الاشتراك في مبارزة ، ونفي من أسبانيا عشر سنوات يعاقب دونها بقطع يده اليمنى . وفى ديسمبر نجد فتانا ميجل يخدم في بيت كبير من رجال الكنيسة في روما . وفي ١٦ سبتمبر ١٥٧١ نرى ميجل هذا ، ربما مدفوعا (مثل كاموئنش) بتفضيل الخدمة العسكرية فرارا من السجن ، مبحرا من مسينا على السفينة «ماركيزا » فى أسطول دون جوان النمساوى . وحين التحم الأسطول بالترك فى ليبانتو كان سرفانتس مريضا بالحمى في عنبر سفينته ، ولكنه وضع على رأس اثني عشر رجلا في زورق إلى جوار السفينة لأنه أصر على لعب دوره ، وأصيب بثلاثة جروح من طلقات نارية ، جرحين في صدره والثالث أعجز يسراه عجزا مستديما — « لنصرة الحق » على حد قوله . وأعيد إلى مستشفى بمسينا ودفعت له الحكومة

الأسبانية اثنتين وثمانين دوكاتية . ثم شارك فى معارك حربية أخرى — فى نافارينو ، وتونس ، وجوليتا (لاجوليت) . وأخيرا سمح له بالعودة إلى أسبانيا ، ولكن قرصان البربر أسروه هو وأخاه رودريجو فى رحلة العودة إلى الوطن (٢٦ سبتمبر ١٥٧٥) وباعوهما فى سوق الرقيق بالجزائر . وأقنعت الرسائل التى حملها من دون جوان وغيره آسريه بأنه رجل ذو حيثية ، فطلبوا عنه فدية كبيرة . وظل ميجل أسيرا خمس سنوات مع أن أخاه أطلق سراحه فى عام ١٥٧٧ . وحاول الهروب غير مرة . ولكنه لم يجن من محاولاته غير تشديد النكير عليه . وصرح الداى، وهو الحاكم المحلى ، بأنه « إذا استطاع أن يؤمن حراسة ذلك الأسبانى المعطوب الذراع فقد أمن عاصمته وعبيده وسفنه»[١٧] » وكافحت أمه لتجمع الخمسمائة كراون التى طولب بها للافراج عنه ، وضحت أخواته بمهورهن فى هذا السبيل ، وأخيرا (فى ١٩ سبتمبر ١٥٨٠) أفرج عنه ، وبعد رحلة مضينة لحق بأسرة أمه فى مدريد .

كان مملقا عاجزا ، لذلك لم يكن أمامه من سبل الرزق غير العودة إلى الانخراط فى الجيش . وهناك من الدلائل ما يشير إلى أنه مارس الخدمة العسكرية فى البرتغال والأزوره . ووقع فى غرام سيدة نبيلة تصغره بثمانية عشر عاما ولا تملك غير أسمائها الكثيرة : كاتالينا دى بالاكيو سالازار إى فوزميديانو الإسكيفية . وتحت إلحاح الحب والفاقة كتب سرفانتس رواية رعوية تسمى « غلاطية » باعها بمبلغ ١٫٣٣٦ ريالا (٦٦٨ دولارا ؟) . وتزوجته السيدة الآن (١٥٨٤) ، فقدم إليها ابنة غير شرعية وأقنعها بأن تربيها كأنها ابنتها ، وكانت قد ولدتها له حسناء عابرة قبل سنة[١٨] . أما كاتالينا نفسها فلم تنجب . وكانت تعنفه بانتظام على فقره ، ولكنها ظلت وفية له فيما يبدو ، وعمرت بعده ، وحين ماتت طلبت أن تدفن إلى جواره .

---

(٠) ان قصة الأسير فى « دون كخوتة » (الجزء الأول ، الكتاب الرابع ، الفصول ١٢ — ١٤) ترجمة ذاتية إلى حد كبير .

ولم تأت غلاطيه بمزيد من الريالات ؛ كان رعاتها مسرفين فى بلاغتهم ، إلا حين ينطقون بالشعر ، ومع أن سرفانتس كان ينوى كتابة بقية لها ، ومع أنه ظل إلى النهاية يعتبرها أروع ما كتب ، فانه لم يجد قط الوقت أو الحافز لاتمامها . ثم جرب كتابة التمثيليات طوال خمسة وعشرين عاما ، فألف نحو ثلاثين منها ، وكان رأيه أنها ممتازة ، وهو يؤكد لنا أنها « مثلت كلها دون أن يعرض عليه أى جزاء[19] » ولكن واحدة منها لم تستهو الجماهير أو تلمس عرقا من ذهب . لذلك ارتضى وظيفة متواضعة فى إدارة تموين الجيش والبحرية (١٥٨٧) ، وسافر بصفته هذه إلى عشرات المدن تاركا زوجته فى البيت . وقد ساعد فى تموين الأرمادا الجبار . وفى عام ١٥٩٤ عين جابيا لغرناطة . وسجن فى اشبيلية لمخالفات فى حساباته ، وأفرج عنه بعد شهور ثلاثة ، ولكنه طرد من خدمة الحكومة . ومكث عدة سنين فى فقر مدقع بأشبيلية وهو يحاول الارتزاق من قلمه . ثم قبض عليه مرة أخرى فى أرجا ماريللا وهو يجوب أسبانيا . وتقول الرواية انه فى سجنه وفى بؤسه واصل تأليف كتاب من أكثر الكتب مرحا فى العالم . فلما عاد إلى مدريد باع لفرانسسكو دى روبلز مخطوطة « حياة ومغامرات دون كخوته دى لامانشا الأشهر » فنشرت عام ١٦٠٥ . وهكذا ، وبعد ثمانية وخمسين عاما من الكفاح ، بلغ سرفانتيس شاطئ التوفيق .

ورحب كل الناس — عدا النقاد — بالكتاب مهرجانا من الفكاهة والفلسفة . وتقول رواية قديمة ان فليب الثالث « لاحظ وهو واقف يوما بشرفة قصره فى مدريد طالبا بيده كتاب على ضفة مانزاناريس المقابلة . وكان الطالب يقرأ ، ولكنه بين الحين والحين كان يقطع قراءته ويلطم جبينه لطمات عنيفة تصحبها حركات لا حصر لها من النشوة والطرب . وقال الملك « إن الطالب إما أن يكون مجنـــونا وإما إنه يقرأ . . . دون كخوته[20] » .

إن فى هذه الصفحات الباعثة مآخذ كما فى كل رائعة — فحبكة

الرواية ليست غاية في البراعة – سلسلة من الأحداث المترابطة. تكشفها حكايات مقحمة غير متصلة بالموضوع ، خلو من الخطة خلو الفارس الذي « يواصل سفره على ظهر جواده مرخيا له العنان ليمضي حيث شاء » . وبعض خيوط الحبكة متروك عند أطراف مفكوكة أو شديدة التعقيد ، مثل ضياع حمار سانشو وظهوره ثانية دون تعليل . ويصبح السرد بين الحين والحين مملا ، والنحو غير دقيق ، واللغة مفتقرة إلى الصقل . ويقول الجغرافيون إن جغرافية الرواية مستحيلة . ولكن ما أهمية هذا كله ؟ فكلما مضينا في القراءة مشدودين بجذب لطيف خلال المعقول وغير المعقول ، ازداد عجبنا من أن سرفانتيس استطاع وسط كل شدائده أن يجمع معا مثل هذا المتنهد العريض من المثالية والظرف وأن يقرب قطبي الخلق الإنساني المتباعدين في مثل هذا التراكب المنير . أما الأسلوب فهو ما ينبغي أن يكون عليه أسلوب قصة طويلة – لا سيل مرهق من البلاغة ، ولكن جدول صاف جار ، يتألق هنا وهناك بعبارة حلوة ، كقوله « كان له وجه كالبَرَكة[٢١] » وأما القدرة على اختراع الأحداث فتمضي إلى النهاية ، وأما معين أمثال سانشو فلا ينضب ، وآخر قطعة من الفكاهة أو التفجع لا تقل جمالا عن أولها . هنا ، في هذا « التاريخ الجاد أعظم الجد ، المجلجل ، الدقيق ، الناعم ، الفكه » على حد قول سرفانتيس ، نلتقي بحياة أسبانيا وشعبها ، موصوفين بحب يبقى بعد أن ينقضي عـدم التحيز ، وبمئات التفاصيل الصغيرة التي تخلق هذا الكل الملهم ، وتفعمه بالحياة .

ويلجأ سرفانتس إلى حيلة قديمة فيزعم لنا أن « تاريخه » مأخوذ عن مخطوطة لمؤلف عربي سماه السيد حامد بن انجلي . وتفصح المقدمة عن هدفه ، وهو أن يصف في « هجو للفروسية الجوابة . . . سقوط ودمار ذلك الكوم البشع من روايات الفروسية . . . التي افتتن بهـا أكثر الناس على نحو عجيب » . وقد فعل تشوسر مثل هذا في حكايات كنتربري (« شعر السير توباس ») ، ورابليه في « جرجانتوا » ، وبولتشي في « المورجانتي

مادجورى » ، وهزأ تيوفيلو فولنجو وغيره من شعراء التخليط بين اللاتينية واللغة القومية بالفرسان ، وسخر أريوستو فى أورلندو فوريوزو « من أبطاله الرجال والنساء . على أن سرفانتس لا يرفض روايات الفروسية جملة ، فهو ينقذ من النار بعضها ، مثل « أماديس داجاولا » ، ومثـل روايته « غلاطية » ، وهو يدخل فى قصته بعض مغامرات الفروسة . ونرى فى نهاية القصة أن هـذا الدون الفارس ، بعد عشرات الهزائم والضربات المخزية ، هو بطل القصة الخفى .

ويصوره سرفانتس سيدا ريفيا خصب الخيال ، أذهلته القصص التى جمعها فى مكتبته ، فدجج نفسه بالسلاح من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وارتدى سترة الفارس وخرج على فرسه روزنانتى ليذود عن حياض المظلومين ويصلح الفساد ويحمى العذارى والأطفال . أنه يمقت الظلم ويحلم بماض ذهبى يوم لم يكن هناك ذهب ، « يوم كانت هاتان الكلمتان القتالتان « مالك » و « مالى » فوارق مجهولة ، كل الأشياء كانت مشتركة فى ذلك العصر المقدس ... كله كان تآلفا واتحادا ، كله كان حبـا وصداقة فى الدنيا »(٢٢). وجريا على قواعد الفروسية نراه يكرس سلاحه ، لا بل حياته ، لسيدة نبيلة تدعى دولتسينيا ديل توبوزو . ومع أن عينه لم تقع عليها قط ، فقد كان فى وسعه أن يتصورها تجسيدا كاملا للطهارة المحتشمة والجمال الرقيق . « نحرها مرمر ، وثدياها رخام ، ويداها عاج . والثلج ينكسف بياضه إذا دنا من صدرها »(٢٣) أما وقد ملأه هذا الرخام صلابة ، وبعث فيه هذا الثلج دفئا ، فهو ينطلق ليهاجم عالما حفل بالشرور . وهو فى هذه المعركة غير المتكافئة لا يشعر بأن أعداءه أعز منه نفرا « فأنا وحدى أعدل مائة منهم . » وبينما يلازم سرفانتس ذلك « الفارس ذا الوجه البائس » متنقلا بين الفنادق الصغيرة وطواحين الهواء ، بين المصارف القذرة والخنازير المذعورة ، تنتهى به الصحبة إلى حبه قديساً كما يحبه مجنوناً ، وفى كل هذه المغامرات الفاشلة والكبوات الأليمة يظل الدون المثال الحى للأدب

والعطف والسماحة . وأخيرا يتغير المجذوب المحزون على يد خالقه ، فيصبح فيلسوفا يتحدث –حتى وهو يتردى فى الوحل – حديثا عاقلاسويا ، ويغفر الإساءات للدنيا التى عجز عن فهمها ، ثم يغيظنا من سرفانتس أنه يواصل خبطه وتحطيمه التزاما بخطته المرسومة . ثم نعطف على الفارس الذى ينقشع الوهم عن عينيه حين يؤكد له سانشو إن الدولتسنيا ديل توبوزو الوحيدة التى تعرفها بلدتها ليست سوى « خادمة متمنطقة ، هى صبية بدينة ، مفتولة العضل ، مسترجلة » ، من أصل متواضع . ويجيب الفارس بحكمة ذهبية ، فيقول لسانشو ، « إن الأصل يشرف بالفضيلة ، إنما أصل الفتى ما قد حصل »[٢٥] .

والشيء الذى يفتقر إليه الدون هو روح الفكاهة ، وهو خير جوانب الفلسفة . ومن ثم يعطيه سرفانتس تابعا مرافقا أصله عامل من عمال المدينة الأقوياء ، وابن من أبناء الريف ، هو سانشوبانزا . ويؤمن الفارس خدماته بأن يعده بالطعام والشراب ، وبحكم ولاية فى الممالك التى يزمعان فتحها . فأما سانشو فرجل ذو إدراك بسيط وشهية طيبة ، يظل محتفظا بسمنته إلى آخر صفحة فى القصة برغم إشرافه دائما على الموت جوعا ، إنسان كريم النفس يحب بغلته كأنها « نفسه الثانية » ويقدر «عشرتها الحلوة» ، أنه ليس الفلاح الأسبانى النموذجى ، فهو سخى فى النكتة زاهد فى الوقار ، إنما هو – كأى أسبانى تحرر من سعار اللاهوت – طيب القلب محب للخير ، حكيم دون ثقافة أو تعليم ، وفى لسيده فى دنيا العذاب هذه وسرعان ما ينتهى إلى أن الدون رجل مجنون ، ولكنه هو أيضاً ينتهى إلى أن يحبه . يقول فى ختام القصة « لقد لازمت مولاى الطيب وصاحبته هذه الشهور الطوال ، والآن أصبحنا نحن الاثنين واحدا »[٢٦] ، وهذا حق ، لأنهما ليساسوى جانبين لأنسانية واحدة . أما الفارس فينتهى هو أيضا إلى احترام حكمة تابعه لأنها أعمق جذورا إن لم تكن نبيلة كحكمته . ويعبر سانشو عن فلسفته بأمثال يقفو بعضها بعضا حتى لتكاد تخنق تفكيره : « إن الدجاجة

«والمرأة تضيعان إذا سرحتا» ، « بين قول المرأة نعم وقولها لا ، لا أوافق على أن أضع سن دبوس، فالوحد منهما قريب جدا من الآخر » ، « إن الطبيب يبذل نصيحته بجسه نبض جبينك » ، « كل إنسان كما صنعه الله ، وكثيرا ما يكون أسوأ ».(٢٧) ولعل سرفانتس استعمل مجموعة مختارة من هذه الأمثال التي عرفها بأنها « عبارات قصيرة صيغت من خبرة طويلة » .(٢٨) ويعتذر سانشو عن هذا « الاسهال » في الحكم بأن هذه المأثورات تسد حلقه ولا بد أن تنطلق، بترتيب ورودها على خاطره . ويستسلم الدون لهذا الفيض الدافق فيقول « حقا ، يبدو أنك لست أعقل مني ... أشهد أنك انسان مختلط العقل ، إنني أصفح عنك ، وقد فعلت »(٢٩) .

كان للتوفيق الذي أصابته " دون كخوته " الفضل في ظفر سرفانتس براعيين لأدبه ، الكونت ليموس وكردينال طليطلة ، أجريا عليه معاشا صغيرا يسر له أن يعول زوجته ، وابنته غير الشرعية ، وأخته الأرملة ، وابنة أخته . وبعد شهور من نشر كتابه قبض عليه هو وكل أفراد أسرته لشبهة اشتراكهم في مقتل جاسباردي ازبليتا على باب بيت سرفانتس . وأرجفت الشائعات بأن جاسبار كان يعشق ابنته ، ولكن التحقيق لم يسفر عن شيء ، فأفرج عنهم جميعا .

ومضى سرفانتس يكتب الجزء الثاني من « دون كخوته » في غير عجلة . وفي عام ١٦١٣ قطع هذا الجهد المحبب بنشر اثنتي عشرة قصة « مثالية جديدة » جاء في مقدمتها « لقد وصفت هذه القصص بأنها مثالية، ولو تأملها القارئ لما وجد فيها قصة لا تعطيه مثالا نافعا » (٣٠) . وأولها قصة عصابة من اللصوص تعمل في انسجام مثالي مع رئيس شرطة اشبيلية ، وقصة أخرى اسمها « ندوة الكلاب » تصف سلوك تلك المدينة وأخلاقها . وفي التمهيد للمجموعة صور سرفانتس نفسه بهذه العبارات :

إن الرجل الذي ترونه هنا بمحياه النسري ، وشعره الكستنائي ، وجبينه الهادئ الطلق ، وعينيه اللامعتين ، وأنفه المعقوف المتناسب ، ولحيته

الفضية التي كانت ذهبية منذ أقل من عشرين عاما ، وشاربه الكبير ... وأسنانه التي لا تستحق الاحصاء ، وقامته الربعة ؛ وكتفيه طفيفي الانحناء ، وبنيته الثقيلة بعض الشيء ... أحيز لنفسي أن أقول لكم إنه مؤلف «غلاطية» و « دون كخوته دلا مانشا » (٣١) .

ولكنه فوجيء عام ١٦١٤ بظهور الجزء الثاني من « دون كخوته » ، لا بقلمه ، بل بقلم سارق مجهول انتحل اسم « أفيللانيدا » . وقد هزأت المقدمة من جراح سرفانتس ، وطربت للحيلة المتقنة التي ستقضي على جزء سرفانتس الثاني . وعجل الكاتب المنزعج بانجاز كتابه ونشره عام ١٦١٥ ، وابتهج القراء الأسبان حين وجدوا هذه التتمة ترقى إلى مستوى الجزء الأول خيالا وقوة ومرحا ، ففي كل هذه الصفحات الخمسمائة الجديدة احتفظ الكاتب بتشويقه للقارئ حتى النهاية ، وهي نهاية حزينة إن لم تكن أليمة ، وبدا للبعض أن حظ الدون وتابعه العاثر في بلاط الدوق ، وملك شانسو على ولايته ، والقصة المؤلمة التي روى فيها كيف ضرب عجزه — كل هذا من شأنه أن يجعل الجزء الثاني هو النصف الأفضل . فحين يولى سانشو حاكما على باراتاريا يتوقع الكل منه أن يتجاوز كل ما أثر عن الحكام من حماقات . ولكنا نجد على النقيض من ذلك أن طيبته وفطنته ، وأن نظمه واصلاحاته البسيطة العادلة ؛ وأن قراره الحكيم في دعوى هتك العرض (٣٢) — كل هذا يخجل واقع الحكم المعاصر له . ولكن قوى الشر الذي لا يعرف رحمة ولا هوادة تطغى عليه ؛ وأخيرا ترهقه ارهاقا يكرهه على التخلي عن منصبه والعودة مرتاحا إلى حياته تابعا للدون .

ولا يبقى بعد ذلك إلا أن يهرب الفارس مثل هذا الهرب من دنيا الأحلام إلى دنيا الواقع . إنه يخرج في طلب المغامرات الجديدة ، ولكنه يهزم هزيمة عارمة ؛ ينتزع المنتصر فيها تعهدا منه بأن يمضي إلى داره ويعيش سنة في هدوء لا شأن له بالفروسية . ويوافق المحارب المتعب ، ولكن تبدد أوهامه يجفف ينابيع حياته . فيرسل في طلب أصدقائه إلى جواره ، ويوزع

الهدايا عليهم، ويكتب وصيته، وينبذ الفروسية الطوافة الباحثة عن المغامرات، ويدع روحه تنحسر انحسارا شديدا. ويعود سانشو إلى أسرته؛ ويفلح حديقته قانعا قناعة ر ل خير من الدنيا ما يكفى لجعله عارفا بقدر بيته. وفى النهاية يلوح أن هذه الواقعية الطيبة تنتصر على مثالية مولاه المغرقة فى الأوهام برغم سماحتها. ولكن الأمر فى حقيقته غير هذا. فروح الفارس هى صاحبة الكلمة الأخيرة فى القبرية التى أوصى بأن تكتب له. « إذا كنت لم أحقق جلائل الأعمال فإننى مت فى سبيلها ». وهكذا يتبين أن الواقعى يعيش إلى أن يدركه الموت؛ ولكن المثالى يبدأ عندها الحياة.

ونشر سرفانتس فى السنة التى بقيت له فى أجله ثمانى تمثيليات، ولم يؤيد الزمن تقديره لها، ولكنه قدر تقديرا عظيما « لانومانسيا »، وهى قصيدة تمثيلية فيها قوة وفيها جمال، تحيى ذكرى مقاومة تلك المدينة الأسبانية للحصار الرومانى (١٣٣ ق. م). وكان له كفارسه وهمه الذى يسنده؛ فظن أن الأجيال القادمة ستكرمه أولا لتمثيلياته، وتكلم فى غيرة لا تليق به وإن غفرناها له عن لوبى دى فيجا الذى وفق توفيقا هائلا، ثم كتب وهو يحتضر تقريبا، قصة أخرى من قصصه بعد أن هزأ بأكثر الروايات الغرامية « برسيليس وسجموندا ». وقبل أن يموت بأربعة أيام أهداها إلى كونت ليمور قائلا:

« مسحت بالأمس المسحة المقدسة الأخيرة، واليوم أخط هذا الإهداء. ليس فى الوقت متسع، وعذابى يزيد، والآمال تتضاءل ... فوداعا للمزاح إذن، وداعا فكاهاتى البهيجة، وداعا أصدقائى المرحين، لأننى أشعر بأنى أموت، ولا أمنية لى إلا أن أراكم سعداء فى الحياة الأخرى[٣٢] ».

ومات فى ٢٣ ابريل ١٦١٦(*).

(*) فى الظاهر فى نفس اليوم الذى مات فيه شكسبير. وكانت انجلترة لا تزال تستعمل التقويم اليوليانى، أما حسب التقويم الجريجورى التى أخذت به أسبانيا قبل ذلك فموت شكسبير وقع فى ٣ مايو ١٦١٦.

كان قد تنبأ على طريقته « الكيخوتية » المميزة أن كتابه « دون كخوته » سيباع منه ثلاثون مليون نسخة . وابتسم العالم لسذاجته ، ثم اشترى ثلاثين مليونا . لقد ترجمت القصة العظيمة إلى لغات أكثر من أى كتاب باستثناء الكتاب المقدس . وفى أسبانيا يعرف أبسط القرويين من هو دون كخوته ، وهو عموما ، خارج الكتاب المقدس أيضا ، « أكثر شخوص الأدب كله حياة وفتنة وشهرة (٣٤) » ، وأكثر واقعيه من ألف علم من أعلام التاريخ المستكبرين . وقد استطاع سرفانتس ، بجعل قصته هذه صورة لآداب السلوك ، أن يرسى أساس الرواية الحديثة ، ويفتح الطريق لقصاصين مثل لوساج ، وفيلدنج ، وسموليت ، وستيرن ، ورفع هذا اللون الجديد إلى مقام الفلسفة إذ جعله يكشف عن طبائع البشر ويلقى الضوء على ما خفى من أخلاقهم .

٣ — الشعراء

إن رنين اللغة القشتالية الفحل ، مثله مثل جمال الإيطالية التسكانية الرخيم ، أسلم نفسه مختارا للموسيقى والقافية ، واستجابت روح الشعب للشعر بطبعها أكثر من استجابتها للنثر . وكثر الشعراء كثرة القساوسة . وفى قصيدته غار أبوللو (١٦٣٠) وصف لوبى دى فيجا مهرجانا للشعر وتنافسا عليه اقتتل فيه ، فى خياله ، شعراء أسبانيا المعاصرة الثلاثمائة على اكليل الغار . وكاد إقبال الشعب على هذه المباريات الشعرية يعدل إقباله على حرق المهرطقين . كانت هناك قصائد تعليمية منومة ، وعظات دينية بالشعر ، وروايات غرامية منظومة ، وشعر رعوى ، وشعر ساخر من البطولة ، وقصائد قصصية ، وشعر غنائى ، وملاحم . ولم يؤت كل المؤلفين شجاعة فرانسسكو دى فيجويروا ، الذى حكم على أشعاره بالحرق لما فيها من هرطقات .

أما أروع الملاحم فلحمة « لا أروكانا » (١٥٦٩ — ٨٩) ، التى تصف

ثورة قبيلة هندية فى أمريكا الجنوبية ، كتبها الونسو دى ارسيللا إى زونيجا الذى أبلى بلاء حسناء فى تلك الحرب وهو جندى أسبانى . وربما كان أبدع الشعراء الغنائيين راهبا أوغسطينيا اسمه لويس بونسى دى ليون ، لم يمنعه بعض الدم اليهودى الذى اختلط بدم أسلافه من تصوير أرق جوانب التقوى المسيحية ، وأعجب من ذلك جمعه بين الشاعر واللاهوتى ، ففى سنته الرابعة والثلاثين عين أستاذا للإلاهيات فى جامعة سلامانكا ، وما برح طوال حياته متعلقا بهذه الجامعة ، ومع ذلك لم تمنعه جهوده الدراسية وحياة النسك من التحليق فى أجواء الشعر الغنائى . ودعته محكمة التفتيش لتحاكمه (١٥٧٢) على ترجمة نشيد الانشاد إلى شكل من أشكال الحوار الرعوى . واحتمل عذاب السجن خمس سنين ، فلما أفرج عنه استأنف محاضراته فى الجامعة بهذه الكلمات الساخرة « لاحظنا فى آخر لقاء لنا . . .[٣٥] » وقد وافق رؤساءه على أن قرض الشعر لا يليق برجل اللاهوت ، فترك قصائده دون نشر ، ولم تصل إلى المطبعة إلا بعد موته بأربعين سنة . وهى بالاجماع أقرب إنتاج اللغة القشتالية إلى الكمال .

وكان لويس دى جونجورا وفرانسسكو جومز دى كويفيدو اى فيلليجاس لا يزالان يفوقانه شهرة لأنهما أثارا الضجيج بالجدل كما أثاراه بالشعر ، وخلفا بعدهما مدرستين متقاتلتين هما الجونجورية والكونسبتية ، باعتبارهما فلسفتين من فلسفات الأسلوب . وقال سرفانتس — الذى لم يبخل بكلمة ثناء على كل منافسيه فيما عدا لوبى وأفيللانيدا — فى وصف جونجورا إنه « عبقرى نادر ، مثير ، لا ثانى له[٣٦] » وفى هذا المقطع من قصيدة الشاعر القصصية « إلى الأرمادا » نلتقط صـــدى بعيدا لصيحة الكراهية والحقد : —

« إيه أيتها الجزيرة ! كنت يوما وفية للكثلكة ، قوية البأس ،
حصنا للإيمان انقلب هيكلا بغيضا للهرطقة ،

كنت معسكرا للحرب المدربة ، ومدرسة للحكمة المقدسة ،

أنى عليك زمن كان فيه هذا الجلال جلالك
وتغنى الشعراء أول ما تغنوا ببريق تاجك ،
أما الآن فالأعشاب الكثيبة التى تنبت عند بركة الجحيم
تصلح اكليلا لك . يا وطن الكماة .
من كل أرثر ، وإدورد ، وهنرى ! أين هم اليوم منك ؟
أين أمهم التى سعدت يوماً ببأسهم .
وثبتت فى قوة الإيمان ؟ إيه يا جزيرة المرأة
التى تحكمك الآن ، لقد قضى عليك بالعار الأبدى
أيتها الملكة البغيضة يا قاسية القلب عابسة الجبين ،
أيتها الفاجرة الصارمة الشرسة الداعرة ،
يا مرأة تربعت على العرش ، يا لعنة الفضيلة الصادقة،
يا شبيهة الذئبة فى كل طباعها ،
لتمطر السماء على ضفائرك الكاذبة لهيبها العادل ! (٣٧)

هنا قلم جدير بالتودد له . لا عجب إذن أن جعل فليب الرابع هـذا الشاعر النارى (الذى أصبح الآن قسيسا) كاهنه الملكى الخاص ، فربط مواهبه بالعرش . وجهد جونجورا ليكتسب نعومة الأسلوب ودقة العبارة ، وأعلن الحرب على الكتابات المتعجلة ككتابة لوبى دى فيجا ، وأصر على وجوب تهذيب كل بيت من الشعر وتصفيته وصقله ليكون حجرا كريما . ولكنه فى تحمسه غالى فجعل من الفن صنعة وتكلفا ، وأثقل أبياته بالكثير المسرف من الاستعارات ، والنعوت ، والتقديمات والتأخيرات ، والطباقات ، حتى بز لايلى فى تأنقه وفاق مارينى فى تكلفه . انظر إليه يقول فى مفاتن صبية يخلب حسنها الألباب :

عيناها التوأمان اللامعتان كالشمس
تحيلان صقيع النرويج صيفا ،
وتلك العجيبة البيضاء ، يدها الناصعة كالثلج ،

تجعل الحبشى يبيض دهشة وذهولا .

وانقسم شعراء الأسبان الآن معسكرات ثلاثة ، ففريق اتبع الجونجورية (أو الكولتيه) ، وفريق اعتنق مذهب كويفيدو (الكونسبتية) ، وفريق ثالث قاوم الوباءين كما فعل لوبى ذى فيجا .

أما كويفيدو فقد نال فى «القلعة» مراتب الشرف فى القانون، واللاهوت، واللاتينية ، واليونانية ، والفرنسية ، والعربية ، والعبرية ، والمبارزة . وكان برغم قصر بصره وتشوه قدميه رهيبا بسيفه وقلمه على السواء ، وكانت هجائياته بتارة كحسامه . وقد فر إلى صقلية ونابلى بعد أن قتل عددا من غرمائه . وحين بلغ الخامسة والثلاثين تقلد هناك وزارة المالية. وشارك فى مؤامرة أوزونا على البندقية (١٦١٨) ، فلما فشلت أودع السجن ثلاث سنين . وعاد بعدها إلى مدريد ، فلم تسكته وظيفة شرفية هى وظيفة السكرتير لفليب الرابع ، وراح يسلق بشعره الحاد الملك والبابا وأوليفاريس والنساء والرهبان . وفى كتيبه المقذع « الكلب والحمى » (١٦١٥) نبح كل شيء ، وأطلق على الكل عاصفة من الأمثال أكثف من أمثال سانشو بانزا وأشد لذعا ، وكانت نصيحته التى لم يعمل بها قط أن يقف المرء بعيدا عن المعركة و « يدع القاذورات تمر »[٣٨]. ولما أعوزه الخصوم والأهداف ، هاجم « كولتية » الجونجوريين ، وعارضها بـ « الكونسبتيه » ، وقال إن على الشاعر ، بدلا من تصيد العبارات والألفاظ الخيالية ، أن يبحث عن الأفكار — لا الأفكار العامة الظاهرة التى أبلاها الزمن أو لوثها الابتذال ، بل المفاهيم الدقيقة ، الجليلة ، النبيلة ، العميقة .

وقد اتهم ظلما بكتابة خطابات تنبه الملك إلى ضرورة الكف عن التبذير ، وطرد وزرائه العاجزين . فأودع زنزانة رطبة خمس سنين ، ولما أفرج عنه كان رجلا محطما ، فلم يعش بعدها غير ثلاث سنين (١٦٤٥). إنه لم يعش

حياة أدبية هادئة مطمئنة ، بل حياة كان فيها المداد دما ، والشعر جربا ، وإذ شارف نهايته أنذر بلاده بأنها هي أيضا في طريقها إلى الموت :

رأيت أسوار وطني
تتداعى بعد منعتها ،
لقد أوهن من قواها أسلوب هذا الجيل الجديد
الذي أبلى كل جليل وأفسده ،
مضيت إلى الحقول حيث رأيت
الشمس تلتهم مياه الثلوج الذائبة ،
وفوق التلال تنبش الماشية النائحة الأرض ،
لقد سلبني شقاؤها ضياء النهار ،
ومضيت إلى بيتي فرأيت كيف أفسدت
الأشياء القذرة البالية هذا البيت القديم ،
لقد تقوس عكازي الذاوي الذي أتوكأ عليه
وأحسست أن الشيخوخة انتصرت ، رأيت سيفي صدئا
ولا شيء تقع عليه العين
إلا ذكرني بالنهاية .(٣٩)

٤ — لوبي دي فيجا : ١٥٦٢ — ١٦٣٥

كثر كتاب المسرحية في ذلك العصر النشيط كثرة الشعراء . كان المسرح هنا ، شأنه في انجلترة المعاصرة ، بدعة مرتجلة إلى ذلك الحين ، فالممثلون الجوابون يسرحون بفنهم على المدن مفلسين ، ومحكمة التفتيش تصدر حظرا على جميع التمثيليات (١٥٢٠) في كفاحها للهيمنة على جلافة تمثيلياتهم الفكاهية فلما أصبحت مدريد مقرا للملك (١٥٦١) ، استأذنت فرقتان تمثيليتان الملك في الاستقرار فيها ، فأذن ، ورفع الحظر الكنسي (١٥٧٢) ، وبني مسرحان ، تياترو دلاكروز (مسرح الصليب) وتياترو دلبرنسيبي (مسرح الملك) —

يعبر الاسمان عن أهم ولايات أسبانيا وأقواها . وما وافى عام ١٦٠٢ حتى قامت المسارح أيضا فى بلنسية ، واشبيلية ، وبرشلونه ، وغرناطة ، وطليطلة ، وبلد الوليد ، وفى عام ١٦٣٢ كان فى مدريد ألف ممثل ، وفى قشتالة ستة وسبعون من الكتاب المسرحيين ،وكان الخياطون والباعة والرعاة يكتبون التمثيليات . ولم تحل سنة ١٨٠٠ حتى كانت أسبانيا قد استمعت إلى ثلاثين ألفا من مختلف التمثيليات . ولا يذكر التاريخ بلدا آخر ، حتى انجلتره الاليزبيثية ، انتشى بمثل هذه النشوة المسرحية .

وتطور شكل المسرح من الأفنية – المحاطة بالبيوت والمواقف المؤقتة – التى كانت تمثل فيها المسرحيات الأولى ؛ وصممت المسارح الدائمة صفوفا من المقاعد وألواجا تحيط بمكان مسيج ، وكانت الملابس أسبانية أيا كان مكان التمثيلية أو زمانها ، والنظارة خليطا من جميع الطبقات ، والنساء يختلفن إلى المسرح ولكنهن يجلسن فى قسم خاص بهن ويلبسن الأقنعة الثقيلة . وكان الممثلون يعيشون عيشة قلقة هبطت بمعنوياتهم، بين المجاعات والولائم ، يتعزون عن الفاقة والتشرد بالفوضى وحلو الأمانى . ونال بعض « النجوم » الذكور من الثراء والشهرة ما أدار رءوسهم ، فراحوا يختالون فى أهم شوارع مدريد وهم يصلحون سيوفهم ويفتلون شواربهم ، ونامت بعض كبريات المغنيات مع الملوك فى مضاجعهم .

أما ملك المسرح الأسبانى فهو لوبى فيلكس دى فيجا كاربيو . ففى عام ١٦٤٧ اضطرت محكمة التفتيش إلى حظر « قانون إيمان » منشور مطلعه « أؤمن بلوبى دى فيجا ضابط الكل ، شاعر السماوات والأرض » (٤٠) ولعل كاتبا آخر فى التاريخ لم يحظ بمثل هذه الشهرة فى جيله . ولم يقتصر معظم هذه الشهرة على أسبانيا دون غيرها من الأقطار إلا لصعوبة ترجمة الشعر المقفى ، ولكن حتى مع هذا القيد كانت مسرحياته تمثل بالأسبانية فى نابلى وروما وميلان،وانتحل اسمه فى فرنسا وإيطاليا لمسرحيات لم يكتبها، وذلك اغراء للجماهير بحضورها .

ولد في مدريد قبل مولد شيكسبير بعامين لأسرة فقيرة ولكنها – كما يؤكدون – عريقة . فلما ناهز الرابعة عشرة هرب من البيت والمدرسة وتطوع في الجيش وشهد بعض المعارك الدامية في الأزورة . ثم أحب ، ولكنه أنقذ نفسه دون أن يصاب إلا بجراح طفيفة ، وكتب « اجرامات » سافلة في حق السيدة النبيلة ، فقبض عليه بتهمة القذف ، ونفى من مدريد . ولكنه تسلل إلى المدينة ، وفر مع ايزابل دى أوربينا ، وتزوجها ، فطورد ، والتحق بالأرمادا تهربا من القانون . وقد شارك في هزيمة الأسطول ، ومات أخوه القتيل في المعركة بين ذراعيه . وتركه موت زوجته حرا ولكنه تورط في مشاكل أخرى . فقد أنجب طفلين من الممثلة ميكالا دى لوخان(٤١) ، وتزوج ثانية ، وأصبح موظفا في محكمة التفتيش (١٦٠٩) ، ثم فقد زوجته الثانية ، ورسم قسيسا (١٦١٤ ؟) ووقع في أكثر من غرام(٤٢) .

أما أسبانيا فقد اغتفرت له خليلاته لقاء مسرحياته . فقد كتب منها زهاء ألف وثمانمائة ، بالإضافة إلى أربعمائة « فصول مقدسة » قصيرة تمثل في الاحتفالات الدينية . وذاع عنه أنه ألف عشر تمثيليات في أسبوع واحد ، وتمثيلية قبل الفطور ، وتقهقر سرفانتس يائساً أمام هذا السيل الجارف ، وسمى منافسه « وحش الطبيعة » . كان لوبى « كوميديا فنية » في ذاته ، فهو يؤلف المسرحية وهو يرتجلها . وإذ كان ينجب بمثل هذه الخصوبة المستهترة ، فإنه لم يزعم لنفسه تفوقا في الفن أو الفلسفة . وقد اعترف بلطف في كتابه « الفن الجديد في كتابة المسرحيات » انه إنما يكتب ليرتزق ، ومن ثم فهو يزود الجمهور بما يروقه(٤٣) . وما كان ليطبع تمثيلياته لولا قراصنة الناشرين الذين درجوا على ايفاد رجال ذوى ذاكرة معجزة إلى حفلاته ، وكان في استطاعة هؤلاء الرجال بعد الاستماع إلى المسرحية ثلاث مرات أن يتلوها عن ظهر قلب ويقدموا نصا محرفا للناشرين الذين لا يدفعون للمؤلف فلسا واحدا . وذات مرة أبت فرقة لوبى أن تمضى في تمثيل المسرحية ما لم يطرد

عجيبة من عجائب الذاكرة هؤلاء خارج القاعة(٤٤) — فنشرها قد يهبط بعدد روادها . على أن لوبى نشر فى عناية وحب رواياته الشعرية — اركاديا ، وسان ايسيدرو ، وأورشليم المفتوحة ، ولا هور موسورا دى أنجليكا ، ولا دوروتيا ، وكلها مشجية متوسطة الجودة .

والحبكة فى مسرحياته هى كل شيء ، أما الشخوص فقلما تحظى من مؤلفها بدراسة وثيقة ، ويخيل للمرء أنه يصدق على هذه المسرحيات ماقاله ثورو فى الصحف — وهو أنك لو غيرت أسماءها وتواريخها لا أكثر ، لوجدت المحتوى دائما هو هو . فالقصة تدور فى كل الحالات تقريبا حول عاملين : الدفاع عن العرض ، ثم من يضاجع السيدة . أما جمهور النظارة فلم يكن يمل قط من معالجة الموضوع الثانى فى صور متنوعة ، لأنه حرم ممارسة أى من صوره هو . وكان خلال ذلك يستمتع بالفكاهة العارضة ، والحوار الذكى ، والشعر العاطفى الذى يتدفق سريعا رشيقا من أفواه النساء الحسان والرجال البواسل . وهكذا اتخذت روح الرومانسيات ، التى لم تنقرض قط ، حياة جديدة على المسرح الأسبانى .

وأشهر مسرحيات لوبى هى « نجمة إشبيلية » . ففى هـذه المسرحية يفد سانشو الشجاع ملك قشتالة على إشبيليته ، فيطرى بهاء شوارعها ، ولكنه يطلب إلى مستشاره أرياس أن يزيده حديثا عن نسائها بنوع خاص .

« الملك : ثم نساؤها ذوات الحسن السماوى ، لم لا تحدثنى عنهن ؟ ...
قل لى ، ألا تلتهب عواطفك ببهاء مفاتنهن ؟

أرياس : أن الدونا ليونور دى ريبيرا بدت لى كأنها السماء المنيرة ذاتها ، ففى وجهها أشرق ضياء شمس الربيع .

الملك : إن فى وجهها شحوبا كثيرا . . . أريد شمسا تحرق ولا تجمد .

أرياس : إن المرأة التى ألقت إليك الورود هى الدونا منثيا كورونيل .

الملك : سيدة جميلة ، ولكنى رأيت أجمل منها . . . واحدة منهن

تفيض حسنا ولم تذكرها ... فمن تلك التى لفتت نظرى من شرفتها ، فخلعت لها قبعتى ؟ من هى التى أرسلت عيناها البرق كصواعق جوبيتروراشت سهامها الفتاكة فى قلبى ؟ ...

أرياس : اسمها الدونا ستيللا تابيرا ، وتسميها اشبيلية نجمتها إطراء لها .

الملك : وقد يخلق بها أن تسميها شمسها ... لقد قادنى نجمى الهادى إلى اشبيلية ... فكيف السبيل إلى رؤيتها والتحدث إليها أيها الدون أرياس ؟ يا له من حلم تضطرم له أعماق نفسى ! »(٤٥)

على أن ستيللا تعشق الدون سانتشو أورتيث ، وهى ترفض فى غضب ما عرضه عليها أرياس من السماح للملك بالتمتع بـ « حق السيد » . ولكن أرياس يرشو الخادمة لتدخل الملك إلى مخدع مولاتها ، ويدخل بوستوس شقيق ستيللا الوفى فى اللحظة التى يجب فيها الدفاع عن العرض ، فيكفه الملك ، ويكاد يقتله ، ولكنه إجلالا لمنصبه يخلى سبيله ، مزدرى ولكن دون أن يمسه سوء . وبعد ساعة يشهد الملك جسد الخادمة التى قبلت الرشوة مشنوقا فوق سور قصره . ويرسل فى طلب أورتيث ، ويسأله هل ولاؤه لمليكه لا يعرف الحدود ، فيتلقى جوابا فخورا مرضيا ، ومن ثم يأمره بقتل بوستوس . ويلتقى أورتيث ببوستوس ويتسلم منه رسالة من ستيللا تقول إنها تبادله الحب وتقبل تودده ، فيشكره ، ثم يقتله ، ويكاد يختلط عقله ، ويخشى الملك ثورة الشعب ، فيخفى عنه أن اغتيال بوستوس كان بأمر منه . ويقبض على أورتيث ويكاد يعدم لولا أن ستيللا تجد الوسيلة لإطلاقه . ولكن القصة لا تنتهى نهاية سعيدة ، فقد اتفق العاشقان على أن القتل قد سمم غرامهما إلى الأبد .

لقد أصبح لوبى معبود مدريد بعد أن أخرج ألف مسرحية من هذا النوع . وأغدق عليه الخاصة والعامة الأعجاب ، وبعث إليه البابا بصليب مالطة ودرجة الدكتوراه فى اللاهوت . وكان إذا خرج إلى الشوارع تزاحمت حوله الجماهير التواقة للقائه ، وقبلت النساء والأطفال يديه طالبين منه

البركة . وأطلق اسمه على كل شيء تميز في بابه : فهناك خيل لوبي ، وشمام لوبي ، وسيجار لوبي [٤٦] . أما الناقد الذي يجد فيه عيبا فيعيش كل يوم في خوف الموت على يد أنصار الشاعر الأوفياء .

على أنه لم يكن سعيدا برغم هذا كله . كان ينقد أجرا لا بأس به عن مسرحياته ، ولكنه ينفق أو يهب ماله بمجرد كسبه ، وبعد أن أصابه هذا التوفيق الكثير أدركه الفقر واضطر إلى التماس المعونة من فليب الرابع — الذي أرسل له مهرا سخيا برغم أفلاسه . ولكن أحزانه كانت أفتك به من فقره . فقد دخلت ابنته مارثيلا الدير ، والتحق ابنه لوبي بالبحرية وغرق ، وهربت ابنته انطونيا مع كريستوبال تونوريو آخذة معها عددا كبيرا من تحف أبيها القيمة . وتبرأ منها لوبي ، وهجرها كريستوبال . ووقر في نفس لوبي أن هذه المحن ليست سوى عقاب من السماء على آثامه ، فحبس نفسه في حجرة وأضعف جسده بفرط الصيام حتى تلوثت الجدران بدمه . وفي ٢٣ أغسطس ١٦٣٥ نظم آخر قصائده « السجلو دي أورو » (القرن الذهبي) ومات بعد أربعة أيام وقد بلغ الثالثة والسبعين . ومشت نصف مدريد في مشهده الذي عرج على الدير ليمكن ابنتـــه من أن تقرئه تحية الوداع من نافذة صومعتها . وهكذا مُثّل تمجيد الناس له على هذا المسرح الشعبي الكبير .

إننا لا نستطيع أن نعتبره ضريبا لشيكسبير كما فعل فولتير . ولـــكنا نقول فيه إنه بعبقريته العارمة ، وشعره الجياش ، وشخصيته المحببة المشرقة خلال ألف مسرحية ، ارتفع إلى ذروة العصر الذهبي الأدبية التي لم يطاوله فيها سوى سرفانتس وكالديرون .

٥ — كالديرون : ١٦٠٠ — ٨١

كان هنالك كتاب آخرون تحدوا تفوق لوبي فترة وجيزة . ومن هؤلاء جوييلين دي كاسترو (١٥٩٦) الذي ألف مسرحية « شباب السيد » ،

وقد فضلها بعضهم على مسرحية كورنيى « السيِّد » الأكثر شهرة . ثم لويس فيليزدى جويفارا الذى انقطع عن ممارسة القانون فترة أتاحت له تأليف أربعمائة تمثيلية ، ومنها « الديابلو كوخويلو » وهى المصدر الذى استقى منه لساج مسرحيته « الشيطان الأعرج » . كذلك عرض تيرسو دى مولينا فى برشلونه (١٦٣٠) مسرحية « ساحر اشبيلية والضيف الحجرى ، التى ثبتت شخصية دون خوان مجدفا شهوانيا ، وزدوت موليير بحبكة مسرحيته « الوليمة الحجرية » وموتسرت بحبكة أوبراه « دون جوفانى » وأوحت إلى بيرون ملحمته « دون جوان » ففى هذه السطور القليلة لمحات عن التأثير الهائل الذى كان للمسرحية الأسبانية فى الخارج . وفى عام ١٨٠٣ فاجأ أوجست فلهلم فون شليجل ألمانيـا بإعلانه أنه ليس بين كتـاب المسرحيـة الحديثة من يعلو على بيدور كالديرون دى لاباركا سوى شيـكسبير .

اختتم كالديرون العصر الذهبى وعمر بعده كما فعل موريللو . كان أبوه وزيرا للمالية على عهد فليب الثانى والثالث ، وتلقى فى سلامنكا كل ما استطاع اليسوعيون أن يعطوا ويسمحوا به من تعليم ، وقد كان للاهتمام الشديد بالدين فى تربيته أثر قوى فى تلوين عمله وحياته . درس القانون فى سلامنكا ، ولكنه هجره حين اكتشف أن فى قدرته الكتابة للمسرح بنجاح . وقد احتوت احدى تمثيلياته على اشارة شديدة الوضوح إلى الحشو الجونجورى الذى شاب عظات واعظ ذى نفوذ ، لذلك أودع كالديرون السجن حينا ،ولكن اسمه ذاع بين الناس . ونشر مجلد بمسرحياته ومنها « لافيدا ايس سوينو » (الحياة حلم) عام ١٦٣٦ فكفل له من فوره مكان الصدارة فى المسرح الأسبانى . وعينه فليب فى ذلك العام ليخلف لوبى دى فيجا مسرحيا للبلاط . وفى عام ١٦٤٠ انضم إلى فرقة من الفرسان المدرعين واكتسب شهرة بفضل بسالته وشهامته فى ترجونا . وكثيرا ما استطاع الأديب فى أسبانيا — كما استطاع فى البلاد الاسلامية

— أن يحقق حلما يضمره ، وهو أن يكون رجل أعمال لا أقوال فسحب .
على أن صحة كالديرون تداعت بعد اشتغاله بالحرب سنتين ، فتقاعد بمعاش حربي . ووجهه الحزن على فقد الأقرباء وجهة الدين ، فأصبح عضوا علمانيا في طائفة الفرنسكان ، ثم رسم قسيسا (١٦٥١) ؛ وظل عشر سنوات يخدم أبرشية في طليطلة وهو يواصل الكتابة للمسرح بين الحين والحين . وبعد أن نال كل ما تمنحه هذه الدنيا من مظاهر التشريف ، مات في الحادية والثمانين وهو وطيد الأمل في أن ينال المثوبة على تأليفه مئات « الفصول المقدسة » واكتفائه بخليلة واحدة دون سوها .

ومسرحياته الدينية أجمل ما كتب في بابها ، ففيها وجدت قدرته العاطفية سندا من تقواه الصادقة . وقد حظيت مسرحياته الدنيوية زمنا طويلا بشهرة دولية أوسع من مسرحيات لوبي ، لأنها تضارعها شعرا وتفوقها فكرا . وكان يعوزه بعض ما وهب لوبي من حيوية وتنويع هائلين ، ولكنه هو أيضا كتب هذا اللون من مسرحيات «العباءة والسيف» بحيوية ومهارة . ولا يستطيع ايفاءه حقه الكامل من التقدير سوى خبير باللسان القشتالي ، ولكننا نسجل هنا أن شاعرين من شعراء الإنجليز شعرا بعبقريته وناضلا لابتعاثها من بوتقتها اللغوية . وأولهما شلي الذي ترجم بتصرف اجزاء من « الساحر الرهيب » ، وكان متفقا مع شليجل في رأيه في كالديرون ، والثاني ادوارد فتزجيرالد الذي حاول في كتابه « ست مسرحيات لكالديرون» (١٨٥٣) أن يفعل للمسرحي الأسباني — دون أن يوفق — ما فعله بعد ست سنوات لعمر الخيام بتوفيق كبير .

و « الساحر الرهيب » صورة محورة لاسطورة فاوست . هنا نرى فقيها شهيرا من فقهاء انطاكية يدعى كبريان يقطع مبارزة بين اثنين من تلاميذه يشتهي كلاهما خوستينا ، ويحملهما على أن يغمدا سيفيهما بعد أن يوافق على الذهاب إليها للتحقق من أيهما تختار . ويمضي إليها ، ولكنه يقع في غرامها لأول نظرة . أما هي فتطرده في ازدراء ، ثم تحن إليه ، وأما

الطالبان اللذان صدتهما أيضا فتعزيان باختها ليفيا ، ولكن كبريان لايقوى على تخليص ذاكرته من فتنة خوستينا .

رائعة الجمال هي —
وأنا نهب بين حبي وغيرتي ؛
يعتصرني الأمل والخوف ،
مهما بدا هذا شائنا —
ما أمر الحياة التي أحيا ،
فأنصتي الآن يا جهنم !
إنني لأبذل لروحك البغيضة
نفسي ترثينها إلى الأبد ،
وأحتمل العذاب والسقم ،
نظير أن أملك هذه المرأة(٤٧)

ويقول الشيطان « قبلت » ، ولكن خوستينا تستعصي عليه . وأخيراً يأتي بها إلى كبريان ، ولكن حين يحاول العالم ضمها إلى صدره ينكشف قناعها فلا يبدي غير جمجمة . ويعترف لوسيفر (ابليس) أن قوة المسيح وحدها هي التي استطاعت أن تجيز عليه هذه الحيلة . وأخيرا ، وبينما يساق كبريان وخوستينا إلى لاستشهاد المسيحي ، تعترف بحبها له .

ومن التمثيليات التي ترجمها فتزجيرالد ظفرت « عمدة سلاميا » بالاطراء الشديد لتفوقها التقني . ولكن لمسرحية «الحياة حلم» مسحات باطنة أكثر عمقا . فهي تنحي موضوعات الشرف والحب القديمة جانبا ، وتعرض على المسرح في جرأة مشكلة تكاد تكون شرقية : فالى أي حد تكون صروف الدهر وانتصارات الحياة دائمة وحقيقية ؟ ألعلها ليست سوى أوهام ، وخدع ؛ وجزء من القناع الذي يحجب ما خلفه من حقيقة جوهرية خالدة ؟ هنا نرى باسليوس ملك بولندة يسجن ابنه الحديث الولادة ، الذي تتنبأ الطوالع بتمرده على أبيه . ويربى سجسموند في الأغلال وسط حيوات

الغابة ، ويشب أشد توحشا من أى وحش طليق . على أن الملك يلين فى شيخوخته ، فيدعو ولده للحضور ومشاركته العرش ، ولكن سجسموند الذى لم يدرب على الحكم يقاتل بضراوة وفى عنف أخرق يكره أباه على تخديره حتى يخضع . فإذا أفاق وجد نفسه قد عاد إلى كهفه وأغلاله فى الغابة . ويقال له إن سلطانه الأخير لم يكن غير أضغاث أحلام ، فيصدق ، ويتكلم كما تكلم رتشرد الثانى المهزوم فى مسرحية شيكسبير :

لا ريب فى أن الحياة فى وميض
هذه الدنيا ليست سوى حلم !
يحلم النائم بما هو عليه ولا يفيق إلا
حين يفاجئه الموت بصبحه الحافل بالأسرار .
فالملك يحلم بأنه ملك ،
وعلى هذا النحو الخداع
يعيش ويحلم بسطوة الملوك ،
ولكن كل الهتافات التى تجلجل من حوله
تتخذ لها أجنحة وتطير فى الهواء
لأنها وليـــدة الهـــواء .
ثم يذيب الموت كبرياءه وأبهته .
فيحيلها — وا أسفاه — رمادا فى رماد .
فمنذا الذى يشتهى التاج
وهو يرى أنه لا محالة مفيق
من حلمه وراء باب الموت ؟
قصارى القول ان الناس فى كل الأرض
يحلمون أيا كان مولدهم . . .
فما الحياة ؟ خيال يتراءى ،
سراب يترقرق كاذبا ،

فرحة زائفة ، راحة خداعة ،
فالحياة على أحسن الفروض حلم ،
وحتّى الأحلام ذاتها ليست غير أحلام(٤٨)

ثم يلقى سجسموند عنه وحشيته ، بانقلاب آخر علله المؤلف تعليلا شديد القصور ، ويغدو إنسانا عاقلا ، فإذا أجلسته الثورة على العرش أصبح ملكا صالحا ، واعيا فى تواضع بأن هذا الارتقاء هو أيضا حلم ، فقاعة تافهة فى زبد الحياة .

والخطب فى المسرحية طويلة طولا مؤلما ، وتزويق العبارات « الجونجورى » يفسد خمر الشعر ، ولكنها مسرحية قوية برغم هذا العيب ، تمزج الحركة بالفكر وتحتفظ بالتشويق الدرامى إلى النهاية . وأغلب الظن أننا لو كان لنا وطن وتعليم غير وطننا وتعليمنا ، ولو أتيح لنا الفهم الجيد للغة القشتالية ، لاعتبرنا هذه التمثيلية من أعظم التمثيليات فى العالم .

ويستحيل علينا الآن أن نستعين بالخيال لنقتلع أنفسنا من سجن زماننا ومكاننا ، وندرك قوة الدور الذى لعبته الدراما فى أسبانية القرن السابع عشر ، ومدى النفوذ الذى حظيت به . ففى إيطاليا كادت تطرد المأساة الإيطالية من خشبة المسرح . وفى فرنسا زودت بالحبكات كتابا كآردى وكورنيى وموليير وكثيرين غيرهم ، وقد صاغت شكل المأساة الفرنسية قبل راسين ، إذ شددت على الشرف وأسقطت البلاغة ، فإذا ذكرنا إلى ذلك كله تأثير سرفانتس وغيره من الروائيين الأسبان على لوساج وديفو وفيلدنج وسموليت ، ومن خلال هؤلاء على دكنز وثاكرى ، وإذا قارنا فن إنجلترة الاليزابيثية ، أو حتّى فن فرنسا المعاصرة ، بعمارة أسبانيا ونحتها وتصويرها فى أوجها ذاك — إذا فعلنا هذا كله بدأنا هذا ندرك لم تغلو شعوب العالم الناطقة بالأسبانية فى الفخر بميراثها والاعتزاز بنسبها .

الفصل الثانى عشر

العصر الذهبي للفن الأسبانى (*)

١٥٥٦ — ١٦٨٢

١ — الفن واحد ، وألوانه ألف

ترى كيف نفسر هذه الظاهرة ، وهى أن أسبانيا استطاعت فى هذه الحقبة — بعد أن انتزعت منها انجلترة السيادة على البحر وفرنسا السيادة على البر ؛ وبعد أن بدا أن كل مشروعاتها المادية قد أصابها الفشل والافلاس — أن تبنى كاتدرائية سيجوفيا (سقوبية)، وتوجه نحت هرنانديث ومونتانيس ، وتلهم تصوير الجريكو ، وثورباران ، وفيلاسكويز ، وموريللو ؟ ألأن الكنيسة الأسبانية ما زالت غنية، والبلاط الأسبانى ما زال مسرفا ، والذهب الأمريكى ما زال يدخل اشبيلية ، والفنانين الأسبان الذين يغذيهم الإيمان والمال ما زالوا يحسون وهج مجد لم ينطفىء كله بعد ؟

كان أقل البهاء فى العمارة ، ففيها أشبعت انتصارات الماضى كل حاجات الاتقياء . وفى اشبيلية أعلنت الكنيسة نصرها على المغاربة بتتويجها مئذنة جامع للمسلمين ببرج مسيحى أكمل جمال الجيرالدا (١٥٦٧) ، وبعد سنة توج بارتولومى موريل البناء كله بتمثال « الإيمان » الذى يزن طنا ، ومع ذلك ففى توازنه من الخفة ما يتيح له الحركة مع كل هبة ريح ليشرف على ملكه المبجل . وفى بلد الوليد يبدأ خوان دى هيريرا ، معمارى الاسكوريال ،

(*) كل الصور الأسبانية الواردة فى هذا الفصل معروضة فى « البرادو » ما لم ينص على غير هذا .

عام ١٥٨٥ بناء كاتدرائية « الصعود » الصارمة ، على نطاق مفرط فى السعة حتى أنها ما زالت بغير أثاث . وفوق تل يشرف على سيجوفيا بدأ قرنان من المعماريين والحرفيين عام ١٥٢٢ الكاتدرائية الضخمة التى ترمز فى كبرياء إلى ورع أسبانيا العارم الذى لا يتزعزع . وفى سلامنكا صمم خوان جوميث دى مورا « السيميناريو كونثيليار » الضخم لليسوعيين بالطراز الدورى البالاديوى مضافا إليه القبة .

ولكن حتى أسبانيا كانت تتجه إلى فن دنيوى ، وكانت القصور كما كانت الكنائس تتطلب الفن . ففى أرانخويث بنى فليب الثانى (١٥٧٥) مصيفا يلوذ بحدائقه اللطيفة الجو من قيظ الاسكوريال ووقاره . وأضاف فليب الثالث قصر الباردو منتجعا له ولأصحابه ، وبهو السفراء المحلى بالزخارف فى هذا القصر مشهور بما حوى من ثريات . أما فليب الرابع وأوليفاريس فكادا يسبقان فرساى ببناء حديقة لهو عند بوابة مدريد الشرقية تدعى « بوين ريتيرو » (المنتجع الطيب) (١٦٣١ — ٣٣) . وفى مسرحها الملكى مثلث مسرحيات كثيرة للوبى وكالديرون . وشيدت فى هذه الفترة قاعات مدن فخمة بليون واستورجا ، وصمم الجريكو قاعة منها بطليطلة .

أما النحت فكاد يكون كله كنسيا فى الشكل والمزاج . لقد عدل الطراز القوطى بفعل التأثير الإيطالى والزخرف الباروكى ، ولكن التمثال النصفى الذى لقى اقبالا شديدا فى إيطاليا أعرض عنه الناس فى أسبانيا بتحريم يقرب من تحريم المسلمين للتماثيل . وساهم المصورون — حتى أساطينهم من أمثال ثورباران وموريللو — بفنهم ليجعلوا النحت يقر فى نفوس العابدين الواقعية التى صوروها فى تماثيل المسيح المصلوب والقديسين المستشهدين . وكانت كل التماثيل تقريبا من الخشب المتعدد الألوان . وفى رأى السير وليم ستيرلنج — ماكسويل ، العلامة الاسكتلندى الذى أولع بالفن الأسبانى وأرخ له بحولياته ، أن خوان دى خونى « أفضل المثالين الأسبان » [1]

وقد أذاع اسم خوان مذبح أقامه فى كنيسة « سيدتنا عذراء أنتيجوا » فى بلد الوليد ، وتمثال فى كنيسة أخرى هناك سماه « الأم المتألمة » اعتز به الناس اعتزازا حدا بهم فى عمق إيمانهم الحزين إلى التماس السماح لهم بإلباس التمثال ثيابا غالية . وهناك مثال آخر تضعه أسبانيا فى صف يعلو حتى عن مقـام خوان ، وهو جريجوريو هرنانديث ، هذا أيضا نحت تمثالا آخر للأم المتألمة ، وفى واقعية اختص بها رسم على ثوبها بقع دم ووضع دموعا من زجاج فى وجهها ؛ ولعل تمثال هذه الأم الحزينة ، والمسيح الميت مسجى على حجرها ، هو أسمى ما بلغه فن النحت الأسبانى فى هذا العهد .

وأعظم هؤلاء المثالين خوان مارتينيث مونتانيس . ولم يكن يجاوز الثامنة عشرة يوم وفد هووزوجته (١٥٨٢) على دير « دولثى نومبرى دى خيسوس » فى إشبيلية ، وأهداه تمثالا للعذراء ، وعرفانا بصنيعه كوفئ بسكن مجانى مدى الحياة . وقد سر اليسوعيين بتماثيل نحتها لأغناطيوس وزافير ، وأبهج الرهبان الهيرونيميين بتمثال للقديس جيروم . ومازالت كاتدرائية إشبيلية تعرض تمثاله للمسيح المصلوب ، الذى قال فيه أحد المؤرخين إنه ربما كان أسمى تشخيص للضحية الإلهية [٢] « وحين فرض البابا بولس على جميع الكاثوليك الإيمان بعقيدة « الحمل غير المدنس » ، سعدت أسبانيا جدا بهذا القرار لأنها — كفرنسا — كانت تركز تقواها على العذراء . وارتفع مونتانيس إلى متطلبات الموقف ، فنحت رائعته (المحفوظة بكاتدرائية اشبيلية) — وهى تمثل « أم الإله » الفتية تتأمل سر خلوها من الخطيئة الأصلية ، هذا التمثال أيضا عد من آيات النحت العالمى [٣] ، ولـكن العذراء الأندلسية تبدو شديدة الهدوء والرضى ، وأن أثقلتها كثرة الملابس .

ولو توخينا الانصاف برغم الإيجاز ، لقلنا أن صورة الفن الأسبانى لا بد أن تعدد مفاخره الصغيرة وتحتفل بها : هذه المشبكات والأستار

والبوابات من الحديد أو البرونز ، والمحفورات الخشبية على كثير من حواجز المذبح فى الكنائس ، ومقاعد المرتلين كتلك التى نقشها بيدرو دى مينا لكاتدرائية ملقا ، والمصابيح ، والصلبان والكئوس ، والعلب ، والمظال المشغولة بالفضة أو الذهب ، كصناديق خوان دى أرفى العالمية الشهرة ؛ ثم التماثيل الصغيرة من الخشب أو العاج أو المرمر أو البرونز ، والمطرزات والموشيات التى ازدانت بها مذابح الكنائس وتجملت بها النساء ، وزجاج برشلونة المغشى بالمينا ، وآنية تلافيرا (طلبيرة) من الصفيح المزجج .

كادت الكنيســة قبل مجىء فيلاسكويز أن تكون الراعى والحكم الأوحد فى التصوير . وكان من آثار الأحاسيس القاتمة التى اصطبغ بها اللاهوت والورع الأسبانيان ، والتى ربما كانت انعكاسا لصخور الإقليم الكئيبة وقيظه المحرق ، أنها لم تسمح إلا بالقليل من الفكاهة أو الخفة أو التأنق فى علاج الموضوعات ، وأنها حرمت تصوير العرايا ، واعرضت عن تصوير الأشخاص ومناظر الطبيعة ، وشجعت ضربا من الواقعية الجافية التى اتكأت على جوانب الإيمان المخيف أكثر من جوانبه المعزية ، فعلى الصور أن تقر العقيدة وتؤججها فى النفس بالخيال الملتهب والصرامة الديرية . وانتهى الأمر بأن المصورين أنفسهم رأوا الرؤى وادعوا الوحى الإلهى . وقد نافس فليب الثانى الكنيسة فى رعاية المصورين ، ولكن موضوعات التصوير ظلت دينية ، وحين كلفهم النبلاء برسم صور كانوا عادة يتبعون القاعدة نفسها ، ولم يبدأ توجيه التصوير وجهة دنيوية إلا بفيلاسكويز وفليب الرابع . ودخلت بعض المؤثرات الأجنبية لتعدل من هذا التأثير الكنسى . مثال ذلك أن كاردوتشى وتسوكارو ونحو ثمانية عشر فنانا إيطاليا آخرين طعموا الفن الأسبانى بطابع أرق ؛ وقدم انطونيس مور من فلاندر عام ١٥٧٢ ، وتأثر الرسامون الأسبان الذين زاروا الأراضى المنخفضة بروح فانديك ، كذلك ناشد روبنز ، الممتلئ حيوية ومرحا ، الفنانين الأسبان حين اكتسح مدريد عام ١٦٠٣ ، أن ينظروا إلى الحياة لا إلى الموت .

وفضلا عن أئمة الفن الأربعة الذين هيمنوا على التصوير الأسبانى فى هذا العصر كان هناك كثير غيرهم أقل نبوغا ؛ كألونسو سانتشيث كوئيللو الذى رسم بالأسلوب الفلمنكى لوحات لابن فليب الثانى الصغير دون كارلوس وابنته ايزابل ، وتلميذ كوئيللو خوان بانتوخا دلاكروث ، الذى ترك لنا صورة قاتمة لفليب الثانى (٤) ، وأخرى قوية للقديس أوغسطين ، وفرانسسكودى ريبالتا الذى يظهر أسلوبه « القاتم » ، أسلوب الضوء تحيط به الظلمة ، فى لوحة « القديس فرنسيس يعزيه ملاك » ، وفرانسسكو باتشيكو الذى علم فيلاسكويز ، وزوجه ابنته ، وشرح مبادىء التصوير الأسبانى فى كتابه « فن التصوير » (١٥٤٩) ، كتب يقول « إن أكبر هدف للفن أن يعزى الناس بالتقوى ويعطف قلوبهم نحو الله (٥) » . وفى عام ١٥١١ زار الجريكو فى طليطلة ، وأدن صور اليونانى لأنها « تخطيطات تحضيرية (٦) » فلننظر الآن فى هذا الحكم .

٢ — إلجريكو : ١٥٤٨ ؟ — ١٦١٤

كان فى كريت مسقط رأسه يسمى نفسه كرياكرس ثيوتوكوبولس — أى الابن الإلهى للرب ، وفى إيطاليا سمى دومنيكو تيوكوبولو ؛ وفى أسبانيا دومنجو تيوتوكوبولى ، وكان يوقع بالحروف اليونانية دومنيكوس تيوتوكوبولس ، واختزل الزمن اسمه إلى الجريكو ؛ وهو الكنية التى اشتهر بها فى أسبانيا . ولا نعرف شيئا عن حياته فى كريت . ولعل أجداده هاجروا إليها من القسطنطينية بعد أن فتح المسلمون هذه المدينة اليونانية (١٤٥٣) ؛ على أية حال كان يستطيع فى كريت ، كما استطاع فى البندقية بعد ذلك ، أن يشعر بتأثير الفسيفساء البيزنطية الصارم . وكانت كريت فى حياته ملكا للبندقية ؛ لا عجب إذن أن يستقل الفنان الصغير السفينة إلى مدينة البحيرات ، تجيش فى صدره الآمال بعد ما سمع عن بلوغ التصوير أوجه فيها ، وأغلب الظن أنه انضم إلى الجالية اليونانية الكبيرة فى تلك العاصمة العالمية .

ودرس على يد تتسيانو عامين أو أكثر ، وأعجب بفن تنتوريتو فى جمعه الوجوه فى صور مزحومة ، وربما سرى إليه ولع فيرونيزى بالثياب الفاخرة البهية . وقد نسخ الصور الشهيرة بتواضع صابر فى البندقية وريدجواميليا ، وبارما ، وفلورنسة ، ووصل إلى روما عقب وفاة ميكل انجلو (١٥٦٤) .

وأول ذكر محدد لدينا عنه ورد فى خطاب كتبه جوليو كلوفيو إلى الكردينال أليساندرو فارنيزى فى ١٦ نوفمبر ١٥٧٠ يقول فيه

« وفد على روما شاب من كانديا ، تلميذ لتتسيانو ، ومصور ذو موهبة نادرة فى ظنى ... وقد رسم لنفسه صورة أطراها كل المصورين فى روما . وبودى لو شملتموه سيادتكم بالرعاية ، دون أى اسهام فى رزقه سوى اعطائه حجرة فى قصر فارنيزى » (٧) .

وقبل الكردينال ، وكافأ الجريكو كلوفيو بلوحة رائعة (٨) . وحين كثر اللغط حول العرايا فى لوحة ميكل انجلو « الدينونة الأخيرة » عرض دومنيكو ان يرسم بدلا منها — إذا رفعت — لوحة أخرى لا تقل عنها اتقانا وتمتاز بتغطية الأجسام على نحو أفضل (٩) ، فسقط فى أعين فنانى روما . وأخبره بعض الأحبار الأسبان فى روما أن فليب الثانى يبحث عن مصورين لتزيين الاسكوريال . فرحل إلى أسبانيا عام ١٥٧٢ بعد أن نفض عن قدميه غبار روما ، ولكنه استبقى على فرشاته بعض انحرافات « اللازمية » الإيطالية .

وليس لدينا بعد ذلك عنه ذكر حتى عام ١٥٧٥ ، حين نجده يصمم ويزين كنيسة « سانتودومنجو الانتيجيو » فى طليطلة ، العاصمة الدينية لأسبانيا . فرسم لمذبحها لوحة « صعود العذراء » الفخمة التى تحتل اليوم مكانا بارزا فى معهد الفن بشيكاغو — وهى تحذو فى نواح منها حذو لوحة تتسيانو « الصعود » بالفرارى فى البندقية ، وتلتزم الأجساد الفتية المفعمة شبابا والرءوس الهرمة لحلية التى درج عليها الأسلوب الإيطالى فى

التصوير . وفى عام ١٥٧٧ رسم لكاتدرائية طليطلة لوحة مشهورة سماها « تقسيم أثواب المسيح » وأخذت لجنة شكلت للحكم على الصورة عليها أن سترة يسوع فاقعة الحمرة ، وأن النساء اللاتى يرين فى أسفل اليسار - المريمات الثلاث - لا محل لهن هناك ، لأن الأناجيل ذكرت أنهن كن ينظرن من بعيد ، ومع ذلك أعلن القضاة حكمهم المتنبئ بأن الصورة « لا تقدر بثمن ، وأنها عظيمة القيمة (١٠) » . وكانت إحدى المريمات منقولة عن خليلة المصور، واسمها الدونا خيرونيا دلاس كيفاس، التى يظهر وجهها الحزين اللطيف فى معظم عذارى الجريكو . وهو لم يتزوجها قط برغم وفائه لها وولائه للكنيسة ، ولم تكن هذه عادة أسبانية قديمة بل عادة تقدست طويلا فى مراسم الفنانين .

ووصف كاتب من الجيل التالى ، يدعى خوزيه مارتينيث ، دومنيكو بأنه أصبح الآن على ثقة من الخلود ، قال :

« لقد استقر . . . فى طليطلة ، وأدخل أسلوبا شديد الاسراف بحيث لم ير إلى اليوم له نظير ، ومحاولة البحث فيه تشوش أسلم العقول . . . وقد صرح بأن فنة لا يعلو عليه فن . . . وكان فى طبيعته من الغلو مثل ما فى فنه . . . كان يقول إنه ما من ثمن يمكن أن يوفى رسومه حقها، لذلك كان يرتهنها عند أصحابها ، الذين يقرضونه عنها ما شاء عن طيب خاطر . وكان معماريا ذائع الصيت ، عظيم البلاغة فى أحاديثه . أما تلاميذه فقلائل ، لأن أحدا لم يشأ أن يأخذ بأسلوبه المسرف المتقلب الذى لا يصلح إلا له » (١١).

وحوالى عام ١٥٨٠ أرسل فليب الثانى فى طلب الجريكو ووكل إليه رسم لوحة « القديس موريس والفيلق الطيبى » وبعد جهد سنوات أربع قدم الفنان ثمرة تعبه للملك . غير أن فليب وجد تجميع الأشخاص شديد الاختلاط ، فدفع ثمن اللوحة ولكنه لم يقبلها ، وعاد الجريكو محزونا إلى طليطلة ، ولم يبرحها بعد ذلك قط فيما نعلم . وكان ذلك خيرا له ، لأنه أصبح حرا فى أن يعود إلى طبيعته الصوفية .

ثم رسم لكنيسة القديس توما (١٥٨٦) أشهر صوره اطلاقا ، وكأنه كان بذلك يثأر لنفسه ،وهي إحدى ذرى فن التصوير . وقد اشترط العقد أن يبدى فيها الكهنة يحيون تقليدا يزعم أن القديسين هبطوا من السماء ليدفنوا الدوق جونزالو رويز ، كونت أورجاز ، وأن يمثل القديسان اسطفانوس وأوغسطين (فى أثواب الأساقفة) وهما ينزلان الجثمان إلى قبره وسط جمع جليل من وجوه القوم ، وفوق هذه الوجوه تبدى السماء المفتوحة ابن الله فى مجده وبهائه . كل هذا فعله بحذافيره وأكثر منه ، فكل رأس تقريبا لوحة كاملة الصقل ، والأرواب معجزة من الذهب والخضرة والبياض ، والدرع الدمشقى الحلية الذى يلبسه الكونت يتلألأ ضياء ، زد على ذلك أن الجريكو نفسه يرى من خلف القديس اسطفانوس. أما آية هذه الآية فرأس القديس أوغسطين بقلنسوته ولحيته ، أم لعلنا نؤثر عليه الجثمان الجميل ؟ أم وجه القديس اسطفانوس الحلو ؟ أم الكاهن الأصلع يتلو صلاة الدفن ؟ أم خورجى مانويل ، بن الجريكو ذا الثمانية الأعوام ممسكا فى فخر مشعلاومبرزا من جيبه منديلا ليظهر توقيع الجريكو؟ وفى كتاب فرانسسكو دى بيزا « تاريخ طليطلة » (١٦١٢) نقرأ ما كان ينبغى أن نحزره : « إن لوحة (دفن الكونت أورجز) هذه من أبدع الصور فى أسبانيا بأسرها . والناس يؤمونها من كل بلد غريب ليعجبوا بها إعجابا خاصا ، وأهل طليطلة لا يملونها ، بل يجدون فيها على الدوام جديدا يتطلعون إليه . وفيها يرى الكثير من مشاهير الرجال فى عصرنا مصورين تصويرا واقعيا[١٢]. » ومع ذلك كله راح مجلس الأبرشية يساوم على أتعابها ، فرفع اليونانى الحامى الطبع الأمر إلى القضاء ، وكسب دعواه ، وتسلم ألفى كراون .

إنه الآن لا يشكو قلة الطلب على رسومه ، فلقد وجد نفسه ، ولم يعد يفكر فى تتسيانو ولا فى تنتوريتو ، وقد استطاع أن يجرى تجاربه فى إطالة الأشكال ، لا لأنه يعانى من أى قصور فى البصر ، بل لأنه

فى أغلب الظن شعر بأنه بهذه الطريقة قد يرمز إلى التسامى الروحى لأشكاله — أجسام تمددها نفوس تشرئب إلى السماء . وفى لوحتى القديس أندراوس والقديس فرانسيس المحفوظتين بالبرادو يبدو هذا التحول غير مفهوم ما لم نأخذ هذه الرمزية فى الاعتبار ، ونتذكر التماثيل القوطية التى ترقق مراعاة للقيود المعمارية . على أن هذا كله يغتفر للفنان حين نصل إلى لوحته «القديس الديفونسو» التى رسمها لمستشفى الكاريداد بإلليسكاس ، فهنا ، فى الروح الوقور الذى خلعه على رئيس الأساقفة الوسيط ، وفى عقله المستغرق ، ووجهه المتقشف ، وشعره الأبيض الناحل ، ويديه الرقيقتين — هنا تصور من أعمق تصورات الجريكو . « هذه الصورة وحدها تكفى جزاء وعوضا عن الرحلة إلى أسبانيا » (١٢) .

ولا يدلنا القليل الذى نعلمه عن حياة الجريكو على أنه كان متدينـــا على الطريقة الأسبانية ، ويبدو أنه كان يميل إلى اللذة لا إلى الورع . فحين رسم لوحة « العائلة المقدسة » لمستشفى تافيرا خلع على العذراء جمال الجسد لا وفاء الأم . أما لوحة « الصلب » ففيها علم واسع بالتشريح ، ولـكنها باردة فى العاطفة ، وقد أحس جرونيفالد بمأساة الصلب تلك احساسا أعمق بكثير . ففى صوره الدينية لا يتجلى الجريكو إلا فى اللوحات العارضة — كما نرى فى صورته هوبلحيته البيضاء ورأسه الأصلع فى «يوم الخمسين». ولم يجد مشقة ، فى بلد يعج برجال الدين ، فى العثور على شخصيات قوية يصورها ، كصديقه بارافيثينو الثالوثى (بوسطن) بوجهه نصف العـــالم ونصف عضو محكمة التفتيش ، أو رئيس المحكمة نفسه، الكردينال نينو دى جيفارا (نيويورك) — وصورته لا ترقى إلى صورة فيلاسكويز التى رسمها لانوسنت العاشر . وقد تجاوزها الجريكو ذاته فى لوحة «كردينـــال تافيرا » الذى نرى فى وجهه المضنى — وكله عظام وعيون حزينة — تعبيرا آخر عن تصور الفنان لتكريس الكاهن نفسه لخدمة الدين . ولكن خير اللوحات كلها لوحات الأخوين كوفاروبيا : فواحد - وهو انطونيو — علمانى ،

أشيب ، متحرر من الوهم ، مرهق ، صفوح ، والآخر — دييجو — فى ثوب الكاهن ، ولكنه يبدو أشد اقبالا على الدنيا ، وأكثر مرحا ، وحسن التكيف مع محيطه . ولا يفوق هذه الدراسات العميقة سوى بعض لوحات رمبرانت وتتسيانو ، ولوحة رفائيل « يوليوس الثانى » .

وهى بعض الذخائر التى يضمها متحف كازا ديلجريكو فى طليطلة . وفيه أيضا « تصميم مدينة طليطلة » ، وهو يشرف هنا على المدينة كلها وعلى التـلال التى تكتنفها وكأنه يطل عليها من سحابة . وقـد صورها مرة أخرى فى أخريات عمره فى لوحـة « منظر طليطلة » ومن فوقها سماء عاصفة (نيويورك) — صورة تأثرية تزدرى الدقة الواقعية كل الازدراء . وحين أقبل عام ١٦٠٠ ، كان «اليونانى» قد أصبح من أشهر مواطنى المدينة ، يعرفه الجميع بروحه المتقلبة المتكبرة ، صوفيا بستطيب المال ، يشغل أربعا وعشرين حجرة فى قصر عتيق ، يستأجر الموسيقيين ليعزفوا له خلال تناوله الطعام ، ويجمع من حوله مثقفى طليطلة ، ويكرمه الناس بوصفه « فيلسوفا كبيرا ».(١٤) وحوالى عام ١٦٠٥ رسم صورة يفترض أنها صورته الذاتية (نيويورك) — أصلع ، أشيب ، يكاد يكون أعجف . وفى عام ١٦١١ وجده باتشيكو فى حال من الهزال أعجزته عن المشى . ولم يستطيع دفع ديونه وإن احتفظ بغرفه الأربـع والعشرين ، وقرر له مجلس المدينة مبالغ كبيرة غير مرة . ومات عام ١٦١٤ وهو فى الثالثة والسبعين .

أما مقامه فى دنيا الفن فمغامرة تالية لموته . كتب عنه جونجورا سونيتة مديح ، وأقر فيلاسكويز بعبقريته ، ولكن فنه الغريب لم يوح بأى محاكاة له ولم يؤسس أى مدرسة . ولم تأت سنة ١٦٥٠ حتى تاه أمام بهاء شهرة فيلاسكويز ، وطواه النسيان تقريبا مدى قرنين ، ثم اكتشفه دلاكروا من جديد ، واحتذى ديجا ومانيه وسيزان طريقته فى التعبير عن الحالات النفسية ، ورأى فان جوخ وجوجان فيه سلفا لهما : وفى عام ١٩٠٧ رفعت «الرحلة الأسبانية» التى كتبها « يوليوس

مايير جريفى » الجريكو فوق فيلاسكويز إلى أعلى ذرى التصوير الأسبانى . على أن هذه الذبذبات فى الشهرة قلقة لاثبات لها لأنها عرضة لـ « تقلبات الذوق الجامحة » (٥٥) . ولكن الجريكو سيظل قرونا طوالا المثال الحافز للفنان الذى جاوز الأشياء إلى الأفكار والمشاعر ، وجاوز الأجساد إلى الأرواح .

٣ — ثورباران : ١٥٩٨ — ١٦٦٤

وبعد الجريكو ظل فن التصوير الأسبانى جيلا لا يتحرك ولا يظهر فيه غير رجال أقل كفاية بذلوا ما وسعهم من جهد ثم اختفوا . وإذا فنانان يظهران فى آن واحد تقريبا ، هما فرانسسكو دى ثورباران وديجو ڤيلاسكويز ، ويفيضان فنهما العظيم على أسبانيا . وقد ظلا ثلاثين عاما يكمل الواحد منهما صاحبه . فثورباران يرسم كأنه راهب يدفعه الخوف إلى العبادة ، ويقترب بصلاته من الله ، وفيلاسكويز يلقى النجاح فى الدنيا ويلصق بمليكه .

أما ثورباران فقد عمد فى فوينتى دى كانتوس ، بجنوبى أسبانيا الغربى ، فى ٧ نوفمبر ١٥٩٨ ، ابنا لصاحب حانوت أتيح له من النجاح ما مكنه من إرسال ولده لينمى موهبته فى اشبيلية . وبعد عامين من الدرس وقع أول صوره المؤرخة (١٦١٦) ، وهى صورة للحمل غير المدنس . كان خليقا بها أن تقضى على مستقبله . وبعد سنة انتقل إلى ليرينا ، على خمسة عشر ميلا من مسقط رأسه . وكانت المنطقة آهلة بالأديرة والكنائس والصوامع ، ومنها تلقى فرانسسكو مهامه المتواضعة وإلهاماته . وهناك تزوج ماريا بيريز ، وكانت تكبره بتسع سنين ، لكى يضفى الشرعية على ولده منها ، وقد ماتت بعد أن أنجبت له طفلين آخرين . وفى عام ١٦٢٥ تزوج أرملة تكبره بعشر سنين ، ولكن لها صداقا مغريا ، فولدت له ستة ، مات خمسة منهم فى طفولتهم . وبعد موتها تزوج بأرملة غنية ، فأنجبت له ستة ، مات منهم خمسة فى طفولتهم . وهكذا جاهد الحب لكى يتقدم الموت بخطوة .

أما في الفن فقد بدأت فترته الخلاقة بعقد كلف فيه بأن يرسم في ستة أشهر إحدى وعشرين صورة لديردومنيكي بأشبيلية يدعى سان بابلو الريال (١٦٢٦) . وبعد أن أنجز ثورباران هذه المهمة زار مدريد فيما يبدو ، وأحس بتأثير فيلاسكويز . وكانت صوره حتى ذلك الحين تعكس أسلوب كارافادجو القاتم الضخم ، وربما أسلوب ريبرا أيضا ، فأضاف الآن إلى طبيعيته الخشنة نعومة جديدة في الظلال ورهافة في الصقل ؛ وبعد قليل نلقاه في إشبيلية يرسم اثنتين وعشرين لوحة قماشية هائلة للرهبان « المرسيدارين » — (أي رهبان سيدتنا الرحيمة) خصصت لافتداء المسيحيين الأسرى . والصور الأربعة الباقية من هذه المجموعة ليست من الروائع ، ولكن في واحدة منها وجها صبيانيا تعيه الذاكرة لعله وجه خوان ابن الفنان ؛ ولا بد أن اشبيلية أحبت هذه الصور ، لأنها طلبت إلى فرانسسكو رسميا عام ١٦٢٩ أن يجعل فيها مقامه — «إن اشبيلية تشرف ... لأن التصوير من أهم ما تزدان به الدولة [١٦] » . وقبل ثورباران العرض ؛

وفي عام ١٩٣٠ رسم لكنيسة سان بونافنتورا الفرنسيسكانية طائفة من أروع صوره . ومنها صورة « القديس بونافنتورا يشير للقديس توما الأكويني على الصليب » ، ترى فيها اللاهوتي العظيم — ممثلا على هيئة راهب دومنيكي لسوء الحظ — ينبه القديس في رفق إلى أن الدين ليس قوامه النظرية الفلسفية بل تأمل المسيح . وهذه الصورة — وهي الموضوع الذي يتردد في ثورباران — سرقها المارشال صولت من أسبانيا (١٨١٠) ووجدت طريقها إلى متحف القيصر فردريك في برلين ، ثم أتت عليها الحرب العالمية الثانية . وصورة أخرى في هــذه المجموعة ، « القديس بونافنتورا على نعشه » ، أخذها صولت أيضا ، بيعت للوفر عام ١٨٥٨ وما زالت هناك ؛ والوجوه الأربعة التي إلى يسارها رائعة . وأروع من هذه « تمجيد القديس توما الأكويني » التي رسمها ثورباران لكلية دومنيكية بأشبيلية ؛ والفكر ينتقل في دهشة من وجه عميق إلى وجه آخر —

أمبروز ، وجريجورى ، وجيروم ، وأوغسطين ، وشارل الخامس . ولكن خيرونيمو فيلاسكويز كان ينقد على الإطار وحده ستة أمثال ما ينقده ثورباران على الصورة .

وحين انتقل المصور المشغول إلى كنيسة القديس البرتو الكرملية ، رسم القديس فرانسيس مستغرقا فى صلاته بخشوع ، والقديس بطرس توما ، راهبا كثير التجاعيد أضناه طول انتظار الفردوس . ولما عاد إلى دير المرسيداريين (١٦٣١) صور بعضا من أجلّ رهبانه ، ومن هذه الصور صورة « فراى بيدرو ما تشادو » وتكاثر عليه الطلب خلال سنة ١٦٣٣ : اثنا عشر رسولا لكنيسة فى لشبونه ، وثلاث صور للكارثوسيين بأشبيلية ، وعشر لمصلى القديس بطرس فى الكاتدرائية الكبرى ، واحداها — القديس بطرس نادماً — الموجودة إلى اليوم فى مكانها الأصلى ، تجربة مدهشة فى الواقعية ؛ ربما رسمها وهو يذكر ريبيرا .

وتعاظم الطلب على ثورباران الآن حتى وكل معاونيه بالكثير من أعماله . رسم لدير جوادالوبى فى استريمادورا صورة « إغراء القديس جيروم » ، ورأس القديس ويداه فى هذه الصورة من أعاجيب التقنية ، أما السيدات الرقيقات عازفات الموسيقى فليس من الانصاف أن يقاوم اغراؤهن . وطلبت صور الفنان حتى من بيرو وجواتيمالا ، وذهبت سلسلة من صور الرسل إلى ليما ، وأخرى إلى أنتيجوا ، وأرسلت إلى المكسيك لوحة « المسيح فى عمواس » ، التى تصور المسيح المقام فلاحا سليم الجسم سعيد النفس يتناول طعامه . وبعض هذه اللوحات القماشية أدى فى عجلة أو قام به معاونوه ، وقد اضطر ثورباران لمقاضاة ليما حتى يحصل على أتعابه .

ومنذ عام ١٦٤٥ بدأ الفنان الشاب موريللو يتحدى مكانته الرفيعة فى اشبيلية ، فزود الكنائس والأديار بصور تمثل قصة المسيحية بلغ من رقتها أنها هوت بالطلب على واقعية ثورباران المقلقة : وحاول المصور المكتهل

أن يلطف من مرعباته ، وكافح حينا ليبارى موريللو فى عاطفته العائلية الورعة ، كما نرى فى لوحته « العذراء والطفل مع القديس يوحنا » (المحفوظة بسان ديبجو فى كاليفورنيا) ، ولكن هذا الأسلوب الجديد كان غريبا على فنه ومزاجه . وعلى ذلك شد رحاله إلى مدريد عسى أن يستقيم له الأمر ، ولكن فليب الرابع ، المفلس ، لم يجد ما يكلفه به خيرا من زخرفة كوخ صيده . وكان فيلاسكويز كريما معه ، ولكنه مات فجأة . وعمر ثورباران بعد موت صديقه وزوال شهرته .

ولم يكد صيته يجاوز جبال البرانس ، حتى استلطف قواد نابليون صور رهبانه الضخام وقديسيه العابثين فخطفوا بعضها وأتوا بها إلى فرنسا . ولما أتبعت الأديرة الأسبانية للدولة عام ١٦٣٥جلب المزيد من صوره إلى باريس ، وفى عام ١٨٣٨ افتتح الملك لوى فليب فى متحف اللوفر قاعة أسبانية تضم أربعمائة لوحة نسبت ثمانون منها لثورباران . والذوق الفنى فى أيامنا هذه يجد رقعته شديدة الضيق مغرقة فى الديرية ، ويجد روحه مثالية فى الكآبة والتفكير . ونحن نفتقد فيه صعاليك موريللو وفلاسفة فيلاسكويز وأميراته الجميلات . ومع ذلك ففى فنه اخلاص مكين ، وتفان عميق ، وقوة فى اللون والشكل ترفعه فوق دنيا الميول العابرة وتكفل له مكانه فى ذاكرة البشر .

٤ — فيلاسكويز : ١٥٩٩ — ١٦٦٠

كان جده لأبيه نبيلا برتغاليا رحل عن أوبورتو إلى اشبيلية بعد أن فقد كل ثروته . وولد الفنان لخوان دى سيلفا والدونا خيرونيما فيلاسكويز ، فى السنة التى ولد فيها فان ديك ، وبعد مولد ثورباران وبرنينى بعام ، وقبل مولد موريللو بثمانية عشر عاما . وسمى دييجو رودريجيز دى سيلفا إلى فيلاسكويز ، وقد ألف أن يسمى نفسه باسم أمه ، وهى عادة شائعة فى جنوبى أسبانيا . وحظى بتعليم جيد ، وتعلم شيئا من اللاتينية والفلسفة ، وجرب دراسة العلوم حينا . ثم اتجه إلى التصوير ، فدرس فترة وجيزة

على خوان دى هيريرا وفترة أطول على باتشيكو . يقول باتشيكو « زوجته لابنتى بعد أن أغرانى شبابه ونزاهته وخصاله الحميدة وما يرجى لنبوغه الطبيعى العظيم من مستقبل مرموق[١٧] » .

وأقام فيلاسكويز مرسمه الخاص ، وسرعان ما لفت النظر بإيثاره للمواضيع الدنيوية . وقد اختلط بالدهماء ، وكان يغتبط بنقل أفكارهم وترجمة حياتهم إلى وجوههم . ورسم وهو بعد فتى فى العشرين لوحة رائعة سماها « سقاء إشبيلية[١٨] » . هنا ، فى ثوب رث وفى صبر جميل ، صورة للفقر مع الأمانة . وفى عامه الثالث والعشرين صور الشاعر جونجورا (بوسطن) ببصيرة اكتمل نضجها — فالعينان والأنف نافذة إلى صميم الحيــاة .

وأكبر الظن أن هذا العمل قام به فيلاسكويز خلال زورته الأولى لمدريد (١٦٢٢) . لقد كانت اشبيلية وكهانها أضيق من أن يتسعا لبوغه ، وساقته فورة من الطموح إلى العاصمة فانطلق إليها يتأبط « سقاءه » . هناك حاول التقرب من البلاط ولكنه لم يفلح . ذلك أن فليب الرابع وأوليفاريس كانا مشغولين بالسياسة والزيجات والحروب ، وكان هناك أكثر من عشرة فنانين يتسلقون نفس السلم . وقفل دييجو إلى إشبيلية . وانقضى عام ، ثم وفد الأمير تشارلز ستيوارت على مدريد ، وتودد إلى احدى بنات الملك ، وأبدى تذوقا للفن ، فأرسل أوليفاريس فى طلب فيلاسكويز . وركب الفتى الأسود العينين والشعر إلى العاصمة مرة أخرى ، فعين مصورا للبلاط ، واستهوى الملك إذ صوره خيالا باسلا يمتطى فرسا يطفر . ولم يقنع فليب بالجلوس أمام فيلاسكويز ليصوره مرارا وتكرارا ، ولكنه شجع الأسرة المالكة (الاخوة والزوجات والأطفال) ورجال البــلاط (الوزراء والقواد والشعراء والمضحكين والأقزام) أن يجلس كل بدوره أمام هذه الريشة المخلدة . وأعطى دييجو مرسما فى القصر الملكى ، وفيه ، أو على مقربة منه ، أنفق أكثر السنين السبعة والثلاثين الباقية من عمره . لقد كانت فرصة رائعة ، وكانت سجنا مضيقا للأفق .

على أن موثرين كبيرين وسعا من أفقه . ذلك روبنز ، أشهر الفنانين فى العالم يومئذ ، زار مدريد مرة أخرى عام ١٦٢٨ — وكان إمام الضوء والظل ، والمصور المستهتر للأرباب الوثنية والأجساد العارية الشهوانية . وتأثر فيلاسكويز بفن روبنز ، ونصحه هذا بأن يذهب إلى إيطاليا ، وإلى البندقية خاصة ، ويدرس أعمال نوابغ التلوين . والتمس دييجو الاذن من فليب ، فمنحه أجازة وأربعمائة دوكاتية ثمينة لنفقات الرحلة . وقد نحيط بمثال من سرعة الانتقال بالبحر فى ذلك العصر إذا عرفنا أن فيلاسكويز غادر برشلونة فى ١٠ أغسطس ١٦٢٩ ، ووصل جنوة فى ٢٠ أغسطس . ثم عبر إيطاليا إلى البندقية وجلس أياما يتأمل اللوحات القماشية العظيمة التى رسمها تنتوريتو وفيرونيزى ، وصور الأشخاص والأساطير التى رسمها تتسيانو . ثم انتقل إلى فيرارا وروما ، ونسخ صور التماثيل الرخامية القديمة فى ساحة روما العامة ، وحسد ميكلانجلو على رسمه الصور الجصية على سقف كنيسة السيستين الصغيرة . وقد أعانت هـذه الصور الفخمة فيلاسكويز على الانتقال من ظلال كارفادجو القاتمة إلى تصوير أكثر حدة للاشكال فى الضوء الواضح . ثم رحل إلى نابلى ايزور ريبيرا ، ومنها قفل راجعا إلى أسبانيا (يناير ١٦٣١) .

ترى أهو الغرور — ذلك الظل المساند لكل نفس — الذى دفع فليب ليجلس المرة بعد المرة إلى فنان أوتى مثل هذه النظرة الثاقبة والصدق المدقق ، أم كان الدافع له أن يهدى صورته لمن يطلبونها من أصحابه ؟ ولكنه تحول مؤسف ذلك الذى نلحظه على هيئته ، فصورة الشاب الفارع الطول الرشيق القوام الذى يبدو فى اللوحات الأولى تستحيل فى النهاية إلى صور رجل غاض اللون من وجهه وصبغ به شعره ، وأوتقراطية قائمة تتشبث بالبقاء — على الرغم من الزمن والهزائم — فى العيون الزرقاء الباردة والذقن الهابسبورجى الملتف . وإذا كانت السطحية عيب هـذه الصور الملكية ، فلعل السبب أنه لم يكن هناك شىء تحت السطح الظاهر . فإذا

كان هناك شيء ما ، كما فى صور جونجورا وأوليفاريس ، فإنه ينبعث على القماش .

وتخللت صور الملك صور للملكة ايزابيللا ، ثم للملكة ماريانا ، ثم للملكة ماريا المجرية أخت فليب ، وكلهن جلسن إلى المصور دون أن تحقق صورهن نتائج باهرة . واتخذ أخو فليب الأصغر ، الكردينال الأمير فرديناند ، زى الصياد يرافقه كلب كاه عضلات وأعصاب ووفاء يقظ أما أوليفاريس فقد امتطى فرسا أدهم ليصور صورته المحفوظة بالبر دو ، وجوادا أبيض بنفس الوضع بصورته المحفوظة بمتحف المتروبوليتان للفن فى نيويورك ، غير تارك مجالا للشك فى هوية من يملك الزمام فى أسبانيا . وألطف صور الحاشية هذه صور الدون بالتازار كارلوس الصغير ، الذى كان مناط آمال الأسرة المالكة . وقد رسم فيلاسكويز هذا الطفل الجميل المرة بعد المرة فى اغتباط واضح ، مرة فى ١٦٣١ ومعه قزم تابع (١٩) ، ومرة فى ١٦٣٢ بعد أن أصبح فتنة البلاط (٢٠) ، ومرة فى ١٦٣٤ وهو يلوح بعصا المرشالية ، ممتطيا فى كبرياء جوادا ضخما (وهو بعد فى الخامسة) ، ثم صيادا يمسك بندقيته بعناية ، ولكن واضح أنه أرق من أن يقتل أو يحكم ؛ وفى هذا الوجه البريء خير رد على أولئك الذين رأوا أن فيلاسكويز لم يرسم غير السطوح . وهكذا جاءت صور السلسلة تترى ، من سنة كارلوس الثانية إلى سنته السادسة عشرة ، حين أصابت الحمى الأمير المحبوب وقضت عليه .

أما القزم الذى يرى فى إحدى هذه الصور فكان من عدة أقزام أعطوا الفاشلين فى بلاط فليب شعورا معزيا بالتفوق والعظمة . كانت عادة منحدرة من روما الأمبراطورية ومن الشرق الأقدم منها . وحتى البلاط البابوى كان فيه أقزام ؛ وقد جمع الكردينال فيتيللى منهم أربعة وأربعين ليخدموا ضيوفه . وأهدى دوق بكنجهام الملكة هنريتا ماريا فطيرة احتوت قزما طوله ثمانى عشرة بوصة (٢١) . وكان أقزام فليب الرابع يلبسون الثيـــاب

الفاخرةالتى تتألق بالجواهر والذهب ارضاء لهم وتسلية للناس . أما فيلاسكويز فقدصورهم بروح العطف والمرح ؛ فواحد منهم ،اسمه انطونيو الانجليزى ، يبدى فى كبرياء طوله عن كلبه وإن كان دونه جمالا ؛وآخر اسمه سباستيان دى مورا يعبس فى لحيته الضخمة ويزم قبضتيه سخطا على قدره . كذلك كان فى البلاط مهرجون ، رسم فيلاسكويز منهم خمسة ، واحدا منهم ، صورته تسمى « الجغرافى (٢٢) » لأنه يشير إلى الكرة الأرضية ، يبدو أكثر تفكيرا من أوليفاريس ، وثانيا يسمى بارباروسا يستل سيفا رهيبا؛ وثالثا ارتدى زى دون جوان النمسوى ،ورابعا يحاول حمل كتاب ضخم، وخامسا تسمى صورته « الأبله » يبدو عليه جنون لا يؤذى ، بل يكاد يكون لطيفا .

وجد فيلاسكويز تفريجا من البروتوكول — برغم كونه دائما رجل بلاط وجنتلمانا لا تخطئه العين — فى دراسة حياة العامة الأجلاء الذين لا يزالون زينة المشهد الأسبانى . ففى بواكير اشتغاله بالتصوير (١٦٢٩) اقنع شابين جميلين وستة من الفلاحين بأن يجلسوا إلى صورة «السكارى»، وفيها باخوس عار تقريبا ، جالس فوق برميل ، يتوج بالكروم شخصا راكعا ، بينما تجمع حولهما عشاق للكرمة أجلاف ،أضنى بعضهم الكد، وأشاب بعضهم الزمن ؛ ولعل هذه هى الخمرية الخالدة الوحيدة فى الفن الأسبانى خلال القرن الذهبى . وأعجب حتى من هؤلاء السكارى لوحتان سمى فيلاسكويز الأولى « ايزوب »، وهى صورة مؤلف حزين عجوز، مملق نصف أعمى ، يحمل قصصه الخرافية عبر السنين ، والثانية «منيبوس» وهى صورة فيلسوف كلبى من فلاسفة القرن الثالث ق . م . ، هذان وجهان يعلقان بالذاكرة . ولا يقل عن هذا كله ما تركه لنا فيلاسكويز من صور الحيوان ؛ جياد تبدو لنا اليوم ثقيلة الحركة لضخامتها ، ولكن يعوض عن عيبها رءوس تختال وعيون تلمع ، ورأس غزال عليه سيماء الفلسفة ، وقد استسلم لوحشية البشر ، وكلاب متحفزة للجرى والوثب ، أو يقظانة نائمة .

تلك كانت الأعمال الجانبية التي تسلت بها ريشة فيلاسكويز ، رغماً تخففاً من مخاطر تصويره لكبار الحاشية دون أن ينال منهم المدح والثناء . وقد يزيد تقدير نا لأسبان القرن السابع عشر حين نرى هؤلاء النبلاء يرتدون الأثواب المتواضعة ، ومع ذلك يواجهون بأيمان فخور عالما بدا فيه وطنهم الحبيب عاجزا مشلول الحركة لما أصابه من انحلال . فالدون دييجو دبل كورال أي أريللانو ، والكردينال جاسبار دي يورخا أي فيلاسكو (٢٣)، والنحات القوي البدن مونتانيس،وفارس سنتياجو الشامخ (٢٤)،وفرانسسكو دستي الشانى ، الحلو الحيي ، والدون خوان فرنسسكو بيمنتال الفخم المهيب – تلك صور تنفذ إلى صميم النفس . وإذا كانت « صورة رجل » المحفوظة في قاعة كابيتوليني بروما هي حقيقة صورة فيلاسكويز نفسه ، كان مستحيلا على الناظر إلا أن يحبه – بشعره الجعد في إهمال ، وثوبه المتواضع ، وعينيه الرقيقتين المفكرتين .

ويعجب المرء كيف زحم رجال الحاشية في صور فيلاسكويز الكنيسة والموضوعات الدينية المقدسة ليحلوا محلها . لم يكن في استطاعته أن ينافس الجريكو أو ثورباران في رسم شيوخ الرسل والقديسين بتجاعيدهم الكثيرة ، ولم تنبعث قدراته كلها إلا في صورة « تتويج العذراء » دون سائر صوره الدينية. فلقد كان اغتباطه أعظم بالمناظر الدنيوية. وفي صورته «لاس لانثاس» ، والمشهورة باسم « استسلام بريدا » بسط نفسه على اللوحة بسخاء ، فجعلها من أوسع اللوحات في تاريخ الفن (١٢٠ بوصة × ١٤٤) ، ولكنها أيضا من أغناها تفاصيل . وبيان ذلك أن أمبروزيو دي سبينولا كان قد استرد لأسبانيا خلال الحرب الطويلة التي خاضتها ضد ثوار الأراضي المنخفضة مدينة بريدا الاستراتيجية في برابانت الشمالية . والتقى فيلاسكويز بسبينولا عام ١٦٢٩ أثناء رحلته عائدا من إيطاليا ، ووقع من نفسه موقعا جميلا ذلك النبل الفروسي الذي اتسم به القائد الكبير ، فسجل هذا كله في رائعة بدا فيها الرماحون الأسبان المنتصرون يرفعون حرابهم عاليا ، والمدينة

تحترق ، والقائد المهزوم المستسلم جوستين الناساوى يقدم مفاتيح [المدينة إلا سبينولا ، والفاتح الشهم يهنىء الرجل المغلوب على بسالة دفاعه . ولقد حقق فيلاسكويز فى مفارقات اللون العجيبة وفى تمييز كل فرد من الأتباع ، نصرا أسعد فليب الرابع أن يعرضه فى قصر بوين ريتيرو .

وفى عام ١٦٤٩ دفع فليب نفقات زيارة فيلاسكويز الثانية لإيطاليا مكافأة له على جهد ستة وعشرين عاما ، وكلف الفنان بالحصول على مصبوبات من التماثيل الكلاسيكية وبشراء لوحات بريشة أئمة الفن الايطاليين . ووجد فيلاسكويز أن الأسعار قد شطت ، وكاد يستحيل شراء أى أثر كبير للفانين البنادقة العظام بأى ثمن ، واضطر أن يدفع ٠٠٠ ر ١٢ كراون (٠٠٠ ر ١٥٠ دولار ؟) ثمنا لخمس صور . فهل كان أصحاب الملايين وغيرهم قد أخذوا يستغلون الفن وقاء من التضخم المالى ؟

أما خير صورة رسمت فى إيطاليا فى ذلك العام (١٦٥٠) فصورة فيلاسكويز لانوسنت العاشر . وحين ارتضى البابا أن يجلس إلى الفنان ليصوره ، وشعر هذا بقصور فى التمرين ، نشط يده وعينيه برسم صورة لعبده الخلاسى ، خوان دى باريخا (*) . (٢٦) ولقيت الصورة الاستحسان العام من فنانى روما ، الذين بادروا بانتخاب فيلاسكويز عضوا فى أكاديمية القديس لوقا . ولم يتح له البابا غير بضع جلسات ، وقام فيلاسكويز بدراسات مبدئية للرأس ، وتكاد واحدة منها — محفوظة بالقاعة الأهلية بواشنطون — لا تفرق العين بينهما وبين اللوحة النهائية التى توارثتها أسرة دوريا التى انتمى

(*) بعد أن أنفق باريخا سنوات فى تحضير فرش فيلاسكويز وألوانه ولوحاته ، وملاحظة عقله وعمله ، راح يستعمل هذه المواد بنفسه سراً . وأخيراً أجاد التصوير إجادة حملت فليب الرابع على عتقه بعد أن حسب إحدى لوحات باريخا من عمل فيلاسكويز . ومع ذلك بقى خوان تلميذاً وخادماً فى أسرة المصور حتى مات (٢٧) .

إليها البابا ؛ وقد احتفظ بها فى قصر دوريا بامفيلى ، حيث حكم رينولدز حين رآها بأنها « أبدع صورة فى روما » (٢٨) . وحين يطلع المرء إليها اليوم يشعر بأن فيها قوة ، سواء فى الشخصية أو فى الفن ، تضعها مع لوحة « يوليوس الثالث » لتسيانو ، فى مضاف أروع الصور فى جميع العصور : وكان انوسنت العاشر فى السادسة والسبعين حين جلس إلى صورته تلك ، وقد مات بعدها بخمس سنين . وقد يخطئه الناظر فيحسبه أحد كبار قطاع الطرق الذين كدروا صفو كثير من البابوات ، لولا ثوب البابوية وخاتمها ، ولكنا حين ندرس تلك الملامح القاسية الحازمة ندرك أن انوسنت كان ما يجب أن يكون — حاكما يحكم دولة من الإيطاليين المتمردين ، وحبر يقود كنيسة من المسيحيين غير المتخلقين بخلق المسيحية ، المنتشرين من روما إلى الفلبين ، ومن روما إلى براجواى ، ولقد كان عليه أن يضع حديدا فى دمه ؛ وفولاذا فى عينيه ، وجبروتا فى طلعته ، وقد رآها كلها فيلاسكويز ثم سجلها على لوحته . وحين رأى البابا الصورة علق عليها تعليقا ساخرا واحدا : « إنها صادقة جدا ! » (٢٩) واعترف فنانو روما بتكوينها المتماسك ، والانسجام العجيب بين ألوانها الحمراء والبيضاء والذهبية ، والنظرة الشكاكة الفاحصة الجانبية تنبعث من عينين رماديتين زرقاوين ، وحتى اليدين المنبثتين بقوة الشخصية : وحين رحل فيلاسكويز عن إيطاليا (يونيو ١٦٥١) ، لم يعد طالبا يلتمس أئمة الفن القدامى ، بل إمام فن العصر غير منازع : ذلك أن روبنز كان قد طواه الموت ، وما كان لأحد أن يحلم بأن هولنديا مغمورا ، أثقلت كاهله الديون وأزمع على الاعتكاف بعد قليل فى مغارة بامستردام ، سيبعث من قبره بعد قرون لينازعه تلك السيادة .

فلما عاد فيلاسكويز إلى مدريد اقترف أندح خطأ فى حياته ، ذلك أنه التمس ونال وظيفة « مدير للقصر الملكى » ، ولعله سئم التصوير ، أو لعله أحس أنه بلغ غاية امكاناته فى ذلك الميدان : ولم تكن الوظيفة تشريفا ، فقد تطلبت منه الاشراف الشخصى على القصر ، على أثاثه

وزينته ، وعلى تدفئته وصيانته الصحية ، يضاف إلى هذا ترتيب ما يقام فى القصر من مسرحيات ومراقص ومباريات ، وتوفير الاقامة للحاشية خلال أسفار الملك . وكان عليه أن يرافق الملك فى جميع رحلاته الكبيرة ، سواء للهو أو السياسة أو الحرب . أهناك شىء أسخف من هـــذا لرجل صور انوسنت العاشر ؟ أن زهو المنصب عند فيلاسكويز طغى على شعوره بالعبقرية .

ولم يهب التصوير فى السنوات التسع الباقية له من الأجل غير الوقت الذى اقتطعه من مهامه الرسمية الثقيلة . فاستأنف تصوير الأسرة المالكة ، وكبار رجال البلاط ، والملك نفسه . ورسم ثلاث صور جميلة للأميرة مارجاريتا ، وصورها مرة أخرى مركزا لاحدى روائعه المسماة « وصيفات الشرف » ، فالخادمات والقزم والكلب من حول الأميرة ، ومن خلفهم فيلاسكويز ذاته برسمهم على لوحته . ثم صورها مرة أخرى فى تنورتها الزرقاء الواسعة التى جعلت ساقيها بعد ذلك سرا مقدسا يكتنفه الغموض(٣) ، وقبيل موته رسمها معجزة من البراءة فى ثوب مخرم ، وفى عام ١٦٥٧ زاغ من البلاط ليرسم « نساجى القماش المرسوم » — وجوها رائعة اقتنصها بين ضجيج العمل ووقاره . وفى السنة ذاتها تحدى محكمة التفتيش ، وصدم احتشام أسبانيا ، وأبهجها برسمه ظهر « فينوس روكبى » وأردافها الجميلة ، وقد أطلق اسم روكبى على الصورة لطول ما مكثت فى بيت أسرة إنجليزية اشترتها بمبلغ ٥٠٠ جنيه ثم باعتها لقاعة الفن الأهلية بلندن بمبلغ ٤٥,٠٠٠ جنيه . وقد شقت احدى المطالبات بمنح المرأة حق الاقتراع ذلك الظهر الوردى بالسلاح فى ستة مواضع حين أحفظها هذا الفضح لأسرار المهنة ، ولكنه أصلح ثانية اصلاحا بديعا .

فى لوحة « وصيفات الشرف » نرى فيلاسكويز كما رأى نفسه فى سنيه الأخيرة — شعرا غزيرا ، وشاربا فخورا وعينين فيهما أثر من الاكتئاب . أما الفم فيبــدو شهوانيا ، ومع ذلك لا نسمع فى سجله شيئا من تلك

الانحرافات الجنسية والصراعات الشخصية التى تفنى الكثير فى كثير من الفنانين : كان يحظى بمقام رفيع فى القصر بفضل آدابه العالية ، وروحه المرحة ، وحياته الأسرية المهذبة . وقد خلف لنا صورا لزوجته خوانا وابنته فرانسسكا(٣١) ، ولعل النموذج الذى نقل عنه لوحته « السيدة ذات المروحة(٣٢) » هو أيضا فرانسسكا . وقد رسم زوجها خوان باوتستا ديل ماثو لوحة سماها « أسرة الفنان(٣٣) » يبدو فيها فيلاسكويز وفى خلفيته سرسم ، ومعه خمسة أطفال أعانوا على وحدة الأسرة .

وكان موته نتيجة لوظيفته . ففى ربيع عام ١٦٦٠ رتب المراسم والاحتفالات المعقدة التى تقرر أن تصاحب توقيع معاهدة البرانس على جزيرة فى نهر بداسوا الواقع على الحدود ، وخطبة الأميرة ماريا تريزا للويس الرابع عشر . وكان على فيلاسكويز أن يدبر نقل الحاشية إلى منتصف الطريق عبر أسبانيا إلى سان سباستيان ، ويجهز أربعة آلاف من بغال النقل لحمل الأثاث والصور وقطع النسيج المرسوم وغير ذلك من زينات . وعاد المصور ، الذى تاه الآن فى الموظف ، إلى العاصمة « وقد أضناه سفر الليل وكد النهار » ، كما ذكر لصديق . وفى ٣١ يوليو لزم الفراش مصابا بحمى ثلثية ، وفى ٦ أغسطس ، أو بعبارة أول مترجم لحياته « فى عيد تجلى المسيح . . . . أسلم روحه لله ، الذى خلقها لتكون أعجوبة من أعاجيب الدنيا(٣٤) » . وما مضت ثمانية أيام حتى ووريت زوجته الثرى إلى جواره .

والذين لا علم لهم منا بتقنية التصوير لا يستطيعون إلا الاستمتاع بآثار فيلاسكويز — لا حاكمين على جودتها ، بل تاركينها لترينا عصرا ، وبلاطا ، وملكا خاملا ، وزوجا جمعت بين الكبرياء والرقة . وحتى ونحن فى هذا الوضع قد نتذوق ما فى هذه الصور من صفاء وبساطة ووقار وصدق كلاسيكى ، ونستطيع أن نحزر ما وراء انتصاراتها من جهد ومهارة ، وما اقتصته من محاولات اجتهادية ، وتوزيع تجريبى للأشكال ، وتراكب وعمق وشفافية فى الألوان ، وحركة مشكلة للأضواء والظلال . أما النقاد

الذين تعبوا من المديح المتكرر فقد أشاروا إلى عيوب الفنان الأسبانى الكبيرة: أخطاء صغيرة كالأغطية البلهاء التى ألبسها رءوس أميراته الصغار، وبطون جياده الغليظة، والوجه عديم التناسب، المعكوس فى المرآة، فى صورة « فينوس روكبى »؛ ثم عيوب كبيرة، كافتقاره إلى العاطفة، والخيال، والمثالية ورقة الاحساس، وفنائه فى الشخصيات لا فى الأفكار فناء يكاد يكون نسائيا، وعماه الواضح عن كل شيء لا تراه عيناه(٣٥). وحتى فى أيام فيلاسكويز، اتهمه أحد منافسيه المدعو فنتسنزو كاردوتشى بطبيعية قصيرة النظر تحسب أن التشخيص المدقق للواقع الخارجى هو أسمى وظائف التصوير.

فمن يجيب عن فيلاسكويز (الذى ما كان ليجيب قط) بأنه غير مسئول عن أغطية الرءوس ولا عن بطون الخيل تلك، وبأن العاطفة المضبوطة أوقع فى النفس من العاطفة المعلنة، وبأن صور بالتازار كارلوس والأميرات، وصور وصيفات الشرف، وصورة استسلام بريدا — كلها تبدى احساسا رقيقا مرهفا، وان « أيسوبس » و « منيبوس » دراستان فى الفلسفة، وان صور جونجورا، وأوليفاريس، وانوسنت العاشر، ليست محاكاة للظاهر بل ابتعاثا للروح؟ وليس فى فن فيلاسكويز سعى سافر وراء الجمال، بل بحث عن النوع الكاشف منه؛ اناث قليلات يرقق الحسن منهن، ولكن رجال كثيرون خطتهم الحياة وميزتهم.

ومع أن فيلاسكويز كان على الدوام موضع الاجلال فى أسبانيا بوصفه مصورها الأعظم، فان شهرته لم تكد تعبر البرانس — ربما لأن الكثير جداً من فنه كان فى البرادو — حتى قدمه رفائيل منجز لألمانيا عام ١٧٦١، وكشفت عنه حروب نابليون الأسبانية لإنجلترا وفرنسا، ونادى به مانيه والتأثريون رائدا لهم فى دراسة الضوء والجو والتعبير عنهما، ووضع فيلاسكويز طوال نصف قرن فى مصاف أعظم المصورين، وسماه وسلر « مصور المصورين » لأنه أستاذهم جميعا، وصرح رسكن بقوة الرجل

الحجة بأن « كل ما يفعله فيلاسكويز يمكن اعتباره صحيحاً على الإطلاق » . ثم ذهب ماير — جريفى إلى أسبانيا ملتمساً فيلاسكويز فى البرادو ، ولكنه عثر على الجريكو فى طليطلة ، فأعلن أن فيلاسكويز « وقف حيث بدأ الجريكو » ، و « أنه ظل دائما فى حجرة انتظار الفن »[٣٦]. وفجأة اعتقد نصف العالم أن فيلاسكويز من مصورى المرتبة الثانية .

والشهرة زى من الأزياء المتقلبة ، فنحن نمل تحميل أقلامنا عبارات الإعجاب القديمة ، ونجد البهجة والانتعاش فى أن ننبذ الأصنام البالية من خيالنا ، وأن ننزل الجبابرة الذين ماتوا عن عروشهم ، ونرفع آيات الحمد والثناء لآلهة جديدة نفخت فيها أصالتنا أو بعثها من رقادها صيت جديد . ولا ندرى أى مكان من العظمة سيحظى به فيلاسكويز حين يدور الزمن دورته ويغير الذوق اتجاهه من جديد .

٥ — موريللو : ١٦١٧ — ٨٢

أتى على الناس حين ، أيام شبابنا المؤمن ، كانت فيه صورة موريللو « حمل العذراء غير المدنس » تتمتع بصيت ذائع كصورة رفائيل « سيستينى مادونا » ؛ أما اليوم فما من إنسان مهما قل شأنه يؤدى لها حقها من الاحترام . ذلك أن اضمحلال الإيمان المسيحى فى أوربا وأمريكا قد اقتطع نصف الجمال من صور حسبنا الجمال ملازما لها . وموريللو ضحية من ضحايا هذه التعرية .

ولكن لنبدأ بتحية لألونسو كانو . رجل عجيب — قسيس ، ومبارز ، ومصور ، ونحات ، ومعمارى . ولد فى غرناطة ، وهاجر إلى إشبيلية ، ودرس التصوير (جنبا إلى جنب مع فيلاسكويز) على باتشيكو ، والنحت على مونتانيس . صمم وحفر ورسم روافد للمذبح لكلية سان البرتو وكنيسة سانتا باولا ، حيث نافس ثورباران بنجاح . وحفر لكنيسة لبريخا تماثيل دينية جذبت الطلاب من خارج البلاد ليعجبوا بها ويحاكوها . وقد اشتبك فى مبارزة ، وجرح غريمه جرحا خطيرا ، فهرب إلى مدريد ، ونال حماية أوليفاريس حين تشفع له عنده فيلاسكويز ، ويفضل رسومه فى العاصمة

وقربها حصل على وظيفة بالبلاط . وفى عام ١٦٤٤ وجدت زوجته قتيلة فى فراشها ، فاتّهم خادمه ، ولكن تهمة القتل وجهت إليه هو . ففر مرة أخرى من النجاح ، واختبأ فى ديرقصى ، ولكن مخبأه عرف ، فقبض عليه وعذب ، واحتمل كل الآلام دون أن يعترف بأنه المذنب ، فأفرج عنه ، وبدأ من جديد . وفى عام ١٦٥١ ، حين بلغ الخمسين ، عاد إلى غرناطة ، حيث أصبح قسيسا وكاهنا من كهان الكاتدرائية ، وصنع لها تماثيل وصورا ومقارئ وأبوابا بلغت كلها من الروعة ما يغتفر له معها غروره . ولما كلفه مراجع الحسابات الملكية فى غرناطة بصنع تمثال للقديس أنطونى البادوى ، انجزه على نحو أرضى هذا الموظف ، ولكنه مع ذلك ساومه على ثمنه . وطلب كانو مائة دوبلون (٣,٢٠٠ دولار ؟) . فسأله الموظف « كم يوما استغرق منك صنعه » أجاب : « خمسة وعشرين » قال المحاسب ، « فأنت تقدر جهدك إذن بأربعة دبلونات لليوم ؟ » أجابه « أنك لا تحسن الحساب ، فقد أنفقت خمسين سنة لأصنع تمثالا كهذا فى خمسة وعشرين يوما » . قال « وأنا أنفقت شبابى وميراثى فى دراستى الجامعية ، والآن وقد أصبحت محاسب غرناطة ، وهى مهنة أشرف بكثير من مهنتك ، لا أكسب فى اليوم غير دوبلون واحد . » وصاح به المثال « تقول مهنتك أشرف من مهنتى ! فاعلم إذن أن فى قدرة الملك أن يصنع محاسبين من تراب الأرض ، ولكن الله يحتفظ لنفسه بخلق فنان كألونسو كانو . » ، ثم هشم التمثال لفوره فى سورة غضبه(٣٧) . وظن الناس حينا أن محكمة التفتيش ستسجنه ، ولكن فليب الرابع بسط عليه حمايته ، ومضى كانو فى رسم صور وحفر تماثيل — جلها دينى — حملت عشاق عبقريته المتعددة الجوانب على أن يلقبوه ميكل انجلو أسبانيا . وكان ينفق مكاسبه بالسرعة التى يحصل بها عليها ، على وجوه البر عادة ، وتقدمت به الأيام وهو فى فقر اضطر هيئة الكاتدرائية لاعتماد معونة مالية له . وقد رفض وهو على فراش موته صليبا يمثل المسيح مصلوبا قدم إليه ، لأنه سيئ الحفر .

أما برتولومى استيبان موريللو فرجل مختلف تماما — متواضع ، دمث الخلق ، تقى ، معبود تلاميذه ، ومحبوب منافسيه ، ومعين للبر بالناس ٥ شهدت إشبيلية مولده عام ١٦١٧ وهى يومها قصبة الفن الأسبانى ، وكان آخر أربعة عشر طفلا . ودرس التصوير على خوان دى كاستيللو ، ولكن موت أبويه فقيرين وهو بعد فى الرابعة عشرة اضطر الصبى اليتيم إلى كسب قوته برسم صور فجة سريعة لسوق أسبوعية . وإذ سمع أن فليب الرابع عطوف على الفنانين اتخذ سمته إلى مدريد (؟) حيث صادقه فيلاسكويز — فى رواية غير مؤكدة(٣٨) وأسكنه منزله ، وحصل له على إذن بدخول قاعات الفن الملكية ، وشجعه على دراسة أعمال ريبيرا ، وفان ديك ، وفيلاسكويز .

على أننا نلقاه فى إشبيلية ثانية عام ١٦٤٥ . ذلك أن ديرا فرانسسكانيا بها عرض أجرا غير مغر نظير رسم سبع صور كبيرة ، واحتقر الفنانون الراسخون هذا الأجر ، ولكن موريللو رضى به ، وأنتج أول روائعه « مطبخ الملائكة(٣٩) » ، وفيها يبدو الملائكة قادمين من السماء يحملون الطعام ويطهونه ويمدون الموائد ويطعمون الصالحين فى مجاعة ، ومع أن موريللو حاول أن يتأثر الأسلوب الفحل الذى جرى عليه ريبيرا وثورباران ، إلا أنه روى القصة متأثرا بميله للعاطفة الرقيقة . هذه الصورة ، هى وصورة « موت القديسة كلارا(٤٠) » صنعتا شهرة الفنان ، وأقبل نصف مثقفى إشبيلية ليعجبوا ، ثم تكاثر عليه الطلب . وكان أكثر ما طلب إليه صورا كنسية ، فتدفقت من ريشته صور العذراء ، والعائلة المقدسة ، والقديسين فى وفرة موفقة ، واغنت الأساطير المسيحية بالجميل من النساء ، والوسيم من الرجال ، والظريف من الأطفال ، وبالألوان الوردية والجو الصوفى حتى انعطفت نحوه أوربا لأنه أحب العارضين لأحب العقائد إلى نفوس النــاس .

وإذ وجد موريللو رزقه على هذا النحو ، فإنه غامر بالزواج وهو فى

الثلاثين ، وملأ بيته بضجيج تسعة أطفال وشجارهم وبهجتهم ، وشقى من أجلهم راضياً حتى موته . ونقدته هيئة الكاتدرائية عشرة آلاف ريال عن لوحته « القديس أنطونى البادوى » التى ما زالت معلقة هناك . وتؤكد لنا قصة يشتبه أنها صدى لأسطورة رويت عن زيوكس(٤١) ، ولكنها طبعت قبل موت موريللو بأحد عشر عاما ، تقول إن الطيور التى طارت داخل الكاتدرائية حاولت أن تحط على الزنابق المرسومة فى الصورة ، وراحت تنقر الفاكهة(٤٢) .

ومع أن مواضيعه كانت جلها دينية ، فإنه جعلها إنسانية أكثر منها كنسية . وإذا كانت أوربا الكاثوليكية الرومانية كلها قد أحبت النسخ الكثيرة التى أذاعها نقلا عن لوحته « حمل العذراء غير المدنس(٤٣) » فما كان ذلك لمجرد أنها احتفلت بموضوع محبب جداً لأسبانيا ولذلك الجيل ، بل لأنها توجت الأنوثة فى سحابة من المثالية والقداسة . وقد استوحى الفنان نساء الأندلس الفاتنات ذوات الحس الحنسى المتواضع لبرسم صور « عذراء الصلوات(٤٤) » والعذراء الغجرية ، وصورة « العائلة المقدسة والطائر » ذات الجمال الأسمر(٤٥) .

ومن رسم الأطفال خيرا منه ؟ ان صورة « البشارة » المحفوظة بالبرادو تطالعنا فيها صبية دخلت سن المراهقة ، فيها خفر ورقة ، آية الحياة ذاتها . وقد وجد موريللو نماذج للأشكال الكثيرة التى صور بها المسيح طفلا فى الأطفال الحسان الوجوه الذين أحاطوا به فى بيتـــه وشارعه ، ولعله استمتع بهم هم أكثر من استمتاعه بالموضوع المقرر ، ورسمهم فى صورة لا تقل فتنة عن أى صور للأطفال رسمت أيام النهضة الإيطالية . وكان إذا عجز عن حشر الأطفال فى لوحاته الدينية يرسمهم فرادى . وفى « بيت الفن » بميونيخ حائط حافل بهم : صبيان يرمون النرد ، وغلمان يأكلون الشمام لأنه طريقة محتملة لغسل وجوههم ، وصبى يمضغ الخبز بينما تفلى أمه شعره . وصورة « الصبى المطل من نافذة(٤٧) » تبين بوضوح

أن المال والسعادة تشاجرا وافترقا ، فليكن إذن « الصبي ذا الكلب(٤٨) » والعالم سبيله إلى الرزق. وفي صورة « الغلام المتسول » المحفوظة باللوفر يستأذن الفنان المثالي القوى العليا ، وينظر إلى الحياة على الأرض ، ويجدها جميلة حتى ولو لبست أسمالا بالية . ان موريللو في واقعيته يحتفظ بمثاليته .

وعاش — كما رسم — دون مأساة ، إلا في ختام عمره . ذلك أنه تسلق سقالة لينجز صورة في كنيسة بقادس ، فزلت قدمه وسقط فانكسر كسرا خطيرا أصاب دمه بالتسمم ، وما لبث ابن الأندلس جميعها، الأثير لديها ، أن مات (١٦٨٢) ، وكان موته مفاجئا حتى أنه لم يستطع إتمام وصيته، وخط فوق قبره ما أوصى به ، وهو اسمه ، وهيكل عظمى ، وكلمتان « فيفى موريتوروس » — أي عش كأنك تموت وشيكا .

وظلت مكانته طوال قرنين عالية عند أولئك الذين تهمهم ما تقوله الصورة أكثر مما تهمهم الكيفية التي تقولها به . وقد أذاع قواد نابليون صيته بسرقتهم صوره وبيعها غنيمة حلالا . وأكثر النساخ غير الأكفاء من نقل لوحاته فشككوا النقد في فنه. كان على علم بتقنية صناعته ، ولكن ضيق من رقعته كثيرا ذلك التوفيق الذي أصابه مع الكنيسة ؛ وقد غالى في الاستسلام لجانب الحياة الأنثوى العاطفي ، فما بدأ جميلا أصبح بالتكرار الثابت مجرد شيء لطيف على نحو لا يؤثر في نفس الناظر . وكان قديسوه يتطلعون إلى السماء في إصرار كثير أنسى أوربا هذا الفنان حين انصرفت عن السماء . ولهذا السبب نفسه أغفلت النظر إلى التصوير الأسباني عامة بعد سنة ١٦٨٠ . وبينما كانت أوربا تتجادل حول المسيحية ، ظلت أسبانيا متشبثة بتراثها الوسيط ، فلم يلفت فنها أنظار العالم ثانية إلا عند مجيء جويا .

وإبان حياة موريللو قضت على القرن الذهبي للفن عشرات العوامل الفتاكة . وكان الذهب ذاته ، والبحث عنه في الأقطار الأجنبية ، بعض هذه العوامل : ذلك أن شباب أسبانيا وعنفوانها تحررا من سجن شبه الجزيرة ليكتشفا الأمريكتين ويستغلاهما ، والذهب الذي أرسلاه إليها أفسد

الحياة الأسبانية ، وشجع التكاسل ، ورفع الأسعار ، أو وقع غنيمة للسفن الهولندية أو الجنوية التي تحمل التجارة الأسبانية . واختزنت الحكومة المعادن النفيسة ، وغشت العملة ، وطردت المغاربة المتنجين ، واستكثرت من الوظائف وباعتها ، وفرضت الضرائب على كل شيء إلى حد اللامبالاة الاقتصادية ، وبعثرت الثروة في الحملات الحربية ومظاهر البذخ في البلاط بينما الصناعة تذبل ، والبطالة تنتشر ، والتجارة تذوى ، والسكان يتقلصون ، والمدن تخرب . وفقدت الحكومة ذات الطابع الاستقراطى الضيق كل كرامة ، فوضعت صناديق التبرعات في الشوارع ، والتمست المال من بيت إلى بيت لتمول عجزها في الداخل وهزائمها في الخارج[٤٩] . أما الجيوش الأسبانية المرابطة في صـــقلية ونابلي وميلان ، الشاقة طريقها في غابات العالم الجديد وبراريه ، المضنية نفسها في حرب الثلاثين ، الخائضة حربا خاسرة لقهر عناد توار الأراضي المنخفضة وإصرارهم الذى لا يصدق — هذه الجيوش استنزفت الموارد البشرية والمادية لدولة صغيرة جبلية نصف صحراوية، تحبسها حدودها في بحر يسيطر عليه منافسوها التجاريون وأعداؤها البحريون. ولم يبق غير الأديرة والكنائس ، متشبثة بأملاكها الشاسعة ، اللاصقة بها ، المعفاة من الضرائب ، مستكثرة من الرهبان في حياة عاطلة غالية الثمن . وبينما كان الدين يسترضى الفقر بصكوك على الجنة ، ويخنق الفكر ، ويدعو أسبانيا للعيش على ماضيها ، أجزلت فرنسا وإنجلترة مكافأة الصناعة ، واستولتا على التجارة ، ودخلتا رحاب المستقبل . ان التلاؤم مع البيئة المتغيرة هو لب الحياة ، وهو أيضا ثمنها .

الفصل الثالث عشر
الصراع على فرنسا
١٥٥٩ — ٧٤

١ — القوى المتنافسة

الإنسان حيوان منافس ما دام يخشى الخطر أو يذكر افتقاره إلى الأمن . كذلك حال الجماعات والطبقات والأمم والأجناس التي تفتقد شعور الأمن . فهي تتنافس بذات الحرص الذي يتنافس به الأفراد المؤلفة منهم ، وبعنف أشد ، لأنها أقل تقيدا بالقانون ، وتمتعا بالحماية ؛ ان الطبيعة تدعو جميع الكائنات الحية إلى العراك . وفي حمى الصراع الأوربي بين حركة الاصلاح البروتستنتي (١٥١٧) وصلح وستفاليا (١٦٤٨) استخدم هذا التنافس الجماعي الدين ستارا وسلاحا لتحقيق الأهداف الاقتصادية أو المآرب السياسية . فلما ألقى المحاربون سلاحهم بعد قرن من النضال ، احتفظت احتفظت المسيحية ببقائها وسط الخرائب بشق الأنفس .

كانت فرنسا أول من عاني وأول من أفاق . فقد كانت « حروبها خاصتها من ١٥٦٢ إلى ١٥٩٤ بالنسبة لها ما ستكونه حرب الثلاثين (١٦١٨ — ٤٨) بالنسبة لألمانيا ، والحروب الأهلية (١٦٤٢ — ٤٨) بالنسبة لانجلترة . ذلك أنه عند موت هنري الثاني في صراع مؤسف (١٥٥٩) وارتقاء ابنه البالغ من العمر خمسة عشر ربيعا العرش باسم فرنسيس الثاني ، كانت الأمة على شفا الافلاس من جراء النزاع الطويل بين آل هابسبورج وملوك فالوا . كان مجموع ايراد الدولة السنوي آنئذ ١٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ، وبلغ الدين الأهلي ٤٣,٠٠٠,٠٠٠ . وتخلفت رواتب كثير من الحكام المحليين أربع سنوات ، واستحال اقناع الشعب الفرنسي بدفع الضرائب[1] . وتردت ليون في الفوضى الاقتصادية عام ١٥٥٩ إثر انهيار مالي مفاجئ . وكان من أثر تدفق فضة أمريكا وذهبها إلى فرنسا بطريق أسبانيا والبرتغال

أن هبطت قيمة العملة ، وتضخمت الأسعار ، وانطلق سباق شرس بين الأجور والأسعار لم يفد منه غير الرأسماليين العليمين ببواطن الأمور والمشتغلين بالمضاربات . وحاولت الحكومة عام ١٥٦٧ وعام ١٥٧٧ أن تسن القوانين لتحديد أقصى الأسعار والأجور ، ولكن التزاحم الاقتصادى طغى على القوانين(٢) ، واستشرى التضخم ، ربما باعتباره طريقة غير دينية لدفع نفقات الحروب الدينية . أما المنظمة الغنية الوحيدة فى الدولة فكانت الكنيسة الكاثوليكية التى انضوى تحت لوائها ٩٤٫٠٠٠ من رجال الدين (فى عام ١٦٠٠) ، و ٨٠٫٠٠٠ راهبة ، و ٧٠٫٠٠٠ راهب أو أخ ، و ٢٫٥٠٠ يسوعى ، وملكت الكاتدرائيات المهيبة ، والأسقفيات الفخمة ، والأراضى الشاسعة المثمرة . لقد كان ثلث ثروة فرنسا — وقيل ثلثاها — ملكا للكنيسة(٣) . وتوارت خلف الحروب الدينية تلك الرغبة فى الاحتفاظ بهذه الثروة الكنسية أو الحصول عليها .

ووانى الحظ الكنيسة بارتقاء شارل دجيز منصب كبير وزراء فرنسيس الثانى ، وكان قد نصب كردينالا للورين وهو لا يتجاوز الخامسة والثلاثين . وقد أخذ الأدواق من آل جيز لقبهم هذا من قلعتهم القريبة من لاون ، ولكن مقرهم الرئيسى كان فى اللورين ، التى لم تندمج فى فرنسا إلا مؤخرا . أما الكردينال فكان رجلا وسيم الطلعة ، حاضر الذكاء ، مهذب المسلك ، إداريا قديراً ، يملك ناصية البلاغة فى اللاتينية والفرنسية والإيطالية ، ولكن شغفه بالمال والسلطان ، ونفاقه المصقول ، وتحفزه لاضطهاد الخوارج والانتقام من المعارضين ، وخفضه الجرىء لنفقات الحكومة — كل هذا خلق له أعداء فى كل طبقة تقريبا . وكان أخوه الأكبر ، فرنسيس دوق جيز ، قد اكتسب سمعة فى الاستراتيجية وميادين القتال ، وأصبح الآن وزيرا للحربية ، ولكن افلاس البلاد كان يتطلب السلام ، لذلك كان على فرنسيس أن يشبع أطماعه فى تبطل مثير ، فعشق مظاهر العظمة ، والثياب الفاخرة ، والعرض الفروسى ، ولكن آدابه الملوكية وكياسته ومسلكه

الشخصى — كلها جعلت منه معبود فرنسا الكاثوليكية . ولم يكن يطيق الهرطقة ، فرأى استئصال شأفتها بالقوة[٤] — وكان هو وأخوه على يقين من أن الكنيسة ستشرف لا محالة على الفناء إذا اعتنقت فرنسا البروتستنتية كما اعتنقتها ألمانيا وإنجلترة،وأن فرنسا ستفقد تلك الحماسة الدينية التى دعمت من قبل نظامها الاجتماعى ووحدتها القومية . وفى سبيل الدفاع عن ايمانهما وسلطانهما تحدى الأخوان جيز الكثير من المخاطر ، ولقيا حتفهما قبل الأوان ، وشاركا تبعة إيذاء فرنسا وتعذيبها .

لم يعد الهيجونوت أقلية ضئيلة عاجزة من الفرنسيين البروتستنت يقودهم ويلهمهم كالفن من جنيف ، بل ثورة عقائدية واجتماعية واسعة الانتشار على الكنيسة . وقد قدرهم كالفن بعشر الشعب الفرنسى عام ١٥٥٩[٥] . وقدر ميشليه إن عددهم تضاعف عام ١٥٧٢[٦] . كان لهم مراكز فى كل إقليم من دوفينى إلى بريتنى ، ولا سيا فى الجنوب الغربى من فرنسا ، حيث استؤصلت فى الظاهر هرطقة الألبيجنس قبل ثلاثة قرون . فعقدوا اجتماعاتهم للصلاة برغم قوانين الحظر التى أصدرها فرنسيس الأول وهنرى الثانى ، وعاشوا على العظات الجادة التى تبشر بالجبرية ، وأصدروا الكتيبات النارية حول مفاسد الكنيسة وعسف الأخوين جيز ، وعقدوا مجمعا عاما فى باريس (٢٦ مايو ١٥٥٩) تحت سمع الملك وبصره . لقد أعلنوا ولاءهم للملكية الفرنسية ، ولكنهم نظموا الأقاليم التى سادوها وفق الأساليب الجمهورية . وصاغوا لهم ما تصوغه أية أقلية مضطهدة من أيديولوجية مؤقتة للحرية ، ولكنهم وافقوا الكاثوليك على أن من واجب الدولة أن تفرض « الدين الحق » على فرنسا كلها . وكانت نظريتهم الخلقيـــة أكثر صرامة من ناموس خصومهم الذى تراخى مع الزمن ، فاجتنبوا الرقص ، والثياب البهية ، والمسرح ، ونددوا ساخطين بأخلاق القصر ، حيث « الرجال لا يغرون النساء ، بل النساء يغرين الرجال[٧] » كما قالت جان دالبير لابنها .

أما الملكة الأم ، كاترين دى مديتشى ، فرأت أن الدين عند الفريقين « إن هو إلا ستار لانفع له الا إخفاء الأحقاد والضغائن ، ومع ذلك فقلوبهم لا تنطوى على شيء أضأل من الدين »(٨) . ولعلها قست فى حكمها هذا ، ولكن ما من شك فى أن العوامل الاجتماعية والاقتصادية كانت تكمن خلف الصراع الدينى ؛ وثبت الفلاحون على الكثلكة ، ولم يكن لهم مصلحة فى هذا النزاع ، ولم يجدوا فى عقيدة جبرية صارمة كالبروتستنتية بديلا يعوضهم عن الأساطير المعزية وملطفات الأعياد التى أتاحتها لهم عقيدتهم القديمة . أما البرولتاريا ، الصغيرة عددا الكبيرة بروح الثورة ، فقد نددت برؤسائها واستمعت فى تعاطف إلى صوت « الاصلاح » لأنه يعد ببعض التغيير ، وكما حدث فى إنجلترة اللولارد والبيورتان، وألمانية حرب الفلاحين ، كذلك أصبح الإنجيل هنا كتاب الثورة(٩) . كذلك استمعت الطبقات الوسطى إلى الوعاظ الأجرياء الذين دربتهم جنيف وبعثتهم إلى فرنسا . وأما رجال الأعمال الذين التقوا فى الأسواق الكبيرة بالأثرياء من الألمان والانجليز والسويسريين فقد لاحظوا الحلف الناجح بين هؤلاء التجار وبين الحكام البروتستنت والأفكار البروتستنتية . لقد طالما كابدوا الأهانات تحت سلطان الأساقفة والبارونات الذين احتقروا التجارة وارتبطوا بعادات الاقطاع . وسرهم وأثار حسدهم ما علموه من عطف كالفن على دنيا المال والأعمال ، ومن اشراكه العلمانيين فى رقابة الأخلاق والاشراف على الكنيسة . وقد كرهوا ثراء الكنيسة وعشورها ، وغاظتهم المكوس الاقطاعية المفروضة على التجارة . ولم يستطيعوا أن يغتفروا للملكية اخضاعها الكومونات البلدية للحكومة المركزية بعد أن ظلت قرونا حكرا سياسيا لهم(١٠) . وحتى أصحاب المصارف رضوا عن الهيجونوت الذين لم يحتقروا تقاضى الفائدة على المال ، وهو الأمر الذى استنكرته الكنيسة منذ زمن سحيق ، وان أغضت عنه مؤخرا بعين لاهوتية وقور .

وكان كثيرون من النبلاء يعتنقون قضية الثوار ، لأنهم هم أيضا لم يرتضوا

مركزة السلطة فى دولة موحدة . ولا بد أنهم سمعوا بأمراء الأقاليم الألمان الذين استطاعوا بتحالفهم مع البروتستنتية أن يتحدوا الأباطره والبابوات ، والذين أثروا من غنائم الكنيسة ، إذن فما الذى يحول دون استخدام هؤلاء الهيجونوت البواسل أداة جاء أوانها لتهذيب الملك واخضاعه ؟ لقد كان النبلاء يهيمنون على حقول فرنسا ومحاصيلها وفلاحيها ، وينظمون فرقها العسكرية ويقودونها ، ويسيطرون على حصونها ، ويحكمون أقاليمها ، فلو أن حركة الاصلاح كسبت طبقة النبلاء لدعمت ظهرها بقوة منتشرة فى الأمة كلها . وقد نبه كردينال اللورين هنرى الثانى عام ١٥٥٣ إلى أن النبلاء ينحازون إلى صف الهيجونوت . فلم يحل عام ١٥٥٩ حتى كان النبلاء فى نورمانديا ، وبريتنى ، وبواتو ، وأنجو ، ومين ، وسانتونج ، يتزعمون ثورة الهيجونوت علانية .

لم تغتفر أسر البوربون المعتزة بنفسها لأسرة فالوا الحاكمة أنها دفعت شارل دوق بوربون إلى الخيانة والموت قبل الأوان (١٥٢٧) ، ولا استطابوا إقصاءهم عن الحكم على يد آل جيز المتعصبين لقومهم ، والذين اعتبروهم أغرابا أصلهم من اللورين الذى كان ألمانيا أكثر منه فرنسيا . لقد كان لويس الأول البوربونى ، أمير كونديه ، سليلا للملك لويس التاسع ، يجرى فى عروقه الدم الملكى ، وتسمو مرتبته فوق مرتبة الأخوين جيز ، وقد انضم إلى الهيجونوت ، ومات فى محاولته الوصول إلى السلطة على جناح عقيدتهم . أما أخوه انطوان البوربونى ، ملك نافار لقبا — والذى لا يحكم فعلا غير إقليم بيارن فى جنوب فرنسا الغربى — فقد انحاز حينا إلى صف الهيجونوت ، متأثرا إلى حد كبير برأى زوجته جان دالبير . وكانت جان الابنة المناضلة لأم رقيقة هى مارجريت النافارية ، التى احتفظت فى الظاهر بكثلكتها احتراما لأخيها فرنسيس الأول ، ولكنها بسطت حمايتها على كثيرين من المهرطقين والهيجونوت . . وكما أن الأم مثلت النهضة فى حبها للحياة والشعر ، فكذلك مثلت جان دور النساء فى الاصلاح البروتستنتى الفرنسى .

وخلقهن — غيورات فى دينهن إلى حد التعصب ، يربين أطفالهن ويكرسنهم، ليواصلوا الحرب المقدسة حتى الموت أو النصر . وقد نشأت ولدها الشهير الذى عرف فيما بعد بهنرى الرابع ، على كل فضيلة إسبرطية وبيوريتانية ، ولم يفسح لها فى الأجل حتى تراه يرتد إلى مرح النهضة المنحل . ولا بد أنها أعجبت أشد الاعجاب بجاسبار دكولينى ، فقد جمع فى شخصه كل مثلها الأعلى : إنسان شريف لقبا وخلقا ، وزعيم حصيف وفى لقضية الهيجونوت ، وجندى ورجل دولة صارم أخزت مناقبه خيانات البلاط المتوارية خلف طلاء زائف .

كان كالفن قد حذر أتباعه الهيجونوت من المقاومة العنيفة للحكومة(١١) . ولكن صبرهم عيل تحت وطأة الاضطهاد . ذلك أن هنرى الثانى كان قد أمر جميع القضاة بأن يحكموا بالاعدام على كل البروتستنت المتشبثين بعقيدتهم (يونيو ١٥٥٩) . ثم جدد فرنسيس الثانى هذا الأمر بتحريض من الأخوين جيز ، وأضاف إليه أمرا بهدم جميع المبانى التى تعقد فيها اجتماعات دعاة الاصلاح البروتستنتى ، وأمرا باعدام الأشخاص ، وحتى الأقرباء ، الذين يؤوون مهرطقا محكوما عليه ، أو يقصرون فى ابلاغ الحكام عنه . وفى الشهور الخمسة الأخيرة من عام ١٥٥٩ أحرق ثمانية عشر شخصا أحياء لتماديهم فى الهرطقة ، أو لرفضهم حضور القداس أو تناول القربان الكاثوليكى . وفر مئات من الهيجونوت الفرنسيين إلى جنيف حيث آواهم كالفن . أما الذين بقوا فى فرنسا فقد بدأوا ينظمون أنفسهم لخوض الحرب الأهلية .

وفى ٢٣ ديسمبر ١٥٥٩ أحرقت آن دبور لأنها اجترأت فى « برلمان » باريس على إدانة الاضطهاد بسبب الهرطقة . وبعد هذا بقليل خنق جاسبار دهو فى قصر فانسين الريفى بأمر الأخوين جيز . وتآمر زوج أخته ، جودفروا دبارى ، سيد إقليم رنودى ، مع الأشراف وغيرهم على اعتقال الأخوين جيز وعزلهما بهجوم مباغت يقومون به فى أمبواز . واكتشف

كردينال اللورين المؤامرة ، فجرد جنده وقهر المتآمرين وقبض عليهم ، ثم شنق بعضا ، وقطع رءوس بعض ، ووضع بعضا فى زكائب وقذف بهم فى اللوار . جاء فى سجل أخبار معاصر « لا شيء غير شنق الناس أو إغراقهم طوال شهر بأكمله ، حتى غطت الجثث نهر اللوار » (مارس ١٥٦٠)[١٢] . ودعى كونديه للمثول أمام المحكمة الملكية ليجيب عن تهم الاشتراك فى المؤامرة ، فذهب ، وأنكر التهم ، وتحدى كل من يتهمه بالاحتكام إلى السيف . ولم يقدم أى دليل ضده ، فأخلى سبيله .

وازعجت كاترين « فتنة أمبواز » هـذه ، وعلو مكانة المتآمرين ، ووحشية قمع الحركة ، وحمى الثأر التى أججت سخط الهيجونوت والنبلاء ، فاقنعت الملك الضعيف والأخوين جيز ، الكارهين لرأيها هذا ، باتاحة الفرصة لتجربة التسامح . ودعت ميشيل دلوبيتال ليتقلد منصب المستشار (مايو ١٥٦٠) وطلبت إليه أن يهدئ من هياج فرنسا . وكان ميشليه قد تعلم خلال طلبه العلم فى إيطاليا أن يكون إنسانيا لادجماطيا ، وقد عامل الكاثوليك والبروتستنت خلال توليه القضاء الإقليمى فى فرنسا معاملة المساواة فى الشفقة والاعتبار . لذلك اقترح الآن على البرلمان نفس الآراء التى أفضت إلى حرق دى بور : « كل إنسان صنع دينا لنفسه ، ولكن بعض الناس ... يودون أن يقبل دينهم هم ويطارد دين غيرهم ... فعلينا أن نترفق بعضنا ببعض ، وأن نخترع طريقة للعيش معا[١٣] » وعملا بنصحيته دعت كاترين مجلسا للأعيان يتألف من الكاثوليك والبروتستنت ، انعقد فى فونتنبلو فى ٢١ أغسطس ١٥٦٠ . وقدم كولينى فى المجلس التماسا للملك مرفوعا من الهيجونوت أكدوا فيه ولاءهم له ، ولكنهم طلبوا حرية العبادة كاملة ودعا بعض الأساقفة إلى الاعتدال من الطرفين ، وحضوا الاكليروس على أن يصلحوا من أخلاقهم . وقرر المجلس أن المشاكل التى ينطوى عليها بحثه تقتضى دعوة مندوبين من كل الطوائف والطبقات فى فرنسا : فأمر الملك بعقد مجلس الطبقات هذا فى ١٠ ديسمبر ، وحظر أثناء ذلك أى

محاكمات على تهمة الهرطقة حتى يفصل المجلس الجديد فى أسباب الخلاف الأساسية التى تحدث الانقسام والفرقة فى البلاد .

أما البوربون الهيجونوت فقد رفضوا حضور مجلس الأعيان مخافة أن يقبض عليهم ، وإذ تشكك أمير كونديه وانطوان دبوربون فى إمكان التوفيق ، فانهما تآمرا لجمع جيش وإقامة دولة مستقلة تتخذ ليون عاصمة لها . ولكن الحكومة اعترضت طريق أحد سعاة كونديه ، وفضحت أوراقه المؤامرة ، فقبض على كونديه ، وحوكم ، وحكم عليه بالاعدام فى ١٠ ديسمبر . واستعاد الأخوان جيز سلطتهما الدكتاتورية .

وإذا الموقف يتغير فجأة بموت فرنسيس الثانى (٥ ديسمبر .) وهو بعد فى السادسة عشرة . فخلفه أخوه شارل التاسع فى تقلد سلطته رسميا ، ولكن لما كان لا يتجاوز العاشرة ، فقد قبل وصاية أمه ، التى انضمت الآن إلى البرابيث ملكة إنجلترة ، وفليب الثانى ملك أسبانيا ، فى توجيه الفوضى الأوربية نحو تحقيق مآربهم المتضاربة .

كاترين دى مديتشى

ما زالت هذه المرأة لغزا برغم انقضاء أربعة قرون من التفسيرات المتعارضة . كانت سليلة لورنزو الفاخر ، وحفيدة البابا ليو العاشر ، فهى إذن المديتشية النموذجية ، فى ميراثها الحكم ، وفى دمها الدهاء . ولدت فى فلورنسة (١٥١٩) لأبوين ماتا بالزهرى قبل أن تم الشهر ، فظلت قطعة شطرنج عاجزة تحركها دبلوماسية أقربائها المتحفزين للعراك ، حتى زوجها عمها البابا كليمنت السابع وهى بعد فى الرابعة عشرة لهنرى الثانى ملك فرنسا المقبل . وظلت عشر سنوات عاقرا بينما كرس زوجها المكتئب نفسه لخليلته ديان دبواتييه . ثم انبعث الأطفال من بطنها كل سنة تقريبا حتى بلغوا العشرة عدا . وكانت تؤمل وتخطط لتنال لهم العروش . ومات ثلاثة منهم أطفالا ، وارتقى ثلاثة عرش فرنسا ، وأصبحت اثنتان منهم ملكات . وذاقوا كلهم تقريبا مرارة المأساة ، ولكنها كانت أكثرهم

فجيعة ، لأنها عمرت بعد موت زوجها وثلاثة من أبنائها الملوك واحدا بعد الآخر . وسواء كانت ملكة أو ملكة أما ؛ فقد احتملت صروف عهود ملكية أربعة ؛ وسلختها بفضل ما أوتيت من حصافة وضبط للنفس ونفاق لا يتقيد بمادئ الشرف .

وصفها معاصر بأنها « امرأة جميلة حين يتوارى وجهها خلف القناع(١٤) » أى أن لها قواما جميلا ، ويؤكد لنا برانتوم أن صدرها « أبيض ممتلئ » وأن « فخذها غاية فى الجمال » وأن يديها وأناملها بديعة(١٥) . ولكن قسماتها كانت خشنة ، وعينيها أكبر وشفتيها أغلظ وفمها أوسع ممـا ينبغى . فإذا كانت قد آغوت الرجال فإنما عن طريق غيرها من النساء . وقد أرجفت الشائعات بأنها احتفظت من حولها بـ « سرب طائر » من الحسان اللاتى يغرين الرجال بتحقيق مآربها(١٦) ، ولكن يبدو أن هذه التهمة باطلة(١٧) . فقد جرح كرامتها تسلط ديان فى السياسة والحب جميعا ، ومن ثم وجدت بعد موت هنرى ثأرها بأن جعلت نفسها القوة الكامنة وراء العرش مدى ثلاثين عاما . وكان لزاما أن يعوض دهاؤها عن عجز أبنائها ؛ لقد كرهوا تدخلها ، ولكن اخفاقهم فى الملك فرض هذا التدخل . وإذ ألقيت فى دوامة الثورة الدينية ، وأحاط بها الأشراف المغامرون واكتنفتها الدهماطيات المتعصبة ، فقد حاربت بالأسلحة الوحيدة التى تملكها — وهى المال المديتشى والفطنة الإيطالية ، والدبلوماسية المكيافللية . لقـد أهدى مكيافللى كتابه « الأمير » لأبيها من قبل ، ولم تكن كاترين فى حاجة لتعليمه ، لأنها رأت مبادئه مطبقة فى كل مكان من إيطاليا وفرنسا . وقد بزت جميع رجال الدولة الملتفين حولها كما فعلت اليزابث ملكة إنجلترة ، وفاقتهم فى الكذب ، و « كان لديها من الخدع أكثر مما لدى جميع مستشارى الملك(١٨) » . وقد صرفت شئون الدولة بهمة وكفاية . قال مراقب إيطالى « لم يكن ليتم شىء دون علمها ، وقل أن وجدت متسعا لتناول طعامها(١٩) » — مع أنها بطريقة ما أصبحت بدينة . أما أخلاقياتها الشخصية فقد سمت فوق جيلها ، إذ

يبدو أنها كانت مخلصة لزوجها غير المخلص ، وفيـة للذكراه ، لبست الحداد عليه حتى نهاية حياتها . وقد ترفق فى الحكم عليها أعظم خلفائها هنرى الرابع فقال : —

« أسألكم ماذا كان فى استطاعة امرأة أن تفعل بعد أن تركها موت زوجها بخمسة أطفال صغار على ذراعيها ، وأسرتين فى فرنسا تفكران فى انتزاع التاج — أسرتنا (البوربون) وأسرة جيز ؟ ألم تكن مكرهة على أن تلعب أدوارا غريبة ، لتخدع الواحد أولا ثم تثنى بالآخر ، حتى تحمى أبناءها كما حمتهم ، وتيسر لهم أن يملكوا الواحد بعد الآخر بفضل السياسة الحكيمة التى اتبعتها هذه الأم الداهية ؟ انه ليدهشنى أنها لم تتصرف قط على نحو أسوأ مما فعلت(٢٠) » .

ولعلنا نرتضى هذا الحكم تقديرا منصفا لمسلك كاترين قبل عام ١٥٧٠ . فقد ضربت هذه الأسر والقوى المنافسة التى أحاطت بها بعضها ببعض . وكتبت تقول : « انى بمشيئة الله لن أسمح لنفسى بأن يتحكم فيها هـذا الفريق أو ذاك ، لأننى أيقنت للأسف أنهم جميعا يحبون الله ، والملك ، واياى ، أقل مما يحبون مكاسبهم . . . وإشباع أطماعهم(٢١) » . كان فيها من خلق إيطاليي النهضـة ما زهدها فى صرامة الهيجونوت الجبرية ؛ ثم إنها كانت تطلب قرضا من الكنيسة لتحول دون افلاس الدولة(٢٢) ، ومع ذلك ففى سبيل فرنسا كانت على استعداد لتزوج ابنتها مارجريت لهنرى نافار الهيجونوتى ، وابنها هنرى لاليزابث المحرومة من الكنيسة . ونظرت إلى الموقف فى صورته الأسرية والسياسية لا الدينية أو الاقتصادية . وكان عليها أن تحمى وطنها المقسم من تحالف أسبانيا والنمسا الهابسبورجي . وكانت معاهدة كاتو — كامبريزى قد تركت القوة الأسبانية متفوقة فى فلاندر ، ومتعدية تعديا خطيرا على شمال فرنسا الشرقى . وقد تشتعل الحرب القديمة بين أسرتى فالوا وهابسبورج من جديد فى أية لحظة ، وعندها تحتاج فرنسا

إلى دماء وسلاح الهيجونوت والكاثوليك على السواء — فالخطر من الخارج يتطلب السلام فى الداخل .

بهذا المزاج استعدت هى ومستشارها لوبيتال للاجتماع بمجلس طبقات الأمة فى أورليان . ولم تكن « أقاليم » بل كانت « طبقات » : النبلاء ، والاكليروس ، وبقية فرنسا ممثلة فى الطبقة الثالثة — وهى أساسا البورجوازية أو الطبقات الوسطى ساكنة المدن الكبيرة والصغيرة ، ولكنها تضم أيضا فى تمثيل متواضع الفلاحين والبروليتاريا الناشئة . ولم يكن للمندوبين نظريا أى سلطة تشريعية لأنهم انتخبوا بالقوى المحلية والطبقية لا بأى اقتراع واسع ، وكل ما كان لهم من حقوق هو حق إسداء النصيحة للملك ، على أن حاجته للمال عززت هذه النصيحة بعض التعزيز .

وافتتح لوبيتال الدورة (١٣ ديسمبر ١٥٦٠) بدعوة مثالية للتسامح من الفريقين . وقال مناشدا المجلس إن وظيفة الحكومة هى حفظ السلام والنظام والعدالة بين جميع المواطنين دون تحيز ودون نظر لآرائهم الدينية ، ومن المرغوب فيه أن يكون الفرنسيون جميعا على دين واحد ، لأن هـذا من شأنه أن يعين على الوحدة والقوة القوميتين ، ولكن إذا لم يكن فى الاستطاعة بلوغ هذا الاتفاق العام بالوسائل السلمية ، فالتسامح إذن خير وأبقى . فمن ذا الذى يعرف ما الهرطقه وما الحق ؟ « أنت تقول إن دينك أفضل الدينين ، وأنا أقول كذلك عن دينى ، فهل اعتناق رأيك معقول أكثر من اعتناقك رأيى ؟ . . . فلننه إذن هذه الأسماء الشيطانيه ، وهـذه البطاقات الحزبيه والشيع والتحريضات على الفتنه — اللوثريين ، والهيجونوت ، والكاثوليك ؛ دعونا نغير أسماءنا إلى مسيحيين(٢٣) ! »

ولكن الاستجابه لم تكن حارة . وطالب فقيه من لاهوتيي السوربون — وهى يومئذ كليه اللاهوت فى جامعه باريس — بالموت جزاء لكل المهرطقين ، ونصح مندوب البابا كاترين بأن تبدأ بحرق جميع المندوبين الهيجونوت ، ثم تثنى بجميع الهيجونوت فى أورليان(٢٤) . أما المندوبون الهيجونوت

فاقترحوا على الملكة الأم شتى الاصلاحات : أن يختار الشعب جميع رعاته الدينيين ؛ وأن يختار الرعاة وأشراف الأسقفيات أساقفتهم ؛ وأن يخصص ثلث الايرادات الكنسية لاعانة الفقراء ، وثلث آخر لبنـاء الكنائس والمستشفيات والمدارس ؛ وأن تقتصر تعاليم الكنيسة على الأسفار المقدسة[٢٥]. وكان فى هذا من التقدمية أكثر قليلا مما تطيقه كاترين ، مع حاجتها الماسة لأموال الكنيسة . فهدأت من ثائرة الهيجونوت بالافراج عن كونديه السجين وحض البابا بيوس الرابع على السماح بإزالة الصور والتماثيل الدينية من الكنائس ومناولة الأسرار المقدسة بالخمر كما تناول بالخبز[٢٦] . وفى ٢٨ يناير ١٥٦١ أفرجت عن جميع الأشخاص الذين اعتقلوا لـ « جرائم » دينية ، وأمرت بانهاء كل الاضطهادات بسبب الدين حتى إخطار آخر . وفى الحادى والثلاثين من يناير أجلت اجتماع مجلس الطبقات إلى مايو حين ينعقد ويسد حاجاتها للمال .

واغتبط الهيجونوت وتمددوا فى دفء هذه القرارات . ففى ٢ مارس عقدوا فى بواتييه مجمعهم القومى الثانى . وراح القساوسة البروتستنت يعظون دون تحرج فى مساكن كونديه وكوليني ببلاط فونتنبلو . وفى كاستر بجنوبى فرنسا خصت الانتخابات البلدية (١ يناير ١٥٦١) البروتستنت بجميع الوظائف ، وما لبث أن صـــدر الأمر لجميع المواطنين بحضور الخدمات الدينية البروتستنتية[٢٧] ، وحظرت الخدمات الكاثوليكية ، وحكم على الصور والتماثيل الدينية رسميا بالاتلاف والتحطيم[٢٨] . وفى آجن ومونتوبن استولى الهيجونوت على الكنائس الكاثوليكية غير المستعملة . فشكل حاكم القلعة الهرم آن دمونمورنسى هو ودوق جيز ومارشال دسانت أندريه « حكومة ثلاثية » لحماية المصالح الكاثوليكية (٦ أبريل ١٥٦١) . وتفجر الشغب فى باريس ، وروان ، وبوفيه ، وغيرها . وأصدرت الملكة « مرسوم يوليو » (١٥٦١) الذى حظر العنف وخدمات الهيجونوت الدينية العلنية وتجاهل الهيجونوت المرسوم ، وهاجموا المواكب الكاثوليكية فى

مختلف المدن ، ودخلوا الكنائس الكاثوليكية وأحرقوا الآثار والرفات المقدسة وحطموا التماثيل(٢٩) . وفى مونبلييه ، فى خريف عام ١٥٦١ ، نهبت الكنائس والديورة الستون كلها ، وقتل كثير من القساوسة ، وفى مونتوبن أحرق دير « كلير الفقيرة » وشتت الراهبات ونصحن بأن يجدن لأنفسهن أزواجا(٣٠) . وفى نيم طرد الهيجونوت جميع القساوسة ، واستولوا على كل الكنائس الكاثوليكية أو دمروها ، وأحرقوا الكاتدرائية ، وداسوا القربان المكرس بأقدامهم (فبراير ١٥٦٢) (٣٢) . أما فى لانجدوك وجين فكان الهيجونوت عادة إذا ملكوا زمام الأمر يستولون على الكنائس والأملاك الكاثوليكية ويطردون الكهنة الكاثوليك . ولم يكن القساوسة الهيجونوت أقل تعصبا من نظرائهم الكاثوليك وان امتازوا عنهم فى فضائلهم الشخصية(٣٤) ، فقد حرموا الهيجونوت الذين عقدوا زواجهم على يد القساوسة الكاثوليك أو سمحوا لأبنائهم بالزواج من الكاثوليك(٣٥) . وهكذا لم ير أحد الطرفين أى معنى للتسامح .

واستأنف مجلس الطبقات جلساته فى أول أغسطس ١٥٦١ متخـــذا بونتواز مقرا له هذه المرة . وقدم المال للحكومة مشترطا ضرورة موافقته بعد ذلك على أى فرض للضرائب الجديدة أو إعلان للحرب . أما الطبقة الثالثة ، التى أصبحت الآن المورد الأكبر للمال ، فقد أضافت طلبا جريئا — هو تأميم جميع أملاك الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ، وأن تدفع الدولة رواتب الاكليروس ، وأن تخصص ٤٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه من الفائض الحاصل بهذه الطريقة وقدره ٧٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه لاستهلاك الدين الأهلى . وسارع رجال الدين الكاثوليك المروعين إلى مصالحة كاترين بأن عرضوا عليها ١٦,٦٠٠,٠٠٠ جنيه تدفع لها فى حذر على عشرة أقساط سنويا . فقبلت ، وحل مجلس الطبقات .

فى هذه الأثناء كان لوبيتال — بموافقة كاترين وبرغم احتجاج البابا — قد دعا رجال الدين الكاثوليك والبروتستنت للاجتماع وإيجاد صيغة لتهدئة

الخواطر . واجتمع فى بواسى ، على أحد عشر ميلا غربى باريس ، ستة كرادلة ، وأربعون أسقفا ، واثنا عشر لاهوتيا من السوربون ، واثنا عشر من كهنة الكاتدرائيات ، وعشرة قساوسة بروتستنت من فرنسا ، وواحد من إنجلترة ، وتيودور دبيز من جنيف ، وعشرون علمانيا بروتستنتيا ، فى « ندوة بواسى » المشهورة (٩ سبتمبر ١٥٦١) . « حضر الندوة الملك ، والملكة الأم ، وامراء البيت المالك ، ومجلس الدولة ، بكل مظاهر الجلال والكرامة . واستقبل بيز ، ممثل كالفن الشيخ ، بحفاوة تقرب من حفاوة الملوك ، وقام بخدمة دينية بروتستنتية ووعظ فى قصر كاترين . بدأ عظته معتدلا ، وسحر السامعين جميعا بفرنسيته الرائعة ، ولكنه حين قال إن « جسد المسيح فى القربان بعيد عن الخبز المكرس بعد السماء عن الأرض » ، صاح المندوبون الكاثوليك احتجاجا ، وتلا ذلك هياج كبير ، وألح الأساقفة فى نفى كل الوعاظ الذين يتشككون فى « الوجود الحقيقى »[٣٦] ، وارفضت الندوة والصراع على العقائد أشد مرارة وأبعد ما يكون عن الهدوء .

كان الهيجونوت يطربون حين يعقدون اجتماعاتهم فى ميدان عام مواجه لكنيسة كاثوليكية ويشوشون على القداس بترتيل صاخب لمزاميرهم ، أما الكاثوليك فكانوا يدقون جرس الكنيسة ليغرقوا صوت الترتيل . وفى باريس استحال استمرار اجتماع بروتستنتى تجاه كنيسة سان ميدار بسبب قرع عنيف صادر من برج الأجراس ، وقتل بروتستنتى داخل الكنيسة للاحتجاج ، فثارت ثائرة البروتستنت ونهبوا المبنى وحطموا التماثيل والصليب . وجرح ثمانون من المصلين فى المعركة التى تلت ذلك (٢٧ ديسمبر ١٥٦١) .

ورأت كاترين أن تهدئ خواطر الكاثوليك باصدار « مرسوم يناير » (١٥٦٢) ، الذى ألزم الهيجونوت بتسليم جميع المبانى الكنسية لأصحابها السابقين ويعقد اجتماعاتهم خارج أسوار المدن فقط ، ووافق زعماء الكاثوليك

بين على أن هذا مرسوم تسامح فى حقيقته ، اعترف بالبروتستنتية دينا شرعيا فى فرنسا ؛ وقال زعماء البرلمان لكاترين صراحة إنهم يؤثرون الموت على تسجيل هذا المرسوم . فلما أدان مونمورنسى وسانت أندريه سياستها ، طردتهما من البلاط ؛ ولما انفجر غضب الكردينال دتورنون عليها ألزمته عقر أسقفية . ورماها الوعاظ الكاثوليك بالفسق (مثل ايزابل امرأة آخاب) — وهو نفس النعت الذى كان يستعمله نوكس البرتستنتى تنديدا بملكة اسكتلنده الكاثوليكية .

وفى يوم الأحد أول مارس ١٥٦٢ ، بينما كان فرنسيس دوق جيز مارا بقرية فاسى التى تقع نحو أربعين ميلا شمال غربى ديجون ، ومعه فرقة من مائتى تابع مسلحين ، وقف بكنيسة هناك ليستمع إلى القداس . ولكن الصلاة شوش عليها ترتيل الهيجونوت لمزاميرهم فى اجتماع لهم بجرن قريب . فأرسل إليهم رسولا يطلب إليهم ارجاء تراتيلهم خمس عشرة دقيقة حتى ينتهى القداس . ولكنهم وجدوا فى هذا الطلب مضايقة شديدة . وبينما كان جيز يواصل صلاته تراشق بعض أتباعه بعبارات التحية المتعصبة مع الهيجونوت ، وجرد الأتباع سيوفهم ، وقذفهم الهيجونوت بالحجارة ؛ وأصاب حجر منها جيز وهو خارج من الكنيسة فأسال دمه النبيل ، وما هى إلا أن اندفع أتباعه هاجمين على اجتماع الهيجونوت الذى ضم خمسمائة بين رجل وامرأة وطفل — فقتلوا منهم ثلاثة وعشرين ، وجرحوا مائة(٣٧) . وأثارت « مذبحة فاسى » هذه حمى القتال فى البروتستنت الفرنسيين ؛ أما الكاثوليك ، لا سيما فى باريس ، فرحبوا بها أداة تهذيب جاءت فى أوانها لتؤدب هذه الأقلية المكدرة لصفو البلاد . وأمرت كاترين جيز بأن يحضر إليها فى فونتنبلو ، فرفض ومضى إلى باريس ، وانضم إليه مورنمورنسى وسانت أندريه فى الطريق ومعهم ألفا رجل . وأمر كونديه قواته البروتستنت بأن تتجمع بسلاحها فى مو . وزحف الثلاثى الكاثوليكى بالجند على فونتنبلو ، فاعتقلوا الملكة الأم والأسرة المالكة ، وأكرهوهم على البقاء فى ميلون على سبعة

وعشرين ميلا من باريس ، ثم شكلوا « مجلسا خاصا » جديدا ألف أكثر أعضائه من رجال جيز ، وأقصى عنه لوبيتال . أما كونديه فقاد محاربيه البالغين ٦٠٠ر١ إلى أورليان وناشد كل الجماعات البروتستنتية أن تمـــده بالجنود . وهكذا بدأت أولى « الحروب الدينية » (أبريل ١٥٦٢) .

٣ — حكم الدم : ١٥٦٢ — ٧٠

طلب الفريقان المعونة من الخارج وحصلا عليها ، الكاثوليك من أسبانيا ، والبروتستنت من إنجلتره وألمانيا ، فأرسلت اليزابث ٠٠٠ر٦ رجل إذ أغراها وعد البروتستنت بإعطائها كالية ، واستولى ٠٠٠ر٢ منهم على روان ، ولكن جيز انتزع المدينة ونهبها (٢٦ أكتوبر ١٥٦٢) ، ونهب جنده المتعطشون للغنيمة السكان الكاثوليك والبروتستنت وذبحوهم دون تحيز لأى فريق ؛ وفى هذه الاشتباكات جرح أنطوان دبوربون جرحا مميتا ، وكان قد اعتنق المذهب الكاثوليكي وانضم إلى القوات الكاثوليكية . وسيطر الهيجونوت على معظم المدن جنوبى فرنسا ، ناهبين الكنائس محطمين التماثيل بحماسة دينيـــة . وزحفت أهم قواتهم وعدتها ٠٠٠ر١٧ رجل يقودهم كونديه وكوليني على نورماندیا لينضموا إلى التعزيزات الإنجليزية . فقطع عليهم الزحف عند درو جيش كاثوليكى قوامه ٠٠٠ر١٧ يقوده الحلف الثلاثى ؛ وفى ١٩ ديسمبر خاض الفريقان معركة حامية خلفت ٠٠٠ر٦ صرعى فى الميدان ، وقتل سانت أندريه ، وجرح مونمورنسي وأسره الهيجونوت ، وجرح كونديه وأسره الكاثوليك . وتغلبت روح المجاملة الفرنسية حينا ، فعومل مونمورنسي معاملة الأبطال ، وهو الذى دأب على القتال جنبا إلى جنب مع جنوده وجرح فى سبع معارك مع أنه القائد الأعلى لجيوش الملك ، أما الدوق دجيز فقد احتفى بكونديه ضيفا مكرما ، وتناول معه الطعام ، وشاركه الفراش الوحيد الموجود فى المعسكر[٣٨] . وعقد النصر غير الحاسم للكاثوليك ، ولكن باريس والأسرة المالكة اعتقدا حينا أن الهيجونوت هم الغالبون . واستقبلت كاترين النبأ فى هدوء قائلة : « حسنا إذن ، سنصلى لله بالفرنسية »[٣٩] .

أما جيز فقد لقى منيته عقب الانتصار . فبينما كان ينشر قواته لحصار أورليان رماه فتى هيجونوتى فى التاسعة عشرة يدعى جان بولترو دميريه (١٨ فبراير ١٥٦٣) بطلق نارى من كمين . ومات الدوق بعد ستة أيام من الألم ، وأكد بولترو حين أحضر أمام كاترين أن كولينى استأجره على على قتل جيز بمبلغ كبير من المال ، وأن بيز وعده بالجنة ان وفق . وكتبت كاترين لكولينى تطلب جوابه عن التهمة ، فأنكر أى مشاركة فى خطة الاغتيال ، وقال إنه طالما حذر الدوق من القتلة ، واعترف بأنه سمع بولترو يجهر بنيته ، وأنه لم يفعل شيئا لمنعه ، وأنه نفحه بمائة كراون ، ولكن لأغراض أخرى ، وهو على أى حال غير آسف لنجاح المؤامرة ، « لأنه ليس فى استطاعة » القدر أن يضرب ضربة خيرا من هذه لصالح المملكة وكنيسة الله ، لا سيما وأنها لصالحى وصالح بيتى(٤٠) . » ومزقت الخيل أوصال بولترو فى ١٨ مارس ، وقد أعاد اتهامه لكولينى وهو يعانى سكرات الموت(٤١) . وأقسم هنرى أن يثأر لموت أبيه ، بعد أن أصبح الآن ثالث أدواق جيز .

وواصلت كاترين سعيها للسلام ، وقد وضح لها أنه لو أتيح النصر الحاسم لأحد الفريقين لنحاها وربما عزل ولدها . فأعادت لوبيتال لمنصبه مستشارا لها ، ورتبت لقاء بين مونمورنسى وكونديه ، وأقنعتهما بتوقيع مرسوم أمبواز الذى أنهى الحرب الدينية الأولى (١٩ مارس ١٥٦٣) . أما الشروط فكانت نصرا للنبلاء الهيجونوت وحدهم : فقد منحت حرية الضمير وممارسة الدين « المسمى مصلحا » « لجميع البارونات والسادة الاقطاعيين رؤساء القضاء فى بيوتهم ، هم وعائلاتهم وأتباعهم » و « للأشراف المالكين لاقطاعات بدون أتباع والعائشين على أراضى الملك ، ولكن لهم ولأسرهم شخصيا » . أما عبادة الهيجونوت فيسمح بها حيث مارسوها قبل ٨ مارس ١٥٦٣ ، وإلا تقصر على أطراف مدينة واحدة فى أى وكالة اقطاعية أو منطقة نفوذ الشريف . أما فى باريس فهى محظورة

اطلاقا . واتهم كوليني كونديه بأنه ضحى بجماهير الهيجونوت ليحمى طبقته .

وفى ١٥ سبتمبر أعلن بلوغ شارل التاسع رشده وهو لم يبلغ الرابعة عشرة ؛ ونزلت كاترين عن وصايتها ، ولكنها لم تنزل عن قيادتها . ففى مارس ١٥٦٤ قادت الملك وحاشيته فى رحلة تخترق فرنسا ، من جهة لترى الأمة مليكها الجديد ، ومن جهة أخرى لتدعم السلام الهش . وأصدرت فى روستون مرسوما بالتسامح الجزئى ، داعية كلا من الفريقين إلى احترام حرية الآخر . وبعد أربعة عشر شهرا من الرحلة الملكية وصلت الجماعة إلى بايون (٣ يونيو ١٥٦٥) ، حيث رحبت كاترين فى ابتهاج بابنتها اليزابث التى أصبحت ملكة على أسبانيا ، واجتمعت مع الدوق ألفا فى مفاوضات سرية أزعجت الهيجونوت . فقد خامرتهم الظنون — بحق — فى أن ألفا أشار باتخاذ الإجراءات العنيفة ضدهم ، ولكن خطاباته المتخلفة لفليب تبين أن كاترين رفضت اقتراحاته ، وأبت أن تطرد لوبيتال ، وتشبثت بسياستها السلمية(٤٢) . وعقب عودتها إلى باريس (ديسمبر ١٥٦٥) استخدمت كل نفوذها لتصالح بين كوليني ، ومورنمورنسى ، وكونديه ، ودوق جيز .

وفى عام ١٥٦٤ دخل اليسوعيون فرنسا ، وأثارت عظاتهم حماسة الكاثوليك ، وحولوا فى باريس خاصة نفرا من الهيجونوت لمذهبهم . أما فى الأقاليم فقد ألغى رد الفعل الكاثوليكى كثيرا من المكاسب البروتستنتية . وانتهكت مراسيم التسامح المرة بعد المرة ، وأفرخت الهمجية فى ظل المذهبين . ولم يكن من غير المألوف أن يشنق حكام الأقاليم المواطنين لا لجريمة سوى أنهم هيجونوت(٤٣) . وفى نيم ذبح البروتستنت ثمانين كاثوليكيا (١٥٦٧)(٤٤) . وبين عامى ١٥٦١ و ١٥٧٢ اقترفت ثمانى عشرة مذبحة للبروتستنت ، وخمس للكاثوليك ، وأكثر من ثلاثين اغتيالا(٤٥) . واستقدمت كاترين الجنود المرتزقة من سويسرة ولم تعط كونديه جوابا

شافيا حين سألها عن قصدها من استقدامهم ، واعتقد كونديه وكوليني أن حياتهما في خطر ، فحاولا مع أتباعهما المسلحين أن يقتلوا الملك والملكة الأم في مو (سبتمبر ١٥٦٧) ، ولكن مونمورنسي أحبط المحاولة . وأصبحت كاترين تخشى كوليني خشيتها جيز من قبل .

وأحس كوليني وكونديه أن الحاجة ماسة لحرب ثانية ترد للهيجونوت ولو حقوقهم المحدودة . فاستقدما هما أيضا المرتزقة لا سيما من ألمانيا تعزيزا لقواتهما المستنزفة ، واستوليا على أورليان ولاروشل وزحفا على باريس وطلبت كاترين التعزيزات من ألفا ، فوافاها بها فورا ، وفي سان دنيس ، خارج العاصمة مباشرة ، قاد مونمورنسي ستة عشر ألف رجل ضد جيش كونديه في معركة من أبشع معارك هذه الحروب وأقلها حسما . ومات مونمورنسي من جراحه . وراحت فرنسا مرة أخرى تتساءل أي دين هذا الذي يدفع الناس إلى مذابح كهذه ، واغتنم لوبيتال الفرصة ليرتب صلح لونجومو (٢٣ مارس ١٥٦٨) ، الذي رد التسامح المتواضع الذي منحه مرسوم أمبواز .

وندد الكاثوليك بالمعاهدة ورفضوا تنفيذ شروطها . واحتج كوليني لدى كاترين ، فدافعت عن نفسها بضعفها . وفي مايو ١٤٦٨ أبلغ خوان دي ثونيجال ، سفير أسبانيا في روما ، أنه سمع من البابا بيوس الخامس أن الحكومة الفرنسية تنظر في اغتيال كوليني وكونديه(٤٦) . ولعل مثل هذا النبأ قد نمى إلى الزعيمين البروتستنتيين ، فهربا إلى لاروشيل ، حيث انضمت إليهما جان دالبر وابنها ، الذي بلغ الآن خمسة عشر عاما وكان يتحرق للعمل . وتكون جيش هيجونوتي جديد ، وحشد أسطول ، وعززت الأسوار ، وصدت كل محاولات بذلتها قوات الحكومة لدخول المدينة . وقبلت المراكب الخاصة الإنجليزية تفويض كونديه ، ورفعت رايته ، وانقضت على كل ثروة كاثوليكية تقع في يدها(٤٧) . وأصبح كونديه السيد المتصرف جنوبي اللوار .

أما كاترين فقد اعتبرت هذه الحرب الدينية الثالثة ثورة ، ومحاولة لقسم فرنسا إلى أمتين واحدة كاثوليكية والأخرى بروتستنتية . ولامت لوبيتال على فشل سياسات التوفيق التى أخذ بها ، فاستقال ، وأحلت مكانه فى منصب المستشار مشايعا متعصبا لآل جيز . وفى ٢٨ سبتمبر ١٥٦٨ ألغت الحكومة مراسيم التسامح وحظرت البروتستنتية فى فرنسا .

وأخذت القوات المتنافسة تتجهز لحرب فاصلة طوال ذلك الشتاء . وفى ٣ مارس ١٥٦٩ ، التحمت فى جارناك قرب أنجوليم . فهزم الهيجونوت ، واستسلم كونديه بعد أن أعيته إصاباته ، ولكنه ضرب بالنار من المؤخرة ومات . فتسلم كوليني القيادة وأعاد تنظيم الجيش لتقهقر منظم . وفى موكونتور هزم الهيجونوت ثانية ، ولكن كوليني استعاد ببراعة التخطيط ما خسره فى المعركة ، وزحف الهيجونوت الذين لا تفل لهم عزيمة ، برغم افتقارهم إلى الانتصارات ، وبلا طعام تقريبا ، حتى لم يبق بينهم وبين باريس غير مسيرة ساعات (١٥٧٠) . وعلى الرغم من الاعانات المالية التى أرسلتها روما وأسبانيا ، وجدت الحكومة مشقة فى تمويل جيوشها وحمل النبلاء الكاثوليك على البقاء فى ساحة القتال أكثر من شهر أو شهرين كل مرة . واجتاحت جحافل المرتزقة خلال ذلك البلاد تنهب الكاثوليك والبروتستنت على السواء وتقتل كل من يجرؤ على المقاومة .

وعرضت كاترين على كوليني تجديد معاهدة لونجومو ، فرفضها لأنها لا تفي بالغرض ، وواصل زحفه . هنا أكد الملك الفتى شارل التاسع سلطته فجأة وأبرم فى سان جرمان (٨ أغسطس ١٥٧٠) صلحا أعطى الهيجونوت الذين هربوا مرارا من قبل أكثر مما كسبوا فى أى وقت مضى ، أعطاهم حرية العبادة إلا فى باريس أو على مقربة من البلاط ، وحقهم الكامل فى تقلد المناصب العامة ، وحق الاحتفاظ بأربع مدن تحت حكمهم لمستقل مدى عامين ضمانا لاحترام تنفيذ هذه الشروط . واستشاط الكاثوليك غضبا وتساءلوا ، فيم الاستسلام بعد كل هذه الانتصارات ؟ واحتج

فليب والبابا » وصرفتهما كاثرين بتأكيدها هما أنها إنما تترقب الفرصة المواتية *) .

ومع ذلك راحت تدعم الصلح الجديد بعرضها تزويج ابنتها مارجريت فالوا من هنرى ملك نافار ، الذى أصبح بعد موت كونديه الزعيم الرسمى للهيجونوت . وكانت هذه آخر ضرباتها وأجرأها . لا يهم كونها هى وجان دالبر خصمين لدودين ، ولا أن هنرى قتل فى الحرب من قتل من الكاثوليك . إنما المهم أنه صغير السن مطواع ، فلربما استطاع سحر أميرة جميلة مرحة أن يجتذبه بعيدا عن هرطقاته . إذن ستشهد باريس زفافا باهرا ، وسيدعى إليه الرجال والنساء من المذهبين ؛ وستبعث من جديد روح النهضة المرحة وسط مرارة الاصلاح البروتستنتى ؛ وسيكون هناك تعطيل لنشاط اللاهوت ، والحرب ، والقتل .

٤ — المذبحة

ولكن ، أترضى بذلك أم هنرى ؟ لقد كانت جان دالبر هيجونوتية دما ولحما . وحين جاءت إلى البلاط عام ١٥٦١ أعلنت أنها « لن تحضر القداس ولو قتلوها قتلا ، وأنها تؤثر أن تلقى بابنها وملكه فى البحر عن أن تستسلم[٤٨] » ، بل انها دعت قسيسها الهيجونوتى ليعظها والأبواب مفتوحة على مصاريعها ، وتجاهلت فى تحد الاتهامات التى رمتها بها الجماهير الباريسية . وحين اعتنق زوجها الكاثوليكية تركته هو والبلاط (١٥٦٢) وعادت إلى بيارن وجمعت المال والجيش لكونديه . وبعد موت زوجها فرضت البروتستنتية على إقليم بيارن (وكان يضم مدن بو ، ونيراك ، وتارب ، وأورتيه ، ولورد) ؛ وطردت الكهنة الكاثوليك وأحلت محلهم القساوسة الهيجونوت[٤٩] . ولم يسمع بعدها قداس فى بيارن طوال

(*) دافع اللورد أكتون ، المؤرخ الكاثوليكى ، بكفاية فى كتابة « تاريخ الحرية » (لندن ١٩٠٧) ص ١٠١ — ٤٩ ، عن الرأى القائل بأنها ظلت عامين قبل ذلك تنظر فى إمكان التخلص من زعماء الهيجونوت باغتيالهم .

حسين عاما(٥٠) . وحرمها البابا بيوس الرابع وأراد أن يعزلها ، ولكن كاترين ثنته(٥١) ، ولعل جان ذكرت هذا حين قبلت عرضها بربط أسرتى فالوا وبوربون برباط الزواج ، وذكرت كفاح كاترين الطويل فى سبيل السلام . ثم ان أبناء كاترين معلولون . أفليس من المحتمل أن يموتوا كلهم ويتركوا عرش فرنسا لهنرى نافار ؟ أو لم يتنبأ العراف نوسترا داموسى بأن أسرة فالوا ستنقرض عما قليل ؟

أما أكثر أبناء كاترين سقاما ، وهو شارل التاسع ، فربما كان فتى محبا لولا نوبات طارئة من القسوة والغضب تشتعل أحيانا فتستحيل سورة تشرف على الجنون . وفيما بين هذه الغضبات كان قصبة تحركها الريح ، وإمعة لا رأى له . ولعله أضعف نفسه بالانهماك فى اللذات . كان زوجا لاليزابيث ابنة الامبراطور مكسمليان الثانى ، ولكن حبه الحرام الثابت كان لخليلته الهيجونوتية مارى توشيه . وكان حساسا للفن والشعر والموسيقى ، يحب أن يتلو غنائيات رونزار ، وقد كتب فى تكريم رونزار أبياتا جميلة جمال شعر رونزار :

كلانا يلبس تاجا ،
أما أنا فتلقيته ملكا ، وأما أنت فتهبه شاعرا ،
ان قيثارتك التى تسحر بأنغامها الحلوة ،
تخضع لك الأرواح ، التى لا أملك غير أجسادها ،
انها ترقق القلوب ، وتسترق الجمال ،
فى قدرتى أن أعطى الموت ؛ أما أنت فتعطى الخلود .

فلما انضم كولينى إلى البلاط فى بلوا (سبتمبر ١٥٧١) رحب به شارل كما يرحب الضعف بالقوة . هنا رجل مختلف كل الاختلاف عن الكثيرين الذين يتراقصون حول العرش : جنتلمان ، وارستقراطى ، ولكنه هادئ رزين ، يحمل نصف فرنسا فى قوة كلمته . وكان الملك الشاب يخاطب القائد المكتهل بـ « أبى » ، وعينه قائدا للأسطول ، ومنحه من جيب

الملك الخاص ١٠٠٫٠٠٠ جنيه تعويضا عن خسائره فى الحروب . وانضم كولينى إلى مجلس الملك ورأسه فى غيابه(٥٢) . وكان شارل دائم الغيرة والخوف من فليب الثانى ، كارهاً تبعية فرنسا الكاثوليكية لأسبانيا . و قترح عليه كولينى الرأى فى حرب مع أسبانيا تعطى فرنسا قضية توحد صفوف الفرنسيين ، وتصحح ذلك الحد الشمالى الشرقى الذى تتعدى عليه أسبانيا ، ولقد آن أوانها لأن وليم أورنج يقود ثورة قامت بها الأراضى المنخفضة على سيدها الأسبانى ، فما هى إلا دفعة قوية حتى تصبح فلاندر فرنسية . واستمع إليه شارل فى تعاطف . وفى ٢٧ أبريل كتب إلى الكونت لوى ناسو الذى تزعم التمرد البروتستنتى فى إينو يقول « إنه مصمم . . . على استخدام القوى التى أودعها الله فى يده لتخليص الأراضى المنخفضة من الظلم الذى ترزح تحتــه(٥٣) » . وعرض لوى وأخوه وليم أورنج تسليم فلاندرو وأرتوا لفرنسا لقاء تقديمها المعونة الحاسمة ضد أسبانيا(٥٤) . وفى خريف تلك السنة تفاوض شارل مع أوغسطس ناخب سكسونيا لتأليف حلف دفاعى بين فرنسا وألمانيا البروتستنتية(٥٥) .

أما كاترين فقد حكمت على اقتراحات كولينى بأنها غير عملية إلى حد الحماقة . فمن الخرق أن تعود بهذه السرعة إلى اطلاق شياطين الحرب بعد أن ظفرت بالسلام الذى تفتقر إليه فرنسا أشد افتقار . صحيح أن أسبانيا مفلسة افلاس فرنسا ، ولكنها ما زالت أقوى دولة فى العالم المسيحى ، ولقد كللت نفسها مؤخرا بالغــار حين هزمت الترك فى ليبانتو ، وإذن فستكسب تأييد كل أوربا الكاثوليكية ، ومعظم فرنسا الكاثوليكية — لو دخلت فرنسا حلفا بروتستنتيا . وفى حرب كهذه سيكون كولينى القائد الأعلى ، وبفضل نفوذه على شارل الطيع سيكون هو الملك الفعلى ، وستنحى كاترين إلى شينونسو إن لم يكن إلى إيطاليا . وعلم هــنرى جيز وهنرى أنجو — أخو الملك — فى فزع أن شارل سمح لكولينى بتجريد جيش للانضمام إلى لوى ناسو ؛ وقهر ألفا هذا الجيش بعد أن نبه إليــه أصدقاؤه فى البلاط الفرنسى (١٠ يوليو ١٥٧٢) . واستمع اجتماع كامل

لمجلس الملك إلى كوليني يدفع عن مقترحاته للحرب مع أسبانيا (٦ – ٩ أغسطس ١٥٧٢) ، ورفضت كلها بالاجماع ؛ ولكن كوليني أصر عليها قائلا « لقد وعدت على مسئوليتي بمساعدة أمير أورنج ، فأرجو ألا يسوء الملك أن أوفى بوعدى عن طريق أصدقائى ، وربما بشخصى . » ثم قال للملكة « سيدتى ، إن الملك يتجنب اليوم حربا تعده بمنافع عظيمة ، وقانا الله نشوب حرب أخرى لا يقوى على تجنبها[٥٦] » . وانفض المجلس فى غيظ شديد لما بدا كأنه تهديد بحرب أهلية ثانية . وقال المارشال دتافان « لتحذر الملكة من مشورات ابنها الملك وخططه وأحاديثه السرية ؛ ان الهيجونوت ظافرون به إن لم تأخذ حذرها[٥٧] » . وأخذت كاترين شارل جانبا ولامته على أنه أسلم عقله لكوليني ، فان أصر على شن الحرب على أسبانيا فستستأذنه فى الانسحاب مع ابنها الآخر إلى فلورنسة . وطلب إليها الصفح ووعدها بطاعة الابن لأمه ، ولكنه ظل الصديق الوفى لكوليني .

فى هذا الجو قدمت جان دالبير إلى بلوا لعقد الزواج الذى كان مزمعا أن يوحد فرنســـا الكاثوليكية والبروتستنتية . وأصرت على أن يقوم الكردينال دبوربون بالمراسم لا بصفة الكاهن بل الأمير ، لا داخل كنيسة بل خارجها ، وألا يصحب هنرى زوجته إلى الكنيسة ليستمع إلى القداس . ووافقت كاترين ، وان أفضى هذا إلى مزيد من النزاع مع البابا ، الذى رفض الحل لمارجريت بالزواج من الابن البروتستنتى لبروتسنتى محروم . ثم ذهبت جان إلى باريس تتسوق ، فرضت بذات الجنب ، وماتت (٩ يونيو ١٥٧٢) . وخامرت الهيجونوت الظنون بأنها ماتت مسمومة ، ولكن هذا الفرض لم يعد له محل[٥٨] ، وحضر هنرى نافار إلى باريس من بلوا فى أغسطس على الرغم من شكوكه وحزنه ، مصحوبا بكوليني وثمانمائة من الهيجونوت ، ولحق بهم أربعة آلاف هيجونوتى فى العاصمة[٥٩] ، من جهة ليشهدوا الاحتفالات ، ومن جهة أخرى ليحموا ملكهم الشاب . وأثار هذا السيل المتدفق وما رافقه من عشرات المظاهر

النارية حفيظة باريس الكاثوليكية(٦٠) ، فنددت بالزواج لأنه استسلام من الحكومة للقوة البروتستنتية . ومع ذلك تم الاحتفال (١٨ أغسطس) دون حل من البابا ، واتخذت كاترين تدابيرها لتمنع البريد من الاتيان بحظر بابوى . وقاد هنرى زوجته حتى باب نوتردام ، ولكنه لم يدخل معها . ان باريس لم تكن فى نظره تستأهل بعد أن يحضر قداسا من أجلها . ونزل مع مارجريت قصر اللوفر موقتا .

لم تجش باريس بمثل هـذا الانفعال من قبل إلا فيما ندر . واعتقد الناس أن كوليني يتأهب للذهاب إلى جبهة القتال لأنه ما زال مصرا على المعونة العلنية تبذلها فرنسا للأراضى المنخفضة الثائرة . وأنذر بعض الكاثوليك كاترين بأن الهيجونوت يخططون مرة أخرى لمحاولة خطفها هى والملك(٦١) . وكشف طرق السندانات فى أرجاء المدينة عن صنع السلاح على عجل . فى هذه الفترة الحاسمة وافقت كاترين ، فيما زعم ابنها هنرى ، على قتل الأميرال(٦٢) .

ففى ٢٢ أغسطس ، بينما كان كوليني يسير من اللوفر إلى بيته ، قطع عياران أطلقا من نافذة سبابة يسراه ومزق ذراعه حتى الكوع . واندفع رفاقه إلى المبنى ، ولكنهم لم يجدوا سوى قربينة مدخنة ، فقد هرب المعتدى من الخلف . وحمل كوليني إلى مسكنه . وحين نمى الخبر إلى الملك صاح غاضبا « ألا يتاح لى الهدوء أبدا ؟ » وأرسل طبيبه الخاص ، أمبرواز باره الهيجونوتى ، ليعالج جراح كوليني ، وعين حراسا ملكيين على بيته ، وأمر الكاثوليك بأن يخلوا المساكن المجاورة وسمح للهيجونوت بشغلها(٦٣) . وحضرت الملكة والملك وأخوه هنرى لمواساة الجريح ، وأقسم شارل بـ « أغلظ الأيمان » لينتقمن لكوليني من هذا العدوان . وعاود كوليني حث شارل على دخول الحرب للحصول على فلاندر(٦٤) . وانتحى به جانبا وأسر إليه شيئا . وبينما الأسرة المالكة فى طريقها إلى اللوفر ، أصرت كاترين على أن يبوح الملك بالسر . فأجاب « حسنا إذن ، قسما بموت

الإله ، ما دمت تصرين على أن تعرفى ، فهاك ما قاله لى الأميرال : أن السلطة كلها تحطمت فى يديك ، وأن النهاية ستكون وبالا علىّ » . وفى سورة غضبه حبس الملك نفسه فى غرفته الخاصة . وراحت كاترين تجتر همومها فى غيظ وخوف(٦٥) .

وذهب هنرى نافار إلى كوليني وناقش معه إجراءات الدفاع : وأراد بعض حاشية الأميرال أن يمضوا لتوهم ويغتالوا الزعماء من آل جيز ، ولكنه نهاهم . وقال الهيجونوت « إذا لم تجر العدالة مجراها كاملا فهم لا بد مجروها بأنفسهم(٦٦) » . وراح الهيجونوت يحومون حول اللوفر طوال ذلك اليوم ، وقال أحدهم للملكة إنهم سيقتصون من الجانى بأيديهم إن لم يأخذ العدل مجراها سريعا(٦٧) . ومرت عصابات من الهيجونوت المسلحين المرة بعد المرة بأوتيل اللورين الذى يقيم فيه آل جيز وصاحت تهدد بالموت(٦٨) . ولجأ آل جيز إلى الملك طالبين الحماية وتحصنوا فى بيتهم . أما شارل فقد اشتبه فى أنهم استأجروا القاتل وقبض على نفر من خدمهم وهدد دوق جيز . واستأذن هنرى جيز وأخوه دوق أومال فى أن يغادروا باريس ، فأذن لهما ، ومضيا حتى بوابة سانت انطوان ، ثم انقلبا عائدين واتخذا طريقهما خفية إلى أوتيل اللورين .

وفى ٢٣ أغسطس اجتمع مجلس الملك للتحقيق فى الجريمة. وتبين للمجلس أن البيت الذى أطلق منه العياران تملكه (وان لم تشغله) دوقة جيز الأرملة ، التى أقسمت من قبل على أن تثأر لمقتل زوجها فرنسيس ؛ وأن القاتل هرب ممتطيا جوادا من مرابط أسرة جيز ، وأن السلاح كان ملكا لأحد حرس الدوق أنجو . ولم يقبض على القاتل قط . وفى رواية لأنجو بعد ذلك أنه هو وهنرى جيز قررا الآن أنه لا بد من قتل كوليني وبعض الهيجونوت الآخرين . وبينما كانت كاترين وبعض أعضاء المجلس مجتمعين فى التويلرى ، اندفع إلى الاجتماع عميل لأنجو يسمى بوشافان معلنا أن الهيجونوت فى بيت كوليني يخططون لفتنة عنيفة يقومون بها على الأرجح

فى المساء التالى(٦٩) . وأضيف الآن عامل جديد إلى كراهية كاترين للأميرال ، وغضبها مما لاح لها أنه أغواء منه للملك ليحرمه من إرشادها ، واقتناعها بأن سياسة الحرب مع أسبانيا ستكون وبالا على فرنسا وعلى أسرتها – ذلك هو الخوف على حياتها من خطر داهم ، وخشيتها أن تنتقل كل السلطة سريعا إلى أيدى كولينى وأصحابه . فوافقت على قتل زعماء الهيجونوت(٧٠).

ولكن موافقة الملك كانت أمرا مرغوبا فيه، ان لم يكن ضروريا ؛ وكان لا يزال يطالب بمحاكمة جميع من لهم علاقة بالهجوم على كولينى . وحوالى الساعة العاشرة من مساء ذلك اليوم (٢٣ أغسطس) أرسلت الملكة الأم الكونت رتز ليحذر شارل من الفتنة المزعومة ، وسرعان ما أحاطت كاترين ومستشاروها بالحاكم الشاب الذى شارف الآن على الجنون لفرط انفعاله ؛ وأكدت له كاترين أن ثلاثين ألفا من الهيجونوت يخططون لاعتقاله فى الغد وخطفه إلى قلعة بروتستنتية حيث يظل أسيرا لا حول له ولا قوة ؛ أو لم يحاولوا من قبل أن يضربوا هذه الضربة مرتين ؟ فإذا تم لهم النصر قتلوها للشبهة فى اصدارها الأمر بالاعتداء على الأميرال أو السماح بهذا الاعتداء . وقيل للفتى ذى الثلاثة والعشرين ربيعا أن يختار بين حياة أمه أو حياة ستة من الهيجونوت . فلو أنه رفض الموافقة وتغلبت باريس الكاثوليكية على الثورة ، لنحى جانبا لأنه جبان أحمق . ولكنه قاوم هذه الحجج ؛ وسأل ، لم لا يكفى أن يقبض على زعماء الهيجونوت ويحاكموا قانونيا ، وأجاب المستشارون ان الوقت فات لتفادى الثورة بمثل هذا الإجراء . وهددته كاترين بأنها ستنسحب إلى إيطاليا وتتركه لمصيره . وأخيرا ، بعد أن قارب الليل أن ينتصف ، وفى نوبة من الانهيار العصبى والغضب ، صاح شارل ، « قسما بموت الإله ، ما دمتم تريدون قتل الأميرال ، فأنا موافق ، ولكن يجب أن تقتلوا جميع الهيجونوت فى فرنسا ، حتى لا يبقى منهم أحد ليلومنى . . . اقتلوهم جميعا ! اقتلوهم جميعا ! » وبعد أن لعن وجدف ، هرب من مستشاريه وحبس نفسه فى حجرته .

وإذا كان المتآمرون قد دبروا قتل نفر من الهيجونوت ، فانهم اغتنموا الآن فرصة هـذا الأمر المجنون الذى نطق به الملك ليستأصلوا شأفة الهيجونوت ما أمكنهم ذلك . وأصرت كاترين على حماية هنرى نافار ، واستثنى أمير كونديه الشاب — هنرى الأول — وآل مونمورنسى لأنهم أنبل أصلا من أن يسمح بقتلهم ، وأنقذ الملك الجراح أمبرواز باريه ؛ ولكن الأمر أبلغ لقواد أحياء باريس بأن يسلحوا رجالهم ويستعدوا للعمل بمجرد سماعهم أجراس الكنائس تدق فى الثالثة من صباح ٢٤ أغسطس ، وهو عيد القديس بارتولوميو . وأعطى دوقا جيز تفويضا مطلقا بانفاذ ثأرهما من الأميرال بعد أن طال إرجاؤه . وأرسل هنرى جيز كلمة إلى ضباط المليشيا بأن على رجالهم حالما يسمعون ناقوس الخطر يقرع أن يذبحوا كل هيجونوتى يعثرون عليه ؛ أما أبواب المدينة فتقفل لتمنع الهاربين من الهروب .

وبينما كان الظلام لا يزال مخيما قاد جيز نفسه ثلاثمائة جندى إلى المبنى الذى ينام فيه كولينى . وكان على مقربة منه باريه طبيبه ، وميرلان سكرتيره ، ونيقولا خادمه . وأيقظهم وقع أقدام جند مقبلين ، ثم سمعوا طلقات وصيحات — كان حرس كولينى يقتلون . واندفع صديق إلى الحجرة وهو يصيح « لقد قضى علينا ! » وأجاب الأميرال ، « إننى أعددت نفسى للموت منذ زمن طويل . فأنقذوا أنفسكم . لا أريد أن يلومنى أحباؤكم على موتكم . أستودع روحى لرحمة الله » . وهربوا . واقتحم جند جيز الباب فوجدوا كولينى راكعا يصلى . وطعنه جندى بسيفه وشق وجهه ؛ وطعنه آخرون ؛ ثم قذف من النافذة وهو حى بعد فسقط على الرصيف أسفلها عند قدمى جيز . وبعد أن تأكد الدوق من موت كولينى أمر رجاله بأن ينتشروا فى باريس ويذيعوا هذه العبارة « اقتلوا ! اقتلوا ! هذا أمر الملك . » وفصل رأس الأميرال عن جسده وأرسل إلى اللوفر — وقيل إلى روما(٢١) ، أما الجسد فسلم للجماهير التى مثلت به تمثيلا وحشيا ،

فقطعت الأيدى والأعضاء التناسلية لتعرضها للبيع ، وعلقت بقيته من عرقوبيه(٧٢) .

وأرسلت الملكة خلال ذلك الأوامر لدوق جيز بوقف المذبحة لشعورها بشيء من الندم أو الخوف . وكان الجواب أن الأوان فات ؛ أما وقد مات كوليني ، فلا بد من قتل الهيجوت وإلا فهم لا محالة ثائرون . وخضعت كاترين وأمرت بقرع ناقوس الخطر . وتلت ذلك مذبحة ندر أن عرفتها المدن حتى فى جنون الحرب . واغتبطت الجماهير باطلاق دوافعها المكبوتة لتضرب وتوجع وتقتل . فاقتنصت وذبحت من الهيجونوت وغيرهم عددا يتفاوت بين الألفين وخمسة الآلاف ؛ واستطاع من بيتوا نية القتل من قبل أن يقتلوا الآن خصومهم وهم آمنون من العقاب ؛ واغتنم الأزواج المعذبون أو الطامعون والزوجات الفرصة ليتخلصوا من زوجاتهم وأزواجهن غير المرغوب فيهم ، وذبح التجار منافسيهم ، ودل الورثة المتنظرون على أقربائهم الذين طال ترقبهم لموتهم واتهموهم بأنهم هيجونوت(٧٣) . وقتل راموس الفيلسوف بتحريض أستاذ حسود . واقتحم كل بيت اشتبه فى إيوائه الهيجونوت وفتش . وجر الهيجونوت وأبناؤهم إلى الشوارع وذبحوا ذبح الأنعام وانتزعت الأجنة من بطون أمهاتهم القتيلات وهشموا(٧٤) . وما لبثت الجثث أن تناثرت على أرصفة الشوارع ، وأخذ الصبية يلعبون ألعابهم فوقها . ودخل حرس الملك السويسريون المعمعة وراحوا يذبحون فى غير تمييز للذة الذبح الخالصة . وقتل رجال مقنعون الدوق دلاروشفوكو الذى لعب التنس مع الملك بالأمس ، وقد حسبهم جاءوا يدعونه إلى حفلة ملكية . ودعى النبلاء والضباط الهيجونوت الذين انزلوا قصر اللوفر باعتبارهم حاشية ملك نافار إلى الفناء وضربوا بالنار واحدا بعد الآخر عند وصولهم . أما هنرى فكان قد خرج ليلعب التنس بعد أن استيقظ فى الفجر . وأرسل شارل فى طلبه هو وكونديه وخيرهما بين « القداس أو الموت » واختار كونديه الموت ، ولكن الملكة أنقذته . أما نافار فوعد بالامتثال فأبقى عليه . وأما عروسه

مارجريت النائمة نوما مضطربا فقد أيقظها هيجوتوتى جريح اندفع إلى حجرتها وفراشها ، فأقنعت مطارديه بألا يقتلوه . ذكر السفير الأسبانى فى تقريره « إنهم يقتلونهم جميعا وأنا أكتب هذا ، انهم يعرونهم .. ولا يعفون أحداً حتى الأطفال . تبارك الله ! (٧٥) » أما وقد أصبح القانون ذاته خارجا على القانون ، فقد انطلق السلب والنهب فى غير قيد ، وأبلغ الملك أن بعض حاشيته شاركوا فى نهب العاصمة . والتمس منه بعض المواطنين المروعين عند ما اقتربت الظهيرة أن يأمر بوقف المذبحة ، وعرضت جماعة من شرطة المدينة أن تعاون على استتباب الأمن . فأصدر الأوامر بوقف المذبحة ، وأمر الشرطة بأن يحبسوا البروتستنت حماية لهم ؛ ثم أنقذ بعض هؤلاء ، وأغرق غيرهم بأمره فى السين . وهدأت المذبحة هنيهة . ولكن حدث فى يوم الاثنين الخامس والعشرين من الشهر ، ان شجيرات الشوك البرى أزهرت فى غير أوانها فى مقبرة الأطفال ؛ وهلل الكهنة للأمر حاسبينه معجزة ، وقرعت أجراس الكنائس فى باريس احتفالا به ، وظنت الجماهير أن هذا القرع دعوة إلى تجديد المذبحة ، فاستؤنف القتل من جديد .

وفى اليوم السادس والعشرين ذهب الملك فى موكب رسمى هو وحاشيته إلى قصر العدالة مخترقا الشوارع التى ما زالت الجثث مبعثرة فيها ، وشهد لبرلمان باريس فى فخر بأنه أمر بالمذبحة . وأجاب رئيس البرلمان بخطاب تهنئة طويل . وقرر البرلمان بأن ورثة كوليني يجب حرمانهم من حماية القانون ، وأن بيته فى شاتيون يجب أن يهدم ، وأن ما بقى من أملاكه يجب أن يصادره الدوق أنجو . وفى اليوم الثامن والعشرين زار الملك والملكة الأم والحاشية عدة كنائس فى احتفال دينى للشكر على تخليص فرنسا من الهرطقة ونجاة الأسرة المالكة من الموت .

وحذت الأقاليم حذور باريس بأسلوب الهواة ، فارتكبت المذابح الجنونية بوحى الأنباء الواردة من العاصمة فى ليون ، وديجون ، وأورليان ، وبلوا ، وتور ، وتروا ، ومو ، وبورج ، وأنجيه ، وروان ، وتولوز

(٢٤ — ٢٦ أغسطس) . وحسب حاك دتو ٨٠٠ ضحية فى ليون ، و١٠٠٠ ضحية فى أورليان . أما الملك فقد شجع هذه الإبادة ، ثم نهى عنها ، ففى السادس والعشرين من الشهر أرسل تعليمات شفوية لحكام الأقاليم بأن يقتلوا كل زعماء الهيجونوت(٧٦) ، وفى السابع والعشرين أرسل إليهم أوامر مكتوبة بأن يحموا البروتستنت المسالمين الممتثلين للقانون . وفى الوقت ذاته كتب لممثله فى بروكسل أن يلتمس تعاون الدوق الفا :

« إن فى يد الدوق كثيرا من رعاياى المتمردين ، وفى قدرته أن يستولى على مونز ويعاقب (المحاصرين) فيها . فإن أجابك بأن المفهوم من هذا ضمنا قتل هؤلاء السجناء وتقطيع المحاصرين فى مونز ، فقل أن هذا ما يجب أن يفعله(٧٧) » .

ورفض ألفا الدعوة . ولما استولى على مونز سمح للحامية الفرنسية أن تغادرها دون أن يصيبها أذى . وكان بينه وبين نفسه يحتقر مذبحة القديس بارتلوميو لأنها وسيلة خسيسة للحرب ، ولكنه أمام الناس أمر بالاحتفال بالمذبحة انتصارا للدين المسيحى الحق دون غيره(٧٨) .

واستطاع بعض حكام الأقاليم أن يفرضوا على جماهيرهم ضبطا جديرا بالمتحضرين . فلم يكن هناك مذابح فى شمبانيا ؛ ولا فى بيكاردى ، ولا فى بريتنى ، وكان قليل منها فى أوفرن ، ولانجدوك ، وبرجنديا ، ودوفينى . وفى ليون ندد كثير من الكاثوليك بالمذبحة ، وأبى الجنود أن يشاركوا فيها ، وفى فين بسط الأسقف حمايته على البروتستنت ، وخبأت الأسر الكاثوليكية الهيجونوت المهددين بالخطر(٧٩) . أما فى تروا وأورليان فقد أرخى الأساقفة العنان للمذبحة(٨٠) ، وفى بوردو أعلن يسوعى أن الملاك ميخائيل قد أمر بالمذبحة ، وندد ببطء الحكام فى اصدار أوامر القتل . وأغلب الظن أن الأقاليم ساهمت بخمسة آلاف ضحية ، وباريس بنحو ألفين ، ولكن بعضهم يقدر جملة الضحايا بعدد يتفاوت من خمسة آلاف (٨١) إلى ثلاثين ألفا(٨٢) .

وأغضى الكاثوليك عموما عن المذبحة باعتبارها انفجارا للغيظ والثأر بعد سنين من اضطهاد الهيجونوت للكاثوليك[٨٣]. أما فليب الثانى فقد ضحك على غير عبوسه وجهامته المألوفة حين سمع النبأ، وحسب أنه لن يكون هناك خطر من تدخل فرنسا فى الأراضى المنخفضة. أما الممثل البابوى فى باريس فكتب إلى روما يقول: «أهنئ قداسة البابا من أعماق قلبي على أن الله جل جلاله شاء فى مستهل بابويته أن يوجه شئون هذه المملكة توجيها غاية فى التوفيق والنبل، وأن يبسط حمايته على الملك والملكة الأم حتى يستأصلا شأفة هذا الوباء بكثير من الحكمة، وفى اللحظة المناسبة حين كان كل المتمرين محبوسين فى القفص[٨٤]». وحين وصل النبأ إلى روما نفح كردينال اللورين حامله بألف كراون وهو يهتز طربا. وسرعان ما أضيئت روما كلها، وأطلقت المدفعية من قلعة سانت انجلو، وقرعت الأجراس فى ابتهاج، وحضر جريجورى الثالث عشر وكرادلته قداسا مهيبا لشكر الله على «هذا الرضى الرائع الذى أبداه للشعب المسيحى»، والذى أنقذ فرنسا والكرسى البابوى المقدس من خطر عظيم. وأمر البابا بضرب مدالية خاصة تذكارا لهزيمة الهيجونوت أو ذبحهم[٨٥] – وعهد إلى فازارى بأن يرسم فى الصالة الملكية بالفاتيكان صورة للمذبحة تحمل هذه العبارة – «البابا يوافق على قتل كولينى»[٨٦].

أما أوربا البروتستنتية فقد دمغت المذبحة بأنها همجية كلها جبن ونذالة. وأخبر وليم أورنج المبعوث الفرنسى أن شارل التاسع لن يستطيع أبدا أن يغسل يديه من دم الجريمة. وفى إنجلترا أحدق المطالبون بالثأر بالزابيث،

---

(٠) حاول المؤرخ الكاثوليكي باستور – برغم عدم اعتذاره عن المذبحة – أن يعلل فرحة البابا بأنها شعور الارتياح بعد الخوف من أن يقضى انتصار كولينى على الكاثوليكية فى فرنسا، وأن يؤدى إلى اتحاد فرنسا مع انجلترا وهولندة واسكندناوه وشمال ألمانيا – وكلها بلاد بروتستنتية – فى حرب لإبادة الكاثوليكية فى كل مكان (كتلك التى دعا إليها لوثر[٨٧]).

ونصحها الأساقفة بأن السبيل الوحيد لتهدئة غضب الشعب أن تعدم على الفور كل الكاثوليك الذين أودعوا السجون لرفضهم حلف يمين الولاء ؛ أو على الأقل يجب إعدام ملكة اسكتلندة فوراً (٨٨) . على أن اليزابث احتفظت بهدوئها . وارتدت ثياب الحداد الثقيل لتستقبل السفير الفرنسى ، وقابلت توكيداته بأن المذبحة فرضتها مؤامرة الهيجونوت الوشيكة بعدم التصديق الواضح . ولكنها واصلت ضرب أسبانيا بفرنسا ، ومماطلة ألنسون في الاستجابة لطلب يدها ، وفى نوفمبر وافقت على أن تكون عرابة لابنة شارل التاسع .

أما كاترين فقد خرجت من المقتلة مبتهجة منتعشة ؛ لقد خضع لها الملك الآن من جديد ، وبدا أن مشكلة الهيجونوت حلت . ولكنها أخطأت التقدير ، إذ تبين أن ارتداد الكثيرين من البروتستنت الفرنسيين الذين ارتضوا اعتناق الكاثوليكية بديلا عن الموت لم يكن غير ارتداد مؤقت . فما مضى شهران على المذبحة حتى افتتح الهيجونوت الحرب الدينية الرابعة . وأغلقت لاروشيل وعدة مدن أخرى أبوابها فى وجه جيش الملك وأفلحت فى مقاومة الحصار . وفى ٦ يوليو ١٥٧٣ وقع شارل صلح لاروشيل الذى منح الهيجونوت حريتهم الدينية . إذن فالمذبحة لم تحقق من الناحية السياسية شيئاً .

وانصرف الآن رجال الفكر من الهيجونوت عن شارل التاسع فى اشمئزاز شديد ، وهم الذين أعلنوا من قبل ولاءهم له ، وراحوا يشككون لا فى حق الملوك الإلهى فحسب ، بل فى نظام الملكية ذاته . ونشر فقيه هيجونوتى يدعى فرانسوا أوتمان بعد سنة من فراره إلى سويسرة عقب المذبحة كتابا فيه هجوم عنيف على شارل سماه « الضجة الغاليَّة » ، وقال فيه إن جرائم ذلك الملك أحلت شعبه من يمين الولاء له ، وأنه مجرم لا بد

من عزله ◦ وقبل أن ينصرم العام أصدر أوتمان من جنيف كتابه « غالة الفرنسية » وهو أول محاولة حديثة فى كتابة التاريخ الدستورى ، وحجته أن الملكية الغاليّة — الفرنسية قامت على الانتخاب ، فالملك — إلى عهد لويس الحادى عشر — كان خاضعا لمجلس شعبي من نوع ما ، والبقايا الهزيلة التى تخلفت عن هذه السلطة الانتخابية هى هذه « البرلمانات » الذليلة ، ومجلس الطبقات الذى طال إغفاله ؛ وهذه السلطة منحت لتلك الهيئات بتفويض من الشعب . « فالشعب وحده صاحب الحق فى انتخاب الملوك وعزلهم(٨٩) » . ثم طالب باجتماع مجلس الطبقات دوريا ، فهذه الهيئة دون سواها هى التى يجب أن يكون لها سلطة إصدار القوانين ، وتقرير الحرب أو السلم ، والتعيين فى المناصب الكبرى ، وتنظيم ولاية العرش ، وعزل الملوك الفاسدين . فها هنا بداية هزيم الرعود التى انطلقت عام ١٧٨٩ .

على أن الحياة ذاتها هى التى أنزلت شارل التاسع عن عرشه بعد قليل . ذلك أن الخير والشر قد اصطرعا داخله حتى تحطم جسده السقيم بفطرته تحت وطأة الصراع . كان حينا يشعر بالارتياح الخبيث لجرأة جريمته وعنفها ، وحينا ينحى على نفسه باللوم لأنه وافق على المذبحة ؛ وظلت صرخات القتلى من الهيجونوت ترن ّ أذنيه وتطرد النوم عن اجفانه . وبدأ يؤنب أمه ويقول لها « من غيرك تسبب فى هذا كله ؟ قسما بدم الإله إنك أنت السبب فى كل ما حدث » . أما هى فكانت تشكو من أن ولدها مجنون(٩٠) . ورانت عليه الكآبة والحزن ، وبات نحيل الجسد شاحب الوجه . وكان فيه استعداد قديم للسل ، فلما ضعفت مقاومته هدّه المرض ، وما أقبل عام ١٥٧٤ حتى كان يبصق الدم . وفى الربيع اشتد نزيفه وعاودته رؤى ضحاياه ، وصاح بممرضته « أى سفك للدماء ، أى قتل ! يا لها من مشورة شريرة تلك التى اتبعتها ! غفرانك ربى ! . . .

إننى هالك ! (٩١) » . وأرســل يوم وفاته — ٣٠ مايو ١٥٧٤ — فى طلب هنرى نافار . فعانقه فى حب وقال له « يا أخى ، انك فاقد صديقا وفيا . فلو أننى استمعت إلى كل ما قيل لى لمـا كنت الآن على قيد الحيــاة . ولكننى أحببتك دائمــا :.. وفيك وحدك أضع ثقتى بأن ترعى زوجتى وا بنتى .صل إلى الله من أجلى . وداعا ». ثم مات بعدها بقليل قبل أن يبلغ الرابعة و العشرين .

الفصل الرابع عشر

هنرى الرابع

١٥٥٣ — ١٦١٠

١ — الحب والزواج

كانت أم هنرى فى العهاد مارجريت أنجوليم ، أميرة فالوا ونافار ، والأخت التقية الحساسة ، المحبوبة، لفرانسيس الأول ، الجرىء ، الأنيق ، عاشق النساء . أما أمه فجان دالبير المهرطقة ، العنيدة ، المتمردة ، وأما أبوه انطوان بوربون حفيد القديس لويس فكان وسيما ، شجاعا ، كيسا ، مغرورا ، ميالا إلى التذبذب من مذهب إلى مذهب . ولا بد أن هنرى حمل بين جنبيه — وهو يخرج إلى النور (١٤ ديسمبر ١٥٥٣) فى مدينة بو باقليم بيارن — كل صفات اسلافه إلا التقوى . وقد أقنع جده السعيد أمه جان وهى فى المخاض بأن ترتل للعذراء ترتيلة ، لثقته بأنها ستكون فألا حسنا ، ثم دعك شفتى الوليد بالثوم وسقاه النبيذ على سبيل العماد فى بيارن . أما البطل فقد استنفد لبن ثمانى مرضعات .

لم يستطب التعليم ، فقد كره الكتابة ، وهرب من النحو ، ولكنه تعلم كيف يكتب بأسلوب ساحر . وقرأ بلوتارخ كأنه إنجيل البطولة . وربى أكثر وقته فى الخلاء ، وبرز فى الجرى والوثب والمصارعة والركوب والملاكمة ، وأكل الخبز الأسود والجبن والبصل ، واستمتع بالصيف والشتاء بلذة سخرت من التشاؤم . نشئ هيجونوتيا ، ولكنه لم يسمح قط للدين بأن يعطل الحياة . وحين دعى فى التاسعة للعيش فى البلاط وتعلم آدابه وأخلاقه ، اعتنق الكاثوليكية فى غير تردد ، ولما عاد إلى بيارن فى الثالثة عشرة استأنف العقيدة الهيجونوتية كأنه يغير ملابسه وفقا لتغير المناخ .

وكان يتنقل بيسر أعظم من غرام إلى غرام — فأحب تجنوتفبيل الصغيرة ، والآنسة مونتاجو ، وأرنودين ، ولاجارس (البغى) ، وكاترين دلوك ، وآن دكامبفور . لقد كان يطرح العقائد والخليلات دون أن يعذب ضميره أو يغير هدفه .

فأما هدفه فهو أن يتربع على عرش فرنسا . فلما ناهز التاسعة عشرة ، أصبح ملكا على نافار بعد أن مات أبوه ؛ ولكن هذا لم يكن سوى لقمة أثارت شهيته للملكية دون أن تشبعها ، وذهب إلى باريس ليزف إلى مارجريت فالوا ، فاستقبل استقبال وريث للعرش لايسبقه فى خط الوراثة غير دوق أنجو ودوق ألنسون . وعندما وقعت المذبحة عقب زواجه ، تمالك جأشه وأنقذ رأسه بالارتداد المؤقت عن مذهبه .

وأما عروسه « مارجو » فكانت أعظم نساء فرنسا فتنـــة وأليَنهن عريكة . فجمالها لا يرقى إليه شك ، وقد تغنى به رونسار ، ورتل برونتوم قصائد الغزل المشبوب فى بشرتها الطرية الناعمة ، وشعرها المتموج أو باروكاتها المتنوعة ، وعينيها اللتين ترشقان المرح أو الغضب أو الشيطنة ، وقوامها الممشوق كقوام محظية من محظيات القصور ، المهيب كقوام ملكة ، وقدميها الرشيقتين تقودان رقصات البلاط ، وفيض حيويتها فى جيل كله صراع وكآبة ، كل هذه المفاتن اجتذبت العدد الوفير من العشاق إلى مخدعها ، واتهمتها الشائعات بالاستسلام اللبق للغرام بل ولعشق المحارم(١). ولم يكن فى وسع هنرى أن يشكو وهو ذو العين الزائغة بين الحسان ، ولكن حين استأنفت مارجو ذبذباتها — وكانت تزوجته على غير ارادتها — بعد انحناءة قصيرة منه لزواج المرأة الواحدة ، بدأ يتساءل من ترى سيكون أبا لأطفاله . واتخذ له خليلة ، ثم مرض ، فلم تدخر جهدا فى تمريضه ، وإن عزت علته إلى « افراطه مع النساء » . ولكن سرعان ما باعدت بينهما الشكوك المتبادلة حتى لقد كتبت تقول « لم نعد ننام معا ، ولا يكلم أحدنا الآخر(٢) » .

وظل فى البلاط ثلاث سنوات على كره منه . وذات ليلة (١٥٧٥) بينما كان يصيد ، رمح بجواده خارج الحدود ؛ ثم هرب متنكرا عبر فرنسا ، وشق طريقه وسط الاخطار إلى نيراك ، وحكم بيارن وجين حكما تميز بالعدل والذكاء . وهجر الكثلكة ، ورد للبروتستنت سلطانهم فى بيارن ، وحماهم فى جين . وبعد ثلاث سنوات لحقت به مارجو ، وأعانها الملك الشاب - فى أوقات فراغه من الصيد أو قتال الكاثوليك - على جعل مباهج بلاطها الصغير تغطى على خياناتهما . وفى عام ١٥٨٢ ، وبعد أن تعبت من تقديم العون لخليلاته فى مخاضهن ، عادت إلى باريس ، ولكن مغامراتها هناك كانت صارخة بحيث أمرها هنرى الثالث بأن تعجل بالعودة إلى زوجها . وبعد أن قضت عامين آخرين فى بيارن اعتكفت فى آجن . ووافق الملكان - « الهنريان » الآن - على أن تعيش أشبه بالحبيسة فى قصر أوسون الريفى ، وقررا لها معاشا طيبا (١٥٨٧ - ١٦٠٥) . وحولت سجنها صالونا ، واستقبلت فيه الشعراء والفنانين والعلماء والعشاق ، وألفت مذكراتها الحافلة بالقيل والقال . وقد أطرى ريشليو أسلوبها ، وأهداها مونتنيى بعض مقالاته ، وأثنى الوعاظ على برها بالفقراء . وبعد اغراءات لا يستهان بها وافقت على فسخ زواجها ، وسمح لها بالعودة إلى باريس والبلاط (١٦٠١) . فاستأنفت هناك غرامياتها وصالونها ، ثم غدت بدينة ، وتابت ، واتخذت فانسان دبول قسيسا لها ، وبنت ديرا ، ثم ماتت فى سلام وتقوى (١٦١٥) بالغة من العمر اثنين وستين عاما . وهكذا اختتمت حياتها ، كما قال معاصر لها ، « مرجريت ، البقية الباقية من سلالة فالوا ، أميرة كلها ... نيات طيبة ... لم تؤذ أحدا إلا نفسها[٣] » .

٢ - هنرى الثالث : ١٥٧٤ - ٨٩

بعد أن تربع الدوق أنجو فترة قصيرة على عرش بولندة عاد فى الرابعة والعشرين ليعتلى عرش فرنسا باسم هنرى الثالث ، آخر ملوك فالو الفرنسيين . وهو يطالعنا فى صورة له باللوفر لا يعرف مصورها ، فتى

طويلا، نحيلا ،شاحبا،حزينا — رجلا ذا نية طيبة، شوشت عليه حياته الوراثة السيئة . كان ضعيف البنية ، قلق العاطفة، سريع الأعياء ، وكان عليه أن يجتنب الركوب والصيد ، ويلزم فراشه أياما إثر دقائق من الغرام النشيط . وقد شكا حكة فى جلده لا سبيل إلى برئها ، وصداعا فى رأسه ووجعا فى معدته ونزفا فى أذنه . أبيض شعره وسقطت أسنانه قبل أن يبلغ السادسة والثلاثين. أما غطرسته البادية فلم تكن فى حقيقتها سوى جبن ، وأما قسوته فخوف ، فإذا أرسل نفسه على سجيتها كان لطيفا حذرا . ولكنه لسوء الحظ كان شديد الولع بارتداء ثياب النساء . ظهر فى حفلة رقص مرتديا ثوبا انخفضت فتحة عنقه وأحاط برقبته عقد من اللآلئ ، وكان يلبس الجواهر فى أذنيه والأساور فى ذراعيه . وجمع من حوله اثنى عشر « غندورا » ، شباب جعدوا شعورهم الطويلة وصبغوا وجوههم ، وازدانوا بالثياب البهيــة ، وضمخوا أنفسهم بالعطور التى نشرت أريجها حولهم . ومع أشباه الرجال هؤلاء ألف أحيانا — وهو متنكر فى ثوب امرأة — أن يعربد فى الشوارع ليلا ويلعب ألاعيبه على المواطنين . وقد أفرغ خزانة بلده المشرف على الافلاس والفوضى على أحبائه الذكور ، فأنفق أحــد عشر مليونا من الفرنكات على زفاف أحدهم ، وضاعف ثمن المناصب القضائية ليشترى هدية زواج لآخر . على أنه أنفق بعض مال شعبه فى أغراض نافعة — فبنى البون نوف وحسّن اللوفر ، وانتشل بعض أجزاء باريس من قذارتها إلى حسن العمارة والنظافة . وأعان الأدب والمسرح . وبذل جهودا متقطعة للنهوض بالادارة . وتكفيرا عن كل سيئاته حج مرات راجلا إلى شارتر وكليرى ، وفى باريس مشى من كنيسة إلى كنيسة — وهو يعبث بمسبحات كبيرة ، وجمع فى حماسة الكثير من الصلوات الربانية والسلامات المريمية ، وسار فى مواكب « التائبين الزرق » الليلية الرهيبة وجسده فى غرارة بها ثقوب لقدميه وعينيه . ولم يعقب . أما أمه التى حملت إليه بذور الانحلال من أبوين مريضين فكانت تتطلع فى أسى إلى تدهور سلالتها وانقراضها الوشيك .

كان فى الموقف السياسى من الاضطراب مالا يرقى إليه ادراك هنرى؛ فهو لم يخلق الحرب ، وكانت كاترين تتوق إلى السلام وقد تقدم بها العمر؛ ولكن الهيجونوت ما زالوا ثائرين ، فهم يائسون ولكنهم لم يذلوا . وكان أخوه الدوق ألينسون يتودد إلى ملكة بروتستنتية تجلس على عرش إنجلترة ، وإلى ثوار بروتستنت فى الأراضى المنخفضة ، وإلى هنرى نافار فى بيارن . كانت أقلية من زعماء الكاثوليك ، سماهم نقادهم بـ « السياسيين » ، ... أفكار لوبيتال (الذى مات حزينا عام ١٥٧٣) ، فاقترحوا التسامح المتبادل بين المقتتلين ، ودافعوا عن فكرة مكروهة فى المعسكرين ، وهى أن ى استطاعة الأمة أن تحيا دون وحدة فى العقيدة الدينية . وقالوا إن على فرنسا ... حظر البابوات مثل هـذا التوفيق بين الفريقين أن تقطع روابطها الدينية مع روما . فلما خاف هنرى التعاون بين هؤلاء السياسيين والهيجونوت ، وخشى غارات الجنود الألمان القادمين لتعزيز قوة البروتستنتية ، أنهى عام ١٥٧٦ الحرب الدينية الخامسة بتوقيعه « صلح الموسيو » فى يوليو ، واصداره مرسوم تهدئة — هو مرسوم يوليو — الذى منح الهيجونوت حرية العبادة فى كل مكان بفرنسا ، وحق اختيارهم لجميع المناصب ، وسمح لهم بثمانى مدن يكون لهم فيها كامل السلطة السياسية والعسكرية .

وصدمت هذه التنازلات الممنوحة لفريق ظن الناس أنه تحطم وانتهى معظم الكاثوليك الفرنسيين ، لا سيما جماهير باريس الشديدة التمسك بعقيدتها . وكان كردينال اللورين قد اقترح عام ١٥٦٢ « حلفا مقدسا » يقسم أعضاؤه على الدفاع عن الكنيسة بكل وسيلة أيا كانت ، وبأى ثمن كائنا ما كان . ونظم هنرى جيز مثل هذا الحلف فى شمپانيا عام ١٥٦٨ . ومن ثم ألفت الآن جماعات كهذه فى كثير من الأقاليم . وفى عام ١٥٧٦ أعلن الدوق جهارا تأليف « الحلف المقدس » واستعد لنزال يسحق به الهيجونوت سحقا .

ولا حاجة بنا لتتبع سير الحروب الدينية السادسة والسابعة والثامنة إلا

فى تأثيرها على مجرى الأفكار فى فرنسا . هنا دخلت الفلسفة ساحة الوغى مرة أخرى . ففى عام ١٥٧٩ أصدر مؤلف غير معروف الاسم — ربما كان فليب دوبليسى — مورنيه ، أحد مستشارى نافار — من بازل بيانا مثيرا سماه « دفاع (عن حقوق الشعب) ضد الطغاة » . كتبه باللاتينية ، ولكن سرعان ما ترجم إلى اللغات القومية . وقد دام أثره قرنا كاملا : واستخدمه الهيجونوت فى فرنسا ، والهولنديون ضد فليب ، والبيوريتان ضد تشارلز الأول ، والوجز تبريرا لعزلهم جيمس الثانى . واتخذت النظرية القديمة ، نظرية « العقد الاجتماعى » الضمنى المبرم بين الشعب وحاكمه ، شكلا محددا فى هذا الكتاب ، وسنشهدها مرة أخرى فى هوبز ، ولوك ؛ وروسو . فالحكومة أولا هى ميثاق بين الله ، والشعب ، والملك ، لدعم « الدين الحق » والامتثال له — وهو البروتستنتية فى هذه الحالة ؛ وأى ملك يقصر فى هذا يحل عزله — والحكومة ثانيا هى ميثاق بين الملك والشعب ، الأول ليحكم بالعدل ، والثانى ليطيع مسالما . والملك والشعب على السواء خاضعان للقانون الطبيعى . أى قانون العقل والعدالة الطبيعية ، الذى يمثل القانون الأدبى الإلهى ، ويعلو على كل قانون « وضعى » (أى من صنع الإنسان) . أما وظيفة الملك فصيانة القانون الوضعى والطبيعى والإلهى ، فهو أداة القانون لا سيده . « والرعايا . . . . بوصفهم هيئة ، يجب اعتبارهم سادة المملكة وأصحابها المطلقين . » ولكن من الذى يقرر أن الملك طاغيـة ؟ لا الشعب فى جمهوره ، « ذلك الوحش الكثير الرءوس » ، بل ليقرر ذلك القضاة ، أو مجلس كمجلس الطبقات الفرنسى مثلا . ولا يصح أن يتبع كل فرد خاص ضميره ؛ فقد يحسب شهواته ضميره ، وهنا تأتى الفوضى ؛ ولكن إذا دعاه القاضى للعصيان المسلح فعليه أن يلبى الدعوة . على أنه يحل قتل الطاغية بيـد أى إنسان إذا كان مغتصبا(٤) .

واشتد صراع القوى والأفكار بعد أن مات دوق ألينسون (١٥٨٤) ،

واعترف هنرى الثالث بهنرى نافار وريثاافتراضياللعرش . وكف الهيجونوت بين عشية وضحاهاعن حديث الطغيان والعزل،وأصبحوا المؤيدين المتحمسين للشرعية لما توقعوا من قرب انهيار ملك فالوا المتهافت وتسليمه فرنسا لرجلهم البروتستنتى البوربونى . وإذا القوم يعرضون عن كتاب « الدفاع » الذى كان بالأمس القريب بيانا هيجونوتيا ، بل إن أوتمان ذاته صرح بأن مقاومة هنرى نافار خطيئة (٥) . ولكن أكثر فرنسا كان يقشعر فرقا من فكرة ملك هيجونوتى يتربع على عرشها . فكيف يمكن أن تمسح الكنيسه بالزيت المقدس بروتستنتيا فى مدينة رامس ؟ وهل يستطيع أحد يغير هذه المسحة أن يكون ملكا شرعيا لفرنسا ؟ أما رجال الاكليروس السنيون ، يتزعمهم اليسوعيون المتحمسون ، فقد نددوا بالوراثة وأهابوا بجميع الكاثوليك أن ينضموا إلى الحلف . وانضم إليه هنرى الثالث بعد أن جرفه هذا التيار ،وأمر جميع الهيجونوت بأن يعتنقوا الكثلكة أويرحلوا عن فرنسا . وناشد هنرى نافار أوربا أن تعترف بعدالة قضيته ، ولكن البابا سيكستوس الخامس حرمه ، وصرح بأنه لا يمكن أن يرث العرش لأنه زنديق سادر فى زندقته . وهنا أعلن شارل ، كردينال بوربون ، نفسه وريثا افتراضيا للعرش . وعاودت كاترين محاولتها فى سبيل السلام ، فعرضت أن تؤيد نافار إذا تخلى عن بروتستنتيته ، ولكنه أبى ، وامتشق الحسام على رأس جيش بعضه كاثوليكى ، واستولى على ست مدن فى ستة شهور ، وهزم جيشا للحلف يبلغ ضعف جيشه عند كوترا (١٥٨٧) .

وسيطر الهيجونوت الآن وهم لا يتجاوزون جزءا على اثنى عشر من السكان(٦)على نصف مدن فرنسا الكبرى(٧). ولكن باريس كانت قلب فرنسا وهى مع الحلف قلبا وقالبا . ولم يرض الحلف بالتأييد الفاتر الذى لقيه من هنرى الثالث ، فأقام فى العاصمة حكومة ثورية تتألف من ممثلين للأحياء الستة عشر ، وتفاوضت حكومة « الستة عشر » مع أسبانيا لتغزو انجلترة وفرنسا ، وبيتت اعتقال الملك . وأرسل هنرى فى طلب حرس سويسرى ،

ودعت حكومة الستة عشر دوق جيز إلى تقلد السلطة فى باريس ، فمنعه الملك ، ولكن الدوق وصل ، وهتفت له الجماهير زعيما لقضية الكثلكة فى فرنسا . وفر هنرى الثالث إلى شارتر وقد شعر بالهوان وتوعد بالانتقام . ثم فقد أعصابه مرة أخرى ، فتبرأ من هنرى نافار ، وعين هنرى جيز قائدا أعلى للجيوش الملكية ، ودعا مجلس الطبقات للاجتماع فى بلوا .

فلما اجتمع المندوبون لاحظ الملك فى سخط مظاهر التكريم التى حظى بها جيز والتى تقرب مما يحظى به الملوك . وفى يوم تصميم مسعور أقنع بعض أعوانه بقتل الدوق . ودعاه إلى لقاء خاص ، وبينما النبيل الشاب يقترب من حجرة الملك طعنه تسعة من المهاجمين طعنات أودت بحياته ، وفتح الملك الباب وتطلع فى رضى يشوبه الانفعال إلى هدفه الذى تحقق (٢٤ ديسمبر ١٥٨٨) . ثم أمر بسجن زعماء الحلف وقتل الكردينال جيز أخى الدوق . وفى فخر ورعب أنهى إلى أمه بطولاته التى ناب فيها عنه غيره ، فعصرت يديها فى يأس وقالت له « إنك خربت المملكة » .

ولم يمض اثنا عشر يوما حتى ماتت فى التاسعة والستين وقد أضنتها المسئوليات والهموم والدسائس ، وربما تبكيت الضمير أيضا . ولم يكد أحد من الناس يتوقف ليحزن على موتها . ودفنت فى مقبرة عامة ببلوا ، لأن حكومة الستة عشر أعلنت أنها ستلقى جثتها فى السين إذا جىء بها إلى باريس . واتهم نصف فرنسا هنرى الثالث بالقتل ، وجاب الطلاب الشوارع مطالبين بعزله ، أما لاهوتيو السوربون يؤيدهم البابا فقد أحلوا الشعب من ولائه للملك ، ودعا القساوسة إلى المقاومة المسلحة له فى كل مكان . وقبض على مؤيدى الملك ؛ واحتشد الرجال والنساء داخل الكنائس مخافة أن يحسبوا من أنصار الملك . واعتنق مؤلفو كراريس الحلف الايديولوجية السياسية للهيجونوت ، فاعلنوا أن الشعب صاحب السيادة ، وله الحق فى خلع الطاغية عن طريق البرلمان أو القضاة ، وأى ملك فى المستقبل ينبغى

أن يخضع للقيود الدستورية ، وأن يكون واجبه الأول فرض الدين الحق — وهو الكاثوليكية فى هذه الحالة (٨) .

أما هنرى الثالث ، الموجود الآن فى تور مع بعض النبلاء والجنود ، فقد وجد نفسه بين نارين . فجيش الحلف يزحف عليه من الشمال بقيادة دوق ماين ، وجيش نافار يزحف من الجنوب فاتحا المدينة تلو المدينة ، إذن فاحدى القوتين قابضة عليه لا محالة . واغتنم هنرى الهيجونوتى فرصته ، فأوفد دوبليس — مورنى ليعرض على الملك محالفته وحمايته وتأييده . والتقى الهنريان عند بلبسى — لى — تور وتعاهدا بوفاء كل منهما لصاحبه (٣٠ أبريل ١٥٨٩) . وهزم جيشاهما المتضافران ماين وزحفا على باريس .

وفى العاصمة المسعورة استمع راهب دومنيكى يدعى جاك كليمان فى حماسة إلى ما تردد من اتهام لهنرى الثالث بالاغتيال . وقد أكدوا له أن القيام بعمل عظيم فى سبيل قضية مقدسة سيمحو كل تبعة عن أوزاره ، وأثار ثائرته حزن كاترين دوقه مونبنسييه ، شقيقة الأخوين القتيلين جيز ، وحركة جمالها . فاشترى خنجراً ، وتسلل إلى معسكر الملك ، وطعنه فى بطنه ، فقتله الحراس ، ومات واثقاً من ثواب الجنة . أما هنرى فالوا فقد مات غداة طعنه (٢ أغسطس ١٥٨٩) وهو يتوسل إلى اتباعه أن يلزموا هنرى نافار . وانتشرت الفوضى فى جيش المحاصرين ، وتبدد أكثره ، وأجل الهجوم المقترح على باريس . أما فى داخل المدينة فقد بلغت فرحة الحلف وتابعيه حد الهذيان . ووضعت بعض الكنائس صورة الراهب فوق مذبحها (٩) ، وهلل الأتقياء لاغتيال الملك باعتباره أنبل عمل فى سبيل الله تم منذ تجسد المسيح (١٠) . واستدعيت أم كليمان من الريف ، فوعظت فى الكنائس ، واحتفل القوم بها بترتيل ترنيمة مقدسة : « طوبى للبطن الذى حملك ، وللثدى التى أرضعتك » (١١) .

٣ — الطريق إلى باريس (١٥٨٩ — ٩٤)

بلغ هنرى نافار الآن نقطة الحسم فى حياته . لقد وجد نفسه فجأة ،

بحكم القانون والتقليد ، ملك فرنسا ، ولكن نصف جنده تركوه بمثل هذه السرعة الفجائية تقريباً . أما النبلاء الموالون لهنرى الثالث فقد انطلقوا إلى ضياعهم ؛ واختفى معظم الكاثوليك الذين كانوا يحاربون فى جيشه . ورفض ثلثا فرنسا فكرة الملك البروتستنتى رفضاً باتاً . أما جماعة « السياسيين » فقد أسكتهم الاغتيالان برهة ؛ واعترف برلمان باريس بالكردينال بوربون ملكاً على فرنسا ؛ ووعد فليب ملك أسبانيا الحلف بذهب الأمريكتين ليحتفظ بفرنسا فى حظيرة الكاثوليكة . وكان التفسخ الذى أصاب إنتاج فرنسا وتجارتها قد جلب على البلاد من الدمار ما لم يبق لها معه إلا نشوة الحقد والكراهية القاتلة . وهو أمر لم يحزن فليب كثيراً .

كان محالا على نافار أن يهاجم مدينة كباريس تكن له العداء الشديد ، بجيش انفرط عقده وتقلص عدده . ومن ثم فقد عمد فى كفاية قيادية ، عطلتها خليلاته أكثر مما عطلها العدو ، إلى سحب قواته إلى الشمال ليتلقى المعونة من انجلترة ، وتبعه ماين بما أتاحت له بدانته من سرعة . والتقى الجيشان عند آرك جنوبى دييب مباشرة ، وعدة جيش هنرى ٧,٠٠٠ ، وجيش ماين ٢٣,٠٠٠ (٢١ سبتمبر ١٥٨٩) . ونستطيع أن نفهم نتيجة المعركة من رسالة هنرى إلى رفيقه فى السلاح كريون ، « اشنق نفسك أيها الشجاع كريون ، لقد خضنا المعركة عند آرك ، ولم تكن أنت هناك » وشدد الانتصار من عزيمة أعوان هنرى السريين فى كل مكان . ففتحت عدة مدن أبوابها له مغتبطة ، واعترفت به جمهورية البندقية ملكاً ، أما البزابث ، التواقة كالبندقية إلى الحيلولة دون سيطرة أسبانيا على فرنسا ، فقد أرسلت له ٤٠٠٠ جندى ، و ٢٢,٠٠٠ جنيه ذهبي ، و ٧٠,٠٠٠ رطل من البارود ، وشحنات من الأحذية ، والطعام ، والنبيذ ، والجعة . ورد فليب على هذا بارساله تجريدة من فلاندر إلى ماين . والتقى الجيشان المعززان عند إفرى على نهر أور فى ١٤ مارس ١٥٩٠ . ورشق هنرى فى خوذته ريشة شرف كبيرة بيضاء — لا يكاد المرء يسميها ريشة طائر

بيضاء — وقال لجنده « إذا فرقكم وطيس المعركة لحظة فتجمعوا تحت أشجار الكمثرى تلك التى ترونها على يمينى ، وإذا فقدتم أعلامكم فلا تغفلوا عن ريشتى البيضاء — ستجدونها دائماً فى طريق الشرف ، وفى طريق النصر أيضاً كما أرجو » . وقاتل فى المقدمة كما كان شأنه دائماً . وورم ذراعه الأيمن وتشوه سيفه من كثرة مقارعة العدو . وقد خدمه اشتهاره بالرأفة ، إذ استسلم له الآلاف من الجنود السويسريين الذين كانوا فى جيش ماين والذين لم تدفع لهم رواتبهم . وخلف انتصار هنرى الحلف بغير جيش ، فزحف على باريس دون مقاومة تقريباً ليحاصرها .

ومن مايو إلى سبتمبر ١٥٩٠ عسكر جنده الجائعون المفلسون حول العاصمة وهم يتحرقون شوقاً لمهاجمتها ونهبها ، ولكن صدهم عن هذا رفض هنرى الموافقة على مذبحة ربما كانت شراً من مذبحة القديس برتلميو ؛ وبعد شهر من الحصار كان الباريسيون يأكلون لحم الخيل والقطط والكلاب، ويغتذون بالعشب . ورق لهم قلب هنرى فسمح للأقوات بأن تدخـل المدينة . وجاء دوق بارما ، والى فليب على الأراضى المنخفضة ، لنجدة باريس بجيش حسن التجهيز من صناديد الاسبان ، وتقهقر هنرى إلى روان بعد أن غلبته مناورات العدو ، وتبعه بارما فى صراع الاستراتيجية . ولكن المرض أعجز الدوق ، وعاد جيش هـنرى يحاصر العاصمة من جديد .

وواجه الآن هذا السؤال الفاصل : أيستطيع ، وهو البروتستنتى ، أن يظفر بعرش بلد ٩٠ ٪ منه كاثوليك ، وأن يحتفظ بهذا العرش ؟ لقد كان الكاثوليك كثرة غالبة حتى فى جيشه . ولا ريب فى أنه لم يكن من همومه الصغيرة تناقص موارده المالية وعجزه عن دفع رواتب جنده بعد ذلك . ومن ثم دعا معاونيه واعترف لهم بأنه يفكر فى اعتناق الكاثوليكية، فوافق بعضهم على الخطة لأنها السبيل الوحيد إلى السلام ، وندد آخرون بها باعتبارها تخلياً قاسيا شائناً عن الهيجونوت اللذين أعطوه الدم والمال

أملا فى أن يكون لهم ملك بروتستنتى . هؤلاء أجابهم هنرى بقوله : « لو اتبعت نصيحتكم لما بقى فى فرنسا بعد قليل ملك ولا مملكة . أريد أن أمنح السلام لرعاياى والراحة لنفسى . فتشاوروا فيما بينكم ماذا تريدون ضماناً لأمنكم . وأنا على الدوام مستعد لإرضائكم [١٢] » . ثم قال « ربما لم تكن شقة الخلاف بين المذهبين واسعة إلا لما بين المبشرين بهما من حقد وعداء . وسأعمل يوماً باستعمال سلطتى على أن يستقيم هذا الأمر كله » . [١٣] ثم حدد صلب عقيدته بقوله « إن الذين يتبعون ضميرهم دون عوج هم على دينى ، وأنا على دين كل إنسان شجاع طيب [١٤] » . وهجر دوبليسى — مورنيه ، وأجريبا دوبنيه ، وكثير من زعماء البروتستنت الآخرين الملك ، ولكن الدوق صلى ، أصدق مستشارى هنرى ، الذى ظل بروتستنتيا وفياً ، وافق على قرار مولاه « أن باريس تستأهل قداسا [١٥] » (*) .

ففى ١٨ مايو ١٥٩٣ أرسل هنرى إلى البابا واكليروس باريس يبدى رغبته فى أن يدرس العقيدة الكاثوليكية . وكان جريجورى الرابع عشر قد جدد حرمه . ولكن الاكليروس الفرنسى الذى لم يذل أبداً لروما تأهب لإعداد التائب الجديد لأن يكون ملكا تقيا . على أنه لم يكن بالتلميذ السهل القياد . فهو يرفض أى تعهد بأن يشن حربا على الهرطقة ، وهو يأبى أن يوقع أو يؤمن بـ « هراء هو واثق كل الثقة من أن أغلبهم لا يؤمنون به [١٦] » ، ولكنه وافق فى سماحة على عقيدة المطهر لأنها « أعظم مصادر دخلكم [١٧] » . وفى ٢٥ يوليو كتب لخليلته آنذاك « سأقفز القفزة الخطرة » ثم ذهب إلى كنيسة دير سان دنيس ، واعترف ، ونال الغفران ، واستمع إلى القداس .

ورماه الآلاف فى المعسكرين بالنفاق . وأنكر اليسوعيون كثلكته وواصل زعماء الحلف مقاومتهم . ولكن موت دوق بارما والكردينال بوربون كان قد أوهن قوة الحلف ، وفقدت حكومة الستة عشر منزلتها فى أعين الوطنيين الفرنسيين لتأييدها خطة فليب الرامية إلى جعل ابنته ملكة

(*) **Paris vaut bien une messe**

على فرنسا . ومال كثير من النبلاء إلى هنرى بوصفه القائد الحربى الكفيل بكبح جماح فليب ، والحاكم الرحيم الذى يستطيع أن يرد العافية إلى وطن استشرت فيه الفوضى حتى كادت تمزق أوصاله . وأعربت مجسلة ذكية تدعى « سانير منيبيه » (١٥٩٣ — ٩٤) عن عواطف جماعة « السياسيين » والبورجوازيين ، وسخرت فى ظرف وتهكم باليسوعيين والحلف ، وأعلنت أنه « ما من سلام بلغ من الظلم ما يجعله لا يرجح أكثر الحروب عدلا[٨] » . وطلب الجميع السـلام فى شوق ، حتى باريس المتعصبة . واستمرت الاشتباكات الصغيرة ثمانية شهور أخرى ، ولكن فى ٢٢ مارس ١٥٩٤ ، زحف هنرى إلى باريس ودخلها ولم يكد أحد يعترضه ، وعظم ترحيب الجماهير به حتى أنه حين أراد أن يدخل نوتردام لم يكن بد من رفعه فوق الرءوس . وثبت ملكاً فى ذلك اللوفر ذاته ، الذى كان فيه قبل اثنين وعشرين عاماً سجيناً قاب قوسين من الموت ، واستسلم للبهجة والفرح ، فأصـــدر بطريقته المرحة ، عفواً عاماً شمل حتى آل جيز وحكومة الستة عشر . واكتسب بعض أعدائه بالغفران عنهم دون تردد وبالمجاملة السمحة الكيسة ورشا البعض بمال اقترضه .

على أنه لم يكسب الجميع إلى صفه . ففى ليون اشترى بيير باربير مدية وشحذها ثم شد رحاله إلى باريس معلنا نية اغتيال الملك . فقبض عليه فى ميلون وشنق دون إبطاء . وقال هنرى « وا أسفاه ، لو علمت بالأمر لعفوت عنه . » وأرسل البابا كلمنت الثامن للملك حل الكنيسة ، ولكن اليسوعيين واصلوا مهاجمته فى مواعظهم . وفى ٢٧ ديسمبر هجم فتى فى التاسعة عشرة يدعى جان شاتيل على الملك بخنجر ولكن لم يصبه بأسوأ من قطع فى شفته وكسر فى سنه . ومرة أخرى رأى هنرى العفو عن هـــذا المتعصب ، ولكن رجال السلطة أوقعوا بشاتيل كل أنواع التعذيب التى نص عليها القانون ضد قتلة الملوك . وقد اعترف الرجل فى كبرياء برغبته فى قتل الملك لأنه زنديق خطر ، وأعلن استعداده لبذل محاولة أخرى فى

سبيل خلاص نفسه . وقال فى اعترافه إنه تلميذ لليسوعيين ، ولكنه أبى أن يورطهم بأكثر من هذا فى مغامرته . وقد رويت عن اليسوعى الأسبانى خوان دماريانا (الذى سنلتقى به ثانية) عبارات وافق فيها على اغتيال الملوك الفاسدين ، لا سيما هنرى الثالث ، وتبين أن اليسوعى الفرنسى جان جينار كتب يقول إنه كان من الواجب قتل هنرى الرابع فى مذبحة القديس برتلميو ، وإذن يجب التخلص منه الآن « بأى ثمن وبأية طريقة[١٩] » . وفى بواكير عام ١٥٩٥ أمر برلمان باريس اليسوعيين بالرحيل عن فرنسا بناء على التماس من الاكليروس العلمانى فى السوربون .

٤ — الملك الخلاق : ١٥٩٤ — ١٦٠٠

تبين هنرى أن مهمة التعمير أشق من قهر القوة المسلحة . ذلك أن اثنين وثلاثين عاما من « الحروب » الدينية ، خلفت فى فرنسا من الخراب والفوضى ما خلفته حرب المائة عام فى القرن السابق . فبحرية فرنسا التجارية كادت تختفى من البحار ، وقد بلغ عدد البيوت التى دمرت ثلثمائة ألف ، وأعلن الحقد تعطيله للفضيلة ، وسمم فرنسا بشهوة الانتقام . وأغار الجنود المسرحون على الطرق والقرى سرقة وتقتيلا وتآمر النبلاء ليفرضوا استرداد سيادتهم الاقطاعية ثمنا لولائهم للملك ، وكانت الأقاليم التى طال تركها معتمدة على مواردها تقسم فرنسا إلى دويلات مستقلة ذاتيا ، وكان الهيجونوت يطالبون بالاستقلال السياسى والحرية الدينية ، والحلف لا يزال يحتفظ بجيش فى الميدان ؛ واشترى هنرى قائدهماين بالمال فارتضى الهدنة ثم الصلح فى النهاية (يناير ١٥٩٦) . وبعد أن وقعت الشروط ، اصطحب هنرى الدوق البدين فى مسيرة طويلة جعلته يلهث إعياء ، ثم أكد له أن هذا هو انتقامه الوحيد منه[٢٠] . ولما تزعم أحد قواده المدعو شارل جونتو ، دوق بيرون ، مؤامرة ضده ، عرض عليه هنرى العفو إذا اعترف ، ولكنه أبى ، فأمر بمحاكمته ، وأدين بالجريمة وقطع رأسه

(١٦٠٢) . وأدركت فرنسا الآن أن نافار ملك . وسمح له شعب فرنسا الذى أرهقته الفوضى — بل توسلت إليه طبقات رجال الأعمال — أن يجعل ملكية البوربون الجديدة مطلقة السلطان . لقد كانت الاستبدادية الملكية نتيجة للحرب الأهلية فى فرنسا بينما كانت فى إنجلترا سببا لها .

وجبى هنرى الضرائب لأن حاجة الحكومة الأولى كانت للمال . أما مجلس المالية الموجود فقد انبعث منه من نتن الرشوة والفساد قدر أكثر من المألوف . وولى هنرى صلى الجرىء رياسة المالية ، وأطلق يده فى تنقية الهواء واخلاء الطريق بين ما يدفعه الشعب من الضرائب وما يصل منها إلى الخزانة . كان مكسمليان بتون ، بارون روزنى ، دوق صلى ، صديق هنرى الوفى مدى ربع قرن ، قد قاتل جنبا إلى جنب مع هنرى خلال أربعة عشر عاما ؛ وهاجم الآن — وهو بعد فى السابعة والثلاثين — الموظفين المختلسين عديمى الكفاية بهمة لا تعرف الكلل ، حتى أصبح أعظم أعضاء مجلس الملك قيمة وأقلهم شعبية . وصورته التى رسمها له دمونستيه معروضة فى اللوفر ، يطالعنا فيها رأس كبير وجبين عريض وعينان مرتابتان حادتان . ها هنا العبقرية العملية التى لا غنى عنها لكبح الروح الرومانسية لملك شغله لعب دور كازانوفا عن لعب دور شارلمان كاملا . وجعل صلى من نفسه الحارس الرقيب على الإدارة الحكومية . وإذ كان مديرا للمالية والطرق والمواصلات والمبانى العامة والتحصينات والمدفعية ، ومأمورا للباستيل ، ومشرفا عاما على باريس ، فقد وجد فى كل مكان ، واشرف على كل شىء ، وأصر على الكفاية والاقتصاد والنزاهة ، وقد عكف على العمل خلال كل ساعات يقظته . وعاش عيشة التقشف فى حجرة بسيطة على جدرانها صور لوثر وكالفن . ثم رعى مصالح إخوانه الهيجونوت ، وثبت العملة ، وأعاد تنظيم البيرقراطية وهذبها ، وأكره لصوص الموظفين على أن يتقيأوا ما سرقوا . وقد استرد للدولة كل الأملاك والموارد التى تملكها الأفراد خلال الحروب . وألزم ٤٠٫٠٠٠ من المتهربين من الضرائب بدفع

ضرائبهم . وجد خزانة الدولة مدينة بمبلغ ٢٩٦٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه ، فسدد هذه الديون ، ووازن الميزانية ، وجمع فائضا بلغ ١٣٠٠٠٫٠٠٠ جنيه . وحمى وشجع كل نواحي الحياة الاقتصادية ، وبنى الطرق والكباري ، وخطط للقنوات الكبرى التي أزمعت أن تربط الأطلنطي بالبحر المتوسط ، والسين باللوار(٢١) . وأعلن أن جميع الأنهار الصالحة للملاحة جزء من الأملاك الملكية ، وحظر وجود العوائق فيها ، وأعاد من جديد تدفق السلع داخل البلاد .

واستطاع هنري أن يخلق فرنسا من جديد بمعونة وزراء أحسن اختيارهم كوزيره صلي . فرد للمحاكم و « البرلمانات » وظائفها وسلطتها الشرعية ، وإذا كان قد سمح للموظفين البيرقراطيين بتوريث مناصبهم لأبنائهم لقــاء ثمن يؤدونه ، فإن الدافع له لم يكن مجرد جمع المال ، بل كفالة استقرار الإدارة والنهوض بالطبقات الوسطى — ولا سيما رجال القضاء « نبالة الرداء » — ليكونوا مقابلا وموازنا للارستقراطية المعادية . وقد درس هذا الملك ، الذي كان فيه من الحرص على الحياة والعمل ما لا يسمح له بقراءة كتاب أوليفيه دسير المسمى «مسارح الزراعة» (١٦٠٠) — درس هذا الكتاب بعناية ، وفيه اقتراحات لأساليب زراعية أكثر علمية ، وأرسى هذه التحسينات في أراضي التاج لتكون نماذج وحوافز للفلاحين الخاملين . وكان يقول إنه يتوق لرؤية « دجاجة في كل قدر يوم الأحد » (٢٢) . وحظر على النبلاء أن يركبوا خيلهم فوق الكروم أو حقول الغلال وهم منطلقون إلى صيدهم ، ومنع غارات الجند على أراضي الفلاحين . وألغى عشرين مليون جنيــه من متأخرات الضرائب المستحقة على الفلاحين (ربما لأنه عرف أنه لن يستطيع جمعها أبداً) ، وخفض فرضة الرءوس من عشرين إلى أربعة عشر مليونا من الجنيهات . وسبق كولبير بحمايته الصناعات الموجودة بالرسوم الجمركية ، وإدخال الصناعات الجديدة كصناعة الخزف المصقول والزجاج وتربية دودة القز ، وزرع أشجــار التوت في حدائق التويلري وفونتنبلو ، وأمر بأن

يزرع منها عشرة آلاف فى كل أسقفية ، وأعان ووسع مصانـــع السجاد المرسوم التى يملكها آل جوبلان . ورغبة فى تفادى السياسات المقيدة التى فرضها معلمو الحرف على نقاباتهم ، أعاد تنظيم الصناعة الفرنسية على أساس تعاونى — فأصحاب العمل والعمال متحدون فى كل حرفة ، خاضعون للتنظيم الذى تفرضه الدولة . ولكن الفقر لم يبرح مخيما على البلاد ، من جهة بسبب الحرب والطاعون والضرائب ومن جهة لأن عدم التكافؤ الطبيعى فى القدرات ، وسط تساوى الجميع فى الجشع ، كفيل فى كل جيل بأن تستوعب قلة من الناس أكثر السلع . أما الملك فتوخى القصد فى عيشه ، إلا أن يسرف مع خليلاته . ورغبة فى شغل المتعطلين وتنقيـــة الريف من قدامى المحاربين العاطلين النهمين ، مول عددا كبيرا من الاشغال العامة المختلفة : فوسعت الشوارع ورصفت ، وشقت القنوات ، وغرست الأشجار على الطرق العامة ، وفتحت المتنزهات والميادين — كالبلاس رويال (وهو اليوم بلاس دى فوج) والبلاس دوفين — لتتيح لباريس متنفسا . وأنشأ الملك مستشفى المبرة للعجزة . ولم يكتمل نضج هذه الاصلاحات كلها قبل موته المفاجىء ، ولكن حينما ختم حكمه كانت البلاد تتمتع برخاء لم تشهده منـــذ أيام فرنسيس الأول .

وأهم من ذلك كله أن هنرى أنهى الحروب الدينية ، وعلم الكاثوليك والبروتستنت أن يعيشوا فى سلام . لافى مودة وصداقة ، لأن أحدا من غلاة الكاثوليك لم يكن ليسلم بحق هيجونوتى فى الوجود ، ولا كان أى هيجونوتى حار الإيمان لينظر إلى العبادة الكاثوليكيـــة إلا على أنها عبادة أصنام . وقد وضع هنرى حياته على كفه وأصدر (١٣ ابريل ١٥٩٨) مرسوم نانت التاريخى ، الذى أباح الممارسة الكاملة للعقيدة البروتستنتية ، ومنح الصحافة البروتستنتية حريتها ، فى جميع مدن فرنسا الثمانمائة إلا سبع عشرة مدينة كانت فيها الكاثوليكية المذهب الغالب (كما فى باريس) . وثبت مبدأ صلاحية الهيجونوت للمناصب العامة ، وكان منهم فى مجلس الدولة

اثنان فعلا ، وتقرر تعيين تورين الهيجونوتى مارشالا لفرنسا . كذلك تقرر أن تدفع الحكومة رواتب القساوسة البروتستنت ونظار المدارس البروتستنتية وأن يقبل الأطفال البروتستنت فى جميع المدارس والكليات والجامعات والمستشفيات كالأطفال الكاثوليك سواء بسواء . أما المدن التى كان يسيطر عليها الهيجونوت مثل لاروشيل ، ومونبلييه ، ومونتوبان — فتظل على حالها وتنفق الدولة على جامعاتها وحصونها . على أن الحرية الدينية التى منحت على هذا النحو كانت لا تزال ناقصة ، فهى لم تشمل غير الكاثوليك والبروتستنت ، ولكنها كانت أكثر ألوان التسامح الدينى تقدما فى أوربا . لقد اقتضى تحويل « جلالة الملك المسيحى جداً » ، إلى مسيحى حقا ، رجلا ذا عقيدة مشكوك فى سلامتها .

وتصايح الكاثوليك فى طول فرنسا وعرضها بالسخط على المرسوم زاعمين أن فيه حنثا بما تعهد به هنرى من تأييد لعقيدتهم . وندد به البابا كلمنت الثامن « كألعن ما يمكن تصوره ، منحت به حرية الضمير للجميع ، وهذا أسوأ شىء فى الوجود (٢٣) . » وأعلن الكتاب الكاثوليك من جديد بأنه يحل خلع الملك الزنديق أو قتله ، أما المؤلفون البروتستنت أمثال أوتمان ، الذين دافعوا عن سيادة الشعب إبان حكم هنرى الثالث ، فقد أطروا فضائل الاستبدادية — فى ملك بروتستنتى (٢٤) . وأبى برلمان باريس طويلا أن يختم المرسوم بخاتم التسجيل الرسمى الذى اقتضاه العرف حتى يصبح أى مرسوم ملكى قانونا مقبولا . ودعا هنرى الأعضاء ، وبين لهم أن ما فعله لم يكن عنه غنى للسلام ولتعمير فرنسا . فأذعن البرلمان ، وقبل ستة من الهيجونوت بين أعضائه .

وسمح هنرى لليسوعيين بأن يعودوا إلى فرنسا (١٦٠٣) ربما ليسكت المعارضة الكاثوليكية ويسترضى البابا . وعارض صلى بقوة هذه الخطوة ، وقال إن اليسوعيين « رجال نابغون ، ولكنهم شديدو الخبث والدهاء » ، وإنهم ملتزمون بقضية الهابسبورج ، ومن ثم بقضية خصمى فرنسا — أى

أسبانيا والنمسا ، وأنهم متعهدون بالطاعة العمياء للبابا وميالون إليها ، وهو ليس إلا سجينا جغرافيا للهابسبورج وتابعا ماليا لهم ، فهم لا محالة مملون على هنرى سياساته إن عاجلا أو آجلا ،فإن اخفقوا فسيقنعون أحد المتعصبين « بأن يقضى عليك بالسم أو بغيره . » وأجاب هنرى بأن مساندة اليسوعيين منكرين له عونا كبيرا على توحيد فرنسا ، وأن استمرار نفيهم وعدائهم أشد خطرا على حياته وسياساته من عودتهم إلى فرنسا(*) .وقبل اليسوعى بيير كوتون كاهن اعتراف له ، ووجده انسانا لطيفا وفيا ، ثم فرغ بعد ذلك لحكم فرنسا ولزعازع الحب العائلية .

٥ — زير النساء

فى متحف كونديه بشانتيي لوحه شائقة رسمها فرانس بوربى الابن ، يبدو فيها هنرى فى عنفوان قوته وعزته . رشيق البنية ، بسيط الملبس فى سراويل منفوخة وصدرة وجوارب سوداء ، ذراعه اليسرى على خاصرته ، وتحت لحيته الشيبـــاء طوق مكشكش ، ثم أنف أشم ، وفم حازم ، وعينان فيهما تيقظ وتشكك ورحمة . ولقد خلعت عليه سنو الحملات الطوال مشية الجندى وخلقه وريحه : فهو قوى نشيط لا يكل ، له من شواغله ما يمنعه من الاسراف فى النظافة أو من تغيير ملابسه حين يجب تغييرها ؛ قال صديق إنه كان أحيانا «تفوح من جسده رائحة خبيثة كأنه الجيفة (٢٥)» ؛ كان بعد يوم من السير أو القتال يفاجئ معاونيه بتنظيم رحلة صيد . إنه مضرب المثل فى بسالته ، ولكن أمعاءه تجنح إلى الأسهال إذا دنت المعركة (٢٦)، وقد عانى فى السنين السبع الأخيرة من حياته من الدوسنتاريا وعسر البول والنقرس . أما ذهنه ففى نشاط جسده ومرونته . وهو سريع فى تبين الزيف والهراء ، يلتقط لب الأمور للتو والســاعة ، ويكتب الرسائل التى لا تزال تنبض بالحياة ، ويشرح بظرفه صدر فرنسا

(*) مذكرات صلى ، ١٠ — ١١ . ولا سبيل الى التحقق من صحة رواية هـذا الحديث الخاص .

والتاريخ . حين عين لافيوفيل فى أحد المناصب قال الرجل متمثلا بعبارة وردت فى الإنجيل « مولاى ، لست مستحقا » أجاب هنرى « أعلم ذلك جيدا ، ولكن ابن أخى طلب إلى أن أعينك »[٢٧] . وذات يوم اعترضه صاحب حاجة وهو فى طريقه إلى الغداء وبدأ يقول فى لغة طنانة « مولاى الملك ، ان أجيسيلا ، ملك لاكيديمون — » وقال هنرى وهو يئن « ويحك ! لقد بلغنى نبؤه ، ولكنه كان قد تغدى ، أما أنا فلم أفعل »[٢٨] . يقول مؤرخ فرنسى « لقد كان أذكى ملك أنجبته فرنسا » .

ثم كان أحبهم إلى الناس . لم يكن بعد أكثرهم شعبية ، لأن نصف فرنسا مازال يقبله على مضض ، ولكن الذين عرفوه معرفة حميمة كانوا لا يترددون فى أن يساقوا إلى الموت حرقا من أجله ، وبعضهم يفعل وهو آخذ كل شيء فى اعتباره ، فهو أقرب الحكام منالا ، لا ادعاء فيـــه ولا غرور ، يرسل نفسه على سجيتها ، طيب القلب ، بطيء الغضب ، سريع العفو دائما . شكت حاشيته من كرهه للظهور فى أبهة الملوك . وسمح للشعراء وكتاب المسرحيات بالسخرية منه ، وان أعجبه أكثر أن يمثله ماليرب ربا للفضيلة والحسن . وكان يذهب للتفرج على الهزليات التى تهجوه ، ويوهن من شرها بضحكه . ولم ينتقم ممن عارضوه بالقول أو الفعل « لو اننى شنقت كل من كتبوا أو وعظوا ضدى لما وجدت فى كل غابات مملكتى ما يكفيهم من المشانق[٣٠] » . كان له حساسية الشاعر ، فهو يحس فقر الشعب برهافة إحساسه بجمال النســـاء . لم يكن رواقيا ، فالتحكم فى عواطفه ليس من شيمه ؛ كانت له عيوبه الكثيرة ، فقد يكون وقحا دون قصد ، أو جلفا فى مرح وابتهاج . وكانت تسكنه روح رابليه ، فهو يستمتع بالقصص المكشوفة ويرويها بطريقة لا تبارى . يسرف فى لعب الورق ، ويخسر المبالغ الكبيرة ، ويغش أحيانا كثيرة ، ولكن يرد مكاسبه الحرام دائما[٣١] . وكان يهمل مطاردة عدو متقهقر ليطارد امرأة متقهقرة .

ولا حاجة بنا لأن نعدد غرامياته كلها . على أن ثلاث نساء على الاخص كن معالم طريقه إلى العرش . إنه يكتب الرسائل الغرامية الملتهبة إلى « كوريساند الجميلة » ويقول فى احداها « إنى ألثم يديك . . . وأقبل قدميك مليون مرة . . . انها لبقعة مقفرة حقاً تلك التى تحل فيها وجودنا معا[٣٢] » . ولكن لم يأت عام ١٥٨٩ حتى كان قد ملها ، واكتشف استر امبير دبوالامبير . وبعد عام ، حين كان فى السابعة والثلاثين ، ودون أن يعوقه مرض السيلان[٣٣] ، وقع فى غرام جابرييل دستريه ، وكانت يومها فتاه فى السابعة عشرة ، خلع عليها أحد الشعراء « الشعر الذهبى ، وعيون النجوم ، ونحر الزنبق ، وأصابع اللؤلؤ ، وثدى المرمر[٣٤] » . وصف حبيبها بلجارد فى لحظة طيش مفاتنها للملك فعدا هنرى بفرسه اثنى عشر ميلا وهو متنكر يشق أرض العــدو ليراها . وضحكت على أنفه الطويل ، ووقع عند قدميها ، وانسحب بلجارد . واستسلمت هى لسحر المال والملك ، وولدت لهنرى ثلاثة أطفال . وكان يأخذها لبلاطه وفى رحلات صيده ، ويعانقها علنا ، ويفكر فى الزواج منها إذا ارتضت مارجو طلاقه . وتضافر الوعاظ الهيجونوت والكاثوليك فى التنديد به زانيا ضالا ، ووبخه صلى الشجاع على تبديده أموال الدولة على محظياته . فطلب المغفرة معتذرا بأنه وقد جاهد هذا الجهاد فى الحرب والحكم ، وأخفق هــذا الاخفاق فى الزواج ، فإن له ما لكل جندى من الحق فى شيء من الترفيه[٣٥] . وأقام على حب جابرييل ثمانى سنين بكل الافتتان الذى فى طاقة روح شديدة التقلب والتنقل . ولكن جابرييل غدت بدينة حريصة على الاقتناء . وراحت تدس لصلى ، وتدعوه « التابع » ، وقال لها هنرى فى غيظه إن وزيرا مثله أثمن فى نظره من عشر محظيات مثلها ؛ ثم لان وعاد إلى حديث الزواج منها ، ولكنها ماتت فى ١٠ أبريل ١٥٩٩ وهى تلد طفلا ميتا . وبكاها بكاء مرا وكتب يقول : « لقد ماتت نبتة الحب التى فى باطنى[٣٦] » .

ولكن النبوءة انتعشت بعد شهرين حين التقى بهنرييت دنتراج ، ابنة ماري توشيه ذاتها التي كانت خليلة شارل التاسع . ونها ا أبوها وأمها وأخوها لأبيها أن تستسلم إلا لخاتم الزواج ، فكتب لها هنري تعهدا بالزواج مشروطاً بأن تنجب له ولدا ، ولكن صلى مزقه أمامه ، فكتب هنري تعهدا آخر وسلمه لها مع عشرين ألف كراون . وبرئ ضمير السيدة وأصبحت محظية الملك . ورأى بعض دبلوماسييه أنه قد آن له أن يستقر . فأقنعوا مارجو بقبول الطلاق شريطة ألا يتزوج هنري من خليلته . ووافق البابا كليمان الثامن على منح الطلاق بنفس الشروط ، واقترح ماريا مديتشي ابنة دوق توسكانيا الكبير عروسا لهنري ، واقترح المصرفيون والفلورنسيون إلغاء دين فرنسا الضخم لهم إذا جعل هنري ماريا مليكته(٣٧). واحتفل بالزواج غيابيا في فلورنسة (٥ أكتوبر ١٦٠٠) . وانتزع هنري نفسه من ساحة قتال ليذهب إلى ليون ليحيي زوجته ، ووجدها طويلة بدينة متعجرفة ، وبذل لها كل مجاملة ملكية ، وأنجب منها لويس الثالث عشر ثم عاد إلى الآنسة دنتراج على أنه كان يقوم بواجباته الزوجية بين الحين والحين . وأنجبت له ماري دمديسي (كما كانت تسميها فرنسا) سبعة أطفال في عشر سنين . ورباهم هنري ، مع أبنائه من جابرييل وهنرييت ، في سان — جرمان — أن — لي .

وقدمت هنرييت إلى الملكة ، واسكنت قصرا بقرب اللوفر ، ولكنها بعد أن ولدت للملك ولدا أصرت على أنها هي ، لا ماري ، الملكة الشرعية . وتآمر أبوها وأخوها لأبيها ليخطفاها هي وابنها إلى أسبانيا ويجعلا فليب الثالث يعترف بالغلام « الدوفين » الشرعي لفرنسا (١٦٠٤) . واكتشفت المؤامرة وقبض على الأخ ، وأفرج عن الأب حين رد تعهد هنري بالزواج . وواصل هنري مطاردته لهنرييت كأنه الزير الجائع . وكانت تقابل ملاطفاته بالاشمئزاز والكراهية ، وتقبل الرشا من فليب الثالث ثمنا لتجسسها لحساب أسبانيا(٣٨) .

٦ — مصرعـــه

وسط هذه السخافات التى لا تصدق خطط الملك لكسر الحصار الذى طوق آل هابسبورج فرنسا به — ذلك النطاق الحديدى المؤلف من الأراضى المنخفضة ، ولكسمبورج ، واللورين ، وفرانش كونتيه ، والنمسا ، والممرات الفالتيليه ، وسافوى ، وإيطاليا ، وأسبانيا . وزعم صلى فى مذكراته أنه اقترح على هنرى وجيمس الأول ملك إنجلترة « خطة عظمى » تتحد بمقتضاها فرنسا ، وإنجلتره ، واسكتلنده ، والدنمرك ، والسويد ، والأقاليم المتحدة (هولنده) ، وألمانيا البروتستنتية ، وسويسرة ، والبندقية ، ضد الهابسبورج ، وتنتزع أمريكا من أسبانيا ، وتحرر ألمانيا من ربقة الامبراطور ، وتطرد الأسبان من الأراضى المنخفضة ، ثم يقسم المنتصرون كل أوربا — فيما عدا الروسيا وتركيا وإيطاليا وأسبانيا — إلى « جمهورية مسيحية » فدرالية من خمس عشر دولة مستقلة ذاتيا ، يتجر بعضها مع البعض دون رسوم جمركية ، وترفع سياساتها الخارجية إلى مجلس فدرالى مسلح بقوة عسكرية عليا[٣٩] . أما هنرى فيبدو أن الفكرة الفخمة لم تخطر بباله قط ؛ ولعل قصارى ما حلم به أن يمد فرنسا إلى « حدود طبيعية » عند الرين ، وجبال الألب ، والبرانس ، والبحر ، وأن يحررها من الخوف من أسبانيا والنمسا . وفى سبيل هذه الأهداف كان يلجأ إلى أى وسيلة متاحة له : فسعى إلى عقد الأحلاف مع الدول البروتستنتية ، وساعد الهولنديين فى ثورتهم على أسبانيا ، ودبر تأييد ثورة يقوم بها المسلمون فى بلنسيه ، وشجع الترك على مهاجمة النمسا[٤٠] .

وأتاح نزاع تافه إشعال شرارة هذا العـــداء البوربونى — الهابسبورجى ليصبح حربا أوربية . ذلك أن الدوق جون وليم ، حاكم إمارة ييليش — كليفس — بيرج الثلاثية الصغيرة القريبة من كولونيا ، مات فى ٢٥ مارس ١٦٠٩ دون أن يعقب . وادعى الامبراطور رودلف ، بوصفه الســـيد الاقطاعى الأعلى للامارة ، أن له الحق فى تعيين كاثوليكى لهذا العرش

الصغير . واحتج هنرى بأن المزيد من اخضاع الدوقية للهابسبورج سيعرض حدود فرنسا الشرقية للخطر . وانضم إلى براندنبورج والبالاتينات والأقاليم المتحدة فى تصميمها على تعيين خلف بروتستنتى لجون وليم ، فلما احتل الأرشيدوق ليوبولد النمسوى يوليش بالجيوش الامبراطورية اتخذ هنرى أهبته للحرب .

وتوافق غرامه الأخير توافقا مثيرا مع الدعوة إلى هذه المعركة الفاصلة الكبرى . ذلك أنه برغم بلوغه السادسة والخمسين وما بدا عليه من اكتهال أحس تدريجا فى ١٦٠٩ بحنين طاغ لشارلوت مونمورنسى ذات الستة عشر ربيعا . وتأبت عليه ، ولكنها قبلت أمره بأن تتزوج أمير كونديه الجديد . وروى أن خليلته هنرييت وبخته ساخرة بقولها « ألست شريراً جداً لأنك تريد أن تضاجع زوجة ابنك ؟ فأنت عليم بأنك أخبرتنى بأنه (أى الأمير) ولدك . » وهرب كونديه بعروسه إلى بروكسل ، وتحرق هنرى شوقا إلى مطاردتها ، ونظم ماليرب هذا التحرق شعرا . والتمس فيلروا وزير خارجية هنرى من الأرشيدوق البرت حاكم الأراضى المنخفضة أن يعيد الأميرة إلى باريس ، ولكن الأرشيدوق رفض بتشجيع من فليب الثالث ملك أسبانيا . وهدد فيلروا بحرب « قد تشعل نارا فى أربع أركان العالم المسيحى[٤٢] » . وبدا لهنرى أن من توفيق العناية أن تقع بروكسل فى الطريق إلى يوليش : فهو إذن قاهر هذه السيدة — والأراضى المنخفضة الأسبانية — تمهيدا لتحطيم الامبراطورية واذلال أسبانيا . واستأجر المرتزقة السويسريين واستعد لجمع جيش عدته ثلاثون ألف مقاتل . ووعده جيمس الأول ملك إنجلتره بأربعة آلاف آخرين .

وروعت فرنسا الكاثوليكية ، فقد أسرفت فى تصديق الشائعات التى تواترت بأن مفاتن الأميرة هى سبب الحرب الحقيقى ، وأفزعها أن يكون حلفاء الملك وقواده أكثرهم من البروتستنت ، وتساءلت ماذا عساه يكون مصير الكاثوليكية والبابوية فى أوربا إذا انهزم جنوبها الكاثوليكى

على يد شمالها البروتستنتى ، وعلى يد ذلك الملك الذى كان بالأمس القريب هيجونوتيا . وهبطت الضرائب المفروضة لتمويل هــذه الحرب المرهوبة بشعبية هنرى ، وهى أبدا قلقة لا ثبات لها ؛ وحتى بلاطه تحول عنه لأنه رأى فيه رجلا أعماه الحمق عن أن يدرك أنه لم يعد فى طاقته أن يجمع بين لوثاريو والاسكندر فى شخصه . وأرجفت التنبؤات بأنه مقتول عما قريب — وربما كانت تحريضات مشجعة لمن يتأثرون بها .

وسمع فرانسوا رافاياك بهذه التنبؤات ، وكان موطنه انجوليم . وقد أطال التأمل فى سجنه الذى أودعه لجريمة لم يقترفها ، ورأى الرؤى ، ودرس اللاهوت ، وقرأ الكتيبات التى تدافع عن قتل الطغاة . وإذ كان قوى الذراع ، ضعيف العقل ، فقد راح يداعب هذه الفكرة ، وهى أن الله اختاره لتحقيق التنبؤات ولانقاذ فرنسا من مصيرها البروتستنتى . فلما أفرج عنه انطلق إلى باريس (١٦٠٩) ، ونزل عند مدام دسكومان ، وهى صديقة لهنرييت دنتراج ، واعترف لها بأنه يفكر فى قتل الملك . وأرسل تحذير لهنرى ، ولكنه كان قد ألف مثل هــذه الأنذارات إلفا جعله لا يعبأ بالتحذير . وبينما كان يخترق الشوارع حاول رافاياك أن يقترب منه ، وأوقفه الجند ، فقال إنه يريد أن يسأل الملك أصحيح أنه يدبر الحرب على البابا ، وأن الهيجونوت يستعدون لذبح الكاثوليك . ثم حاول أن يدخل ديرا وينضم إلى اليسوعيين ، ولكن طلبه رفض . فعاد إلى أنجوليم ليقوم بواجبه فى الفصح ، وتناول القربان ، وتسلم من أحد الرهبان حقيبة صغيرة قيل له إنها تحتوى على شظية من الصليب الذى مات عليه المسيح . واشترى مدية ، ثم عاد إلى باريس . وأرسلت مدام دسكومان تحذيرا إلى صلى فابلغ الملك به .

وكان هنرى يتأهب للحاق بجيشه فى شالون . ففى ١٣ مايو ١٦١٠ عين الملكة وصية خلال غيابه . وفى اليوم الرابع عشر رجاه ابنه غير الشرعى ، دوق فاندوم ، ألا يبرح بيته لأن التنبؤات بمقتله حددت هذه

اليوم نهاية لحياته . وفى العصر قرر أن يخرج فى نزهة بعربته ، وأن يزور صلى المريض ، ويستمتع بـ « نسمة هواء . » وتفاديا لانتباه الناس صرف حرسه ، ولكن كان يرافقه سبعة من الحاشية . واقتفى رافاياك أثر العربة وكان يراقب اللاوفر . وعند نقطة فى شارع فيرونيرى وقفت العربة لتشابك فى المرور . وهنا قفز رافاياك على سلمها وطعن الملك طعنة نجلاء بلغ من عنفها أن السلاح اخترق قلبه ، فمات هنرى للتو تقريبا .

وتحمل رافياك وزر جريمته كاملا حين عذب ، وأنكر أن له محرضين أو شركاء ، وأسف على عنف فعلته ، ولكنه صرح بثقته بأن الله غافرها كما يغفر للمذنبين فى سبيل قضية مقدسة . ومرقت أربعة جياد أوصاله ، وأحرق جذعه فى ميدان عام . واتهم الكثير من اليسوعيين بأنهم ألهبوا عقل القاتل ، وقيل إن كتاب ماريانا عن الملكية « دى ريجى » الذى يبرر قتل الطغا كان يباع علناً فى حوانيت باريس . ورد اليسوعيون بأن هــذا الكتاب شجبه صراحة مجمع لليسوعيين عقد بباريس عام ١٦٠٦ . وحكمت السوربون على اليسوعيين بأنهم مســئولون عن التعاليم الخطرة وأحرقت كتاب ماريانا رسمياً(٤٢) . أما مارى مديسى فقد حمت اليسوعيين من الأذى بصفتها وصية ، وقبلت ارشادهم فى الإيمان والسياسة .

وأصاب فرنسا الاضطراب والفرقة لمشروع هنرى الأخــير وموته المفاجئ . وارتضت قلة هذا الاغتيال على أنه عمل إلهى فى سبيل الدفاع عن الكنيسة . ولكن الكثرة العظمى ، من الكاثوليك والبرتستنت على السواء ، ناحت على ملك رجحت جهوده من أجل شعبه أخطاءه وحماقته وذنوبه رجحاناً كبيراً . ولم يكن قد غاب عن ذاكرة الفرنسيين كل ما ورثه مع العرش من فقر وخراب ، ومن اضطراب دينى ، ومن فساد وعجز حكوميين ؛ لقد رأوا الآن أمة نظيفة منظمة ، غنية برغم الضرائب المرتفعة ، لها من القوة ما يتيح لها أن تتحدى السيادة الأسبانية الطويلة . وذكروا فى حنين ما طبع عليه هنرى من بساطة فى الملبس والمسلك والحــديث ،

وذكروا روحه المرحة وطبيعته الرقيقة ، وبسالته المبّهجة فى الحرب ، وكياسته فى الصداقة والدبلوماسية ، وأغضى تراخيهم الخلقى عن تلك المغامرات الغرامية التى لم يبد فيها إلا رجلا على هواهم . لقد وصف نفسه بحق بأنه « ملك وفى ، أمين ، صادق[44] » ، ولكنه كان إلى ذلك أعظم ملوك فرنسا إنسانيه ورحمة ، ثم إنه كان منقذ فرنسا . ربما بدت خطته فى الوصول بفرنسا إلى حدودها الطبيعية أمراً غير عملى ، ولكن ريشليو اتبعها بعد عشرين عاماً ، ثم حققها لويس الرابع عشر بعد ذلك . ولم يمض طويل زمن على موته حتى أجمعت أوربا على تلقيبه بهنرى الأكبر . وفى الثورة الفرنسية أدين جميع الملوك الفرنسيين من خلفائه ، إلا هنرى الرابع ، فقد ظل يتربع المكان الأول فى قلب الشعب .

الفصل الخامس عشر

ريشليــو

١٥٨٥ — ١٦٤٢

١ — بين ملكين : ١٦١٠ — ٢٤

خلف موت هنرى الرابع المفاجئ فرنسا فى فوضى متجددة ، تأصلت جذورها الكثيرة فى صراع النبلاء مع الملكية ، والطبقات الوسطى مع الاستقراطية ، والكاثوليك مع الهيجونوت ، والاكليروس مع الدولة ، والملك الصغير لويس الثالث عشر مع أمه ، وفرنسا مع النمسا وأسبانيا . أما ذلك العبقرى الساحر ، الجبار ، الذى أحال كل هذه الفوضى نظاما ، وهزم الرجعية الاقطاعية ، وهدأ ثورة الهيجونوت ، وأخضع الكنيسة للدولة ، وأنقذ ألمــانيا البروتستنتية من الانهيار ، وكسر شوكة الهابسبورج المحدقين بفرنسا ، ورفع الملكية الفرنسية إلى سلطانها المطلق فى الداخل وإلى أسمى مقام فى أوربا — هذا الرجل كان قسيسا كاثوليكيا ، وكان أعظم السياسيين فى تاريخ فرنسا ، وأشدهم دهاء ، وأقساهم قلبا .

إن بعض مأساة هنرى أن وريثه لويس الثالث عشر كان عند موته غلاما فى الثامنة لا حول له ولا قوة . وأن الأرملة التى ترك لها الوصاية عليه كانت امرأة فاقت شجاعتها ذكاءها ، على استعداد لتسليم الحكم لمحاسيبها الايطاليين ما دامت تستمتع بلذائذ الحياة فى وفرة عارمة . فتخلت عن خطة هنرى فى حرب تشن على الهابسبورج حتى الموت ، بل إنها على العكس ألفت بين فرنسا وأسبانيا بتزويج أبنائها من أبناء فليب الثالث — فزوجت ابنها لويس لآن النمسوية ، وابنتها اليزابيث للفتى الذى أصبح فيما بعد فليب الرابع . على أن إرادة ريشليو ستكون أقوى من هذا الدم المخلط .

ترك هنرى وصلى ٠٠٠ ر ٣٤٥ ر ٤١ جنيـــه في خزانة الدولة . والتف كونشينو كونشيني ، وزوجته ليونورا جاليجاى ، ودوق ابيرنون ، وغيرهم من أفراد الحاشية المتعطشين للمال، التفوا حول هذا الكنز واستعدوا للاجهاز عليه . وعارض صلى ولكنه غلب على أمره ، فاستقال ساخطا ، واعتكف فى ضياعه يكتب المذكرات عن مليكه المحبوب .

ورأى النبلاء فى عجز الحكومة المركزية وفسادها الفرصة لاسترداد سيادتهم الاقطاعية القديمة . فطالبوا بدعوة مجلس الطبقات ظنا بأنه سيكون، كما كان من قبل صوتهم وسلاحهم ضد الملكية ، وأجيب الطلب . ولكن حين التام شمل المجلس بباريس فى أكتوبر ١٦١٤ ، أقلقتهم قوة الطبقة الثالثة ومقترحاتها — هذه الكتلة الشعبية المجردة من النبالة والكهانة ، الممثلة يومها كما هى ممثلة اليوم فى المحامين ، والمعبرة عن قوة الطبقة الوسطى ورغباتها . أما النبلاء والاكليروس الذين وضعوا عراقة الأصل ومسحة الكهانة فوق الثروة والقانون، فقد تحدوا نظام توريث المناصب القضائية الحديث ، وهو نظام آذن بخلق نبالة قضائية منافسة . وردت الطبقة الثالثة بطلب التحقيق فى المنح والمعاشات العريضة التى تلقاها النبلاء مؤخرا من الحكومة ، وطالبت باصلاح ما فسد فى الكنيسة ، وعارضت فى أن تطبق فى فرنسا الأوامر الصارمة التى أصدرها مجمع ترنت ، وطالبت بأن يخضع رجال الدين للقوانين والمحاكم التى يخضع لها العلمانيون ، وبأن تفرض القيود على اقتناء الكنيسة المعفاة من الضرائب مزيدا من العقارات ، وبألا يتقاضى القساوسة أجراً على قيامهم بشعائر العماد والزواج والدفن ، وأخيرا دافعت عن سلطة الملك وحقه الإلهى ضد دعاوى النبلاء فى حق الهيمنة عليه والبابوات فى حق خلعه . كانت تلك ثورة غير متوقعة . فهدئ المندوبون المشاغبون بالوعود وحل المجلس (مارس ١٦١٥) . ثم نسى أكثر هذه الوعود ، واستؤنف الاختلاس وسوء الادارة . ولم يدع مجلس الطبقات مرة أخرى إلا حين انهارت الملكية وطبقتا النبلاء والاكليروس على السواء عام ١٧٨٩ .

على أن الاكليروس الكاثوليكي الفرنسي اكتسب شرفا باصلاح ذاته اصلاحا مخلصا فعالا . ولم يكن المسئول دائما عن المفاسد التي أشاعت الفوضى في الكنيسة ، لأن كثيرا من المفاسد نجم عن أن الأساقفة ورؤساء الديورة كان يعينهم الملاك أو النبلاء الذين يحيون حياة أشبه بحياة الوثنيين ، وأحيانا تساورهم شكوك العقيدة (١) . مثال ذلك أن هنرى الرابع منح صـلى الهيجونوتي أربعة ديورة ليرتزق من دخلها ، وعين خليلته « كوريزاند » رئيسة لدير شاتيون — سير — سين . وخلع السادة النبلاء الأسقفيات ورياسات ديورة الرهبان والرهبات على أبنائهم الصغار، وأبنائهم غير الشرعيين، وجنودهم البواسل ، ونسائهم الاثيرات . وإذا كانت قرارات الاصلاح الصادرة من مجمع ترنت لم تقبل بعد في فرنسا، فإن عدد الكليات اللاهوتية التي تعد القساوسة كان قليلا ؛ فكل شاب منذور يقرأ نص القداس اللاتيني ويتعلم مبادئ الطقوس يصلح لاختياره للكهانة ، وكثير من الأساقفة الذين كانوا رجال دنيا يعيشون على هواهم قبل أن يكافأوا بمنصب الأسقفية عينوا لرعاية الشعب رجالا حظهم من التعليم قليل ومن التقوى أقل . قال قسيس « لقد أصبح اسم القسيس مرادفا للجهل والفجور (٢) » . وقال سان فانسان ديول « ان أعدى أعداء الكنيسة هم كهنتها غير الجديرين بالكهانة » (٣) .

وقد حاول الأب بوردواز علاج الجانب الخلقي للمشكلة بانشائه « مجتمع القساوسة » (١٦١٠) وهو نظام تطلب من جميع قساوسة الأبرشية أن يعيشوا معا عيشة البساطة والوفاء بنذورهم . وفي عام ١٦١١ أسس الأب برول « جماعة المصلى » على غرار مؤسسة شبيهة أقامها القديس فليب نيرى في إيطاليا ، وقد أصبحت مدرسة لاهوتية لتدريب شباب القساوسة على تعليم وتكريس أفضل وفي عام ١٦٤١ نظم الأب جان جاك أولييه الطريقة السلبيسية لاعداد الرجال للكهانة ، وفي عام ١٦٤٦ افتتح مدرسة القديس سلبيس اللاهوتية وكنيستها في باريس وفي عام ١٦٤٣ ألف الأب جان (القديس يوحنا) أود « جماعة يسوع ومريم » لتأهيل الرجال

للكهانة والبعثات التبشيرية . وهكذا أعد أعلام من رجال الأجيال التالية كبوســـويه ، وبوردالو ، ومالبرانش ، وأرسى أساس قوة الكنيسه وبهائها فى عصر لويس الرابع عشر .

وكشفت طوائف دينية جديدة عن تقوى الشعب ونفخت فيها حياة جديدة . فدخلت الراهبات الأورسوليات فرنسا حوالى عام ١٦٠٠ واضطلعن بتعليم البنات ، ولم ينقض قرن على دخولهن حتى كان لهن ٠٠٠ ر ١ بيت و ٣٥٠ جمهورا من العابدين . ورحبت مارى مديسى بدخول طائفـــة « أخوة الرحمة » إلى فرنسا ، وهى التى أسسها (١٥٤٠) القديس يوحنا الإلهى فى أسبانيا ، وسرعان ما أعدت ثلاثين مستشفى . وفى عام ١٦١٠ أنشأت بارونة شانتال (القديسة شانتال) ، بمساعدة فرانسوا سال ، « طائفة السيدة العذراء للافتقاد » لرعاية المرضى والفقراء ، وما وافت سنة ١٦٤٠ حتى كان لها مائة دير ، وفى عام ١٧٠٠ كان لفرع واحد منها أربعمائة دير للنساء . وبلغت جملة الراهبات فى فرنسا عام ١٦٠٠ حوالى ثمانين ألفا (٤) .

وهناك رجلان يحتلان مكانا بارزا فى هذا الإحياء الكاثوليكى الذى حدث فى القرن السابع عشر . وأولهما فرانسوا سال الذى اتخذ جزءاً من اسمه من مسقط رأسه القريب من آنسى فى سافوا . درس القانون فى بادوا وأصبح موظفا فى مجلس شيوخ سافوا . ولكن الدين كان يجرى فى عروقه فرسم قسيسا ، واضطلع (١٥٩٤) بمهمة شاقة ، هى أن يرد إلى حظيرة الكاثوليكية إقليم شابليه الواقع جنوبى بحيرة جنيف ، وكان قد اتبع مذهب كلفن منذ عام ١٥٣٥ . ولم تمض خمس سنوات حتى تمت المهمة ، وساعد على ذلك نفى من لم يهتدوا ، ولكن أكثر الفضل فى اتمامها كان لمـا أوتى فرانسوا من تقوى وصبر وكياسة مقنعة . فلما رقى أسقفا كرس نفسه لتعليم الأطفال والكبار . وحين زار باريس أحبته نساء الطبقة العليا محبـــة

الأكبار والتبجيل ، وأصبحت التقوى هى الزى الفاشى فى المجتمع حينا من الزمن .

أما حياة ثانى الرجلين ، وهو فانسان دبول ، فقد سلكت مسالك أقل اتباعا للتقاليد . ذلك أنه بدأ راعى خنازير ، ولكنه بطريقة ما وجد سبيله إلى كلية فرانسيسكانية بغسقونيا ؛ وإذ كان أبوه — ككل أب كاثوليكى — تواقاً للظفر بثواب الآخرة لأسرته بتكريس أحد أبنائه للكنيسة ، فقد باع زوجا من الثيران ليرسل ولده إلى جامعة تولوز ليدرس اللاهوت ؛ وهناك رسم فانسان قسا (١٦٠٠) . وفى رحلة على البحر المتوسط أسره القراصنة وباعوه عبدا فى تونس . ولكنه هرب ، وذهب إلى باريس ، وأصبح قسيسا خاصا لمارجو طليقة هنرى الرابع ، ثم أصبح المرشد الروحى لمدام جوندى . وبفضل المال الذى أعانته به هذه السيدة نظم البعثات التبشيرية بين الفلاحين ، وبعد كل بعثة تقريبا أسس « مبرة » لأغاثة فقراء الناحية ، ورغبة فى استمرار هذه المؤسسات نظم « جماعة قساوسة البعثة » — ويطلق عليهم أحيانا كثيرة اسم « اللعازريين » نسبة إلى دير القديس لعازر الذى استخدموه مقرا رئيسيا لهم فى باريس . ولما كان المسيو جوندى قومندانا لسفن تشغيل المجرمين الفرنسية فقد اضطلع فانسان بالتبشير المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة فى هذه السفن . وإذ روعته شدائدهم وأمراضهم ، فتح لهم المستشفيات فى باريس ومرسيليا ، وأيقظ ضمير فرنسا لتعامل المسجونين معاملة أفضل . ثم اقنع النساء الميسورات بأن يقمن بالخدمة فى المستشفيات بين الحين والحين ، وجمع المبالغ الطائلة لتوزيعها على شئون البر ؛ ورغبة فى التصرف فى هذه الأموال ، وفى إعانة جماعة « سيدات البر » التى نشأها ، نظم عام ١٦٣٣ جماعة « أخوات البر » (وكان يفضل أن يدعوهن بنات البر) — اللاتى يخدمن الآن الانسانية وكنيستهن فى أصقاع كثيرة من العالم .

وقد كسب « مسيو فانسان » قلوب كل من عرفوه تقريبا برغم ما افتقر إليه من جاذبية الجسد ، وماارتداه من رث الثياب ، وما فى طلعته من شبه بمعلم ناموس يهودى ملتح مغضن الوجه ، وذلك بفضل جهاده فى سبيل الفقراء والمرضى والمجرمين . وقد جمع الأموال الكثيرة ، وأنشأ المستشفيات ، والملاجىء ، والمدارس اللاهوتية، وبيوت الشيوخ ،ومعتكفات العلمانيين والقساوسة ؛ وقد تضخم حجم الحسابات التى تسجل خيراته . وخلال حرب الفروند التى نشبت بين عامى ١٦٤٨و١٦٥٣ ، وأثناء حصار باريس، أشرف على إطعام خمسة عشر ألفاً من المعدمين ؛ على أن التشبث بالعقيدة هنا غلب نوازع الخير ، فقد تطلب اعتراف الشخص بالعقيدة الكاثوليكية شرطا لنيله الطعام (٥) . وانضم إلى الحملة على بور — رويال، ولكنه حاول التخفيف من اضطهاد راهباتها (٦) . فلما مات ناح عليه نصف باريس ، وكان شعور الارتياح شاملا حين سلكته الكنيسة فى عداد قديسيها (١٧٣٧) .

وبفضل هذا الرجل ، وبفضل فرانسوا سال ، وبفضل اليسوعيين الذين لا يتطرق اليأس إلى نفوسهم، وبفضل الخدمة الصادقة التى قدمتها نساء لا حصر لهن ، ولدت الكاثوليكية الفرنسية فى عهد لويس الرابع عشر ميلادا جديدا يتميز بالقوة والورع . فعادت الطرق الديرية إلى نظمها ، وأصلحت أديار الراهبات نفسها ؛ وبدأ الآن بور — رويال وقديسوه الجانسنيون . ووجد التصوف نفراً جديداً من الداعين والممارسين للاستغراق فى التأمل المباشر لله . أما الملك الشاب الذى انتقلت إليه حماسة العصر فقد وضع فرنسا فى إجلال تحت حماية مريم العذراء ، « حتى يكون الفردوس ثواب جميع رعاياه المخلصين . . . . لأن هذه مشيئته الطيبة ومسرة نفسه (٧) » على حد قول المرسوم الملكى . واستمر الحراس يوقظون الباريسيين كل صباح كما ألفت فرنسا أيام العصور الوسطى بنداء للصلاة من أجل الموتى الراحلين :

« استيقظوا أيها النائمـــون
وصلوا لله من أجل الراحلين[٨] »

ولكن صراع العقائد واصل طريقه فى مرارة . والتزمت مارى مديسى بمرسوم نانت بأمانة على الرغم من تمسكها بعقيدتها . ولكن لا الكاثوليك ولا الهيجونوت كانوا يميلون للتسامح . ونلد البابا وسفيره والاكليروس الكاثوليكي بالحكومة لتساهلها مع الهرطقة . وحيث كانت الغلبة للكاثوليك راحوا يشوشون على الخدمات البروتستنتية ويدمرون كنائس البروتستنت وبيوتهم وأحيانا حياتهم[٩] ، وأخذوا الأطفال عنوة من آبائهم الهيجونوت بحجة أنهم يحولون بينهم وبين تحقيق رغبتهم فى اعتناق الكاثوليكية[١٠] . وحيث كان البروتستنت أصحاب الكلمة العليا ردوا على هـــذا بمثله . فحظروا ترتيل القداس فى نحو ٢٥٠ مدينة خاضعة لهم[١١] ، وطالبوا بأن تحرم الحكومة المواكب الكاثوليكية فى البلاد البروتستنتية ، وكانوا يسخرون من هذه المواكب ويشوشون عليها وأحيانا يهاجمونها ، ومنعوا البروتستنت من حضور شعائر العماد أو الزواج أو المآتم الكاثوليكية ، وأعلن رعاتهم أنهم سيمنعون الآباء الذين يتزوج أبناؤهم من الكاثوليك من تناول القربان[١٢] . قال مفكر حر مشهور « بينما كان الكاثوليك نظريا أكثر تعصبا من البروتستنت ، أصـــبح البروتستنت أكثر تعصبا من الكاثوليك[١٣] » ، ونافس الوعاظ البروتستنت الكهنة الكاثوليك فى قمع الهرطقة وتكميم النقد ؛ فحرموا جريمى فيربيه (ولكنهم لم يحرقوه) و « أسلموه للشيطان » لأنه هزأ بالمجتمعات الكنسية ، وهاجمت كتاباتهم المذهب الكاثوليكى فى « كتب قل أن يكون لها نظير فى مرارة الشعور ، ويستحيل بالتأكيد أن تبزها كتب أخرى[١٤] . » وخشى الهيجونوت إلغاء مرسوم نانت ، وساءهم الحلف بين فرنسا وأسبانيا فناضلوا لكى يجعلوا نصيبهم من فرنسا مستقلا سياسيا ، آمنا حربيا ، له جيشه وقوانينه الخاصة .

وحين زار لويس الثالث عشر بو (١٦٢٠) صدمه ألا يجد كنيسة كاثوليكية واحدة يصلى فيها (١٥) . ونظر الملك الشاب فى استياء وفزع إلى مذهب لم يهدد بأن يقسم روح فرنسا فحسب بل جسدها أيضا . وفتش فى لهفة بين حاشيته عن رجل فى دمه من الحديد ما يكفل تحويل هذه الفوضى — فوضى العقائد والقوى المفرقة — إلى أمة متحدة .

٢ — لويس الثالث عشر

لقد أيقن أنه هو ذاته يفتقر إلى صحة البدن وقوة الذهن التى تتطلبها هذه التحديات . ولد فى السنة الثامنة والأربعين لأب ربما أوهن من قواه الافراط الجنسى ، لذلك كان يشكو السل ، والتهاب الأمعاء ، وتعثرا مربكا فى منطقه . وكان فى فترات طويلة أضعف من أن يمارس الرياضة ، إنه يعزف الموسيقى ويؤلفها ، ويزرع البازلاء للسوق ، ويسيج أرض الصيد ، ويساعد فى المطبخ . لم تبق له الوراثة والمرض على أى جمال فى القوام أو الوجه ، فهو نحيل نحولا خطرا ، ضخم الرأس والأنف ، تركت شفته السفلى المتدلية فمه مفتوحا دائما بعض الانفتاح ؛ ينسجم وجهه الطويل الشاحب مع ردائه الكابى عن عمد . ولم تكن معاناته من الطبيعة بأشد من معاناته من أطبائه ، فقد فصدوه فى سنة واحدة سبعا وأربعين مرة ، واعطوه ٢١٥ حقنة شرجية ، وألقموه ٢١٢ دواء (١٦) . على أنه احتفظ بالحياة بفضل ممارسته الرياضة حين يستطيع ، والصيد ، والانضمام إلى جيشه ، والنوم فى الهواء الطلق ، وتناول طعام الجنود البسيط .

كان مدرسوه يضربونه مرارا ، لذلك اشتد بغضه للتعليم ، ويلوح أنه لم يقرأ قط كتابا ألا للصلاة . واعتاد أن يتلو صلوات العبادة السبع كل يوم ، وقبل فى غير تشكك ذلك الايمان الذى لقنه فى صباه ، وكان ينضم دائما إلى أى موكب يحمل القربان المقدس ويصاحبه إلى النهاية . وقد أفسدت مزاجه الرقيق بطبعه نزعة مريضة إلى القسوة تتناوبه بين الحين والحين .

كان خجولا ، كتمة ، مكتئبا ، لا يستشعر الحب الشديد لحياة لم تحبه . واعتبرته أمه إنسانا ضعيف العقل ، فأهملته ، وفضلت عليه فى صراحة أخاه الأصغر جاستون ، واستجاب لذلك بكرهه إياها وعبادة ذكرى أبيه . ثم اكتسب تدريجا بغض النساء ، وبعد أن تأمل على استحياء جمال الآنسة أوتفور منح الشبان حبه . تزوج من آن النمسوية زواجا سياسيا ، فكان يساق إلى فراشها سوقا . وحين أسقطت جنينها لم يمسها ثلاثة عشر عاما . ونصحته بطانته بأن يتخذ له محظية ، ولكن كان له ميول أخرى . ثم حاول ثانية وهو فى السابعة والثلاثين . مذعنا لمطالبة فرنسا كلها بولى للعهد ، وأعطت آن الشاكرة العالم لويس الرابع عشر (١٦٣٨) . وبعد عامين ولدت فليب أورليان الأول . الذى واصل تقدير أبيه لمفاتن الذكور .

على أن لويس كان له بعض شيم الملوك . من ذلك أنه وهو بعد غلام فى السادسة عشرة ، وقد سئم وقاحة كونشيني واختلاساته المالية ، أصدر فجأة أوامره السرية باغتياله (١٦١٧) ، وحين احتجت الملكة الأم على هذا الختام لحياة محسوبها نفاها إلى بلوا واختار شارل دالبير وزيرا أول له ، وكان هو الذى اقترح عليه هذه الضربة ، ورقى الآن دوقا على لون . وتحت إلحاح الدوق والبابا بولس الخامس ، أمر لويس الهيجونوت برد كل الأملاك التى أخذوها من الكنيسة . فلما تجاهل إقليم بيارن المرسوم زحف عليه وفرض عليه الطاعة ووضع بيارن ونافار — مملكة أبيه الشخصية فيما مضى — تحت حكم الملك المباشر . ولم يقاوم الهيجونوت من فورهم ، ولكن جمعيتهم العامة المجتمعة فى لاروشيل أقوى مدنهم ، طالبت برد الأملاك المستعادة لأنها ملك للشعب لا للكنيسة ؛ ثم قسمت فرنسا ثمانى « دوائر » وعينت لكل منها مديرا عاما ومجلسا لجمع الضرائب والجند . وأعلن لويس أن فرنسا لا يمكن أن تسمح بدولة داخل الدولة . وفى أبريل ١٦٢١ قاد جيشا ، وزحف قواده الآخرون بثلاثة جيوش ، وجهت كلها ضد القلاع البروتستنتية ، فسقط عدد منها ، ولكن مونتوبان التى دافع عنها

هنرى دوق روهان ثبتت للهجوم . وترك القواد غير الأكفاء الحرب تتعثر عاما ونصفا . ومنعت معاهدة الصلح المعقودة فى ٩ أكتوبر ١٦٢٢ التجمعات البروتستنتية ، ولكنها تركت مونتوبان ولاروشيل فى أيدى الهيجونوت وفى خلال هذه الحملات مات لون (١٦٢١) ، وارتقى ريشليو إلى مركز القوة .

٢ - الكردينال والهيجونوت

كيف يشق إنسان طريقه إلى القمة ؟ فى تلك الأيام كانت تعينه على ذلك عراقة أصله . وكانت أم أرمان جان دبليس دريشليو ابنة محام فى برلمان باريس ، أما أبوه فهو السنيور دريشليو ، المدبر الأكبر لبيت الملك فى عهد هنرى الرابع وورثت أسرة بواتو العريقة الحق فى أن توصى الملك باختيار من ترشح لاسقفية لوسون . وقد عين هنرى أرمان بهذه الطريقة (١٦٠٦) وكان يومها فى الحادية والعشرين . وإذ كان أصغر من السن المشترطة للأسقفية بسنتين ، فإنه سارع إلى روما ، وكذب فى أمر سنه ، وألقى أمام بولس الخامس خطابا لاتينيا جميلا حمل البابا على أن يسلم له الأسقفية أما وقد تحقق له « الأمر الواقع » ، فقد اعترف ريشليو بكذبته ، وطلب المغفرة . وامتثل البابا وهو يقول « إن هذا الفتى سيكون محتالا كبيرا » (١٧) .

وصف الأسقف الشاب أسقفيته بأنها « أفقر وأقذر » الأسقفيات فى فرنسا ، ولكن كانت الأسرة تملك بعض المال ، فما لبث أن امتلك المركبة والآنية الفضية ولم يتخذ وظيفته منصبا شرفيا عاطلا ، بل فرغ لأداء واجباته فى اجتهاد ومثابرة ، ولكنه وجد الوقت لتملق كل صاحب نفوذ ويسخر كل صاحب قوة . فلما اختار كهنة بواتو مندوبا لمجلس الطبقات (١٦١٤) كان أرمان رجلهم . وأعجب كل من كان بالمجلس، لا سيما مارى مديسى ، بوجهه الرزين ، وقوامه الفارع الممشوق ، وقدرته القانونية

تقريبا على تفهم الموضوعات تفهما واضحا وعرضها عرضا مقنعا . وعين سكرتيرا للدولة بنفوذها ونفوذ كونشيني (١٦-١) . وبعد عام قتل كونشيني وفقد ريشليو وظيفته . وبعد أن خدم الملكة الأم المنفية في بلوا فترة قصيرة عاد إلى لوسون . وبيتت ماري الهروب ؛ واشتبه في اشتراك ريشليو في المؤامرة ، فنفي إلى أفنيون (١٦٢٨) ، وبدا أن مجرى حياته السياسية قد انتهى . ولكن الجميع - حتى خصومه - اعترفوا بقدراته ، ولما تدلت ماري ليلا من إحدى نوافذ قلعتها في بلوا وانضمت إلى قوة من النبلاء المتمردين ، استدعى لون الأسقف الشاب وعهد إليه أن يرد الملكة إلى رشدها ويصلح بينها وبين الملك . فأفلح في مهمته ، وحصل له لويس على قلنسوة الكردينالية ، وعينه في مجلس الدولة . وسرعان ما وضح للعيان تفوق ريشليو عقلا وارادة ، فأصبح رئيسا للوزراء في أغسطس ١٦٢٤ وهو في التاسعة والثلاثين .

وقد وجد الملك فيه بالضبط تلك الصفات التي افتقدها في نفسه : الذكاء الموضوعي ، والهدف الواضح ، وصلابة الغايات ، ومرونة الوسائط ؛ وكان للويس من الحصافة ما جعله يتقبل ارشاد الكردينال في المهمة الثلاثية - مهمة اخضاع الهيجونوت ، والنبلاء ، وأسبانيا . قال ريشليو في مذكراته مقدرا له هذه الخلة « إن قدرة الملك العظيم على أن يسمح بأن يخدم (أي بأن يفوض غيره بالسلطة) ليست من أقل صفات الملك العظيم شأنا(١٨) » . لم يكن لويس متفقا مع وزيره في جميع الحالات ، وكان أحيانا يوبخه ، وكان دائما يغار منه ، وقد فكر بين الحين والحين في طرده . ولكن أنى له أن يرفض رجلا يجعله مطلق السلطة في فرنسا وصاحب الكلمة العليا في أوربا ، ويحصل له من الضرائب أكثر حتى مما كان صلى بجمعه ؟ :

وتجلت روح الكردينال أول ما تجلت في موقفه من الدين . فلقد قبل في غير نقاش عقائد الكنيسة ، وأضاف إليها بعض الخرافات التي يعجب المرء لأن عقلا أوتي مثل هذه القوة آمن بها . ولكنه رفض ما ذهب

إليه حزب « مؤيدى سيادة البابا المطلقة » من أن للبابوات كامل السيادة على الملوك ، وحافظ على « الحريات الغاليّة » للكنيسة الفرنسية ضد روما ، واخضع الكنيسة للدولة فى الأمور الزمنية بنفس المضاء الذى اخضعها به أى إنجليزى ، ونفى الأب كوسان ، الذى تدخل فى السياسة بوصفه كاهن الاعتراف الملكى ؛ ففى رأيه أن أى دين من الأديان يجب ألا يختلط بشئون الدولة . أما التحالفات التى أدخل فيها فرنسا فكانت مع الدول البروتستنتية والكاثوليكية على السواء .

وقد طبق مبادئه فى حزم على الهيجونوت المشتغلين بالسياسة : ذلك أنهم برغم صلح ١٦٢٢ جعلوا لاروشيل مدينة صاحبة سيادة من الناحية الفعلية ، يشرف عليها تجارها ووزراؤها وقوادها . ومن هذا الميناء الاستراتيجى أرسل التجار تجارتهم مع العالم ، وأقلع القراصنة ليقتنصوا أية غنيمة أو مركب ، حتى المراكب الفرنسية ؛ وكان فى استطاعة أى عدو لفرنسا أن يدخل البلاد من هذا الميناء إذا أذن له الهيجونوت . كذلك انتهك لويس ذاته المعاهدة ، فقد وعد بهدم « حصن لويس » الذى كان خطرا دائما على المدينة ، ولكنه بدلا من أن يهدمه زاده تحصينا ، وحشد أسطولا صغيرا فى ثغر لابلافيه القريب . فاسر بنيامين روهان (أخو هنرى) ، سيد سوبيز ، الذى قاد أسطولا هيجونوتيا ، هذا الأسطول الملكى وقطره ظافرا إلى لاروشيل (١٦٢٥) لذلك بنى ريشليو أسطولا آخر ، ونظم جيشا ، ورافق الملك فى حصاره للقلعة الهيجونوتية .

وأقنع سوبيز دوق بكنجهام بأن يرسل أسطولا ضخما قوامه ١٢٠ سفينة لحماية المدينة . فحضر الأسطول ، ولكنه عانى الويل من مدفعية الحصون الملكية القائمة على جزيرة رى . فاضطر إلى التسلل عودا إلى إنجلترة وهو يجرر أذيال الخزى والعار (١٦٢٧) . وكان ريشليو خلال ذلك قد استولى على جميع الطرق البرية المؤدية إلى لاروشيل (بوصفه قائدا للملكه المريض) . ولم يبق إلا حصارها من البحر . فأمر مهندسيه

وجنده أن يقيموا تلا من الحجر طوله ١٧٠٠ ياردة بعرض مدخل الميناء ، تاركين فتحة لحركة المد والجزر . وقد بلغ عنف هذه الحركة ، التي ارتفعت فيها المياه وهبطت اثني عشر قدما ، مبلغا جعل تنفيذ المشروع يبدو مستحيلا ، ففي كل يوم كان الماء يكتسح نصف الأحجار المبنية يومها . ومل الملك هذه الحرب التي لم تسفك فيها دماء وانطلق إلى باريس ، وتوقع كثير من رجال الحاشية أنه طارد ريشليو لعجزه عن أخذ المدينة عنوة . ولكن التل اكتمل بناؤه أخيرا وبدأ مهمته المرسومة . ومات نصف سكان لاروشيل جوعا . ولم يستطع الحصول على القليل من اللحم غير أغنياء القوم ، فكانوا يدفعون خمسة وأربعين جنيها ثمنا للقط ، وألفي جنيه ثمنا للبقرة . أما جان جيتون عمدة المدينة فقد توعد كل من يجرى على لسانه حديث الاستسلام بالقتل بخنجره . ولكن المدينة استسلمت في يأسها بعد ثلاثة عشر شهرا من المجاعة والمرض (٣٠ أكتوبر ١٦٢٨) . ودخلها ريشليو ممتطيا جواده ومن خلفه الجند يوزعون الخبز رحمة بالناس .

وتصايح نصف فرنسا مطالبا باستئصال شأفة الهيجونوت . ولم يكن في وسعهم — بعد أن أضنتهم الحرب — إلا أن يتوسلوا . ولكن ريشليو فاجأهم بشروط صلح رأى فيها الكاثوليك تساهلا شائنا . صحيح أن لاروشيل فقدت استقلال بلديتها ، وحصونها ، وأسوارها ، ولكن أشخاص سكانها وأملاكهم لم تمس ، وسمح لمن بقي من الجنود الهيجونوت بالرحيل بأسلحتهم ، ومنحت حرية العبادة في المدينة للبروتستنت والكاثوليك على السواء وتلقت مدن هيجونوتية أخرى مثل هذه الشروط بعد استسلامها . ووجب رد الأملاك الكاثوليكية التي انتزعها البروتستنت ، ولكن القساوسة الهيجونوت الذين فقدوا مأواهم مؤقتا عوضوا باعانة من الدولة بلغت ٢٠٠ر٠٠٠ جنيه ، وأعفوا من ضريبة الرءوس (التاي) شأن الاكليروس الكاثوليك(١٩) . ومنح عفو عام لجميع من شاركوا في التمرد . وثبت مرسوم نانت الذي أصدره هنري الرابع في كل نصوصه الجوهرية ،

بمرسوم ريشليو المسمى « مرسوم العفو » (٢٨ يونيو ١٦٢٩) وفتحت وظائف الجيش والبحرية والحكومة أمام الجميع دون نظر للعقيدة . وأذهل أوربا أن ترى الكاثوليك الفرنسيين يتبعون ويبجلون قوادا من البروتستنت كتورين وشومبير وهنرى روهان . قال ريشليو « منذ ذلك الحين لم تمنعنى قط خلافات الدين عن أداء كل أنواع الخدمات للهيجونوت(٢٠) » . وقد تبين الكردينال العظيم ، فى حكمة افتقدها لويس الرابع عشر فيما بعد افتقادا مؤسفا ، قيمة الهيجونوت الاقتصادية الهائلة لفرنسا — كما سيتبينها كولبير . ومن ثم فقد أقلعوا عن الثورة ، وانصرفوا فى هدوء إلى التجارة والصناعة ، وأصابوا من التوفيق والفلاح ما لم يصيبوه فى أى وقت مضى .

٤ — الكردينال والأشراف

بمثل هذا المضاء ، وبتساهل أقل ، تناول ريشليو النبلاء الذين ما زالوا يرون فى فرنسا التعدد لا الوحدة . لم تكن الاقطاعية قد ماتت قط ، فلقد حاربت من قبل فى الحروب الدينية لتهيمن على الحكومة المركزية . وكان كبار النبلاء يحتفظون بقلاعهم المنيعة ، وقواتهم المسلحة ، وحروبهم الخاصة ، وبطاناتهم ، وموظفيهم القانونيين ، وبفلاحيهم تحت رحمتهم ، ويتقاضون الرسوم المعوقة على التجارة التى تخترق أملاكهم . ان فرنسا لم تكن بعد أمة لأن الاقطاع والدين قطعا أوصالها ، بل كانت مجموعة مضطربة قلقة من البارونات المغرورين ، أشباه المستقلين ، القادرين فى أية لحظة على تكدير السلام وتمزيق اقتصاد الدولة . وكان أكثر الأقاليم يحكمه الادواق أو الكونتات الذين يدعون لأنفسهم حق حكمها مدى الحياة ويورثونها أبناءهم .

ولاح لريشليو أن البديل العملى الوحيد لهذه الفوضى المضعفة هو تركيز النفوذ والسلطة فى الملك . ويخيل إلينا أنه ربما أمكنه أن يجاهد ليوازن هذا التركيز برد قسط من الاستقلال للبلديات . ولكنه لم يستطع رد كومون العصر الوسيط الذى اعتمد على نقابات التجار والصناع والاقتصاد المحلى

المحمى ؛ ذلك أن الانتقال من سوق المدينة إلى سوق الأمة قوض هـذه النقابات والكومونات ، وتطلب التشريع المركزى لا المحلى (*) . ولعل العقول التى تجمدت فى الأوضاع الحاضرة لا ترى فى السلطة الملكية المطلقة التى نشرها ريشليو غير استبدادية رجعية ؛ أما فى رأى التاريخ ، وفى رأى الكثرة الغالبة من الفرنسيين فى القرن السابع عشر ، فإنها كانت تقدما حرر البلاد من الطغيان الاقطاعى إلى الحكم الموحد . لم تكن فرنسا قد نضجت بعد للديمقراطية ، فأكثر سكانها مفتقرون إلى الغذاء الطيب والكساء الجيد ، أميون ، رانت على عقولهم الخرافة وتوحشت نفوسهم بفعل التعصب للعقيدة . وكانت المدن يهيمن عليها رجال الأعمال الذين لا يستطيعون التفكير إلا فى كسبهم أو خسارتهم ، ولم يكن هؤلاء الرجال ، الذين عرقلت الامتيازات الاقطاعية كل خطوة من خطواتهم ، ميالين إلى الاتحاد مع صغار النبلاء كما حدث فى انجلترة لإقامة برلمان يقف فى وجه السلطة الملكية . ولم تكن « البرلمانات » الفرنسية برلمانات تمثيلية تشريعية ، إنما كانت محاكم عليا غذتها السوابق ورسختها ، ولم تكن منتخبة من الشعب ، وقد غدت قلاعا للمحافظة . وحبذت الطبقات الوسطى ، ومهرة الصناع ، والفلاحون ، سلطة الملك المطلقة بوصفها الحماية الوحيدة التى يرونها ضد سلطة النبلاء المطلقة .

فى عام ١٦٢٦ أصدر ريشليو باسم الملك مرسوما طعن الاقطاع فى الصميم ، فقد أمر بهدم جميع القلاع إلا ما كان منها على الحدود ، وحظر تحصين المساكن الخاصة فى المستقبل . وفى نفس العام (بعد أن مات أخوه الأكبر منه سنا فى مبارزة) اعتبر المبارزة جريمة كبرى ، فلما تبارز مونمورنسى بوتفيل والكونت دى شابيل برغم هـذا الأمر أعدمهما . وقد اعترف بأنه « يحس كدرا شديدا فى روحه » لهذا الاجراء ، ولكنه قال لمولاه ،

(*) مثل هذا التطور أضعف « حقوق الولايات » فى الولايات المتحدة الأمريكية فى القرن العشرين .

« إن الأمر خيار بين القضاء على المبارزات أو على أوامر جلالتكم (٢١) ».
وأقسم النبلاء أن ينتقموا من الوزير ، وراحوا يتآمرون على اسقاطه .

وقد وجدوا فى الملكة الأم حليفا مشوقا إلى الانتقام منه . فهذه الأم التى كانت يوما ما حامية ريشليو باتت تبغضه حين رأته يعارض سياستها ، ولما مرض لويس مرضا خطيرا (يوليو ١٦٣٠) مرضته هى والملكة حتى استعاد بعض صحته ، ثم طلبا إليه رأس الكردينال مكافأة لهما . وكررت مارى مديسى المطلب بالحاح شديد وهى فى قصرها — قصر اللكسمبورج — ظانة أن ريشليو بعيد جدا ، ثم اقترحت ميشيل د مارياك ، حامل الأختام ، بديلا راغبا فى الحلول محله . ولكن ريشليو الذى أتى بطريق ممر سرى ، دخل الحجرة فى غير إذن وواجه الملكة الأم ، واعترفت بأنها أخبرت الملك بأن عليه أن يختار بين أن تذهب هى أو هو — أى ريشليو . وانسحب الملك المرهق ، وانطلق راكبا إلى كوخ صيده فى فرساى . وتقاطرت الحاشية حول مارى فى اغتباط بفوزها المنتظر . ولكن لويس أرسل فى طلب ريشليو ، وثبته رئيسا للوزارة ، وأكد له مساندة الملك له ، ووقع أمرا بالقبض على مارياك . وأشاع « يوم المغفلين » هذا (١٠ نوفمبر ١٦٣٠) الفوضى والحنق فى صفوف النبلاء المتآمرين . وسمح لماريا بالبقاء حيا ، ولكن أخاه الذى كان مرشالا لفرنسا اتهم بعد ذلك بالاختلاس وأعدم فى شىء من العجلة (١٦٣٢) . وأمر لويس أمه أن تعتكف فى قصرها الريفى بمولان وأن تنفض يدها من السياسة . ولكنها هربت إلى فلاندر بدلا من ذلك (١٦٣١) ، وجمعت لها حاشية فى منفاها ببروكسل ، وراحت تعمل لاسقاط ريشليو . ولم تقع عيناها قط على الملك بعد ذلك .

أما ولدها الثانى ، « مسيو » جاستون ، دوق أورليان ، فقد حشد جيشا فى اللورين وقاده فى تمرد صريح على أخيه (١٦٣٢) . وانضم إليه عدة نبلاء ، ومنهم أرفع شريف فى فرنسا — هنرى ، دوق مونمورنسى ،

وحاكم لانجدوك . وانضوى الالآف من الطبقة الارستقراطية تحت لواء الثورة . وعلى مقربة من كاستلنوداري (أول سبتمبر) اشتبك مونمورنسى ، البالغ من العمر سبعة وثلاثين ربيعا ، مع القوات التي جردها عليه ريشليو . وقاتل حتى أسقطه سبعة عشر جرحا ، وتحطم جيشه هو وجاستون تحت وطأة الهجوم ، وكان جيشاغنيا في الألقاب فقيرا في النظام ، وأسر مونمورنسى . واستسلم جاستون ، ودل على شركائه ثمنا للعفو عنه . وأمر لويس برلمان تولوز بأن يحاكم مونمورنسى بتهمة الخيانة ؛ وكان الحكم هو الاعدام . وهكذا مات آخر أدواق مونمورنسي دون خوف أو تذمر وهو يقول « أنني أعد هذا الأمر الذى أصدره قضاء الملك أمرا أصدرته رحمة الله (٢٢) » . وأدان معظم فرنسا الكردينال والملك لهذه الصرامة المجردة من الشعور ، وأجاب لويس « ما أنا بملك لو كان لى شعور الأشخاص العاديين » . أما ريشليو فدافع عن الاعدام بأنه انذار ضرورى للنبلاء بأنهم هم أيضا خاضعون للقوانين قائلا « لا شيء يدعم القوانين كعقاب الأشخاص الذين تعظم رتبتهم عظم جريمتهم » (٢٣) .

بقيت عقبتان أخريان فى طريق سياسة ريشليو ، ولاة الأقاليم والبرلمانات. لقد ساء الكردينال فقدان إيراد الأقاليم بسبب ما شاب سلوك الولاة النبلاء والقضاة من البورجوازيين أو صغار النبلاء عن فساد ونقص فى الكفاية ، لذلك أوفد الكردينال لكل قسم «محافظين» للاشراف على إدارة المالية والقضاء وتنفيذ القوانين . واتخذ هؤلاء الموظفون الملكيون مكانا أعلى من الموظفين المحليين كائنة ما كانت رتبتهم ، واضمحل استقلال الأقاليم الذاتى ، وانتعشت الكفاية وزادت حصيلة الضرائب . ونظام المحافظين هذا الذى استبق هنرى رابع إليه بقدر ما ، والذى عطله النبلاء فى الفروند ، والذى دعمه لويس الرابع عشر ، ثم اقتبسه نابليون — هذا النظام أصبح من الملامح البارزة للبيرقراطية المحكومة مركزيا والتى أدارت منذ الآن قوانين فرنسا .

أما برلمان باريس فقد خيل إليه أن الفرصة فى ظل ملكية ضعيفة مواتية لتوسيع وظائفه من تسجيل القوانين وتفسيرها إلى دور المجلس الاستشارى للملك . ولكن ريشليو ما كان ليطيق مثل هذه المنافسة لمجلس دولته ، فدعا لويس زعماء البرلمان ، على الأرجح بتحريض منه ، مستعملا عباراته الحادة ، وقال لهم « لقد عينتم لا لشىء إلا لتقضوا بين زيد وعمرو من الناس ، فإذا تماديتم فيما أنتم فيه فانى مقلم أظافركم تقليما حادا تأسفون له(٢٤) » . وأذعن برلمـــان باريس ، وحذت برلمانات الأقاليم حذوه . واختزلت وظائفهم حتى التقليدى منها ، فأقام ريشليو « لجانا فوق العادة » لتنظر فى الدعاوى الخاصة . وأصبحت فرنسا دولة بوليسية ، وانتشر جواسيس الكردينال فى كل مكان حتى فى الصالونات ، وغدت « الأوامر المختومة » أداة مألوفة فى الحكم . وهكذا أصبح ريشليو الآن فى حقيقة الأمر وواقعه ملك فرنسا .

٥ — الكردينال صاحب الكلمة العليا

أما وقد ملكت يداه هذه السلطة المركزة ، فقد فعل كل شىء من أجل فرنسا ، ولم يفعل إلا القليل من أجل الشعب . كان يرى فرنسا دولة لا مجموعة من الأفراد الأحياء ؛ انه لم ينظر إلى الرجل العادى نظرة مثالية ، ولعله رأى « العذوبة واللباقة » فى أن يموت أمثال هؤلاء الرجال فى سبيل وطنهم ، فهو راغب فى التضحية بهم ليؤمن وطنه المستقبل من تطويق الهابسبورج له . وكان يشقى ساعات الليـــل الطويلة فى تصريف شئون الدولة ، ولكن همه كان أكثر الوقت سياستها الخارجية . لم يكن لديه متسع من الوقت لتحسين الاقتصاد ، إلا أن يكون لتصيد المتهربين من الضرائب وجلب الدخل و « الأنباء » لباريس بقدر أقل من التسرب وهى فى الطريق . وفى عام ١٦٢٧ نظم البريد العام .

وكانت الضرائب ما زال يجمعها رجال المال الذين « أقطعوا » هـــذه الضرائب ، وكانوا يقتضون المثلين ، وأحيانا ثلاثة أمثال المبلغ الذى يؤدونه

للحكومة . وقد أعفى النبلاء ورجال الدين من الضرائب الهامة ؛ ووجد مهرة رجال الأعمال وثروات الموظفين المختزنة السبل للتهرب من الجباة أو استرضائهم ، أما المدن فكانت تدفع مبلغا صغيرا لتنجو من فرضة الرءوس ؛ ووقعت وطأة الضرائب على طبقة الفلاحين التي فصدها ريشليو حتى الفاقة ليجعل من فرنسا أقوى دولة في العالم المسيحي . وكان كهنري الرابع يؤثر أن يقهر أعداءه بالمال لا بالدم ، وكثير من المعاهدات التي خاض بها الحرب تضمن إعانات مالية للحلفاء ورشا للاعداء المحتملين . وكان أحيانا يقرض الخزانة من جيبه الخاص إذ أعوزه تدبير المال ، ومرة استأجر أحد المشتغلين بالكيمياء القديمة ليصنع له الذهب[٢٥] . وتضافر نظام الضرائب ، والسخرة الحكومية على الطرق ، مع الجفاف والمجاعة والطاعون وغارات الجنود ، لتدفع الفلاحين إلى حال من اليأس تقرب من الانتحار ، حتى لقد قتل عدد منهم أسرهم وأنفسهم ، وقتلت الأمهات الجائعات أطفالهن وأكلنهم (١٦٣٩)[٢٦] . وفي عام ١٦٣٤ ، في رواية ربما بولغ فيها ، كان ربع سكان باريس يتسولون[٢٧] . وكان الفقراء ينتفضون في فترات دورية وأوقات متفرقة انتفاضات قمعت في غير رحمة .

واستخدم ريشليو الضرائب لبناء الجيوش والأسطول ؛ ذلك أن الحق في رأيه لا يجد أذنا صاغية إلا إذا تكلم بالمدفع . ولما اشترى منصب الأميرال لأكبر ، قام بواجباته بعزيمة ماضية . فأصلح الموانئ وحصنها ، وأنشأ الترسانات ومخازن الذخيرة في الثغور ، وبنى خمسا وثمانين سفينة ، وأسس مدارس لمرشدي السفن . ودرب أفواج الجنود البحريين . وجند مائة فوج من المشاة ، وثلاثمائة جندي من الخيالة ؛ ورد النظام إلى الجيش. ولم يخفق إلا في جهوده لاقصاء مومسات الجيش . وبفضل هذه القوات الحربية التي بث فيها الحياة من جديد تصدى لفوضى العلاقات الخارجية التي خلفتها وصاية ماري مديسي ، وعاد إلى سياسة هنري الرابع ، ووجه كل قواته لهدف واحد — هو تحرير فرنسا من نطاق القوة الهابسبورجية

فى الأراضى المنخفضة والنمسا وإيطاليـا وأسبانيا .

كانت مارى قد ألفت بين فرنسا وأسبانيا — أى أنها فى رأى ريشليو خضعت للعدو ، وأقصت أولئك الذين اعتمد هنرى الرابع على صداقتهم وهم الانجليز ، والهولنديون ، وبروتستنت ألمانيا . ورأى ريشليو بعين القائد الاستراتيجية اللماحة أن الممرات الفاتيلية التى تربط النمسا بإيطـاليا الأسبانية هى المفتاح لقوة أسبانيا والامبراطورية الموحدة فى تبادل المؤن والجنود . وكافح اثنى عشر عاما للظفر بهذه الممرات ، وقد صرفته عن هذا الهدف وهزمته حروبه مع الهيجونوت والنبلاء،ولكنه استردبالدبلوماسية أكثر كثيرا مما خسر فى الحرب . ذلك أنه اكتسب « فرانسوا لوكليرك دوترمبليه » خادما أمينا ، وكان قد اتخذ اسم جوزف حين أصبح راهبا كبوشيا . وأوفد « الأب جوزف » فى كل مكان فى بعثات دبلوماسية شائكة فأداها بمهارة ، وبدأت فرنسا تزاوج بين الراهب الرمادى العباءة الذى لقبته « صاحب القداسة الرمادى » ، وبين ريشليو ذى العباءة الحمراء الذى لقبته « صاحب القداسة الأحمر » . أما وقد ظفر الكردينال بهذا المعين ، فإنه أقسم أنه « مثبت للعالم أن عصر أسبانيا فى سبيل الزوال ، وأن عصر فرنسا قد أقبل (٢٨) » .

فى عام ١٦٢٩ بدا أن الصراع الطويل فى ألمانيا أوشك أن ينتهى بنصر الامبراطور الهابسبورجى الكاثوليكى نصرا مؤزرا على الأمراء البروتستنت. ولكن ريشليو قلب الأوضاع قلبا كاملا بالمال . ذلك أنه أبرم مع جوستاف أدولف (١٦٣١) معاهدة نصت على أن يغزو ملك السويد المغوار ألمانيا وينقذ الدويلات البروتستنتية ، يعينه على ذلك مليون من الجنيهات تدفعها له فرنسا كل عام . وندد أنصار السلطة البابوية المطلقة فى فرنسا بالوزير خائنا لدينه ، أما هو فكان رده أن الحياد خيانة لفرنسا . فلما مات جوستاف وهو ظافر فى لتزن (١٦٣٢) واستسلم معظم الأمراء الألمـان

للامبراطور ، دخل ريشليو الحرب فعلا . وزاد الجيوش الفرنسية من ٠٠٠ر ١٢ فى عام ١٦٢١ إلى ٠٠٠ ر ١٥٠ فى عام ١٦٣٨ . وأعان الثورة التى قام بها القتلونيون فى أسبانيا ، وبفضل دبلوماسيته سيطر على كوبلنز ، وكولمار ، ومانهايم ؛ وبازل ؛ واستولى جنوده على اللورين وشقوا طريقهم عنوة مخترقين سافوا إلى ميلان قلب القوة الأسبانية فى شمال إيطاليا .

ثم دار الحظ دورته وبدا أن كل هذه الانتصارات لا معنى لها . ففى يوليو وأغسطس ١٦٣٦ عبرت قوة كبيرة من الجيوش الأسبانية والامبراطورية الأراضى المنخفضة ودخلت فرنسا ، واستولت على اكس — لا — شابل (آخن) وكوربى ، وزحفت على أميان ، واجتاحت أودية السوم والواز الخضراء . وكانت جيوش ريشليو بعيدة جدا ، وأصبح الطريق إلى باريس مفتوحا عديم الدفاع أمام العدو . واغتبطت الملكة الأم فى بروكسل ، والملكة فى سان جرمان ، وحزبها الموالى لأسبانيا فى فرنسا ، وراحوا يعدون الأيام لسقوط الكردينال المنتظر . وازدحمت الجماهير الغاضبة فى باريس فى الشوارع منادية بموته — ولكن حين طلع عليهم بادى الهدوء فوق جواده المهيب ، لم يجرؤ أحد منهم على أن يمسه ، وابتهل الكثيرون لله أن يمنحه القوة لانقاذ فرنسا . وهنا لم تتضح شجاعته فحسب ، بل بعد نظره واجتهاده ؛ ذلك أنه كان قد نظم منذ أمد بعيد مواطنى باريس فى ميليشيا احتياطية ، واختزن السلاح والمؤونة لهم ، ومن ثم فقد نفخ الآن فيهم روح الحماسة فاستجابوا لندائه ، وأقر برلمان باريس والمجالس البلدية والنقابات الحرفية المال اللازم ، ولم تمض أيام حتى كان جيش جديد فى طريقه إلى القتال ، فحاصر كوربى . وتلكأ جاستون أورليان المتولى قيادة الجيش ، فحضر ريشليو ، وتولى القيادة ، وأمر بالهجوم . وفى ١٤ نوفمبر سقطت كوربى ، وتقهقرت الجيوش الهابسبورجية إلى الأراضى المنخفضة .

وفى عام ١٦٣٨ استولى برنارد ، أمير ساكسى — فيمار الذى قاد جيشا ألمانيا يموله ريشليو ، على ألزاس ، فلما مات بعد سنة أوصى بهـا

لفرنسا ، وأصبحت الرأس ولوثرينجن الالزاس واللورين ، وبدأت تتحول فرنسية . وفى عام ١٦٤٠ سقطت أراس . وفى عام ١٦٤٢ استولت قوة يقودها الملك والكردينال على بربنيان ، واقتطع إقليم زوسيون المحيط بها من أسبانيا . وهكذا بدا ريشليو الآن فى كل مكان المنظم للنصر .

على أن النبلاء الذين ظلوا على خصومتهم ، والحزب الأسبانى فى البلاط ، والنساء النبيلات المغرقات فى الدس ، كل أولئك بذلوا آخر محاولة لأسقاط الوزير عن كرسيه . ففى سنة ١٦٣٢ مات المركيز إفيا بعد أن خدم الكردينال طويلا فى الدبلوماسية والحرب تاركا أرملة وغلاما وسيما فى الثانية عشرة من عمره يدعى هنرى كوافييه درووريه ، مركيز سانك - مارس . وبسط ريشليو حمايته على الصبى وقدمه للملك ، ولعله رأى بهذه اللعبة أن يصرف لويس عن الآنسة أوتفور التى كانت واحدة من « الدساسات » . وهذا ما حدث . فقد افتتن الملك بحسن الغلام وظرفه ووقاحته ، وعينه مشرفا على خيول الملك ورجاه أن يشارك الملك فى فراشه (٢٩) . ولكن سانك - مارس ، الذى نضج الآن إذ بلغ الحادية والعشرين ، آثر المحظية الحسناء ماريون ديلورم ، ومارى دجونزاج المتعاليه ، ملكة بولندة المستقبلة ، التى كانت الآن من أجمل خصوم الكردينال . ولعل الشاب ألح على لويس أن يدخله عضوا فى مجلس الملك ويجعله قائدا فى الجيش بإيعازمنها وإثارة من خلواتها الاستراتيجية . فلما لم يرض ريشليو عن هذه المقترحات التمس سانك - مارس من الملك أن يطرد وزيره . ورفض الملك ، فانضم الفتى إلى جاستون أورليان ودوق بويون وغيرهما فى مؤامرة لتسليم سيدان إلى الجيش الأسبانى ، واتفق على أن يدخل المتآمرون باريس وهذا الجيش من خلفهم ويعتقلوا الملك ، وتعهد جاستون بان يدبر اغتيال الكردينال فى طريقه إلى بربنيان . والتمس جاك أوجست دتو ، صديق سانك - مارس ، تعاون الملكة . ولكن آن النمسوية التى توقعت موت لويس القريب ووصولها إلى السلطة بوصفها

وصية أرسلت إلى ريشليو إشارة خفية بالمؤامرة : وتظاهر هذا بأن لديه نسخة من الاتفاق مع أسبانيا ، فصدقه جاستون واعترف ، ثم دل على شركائه كما هي العادة . وقبض على سانك — مارس،ودتو ، وبويون . وأيد بويون اعتراف جاستون ثمنا للعفو عنه . وحوكم الشابان أمام محكمة في ليون ، فدينا بالاجماع ، وشرفا خيانتهما بموت رابط الجأش . وهرع الملك إلى باريس ليحمي قوته . أما ريشيليو ، المريض مرضا مميتا ، فقد حمل على محفة مخترقا بلدا بموت من الانتصارات ويصرخ طلبا للسلام .

٦ — رثاء

أي رجل كان هذا الكردينال الذي لم يكد يكون مسيحيا ، هذا الرجل العظيم الذي شعر أنه ليس في وسعه أن يكون إنسانا طيبا ؟ لقد أسلمه فليب دشامبان إلى الأجيال التالية في لوحة من أشهر اللوحات في اللوفر . قوام فارع تنقذه أثوابه من مظهر السخف ، تخلع عليه السلطة عباءة وقبعة حمراوين ، يقف كأنه في مرافعة قانونية ، يعلن عن نبالته بقسماته الواضحة المحددة ويديه الرقيقتين،ويتحدى أعداءه بعينيه الحادتين،ولكنه شاحب بفعل السنين المضنية ، محزون بوعيه بالزمن الذي لا يرحم . هنا دنيوية السلطان يعارضها نسك التكريس .

كان عليه أن يكون قويا ليمنع عيوبه من أن تهزم مراميه . بدأ سيرته في البلاط بتواضع متملق ، انتقم له بعد حين بكبرياء لا تعترف بغير سيد واحد دون غيره . فبينما كانت الملكة تزوره ذات مرة ظل جالسا — وهو خروج على الأدب لا يؤذن به إلا للملك . كان (كأكثرنا) مغرورا بمظهره ، شرها للألقاب ، كارها للنقـــد ، تواقا إلى الشعبية . كان يغـــار من كورنيي ، فاشتهى أن يشتهر

هو أيضا كاتبا مسرحيا وشاعرا ، وقد كتب فعلا النثر الرائع كما تشهد بذلك مذكراته . وقد وفق فى غير تردد — كما وفق ولزى — بين اتباع المسيح ، والاهتمام الحذر بشيطان المال . رفض الرشا ولم يتقاض راتبا ، ولكنه استولى على دخل الكثير من الرتب الكنسية ، زاعما أنه فى حاجة إلى تمويل سياساته . وشيد لنفسه كما فعل ولزى قصرا بلغ من فخامته أنه رأى من الحكمة قبل موته أن يهديه إلى ولى العهد ؛ وهكذا أصبح الباليه كردينال الباليه رويال ؛ ولنا أن نفترض أنه مبنى للموظفين الإداريين وللمظهر الدبلوماسى أكثر من الترف الشخصى . لم يكن بخيلا ، وقد أثرى أقرباءه ، وكان فى وسعه أن يسخو بمال الدولة . وأوصى بنصف ثروته للملك ، ونصحه بأن يستعمله « فى الظروف التى لا تحتمل بطء الإجراءات المالية[٣٠] » .

أما ما يبدو لنا قسوة شديدة فيه فكان فى رأيه ضرورة من ضرورات الحكم ، فمن القضايا المسلمة عنده أن الناس — والدول بالتأكيد — لا يمكن أن يساسوا باللطف ، بل لا بد من تخويفهم بالصرامة . إنه أحب فرنسا ، ولكن الفرنسيين لم يبعثوا فيه حرارة الحب . وقد وافق كوزيمو دى مديتشى على أن الدولة لا يمكن حكمها بالصلوات الربانية ، ووافق مكيافللى على أن أخلاقيات المسيح لا يمكن اتباعها بأمان فى حكم الأمة أو صيانتها . كتب يقول « ان المسيح لا يسعه الإبطاء فى العفو عن الإساءة ، ولكن الحاكم لا يسعه الإبطاء فى عقابها إذا كانت جريمة ضد الدولة . . . . ولا بقاء للدول بغير هذه الفضيلة (فضيلة الصرامة) التى تصبح شفقة بقدر ما يمنع عقاب مجرم واحد ألف مجرم من نسيانه[٣١] » . وريشليو هو الذى روج عبارة « مبرر الدولة » ، أى أن القانون الأخلاقى يجب أن يخضع لمبررات الدولة[٣٢] . ويبدو أنه لم يخامره قط شك فى أن سياساته هى واحتياجات فرنسا شىء واحد ، ومن ثم اضطهد أعداءه الشخصيين بنفس الحزم الذى عاقب به أعداء الملك .

على أنه كان داخل قلعته وجبهته الدبلوماسية إنسانا ، يهفو إلى الصداقة ،

بحس عزلة العظماء ووحشتهم . ويريدنا كتاب تالمان « أقاصيص » المملوء بالقيل والقال أن نصدق أن ريشليو حاول أن يجعل من مارى مديسى خليلة له ، وكانت تكبره بعشرين عاما(٣٣) ؛ ولكن هذا بعيد الاحتمال . وهناك أساطير أخرى عن علاقات الكردينال الغرامية السريه ، حتى مع نينون دلانكلو ؛ وما كان لينتهك عرف العصر أن يعزى رجل السياسة المرهق نفسه ببعض الانحرافات . بيد أن كل ما نعرفه عن عواطفه معرفة واضحة هو أنه كان شديد التعلق بابنة أخته مارى — مادلين دكومباليه. فقد أرادت أن تدخل ديرا بعد أن ترملت عقب زواجها ، ولكن ريشليو أقنع البابا بمنع هذا ، وأبقاها قريبة منه لتدير بيته ، واستجابت بالاخلاص له اخلاصا أشد حرارة من أكثر العلاقات الغرامية . وكانت تلبس لباس الراهبة وتخفى شعرها . وسلك ريشليو منها مسلك اللياقة الواجبة كله ، ولكن الملكتين رفضتا تبرئتها لفقدان الأدلة الكافية على إدانتها ، وسبقتا غيرهما إلى حديث الشائعات الذى أضاف وخزة جديدة لقصة الكردينال . إنه لم يحب « رجلا ، ولا امرأة أيضاً » وقد ثار كلاهما منه .

أما ما كان يملكه فوق كل شيء فهو الارادة . وقليل من الناس فى التاريخ كله من اجتمعت لهم هذه الوحدة فى الهدف ، وهذا المضاء والثبات فى السعي إليه ؛ وما كان لقوانين الحركة أن تكون أكثر ثباتا . ولا بد أن نعجب بإخلاصه لواجباته ، وإفنائه نفسه فيها طول سنين من الجهد وليالى حرم فيها النوم . وقد كرس هذه الجهود لأولئك الذين يسر لهم النوم دون مخاوف مستظلين برعايته الساهرة . ولا بد أن نعترف له بالشجاعة الفائقة التى تصدت للنبلاء الأقوياء والنساء الدساسات ، وقاومتهم وصدتهم ، وقضت عليهم فى غير خوف ولا رهبة وسط المؤامرات المتكررة على حياته . وقد غامر برأسه المرة بعد المرة بسبب نتائج سياساته .

وقلما كان يشعر بالعافية . فقد عرضته الحمى التى ابتلته بها مستنقعات بواتو لصداع متكرر كان أحيانا يلازمه أياما بطولها . ولعل جهازه العصبى

كان ضعيفا بالوراثة . أو مضرورا بالخلقة ، فقد كانت إحدى شقيقاته ضعيفة العقل ، وأحد إخوته مجنونا بعض الوقت ، وأرجفت شائعات القصر أن الكردينال ذاته تعتريه نوبات من الصرع وهلوسات جنونية(٣٤) . وكان يعانى من البواسير ، والبثور ، ومرض المثانة ؛ وكانت أزماته السياسية تزداد تعقدا أحيانا بحصر البول كما كان الشأن مع نابليون(٣٥) . وقد حملته علته على التفكير غير مرة فى الاعتزال ، ولكنه وهو حبيس إرادته كان يأخذ الزمام ثانية ويواصل النضال .

ولسنا نستطيع أن ننصفه إلا إذا نظرنا إليه فى مجموعه ، بما فيه من ملامح تتخذ شكلها ونحن ماضون فى الرؤية . لقد كان رائدا للتسامح الدينى ، رجلا واسع الثقافة حساسها ، ذواقة للموسيقى ، وجماعا خبيرا للفنون ، وعاشقا للدراما والشعر ، وصديقا معينا لرجال الأدب ، ومؤسسا للأكاديمية الفرنسية . ولكن التاريخ يذكر فيه بحق أولا وقبل كل شىء الرجل الذى حرر فرنسا من تلك السيطرة الأسبانية التى نجمت عن الحروب الدينية والتى جعلت من فرنسا ، بمقتضى الحلف ، دولة تتلقى من أسبانيا معاشا ، بل تكاد تكون تابعة لها . انه حقق ما كان فرنسيس الأول وهنرى الرابع يصبوان طويلا إليه وما أخفقا فى تحقيقه ، فقد كسر « النطاق الخانق » الذى طوقت به دولتا الهابسبورج فرنسا . ولا بد أن تفصل الصفحات التالية تلك الاستراتيجية البعيدة النظر التى حسم بها حرب الثلاثين سنة ، وأنقذ البروتستنتية الألمانية باعتبارها حليف فرنسا الكاثوليكية ، ويسر لمازران أن يصوغ صلح وستفاليا البناء . أما لفرنسا ذاتها فقد خلق وحدة وقوة على حساب دكتاتورية واستبدادية ملكية ولدت الثورة حين حان وقتها . وإذا كان أول واجبات رجل الدولة أن يجعل شعبه سعيدا حرا ، فإن ريشليو كان شديد القصور فى تحقيق هذا الهدف . وقد أدانه الكردينال ريتز — وهو قاض ذكى ولكنه لم يتجرد من التحامل — لأنه « أرسى أشنع وأخطر طغيان استرق دولة ربما فى التاريخ كله(٣٦) » . ولو

سئل ريشليو فى هذا لربما أجاب بأن على رجل الدولة أن يأخذ فى الاعتبار سعادة وحرية الأجيال القادمة لا جيله فحسب ، وأن عليه أن يقوى وطنه ليحميه من الغزو أو السيطرة الأجنبية ، وأن له فى سبيل هذا الهدف أن يضحى بحق جيلا حاضرا من أجل أمن الأجيال التالية . وبهذا المعنى رأى فيه أوليفاريس ، غريم ريشليو الأسبانى ، « أقدر وزير فى العالم المسيحى فى الألف السنة الأخيرة (٢٧) » . ورأى فيه تشسترفيلد « أكفأ رجل دولة فى عصره وربما فى أى عصر آخر(٢٨) » .

وكانت عودته من نصره النهائى فى روسيون موكب الجنازة لرجل ما زال على قيد الحياة . استقل زروقاً من تاراسكون إلى ليون على الرون ، ومكث فى ليون حتى حوكم سانك – مارس ودتو وأعدما ، ثم اضطر لضعفه من ألم تسبب عن ناسور شرجى أن يذهب إلى باريس على محفة حملها أربعة وعشرون من حراسه ، واتسعت لسرير الرجل المحتضر ، ومائدة ، وكرسى ، وسكرتير يملى عليه أوامر للجيش ورسائل دبلوماسية . واستغرقت مسيرة الموت هذه ستة أسابيع ، وعلى طول الطريق احتشد الناس ليلقوا نظرة خاطفة على الرجل الذى لم يكن فى قدرتهم أن يعطوه الحب ، بل الخوف ، والاحترام ، والتبجيل ، بوصفه التجسيد المهيب للكنيسة والدولة جميعاً ، ونائب الله والملك . فلما بلغ باريس نقل إلى قصره دون أن يبرح محفته . وأرسل استقالته لمولاه الذى رفض قبولها . وحضر لويس إلى فراشه ، ومرضه ، وأطعمه ، وتساءل ماذا عساه يفعل إذا توقفت هذه الإرادة المتجسدة عن الحياة . أما كاهن اعتراف الكردينال فقد سأله بعد أن ناوله القربان الأخير هل غفر لأعدائه ، فأجاب بأنه لم يكن له قط أعداء إلا أعداء فرنسا . وبعد يوم من الغيبوبة مات فى ٤ ديسمبر ١٦٤٢ ، وهو فى السابعة والخمسين . وأمر الملك بأسبوع كامل من مراسم الحداد ، ومرت صفوف المشاهدين بجثمانه طوال يوم ونصف . ولكن الناس فى كثير من الأقاليم أشعلوا نيران الفرح شكراً لله على موت الكردينال الحديدى(٢٩)

واستمر يحكم فرنسا حينا . وذلك أنه أوصى بجوليو مازاريني خلفا له في الوزارة ، ووافق لويس . وقد ترك عشرة مجلدات من المذكرات ، مسجلا فيها أعمال الدولة كأنها ليست أعماله بل أعمال الملك . وكان في سنواته الأخيرة قد أهدى لويس « ميثاقاً سياسياً » « يصلح بعد موتي لإدارة مملكتك وسياستها . » هنا ، وسط بعض الملاحظات التافهة نجد قواعد دقيقة بليغة للحكم ، صيغت في أسلوب يضارع أي أسلوب في زمانه . إنه ينصح الملك بأن يجتنب الحرب ، باعتبارها شيئاً لا يصلح له جلالته بطبعه. « إن مصالحة عشرة أعداء أجدى وأدعى للفخر من القضاء على عدو واحد[٤٠] » ثم أسر إليه أن الفرنسيين قوم لم يخلقوا للحرب ، ففي بدايتها يكونون الشجاعة كلها والحماسة كلها ، ولكن يعوزهم الصبر ورباطة الجأش انتظاراً للحظة المواتية ، وبمضي الوقت « يفقدون الاهتمام ، ويغدون أضعف حتى من النساء[٤١] » . ويجب أن يكون للملك ، كالقائد ، شجاعة الرجال القادرة على مقاومة الميول العاطفية ، وعليه ألا يعطي النساء كلمة في الحكومة ، لأنهن يتبعن نزواتهن وأهواءهن أكثر مما يستمعن لصوت العقل[٤٢] . على أن « الفكر » في المرأة لا يناسبها « لأني لم أر في حياتي امرأة عالمة لم يفسدها علمها[٤٣] » . والنساء لا يستطعن كتمان السر ، « والكتمان روح السياسة[٤٤] » ، ورجل الدولة الحصيف قليل الكلام كثير الإصغاء[٤٥] » . وهو يحذر أن يسيء بكلمة غافلة ؛ وهو لا يتكلم بشر عن أحد إلا إذا اقتضى ذلك صالح الدولة[٤٦] . ومن واجب الملك أن يكون لديه معلومات عامة عن تاريخ جميع الدول ونظامها ، لا سيا دولته[٤٧] . » ثم يرجو المؤلف شيئاً من التفهم لوزارته وخلقه « إن عظماء الرجال الذين يعينون لحكم الدول أشبه بالمحكوم عليهم بالتعذيب ، مع فارق واحد ، هو أن هؤلاء يتلقون العقاب على سيئاتهم ، أما أولئك فعلى حسناتهم[٤٨] » .

وعاش الملك خمسة أشهر بعد موته . وقد ذكر الناس حكم لويس

القصير شاكرين ، لأنه أطلق السجناء السياسيين ، وسمح بعودة المنفيين ، وأتاح لفرنسا أن تتنفس . وكان يشكو من أن الكردينال لم يدعه يتصرف كما يشاء . كانت أمة قد ماتت قبل ريشليو ببضعة شهور ، فأمر بجلب جثمانها من كولونيا واحتفل بدفنها رسمياً ، وفي لحظاته الأخيرة توسل أن يغفر الله والناس له الخشونة التي عاملها بها .

ورأى نفسه يتهاوى ، ولكنه اغتبط بما كان عليه ولده البالغ من العمر أربعة سنين من عافية ووسامة . سأله معابثا « ما اسمك ؟ » فأجاب الصبي « لويس الرابع عشر » فقال الملك مبتسماً « ليس بعد يا بني ، ليس بعد » . وأمر بطانته بقبول وصاية الملكة حتى يبلغ ابنه سن الرشد . ولما أخبروه أن قد حانت منيته قال « إذن فأنا راض من كل قلبي يا إلهي[٤٩] » ومات في ١٤ مايو ١٩٤٣ وقد بلغ الحادية والأربعين . قال تالمان « ذهب الناس إلى مأتمه كأنهم يذهبون إلى حفل زفاف ، وظهروا أمام الملكة كأنهم في مباراة رياضية[٥٠] » . وكان الكردينال الرهيب قد أعد كل شيء لمجيء « الملك العظيم » و « القرن العظيم » .

الفصل السادس عشر

فرنسا إبان الحروب

١٥٥٩ — ١٦٤٣

١ – الأخلاق

بدأ الدين ، الذى اتخذت ألوانه ذرائع كاذبة لحروب كثيرة ، يعانى من تسخيره فى السياسة ؛ وازداد المتشككون فى قداسة عقائد تحاج بالمباراة فى سفك الدماء ، وبدأت فى الطبقات العليا الشكوك حول الآداب المسيحية تختلط بالتشكك فى العقيدة . وكان من علامات الزمن أن يبين قسيس تقى مثل بيير شارون جدارة الغريزة الجنسية وجهازها المضحك بالاحترام(١).

أما الفلاحون فقد احتفظوا بإيمانهم ، وقدسوا الناموس المسيحى حتى وهم ينتهكونه ؛ لقد يقتلون بعضهم بعضاً فى غضبة عابرة ، وقد ينحرفون عن سنة الزواج بواحدة إذا واتتهم الفرصة ونامت أعين الرقباء ، ولكنهم فيما عدا ذلك يحيون حياة مهذبة إلى حد محتمل ، ويستمعون إلى القداس بانتظام ، ويتناولون جسد المسيح ودمه مرة فى العام على الأقل . وأما الطبقات الوسطى — سواء من الكاثوليك أو الهيجونوت — فقد ضربت خير مثال للفضيلة المسيحية . كان أفرادها يحتشمون فى لباسهم ، ولا يتزوجون غير مرة واحدة ، ويهتمون بأعمالهم وأطفالهم ، ويختلفون إلى الكنيسة ، ويعطون الدولة كهنتها وأطباءها ومحاميها وقضاتها واستقرارها . وكان هناك نساء مثاليات حتى فى الطبقة الارستقراطية ، وقد وصف شارل التاسع امرأته اليزابيث النمسوية بأنها أكثر نساء العالم فضيلة ؛ ولكن يمكن القول عموماً إن العلاقات الغرامية فى الطبقات ذات الفراغ فى العاصمة ، وفى الصناع المهرة فى المدن ، أخذ زمامها يفلت . كان عصر حوافز

جسدية لاخفاء فيها . وقد بقي أثر من الحب الأفلاطوني ، الذي تسلى به بيمبو وكاستليوني في : ليا ، ومرجريت نافار في فرنسا ، في ندوة مدام درامبوييه (وهي ذاتها إيطالية) ، ولكنه كان في أكثره حيلة نسائية ، ومقاومة في العمق لإضفاء المجد على القلعة .

كانت كاترين مديتشي — على قدر علمنا — زوجة مخلصة وأما شديدة الاهتمام بأبنائها ، ولكن الشائعات اتهمتها بتدريب النساء الجميلات على إغراء أعدائها حتى يخضعوا(٢) ، وقد وصفت جان دالبير (وفيها بعض خلق المتحشمات) بلاط كاترين بأنه « أفسد المجتمعات قاطبة وألعنها(٣) » . وكان برانتوم مروجا للفضائح ، ولكن شهادته يجب أن تدخل الصورة : « أما نساؤنا الفرنسيات الجميلات . . . . فقد تعلمن في السنين الخمسين الأخيرة قدراً كبيراً من اللطف والرقة ، وكثيراً من الجاذبية والفتنة في ملبسهن ، وفي نظراتهن الجميلة وأساليبهن الفاجرة . . . بحيث لا يستطيع أحد الآن أن ينكر تفوقهن على جميع النساء من كل وجه . . . ثم إن لغة الحب اللعوب هي في فرنسا أشد خلاعة وأكثر إثارة وأحلى منطقاً مما هي في اللغات الأخرى . وفوق هذا كله ، فإن هذه الحرية المباركة التي أتيحت لنا في فرنسا . . . تجعل نساءنا مرغوبات ، ساحرات ، لينات ، طيعات أكثر من جميع النساء ، يضاف إلى هذا أن الزنى لا يلقى عموماً من العقاب ما يلقاه في أقطار أخرى . . . وباختصار فإن ممارسة العشق في فرنسا شيء لطيف(٤) » .

وقد ضرب الملوك المثل في الخلق الفاشي في المجتمع . فقد مات فرنسيس الثاني قبل أوانه بسبب شهواته . وكان لشارل التاسع محظيته ماري توشيه . وانتقل هنري الثالث من الغانيات إلى المرد . أما هنري الرابع فثبت على عشق المرأة . ويبدو أنه لا هو ولا خليلته جابرييل دستريه اعترضا على تصويرها عارية حتى خصرها(٥) . ولما تزوجت ابنته هنريتا ماريا الفرنسية البالغة سبعة عشر ربيعاً ، من تشارلز الأول ،بلغت اتصالاتها الغرامية من

الكثرة مبلغاً حمل كاهن اعترافها على أن ينصحها بأن تتخذ المجدلية مثالا لها ، والجلترة كفارة عن ذنوبها (٦) .

ولكن حتى مع هذه الأوضاع كان لطف النساء ولين جانبهن متخلفاً عن نهم الرجال ، وجهدت المومسات لإشباع الطلب المتزايد عليهن . وقد عرفت باريس منهن ثلاثة أنواع : « العنزة المصففة الشعر » للبلاط ، و « الطير الصداح » للبورجوازية ، و « الحجرية » التي تسد مطلب الفقراء وتسكن بدروسا من الحجر . وكان هناك غانيات متعاليات لرجال الطبقة الارستقراطية ، مثل ماريون ديلورم ، التي اعترفت عشر مرات وهي تحتضر ، لأنها بعد كل حل ذكرت نفسها بخطايا لا حصر لها (٧) . وقد أصدر شارل التاسع وهنرى الثالث مراسيم بحظر المواخير ، ونص أمر أصدره لويس الثالث عشر (١٦٣٥) على أن كل بغى تضبط يجب أن « تضرب بالسوط ويجز شعرها وتنفى » وأن كل الرجال المشتركين فى هذه التجارة يجب أن يرسلوا إلى سفن تشغيل المجرمين مدى الحياة (٨) . واحتج عدة رجال ، ومنهم مونتيني وقسيس هيجونوتى ، على مثل هذه الإجراءات وطالبوا بإجازة المواخير صيانة للأخلاق العامة (٩) . وظلت هذه القوانين فى السجلات القانونية حتى أواخر القرن الثامن عشر ، ولكنها لم تكن تطبق إلا نادراً . وحاولت قوانين أخرى عبثاً أن تقضى على انحرافات الطبيعة ونزواتها ويروى مونتيني قصة فتاة تحولت رجلا فى الثانية والعشرين . (١٠) ووجد الأدب الفاحش سوقاً رائجة ، وعرضت نوافذ حوانيت المطابع صوراً فاجرة دون أن تلقى أى تدخل مما نعرفه اليوم .

وعانت الفضيلة الاجتماعية والسياسية من الحروب . وتوسع فى بيع الوظائف العامة حتى أوشك أن يكون رشوة شاملة . وكانت الإدارة المالية قبل أن يطهرها صلى فاسدة إلى حد الفوضى (١١) . ولم تكن الحرب تدمر تدميراً أعمى كما أصبحت بعد قليل فى عهد لويس الرابع عشر ، ومع ذلك نسمع بجيوش ، من الهيجونوت والكاثوليك على السواء ، تشتبك فى جرائم بالجملة من قتل ونهب واغتصاب وتعليق للمواطنين من أباهمهم أو اشعال

للنار تحت أقدامهم لانتزاع الذهب الذي يخفونه . وزاد انتشار المبارزة في القرن السادس عشر ، ربما لأن السيف أصبح جزءا مألوفا من ملبس الرجال . وقد حرمها شارل التاسع بحض ميشيل لوبيتال ، ولكنها كادت تصبح وباء متفشيا في عهد هنري الثالث ، وكان ينتظر أن يشتبك الشاهدان كما يشتبك الخصمان الرئيسيان ؛ يقول مونتيني إن المبارزات غدت الآن معارك . واختلف مرسوم ريشليو الذي حرم المبارزة عما سبقه في أنه نفذ تنفيذا صارما لا تحيز فيه . ولكن العادة انتعشت بعد موته .

وكانت الجريمة مألوفة . وكان أكثر باريس لا يضاء ليلا ؛ وأفرخت السرقة والقتل ، وأشاعت المشاجرات العنيفة الفوضى في الشوارع ، وكان السفر في الريف خطرا يهدد الحياة والأوصال . أما العقوبات فوحشية ، ولسنا على ثقة من أنها كانت معوقات ناجعة للجريمة ، ولكن لعل الجريمة كانت بدونها تستشري . وأما السجن فكان لطيفا للسادة ، ففي استطاعة النبلاء نزلاء الباستيل أن يدفعوا ثمنا لمساكن مريحة تفرش بأثاثهم وتنزلها نساؤهم . أما عامة المجرمين فقد يزج بهم في زنزانات خانقة أو يرحلون إلى المستعمرات أو يحكم بتشغيلهم في سفن العبيد والمجرمين . وترجع آثار هذه العقوبة إلى عام ١٥٣٢ ، ولكن أول تشريع لها في القانون الفرنسي يرجع إلى عام ١٥٦١ . وكان يحكم على نزلاء هذه السفن عادة بعشر سنين ، وتدمغ ظهورهم بالحروف الثلاثة الأولى لمجرمي السفن « جال » . وكانوا في الشتاء يمكثون في سفنهم حبيسين أو يحشرون كالأنعام في السجون لا سيما في طولون أو مارسيليا . وفي أثناء الحروب الدينية حكم على كثير من الهيجونوت الأسرى بالسجن في هذه السفن ، وهناك يلقون من المعاملة الوحشية ما يحلو أمامه الموت . وتفجرت أوبئة الانتحار في تلك السنين المرة ، وعلى الأخص بين نساء ليون ومارسيليا .

٢ — آداب السلوك

تحسنت آداب السلوك بينما انحطت الأخلاق . فقد جلبت كاترين دي

مدينشي معها الأدب الإيطالى ، واحساسا بالجمال ، وولعابالأناقة،ورهافة فى الأثاث والملبس . وكان من رأى برانتوم أن بلاطها أروع بلاط وجد، « فردوس أرضى حقيقى » يتألق « بثلاثمائة سيدة وآنسة على الأقل » (١٢) مرتديات أغلى الثياب وأفخرها . وأزاحت مراسم البلاط الفرنسى التى أرساها فرنسيس الأول المراسم الإيطالية من مكان الصدارة والقدوة لأوربا . وأنشأ هنرى الثالث منصب المدير الأكبر للمراسم الفرنسية ، وأصدر مرسوما يفصل مراسم السلوك فى البلاط وبروتوكوله ، ويحدد الأشخاص الذين يسمح بمثولهم بين يدى الملك ، وطريقة مخاطبته ، وخدمته فى يقظته وزينته ، وطعامه ، ونومه ، ومن يرافقه فى نزهته أو صيده ، ومن يحضر مراقص البلاط . وقد أصر هنرى الثالث ، الخجول النيّق ، على هذه القواعد ، وانتهكها هنرى الرابع فى غير تحرج ، وتجاهلها لويس الثالث عشر ، وتوسع فيها لويس الرابع عشر حتى أصبحت طقوسا تنافس القداس المطول .

أما ملابس القصر فقد ازدادت غلاء وزخرفا . فقد ارتدى المرشال باسومبيير سترة قماشها من الذهب أثقلتها لآلىء تزن خمسين رطلا وثمنها أربعة عشر ألف إيكو (١٣) . ولبست مارى مديسى فى حفل عماد ولدها عباءة مرصعة بثلاثة آلاف ماسة واثنين وثلاثين ألف حجر كريم آخر (١٤). وكان الرجل من رجال البلاط يعد نفسه فقيرا ما لم يملك خمسا وعشرين سترة من مختلف الطرز . وتعددت القوانين المقيدة للانفاق على الطعام والكساء ولكنها سرعان ما كانت تهمل . فحظر قانون منها أصدره هنرى الرابع « على جميع سكان هذه المملكة أن يلبسوا الذهب أو الفضة على ثيابهم ، إلا البغايا واللصوص (١٥) » . ولكن حتى هذا الربط الذكى كان عديم الجدوى . وشكا الوعاظ من المجازفة المبيته التى أقدمت عليها السيدات حين لم يسترن ما استدار من أعضائهن إلا بمقدار . ويزعم مونتينى ، الذى لم يكن كثير الوقوع فى خطيئة خداع النفس بالأوهام ، أن سيداتنا

« وإن كن أنيقات رقيقات » يرين مرارا مكشوفات الصدر حتى السرة[١٦].
ورغبة فى تأكيد بياض البشرة أو حمرة الخدود ، بدأت النساء فى القرن السابع عشر تزيينها ببقع أو رقع سماها أصحاب الأمزجة غير الشعرية « الموش » أو الذباب . وقسين مشدأتهن بعظم الحوت وفردن تنانيرهن المطوقة بالسلك . ورفعن شعورهن فى العديد من الأشكال المغرية أما الرجال فأطلقوا شعورهم المجعدة طويلة مرسلة ،وتوجوا رءوسهم بقبعات عريضة يزينها ريش مرح . وأفشى لويس الثالث عشر بدعة الشعر المستعار لما أصابه من صلع مبكر . وهكذا تبارى الجنسان فى غرور المظهر وخيلائه .

ولم تمنعهم آدابهم من تناول الطعام بأصابعهم . ولم تحل الشوكة محل الأصابع ، حتى بين النبلاء ، إلا عام ١٦٠٠ ،وليس قبل عام ١٧٠٠ تقريبا فى غيرهم من الطبقات . وقد حقق مطعم عصرى يدعو لاتور دراجن الشهرة بتقديمه الشوك لزبائنه ، وكان هنرى الثالث يتغدى فيه وهو عائد من صيده ، وكان الفرنسيون يأكلون الضفادع والقواقع فى القرن السابع عشر . أما شرابهم المفضل فهو النبيذ . وقد بدأوا يستعملون القهوة ولكنها لم تكن بعد شرابا لا غنى عنه . وكان الكاكاو قد دخل فرنسا من المكسيك بطريق أسبانيا ،وذمه بعض الأطباء زاعمين أنه ملين فى وقت غير مناسب ، ووصفه غيرهم دواء للأمراض التناسلية ، وروت مدام دسيفينى أن سيدة حاملا أسرفت فى شربه إسرافا جعلها تلد « ولدا صغيرا أسود كالشيطان »[١٧] .

وانعكس التحسن فى آداب السلوك على وسائل الانتقال والترفيه . فشاع الآن استخدام المركبات العامة فى غرب أوربا ، وبدأ الميسورون من الفرنسيين يسافرون فى عربات فخمة مجهزة بالستائر والزجاج . وفشت لعبة التنس ، وأولعت كل الطبقات بالرقص . ودخلت رقصة البافان من أسبانيا ، وقد اشتقت اسمها من كلمة « بافو » الأسبانية ومعناها الطاووس ،

وأضفت عليها حركاتها الرشيقة المتعالية نزعة ارستقراطية ، وأعان التقبيل الذي كان جزءا منها على إثارة الدم فى العروق ، وفى عهد كاترين مديتشى أصبح الباليه قمة أسباب الترفيه فى البلاط، إذ جمع بين الموسيقى والرقص ليقص قصة بالشعر أو الإيماء (البانتوميم) ، وشاركت فيه أجمل نسائها، فى ملابس ومشاهد صممت تصميما فنيا ، وقد أقيم حفل من حفـلات الباليه هذه فى التويلرى غداة مذبحة القديس برتلميو .

وكان الموسيقيون أبطال الساعة العابرة . افتتن بهم الفرنسيون فتنـة كبرى ، حتى أن رجلا من الحاشية كان يحضر حفلة موسيقية عام ١٥٨١ ضرب سيفه بيده وأقسم أنه متحد أول رجل يقابله للمبارزة ، وهنا قاد قائد الفرقة فرقته فى لحن رقيق هدأ من هياجه[١٨] . وظل العود الآلة المفضلة ، ولكن حدث فى عام ١٥٥٥ أن بلتازار دبوجوايبو ، أول عازف كمان شهير فى التاريخ ، جلب فرقة من عازفى الكمان إلى بلاط كاترين وأشاع موسيقى الكمان . وفى عام ١٦٠٠ تبع أوتافيو رينوتشينى مارى مديسى إلى فرنسا ، وأدخل فيها فكرة الأوبرا . وكان الغناء لا يزال الموسيقى المفضلة ، وقد رأى الأب مرسين بحق أنه ليس فى الطبيعة صوت يضارع جمال صوت المرأة[١٩] .

واجتمعت الآن الموسيقى ، والأدب ، والسلوك المهذب ، والحديث المثقف — لتؤلف كلها إضافة من أهم الاضافات التى أغنت بها فرنسـا الحضارة — وهى الصالون . وكانت إيطاليا ، الأم الراعية للفنون الحديثة ، قد مهـدت له باللقاءات المهذبة ، كتلك المنسوبة لأوربينو فى كتاب كاستليونى « رجل البلاط » ، ومن إيطاليا انتقل الصالون إلى فرنسا — كما انتقل إليها الكمان ، والقصر الريفى (الشاتو) ، والباليه ، والأوبرا ، والزهرى . وقد ولدت مؤسسة الصالون بفرنسا فى روما (١٥٨٨) لجان دفيفون ، السفير الفرنسى لدى البابا ، وجوليا سافيللى إحدى وريثات أورسينى . وتلقت كاترين دفيفون تعليما لم تألفه الفتيات فى القرن السادس

عشر . وحين بلغت الثانيه عشرة تزوجت من شارل دانجين ، وكان يشغل فى عهــد هنرى الرابع ولويس الثالث عشر منصبا كبيرا بلقب المركيز رامبوييه . وشكت المركيزة الشابة من قصور لغة الحديث وآداب السلوك فى فرنسا عنها فى إيطاليا سلامة وتهذيبا ، ولاحظت فى استنكار ذلك الفصل بين الطبقات المفكرة—من شعراءوأدباء وعلماء—وبين النبلاء .وفى عام ١٦١٨ صممت لأسرتها « الأوتيل درامبوييه » فى شارع سان — توما — دلوفر بباريس . وفى غرفة منه علقت لوحات من المخمل الأزرق حواشيها من الفضة والذهب . فى هذا « الصالون الأزرق » الفسيح استقبلت المركيزة ضيوفها فى ما أصبح أشهر صالون فى التاريخ . وقد حرصت على أن تدعو إليه رجالا ونساء ذوى آداب متجانسة وميول متنوعة : نبلاء مثــل كونديه الكبير ولاروشفوكو ، وكنسيين مثل ريشليو وأوبه ، وقواداً مثل مونتوسييه وباسومبيير ، وسيدات من ذوى النسب العريق كالأميرة كونتى ودوقتى لونجفيل وروهان ، وأديبات مثل مدام دلافاييت ومدام دسفني والآنسة دسكوديرى ، وشــعراء مثل ماليرب وشابلان وجى دبالزاك ، وعلماء مثل كونرار وفوجلا ، وظرفاء مثل فواتور وسكارون . هنا وعظ بوسويه عظة وهو فى الثانية عشرة ، وقرأ كورنيى تمثيلياته . هنا تعلم النبلاء أن يهتموا باللغة والعلم والدرس والشعر والموسيقى والفن ؛ وتعلم الرجال من النساء آداب المجاملة ، وتعلم المؤلفون أن يخفوا غرورهم ، والفقهاء أن يهذبوا فقههم ، والتقى الظرفاء بذوى النسب ، وناقش القوم الكلام الصحيح واكتسبوه ، وأصبح الحديث فنا من الفنون .

وتناولت المركيزة هذه الأسد والنمر بلباقة قلمت مخالبها دون أن توجعها . ومع أنها ولدت سبعة أطفال ، إلا أنها احتفظت بجمالها فترة كفت لإلهام فولتير وماليرب العاطفة المشبوبة ، فكان الشاعران يلتهبان لكل ابتسامة، ولكنها برغم هذه النيران كانت محــل احترام الجميع لوفائها لزوجها الخامل ؛ وبرغم ضعف صحتها ضربت لضيوفها المثل فى البشاشة والذكاء المفعم بالحيوية ؛ وبرغم فقدانها ولدين اختطفهما الموت وثلاث بنات

اختطفهن الذين اسكتت حزنها حتى كتبت قبريتها . وفى جو من الإباحية الجنسية والحديث الجامح أشاعت من حولها جوا من الأدب واللياقة . وأصبحت « سلامة الذوق » جواز الدخول لصالونها . وكان القواد والشعراء يتركون سيوفهم ورماحهم فى البهو ، وخفف الأدب من حدة الخلافات ؛ وازدهر النقاش وأقصى الجدل العنيف .

وأخيرا أسرف القوم فى هذا التهذيب . لقد رسمت المركيزة قانونا يتوخى الدقة فى القول والفعل ، ولكن الذين طبقوه فى تزمت سموا « المتحذلقين » و « المتحذلقات » ، وفى عام ١٠٥٩ حين كانت المركيزة قد اعتزلت وأصبحت وحيدة ، انقض فولتير على هذه الرواسب الغريبة المتخلفة من فنها وقضى عليها بسخريته القضاء المبرم . ولكن حتى الاسراف كان له نفعه ، فهؤلاء « المتحذلقات » ساعدن على جلاء معنى الألفاظ والعبارات ومدلولها . وتنقية اللغة من الإقليمية ، والنحو الرديء ،والتقعر ؛ هنا بذرة الأكاديمية الفرنسية . وفى الأوتيل درامبوييه طور ماليرب وكونرار وفوجلا قواعد الذوق الأدبى التى أفضت إلى بوالو والعصر الكلاسيكى . وقد ساهمت « المتحذلقات » فى ذلك التحليل للعواطف الذى أطال الروايات الغرامية ، وفتن به ديكارت وسبينوزا ، وساعدن على توشية علاقات الجنسين باستراتيجية الانسحاب والتمنع ،وما يتبعهامن تصور الكنز الرواغ تصورا مثاليا،مما أفضى إلى الحب الرومانسى . وبفضل هذا الصالون وما جاء بعده من صالونات أصبح التاريخ الفرنسى أكثر منه فى أى وقت مضى ثنائى الجنس . وارتفع مقام النساء ، وازداد أثرهن فى الأدب واللغة والسياسة والفن . وعظم احترام المعرفة والفكر ، وانتشر الاحساس بالجمال .

ولكن أكانت الصالونات والأكاديمية جاعلة رابليه مستحيلا ؟ أكانت موصدة العقل الفرنسى أمام فسيولوجية مونتينى المرحة ، وأخلاقياته السمحة ، وحذلقته المتزايدة ؟ أم كانت موجهه هذين العبقريين قسرا ورافعة إياهما إلى فن أكثر رهافة وعلوا ؟ .

ولكننا سرنا شوطا أبعد مما يجب . فحين فتحت مدام درامبوييه صالونها كان قد مضى على موت مونتيني ست وعشرون عاما . فلنرجع في مسيرتنا ونستمع ساعة إلى أعظم كاتب ومفكر فرنسي في هذا الجيل .

٣ — ميشيل دمونتيي ١٥٣٣ — ٩٢

ا — تعليمه

وصف جوزف سكا ليجر والد مونتيني بأنه بائع رنجة . ولكن هذا العالم الكبير قفز . ٨١ ؛ ذلك أن الجد ، واسمه جريمون إيكيم ، هو الذي كان يصدر الأنبذة والأسماك المجففة من بوردو . وقد ورث هذه التجارة من جد ميشيل الأكبر ريمون إيكيم ، الذي جمع المال للأسرة بهذه الطريقة ، ثم اشترى (١٤٤٧) القصر والضيعة المعروفين باسم مونتيني على تل خارج المدينة . ووسع جريمون ميراثه بزواج حكيم . أما ابنه بيير إيكيم فقد فصل الحرب على الرنجة ، وانخرط في الجيش الفرنسي ، وقاتل في إيطاليا مع فرنسيس الأول ، وعاد بندوب وبآثار من النهضة ، وارتقى إلى منصب عمدة بوردو . وفي عام ١٥٢٨ تزوج أنطوانيت ، ابنة تاجر غني من تولوز يهودي المولد ، مسيحي العماد ، أسباني الثقافة . وولد ميشيل إيكيم ، الذي أصبح السيد الإقطاعي على مونتيني ، لبيير وانطوانيت ، وقد اختلط في رأسه الدم الغسقوني واليهودي . ثم زاد أفقه اتساعاً أن أباه كان كاثوليكياً تقياً ، وأمه على الأرجح بروتستنتية ، وأخته وأخاه كالفنيين .

وكان لبيير آراء في التعليم . يقول عنه ميشيل « إن هذا الأب الطيب أرسلني حتى وأنا بعد في المهد لأنشأ في قرية فقيرة يمتلكها ، وأبقاني فيها طوال الرضاع وبعده بقليل ، لأتربى أفقر وأبسط تربية شائعة[٢٠] » . وبينما كان الصبي في الحضانة عين له تابع ألماني لم يكلمه بغير اللاتينية . « ناهزت السادسة وأنا لا أفهم من الفرنسية أكثر مما أفهم من العربية[٢١] »

فلما دخل كلية جيين كان أساتذته (فيا عدا جورج بوكانان) يكرهون التحدث إليه باللاتينية ، لأنه يتكلمها بطلاقة . وقد برز فيها إلى هذا الحد «دون كتب ، أو قواعد ،أو نحو ، أو ضرب بالسياط ، أو أنين ونواح» .

ولعل الأب كان قد قرأ ما قاله رابليه فى التعليم . فحاول أن ينشئ ولده على المبادئ التحررية ، مؤثرا الحب على القسر . واستطاب مونتينى هذا النظام وأوصى به فى خطاب طويل عن التعليم[٢٢] ،صرح أنه كتبه إلى الليدى ديان دفوا ، ولكنه أنكره فى مقال متأخر وأوصى بالعصا معينا مقنعا للمنطق[٢٣] . كذلك لم يحذ حذو أبيه فى تفضيله اللاتينية أوالدراسات الكلاسيكية ومع أن ذاكرته كانت فياضة بالشواهد والمثل الكلاسيكية . إلا أنه استنكر الاقتصار على التعليم الكلاسيكى ، واحتقر التعلم من الكتب والمكبين على الكتب ، وآثر على هذا كله الاهتمام بتدريب الجسد لنيل الحكمة والفضيلة . « لسنا فى حاجة إلا لقليل من التعليم لكى تكون لنسا عقول سليمة[٢٤] » ، وقد نتعلم من مباراة فى التنس أكثر مما نتعلم من خطاب لاذع ضد كاتلين . وينبغى أن يربى البدن على أن يكون جلدا شجاعا ، قادرا على تحمل الحر والبرد دون تذمر ، وعلى إساغة مخاطر الحياة التى لا مفر منها . كان مونتينى يستشهد بالكتاب الأثينيين ، ولكنه آثر طرق الأسبرطيين فى العيش ؛ مثله الأعلى فضيلة رجولية ، تقريبا بالمعنى الرومانى الذى جعل هذه العبارة نافلة — وأضاف إليه المثل الأعلى الإغريقى « لا إفراط » — الاعتدال فى كل شىء ، حتى فى الاعتدال ، فعلى المرء أن يشرب الخمر فى اعتدال ، على أن يكون قادرا إن دعته المناسبة على الشرب الكثير دون أن يغيب عن وعيه .

وقد يكون السفر جزءاً هاماً من التعليم إذا تركنا أهواءنا وراءنا . « قيل لسقراط إن فلاناً لم يفده السفر مثقال ذرة ، فأجاب : أجل ، لأنه حمل نفسه معه فى سفره »[٢٥] ؛ فإذا استطعنا أن نفتح عقولنا وعيوننا وجدنا الدنيا خير كتاب نقرؤه ، لأن « الكثير جداً من الأمزجة الغريبة ،

والملل المتعددة . . . . والآراء المتنوعة ، والقوانين المختلفة ، والعادات الطريفة ، تعلمنا أن نصدر الحكم السليم على نظائرها عندنا [٢٦] » . ثم بعد السفر يأتى التاريخ أفضل معلم لنا ، وهو ليس إلا سفراً يمتد إلى الماضى . فالطالب «مستعيناً بكتب التاريخ يحيط بأفضل العقول فى خير العصور . . . فأى فائدة لا تجنيها . . . بقراءة « تراجم » بلوتارخ ؟ [٢٧] » وأخيراً يجدر بالطالب أن يتلقى بعض الفلسفة — لا « جدليات المنطق الشائكة » بل الفلسفة التى تعلمنا كيف نعيش . . . ومايجب معرفته وما لا يجب ، وما الشجاعه ، والاعتدال ، والعدل ؛ وأى فرق بين الطموح والجشع ، والرق والحرية ، وما العلامات التى يتبين الرجل بها القناعة الصادقة الكاملة ؛ وإلى أى حد يجب أن يخاف . . . الموت أو الألم أو العار . . . إن الطفل القادم من الحضانة أقدر على تلقى (هذه الدروس) من تعلم القراءة والكتابة [٢٨] » .

وبعد أن أنفق مونتيني سبع سنين فى كلية جيين دخل الجامعة ليدرس القانون . وما من شيء كان أقل من هذه الدراسة تجانساً مع عقله المستطرد وحديثه الواضح . فهو لا يمل من اطراء العادة وذم القانون . وقد لاحظ فى ابتهاج أن فرديناند الثانى ملك أسبانيا لم يبعث محامين إلى أمريكا الأسبانية مخافة أن يضاعفوا أسباب النزاع بين الهنود ، وتمنى لو أنه منع الأطباء أيضاً مخافة أن يخلقوا بعقاقيرهم أمراضاً جديدة [٢٩] . وعنــده أن شر البلاد ما استكثر من القوانين ، وقدر أن بفرنسامنها « أكثر مما لدى بقية العالم » . ولم ير أى تقدم فى نزعة القانون الإنسانية ، وتساءل هل بين الهمج وحشية كتلك التى يمارسها القضاة ذوو العباءات، ورجال الكنيسة الحليقو الرءوس ، فى غرف التعذيب بالدول الأوروبية [٣٠]. وافتخر بأنه « حتى اليوم (١٥٧٨؟) أنا برىء من جميع الدعاوى القانونية [٣١] » .

ب — صداقته وزواجه

ومع ذلك نجده عام ١٥٥٧ مستشاراً فى محكمة الاعانات فى بيريجو ، وعام ١٥٦١ عضواً فى برلمان بوردو — وهو المحكمة البلدية . وهناك لقى

وأحب إتيين دلابويتى . وقد رأينا فى موضع آخر من هذا الكتاب أن هذا الاستقراطى الشاب كتب وهو بعد فى الثامنة عشرة مقالا منسوب العاطفة ولكنه لم ينشره ، واسمه « مقال عن الرق الاختيارى » ، وقد اشتهر باسم « كونتران » — أى ضد حكم الرجل الواحد . وقد دعا الشعب فيه بكل البلاغة التى أوتيها دانتون فيما بعد ، إلى الثورة على الحكم المطلق . ولعل مونتينى نفسه شعر ببعض الحماسة الجمهورية فى شبابه . على أى حال جذبه هذا المتمرد النبيل ، الذى بدا له — وكان يكبره بثلاث سنوات — آية فى الحكمة والنزاهة :

« لقد فتش الواحد منا عن صاحبه قبل أن يراه ، ومن الأخبار التى سمعها عنه . . . أظن أننا بأمر سرى من السماوات تعانقنا باسمينا . وعند أول لقاء لنا ، وكان بالصدفة فى وليمة كبيرة واجتماع مهيب لمدينة بأمرها ، وجدنا نفسينا مندهشين ، متعارفين ، . . . مرتبطين ، بحيث أن شيئاً من الأشياء لم يقترب منا بعد ذلك اقتراب كل منا من صاحبه (٢٢) » .

ما السر فى هذه الصداقة العميقة ؟ يجيب مونتينى « لأنه كان هو ، ولأننى كنت أنا (٢٣) » — لأنهما كانا مختلفين اختلافاً جعلهما يكمل الواحد منهما صاحبه . ذلك أن لابويتى كان المثالية كلها ، والاخلاص الحار ، والرقة والحنان ؛ أما مونتينى فكان فيه من الثقافة والحصافة وعدم التحيز ما يمنعه من التفانى إلى هذا الحد ، وقد وصفه هذا الصديق ذاته بأنه « يميل إلى الرذائل والفضائل البارزة على السواء (٣٤) » . وربما كانت أعمق تجربة مر بها مونتينى فى حياته هى مشاهدته صديقه يحتضر . ففى عام ١٥٦٣ ، وخلال طاعون تفشى فى بوردو ، مرض لابويتى فجأة بالحمى والدوسنتاريا . وقد احتمل موته البطىء بجلد رواقى وصبر مسيحى لم يغب قط عن ذاكرة صديقه الذى ظل ملازماً لفراشه فى تلك الأيام الأخيرة . وورث مونتينى مخطوطة المقال الخطر وخبأها ثلاثة عشر عاماً ، ثم نشرت منه نسخة فى طبعة مسروقة (١٥٧٦) ، وهنا نشر الأصل ، وأوضح أنه تدريب فى البلاغة الصبى » فى السادسة عشرة : .

وجعلت هذه الصداقة كل علاقة إنسانية بعدها تبدو لمونتيني تافهة غثة . وقد كتب المرة بعد المرة أن نصفه مات مع لابويتي « لقد ألفت أن أكون دائماً أثنين ، ولم اعتد أن أكون وحدى قط ، حتى ليخيل إلى أننى لست إلا نصف نفسى[٣٥] » . وفى حرارة هذه الذكرى رفع الصداقة فوق الحب بين الوالد والولد ، والفتاة والفتى ، والزوج والزوجة . ويبدو أنه لم يكن يشعر بأى عاطفة رومانسية نحو أى امرأة . « فى شبابى عارضت الأفكار الشائعة عن الحب ، والتى أحسست أنها تغلبنى على أمرى ، وجاهدت لأقلل من متعتة مخافة أن . . . يسترقنى فى النهاية ويضعنى تحت رحمته[٣٦] » . ولا يعنى هذا أنه لم تكن له أويقات غرام ، فهو على العكس يعترف بعلاقات واسعة متعددة قبل زواجه[٣٧] . وقد وصف الحب الجنسى بأنه « ليس إلا لذة تدغدغ الجسم نتيجة إفراغ الأوعية المنوية ، أشبه باللذة التى تعطينا إياها الطبيعة فى إفراغ الأعضاء الأخرى ورى أنه من المضحك أن الطبيعة « خلطت لذاتنا وأوساخنا معاً[٣٨] » .

وقد وافق أكثر الفلاسفة على أن حافز الجماع ليس مبرراً للزواج . « لست أرى زيجات أسرع فشلا وأكثر كدراً من تلك التى تعقد من أجل الجمال ، أو تتم فى عجلة استجابة لرغبات الغرام[٣٩] » . فالزواج يجب أن يرتبه « طرف ثالث » ، وينبغى أن يرفض صحبة الحب (الجنسى) وشروطه « وأن يحاول » محاكاة شروط الصداقة » ؛ ويجب أن يصبح الزواج صداقة إن أريد له البقاء. وكان يميل إلى رأى المفكرين اليونان القائل بأن على الرجل ألا يتزوج قبل الثلاثين . وقد اجتنب هذا الرباط أطول ما استطاع . وإذ كان لايزال أعزب وهو فى الثامنة والعشرين ، فإنه سافر إلى باريس ، وافتتن بها[٤٠] ، واستمتع بحياة البلاط حينا (١٥٦٢) ، ورأى الهنود الأمريكين فى روان ، وتردد بين مفاتن الحضارة والهمجية المتنافسة ، ثم عاد إلى بوردو ، وتزوج فرانسواز دشاسين (١٥٦٥) .

ويلوح أنه تزوج لأسباب منطقية تماما : هى أن يكون له بيت وأسرة ،

وأن يورث الأسرة ضيعته واسمه . وفى صفحاته الخمسمائة والألف لا يكاد يذكر شيئا عن زوجته — ولكن لعل هذا من قبيل حسن الأدب « وهو يزعم أنه كان وفيا لها ، « مع أن الناس يذيعون عنى أنني إباحى ، إلا أنني (بنية صادقة) تقيدت بقوانين الزواج بدقة أكثر مما وعدت أو أملت (٤١) » . وكانت تغتفر استغراقات العبقرية فى ذاتها ، وتعنى بكفاية بالبيت والأرض وحتى بالحسابات ، لأنه لم يكن يميل إلى الأشغال التجارية . أما هو فقد أعطاها الاحترام كله ، وأمارة حب أو كلمته بين الحين والحين — كاستجابته الشاكرة لمساعدتها السريعة له بعد سقوطه من ظهر جواده ، وكأهدائه إياها طبعته للترجمة التى قام بها لابويتى لخطاب بلوتارخ « خطاب عزاء » . وكان زواجا موفقا ، وعلينا ألا نأخذ مأخذ الجد الشديد تلك السخريات الموجهة ضد النساء فى « مقالات » مونتيني ، فقد كانت بدعة فاشية بين الفلاسفة . وولدت له فرانسواز ستة أطفال ، كلهم بنات ، متن جميعا فى طفولتهن إلا واحدة ، يتكلم عنها فى حنان (٤٢). وحين بلغ الرابعة والخمسين تبنى فى أسرته فتاة فى العشرين اسمها مارى دجورنيه « أحببتها حبا صادقا يفوق حب الأب لابنته واعتبرتها جزءا من خير أجزاء كيانى ، وهبت لى فى بيتى وعزلتى (٤٣) » . إنه لم يكن فوق مشاعر الانسانية المشتركة بين البشر .

ج — مقالاته

فى عام ١٥٦٨ مات أبوه ، فورث ميشيل الضيعة بوصفه الابن الأكبر . وبعد ثلاث سنوات أو أربع استقال من برلمان بوردو ، واعتزل ضوضاء المدينة إلى ملل الريف . ولكن حتى فى الريف كان السلام قلقا ، لأن الحرب الدينية كانت تقسم فرنسا ومدنها وأسرها . فالجنود يغيرون على القرى ، ويدخلون البيوت ، ويسرقون ، وينتهكون الأعراض ، ويقتلون . « ذهبت إلى فراشى ألف مرة . . . وأنا أتخيل أنه قد يخوننى

من انتمنت أو قد أذبح فى فراشى (٤٤) » . ورغبة فى ثنى القوم عن العنف كان يترك أبوابه غير موصدة ويأمر بأن يستقبل المغيرون إن أتوا دون مقاومة . على أنهم لم يأتوا ، وترك مونتينى حرا ليعيش فى ركنه الفلسفى بين صراع العقائد وصليل السيوف ، وبينما كانت باريس وغيرها من الأقاليم تقتل البروتستنتية فى مذبحة القديس برتلميو ، كتب مونتينى أجل أثر فى النثر الفرنسى .

وكان أحب الخلوات إليه مكتبته الكائنة بالطابق الثالث من البرج الذى يرتفع فى واجهة قصره الريفى (دمرت النار القصر عام ١٨٨٥ ولكن البرج باق) . وقد أحب مكتبته كنفسه ، فكانت ذاته الثانية .

« شكلها مستدير ، وليس فيها جانب مستو إلا مايصلح لمكتبتى ومقعدى ، وهو وضع . . . يتيح لى بنظرة واحدة أن أشتمل ببصرى كل كتبى ... هناك كرسى ؛ هناك عرشى . وأنا أحاول أن اجعل حكمى فيها مطلقا ؛ وأن اختص بذلك المركز الوحيد دون صحبة زوجتى ، وأطفالى ، ومعارفى (٤٥) » .

وقل بين الرجال من استطاب مثله العزلة وهى أخوف ما نخاف :

« على المرء أن يفصل ويسترد نفسه من نفســه . . . علينا أن نحتفظ بمعين لأنفسنا . . . خاص بنا دون غيرنا ... نختزن فيه حريتنا ونرسيها . إن أعظم شىء للانسان فى العالم أن يعرف كيف يــكون نفســه » (٤٦) .

فى مكتبته تلك كان لديه ألف كتاب ، أكثرها مجلد مزخرف ، وكان يسميها « مواطن للذتى » ، فيها استطاع أن يختار صحبته ويعيش مع أحكمهم وأخيرهم . ففى بلوتارخ وحده « لأنه يتكلم الفرنسية » (فى ترجمة لآميو) استطاع أن يجد مائة عظيم يحضرون ويتحدثون إليه ،

وفى « رسائل » سنيكا استطاع أن يتذوق رواقية لطيفة صيغت فى عبارات رخيمة ؛ هذان (بما فيهما كتاب بلوتارخ « موراليا ») كانا أحب المؤلفين إليه ، «منهما أستقى مائى كما فعلت الدنايديات ، وأملأ دون توقف حالما يفرغ الماء (٤٧) ... والألفة التى نمت بينى وبينهما ، والعون الذى مدانى به فى شيخوختى ، وكتابى الذى لم أصغه إلا مما غنمت منهما ، كل أولئك يلزمنى صيانة شرفهما (٤٨)» .

وهو لا يستشهد بالكتاب المقدس أبدا (ربما لأنه مشهور جدا) ، وإن اقتبس مرارا من القديس أوغسطين . وهو فى الأغلب يؤثر القدامى على المحدثين ، والفلاسفة الوثنيين على الآباء المسيحيين . كان « انسانى » الفلسفة بقدر ما أحب آداب اليونان والرومان وتاريخهم ، ولكنه لم يكن عابدا أعمى للكلاسيكيات والمخطوطات ؛ ورأيه فى أرسطو أنه سطحى ، وفى شيشرون أنه ثرثار دعى . ولم يكن مطلعا كل الاطلاع على آثار اليونان ، ولكنه استشهد بالشعراء اللاتين فى تبحر طواف ألم حتى بواحد من أخص ابجرامات مارشال . وقد أعجب بفيرجل ، ولكنه فضل عليه لوكريتيوس . وقرأ « الأقوال المأثورة » لأرزم فى نهم . وكان فى مقالاته الأولى متحذلقاً ، يرصع كلامه بالعبارات الكلاسيكية المعادة . ومثل هذه الاقتباسات كانت تتفق وأسلوب العصر ، وقد استطاب القراء ممن لم تسعفهم قدراتهم على قراءة الأصول هذه النماذج باعتبارها نوافذ صغيرة يلمحون منها العالم القديم ، وشكا بعضهم من أنه لم يستكثر منها (٤٩) . ولكن من كل سرقاته الصغيرة خرج مونتينى هو هو على نحو فذ ، ضاحكاً من الحذاقة ، مجدداً فكره وكلامه . فهو فى ظاهره أشبه بالمقص واللصوق ، ولكن مذاقه طيب كطعام الآلهة .

وهكذا ، على مهل ، صفحة فصفحة ، ويوما بعد يوم ، كتبه

« المقالات » بعد عام ١٥٧٠(*) . ويلوح أنه اخترع الاسم (٥٠) Essais ، والنوع تقريباً ، ذلك أنه مع وجود « الأحاديث » discorsi و dsicours من قبل ، إلا أنها كانت شديدة الشكلية ، لا شبه بينها وبين أحاديث مونتيني الطبيعية ، الكثيرة التلافيف ، وقد نحا هذا الأسلوب المتمهل ، الذى يكره القارىء على الاستماع ، إلى طبع المقال بهـذا الطابع منذ موته ، فجعله نوعاً أدبياً تغلب عليه العصرية . يقول « إنى أتحدث إلى الورق كما أتحدث إلى أول شخص ألقاه (٥١) » . والأسلوب هو الرجل ، طبيعياً ، حميماً ، وثيقاً ، وإنها لراحة أن يتحدث إلينا أحد أئمة الفكر بهذه الألفة . افتح أى صفحة فى مقالاته ، تجده يمسك بذراعك ويسوقك معه دون أن تعرف ، وقلما يهملك ، إلى أين يمضى بك . كان يكتب جزءاً فجزءاً ، فى أى موضوع يخطر بباله أو يوافق مزاجه ؛ ويستطرد فى فوضى بعيداً عن الموضوع الأصلى أثناء تجواله ، فترى مقاله « عن المركبات » مثلا ينطلق مخترقاً روما القديمة وأمريكا الجديدة . وفى المجلدات الثلاثة ثلاثة تتألف من استطرادات . لقد كان مونتيني كسولا ، وما من شىء أشق من خلق النظام وحفظه فى الأفكار أو الرجال . وقد اعترف بأنه « متموج متنوع » ولم يقدس الثبات على الآراء ؛ فكان يغير آراءه كلما تقدم به العمر ، إنما الصورة المركبة النهائية هى مونتيني .

ووسط تدفق أفكاره المضطرب تجد أسلوباً واضحاً كأنه البساطة بعينها . ومع ذلك تراه يتألق باستعارات عجيبة كاستعارات شكسبير ، وبنوادر منيرة تحول المجرد فور الواقع . ويختطف فصوله الفاحص هذه الأمثلة أينما وجدها دون اكتراث لأى معوق خلقى . وهو يسلمنا فى عناية ملاحظة

(*) اشتملت الطبعة الأولى ، ١٥٨٠ ، على الكتابين الأول والثانى ، ووسعت الثانية الكتابين ، ١٥٨٨ ، وزادت كتاباً ثالثاً ، أما الطبعة الثالثة المحتوية على تنقيحه النهائى والتى نشرتها الآنسة دجورنيه فقد ظهرت عام ١٥٩٥ بعد موته ، وظهور تسع طبعات بين عامى ١٥٨٠ و ١٥١٨ شاهد على شعبيتها .

تلك المرأة التولوزية التي شكرت الله بعدأن غشيها عدة جنود «لأنني مرة فى حياتى ملأت بطني دون أن آثم (٥٢)».

د — الفيلســوف

إنه يزعم أن لديه موضوعاً واحداً — هو نفسه . « إنى أنظر داخل نفسى ، ليس لى شأن إلا مع نفسى ، فأنا لا أكف عن النظر فى أمر نفسى . . . . وتذوقها (٥٣) » . وهو يعمد إلى دراسة الطبيعة البشرية مباشرة ، عن طريق دوافعه ، وعاداته ، ومحابه ، ومكارهه ، وأسقامه ، ومشاعره ، وأهوائه ، ومخاوفه ، وأفكاره . انه لا يقدم لنا ترجمة ذاتية ، فهو لا يكاد يذكر فى المقالات شيئاً عن اشتغاله مستشاراً أو عمدة ، ولا عن أسفاره ، ر زياراته للبلاط ، وهو لا يكشف عن دينه أو مذهبه السياسى ، بل يعطينا شيئاً أثمن — ذلك التحليل الصريح النفاذ لجسمه وعقله وخلقه . وهو يبسط أخطاءه ورذائله فى لذة واسهاب . وتحقيقاً لهدفه يستأذن فى أن يتكلم بحرية ، فهو عامد إلى انتهاك أصول الذوق السليم ليعرض علينا إنساناً عارى الجسد والروح . تراه يتحدث فى صراحة صاخبة عن وظائفه الطبيعية ، ويستشهد بالقديس أوغسطين وفيف فى موضوع التطال الخفى (امتلاء البطن بالغازات) ، ويطيل التأمل فى الجماع :

« كل منا يجتنب رؤية إنسان يولد ، ولكن الجمع يهرعون لرؤيته يموت . فلهدمه نلتمس مكانا رحباً ونوراً قوياً ، ولكنا لبنائه نختبىء فى ركن مظلم ونعمل فى تكتم ما استطعنا (٥٤) » .

وحتى مع هذه الصراحة يزعم انه مارس شيئاً من التحفظ . « إنى أقول الحق ، لا كما أشتهى ، بل على قدر ما أجرؤ (٥٥) » .

وهو يقول لنا الكثير عن نفسه الجسدية ، ويرعى صحته من صفحة إلى صفحة . فالصحة هى الخير الأعظم « والشهرة أو المجد يشتريهما رجل فى مثل مزاجي بثمن غال ، باسم الله (٥٦) » ، وهو يسجل تقلبات أمعائه فى

تفصيل المحب لها . لقد بحث عن حجر الفلاسفة ووجده مستكناً فى مثانته . وكان يأمل أن ينزل هذا الحصى فى نشوة من الحب ، ولكنه بدلا من ذلك وجد أنه « يخونه إلى حد غريب [٥٧] » ويهدده بالعجز فى غير أوانه . وقد عزى نفسه بقدرة يفخر بها ، هى « أن أقبض مائى عشر ساعات كاملة [٥٨] » وأن يظل على سرجه ساعات طويلة دون أن يناله الاعياء الشديد . كان بدينا قوياً ، يأكل بنهم حتى كاد يعض أصابعه فى شرهه . وقد أحب نفسه فى لذة لا يعتريها الملل .

كان مغروراً بنسبه ، وبشعار نبالته [٥٩] ، وبثيابه الفاخرة ، وبما نال من تشريف حين أصبح أحد فرسان القديس ميخائيل — وكتب مقالا « فى الغرور ». وهو ينسب لنفسه أكثر الرذائل، ويؤكد لنا أنه ان كان فيه فضيلة فإنها تسللت إليه خلسة . ومع ذلك فإن لديه الكثير من هذه الفضائل : الأمانة ، والطيبة ، وروح الفكاهة ، والاتزان ، والرحمة ، والاعتدال ، والتسامح . كان يقذف بالأفكار المتفجرة فى الهواء ، ثم يلقفها ويطفئها قبل أن تسقط . وفى عصر المذابح العقائدية توسل إلى إخوانه فى الإنسانية أن يعتدلوا فى تعصبهم على هذا الجانب من المقتلة، وأعطى العالم العصرى مثالاً من أول أمثلته فى العقل المتسامح . ونحن نغتفر له عيوبه لأننا نشاركه فيها ، ونجد تحليله لنفسه ساحراً لأننا نعلم أننا نحن الذين يروى هذه القصة عنهم .

ولكى يحسن فهم نفسه درس الفلاسفة . وقد أحبهم على الرغم من دعاواهم المغرورة بأنهم يحللون الكون ويرسمون مصير الإنسان وراء القبر . ونقل عن شيشرون قوله « ما من شيء سخيف قيل إلا سبق أن قاله أحد الفلاسفة [٦٠] » . وقد امتدح سقراط لأنه « أنزل الحكمة البشرية من السماء حيث طال ضياعها ، ليردها إلى الإنسان من جديد [٦١] » . وردد نصيحة سقراط بدرس أقل للعلوم الطبيعية ، وأكثر للسلوك الإنسانى . لم يكن له « مذهب » بعينه يدين به ، فلقد كانت أفكاره فى تطور دائم الحركة بحيث استحال على أى تسمية أن تقيد تحليقه الفلسفى .

فى بواكير تفكيره الجريئة اعتنق الرواقية . إن المسيحية التى تفرقت شيعاً يقتل فيها الناس إخوتهم ، ولطخت نفسها بدم الحرب والمذابح ، قد أخفقت بجلاء فى أن تعطى الإنسان قانوناً خلقياً قادراً على ضبط غرائزه ، لذلك اتجه مونتينى إلى الفلسفة ملتمساً مبدأ خلقياً طبيعياً ، وفضيلة لا ترتبط بقيام العقائد الدينية وسقوطها . وبدا له أن الرواقية قريبة من هذا المثل الأعلى ، فهى على الأقل شكلت بعضاً من أعظم الرجال فى العصور القديمة . وجعلها مونتينى مثله الأعلى حيناً ، فهو مدرب إرادته على التحكم فى نفسه ، وهو صادف عن كل العواطف التى تكدر سلامة سلوكه أو هدوء عقله ، وهو مواجه صروف الدهر بجأش رابط ، متقبل الموت ذاته على أنه نهاية طبيعية مغتفرة .

وبقى فيه عرق رواقى إلى النهاية ، ولكن روحه الجياشة وجدت بعد قليل فلسفة أخرى تبرر ذاتها . لقد تمرد على رواقية تبشر باتباع « الطبيعة » وتحاول مع ذلك قمع الطبيعة فى الإنسان . وقد فسر « الطبيعة » من خلال طبيعته هو ، وقرر أن يتبع رغباته الطبيعية ما دامت لا تحدث أذى محسوساً . وسره أن يجد أبيقور مدافعاً عاقلاً عن المتع السليمة ، لا شهوانياً رخيصاً ، وأدهشه أن يكتشف قدراً كبيراً من الحكمة والعظة فى لوكريتيوس. فأعلن الآن فى حماسة شرعية اللذة . أما الخطيئة الوحيدة التى تبينها فهى الإفراط . « ان الإفراط هو الطاعون الذى يفتك باللذة ، والاعتدال ليس سوط اللذة ، بل الملطف لها (٦٢) » .

ومن تذبذب آرائه ، ومن انحطاط المسيحية المعاصرة فى فرنسا ، انتهى إلى الشكوكية التى اصطبغ بها أكثر فلسفته بعد ذلك . وكان أبوه قد تأثر بكتاب « اللاهوت الطبيعى » الذى ألفه اللاهوتى التولوزى ريمون سبوند (مات ١٤٣٧ ؟) والذى واصل جهد السكولستيين النبيل فى البرهنة على معقولية المسيحية . وطلب الأب إلى ابنه أن يترجم البحث ، ففعل ، ونشر الترجمة (١٥٦٩) . واستنار به السنيون الفرنسيون ، ولكن بعض

النقاد اعترضوا على حجج ريمون . وفى عام ١٥٨٠ أدخل مونتينى فى « الكتاب » الثانى من « مقالاته » فصلا مائتى صفحة فيه « دفاع عن ريمون سبوند » عمد فيه إلى الرد على الاعتراضات . ولكنه لم يفعل هذا إلا بالتخلى على هدف ريمون ، محتجاً بأن العقل أداة محدودة لا يوثق بها ، وانه خير لنا أن نرسى الدين على الإيمان بالكتب المقدسة وبالكنيسة الأم المقدسة ، وهكذا هدم مونتينى ريمون فى واقع الأمر حين يفهم منه ظاهريا أنه يؤيده . وقد رأى بعضهم ، مثل سانت بوف ، أن هذا « الدفاع » ليس إلا حجة ساخرة لتأييد عدم الإيمان[٦٣] . أيا كان الأمر ، فهو أشد ماكتبه مونتينى هدماً ، وربما كان أكمل عرض للشكوكية فى الأدب الحديث .

ويؤكد لنا مونتينى ، قبل لوك بزمن طويل ، أن « المعرفة كلها توجه إلينا بواسطة الحواس[٦٤] » . وأن العقل يعتمد على الحواس ولكن الحواس خداعة فى تقاريرها محدودة جدا فى رقعتها ، ومن ثم كان العقل لا يعتمد عليه . « أن باطن الانسان وظاهره مملوءان ضعفا وكذبا »[٦٥] . (هنا ، فى بداية عصر العقل ، وقبل بيكون وديكارت بجيل ، يسأل مونتينى ذلك السؤال الذى لا يقفان ليسألاه ، والذى سيسأله بسكال بعد ثمانين عاما ، والذى لا يتصدى له الفلاسفة حتى مجيء هيوم وكانط ، لم يجب أن نثق بالعقل ؟) بل إن الغريزة مرشد أسلم من العقل . فانظر كيف يحيا الحيوان بالغريزة حياة ناجحة - أحيانا على نحو أحكم من الانسان . « هناك فرق بين بشر وبشر أكثر كثيرا من الفرق بين البشر والحيوان[٦٦] » . وليس الانسان مركزا للحياة كما أن الأرض ليست مركزا للكون . ومن التبجح أن يظن الانسان أن الله يشبهه ، أو أن شئون البشر هى مركز اهتمام الله ، أو أن العالم وجد ليخدم الانسان . ومن السخف أن نظن أن فى استطاعة عقل الانسان أن يسبر طبيعة الله . « أيها الانسان الأحمق ، يا من تعجز عن خلق دودة ، ولكنك تريد أن تخلق أربابا بالعشرات ! »[٦٧] .

ويصل مونتيني إلى الشكوكية بطريق آخر — وهو التأمل فى تنوع وتذبذب الإيمان بالقوانين والأخلاق ، وبالعلم والفلسفة والدين ؛ فأى هذه الحقائق هو الحق ؟ وهو يفضل الفلك الكوبرنيقى على الفلك البطلمى ، ولكن « من يدرى ، فلعل رأيا ثالثا يأتى بعد ألف سنة قد يقلب هذين الرأيين » و « أليس أكثر احتمالا أن الجرم الضخم الذى نسميه الدنيا شىء آخر غير ما نحكم به عليه ؟ (٦٨) » و « ليس هناك علم » ، إنما هى فروض دعية لعقول مغرورة (٦٩). وخير الفلسفات قاطبة فلسفة پرو — وخلاصتها أننا لا نعرف شيئا. « أن أكبر مقدار فيما نعرفه هو أقل مقدار فيما نجهله(٧٠) » «وما من شىء يؤمن الناس به إيمانا أرسخ من إيمانهم بما يعرفونه أقل معرفة» و « ان الاقتناع باليقينية شاهد واضح على الحمق (٧١)» . وبعبارة موجزة ، ليس هناك وجود ثابت ، لا لكياننا ولا للأشياء . ونحن ، وحكمنا . وكل الأشياء الفانية الأخرى ، لا تكف عن الدوران ، والتحول ، ثم الزوال ، فلا شىء يمكن إثباته على التحقيق . وليس بيننا وبين الوجود اتصال(٧٢). إذن فشفاء لكل الجراح يختم مونتينى باعادة تأكيده لإيمانه المسيحى ، والإشادة بالإله الذى لا يمكن استكناهه (٧٣) .

بعدها طبق شكوكيته على كل شىء ، دائما مع انحناءة احترام للكنيسة. وأصبح شعاره « ماذا أعرف » ، محفورا على خاتمه ومكتوبا على سقف مكتبته . وزينت شعارات أخرى عوارض السقف المماثلة « الحجج المؤيدة والمعارضة كلاهما ممكن » ، « يجوز ولا يجوز » ؛ « لا أقرر شيئا ؛ لا أفهم الأشياء ؛ أعلق حكمى ؛ أمتحن (٧٤) . « وبعض هذا الموقف أخذه عن شعار سقراط « لا أعرف شيئا » ، وبعضه عن پرو ، وبعضه عن كورنيلبوس أجريبا ، وكثير منه عن سيكستوس امبريكوس . قال ، منذ الآن « سأقيد نفسى بما أرى وأمسك به ، ولا أذهب بعيدا عن الشاطئ » (٧٥) .

ورأى الآن النسبية فى كل مكان ، والمطلقات فى غير مكان ، وأقلها

فى مقاييس الجمال ، ويجد فيلسوفنا الشهوانى متعة بالغة فى ملاحظة مختلف الآراء بين مختلف الشعوب عن مقومات الجمال فى ثديى المرأة(٧٦) . وهو يعتقد أن كثيرا من الحيوان يفوقنا جمالا، ويرى أننا كنا حكماء حين اكتسينا بالثياب . وهو يدرك أن دين الانسان وأفكاره الخلقية تقررها بيئته عادة . « إن طعم الخير أو الشر يتوقف إلى حد كبير على رأينا فيهما »، وهو ما سيقوله شكسبير ، و « ان الناس تعذبهم آراؤهم عن الأشياء لا الأشياء ذاتها » (٧٧)، وقوانين الضمير لا تنبعث من الله بل من العادة . وما الضمير إلا القلق الذى نحسه حين ننتهك عرف قبيلتنا (٧٨) .

وكان لمونتيني من الفطنة ما منعه من الرأى بأن الأخلاق يصح إغفالها مادامت نسبية . فهو على العكس من ذلك آخر من يمس ثباتها واستقرارها . وهو يتكلم بجرأة عن الجنس ، ويطالب بكثير من الحرية — للرجال ، ولكنك إذا دققت النظر فيه وجدته فجأة ~~سنيا~~ فهو ~~يوصى~~ بالعفة للشباب ، وحجته أن الطاقة التى تبذل فى الجنس مصدرها مستودع القوة المشترك فى البدن ، وهو يلاحظ أن الرياضيين الذين كانوا يتدربون للألعاب الأولمبية «امسكوا عن جميع الأفعال الجنسية وامتنعوا عن ملامسة النساء»(٧٩)

وكان بعض مر . ن يمد شكوكيته إلى الحضارة ذاتها ، وأن يسبق فى ذلك روسو وشاتوبريان . أوحى إليه الهنود الذين رآهم فى روان بأن يقرأ تقارير الرحالة ؛ ومن هذه الروايات كتب مقاله «عن أكلة لحوم البشر» وعنده أن أكل الموتى أقل همجية من تعذيب الأحياء . « لست أجد فى هذه الأمة (أمريكا الهندية) شيئا همجيا ولا وحشيا ، إلا إذا سمى الناس ما لم يألفوه همجية » (٨٠) . وقد تخيل هؤلاء الوطنيين أصحاء لا يمرضون إلا نادرا ، سعداء دائما تقريبا ، عائشين فى سلام وطمأنينة دون قوانين(٨١) وامتدح فن الاراتكة وطرق الانكا . وأجرى على لسان هنود روان تنديدا بثراء أوربا وفقرها . « لقد ادركوا أن بيننا رجالا أتخموا بكل أنواع السلع فى حين يتضور غيرهم جوعا ، وعجبوا كيف تحمل الفقراء هذا

الظالم ولم يأخذوا بتلابيب الآخرين » (٨٢) . وقارن بين أخلاق الهنود وأخلاق فاتحي بلادهم، واتهم هؤلاء فقال إن المسيحيين المزعومين . . . جلبوا عدوى الرذيلة لنفوس بريئة تواقة للتعلم ، طيبة بطبيعتها (٨٣) » . ونسي مونتيني لطفه لحظة فتفجر في غضبة مضرية للحق :

« ما أكثر المدن العامرة التي نهبت وسويت بالتراب ، وما أكثر الأمم التي دمرت أو أقفرت من أهلها . وكم من ملايين لا تحصى من الناس الأبرياء من الجنسين ، ومن جميع المراكز ، والأعمار ، قتلوا ونهبوا وأعمل فيهم السيف ؛ وأغنى بقاع الأرض وأجملها وأفضلها قلبت ظهرا على عقب وخربت وشوهت من أجل تجارة اللؤلؤ والفلفل ! إيه أيتها الانتصارات الآلية ، ويا أيها الغزو الوضيع ! (٨٤) » .

أكان احترامه للدين مخلصا ؟ واضح أن تنقيبه في الكلاسيكيات قد فطمه منذ زمن طويل من تعاليم الكنيسة . لقد احتفظ بإيمان غامض بالله الذي تمثله آنا في الطبيعة ، وآنا في روح الكون ، ذلك العقل غير المفهوم للعالم . وهو أحيانا يحس إحساس لير في مسرحية شكسبير ، « إن الآلهة تلعب بنا الكرة فتقذفنا علوا وسفلا (٨٥) » . ولكنه يتهكم بالإلحاد لأنه « شيء غير طبيعي وبشع (٨٦) » ، ويرفض اللاأدرية باعتبارها نوعا آخر من الدجماطية ، فأنى لنا أن نعرف أننا لن نعرف أبدا ؟ (٨٧) . وهو ينحي جانبا كل محاولات بذلت لتعريف النفس أو تفسير علاقتها بالجسد باعتبارها محاولات باطلة كلها غرور (٨٨) . وهو راغب في قبول خلود النفس بالإيمان ، ولكنه لا يجد دليلا عليه في التجربة أو العقل (٨٩) ؛ ثم ان فكرة الوجود الأبدي تروعه (٩٠) . « لولا الإيمان لما صدقت المعجزات (٩١) » ، وهو يسبق حجة هيوم المشهورة ؛ « كم أجده أكثر طبيعية واحتمالا أن يكذب رجلان ، عن أن تحمل الريح رجلا في اثنتي عشرة ساعة من الشرق إلى الغر [٩] » (ولعله كان باحثاً عن مثل آخر اليوم) . وهو يسبق فولتير إذ يحكي قصة الحاج الذي حكم بأن المسيحية لا بد دين

إلهى لأنها حافظت على نفسها هذا الزمن الطويل برغم فساد مديريها[٩٣] . وهو يلاحظ أنه مسيحى بمحض الصدفة الجغرافية ، ولولا ذلك « لآثرت أن أكون أحد عباد الشمس[٩٤] » . وهو لا يتكلم على المسيح غير مرة واحدة ، على قدر ما يذكر أحد قرانه [٩٥]. ولم تستهو تلك القصة الجميلة ، قصة أم المسيح ، روحه غير العاطفية إلا بمقدار ، ومع ذلك نراه يعبر إيطاليا ليضع أربعة تماثيل نذرية أمام مزارها فى لوريتو . وكان يفتقر إلى ملامح الروح الدينية — وهى التواضع ، والاحساس بالذنب وتبكيت الضمير والتكفير ، والشوق إلى الغفران الإلهى والنعمة الفادية . لقد كان رجلا حر الفكر ، فيه حساسية ضد الاستشهاد .

على أنه ظل كاثوليكيا بعد أن كف طويلا عن أن يكون مسيحيا[٩٦] . وكما كان أى مسيحى فطن من المسيحيين الأوائل ينحنى لأحد الأوثان انحناءة عابرة ، كذلك فإن مونتينى ، أكثر المسيحيين وثنية ، يتحوّل بين الحين والحين عن أثراثه اليونان والرومان ليقدم الاحترام لصليب المسيح أو حتى ليلثم قدم أحد البابوات . فهو لم ينتقل كما انتقل باسكال من الشك إلى الإيمان ، بل من الشك إلى الطاعة . ولم يكن هذا بدافع الحذر فحسب ، فلعله أدرك أن فلسفته التى شلت حركتها تردداته وتناقضاته وتشككه قد تصلح ترفا لعقول هيئت من قبل للحضارة (بالدين ؟) ، وأن فرنسا ، حتى وإن أغرقت عقائدها فى الدم ، إلا أنها لن ترضى بديلا عنها متاهة فكرية ليس فيها شىء يقينى غير الموت . ورأى أن الفلسفة الحكيمة تصالح الدين :

« إن أصحاب العقول البسيطة ، الأقل فضولا ، والأقل حظاً من التعليم ، يجعلون مسيحيين طيبين ، وهم بالتبجيل والطاعة يحتفظون بإيمانهم البسيط ويلتزمون بالقوانين . والعقول متوسطة القوة والكفاية هى التى يتولد فيها خطأ الآراء ... أما خير العقول وأكثرها استقرارا وأصفاها نظرا فتخلق نوعا آخر من خيار المؤمنين ، الذين ينفذون بالبحث الطويل والتمحيص الدينى إلى معنى أعمق وأعوص فى الأسفار المقدسة ويكتشفون

الأسرار الخفية الإلهية للنظام الكنسي . . ان الفلاحين البسطاء قوم أمناء ، وكذلك الفلاسفة[٩٧] » .

وهكذا ، بعد كل لذعاته للمسيحية ، ولأن جميع الأديان على السواء إنما هي أستار تغطي جهلنا المرتعد ، ينصحنا بأن نقبل دين زماننا ومكاننا . أما هو ، ففي وفاته لجغرافيته ، عاد إلى شعائر آبائه ، فأحب الدين الطقسي العطر الحسي ، لذلك فضل الكاثوليكية على البروتستنتية . ونفره من الكلفنية اصرارها على الجبرية[٩٨] ، وإذ كان إرزمي الأرومة فقد مال إلى كرادلة روما العالمين اللطفاء دون لوبولا جنيف (كالفن) أو أسد فنبرج (لوثر) . وأشد ما أسف له أن العقائد الجديدة كانت تقلد القديمة في تعصبها . ومع أنه سخر من المهرطقين لأنهم حمقى يثيرون ضجة حول ميثولوجيات متنافسة ، إلا أنه لم يرأى معنى لحرق هؤلاء الخوارج . « على أي حال إنه تقدير عال لآرائنا أن نشوى الناس أحياء بسببها[٩٩] » أو أن نسمح للناس بأن يشوونا .

كذلك نراه في ميدان السياسة يختم مسيرته محافظا مطمئنا إذ لا جدوى من تغيير أشكال الحكومة ؛ فستكون الحكومة الجديدة سيئة كالقديمة لأنها ستدار بأيدي البشر . فالمجتمع « اطار شاسع جدا » ، وجهاز شديد التعقيد من الغريزة والعرف والأسطورة والقانون ، يتشكل في بطء بحكمة الزمن الحاصلة من التجربة والخطأ ، بحيث يستحيل على أي عقل مفرد مهما أوتي من قوة وذكاء أن يفصصه ثم يعيد تركيبه دون فوضى وعذاب لا حصر لهما[١٠٠] . وخير للناس أن يخضعوا لحكامهم الحاليين مع ما فيهم من سوء ، إلا إذا حاولوا أن يغلوا الفكر ذاته ، عندها قد يستجمع مونتيني شجاعته وينصح بالثورة ، لأن « عقلي لم يشكل لينحني أو يذل ، أما ركبتاي فنعم[١٠١] » ، والعاقل من ابتعد عن المنصب وإن احترمه ، « أن أعظم وظيفة هي إنقاذ الدولة ونفع الكثيرين » ، « أما أنا فنصرف عنها[١٠٢] » ، ومع ذلك فقد خدم الدولة في فترتي منصبه .

وقد آحزنه أنه عاش نصف حياته خلال تدمير فرنسا[١٠٣] ، « فى جيل شديد الفساد وزمان مغرق فى الجهل . » « اقرأ كل القصص القديمة ، مالم تكن من الفواجع ، فلن تجــد ما يعدل تلك التى نراها تمارس كل يوم[١٠٤] » . إنه لم يتخذ موقف الحياد فى الصراع الدائر حول فرنسا ، ولكن « ميلى لم ينسنى لا صفات خصومنا المحمودة ، ولا الصفات المعيبة التى وصمت من أؤيدهم[١٠٥] » . وهو يأبى أن يحمل بندقية ، ولكنه يجرد قلمه لمناصرة جماعة « السياسيين » ، هؤلاء الكاثوليك المؤثرين للســلام والذين نادوا بقدر من التوفيق مع الهيجونوت . وقد امتدح ميشيل دلوبيتال لاعتداله الأنسانى البعيد النظر ، واغتبط حين تقدم صديقه هنرى نافار إلى النصر على مبادئ لوبيتال . لقد كان مونتينى أعظم الفرنسيين تحضرا فى ذلك العصر الهمجى .

هـ — الحجر الدوار

لقد ضايقه حصى المثانة أكثر من حروب فرنسا . ففى يونيو ١٥٨٠ ، عقب نشر أول طبعة من « مقالاته » ، خرج فى رحلة طويلة فى أوربا الغربية ، من جهة ليرى الدنيا ، ومن جهة ليزور ينابيع المياه الطبية أملا فى تلطيف « المغص » (كما سماه) الذى كان يعطله بالألم المرة بعد المرة . وترك زوجته لتعنى بشئون الضيعة ، ولكنه اصطحب معه أخا أصغر ، وزوج أخت يسمى البارون استيساك وسكرتيرا أملاه شطرا من يوميته فى الرحلة ؛ فإذا أضفنا بطانة من الخدم وسائقى البغال ، لم نعد نعجب لفقر هذه المذكرات الفــكرى . لقد قصد بها الذكرى أكثر ممــا قصد بها النشر ، فأخفاها مونتينى فى صندوق بعد رجوعه ، حيث اكتشفت بعد أن انقضى على موته ١٧٨ عاما .

وقصدت الجماعة أولا باريس ، حيث قدم المؤلف الفخور نسخة من مقالاته لهنرى الثالث ، ثم انطلقت على مراحل مريحة إلى بلومبيير حيث أخذ مونتينى نفسه بشرب نصف جالون من المياه الطبية كل يوم طوال

تسعة أيام، وأفلح فى التخلص من بعض الحصى الصغير بألم شديد[١٠٦]. ثم اتخذ سمته إلى سويسرة بطريق اللورين. جاء فى يوميته التى تحكى ذكرياته عن شخص غائب « لقد وجد لذة لا تعدلها لذة فى مشاهدة حرية هذه الأمة وحكومتها الصالحة[١٠٧] ». ثم استشفى بمياه بادن — بادن وواصل راحلته فى ألمانيا. وحضر الخدمات الدينية عند الكلفنيين واللوثريين كما حضرها عند الكاثوليك، وناقش اللاهوت مع رجال الدين البروتستنت. وهو يروى حديث قسيس لوثرى أقسم أنه يؤثر أن يستمع إلى ألف قداس عن أن يشارك فى تناول القربان على مذهب كالفن[١٠٨] — لأن الكلفنيين أنكروا الوجود الجسدى للمسيح فى سر القربان. وفى التيرول شعر بجلال الألب قبل روسو بزمن طويل. ومن إنزبروك صعدت الجماعة إلى ممر برينر، وتخلص مونتينى فى الطريق من « حصاة متوسطة الحجم »، ثم من ترنت إلى فيرونا وفنشنزا وبادوا والبندقية، حيث أضاف إلى القناة العظمى « حصاتين كبيرتين ». ورأى أن المدينة ليست بالروعة التى توقعها ولا مومساتها بالجمال الذى انتظره. ومضى إلى فيرارا، حيث زار تاسو المختلط العقل (كما ذكرت المقالات لا اليومية)، ثم إلى بولونيا وفلورنسة حيث تلقى نهر ارنو « حصاتين وكمية من الرمل[١٠٩] »، ومن سيينا إلى روما حيث « أنزل حصاة كبيرة كبزرة الصنوبر[١١٠] ». ولعل هذه الإضافات المفرزة التى سجل أخبارها كانت فى مجموعها تبنى هرماً لا بأس بحجمه.

وفى روما زار مجمعاً يهودياً، وشهد ختاناً، وناقش مع معلمى الناموس شعائر دينهم. وتبادل الفلسفات مع محظيات روما. ولم يكن (كما خيل لستندال) عديم الإحساس بالفن فى روما[١١١]. فقد راح يطوف اليوم تلو اليوم بين الآثار القديمة وعجبه لا ينتهى من بهائها. ولكن الحدث الكبير كان زيارته لجريجورى الثالث عشر. وكأى ابن للكنيسة ركع مونتينى ليلثم حذاء البابا، فتعطف البابا برفع حذائه تيسيراً للمهمة[١١٢]. ووجد موظفو الجمرك خلال ذلك نسخة من « المقالات »

سلموها لمحكمة التفتيش ؛ ودعى مونتيني إلى الهيئة المقدسة ونبه فى رفق إلى أن فقرات فى مقالاته تشم منها رائحة المرطقة ، أفلا يرى تغيـيرها أو حذفها فى الطبعات المقبلة ؟ فوعد « خيل إلىّ أننى تركتهم راضين عنى كل الرضا » ، وهذا حق ، بل لقد دعوه للحضور إلى روما والعيش فيها (ولكنه لم يبال بالوفاء بوعده ، وفى عام ١٦٧٦ أدرج كتابه فى قائمة الكتب المحظورة من الكنيسة) . ثم سافر عبر إيطاليا قاصداً مزار العذراء فى لوريتو وأهداها لوحة نذرية ، ربما ليطمئنهم ويطمئن نفسه . ثم عاد إلى عبور الابنين للاستشفاء بمياه لوكا .

وهناك (فى ٧ سبتمبر ١٥٨١) تلقى رسالة تقول انه اختير عمدة على بوردو . فطلب إعفاءه ، ولكن هنرى الثالث أمره أن يقبل ، ولم يستطع أن يتجاهل تقليد خدمة الدولة الذى خلفه له أبوه . على أنه لم يتعجل العودة إلى فرنسا ، فلم ير قصره الريفى إلا فى ٣٠ نوفمبر ، بعد سبعة عشر شهرا من بدء جولته . وكانت واجبات العمدة خفيفة ، ومكافأته التشريف دون الاجر . وقد أدى واجبات وظيفته على وجه مرضى ، لأن انتخابه أعيد (أغسطس ١٥٨٣) عامين آخرين . وفى ديسمبر ١٥٨٤ زاره هنرى نافار ومعه خليلة وأربعون تابعاً ، ونام ملك فرنسا المقبل فى فراش الفيلسوف . وقرب ختام فترة عمديته الثانية تفشى الطاعون فى بوردو ، فغادر مونتينى المدينة إلى الريف كما غادرها كل موظفى الدولة تقريباً . وفى ٣٠ يوليو ١٥٨٥ حول شارات منصبه لخلفه واعتزل فى بيته .

لم يكن قد جاوز الثانية والخمسين ، ولكن الحصى كان يعجزه فى فترات دورية ، وأحياناً يحصر بوله أياماً (١١٣) . وفى أوائل عام ١٥٨٨ بقى فيه من القوة ما يكفى للقيام برحلة ثالثة إلى باريس . وهناك قبض عليه بأمر من الحلف الذى كان آنئذ يسيطر على العاصمة لاتهامه بالولاء لهنرى الثالث ، وأودع الباستيل (١٠ يوليو ١٥٨٨) ، ثم أفرج عنه فى الليلة ذاتها بشفاعة كاترين دى مديتشى . وفى اكتوبر حضر اجتماع مجلس الطبقات

فى بلوا ولكنه عاد إلى بوردو فى الوقت المناسب للنجاة من التورط فى تقلبات هنرى الثالث عقب اغتيال الدوق جيز .

وفى آخر مقالاته وأروعها « فى التجربة » أورد وصفاً لانحلال جسده . فاسنانه مثلا وصلت فيما يبدو إلى « النهايةالطبيعية لبقائها (١١٤)» . وهو يحتمل « انطلاقه » دون مرارة ، فلقــد عاش حياته كما رسمها ، واستطاع أن يكتب فى فخر : « راجع العالم القديم كله ، تجد مشقة فى اختيار اثنى عشر رجلا وجهوا حياتهم فى مجرى واحد . . . مستقر ، أكيد ، وهو أجمل توجيهات الحكمة (١١٥) » . فلما أنبىء بقرب منيته ، جمع أهل بيته وورثته من حوله ،وأعطاهم بشخصه المبالغ أو الأشياء التى أوصى لهم بها فى وصيته. ثم تناول أسرار الكنيسة فى تقوى رجل لم يكتب قط كلمة شك أو ارتياب. ومات فى ١٣ سبتمبر ١٥٩٢ بالغاً من العمر تسعة وخمسين عاما .

وانتشر تأثيره طوال قرون ثلاثة وعمّ قارات أربعا . وقد قبل ريشليو فى ابتهاج إهداء الآنسة جورنيه إياه طبعه « المقالات » الأخيرة . وفى تاريخ مبكر (١٦٠٣)، نسقها صديقه وتلميذه شارون فى فلسفة شكلية منتظمة وجعلها فلوريو من عيون الأدب الانجليزى (١٦٠٣) ، ولكنه غطى بساطة المؤلف وإيجازه بالاطناب المفرط فى التفقه . ولعل شكسبير رأى تلك الترجمة فأعانته على تشكيل شكوكية مآسيه الكبرى وصوغ عباراتها ، وقد جعلنا من قبل ديونا يدين بها لمونتينى . وربما كان بن جونسون يعنى شيكسبير حين اتهم الكتاب الانجليز بالسرقة من مونتينى (١١٦) . وقد شعر بيكون بذلك التأثير ، ولعل ديكارت وجد فى « المقالات » الحافز لشكه العام الأول . أما بسكال فقد أشرف على الجنون وهو يحاول انقاذ ايمانه من تشكيكات مونتينى . ومن مونتينى انبثق بيل . وفوفنارج ، وروسو ، وديدرو ، وفولتير — أما روســو فمن اعترافات مونتينى ومقالاته « فى التعليم » و « فى أكلة لحوم البشر » ، وأما فولتير فمن باقى أعماله كلها . لقد كان مونتينى جــدّ حركة التنوير كما كان بيل أباها . وقالت مدام

دو ديفان ، أقلّ نساء جيلها اللامع أوهاما ، ان بودّها أن « تلقى فى النار جميع مؤلفات الفلاسفة الضخمة إلا مونتينى ، الذى هو أبوهم كلهم[١١٧] » .
وبفضل مونتينى دخل تحليل العقل والخلق النفسى إلى الأدب الفرنسى ، من كورنيي وموليير ، ولاروشفوكو ولابروبير ، إلى أناطول فرانس . أما ثورو فقد نهل الكثير من هذا المورد ، كذلك استحم فيه إمرسون قبل أن يكتب « مقالاته » . ويمكن أن نقول فى مونتينى مالا يصدق إلا على قلة من المؤلفين قبل القرن الثامن عشر ، وهو انه مقروء اليوم كأنه كتب بالأمس .

وتبين العالم عيوبه واغتفرها له منذ زمن طويل . وقد اعترف بالكثير جداً منها حتى لقد استنفد أسلحة نقاده . كان عليما بأنه ثرثار مغرور ؛ وقد يصيبنا الأعياء حيناً بعد حين من شواهده الكلاسيكية ، ونقع لحظة فى ذلك الحكم الظالم الذى أصدره مالبرانش على « المقالات » إذ زعم أنها « ليست إلا نسيجاً من النوادر التاريخية ، والقصص الصغيرة ، والكلمات الطريفة ، والأشعار ، والأقوال المأثورة . . . . التى لا تدل على شيء[١١٨] » . وما من شك فى أن مونتينى يخلط بضاعته فى فوضى وكسل خلطا يقلل من تأثيرها ومغزاها ؛ وهو يناقض نفسه فى مائة موضوع ، فهو لا بد إذن مصيب ، لأنه يقول كل شيء ونقيضه . وفى الشكوكية الشاملة شيء يبتلى المرء بالشلل . فهى تحفظنا من قتل الناس باللاهوت ، ولكنها تثبطنا عما تسبقنا إليه من حجة وتستنزف جلدنا . ونحن نتأثر بمحاولة بسكال اليائسة أن ينقذ ايمانه من مونتينى ، تأثرا أعمق من تأثرنا برغبة مونتينى فى ألا يكون له ايمان على الإطلاق .

بيد أننا لا نستطيع أن نضع قلوبنا فى نقد كهذا ؛ فهو لايقطع إلا مؤقتاً تلك البهجة التى نجدها فى الثقافة الضاحكة ، والفكر المرح المنبعث من هذا الثرثار الذى لا يمكن إسكاته وفى تفكيره السريع . فأين نجد مرة أخرى مثل هذا المركب المفعم بالحياة ، مركب الحكمة والفكاهة ؟ ان بين هاتين

الصفتين شبها دقيقا ، فكلتاهما منبثقة من رؤية الأشياء فى أوضاعها الصحيحة ، وهما فى مونتينى تصنعان رجلا واحــداً . أما ترثرته فتعوضها طرافته ووضوحه ؛ وليس هنا عبارات ناصلة اللون، ولا يخف طنان رنان . ثم إننا مللنا اللغة التى يستعملها أصحابها لاخفاء الفكر أو إخفاء انعدامه ، بحيث نستطيع أن نغتفر الأنانية فى هذه الكشوف عن النفس . ويدهشنا من هذا المحدث اللطيف معرفته الحميمة بقلوبنا ، ويسرى عنا أن نجد حكيما مثله يشاطرنا أخطاءنا ، ثم يغتفرها لنا فى غير تردد . ومن بواعث العزاء أن نرى انه هو أيضاً يتردد ولا يعلم علم اليقين ، ويبهجنا أن يقال لنا ان جهلنا — إذا أدركناه — يصبح فلسفة . ثم ياله من تفريج أن نصادف ، بعد مذبحة القديس برتلميو ، رجلا لم تبلغ به الثقة بالعقيدة حداً يكفى لحمــله على القتل !

وأخيراً ، وبرغم هجومه على العقل ، ندرك أن مونتينى يبدأ فى فرنسا عصر العقل كما بدأه بيكون فى إنجلتره . إن مونتينى ، ناقد العقل ، لم يكن شيئاً إن لم يكن هو العقل ذاته . وبرغم كل انحناءاته للكنيسة ، فإن هــذا اللاعقلانى كان عقلانياً . ولم يرتض الطاعة إلا بعد أن بذر بذور العقل فى فكر فرنسا . وإذا كان قد حاول كبيكون أن يفعل هذا دون أن يقلق ايمان الفقراء المعزى ، فيجب ألا نأخذ حيطته أو ترفقه حجة عليه . إنه لم يخلق ليحرق . فلقد علم أنه هو أيضاً قد يكون مخطئاً ، ولقد كان رسول الاعتدال كما كان رسول العقل ، وكان فيه من النبل الكثير ما منعه من أن يشعل النار فى بيت جاره قبل أن يوفر له ملجأ آخر . لقد كان أعمق من فولتير ، لأنه تعاطف مع ما هدم .

وفى تقدير جيبون أنه « فى أيام التعصب تلك لم يكن ســوى رجلين متحررين (يدينان بأفكار حرة سمحة) فى فرنسا : هــنرى الرابع ومونتينى[١١٦] » . أما سانت — بوف ، فبعد أن نظر إلى مونتينى نظرة غير

متعاطفة خلال عيني بسكال (١٢٠) ، ختم حديثه بأن حكم ، في نوبة نادرة من الحماسة ، بأنه « أحد من عاش من الفرنسيين قاطبة (١٢١) » .

٤ — خالدون يوما واحـــداً

بعد مونتيني اعتمد الأدب الفرنسي على مجذافيه جيلا بأكمله . لقد أفلح تقريباً في النجاة من الحروب الدينية،فأخفى نفسه في نفسه حتى جاوزته الحروب. ولكن في غير مونتيني ابتلى الأدب في فرنسا بالحمى الحربية اللاهوتية ، وبين مونتيني وكورنيي تخلفت فرنسا عن إنجلتره وأسبانيا في الأدب ، تماماً كما تخلفت إنجلتره عن فرنسا بعد الحرب الأهلية . وعبرت سماء الأدب سلسلة من الشهب الغازية التي لم تخلف وراءها نجوماً ثابتة . وقد حاول ريشليو أن يغذو النبوغ بالرواتب ، ولكنه عطله بالرقابة وأغراه بمدحه . فلما مات ألغى لويس الثالث عشر هذه الرواتب بجرة قلم ، « لن يزعجنا هذا الأمر بعد اليوم » ، وكان أكثر حفزاً للأدب تلك السهرات الأدبية في الاوتيل درامبوييه . وإنشاء ريشليو للأكاديمية الفرنسة .

بدأت الأكاديمية باجتماعات للادباء والمؤلفين في بيت خاص — هو بيت فالنتان كونرارا ، وكان سكرتيراً للملك (١٦٢٧) . وعرض ريشيلو ، وهو اليقظ للأدب يقظته للحرب ، الغيور من أكاديميات إيطاليا وأدب أسبانيا ، أن يؤسس الجماعة بوصفها هيئة عامة تعترف بها الدولة. وعارض بعض الأعضاء الخطة باعتبارها رشوة للسنية ، ولكن الشاعر شابلان (الذي كان يتمتع بمعاش من الكردينال) ذكرهم بأن « عليهم أن يتعاملوا مع رجل يمضي فيما يريد دون تردد(١٢٢) » . وانتصرت حيطة شابلان ، وقررت الجماعة بالاجماع أن « تستجيب لمسرة نيافتة » ، وانشئت (١٦٣٥) باسم « الأكاديمية الفرنسية » وقد أعلنت قوانينها ما يأتي :

« يبدو نه لم يبق لاكتمال سعادة المملكة إلا أن تحذف هذه اللغة التي نتكلمها من قائمة اللغات الهمجية ... حتى ينسى لها ، وهي اليوم أكمل

من أى لغة حية، أن تخلف أخيرا اللاتينية كما خلفت اللاتينية اليونانية لو أتيح لها من العناية أكثر مما تلقى إلى اليوم ؛ وإن وظيفة أعضاء الأكاديمية ينبغى أن تكون تنقية اللغةمن الشوائب التى شابتها سواء فى أفواه الناس أو فى حشود المحاكم ... أو بفعل عادات رجال الحاشية الجهلة »(١٢٣) ؛

وعهد إلى أحد الأعضاء الثلاثين الأول ، ويدعى كلود فوجلا ، بتصنيف قاموس ؛ وكان لا بد أن ينقضى ستة وخمسون عاما قبل أن ينشر لأول مرة (١٦٩٤) . ورفعت الأكاديمية أثناء ذلك مكانة الأدباء بشكل ملحوظ ، فأصبح انتماء انسان إلى « الخالدين » الأربعين (عددهم عام ١٦٣٧) شرفا يضارع شرف المناصب الحكومية العليا ؛ ولم تكرم أمة الأدب كما كرمته فرنسا . صحيح أن الأكاديمية ،وأكثر أعضائها شيوخ ، كثيرا ما كانت كابحا محافظا يعطل التطورات الأدبية أو النمو الدنيوى . وكانت بين الحين والحين توصد أبوابها فى وجه العبقرية (موليير وروسو) ؛ ولكنها رفعت رأسها فوق الأحزاب ، وعلمت أعضاءها أن يتسامحوا بأدب مع مختلف الأفكار ، وقد كافأتها فرنسا باستقرار ثبت لصدمات التغير فى الوقت الذى تهاوى فيه الكثير .

بعد أن جمع ريشليو الشعراء والأدباء وسيج من حولهم ، نظر بعينه اليقظة إلى الصحفيين . ففى مايو ١٦٣١ بدأ تيوفراست رينودو ، بمعونة من الكردينال ، نشر أول صحيفة فرنسية سميت فيما بعد « غازيتة فرنسا » . وكانت تظهر أسبوعيا فى هيئة فرخ يطوى ثمانى صفحات ، وتنشر من الأنباء الرسمية ما يسمح به ريشليو أو يمدها به ، وأضافت بعض صفحات من « الأخبار العادية » . وكان لويس الثالث عشر من كتابها المألوفين . ورد فيها على ناقدى الحكومة ودافع عن نفيه أمه ، وكان أحيانا يأخذ الفقرات التى يكتبها بشخصه ليشرف على صف حروفها ، ولا عجب فالمرء — حتى إذا كان ملكا — يستهويه أن يجد كلامه مطبوعا . وكانت الصحافة الفرنسية منذ بدايتها أداة دعاية — وفى هذه الحالة وسيلة لشرح سياسات

الدولة للقلة القارئة . وسرعان ما فقد الناس ثقتهم فى الغازيتة وفضلوا أن يشتروا الوريقات البذيئة التى يبيعها فى الطرق أجراء أعداء الكردينال .

أما أروج نتاج العصر الأدبى فقصة رومانسية . كانت روايات الفروسية آخذة فى الزوال ، لا لمجرد تهكم سرفانتيس وغيره من الكتاب عليها ، بل لأن الاقطاع الذى خضع الآن للملكية ، كان يفقد المزيد من امتيازاته ومكانته . وحل محل قصص الفروسية أيام ازدهارها روايات رومانسية أليمة عن الرغبة المعوقة . وهكذا قرأ كل من ألم بالقراءة وملك الفراغ فى عهد لويس الثالث عشر رواية « آستريه » (١٦١٠ — ١٩) التى ألفها أونوريه دورفيه . أما عبقرية المؤلف فانبعثت من جرح أصاب حبه . ذلك أن زوجته ، التى سميت ديانا بحق ، آثرت عشرة الصيد على عشرة الزواج ، فكانت تؤاكل كلابها على مائدتها وتشاركها فراشها . وكانت تجهض كل سنة [١٢٤] . واعتكف أونوريه فى ضيعته واخفى سيرته الحزينة وراء رواية رومانسية رعوية . وقد وجد دواء الكلام هذا ناجعا ، فزاد روايته إلى ٥٠٠ ر ٥ صفحة فى خمسة مجلدات صدرت على فترات من ١٦١٠ إلى ١٦٢٧ . وفى قصة غرام الراعى كيلادون بالراعية آستريه نسمع صدى لا نهاية له لقصة مونتمايور « ديانا العاشقة » وقصتى سانازارو وسدنى « أركاديا » ، ولكن الصدى كان هنا شجيا ، وكان للرعاة والراعيات كل جمال البلاط الفرنسى وزينته ، وحققت اللغة كل مطالب ندوة الأوتيل درامبوييه ، ونافست تجارب العشق المتنوعة تجارب هنرى الرابع ، وابهجت عبادة المرأة ربات الصالونات اللائى جعلن الكتاب دستور سلوك للحب الأفلاطونى . هنا ذلك الينبوع الفوار الذى جرت منه الرومانسيات العاطفية التى كتبتها الآنسة سكودرى ، والأبيه بريفوست (انطوان بريفوست دجسيل) ، وصموئيل رتشاردسون ، وجان جاك روسو — الذى صرح بأنه كان يقرأ الكتاب مرة كل عام طوال أكثر حياته . وظل سادة القصور الفرنسية

والألمانية والبولندية وسيداتها ، قرابة قرن من الزمان ، يتخذون أسماء « لاستريه » ويلعبون أدوارها ، وكرس نصف النثر المكتوب فى فرنسا نفسه للرومانس .

أما النصف الآخر فاشتمل على بعض النثر الجدير بالذكر . فكانت « رسائل » جان لوى جى دبالزاك » (١٦١٤ وما بعدها) فى حقيقتها مقالات ، قصد بها أن تعجب « المتحذلقات » ، وشاركت فوجيلا ومالبرب فى تنقية اللغة ، وساعدت على إعطاء النثر الفرنسى شكل العصر الكلاسيكى ومنطقه ... أما بيير دبوردبى دبرانتوم ، الذى عاش حياة مرحة فى الجيش والبلاط ، فقد ترك عند موته (١٦١٤) حزمة من المذكرات تفصل فى ذوق غراميات النساء الفرنسيات ، وفضائل كاترين مديتشى ، وجمال مارى ستيوارت ، وظرف مارجريت فالوا ؛ ومن المؤسف أن أروع قصصه لا يمكن التحقق من صحة نسبتها إليه . وكان يرى « أنه لا يحسن بالمرء أن يشيخ وهو فى ذات الخدر ، وما من إنسان شجاع فعل هذا قط ، وعلى المرء أن يغامر بجرأة فى جميع النواحى ، فى الحب كما فى الحرب » . وفى لحظة أكثر حكمة اعترف بأن « أعظم ما ينعم الله به علينا فى زواجنا هو الذرية الصالحة لا التسرى » ... وأما جاك أوجست دتو ، القاضى ومستشار الدولة أيام صديقه هنرى الرابع ، فقد ساعد فى صياغة مرسوم نانت والمفاوضة على إصداره ، وكرس نصف حياته لكتابة « تاريخ عصره » (١٦٠٤—٨)، وهو كتاب يتميز بعمق الدرس ، وبالحياد والشجاعة فى دمغ مذبحة القديس برتلميو لأنها « تفجر للجنون لا نظير له فى تاريخ أى أمة » . . . وألف الدوق صلى ، فى شيخوخته وبمساعدة سكرتيريه ، كتابه المشهور «مذكرات عن الاقتصاديات الداخلية والسياسية والحربية ، الحكيمة ، الملكية ، لهنرى الأكبر ، الذى أهداه « إلى فرنسا ، إلى جميع الجنود الطيبين ، وإلى جميع الشعب الفرنسى » . وفى آخر سنى لويس الثالث عشر بدأت جماعة من اليسوعيين الفلمنكيين يتزعمهم جان دبولان نشر كتاب « اكتا سانكتورم »

(أعمال القديسين) الذى أورد فى نقد حذر سير القديسين حسب الترتيب الذى تخلدهم به الكنيسة الكاثوليكية . وتابعت الجماعة هذا الجهد فى حماسة على الرغم مما اعترى جمعية اليسوعيين من غير ، حتى بلغت مجلدات الكتاب خمسة وستين عام ١٩١٠. واحتج عليه بعض مروجي الأساطير ، ولكن الكتاب مفخرة لعلم أعظم الطوائف الدينية تفقها . وأخيراً يجب أن ندرج فى هذه القائمة للمرة الثانية ذلك الرجل المدهش كلى الوجود ، ريشـــليو ، الذى غمس قلمه فى كل ينبوع أدبى وترك لنا « مذكراته » — وفيها شىء من التحيز للكردينال ، ولكن مكانها رفيع فى ذلك الرتل الرائع من المذكرات الفرنسية التى لا ضريب لها فى أى لغة أخرى .

ولم يكثر صغار الشعراء مثل هذه الكثرة من قبل . فما زال الفرنسيون الأوفياء يقرءون ، ولو فى المدراس ، تيوفيل دفيو ، وفنسان فواتور ، وأونورا دبويل ، مركيز راكان . وقد جعلت غراميات تيوفيل الإباحية وشكوكه الفاضحة منه « فيون » عصره ، وقد حكم عليـــه بالحرق ثم خفف الحكم إلى النفى . أما ذكاء فواتور المرح فقد جعـــله أكبر ظرفاء الأوتيل درامبوييه (وقد أوشكنا أن نقول أكبر ساخريه) . وحين وعظ بوسويه وهو بعد فى الثانية عشرة من عمره فى ذلك الصالون فى منتصف الليل ، قال فواتور أنه لم يسمع فى حياته عظة تلق مبكرة متأخرة كهذه .

وشرف هذه العهود الملكية شاعران كبيران . أما فرانسوا ماليرب فقد شرح المبدأ القائل بأن واجب كل عصر أن يرفض الماضى ويعكسه لكى يستمتع بنفسه . وكان رونزار العظيم لا يزال يغنى فى شباب ماليرب ، وكان هو وجماعة البلياد قد هذبوا الشـــعر الفرنسى بتوجيهه صوب المثل والموضوعات الكلاسيكية ، ولكن خلفاءهما كانوا الآن يهدهدون فرنسا وخليلاتهم بسونيتات حافلة بالألفاظ الأثرية ، والعبارات الخيالية ، والشطحات الإيطالية ، والتقديمات والتأخيرات السقيمة ، والتلميحات الغامضة ، والأساطير العويصة . واستقر رأى ماليرب على أن الشعر الفرنسى قد أتخم بهذا كله .

وقد درس هذا الشاعر ، الذى ولد فى كان (١٥٥٥) ، فى بازل وهايدلبرج، وأنفق سنوات ' ' سفار ، وكان قد بلغ الخمسين حين وصل إلى البلاط الفرنسى . وقد شق طريقه إليه برغم وقاحاته وكفرياته ، وأصبح الشاعر الأثير لدى هنرى الأكبر ، ولكن هذا على أى حال أعطاه « من التحيات أكثر مما أعطاه من المال (١٢٥) » . وعاش يبيع شعره لمن يدفع فيه أغلى الأثمان ، وروج لبضاعته بالإطاحة بمن سبقوه . فقد أعلن الحرب — كما أعلنتها متحذلقات صالون رامبوييه — على الألفاظ التى تشتم منها الخلافة الريفية أو عمليات البدن الأقل شاعرية ؛ فحرم التقديمات والتأخيرات ، والألفاظ الغامضة ، والتعبيرات العامية ، والكلمات الريفية والمسقونية شق هذا على الملك) والحشو ، وتنافر النغمات ، واللحن ، والدخيل واللاتينى والفنى من الألفاظ ، والجواز الشعرى ، والقوافى الناقصة . وقال إنه يجب أن يكون منذ الآن جلال فى الأفكار ، وبساطة ووضوح فى التعبير ، وتوافق فى الايقاع ، واتساق فى الاستعارات ، وترتيب فى العرض ، وسنطق فى العبارة . والكتابة الجيدة يجب أن تذشر عبيرها وأن ترتاح لها الأذن ، والتقاء الحرفين الصوتيين جريمة سمعية ، ومرض تنفسى . وكان مالبرب يجرب أشعاره على آذان خادمه (١٢٦) .

فلنستنشق عبير إحدى قصائده — وهى « تعزية » ، وجهها لصديق فجع بموت ابنته :

« ولكنها كانت ربيبة هذه الدنيا ، حيث تنتهى أجمل الأشياء أتعس نهاية . وردة عاشت كما تعيش الورود ، إشراقة صبح . . . ان للموت أحكاماً لا شبيه لها ، وعبثاً نتوسل إليه ، فهذا القاسى يصم أذنيه ويتركنا نصرخ . يخضع لناموسه الفقير فى كوخه الحقير ، ولا يقف الحارس الساهر على أبواب اللوفر سداً بينه وبين ملوكنا (١٢٧) » .

على أن تطبيق مالبرب كان أقل فاعلية من مبادئه ؛ وعانت أشعاره برودة الصقيع من قواعده ، ولم ير جى دبالزاك فى شعر مالبرب إلا نثرا

جيداً ، وكان يحاول فى ذلك الوقت إصلاح النثر . ولكن الأوتيل دارمبوييه احتضنه ، واعتنقت الأكاديمية مبادئه ، وورثها بوالو أساساً للأسلوب الكلاسيكى ، وقد أصبحت مدى قرنين قميصاً مقدساً صارماً من شَعر وزرد يلبسه شعراء فرنسا الغنائيون . وانتفخ ماليرب فى شيخوخته حتى أصبح إماما حقيقياً للشعر ، وحجة يستفتى فى مسائل اللغة والأسلوب ، وحياه بعض المعجبين بوصفه « أبلغ إنسان فى جميع العصور » . وقد وافق على أن « ما يكتبه ماليرب سيخلد إلى الأبد [١٢٨] » . وحين كان على فراش الموت (١٦٢٨) أيقظ نفسه من غيبوبته الأخيرة ليوبخ ممرضته على استعمالها فرنسية غير سليمة [١٢٩] .

أما ماتوران رينييه فقد رأى فيه شاعراً مملا ، وتجاهل قواعده ، وأطلق الشعر كما أطلقه فيون بخارا مندفعاً من حر المواخير . هذا الرجل الذى نذر للقسوسية ضيع نفسه فى فينوسبرج حتى شاخ ، وشاب قرناه وهو بعد فى شرخ شبابه . ففى الحادية والثلاثين عجزه النقرس والزهرى . وكان لا يزال يجد « كل امرأة تروقنى » ، ولكنهن كن أكثر منه تأنقاً فى الاختيار . وقد كتب بعضاً من أقوى الشعر فى اللغة ، فيه حديث مستهتر عن الجنس ، وهجو وحشى ، ومباراة مع هوراس فى الشكل ومع جوفينال فى المرارة ، وحركة تزخر بالأشخاص أو الأماكن بما يحس أو يرى . وقد هزأ بصفائية « المتحذلقات » اللغوية وصرامة ماليرب الكلاسيكية ، وبدا له أن الحرارة المشبوبة من شعلة باطنة أهم للشعر من التمسك بأصول النحو والبلاغة والعروض . هنا فى فجر العصر الكلاسيكى نشطت الرومانسية . وحتى العلم والفلسفة نالا منه ما يستحقان من قصاص وتوبيخ على تبجحاتهما :

« أيها الفلاسفة الحالمون ، تكلموا فى استعلاء ، وحلقوا فى النجوم وأنتم لا تتحركون من الأرض ، واجعلوا السماوات كلها ترقص على لحنكم ، وزنوا أحاديثكم فى ميزانها . . . واحملوا مصباحاً فى زوايا الطبيعة . . . واعرفوا من يعطى الزهور هذا اللون البديع . . . وحلوا ألغاز الأرض

والسماء ، إن عقلكم يخدعكم كما تخدعكم عيونكم [١٣٠] » .

وفى عام ١٦٠٩ أصبح شاعر البلاط لهنرى الرابع . وبعد أربع سنوات مات وقد أضناه فسقه المشجى ، بعد أن كتب قبريته . « لقد عشت دون ما تفكير ،تاركا نفسى أسير فى رفق ووفق قانون الطبيعة الطيب ، ولا أدرى لم يفكر الموت فىّ ، وأنا الذى لم أتنازل إلى التفكير فيه [١٣١] » .

٥ – بيير كورنى : ١٦٠٦ – ٨٤

كان بيير كورنى نجم الأدب فى سماء ريشليو ، فى صحبته أصبحت التمثيلية الفرنسية أدباً ، وأصبح الأدب الفرنسى قرناً من الزمان تمثيلية فى أكثره .

وقد مهدت له الطريق تجارب كثيرة . فى عام ١٥٥٢ أخرج إتيين جوديل أول مأساة فرنسية . وتلتها تمثيليات مشابهة تقلد سنيكا ، وتقوم كلها على طريقته فى قصص العنف ، والدراسات النفسية ، وتدفقات البلاغة ، وقد جردت من الخورس الكلاسيكى ولكنها حشرت فى وحدات أرسطو المزعومة ، وحدة الحركة المعروضة على أنها تحدث فى مكان واحد وزمان يوم واحد . ولكن أرسطو (كما رأينا فى غضون نقاشنا للتمثيلية الاليزابيثية) كان قد اشترط وحدة الحركة أو الحبكة ، ولم يطلب وحدة المكان ، ولم يصر على وحدة الزمان . غير أن كتاب العالم جوليوس سيزار سكاليجر Poetices libriseptem « الكتب الشعرية السبعة » (١٥٦١) طالب جميع الكتاب المسرحيين باتباع القوالب اليونانية واللاتينية ، وكرر جان شابلان هذا الطلب عام ١٦٣٠ . هذه الحجج التى تهاوت فى انجلترة أمام عبقرية رجل علمه باللاتينية قليل وباليونانية أقل ، انتصرت انتصارا كاملا فى فرنسا وريثة اللغة والثقافة اللاتينيتين ، وبعد عام ١٦٤٠ سيطر القالب السنيكى ذو الوحدات الثلاث على مسرح المأساة الفرنسية خــلال كورنى وراسين ، وخلال فولتير والقرن الثامن عشر ، وخلال الثورة ،

والإمبراطورية ، وعودة الملكية ، إلى أن كسبت الدراما الرومانتيكية فى مسرحية هيجو « ايرنانى » (١٨٣٠) نصرها التاريخى المتأخر .

لم يكن للمسرحية الفرنسية وطن ثابت فى القرن السادس عشر ، فكان عليها أن تربى نفسها فى الكليات وتطوف من بلاط إلى بلاط ، ومن صالة إلى صالة . وفى عام ١٥٩٨ أنشئ أول مسرح فرنسى دائم فى الأوتيل دبورجون بشارع موكونسي . وفى عام ١٦٠٠ افتتح « التياتر دى ماريه » فى ما هو اليوم شارع « التاميل » القديم . وفى المسرحين كان الشكل قاعة طويلة فى الوسط ، حيث كانت الطبقات الأقل يسرا تقف ، وتاكل ، وتشرب ، وتقامر ، وتتشاجر ، وتشاهد التمثيل وتحرس جيوبها ، بينما صفت على الجدران صفان من الألواج يجلس فيها السادة الميسورون . وقبل عهد ريشليو لم يكن يحضر المسرحيات من النساء غير من لا يملكن شيئاً يخشين على فقده . أما المسرح الذى كان مرفوعاً عند أحد طرفى المستطيل فقد بعد عن نصف المشاهدين بعداً جعل تمثيل الفكر أو الشعور بتعبيرات الوجه أمراً عديم الجدوى تقريباً للممثلين ، لذلك شجعوا الخطابة التى تستطيع الوصول إلى أبعد الآذان . وكانت الحفلات تقام بعد الظهر ، من الخامسة إلى السابعة عادة ، واشترط القانون أن تنتهى قبل حلول الظلام ، لأن المسرحين كانا يقعان فى أحياء خطرة من المدينة . أما الممثلون فكانوا قبل موليير يستقدمون عادة من إيطاليا وأسبانيا . وكان النساء يؤدين أدوار المرأة . وفرضت الحاجة إلى الدخل الاتكاء الجرىء على الجنس فى التمثيليات الفكاهية . وحاولت الكنيسة والبرلمان عبثاً تنقية المسرح الفكاهى أو حظره . ونهض ريشليو بالمستوى الخلقى للدراما الفرنسية ببسط حمايته وإشرافه على بعض كتابها ، وبحضور الحفلات التمثيلية بشخصه ، وبالتعاون مع روترو ، وسكارون ، وغيرهما فى تأليف التمثيليات . وهكذا ، وتحت بصره الشامل ، مهد أسلاف كورنيي – وهم جارنييه وآردى وروترو – الطريق للنجاح التاريخى الذى حققته مسرحية « السيد » .

لقى كورني ما يلقاه كل مكافح فى طريقه إلى التفوق من تقلبات . ولد فى روان (١٦٠٦) ؛ وعوقته نشأته فى عاصمة اقليمية بمنأى عن حوافز باريس وفرصها الأدبية ، ولكن أباه كان قاضياً ناجحا استطاع أن يوفر لبير أفضل ما أتيح من تعليم فى كلية اليسوعيين المحلية . وقد استخدم هؤلاء المربون الغيورون المسرحية أداة للتعليم ، وعلموا الطلاب أن يمثلوا باللاتينية مسرحيات كلاسيكية وغيرها ، وقد أثر هذا التقليد اليسوعى فى المسرحية الفرنسية موضوعا وتقنية وأسلوباً . وبالطبع لم يقصد أحد ببير أن يكون كاتباً مسرحياً ، فقد نشئ فى القانون ومارسه فترة ، ولعل فن الفصاحة القانونية واعتيادة عليها شاركا فى صوغ البيان الذى يجلجل فى مآسيه .

وحين ناهز الحادية والعشرين وقع فى غرام المرأة والشعر فى وقت معاً تقريباً ، ولكن السيدة صدته ، فوجد ملاذه فى القوافى . وقد خلف الجرح فيه اكتئاباً وإحجاماً دائمين ، فثل بالمداد المسرحيات التى حرمت على دمه . وانقضت إحدى عشرة سنة قبل أن يجد له زوجة (١٦٤٠) — ولم يجدها إلا بمساعدة من ريشليو ، ولكنه خلال ذلك تصور العدد الكبير من مآسى أو مهازل فيها تودد المحبين أو شهامة الأبطال . وفى عام ١٦٢٩ حمل إلى باريس أولى تمثيلياته « مليت » ، فمثلت فى الأوتل دبورجون ، وكانت رباعية مخيفة من الحب والدسيسة ، ولكن حوارها المفعم بالحياة أعانها على النجاح ، واصطلى كورني فى دفء الشهرة . وكلفه ريشليو هو وأربعة غيره بكتابة تمثيليات فى موضوعات وبطرق اقترحها الكردينال . غير أن كورني أدخل على هذه الخطة الموضوعة له تعديلات فى استقلال كثير . وعبس « صاحب النيافة الأحمر » ، فانسحب كورني غاضباً إلى روان ، ولكنه ظل يتسلم من ريشليو معاشا قدره خمسمائة كراون فى العام .

وحركه وجرح كبرياءه نجاح مأساة « سوفونيسب » التى كتبها ميريه ، فهجر التمثيلية الفكاهية ، ودرس سنيكا ، وحمل إلى باريس عام ١٦٣٥

تمثيلية « ميديه » . هنا ظهرت صفاته الجوهرية لأول مرة — وهي قوة الفكر وسمو الحديث . وراح منذ الآن ، مع بعض الاستثناءات ، يملأ مسرحه برجال ونساء رفيعي المقام ، ويضفي عليهم العواطف الرفيعة التي يعرب عنها في لغة جزلة وحجة قوية . وحين استمع وولر ، الشاعر الإنجليزي المعاصر ، إلى « ميديه » نادى به إماما جديداً ، « فغيره ينظم الشعر . ولكن كورني هو الوحيد الذي يستطيع أن يفكر(١٣٢) » . — واسمى ضروب الفن ما أشرب بالفلسفة . ومن مسرحية الرومان واليونان الملحمية ، ومن معلميه اليسوعيين ، ومن تأملاته الحزينة الموحشة — هذه الأبيات الجليلة ، السداسية التفاعيل ، تزحف زحف الجيش في أحلامه — بلغ كورني مستوى من الفكر والأسلوب لم يعهد قط في التمثيليات الفرنسية من قبل وندر أن عرف بعده .

يضاف إلى هذا أدب درامي آخر اجتذبه وشكله . إنه لم يستطع أن يستقي من المسرح الاليزابيثي غير القليل ، لأن هذا المسرح أغفل القواعد الكلاسيكية أغفالا لا يناسب قالبا كلاسيكيا . ولكن أسبانيا كانت في هذا العصر مجنونة بالمسرح ، تغدق التكريم على لوبي دي فيجا وتيرسو دي مولينا وكالديرون دي لاباركا كأنهم الورثة الأكفاء الوحيدون لسوفوكليس ويوريبيديس ، وتيرينس وسينكا . وفي المسرحية الاسبانية وجد كورني موضوعا دراميا بطبيعته — قانون الشرف أو العرض ، الذي فرض الموت جزاء لكل إهانة أو إغواء . فتعلم الأسبانية ، وقرأ « مغامرات السيد » لجيين دي كاسترو (١٥٩٩ ؟) ، واستعار الحبكة دون اعتذار أكثر من اعتذارات شيكسبير ، وكتب أشهر تمثيلية في الأدب الفرنسي (*) .

(*) السيد . وهي كلمة « السيد » العربية كان اللقب الذي لقب به المسلمون السيد رودريجو دياز البطل شبه الأسطوري الذي اشترك (حوالى عام ١٠٨٥) في استرداد أسبانيا المسيح .

ومثلت السيد عام ١٦٣٦ . وشعر النظارة أنه لم يظهر على خشبة المسرح الغالى بعد شيء بهذه القوة . قال معاصر « جميل جدا أنها ألهمت بالحب حتى أكثر السيدات برودا ، فتفجرت عاطفتهن أحيانا في المسرح العام . وشوهد في الألواج ناس قل آن بارحوا قاعاتهم المذهبة ومقاعدهم المكسوة بالزنبق شعار الملكية(١٣٢) » . ولم يعرف الكثيرون أن فكرة المسرحية مستعارة مع أن كورنيي اعترف بهذا صراحة ، وتعجب الجميع من لطافتها المتشابكة . فشيمين الفتاة العريقة المولد ، وردريج النبيل ، عاشقان متيان . ولكن أبا شيمين . وهو الدون جوميز ، يتشاجر مع والد رودريج ويسبه وهو شيخ عليل ؛ ويتحدى رودريج جوميز للمبارزة ويقتله . وتشعر شيمين ، وهي مبقية على حب رودريج ، بأن داعي الشرف يدعوها لرجاء الملك فرديناند أن يقطع رأسه أو ينفيه ؛ وهذا الصراع الذي يعتمل فيها بين « واجب الشرف » ودعاء الحب يضفي على القصة وعواطفها المتشابكة قوة وحدة فائقتين . أما رودريج فيقدم سيفه لشيمين ويدعوها لقتله ، ولكنها لا تستطيع الانتهاء إلى قرار . فينطلق إلى محاربة المسلمين ، ويعود إلى إشبيلية وفي موكبه الملوك الأسرى وهالات المجد ، وتتغنى باسمه إشبيلية كلها ، ولكن شيمين لا تزال تطالب بموته . وحين يرفض فرديناند ، تعد بأن تتزوج أي رجل يتحدى حبيبها ويقتله . ويضطلع سانشو بالمهمة . ويقترح رودريج أن يدع سانشو يقتله . ولكن شيمين تندم على انتقامها ، وتتوسل إليه أن يدافع عن نفسه . فيهزم سانشو ، ولكنه يبقي عليه ، وأخيرا يتم استرضاء قانون الشرف ، وتقبل شيمين حبيبها ، وينتهي كل شيء نهاية سعيدة .

واحتفلت باريس طوال نصف موسم بجمال شيمين وناقشت سلامة عقلها . وسمعت نغمات سياسية صاحبت النقاش . ذلك أن ريشليو حرم المبارزات ، ولكنها تبدو في التمثيلية جزءا من القانون الأعلى . أما النبلاء الكارهون لريشليو فقد تهللوا لتمثيل أرستقراطية ما زالت تتولى العقاب

بنفسها . كذلك لم يسر الكردينال كثيرا لنجاح رجل توقف عن تلقي توجيهاته الأدبية، فطلب إلى أكاديميته الوليدة أن تصدر نقدا منصفا للتمثيلية، ولم يكد يخفي أمله في أن يكون الحكم ضدها . وأطالت الأكاديمية مناقشاتها حتى تهدأ الأعصاب ؛ وأخيرا ، وبعد خمسة شهور ، نشرت رأيها ، وكان حكمها في جملته معتدلا منصفا . فقد اعترضت على الاشادة الواضحة بالحب الرومانسي ، ورأت أن حل عقدة التمثيلية لا يحتمل التصديق ، ووجدت في كلمات شيمين الأخيرة لرودريج وهو ماض إلى قتال سانشو بعض الخلافة والغرور السخيف « عد ظافرا من قتال جائزته شيمين » . على أن هذا النقد لطفته الفقرة الختامية في حكم الأكاديمية تلطيفا جميلا :

« يجب أن يغتفر الناس ، حتى العلماء منهم ، بعض الاغتفار شوائب عمل ما كان يحظى بإبهاج المجتمع إلى هذا الحد لولا ما فيه من مواطن جمال غير عادية . . . . وأن طبيعة عواطفه وعنفها ، وقوة الكثير من أفكاره ورقتها ، والسحر الفائق الوصف الذي يمتزج بكل عيوبه — كل أولئك قد كسب له مكانا عاليا بين القصائد الفرنسية التي من هذا النوع(١٣٤) » .

ولم تتخذ الأكاديمية صفة القاضي الأدبي بعد ذلك إطلاقا . أما كورني فقد لطف من الموقف باهدائه تمثيلية « السيد » عند نشرها إلى ابنة أخت الكردينال المحبوبة ، ورائعته التالية « أوراس » (١٦٤٠) للكردينال نفسه ، وكان ليفي قد روى هذه الأسطورة في « تاريخه » . ففي اليوم ذاته ولدت أختان توأمان ، في مدينتين مختلفتين ، كل منهما ثلاثة توائم ذكور — أبو الأولين هوراتيوس في روما ، وأبو الآخرين كورياتوس في ألبا لونجا . وبعد جيل ارتبطت الأسرتان برباط أوثق ، وذلك بزواج سابينا ابنة كورياتوس ، بأوراس وهو ابن هوراتيوس ، وبحب كاميللا ابنة هوراتيوس لأحد توائم كورياتوس . ولكن المدينتين تنزلقان إلى الحرب ، ويلتقي جيشاهما وجها لوجه . أما سابينا وكاميللا فترتعدان في المعسكر الروماني ، وتحدد سابينا الموضوع النسائي الذي تردده التمثيلية .

« انى وا أسفاه رومانية ما دام أوراس رومانيا ؛ فقد اتخذت لقبه حين قبلت يده ، ولكن هذا الرباط سيسترقني لو حجب عن ناظرى مسقط رأسى - ألبا ، حيث بدأت أتنفس الحياة ، ألبا ، وطنى العزيز وحبى الأول ؛ انى حين أرى الحرب تنشب بيننا وبينك أخاف النصر خوفى من الهزيمة . فإذا شكوت يا روما من أن هذا خيانة لك ، فاصنعى لنفسك أعداء أستطيع أن أكرههم . فانىّ لى وأنا أشهد من أسوارك جيشهم وجيشنا ، وأرى اشقائى الثلاثة فى جيش وزوجى فى الآخر ، أن أصوغ صلواتى وألح على السماء فى أن تسعدك دون أن يكون فى هذا خروج على الولاء[١٣٦] ؟ » .

وهكذا لا يعرض كورنيى موضوعا هو مجرد معركة سلاح ورجال ؛ إنما هو صراع الولاءات المشبوبة ، ومأساة الحق يصارع الحق ؛ فإذا تلقى قلمه هذا الإلهام . انطلقت منه عبارات محكمة القوة ؛ وأبيات تسير بخطى عسكرية وأنغام مجلجلة .

أما قائد ألبا فيذكر الرومان بأنهم هم وأهل ألبا أبناء دم واحد ووطن واحد (أكان فى ذهن كورنيى الكاثوليك والهيجونوت ؟) ، وأن من الاجرام تقطيع أوصال إيطاليا (فرنسا ؟) بالحرب الأهلية ، ويقترح انهاء الحرب بنزال ثلاثة من أهل ألبا مع ثلاثة من أهل روما . ويقبل الاقتراح ، وتتاح للنساء ساعة من السعادة المرتجفة . ولكن قائد ألبا يختار توائم كورياتوس الثلاثة ، ويختار القائد الرومانى توائم هوراتيوس . وتبكى النساء ، ويرق الأبطال لحظة لدموعهن ؛ ولكن هوراتيوس الأب يوبخهم وهو يعلن الفكرة الرجولية ، لأنهم يضيعون الوقت مع النساء بينما يدعوهم داعى الشرف :

« أدوا واجبكم ، واتركوا الباقى للآلهة[١٣٧] » .

ولكن الآلهة تخطئ . فيقتل توائم كورياتوس ، ولا يبقى على قيد الحياة من توائم هوراتيوس سوى أوراس . وتعنفه شقيقته كاميللا لقتله

خطيبها ، وتندد بروما وبناموس شرفها وحربها . فيقتلها وهو بعد سكران بنشوة المعركة لأنها ليست جديرة بأن تكون رومانية . وتوبخه زوجته سابينا على قسوته ، وتبكي أشقاءها القتلى ، وتدعو أوراس ليقتلها هي أيضاً . أما هو فيحاول اقناعها بأن الوطنية أسمى من الحب .

وفكرة التمثيلية بالطبع لا تصدق ، ولكنها فى هذا لا تزيد عما فى شيكسبير . إن الدرامى بحكم تعريفه شاذ ؛ والمسرحية مقضى عليها إن هى وصفت الواقع فى غير تحيز . وهى ترتفع إلى مقام الفن إذا استطاعت بتجاهلها ما ليس متصلا بموضوعها واختيارها للمهم أن تزيدنا عمقاً بفهم أكمل للحياة . لقد ورث كورني تمجيد النهضة لروما القديمة ، وأيد المفهوم الصارم للواجب أمام انحلالات الحب التى سيطرت على المسرح الفرنسى قبله ، فصمم ألا يكون أبطاله عشاقاً أولا ، بل وطنيين أو قديسين .

وقد اختار من التقويم الكاثوليكى قديساً يسيطر على تمثيلية أقوى حتى من هذه . يقول سانت — بوف : « كل الناس يعرفون « بوليوكت » ، ويعرفونها عن ظهر قلب[١٣٨] » . والبناء فى هذه التمثيلية كلاسيكى على نحو صارم ، إذ يتقبل الوحدات كلها ، ولكنه يبنى داخلها مأساة معقدة ذات قوة مركزة . ولا يصلنا اليوم سوى فصاحة التمثيلية فى مكاتبنا ، ولكن يجب أن نسمعها منطلقة من أفواه الممثلين الفرنسيين يتحركون فى جلال على خشبة المسرح ، أو تحت النجوم فى فناء الانفاليد أو اللوفر ، وحتى مع توافر هذه الشروط يجب أن نملك ناصية الفرنسية وتكون لنا أرواح فرنسية . ويجب أن نكسو أنفسنا من جديد بإيماننا الشاب . أما الحبكة فتدور حول تصميم بوليوكت ، الرومانى المثقف ، المعتز بنفسه ، حديث العهد باعتناق المسيحية ، على تحطيم مذبح الآلهة الوثنيه . اما زمن التمثيلية فهو الاضطهاد الديشى (٢٤٩ — ٥١ م) ، وأما مكانها فمليتين ، وهى مخفر أمامى رومانى فى أرمينيا ، ومشهد الدراما كلها قصر فيلكس الوالى الرومانى . وقد دعى المسيحيون جميعاً ، منذرين بالموت عقابا للمخالفين ،

أن يشتركوا فى صلاة تنتظم الإمبراطورية بأسرها وقربان للآلهة القديمة طلبا لتأييدها للجيوش الرومانية ضد الهمج المغيرين المحدقين بها . ويشتعل بوليوكت بغيرة المؤمن المهتدى ، فيبغى بعمـــل مثير أن يشجع المسيحيين على مقاومة الأمر الإمبراطورى . ويعوقه عن هذا حبه لزوجته بولين ، ابنة الوالى ، ولكنه يضحى بالحب فى سبيل الواجب كما يفعل أبطال كورني الصادقون . وفى حضرة فيلكس ذاته يقطع هو وصديق له الطقوس الوثنية، ثم يناشدان العابدين أن ينصرفوا عن جوبيتر الفاجر إلى إله المسيحيين ، « الملك الواحد القهار للأرض والسماء » ، ولكى يفضحا «المسوخ العاجزة » التى يتألف منها مجمع الآلهة الرومانى يرتقيان المذبح ويحطمان آنية الشعائر وتمثال جوبيتر . ويأمر فيلكس بالقبض على منتهكى هذه المقدسات . وتتوسل بولين إلى بوليوكت أن يتوب عن تدنيسه المعبد ، ولكنه يدعوها بدلا من ذلك إلى اعتناق دينه الجديد . وتناشد بولين أباها أن يعفو عنه فيأبى ، وتجهر هى باعتناقها المسيحية وتستعد لمرافقة زوجها إلى الموت . ويتأثر فيلكس تأثراً يحمله على اعتزال منصبه واعتناق المســيحية . ثم ينتهى الاضطهاد فجأة ، ويرد فيلكس إلى منصبه ، ولكن بوليوكت قاسى أثناء ذلك عذاب الاستشهاد .

وكل ما فى التمثيلية تحلية للتاريخ من قلم كورني ، فيما عدا الاستشهاد وتدنيس المذبح ؛ كذلك هو خالق وقاحة القديس المتعالية وعنف الفعل ، وحين قرأ المؤلف التمثيلية فى الأوتيل درامبوييه ، أدان عدد من السامعين ، ومنهم أحد الأساقفة ، بوليوكت لخشونته وتطرفه فى غير ضرورة . وفكر كورني حينا فى وقف التمثيلية ، ولكن نجاحها على المسرح رفعه إلى أوج حياته الأدبية (١٦٤٣) . وبقى له فى أجله آنذاك واحد وأربعون عاماً سنرى أنه أنفقها فى منافسة مع راسين ، ولكنه لم يؤت العلم بأنه قد كتب أعظم أعماله فى هذه المسرحيات الثلاث — بل يرى البعض أنها أفضـــل المسرحيات فى تاريخ المسرح الفرنسى كله . وهى تختلف عن الدراما

« الرومانسية » التى شاعت فى انجلترة الاليزابيثية أو فرنسة القرن التاسع عشر اختلافاً يقتضينا إعانة التاريخ بالخيال لتعليل سلطانها على زمانها وعلى مسرح اليوم . إن فى كورنيي روحاً رومانسية أيضاً بقدر ما فى شيكسبير ، وعواطف مدروسة بأكثر من عناية ديكارت ورهافته ، ولكن اتباع مثل العصر الكلاسيكية اقتضى اخضاع العواطف — على ما فيها من تعبير قوى — « للعقل » — أو للحجة . والإسراف فى الحجج هو ثقل الموازنة لهذه التمثيليات ، بحيث قلّ أن تحلق التحليقات التى تكثر جـداً فى راسين . أما الحركة فتبعد عن خشبة المسرح ، فليس عليها سوى السرد ، والحضّ ، والفصاحة ، وكل شخوص كورنيي محاجون بارعون . أما الفرنسيون فتتلاشى فى نظرهم هذه العيوب فى بهاء الأسلوب وجلال الموضوعات . فإذا عن لنا فى أى عمل فنى أن نلتمس السمو ، أو نبحث عن فكرة أو شعور يرفعنا فوق ذواتنا وزماننا ،وجدنا هذا مردداً فى كورنيي . لقد كتب وكأنه يكتب للساسة والفلاسفة ، ونظم أبياته وكأنه يلحن موسـيقى ، ونحت عبارات ما زالت ملازمة لذاكرة فرنسا . وامتزجت الآن الروح الكلاسيكية والاستقراطية — روح العقل يكبح العاطفة ، والشكل يسيطر على المضمون — بضبط النفس الرواقى ، وبالشرف الأسبانى ، وبالذكاء الفرنسى ، ليخرج من هذا كله مسرح بعيد عن المسرح الاليزابيثى بعد السماء عن الأرض ، وهو مع ذلك ، بفضل راسين وموليير أيضاً ، يعدله قيمة وتألقاً فى تراث البشرية .

٦ — العمـــارة

أكان انتصار المزاج الكلاسيكى ملحوظاً فى الفن كما فى الأدب ؟ إنه يطالعنا فى كل واجهة بناء فرنسى تقريباً فى ذلك العصر . لقد رممت بعض الكنائس القوطية ترميماً قوطياً ، مثل كاتدرائية أورليان ، ولكنا نجد فى الأكثر كنائس قديمة — ككنائس سان جرفيز وسانت — إتيين — دومون —

زينت من جديد بواجهات من طراز النهضة . وقد نلحظ فى الكنائس الحديدة طرازا إيطاليا جديداً يعمها كلها ؛ وهكذا صمم جاك لومرسييه كنيسة السوربون على غرار كاتدرائية القديس بطرس — أعمدة ، وقواصر ، وقبة . فى العمارة ، كما فى الأخلاق ، والأدب ، والفلسفة ، أضفى الإحياء الوثنى على المسيحية وجهاً جديداً جريئاً .

وطوى تيار النهضة الكل حتى اليسوعيين ، وكانوا أسرع استجابة له لأنهم وهم طائفة دينية لم تقيدهم جذور من العصر الوسيط . فى أجيالهم الأولى حين تزعمهم لويولا ولينيز ، كانوا مبشرين صارمين لا يخشون أحداً ، ومنافحين مخلصين عن المعتقد السليم والبابوات ، ولكنهم استبقوا قدراً من النزعة الكلاسيكية فى مجمع ترنت ، وكما جعلوا الدراسات الكلاسيكية لب برامج التعليم فى كلياتهم ، كذلك اختاروا فى العمارة الواجهات الشبيهة بالكلاسيكية لأهم معابدهم . ومن كنيستهم الرائعة فى روما ، « كنيسة يسوع » ، حملوا طراز الزخرف الفاخر عبر الألب وفوق البرانس . على أنهم لم يكونوا ملتزمين بدرجة متماثلة بالزخرفة الفياضة . من ذلك أن أشهر معمارييهم — الذى شيد واجهة جناح كاتدرائية أورليان — صمم كنائس وكليات متوخياً البساطة الشديدة التى تناسب خلقه وما تحت يده من مال . ولكن حين أثرت الطائفة بنت فى وفرة بهيجة . فى عام ١٦٢٧ بدأت بناء الكنيسة الجميلة التى تعرفها باريس عادة باسم « الجزويت » — وواجهتها رومانية ، وداخلها مزين زينة أنيقة بالتيجان والأقواس والكرانيش ، وأقبية الخورس تلتقى فى انسجام لتدعيم قبة مضيئة ؛ وقد وصف جون افلين الذى كان يجوب باريس عام ١٦٤٤ هذه الكنيسة بأنها « من أكمل قطع العمارة فى أوربا (١٣٩) » . إنها لم تكن باروكا على نحو منفر ، ولم تحتو على أى شىء مشوه أو غريب . فالباروك فى فرنسا رصنه الذوق الاستقراطى — تماماً كما هذب رونزار وماليرب قباحات رابليه .

وتخلفت العمارة الدينية خلال الحروب الدينية ، وفى فترات السلام التى تخللتها نمت العمارة المدنية . فارتفعت قاعات المدن فى لاروشيل، وليون، وتروا ، ورانس . وفى باريس أرادت كاترين دى مديتشى أن تخلى قصر اللوفر لشارل التاسع ومليكته، فاستأجرت فيلبير دبلورم ليبنى لها ولمساعديها قصر التويلرى (١٥٦٤) — الذى اشتق اسمه من مصانع القرميد (التويل) الفخارى القريبة . وارتفع القصر الجديد ، الذى قامت فى واجهته العمد الكورنثية وفق طراز النهضة ، غربى اللوفر عند ميدان كاروسل الحالى ، وامتد ٨٠٧ قدما بطول السين . وقد أحرق فى فتنة الكومون عام ١٨٧١ ، ولم يبق منه سوى الحدائق — حدائق التويلرى اللذيذة .

واستعادت العمارة المدنية نشاطها سريعا فى عهد هنرى الرابع . وأصبح البون نوف ، الذى افتتح للمرور عام ١٦٠٤ ، أحب الجسور التى تمتد فوق السين . أما الأوتيل دفيل الذى أنجز فى السنة التى مات فيها هنرى ، فقد ظل إلى عام ١٨٧١ مفخرة للشعب تنافس النوتردام واللوفر . وكما فعل فرنسيس الأول ولويس الرابع عشر ، أظل هنرى الفنانين برعايته ، وفهمهم ونسق عملهم . فوسعوا له اللوفر بإضافة البافيون دفلور ووصلوا بينه وبين التويلرى بالرواق الكبير . وفى فونتنبلو بنوا المصلى ، ورواق الوعول ، والفناء والصالون البيضى ، والبورت دوفين ، ورواق ديان . ولقد كانت فونتنبلو فى عهد هنرى الأكبر ذروة النهضة الفرنسية .

أما أرملته مارى دمديسى ، فقبل أن تصطدم بريشليو، كلفت سالومون دبروس أن يصمم لها قصر لكسمبورج ، فى شارع فوجيرار جنوبى السين (١٦١٣ — ٢٠) . ولما تحرر لويس الثالث عشر وريشليو من نفوذها عهدا إلى لومرسييه أن يوسع اللوفر مرة أخرى بوصفه مقر الحكومة ، فأنجز الآن البافيون دلورلوج ، ووسع الجناحان الكبيران ، واتخذ البناء الفخم شكله الحالى فى أساسه . ومن تصميمات لومرسييه بنى ريشليو فى باريس « الباليه كردينال » الأنيق حيث جمع مجموعاته فى التصوير

والنحت وغيرهما من الفنون ، هنا كانت أعمال مانتينا ، ودافنشى ، وفيرونيزى ، و « عبيد » ميكلانجلو . وقد انتقل أكثر هذا الكنز إلى لويس الثالث عشر والرابع عشر ، ثم إلى اللوفر ، ثم إلينا .

أما فى عمارة البيوت فقد أعاد فرانسوا مانزار تشكيل أفق باريس بتطويره « سقف مانزار » - وهو سقف ذو منحدرين ، أسفلهما أحد من أعلاهما ، مما يتيح تصريف الثلج والمطر بسرعة ، ويفسح فراغا أكبر فى الطابق العلوى ؛ وكم من طالب أو فنان باريسى سكن هذا « المانزار » أو العلية . وصمم مانزار عدة كنائس فى باريس ، وعدة قصور ريفية فى فرنسا - وأنجحها فى حى يعرف اليوم بميزون لافيت ، وهو ضاحية من ضواحى العاصمة . وفى عام ١٦٣٥ عهد إليه « مسيو » جاستون دورليان أن يعيد بناء قصر الأسرة فى بلوا ؛ ولم ينجز مانزار سوى الجناح الشمالى الغربى ، وما زالت واجهته المبنية بطراز النهضة وسلمه الفاخر رائعة « أبرع معمارى أنجبته فرنسا فى تاريخها »(١٤٠) .

٧ - فنون كثيرة

وبهذا المزاج نفسه ، مزاج التقاليد الكلاسيكية التى يرقق منها الصقل الشعور الفرنسيان ، زين النحاتون الكنائس ، والقصور ، والحدائق ، ومقابر العظماء . وقد ورث جرمان بيلون رشاقة النهضة التى اتسم بها تشللينى ، وبريماتيكيو ، وجان جوجون ، ولكنه لم ينس المزيج القوطى من الرقة والقوة . أما روائعه فثلاث مقابر ، إحداها - وهى المقامة فى كنيسة دير القديس دنى - جمعت فى الموت بين كاترين دى مديتشى وهنرى الثانى ، زوجها لفترة ما - وقد أضفى الفنان على الملكة جمالا مثاليا كان خليقا بأن يدفئ قلبها الموحش. والثانية ، الموجودة الآن فى اللوفر ، كرمت رينيه دبيراج ، مستشار فرنسيس الثانى وشارل التاسع - وهى صورة للكبرياء الخاضعة للتقوى ، ومعجزة من الثياب الطبيعية التقطها المثال فى البرونز . وإلى

جوارها مقبرة زوجة رينيه ، فالنتين بالبيانى : وفى أعلاها ترى السيدة فى شرخ شبابها وقد خلعت عليها الجلال أرواب تعلوها الوجوه ، وفى أسفلها هذا الجمال ذاته منحوتا بغير رحمة فى هيئة جثة لها وجه وأيد وأرجل عجاف وصدر متغضن وثديان فارغان غائران ؛ إنها صيحة غضب قوية على الدهر وانتهاكه الساخر للجمال . وهذه المقابر وحدها كانت تكفى لرفع بيلون إلى مقام أعلى من مقام أى نحات فى عصره ، ولكنه أضاف إليها العدد الوفير من التماثيل ، وكلها ذات محاسن أخاذة ، وأكثرها جمع فى اللوفر ، خزانة فرنسا التى لا ينضب لها معين .

وهناك أيضا ، وعلى بضع خطوات ، نستطيع أن نرى أعمالا لخلفاء بيلون : تمثالا بالحجم الطبيعى لهنرى الرابع من صنع بارتلمى تريمبليه ، وعلى فمه ابتسامة غامضة كابتسامة مونا ليزا ، ومقبرة آن دمونمورنسى التى نحتها بارتلمى بريور ، وتمثالا حيا يسمى « الشهرة » لبيربريار — هو امرأة عارية تنفخ أنفاسها من خدين منتفخين وتكتب فى الهواء كأنها تضيف تحسينا إلى كلمات كيتس « هنا يرقد إنسان كتب اسمه فى الريح » . وفى مصلى شانتيى أثر يذكر للكردينال دبيرول صنعه جاك سارازان . وقد درس بعض هؤلاء النحاتين فى روما وجلبوا معهم من برنينى ميلا باروكيا للزخرف والحركة والعاطفة المسرفة ، ولكن هذا الاسراف سرعان ما تلاشى تحت نظرات ريشليو الباردة وذوق لويس الرابع عشر الكلاسيكى . ويبدأ ظهور ذلك الكمال الناعم الذى طبع « القرن العظيم » فى ميداليات جان فاران ، الذى وفد من لييج ليعيش فى فرنسا ، والذى بلغ فنه فى الصور الصغيرة التى رسمها لريشليو ومازران وآن النمسوية براعة لم يبزه فيها أى رسام ميداليات جاء بعده .

ولو لم تخلف لنا فرنسا أى نحت أو عمارة أو تصوير لحق لها برغم هذا أن تحوز احترامنا وحبنا لما أنجزته فى ميدان الفنون الصغيرة . فحتى فى هذه الفترة المضطربة بين حكم فرنسيس الأول وحكم لويس الرابع عشر ، نافست فرنسا — بل ماقت فى رأى البعض — إنتاج معاصريها من فلاندر إلى إيطاليا ، سواء فى الرسوم ، أو المحفورات ، أو اشغال المينا ، أو الصياغة ، أو قطع الأحجار الكريمة ، أو مشغولات الحديد أو الخشب ، أو المنسوجات ، أو السجاد المرسوم ، أو تصميم الحدائق . فرسوم جاك كاللو للغجر ، والشحاذين ، والمتشردين ، تحمل معها ريح الحياة ذاته ؛ أما سلسلة كلشيهات « آلام الحرب » فقد سبقت جويا بقرنين . وحسبنا حكما على براعة أشغال الحديد فى ذلك العصر حاجز القضبان المؤدى إلى قاعة أبوللو فى اللوفر . أما السجاد المرسوم فكان صنعه فنا لا يقل أهمية عن النحت أو التصوير . كان جان جوبلان قد افتتح مصانع للصباغة بباريس فى القرن الخامس عشر ؛ وفى القرن السادس عشر أضافت المؤسسة مصنعا للسجاد المرسوم ، وأنشأ فرنسيس الأول مصنعا آخر فى فونتنبلو ، وهنرى الثانى مصنعا ثالثا فى العاصمة . وحين ذهبت كاترين دى مديتشى للقاء المبعوثين الأسبان فى بايون أخذت معها اثنين وعشرين سجادة نسجت لفرنسيس الأول لتعرض ثراء فرنسا وفنها . ثم اضمحلت هذه الصناعة التى جمعت بين الحرفة والفن فى عهد هنرى الثانى ، ولكن هنرى الرابع أصلح من شأنها بجلب جيل جديد من الرسامين والصباغين والنساجين الفلمنكيين لمصنع جوبلان فى باريس . وهناك خمسة نماذج ممتازة ترجع إلى عهده — موضوعها صيد ديانا — تزين مكتبة مورجان بنيويورك .

وأحست الزخرفة الداخلية تأثير الباروك يتسرب إليها من إيطاليا . فنقشت الكراسى ، والموائد ، والصناديق ، والبوفيهات ، والدواليب ، ومناضد الزينة ، والسرر — ونقشت فى بذخ ، ورصعت فى كثير من الحالات بالأبنوس أو اللازورد أو اليشب أو العقيق ، أو زينت بالتماثيـــل

الصغيرة . وفى عهد لويس الثالث عشر نجد الكثير من المقاعد بالمخمل ، أو أشغال الابرة ، أو النسيج المرسوم . وقد تنقش الجدران والكرانيش والأسقف أو ترسم بمهرجان من صور النبات والحيوان . وفقدت المدافئ بعض صرامة العصر الوسيط ، وحليت أحيانا بنقوش عربية فى ألوان متعددة .

أما فى الخزف فكان العصر قمة فن رجلين عجوزين : ليونارليموزان ، الذى استمر حتى عام ١٥٧٤ ينتج أشغال المينـا التى أذاعت شهرته أيام فرنسيس الأول(*) ، ثم برنار باليسى الذى ولد عام ١٥١٠ وعمر حتى عام ١٥٨٩ . وكان باليسى مجنونا بالخزف ، فيه فضول قوى ينتظم ميادين الزراعة والكيمياء والدين ، وله ولع بكل شيء من تكون الأحجار إلى طبيعة الإله . درس كيمياء أنواع التربة المختلفة ليحصل على أفضل الطفل لقميئته ، وأجرى تجاربه سنين عديدة لينتج مينا بيضاء تتقبل الألوان الرقيقة وتحتفظ بها . وأحرق نصف متاعه وقودا لفرن حرارياته ، وقد روى القصة وكأنه يتحدى تشلليني . وكان يقوم بالعمل كله بنفسه لأن فقره أعجزه عن أن يستأجر من يساعده ، وكثيرا ما كانت يداه تمتلئان بالقطوع حتى قال « كنت أضطر لأكل حسائى ويداى مربوطتان بأسمال » . « وبعد أن مضيت فى مثل هذا عشر سنوات نحل جسمى حتى لم يبد على ذراعى وساقى أى عضلات ، وبلغ النحول بساقى مبلغا استحال معه على رباط جواربى أن يثبت فوقها ... فإذا مشيت سقطت جواربى على حذائى البالى[141] » . واتهمه جيرانه بأنه يمارس السحر ويهمل أسرته . وأخيرا ، وحوالى عام ١٥٥٠ ، وجد المزيج الذى ينشده ، وصنع مينا من طلاء متقزح اللون ، واستعملها فى تشكيل الآنية والتماثيل الصغيرة المزينة تزيينا بديعا بالسمك ، والسلاحف ، والأفاعى ، والحشرات ، والطيور ، والأحجار - كل غنى الطبيعة الوافر . وأبهج كاترين دى مديتشى أن تضع هـذه المتحفرات الصناعية فى حديقتها وأحواض أزهارها ، ووهبت الخزاف

(*) لاحظ النماذج البديعة المحفوظة فى مجموعة والاس بلندن ومجموعة فريك بنيويورك .

العجوز مصنعا فى التويلرى ، فأضاف فى بيته الجديدة الحوريات المختلفة لزخارفه . ومع أنه كان هيجونوتيا غيورا ، إلا أنه أعفى من مذبحة القديس بارتلميو ، لأن كاترين وحاشيتها بهرتهم زهرياته وكئوسه وأطباقه وشمعداناته وأفكاره الطريفة . ولكن فى عام ١٥٨٨ أمر الحلف الكاثوليكى بمحاكمة البروتستنت من جديد ، فأودع باليسى سجن الباستيل . قال أحد كتاب اليوميات فى عام ١٥٩٠ :

« فى هذا العام (عام ١٥٨٩ فى واقع الأمر) مات فى حجرات سجن سجن الباستيل الأستاذ برنار باليسى ، السجين بسبب دينه ، بالغا من العمر ثمانين عاما ، وقد خرّ تحت وطأة الألم ، وسوء المعاملة ، والحاجة . وحين ذهبت عمة هذا الرجل الطيب لتسأل عنه . . . قال لها السجان انها إن أرادت رؤيته فستجده جثة مع الكلاب على الأسوار ، حيث أمر بإلقائه كما يلقى كلب مثله[١٤٢] » .

٨ — بوسان والمصورون

كان التصوير الفرنسى لا يزال أسيرا لفلاندر وإيطاليا . فسيطر رسامو السجاد الفلمنكيون على فنهم فى باريس ، وزكا المصورون الفلمنكيون فى باريس ، وليون ، وتولوز ، ومونبلييه ، وبوردو . وكانت أفضل لوحات هذه الفترة من صنع الفلمنكيين فى فرنسا ، كصورة إليزابث النمسوية البديعة (الموجودة باللوفر) بريشة فرانسوا كلويه ، وصورة هنرى الرابع المعتز بنفسه (فى شانتيى) بريشة فرانز بوربى الابن ، وأهم من ذلك كله صورة ريشليو التى رسمها فليب دشامبين .

ولكن التأثير المسيطر على التصوير الفرنسى فى هذه الحقبة كان إيطالياً . كان طلاب الفن يذهبون إلى روما ، على نفقة الحكومة الفرنسية أحيانا ، ويعودون مترددين بين مثالية فنانى القرن السادس عشر الفلورنسيين ، وواقعية فنانى القرن السابع عشر البولونيين والنابوليين القاتمة . وقد وفق أحد الفنانين الفرنسيين واسمه سيمون فوييه ، وهو بعد فى الرابعة عشرة

(١٦٠٤) ، إلى إذاعة اسمه بين المصورين، حتى تنافست عليه ثلاث دول . وحاول تشارلز الأول أن يحتفظ به فى لندن ، ولكن بارون سانسى أخذه فى بعثة إلى القسطنطينية ، حيث رسم سيمون صورة رائعة للسلطان أحمد الأول ، بعد أن درس ملامحه خفية خلال ساعة مثل فيها السفير بين يديه . وفى عودته مخترقا إيطاليا ، وقع فوييه فى حب البندقية وفيرونيزى ، ثم أحب كارافادجو فى روما ، حيث بسط عليه أدواقها وكرادلتها من الرعاية ما أغراه بالبقاء فى إيطاليا خمسة عشر عاما . وفى عام ١٦٢٧ دعاه لويس الثالث عشر ليكون مصور البلاط ، وكان يجرى عليه معاشا سنويا قدره أربعة آلاف جنيه ، ثم أعطاه سكنا فى اللوفر . وسرعان ما تهافتت فرنسا كلها عليه . فزين مصلى قصر ريشليو الريفى ، ورسم لوحة مذبح لكنيسة سانت أوستاش ، وصمم رسوما للسجاد الملكى ، وصور لوحات للحاشية . وإذ اغرقته هذه المهام كلها فقد جمع حوله معاونيه فى مدرسة نمت حتى أصبحت الأكاديمية الملكية للتصوير والنحت ، وهناك درب واستخدم لوسويور ، ومينار ، واموتر ، وبوردون ، ولوبرن . ولا تكاد أعماله الباقية تبرر هذه الشهرة ، ولكن له فى تاريخ فرنسا مكانا خطيرا هو مكان إعداد مصورى عصر القمة .

أما الأخوة الثلاثة ، أنطوان ، ولويس ، وماتيولونان ، فقد أدخلوا تنويعا على لوحات عصرهم بتصوير حياة الفلاحين تصويرا تشيع فيه الشفقة المعتمة ، إذ وجدوا فيهم ذلك الفقر الصامت والقوة الشرسة التى اتسمت بها فرنسا فى القرن السابع عشر . كذلك وهب جورج دلاتور فرشاته للمساكين (وقد نبش عنه مؤخرا تقريظ النقاد) ، وصورتاه المقابلتان « فلاح » و « فلاحة » أقرب إلى قمة التصوير فى العهود الملكية التى نحن بصددها ؛ ونستطيع أن نحكم على شهرته الساثرة من مبلغ الـ ٥٠٠,٠٠٠ دولار أو أكثر التى دفعها متحف المتروبوليتان للفنون بنيويورك ثمنا لصورته « العرافة » (١٩٦٠) . وقريب من هذا التحول من القصر إلى الكوخ ،

ذلك الاتجاز الخاص الذى حققه التصوير الفرنسى فى هذا العصر — وهو تطوير المنظر الطبيعى بوصفه عنصرا كبيرا فى فن التصوير .

أما نيكولا بوسان فكان أبوه جنديا فى جيش هنرى الرابع . وبعد أن أسكن منزل نيكولا دليزمان عقب معركة إفرى ، تزوج ابنة نيكولا — وهى فلاحة لا تعرف كيف تكتب اسمها — وفلح مزرعة بقرب ليزانديليس فى نورمانديا . وتعلم ابنهما حب الحقول والغابات ، واقتناص لحظات يسجلها فيها بالقلم الرصاص أو الحبر . ثم وفد كنتان فاران على ليزانديليس ليزين كنيسة بها ، وراقبه الفتى نيكولا فى شغف وانتزع منــه بالملاطفة دروسا فى الرسم والتصوير . فلما رحل فاران ، هرب نيكولا إلى باريس ليدرس الفن (١٦١٢) وكان يومهاق الثامنة عشرة . وهناك توجت الشهور التى كاد يتضور فيها جوعا بعثوره على محفورات ريموندى لأعمال رفائيل . هنا تكشف لنيكولا أمران أولهما أن الخط لا اللون أداة الفن ، وثانيهما أن روما عاصمة الفن . وظل ثمانية أعوام يكافح للوصول إلى تلك القلعة . ومرة وصل فى رحلته حتى فلورنسة ، ولكن الفقر واليأس والعلة ردته إلى باريس . ثم حاول ثانية ، ولكن دائنا عطله فى ليون ، فزحف راجعا ليدفع ديونه ويكسب قوته بأشغال تصوير صغيرة فى قصر اللكسمبورج . وفى عام ١٦٢٢ استخدمه الشاعر الإيطالى جوفانى باتيستا مارينى ، الذى وفد وقتها على باريس ، ليرسم له رسوما لقصيدته « أدونى » ، وظفرت رسوم بوسان باستحسان مارينى وببعض التكليفات . ورسم نيكولا صورا للأشخاص على مضض واقتصد فرنكاته فى حرص ، وأخيرا اكتحلت عيناه برؤية روما فى عام ١٦٢٤ .

وأوصى به مارينى الكردينال فرانشسكو باربرينى : « ستجد هنا شابا فيه عنف شيطانى » — شاب « مجنون بالتصوير » (خلافا لتحليل ايروشيج لنفسه) . وكان مجنونا بإيطاليا أيضا ، غير أنه لم يجن بصور أئمة فنانى النهضة بقدر جنونه بكمال القطع المتخلفة فى الساحة الرومانية (الفورم) ، ولا جنّ

بالصور الجصية المتخلفة من العصور القديمة بقدر جنونه. بروما نفسها — بآفاقها، وحقولها، وأشجارها، وتلالها، وتربتها ذاتها. ولا بد أنه تساءل كما تساءل بعض المتحمسين لها ممن أتوا بعده. لِمَ لم يكتب الله له أن يولد في إيطاليا؟

وامتحنه الكردينال باربريني بتكليفه برسم لوحة «موت جرمانيكوس»، فسرته النتيجة، وسرعان ما اشتد الطلب على فن بوسان حتى جاهد لكي يلبيه. كان رعاته — سواء العلمانيون أو الكنسيون — يتوقون للصور العارية، فاسترضاهم فترة بعروض لجسم المرآة كتلك التي نجدها في «انتصار ربة الزهر(*)» التي رسمها للكردينال أومواديو، وفي «منظر باخوسي» لريشليو. واتخذ مقامه في روما، وتزوج فتاة في السابعة عشرة وهو يناهز السادسة والثلاثين، وأنفق عشر سنوات سعيدة معها ومع ألوانه. ثم دعاه ريشليو ولويس الثالث عشر إلى باريس (١٦٤٠). فقال بوسان «سأذهب كإنسان حكم عليه بنشر جسده نصفين(١٤٣)» ولقى هناك التكريم العظيم وتلقى معاشا من ألف كراون، ولكنه لم يرتح لمنافسة الفنانين الباريسين المفعمة بالحقد، فأسرع بالعودة إلى إيطاليا (١٦٤٣) مضحيا بمستقبل عريض. واشترى بيتا على التل البنسي بجوار بيت كلود لوران، وهناك عاش حتى مات، هادئا، مهتما بأسرته، مستغرقا في فنه، قانعا بحظه.

كانت حياته كصوره مزيجاً كلاسيكياً، نموذجاً للنظام، والاعتدال، وضبط النفس. ولم يكن له من أمارات الفنان غير القليل. اللهم إلا أدواته. فلا هو بالعاشق النهم كرفائيل، ولا برجل الدنيا كتيشان، ولا بالعبقرى الشيطانى كميكلانجلو (برغم رأى مارينى فيه)، إنما هو رجل بورجوازى يعنى بأسرته ويدفع ديونه. وحين رأى الكردينال ماسيمو بيته المتواضع قال له «كم أرثى لك، لأنه ليس لديك خادم!» فأجاب بوسان «وكم أرثى

(*) جميع صور بوسان المذكورة هنا محفوظة باللوفر إلا إذا نص على غير ذلك.

ذلك لأن لديك الكثير منهم ! (١٤٤) » . فى كل صباح يتمشى على تله ، ثم يرسم سحابة نهاره ، معتمداً على الجهد لا على الوحى . قال فى فترة لاحقة من حياته رداً على سائل سأله عن السرّ فى امتلاكه ناصيـة الفن « لم أهمل شيئاً (١٤٥) » .

وإذا أخذنا فى الاعتبار طرقه الكثيرة الجهد ، التى لم يستعن فيها بأحد ، وجدنا إنتاجه ضخماً . فلا بد أنه رسم أربعمائة صـــورة ، لأننا نعرف أن بعضها فقد ، وبقى منها ٣٤٢ ، أضف إلى هذا ألفاً وثلثمائة رسم تعتز قلعة وندزر بمائة منها لما تمتاز به من دقة ونقاء فى الخطوط . ولم يتفوق فى تنويع صوره . وكثيراً ما تكون صوره العارية تماثيل عديمة الحياة ، ولو كان فيها شهوانية أكثر لأسغناها . لقد كان نحاتاً يستعمل فرشاة ، ينحو إلى النظر للنساء على أنهن أشكال تصلح للنحت — ولو أنه أحياناً كان يرى فيهن الأصول الإلهية للفن . قال « إن الفتيات الجميلات اللائى نراهن فى شوارع نيم يبهجن عيوننا ونفوسنا بهجة لا تقل عن أعمدة « الميزون كاريه » البديعة ، لأن هذه ليست إلا نسخاً قديمة من تلك (١٤٦) » . كذلك لم ينطلق على سجيته فى موضوعات الكتاب المقدس . وقد أجاد تصوير بعضها — مثل « الفلسطينى صريعاً عند الأبواب » و « عميان أريحا » ، وما أجمل النساء ، وأجلهن فى الوقت نفسه ، فى « اليعازر ورفقة » ! كان تفوقه يتجلى فى الأساطير الكلاسيكية ، مصورة وسط الخرائب الكلاسيكية ومن خلفها منظر طبيعى ذو هدوء كلاسيكى . ولم يكن يرسم من نماذج حية ، بل من خيال أشرب بحب العالم القديم وتوهمه — العالم الذى كان فيه كل الرجال أقوياء ، وكل النساء جميلات . تأمل ذلك الكمال الذى تراه فى الأنثى الوحيدة فى لوحته « رعاة أركاديا » التى رسمها بوسان للويس الرابع عشر تلبية لطلب كولبير . ولاحظ فى مرورك الكتابة المنقوشة على قبر الراعى : « أنا أيضاً كنت مرة فى أركاديا » ، أهذا بوسان يحلم بأنه هو أيضاً عاش فى اليونان القديمة مع أورفيوس والأرباب ؟

و « مأتم فوكيون » أقوى لوحات بوسان الأسطورية ، ولكن « أورفيوس ويوريديسى » أشدها وقعاً فى النفس ، ربما لأننا نتذكر ألحان جلوك اليائسة . ومما يزعج الروح الرومانسية أن تجد القصة تائهة فى المنظر الطبيعى على هذا النحو . فالحقيقة أن بوسان لم يحب الرجل ، ولا حتى المرأة ، بل المشهد المهذب للنفس ، مشهد الحقول والغابات والسماء المنبسطة — كل ذلك المنظر العريض المحيط باللوحة ، حيث يكون التغيير متمهلا ، أو خجلا أمام الدوام والاستمرار ، وحيث تذوب أوصال البشر فى منظورات المكان والزمان . لذلك كانت أعظم صوره هى مشاهد الطبيعة ، التى يكون الانسان فيها عرضا ضئيلا ، شأنه فى التصوير الصينى أو البيولوجيا الحديثة .

هذه المشاهد جليلة ، ولكنها رتيبة . ولولا أن بوسان أضاف هنا وهناك أشكالا مميزة أو عنوانا خطه فى إهمال لشق علينا أن نفرق بين الواحد منها والآخر . لقد أحب الخط فى حكمة ولكنه أسرف فى حبه ، وأهمل سلم اللون ، مستغلا اللون البنى فوق ما ينبغى ؛ لا عجب أن ثار الفنانون الذين أتوا بعده على هذه « الصلصلة البنية » المتساقطة من أشجاره . ومع ذلك فإن هذه الآفاق الخافتة الأضواء ، الخافتة الألوان ، التى لم يرض عنها رجل مثل رسكن افتتن بوهج تيرنر ، هى تفريج لنا بعد ما أصاب التصوير فى أيامنا من اهتياج وقلق أيديولوجى ، فهنا المفهوم الكلاسيكى للجمال بوصفه اتساق الأجزاء فى كل ، لا الفكرة الحديثة عن الفن بوصفه «تعبيرا» — قد يكون صورة طفل لم يتقن رسمها أو صيحة بائع متجول . وفى وسط اللازمية والباروك ، وفى معارضة لقوة التصوير الإيطالى فى القرن السابع عشر وعاطفيته ، تشبث بوسان بالمثل الكلاسيكى الأعلى ، الذى لا يغلو فى شىء ؛ فلا ألوان صارخة ، ولا دموع ، ولا إغراءات ، ولا مقابلات مسرحية بين الضوء والظل ، بل فن ذكورى أشبه بكورنيى منه براسين ، وبباخ منه ببيتهوفن .

والصورة التي رسمها لنفسه عام ١٦٥٠ تطالعنا منها عينان فيهما كلال ، ربما من الرسم أو القراءة على ضوء ضئيل . كان يقرأ كثيرا ، محاولا الالمام بحياة اليونان والرومان فى تفصيل مثابر ، ولم يصب فنان مثل هذا العلم منذ ليوناردو . فلما أقبل على شيخوخته وجد عينيه تضعفان ويده تهتز . وقطع موت زوجته فى الحادية والخمسين (١٦٦٤) رباطا حيا ؛ فلم يعمر بعدها سوى سنة واحدة . كتب صديق يقول « مات أبيلليس » . وعلى المقبرة أو قربها فى كنيسة أبرشية سان لورينزو ، أقام شاتوبريان (١٨٢٩) نصبا من الرخام كتب عليه كما يكتب أحد الخالدين من البشر الفانين لآخر :

ف . أ . دشاتوبريان

إلى

نيكولا بوسان

لمجد الفنون وشرف فرنسا

وكان أكبر منافسيه فى تصوير مناظر الطبيعة جاره ، وصديقه . كلود جيلليه ، الملقب لوران نسبة إلى مسقط رأسه . وقد شعر هو أيضا بدافع يدفعه نحو إيطاليا ، وقبل أى وظيفة مهما حقرت ليصل إليها ويعيش فيها ، حيث تكشف كل لفتة للعين الباحثة عن أثر ما للفن المسيحى أو قطعة ملهمة من الفن القديم . وفى روما تتلمذ لأجوستينو تاسى ، ومزج له الألوان ، وطهى له طعامه ، وتعلم على يديه . وقد رسم على سبيل التجربة ألف رسم ، وحفر كلشيهات يقدرها اليوم الخبراء العارفون . وكان يشتغل ببطء وتدقيق ، وقد يستغرق أسبوعين فى تفصيل واحد . وأخيرا أصبح هو أيضا مصورا ، يرتزق من الطلب على صورة من الكرادلة والملوك الذين يقدرون فنه . وبعد قليل كان له بيته فوق التل البنسى ، وشارك بوسان فى اشباع الطلب الجديد للمناظر الطبيعية .

وكان يستجيب لهذا الطلب عن طيب خاطر ؛ لأنه أحب أرض روما وسماءها حبا دفعه أحيانا إلى الاستيقاظ قبل طلوع الفجر ليشهد بزوغ النور

كل صبح ، ويقتنص تغيرات الضوء والظل التى تحدثها كل بوصة طالعة من الشمس . لم يكن الضوء عند كلود مجرد عنصر فى الصورة ، إنما كان موضوعه الأهم ، ومع أنه لم يحب — كما أحب تيرنر — أن ينظر فى عين الشمس ذاتها ، فإنه كان أول من درس ونقل غلاف الضوء المنتشر . وقد التقط حركة الهواء غير الملموسة على الحقول ، وورق الشجر ، والماء ، والغمام ؛ كانت كل لحظة من السماء جديدة ، وبدا أنه عقد نيته على جعل كل لحظة سائلة تسكّن نفسها فى فنه . وقد أحب ارتعاش القلوع وهى تقابل الريح ، وجلال السفن وهى تمخر البحر . وأحس فتنة المسافات ، ومنطق المنظور وسحره والحنين إلى رؤية لانهائية الفضاء وراء المرئى .

كانت المناظر الطبيعيه لذته الوحيدة . ثم أدخل التراكيب الكلاسيكية فى صوره عملا بنصيحة بوسان — كالمعابد ، والخرائب ، وقواعد الأعمدة — ربما ليضفى وقار الشيخوخة على المشهد العابر . ووافق على إضافة بعض الوجوه البشرية إلى مشهد الطبيعة العريض ، ولكن قلبه لم يكن فى هذه الزوائد . فهذه الوجوه « أضيفت دون مقابل » ، فكان « يبيع مناظره الطبيعية ، ويهب وجوهه (١٤٨) » . وكانت العناوين والقصص التى توحى بها هذه الوجوه تنازلات منه للعقول التى لم تستطع الإحساس بمعجزة الضوء وسر الفضاء دون جمال الأسطورة المسيحية أو بغير بطاقة من القصص الكلاسيكية . أما الواقع فهو أن كلود كان له موضوع واحد لا سواه — عالم الصباح ، والظهر ، والمساء . وقد وهب متاحف أوربا تنويعات حبيبة من الصور ، لا تعنى أسماؤها شيئاً ، ولكن فى وحدة وجودها تزاوج صوفى بين الشعر والفلسفة .

وقد نسلم لرسكن (١٤٩) بأن كلود وبوسان يريانا الطبيعة على نحو خداع وهى فى حالاتها الأرق ، غافلين عن جلالها ، مغفلين نوبات تدمرها الرهيب . ولكن بفضل جهودهما أرسى تقليد عظيم فى رسم المشهد

الطبيعى . وسنرى أنه سينافس صور الأجسام والوجوه ، والمناظر الكتابية والأسطورية . لقد فتح الطريق لموكب الطبيعة من يعقوب وسليمان رويزدال إلى كورو .

وهكذا نجد أن ريشليو والوحدة القومية ، وكورنيي والأكاديمية ، ومونتيني ومالرب ، ودبروس ومانزار ، وبوسان ولوران — كل هذا لم يكن حصيلة تافهة أنتجها بلد مشتبك فى الحروب . وها هو لويس الرابع عشر يتأهب للوقوف فوق ذلك التراث الصاعد والتسيد على فرنسا فى أعظم عصورها .



المراجع

CHAPTER IX

1 Evelyn, Diary, I, 225.
2. Ibid , 87
3. Camb Mod. Hıstory, IV, 631.
4. Molmenti, Venıce, Ib, 218.
5. Ranke, Hıstory of the Popes, II, 119.
6. Funk, Manual of Church History, II, 147
7. Hazlitt, W. C., The Venetian Republic, II, 221, Encycl Brıt , XIX, 1002.
8. Symonds, J. A , The Catholic Reaction, II, 105
9. On the ınaccuracies of both historıans cf Ranke, Popes, III, 106-38.
10. Montaigne, Diary, 93; Shakespeare's England, I, 216.
11. Byron, Chılde Harold's Pılgrimage, Canto IV, lıne 2
12. Molmentı, Ib, 181
13 Wınckelmann, History of Ancient Art, II, 316
14. Taine, Italy Rome and Naples, 232.
15. Symonds, Catholic Reaction, II, 231
16. Ruskin, Modern Paınters, II, ı, 7, 13
17. Evelyn, I, 160.
18. Ogg, Europe ın the Seventeenth Century, 387.
19. Sitwell, Southern Baroque Art, 43.
20. Stirling-Maxwell, Annals of the Artists of Spaın, III, 893.
21 Justi, Velázquez, 343.
22 Byron, Don Juan, XIV 71.
23 Pastor, XVIII, 121, 125.
24. Ranke, Popes, I, 286
25. Ibıd., 273.
26. Pastor, XVII, 172
27. Lea, H C., Inquisıtion ın Spain, II, 77.
28. Ranke, Popes, I, 322
29 Montaigne, Dıary, 125.
30. Bacon, Fr , Apophthegm 60, ın Phıl, Works, 869
31 Sully, Memoirs, I, 218n.
32. Ranke, Popes, I, 341
33 Pastor, XXI, 83.
34 Ranke, I, 342
35 Lecky, Hıstory of European Morals, II, 97.
36 Sully, Memoırs, III, 29.
37. Camb. Mod Hıstory, IV, 687
38. Graves, F P , History of Educatıon, 219
39 Monroe, Paul, Text-Book ın the History of Education, 422.
40. Bacon, De Augmentis, vi, 4, in Phil. Works, 559
41 Ranke, Popes, II, 90
42. McCabe, Candid Hıstory, 97
43 Symonds, Catholic Reaction, II, 121.
44. Campbell, Thos , The Jesuıts, 394.
45. Filmer, Patriarcha, in Locke, Two Treatıses on Go-

vernment, 253
46. Campbell, 271
47 Symonds, Catholic Reaction, I, 218; McCabe, Candid History, 184
48. McCabe, 191
Secret of the Jesuits, 285.
49 Fülop-Miller, Power and Secret of the Jesuits, 285.
50 Ibid., 290
51. Ibid., 300-1
52 McCabe, 299
53. In Campbell, 445
54 Montaigne, Diary, 141.
55 Ibid, 159.
56 Molmenti, Venice, IIb, 27.
57. Montaigne, Diary, 151.
58 Symonds, Catholic Reaction, I, 268-74. The Cenci, by F. D Guerrazzi (Milan, 1872), is a novel
59 Evelyn, I, 172.
60 Ibid, 161.
61 Ibid., Nov 8, 1644
62. Burney, History of Music, II, 510; Grove's Dictionary of Music, III, 591, Brockway and Weinstock, The Opera, 1-3.
63. McKinney and Anderson, Music in History, 321.
64. Ibid., 334
65 Granett, Richard, Italian Literature, 269.
66. Ranke, Popes, I, 369
67 Encycl, Brit., III, 132b.
68. Johnoson, S., Lives of the Poets, I, 176.
69. Guarini, The Faithful Shepherd, p. 64
70. Ibid., 177
71. Hallam, Literature, II, 181.
72. Symonds, Italian Literature, II, 243
73. Tr by Leigh Hunt, in Van Doren, Anthology, 590
74 Symonds, Catholic Reaction, I, 367.
75 Boulting, Tasso, 172-3.
76. Ibid., 183, 174
77 Symonds, Catholic Reaction, II, 35; Encycl. Brit., XXI, 831a.
78 Symond,s I, 369.
79. Boulting, 212
80 Smith, History of Culture, I, 552.
81 Boulting, 259
82 Tasso, Gerusalemme liberata, xx, 1087.
83 Galileo, Opere, ed. nazionale, IX, 69. in Smith, P., History of Culture, I, 552.
84 Disraeli, Isaac, Curiosities of Literature, II, 444
85. Burckhardt, J, Recollections of Rubens, 8.
86. Pastor, XXII, 309.
87. Justi, Velázquez, 350.
88. Wittkower, Gian Lorenzo Bernini, 197.
89. Ibid., 2

CHAPTER X

1. El Greco, Phaidon ed, 7.
2. Weisbach, Spanish Baroque Art, 35.
3. Robertson, Freethought, II, 38, Hume, M., Spanish People, 416.
4. Lea, Inquisition in Spain, III, 441.
5 Prescott, Philip II, II, 498
6. Lea, Inquisition, IV, 253.

7 Cf Cervantes, Don Quixote, Part I, ch 28; Vol. I, 223.
8. Stirling-Maxwell, I, 45
9 Lang, P. H., Muisc in Western Civilization, 267.
10 Calvert, A. F, The Escorial, 7
11 Ibid, 65, Calvert, Royal Palaces of Spain, 4-6, El Gerco, Phaidon ed., 11
12 Stirling-Maxwell, I, 209
13 Davies, Golden Age of Spain, 120.
14. Froude, Elizabeth, I, 375
15 Motley, Rise of the Dutch Republic, I, 125.
16. Encycl, Brit, XVII, 722c.
17 Motley, I, 125.
18 Hume, M, The Spanish People, 382, Motley, II, 12.
19 Trend, The Civilization of Spain, 128
20 Motley, I, 125.
21 Voltaire, Works, XIVb, 278
22. Mariana, General History of Spain, Supplement, p 30.
23 Blok, History of the People of the Netherlands, II, 289, 119; cf En. Br., XVII, 722 321; Armstrong, Emperor
24. Cf. Robinson, Readings, 321; Armstrong, Emperor Charles V, II. 376; Hume, M., Spain : Its Greatness and Decay, 150.
25 Prescott, Philip II, II, 431.
26 Davies, Golden Age of Spain, 150.
27 Perscott, Philip, II, II, 451.
28. Altamira, History of Spain, 384
29. Madariaga, Spain, 36, Davies, Golden Age, 194
30 Ibid., 198, History Today, June 1954, p 427
31 Ibid., Lea, Inquisition in Spain, IV, 254-272.
32 Trevor-Roper, Historical Essays, 269, Altamira, History of Spanish Civilization, 133.
33 Davies, Golden Age 121
34 En Br., XXI, 132
35 Prescott, Philip II, I, 68, 210, II, 26
36. Ogg, 170.
37 Davies, 230
38. Ibid., 233
39 Hume, M, Court, of Philip IV, 24; Spain, 211, Camb. Mod. History, III, 542.
40. Don Quixote, Part II, ch. 54.
41 Ximenes, Juan, Life and Virtues of Juan de Ribera, in Buckle, History of Civilization, II, 46.
42. Lea, Inquisition, III, 397, 407-8; Ogg, 364; Hume, M., Spain, 212.
43. Lea, III, 410.
44. Camb Mod. History, IV, 634.
45 Justi, Velázquez, 105.
46 Portrait in Hispanic Society of America, New York.
47. Rooses, Rubens, 486
48. Stephens, H. M., Story of Portugal, 249.
49. Camões, Lusiads, Introd, xvii.

50. Penrose, Travel and Discovery, 72.
51. Camões, Lusiads, iv, 83.
52 Ibid , 89
53. Bell, Auorey, Portuguese Literature, 183.
54 Camões, Introd xxix

CHAPTER XI

1 Preface to Galatea
2. Hallam, Literature, I, 53
3 Schevill, R., Cervantes, 7
4 Altamira, History of Spanish Civilization, 143
5 Fitzmaurice-Kelly, History of Spanish Literature, 338
6 Gracian, Art of Worldly Wisdom, 20.
7 Ibid , 29.
8 32.
9. 36
10 49
11. 71
12. 144.
13. 150.
14 In Davies, Golden Age, 282
15 Ticknor, History of Spanish Literature, III, 150; cf Fitzmaurice-Kelly, History, 274.
16 In Smith, P, History of Modern Culture, I, 552.
17 Bell, Aubrey, Cervantes, 54, Ticknor, II, 58
18. Ellis, H, Soul of Spain, 233.
19. Schevill, Cervantes, 134.
20 Lockhart, J. G., Introd. to Everyman's Library ed. of Don Quixote, p. xx.
21. Don Quixote, Part I, ch. xii.
22. I, xi.
23 I, xiii.
24. II, xxxii
25 I, iv
26. II, xxxii.
27. II, xix; I, xx; II, iv.
28 I, xxxix
29 I, xxxvi.
30 Cervantes, Exemplary Novels, 5
31 Ibid., 3
32 Don Quixote, II, xlv
33. Schevill, Cervantes, 353.
34 Powys, J. C., Enjoyment of Literature, 174
35. Ticknor, II, 42.
36. Don Quixote, I, xxi; Bell, Cervantes, 27.
37 Tr. by Churton in Fitzmaurice-Kelly, History of Spanish Literature, 281.
38. Quevedo, The Dog and the Fever, 52
39 Tr. by John Masefield in Van Doren, Anthology, 645.
40. Fitzmaurice-Kelly, History 254.
41. Id, Some Masters of Spanish Verse, 98.
42. Id., History, 249-50.
43. Ford, J D, Main Currents of Spanish Literature, 129.
44 Fitzmaurice-Kelly, Some Masters, 43.
45. Lope de Vega, The Star of Seville, in Matthews, B., Chief European Dramatists, 171.
46. Lewes, G. N., Lope de Ve-

ga, in Clark, Great Short Biographies, 596, Fitzmaurice-Kelly, Some Masters, 25.
47 Shelly, Poetical Works, 645.
48. Calderón, Life Is a Dream, II, ii, tr. D. F. McCarthy, in Matthews, 219.

CHAPTER XII

1. Stirling-Maxwell, Annals of the Artists of Spain, I, 349.
2. Dieulafoy, Art in Spain and Portugal, 243.
3. Mâle, Émile, Religious Art from the Twelfth to the Eighteenth Century, 170.
4 In the Escorial
5 In Calvert, Seville, 108.
6 Lassaigne, J., Spanish Painting from the Catalan Frescoes to El Greco, 131
7. En Br, XXII, 69.
8 Naples.
9. Lassaigne, 106, Guinard, El Greco, 54.
10. Goldscheider, El Greco, 10.
11 Caffin, C. H, Story of Spanish Painting, 72.
12 Guinard, 121
13. Meier-Graefe, The Spanish Journey, 145
14. Pacheco, in Guinard, 22.
15 Johnson in Prologue to Addisison's Cato,
16. Soria, M. S., The Paintings of Zurbarán, 30.
17 In Justi, Velázquez, 83.
18. Duke of Wellington Collection, London.
19 Boston Museum of Fine Arts
20. National Gallery, London.
21. Justi, 445.
22. Rouen.
23 New York , Frankfurt
24 Dresden Gallery
25 Modena
26. Earl of Radnor Collection.
27 Stirling-Maxwell, III, 847.
28. Justi, 360.
29 Cheney, World History of Art, 619
30 Vienna.
31 Washington
32 Wallace Collection, London
33. Vienna
34 Calvert and Hartley, Velázquez, 176
35 Ellis, H, Soul of Spain, 153.
36 Meier-Graefe, 151, 200-5
37 Stirling-Maxwell, III, 946
38 Guinard and Baticle, Histoire de la peinture espagnole, 170
39. Louvre
40 Dresden
41 Pliny, Natural History, xxxv, 36
42. Stirling-Maxwell, III, 1003.
43. Prado, Seville, Cádiz, Louvre, Leningard.
44 Dulwich.
45 Rome, Galleria Nazionale.
46 Prado
47. London.
48. Leningrad.
49 Altamira, History of Spanish Civilization, 137f.

CHAPTER XIII

1. Roeder, Catherine de' Medici and the Lost Revolution, 170
2. Sée, Modern Capitalism, 49.
3 Roeder, 250.
4. Guizot, History of France, III, 319.
5. Acton, Lectures, 156
6 Michelet, Histoire de France, III, 483.
7 Thieme, Women of Modern France, 38
8 Roeder, 309.
9. La Tour, Origines de la Réforme, IV, 255f.
10. Hearnshaw, Social and Political Ideas of .. the Renaissaance and Reformation, 29.
11. Walker, W., John Calvin, 381.
12 Guizot, France, III, 303.
13 Sichel, Catherine de' Medici and the French Reformation, 111.
14. Ibid , 24
15 Brantôme, Book of the Ladies, 51
16 Michelet, Histoire, III, 490
17 Sichel, 10
18 Brantôme, 59
19 Sichel, The Later Years of Catherine de' Medici, 116.
20 Sainte-Beuve in Brantôme, 88.
21 Roeder, 361.
22 Ibid., 386
23. Allen, Political Thought,
24 Roeder, 254-6
25 Ranke, Civil Wars .. in France, I, 278-80.
26. Sichel, Catherine de' Medici, 119.
27 Pastor, History of the Popes, XVI, 179
28 Batiffol, The Century of the Renaissance, 201.
29 Ibid , 198, Pastor, XVI, 167; Camb Mod History, II, 300.
30 Pastor, XVI, 179.
31 Ibid
32 Ibid , 180-1.
33 Allen, Political Thought, 305
34 Sichel, 191, 196-7.
35. Lea, Studies in Church History, 496
36. Pastor, XVI, 172
37. Micheler, IV, 418; Batiffol, 203.
38 Guizot, History, III, 334.
39 Ibid., 335.
40 Batiffol, 211; Sichel, 224.
41. Froude, Elizabeth, I, 346.
42 Ranke, Civil Wars, I, 336; Batiffol, 215, Roeder, 366-9; Sichel, The Later Years, 19; Pastor, XVI, 203.
43. Guizot, III, 328
44 Ibid , 330; Pastor, XVIII, 116.
45 Guizot, III, 331.
46. Pastor, XVIII, 154.
47 Froude, Elizabeth, II, 446
48 Sedgwick, H D., Henry of Navarre, 34
49. Ibid , 90
50 Batiffol, 241 ; Belloc, Richelieu 139n
51. Pastor, XVI, 195-6
52. Roeder, 428

53. Guizot, III, 380.
54. Janssen, J., History of the German People, VIII, 114.
55. Ibid
56. Guizot, III, 384.
57. Ibid. z
58. Camb Mod. History, III, 18.
59 Ibid , 19; Pastor, XIX, 485.
60. Michelet, III, 458
61. Batiffol, 227
62. Sichel, The Later Years, 160.
63. Michelet, III, 462
64. Sichel, The Later Years, 162
65. Ibid., 164.
66. Ibid., 161.
67 Ibid ; Roeder, 453
68. Batiffol, 229; Sichel, The Later Years, 164
69. Ibid., 167; Batiffol, 230.
70 Ibid
71. De Thou in Robinson, Readings, 331, Sichel, Later Years, 180
72. Michelet, III, 468; Roeder, 473.
73. Micheler, III, 476
74 Ibid
75 Acton, 160, Roeder, 463.
76 Ibid., 477.
77. Ibid., 479
78 Ibid., 489.
79. Pastor, XIX, 488.
80. Michelet, III, 478.
81 Acton, 162 ; Pastor, XIX, 489
82. Michelet, III, 483.
83. Pastor, XIX, 509.
84. Roeder, 464.
85. Batiffol, 236; Sichel, The Later Years, 194.
86. Pastor, XIX, 507 ; Froude, Elizabeth, III, 411.
87. Pastor, XIX, 500-12.
88 Froude, Elizabeth, III, 419.
89 Roeder, 506
90. Sichel, Later Years, 205.
91 Guizot, III, 415.

CHAPTER XIV

1. Lacroix, History of Prostitution, I. 1170-1, 1276-91
2. Sedgwick, Henry of Navarre, 83
3 In Brantôme, Book of the Ladies, 212.
4. Brutus, Junius, Vindiciae contra tyrannos, 97, 109, 169; Carlyle, R W., History of Medieval Political Philosophy, 351f, Allen, Political Thought, 331
5 Ibid., 377.
6 Voltaire, Age of Louis XIV, 397.
7. Ranke, Civil Wars, I, 163
8 Allen, Political Thought, 347-50, Figgis, From Gerson to Grotius, 180.
9 Notes to Sully, Memoirs, I, 207.
10 Michelet, IV, 41.
11 Ibid., 21
12. Sedgwick, Henry, 223.
13. Michelet, IV, 60.
14 Maulde La Clavière, Women of the Renaissance, 469.
15 Sully, I, 299, 311-14, Michelet, III, 463; Guizot, III, 521
16. Ibid., 522.

17. Michelet, IV, 60.
18. Satyre Ménippée, 59-73
19. Guizot, III, 556, Campbell, The Jesuits, 217; Ranke, Popes, II, 55; Sully, I, 447; Fulop-Miller, Jesuits, 317.
20. Sully, I, 2
21. Kirby, Engineering in History, 141.
22 Guérard, Life and Death of an Ideal, 119.
23. Schaff, Swiss Reformation, II, 699
24 Laski, H, in Brutus, Vindiciae contra tyrannos, 9, 35
25 Lowie, R H., Are We Civilized ?, 241.
26. Tallement des Réaux, Miniature Fortraits, 9.
27 Ibid, 5
28. Sedgwick, 274
29 Batiffol, 287.
30. Sully, IV, 128n.
31 Sully, III, 365; Michelet, IV, 86.
32 Sedgwick, 130-5.
33. Lacroix, Prostitution, II, 1306.
34 Ibid., 1300
35. Sully, III, 31-2.
36. Sedgwick, 255
37. Ackerman, Phyllis, Tapestry, 262
38. Davis, Golden Age, 237
39. Sully, II, 404-10
40. Camb Mod History, III, 682, 684.
41 Janssen, History of the German People, X 439n
42 Sedgwick, 288-9
43. Fulop-Miller, Jesuits, 127; Gooch, English Democratic Ideas, 23,
44. Sedgwick, 306,

CHAPTER XV

1. Barine, La Grande Mademoiselle, 279.
2. Ibid, 278
3. Sanders, Bossuet, 54.
4. Michelet, IV, 197; Batiffol, 404
5. Michelet, IV, 370
6. Catholic Encyclopedia, XIV, 437.
7 Jackson, C C, Old Paris, 45
8. Belloc, Paris 311.
9. Boulenger, Seventeenth Century, 49
10 Michelet, IV, 200
11 Acton, Lectures, 171
12. Buckle, Ib, 399-406.
13. Ibid, 399.
14 405.
15. 403.
16. Boulenger, 37; Barine, 15.
17. Jackson, 56.
18. Richelieu, Oeuvres, 18.
19 Michelet, IV, 156.
20 in Guizot, IV, 131.
21, Ibid, 46
22. 63.
23. Richelieu, 173
24 Guizot, IV, 79
25. Michelet, IV, 295
26. Schoenhof, History of Money and Prices, 186.
27. Nussbaum, History of Economic Institutions, 108
28. In Acton, 179
29 Michelet, IV, 327
30 Guizot, IV, 173.
31 Richelieu, 152, 201.

32 Guérard, Life and Death of an Ideal, 123.
33. Tallement des Réaux, 63.
34. Belloc, Richelieu, 90
35. Michelet, IV, 286, Boulenger, 35.
36. Retz, Secret Memoirs, 97.
37. Hefele, K. J., Life and Times of Cardinal Ximenes, 565
38. Chesterfield, Letters, 28 (Oct. 16, 1747).
39. Lodge, Richelieu, 229
40 Richelieu, Memoirs, 168.
41. Ibid., 125.
42. 181, 40.
43 182.
44. 168
45 32.
46. 19
47. 30.
48 35.
49 Motteville, Mme de, Me-
50. Tallement des Réaux, 27
mois, 1, 67.

CHAPTER XVI

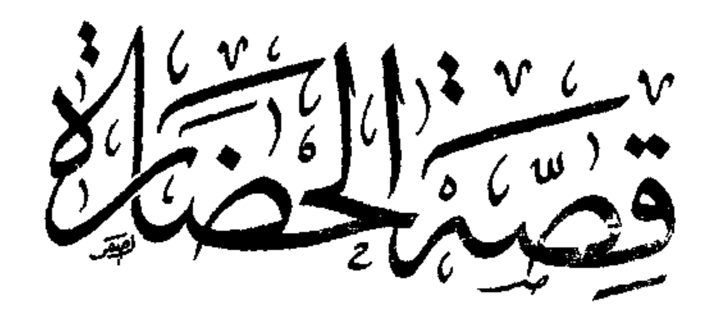
1 Charron, De la Sagesse, I, 24, In Haydn, Counter-Renaissance, 569
2. Sichel, Catherine de' Medici, 6; Lacroix, History of Prostitution, II, 1159.
3. Sedgwick, Henry of Navarre, 55
4. Brantôme, Lives of Gallant Ladies, 131-2.
5. Now in the museum of the Château d'Azay-le-Rideau.
6 Michelet, IV, 222.
7. Tallement, 132.
8 Sanger, Wm., History of Prostitution, 199.
9. Ibid.; Lacroix, Prostitution, II, 1350.
10. Montaigne, Diary, 6.
11. Sully, Memoirs, I, 482, 507.
12. Brantôme, Book of the Ladies, 79.
13. Wright, Womankind in Western Europe, 305
14. Lacroix, Arts of the Middle Ages, 164
15 Wright, Womankind, 302.
16 Montaigne, Essays, II, 12 34.
17. Lowie, Are We Civilized?,
18. Burney, Charles, General History of Music, II, 217.
19 Ibid., 466.
20 Montaigne, Essays, III, 365
21 Ibid., I, xxv, 185
22. I, xxv
23. III, xii, 300.
24 III, xii, 292
25 I, xxxviii, 252.
26 I, xxv, 165
27 ibid., 163
28 Ibid., 166, 172
29. III, xiii, 324.
30. II, vi, 48
31 Dowden, Michel de Montaigne, 45
32 I, xxvii, 201.
33. Ibid.
34. Gide, A., The Living Thoughts of Montaigne, 14.
35 I, xxvii, 207.
36 III, x, 265
37 III, v, 119
38 Ibid, 105.
39. 73.
40. Cf. his paean to Paris in III, ix, 216

41. III, v, 76. &
42 II, viii, 71
43. Gide, 12.
44 III, ix, 213.
45 III, iii, 49.
46 I, xxxviii, 253-6.
47 I, xxv, 149
48 II, xxxii, 448
49 Sellery, G C., The Renaissance, 47.
50 Pater, Plato and Platonism, 174
51 In Dowden, Montaigne, 240
52 II, iii, 35
53 II, xvii, 385
54. III, v, 107.
55. III, ii, 24
56. II, xxxvi, 523
57 Ibid , 495
58 III, xiii, 354
59 Diary, 259
60 II, xii, 256, Cicero, De veritate, 11
61. III, xii, 291
62 III, xiii, 379
63 Sainte-Beuve, Port-Rayal,
64 II. xii, 306.
II, 440.
65. Ibid., 317.
66. In Spencer, Theodore, Shakespeare and the Nature of Man, 36
67 II, xii, 237.
68. Ibid., 285-7.
69. 312.
70 202
71 250.
82. 324
73. 325
84 Sichel, E., Montaigne, 54.
75 II, xvii, 371.
76 II, xii, 180
77 I, xl, 269; Camb. Mod. History, II, 711
78 II, v.
79. II, viii, 72
80 I, xxx 219
81. II, xii, 198, 250.
82 I, xxx, 229
83. In Dowden, Montaigne, 63
84. III, vi, 144
85 III, ix, 201; v, 105
86 II, xii
87. II, xii, 204.
88 Ibid., 251.
89 225, 266.
90. I, xix, 90
91. III, v, 78
92 III, xi 285
93 II, xii, 130.
94 Ibid , 217.
95 133.
96 Sainte-Beuve, Port-Royal,
97 I, liv, 354; Tilley, A., Studies in the French Renaissance, 280.
98 II, xii, 225.
99 III. xi.
100. III, ix, 198.
101. III, viii, 173.
102 III, ix, 191.
103 III, xii, 301, ii, 26.
104 II xi, 121.
105. III, x, 263
106 Diary, 14
107. Ibid., 17
108 49
109. 107.
110 150.
111. Cf. Diary, 166-9.
112 Ibid., 123
113. Essays, III, iv, 59.
114 III, xiii, 368.

115. II, i 8.
116. Jonson, Volpone, III, ii.
117 Mme du Deffand, Lettres à Voltaire, 41; Jan 28 1759
118. Malebranche, De la Recherche de la vérité, III, v, p 264.
119. In Gide, 3
120 Sainte-Beuve, Port-Royal, II, 379-453.
121 In Frame, Montaigne, 139.
122. Guizot, IV, 194.
123. Van Laun, History of French Literature, II, 181.
124. Disraeli, I, Curiosities of Literature, I, 451.
125 Malherbe, in Sainte-Beuve, Portraits of the Seventeenth Century, II, 47.
126. Boileau in Malherbe, Racan, Maynard, Poésies Choisies, 9n.
127. Ibid , 24-7
128. Winegarten, French Lyric Poetry in the Age of Malherbe, 8, 18.
129. Boulenger,Seventeenth Century, 122.
130. Faguet, Literary History of France, 341.
131. Régnier, De Viau, etc., Poésies choisies, 50.
132 Guizot, Corneille and His Times, 148.
133. Corneille, Le Cid, V, i
134. Guizot, Corneille, 168
135. Livy, T L., History of Rome, i, 25.
136. Corneille, Horace, I, i.
137. Ibid., II, viii.
138 Sainte-Beuve, Port-Royal, I,124.
139. Evelyn, Diary, I, 48.
140. Blomfield, History of French Architecture, II, 143.
141. Bupal, Bernard Palissy, 43.
142. In Sichel, Catherine dè Medici, 318; Michelet, History de France, IV. 51.
143. Guizot, Histoire, IV, 571.
144 Sutro, E , Nicolas Poussin, 77.
145. Desjardins, Poussin, 71
146. Mousnier, Histoire générale des civilisations, IV. 218.
147. Ruskin, Modern Painters, II, ii, 18.
148. Craven, Treasury of Art Masterpieces, 172; Stranahan, History of French Painting, 45.
149. Ruskin, Modern Painters, II, i, 7-5; IX, v.

رقم الإيداع ١٩٧٦/٥٤٥١

مطابع الدجوى - القاهرة - عابدين



ول وايريل ديورانت

بداية عصر العقل

ترجمة
محمد علي أبو درة

مراجعة
علي أدهم

الجزء الثالث من المجلد السابع





تونس



بيروت

فهرس الجزء الثالث من المجلد السابع

الموضوع | الصفحة

فهرس الصور

الفصل السابع عشر

ثورة الأراضى الوطيئة

١٥٥٥ — ١٦٤٨

١ — مسرح الأحداث

فى يوم ٢٥ أكتوبر ١٥٥٥ نقل الأمبراطور شارل الخامس مقاليد الحكم فى الأراضى الوطيئة إلى ابنه فيليب ، وفى السادس والعشرين ، وأمام الجمعية التشريعية فى بروكسل ، تلقى فيليب أيمان الولاء ، وأقسم بدوره أن يحافظ على حقوق المقاطعات السبع عشرة وإمتيازاتها ، وفق ماتقضى به التقاليد والمعاهدة والقانون ولقد هيأت هذه العهود والمواثيق المتبادلة المسرح لاحدى المسرحيات الكبرى فى تاريخ الحرية .

وكان المشهد معقدا . كانت الأراضى الوطيئة آنذاك تضم بلجيكا الحالية ومملكة هولنده القائمة الآن . ولم تكن الهولندية —وهى أصلا إحدى اللهجات الألمانية السائدة فى وهاد شمال ألمانيا والأراضى الوطيئة — هى اللغة التى تتحدث بها المقاطعات السبع الشمالية (وهى هولنده ، زيلنده ، أوترخت ، فريزلند ، جرونتجن ، أو فريجسل . جلدرلند ، فحسب ، بل كانت كذلك لغة أربع مقاطعات أخرى (هى فلاندرز ، برابانت ، مكلين ، لمبرج) فى شمالى « بلجيكا » ، على حين كانت « الوالون » — وهى إحدى اللهجات الفرنسية — هى اللغة التى يتحدث بها الأهالى فى ست مقاطعات جنوبية (هى أرتوا ، وألون ، فلاندرز ، كمبراى ، تورنى ، اينو ، نامور) . وكانت هذه المقاطعات كلها ، بالإضافة إلى دوقية لكسمبرج المجاورة ، تحت حكم آل هبسبرج .

وكانت الكاثوليكية[1] هى ديانة الأغلبية الساحقة من الأهالى فى ١٥٥٥

ولكن — كاثوليكيتهم — كانت من النوع العطوف الموسوم بالروح الإنسانية الذى نادى به أرزم قبل ذلك بنصف قرن من الزمان ، والذى كانت تدين به رومه فى عصر النهضة بصفة عامة ، وليست من ذلك النوع الكئيب المتشدد من الكاثوليكية الذى ساد فى أسبانيا لعدة قرون كانت تحارب فيها المسلمين « الكفار » . وبعد ١٥٢٠ تسربت اللوثرية ومذهب القائلين بتجديد عماد البالغين ورفض عماد الأطفال من ألمانيا ، تسربت بعد ذلك بشكل أكبر الكلفنية من ألمانيا وسويسرا وفرنسا . وحاول شارل الخامس أن يقضى على غارات هذه المذاهب الغربية التى اقتحمت عليه كاثوليكيته ، بأدخال محاكم التفتيش البابوية أو الأسقفية ، وبنشر أعلانات تتوعد بأشد العقوبة أى إنحراف خطير عن الكاثوليكية الصحيحة . ولكن قل أن نفذت هذه العقوبات بعد أن أضعف صلح باسو ١٥٥٢ من قوته . وفى روتردام ١٥٥٨ تمكن حشد من الأهالى من إنقاذ عدد من أنصار تجديد العماد من الأعدام حرقا . فجزع فيليب لتفاقم الهرطقة وجدد نشر الأعلان عن العقوبات .. وساد الخوف من أنه يعتزم إدخال محاكم التفتيش الأسبانية بكل مافيها من قسوة ونكال .

كان مذهب كلفن يلتئم كل الالتئام مع عنصر الروح التجارية « المركنتلية » فى النظام الاقتصادى وكان ثغرا أنتورب وأمستردام هما المركز الرئيسى لتجارة شمال أوربا ، وكانا ينبضان بالحياة بفضل التصدير والإستيراد والمضاربة وسائر ألوان المعاملات المالية ، حتى أن التأمين وحده عاد بأوفر الثراء على ٦٠٠ من وكلائه (٢) . وجرت فى أنهار الراين وماسى وأيسل — وشلدت ووال وليس إلى جانب مئات من القنوات — جرت فى هذه كلها مجموعة متنوعة كبيرة من سفن النقل ، وأذكت التجارة روح البراعة من المهن والصناعات فى بروكسل وغنت وايبرس وتورنى وفالنسين ونامور ومكلين وليدن وأوترخت وهارلم . ونظر رجال الأعمال الذين تحكموا فى هذه المدن بعين الأجلال والأكبار إلى الكاثوليكية على أنها ركيزة دعمتها التقاليد للاستقرار السياسى والاجتماعى والروحى ، ولكنهم لم يسيغوا سلطانها الكهنوتى بأبهته وفخامته . كما أحبوا

الدور الذى تهيئه الكلفنية لجمهور العلمانيين المتعلمين ، فى إدارة المجامع والسياسة الكلفنية . وكرهوا بصفة أخص الضرائب التى فرضتها الحكومة الأسبانية على اقتصاد الأراضى الوطيئة .

ووقع على الفلاحين أفدح الغرم وأصابوا أقل الغنم من الثورة . ذلك أن معظم الأراضى كان ملكا لذوى النفوذ والمكانة الذين كانوا أقرب شبها بأمراء الاقطاع فى ألمانيا وفرنسا ، وهؤلاء هم الذين نظموا الكفاح من أجل الإستقلال . فكان فيليب دي مونموارنسى ، كونت هورن ، يمتلك أراضى شاسعة فى المقاطعات الجنوبية . كما كان لكونت اجمونت لاموراك ، ضياع واسعة فى فلاندرز ولكسمبرج ، فكان مركزه يخول له أن يطلب يد دوقة بافاريه، وحارب فى عدة حملات ببسالة فائقة حتى أصبح أثيرا لدى شارل وفيليب ، وهو الذي قاد جيش فيليب إلى النصر في سانت كوينتن (١٥٥٧) . وأظهر فى قصره الفخم من ضروب الإسراف والكرم الباذخ ماورطه فى الدين . ونظر مثل هؤلاء الرجال، ونبلاء كثيرون آخرون أقل منهم شأنا ، نظروا فى شره ونهم إلى ثروة الكنيسة ، وسمعوا والحسد يملأ قلوبهم بالبارونات الألمان الذين أثروا بالاستيلاء على أملاكها[٣] . و إتجه تفكيرهم إلى أن الملك يحسن صنعا لو أنه اقتطع من — أملاك الكنيسة أجزاء معقولة بخصصها لقيادات عسكرية ، وبذلك يخلق ، أسلحة فرسان رائعة . . . فى مكان هذه الجماعة الخاملة من الأبيقوريين المنغمسين فى ملذات الطعام والشراب والذين لاشغل لهم إلا التسبيح »[٤] .

أما أكثر كبار الملاك قدرة وكفاية وثراء فكان وليم ناسو ، أمير أورانج وكان للأسرة أملاك شاسعة فى المقاطعة الألمانية « هس ناسو » ، وفى الأراضى الواقعة حول ويزبادن ، وكذلك فى الأراضى الوطيئه ، على حين اشتق لقب الأسرة من امارة أورانج الصغيرة فى جنوب فرنسا . ولما كان وليم قد رأى النور فى دللنبرج الألمانية (١٥٣٣) فإنه نشأ على مذهب لوثر حتى بلغ الحادية عشر من عمره ، وحينئذ أنتقل إلى بروكسل وتحول إلى الكاثوليكية حتى يكون له الحق فى أملاك ابن عمه رينيه . وقد أعجب به شارل الخامس ، وزوجة من آن

دوقة أجمونت (وارثة كونت بورن) وأختاره ليكون بين كبار من شهدوا تنازله التاريخى عن العرش (١٥٥٥) وأوفده فيليب — وكان وليم آنذاك شابا غض الأهاب لم يجاوز الثانية والعشرين ، ولكنه كان يتقن الفلمنكية والألمانية والأسبانية والفرنسية والإيطالية — بين مبعوثيه للمفاوضة فى عقد صلح كاتو — كمبرسيس ، وهناك تميز وليم بسداد الرأى وقوة الحجة وشدة الحرص فى الكلام حتى لقبه الفرنسيون « بالصامت » . وعينه فيليب عضوا فى مجلس الدولة ، وفارسا من فرسان الجزة الذهبية ، ونائبا للملك فى هولنده وزيلند وأوترخت . ولكن وليم اختط لنفسه نهجا لم يغتفره له فيليب قط .

ولقد نعم الأمير الشاب اليافع بمزايا فى شخصه كما نعم بوفرة المال ، وكان فارع الطول رياضيا نحيل القوام ، سحر بفصاحته وكياسته كل الناس إلا أعداءه . وكان الاخفاق حليفه قائداً عسكريا ، أما فى مجال التدبير أو التخطيط السياسى فإن إصراره المقرون بالمرونة وشجاعته الموسومة بالثبات خلقت منه برغم نقائصه، شخصا آخر يقف فى وجه أعتى القوى السياسية والدينية فى أوربا . وساس الرجال أفضل مما قاد الجيوش ، وثبت على الأيام أن هذه موهبة أعظم . واتهمه أعداؤه بتغيير عقيدته الدينية وفق ما تقتضيه مآربه الشخصية أو السياسية[٥] . وربما كان هذا صحيحا ، ولكن كل الزعماء فى هذا القرن إستخدموا الدين — أداة للسياسة (*) .

وعاب عليه الكثيرون تعدد زيجاته . فإنه عند وفاة زوجته الأولى أجرى مفاوضات للزواج من « آن » أخرى ثرية ، هى ابنة موريس أمير سكسونيا البروتستانتى ، وعقد قرانه عليها وفق الطقوس اللوثرية فى ١٥٦١ ، ولكنه لم يعلن تحوله إلى البروتستانتية إلا عام ١٥٧٣ . وأصابت آن بعض لوثة من الجنون فى ١٥٦٧ ، فاحتجزت فى معزل مع بعض الأصدقاء ليرعوها .

(*) أن الأمراء الذين أقاموا العقيدة الدينية أو تولوا حمايتها أو غيروها ، قل أن كان لديهم فى قرارة أنفسهم شىء منها ، مولتير[٦] .

وكانت لا تزال على قيد الحياة حين حصـــل وليم من خمسة من القساوسة البروتستانت على إذن بالزواج من شارلوت البوربونية ، من الأسرة المالكة الفرنسية (١٥٧٥) ، وكانت قد هربت من دير للراهبات واعتنقت مذهب الاصلاح ، وتوفيت شارلوت ١٥٨٣ . ولبس وليم الحداد عليها لمدة عام ، تزوج بعده للمرة الرابعة من لويز دى كوليني ابنة أمير البحر الذى كان قد قضى نحبه فى مذبحة سانت برثلميو . وعلى الرغم من هذه الزيجات — وربما كان بسببها — كان وليم غنيا بما لديه من أراضى ، خاوى الوفاض من المال . وفى ١٥٦٠ بلغت ديونه نحو مليون فلورين[٧] . وغلبت عليه ذات يوم نزعة إلى الاقتصاد فطرد ثمانية وعشرين من طباخيه[٨] .

وتخبط فيليب بشكل هدام فى التعامل مع النبلاء فى الأراضى الوطيئة . أن أباه الذى نشأ وترعرع فى بروكسل ، عرف هؤلاء الرجال وتكلم لغتهم وساسهم فى حزم . على حين أن فيليب تربى فى أسبانيا فلم يتكلم الفرنسية ولا الهولندية، وعز عليه أن ينحنى لهؤلاء الأقطاب فى لباقة وسماحة ، ويحترم عاداتهم وديونهم ، بل أنه عبس واستاء من أسرافهم وتبذيرهم وأدمانهم على الشراب ، وتبذلهم مع النساء ، وتهافتهم عليهن . وفوق هذا كله لم يتفهم فيليب دعاواهم فى الحد من سلطانه . على أنهم بدورهم كرهوا منه كبرياءه الكئيب وولعه بمحاكم التفتيش وتعيينه الأسبان فى المناصب التى تدر ربحا فى الأراضى الوطيئة ، وترويد مدنهم بحاميات أسبانية . وعندما طالب بدفع الأموال هؤلاء النبلاء ورجال الأعمال ، وهم الذين يشكلون الجمعية التشريعية ،استمعوا — عن طريق المترجمين — فى فتور إلى دعواه ودفاعه بأن والده وبأن الحروب الأخيرة قد خلفت فى الخزينة عجزا كبيرا ، وتولاهم الجزع لمطالبته بمليون وثلثمائة ألف فلورين ، وبضريبة أخرى قدرها ١ ٪ على العقارات ، و ٢ ٪ على الأموال المنقولة، ورفضوا التصديق على هذه الضرائب ، ولكنهم أقروا فقط مبالغ قدروا أنها تكفى لتغطية النفقات الجارية . وبعد ثلاث

سنوات من ذلك دعاهم إلى الاجتماع ثانية وطلب منهم ثلاثة ملايين جيلدر ، فوافقوا ، على شرط انسحاب القوات الأسبانية من الأراضى الوطيئة . فأقر هذا الشرط ، ولكنه تحايل فى هذا التنازل من ترضية بالحصول على إذن من البابا بإنشاء أحدى عشرة أسقفية جديدة فى الأراضى الوطيئة ، على أن يعين فى هذه الأسقفيات رجالا يرتضون تنفيذ القوانين التى سنها والده ضد الهرطقة وعندما أبحر فيليب إلى أسبانيا فى ٢٦ أغسطس ١٥٥٩ — إلى غير رجعة إلى الأراضى الوطيئة — كانت قد تشكلت خطـوط الصراع الاقتصادى الدينى الكبير .

٢ ـ مارجريت بارما

١٥٥٩ — ١٥٦٧

كان فيليب قد عين مرجريت دوقة بارما نائبة له . وهى ابنة شرعية لشارل الخامس من أم فلمنكية . وكانت قد نشأت وترعرعت فى الأراضى الوطيئة ، وعلى الرغم من طول مقامها فى إيطاليا ، فإنها استطاعت أن تلم بالفلمنكية . إن لم يكن بالهولندية كذلك . ولم تكن ضيقة الأفق ولا متعصبة ، ولكنها كانت كاثوليكية ورعة ، حرصت على أن تغسل فى الأسبوع المقدس من كل عام أقدام اثنتى عشرة من العذارى وتمنحهن مهور الزواج . وكانت مرجريت امرأة قديرة عطوفة ، ولكن عصفت بها بشكل مزعج رياح الثورة .

لقد حد المستشارون الذين عينهم فيليب من سلطان مرجريت . وكان أجمونت وأورنج من بين أعضاء مجلس الدولة لديها . ومذ رأى هذان العضوان أنهما ينهزمان دائماً أمام رأى الأعضاء الثلاثة الآخرين فى المجلس فإنهما امتنعا عن الحضور . وفى هذا الثالوث الناشىء برزت وسيطرت شخصية أنطوان برينو أسقف آراس . المعروف فى التاريخ باسم الكاردينال دى جرانفل . وكان رجلا كريم الخلق وفقا لفلسفته وتفكيره ، وكان ينزع ـ

كما تنزع مرجريت — إلى الوسائل السلمية فى معالجة الهرطقة ، ولكنه كان مخلصاً للكثلكة والملكية إلى حد تعذر معه أن يسيغ الانشقاق أو الخلاف الدينى . وقد غلت أيدى الكاردينال ومرجريت بإصرار فيليب على عدم اتخاذ أى إجراء هام إلا بموافقة الملك ، وكان وصول هذه الموافقة الملكية من مدريد إلى بروكسل يتطلب عدة أسابيع . وضحى الكاردينال بشعبيته فى سبيل طاعة الملك . وعارض تعدد الأسقفيات سرا، ولكنه خضع لإلحاح فيليب على أن أربع أسقفيات لا تكفى لسبع عشرة مقاطعة . ولحظت الأقلية البروتستانتية فى استياء وغضب أن الأساقفة الجدد ينشرون محاكم التفتيش البابوية ويتشددون فى إجراءاتها . وفى مارس ١٥٦٣ كتب أورانج وأجمونت وهورن — وهم أنفسهم كاثوليك — كتبوا إلى فيليب يتهمون جرانفل بانتهاك حرمة الحقوق الإقليمية التى تعهد الملك بالإبقاء عليها واحترامها ، ورأوا أن الكاردينال مسئول عن الأساقفة الجدد ، وحضوا على عزله من منصبه . ولم تستسغ مرجريت نفسها استيلاء الكاردينال على السلطة ، وتاقت إلى شىء من التراضى مع النبلاء الساخطين الذين كانوا ذوى أهمية لديها للمحافظة على النظام الاجتماعى ، وأخيرا فى سبتمبر ١٥٦٣ أوصت هى كذلك بنقل جرانفل إلى مكان آخر . وبعد مقاومة طويلة خضع الملك ، ودعا القسيس العظيم إلى التمتع بأجازة ينقطع فيهـا عن عمله . وغادر جرانفل بروكسل فى مارس ١٥٦٤ ، ولكنه ظل واحدا من أعظم المستشارين الموثوق بهم لدى الملك . وعاد النبلاء إلى مجلس الدولة الخاص بمرجريت ، وباع بعض موظفيهم المناصب وأحكام القضاء وأوامر العفو ، ويبدو أن نائبة الملك ، مرجريت ، شاركت فى الغنائم[٩] .

وانتشرت محاكم التفتيش ، وكان فيليب يراقبها وهو فى أسبانيا ، ويشجع على استمرارها ، ويبعث إلى مرجريت بأسماء المراطقة المشتبه فيهم . وما كاد يمر يوم دون إعدام . وفى ١٥٦١ أحرق جلين دى مولر فى أودينارد ، وأحرق توماس كولبرج فى تورنى ، وقطع أحد أنصار تجديد العماد أربا حتى

الموت بسبع ضربات من سيف عتيق صدىء ، فى حضور زوجته التى قضت نحبها فزعا من هول المنظر[١] وأثارت هذه الأعمال الوحشية حفيظة برتران لبلاس فهاجم كاتدرائية تورنى ، أثناء قداس عيد الميلاد واندفع إلى المذبح وانتزع القربان المقدس من يد القسيس ووطئه بقدميه ، وصاح فى جمهور المصلين « أيها المضللون ، هل تظنون أن هذا هو المسيح إلهكم ومخلصكم ؟ » وعذب الرجل فأحرقت يده اليمنى وقدمه حتى لم يبق منهما إلا العظام ، وقطع لسانه ، وعلق فوق نار وشوى على محصل حتى لفظ أنفاسه ، وفى ليل أحرق روبرت أوجييه وزوجته وأبناؤه لأنهم قالوا بأن عبادة القربان المقدس ليست إلا تجديفا وثنيا[١] .

أما توركيمادا[٢] الأراضى الوطيئة أول قاض للتحقيق وعضو فى محكمة التفتيش فى أسبانيا « يضرب به المثل فى القسوة والتعصب الذميم » . فهو بيتر تيتلمان الذى بلغت أعماله من التعسف والوحشية حداً اتهمه معه مجلس مدينة بريجز — وكله من الكاثوليك — لدى مرجريت ، بأنه متوحش انتزع الناس من بوتهم وحاكمهم دون أية ضوابط قانونية ، وأجبرهم على أن ينطقوا بما يريده هو ، وحكم عليهم بالإعدام ، كما أن القضاة فى الفلاندز وجهوا إلى الملك فيليب كتابا مثيراً يرجون فيه وضع حد لهذه الأعمال الشائنة . وطلبت مرجريت فى شىء من الجبن إلى هذا المحقق أن يتدرع « بالحزم والاعتدال » ، ولكن الإعدام لم يتوقف . وأيد فيليب تتلمان ، وأمر مرجريت أن تنفذ دون رحمة ولا ابطاء القرارات التى أصدرها أخيراً مجمع ترنت (١٥٦٤) . واحتج مجلس الدولة بأن عدداً من هذه القرارات انتهك حرمة الامتيازات المعترف بها للمقاطعات ، وأوقف نشرها .

---

(١) ليس لنا من مصدر لمثل هذه الأحداث إلا المراجع البروتستانتية المقتبسة فى كتاب موتلى (قيام الجمهورية الهولندية) ١ — ص ٢٨٣ — ٢٩٠ .

(٢) Torquemada ١٤٢٠ — ١٤٩٨ راهب دومنيكانى .

وكان وليم أورانج تواقا إلى الأبقاء على الأراضى الوطيئة متحدة فى سبيل المحافظة على حرياتها السياسية التقليدية ، فاقترح انتهاج سياسة التسامح سابقة كثيراً لعصره وأوانه . فأعلن فى مجلس الدولة « أن الملك يخطىء إذا ظن أن الأراضى الوطيئة سوف تحتمل وتساند هذه المراسيم الدموية بلا حدود . ومهما كنت شديد التمسك بعقيدتى الكاثوليكية ، فانى لاأقر محاولة الأمراء أن يتحكموا فى ضمائر رعاياهم ، ورغبتهم فى أن يسلبوهم حرية العقيدة(١١) » وانضم الكاثوليك إلى البروتستانت دمغ هذه المراسيم بالظلم والطغيان(١٢) وأرسل أجمونت إلى مدريد ليلتمس التخفيف من شدة هذه المراسيم ، وعززت مرجريت هذا المطلب سراً . ووجه أساقفه ايبرس ونامور وغنت وسانت أومر ملتمسا إلى فيليب (يونية ١٥٦٥) يرجون فيه أن يخفف الملك المراسيم « وأن يوجه النصح إلى الشعب فى شيء من الرفق والحب الأبوى ، لا بالقساوة الشرعية(١٣) » ورد فيليب على كل هذه الاحتجاجات بأنه يؤثر أن يضحى بمائة ألف من الأرواح على أن يغير سياسته(١٤) . وفى أكتوبر ١٥٦٥ أرسل توجيهاته الصريحة إلى وكلاء محكمة التفتيش :

أريد فيما يتعلق بمحكمة التفتيش أن تطبق اجراءاتها وأحكامها .... كما كان الحال من قبل ، وكما تقتضيه كل القوانين وصعية كانت أو الهية . أن هذا يقع من نفس أحسن موقع . أريد منكم أن تنفذوا أوامرى . أعدموا كل المسجونين ، ولا تتركوا لهم بعد اليوم فرصة للافلات نتيجة تقصير القضاة وضعفهم وعقيدتهم الفاسدة ، وإذا قعد الجبن ببعضهم عن تنفيذ المراسيم فانى استبدل بهم رجالا أكثر جرأة وحماسة(١٥) .

وأذعنت مرجريت لفيليب وأصدرت أوامرها بتطبيق المراسيم تطبيقاً كاملا (١٤ نوفبر ١٥٦٥) . وانسحب أورانج واجمونت ثانية من مجلسها . ورفض أورانج وغيره من النبلاء وكثير من القضاة تطبيق المراسيم : وانهالت نشرات البروتستانت واعلاناتهم التى يستنكرون فيها الاضطهاد . واشتم التجار

الأجانب رائحة الثورة فى الجو . فبدأوا ينزحون من الأراضى الوطيئة ، وأغلقت المخازن وكسدت التجارة ، وخيم شبح الموت على أنتورب وفر كثير من البروتستانت فى الأراضى الوطيئة إلى انجلترا وألمانيا . وفى انجلترا ساعدوا على النهوض بصناعات النسيج التى نافست « المقاطعات المتحدة » فى القرن السابع عشر ، وقادت الانقلاب الصناعى فى القرن الثامن عشر .

واعتنق كثير من صغار النبلاء المذهب البروتستانتى خفية . وفى ديسمبر ١٥٦٥ اجتمع بعض هؤلاء — لويس كونت ناسو (وهو الشقيق الأصغر الشهم لوليم) ، وفيليب فان مارنكس أمير سانت ألديجوند ، وأخوه جان فان مارنكس أمير تولوز ، وهندريك كونت بردرود ، وغيرهم اجتمعوا فى قصر كولمبرخ فى بروكسل ، وحرروا «وثيقة» يستنكرون فيها إدخال محاكم التفتيش إلى الأراضى الوطيئة ، وشكلوا عصبة تعهدت بإخراجها من البلاد . وفى أبريل ١٥٦٦ سار ٤٠٠ من صغار النبلاء إلى قصر مرجريت وقدموا لها «ملتمساً» بأن تطلب إلى الملك أن يضع حداً لمحاكم التفتيش والمراسيم فى الأراضى الوطيئة، وأن توقف تطبيق المراسيم حتى يصل جواب الملك . وأجابت مرجريت بأنها سترسل ظلامتهم إلى الملك ، ولكن ليس من سلطتها أن توقف المراسيم ، وأنها ستبذل كل ما فى مقدورها للتخفيف من مفعولها . ولما رأى أحد أعضاء مجلسها شدة فزعها من عدد مقدمى الظلامة وقوة عزيمتهم طمأنها بقوله « عجبا ياسيدتى ، هل تخشين ياصاحبة العظمة المتسولين ؟ وتقبل المتحالفون هذا اللقب تحديا . وارتدى كثير منهم البدلة الرمادية الخشنة، وحملوا الحقيبة والطاس اللذين تميز بهما المتسولين آنذاك . وأصبحت عبارة « فليحى المتسولين » صيحة الحرب فى الثورة . ولمـدة عام كان هؤلاء النبلاء الصغار هم الذين قادوا الثورة وأذكوا نارها .

وأبلغت مرجريت نبأ « الملتمس » إلى فيليب ، كما أبلغته ما يلقاه من تأييد شعبي كبير . وجددت مساعيها لحمله على الاعتدال ، فكان جوابه يحمل فى

الظاهر معنى الترضية (٦ مايو ١٥٦٦) ، وعبر عن أمله فى إمكان قمع الهرطقة دون أراقة مزيد من الدماء ، ووعد بزيارة الأراضى الوطيئة فى موعد قريب وأرسل إليه مجلس الدولة فلورنت مونمورنس . والبارون مونتينى ، ومركيز برحون ، لتعزيز رجاء مرجريت . فأستقبلهم فيليب استقبالا حسنا . وفى ٣١ يوليه كتب إليها بموافقته على إلغاء محاكم التفيش الأسقفية فى الأراضى الوطيئة ، وبأنه يصدر عفواً عاما عمن توصى هى بالعفو عنهم .

وانتهز الكلفنيون واللوثريون وأنصار تجديد العماد فى الأراضى الوطيئة فرصة هذا الهدوء فى العاصفة ليجهروا بعبادتهم ، وعاد اللاجئون البروتستانت أفواجا من إنجلترا وألمانيا وسويسرا ، وقام الوعاظ من مختلف الطبقات — الرهبان السابقون ، علماء اللاهوت ، صانعو القبعات ، مشطو شعر الخيل ، دباغو الجلود — يخطبون فى الجموع الغفيرة من النساء والرجال ، وكثير منهم مسلحون ، وكلهم يرتلون المزامير ويهتفون « فليحى المتسولون » . وبالقرب من تورنى ، ألقى أمبروزويل الذى كان قد درس مع كلفن — ألقى موعظة فى ستة آلاف شخص (٢٨ يونيه ١٥٦٦) ، وبعد ذلك بيومين وفى نفس المكان ، خطب قسيس آخر فى عشرة آلاف ، وبعد أسبوع واحد استمع لموعظته عشرون ألفا (١٦) . وبدأ أن نصف سكان الفلاندرز أصبحوا بروتستانت . وكادت الكنائس والمدن أن تخلو من الناس فى أيام الآحاد لأنهم هرعوا إلى جمعيات البروتستانت . وإذا سمع الناس فى مقاطعة هولندة بأن بيتر جبرييل الخطيب المفوه سوف يلقى موعظة فى أوفرين بالقرب من هارلم ، هرع آلاف البروتستانت إليه ، وهزوا أجواز الفضاء فى الحقول بمزاميرهم . وبلغت جموع البروتستانت بالقرب من أنتورب خمسة عشر ألفاً ، وقال بعضهم ثلاثين ألفاً ، وكان كل الرجال مسلحين تقريبا . وأمرت مرجريت حكام أنتورب بمنع هذه التجمعات لأنها خطر على البلد ، فأجابوا بأن قواتهم المسلحة غير كافية ولا يعتمد عليها ، ولم يكن تحت تصرف مرجريت نفسها قوات منذ رحيل الحاميات الأسبانية ح . وبلغ الاضطراب فى أنتورب حداً

سادت معه الحياة الاقتصادية بشكل خطير . وطلبت مرجريت إلى وليم أورانج أن يشخص إلى المدينة لإجراء تسوية سلمية بين الكاثوليك والبروتستانت هناك . فعمل على تهدئة الأمور بحض الوعاظ على قصر اجتماعاتهم على الضواحى وإلا يحمل المجتمعون سلاحا .

وفى الشهر نفسه (يوليه ١٥٦٦) اجتمع بقيادة كونت لويس ناسوا ألفان من المتسولين، فى سانت تروند ، فى أسقفية ليبج ، وسط هذا الصخب البهيج ، وضعوا الخطط للمضى قدما فى قضيتهم . وقرروا الاتصال بالبروتستانت الألمان ليشكلوا بينهم جيشا يهب لنجدة البروتستانت فى الأراضى الوطيئة إذا هوجموا . وفى ٢٦ يوليه قدم لويس وأثنى عشر آخرون ، وهم فى زى المتسولين ، إلى مرجريت ، طالبا بعقد الجمعية العمومية ، وأن تحكم هى نفسها فى نفس الوقت ، بتوجيه من أورانج وأجمونت وهورن ، ولما كان ردها ملتويا غير واضح فأنهم لحوا إلى أنهم قد يضطرون إلى التماس مساعدة أجنبية ، ومن ثم شرع لويس ، بالتواطؤ مع أخيه الأحرص منه . وليم ، فى تجهيز أربعة آلاف من الخيالة وأربعين سرية من المشاة فى ألمانيا (١٧) .

وفى ٩ أغسطس وقع فيليب وثيقة رسمية يعلن فيها أن العرض الذى قدمه للعفو العام قد انتزع منه رغم إرادته ، وأنه لا يلزمه بشىء ، وفى ١٣ أغسطس أكد للبابا أن إيقاف محاكم التفتيش مرهون بموافقة البابا (١٨) . وفى ١٤ أغسطس اقتحمت جمهـــرة من البروتستانت بتحريض من الوعاظ الذين استنكروا الصور الدينية ، كنائس سانت أومر الواحدة بعد الأخرى فحطموا الصور والمذابح ودمروا كل الزخارف . وفى نفس الأسبوع قامت جموع شبيهة بمثل هذه الأعمال فى ايبر وكورتراى وأودينارد وفالنسيان . وفى يومى السادس عشر والسابع عشر دخلت الجماهير الكاتدرائية الكبرى فى أنتورب وحطموا المذبح والزجاج الملون والصلبان وغيرها من الصور ، ودمروا الآلات الموسيقية والزخارف وكؤس القربان والأوعية المقدسة ، وفتحوا

الأضرحة وجردوا الجثث من حليها ، وشربوا النبيذ المقدس ، وأحرقوا كتب القداس الثمينة ، ووطئوا بأقدامهم التحف الفنية . وأرسلوا فى طلب السلالم والحبال ، فتسلقوا وجذبوا التماثيل من أماكنها وهشموها بالمطارق الثقيلة . واخترق الجمع أنتورب وهم يهتفون منتصرين ، وحطموا الصور والزخارف فى ثلاثين كنيسة وديرا ، وأحرقوا مكتبات الرهبان ، وأخرجوا الرهبان والراهبات من الأديار(١٩) ولما ترامت أنباء هذه «الضراوة الكلفنية» إلى تورنى انطلقت نشوة تحطيم الصور المقدسة من عقالها هناك ، وأعمل السلب والنهب فى كل الكنائس . وفى الفلاندرز وحدها جردت ٤٠٠ كنيسة من الصور . وفى كولمبرخ أشرف الكونت المبتهج المرح على أعمال التخريب وأطعم ببغاواته على القرابين المقدسة (٢٠) . وفى جهات أخرى قام بعض الكهنة السابقين بتحميص رقائق الخبز على شوكات(٢١) . ومن الفلاندرز امتد الهياج إلى المقاطعات الشمالية ، إلى امستردام وليدن ودلفت وأوترخت ، ثم إلى جرونجن وفريزلند . واستنكر معظم زعماء البروتستانت أعمال التخريب هذه . ولكن بعضهم ممن رأوا أن الأفراد لم يلحق بهم إلا أيسر الأذى والضرر . ذهبوا إلى أن تحطيم التماثيل والصور أقل أجراما من إحراق الأحياء « المراطقة » .

وخارت قوى مرجريت بارما أمام العاصفة . فكتبت إلى فيليب تقول « أن أى شىء وكل شىء محتل فى هذا البلد فيما عدا العقيدة الكاثوليكية »(٢٢) . وبات فيليب يتحين الفرصة للانتقام . ولكن مرجريت التى تواجه الجماهير المسلحة والزعماء المغامرين أحست بأنها مرغمة على بعض التنازلات . فوقعت فى ٢٣ أغسطس ، مع ممثلى المتسولين ، إتفاقا تباح بمقتضاه العبادة الكلفنية فى الأماكن التى كانت تمارس فيها بالفعل ، بشرط عدم التعرض للطقوس الكاثوليكية ، وإلا يحمل البروتستانت سلاحا خارج بيوتهم . ووافق ممثلو المتحالفين على حل « عصبتهم » إذا أوفت الحكومة بهذا الاتفاق . وتوقف الاضطهاد وساد السلام لبعض الوقت .

ولكن أيا من وليم أورانج وملك أسبانيا لم يقنع بهدوء الحال . فإن وليم كان يرى فى البروتستانتية الثائرة أداة لتحقيق استقلال الأراضى الوطيئة ، وعلى الرغم من أنه كان لايزال كاثوليكيا اسما فإنه تخلى عن كل مناصبه الحكومية، ونظم وسائله الخاصة للتجسس ، وقصد (٢٢ أبريل ١٥٦٧) إلى ألمانيا يلتمس المدد من الرجال والمال . وبعـــد ذلك بخمسة أيام غادر دوق ألفا أسبانيا ، مفوضا من الملك فيليب . فى جمع مايلزم من القوات لاستخدامها فى الانتقام من المشاغبين الكلفنيين،والقضاء بلاهوادة على أية حال هرطقة وثورة وحرية فى الأراضى الوطيئة .

٣ ــ دوق ألفا فى الأراضى الوطيئة

١٥٦٧ — ١٥٧٣

هو فرناندو ألفارز دى توليدو ، دوق ألبا أو ألفا ، وكان آنذاك فى التاسعة والخمسين من العمر ، وكأنه صورة أبدعتها ريشة الرسام الجريكو : طويل القامة ، نحيل القوام ، ذو عينين سوداوين ، وبشرة صفراء ، ولحية بيضاء فضية ، وكان قد ورث ، وهو فى سن العشرين ، لقبه السلامى الذائع الصيت ، وضياعه الشاسعة ، وبدأ العمل العسكرى فى سن مبكرة ، وامتاز بالشجاعة والذكاء والقسوة . وألحقه فيليب بأخص مجالسه واستمع مغتبطا إلى مشورته وكان حكمه فى هذه الساعة العصيبة هو مايقضى به جندى درج على النظام الأسبانى والورع الأسبانى : اسحق الثوار العصاة دون شفقة ولا رحمة . فإن أى تنازل بقوى المعارضة . وأطلق فيليب يديه ومنحه كل السلطة ودعا له بالتوفيق .

شق ألفا طريقه إلى إيطاليا ، وهناك جمع أساسا من الحاميات الأسبانية فى نابلى وميلان صفوة الجند ليشكل جيشا قوامه عشرة آلاف رجل ، ألبسهم أنفر الثياب وزودهم بأحدث العدة والعتاد ، وأثلج صدورهم بألفين من بنات

الهوى أحسن اختيارهن وأعدادهن وقاد الجيش عبر جبال الألب ، وعبر برجندى واللورين ولكسمبرج. وفى ٢٢ أغسطس ١٥٦٧ دخل بروكسل وتلقاه اجمونت فى كل الخضوع والخشوع . وقدم له جوادين نادرين هدية . ولقيته مرجريت يعروها الأسى والأسف. وهى تشعر بأن أخاها حل محلها وفرض سلطانه عليها فى نفس الوقت الذى كانت قد أعادت فيه نظاماً إنسانياً . واحتجت مرجريت عندما أقام ألفا حاميات أسبانية فى كل المدن . وأجاب فى فتور « إنى على استعداد لاحتمال كل الخزى والوزر » .

واستأذنت مرجريت الملك فيليب فى الاستقالة من منصبها ، فأجابها إلى طلبها مع منحها معاشاً سخياً يضمن لها الهناءة. وفى ديسمبر رحلت عن بروكسل إلى موطنها فى بارما، وقد حزن من أجلها الكاثوليك الذين أجلوها واحترموها، والبروتستانت الذين تنبأوا بأنه سيتضح وشيكاً أن أشد قساوتها كانت ليناً وإعتدالا إلى جانب وحشية ألفا المنتظرة .

وأقام نائب الملك الحاكم العام الجديد فى قلعة أنتورب . وأعد نفسه لتطهير الأراضى الوطيئة من الهرطقة ، ودعا اجمونت وهورن إلى العشاء وأكرم وفادتهما . ثم ألقى القبض عليهما وأرسلهما فى حراسة مشددة إلى أحد الحصون فى غنت (٧ سبتمبر) وعين « مجلس القلاقل » الذى أطلق عليه البروتستانت الجزعون من جديد اسم « مجلس الدم » وكان سبعة من أعضائه التسعة من الأراضى الوطيئة واثنان من الأسبان، وكان لهذين العضوين فقط حق التصويت. واحتفظ ألفا لنفسه بالقرار الحاسم فى أى موضوع يعنيه بخاصة . وأمر المجلس بالبحث عن المشتبه فى معارضتهم للكنيسة الكاثوليكية أو الحكومة الأسبانية ، وإعتقالهم ومحاكمتهم سراً ، ومعاقبة من يحكم عليهم دون ترفق أو إبطاء . وانبث الوكلاء للتجسس، وشجع المخبرين على الغدر بأقاربهم وأعدائهم وأصدقائهم وحظرت الهجرة ، وأعدم ربانية السفن الذين يساعدون ربانية عليها شنقاً (٢٣) . وحكم على كل مدينة عجزت عن قمع الثورة أو معاقبة

العصاة بأنها مذنبة، وأودع موظفوها السجن أو فرضت عليهم الغرامة. وأعتقل آلاف الأفراد. وذات صباح واحد قبض على نحو ١٥٠٠ في مضاجعهم ونقلوا إلى السجون. وكانت المحاكمات قصيرة عاجلة، وكان الحكم بالإعدام يصدر أحياناً بالجملة، على ثلاثين أو أربعين أو خمسين دفعة واحدة (٢٤). وفي شهر واحد - (يناير ١٥٦٨) أعدام ٨٤ شخصاً من سكان فالنسيان. وسرعان ما كان من العسير أن تجد في الفلاندرز أسرة غير حزينة على فرد منها قتل أو أعتقل بأمر من «مجلس القلاقل». وندر أن كان في الأراضي الوطيئة من يجسر على الاحتجاج، فإن أيسر النقد كان يعني الإعتقال.

وأحس ألفا بأن نجاحه قد تلطخ وتضاءل بعجزه عن إيقاع وليم أورانج في حبائله. وأصدر مجلس المتاعب قرار بإتهام الأمير وأخيه لويس، وزوج أخته كونت فان دن برج، والبارون مونتيني وغيرهم من الزعماء، بتشجيع الهرطقة والثورة. وكان مونتيني لايزال في أسبانيا، فأودعه فيليب السجن. وكان ابن وليم، وهو فيليب وليم كونت بورن طالبا في جامعة لوفان، فاعتقل وأرسل إلى أسبانيا، وهناك نشيء تنشئة كاثوليكية متحمسة، وتبرأ من مبادىء أبيه. وصدر أعلان بأن وليم خارج على القانون، أحل لأي إنسان قتله دون التعرض لعقاب قانون.

وعمل وليم أورانج على تنظيم جيش، ووجه أخاه لويس إلى أن يحذو حذوه. والتمس العون من الأمراء اللوثريين فكم يتحمسوا للإستجابة له، ومن الملكة اليزابث التي أمسكت عن مساعدته في حذر. وجاءته الأموال من أنتورب وأمستردام وليدن وهارلم وفلشنج، وأرسل إليه كل من الكونت فان دن برج وكولمبرخ وهو جسترات ثلاثين ألف فلورين. وباع هو مجوهراته وأوانيه الفضية ومطرزاته وأثاثه الفاخر، وجمع نحو خمسين ألف فلورين، وتوافر الجنود، لأن المرتزقه الذين تفرقوا نتيجة بعض الهدوء في الحرب الدينية في فرنسا، عادوا إلى ألمانيا مفلسين. وكان لزاماً ان ينتهج وليم سياسة التسامح. فكان

عليه أن يكسب اللوثريين والكلفنيين تحت لوائه ، كما كان عليه أن يؤكد للكاثوليك فى الأراضى الوطيئة أن عبادتهم لن تمس بسوء بتحرير البلاد من ربقة أسبانيا .

ووضع أورانج خطة العمل لثلاثة جيوش فى وقت واحد ، قوة من الهيجونوت من فرنسا تهاجم أرتوا من الجنوب الغربى ، ويقود هوجستراتن جيشه ضد ماسترخت فى الجنوب ، ويقتحم لويس ناسو فريزلند من ألمانيا فى الشمال الشرقى . وصدت هجمات الهيجونوت وهوجستراتن ، ولكن لويس انتصر على الجنود الأسبان فى هيلجرلى (٢٣ مايو ١٥٦٨) . وأمر دوق ألفا باعدام أجمونت وهورن (٥ يونية) ليطلق ثلاثة آلاف من الجنود كانوا يتولون حراستهما وحماية مدينة غنت ، ليستفيد منهم . وتقدم بهذه الإمدادات إلى فريزلند ، ودحر جيش لويس الذى أصابه الوهن فى جمنجن (٢١ يولية) وأودى بحياة ٧٠٠٠ رجل وهرب لويس سبحا فى مصب نهر امز . وفى أكتوبر قاد وليم جيشا قوامه ٢٥ ألف رجل إلى برابانت ، وقد عقد العزم على ملاقاة ألفا فى معركة حاسمة . ولكن ألفا بجيشه الأقل عددا والأحسن نظاما أحبط خططه ، وتجنب اللقاء فى معركة ، وعمد إلى تعويق عدوه بهجمات فى مؤخرته ورفض القتال جنود وليم الذين لم تدفع رواتبهم . فقادهم إلى مكان آمن فى فرنسا وسرحهم . ثم تنكر فى زى فلاح وشق طريقه من فرنسا إلى ألمانيا حيث تنقل من مدينة إلى مدينة ، فراراً من القتل . وبهذه الحملات المشئومة المملتئة بالكوارث بدأت « حرب الثمانين عاما » التى خاضتها الأراضى الوطيئة فى ثبات ومثابرة لم يسبق لهما مثيل ، حتى قدر لها النصر فى النهاية فى ١٦٤٨ .

كان ألفا آنذاك سيد الموقف المزهو فى الميدان ، ولكنه كان خاوى الوفاض إلى حد بعيد . وكان الملك فيليب قد دبر مع أصحاب المصارف فى جنوة أن يمدوه بحراً بأربعمائة وخمسين ألف دوكات . ولكن القرصان الإنجليز أجبروا السفن على الاتجاه إلى ميناء بليموت ، وهناك وضعت اليزابث يدها على المال ،

مع أرق الإعتذارات ، حيث لم تكن تكره مساعدة ولم مقابل هذا الثمن . عندئذ دعا ألفا الجمعية العمومية المكونة من النبلاء وممثلى المدن للاجتماع فى بروكسل ، واقترح عليهم (٢٠ مارس ١٥٦٩) فرض ضريبة فورية قدرها ١٪ على الممتلكات وضريبة دائمة قدرها ٥٪ على أية عملية نقل للعقارات، وضريبة دائمة قدرها ١٠٪ على المبيعات فاحتجت الجمعية بأنه لما كانت مواد كثيرة قد غيرت الملكية عدة مرات فى العام الواحد فإن ضريبة المبيعات هذه تقارب أن تكون مصادرة ، وأحالت المقترحات إلى جمعيات المقاطعات ، وهناك كانت المعارضة شديدة إلى حد اضطر معه ألفا إلى إرجاء ضريبة الـ ١٠٪ إلى ١٥٧٢ ، والاكتفاء بضريبة الواحد فى المائة ، وبمنحة قدرها مليونى فلورين سنويا لمدة عامين . ولكن حتى ضريبة الواحد فى المائة كانت جبايتها شاقة باهظة التكاليف ورفضت أو تراخت دفعها . فأطبقت فرقة من الجند على المنازل والممتلكات، واستمرت المقاومة ، ورمى ألفا كل الأقليم بالخيانة وألغى كل إعفاءاته وامتيازاته ، وصادر كل ممتلكات سكانه لصالح الملك .

وأن هذه الضرائب والإجراءات التى اتخذت لفرضها هى التى هزمت ألفا الذى لم يهزم حتى ذلك اليوم . وبات كل السكان تقريبا ، كاثوليك وبروتستانت، يقاومونه ، فى استياء يتفاقم أمره ، كلما عوقت وعرقلت ضرائبه نشاط الأعمال التى بنت عليها الأراضى الوطيئة ازدهارها ورخاءها . ولما كان ألفا أبرع فى الحرب منه فى شئون المال فإنه انتقم لإستيلاء اليزابث على الأموال التى كانت فى طريقها إليه من جنوة ، بالإستيلاء على الممتلكات الإنجليزية فى الأراضى الوطيئة ، وحظر التجارة مع انجلترا . وردت اليزابث على هذا بمصادرة بضائع الأراضى الوطيئة فى انجلترا ، وتحويل التجارة الإنجليزية إلى همبرج. وسرعان ما أحست الأراضى الوطيئة بوطأة الكساد الاقتصادى . فأغلقت المتاجر أبوابها ، وازداد التعطل ، وفكر رجال الأعمال الأقوياء الذين احتملوا فى صبر وتجلد شنق البروتستانت ونهب الكنائس ، فكروا مليا وسرا فى الثورة

وأخيرا مولوها . وحتى رجال الدين الكاثوليك الذين خشوا إنهيار الاقتصاد الوطنى ، أنقلبوا على ألفا ، وحذروا الملك فيليب من أن الدوق يعمل على تخريب البلاد (٢٥) ، بل أن البابا — بيوس الخامس الذى كان قد اغتبط أيما اغتباط بانتصارات ألفا ، نراه الآن يشاطر الكاردنيال دى جرانفل أسفه لقساوة ألفا (٢٦). ويوصى بالعفو العام عن العصاة والهراطقة النادمين التائبين — ووافق فيليب على هذا الاجراء وأبلغ به ألفا (فبراير ١٥٦٩) ، ولكن الدوق طلب التمهل ، ولم يعلن العفو إلا فى ١٦ يولية ١٥٧٠ .. وفى تلك السنة خلع البابا على ألفا القبعة والسيف المقدسين ، وأنعم « بالوردة الذهبية » على زوجته (٢٧) ، كما أعدم فيليب مونتينى الذى كان سجينا — (١٦ أكتوبر ١٥٧٠) .

وفى نفس الوقت ظهرت على المسرح قوة جديدة . وذلك أنه فى مارس ١٥٦٨ قامت عصابة من اليائسين المستميتين عرفوا باسم « المتسولين المتطرفين » ، وجهوا همهم إلى نهب الكنائس والأديار وقطع أنوف القساوسة والرهبان أو آذانهم ، وكأنهم عقدوا العزم على مباراة « مجلس الدم » فى وحشيته وفظائعه (٢٨) . وفيما بين عامى ١٥٦٩ — ١٥٧٢ ظهرت جماعة أخرى أطلقوا على أنفسهم اسم « متسولى البحر » ، وضعوا أيديهم على ١٨ سفينة ، وتلقوا عمولة من وليم أورانج ، وأغاروا على شواطئ الأراضى الوطيئة ، ونهبوا الكنائس والأديار ، وسيطروا على المراكب الأسبانية ، وزودوها ثانية بالمؤن من الثغور الإنجليزية الصديقة — بل حتى من لاروشيل النائية — التى كانت فى يد الهيجونوت آنذاك . وأغار « متسولو البحر على أية مدينة ساحلية لا توجد بها حامية أسبانية ، واستولوا على المواقع الحصينة ، وبفضل قدرتهم على فتح السدود بات من أحطر الأمور على القوات الأسبانية أن تقترب منهم أو تصل إليهم . فلم يعد فى مقدور ألفا أن يتلق أية امدادات أو مؤن من البحر وهكذا صارت المدن الرئيسية فى هولنده وزيلند وجلدرلند وفرزلند آمنة محية .

ومن ثم قدمت ولاءها لوليم أورانج ، وقررت تزويده بالإمدادات من أجل الحرب (يولية ١٥٧٢) ونقل وليم مقر قيادته إلى دلفت وأعلن أنه « الأصلح الكلفنى » وهو لقب أصدق على رأسه منه على عقيدته ، وفى تلك الآونة كتب فيليب فان مارنكس أغنية « وليم ناسو » التى أصبحت ، ولا تزال ، الترنيمة الوطنية فى الأراضى الوطيئة .

ومنذ لقى وليم أورانج التشجيع على هذا النحو جهز جيشا آخر وغزا برابانت . وفى نفس الوقت قام لويس ناسو ، بمعونة كولينى ، باعداد قوة فى فرنسا ، ودخل هيبوت ، واستولى على فالنسيان ومونز (٢٣ مايو ١٥٧٢) . وتقدم ألفا ليسترد مونز ، وهو يأمل بذلك أن يثنى فرنسا عن مساعدة لويس . وتقدم وليم جنوبا لنجدة أخيه ، وأحرز بعض انتصارات يسيرة ، ولكن سرعان مااستنفد مالديه من مال ، فتقاضى جنوده أجورهم بنهب الكنائس ، وتسلوا بقتل القساوسة [٢٩] . فثارت ثائرة الكاثوليك ، حتى أنه عندما اقترب جيش وليم من بروكسل وجد الأبواب موصدة والأهالى يحملون السلاح لمقاومته واستأنف الجيش سيره ، ولكن على مسافة فرسخ من مونز فوجىء الجند ، وهم نيام ، بستمائة جندى أسبانى ، قتلوا من جنود وليم ثمانمائة قبل أن يتمكنوا من تهيئة أنفسهم للدفاع . واستطاع وليم الهرب بشق النفس مع بقايا قواته ، إلى مكلين فى برابانت . وفى نفس الوقت قضى قتل كولينى ومذبحة سانت برتلميو على كل أمل فى العون من فرنسا . وفى ١٧ سبتمبر سقطت مونز فى يد ألفا الذى هيأ للويس وفلول جيشه أن يرحلوا دون أن يمسهم أذى . ولكن قائد جيش ألفا ، فيليب دى نوفارم ، شنق من تلقاء نفسه مئات من الأهالى ، وصادر ممتلكاتهم وباعها بثمن عال [٣٠] .

أن فشل استراتيجية وليم وافراط قواته التى يصعب قيادها ووحشية « المتسولين » وفظائعهم ، كل أولئك خيب آماله فى توحيد الكاثوليك والكلفنيين واللوثريين ليقاوموا جميعا طغيان ألفا . فان « المتسولين » وكانوا

كلهم تقريبا كلفنيين متحمسين أبدوا ضد الكاثوليك من ضروب الوحشية والضراوة ما أبدته محاكم التفتيش ومجلس الدم نحو الثوار والهراطقة . وفى كثير من الحالات لم يتركوا للأسرى الكاثوليك إلا الخيار بين الكلفنية أو الموت ، وكانوا يقتلون دون تردد ، وفى بعض الأحيان بعد تعذيب لا يصدق ، كل من تمسك بأهداب العقيدة القديمة (٣١) . وأعدم كل من طرفى النزاع كثيرا من أسرى الحرب . وكتب مؤرخ بروتستانتى يقول :

فى أكثر من مناسبة روئى الرجال يشنقون . . . أخوتهم هم أنفسهم الذين وقعوا أسرى فى صفوف الأعداء ... ووجد سكان الجزر لذة وحشية فى ضروب القسوة هذه ، ولم يعد الأسبانى فى نظرهم فردا من بنى الإنسان . وذات مرة انتزع أحد الجراحين قلب سجين أسبانى ، وثبته بالمسامير فى مقدم السفينة ودعا الأهالى ليغرسوا أسنانهم فيه ، وفعل كثير منهم هذا فى ارتياح وحشى (٣٢)

أن هؤلاء « المتسولين » القساة القلوب هم الذين هزموا دون ألفا . وأخلد الدوق إلى شىء من الراحة بعد الحملات التى قام بها ، وورث أبنه دوق فدريجو ألفارث دى توليدو مهمة استعادة ومعاقبة المدن التى كانت قد أعلنت تأييدها لوليم أو استسلمت له . فبدأ ألفارث بمدينة مكلين التى أبدت أقل مقاومة ، حيث خرج القساوسة والأهالى فى موكب نادمين ، يرجون الصفح والابقاء على المدينة ، ولكن ألفا كان قد أمر بانتقام تكون فيه موعظة وعبرة . فظل جنود فدريجو لمدة أيام ثلاثة ينهبون البيوت والأديار والكنائس ، ويسرقون الحلى والأردية الثمينة من التماثيل المقدسة . ويطأون الفطائر المقدسة تحت الأقدام ، ويذبحون الرجال ويستبيحون النساء ، كاثوليك أو بروتستانت على حد سواء وفى طريق تقدمه إلى جلدرلند ، تغلب جيشه على الدفاعات الهزيلة فى زوتفن ، وقتل كل رجال المدينة تقريبا . وعلق بعضهم من الأقدام ، وأغرق خمسمائة منهم بربطهم زوجا زوجا ، ظهرا لظهر . والالقاء بهم فى نهر ايسل . واستسلمت بلدة ناردن الصغيرة بعد مقاومة قصيرة ، وحيت الأسبان الغزاة بموائد زخرت

بألوان الطعام ، فأكل الجنود وشربوا ثم اعملوا القتل فى كل الأهالى فى المدينة وتقدموا إلى هارلم ، وهى مركز كافنى أبدى حماسا خاصا للثورة. وقد دافعت حامية قوامها أربعة آلاف رجل عن المدينة دفاعا مجيدا ، إلى حد أن دوق فدريجو اقترح الانسحاب منها ، ولكن ألفا هدد بأن يتبرأ منه إذا لم يستمر فى الحصار ، فتصاعدت أعمال العنف ، وعلق كل من الطرفين أسراه على أعواد المشانق فى مواجهة عدوه . وأثار المدافعون حنق المحاصرين بأن مثلوا على الأسوار الطقوس الكاثوليكية بطريقة تدعو إلى السخرية والضحك (٣٣) . وأرسل وليم ثلاثة آلاف جندى لمواجهة جيش دوق فدريجو ، ولكنهم أبيدوا وأخفقت كل محاولة لتخليص هارلم بعد ذلك . وفى ١١ يولية ١٥٧٣ ، بعد حصار دام سبعة أشهر اقتات فيها الناس على الأعشاب والجلود ، استسلمت المدينة . ولم يبق على قيد الحياة سوى ١٦٠٠ رجل أعدم معظمهم . كما أعدم ٤٠٠ من المواطنين المتزعمين ، أما بقية الأهالى فقد أبقى على حياتهم بعد موافقتهم على دفع غرامة قدرها مائتان وخمسون ألف جلدر .

وكان هذا آخر انتصارات حكومة دوق ألفا وأبهظها تكلفة . وهلك أكثر من اثنى عشر ألفاً من أفراد الجيش الذى تولى الحصار متأثرين بالجراح أو بالمرض . واستنزفت الحرب كل ماحصل من ضرائب بغيضة . واكتشف فيليب الذى كان يعد النقود أكثر مما يحسب حساب الأنفس والأرواح ، أن ألفا لم يكن غير محبوب لدى الناس فحسب ، بل أنه كان كذلك ينفق أموالا طائلة، وأن أساليب قائده كانت تعمل على توحيد الأراضى الوطيئة ضد أسبانيا وأحس دوق ألفا بأن الرياح غير مواتية له ، وأن التيار قد انقلب ضده . فطلب تنحيته وتباهى بأنه قتل ١٨ ألف ثائر (٣٤) . ولكن الهراطقة كانوا فى مثل القوة التى كانوا عليها عندما جاء هو إلى الميدان ، بل أكثر من ذلك أنهم سيطروا على الثغور وعلى البحر ، وأن الملك فقد مقاطعتى هولنده وزيلنده تماما . وقدر أسقف نامور أن ألفا فى سبع سنين ، ألحق من الأذى بالكاثوليكية أكثر مما ألحقه بها لوثر والكلفنية فى جيل بأسره (٣٥) . وقبلت

استقالة ألفا وغادر الأراضى الوطيئة (١٨ ديسمبر ١٥٧٣) وأستقبله الملك فيليب استقبالا حسنا . وقاد، وهو فى سن الثانية والسبعين الجيوش الأسبانية لغزو البرتغال (١٥٨٠) . ولدى عودته من هذه الحملة انتابته حمى متقطعة ، ولم يحفظ عليه حياته إلا ارضاعه اللبن من ثدى امرأة . وفاضت روحه فى ١٢ ديسمبر ١٥٨٢ ، بعد أن عاش عاما على اللبن . ونصف قرن على الدم .

٤ ـ ركويسانس ودون جوان

١٥٧٣ — ١٥٧٨

وأرسل فيليب دون لويس دى ركويسانس ليحل محل ألفا ، وهو الذى كان منذ عهد قريب نائب الملك فى ميلان . ودهش الحاكم الجديد لمدد الثوار والروح التى سادتهم ، فكتب إلى الملك : « لم أكن أدرك قبل وصولى كيف استطاعوا الاحتفاظ بمثل هذه الأساطيل الضخمة ، على حين أن جلالتكم لم تستطع الإنفاق على أسطول واحد فقط . ومهما يكن من أمر ، فانه يبدو أن الرجال الذين يقاتلون من أجل حياتهم وديارهم وأملاكهم وعقيدتهم الزائفة ، وجملة القول عن قضيتهم ـ يقنعون بالطعام دون أجور[٣٧] . ورجا فيليب فى أن يرخص له فى أصدار عفو عام عن الجميع باستثناء الهراطقة العنيدين ، مع السماح لهم بالهجرة ، وإلغاء ضريبة العشرة فى المائة على البيوع . ولم ير وليم أورانج فى هذه المقترحات إلا لعبة لكسب الوقت ، ووسيلة جديدة لاستئصال البروتستانتية من الأراضى الوطيئة ، ولم يكن يقبل السلام إلا على أساس الحرية الكاملة للعبادة ، واستعادة امتيازات المقاطعات ، وانسحاب الأسبان من الوظائف المدنية والعسكرية . واستمرت الحرب . وفى معركة (١٣ أبريل ١٥٧٧) قضى نحبه كل من أخوى وليم : لويس فى سن السادسة والثلاثين ، وهنرى فى سن الرابعة والعشرين .

وثمة حادثان شدا من أزر الثورة فى هذه الآونة : أفلاس فيليب (١٥٧٥)

وموت ركويسانس فى أثناء حصار زيركزى (٥ مارس ١٥٧٦) . عين الملك أخاه غير الشقيق ، دون جوان النمسوى ، فى هذا المنصب البغيض . ولكنه لم يصل إلى لكسمبرج ألا فى نوفبر . وفى هذه الأثناء وقع ممثلو هولنده وزيلنده ، فى دلفت (٢٥ أبريل) « قانون التهدئة » الذى خول وليم السلطة العليا فى البر والبحر ، وحق التعيين فى الوظائف السياسية . وعند الضرورة حق العهد بحماية الاتحاد إلى أمير أجنبى . وأهاب وليم ، من مركز السلطان الجديد ، بسائر المقاطعات أن تشارك فى طرد الأسبان من الأراضى الوطنية . ووعد بحرية الفكر والعقيدة للكاثوليك وللبروتستانت على حد سواء .

وربما لقى نداؤه بعض الاستجابة فى المقاطعات الجنوبية لولا أن الجنود الأسبان وقد خدعهم السلب والنهب فى زيركزى ، تمردوا (يولية) وبدأوا ، دون تمييز ، حملة من السلب والنهب والعنف أرهبت فلاندرز وبرابانت . ووجه إليهم مجلس الدولة فى بروكسل تأنيبا قاسيا ولكنهم تحدوه ، فأعلن المجلس أنهم خارجون على القانون ، ولكن لم يكن لديه قوة يقاومهم بها . فعرض وليم أن يرسل قوات عسكرية لحماية هذه البلاد ، وجدد تعهده بالحرية الدينية . وتردد المجلس ، فأطاح به أهالى بروكسل ، وشكلوا مجلسا آخر تحت رياسة فيليب دى كروى الذى بدأ المفاوضات مع الأمير . وفى ٢٦ سبتمبر رحبت غنت بفرقة عسكرية أرسلها وليم لحماية المدينة من المتمردين الأسبان . واجتمع فى غنت فى ١٩ أكتوبر ، ممثلون عن برابانت وفلاندرز وهينوت ، وكانوا يكرهون تحالف ولاياتهم مع الأمير المحروم من حماية القانون ، ولكن فى ٢٠ أكتوبر اجتاح المتمردون ماسترخت ، وفى ٢٨ منه ، وقع المجتمعون للبحث والتشاور رغبة فى حماية قوات وليم لهم ، « قانون التهدئة » الذى صدر فى غنت ، والذى اعترف بوليم حاكما على هولنده وزيلنده ، وأوقفوا كل اضطهاد للهرطقة ، واتفقوا على التعاون فى طرد الجنود الأسبان من مقاطعاتهم . ورفضت الجمعية العمومية للمقاطعات الجنوبية التى انعقدت فى بروكسل ، التوقيع على « قانون التهدئة » ، حيث اعتبرته اعلانا للحرب ضد الملك .

ودعم المتمردون مرة أخرى من حجج وليم ، ذلك أنهم فى ٤ نوفبر ١٥٧٦ استولوا على انتورب ، وأعملوا فيها السلب والنهب ، على أسوأ شكل عرفه تاريخ الأراضى الوطيئة . وقاوم المواطنون ولكنهم غلبوا على أمرهم، وقتل منهم سبعة آلاف ، وأحرق ألف مبنى كان بعضها من روائع العمارة . وذبح الرجال والنساء والأطفال فى طوفان من الدماء بأيدى الجنود وهم يرددون الصيحات : « سان جيمس ، أسبانيا ، الدم . الموت . النار . السلب ، النهب» وطوال تلك الليلة عاث الجنود فى المدينة الغنية ، وسلبوا كل بيت فيها تقريبا ، ورغبـــة فى انتزاع الاعتراف بالذخائر المخبأة ، أصيلة أو زائفة ، عذبوا الآباء على مرأى من أطفالهم،وذبحوا الصبية وهم فى أحضان أمهاتهم ،وضربوا الزوجات بالسياط حتى الموت أمام أعين أزواجهن . واستمر هذا « العنف الأسبانى » يومين ، حتى أتخم الجنود بالذهب والحلى والملابس الثمينة ، وبدأ الواحد منهم يقامر الآخر بغنائمه فى الشوارع المكتظة بجثث الموتى . وفى ٢٨ نوفبر صدقت الجمعية العمومية على « قانون التهدئة » الذى وضع فى غنت».

وكان هذا نصرا مبينا أحرزه الأمير فى الوقت المناسب . وعندما أرسل دون جوان من لكسمبرج يقول أنه على وشك أن يدخل بروكسل ، أجابت الجمعية العمومية بأنها لن تستقبله بوصفه حاكما إلا إذا وافق على « قانون التهدئة » وأعاد امتيازات المقاطعات، وطرد كل القوات الأسبانية من الأراضى الوطيئة . وقضى دون جوان، الباسل فى ميدان المعركة ، القليل الخبرة بالسياسة والذى أعوزه الرجال والمال ، شتاءه متلكئا فى لكسمبرج ، ثم وقع فى ١٢ فبراير ١٥٧٧ « المرسوم الدائم » الذى أدى به إلى التهـــدئة وحريات المقاطعات . وفى أول مارس دخل دون جوان بروسكل فى احتفال رسمى ، واغتبطت المدينة إذ رأت مثل هذا الحاكم الوسيم الأعزل الضعيف . ورحلت القوات الأسبانية . وساد السلام لفترة وجيزة ربوع البلاد المخربة .

وكانت أحلام جوان أكبر من إمكاناته المالية . وبعدما آثره وبطولاته فى ليبنتو وتونس أوهنت العظمة اليائسة العاجزة فورة الدم الهادر بأوهام

البطولة . وعلى مقربة منه كانت ماري ستيوارت الجميلة سجينة لدى اليزابث العملاقة الرهيبة . فلم لا يحشد جوان جيشا وأسطولا ، ويعبر البحر ، ويطيح بعرش ملكة ويتزوج الأخرى ، ويصبح ملكا على انجلترا واسكتلنده ، ويعيد هذه الأقاليم الغافلة إلى أحضان الكنيسة الأم ، أن فيليب الذى خشى الهوة بين الأموال والأحلام ، اعتبر أخاه ساذجا مخدوعا . وقدم جوان البرهان على ذلك ، فإنه غادر بروكسل فجأة (١١ يونية) ، على رأس فرقة من الوالون (سكان جنوب بلجيكا) الكاثوليك ، وأنكر « قانون التهدئة » . وبعد مفاوضات عقيمة مع جوان ، دعت الجمعية العمومية وليم إلى العاصمة، ولدى وصوله (٢٣ سبتمبر) رحب به جمهور كبير من المواطنين الكاثوليك على أنه الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يقود الأراضى الوطيئة إلى الحرية . وفى ٨ اكتوبر أبلغت الجمعية العمومية دون جوان أنها لم تعد تعترف به حاكما ولكن يمكن أن تقبل فى مكانه أميرا من الأسرة المالكة . وفى ١٠ ديسمبر ١٥٧٧ انضمت المقاطعات كلها — عدا نامور — إلى « اتحـــاد بروكسل » . وطلب الأعضاء الكاثوليك فى الجمعية العمومية ، الذين كانوا يخشون كلفنية وليم، إلى ماتياس أرشيدوق النمسا أن يكون حاكما على الأراضى الوطيئة . وقدم الشاب ابن العشرين وتقلد المنصب (١٨ يناير ١٥٧٨) ولكن أنصار وليم أغروا الحاكم الجديد بتعيين وليم نائبا له — ومن الوجهة الفعلية صاحب الأمر والنهى فى الإدارة والسياسة .

وكان يمكن للتسامح المتبادل فى الخلافات الدينية وحده إن يبقى على هذا الاتحاد أو الترابط ، ولكن التعصب مزقه . فإن الكلفنيين فى هولنـــده والكاثوليك فى أسبانيا اعتقدوا جميعا بأن الكفار وحدهم هم الذين يستطيعون أن يبدوا تسامحا . وقال كثير منهم صراحة بأن وليم أورانج ملحد[٢٨] ، واتهمه الواعظ الكلفنى بيتر داتينوس ، بأنه جعل من السلطة معبوده الوحيد، وأنه يغير عقيدته كما يغير الناس ملابسهم[٢٩] . وكان الكلفنيون (وظلوا

حتى ١٥٨٧) يشكلون عشر السكان فقط فى مقاطعة هولندة ، ولكنهم كانوا نشيطين طموحين ومسلحين . وكانت لهم السيطرة على الجمعيات السياسة ، فأحلوا حكاما وقضاة بروتستانت محل الكاثوليك ، وفى ١٥٧٢ حظر مجلس المقاطعة العبادة الكاثوليكية فى هولندة[٤٠] ، على أساس أن أى فرد كاثوليكى يحتمل أن يكون خادما لأسبانيا . ولم تأت ١٥٧٨ . إلا وقد عمت الكلفنية زيلندة تقريبا ، وكانت من الوجهة السياسية — لا العددية — متسلطة فى فريزلند واكتسحت موجات تحطيم الصور المقدسة هولنده وزيلنده ١٥٧٢ ، ومقاطعات أخرى ، حتى الفلاندرز وبرابانت ، بعد ١٥٧٦ . وأنكروا أى ربط بين الدين والفن باعتباره عملا وثنيا دنسا . وجردت الكنائس من الصور والتماثيل والصلبان والزخارف ، وصهرت الأوانى الذهبية والفضية ، ولم يبق إلا الجدران العارية ، وعذب « المتسولون » القساوسة الكاثوليك . وأعدموا نفرا منهم[٤١] .

واستنكر وليم كل هذه التصرفات ، ولكنه تغاضى[٤٢] عن استيلاء الأقليات الكلفنية المسلحة على السلطة السياسية فى بروكسل وايبر وبروجز وكل شمال الفلاندرز[٤٣] . وفى غنت سجن الكلفنيون المنتصرون أعضاء المجلس ، ونهبوا الكنائس والأديار وأتلفوا أجزاءها الداخلية ، وصادروا أملاك الكنيسة ، وحرموا إقامة الطقوس الكاثوليكية ، وأحرقوا الرهبان فى فى ساحة السوق[٤٤] ، وأقاموا جمهورية ثورية (١٥٧٧) . وفى امستردام اقتحم الكلفنيون المسلحون دار البلدية (٢٤ مايو ١٥٧٨) ، وطردوا القضاة والموظفين ، وأحلوا محلهم كلفنيين ، وخصصوا الكنائس التى جردوها لمذهب الاصلاح . وفى اليوم التالى قامت ثورة مماثلة بمثل هذا العمل فى هارلم . وفى أنتورب التى كانت آنذاك مقر قيادة وليم أخرج البروتستانت القساوسة والرهبان من المدينة (٢٨ مايو) ، وأنب الأمير أتباعه تأنيبا شديدا على هذا العنف . وخصهم على السماح باستئناف الطقوس الكاثوليكية . ولكن فى ١٥٨١ حرمت كل عبادة كاثوليكية فى أنتورب وأوترخت . واتهم الكلفنيون

القساوسة بأنهم كانوا يخدعون الناس بالمخلفات الزائفة والكرامات التى يفتعلونها — عرض قطع من « الصليب الحقيقى ، وعظام قديمة للتعبد على أنها رفات القـــديسين، وإخفاء الزيت فى رؤوس التماثيل حتى ترشح فى الوقت المناسب(٢٥) .

على أن وليم تولاه الحزن والأسى حين رأى سنوات كفاحه من أجل الوحدة تختتم بالفرقة والفوضى والبغضاء . إن الديموقراطية الكلفنية التى كانت قد استولت على جمـــلة مدن تتردى الآن فى وهدة من الفوضى ، بدأ معها الملاك البروتستانت والكاثوليك على حد سواء يتساءلون هل كان المذهب الجديد وكل ما يتصل به من دعايات أشد وبالا عليهم من الديانة القديمة . وسرى شعور الاستياء وواجه وليم هذه الرغبة المتزايدة فى إعادة النظام بالتفاوض مع فرنسوا دوق أنجو ليتولى منصب الحاكم العام بدلا من ماتياس العاجز التافه . ولكن اتضح أن أنجو خائن حقير . وزاد الطين بلة فى محنة وليم ، أن جيشا أسبانيا جديدا قوامه عشرون ألفا من الجنود المدربين أحسن تدريب ، كان يتجه شمالا بقيادة أقدر قواد العصر . ذلك أنه فى ديسمبر ١٥٧٧ قدم الساندرو فارنيزى دوق بارما بجيشه إلى دون جوان فى لكسمبرج . وفى ٣١ يناير ١٥٧٨ هزموا القوات التى كان يعوزها النظام ، التابعة للجمعية العمومية ، فى جبلو . وفتحت لوفان واثنتى عشرة مدينة صغيرة أخرى ، أبوابها أمام الفاتح الجديد ، وفرت الجمعية العمومية للأراضى الوطيئة من بروكسل إلى أنتورب . إلا أن دون جوان الذى استشعر مجداً جديداً ، انتابته حمى خبيثة ، وقضى نحبه فى نامور ، فى أول أكتوبر ١٥٧٨ ، وهو فى سن الثالثة والثلاثين . وعين فيليب دوق بارما حاكما عاما مكانه ، وبدأ فصل جديد .

٥ - بارما وأورانج

١٥٨٤ — ١٥٧٨

السا ندرو فارنيزى، الذى يبلغ الثالثة والثلاثين، هو ابن نائبة الملك السابقة مرجريت بارما . تربى فى أسبانيا وأقسم يمين الولاء لفيليب ، وحارب فى ليبنتو وقضى الأربعة عشر عاماً الأخيرة من حياته فى الإبقاء على الأراضى الوطيئة الجنوبية فى حوزة الملك فيليب . وفى ١٥٨٦ ورث دوقية بارما ولقبها ، ولكنه لم يجلس على عرش الدوقية قط . وكان له عينان حادتان ، ووجه أسمر ، وشعر أسود قصير ، وأنف كأنف النسر ، ولحية كثة ، كل أولئك كشف عن شىء يسير من مقدرته وشجاعته وبراعته . وجمع بين كل الفن العسكرى الذى امتاز به دوق ألفا ، مع إثارة من قسوته ، وقدر أكبر بكثير من المهارة فى المفاوضة والحديث . وبات القتال من أجل الأراضى الوطيئة ، آنذاك ، صراعاً بين دبلوماسية بارما وأسلحته تساندة أموال الكاثوليك وآمالهم . بين صمود أمير أورانج البطولى ، يموله التجار الهولنديون ويشدون أزره . ويعرقل جهوده ، فى وقت معاً ، تعصب أصدقائه .

وفى ٥ يناير ١٥٧٩ شكل جماعة من النبلاء الكاثوليك ، من هينوت ودوا وأرتوا وليل ، بإيحاء من أسقف آراس ، شكلوا عصبة آراس لحماية عقيدتهم وممتلكاتهم وفى ٢٩ يناير شكلت مقاطعات هولنده وزيلندة وجرونجن وأوترخت وجلدرلند ، « اتحاد أوترخت » للدفاع عن عقيدتهم وحرياتهم . وسرعان ما انضم إليها فريزلند ، وأوفريسل . ومن هذه « المقاطعات المتحدة » السبع تتكون اليوم الأراضى الوطيئة الهولندية ، وأصبحت المقاطعات الباقية هى « الأراضى الوطيئة الأسبانية » ، وصارت فى القرن التاسع عشر بلجيكا وحدد تقسيم المقاطعات السبع عشرة إلى أمتين على هذا النحو . سيطرة الكاثوليكية فى الجنوب والبروتستانتية فى الشمال ، من ناحية . إلى جانب الفصل الجغرافى بينهما ، لوجود الخلجان والأنهار الكبيرة التى هيأ اتساعها

وسدودها التى يسهل التحكم فيها ، ثغورا يمكن الدفاع عنها ، وتأوى إليها الأساطيل والأسلحة الأسبانية .

وفى ١٩ مايو وقعت عصبة آراسى مع بارما اتفاقا ، التزمت فيه بألا تقبل غير الكاثوليكية مذهباً ، وارتضت بمقتضاه السيادة الأسبانية شريطة استعادة امتيازات المقاطعات والوحدات الإدارية الصغيرة (الكوميونات) وسرعان ما أعاد الدوق ، بالإغراء أو الرشوة أو القوة ، كل المقاطعات الجنوبية تقريبا إلى حظيرة أسبانيا ، وتخلى الزعماء الكلفنيون فى بروكسل وغنت وإيبر عن فتوحاتهم وولوا الأدبار إلى الشمال البروتستانتى . وفى ١٢ مارس ١٥٧٩ قاد بارما جيشا كبيرا ضد ماسترخت الواقعة فى موقع حصين على النهر المسمى باسمها . وأتى الفريقان كلاهما بالأعاجيب من أعمال البطولة وضروب الوحشية وحفر المهاجمون أميالا من الممرات تحت الأرض ليبثوا الألغام ويفتحوا المدينة ، كما حفر المدافعون — النساء والرجال جنبا إلى جنب — ممرات ليقابلوهم ، ودارت رحى القتال حتى الموت فى باطن الأرض . وصب الماء المغلى فى الأنفاق ، وأشعلت الحرائق لتملأها بالدخان . واحترق مئات المحاصرين المهاجمين أو اختنقوا حتى الموت . وانفجر أحد الألغام قبل أوانه فأودى بحياة خمسمائة من رجال بارما . وعندما حاول جنوده تسلق السور قابلتهم الجمرات المحترقة ، وقذفت حول أعناقهم أطواق النار الملتهبة . وبعد أربعة أشهر من الجهد المضنى والضراوة والعنف ، أحدث المحاصرون ثغرة فى السور ، نفذوا منها خفية فى الليل ، وفاجأوا المدافعين المنهوكين وهم نيام وذبحوا منهم ستة آلاف من الرجال والأطفال والنساء ولم يبق من سكان المدينة البالغ عددهم ثلاثين ألفاً ، على قيد الحياة آنذاك سوى أربعمائة . وعمرها بارما من بعدهم بالمواطنين الكاثوليك .

تلك كانت كارثة عظمى حلت بالبروتستانت . ووجه اللوم فيها بحق إلى حد ما ، إلى وليم الذى حاول عبثا إنقاذ المدينة ، لعجزه وإبطائه . واتهمه

الآن نفس المتطرفين الذين أحبطوا سياسة التوحيد التى انتهجها ، بتعصبهم وعنفهم — اتهموه بخيانة قضيتهم فى مفاوضاته مع دوق أنجو الكاثوليكى ، وأشاروا إلى أنه لم يؤد الشعائر الدينية طوال العام الماضى ، وانتهز الملك فيليب هذه الفرصة ليصب اللعنة على أورانج (١٥ مارس ١٥٨١) . وبعد أن أسهب فيليب فى بيان عقوق الأمير وخيانته وزيجاته وجرائمه ، استرسل يقول :

ومن ثم ... بسببه الأعمال السيئة الشريرة التى رتبها وأنه يعكر صفو السلام العام ، وأنه شخص بغيض ، فإننا نحرمه من حماية القانون ، ونحظر على كل رعايانا أن يتعاملوا معه أو يتصلوا به فى السر أو العلن ، أو أن يزودوه بالطعام أو الشراب أو الوقود أو غيرها من الحاجيات الضرورية . أننا نعلن على الملأ أنه عدو للجنس البشرى . ونبيح ممتلكاته لمن يضع يده عليها . ورغبة فى الإسراع فى تخليص شعبنا من طغيانه وظلمه ، فإننا نعد ، وعد ملك خادم للرب ، أى فرد من رعايانا ، وأتى من النخوة والشهامة ما يستطيع معه أن يجد الوسيلة لتنفيذ هذا المرسوم ، وتخليصنا من هذا الإنسان البغيض ، سواء بتسليمه لنا حياً أو ميتاً ، أو بإزهاق روحه على الفور ، نعد بأن نمنحه هو أو ورثته من الأرض أو المال ، وفق مشيئته ، ما قيمته خمسة وعشرون ألف كراون ذهباً . ولسوف نصدر العفو عن أية جريمة ارتكبها أياً كان نوعها ، ونرفعه إلى مرتبة النبلاء إذا لم يكن نبيلا[٤٦] .

وكان جواب مجلس المقاطعات على هذا « الجرم » ، تعيين وليم حاكما عاما على هولنده وزيلنده (٢٤ يولية ١٥٨١) وبعد ذلك بيومين وقع ممثلو هولنده وزيلندرز وجلدرلند وأوترخت وفلاندرز وبرابانت ، فى لاهاى « قرار الاستنكار » الذى طرحوا فيه بشكل مهيب ولاءهم لملك أسبانيا . وفى وثيقة مشهورة فى التاريخ الهولندى ، شهرة وثيقة « إعلان الحقوق » التى أصدرها برلمان انجلترا ١٦٨٩ فى التاريخ الانجليزى ، أعلنوا أن الحاكم الذى يعامل رعاياه معاملة العبيد ويقضى على حرياتهم ، يجب ألا يعتبر بعد اليوم مليكهم الشرعى ويحق قانونا

عزله (٤٧) . وكان رد وليم على هذا الحرمان فى صيغة دفاع حرره له قسيسه ، أرسل إلى الجمعية العمومية وإلى كل بلاط فى أوربا ، ورحب بالحرمان على أنه وسام شرف له . واتهم فيليب بسفاح ذوى القربى والزنى وقتل زوجته وابنه . وأبدى استعداده للتخلى عن كل مناصبه ومغادرة الأراضى الوطنية بل حتى للتضحية بحياته ، إذا كان هذا فى مصلحة بلده ، ومهر الوثيقة بشعاره « سوف أتشبث » .

ولم يلبث فيليب طويلا حتى جنى ثمار « الحرمان » الذى أصدره (١٨ مارس ١٥٨٢) . فإن جين جوريجى أغرته الجائزة الموعودة ، فتسلح بمسدس واستعان بالله ، ونذر للعذراء بعض الغنيمة . واتخذ سبيله إلى وليم أورانج فى أنتورب . وأطلق الرصاص على رأسه ، فدخلت الرصاصة تحت الأذن اليمنى ونفذت إلى الفم ، ثم إلى الخد الأيسر . ولقى القاتل على الفور حتفه بيد أتباع وليم ، ولكن بدا أن المهمة قد نفذت . ولعدة أسابيع بدا أن الأمير على شفا الموت . ودعا فارنيزى المقاطعات الثائرة ، وقد مات زعيمها العنيد ، إلى المصالحة مع مليكهم الرحيم . ولكن وليم تماثل للشفاء فى بطء بفضل سهر زوجته شارلوت على العناية به . وهى التى قضت نحبها فى ٥ يونية بسبب الإرهاق والحمى . وفى يولية وضع متآمران مغموران خطة لدس السم لأمير أورانج ودوق أنجو كليهما . واكتشفت المؤامرة واعتقل المجرمان وانتحر أحدهما فى السجن ، وأرسل الثانى إلى باريس وحوكم وأدين ، ومزق أربا بربطه فى أربعة خيول ، تتجاذبه فى كل أتجاه .

وفى أثناء عام ١٥٨٢ جمع انجو حوله بعض قوات فرنسية فى أنتورب . ولم يكن الدوق ليقنع بلقبه ، وداعبه الحلم بأن ينصب نفسه ملكا . وهب أتباعه فجأة فى ١٧ يناير ١٥٨٣ ، وهم يهتفون « فيلحى القداس » وحاولوا أن يسيطروا على المدينة . فقاومهم الأهالى . وهلك فى هذه « الثورة الفرنسية » قرابة ألفى شخص . وأخفقت هذه الثورة وهرب أنجو . وعانى وليم من

فقدان قدر آخر من شعبيته لأنه ظل طويلا يؤيد أنجو ويسانده . ووقعت في مارس محاولة أخرى للقضاء عليه . فلم يطمئن للاقامة في أنتورب ونقل مركز قيادته إلى دلفت . عندئذ عقدت مقاطعتا جرونجن وجلدرلند الصلح مع بارما، ولم يبق مع وليم إلا اثنتين من المقاطعات « المتحدة » : وهما هولنده وزيلنده . ولكنهما اثبتا ولاءهما بأن جعلتا منصب « الحاكم العام » وراثيا في أسرته (ديسمبر ١٥٨٣) ، وبهذا وضعت أسس بيت أورانج الذى كان يمكن أن يغزو وأن يرث نصف انجلترا في ١٦٨٨ .

وأصر القتلة ولم تفتر عزيمتهم . وفي أبريل ١٥٨٤ حاول هانز هانزون من فلشنج أن يودى بحياة الأمير ، ولكنه أخفق وأعدم . واستبد الحماس الديني بيلتازار جيرار من برجندى ، كما اشتد به التفكير في الخمسة والعشرين ألف كراون٭ وقصد إلى دوق بارما يعرض عليه قتل أمير أورانج ، ولكن الدوق قدر أن شابا في العشرين من عمره غير صالح للاضطلاع بهذه المهمة ، وأبى عليه المبلغ المتواضع الذى طلبه سلفا ، ولكنه وعده بالجائزة كاملة إذا حالفه التوفيق . وقصد جيرار إلى دلفت ، وتنكر في زى كلفني مسكين تقى ، وتلقى من وليم اثنى عشر كراون صدقة . وصوب إلى جده ثلاث رصاصات (١٠ يولية ١٥٨٤) فصرخ وليم « يا الهى ، رحمتك بى وبالشعب المسكين » . وفاضت روحه في بضع دقائق . وقبض على جيرار وحوكم أمام قضاة المدينة ، وأبدى فرحه واغتباطه بنجاحه فيما قصد إليه ، ثم لقى أشد العذاب وقتل شر قتلة . ووري وليم التراب فيدلفت ، بأسمى مظاهر التكريم بوصفه « أبا البلاد » . ولما كان قد ضحى بكل ما يملك في سبيل الثورة فإنه لم يخلف لابنائه الاثنى عشر شيئا تقريبا . وهذا شاهد صامت على ما درج عليه من نبل وشرف .

٭ أكد رانك في كتابه « تاريخ البابوات » (١ — ص ٤٧٢) أن أحد الجزويت شجع جيرارد على فعلته . كما أكده موتلى في كتابه «قيام الجمهورية الهولندية» ولكن أنكره باستور في كتابة : «تاريخ البابوات» (الفصل العشرون ص١٩—٢٠).

ودفعت الجائزة كاملة لأبوى جيرار ، وابتهج كاثوليك الأراضى الوطيئة ، قائلين أن الجريمة انتقام إلهى لانتهاك حرمة الكنائس وقتل القساوسة . وأرسلوا رأس القاتل إلى كولون باعتباره من المخلفات الثمينة ، ولمدة نصف قرن بذلوا أقصى الجهد لاعلانه قديسا . (٤٩)

٦ — النصر

١٥٨٤ — ١٦٤٨

وهنت بموت وليم روح من بقى من أتباعه فى الفلاندرز وبرابانت . واستولى بارما على بروجز وغنت وبروكسل ومكلين وأنتورب ، ولم ينته ١٥٨٥ حتى وقعت الأراضى الوطيئة جنوب نهر ماس — فيما عدا أوستند وسليز — فى يد الأسبان ، على أن « المتسولين » ظلوا يسيطرون على الثغور والبحر .

وكم أهابت المقاطعات الشمالية بالملكة اليزابث لنجدتهم . واستجابت الآن للنداء . فقد أدركت أن ثورة الأراضى الوطنية منعت أسبانيا من اعلان الحرب على انجلترا . وما كان فى مقدورها أن توقف هذه الفرصة التى هيأتها العناية الإلهية — منع أسبانيا عن اعلان الحرب — هذا بالإضافة إلى أن الهولنديين سيطروا على سوق الصدف الإنجليزى . وفى ديسمبر ١٥٨٥ أرسلت إلى هولنده قوة كبيرة بقيادة ليسترو سير فيليب سدنى . وأخذ ليستر لنفسه ، باعتباره حاكما عاما للمقاطعات الثائرة ، كل سلطة الملك تقريبا . ومذ رأى أن المقاطعات الجنوبية تستورد كل الحاجيات الضرورية للحياة من المقاطعات الشمالية فإنه حرم كل اتجار مع الممتلكات الأسبانية ، ولكن التجار الهولنديين كانوا يعيشون على هذه التجارة ، وصدروا بضائعهم إلى أسبانيا أثناء حربهم معها . ومن ثم رفضوا الخضوع لما نهى عنه ليستر ، الذى حلت به الهزيمة فى زوتفن (٢٢ سبتمبر ١٥٨٦) فغادر هولنده مشمئزا ، شاعرا بالخزى والعار . وسادت الفوضى فى الشمال لمدة عام كامل . وأنقذت

الجمهورية الصغيرة بفضل اشتراك فيليب لدوق بارما في خطته لغزو انجلترا ، وبفضل هجمات بارما المضللة ضد هنرى نافار فى فرنسا ، وتحكم الهولنديين فى البحار ، وثروة التجار الهولنديين وصمودهم ، وعبقرية جان فان أو لدنبار السياسية ، ثم بفضل ما أوتى موريس ناسو ، ابن وليم الصامت ، من عبقرية عسكرية .

وفور وفاة وليم الصامت اختير ابنه موريس حاكما عاما على هولنده وزيلنده وفى ١٥٨٨ ، وهو فى الحادية والعشرين ، عين قائدا عاما وأميرا للبحر فى المقاطعات المتحدة . وفى ١٥٩٠ أسلمته أوترخت وأفريحسل وجلدرلاند مقاليد الحكم فيها . وأفاد موريس من محاضرات سيمون ستيفن فى الرياضيات فى ليدن . فطبق العلم الحديث على القذائف والهندسة والحصار . ودرب الجيش الهولندى على أساليب جديدة للالتحام والنظام . وفى سلسلة من الحملات التى اشتهرت بسرعة الحركة والاستراتيجية المفاجئة (١٥٩٠ — ١٥٩٤) استرد موريس زوتفن ودفنتر وتيميجن وجروتنجن . أما بارما الذى ضيع مهاراته وأمواله فى هجمات فيليب العقيمة على انجلترا وعلى هنرى الرابع ، فإنه قضى نحبه فى « سبا » بسبب الاعياء والجراح (٢٠ فبراير ١٩٥٢) .

وعين فيليب خلفا له الأرشيدوق ارنست النمسوى الذى لم يلبث أن أدركته المنية ، ثم الكاردينال الأرشيدوق البرت الذى تخلى عن منصبه الدينى ، وتزوج ايزابل كلارا أوجينيا ، ابنة الملك . وقبل وفاة فيليب (١٥٩٨) بفترة وجيزة ، منح البرت وايزابل حق السيادة على الأراضى الوطنية ، شريطة أن يعود هذا الحق إلى أسبانيا إذا ماتا دون عقب . وأثبت الاثنان أنهما حاكمان قديران رحيمان . عجزا عن اخضاع المقاطعات الشمالية ، ولكنهما أقاما فى الجنوب حكما متحضرا ازدهرت فى ظله الفنون الكنسية فى انسجام جميل مع صور روبنز العارية .

وظهر على مسرح الحوادث فى ١٦٠٣ شخصية جديدة . وكان البرت قد استمر يحاصر أوستند عامين كاملين دون أن يصيب أى نجاح ، وجاء أحد

رجال المصارف الايطاليين ، هو امبروزيودى سبينولا ، ووضع كل ثروته فى خدمة أسبانيا ، وجمع جيشا قوامه ثمانيه آلاف رجل ، وجهزه بالسلاح وبالعتاد ، وحاصر أوستند واستولى عليها . ولكن ثراءه العريض لم يعدل ثروة التجار الهولنديين ، الذين ثابروا على بناء وتجهيز الأساطيل التى أقضت مضاجع البحريه الأسبانية ، وهددت بقطع شريان الذهب الذى يتدفق بين أمريكا وأسبانيا . وإذا أرهق الحصار والقتل البرت وايزابل فانهما استحثا المفاوضات مع الهولنديين ، وأقرهما عليها الملك فيليب الثالث الذى أرهقه العسر والاملاق . وبرغم اعتراضات موريس حض أولدنبار نفلدت الهولنديين على المصالحة . وفى ١٦٠٩ عقدت هدنة هيأت للأراضى الوطيئة الراحة من عناء الحرب لمدة اثنى عشر عاما .

بيد أن الوئام فى الداخل شىء يختلف كل الاختلاف عن السلام الخارجى . لقد حنق موريس على أولدنبار نفلدت هيمنته على مقاليد الأمور فى الجمهورية . ومن الوجهة العملية كان لأكبر الموظفين راتبا فى هولنده السلطان والسيطرة على هذه المقاطعة وحدها ، ولكن مذ كانت ثروة هولنده والضرائب التى تدفعها للجمعية العمومية تعدل ما تملكه وما تدعمه سائر المقاطعات المتحدة مجتمعة ، فان أولدنبار نفلدت مارس فى الاتحاد سلطة تتكافأ مع تلك الثروة ، كما تتكافأ مع رجاحة عقله وشخصيته وخلقه . أضف إلى ذلك أن الملاك الذين حكموا المقاطعات والتجار والأغنياء الذين حكموا الكوميونات أحسوا بانعطاف نحو أولدنبار نفلدت الذى نبذ الديموقراطية مثلهم ، وقال « انه لمن الأفضل أن يحكمنى سيد مطلق من أن يحكمنى الرعاع »(٥٠) وولى موريس وجهه شطر الشعب ليحصل على تأييده ، ووجد أنه يمكنه أن يكسب الشعب إلى جانبه إذا جعل من القساوسة الكلفنيين أصدقاء له .

وكانت القضية الدينية التى أهاجت الجمهورية الآن قضية مثلثة الجوانب : فهناك المعارضة المتزايدة بين الكنيسة والدولة ، وهناك الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت ، وهناك أخيرا حرب النظريات بين البروتستانت

أنفسهم . وسعت المجامع الكنسية الكلفنية إلى أن تحدد النهج السياسى ، وتتخذ من الحكومة أداة لتقوية مذهبهم . وارتابت الجمعية العمومية فى المجامع الكلفنية على أنها نماذج سيئة وبذور خطيرة لمؤامرة الديموقراطية . وقد جلب أولدنبار نفلدت على نفسه عداوات كثيرة حين أمر رجال الدين بأن يتركوا الحكومة للسلطات المدنية . وقد يكون غريبا أن نقول أن الغالبية الساحقة من السكان فى ١٦٠٩ كانوا من الكاثوليك حتى فى المقاطعات الشمالية[٥١] . كانت القوانين تحرم العبادة الكاثوليكية ، ولكنها لم تكن تنفذ ، وكان هناك ٢٣٢ قسيسا يتلون الشعائر الكاثوليكية[٥٢] ، وأمر مجلس المقاطعة فى أوترخت القساوسة أن يتزوجوا النساء اللائى يستخدمونهن فى إدارة شئون منازلهم ، ولكن الامتثال لهذا الامر لم يكن تاما ، ولم يلق اقبالا .

وحدث الصراع داخـــل المجموعات البروتستانتية بين الكلفنيين و « المتحررين » ، وهم أقلية . وأطلق هذا الاسم على هؤلاء ، لا لأنهم أباحيون فى حياتهم ، بل لأنهم حبذوا الحرية الدينية حتى للكاثوليك ، كما أيدوا تفسيرا إنسانيا متحررا للاهوت البروتستانتى . هؤلاء هم ورثة تقاليد ارزم (الذين كان ينتسب إليهم وليم أورانج) . وكان المتزمتون معتنقوا الكلفنية القديمة ، الذين تمسكوا بمذهب الجبرية الصارمة ، وأحسوا بأن عقيدتهم يجب أن تكون إجبارية فى كل المقاطعات المتحدة[٥٣] . نقول كان هؤلاء المتزمتون يرمون المتحررين بانهم « بابويون » فى الخفاء . ودافع ديرك كورنهرت الذى كان سكرتيرا لدى وليم أورانج . عن حرية العبادة فى كتاباته التى أرست أسس اللغة الأدبية فى هولندة . وانبرى واعظ من امستردام ، هو جكوبس أرمنيوس . لتفنيد آراء كورنهرت ، ولكنه تحول إليها واعتنقها بينما كان يدرس ليرد عليها . وحينما عين أستاذا للاهوت فى ليدن ، صدم المتزمتين بارتيابه فى الجبرية ، وإثباته أن الإنسان تنقذه أعماله الصالحة بقدر ماينقذه إيمانه ، وهذا يخالف ماقال به لوثر وكلفن . وسلم بأن الوثنى المتمسك

بأهداب الفضيلة قد ينجو من الجحيم . وذهب إلى أن كل الناس فى النهاية سيخلصون ودمغه أستاذ زميل له فى الجامعة ، فرانسيسكس جوماروس ، بأنه مهرطق ماكر .

ومات أرمنيوس ١٦٠٩ ، وكان قد كسب إلى جانبه آنذاك أتباعا من ذوى النفوذ ، من بينهم أولدنبار نفلدت وهوجو جروتيوس أكبر موظفى روتردام وفى ١٦١٠ صاغ هؤلاء « المتحررون » احتجاجا على نظريات الجبرية والاصطفاء والرفض أو الإخراج من زمرة الأبرار ، واقترحوا عقد مجلس وطنى يضم رجال الدين وغيرهم من العلمانيين لإعادة تحديد عقيدة الاصلاح وتعريفها . وصاغ المتزمتون احتجاجا مضادا ، أكدوا فيه من جديد المذهب الكاثوليكى :

« إن الرب ، بعد خطيئة آدم ، حفظ نفرا معينا من البشر من الدمار ، وقدر لهم الخلاص فى المسيح ... وفى هذا الاصطفاء لم يعتبر الرب الإيمان أو الارتداد ، ولكنه يعمل كيف يشاء . وأرسل الرب ابنه يسوع لتخليص هؤلاء المصطفين وحدهم(٥٤) » .

وأصر أتباع جوماروس على أن هذه القضايا لا يعالجها إلا رجال الدين وحدهم ، وبذلك نجحوا فى دمغ المحتجين بأنهم من أنصار البابا أو من أتباع بلاجيوس (الذين ينكرون نظرية الخطيئة الأصلية ويرون أن الإنسان مخير) أو من الموحدين (الذين لا يدينون بالتثليث) ، إلى حد أن أغلبية كبيرة من السكان البروتستانت انحازت إلى جانب المتزمتين ، وكان موريس ناسو يغفل شأن هذه المنازعات اللاهوتية احتقارا لها ، ولكنه تحرك الآن ليصادق مؤقتا جماعة المذهب القديم ، لأنهم يهيئون له ركيزة شعبية لمحاولة استعادة الزعامة الوطنية .

وأعقبت ذلك معركة بالخطب والعظات والنشرات قاربت أن تكون حربا . وعكرت الاضطرابات العنيفة صفو المدنية . وهوجمت بيوت المتحررين

فى لاهاى ، وأخرج الوعاظ الكلفنيون المتشددون من روتردام . وجهزت هولندة جيشا للدفاع عن دياناتها ، وسرعان ماتبعتها مقاطعات أخرى ، وبدأن الحرب الأهلية توشك أن تقضى على الجمهورية فى مهدها ، وفى ٤ أغسطس ١٦١٧ اتخذ أولدنبار نفلدت فى مجلس هولنده قراراً خطيرا — رآه موريس خطيرا حقا — يعلن فيه سيادة الدولة على الأمور الدينية ، ويوجه مدن المقاطعة إلى تسليح نفسها حماية لها من عنف أنصار الكلفنية ، وقصد إلى أوترخت حيث أقنع مجلسها بإعداد القوات لتأييد هولنده . وفى ٢٥ يولية ١٦١٨؛ دخل موريس ناسو بوصفه القائد الشرعى للجيش ، أوترخت على رأس قوة مسلحة . وأرغم الفرق المجندة حديثاً على أن يتفرقوا . وفى ٢٩ أغسطس أصدرت الجمعية العمومية للمقاطعات المتحدة أمرا بالقبض على أولدنبار نفلدت وجروتيوس وغيرهما من زعماء المحتجين . وفى ١٣ نوفمبر اجتمع مجمع كنيسة الإصلاح فى دور درخت (دورت) ، واستمع لآراء اللاهوتيين المحتجين وحكم بأنهم مهرطقون ، وأمر بطرد قساوسة المحتجين من وظائف الكنيسة والتعليم . وصبت اللعنة على أنصار أرمنيوس — مثلهم فى ذلك مثل الكاثوليك — وحرم عليهم عقد الاجتماعات أو إقامة الصلوات العامة . وفر كثيرون منهم إلى انجلترا حيث أحسنت الكنيسة الرسمية استقبالهم ودعوا هم مركز الأنجليكانيين المتحررين .

وحوكم أولدنبار نفلدت أمام محكمة خاصة لم تهيء له أى سند قانونى . واتهم بأنه بطريقة مدموغة بالخيانة أشاع الفرقة فى الاتحاد وعرضه للخطر ، وبأنه سعى إلى تكوين دولة داخل الدولة . وفى خارج المحكمة انهال سيل من النشرات تذيع على الملأ أخطاء حياته الخاصة . ودافع هو عن نفسه دفاعا قويا بليغا إلى حد أن أبناءه أقاموا أمام سجنه عمود مايو المزدان بالأشرطة والزهور واحتفلوا بالإفراج المرتقب عنه ، وكلهم ثقة فى ذلك . وفى ١٢مايو ١٦١٩ أقرت المحكمة إدانته ونفذ فيه حكم الإعدام فى اليوم التالى . وحكم على

جروتيوس بالسجن مدى الحياة ، ولكنه بفضل براعة زوجته هرب من السجن وعاش ليؤلف كتاباً يستحق الذكر .

وعلى الرغم من هذا الانتصار الذى أحرزه التعصب ، نمت الحرية فى المقاطعات . وبلغ الكاثوليك من الكثرة حداً يتعذر معه وقف نموهم . ولم يكن من المستطاع تنفيذ القرارات النظرية التى صدرت عن مجلس دورت . وفى عام ١٦١٩ نفسه أسس المنونايتين (يعارضون حلف اليمين وعماد الأطفال والخدمة العسكرية وقبول الوظائف العامة) ، فى حرية تامة ، طائفة الطلبة الجامعيين ، وهى تشبه الكويكرز ، فى ريخنسبرج وقد وجد عندهم سبينوزا ملجأ آمنا . وفى ١٦٢٩ امتدح ديكارت حرية الفكر التى نعم بها فى امستردام ، وفى نهاية القرن السابع عشر أصبحت هولنده ملاذ المهرطقين الذين لجأوا إليها من بلاد كثيرة .

وفى ٩ أغسطس ١٦٢١ استؤنفت الحرب مع أسبانيا . ذلك أن الأرشيدوق ألبرت مات دون أن يخلف عقبا . فعادت المقاطعات الجنوبية إلى أسبانيا . وأغار سبينولا على المدن الهولندية الواقعة على الحدود . فسار إليه موريس ناسو ، ولكن سنوات النضال كانت قد أنهكت قواه ، فمات فجأة (١٦٢٥) وهو فى سن السابعة والخمسين . واستولى سبينولا على بريدا ، وبذلك فتح الطريق إلى امستردام ، وهيأ للمصور فيلاسكويز موضوع لوحة .

ونهض الهولنديون من كبوتهم واستردوا قوتهم فى إصرار وعناد . وأدهش فردريك هنرى الذى خلف أخاه فى منصب الحاكم العام ، الأعداء والأصدقاء على السواء ، بما كان يخفى حتى الآن من مواهب رجل دولة وقائد وبفضل دبلوماسية فرانسيس آرسنز استطاع أن يحصل من ريشيليو على منحة سنوية قدرها مليون ليرة ، وجمع جيشا جديدا ، وبعد حصار طويل استولى على هرتوجنبوخ وماسترخت وبريدا . ولحسن الحظ كان سبينولا قد استدعى إلى لومبارديا .

وفى نفس الوقت استخدام التجار الهولنديون أموالهم فى بناء السفن ، لأن كل انتصار فى البحر كان يعنى توسيع مجال التجارة . وفى عام ١٦٢٨ أسر أسطول هولندى صغير تحت أمرة بييت هين أسطولا أسبانيا كان يحمل الذهب من المكسيك وهاجم أسطول هولندى آخر قوة أسبانية مكونة من ١٣ سفينة فى نهر سلاك ، فدمرها وأسر ٥٠٠٠ رجل (١٦٣١) . ولكن أروع هذه الانتصارات البحرية هى المعركة التى خاضها قائمقام أمير البحر مارتن هاربوتزون ترومب فى القنال الإنجليزى (بين دوفر وديل) وكان الأسبان قد عقدوا العزم على استعادة السيطرة على ثغور الأراضى الوطيئة من الهولنديين . فأعدوا أسطولا ضخما جديداً من ٧٧ سفينة عليها ٢٤ ألف رجل فلما أبصر به ترومب فى القنال ، أرسل فى طلب المدد ، وفى ٢١ أكتوبر ١٦٣٩ أبحر ومعه ٧٥ سفينة حتى صار على مقربة من مواقع العدو ، فأغرق أو أعطب أو أسر كل الأسطول الأسبانى فيما عدا سبع سفن . وقتل ١٥ ألفا من الملاحين الأسبان فى المعركة أو أغرقوا . وتحتل معركة القنال الإنجليزى فى تاريخ هولنده نفس المكانة التى تحتلها هزيمة الأرمادا (١٥٨٨) فى تاريخ انجلترا . فقد وضعت حداً لكل دعاوى أسبانيا فى السيادة على البحار ، وقطعت شريان الحياة بين أسبانيا ومستعمراتها ، وأسهمت مع انتصار فرنسا على أسبانيا فى معركة روكروا (١٦٤٣) واختتمت الحقبة التى هيمنت فيها أسبانيا على أوربا .

مذ انهمكت أسبانيا انهماكا تاماً فى حرب الثلاثين عاما فإنها قررت أن تنزل للهولنديين عن كل شىء ، حتى تتفرغ للحرب مع فرنسا . وفى مونستر فى ٣٠ يناير ١٦٤٨ وقع المندوبون الأسبان معاهدة وستفاليا التى أنهت ثمانين عاماً من الحرب فى الأراضى الوطيئة . وأعلن أن المقاطعات المتحدة غير متقيدة بأى رباط مع أسبانيا . وتم الاعتراف بفتوحاتها . ولا تصل تجارة الراين إلى بحر الشمال إلا عن طريق الثغور الهولندية وحدها . وخول التجار الهولنديون حرية التجارة فى جزر الهند الشرقية والغربية . وهكذا انتهى أطول وأشجع وأقسى صراع من أجل الحرية فى التاريخ بأسره .

الفصل الثامن عشر

من روبنز إلى رمبرانت

١٥٥٥ — ١٦٦٠

١ — الفلمنكيون :

أنه لما يثير الدهشة أنه فى قطعةصغيرة من أوربا ، مثل الأرراضى الوطيئة نشأت ثقافتان متضادتان مثل الفلمنكية والهولندية ، وعقيدتان متنافرتان مثل الكاثوليكية والكلفنية ، وفنانان مختلفان كل الإختلاف فى المزاج والأسلوب مثل روبنز ورمبرانت ، وفانديك وهالس .

ولانستطيع أن نفسر التباين باختلاف اللغة لأن نصف الفلاندز* ، مثل كل المقاطعات المتحدة ، تحدثوا اللغة الهولندية . وربما نبع بعض التباين من اقتراب هولنده من ألمانيا البروتستانتية واقتراب الفلاندرز من فرنسا الكاثوليكية . وربما ينجم جزء من الإختلاف من إرتباط أسبانيا الكاثوليكية الملكية الارستقراطية إرتباطا وثيقا ببروكسل وأنتورب . وورث أقليم الفلاندرز ديانةالعصور الوسطى وفنها وأساليبها ، على حين كانت هولندة أفقر ، حتى هذا الوقت ، من أن تكون لها ثقافة خاصة بها . ويمكن أن تكون الشمس المشرقة فى المقاطعات الجنوبية قد نزعت بأهلها إلى حياة شهوانية غير متمسكة بقواعد الأخلاق ، على حين أن الغيوم والمصاعب فى الشمال شجعت أهله على أعتناق عقيدة صارمةرواقية رزينة . أو على الأرجح ،

(*) تستخدم هنا ، تيسيرا ، لفظتا الفلاندرز والفلمنكين **Flandrs , Flemish** للدلالة على الأراضى الوطيئة الأسبانية ، ولفظتا هولندة والهولنديين **Hoeenp Outeh** للدلالة على المقاطعات الشماليه أو المتحدة .

أن الجيوش الأسبانية انتصرت فى الجنوب ، وأندحرت فى الشمال نتيجة الأنهار المعترضة والثروة الهولندية ؟

لابد أن أنتورب كانت جميلة عندما اكتمل صرح كاتدرائيتها بأبراجها وواجهاتها وفنها الزخرفى ، على حين على مقربة منها ضجت البورصة بكل حيوية التجارة وحيلها ، ورقصت المياه بكل سفن العالم . ولكن الحرب أندلعت بعد ذلك ، فإن ضراوة دوق ألفا ومحاكم التفتيش أخرجت الصناع المهرة والتجار البروتستانت إلى هولندة وألمانيا وإنجلترا ، وصرامة الكالفنية أتلفت الكنائس، وعنف الأسبان نهب البيوت وأحرق القصور، كاأن ضراورة فرنسا أفرغت عجزها فى الدماء ، والحصار الذى ضربه فانز لمدة أربعة عشر شهرا أمات الكاثوليك والبروتستانت جوعا على حد سواء . وأخيرا انضم الكاثوليك إلى البروتستانت فى الخروج من المدينة ، وانتقلت تجارة أنتورب إلى إمستردام وروتردام وهارلم وهمبرج ولندن وروان .

ولكن وحشية الإنسان متقطعة ، وسهولة التكيف عنـــده باقية . وقد يكون لنا بعض السلوى فى أن نتتبع كيف أن بعض الأمم والمدن استطاعت بسرعة أن تنهض من دمار الحرب وويلاتها . وتلك كانت حال الفلاندرز بعد ١٥٧٩ . بقيت صناعة النسيج ، وظل الطلب كبيرا على المنخرمات الفلمنكية ، وظلت الأمطار تحيى الأرض وأضفى كدح الناس البهاء والفخامة على الحاشية . واستمتعت أنتورب وبروكسل ، تحت حكم الأدواق الذين أحبوا حياة الترف ولكن مع روح إنسانية ، ببعث ونشور جديرين بالذكر . وعادت الفلاندرز إلى كاتدرائياتها وأعيادها الدينية ومهرجاناتها الوثنية . وربما بالغ روبنز فى هذا فى « مهرجان اللوفر العاصف » ولكن استمع أيها القارىء إلى تقرير الكاردينال أنفانت فرديناند ، من أنتورب إلى فيليب الرابع ١٦٣٩ : « أقاموا بالأمس إحتفالهم الكبير ... أنتقل موكب طويل إلى الريف مع عربات كثيرة تحف بها مظاهر النصر . وبعد العرض هرع الناس إلى الطعام والشراب ، حتى ثمل الجميع آخر الأمر ، وبدون هذا لايعتبرون أنه احتفال

أو عيد(١) ، بل أن الكاردينال نفسه عندما قدم من أسبانيا إلى بروكسل (١٦٣٥) استقبلوه بالمهرجانات التى دامت لمدة أيام ، وسط زخارف فخمة صممها روبنز نفسه . ووصف زائر إيطالى مدن الفلاندرز قبل الثورة بأنها « سلسلة لا تنقطع من الاجتماعات البهيجة والأعراس وحلبات الرقص ، مع أنغام الموسيقى والأغانى المرحة فى الشوارع(٢) » ، ولم تستسلم كل هذه الروح للحرب . فإن الألعاب التى صورها بروجل كانت لا تزال تقام فى الشوارع ، واستمعت الكنائس مرة أخرى للقداسات المتعددة النغمات والأصوات التى كانت قد جعلت المنشدين الفلمنكيين ، يوما ، مرغوبا فيهم فى كل بلاد . ودخلت الفلاندرز أبهى عصورها .

٢ — الفن الفلمنكى :

تضافرت الحاشية والكنيسة ، والنبلاء وأبناء الشعب فى البذل من أجل إحياء الفن الفلمنكى ، ورعى البرت وايزابل وشجعا كثيرا من الفنانين ، إلى جانب روبنز . وكانت أنتورب لفترة من الزمن مركز الفن فى أوربا ، واستعاد قماش بروكسل المزركش (النسيج المطرز بالكانفاه) امتيازه وتفوقه ، مستعينا برسوم روبنز البطولية . وكان صانعو الزجاج البنادقة قد جلبوا فنهم إلى الأراضى الوطنية فى ١٥٤١ ، وأنتج الصناع المهرة المحليون منه الآن قطعا هشة آية فى الإعجاز ، كان بعضها محل إعزاز وإعجاب إلى حد أنها غالبت قرونا من الفتنة والشغب فغلبتها ، وأبدع صناع المعادن أعاجيب من نسج أفكارهم وأيديهم ، مثل الآنية المعدنية الفاخرة التى تحفظ فيها الذخائر الدينية ، التى يمكن أن توجد فى الكنائس الكاثوليكية فى بلجيكا ، وألحت الارستقراطية التجارية فى طلب القطع الفنية : وجلسوا أمام المصورون ، وشيدوا قصورا فخمة ، ودورا للبلدية ، لمثل تلك التى شادها كرنيلى دى فرندت تمجيدا لأنتورب (١٥٦١ - ١٥٦٥) قبل العاصفة . ولما جرد المتعصب الذميم الكنائس من

آيات الفن ، بات هؤلاء التجار الأرستقراطيون يشدون من أزر المراسم ويرعونها فى لهفة وحماس ، يلحون فى طلب التماثيل واللوحات ليصوروا العقيدة للشعب .

ولم يزدهر فن النحت هنا ، لأن فرنسوا دوكيسنوى ، ابن بروكسل ، أنجز معظم أعماله فى رومه حيث نحت تمثالا ضخما لسانت أندروز بداخل كنيسة القديس بطرس، وإن نفراً قليلا من السائحين الذين يحرصون على رؤية «أقدم مواطنى بروكسل » ، نافورة مانكن بس Manneken Pis (١٦١٩) ـ تمثال برونزى لصبى يزيد فى مياه المدينة من موارده الخاصة ـ يعلمون أن هذا هو أبقى روائع دوكيسنوى على الزمن .

أما المصورون الفلمنكيون فإنهم يجلون عن الحصر ، وواضح أن كل بيت فى الأراضى الوطيئة كان عليه أن يقتنى لوحة أصلية ، وأكب ألف فنان فى مائة مرسم على تصوير الأشخاص والمناظر الطبيعية والحيوانات والمؤن والأساطير والعائلات المقدسة وصلب المسيح ، أما إسهامهم المتميز فى تاريخ الفن فهو صور جماعية للهيئات البلدية ، وصور تمثل الحياة المنزلية أو القروية وتأثر هؤلاء الفنانون فى أول الأمر بالطرز الإيطالية ، فقد أبحرت السفن الإيطالية كل يوم إلى أنتورب ، وافتتح التجار الإيطاليون متاجر لهم فيها . وجاء الفنانون الإيطاليون ليهزأوا ويسخروا فأقاموا ليرسموا ، وقصد كثير من الرسامين الفلمنكيين إلى إيطاليا للدراسة ، واستقر المقام ببعضهم هناك ، ومن هؤلاء جوستوس سوسترمانز أحد أبناء أنتورب ، الذى أصبح مصورا للأشخاص، مقر باوذا حظوة لدى أدواق تسكانيا العظام، وأن بعضا من أجمل اللوحات فى قصر بتى هى بريشة هذا الفلمنكى المفعم بالحيوية ، وعاد فرانس فلوريس من دراسته مع ميكلانجلو فى رومه ، وأطلق على نفسه بصراحة أنه « رومانى » ، واستساغ التشريح وأخضع اللون للخط ، وظل مرسمه فى أنتورب لمدة جيل (١٥٤٧ ـ ١٥٧٠) كعبة للتصوير الفلمنكى وذروته ، وقد يكون

جديرا أن نزور كاين انرى فى متحفها لوحته الرائعة الضخمة « زوجة صياد الباز » وعاش فرانس فى بحبوحة من العيش . وشاد لنفسه قصرا ، وأسرف فى العطاء وفى الشراب ، وبات فقيرا ، وكان كورنلس دى فوز أقدر أفراد أسرة كبيرة من المصورين ، وعندما كان يتزاحم ذوى المكانة أمام روبنز ليصورهم كان يرسل بعضهم إلى فوز ، مؤكدا لهم أنهم سيظفرون منه بمثل ما يرجون من روبنز نفسه ، ولا يزال فى مقدورنا أن نشاهد لوحة تمثل كورنلس وزوجته وابنتين جميلتين لهما ، معلقة فى متحف بروكسل .

وذبلت الفتنة الإيطالية حوالى نهاية القرن السادس عشر ، واستأنف الفنانون الفلمنكيون موضوعاتهم وأساليبهم المحلية . وعاد دافيد تنيير الأكبر إلى أنتورب . برغم أنه درس فى رومه ليرسم «المطبخ الهولندى» و«مهرجان القرية[٣]» ، ثم علم ابنه حتى تفوق عليه ، وشكل سليل العجوز درول بيزانته بيتر بروجل أسرة من المصورين توفرت على تصوير المناظر الطبيعية المحلية والمشاهد الريفية ، ومنها ولداه بيتر بروجل «الجحيم» ، وجان بروجل «المخمل» ، وحفيداه جان الثانى وأمبروز ، وحفيد حفيده أبراهام ، وحفيده الأكبر جان بابتست بروجل ، وقد امتد بالأسرة العمر قرابة قرنين من الزمان (١٥٢٥ — ١٧١٩) ، ولنوضح سجل أعمالهم هنا نقول بأنهم ورثوا عن سلفهم العظيم النزعة إلى المشاهد الريفية والمهرجانات القروية ، ورسم بعضهم خلفيات مناظر طبيعية لروبنز المثقل بالعمل .

وأخرج فنانو الأراضى الوطيئة الفن من الكنيسة والدير إلى البيوت والحقول والغابات ورسم دانيل سيجرز الأزهار والفاكهة فى تفصيل محبب إلى النفس ، وخص العذراء بأكاليله المصورة ، وانضم إلى الجزويت . وبعث فرانس سنيدرز الحياة والتعبير فى جوانب العديد من المتاحف بمناظر الصيد المثيرة ، والمفزعة أحيانا ، وبالكثير من أطباق لحم الطرائد والفاكهة ،

ولا يزال ، كما وصفه روبنز ، أعظم مصورى الحيوان ، لم ينافسه أحد فى روعة تظليل فراء الحيوان أو ريش الطير .

وعاد أدريان بروور Brouwr إلى فلاحى بروجل ، فأبدعت فرشاته تصويرهم وهم يأكلون ، ويشربون ، ويغنون ، ويرقصون ، ويلعبون الورق ، والنرد ، ويقاتلون أو يعربدون فى احتفال صاخب ، أو يغطون فى النوم . ومر أدريان نفسه بأطوار كثيرة فى حياته التى لم تتعد اثنين وثلاثين عاما ، فإنه درس مع هالس لفترة وجيزة ، وفى سن الواحدة والعشرين أصبح أستاذا مسجلا فى نقابة الرسامين فى أنتورب ، وكان ينفق أكثر مما يحتمل دخله ، وسرعان ما غرق فى الديون ، وأودعه الاسبان السجن لأسباب غير معروفة الآن ، ولكنه كان يحيا فيه مترفه ، ثم استرد حريته وسدد ديونه بفضل صور صغيرة . زاخرة بالحياة ممتازة فنيا من ناحية الرسم الحسى وحركة الضوء الرقيقة ، إلى حد أن روبنز ابتاع منها سبعة عشرة رسما ، ورمبرانت ثمانية ، ولا يبدو فلاحوه سعداء قط إلا إذا ثملوا بالنبيذ القوى أو الخمور الرخيصة ، على أن بروور آثر فلاحا يغنى مع كأسه على أمير منافق يرفل فى الحرير ، وفى سن الثانية والثلاثين عثر عليه وقد فارق الحياة خارج باب إحدى الحانات .

وكان جاكوب جوردانز أكثر وقارا واتزانا ، نقش فى إحدى لوحاته « تحذيرا للظمأ » : « إن أشبه شىء بالمجنون هو المخمور » . واختار أن يرسم رجالا يستطعون احتساء الخمر دون هذيان أو خبل ، ونساء يرفلن فى حفيف الحرير فى إجلال وعظمة . ولد جاكوب فى ١٥٩٣ وعمر حتى الخامسة والثمانين مع كمال الوعى والإدراك . ورسم لنا شخصه فى لوحة « الفنان وأسرته »(٢) ، رجل منتصب القامة . واثقاً بنفسه ، رشيقاً ، ثرياً ، يمسك بمزهر ، وزوجته مطمئنة فى الطوق المكشكش الخانق حول رقبتها ، وابنة لطيفة بدأت لتوها ريعان شبابها كما تبدأ تتفتح أزهار الفلاندرز ، وبنتاً صغيرة سعيدة بالبيت الهادىء والمذهب المريح انظر إلى الصليب المتدلى على صدرها . وتحول جوردانز إلى البروتستانتية ، ولكن فى سن الثانية والستين . ورسم عدة لوحات دينية ،

ولكنه آثر مشاهد الحياة اليومية والأساطير ، وفيها يستطيع أن يبرز الرؤوس الضخمة والصور المتألقة التي كان قد رآها في أروقة البيوت في أنتورب ، مثل لوحة « الملك يحتسي الخمر[٥] » أو أفضل منها لوحة « قصة الخصب[٦] » ، وهنا ، وسط الفاكهة (التي رسمها سنيدرز صديق جاكوب) والفراشات تروعنا فتاة عارية فاتنة ، تشاهد من مسقط خلفي فقط ، ولكنها في كل نضارة الشباب ورشاقته ، ترى أين عثر جوردانز على نموذج لهيفاء مثل هذه في الفلاندرز على عهد روبنز ؟

٣ — روبنز

١٥٧٧ — ١٦٤٠

ولد أعظم المصورين الفلمنكيين في ١٥٧٧ ، من سلسلة طويلة من رجال أعمال موفقين ، وثابع هو السلسلة . ودرس أبوه ، جان روبنز ، القانون في بادوا ، وتزوج من ماريا بيبلنكس . وانتخب عضوا في المجلس التشريعي في أنتورب وهو في سن الحادية والثلاثين واتهم بالبروتستانتية فاستبعد بالذات من العفو العام الذي صدر ١٥٧٤ ، وهرب مع زوجته وأطفاله الأربعة إلى كولين ، وهناك اختارته مستشارا قانونيا ، آن السكسونية (زوجة وليم أورانج التي افترقت عنه) ، وارتكب معها الفحشاء ، فأودعه الأمير السجن في ولنبرج ولكن ماريا غفرت لزوجها زلته وبعثت إليه برسائل رقيقة مؤثرة (*) ،

(*) مثال ذلك : زوجي العزيز الحبيب ، إن خطايا منك . . . أثلج صدري ، لأني علمت منه أنك واض عن صفحي عنك ، ولم يبدو بخلدي قط أنك اعتقدت أن هناك أية عقبة تحول دون ذلك من جانبي ، والحق أني لم أعتد إلى شيء من هذا . وكيف يطاوعني قلبي أن أغضب عليك في هـــذه المحنة ، في الوقت الذي أضحي فيه بحياتي لأنقذك ؟ . . . وكيف تنجح أية كراهية مريرة ، بمثل هذه السرعة في القضاء على حبنا العميق ، حتى تجعل من المستحيل أن أغفر لك هذه الخطيئة اليسيرة التي ارتكبتها ضدي ، على حين أنه يجدر بي أن أدعو الله أن يغفر لي الخطايا الجسام الكثيرة التي اقترفتها ضده في كل حين[٧] .

وقدمت الالتماسات وكافحت من أجل الإفراج عنه. حتى تم لها ذلك بعد عامين من المحاولة، شريطة أن يبقى جان تحت المراقبة فى سجن فى وستاليا ولحقت به هناك فى ١٥٧٣، ومن المحتمل أن بيتربول رأى النور هناك، وعمد الطفل وفق الطقوس اللوثرية، ولكن. وهو لا يزال فى المهد، تحولت الأسرة إلى الكثلكة. وفى ١٥٧٨ انتقل جان مع أسرته إلى كولون حيث اشتغل بالقانون وأثرى وازدهر، وعند موته (١٥٨٧) قصدت ماريا مع أطفالها إلى أنتورب للإقامة فيها.

وتلقى روبنز تعليمه الرسمى حتى سن الخامسة عشر فحسب، ولكنه زاد عليه بالدأب على القراءة وبالخبرة والتجربه. وظل لمدة عامين وصيفا فى خدمة كونتس لا لنج فى أودينار، والمفروض أنه تعلم هناك الفرنسية والسلوك الرفيع الذى تميز به عن معظم فنانى عصره. ولما لحظت أمه ميله إلى الرسم، ألحقته للتدريب على يد طوبيا فرهاخت، ثم آدم فان نورت، وأخيراً أوتوفاينوس، وكان رجلا واسع الثقافة لطيف الحديث، وبعد قضاء ثمان سنوات فى كنف هذا المعلم الممتاز، قصد روبنز، وهو الآن فى سن الثالثة والعشرين، إلى إيطاليا ليدرس الروائع التى هزت شهرتها النفوس المتعلقة بالتصوير. وفى فينيسيا عرض أعماله الخاصة على رجل فى حاشية فنسنزو جونزاجا دوق مانتوا. وسرعان ما التحق روبنز بقصر الدوق فى مانتوا، رساما للبلاط وهناك أبدع لوحتين قاربتا الكمال الفنى: «جوستوس لبسيوس وتلاميذه»[٨] وكان بين التلاميذ فيها بطرس وأخوه فيليب، ثم لوحة تمثله هو نفسه[٩]، أى روبنز، وهو نصف أصلع فى الخامسة والعشرين. ولكنه ملتح جرىء يقظ. وقام برحلات قصيرة إلى روب ليفسخ للدوق بعض الصور، وإلى فلورنسه حيث شهد (ورسم فيما بعد بشكل مثالى) زواج ماريا مديتشى من هنرى الرابع الغائب. وفى ١٦٠٣ أوفده الدوق فى مهمة دبلوماسية إلى أسبانيا يحمل هدايا إلى دوق ليرما، وتقبل الوزير الرسوم التى كان روبنز قد قام بنسخها على أنها لوحات أصلية، وعاد الفنان إلى مانتوا دبلوماسيا ناجحا.

وفى رحلة ثانية إلى رومه استقر به المقام فيها مع أخيه الذى كان أمين مكتبة كاردينال ، وأبدع بيتر آنذاك عدة لوحات للقديسين ، منها لوحة « القديس جريجورى يصلى للعذراء[١٠] » . وقد اعتبرها أولى روائعه . وفى ١٦٠٨ سمع بمرض أمه ، فاستحث السير شمالا إلى أنتورب ، وتأثر أشد التأثر حين وجد أنها قد فارقت الحياة . وكان حبها الموسوم بالحكمة والصبر قد ساعد على خلق مزاجه المرح الذى سعدت به حياته . وفى نفس الوقت كان قد تعلم الكثير فى إيطاليا . فإن لون البنادقة المغرى البديع ، والشهوانية الحسية فى لوحات جيوليو رومانو الجصية فى مانتوا . والجمال الأخاذ الهادىء فى رسوم النساء التى أبدعتها يد كوريجيو فى بارما ، والفن الوثنى فى رومه الوثنية المسيحية معا وارتضاء المسيحية للاستمتاع بالخمر والنساء والغناء — كل أولئك امتزج بدمه وفنه . حتى أنه عندما عينه الأرشيدوق ألبرت مصور البلاط ، فى أنتورب ١٦٠٩ ، اختفت كل بقايا الفن القوطى فى التصوير الفلمنكى ، واكتمل انصهار الفن الفلمنكى والفن الإيطالى معا .

وكان ضربا من الحكمة على غير قصد منه أنه كان متغيباً عن الأراضى الوطيئة طوال ثمانية أعوام الحرب ، وأنه تلقى قرار تعيينه فى أول أعوام الهدنة ، ففى السنوات الإثنتى عشرة التالية على وجه التحديد استعادت أنتورب وبروكسل حياتهما الثقافية . ولم يكن روبنز بالعنصر اليسير فى هذا البعث . ويحصى مؤرخ سيرته ١٢٠٤ من اللوحات الزيتية و ٣٨٠ من الرسوم له[١١] ، ولا يستبعد أن كثيراً غير هذه وتلك لم يسجله التاريخ . وليس لهذا الخصب مثيل فى تاريخ الفن . ويكاد الأمريكون كذلك بالنسبة لتنوع الموضوعات وسرعة التنفيذ . وكتب روبنز يقول : « إن موهبتى من طراز معين ، ولم تروعنى معه أية مهمة مهما عظم حجمها أو تشعبت موضوعاتها[١٢] » . — لقد أنجز فى خمسة وعشرين يوماً اللوحات الثلاث التى تمثل « النزول عن الصليب » لكاتدرائية أنتورب ، وفى ثلاثة عشر يوماً لوحة « عبادة الملوك » الضخمة الموجودة الآن فى متحف اللوفر . وبالإضافة إلى راتبه السنوى فى البلاط

وقدره ٥٠٠ فلورين كان يتقاضى أجراً عن كل إنتاج فردى . لأنه قبض مبلغا ضخماً ، ٣٨٠٠ فلورين (٤٧٫٥٠٠ دولا ؟) عن التحفتين السابق ذكرهما ، أي بمعدل أجر يومى قدره ١٠٠ فلورين (١٢٥٠ دولارا ؟) . وذهب جزء من هذا المبلغ بطبيعة الحال إلى المساعدين العديدين الذين كان كثيرمنهم مسجلا فى نقابة الفنيين بوصفهم أساتذة . ورسم جان بروجل « المخمل » الأزهار فى لوحات روبنز ورسم جان ولدنز المناظر الطبيعية والحواشى الثانوية ، ورسم بول دى فوز المعادن والفاكهة ، أما فرانس سنيدرز فقد صور بطريقة نابضة بالحياة الرأس المستدق بشكل دقيق للكلب فى لوحة « ديانا عائدة من الصيد[١٤] » ولسنا ندرى نصيب سنيدرز ونصيب روبنز فى مناظر الصيد الهائلة فى قاعات درسدن وميونيخ ومتحف المتروبوليتان فى نيويورك . وفى بعض الحالات رسم روبنز الأشخاص ، وترك لمساعديه الدهان . وكان روبنز يقدم لزبائنه بياناً صادقاً عن درجة إسهامه بنفسه فى اللوحات التى باعهم إياها[١٥] . وبهذه الطريقة وحدها استطاع أن يواجه الطلبات التى انهالت عليه . وأصبح مرسمه مصنعاً يعكس أساليب العمل فى اقتصاد الأراضى الوطيئة ، وأدى الخصب فى الإنتاج والسرعة فى الإنجاز إلى الحط من نوعيته ، ولكنه قارب الكمال إلى حد يصبح معه إله الفن الفلمنكى .

وأحس روبنز بالطمأنينة فتزوج فى ١٦٠٩ . وكانت إيزابلا برانت ابنة محام وعضو المجلس التشريعى فى أنتورب ، ومن ثم كانت شريكة صالحة لابن محام وعضو فى المجلس التشريعى فى المدينة نفسها . وأقام روبنز فى بيت أبيها حتى يتم إعداد داره الفخمة المطلة على قناة وابنز . وفى واحـــدة من أجمل لوحاته[١٦] نرى بيتر وايزبللا تغمرهما سعادة الأيام الأولى من الزواج ، أما هى فتراها مكسوة بأردية فضفاضة مشدودة الخصر بصدار مزدان برسوم الأزهار ، وقد وضعت يدها على يده فى ثقة واستئثار ، وبرز وجهها المفعم بالحيوية من طوق رقبة مكشكش أزرق هائل ، وتوج رأسها بقبعة فارس ، أما هو فتراه مكتمل الرجولة والنجاح ، ذا ساقين قويتين ولحية بيضاء وملامح

وسيمة ، يرتدي قبعة مزدانة بالأشرطة . ولم تعمر إيزابلا بعد الزواج أكثر سبعة عشر عاماً ، ولكنها أنجبت له أبناء سهر على تربيتهم ورسمهم في حب وإعزاز ، فهناك لوحة الولد المجعد الشعر في متحف قيصر فردريك ، برلين ، وهو ممتلىء الجسم جميل سعيد ، يلعب بيمامة ، ويمكن أن نراه مرة أخرى في لوحة « أبناء الفنان »(١٧) ، وقد كسته السنوات السبع التي سلخها من عمره بالرصانة ، وما يتسنى إلا لرجل فاضل بارع أن يرسم مثل هذه اللوحات .

وكان روبنز في نفس الوقت وثنياً أساساً ، ولو عاد دون تورع أو خجل بجسم الإنسان ذكراً أو أنثى ، في كل نشوة الفتوة عند الرياضي القوي ، أو في هدوء المتقوس المنحني ، وكان معروفاً عن الفلاندرز أو رمزاً عليها أنها استمتعت بأساطير الوثنية الدنسة — طقوس وعادات الجسم الطليق — على حين رحبت الكنائس بتأويله للموضوعات الدينية أو تفسيره لها . ولم يستطع أن يفرق بين مريم العذراء وفينوس : ولعله لم يحس بأي تعارض بينهما ، فكلتاهما جلبت له المال . وفي لوحة « عبادة فينوس »(١٨) كان العنصر الوثني غير مقيد — مجموعة من كاهنات إله الخمر باخوس ، يخفين في تواضع وخفر معصماً أو ركبة ، يعانقهن إلهة معر بدون شهوانيون ، على حين يرقص إثني عشر غلاماً حول تمثال إلهة الحب . ولو أن هذه الموضوعات الوثنية تعكس أثر مقامه في إيطاليا ، إلا أن صور فينوس يعوزها الخط الكلاسيكي ، فهي لا تستيطيع الحياة في الشمال ، على الشمس والهواء والخمر كما كان حالها في الجنوب ، بل أنها يجب أن تأكل وتشرب لتتقي المطر والضباب والبرد . والطبيعة البشرية التيوتونية ، مثل الويسكي البريطاني — انجليزي أو اسكتلندي — دفاع مناخي وكان عنوان إحدى لوحات روبنز - وفيها ثلاث نساء عاريات متورمات - « فينوس بلا خبز ولا نبيذ تشعر بالبرد والضعف »(١٩) : وتلطف الفنان فلم يقل « بلا لحم ولا جعة » ، وكذلك لم ير مجافاة للياقة في لوحته « راع يغازل »(٢٠) وهي تمثل راعياً يحاول أن يغوي فتاة بدينة تزن ثلثمائة رطل ، فليس ثمة حسن أو رديء ، جميل أو قبيح ، ولكن البيئة هي التي تحدد هذا أو ذلك : وليس

فى لوحة « اغتصاب السابين »[٢١] الآكل ما يستطيع أن يفعله جباران قويان رومانيان ايرفعا على ظهر جواد امرأة تسحر اللب من أمرارهم . وحتى فى لوحة « عواقب الحرب »[٢٢] ليس ثمة ضعف . و « ديانا عائدة من الصيد[٢٣] » لم تكن إلهة أغريقية أنيقة طاهرة ، بل ربة بيت فلمنكية عريضة الكتفين قوية العضلات ذات مكانة اجتماعية ، وفى كل هذه الصورة الضخمة الممتلئة لا ترى نحيلا إلا الكلب . وغابات روبنز ملأى بآلهـــة يعتصرون أثقالا ، كما فى « أكسيون وهيرا[٢٤] » و « أربعة أركان الدنيا[٢٥] » ، وكما يمكن أن نكون قد توقعنا لم يكن « أصل المجرة[٢٦] » - فرضية مستديمة ، بل ربة بيت بدينة تفيض سيلا من اللبن من ثدى ممتلىء . أما « الربات الأخوات الثلاث[٢٧] » فهن نحيلات رشيقات ، نسبياً ، على أية حال . وفى « محاكمة باريس[٢٨] » (ابن ملك تروادة الذى خطف هيلانه - فى الأساطير اليونانية) نرى سيدتين فقط - يشا كل زيهما الأزياء المتأخرة ، وأخرى تعد من أجمل صور النساء فى الفن . وفى هذه الرسوم الوثنية عادة يوجد شىء أبعد كثيراً من الجسد ، فإن روبنز أسبغ عليها من فيض خياله الخصيب الممتلىء بالحيوية والمرح ، فهناك مائة من الملحقات الكمالية تملأ المنظر ، مخططة فى حرص ولكن دون دراسة ، تبهر عين الناظر إليها باللون والدفء والحياة . كما أنه ليس ثمة شىء يثير الشهوة فى العرض المنتفخ ، وأنه مجرد حيوية حيوانية ، فليس هناك رسم واحد يثير الشهوة الجنسية . أن روبنز نفسه كان يتحلى بسلوك قويم إلى حد غير قياسى ، بالنسبة لفنان شديد التأثر والحساسية بالضرورة للون والشكل ، وعرف عنه أنه زوج فاضل و « رب أسرة موثوق » ، لم تمسه شائبة من التودد للنساء أو المخادعة[٢٩] .

واعترف رجال الكنيسة فى الفلاندرز ببراءة الناحية الحسية فى رسوم روبنز ، فلم يحسو بالحرج أو بوخز الضمير فى أن يطلبوا منه أن يصور ثانية قصص العذراء والمسيح والقديسين ، وقد أجابهم إلى سؤالهم ، ولكن بطريقته

غير المبتذلة ، ومن خلفائه الذين لايحصى عديدهم استطاع أن يصور فى خيال أوسع ، أو يرسم فى مهارة أدق ، الفكرة القديمة « عبادة الملوك * » ، ومن كان يجرؤ على تركيز العمل فى تشكيل البطن السمين للأثيوبى المعمم ذى اللون البرونزى ، وهو ينظر فى ازدراء واضح إلى الوجوه الشاحبة حوله ، ومن كان يعلم أن الوثنى الذى يحدق النظر بعينه وبفرشاته إلى كل ركن وكل زاوية فى جسم المرأة ، يمكن أن يحب الجزويت وينضم إلى طائفتهم المريمية ، ويؤدى التمارين التى وضعها أجنات ليولا لتطهير النفس برؤى الجحيم(٣١) .

وفى مارس ١٦٢٠ تعاقد مع الجزويت على أن يضع قبل أن ينصرم العام ، تصميمات لتسعة وثلاثين رسما تغطى سقوف كنيسة الباروك الفخمة التى كانوا قد بدأوا تشييدها فى أنتورب فى ١٦١٤ . وأنجز روبنز الرسوم التى حولها فان ديك وآخرون معه إلى لوحات ، دمرت كلها تقريباً فى ١٧١٨ ، وقام روبنز نفسه بعمل صورتين عظيمتين للمذبح الرئيسى : إحداهما « أجنات يبرىء الذين مسهم الشيطان » ، والثانية « معجزات سانت فرانسيس » . وكلتاهما الآن فى متحف تاريخ الفن فى فيينا .

ومع ذلك فإن روبنز كان كاثوليكيا على النحو الذى كانت تعنيه الكثلكة فى عصر النهضة . ومسيحيا بحكم الموطن . وعاشت وثنيته فى ظل تقواه . ولم تكن مريماته (صور السيدة العذراء فى لوحاته) سوى نسوة داعرات غليظات يبدو واضحا أنهن أصلح لإيقاع الرجال فى حبائلهن . منهن لإنجاب إله . وفى لوحة « العذراء فى إكليل من الزهور(٣٢) » تمثل السيد المسيح صبيا أجعد الرأس ، ومريم فى زى ربة بيت فلمنكية ترتدى قبعة جديدة فى نزهة يوم الأحد فى أحـــد المتنزهات . وحتى فى لوحة « رفع الصليب » (الموجودة فى كاتدرائية أنتورب) نجد أن اهتمام روبنز بالتشريح يتغلب على الفكرة الدينية فالمسيح رجل رياضى مكتمل القوة والنشاط ، لا إلها يعانى سكرات الموت .

* بلغ ثمن هذه اللوحة ألف دولار فى مزاد علنى أقيم فى لندن ١٩٥٩ .

وفى « طعنة الرمح[٣٤] » مرة أخرى نجد التشريح هو كل شىء : فالمسيح واللصان شخوص ضخمة ، والنساء تحت الصليب يتخذن وضعاً خاصاً أمام فنان ، أكثر منهن مغمى عليهن من الحزن ، فإن روبنز لم يستشعر هول الموقف .

وفى خمس مرات على الأقل تحدى روبنز الرسام الفينيسى تيشيان فى « صعود العذراء » ، وفى أشهر هذه المحاولات[٣٥] ، تبدو العذراء ميتة لاحياة فيها ، والأفراد الأحياء هم الجدلية والحواريون الجزعون عند المقبرة الخالية ، وأجمل منها اللوحة الثلاثية[٣٦] التى أهدتها الأرشيدوقة إيزابل إلى جمعية الدفونسو الدينية فى بروكسل : ففى الصورة الوسطى نزلت العذراء من السماء لتقدم لرئيس أساقفة توليدو . رداءا من الجنة مباشرة ، والقديس فى خشوع تام « يلهث من العبادة » ، على حين أنه فى الصورتين الجانبيتين نرى إيزابل وألبرت قد وضعا تاجيهما جانبا ، وركعا للصلاة ، وهنا فى هذه اللوحة الثلاثية . أضفى روبنز لوهلة قصيرة . بعض الحياة على التقوى أو صورها أحسن تصوير . وفى لوحة سانت أمبروزو الامبراطور تيودوسيوس[٣٧] ، أدرك روبنز ونقل إلى الصورة سطوة الكنيسة وسلطانها الخفيين : ففيها ترى رئيس أساقفة ميلان الذى لم يتسلح إلا بعدد من الكهنة وقندلفت (مساعد كاهن) ، ولكنه متسم بالجلال والعظمة ، يطرد من الكاتدرائية الأمبراطور الذى يحف به حرس رهيب ، ولكنه مثقل بالقساوة التى لا تغتفر وقلما أخفق روبنز مع كبار السن من الرجال ، ففيهم ، وبخاصة فى الوجه ، تبرز قصة حياتهم ، كأن الوجه يعرض الشخصية والخلق واضحين أمام الفن المدرك الواعى . انظر إلى رأس الأب فى لوحة « لوط وأسرته يغادرون سودوم[٣٨] » . وهى واحدة من أروع لوحات روبنز فى أمريكا .

وعاد فى حيوية بالغة إلى الموضوعات الدنيوية ، مختلطة بالأساطير ، عندما عرضت عليه مارى دى مديتشى أكثر العقود إغراءا فى حياته . ووقع

فى ١٦ فبراير ١٦٢٢ اتفاقية ، يرسم بمقتضاها ، فى مدى أربعة أعوام ، إحدى وعشرين صورة كبيرة وثلاث صور شخصية ، تخلد ذكرى الأحداث فى حياة مارى وزوجها هنرى الرابع ، ودعته الملكة للحضور ليعيش فى البلاط الفرنسى ولكن هداه تفكيره السليم إلى البقاء فى وطنه . وفى مايو ١٦٢٣ صحب معه إلى باريس اللوحات التسع الأولى ، وأحبت مارى هذه اللوحات . كما أعجب بها ريشليو . وأكملت المجموعة فى ١٦٢٤ ، وقصد روبنز بالبقية إلى باريس حيث رآها موضوعة فى قصر لكسمبرج . وفى ٢٨٠٢ نقلت اللوحات إلى اللوفر ، حيث انفردت تسع عشرة لوحة منها بقاعة خاصة بها . ولن يشكر كل من رآها أو درسها على روبنز العشرين ألف كراون (٢٥٠٠٠٠ دولار) التى تقاضاها فى مقابل عمله ، أو يحسده عليها ، ولا ريب أن مساعديه قاسموه فيها . وهذه اللوحات فى جملتها هى أسمى منجزاته . وإذا تجاوزنا عن بعض هنات السرعة ، وارتضينا القصة التى لا تصدق - كما نفعل فى أوفيد ، وشكسبير وفردى - فإننا سنجد هنا روبنز بكل سماته ، اللهم إلا تقواه العارضة . لقد أحب فخامة طقوس البلاط ، وجلال السلطة الملكية ، ولم يسأم قط النساء الممتلئات الأجسام ، والثياب الفاخرة ، والستائر وأغطية الأثاث البهية ، وكان قد عاش نصف أيامه مع الأرباب والربات فى الأساطير القديمة ، ونراه الآن يضم هؤلاء جميعاً فى قصص فياض ، مع قدرة فائقة على ابتداع الأحداث العارضة ، وغزارة فى اللون وبراعة فائقة فى التأليف والتصميم ، ومما جعل هذه المجموعة ملحمة وأوبرا فى تاريخ الرسم .

ولم يكن يعوز روبنز إلا مرتبتين اثنتين من مراتب الشرف ليبلغ ذروة التمجيد - التعيين فى الوظائف الدبلوماسية ، والحصول على براءة النبالة . وفى ١٦٢٢ أوفدته الأرشيدوقة إيزابل ليفاوض ، على أمل تجديد الهدنة مع هولندة ، وكان لدى روبنز ما يحمله على توطيد السلام ، فإن زوجته كانت طموحة فى أن ترث عن عمها الهولندى مالا[٣٩] . وأخفقت هذه الجهود ، ومع ذلك أقنعت إيزابل الملك فيليب الرابع بأن يخلع على روبنز النباله (١٦٢٤)

وعينه « رئيس الديوان الخاص لصاحبة العظمة » . أى إيزابل نفسها . ولكن الملك اعترض بعد فترة من الوقت على استخدامها لمثل هذا الشخص الوضيع ذى المحتد غير الكريم ، فى استقبال البعثات الأجنبية ، وبحث مسائل على قدر كبير من الأهمية(٤٠) ، ومع ذلك أوفدت إيزابل روبنز بعد ذلك بعام (١٦٢٨) إلى مدريد ليساعد على عقد الصلح بين فيليب الرابع وشارل الأول . وأخذ الفنان معه بعض رسومه ، وعدل الملك من رأيه فى موضوع الحسب والنسب وجلس إلى روبنز ليرسم له خمس صور شخصية ، وكأن الفنـــان الأسبانى فيلا كويز لم يقم بما يكفى الملك فى هذا الصدد . وتوثقت أواصر الصداقة بين الفنانين ، وأسلم الفنان الأسبانى ، وهو آنذاك فى التاسعة والعشرين ، القياد للفلمنكى العبقرى الأنيس ، وهو إذ ذاك فى سن الواحدة والخمسين . وأخيرا عين فيليب روبنز «الوضيع النسب» مبعوثا له فى انجلترا ، وفى لندن نجح روبنز فى عقد معاهدة صلح ، على الرغم مما دفع ريشليو من رشوة وبث من جواسيس لعرقلة الصلح . وفى لندن رسم روبنز بعض صور شخصية انجليزية دوق ودوقة بكنجهام(٤١) ، والوجه المهيب لتوماس هوارد أرل أروندل ولحيته ودرعه(٤٢) . وبعد أن مهد الطريق أمام فانديك عاد إلى أنتورب (مارس ١٦٣٠) وقد منحته جامعة كمبردج درجة علمية ، ومنحه شارل لقب فارس .

وفى الوقت نفسه كانت زوجة روبنز الأولى قد توفيت (١٦٢٦) وطبقاً للتقاليد الفلمنكية أقيمت للاحتفال بجنازتها مأدبة باذخة كلفت الدبلوماسى الفنان ٢٠٤ فلورينات (٢٥٠٠ دولار) أنفقها على « الطعام والشراب وأدوات المائدة(٤٣) » ، فالموت فى المجتمع الفلمنكى كان ترفا يورث الحرمان والفقر . وأغرق روبنز شعوره بالوحشة والوحدة فى الدبلوماسية . وفى ١٦٣٠ ، وكان قد بلغ الثالثة والخمسين ، تزوج من هيلينا فورمنت ذات الستة عشر ربيعا . أنه كان فى مسيس الحاجة إلى جو من الجمال يحيط به ، وكان له بالفعل من دفئها ودعتها ما فاض على فنه وأحلامه . ورسمها المرة بعد المرة ، فى أى زى ، ودون ثياب : فى ثوب الزفاف(٤٤) ، وهى ممسكة بقفاز(٤٥) ، تعلوها ابتسامة السعادة

فى قبعة أنيقة(٤٦) ، وهى تخفى وركيها فقط تحت معطف من الفراء(٤٧) . أما أروع الصور فهى تلك التى تمثلها تتنزه مع روبنز فى حديقتهما(٤٨) ـ وهذه الأخيرة هى إحدى القمم فى التصوير الفلمنكى ، ثم صورها مع وليـــدها الأول(٤٩) ، وبعد ذلك مع طفليهما(٥٠) ـ مبشراً بالفنان دنوار (مصور فرنسى ١١٤٩ - ١٩١٩) . وحدث ولاحرج عن اللوحات التى تمثلها فى وضع مثير للشهوة مثل فينوس ، أو متسم بالحشمة مثل « أم الإله ـ العذراء » .

ورسم بيرنز عاهليه المحبوبين البرت وإيزابل ، بغير ما نفاق ولا رياء . وإنا لنراها فى متحف فييناوبتى ، فى أغلب الظن كما كانا ـ يحكمان بلداً قلقاً مضطرباً ، بكل النيات الطيبة التى تلتئم مع المثل العليا الأسبانية ، لقد عثر الفنان فى الفلاندرز على أنماط ممتازة للرجال والنساء ، فرسمها فى تصويره لجان تشارلز دى كورد وزوجته الجميلة المتجهمة(٥١) . وفى صورة ميكائيل أو فوفيوس(٥٢) أسقف هرتوجنبوخ ، وترك لنا صورة ضخمة لاسبينولا الجبار(٥٣) . ولكن رسم الصور الشخصية لم يكن موطن التفوق والامتياز فى روبنز ، فهو لم يقدم لنا نظرات نافذة دقيقة أو إيماءات صادرة من الأعماق ، كما فعل رمبرانت . وأعظم صور الشخصية هى تلك التى رسمها لنفسه فى ١٦٢٤ من أجل من صار فيما بعد شارل الأول(٥٤) : قبعه ضخمة ذات أشرطة ذهبية لا تكشف إلا عن جبهة عريضة لرأس أصلع ، مع عينين محدقتين فى نظرة فضولية . والأنف الطويل الحاد يبدو أنه يتفق مع العبقرية ، والشارب المتصابى الخشن واللحية الحمراء الجميلة ، وهذا يمثل رجلا يدرك كل الإدراك أنه فى ذروة البراعة فى حرفته ومع ذلك فإن شيئاً من حيويته الطبيعية . ومتعته الحسية وقناعته الهادئة ، مما أشرق وتألق فى صورته مع إيزابلا برانت (زوجته الأولى) قد ذهب على مر السنين . إن الإخفاق وحده هو الذى يرهق الإنسان ويفنيه بأسرع مما يفعل النجاح .

كان روبنز ثريا ، وعاش عيشة باذخة ، وكان بيته الفخم فى أنتورب أحد

مشاهد المدينة . وفى ١٦٣٥ اشترى بمبلغ ٩٣ ألف فلورين ضيعة واسعة وقصراً إقطاعيا فى مقاطعة ستين ، تمتد ١٨ ميلا ، واتخذ لقب لورد ستين ، وقضى الصيف هناك ، ورسم المناظر الطبيعية وجرب يده المتعددة المهارات فى رسم أحداث الحياة اليومية . ووسط ضروب الترف والرفاهية ، مع خادمات ثلاث وسائسين وثلاثة جياد ، استمر يبذل أقصى الجهد فى العمل ، وهو يجد سعادته فى أسرته وفى عمله . وأحبه زوجاته وأولاده ونصراؤه ومساعدوه لصفاء روحه وسخائه ومشاركته الوجدانية العطوفة(٥٥) .

ويجدر بمن هم أقدر منا أن يحللوا المزايا الفنية فى فنه ، ولكننا نستطيع مطمئنين أن نصفه بأنه نموذج رئيسى لتصوير الباروك : أى اللون الحسى ، والحركة التى لا تحصى ، والخيال الخصيب ، والزخرفة المنمقة المترفة ، على عكس ما عرف فى التصوير القديم من الهدوء وتقييد الفكر والخط . ولكن فى فوضى الجمال هذه ، يقول النقاد بأن هناك براعة فائقة فى التخطيط والتصميم وغذت صور روبنز مدرسة من الحفارين والنقاشين الذين صنعوا الطراز الأول من اللوحات المعروفة فى أوربا المسيحية ، كما فعل ريموندى مع رسوم رافائيل ، ومن يد روبنز أومن مرسمه خرجت الرسوم المشهورة إلى نساجى الأقمشة المزركشة فى باريس وبروكسل ، وصنعوا هدايا ملكية أو زخارف للويس الثالث عشر وشارل الأول والأرشيدوقة إيزابل .

وشهد العقد الأخير من سنى حياته نصرا مبينا عكره انحطاط قواه الجسمية ولم يضارعه فى شهرته الفنية سوى برنينى ، ولم يحلم أحد بأن ينازعه تفوقه فى الرسم وهرع إليه التلاميذ من كل الأنحاء ، ووفدت عليه بعثات البلاط من ست ممالك ، حتى من الحاكم فردريك هنرى عبر خطوط القتال . وفى ١٦٣٦ طلب إليه فيليب الرابع أن يرسم بعض مشاهد « متامور فوزس » للشاعر الرومانى أوفيد لقصر الصيد فى باردو . وأنجز مرسم روبنز خمسين صورة لهذه المجموعة ، منها واحد وثلاثون مشهدا فى متحف برادو ، وبدا للكاردينال

اتفانت فرديناند أن مشهدا منها هو « محاكمة باريس » أروع ما أبدعته يداً روبنز على الإطلاق[٥٦]. وقد نوثر عليه « المهرجان[٥٧] » الصاخب الذى كان قد صوره فى ١٦٣٦ ـ وهو مطاردة مسعورة ، ليس فيها امرأة عجوز أو بدينة إلا اختطفها رجل ما .

أما صورته الشخصية فى سن الستين[٥٨] فهى الوجه الآخر لخواتيم حياته رجل لا يزال مزهوا . يقبض بيده على سيف النبالة ، ولكن التحول يعرو وجهه النحيل ، ويتدلى جلده ، وتحيط التجاعيد بعينيه ـ وهو رسم أنيق أمين وفى ١٦٣٥ ألزمه داء النقرس الفراش شهراً . وفى ١٦٣٧ شل يده لفترة من الزمن ، وفى ١٦٣٩ عاقه هذا الداء عن التوقيع باسمه . وفى ١٦٤٠ ضلت كلتا يديه . وفى ٣٠ مايو ١٦٤٠ ، وقد بلغ الثالثة والستين ، قضى نحبه متأثرا بالتهاب المفاصل وتصلب الشرايين .

لقد كانت حياة روبنز تدعوا إلى الدهشة . أنه لم يكن النموذج الشامل للمثل الأعلى للنهضة الأوربية ، ولكنه حقق طموحه فى أن يلعب دورا فى الدولة وفى الرسم على حد سواء . ولم يكن فنانا شاملا مثل ليونارد وميكلانجلو ، فلم يخلف لنا نحتا ، ولم يصمم أى مبنى سوى داره . ولكنه فى الرسم بلغ ذروة الامتياز فى كل مجال . فإن الصور الدينية ، والصخب الوثنى والإلهة والإلهات ، والعـــاريات والمكتسيات ، والملوك والملكات ، والأطفال والعجائز ، والمناظر الطبيعية والمعارك ـ كانت كلها تنساب من فرشاته ، وكأنها معين متعدد الموارد لا ينضب من اللون والشكل . لقد وضع روبنز حداً لخضوع الرسم الفلمنكى للرسم الإيطالى ، ولكن بدون الثورة أو التمرد ، بل عن طريق الاستيعاب والاتحاد .

ولم يكن روبنز فى مثل عمق رمبرانت ، ولكن أوسع أفقا ، لقد نفر من الأعماق الخفية التى كشف عنها رمبرانت ، وآثر عليها الشمس والهواء الطلق ، وتراقص الضوء ، واللون ، ومتعة الحياة وسحرها ، وكافأ حظه السعيد

بالإبتسام للدنيا ، إن فنه تعبير عن الصحة ، مثلما أن فننا اليوم يوحى باعتلال الفرد أو اعتلال الروح العامة . ويمكن ، إذا وهنت نفوسنا أو افترت حويتنا أن نفتح كتاب روبنز فى أى مكان لننتعش ونجدد قوانا .

٤ ـ فانديك

١٥٩٩ — ١٦٤١

لقد كان من عادة روبنز أن يرحب ويشجع الموهبة المبكرة النضج لدى الشباب اليافع الوسيم . الذى التحق بمرسمه حوالى ١٦١٧ . وكان أنطونى فانديك قد بدأ تدريبه وهو فى سن الثامنة عند هندريك فان بالمن ، معلم سنيدرز . وفى سن السادسة عشرة كان له تلاميذه هو نفسه . وفى سن التاسعة عشرة سجل أستاذا فى نقابة الفنانين ، ولم يكن تلميذاً لروبنز بقدر ما كان مساعدا ذا قيمة كبيرة له . وقدر روبنز أحد أعمال فانديك الأولى بأنه يساوى فى قيمته لوحة « دانيال » التى أنجزها روبنز فى نفس العام . واحتفظ فى مجموعته الخاصة بلوحة فانديك « المسيح يتوج بالأشواك » ، ثم تنازل عنها فى وقت متأخر ، وهو كاره ، لفيليب الرابع . ليضعهـــا فى الأسكوريال[٥٩] . وتأثر فانديك فى شغف بالغ بروبنز ، ولكنه كانت تعوزه حيوية الفنان العجوز فى الحركة واللون ، ومن ثم قصر عن اللحاق به فى كل شىء ، فيما عدا رسم الأشخاص . وفى صورته الشخصية الأولى (١٦١٥)[٦٠] كشف عن الخصائص التى كان يجب أن تميز وتحدد عبقريته ـ رقة ورشاقة وجمال ناعم ، مما لا يكاد يليق برجل . وكان زملاؤه الفنانون سعداء بالجلوس إليه لتكون الصور التى يرسمها لهم ، سياجا إضافيا يحميهم من نسيان الناس لهم . وقد رسم صورا شخصية محببة لسنيدرز[٦١] ودوكونسوى[٦٢] وجان ويلدنز[٦٣] ثم جان دى وال[٦٤] — وجسبار دى كريير[٦٥] ومارتن بيبن[٦٦] . وكان من صفات فانديك المحمودة الكثيرة أنه أحب منافسيه . وتوحى تلك الصور الشخصية فى مرسم روبنز بروح طيبة من الزمالة لا توجد دائما فى مملكة الفن .

وفى ١٦٢٠ تلقى أرل أروندل من أنتورب رسالة جاء فيها : « أن فانديك يقيم مع روبنز ، وتقدر أعماله بأنها تكاد تضارع أعمال أستاذه(٦٧) » فدعا الفنان الشاب إلى انجلترا ، فذهب فانديك وهناك تقاضى من جيمس الأول معاشا زهيدا قدره مائة جنيه ، ورسم قليلا من الصور الشخصية ، وتمرد على ما طلبه منه الملك من نسخ حقير لصور أصيلة ، وطلب منحه أجازة لمدة ثمانية أشهر يتغيب فيها عن البلاد ، فأجيب إلى طلبه . ولكنه مد الغياب إلى إثنى عشر عاما . وفى أنتورب دبر لزوجته وطفلها سبل العيش ، ثم أسرع إلى إيطاليا (١٦٢١) .

وهناك لأول مرة أسرع الخطى وشمر عن ساعد الجد ، وترك صوراً شخصية رائعة فى كل مكان نزل به تقريبا ، وعكف على تأمل أعمال البنادقة العظام ، لا ليدرس اللون والضخامة لديهم ، كما فعل روبنز من قبل ، ولكن ليكتشف الأسرار الشاعرية فى الرسوم الشخصية عند جيورجيونى وتيشيان وفيرونيز . وقصد كذلك إلى بولونيا وفلورنسة وروما ، بل حتى إلى صقلية . وفى روما أقام مع الكاردينال جيد وبنتيفوجليو ، وكافأه بصورة شخصية(٦٨) وكره الفنانون الفلمنكيون الذين كانوا يتضورون جوعا فى إيطاليا ، من فانديك كياسته ، وإن شئت تملقه وتودده ، فنعتوه بأنه « مصور الفرسان » ، وأتوا بأعمال قبيحة ، إلى حد أنه رحل مسرورا بصحبة ليدى أروندل إلى تورين . وكان الترحيب به كبيرا بصفة خاصة فى جنوة التى تذكرت روبنز ، وكانت قد سمعت بميل فانديك إلى تمجيد النبلاء ، حتى ليجعل من كل جالس أمامه أميرا . وفى متحف متروبوليتان للفن فى نيويورك نموذج لهؤلاء الاستقراطيين الجنوبيين : « المركيزة دورازو » : وجه حساس ويدان رشيقتان ناعمتان (كما هو الحال دائما فى رسوم فانديك) ، كما يحتفظ المتحف الوطنى فى واشنجطن بلوحتى « المركيزة بالبى » و « المركيزة جريما لدى » — وهى مزهوة حبلى . وفى برلين ولندن نماذج أخرى . واستطاعت جنوه أن

تحتفظ فى قصر روضو فيها بلوحة « المركيز والمركيزة » برينولى صالى « وعاد فانديك إلى أنتورب (١٦٢٨) ، وقد امتلأت جيوبه وانتفخت أوداجه وتأنق فى مظهره .

وصرفه مسقط رأسه عن النبلاء إلى القديسين ، وحتى يهىء نفسه لهؤلاء ندم على ما اقترف من فحشاء ، وأوصى بثروته الصغيرة لأختين من الراهبات ، وانضم إلى « الرابطة الجزويتية لغير المتزوجين » ، وتحول إلى الموضوعات الدينية . ولم يستطع أن ينافس روبنز فى هذا المضمار ، ولكنه تجنب مبالغات الأستاذ الغزير الإنتاج وتألقه الشهوانى ، وأضفى على رسومه هو لمسات من الأناقة التى تعلمها فى إيطاليا . وذهب رينولدز إلى أن لوحة فانديك « صلب المسيح » فى كاتدرائية مكلين واحدة من أعظم الصور فى العالم، وعلى أية حال ربما كانت هذه هى طريقة سيرجوشوا فى الوفاء بالدين .

وجرب فانديك يده فى صور الأساطير . وعلى الرغم من أنه لاحق نساء كثيرات فإنه لم يقبل على رسم الصور العارية ولم يبرع فيه . وكان موطن قوته وامتيازه فى الصور الشخصية . وفى هذه السنوات الأربع فى أنتورب أنقذ من زوايا النسيان ، بما رسم من لوحات « البـــارون فيليب لروى والكلب الأمين[٦٩] » و « الجنرال فرانسيسكو دى مونكادا وجواده[٧٠] » و « الكونت رودوكانا كس[٧١] الذى بدا كأنه حوينبرن » و « جان منتفورت » الذى بدا مثل فولستاف (إحدى شخصيات شكسبير) ؛ وأروع رسوم فانديك فى فيينا هى صورة « روبرت الشاب أمير البلاتين الفاتن » الذى سرعان ما خاض غمار الحرب دفاعا عن شارل الأول فى انجلترا . ومن الرسوم الفاتنة كذلك صورة « ماريا لويزا أوف تاسيس[٧٢] » غارقة فى ثيابها الفضفاضة المصنوعة من الأطلس الأسود والحرير الأبيض . ولا يقل روعة عن هذه الرسوم كلها لوحة فانديك لبيتر « الجحيم » بروجل (الأصغر) ؛ وهو رجل عجوز لا يزال يضطرم قلبه بحيوية لم ينضب معينها فى أسرة تثير الدهشة .

وأخذ فانديك بعض هذه الصور إلى إنجلترا حين دعاه شارل الأول إليها ليجرب حظه فيها ثانية . وكان شارل — على عكس أبيه — ذواقة للفن . وظن أن هذا الفلمنكى الوسيم هو الرجل الذى يستطيع أن يصنع له ما كان يصنع فلاسكويز الأسبانى للملك فيليب الرابع . وذهب فانديك وسجل للأجيال القادمة صور الملك والملكة هنزيتا ماريا وأطفالهما ، وهى صور برزت فيها روعة فن فانديك بشكل لا يمحى أثره . وأشهر هذه اللوحات الملكية الخمس ، هى اللوحة الموجودة فى متحف اللوفر ـ وهى تمثل الملك المزهو العاجز مرتديا زى الفروسية ، واضعاً يده على خصره ، شاهرا سيفه ، وعلى رأسه قبعة أنيقة ، بالإضافة إلى لحية فانديك ، ولكن الجواد المنهوك الذى يقضم شكيمته أثناء فترات الصيد ، قد يشغف به الناظر إلى الصورة قبل أن يشغف براكبه . وتوجد فى درسدن وتورين لوحات تبارى هذه ، وهى تمثل أبناء شارل ، وهم بعد أبرياء ولا يخشى منهم أذى . وكان شارل أكثر إنسانية فى مخبره منه فى مظهره . وبرزت حرارة العاطفة عنده فى تعلقه بفانديك وإعزازه له ، فقد ضمه إلى طبقة الفرسان ، ووهبه دورا فخمة فى لندن وفى الريف ومنحه معاشا سنوياً قدره مائتا جنيه ، ومبلغا إضافيا عن كل رسم ، وعن كل زيارة للبلاط .

وعاش الفنان السعيد حياة تتفق مع دخله ، فأولع بالثياب الأنيقة ، وكانت له عربته التى تجرها أربعة من الخيل ، وجياده الأصيلة وخليلاته ، وملأ بيوته بالموسيقى والفن . وبز توجيهات روبنز فى تفويض غيره فى العمل ـ فترك رسم الملابس لمساعديه ، وأنجز صورة شخصية فى ساعة واحدة من رسم تخطيطى تم فى جلسة واحدة وكان يسارع إلى اغتنام الفرص قبل فوات الأوان ويروى أن شارل الأول ، حين كان يعانى من تقتير البرلمان عليه ، سأل الفنان المبذر مرة : هل تعرف ماذا يقصد بقولهم أن الإنسان يعوزه المال ، فأجاب فانديك ، نعم يامولاى ، إذا مد المرء مائدة مفتوحة لأصدقائه ، وأغدق من كيس مفتوح على خليلاته ، فسرعان ما يصل المرء إلى قاع الكيس ليجده فارغا[٧٧].

وإذا كان فانديك قد غرق فى الديون أحيانا ، فإن ذلك لم يكن لافتقاره إلى النصراء والمحبين ورعاة فنه . فقد انتظر الارستقراطيون الإنجليز دورهم فى الحصول على موافقته : مثل جيمس ستيوارت ، ودوق لينوكس[٧٥] ، الوسيم مثل كلبه ، وروبرت رتشى أرل ودروك[٧٦]، ولورد دربى وأسرته[٧٧] وتوماس وتنورت أرل سترافورد[٧٨] الذى تحدى القدر . كذلك جاء دور الشعراء من كارو ، وكلجرو ، وسكلنج . وأخيرا جاء دور أولدبار[٧٩] الذى زعم أنه بلغ من العمر مائة وخمسين عاما ، وكان يبدو عليه ذلك . لقد رسم فانديك ٤٠٠ صورة شخصية فى انجلترا ، تميزت كلها تقريبا بالكياسة والوقار اللذين رآهما فى أحد اللوردات ، حتى ولو لم يوجد شيء منهما .

وتبارت خليلته مرجريت ليمون مع الارستقراطية فى توفير الخدمات له بما كلفه غاليا . واقترح الملك أن الزواج أيسر تكلفة ، وعاونه (١٦٣٩) فى طلب يد ليدى مارى روثفن وهى سليلة أسرة مشهورة فى تاريخ اسكتلنده ورسم الفنان لعروسه صورة جميلة[٨٠] ولكنها لا تقارن بالوجه الجميل الذى رسمه لنفسه فى « الصورة الشخصية للفنان »[٨١] التى يعرفها العالم كله - شعر غزير متموج ، وعينان حادتان ، وتقاطيع دقيقة ، ولحية مقصوصة ، وسلسلة ذهبية تنبيء بأنه فارس . هل كان فانديك يتملق سير أنطونى (نفسه) إذا كان الأمر كذلك ، فليس ثمة جدوى ، لأن صحته التى أسرف فى استنزافها ، بدأت الآن تتدهور ، وكره فانديك أن يذكر بمجرد رسم الصور الشخصية فحسب ، فطلب إلى شارل أن يسمح له برسم مناظر تاريخية على جدران قاعة الولائم فى قصر هويتهول ، ولكن الملك كان يعانى العوز . فعبر فانديك البحر إلى باريس (١٦٤٠) أملا فى تكليفه بتصوير القاعة الكبرى فى اللوفر ، وكان لويس الثالث عشر قد اختار بالفعل بوسان لهذه المهمة ، ولكنه تخلى عنها بعد فوات الأوان ، فقد مرض فانديك فأسرع إلى لندن حيث كانت تقيم زوجته وفاضت روحه (١٦٤١) ، بعد أحد عشر يوما من مولد ابنته ، ولم يكن قد بلغ بعد الثانية والأربعين .

لم يؤسس فانديك مدرسة ، ولم يترك بصمات على الفن فى القارة ، ولكن أثره فى انجلترا كان بالغا . فإن الرسامين المحليين مثل وليم دويسون ، وروبرت ووكر ، وصمويل كوبر ، أسرعوا فى تقليد أسلوبه المتملق الذى يدر ربحا . وعندما سادت موجة عارمة من الصور الشخصية بظهور رينولدز وجينزبرو فإن تراث فانديك كان مصدر كل تعليم وتثقيف وإثارة . ولم تكن الصور الشخصية التى رسمها فانديك عميقة . لقد كان متعجلا إلى درجة لم تتح له البحث عن الروح . وتوقف فى بعض الأحيان عند الوجه أو اللحية . إن الفرسان الذين أحاطوا بالملك شارل الأول اشتهروا بسلوكهم الحميد ، وما كان متوقعا أن يبدو كثير منهم وكأنهم شعراء ، وكان من المنتظر أن تصل إلينا ، من خلال عينى فانديك وفرشاته بعض أخيلة البطولة التى نجدها فى وقفتهم إلى جانب مليكهم . وليس من العدل أن نتوقع من هذا الشاب الهزيل المحظوظ حيوية روبنز العارمة ، أو عمق رمبرانت المؤثر . ولكننا سنبقى على اعتزازنا بهذه الصور الشخصية الجنوسية والفلمنكية والإنجليزية ، على أنها معالم دقيقة ثمينة ، متألقة فى تراثنا .

٥ — الاقتصاد الهولندى

أية قفزة تلك التى تنقلنا من اللوردات الإنجليز الذين يفوح منهم شذا العطر إلى مواطنى هارلم ولاهاى وأمستردام الإجلاف الأقوياء : هناك عالم فريد خلف السدود ، عالم ماء أكثر منه عالم أرض ، عالم سفن ومغامرات تجارية أكثر منه عالم قصور وبلاط وفروسية . ولا يكاد يوجد فى تاريخ الاقتصاد شىء أشد إزعاجا من ظهور الهولنديين باعتبارهم قوة دولية ، أو فى تاريخ الثقافة شىء يبعث على الرضا والارتياح أكثر من تحول هذه الثروة إلى فن .

وفى ١٦٠٠ بلغ عدد سكان المقاطعات المتحدة نحو ثلاثة ملايين نسمة ، كان نصفهم فقط يفلح الأرض ، وفى ١٥٢٣ أقام نصفهم فى المدن ، وصار كثير

من الأرض ملكا لملاك من سكان المدن الذين آمنوا بأن أرباحهم التجارية يمكن أن تزال رائحتها الكريهة باستثمارها فى الأرض . وحتى فى مجال الزراعة أحرز النشاط والبراعة الهولنديتان قصب السبق على أوربا ، وكانت السدود والخزانات الجديدة تستصلح دوما الأرض من البحر ، وأخصبت القنوات المزارع وأنعشت التجارة ، وقامت فلاحة البساتين جنبا إلى جنب ، مع تربية الماشية ، وكلتاهما على نطاق واسع ، لتكمل كل منهما الأخرى . وفى أخريات القرن السادس عشر بلغ المهندسون الهولنديون بطاحونة الهواء ذروة الإتقان مثلما فعل الرسامون الهولنديون بالفن . وكان نصف الصناعة لا يزال يدويا اللهم إلا فى التعدين ومعالجة المعادن ونسج الأقمشة وتكرير السكر وصنع الجعة ، فإن هذه الصناعات كانت تتقدم على نطاق أكبر وأكثر ربحا وأقل إسعاداً للناس ، وأبحر فى كل عام من الثغور الهولندية ١٥٠٠ سفينة ذات صارين لصيد السردين وكان بناء السفن من الصناعات الكبيرة . وفى أثناء الهدنة مع أسبانيا (١٦٠٩ - ١٦٢١) أرسلت الأراضى الوطيئة ١٦ ألف سفينة حمولة كل منها ٥٧ طنا فى المتوسط ، عليها من الملاحين نحو ١٦٠ ألفا - أكثر من انجلترا وأسبانيا وفرنسا مجتمعة[٨٢] .

وتلهف الربابنة الهولنديون على المنافذ التجارية والمواد الخام فارتادوا البحار المجهولة . وفى ١٥٨٤ وطد التجار الهولنديون أنفسهم فى أركنجل ، وتقدموا برغم الثلوج المتجمدة فى محاولة عقيمة للعثور على «طريق شمالى شرقى» إلى الصين ، ومن ثم يفوزون بجائزة قدرها ٢٥ ألف فلورين قدمتها الحكومة الهولندية . وإن الأسماء الهولندية فى الخرائط الحديثة لأرخبيل سبتسبرجن (فى النرويج) لتعيد إلى الذاكرة رحلات وليم بارنت الذى فقد حياته فى الشتاء على ثلوج جزر نوفايا زمليا (١٦٩٧) . وفى ١٥٩٣ أبحر الهولنديون المغامرون عبر أنهار غانة (ساحل الذهب) فى أفريقية ، وعقدوا أواصر الصداقة مع المواطنين هناك ، وبدأوا معهم تجارة واسعة نشطة .

وحتى ١٥٩١ كان التجار الهولنديون يشترون المنتجات الشرقية من أرصفة لشبونة ليعيدوا بيعها فى أوربا الشمالية . ولكن فيليب الثانى غزا البرتغال فى ذاك العام فحرم الاتجار مع الهولنديين ، ومن ثم عقدوا العزم على أن يقوموا هم أنفسهم برحلاتهم إلى الهند والشرق الأقصى . وكان اليهود اللاجئون من أسبانيا والبرتغال أو ذراريهم على علم تام بمراكز تجارة البرتغال فى الشرق ، فانتفع الهولنديون بعلمهم[٨٣] . وعبر التجار الهولنديون ، حتى أثناء الحرب مع أسبانيا مضايق جبل طارق ، وسرعان ما اتجروا مع ايطاليا ، ثم مع العرب ، متجاهلين الفوارق الدينية فى أصرار وثبات . وشقوا طريقهم إلى القسطنطينية ، وعقدوا معاهدة مع السلطان ، وباعوا بضاعتهم إلى الأتراك وإلى أعدائهم الفرس ، على حـــد سواء ، ثم ساروا إلى الهند . وفى ١٥٩٥ قاد كورنيلس دى هوتمان حملة حول رأس الرجاء الصالح ومدغشقر إلى جزر الهند الشرقية . وفى ١٦٠٢ قامت خمس وستون سفينة هولندية برحلة العودة إلى الهند . وفى ١٦٠١ أسست شركة الهند الشرقية الهولندية برأس مال قدره ستة ملايين وستمائة ألف فلورين — خمسة أمثال رأس مال الشركة الإنجليزية التى أسست قبلها بثلاثة شهور[٨٤] . وفى ١٦١٠ بدأ التجار الهولنديون التجارة مع اليابان ، وفى ١٦١٣ مع سيام ، وفى ١٦١٥ سيطروا على جزر ملقا ، وفى ١٦٢٣ على فرموزا . أنهم فى جيل واحد فتحوا أمبراطورية من الجزر حكموها من عاصمة جاوة : جاكرتا التى سموها باتافيا . وفى هذه الحقبة أدت الشركة لحملة الأسهم ربحا سنويا قدره ٢٢٪ وكان الفلفل يستورد من جزر البهار ، ويباع فى أوربا بعشرة أمثال الثمن الذى يدفع للمنتجين المحليين[٨٥] .

وحسب الهولنديون أن الأرض ملك خاص لهم . فارسلوا سفنا للبحث عن طريق شمالى غربى إلى الصين . وفى ١٦٠٩ استأجروا ربانا انجليزيا هو هنرى هدسن ، ليرتاد نهر هدسن . وبعد ذلك باثنى عشر عاما كونوا شركة الهند الغربية الهولندية . وفى ١٦٢٣ أسسوا مستعمرة الإراضى الوطيئة الجديدة

وكانت تضم الولايات الحالية : كنكتيكت ونيويورك ونيوجرسي وبنسلفانيا ودلاوير . وفى ١٦٢٦ اشتروا من الهنود « أمستردام الجديدة » (منهاتان) مقابل بعض الحلى الصغيرة التى قدرت قيمتها بأربعة وعشرون دولارا . وكانوا جادين فى تطهير وتطوير هذه الأراضى ، ولكن كل ممتلكاتهم فى أمريكا الشمالية وقعت غنيمة فى أيدى الإنجليز (١٦٦٤) نتيجة للحرب ، وكذلك وقعت ممتلكاتهم فى أمريكا الجنوبية فى أيدى الأسبان والبرتغال ، ولم يتبق لهم إلا سورينام ، تحت اسم غيانا الهولندية .

وعلى الرغم من هذه الخسائر أسهمت الإمبراطورية الهولندية مع تجارة هولندة فى أوربا فى تهيئة دعامة مالية للسلطان السياسى للتجار الهولنديين، ودورهم الفخمة ورعايتهم للفنون . وطوال النصف الأول من القرن السابع عشر عقد للمقاطعات المتحدة لواء الزعامة التجارية على كل أوربا ، وكانت ثروة الفرد فيها أكبر من مثيلتها فى سائر بلاد العالم . وقد انزعج رالى من تفوق الهولنديين على الإنجليز من حيث مستوى المعيشة والأعمال والمشروعات[٨٦] وقال أحد سفراء فينيسيا (١٦١٨) أن كل هولندى عاش فى رخاء ، ولكن يحتمل أنه لم يكن يعرف إلا القليل عن الطبقات الدنيا ، التى أدرك رمبرانت فقرها إدراكا تاما . أن أصحاب الملايين كثروا فى هولنده، وقد جمع بعضهم ثروته من بيع النفايات والبضائع الرديئة إلى الجيش والأسطول الهولنديين اللذين يدافعان عن هولنده [٨٧] ، ومثل هؤلاء كانوا جاهدين للحيلولة دون إقرار السلام[٨٨] .

وتركزت معظم الثروة الهولندية فى مقاطعة هولنده التى كانت تجارتها فى المياه المجاورة أضعاف تجارة سائر المقاطعات الشمالية . وكان ثمة برجوازية مزدهرة فى عدة مدن فى مقاطعة هولنده - روتردام ، لاهاى ، هارلم ، أوترخت - ولكن أيا منها لم يجرؤ على مباراة أمستردام . وأن نمو عدد سكانها ليحكى قصتها ، فقد كان ٧٥ ألفا فى ١٥٠٠ ، وقفز إلى ٣٠٠ ألف فى ١٦٢٠ ، وهرع

إليها التجار والصناع المهرة وأصحاب المصارف أفواجا من أنتورب التي دمرتها الحرب . وبعد ١٥٧٦ نقل يهود أنتورب إلى أمستردام أنشطتهم المالية وتجارتهم وصناعة الحلى . ولا يزال صياغ الماس في هذه المدينة يتزعمون هذه الصناعة في العالم . وأباح حكام المدينة للتجار قدراً كبيراً من الحرية الدينية لأن هذه هي الوسيلة الوحيدة لتشجيع التجارة مع الشعوب ذوات المذاهب المتباينة ، وكان بنك أمستردام الذى أسس ١٦٠٩ ، أقوى مؤسسة ماليه في أوربا في ذلك العصر . وكانت العمله الهولندية مطلوبه وموضع ثقه في كل الأنحاء .

٦ ـ الحياة والأدب في هولنده

اتهم الهولنديين منافسوهم بروح تجارية مسرفة وبحمى جمع المال ، وبطباع جافة خشنة ، ترتبط أحيانا بالانهماك في الحياة الاقتصادية ، ويسلم المؤرخون الهولنديون بهذه المزاعم عن طيب خاطر[٨٩] . ومع ذلك فهل نستطيع أن نقول عن ثقافة بأنها تجارية ، مع أنها أولعت ولعا كبيراً بالنظافة والزنبق (التوليب) والموسيقى والفن . وشيدت مدرسة في كل قرية ومحت الأمية ، وخلقت جوا فكريا مكهربا بالجدل والأفكار ، وأباحت حرية الفكر والكلام والصحافة ، حتى أن هولنده سرعان ما أصبحت ملجأ عالميا للعقول الثائرة ؟ المتمردة وقال ديكارت :

« ليس ثمة بلد غير هذا البلد ، فيه الحرية أكمل . والأمن أعظم ، والجريمة أندر ، وبساطة العادات القديمة أروع[٩٠] » . وفي ١٦٦٠ كتب فرنسي آخر :

ليس في العالم مقاطعه تنعم بمثل هذا القدر من الحريه مثل ماتنعم هولنده وفي اللحظه التي يأتي فيها أي سيد إلى هـــذا البلد بأي أرقاء أو عبيد ، فإنهم يصبحون أحراراً ، ويستطيع أي فرد أن يغادر البلد متى شاء ويأخذ معه من الأموال ما يشاء . والطرق آمنة ليل نهار ، حتى لو سار الإنسان بمفرده . ولا يباح للسيد أن يحتفظ بخادم دون إرادته . ولا يضار إنسان بسبب دينه . وكل إنسان حر في أن يتفوه بما يشاء « حتى عن الحكام[٩١] .

وكان أساس هذه الحرية هو النظام . ويعكس صفاء الذهن فى أناقة المنزل وحسن ترتيبه . وتميز الرجال بالشجاعة والجد والعناد ، كما تميزت النساء بالاجتهاد والبراعة الفائقة فى الأعمال المنزلية . ويتسم الجنسان كلاهما بهدوء الطبع وروح المرح . واعتزل كثير من رجال الأعمال الهولنديين العمل بعد جمع ثروة معقوله ، وانصرفوا إلى السياسة والأدب والجولف * والموسيق والهناءة المنزلية . وكتب لود وفيكو جوتيشياراديني « إن الهولنديين يفزعون من الزنى ، وأن نساءهم على أكبر قدر من الحرص والحذر ، ومن ثم منحن قسطا كبيرا من الحرية ، فيخرجن وحدهن للقيام بالزيارات بل والرحلات ، دون أن يأتين بما يخدش سمعتهن . . . إنهن مديرات المنازل ، وإنهن يحببن بيوتهن[٩٣] . وكان ثمة نساء كثيرات ذوات ثقافة رفيعة ، مثل ماريا شورمان « منيرفا هولنده » (ربة الحكمة والمهارة الفنية والاختراع عند الرومان) التى قرأت إحدى عشرة لغة ، وتحدثت وكتبت بسبع لغات ، ومارست الرسم والنحت جيدا ، وبرعت فى الرياضيات والفلسفة . ونظمت ماريا تسلشيد شعرا جميلا فى مثل جمال شخصها . وترجمت قصيدة تاسو «تحرير أورشليم» ترجمة نالت ثناء العالم ، ورسمت ونحتت وحفرت ، وعزفت على القيثارة . وغنت فأطربت إلى حد أن ستة من الأعيان من بينهم قسطنطين هوجنز ، وجوست فان دن فوندل ، وجربراند بريديرو ، كانوا يركعون تحت قدميها متوسلين إليها أن تغنى لهم . وتزوجت قبطانا بحريا ، وأصبحت ربة بيت وأما مخلصة وفية . وتركت وراءها ذكريات لا زالت عزيزة لدى الهولنديين ، عن الذكاء والمآثر والنبل[٩٤] .

وكان حب الموسيق أوسع انتشارا من تقدير الفن . إن جاك بيترزون سويلنك أحد أبناء أمستردام ، وأعظم عازف هولندى على الارغن هو الذى علم هنريج تسيديمان ، الذى علم بدوره جوهان آدم رينكن . وهذا الأخير هو الذى درس على يديه جوهان سبستيان باخ . ومع كل هذا التفوق والامتياز

(*) وربما كانت هذه اللعبة من أصل هولندى ، وانتقلت إلى اسكتلندة فى القرن الخامس عشر[٩١]

دب فى التجارة الهولندية بعض الفساد ، والإدمان على الخمر ، والبغاء ، والإقبال على الميسر بجميع أشكاله[٩٥] إلى حد المضاربة بأسعار الزنبق المستقبلة[٩٦] .

وكانت هارلم مركز زراعة الزنبق . وكانت الأبصال تستورد من إيطاليا وجنوب ألمانيا ، حوالى نهاية القرن الخامس عشر ، كذلك انتشرت الزهرة فى باريس وصارت بدعة محببة ورمزا للامتياز والسمو . حتى أنه فى ١٦٢٣ رفض أحد الهواة اثنى عشر ألف فرنك (٣٠ ألف دولار) ثمنا لاثنى عشرة بصلة من الزنبق[٩٧] . وفى ١٦٣٦ صار كل السكان تقريبا يضاربون فى أزهار الزنبق وقامت أسواق خاصة يمكن لأى إنسان أن يشترى أو يبيع فيها محصولات الزنبق الحاضره أو المستقبلة وكان للتوليب « انهياره » المالى ١٦٣٧ ، ففى تلك السنة بيعت نحو ١٢٠ زهرة توليب ثمينة فى مزاد علنى لمصلحة أحد ملاجىء الأيتام بمبلغ ٩٠ ألف فلورين .

وإلى هذا الجو البهيج جاء اللاجئون من فلاندرز وفرنسا والبرتغال وأسبانيا والتجار الأجانب من نصف أمريكا المعمورة بتشكيلة مثيرة من الأساليب الغريبة الدخيلة ، وضمت جامعات ليدن وفرانكر وهاردرفيك وأوترخت وجرونتجن مشاهير علماء العالم ، وأنجبت بدورها آخرين . فكان جوستوس لبسيوس وجوزيف سكاليجر ودانيل هنسيوس وجيرار فوسيوس يعملون جميعا فى ليدن فى النصف الأول من القرن من بداية افتتاحها (١٥٧٥ - ١٦٢٥) وما جاءت سنة ١٦٤٠ حتى كانت ليدن أشهر مركز للعلم والدرس فى أوربا . وكانت نسبة معرفة القراءة والكتابة بين جمهور سكان المقاطعات المتحدة أعلى منها فى أى مكان آخر فى العالم . وكانت الصحافة الهولندية أول صحافة حرة . وكانت صحيفة « الأخبار » الأسبوعية فى ليدن ، وصحيفة «الجازيت» فى أمستردام تقرآن فى سائر أنحاء أوربا الغربية ، لأنهما كانتا تتحدثان فى حرية تامة ، على حين كانت الصحافة فى تلك الأيام فى أية بقعة أخرى خاضعة لسيطرة الحكومة ورقابتها . وكانت الدهشة تتولى أى ملك فرنسى يطلب كبح جماح أى صحفى هولندى أو وقفه عند حده ، إذا علم أن هذا مطلب مستحيل تنفيذه[٩٨]

وكان رجال الأدب فى هولنده كثيرين ، ولكن كان من سوء حظهم

أنهم كتبوا باللاتينية التى كانت فى طريقها إلى الفناء ، أو بالهولندية التى ضيقت نطاق قرائهم . فإن الهولنديين لم يتسن لهم أن يجعلوا من لغتهم،على غرار بحريتهم واسطه مشتركة لنقل الأدب والفكر . واعتقد ديرك كورنهرت وهيدريك سبيجل أن اللغه الوطنيه المفعمه بالحيويه أداة لنقل الفكر والادب ، وكافحا لتنقيتها من الإضافات الغريبه الدخيلة غير المتجانسه وغير الملائمة — وكان كورنهرت — وهو فنان ، وكاتب ، ورجل دولة وسياسه ، وفيلسوف - أول وأقوى شخصيه فى التفتح الثقافى الذى توج الثورة السياسيه . وبوصفه أمينا عاما للمدينه صاغ بيان ١٥٦٦ لوليم أورانج . فأودع السجن فى لاهاى ، ثم هرب إلى كليفز وكسب قوته من مهارته فى الحفر على الخشب والمعادن ، وترجم الاوديسيه وأعمال بوكاشيو وشيشرون والعهد الجديد (الانجيل) . ولما عاد إلى هولندة كافح فى سبيل نشر التسامح الدينى ، ورمز إلى التاريخ الفكرى فى القرن التالى - السابع عشر - حين تخلى عن عقيدته التى رأى أنها قد تشوهت وتلوثت بالصراعات الداميه إلى حد كبير . وأصبح « لا أدريا » معترفا بأن الإنسان لم يستطيع أن يعرف الحقيقة(٩٩) ، وعرض فى كتابه الاساسى « فن الحياة الطيبه » مسيحيه بغير لاهوت ، أى منهجا أخلاقيا مستقلا عن المذاهب الدينيه . ونتيجه لشيء من الاغضاء أتيح له أن يموت ميتة طبيعية (١٥٩٠) .

وتميزت هولنده بأن رجال الاعمال فيها كثيرا ما خلطوا بين الادب وبين شئونهم الماديه ، من ذلك أن رومرفسكر . وهو تاجر ثرى فى أمستردام ، ساعد صغار الكتاب وأكرم وفادتهم ، وجعل من بيته منتدى (صالونا) يبارى منتديات فرنسا ، ونظم هو نفسه شعرا أكسبه لقب «الهولندى الشجاع» أما بيتر هوفت فقد جعل من قصره فى بيدون على الزيدرزى ملاذا لعصر النهضه فى هولنده ، فاستقبل بالترحاب فى « حلقه ميودين » الشعراء ورجال العلم والدبلوماسيين والقواد والأطباء . وفى العشرين سنة الأخيرة من حياته ، كتب هو نفسه « تاريخ الأراضى الوطنية » ، روى فيه قصة ثورة الأراضى فى نثر قوى رائع ، جعل هولنده تكرمه وتحتفل به وكأنه يمثل المؤرخ الرومانى « تاسيتس » فى هولنده .

ومن بين مائة شاعر فى هولنده سما ثلاثة باللغة العامية إلى ذروتها الأدبية. منهم جاكوب كاتس المتقاعد الكبير لمدة اثنين وعشرين عاما ، الذى بسط حكمة الأمثال السائرة فى شعر شعبى متبل بالحكايات الطريفة المفعمة بالحيوية، حتى ظلت كتابات « الأب كاتس » لعدة قرون ، من مقتنيات كل بيت يعرف أهله القراءة والكتابة فى هولنده ، أما جوست فان دن فوندل فقد تغلب على كل المحن وكل الأعداء ، حتى تبوأ مكانة عالية فى الأدب الهولندى . وكان أبوه صانع قبعات نفى من أنتورب بسبب آرائه المؤيدة لمذهب تجديد العماد . وولد جوست فى كولون . وفى ١٥٩٧ استقر بالأسرة المقام فى أمستردام ، وافتتح الوالد ، الذى تقلب من مذهب إلى مذهب ، محلا لصناعة الجوارب ، وورث جوست عمل أبيه ولكنه ترك إدارته لزوجته وابنه ، على حين عمل هو على تعويض ما فاته من التعليم الرسمى بدراسة اللاتينية والإيطالية والفرنسية والألمانية ، وكتب رواياته الثمان والعشرين وفق نماذج أغريقية وفرنسية ، وحرص فيها على اتباع نظام الوحدات بدقة . وسخر من فكرة الجبرية أو القضاء والقدر ومن الجدل بين الشيع البروتستانتية . وافتتن بجمال الشعائر الكاثوليكية ، وبماريا تسلسكاد التى كانت كاثوليكية وجميلة معا . وبعد موت زوجها (١٦٣٤) وموت زوجته هو (١٦٣٥) توثقت أواصر الصداقة بينهما : وفى ١٦٤٠ اعتنق المذهب الكاثوليكى . واستمر ينتقد بشدة الأحقاد الدينية والمخادعات والحيل الاقتصادية والفساد السياسى ، وكسب قلوب الهولنديين بالتغنى بشجاعة الأراضى الوطيئة ومجدها . وفى ١٦٥٧ أفلست صناعة الجوارب التى أساء ابنه إدارتها ، وهرب الإبن إلى جزر الهند الشرقية . وباع الشاعر كل ممتلكاته المتواضعة ليرضى دائنيه ، وظل لعشر سنين يكسب قوت يومه من العمل بوظيفة كاتب لدى مقرض نقود ، وأخيراً أجرت عليه حكومته معاشا ، وقضى فى هدوء الثلاثة عشر عاما الأخيرة من عمره الذى بلغ اثنين وتسعين عاما .

أما أعظم الشخصيات جاذبية فى أدب الأراضى الوطيئة فى هذا العصر ،

فهو قسطنطين هيوجنس ، وهو هولندى جمع بين كل مظاهر وجوانب النهضة فى إيطاليا . وكان أبوه كريستيان جنس سكرتير مجلس الدولة فى لاهاى أما ابنه كريستيان فكان أعظم رجال العلم فى القارة على عهد نيوتن ، وبين الوالد والولد حافظ قسطنطين على ما اشتهرت به الأسرة من قدرات ومواهب ولد قسطنطين فى لاهاى فى ١٥٩٦ . ونال فيها وفى ليدن وأكسفورد وكمبردج قسطا وافرا من التعليم، وكتب الشعر باللاتينية والهولندية ، وبرع فى الألعاب الرياضية، وأصبح موسيقيا وفنانا عظيما . وفى سن الثانية والعشرين التحق ببعثة دبلوماسية إلى انجلترا ، وعزف على العود أمام جيمس الأول ، وأحب جون دون الذى ترجم فيها بعد قصائده إلى الهولندية . وفى سن الثالثة والعشرين أرسل فى بعثة دبلوماسية إلى البندقية ، ولدى عودته كاد يفقد حياته عندما كان يرقى قمة برج الكاتدرائية فى ستراسبورج . وأصبح فى ١٦٢٥ سكرتيرا لطائفة من الحكام على التعاقب . وفى ١٦٣٠ عين فى المجلس المخصوص . وفى نفس الوقت أصدر عدة دواوين من الشعر تميزت بجزالة الأسلوب ورقة الشعور . وآذن موته فى سن التسعين (١٦٨٧) بانتهاء أزهى عصور الأراضى الوطيئة .

٧ — الفنون الهولندية

أحس الهولنديون البروتستانت بأن عمارة كنيسة العصور الوسطى وزخارفها كانت أشكالا تغذى النفوس بما يؤيد الأساطير ويدعمها ، وتثبط الفكر وتعوقه ، ومن ثم عقدوا العزم على أن يعبدوا الله بالصلوات والعظات . لا بالفن ، ولم يحتفظوا فى طقوسهم إلا بفن الانشاد . ولذلك كانت هندسة بناء الكنائس عندهم تكاد لا تهدف إلا إلى البساطة الصارمة المطلقة . بل إن الكاثوليك أنفسهم لم يشيدوا فى المقاطعات المتحدة كنائس جديرة بالذكر وفى القرن السادس عشر جلب تجار ما وراء البحار ، ربما من سوريا أو من

مصر ، فكرة القباب البصلية الشكل . وانتشر هذا الطراز من هولنده وروسيا إلى ألمانيا ، وأصبح أحد معالم عصر الباروك فى أوربا الوسطى .

إن رجال الأعمال ، لا رجال الدين ، هم الذين سيطروا على هندسة البناء . وعمدوا أول ما عمدوا إلى تشييد مساكن راسخة البناء لأنفسهم — تكاد تكون كلها متشابهة ، لا تبعث على الخوف مثل قصور فلورنسه ، ولا تثير الحقد والحسد ، لأن كل مظاهر البذخ والترف والفن كانت داخل جدران البيت ، وفى حدائق الزهور التى عنوا بها أكبر عناية . أما المنشآت المدنية فقد أباحوا فيها بعض الزخرف والأبهة . ففى دار البلدية التى شـــادها ليفن دى كى لمدينة أنتورب ، جمع فى انسجام تام بين عناصر من فرنسا ومن ألمانيا ومن عصر النهضة ، ودار نقابة القصابين فى هارلم ، التى شادها ليفن نفسه ، تضارع فى فخامتها وأبهتها أية كاتدرائية قوطيه . وتظهر دار البلدية فى هارلم كيف أن هولنده طوعت الطراز الكلاسيكى (القديم) تماما حتى بات يتمشى مع أهدافها ونزعاتها .

وكان ميكلأنجلو هولنده فى العمارة والنحت فى ذاك العصر هو هندريك دى كيزر الذى أصبح وهو فى سن التاسعة والعشرين المهندس المعمارى لمدينة أمستردام (١٤٩٤) ، وهناك صمم الكنيسة الغربية وسوق المال ومبنى شركة الهندسة الشرقية فى طراز يجمع بين طرز إيطاليا وهولنده وعصر النهضة . وفى دلفت بنى دار البلدية والنصب التذكارى لوليم الأول ، وفى ١٦٢٧ فى روتردام ، صب من البرونز تحفته الرائعة . ألا وهى تمثال أرزم الرائع الذى قبع ماكنا لم يمس بأذى لعدة سنوات بين أنقاض الحرب العالمية الثانية . ودمر بعض من أجمل المنشآت الهولندية التى يرجع تاريخها إلى تلك الحقبة نتيجة الاخفاق فى إدارة شئون الدولة .

وتألقت صناعة الخزف بين الفنون الصغيرة . وفى روتردام ودلفت سما الذوق الرفيع بصناعة القرميد حتى جعل منها فنا . وأقبل الناس على

استخدام خزف دلفت المزخرف فى كل بيت فى الأراضى الوطيئة تقريبا . وحوالى ١٦١٠ ، فور افتتاح التجارة الهولندية مع الشرق ، بدأخزافو دلفت فى تقليد الخزف الصينى ، وأنتجوا نوعا من السيوليق (خزف مزخرف مطلى بالمينا) الرقيق الأزرق أسموه « البورسلين الهولندى[١٠٠] » ، وسرعان ماعرض تصف أوربا الغربية خزف دلفت على الجدران أو على الأرفف .

أما أعظم الفنون جميعا فى الأراضى الوطيئة فكان الرسم . وليس فى التاريخ المعروف لدينا بلد غير هذه البلاد - ولا نستثنى من ذلك إيطاليا النهضة - حظى فيه أى فن يمثل هذه الشعبية العارمة . وتضم فهارس الفن فيما بين عامى ١٥٨٠ — ١٧٠٠ خمسة عشر ألف رسم هولندى[١٠١] ، وتأثر الفن الفلمنكى تأثرا شديدا بالفن الإيطالى ، ولكن فى المقاطعات الشمالية أثارت المقاومة الموفقة لسلطان أسبانيا روحا قومية وكبرياء قومية . لم تكونا تحتاجان إلا إلى الثروة المستمدة من التجارة فيما وراء البحار ، لتحدثا انفجارا ثقافيا . فتحولوا بالفن إلى معارج جديدة من التطويع لحياتهم ومن الواقعية بعد أن كانت تتقلص عنه تماما الرعاية الكنسية والأرستقراطية ، وأصبح رعاة الفن وحماته الجدد هم التجار وعمـــد المدن والمحامون والمؤسسات والنقابات والكوميونات والمستشفيات ، بل حتى المنشآت الخيرية ، ومن ثم كانت الرسوم الشخصية والرسوم الجماعية ومشاهد الحياة اليومية . وكان لكل مدينة هولندية تقريبا مدرسة الفنانين الخاصة بها ، تحت رعاية محلية : هارلم ، ليدن ، أوترخت ، أمستردام ، دوردرخت ، دلفت ، لاهاى . أما المواطنون البسطاء الذين ربما كانوا فى بلاد أخرى أميين من حيث الفن ، عالة على الكنيسة ، فإنهم هنا زينوا بيوتهم بلوحات اشتروها أحيانا بثمن عال ، من ذلك أن خبازا أثبت سلامة ذوقه ، بدفع ٦٠٠ فلورين (٥٧،٠٠٠ دولار ؟) ثمنا لصورة واحدة للفنان فرمير[١٠٢] ، وكادت النزعة الدنيوية أن تكون عامة شاملة ، فلم يعد للقديسين وجود فى الرسوم ، وجاء التجار ، وانتصرت رسوم البيت والحقل على الكنيسة وازدهرت الواقعية ، فنظر البرجوازى بشىء قليل من التقدير

إلى لوحة تمثله هو وزوجته ، ولكن السدود والكثبان الرملية وطواحين الهواء والأكواخ والسفن الشراعية والأرصفة الزاخرة بالبضائع ، كل هذه أحيت صورها على الجدران فى سرور بالغ ، ذكريات أشياء فعلية عامة . ولقيت مناظر السكارى المرحين ورواد الحانات بل حتى المواخير ، ترحيبا فى بيوت ربما كانت تعلق منذ قرن مضى صور الشهداء القديسين وأبطال التاريخ أو آلهة الوثنيين . ولم تكن الصور العارية من سمات هذا العصر ، حيث لم يبتهج لها الناس فى مثل هذا المناخ الرطب مع الأجسام الضخمة . وبدا فى هذه البيئة الجديدة أنه ليس ثمة محل لما تميز به الفن الإيطالى من عبادة الجمال والرقة والتهذيب والوقار ، حيث لم تتطلب هذه البيئة من الفن شيئا أكثر من إخراج الحياة اليومية والمشاهد المألوفة .

وثمة جانب كئيب حزين فى صورة الأمة التى أغرمت بالرسوم إلى حد الجنون . وذلك أن الفنانين الذين رسموا لها عانوا فى أغلب الأحيان من الفقر ولم يحظو إلا بأقل التقدير . على حين أن الأرشيدوق واللوردات والأساقفة فى الفلاندرز أجزلوا العطاء لمن اصطفوا من الفنانين . أما فى هولنده فكانت المنافسة بين الفنانين فردية ، فأنتجوا للسوق العامة ، ووصلوا فى معظم الأحوال إلى العملاء عن طريق وسطاء نشأوا بين المنتجين والمستهلكين المشترين ، وعرفوا كيف يشترون بثمن بخس ويبيعون بسعر عال . وقلما حصل الفنانون الهولنديون أثمانا عالية ، فإن رمبرانت فى ذروة شهرته لم يقبض إلا ١٦٠٠ جيلدر ثمنا للوحته « حراسة الليل » ولم يحصل فان جويين إلا على ٦٠٠ جيلدر ثمنا للوحيه « منظر لاهاى » ، وحصل الباقون على أقل من هذا بكثير ، فإن جان ستين رسم ثلاث صور شخصية مقابل ٢٧ جيلدر ، وباع ايزاك فان أوستاد ثلاث عشرة صورة مقابل مبلغ مماثل . وكان على الفنانين الهولنديين أن يلجأوا إلى مختلف الأعمال ليكسبوا قوت يومهم ، فباع فان جويين الزنبق ، واشتغل هوبيما بجباية الضرائب ، وأدار ستين نزلا ،

وكان الفنانون أنفسهم من الكثرة إلى حد أنهم أغرقوا سوقهم وأتخموها .
أن قائمة بأسماء مشاهيرهم لتملأ صفحات ، وأن ثبتا بأعمالهم المكنوزة ليزحم
كتابا ، فهلا أزجينا لهم الشكر فى الهامش(*) .

(*) ـ ألبرت كيب : رعاة يعزفون على المزمار (نيويورك)
ـ كارل فبريتوس : صورة شاب (روتردام)
ـ جان فان جويين ، وهو أعظم هذه المجموعة : مناظر طبيعيه غاية فى الروعة ،
محفوظة فى كثير من المتاحف ، من بينها قاعة كوركوران فى واشنجطن .
ـ ديرك هالس ـ الأخ الأصغر لفراس : الصحبة المرحة (لندن)
ـ جيرار فان هنثورست : حفلة موسيقية (لننجراد)
ـ توماس دى كيزر ـ ابن هندريك : صور شخصية جميلة فى درسدن ، نابلى ،
اللوفر ، نيويورك وسبقت لوحته « درس التشريح للدكتور فريج » ١٦١٩
بزمن طويل ، لوحة رمبرانت « درس التشريح للأستاذ تولب » ١٦٣٢
ـ كارل فان ماندر : كتب فى ١٦٠٤ « كتاب رسامى الأراضى الوطيئـــة »
الذى كاد ينافس النموذج الذى احتذاه فاسارى .
ـ ميشيل فان ميرفات : صور شخصية فى كثير من المتاحف
ـ أدريان فان أوستاد : عازفو السكان المجاأر والمدخون (كلاهما فى نيويورك)
ـ ايزاك فان أوستاد : السوق (مجموعة ولاس)
ـ فرانس بوريس الأكبر : صورة سيد مهذب (مجموعة ولاس)
ـ فرانس بوريس الأصغر : صورة شاب (قاعة بتى)
ـ بيتر بوريس : وليمة مجازية (مجموعة ولاس)
ـ هركيوليز بيجرز : منظر ريفى (برلين)

٨ - فرانس هالس
(١٥٨٠ — ١٦٦٦)

عاش أسلافه لمدة قرنين من الزمان فى هارلم . وكان أبوه قاضياً هناك ، ولكن لأسباب غير معروفة ولد فرانس فى أنتورب ، ولم يعد إلى هارلم ليقوم فيها إلا بعد بلوغه التاسعة عشرة من العمر . ولم نسمع عنه شيئا قط إلا فى ١٦١١ ، حيث سجلت إحدى كنائس هارلم تعميد هرمان بن فرانس هالس وزوجه آنك . أما ما عرف عنه بعد ذلك ، فكان من سجلات محكمة شرطه (١٦١٦) حيث تروى أن فرانس هالس قبض عليه بتهمة ضرب زوجته ضرباً مبرحا ، فأنب تأنيباً قاسياً ، ثم أفرج عنه بعد تعهده بأن يكون مهذباً وأن يتجنب صحبة السكارى . وماتت آنك بعد ذلك بسبعة شهور . وبعد خمسة أشهر أخرى (١٦١٧) تزوج فرانس من ليزبث رينيرز . وبعد تسعة أيام أنجبت له أول أولاده العشرة[١٠٤] . وقد خلف لنا لوحه رائعة تمثله مع زوجته الثانيه[١٠٥] التى عاشت معه طوال السنوات الأربع والسبعين التى بقيت فى حياته ، واحتملت أملاقه وعوزه وسكره وعربدته . وليس ثمة ما يجذب الانتباه فيه إلا أنه كان رساماً عظيما ذا روح مرحة .

وكان قد بلغ السادسة والثلاثين حين حقق نجاحا هائلا فى لوحته « مأدبة نقابة رماة سانت جوربس[١٠٦] » ، وهى إحدى لوحات « دواين » الخمس التى هيأت لفرانس مكانته العالية ، ويقصد بلفظ « دولين » مقر المتطوعين ، الذين مارسوا الرماية وأقاموا المباريات وعقدوا الندوات الاجتماعية ، وكانوا بمثابة قوات نظامية فى الكوميونات . وكان ضباط مثل هذه النقابات أحياناً يأجرون فناناً ليرسم لهم صورة جماعية ، ولكن يصر كل واحد منهم على أن يتناسب بروزه فى الصورة مع رتبته فى الجماعه ومع إسهامه فى تكلفتها . فهنا هؤلاء الضباط فى أبهى حلة ، يتجمعون حول مأدبة ، ويرفع أحدهم علم فرقته الغنى بالألوان . وحصل هالس على أجره لأن كلا من هذه الرؤوس فرد يمثل شخصية قوية ، تختلف عن الأخرى ، كما يمثل سيرة حياته وتحفة رائعة .

ولم نسمع عن مهمة مماثلة أخرى إلا بعد إحدى عشرة سنة من ذلك التاريخ، ولكن هالس أنتج في هذه الحقبة رسوما تعد من روائع الفن الهولندي . من ذلك «بائع السردين[١٠٧]» وهي مرة أخرى تاريخ يتمثل في وجه، و «الثالوث المرح» «يونكر رامب وصديقته» وكلاهما في نيويورك، واللوحة المشهورة «الفارس الضاحك[١٠٨]» - تتجسد فيها الثقة بالنفس، في ثياب ذات أهداب مع طوق مكشكش حول العنق . وعباءة مزدانة بالأزهار، وابتسامة تكاد تشبه ابتسامة الجيوكندا في رقتها . وفي هذه الفترة (١٦٥٤ ؟) رسم فرانس «صورته الشخصية [١٠٩]» وجه قوي مليح، وعينان حزينتان تنكران زهو الملابس الجميلة والذراعين المطويين. لقد كان الرجل منهوكا تتقاذفه اللهفة على الإتقان والكمال، والظمأ إلى الخمر .

وفي ١٦٢٧ جاءت مجموعة دولين الثانية : لوحة أخرى «لنقابة ضباط سان جوريس [١١٠]»، ولم تكن في صفاء وإشراق اللوحة الأولى، فإن هالس تحول عمدا، ولبعض الوقت، عن البريق الهادىء للألوان القوية إلى التلاعب الأشق بالأساليب الثانوية - الألوان النصفية (لا داكن ولا فاتح) والظلال الرمادية ومخطوط الكثافية الرقيقة . وثمة لوحة دولين أخرى في هذا العام «نقابة رماة سانت أوريان[١١١]»، وهي كذلك في أساليب مخففة . ولا بد أن الرماة اغتبطوا لأنهم كلفوا هالس أن يرسم لهم لوحة أخرى [١١٢] . وهنا استرد الفنان ألوانه وأبرز عبقريته ليجعل من كل وجه شيئا ممتعا فريدا . وفي ١٦٣٩ رسم لوحة أخرى «لضباط نقابة سانت جوريس»[١١٣] ولكن في هذه اللوحة ضاع الفرد في زحمة المجموع . ولكن لوحات الدوان هذه في جملتها أروع صور المجموعات في كل العصور، هي توضح انطلاق الطبقة الوسطى على مدارج الظهور الموسوم بالفخار والزهو .

وفي الفترة الثانية (١٦٢٦ - ١٦٥٠) رسم هالس صورا تنادي بتخليد ذكراها . منها «السكير المرح [١١٤]»، يضع فوق رأسه قبعة كبيرة تكفي لتغطية

رؤوس حشد من السكارى : و« الذى يعدو فوق الرمال » [115]، وهو أشعث أغبر ، فى أسمال بالية ، ولكنه فاتن ، و « المتشردة أو الغجرية » تبتسم وتنتفخ فى اللوفر ، و« المهرج » فى أمستردام « وبلتازار كريمان الوهمى » فى واشنجطن أما تحفة فترة ذروة النضج هذه ، فهى لوحة هالس البالغة الامتياز « القائمون على مستشفى سانت اليزابث [116] » ، وهى تماثل ، أولا تماثل لوحة رمبرانت مندوبو نقابة تجار الأقمشة التى رسمت بعدها بإحدى وعشرين سنة .

أن إسراف هالس فى الشراب بغير حدود . ولو أنه يبدو أنه لم يسىء إلى فنه ، أضر بموقفه حتى فى بلد وفى عصر لجأ فيه الناس إلى الشراب بين الحين والحين ابتعاثا للمرح والفرح . وظل يرسم صورا ربما كانت كفيلة بأن ترفع أى فنان إلى قمة الشهرة : « ساحرة هارلم [117] » ، و « ديكارت [118] » الذى يحرر من الوهم ، فى حاجبين كبيرين وأنف ضخم وعينين تنمان عن الشك . ثم رسم فى سن الثمانين صورة « شاب فى قبعة مترهلة [119] » . ولكن فى الوقت نفسه تكاثرت الأرزاء على الفنان ، ففى ١٦٣٩ أرسل ابنه بيتر إلى مصحة الأمراض العقلية على نفقة البلدية ، وفى ١٦٤١ وضعت ابنته الكبرى المتمردة فى إصلاحية الأحداث بناء على طلب أمها . وما جاء عام ١٦٥٠ حتى كان فرانس معدماً . وفى ١٦٥٤ أقام الخباز المحلى ضده الدعوى يطالبه بسداد مائتى جلدر وحجز على أدوات الرسام . وفى ١٦٦٢ توسل الشيخ الهرم المتهدم للحصول على معونة وأجيب إلى طلبه . وبعد ذلك بعامين قرر له مجلس مدينة هارلم معاشا سنويا ، ووهبه فورا ثلاثة أحمال من الخث ليوقد مدفأته .

ويحتمل أنه رغبة فى منح فرانس مزيدا من الصدقات ، كلف فى هذا العام (١٦٦٤) برسم لوحتين : « مديروا ملجأ الفقراء » و« مديرات ملجأ الفقراء » . ويظهر فى لوحة الرجال أثر اليد المضطربة للفنان فى سن الرابعة والثمانين ، فإن معظم التقاطيع والملامح فيها ملطخة بشكل غامض ، على نقيض اللوحة الأخرى التى تمثل النساء ، فإنه مما يثير الدهشة أن المهارة القديمة عادت سيرتها الأولى :

فهنا خمس أنفس ارتسمت على خمسة وجوه ممثلة مذعنة ، خمس نساء عجائز أرهقتهن الأعمال غير العادية ، عابسات متجهمات متزمتات ، كما يقتضى نظامهن البيوريتانى ، وقد نسين مرح الشباب وبهجته . ومع ذلك . يتألق بشكل ما فى هذه التقاطيع الكالحة عطف هادىء ومشاركة وجدانية حزينة . وهاتان الصورتان الأخيرتان هما آخر لمسات جرت بها يد الفنان أو ومضات لمعت فى فنه ، وهما الآن ، إلى جانب لوحات مجموعات « الدولين » ، موجودتان فى متحف فرانس هالس الذى شادته مدينة هارلم فى مكان ملجأ الفقراء .

مات هالس فقيرا معدما (١٦٦٦) ولكنهم احتفلوا بدفنه احتفالا مهيبا فى هيكل كنيسة سانت بافون فى المدينة التى اعتمدت شهرتها على الحصار الذى قاومته طويلا ، وعلى أعمال أعظم أبنائها . ولمدة قرنين من الزمان بعد وفاته كاد النسيان يجر عليه ذيوله ، وبيعت لوحاته بأبخس الأثمان ، أو فى المزادات ، أو بلا شىء مطلقا ، وإذا كان مؤرخو الفن قد تذكروه ، فما ذاك إلا لأنهم تنبهوا إلى ضيق مجال فنه — فلم يكن ثمة صور دينية ولا أساطير ولا صور تاريخية ولا مشاهد طبيعية ولا صور عارية — أو إلى العجلة الممسوغة بالإهمال والتهاون فى طريقة عمله ، حيث لم يكن ثمة مخططات تمهيدية ، بل لطخات من ألوان متناثرة اعتمدت على التخمين وعلى ذاكرة الرائى ليملأها بالتفاصيل . واليوم يتعالى الهتاف للفنان ، بشكل قد يكون مبالغا فيه ، بما يتوازن مع طول إغفال شأنه كما يعتبر نقد كريم أن هالس ألمع رسام للصور الشخصية رآه العالم[١٢٠] » . ومادام الزمن ، وهو أجدر القضاة بالثقة ، يتذبذب فى حكمه ، فلنقنع نحن بالإعجاب .

٩ — رمبرانت هارمنزفان رين

١٦٠٦ — ١٦٦٩

ولد في ليدن لأب طحان ثرى . هو جريت هامنز الذى أضاف إلى اسمه « فان رين » ربما لأن بيته كان يطل على نهر الراين . ولا بد أن الفنان أحب أباه حبا جما لأنه رسمه إحدى عشرة مرة أو أكثر ، في قبعة وسلسلة فخمتين[١٢١] وكصراف نقود[١٢٢] وكسلافي نبيل[١٢٣] - وجه قوى حسن التقاطيع يحف به الوقار - ورسمه في ١٦٢٩ رجلا علته السنون بالكآبة والإرهاق[١٢٤]. كما رسم أمه اثنتى عشرة مرة ، أجدرها بالذكر لوحة « المرأة العجوز » في متحف فيينا قلقة منهوكة ونراها في متحف أمستردام منكبة على الكتاب المقدس. وإذا كانت الأم -كما يعتقد البعض- « منونية » (تنتسب إلى طائفة بروتستانتية متزمتة) فقد ندرك من هذا ميل رمبرانت إلى التوراة ، وصلته الوثيقة باليهود .

وفي سن الرابعة عشرة التحق بجامعة ليدن ولكنه أنعم النظر في أشكال أخرى غير الأفكار أو الالفاظ ، وترك الجامعة بعد عام واحد ، وأقنع أباه بالسماح له بدراسة الفن ، وخيرا ما فعل ، فإنه في ١٦٢٣ أرسل إلى أمستردام ليتلمذ على بيتر لاستمان الذى كان يعتبر آنذاك آبللز (رسام إغريقى) العصر وكان لاستمان قد عاد من روما إلى هولنده بتوكيد كلاسيكى على الرسم الصحيح ويحتمل أن رمبرانت تعلم منه أن يكون مخططا ممتازا . ولكن بعد قضاء عام واحد في أمستردام عاد الشاب القلق مسرعا إلى ليدن ، متلهفا على الرسم بطريقته الخاصة ، فرسم أو صور كل ما وقعت عليه عيناه تقريبا ، بما في ذلك الحاقات الصاخبة والقذارات المخزية[١٥٢] ، وتابع النهوض بفنه عن طريق تجارب عزيزة لديه في تصوير شخصه فكانت المرآة هي النموذج أمامه وترك لنا صورا شخصية (٦٢ على الأقل) أكثر مما ترك كثير من كبار الرسامين من صور ، ومن بين هذه الصور الشخصية الأولى رأس جميل في لاهاى : وهى لوحة تمثل رمبرانت في الثالثة والعشرين ، وسيما مليحا بطبيعة الحال (وهذا هو

شأن كل المرايا ـ تظهرنا فى أجمل صورة) يتطاير شعره هنا وهناك دون مبالاة ، فى ترفع الشباب عن التقاليد والأعراف ، تنبىء عيناه عن اليقظة والزهو بما ثبت من قدرته وكفايته .

والحق أنه كان بالفعل قد وطد مركزة . وفى ١٦٢٩ نقده أحد الخبراء ١٠٠ فلورين اجراً لصورة ـ وهذا أجر مناسب لمنافس صغير فى بلد كان فيه عدد الرسامين كبيرا مثل عدد الخبازين ، ولكنهم لا يشبعون بطونهم مثلهم . وكانت موضوعاته ـ بعد شخصه ووالديه ـ مأخوذة من الكتاب المقدس . وفى لوحته « أرميا ـ يرثى لخراب أورشليم[١٢٦] » تجلت الحالة الصوفية التى تميزت بها لوحات رمبرانت الدينية . أما لوحة « سمعان فى الهيكل[١٢٧] » فإنها تعبر تعبيرا صادقا عن روح ما جاء على لسان هذا الشيخ فى الإنجيل : « الآن نطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام » (إنجيل لوقا ٥٩ : ٥) . وكلف من أمستردام بأعمال كثيرة إلى حد أنه عاد إليها فى ١٦٣٨١ . وقضى هناك بقية أيام حياته .

وفى خلال سنة من وصوله إليها رسم إحدى روائع الدنيا وهى « درس التشريح للأستاذ نيقولا تولب[١٢٨] » ، وكان ثمة تشريحات كثيرة فى التصوير الهولندى ، ولم تمتهن السوابق ، أو يخدش التواضع حين كلف الجراح الممتاز الذى كان أربع مرات عمدة لمدينة أمستردام ، رمبرانت أن يرسمه ، وهو يقدم عرضا فى التشريح فى قاعة نقابة الجراحين ، معتزما أن يهدى الصورة إلى النقابة تذكارا لأستاذيته ، وربما كان دكتور تولب هو الذى اختار سبعه من الطلبة ، ليكونوا معه فى الصورة ، وواضح أنهم لم يكونوا طلبة ، بل رجالا ناضجين من ذوى المكانة فى الطب أو فى مجال آخر ، وانتهز رمبرانت الفرصة ، كل الفرصة ، ليبرز الوجوه متألقة بالشخصية والذكاء . وتبدو الجثة منتفخة على نحو غير ملائمة ، واتخذ اثنان من المتفرجين وضعا تشهده الأجيال القادمه ، ويمضى دكتور تولب فى عمله فى هدوء رجل متمرس واثق . أما الرجلان اللذان

يحدقان النظر فوق رأس الجثة فكأنا يمثلان حب الاستطلاع والانتباه بأجلى معانيهما ، وكان التلاعب بالضوء على اللحم والأطواق إعلانا عن ميزة رمبرانت .

وانهالت الطلبات على رمبرانت ، حتى بلغت أربعين فى عامين . أما وقد امتلأت الآنجيويه بالمال، واستبد به الظمأ إلى النساء «فقد حان الأوان للزواج (١٦٣٤) . وكانت ساسكيا أولنبرخ ذات وجه جميل وعينين راقصتين وشعر حريرى ناعم ذهبى اللون وقوام أهيف وثراء كاف ، وما أجمل صورة «ساسكيا» فى مدينة كاسل الألمانية ، وكانت الابنة اليتيمة لمحام وقاض ثرى . وربما كان عمها ـ وهو وسيط فى تجارة التحف الفنيه ـ هو الذى أغراها بالجلوس أمام رمبرانت ليرسمها ، وكانت جلستان فقط كافيتين للتقدم لطلب يدها . وقدمت العروس صداقا قدره أربعون ألف جيلدر ، أصبح بذلك مفلس المستقبل واحدا من أغنى الفنانين فى التاريخ . وأصبحت ساسكيا زوجة صالحة على الرغم من ثروتها . وتحملت فى صبر وجلد عبقرية شريك حياتها المستغرقة فى العمل . وجلست إليه ليرسم لها صوراً كثيرة ، ولو أنها أبرزت جسمها الآخذ فى التفتح والامتلاء ، وكان يدثرها فى أزياء غريبة ليرسم لها «فلورا آلهة الأزهار» المشرقة الباسمة الموجودة الآن فى لندن ، و «فلورا» الحزينة ، الأبسط شكلا ، الموجودة الآن فى نيويورك . وفى إحدى اللوحات فى درسدن نراه وقد غمرته السعادة ، وهو يمسك بها وهى جالسة على ركبته ، تفيض منه الابتسامة على اللوحه ، رافعا كأسا عالية ابتهاجا بموفور الصحه والمال .

وفى سنين اليسر هذه (١٦٣٤ — ١٦٤٢) أخرج الفنان التحفة تلو التحفة . واستمر يرسم نفسه . فنراه فى « صورة الفنان » (١٦٣٤) وهى الآن فى اللوفر ـ وسيما مبتهجا ، فى قبعة مزدانه بالجواهر . وسلسلة ذهبية على صدره ، ورسم فى السنة نفسها « الضابط (١٢٩) » ـ وهو فيها جميل مهيب يضع على رأسه قبعة تغزو العالم ، ورسم لنفسه فى ١٦٣٥ صورة فى قبعة رائعة يكاد ريشها يداعب

السماء . وسعيا وراء الشخصية الأجمل ، (١٦٣٤ « السيدة العجوز » التى لاتبالى بنا وهى معلقة فى المتحف الوطنى بلندن فى وجه ملأته السنون بالتجاعيد . وبعد ذلك بعام واحد رسم « المرأه العجوز على الكرسى ذى الذراعين » وهى موجوده فى نيويورك . وعثر فى خرائب أمستردام على رجل فى الثمانينات ، ألبسه عمامة وثيابا ورسم له لوحة « رجل شرقى[١٣٠] » : وكان له ولع بجمع الثياب والجوهرات والسيوف والقبعات والأحذية الغريبة ، تستطيع أن تراها جميعا ، فيما عدا السيف فى لوحة « مارتن داي[١٣١] » ، بالأربطة والأشرطة على قفازه ، والأهداب على ثيابه والتروس فوق حذائه . والآن أيضـــا ، رسم موضوعات دينيه عتيقة فى صورة صادقة جديدة متخذا نماذجه من الرجال العجائز والشابات اللائى قابلهن فى الشوارع ـ كل منها تلفت النظر فى أسلوب من معالجة التفاصيل ، تأخذ بالألباب فى التلاعب بالضوء ، وتثير المشاعر بتدفق العاطفة فيها الى حد أن أية لوحة منها يمكن الدفع بأنها أبدع ما رسم الفنان ، ومثال ذلك لوحة « تضحية ابراهيم[١٣٢] » ، « الملاك روفائيل يهجر طوبيا[١٣٣] » . وجاءت هذه السنوات المباركة بعدد من أشهر الصور الشخصية مثل « السيدة ذات المروحة[١٣٤] » ، و « الرجل ذو القفاز[١٣٥] » ، وكلتاهما تجل عن الوصف ، وتقصر عنها أية ألفاظ .

وآخر الرسـوم فى هذه الحقبة ، وربما أعظم انجازات رمبرانت على الاطلاق ، هى اللوحة الضخمة (١٤ × ١٢ قدما) تعرف فى التاريخ باسم « حراسة الليل » ، والأكثر احتمالا أن اسمها « جماعة كابتن كوك الرماة[١٣٦] (١٦٤٢) . ولا ينقص هذه الرقعة الهائلة أية تفاصيل ، وليس فيها أى ظل للظلام أو أى مسقط للضوء إلا حسب حسابه ، أو أى تباين فى اللون إلا وهو مدروس . ويقف الكابتن المزهو فى الوسط فى لون أسمر وأبيض وأحمر ، وإلى يساره قائمقام فى أحذية عالية وسترة وقبعة صفراء ذهبية اللون ، والسيوف تبرق والرماح تلمع والأعلام ترفرف ، وإلى يمين الكابتن فرقة

الناى والطبول . وتغادر الجماعة مقرها إلى مايبدو واضحا أنه عرض فى أحد المهرجانات . وتعاقد رمبرانت مع كل من الأشخاص الستة عشر الذين سيصورهم ، على أن يدفع كل منهم مائة فلورين . وأحس كثير منهم بأن المساواة فى الأجر لم تقابلها مساواة فى التألق والعظمة فى اللوحة ، وشكا بعضهم من أنه وضعهم فى الظل ولم يسلط عليهم الأضواء ، أو أنه قصر فى تحديد ملامحهم حتى يسهل على أصدقائهم التعرف عليهم. ولم يشتد الطلب بعد ذلك على الصور الجماعية فى مرسمه ، وبدأ نجمه يأفل .

ولا بد أن المال كان وفيراً لديه فى ١٦٣٩ لأنه اشترى فى تلك السنة داراً فسيحة فى شارع جودن — بريد الذى كان يقطنه أثرياء اليهود . وكلفته الدار ثلاثة عشر ألف فلورين . وهو مبلغ ضخم لم ينجح قط فى دفعه كاملا . وربما قصد ألا تتسع لأسرته فحسب ، بل لتلاميذه ولمرسمه ومجموعته المتزايدة من التحف القديمة والأشياء الغريبة والفن . وبعد دفع نصف ثمن الشراء فى السنة الأولى من شغل الدار ، وبقاء النصف الثانى دينا عليه ، ارتفعت فائدته التى لم تدفع إلى حد جره إلى هاوية الافلاس .

وفى الوقت عينه كانت صحة حبيبته ساسكيا آخذة فى التدهور ، وكانت قد أنجبت له ثلاثة أولاد ، مات كل منهم فى سن الطفولة . وهدت ولادتهم العسرة ونهايتهم الأليمة من كيانها . وفى ١٦٤١ أنجبت له إبنا أسماه تيتوس ، وقد بقى على قيد الحياة ، ولكن أمه فارقت الحياة فى ١٦٤٢ . وأوصت بكل ما تملك إلى رمبرانت ، شريطة أن تؤول بقيـة التركة إلى ولدها إذا تزوج والده ثانية . وبعد سنة من وفاتها رسمها رمبرانت صورة من الذاكرة العامرة بحبها . وكدرت هذه الخسارة صفو حياته . وبدأ منذ ذلك الوقت أن فكرة الموت تستبد به وتقلقه . وعلى الرغم من أنه كان شديد التعلق بأسرته، فإنه كان دائما يؤثر الوحدة على الرفقة ، أما « الآن فقد » آوى إلى عزلة كئيبة . وكان وهو يرسم يصرف المشاهدين الأغرار عنه قائلا « أن رائحة الطلاء

تضر بالصحة[١٣٧] » . ولم يكن رجل الدنيا المثقف أو المهذب مثل روبنز . وقرأ قليلا : ولم يكد يقرأ شيئا سوى الكتاب المقدس ، وعاش فى مملكة اللون والظل والضوء التى لا تنبس ببنت شفة . وهى متنوعة مثل دنيا الأدب ولكنها غريبة عنها فريدة . وكان من الصعب عليه أن يقوم بالواجبات الاجتماعية إذا قدم عليه من يجلسون أمامه ليرسمهم ، أو أن يتبادل معهم أحاديث قصيرة بقصد تسليتهم والاحتفاظ بسكونهم وهدوئهم. وقل المترددون عليه حين وجدوا أن رمبرانت مثل معظم أسلافه ، لم يكن يرضى أن يرسم لهم رسما تخطيطيا فى جلسة أو جلستين ، ثم يكمل الصورة من هذا الرسم التخطيطى ، بل آثر أن يرسم مباشرة على القماش ، الأمر الذى يتطلب جلسات كثيرة ، هذا فوق أنه كان له طريقة انطباعية فى أن يرسم ما يفكر فيه أو يحس به ، لا مجرد ما يرى ، ولم تكن النتيجة دائما مرضية .

ولم يكن عونا له أن تقع داره فى حى اليهود . وكان قد عقد منذ ذاك الوقت صداقات مع كثير منهم . وكان قد نقش صورة لمنسه بن إسرائيل (١٦٣٦) . والآن فى ١٦٤٧ حفر على الخشب الوجه الداكن للطبيب اليهودى افرايم بونس . ولما كان الفنان محاطا باليهود من كل جانب تقريبا ، وواضح أنه أحبهم ، فإنه وجد موضوعات تتزايد يوما بعد يوم ، بين اليهود الأسبان والبرتغاليين فى أمستردام . وربما تعرف على باروخ سبينوزا الذى عاش فى هذه المدينة من ١٦٣٥ . وذهب بعضهم إلى أن رمبرانت نفسه كان يهوديا . وهذا غير صحيح لأنه عمد ونشأ على المذهب البروتستانتى . وكانت ملامحه تنطق بأنه هولندى ، ولكن لم يعرف عنه أى تحيز ملحوظ بالنسبة للدين أو الجنس . وثمة عمق خاص لتفاهمه الموسوم بالعطف فى رسومه لليهود . لقد افتتن بشيوخهم ولحاهم التى تقطر منها الحكمة وعيونهم التى تشف عن الحزن والأسى . وإنك لتجد نصف العذاب النفسى عند العبرانيين ماثلا فى وجه « اليهودى العجوز » وهى اللوحة التى رسمها رمبرانت ١٦٥٤ والموجودة الآن

فى الارميتاج (لننجراد) ، وفى لوحة « الحبر » (الحاخام) (١٦٥٧) فى لندن وفى هذه اللوحة الأخيرة صورة الحبر الذى واسى رمبرانت بعد وقوعه فى الضائقة المالية وأمده بمعونة مادية .

ونراه فى ١٦٤٩ يرسم « هندريكا ستفلز فى المخدع » (١٣٨) ، وندرك أنه اتخذ خليلة . وكانت وصيفة ساسكيا ، وبقيت مع الفنان الأرمل وعنيت به عناية فائقة ، وسرعان ماسرت عنه بحرارة جسمها . أنه لم يتزوجها لأنه كره أن يتخلى عن تركة ساسكيا لابنه تيتس الذى كان بعد صبياً فى الثامنة من العمر . وعندما رسم هندريكا فى ١٩٥٥ (١٣٩) ، كانت جميلة بدرجة مقبولة ذات عينين تلازمهما لهفة مكتئبة ، وربما كانت هى التى جلست أمامه مرتين لتجربة أو دراسة فن رسم العاريات : فى ١٦٥٤ « باشيبا فى الحمام » (١٤٠) و « امرأة تخوض » (١٤١) وكلتاهما آية فى العظمة من حيث الألوان والاتساع . وفى يولية من هذا العام دعيت للمثول أمام شيوخ الكنيسة ، حيث أنبت تأنيبا قاسيا على اقترانها الزنى ، وحرمت من تناول القربان المقدس . وفى أكتوبر وضعت له طفلا اعترف رمبرانت ببنوته ، ودبر أمر تعميده بسلام ، وعرف كيف يحب خليلته حبا عميقا كما أحب زوجته ، وإلا كيف كان يتسنى له أن يملأ وجهها بكل هذه الرقة حين صورها ١٦٥٨ فى رداء أحمر يلتئم مع شعرها (١٤٢) . وكانت زوجة أب فاضلة لتيتس الذى أخذ يترعرع صبيا فاتنا . ويمكن أن تراه فى متحف متروبوليتان للفن ، وهو فى الرابعة عشرة ، جميلا كالبنت ، ذا عينين تتمثل فيهما حيرة الشباب ، تربكه الحياة ، يجد شيئا من الطمأنينة والأمان فى حب أبيه ، وتراه مرة أخرى فى مجموعة ولاس ، وقد سلخ عاما آخر من العمر . وقد نتصور كل التصور كيف أنه كان عزاء وسلوى لأبيه رمبرانت الذى انصبت على رأسه الكوارث المالية فى هذه السنة .

وبذل الفنان جهداً جباراً ليقتصد فى الإنفاق ويصل إلى الموازنة بين موارده ونفقاته . وثمة لوحات دينية عظيمة يرجع تاريخها إلى هذه الحقيقة — حقبة

الزنى والديون (١٦٤٩ — ١٦٥٦) منها « يعقوب يبارك حفدته[١٤٣] » ، و « المسيح عند النبع[١٤٤] » ، و « المسيح وامرأة سامرا[١٤٥] » ، و « النزول من الصليب[١٤٦] » . ومهما يكن من أمر فإن الصور الكنسية لم تكن مطلوبة فى هولنده البروتستانتية . ومن ثم جرب يده فى الأساطير ، ولكنه لم ينجح إلا حين استطاع أن يكسو الأشخاص . ولم تكن لوحة « داناى[١٤٧] » جذابة . أما « أثينا[١٤٨] » و « مارس[١٤٩] » فكانتا فريدتين فى بابهما . وظل يرسم صورا شخصية تأخــذ بمجامع الألباب . فإن صورة « نيقولا برونتج[١٥٠] » قد التقطت فى لحظة مشرقة بالحياة والفكر . وصور « جان سكس[١٥١] » تمثل عمدة المدينة الهولندى فى ذروة قوته وأسعد أوقاته ، كذلك فإن رمبرانت رسم فى هذه الفترة بعض أشخاص غير ذوات أسماء ، بعد دراسة عميقة : « الرجل ذو الخوذة الذهبية[١٥٢] » ، و « الراكب البولندى[١٥٣] » ، و « كوزيليوس قائد المائة[١٥٤] » . وتبدو معظم اللوحات الشخصية الأخرى إلى جانب هذه ، ذات بريق سطحى .

وكان رمبرانت فى سن الخمسين حين وقعت الكارثة . أنه قلما اهتم بأن يحسب ماله وماعليه . واشترى دون مبالاة الدار والفن ، بل أسهم شركة الهند الشرقية[١٥٥] . والآن وقد تخلفت معونات نصرائه ورعاته كثيراً عن الوفاء بمتطلباته ، فإنه وجد نفسه وقد أثقلته الديون لدرجة تدعو إلى اليأس . وفى ١٦٥٦ ، ورغبة فى حماية تيتس ، نقلت « محكمة الأيتام » فى أمستردام، ملكية البيت الأبيض إلى الابن ، ولو أنه سمح للوالد فى الإقامة هناك لبعض الوقت . وفى شهر يولية أعلن افلاس رمبرانت ، وبيع أثاثه ولوحاته ورسومه ومجموعاته فى عجلة كلفته كثيراً (١٦٥٧ - ١٦٥٨) . ولكن العائدات كانت أقل كثيراً من أن تفى بالتزاماته . وفى ٤ ديسمبر ١٦٥٧ طرد من الدار . فتنقل من بيت إلى بيت حتى استقر به المقام فى روزنبراخت فى « حارة اليهود » . وأنقذ من هذا الحطام نحو سبعة آلاف فلورين من أجل تيتس ، الذى كون مع هندريكا رغبة منهما فى حماية رمبرانت ، شركة أمكن بواسطتها بيع أعماله الباقية دون

أن تؤول إلى دائنيه . ويبدو أنهما أوليا الفنان الذى تتقدم به السنون ، عناية كبيرة .

واستمر رمبرانت وسط هذه البلايا والمحن ينتج الروائع : « رجل على ظهر جواد » وقد بيعت حديثا إلى المتحف الوطنى فى لندن مقابل ٤٠٠ ألف دولار ، واللوحة العجيبة « رأس رجل عجوز (١٥٦) » ـ وكأنه كارل ماركس فى الثمانينات متحرراً من الأوهام ، واللوحة الطبيعية المفعمة بالحيوية بدرجة مدهشة « امرأة تقص أظافرها(١٥٧) » ـ وربما تطلبت بعض الطقوس الدينية تنظيف الجسم كله ليلة السبت . وربما رسم آنذاك أيضا بعض صور مروعة للفنان نفسه مثل : « رمبرانت وكراسة رسومه التخطيطية » (١٦٥٧) ، وهى موجودة فى درسدن ، ثم اللوحة الأكثر شهرة التى يبدو فيها وجهه العابس المتجهم وجسمه البدين المدثر (١٦٥٨) وهى فى مجموعة فريك فى نيويورك ، وصورته بكامل جسمه (١٦٥٩) وهى فى فيينا ، وصورة الوجه الذى يعروه القلق والهموم (١٦٥٩) فى واشنجطن .

وفى العقد الأخير من عمره (١٦٦٠ - ١٦٦٩) سهر للابقاء على حياته ابنه وخليلته . ولكن كان مسكنه ضيقا ومرسمه سيء الإضاءة ، ولا بد أن يديه فقدتا بعض اتزانهما وثباتهما نتيجة كبر السن والشراب ، فلوحة « القديس متى الإنجيلى (١٥٨) » غير مصقولة فى تركيبها ، ولكن الملاك الذى يهمس فى أذنه لم يكن ســـوى تيتس الذى بلغ الآن العشرين من العمر ، ولا يزال جميلا كالعروس . ثم جاءت فى تلك السنة (١٦٦١) آخر روائع الفنان : « خبراء نقابة تجار الأقمشة (١٥٩) » ، فإن فاحصى القماش والمرافين كلفوا الفنان بأن يخلد ذكرهم بصورة جماعية تعلق فى دار رابطتهم . وربما كنا نغتفر بعض التردد فى التركيب ، وبعض الفجاجة فى التفاصيل وبعض التقصير فى إسقاط الضوء ولكن النقد فى حيرة من الأمر ليعثر على غلطة فى الصورة . فإن أمامية الصورة وخلفيتها اللتين تمكن منهما الرسام جعلتا الشخوص الخمسة الرئيسية تقفز إلى

عين الرائى «كل منها شخص واحد منفصل»، ولكنهم جميعا التقطوا فى نفس اللحظة الحية التى التق فيها تفكيرهم. وفى كثير من اللوحات التى رسمت فى سنوات التهدم والتدهور هذه، يجد الخبراء علامات على إنهيار الطاقة وإنحطاط الأسلوب بساطة الألوان، إهمال التفاصيل، العجلة فى جريان الفرشاة وعدم الصقل. ولكننا، حتى فى هذه الأيام نجد صورا أخاذة، مثل «عود السخى[١٦٠]» – وهى تشخيص لاينسى للصفح المحبب إلى النفس، و«العروس اليهودية[١٦١]»، وتلك ثمرة عجيبة مدهشة تأتى من شجرة تذوى وتذبل.

ولكننا لم نذكر شيئا عن مناظر الطبيعة ورسومه وحفره. ولم يبرز أو يتفوق إلا القليل من المناظر الطبيعية، ولكن الرسوم بلغت القمة بين مثيلاتها وثمة رسمان مشهوران: «مشهد أمستردام» بالقلم والحبر، الموجود فى فيينا، و«المرأة العجوز جالسة» فى برلين. ويعد إنتاجه فى الحفر مضارعا لأحسن ما أنتج فى ماونج هذا الفن الشاق المجهد. وعرف أحد أعماله فى هذا الفن «المسيح يشفى المرضى»، باسم «القطعة ذات المائة جيلدر» لأنها اشتريت بثمن لم يسبق له مثيل (١٢٠٠ دولار ؟). على أن نسخة منها على أيه حال قدرت فى ١٨٦٧ بمبلغ ٣٥ ألف فرنك (٢٠ ألف دولار ؟).

أن ٣٠٠ من أعمال الحفر، ٢٠٠ من الرسوم و٦٥٠ من اللوحات منجزات رمبرانت لاتزال باقية، تكاد تكون مشهورة مثل شهرة روايات شكسبير، وتكاد تكون متنوعة أصيلة عميقة مثلها. وكلها تقريبا من صنع يديه. فعلى الرغم من أنه كان له مساعدون، فإن أحدا منهم لم يشاركه سره فى الكشف عما خفى وما لايرى[١٦٢]. وكانت بعض أعماله رديئة وبعضها منفرا، مثل «الثور المسلوخ» فى اللوفر. وكان أحيانا يستنفد كل جهده فى الأسلوب الفنى وفى أحيان أخرى يتجاوزه من أجل الرؤيا، أى رؤيا الفنان نفسه.. وكان، مثل الطبيعة، يتخذ موقفا محايدا بين الجمال والقبح، لأن الصدق عنده كان قمة

الجمال، وإن الصورة التى تمثل القبح حقا وصدقا هى صورة جميلة . وأبى أن يضفى أشكالا مثالية على الشخوص فى لوحاته الدينية ، وأرتاب فى أن يكون العبرانيون الوارد ذكرهم فى التوراه على مستوى جمال اليهود فى أمستردام ، فصورهم على هذا النسق، ومن ثم أنبعثوا من عالم الاساطير أو التاريخ إلى الحياة. وإزداد شيئا فشيئا مع تقدمه فى السن ، حبه للبسطاء من الناس حوله ، لاحب من جردهم السعى وراء الكسب من الروح الإنسانية . وعلى حين أن بعض الفنانين ، مثل روبنز ، التمسوا موضوعاتهم بين أرباب الجمال أو السعداء أو الأفوياء وأصحاب السلطان ، فإن رمبرانت كان يسخو بفنه الحنون على المنبوذين والمرضى والتوساء ،حتى المشوهين ذوى العاهات ، وعلى الرغم من أنه لم يسخر من الدين أو يهزأ به ، فقد بدا أنه على غير وعى منه ، يجسد موقف السيد المسيح وويتمان تجاه أولئك الذين أحتقروا، أو أبوا أن يشتركوا، فى صراع كل إنسان مع سائر بنى الإنسان .

ولنلق نظرة أخيرة عليه فى صوره الشخصية فى شيخوخته . وليس هنا زهو أو خيلاء ، بل على النقيض ، أنها قصة حياة الفنان بمرشاته هو ، فى أيام الخيبة والهزيمة . أنه عندما صور نفسه ١٦٦٠ ،(١٧٣) كان لايزال يواجه الحياة بمزيج من الشجاعة والاستسلام . فإن الوجه القصير السمين غير الحليق كان ساخرا ولم يكن حزينا ، وكان لايزال يتحرك قدما . ولكن فى صورة أخرى(١٧٤) فى نفس العام ، كانت ثمة نظرة قلقة حائرة تعتم الوجه وتكسوه بالتجاعيد حول الأنف الضارب للحمرة وفى ١٦٦١ رأى نفسه(١٧٥) فى نفس الحيرة والإرتباك . ولكنه لم يبال بالتجاعيد بطريقة فلسفية . وصور نفسه فى عامه الأخير(١٧٦)، وكأنما وجد الطمأنينة وهدوء البال فى إرتضاء قيود الحياة وحدودها ومرحها الساخر . وماتت هندريكا ١٦٦٢ ، ولكن ظل تيتس يمتعه بمنظر الشباب ، وفى ١٦٦٨ ابتهج الشيخ العجوز بزواج ابنه . ولما لحق الابن بالحلبة فى هذا العام نفسه ، فقد الفنان قدرته على التشبث بالحياة . وجاء فى سجل

الوفيات فى الكنيسة الغربية فى ٨ أكتوبر ١٦٦٩ رمبرانت فان رين ـ الرسام... يترك طفلين ..

وكاد معاصروه ألا يلحظوا وفاته . ولم يحلم أحد منهم قط بوضعه فى مرتبة روبنز ، أو حتى فانديك . وكتب عنـــه معاصره ـــ جويشم (يواقيم) فون ساندرات أن ما كان يعوزه أساساً هو المعرفة بإيطاليا وغيرها من الأماكن التى تهىء الفرص لدراسة القديم ودراسة نظرية الفن . (ويبدو لنا الآن أن هذا هو سر عظمته) . ولو أنه عالج أموره بمزيد من الحزم والتعقل ، وأبدى مزيداً من اللباقة فى المجتمع ، فلربما أصبح أكثر ثراء ، ولقد عانى فنه من ميله إلى صحبة السوقة[١٦٧] . واتفق رسكين مع مؤرخ الفن الألمانى حيث قال : « أن الفظاظة والتبلد والتجرد من التقوى تعبر دائماً عن نفسها فى الألوان السمراء والرمادية ، كما هو الحال مع رمبرانت.... أن هدف أحسن الرسامين أن يصوروا ما تقع عليه أعينهم فى وضح النهار أو فى ضوء الشمس ، ولكن رمبرانت كان يسعى إلى رسم أقذر الأشياء التى يراها وأبشعها ـــ فى ضوء شمعة »[١٦٨] . ولكن يوجين دى لاكروا الذى عكس التطورات الديمقراطية فى فرنسا قال « ربما يأتى يوم نجد فيه رمبرانت رساماً أعظم من رافاييل . وأنى لأكتب الآن ـــ دون تحيز ـــ هذا التجديف الذى لا بد سوف يسبب إنتصاب شعر الأكاديميين غضباً ودهشة[١٦٩] . وينزع النقاد اليوم إلى رفع رمبرانت فوق مرتبة رافاييل وفلاكويز ومساواته فقط بالفنان الجريكو[١٧٠] وإنا لندرك أن « الصدق » هو وظيفة الزمن وتابعه .

أية سلسلة وأية هوة من روبنز إلى رمبرانت ـ بين الضوء البهيج والظل الكئيب ، بين الهاوية والحاشية ، بين نبيل أنتورب السعيد بانغماسه فى اللهو والفجور فى وطنه فى القصور مع الملوك ، ومفلس إمستردام الذى عرف أحط الأعماق ، ولازم الحزن والأسى . إنك إذ ترى هذين الرجلين على أنهما عنصرى

طباق فى تناغم قوى ، إنما تحس بطريقة أخرى بعظمة أمه صغيرة صارعت إمبراطورية عملاقة، كما تحس بتعقيد المدنية التى استطاعت أن تنتج ، فى ناحية، ثقافة كاثوليكية تزين إبتهاج مذهبها الذى لا يرقى إليه الشك ، بالأساطير وأضرحتها العزيزة عليها بالفن ، وفى الناحية الأخرى ثقافة بروتستانتية استطاعت أن تغذى وتربى أعظم فنان وأعظم فيلسوف فى ذاك العصر .

الفصل التاسع عشر

ظهور دول الشمال

١٥٥٩ - ١٦٤٨

١ ـ الدنمرك دولة عظمى :

فلنلق نظرة على الخريطة . وإن الخرائط مثل الوجوه ، هى شارات التاريخ وتوقيعاته .

عندما ارتقى فردريك الثانى العرش ١٥٥٩ كانت الدنمرك من أقوى الدول وأكثرها امتدادا فى أوربا ، ولم تكن تعلمت بعد أنه من الحذق والحكمة أن تكون صغيرة . وفى الصراع الطويل الأمد بينها وبين السويد من أجل السيطرة على التجارة بين بحر الشمال والبلطيق ، كانت الدنمرك هى المنتصرة فى بداية الأمر ، حتى امتد حكمها عبر الاسكاجراك إلى النرويج ، وعبر الكاتيجات إلى ما هو الآن جنوب السويد . واستولت على المدن الاستراتيجية كوبنهاجن وهلسينور فى الجانب الغربى ، ودالمو وهلسنبورج فى الجانب الشرقى من الأوريسوند أو السوند ـ أى المياه العاصفة التى لا يزيد اتساعها فى مكان واحد فقط على ثلاثة أميال ونصف الميل . والتى تفصل الآن الدنمرك عن السويد . واستولت فى أقصى الشرق ، فى معظم هذه الفترة . على جزر بورنهلم وجوتلفد وأوسل ، وبذلك تحكمت فى بحر البلطيق . وكانت تضم فى الجنوب دوقتى شلزويج وهولستين ، كما حكمت فى أقصى الشمال الغربى أيسلنده وجرينلند وكانت الضرائب والرسوم التى فرضتها الدنمرك على التجارة المارة عبر المضايق بين البحار هى المصدر الأساسى لموارد المملكة والسبب الرئيسى فى حروبها .

وكانت السلطة السياسية فى أيدى ثمانمائة من النبلاء ملكو نصف الأرض

وجعلوا من الفلاحين أرقاء، وانتخبوا الملك ، وحكموا البلاد عن طريق الريشستاغ أو الديت الوطنى (الجمعية التشريعية) والريجستاد أو مجلس الدولة . وأفادوا من حركة الإصلاح الدينى بامتصاص معظم الممتلكات التى كانت تابعة للكنيسة من قبل . وفى مقابل إعفائهم من الضرائب ، كان متوقعا منهم ولكنهم رفضوا فى أغلب الأحيان ، أن يسلحوا فلاحيهم ويقودوهم إلى الحرب ، إذا استفزهم الملك . ولم يحظ رجال الدين البروتستانت المحرومين من الثورة إلا بمكانة اجتماعية هزيلة ونفوذ سياسى ضئيل ، ومهما يكن من أمر فإنهم سيطروا على التعليم وأشرفوا على الأدب ، ومن ثم لم ينتج إلا لاهوتا وتراتيل . ونعم جمهور السكان . وقد بلغ عددهم نحو مليون ، بالاسراف فى الطعام والشراب ، حتى لقد نصح حلاق جراح عملاءه قائلا : « إنه لمن الأفضل للناس أن يشربوا الخمر إلى حد الثمل مرة فى كل شهر ، وعندى لهذا أسباب قوية ، فإنه يقويهم ويساعدهم على النوم العميق ، ويسهل التبول والتنفس ويجلب السعادة والرفاهية عامة(١) .

وظهر فى هذه الحقبة شخصيتان دنمركيتان من حقهما على التاريخ أن يذكرهما : تيكوبراهى أعظم الفلكيين فى هذا الجيل ، وكريستيان الرابع الذى لم يكن ملكا على الدنمرك لمدة ستين عاما (١٥٨٨ - ١٦٤٨) فحسب، بل كان يمكن كذلك أن يتزعم الناس بصرف النظر عن الأصل الملكى . وإنا لنمر مرورا عابرا بوالده فردريك الثانى لنذكر أن المهندس المعمارى الفلمنكى أنطونيوس فان أوبرجن صمم له (١٥٧٤ — ١٥٧٥) حصن قصر كرونبورج فى هلسينور - « السينور هملت » .

وعندما مات فردريك ١٥٨٧ كان كريستيان صبيا فى الحادية عشرة ، فتولى الحكم لمدة ثمان سنوات أربعة أوصياء من النبلاء ، ثم قبض كريستيان على زمام الأمور ، وطيلة نصف القرن التالى . نعم بحياة مترفة فى بذخ وحيوية ونشاط متعدد الجوانب ، مما أدهش كل أوربا ، وبز الملك توجيهات الحلاق

الجراح سالف الذكر ، لأنه كان بانتظام فى حاجة إلى من يعاونه فى العودة إلى قصره بعد أمسية صاخبة مخمورة . وبلغ دنسه وتهتكه حداً لم يتفوق عليه فيه إلا القليل من رعاياه . وخلق عدد أولاده غير الشرعيين مشكلة فى علم المحاسبة . وغض شعبه النظر عن هذه الأخطاء العادية ، وأحبوه لأنه كان يرقص فى أعراسهم واشترك فى أعمالهم وخاطر بحياته كثيرا لخدمتهم ، وأضاف إلى هذا كله معرفته باللاتينية والعلوم ، وتذوقا مثقفا للفن ، وعقيدة دينية ميسرة لم تثر أى جدل حول الجدير وغير الجدير بالتصديق والثقة ، أو أى وخز للضمير حول المزاح والهزل . وساعد فى أوقات فرغه على أن يجعل من كوبنهاجن (مرفأ التجار) أحدى العواصم الأكثر جاذبية وفتنة فى أوربا . وضاعف برنامجه للبناء من محيط المدينة[٢] وفى عهده شيد قصر روزنبورج ، وسرعان ماقامت بعده سوق الأوراق المالية (البورصة) بواجهتها الممتدة امتدادا كبيرا ، وارتفع برجها اللولبى عاليا . وأصلح كريستيان حكومة النرويج وطور صناعتها وأعاد بناء عاصمتها التى حملت اسمه لمدة ثلاثة قرون : « كريستيانا » (سميت أوسلو ١٩٢٥) . وفى الدنمرك أصلح الإدارة ونهض بالصناعات ونظم الشركات التجارية وأسس الكليات والمدن ، ورفع من مستوى الفلاحين فى الضياع الملكية .

وأضاع الطمع بالملك ، ذلك أنه كان يراوده حلم توحيد اسكنديناوه بأسرها تحت حكم رجل واحد ، أى تحت حكمه هو . ولكن النبلاء اعترضوا بأنه من المتعذر غزو السويد ، ولم يمنحوه تأييدهم وعونهم وشن بالجنود المرتزقة أساسا حرب الكلمار على السويد (١٦١١ — ١٦١٣) . وما أن قامت حرب الثلاثين عاما حتى وجد نفسه على كره منه ، متحالفا مع السويد ، دفاعا عن قضية البروتستانت . وبرغم هذا الخطر المحدق به استأنف الحرب مع السويد (١٦٤٣) ولو أنه كان فى السابعة والستين من العمر . وقاد قواته المهزيلة فى حماسة رومانتيكية . وفى معركة كولبرج البحرية (١٦٤٤) قاتل طوال يوم كامل على الرغم من أصابته بعشرين جرحا ، وفقد أحدى عينيه ،

وأحرز نصرا مؤقتا . وثبت فى آخر الأمر أن السويد أقوى ، وحررها صلح برومسبرو ١٦٤٥ من دفع الرسوم على تجارتها فى مياه السوند ، وتخلى لها عن جوتلند وأوزل وثلاث مقاطعات فى شبه جزيرة اسكنديناوه . وعندما مات كريستيان الرابع ، بعد خمسين عاما من أعمال بناءة وحروب هدامة كانت مملكته أصغر مما كانت عليه حين اعتلى العرش . ودالت دولة الدنمرك وسطوتها .

٢ — السويد : ١٥٦٠ — ١٦٥٤

١ — المذاهب المتصارعة : ١٥٦٠ — ١٦١١ :

فيما بين جوستاف فاسا مؤسس السويد الحديثة وجوستاف أدولف منقذ البروتستانتية ومخلصها ، تلبد تاريخ السويد بسحب الصراع بين الشيع الدينية من أجل السلطة السياسية . وكان المليك (الفاسا) الأول قد حرر السويد من نير الدنمرك . ووحد البلاد تحت حكم ملكية وراثية قوية . على حين أن أوليجاركيات النبلاء ساعدت على ضعف الدنمرك وبولندة وعلى الاقطاع فيهما . وكان الفلاحون فى السويد أحراراً ، وكانوا يمثلون فى مجلس الديت (الركسداج) مع النبلاء ورجال الدين وممثلى المـــدن . وكانت لفظة بوند Bonde التى كانت تعنى فى الدنمرك الرقيق ، تعنى فى السويد لقبا كريما للرجل الحر الذى يفلح أرضه الخاصة به . ولكن المناخ كان يحد من موارد الأرض بشكل قاس ، كما كان يحد منها قلة عدد السكان ، وسيطرة الدنمرك على ثلاث مقاطعات فى شبه الجزيرة الاسكنديناوية وعلى مياه السوند . وامتلأت قلوب النبلاء غيظا بسبب خضوعهم من جديد للملك ، وكانت الكنيسة قد جردت من أملاكها فى السويد ، فدأبوا على تدبير المؤمرات للاستحواذ على الشعب واسترداد أملاك الكنيسة والاستيلاء على العرش .

ولم يكن أريك الرابع عشر - ابن جوستاف فاسا - (١٥٦٠ — ١٥٦٨)

مؤهلا لمواجهة هذه المشاكل . لقد كان يتحلى بالشجاعة والمقدرة ولكن طمعه العنيف أفسد عليه دبلوماسيته ، وأدى به إلى القتل والجنون . وأثار حفيظة النبلاء بقتل خمسة من زعمائهم ، قتل هو أحدهم بيده . وواصل ضد الدنمرك « حرب السنين السبع الشمالية » (١٥٦٣ — ١٥٧٠) . ومهد يغزو ليفونيا لحروب مقبلة . ونفر منه أخاه جون باعتراض سبيله فى زيجة كان يمكن أن تجعل منه وريثا لعرش بولندة ، فلما تزوج جون ، رغم أنف أخيه، من الأميرة كاترين جاجللون ، احتجزه أريك فى قلعة جريشولم . وجاءت كاترين لتشاطر جون ويلات السجن ، وأغرته باعتناق المذهب الكاثوليكى . وفى ١٥٦٨ أرغم أريك أخوته على التخلى عن العرش . وبعد ستة أعوام قضاها فى السجن أعدم بأمر من الديت والملك الجديد .

وعقد جون الثالث (١٥٦٨ — ١٥٩٢) صلحا مع الدنمرك ومع النبلاء ، وأذكى نار الخلاف الدينى من جديد . فإن زوجته كانت تغريه فى الليل ، أكثر منها بالنهار ، باعتناق الكاثوليكية . وبإذن منه دخل الجزويت إلى السويد متنكرين ، وأخذ أقدرهم ، وهو أنطونيو بوسيفون ، على عاتقه تحويل الملك إليها ، وكان وخز الضمير قاسيا كلما تذكر جون موافقته على قتل أخيه، وأن عذاب النار هو العقاب الذى لامفر منه لخطيئة مثل هذه. ولكن بوسيفون أغراه بأنه لا منجاة من هذا الجحيم الذى ينتظره إلا بالاعتراف وطلب الغفران فى الكنيسة التى يعتقد الناس جميعا بأن السيد المسيح هو الذى أقامها . وأذعن جون وتناول القربان المقدس وفق الطقوس الكاثوليكية ، ووعد بأن يجعل الكاثوليكية دين الدولة شريطة أن يرخص البابا لرجال الدين السويديين فى الزواج ، وأن يقام القداس باللغة الوطنية ، وأن يقدم القربان المقدس بالنبيذ والخبز على السواء . وقصد بوسيفون إلى رومه ولكن البابا رفض الشروط . فعاد الجزويتى صفر اليدين . وأصدر جون أوامره إلى الجزويت بتناول القربان بكلا نوعية وبتلاوة القداس باللغة السويدية فرفضوا ورحلوا . وماتت كاترين الكاثوليكية فى ١٥٨٤ . وبعد ذلك بعام واحد

تزوج جون من سيدة بروتسانتية ردته ثانية إلى المذهب اللوثرى ، فى الليل أكثر منها بالنهار .

وفى أغسطس انتخب إبنه الكاثوليكى لعرش بولندة تحت إسم سجسمند الثالث . ووفقا لقانون كالمر اتفق الوالد والولد على أنه بعد وفاة جون يصبح سجسمند ملكا على بولندة والسويد معا . ولكن سجسمند آلى على نفسه أن يحترم استقلال السويد السياسى والمذهب البروتستانتى . وعند وفاة جون (١٥٩٢) انعقد مجلس الديت تحت رياسة أخيه الدوق شارل فى مدينة أبسالا (٢٥ فبراير ١٥٩٣) وكان يضم ٣٠٠ من رجال الدين و ٣٠٠ من العلمانيين — النبلاء وممثلو المدن وعمال المناجم والفلاحين ، واتخذ مذهب أوجزبرج اللوثرى ١٥٤٠ مذهبا رسميا للكنيسة والدولة فى السويد . وأعلن هذا المجتمع التاريخى (مجمع أبسالا) أن الأمة لن تتقبل غير اللوثرية وان تتسامح مع غيرها ، وألا يعين فى المناصب الكنسية أو السياسية إلا اللوثريون الأقحاح وألا يتوج سجسمند فى السويد إلا بعد قبوله لهذه المبادىء . وفى الوقت نفسه اعترفوا بالدوق شارل نائبا للملك عند غيابه عن العرش .

ولكن سجسمند الذى تلقى تعليمه على أيدى الجزويت ، كان يحلم بضم السويد وروسيا إلى حظيرة الكثلكة . ولما وطأت قدماه أرض ستوكهلم (سبتمبر ١٥٩٣) وجد كل الزعماء السويديين تقريبا مجمعين على طلب أوثق ضمان لإمتثاله لإعلان أبسالا . وظل خمسة أشهر يبحث عن حل وسط ، ولكن الزعماء بقوا على عنادهم ، وجمع الدوق شارل جيشا . وأخيرا أعطى سجسمند التعهد المطلوب ، وتوجه أسقف لوثرى فى أبسالا (فبراير ١٥٩٤) . ولكن سرعان ما أصدر سجسمند بيانا احتج فيه بأنه أكره على هذا التعهد تحت الضغط والتهديد ، وعين ستة من كبار الموظفين لحماية الكاثوليك الباقين فى السويد ، وفى أغسطس عاد أدراجه إلى بولنده .

وأعد الدوق شارل وأنجرمانوس رئيس أساقفة أبسالا العدة لتنفيذ

قرارات المجمع . ودعا مجلس الديت فى سودر كوبنج (١٥٩٥) إلى القضاء على كل عبادة كاثوليكية ، ونفى كل الطوائف المعارضة للمذهب البروتستانتى ، وأمر بأن يضرب بالعصا كل من يتخلف عن حضور الصلوات اللوثرية ، ووقع هو العقوبة بنفسه عند زيارته للكنائس[٣] . وأغلق كل ما بقى من الأديار ، وأزيلت كل الأضرحة الكاثوليكية .

وتوسل إلى سجسمند مستشاروه أن يغزو السويد بجيش كبير ، ورأى هو أن خمسة آلاف جندى تفى بالغرض . وحط رحاله بهم فى السويد (١٥٩٨) واشتبك معه شارل فى ستجبرج فهزم . وفى اشتباك آخر فى ستانجبرو انتصر الدوق . ووافق سجسمند من جديد على إعلان أبسالا وعاد إلى بولنده . وفى يولية ١٥٩٩ خلعه الديت السويدى ، وأصبح الدوق شارل الذى ما زال نائبا الملك ، الحاكم الفعلى للدولة . وأقر مجلس الديت (١٦٠٤) قانون الوراثة الذى نص على ألا يتولى العرش إلا كل ذكر أو أنثى من أسرة فاسا يرتضى العقيدة اللوثرية المقررة وأن كل مخالف لها لا يحق له الإقامة أو التملك فى السويد . « فكل أمير ينحرف عن مبادىء أوجزبرج لابد بطبيعة الحال أن يفقد تاجه[٤] » ومن ثم كان الطريق معبدا لاعتلاء جوستاف أدولف ابن شارل عرش السويد ، ولتخلى حفيدته كريستينا . وفى ١٦٠٧ توج شارل التاسع ملكا .

وأصلح شارل الحكومة المختلة ، ونهض بالتعليم والتجارة والصناعة ، وأسس مدن كارلستاد فيلبستاد وماريستاد وجوتبورج ، وهيأت هذه الأخيرة للسويد منفذا طيبا إلى بحر الشمال ، متغلبة بذلك على سيطرة الدنمرك على المضايق . وأعلن كريستيان الرابع الحرب (أبريل ١٦١١) وغزا السويد . وتحدى شارل ، وهو فى الحادية والستين من العمر ، كريستيان لمبارزة فردية . فرفض هذا الأخير . ومات شارل فى أكتوبر ١٦١١ ، والقتال على أشده ، ولكن قبل موته وضع يده على رأس ابنه وقال « أنت لها » . وقد كان لها فعلا[٥] .

٢ — جوستاف أدولف ١٦١١ — ١٦٣٠ :

وكان أعظم شخصية رومانتيكية فى تاريخ السويد ، وهو فى سن السادسة عشرة آنذاك . وكانت أمه ألمانية ، ابنة الدوق أدولفوس هولتين جوتورب . ولقنه أبوه وأمه تعليما صارما فى اللغتين السويدية والألمانية وفى المذهب البروتستانتى . وما أن بلغ الثانية عشرة حتى كان قد درس اللاتينية والإيطالية والهولندية . والتقط بعد ذلك شيئا من الإنجليزية والأسبانية ، بل حتى البولندية والروسية ، وأضيف إلى هذا كله جرعة قوية من الأدب القديم انسجم مع تدريبه فى الألعاب الرياضية والشئون العامة وفنون الحرب وبدأ فى سن التاسعة يشهد جلسات الديت ، واستقبل السفراء فى الثالثة عشرة وفى الخامسة عشرة حكم إحدى المقاطعات ، وفى السادسة عشرة اشترك فى القتال . وكان طويل القامة وسيما دمثا كريما رحيما ذكيا ، باسلا . وماذا يتطلب التاريخ أكثر من هذا فى الرجل ؟ وكانت له فى السويد شعبية عارمة إلى حد أن أبناء النبلاء الذين أعدمهم شارل التاسع بتهمة الخيانة ، سارعوا طائعين مختارين إلى خدمته .

ولم تبرز فى جوستاف أدولف نزعة آل فاسا إلى المزاج الفردى والعنف ولكنها برزت فى حبه للحروب . لقد ورث عن أبيه حرب الكلمر ضد الدنمرك ، فشن الحرب عليها فى حماسة بالغة ولكنه أحس بأن هذه الحرب تسلك سبيلا بعيدا عن الرشاد والسداد ، فدفع للدنمرك فى ١٦١٣ مليون طالير (عملة ألمانية قديمة = ١٠ مليون دولار) مقابل السلام بينهما ومقابل حرية السفن السويدية عبر المضايق ومياه السوند . وفى هذه المرحلة من نشاطه كان مهتما بإبعاد روسيا عن البلطيق ، فكتب إلى أمه يقول : « إذا أدركت روسيا قوتها فى أية لحظة ، فإنها لا تستطيع اجتياح فنلندة (وكانت آنذاك جزءا من السويد) من الجانبين فحسب ، بل تستطيع كذلك حشد أسطول فى البلطيق ، يعرض أرض الأجداد للخطر[٦] فأرسل أعظم قواده دهاء — جاكوب

دى لاجاردى – ليغزو انجريا ، وفى ١٦١٥ حاصر بنفسه بسكوف . وكانت المقاومة الروسية مرهقة ولكن بالتهديد بالتحالف مع بولنده ، استطاع جوستاف أن يقنع القيصر ميكائيل رومانوف بعقد صلح (١٦١٧) يعترف بسيطرة السويد على ليفونيا واستونيا وشمال غربى انجريا ، بما فى ذلك لننجراد الحالية . وسدت بذلك منافذ البلطيق أمام روسيا . وكان جوستاف يفخر بأن روسيا لا تستطيع تسيير سفينة واحدة فى البحر دون إذن من السويد .

ثم ولى وجهه شطر بولنده حيث كان مليكها سجسمند الثالث لا يزال يطالب بعرش السويد . وكانت الكاثوليكية آنذاك منتصرة فى بولندة ، ومتلهفة على فرصة تسنح للسيطرة على السويد ، وفوق ذلك كانت بولندة بما لها من ثغور قوية فى دانزج وممل وليبو وريغا ، منافسا أقوى من روسيا ، فى السيطرة على البلطيق والتحكم فيه . وفى ١٦٢١ قاد جوستاف ١٥٨ سفينة و ١٩ ألف جندى لحصار ريغا التى كان يمر بها ثلث صادرات بولنده ، وكانت غالبية سكانها من البروتستانت ، وقد لا يستاءون من غزو سيد أجنبى لها . فلما استسلمت دون مقاومة ، عاملها جوستاف فى رفق ولين ليضمن وقوفها إلى جانبه ، وفى أثناء الهدنة التى استمرت ثلاث سنوات مع بولنده ، استطاع هو أن يقوى روح جيشه وضبطه ونظامه ، وجعل – مثل معاصره كرومويل – من التقى والورع أداة للخلق العسكرى . ودرس فن موريس ناسو العسكرى، وتعلم كيف يمكن كسب المعارك بسرعة الحركة وبالاستراتيجية البعيدة النظر . واستقدم من هولندة خبراء فنيين ليعلموا رجاله تكتيك الحصار واستخدام المدفعية . وفى ١٦٢٥ عبر البلطيق مرة ثانية واستولى على دوريات ، وثبت سيطرة السويد على ليفونيا ، وأوصد البلطيق تماما فى وجه لتوانيا . وبعد سنة أخرى أخضعت جيوشه بروسيا الشرقية والغربية ، وكانتا خاضعتين للتاج البولندى . ولم تصمد سوى دانزج . وصارت الأقاليم المفتوحة مقاطعات سويدية ، وطرد منها الجزويت . وجعلت اللوثرية المذهب الرسمى . وكانت

أوربا البروتستانتية ترنو إلى جوستاف ، على أنه منقذها المنتظر فى الحرب الكبرى التى كانت تجتاح ألمانيا آنذاك .

وفى أوقات السلم واجه جوستاف مشكلات الإدارة الداخلية بذكاء وحنكة أقل منهما فى الحرب . وكان أيام غيابه فى المعارك يعهد بحكومة البلاد إلى النبلاء وكان يبيح لهم ، ضمانا لولائهم ، احتكار المناصب وشراء أراضى التاج الشاسعة لقاء ثمن زهيد . ولكنه وجد فسحة من الوقت لتثبيت دعائم الموارد المالية وإعادة تنظيم المحاكم والخدمات البريدية والمستشفيات وتحسين أحوال الفقراء . وأسس المدارس المجانية وجامعة دوربات ، وأغدق بسخاء على جامعة أبسالا ، ونهض بالتعدين وعلم المعادن . ولم يكن نجاحا يسيرا ، من بين ما حققه من نجاح فى مجالات مختلفة ، أن السويد توافرت فيها الموارد والخبرات والمهارة لصناعة الأسلحة . وشجع التجارة الأجنبية عن طريق منح الاحتكارات ، ومنح شركة البحار الجنوبية السويدية امتيازا . وروع وزيره أوكسنستيرنا ، الذى عرف بهدوئه فى مواجهة الأزمات ، بطاقة مليكه ونشاطه فقال : « إن الملك يشرف على المناجم والتجارة ، والصناعات والجمارك ويوجهها كما يدير موجه الدفة سفينته[٧] » وتوسل إلى جوستاف أن يخفف من نشاطه ، فأجابه الملك بقوله : « لو كنا جميعا فى مثل برودتك لتجمدنا » فرد عليه الوزير بقوله « ولو كنا جميعا فى مثل حرارة جلالتكم لاحترقنا[٨] » .

وكان الآن لزاما أن تندس الحمى المدمرة التى تضطرم بين جنبى الفارس السويدى إلى « حرب الثلاثين » ، فقد قال : « إن كل حروب أوربا يعلق بعضها ببعض[٩] » ، وكان قد لحظ بقلق بالغ انتصارات ولنشتين وتقدم جيوش آل هيسبرج فى شمال ألمانيا وانهيار مقاومة الدنمرك ، وتحالف بولنده مع النمسا ، وهما كاثوليكيتان ، ومن ثم فسرعان ما قد تسعى قوات آل هيسبرج إلى السيطرة على البلطيق . وبذلك قد تصبح تجارة السويد وعقيدتها وحياتها تحت رحمة الإمبراطورية والبابوية . وفى ٢٠ مايو ١٦٢٩ أرسل جوستاف إلى مجلس الديت السويدى تحذيرا من خطة ولنشتين فى أن يجعل من البلطيق

بحيرة يتحكم فيها آل هبسبرج . وأوصى بالهجوم على أنه خير وسيلة للدفاع، وأهاب بالأمة أن تهب لمساندته وتمويل دخوله فى معركة فاصلة (هرمجدون ـ سهل مجدو ـ العهد الجديد رؤيا يوحنا ١٦ : ١٦ ـ معركة فاصلة بين الخير والشر) تحدد مصير المذاهب اللاهوتية . وكانت السويد مثقلة فعلا بأعباء حملاته ، ولكن مجلس الديت والشعب إستجابا لندائه وبمعونة ريشليو أقنع بولنده بعقد هدنة مدتها ست سنوات (سبتمبر ١٦٢٩) . وقضى تسعة شهور فى جمع السفن والمؤن والجنود والحلفاء . وفى ٣٠ مايو ١٦٣٠ خطب فى الديت خطبة وداع مؤثرة بليغة ، وكأنما كان قلبه يحدثه بأنه لن يرى السويد ثانية . وفيما بين ٢٦ ـ ٢٨ يونية ألقت سفنه مراسيها على جزيرة على مسافة من شواطىء بوميرانيا ، وانطلق جوستاف إلى ساحة المجد والموت معا .

٣ ـ الملكة كريستينا ١٦٣٢ ـ ١٦٥٤ :

عين جوستاف ، عندما كانت ابنته وريثة عرشه طفلة فى الرابعة ـ واحدا من أقدر رجال الدولة والسياسة فى هذا العصر الزاخر بالعباقرة . هو الكونت أكسل أوكسنسترنا، وصيا . وقد وصفته كريستينا فيما بعد بقولها: « لقد درس وتعلم كثيرا فى شبابه ، ودأب على الدرس فى زحمة العمل . وكانت قدرته ومعرفته بشئون العالم وأحواله عظيمتين جدا . وعرف مواطن القوة والضعف فى كل دولة فى أوربا . وكان طموحا ، ولكنه كان كذلك مخلصا غير قابل للافساد أو الرشوة ، ومن ناحية أخرى بطىء متوان بارد المزاج لايبالى ، إلى حد كبير »[١٠] . وعرف عن الكونت أنه « صموت ، وأما عدم إفصاحه عن شىء ، حتى وهو يتحدث، فهذا هو نصف فى الدبلوماسية» . وعلى مدى عامين حكم الكونت السديد حكما صالحا حين كان الملك جوستاف يخرج للحرب فى أماكن بعيدة. ثم ، بوصفه وصيا على كريستينا، وجه جيوش السويد فى ألمانيا ، كما أدار دفة الأمور فى الداخل ، ولم تنعم أية دولة فى أوربا طيلة هذه الأعوام الاثنى عشر بحكومة أفضل من حكومة السويد . وفى ١٦٤٣ صاغ مايعرف « بشكل الحكومة » ، حدد فيه تشكيل كل فرع فى الإدارة وصلاحياته وواجباته . وهذا هو أقدم نموذج معروف لدستور مسطور .

وفى ١٦٤٤ أحست كريستينا ، وهى الآن فى ربيعها الثامن عشر ، أنها قادرة على حكم هذه الأمة الشديدة الحساسية النابضة بالحياة ، والتى بلغ عدد سكانها المليون ونصف المليون من الأنفس . والحق أنها تحلت بكل قدرات ومواهب رجل ذكى مبكر النضج . وقالت هى عن نفسها : « خرجت إلى الحياة وكل سلاحى شعرى ، وكان صوتى قويا خشنا ، مما جعل النساء يفكرن أنى صبى ، وعبرن عن فرحهن بهتافات ضللت الملك فى أول الأمر[١١] » . وقابل جوستاف نبأ اكتشاف أنها أنثى فى رجولة مهذبة ، وأحبها حبا عميقا حتى بدا أنه راض عن أن تكون هى وريثة سلطانه وعرشه . على حين أن أمها ماريا اليونورا أوف راندنبرج لم تغفر لها قط كونها أنثى . وربما أسهم استياء الأم فى أن كريستينا صارت أكثر شبها بالرجل قدر ما كان يسمح لها جسمها وتكوينها بذلك ، فأهملت شخصها عن عمد ، واحتقرت التزين ، وأقسمت كما يقسم الرجال ، وأحبت أن تتزيى بزيهم ، واعتادت على ألعابهم ، وركبت منفرجة الساقين بأقصى سرعة ، واصطادت فى تهــور واندفاع ، وجندلت فريستها من أول طلقة . ولكنها كانت تقول : لم أقتل مرة حيوانا إلا وأحسست بالشفقة نحوه[١٢] » .

وعلى الرغم من هذا كله ، تجلت فى كريستينا بعض مفاتن النساء . وفى ١٦٥٣ كتب بيرهيوت الذى أصبح فيما بعد أسقف آفرانش يقول : « وجهها دقيق جميل ، وشعرها ذهبى وعيناها براقتان ... يرتسم التواضع على وجهها ، ويبدو عندما تحمر وجنتاها خجلا لدى سماع أية لفظة نابية[١٣] » . وقال قسيس الاعتراف الجزويتى لدى السفير الأسبانى : « ولم تكن تطيق فكرة الزواج ، لأنها ولدت حرة طليقة ، ولسوف تموت حرة طليقة كذلك[١٤] » . ويبدو أنها كانت تحس أن الاتصال الجنسى ليس بالنسبة للمرأة إلا ضربا من المذلة والهوان . ولا ريب فى أنها أدركت — كما أدركت اليزابث ملكة انجلترا ، أن زوجها لابد أن يطمع فى أن يكون ملكا . وكانت تعى أخطاءها بشكل بالغ الحساسية وتعترف بها فى شجاعة وجرأة « كنت قليلة الثقة بالناس ،

شكاكة طموحة إلى حد الافراط ، حادة الطبع ، فخورة مغرورة ، مزدرية للناس ، هجاءة ، لم أرحم أحدا ، مفطورة على الشك ، قليلة التعصب أو التحمس للدين[١٥] ، ولكنها كانت كريمة إلى حد الإسراف ، مخلصة فى عملها . ويقول القسيس الجزويتى «كانت لا تنام أكثر من ثلاث أو أربع ساعات ، فإذا استيقظت قضت خمس ساعات فى القراءة . ولم تشرب قط إلا الماء القراح ، ولم تسمع قط تتحدث عن طعامها أهو جيد أم ردىء الطهى ... وكانت تحضر إلى مجلسها بانتظام ... وانتابتها الحمى مرة لمدة ثمانية وعشرين يوما لم تهمل فيها قط شئون الدولة ... واتصل السفراء بها وتعاملوا معها مباشرة ، فلم يمروا قط يوما على سكرتير أو وزير[١٦] » .

ولم تتطلع إلى أن تنافس الشبان فى ألعابهم ورياضتهم ، ورجال البلاط فى مجال السياسة فحسب ، بل أنها أرادت كذلك أن تنافس العلماء فى علمهم ، لا فى اللغات والآداب وحدها ، بل فى العلوم والفلسفة أيضا . وما أن بلغت الرابعة عشرة حتى كانت قد درست الألمانية والفرنسية والإيطالية والأسبانية وفى الثامنة عشرة درست اللاتينية ، وبعد ذلك بقليل اليونانية والعبرية والعربية ، وقرأت للشعراء الفرنسيين والإيطاليين وأحبتهم ، وحسدت فرنسا على مدنيتها التى تفيض حيوية ونشاطا ومرحا . وراسلت فى لهفة وحماسة ، الباحثين ، ورجال العلم والفلاسفة فى عدة بلاد ، وجمعت مكتبة ضخمة تضم مخطوطات قديمة نادرة ، هرع الطلبة للرجوع إليها والتزود منها من كل حدب وصوب . وعند وفاتها تأثر الخبراء بذوقها الرفيع الذى تجلى فى اقتناء اللوحات والتماثيل والقطع الفنية المزخرفة بالمينا والمنقوشة على الخشب والمعدن ، والتحف الأثرية . لقد جمعت العلماء ، كما جمعت روائع الفن . وتاقت إلى رؤية العلماء والنقاد والمفكرين يحيطون بها ، وجذبت إلى بلاطها كاوديوس سالما سيوس وايزاك فوسيوس . وهوجو جروشيوس ونيقولا هنسيوس ، وأجزلت لهم العطاء فى سخاء . ومن لم يستطع منهم الحضور أرسلوا إليها كتبهم مع شكرهم وتقديرهم — مثل سكارون وجى دى بلزاك ومد موازيل

دى سكودرى . أما ملتون الوقور فإنه ـ على حين كان يشن هجوما عنيفا على سالما سيوس سالف الذكر ـ صرح بأنها « صالحة لحكم العالم بأسره ، لا أوربا وحدها[١٧] » . وأرسل إليها بسكال آلته الحاسبة مع رسالة بالغة الرقة يهنئها ويمتدحها بأنها متربعة على عرش مملكة العقل والحكم معا[١٨] » .

وكان غرامها شديدا بالفلسفة ، وراسلت جاسندى ، الذى هنأها ـ كما هنأها مائة غيره ، بأنها حققت حلم أفلاطون فى وجود ملوك فلاسفة . وجاء فيلسوف العصر المشهور ، رينيه ديكارت ، ورأى ، وعجب إذ سمعها تستنتج أفكاره الأثيرة لديه عن أفلاطون[١٩] . فلما حاول أن يقنعها بأن كل الحيوانات آلات ، ردت عليه بقولها أنها لم تر قط ساعة يدها تلد ساعات « أطفالا[٢٠] » أى ساعات صغيرة . ومثل هذا كثير فيما بعد .

ولم تهمل كريستينا المواهب المحلية . فقد كانت السويد متعددة جوانب الثقافة الحقة . فكان جورج ستجرنهلم عالما لغويا . متضلعا فى القانون ، من رجال العلوم ، رياضيا ، مؤرخا ، فيلسوفا ، أبا للشعر السويدى . ومركزا للحياة العقلية فى هذا العصر . وأعجبت به جوستاف أدولف فرفعه إلى مرتبة النبلاء . وعينته كريستينا شاعر البلاط ، حتى لحق بأعدائها[٢١] .

وفتنت بنظريات جون كومنيوس فى التربية ، فاستقدمته إلى ستوكهلم ليصلح نظم التعليم فى السويد . ومثلما فعلت إليزابيث بالنسبة لأكسفورد وكمبردج ، زارت كريستينا جامعة أبسالا لتشجع بحضورها الأساتذة والطلبة ، واستمعت إلى سترنهلم وغيره يحاضرون فى النص العبرى للتوراة . وشادت كلية فى دوربات وأهدتها مكتبة ، وأسست ست كليات أخرى . وطورت إلى جامعة ، الكلية التى كان أبوها قد أسسها فى آبو (توركو) فى فنلنده . وأرسلت الطلبة للدراسة فى الخارج ، وبعثت بنفر منهم إلى شبه جزيرة العرب ليدرسوا علوم الشرق . واستقدمت بعض الهولنديين المشتغلين بالطباعة ليؤسسوا دارا للنشر فى ستوكهلم . وشجعت رجال العلم السويديين على الكتابة باللغة

الوطنية ، حتى ينتشر العلم بين أفراد الشعب . ولا نزاع فى أنها كانت من أعظم الحكام المستنيرين فى التاريخ .

وهل وهبت هذه الملكة عقلا خاصا بها ، أم أنها كانت مجرد وعاء لا يميز تتدفق فيه كل التيارات العقلية والفكرية التى تدور حولها ؟ لقد انعقد الاجماع عن أنها فيما يتعلق بالحكومة كانت تتصرف بمحض تفكيرها ، وصنعت قراراتها بنفسها ، وحكمت وملكت سواء بسواء[٢٢] . وسنرى فى فصل لاحق كيف أنها اعترضت على سياسة أوكسنسترنا العسكرية ، وكافحت من أجــل السلام ، وساعدت على انهاء حرب الثلاثين عاما . إن قصاصات مذكراتها فاتنة مفعمة بالحيوية ، وليس فى الحكم والأمثال التى تركتها بخط يدها شيء مبتذل : ومثال ذلك :

إن قيمة المرء على قدر مايستطيع أن يحب .

ويجدر أن نخشى الحمق البلهاء أكثر مما نخشى الأوغاد .

إنك تسيء إلى الناس إذا لم تخدعهم .

المواهب الخارقة جريمة لا تغتفر .

هناك نجم يوحـــد بين الناس من الطراز الأول ، رغم أن العصور والمسافات تفرق بينهم .

أن الزواج ليحتاج إلى شجاعة أكثر مما تحتاج الحرب .

إن المرء ليرتفع فوق كل شيء إذا لم يخش شيئا ، ولم يحسب لأى شيء حسابا .

إن الذى يغضب من الدنيا أشبه بمن تعلم كل ماتعلم دون هدف أو غاية .

إن الفلسفة لا تغير الناس ولا تصلحهم[٢٣] .

وأخيرا ، وبعد اختبار عدد من الفلسفات ، وربما بعد أن امتنعت عن أن تكون مسيحية ، أصبحت كريستينا كاثوليكية أنها متهمة بأنها رضعت

لبان الالحاد والكفر من طيبها بورديلوت(٢٤) . وذهب مؤرخ سويدى - وكرر فولتير قوله(٢٥) - إلى أن تحولها إلى الكثلكة كان تمثيلية هزلية مقصودة ، وبناء على هذه النظرية ، تكون كريستينا قد انتهت إلى النتيجة التى تقول بأنه مادامت الحقيقة شيئا لا يمكن معرفته أو الوصول إليه ، فللمرء أن يختار الديانة التى تستهوى قلبه وتتفق مع فكرة الجمال أكثر من غيرها(٢٦) ، وتوفر أكبر قدر من الطمأنينة للناس . ولكن الارتداد إلى الكاثوليكية رد فعل صادق مخلص بعد التشكك المفرط ، فقد يحفر التصوف جذوره فى أعماق الشك . لقد كان فى كريستينا عناصر صوفية خفية ، فكل مذكراتها موجهة إلى الله فى إخلاص بالغ . إن الإيمان ثوب واق . وإن التجرد الكامل منه ليترك الإنسان فى حالة عرى فكرى يتطلع إلى الكساء والدفء . وأى ثوب أدفأ من كاثوليكية فرنسا وإيطاليا الحسية النابضة بالحياة ؟ وتساءلت الملكة : « كيف يكون المرء مسيحيا دون أن يكون كاثوليكيا(٢٧) ؟ » .

وفكرت كريستينا مليا فى هذه المسألة وفى المضاعفات التى ينطوى عليها ارتدادها فإنها إن تركت اللوثرية ، فلابد لها ، بمقتضى قوانين مملكتها ووالدها الحبيب - أن تتخلى عن عرشها ، وأن تغادر بلادها كذلك . وأية نكسة مروعة يكون هذا التحول فى العقيدة لدفاع والدها البطولى عن أوربا البروتستانتية ، ولكنها ضاقت ذرعا ولاقت نصبا من واجباتها الرسمية ومن خطب الوعاظ والمستشارين الرنانة ، ومن الثالوث المتحذلق من العلماء والأثريين والمؤرخين . وربما تعبت منها السويد وضاقت بها ذرعا كذلك . وقد أفقرها وهبط بمواردها تخليها من أراضى التاج وهداياها وهباتها السخية لذوى الحظوة لديها والقريبين منها . وتكتلت أغلبية النبلاء ضد سياستها . وفى ١٦٥١ كان ثمة هبة توشك أن تكون ثورة . ولكن زعماءها أعدموا على عجل(٢٨) . ولكنها خلفت وراءها امتعاضا شديدا ، ولكن انتابها المرض آخر الأمر ، لقد أضرت هى بصحتها . وربما كان السبب فى ذلك كثرة العمل والدرس .

وكم من مرة أصابتها الحميات الخطيرة ، مصحوبة بأعراض التهاب الرئتين . وكم من مرة غشيتها اغماءة ، وظلت فاقدة الوعى لمدة ساعة . واشتد عليها المرض فى ١٦٤٨ فقالت أنها « أقسمت أن تتخلى عن كل شىء وتصبح كاثوليكية إذا برئت من سقامها وحفظ الله لها حياتها[٢٩] » . إنها كانت إبنة البحر المتوسط فارتعدت فرائصها من برد الشمال القاسى فى الشتاء ، وتاقت نفسها إلى سماء ايطاليا ومنتديات فرنسا . فكم يكون جميلا أن تلحق بالنساء المثقفات اللائى بدأن مهمتهن الفذة فى رعاية الحياة الفكرية والعقلية فى فرنسا ، إذا استطاعت أن تحمل معها ثروة كافية !!

وفى ١٦٥٢ بعثت سراً إلى رومة بأحد الملحقين فى سفارة البرتغال ليطلب قدوم بعض الجزويت ليناقشوا معها اللاهوت الكاثوليكى ، فجاءوا متنكرين . ولكن فت فى عضدهم وثبط من همتهم بعض الأسئلة التى وجهتها إليهم — هل يوجد إله حقا ، هل تبقى الروح بعد فناء الجسم ، وهل ثمة تمييز بين الصواب والخطأ إلا عن طريق المنفعة . فلما أوشكوا على الرحيل — يأسا — هدأت من روعهم بقولها « ماذا ترون لو أنى كنت أقرب إلى أن أصبح كاثوليكية مما تظنون ؟ » وقال أحد الجزويت تعقيبا على ذلك « فلما سمعنا هذا أحسسنا بأننا بعثنا من مرقدنا[٣٠] » .

وكان اعتناق الكثلكة قبل التخلى عن العرش أمرا محظورا قانونا . ولكنها رغبت قبل التخلى عن العرش ، فى الحفاظ على الطابع الوراثى للملكية السويدية ، عن طريق إقناع الديت بالتصديق على اعتبارها لابن عمها شارل جوستاف . خلفا لها . ولكن طول المفاوضات أجل نزولها عن العرش حتى ٦ يونيه ١٦٥٤ . وكان الاحتفال الأخير مؤثرا قدر ما كان تخلى شارل الخامس عن العرش مؤثرا قبل ذلك بتسعين عاما . فإنها نزعت التاج عن رأسها ، وطرحت كل الشارات الملكية ، وخلعت العباءة الملكية ، ووقفت امام الديت فى ثوب بسيط من الحرير الأبيض ، وودعت بلدها وشعبها بخطاب فجر

بالدموع عيون النبلاء العجائز الرابطى الجأش ، وبمثلى المدن القليلى الكلام، ووفر لها المجلس الموارد للمستقبل . وأباح لها الاحتفاظ بحقوقها الملكية على حاشيتها .

وغادرت ستوكهلم عند الغسق ، بعد خمسة أيام من تخليها عن العرش . وتوقفت فى نيكوبنج لزيارة أخيرة لأمها . ثم مضت فى طريقها ، ولما لم تذق طعم النوم لمدة يومين ، فإنها مرضت بذات الجنب ، فلما برئت تابعت المسير إلى هامستاد . وهناك كتبت إلى جاسندى ، بأنها تمنحه معاشا وتبعث إليه بسلسلة ذهبية . وفى اللحظة الأخيرة لقت عرضا بالزواج من الملك شارل العاشر الذى توج حديثا، فرفضت فى عطف وكياسة وتنكرت فى زى رجل تحت اسم كونت دونا ، وركبت البحر إلى الدنمرك ، دون أن تدرى أنها لمدة خمس وثلاثين سنة أخرى ستلعب دورا فى التاريخ .

٣ — بولنده تكفر عن ذنبها : ١٥٦٩ — ١٦٤٨ :

فى هذا العصر عقدت بولندة أيضـــا أواصر السلام مع الكنيسة الكاثوليكية . وقد يكون من المفيد أن نرى كيف استردت الكاثوليكية بسرعة فى هذه المملكة تقريبا كل ما كانت قد فقدته من مكانة فى حركة الاصلاح الدينى، ولكن فلنمر أولا مرورا عابرا، كالمعتاد ، بالخلفية السياسية لهذا التطور الثقافى .

١ - الدولة :

تبدأ الفترة بحدث بارز تم إنجازه فى فن الحكم . كانت دوقية لتوانيا الكبيرة تقع إلى الجنوب الشرقى من بولندة ، يحكمها أدواقها ، وتمتد من البلطيق عبر كييف وأوكرانيا إلى أودسا والبحر الأسود . وكان نمو قوة روسيا يعرض استقلال لتوانيا للخطر . وعلى الرغم من توافق عقيدتها

الأرثوذكسية اليونانية إلى حد كبير مع ديانة روسيا ، فإنها أقرت كارهة أن الاندماج مع بولندة الكاثوليكية قد يكون أفضل للحفاظ على حكمها الذاتى من معانقة الدب الروسى . ومن سجسمند الثانى عهده بتوقيع «اتحاد لوبلين» التاريخى (١ يولية ١٥٦٩) . واعترفت لتوانيا بملك بولندة ، دوقا أعظم ، عليها . وبعثت بمندوبين أو ممثلين لها إلى البرلمان فى وارسو ، وارتضت أن يكون لهذا البرلمان حق السيطرة على علاقتها الخارجية ، ولكنها احتفظت بعقيدتها وقوانينها وحق التصرف فى شئونها الداخلية . واتسعت أطراف بولندة وبلغ عدد سكانها الآن إحدى عشر مليونا من الأنفس ، من دانزج إلى أودســا ، ومن البحر إلى البحر . فكانت إحدى الدول العظمى دون منازع .

وبموت سجسمند الثانى دون عقب ذكر (١٥٧٢) انتهت أسرة «جاجللون» التى كانت قد بدأت فى ١٣٨٦ ، وهيأت لبولندة خطا متصلا من ملوك اتسموا بالخلق والإبداع ، وحضارة قامت على التسامح الدينى واستنارة قوامها الروح الانسانية . وكان النبلاء يكرهون الملكية الوراثية ، على أنها إهدار لحقوقهم وحرياتهم الاقطاعية ، فاستقر عزمهم الآن على الاحتفاظ بالسلطة فى أيديهم عن طريق ملكية انتخابية ، فأسسوا جمهورية من النبلاء وجعلوا ملوك بولندة القادمين خدما أو أتباعا للبرلمان . ولما لم يكن البرلمان يضم كبار النبلاء أو الأعيان فحسب ، بل كان يضم كذلك صغار النبلاء ، فقد بدا أن هذه الخطة تحقق المثل الأعلى لأرسطو فى حكومة تمتزج فيهـــا العناصر الملكية والأرستقراطية والديمقراطية ، فى قيود وضوابط متبادلة . ومهما يكن من أمر ، فإن الدستور الجديد ، فى نطاق ذاك العصر ، لم يكن يعنى إلا انتكاسة إقطاعية ، تفتيت السلطة والزعامة ، على حين كانت منافستا بولندة فى البلطيق — السويد وروسيا — تنصهران فى وحدات عسكرية بفضل الملكيات الوراثية التى كان يحق لها أن تفكر على أساس الأجيال . وبات انتخاب الملك الآن فى بولندة مزادا لأصوات النبلاء تعطى لمن يدفع أكثر من بين المرشحين

الذين تموّلهم ، عادة الدول الأجنبية . وبذلك استطاع عملاء فرنسا بتوزيع العطايا والأموال باليمين وبالشمال ، شراء تاج بولندة للمنحل المنحرف هنرى فالوا (١٥٧٣) ليعيدوه بعد ذلك بعام واحد ليحكم فرنسا حكما سيئاً فاسداً تحت اسم هنرى الثالث .

وأصلح مجلس الديت الذي يتولى الإنتخاب خطأه ، بعد فترة خلا فيها العرش وعمت الفوضى ، باختياره ستيفن باثورى ملكا (١٥٧٥) . وكان ، بوصفه أميراً على ترنسلفانيا ، قد اشتهر بالفعل في مجال السياسة وميدان الحرب وكان عملاؤه في وارسو قد وعدوا بأنه سيسدد ، إذا انتخب ، الدين الوطني ، ويمد الخزانة بمائتي ألف فلورين . ويسترد الأراضي التي كانت بولندة قد نزلت عنها لروسيا ، ويضحي بحياته في ميدان القتال ، إذا اقتضى الأمر من أجل شرف بولندة ومجدها ، ومن ذا الذي يستطيع أن يقف في سبيل هذا العرض ؟ . وعلى حين أيدت قلة غنية من النبلاء ترشيح مكسميليان الثاني النمسوى ، نادى سبعة آلاف عضو من الديت المنتخب بباثورى ، فقدم ومعه ٢٠٠٠ جندى ، وكسب قلوب كثير من الناس بزواجه من أناجاجللون ، وقاد جيشا ضد دانزج (التي رفضت الإعتراف به) وأرغم الثغر المغرور على دفع غرامة قدرها مائتي ألف جوالدن للخزانة الوطنية .

وعلى الرغم من كل هذا لم يستوثق النبلاء من أنهم يحبون الملك الجديد ، بعينيه الحادتين النافذتين . وتفكيره الواقعي ، وشاربه المروع ، ولحيته التي توحي بالاستبداد والدكتاتورية . لقد احتقر الأبهة والمواكب والاحتفالات وارتدى ثيابا بسيطة ، بل لبس الملابس المرقعة ، وكان طعامه المفضل من لحم البقر والكرنب . ولما طالب بالمال لتجهيز حملة على روسيا أمده النبلاء بقدر غير كاف ، وهم متذمرون . وتقدم معتمدا على معونات ترنسلفانيا ، بجيش صغير ، وحاصر بسكوف ثالثة مدن روسيا آنذاك من حيث الحجم . وأحس إيفان الرابع على الرغم من أنه كان يرهب شعبه ، بأنه أكبر سنا من أن يلاقي عدوا في مثل

هذه الحيوية والنشاط ، فطلب الصلح ونزل على ليفونيا لبولندة ، وسلم بأبعاد روسيا عن البلطيق (١٥٨٢) . وعندما أدركت إيفان المنية (١٥٨٤) اقترح بانورى على سكستس الخامس أن يغزو كل روسيا ويوحدها مع بولندة ، ويطرد الأتراك من أوربا ، ويعيد كل أوربا الشرقية إلى حظيرة البابا . ولم يعترض البابا . ولكن فى غمرة هذه الاستعدادات الشاقة لحملة صليبية ، فارق بانورى الحياة (١٥٨٦) . واعترفت بولندة، بعد مماته وبعد أن كف عن إرهاقها بأنه من أعظم ملوكها.

وبعد سنة من المساومة خلع الديت العرش على سجسمند الثالث ، الذى يمكن بوصفه وريثا لعرش السويد، أن يوحد البلدين لمسيطر على مياه البلطيق ويعوقا توسع روسيا . وقضى سجسمند كما رأينا ، نصف مدة حكمه فى مجالات عقيمة لتثبيت سلطانه . وتدعيم المذهب الكاثوليكى فى السويد . وسنحت فرصة أخرى لسجسمند بموت بوريس جودونوف المفاجىء (١٦٠٥) ، حيث عمت روسيا حالة من الفوضى أصبحت معها عاجزة عن الدفاع عن نفسها ودون استشارة البرلمان البولندى أعلن سجسمند ترشيح نفسه للعرش المسكوفى وسار بجيش إلى روسيا . وعلى حين قضى هو عامين فى حصار سمولنسك ، هزم قائده ستانسلاس زلكوسكى الروس فى كلوشينو وتقدم نحو موسكو ، واقنع النبلاء بقبول لادسوس بن سجسمند ملكا عليهم (١٦١٠) . ولكن هذا الأخير أنكر هذه الترتيبات ، فيجب أن يكون القيصر هو لا ابنه . فلما استولى آخر الأمر على سمولنسك (١٦١١) ، تقدم نحو موسكو ، ولكنه لم يصل إليها قط ، فقد أعجل الشتاء بمعوقاته . وتمرد جنوده الذين لم يتقاضوا رواتبهم . وفى ١٢ ديسمبر ١٦١٢، أى قبل نابليون بقرنين من الزمان، تقهقر جيشه وسط سوء النظام والفناء ، من روسيا إلى بولندة . ولم يبق من هذه الحملات الباهظة التكاليف إلا امتلاك سمولنسك وسفرسكى، بالإضافة إلى نفحة قوية من تأثير بولندة على الحياة الروسية .

وكانت بقية حكم سجسمند سلسلة من الحروب الفاجعة ، فقد ورطه تحالفه مع آل هبسبورج — مما ابتهج له الامبراطور — في صراع كلفه غاليا مع الأتراك لم تنج منه بولندة إلا بفضل مهارة قوادها وشجاعة جنودها . واستفاد جوستاف أدولف من انشغال بولنده في الجنوب في غزو ليفونيا . وبمقتضى صلح ألتمارك (١٦٢٩) سيطرت السويد على ليفونيا وعلى البلطيق . وقضى سجسمند نحبه محطما متهدما (١٦٣٢) .

وخلع الديت تاج بولندة على ابنه لادسلاس الرابع ، الذي كان الآن في السابعة والثلاثين ، وكان قد كشف عن نشاطه وهمته وجلده كقائد ، وكسب صداقات كثيرة بفضل خلقه الصريح المرح . وأساء إلى البابا بتسامحه مع البروتستانتية في بولنده ومع الأرثوذكسية في لتوانيا . وأباح في ثورن قيام حوار عام سلمي بين رجال الدين الكاثوليك واللوثريين والكلفنيين (١٦٤٥) وشجع الفن والموسيقى . واشترى لوحات روبنز وأقمشة جوبلان المزركشة وأقام أول مسرح بولندي دائم ، ومثل عليه الأوبرا الإيطالية ، وتبادل الرسائل مع جاليليو في سجنه ، ودعا العالم البروتستانتي جروشيوس إلى بلاطه وفارق الحياة (١٦٤٨) في الوقت الذي هددت فيه الدولة البولندية ثورة عارمة في القوزاق .

٢ — المدنية :

كان الاقتصاد البولندي لايزال يتسم بسمات العصور الوسطى . وكانت التجارة الداخلية في أيدي الباعة المتجولين ، والتجارة الخارجية مقصورة إلى حد كبير على دانزج وريغا ، ولم تكن طبقة التجار تتمتع بثراء يذكر ، وقلما سمح لأفرادها بعضوية البرلمان ، فإن النبلاء تحكموا في الديت وفي الملك وفي الاقتصاد ، وسيطروا على هؤلاء جميعا . وكان يفلح الضياع الواسعة مزارعون خاضعون لتنظيمات إقطاعية أقسى من بعض الوجوه مما كان عليه الحال في

مزارع فرنسا فى العصور الوسطى . وكان النبيل المالك يضع هذه التنظيمات بنفسه ، ويفرضها بقوة جنوده ، ويحرم على مستأجريه مغادرة نطاق ولايته دون موافقته ، وينقلهم من مكان إلى مكان ، ويزيد من الأرض أو ينقص منها وفق مشيئته ، ويفرض عليها فى كل عام أيام عمل لايتقاضون عنها أجرا ويرغمهم على أن يبيعوه أو يشتروا منه وحده ، وعلى أن يبتاعوا منه كل عام قدرا من الجعة الرديئة الصنع . وكان يستطيع تجنيد أبنائهم لخدمته فى زمن السلم والحرب . كان هؤلاء المزارعون أحراراً . « قانونا لهم » حق التملك والتوريث ، ولكن « الأب » الجزويتى سكارجا نعتهم بأنهم أرقاء[٣١] .

وكانت الحياة قروية فى معظمها . وكان النبلاء يتجمعون فى وارسو لإملاء إرادتهم الجماعية ، ولكنهم عاشوا فى ضياعهم ، يصطادون ويتشاجرون ، ويستمتعون باطيب المتع ، ويتبادلون المآدب الباذخة ، ويتدربون على الحرب وكانت الزيجات تتم عن طريق الوالدين . وقلما سئلت البنت رأيها ، وقلما عارضت ، فالمفروض أن الحب الذى يولده الزواج والأبوة أقوى على البقاء والدوام من الزواج الذى ينشأ عن الحب . وكانت النساء متواضعات جادات نشيطات . وكانت آداب السلوك الجنسى مرعية كل الرعاية . ولم نسمع بقصص غرام خارج نطاق الزوجية قبل القرن الثامن عشر[٣٢] . وكان الرجال ، لا النساء ، هم الذين يضعون قواعد السلوك . باستثناء سيسيليا ريناتا التى تزوجت من لاديسلاس الرابع ١٦٣٧ ، والتى أحيت الآثار الإيطالية التى استوردها الفنانون ورجال الدين فى أزمنة سابقة . ولويزمارى جونزاج التى تزوجها ١٦٤٨ ، والتى جلبت معها موجة من قواعد السلوك الفرنسية والكلام الفرنسى بقيت حتى القرن العشرين . وكان فى الرقصات البولندية رقة مهيبة ، حدت برجل فرنسى فى ١٦٤٧ إلى التحدث فى إعجاب عن البولنديات .

ولم يقدر للفن البولندى أن يلاحق المستوى الذى كان قد وضعه فيت ستوس فى كراكاو ١٤٧٧ . لقد نسجت أقمشة سجسمند الثانى المزركشة فى الفلاندرز

وأقام مهندسون معماريون ونحاتون إيطاليون التماثيل لسجسمند وباثورى وآنا جاجللون فى كاتدرائية كرا كاو ، وكنائس الجزويت الباروكية فى كرا كاو ونيزويو وعامود سجسمند الثالث الشهير فى وارسو ، وأصاب الوهن التصوير فى بولندة تحت هجمات البروتستانت على الصور الدينية ، ولكن مارتن كوبر رسم صورة شخصية ملهمة للملك باثورى .

وعانى التعليم — كما عانت الفنون التخطيطية من الإضطراب الدينى . ومرت جامعة كرا كاو بفترة انحطاط عابر . ولكن باثورى أسس جامعة ولنو (١٥٧٨) ، وفى كرا كاو وولنو ويوزنان وريجا وغيرها أسس الجزويت كليات بلغ من امتيازها وتفوقها أن كثيراً من البروتستانت آثروها لتنشئة أبنائهم عقليا وخلقيا . وخير من كل هذه مدرسة طائفة « الموحدين » فى كراكاو التى جذبت إليها ألف طالب من مختلف الملل . وأعد جان ذا موسكى مستشار باثورى ذو النزعة الإنسانية ، فى زاموسك جامعة جديدة خصصت أساسا للدراسات الكلاسيكية .

وكانت ثمة وفرة فى الأدب فى بولندة . وكانت الخلافات الدينيـة فظة فى النعوت مهذبة معقولة فى الشكل ، ومن ثم فإن ستانسلاس أورزيكوسكى ، الذي كان يدافع عن الكاثوليكية ، ناضل من أجلها بضراوة وتعصب عنيف ، وفى لغة بولندية رائعة ، تعد من أحسن ما كتب فى تاريخنا[٣٣] ، ولم يكن يقل عنها شهرة فى الأسلوب « رجل البلاط البولندى » (١٥٦٦) الذى ألفه لوكاز جورنيكى وهو تعديل لكتاب كاستليونى « رجل البلاط » . وبرز الجزويتى بيترسكارجو فى الشعر والنثر والتعليم والسياسة . وانتقل من رياسة جامعة ولنو إلى منصب كبير الوعاظ فى البلاط الملكى وقضى فيه أربعة وعشرين عاما كان فيها « بوسويه » بولنده ، واستنكر فيها غير وهاب ولا وجل الفساد الذى رآه يستشرى من حوله . وتنبأ بأنه إذا لم تصل الأمة إلى حكومة أكثر استقرارا ومركزية فإنها لابد أن تقع فريسة للدول الأجنبيـة ، ولكنه نادى بملكيه مسئولية مقيـدة

ومحددة بالقانون . وظل شعر كوكانوسكى دون منافس فى مجاله وفى لغته حتى القرن التاسع عشر ، ولايزال شعبيا مألوفا حتى اليوم . وقد بلغ الشاعر ذروة الإثارة والإلهام فى رثائه وحزنه على ابنته أورسولا التى ماتت فى نضارة الطفولة .

وعوق الصراع الدينى كل نواحى الثقافة البولندية فى ذاك العصر . ففى النصف الأول من القرن السادس عشر بدا أن البروتستانتية قدر لها أن تسيطر على بولندة، وعلى ألمانيا والسويد أيضا. وكسبت إلى جانبها كثيرا من النبلاء تمردا على سلطة الملك وفساد الكنيسة ، ووسيلة لانتزاع أملاكها[٣٤] . ومنح سجسمند الثانى بلاده تسامحا دينيا واسع النطاق . وبعد عام من وفاته صاغت لجنة من الديت (٢٨ يناير ١٥٧٣) «اتحاد وارسو الكونفدرالى» الذى يضمن الحرية الدينية لكل الشيع والفرق بلا استثناء . فلما عرض المشروع للتصويت عارضه الأعضاء الأسقفيون فى المجلس . ولكن أقره بالإجماع الأعضاء العلمانيون الثمانية والتسعون. بما فى ذلك واحد وأربعون كاثوليكيا[٣٥]، وهذا يمثل نقطة بارزة فى تاريخ التسامح ، لأن أى أعلان رسمى سابق من هذا القبيل لم يصل إلى هذا المدى . وأنتعشت فى ظل هذه الحماية العريضة عدة طوائف متباينة ، اللوثريون ، والكلفنيون ، وأتباع زونجلى ، وأنصار تجديد العماد ، والأخوة البوهيميون ، وغير القائلين بالتثليث . وفى ١٥٧٩ قدم إلى بولندة فاوستس سوسينس، وبدأ يؤسس كنيسة قائمة على مذهب التوحيد ولكن أهالى كراكاو أخرجوه من داره ودمروا مكتبته ، وكادوا يقتلونه لولا أن المدير الكاثوليكى للجامعة هب لنجدته (١٥٩٨[٣٦])، واتحد الكلفنيون مع اللوثريين فى المطالبة بطرد الموحدين أتباع سوسينس من بولندة . وأمر الديت فى ١٦٣٨ بإغلاق مدارس الموحدين ؛ وفى ١٦٥٨ نفى أفراد هذه الطائفة من البلاد . ففروا إلى ترانسلفانيا والمجر وألمانيا وهولنده وانجلترا، وأخيرا إلى أمريكا، ليجدوا أعظم معبر عنهم فى شخص أمرسون .

أن التعصب الشعبي والتربية الجزويتية والنظام الكاثوليكي والسياسة الملكية والتشيع الطائفي البروتستانتي، أجتمعت كلها بعضها إلى بعض لتقضي على البروتستانتية في بولندة . فإن الطوائف الجديدة حاربت الواحدة منها الأخرى بمثل الضراوة التي حاربت بها المذهب القديم . وتعلق المزارعون بالمذهب القديم لمجرد أنه قديم ؛ حيث كان يمثل الأرتياح إلى العادة والعرف المألوف ؛ ولما أنضم الملكان — باتوري وسجسمند الثالث — إليه، وجد كثير من البروتستانت المرتدين وأبنائهم ، أنه من الأفضل لهم أن يعقدوا أواصر السلام مع الكنيسة وكان معظم الألمان في بولنده — من البروتستانت ، وتلك حقيقة وجهت الشعور الوطني إلى مناصرة الكاثوليكية ومعاونتها . وتعاونت الكنيسة تعاونا جادا مع هؤلاء الأعوان المتفرقين على استرداد بولندة إلى حظيرة البابا، فأرسلت نخبة من أكثر الدبلوماسيين فيها رصافة ، وأكبر الجزويت المغامرين ، ليكسبوا إلى جانبها ، الملوك والنساء والأطفال ، بل حتى النبلاء البروتستانت أنفسهم . وحذر رجال الدولة الكنسيون ، مثل الكاردينال ستانسلاس هوسيوس والأسقف جيوفني كومندون ، الملوك من تأسيس نظام اجتماعي أخلاقي سياسي مستقر على المذاهب البروتستانتية المائعة المتصارعة . وأثبت الجزويت قدرتهم على الدفاع عن الأمور التي كان الناس يتشككون فيها ولا يصدقونها ، ضد ما استحدث الآن من معتقدات وطقوس . وفي نفس الوقت فإن رجال الدين الكاثوليك الذين ألتزموا بقرارات مجمع ترنت ، خضعوا الآن لإصلاح ديني صارم مثير للأعجاب (٣٧) .

ولكن للكاثوليك أيضا مشكلة . ذلك أن اتحاد لتوانيا وبولندة عمل على إيجاد تلاحم مثير للغضب بين الكنيسة الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية وكان الخلاف بين الكنيستين طفيفا ولكن الصلوات الأرثوذكسيه اتبعت الطقوس السلافيه ، كما اتخذ القساوسة الأرثوذكس زوجات . وفي ١٥٩٦، وعن طريق « اتحاد برست ليتوفسك » ، شكل جان زاموسكي مجموعة وسطاً من

رجال الدين والعلمانيين فى « كنيسه موحده » ، اعتنقت فكرة زواج رجال الدين، واتبعت الطقوس السلافية، وفى نفس الوقت ارتضت المذهب الكاثوليكى الرومانى واعترفت بسيادة البابا . وراود زعماء الكاثوليك الأمل فى ان يؤدى مثل هذا الحل الوسط أو التوفيق بين الكنيستين ، تدريجا ، إلى كسب الملتين اليونانيه والروسيه إلى جانب الأمتثال للبابا . ولكن الكنيسه الجديدة لاقت مقاومه مثيرة . وذبح أهل بولوك رئيس اساقفتها .

وظل ملوك بولندة طوال القرن السادس عشر ، يطبقون تسامحا دينيا أكثر تقدما منه فى أى بلد مسيحى آخر . ولكن السكان الكاثوليك كثيرا ماعادوا سيرتهم الأولى إلى سياسة العداء الشديد، فانقضوا على كنيسة بروتستانتية فى كراكاو ، ونبشوا قبور البروتستانت (١٦٠٦ — ١٦١٧) . وحطموا كنيسة بروتستانتية فى ولنو ، وضربوا — وقيل قتلوا - قساوستها (١٦١١) وفى بورنات أحرقوا كنيسة لوثرية . وفضوا اجتماعا خاصا « بالاخوة البوهيميين »[٣٨] . ولم يشترك رجال الدين الكاثوليك فى هذه المظاهرات الدينية الشعبية، ولكنهم أفادوا منها. وتعاونت كل الظروف على تأييد الكنيسة القديمة ، حتى تم لها النصر فى ١٦٤٨ .

٤ — روسيا المقدسة : ١٥٨٤ — ١٦٤٥

١ — الشعب :

قال نادزدين فى ١٨٣١ : « ماعليك ألا أن تلقى نظرة على خريطة العالم ليتولاك الرعب ازاء قدر روسيا وماقسم لها . » وكانت قد وصلت فى ١٦٣٨ إلى المحيط الهادى عبر سيبيريا ، وإلى بحر قزوين عبر نهر الفولجا ، ولم تكن على أية حال ، فقد وصلت بعد إلى البحر الأسود ، فقد اقتضى هذا حروبا كثيرة . ولم يجاوز عدد السكان عشرة ملايين فى ١٥٧١[٣٩] . وكان يمكن أن

توفر الأرض الغذاء لهذه الملايين فى سهولة ويسر ، لولا أن الفلاحة الطائشة المهمله أنهكت المزرعه تلو الأخرى ، فانتقل الفلاحون إلى أرض أقوى وأخصب .

ويبدو أن هذه النزعة إلى الهجرة أسهمت فى نشأة الرقيق . ذلك أن معظم المستأجرين كانوا يحصلون من النبلاء ملاك الأرض على سلفيات لتنظيف المزرعة وتجهيزها بالأدوات وأعدادها للزرع . وكانوا يدفعون على هذه القروض نحو ٢٠ ٪(٤٠) ، فلما عجز الكثير منهم عن سداد ما اقترضوا صاروا أرقاء لهؤلاء الملاك . لأن قانونا صدر فى ١٤٩٧ نص على أن يكون المدين المقصر فى الدفع عبدا لدائنه حتى يوفى الدين . وتفاديا لهذه العبودية هرب بعض الفلاحين إلى معسكرات القوازق فى الجنوب . وحصل بعضهم على حريته بالموافقة على استصلاح أراضى جديدة غير ممهدة . وبهذه الطريقة استوطنت سيبيريا ، وهاجر بعضهم إلى المدن حيث اشتغلوا ببعض الحرف ، أو اشتغلوا فى المناجم أو صناعة المعادن أو صناعة الذخيرة ، أو خدموا التجار ، أو تجولوا فى الشوارع يبيعون السلع . وشكا الملاك من أن هجرة المستأجرين عن المزارع — دون دفع ديونهم عادة — قد عوقت الإنتاج الزراعى ، وجعلت من المتعذر على الملاك دفع الضرائب المتزايدة التى تطلبها الدولة . وفى ١٥٨١ وضمانا لاستمرار زرع الأرض ، حرم أيفان الرهيب على المستأجرين لدى طبقة الأوبرشنيكى — رجال الإدارة — أن يتركوا المزارع دون موافقة الملاك ، وعلى الرغم من أن هذه الطبقة كانت تفقد الآن مركزها الممتاز شيئا فشيئا . فقد بقى الرقيق الذى نشأ بهذه الطريقة يعمل فى ضياعها . وسرعان ما طالب النبلاء ورجال الدين الذين تملكوا الجزء الأكبر من أرض روسيا ، مستأجريهم بهذا . فكان الفلاحون الروس فى الحقيقة ، إن لم يكن بمقتضى القانون ، أرقاء مرتبطين بالأرض(٤١) .

وكانت روسيا لاتزال لاصقة بالهمجية . فالسلوك فظ غليظ ، والنظافه ترف نادر ، والأمية امتياز طبقى ، والتعليم بدائى ، والأدب فى معظمه حوليات

رهبانية أوعظات دينية أو نصوص طقسية ، والكتب الخمسمائة التي نشرت في روسيا بين عامي ١٦١٣ و١٦٨٢ كانت كلها تقريبا دينية(٤٢). ولعبت الموسيقى دورا هائلا في الدين وفي البيت . وكان الفن خادما للعقيدة الأرثوذكسية ، وشادت الهندسة المعمارية كنائس معقدة زاخرة بأماكن الصلوات والمعابد الصغيرة الملحقة بها . وبالمباني الناشئة عنها ، وبالقباب البصلية الشكل ، مثل كنيسة عذراء الدون في موسكو . وزين فن الرسم جدران الكنائس والأديار بالرسوم الجصية التي حجب الآن معظمها ، أو بالصور الدينية والأيقونات الفنية بالإبداع التصويري لا المهارة الفنية(٤٣) ، كما هو الحال في كنيسة معجزة سان ميكاييل في كراكاو . وفي ١٦٠٠ لم يعد رسم الأيقونات فنا بل اصبح صناعة تنتج قطعا متماثلة على نطاق واسع ، للتعبد والتبتل والتقوى داخل البيوت أما الإنتاج الفني البارز في هذا العصر فهو برج الناقوس الذي يبلغ ارتفاعه مائة متر — وهو برج إيفان فليكي (جون الأكبر) الذي أقامه أحد المهندسين الألمـــان في ميدان الكرملين (حوالي ١٦٠٠) كجزء من برنامج بوريس جودونوف في الأشغال العامة لتخفيف حدة التعطل .

وفي الكنائس الفخمة المتألقه بالزخارف الثمينه، المعتمه بالكآبه المتعمدة والتي تجلب النعاس بالطقوس المهيبة والتراتيل والصلوات الجهورية الرنانة ، طبع رجال الدين الأرثوذكس الناس على التقوى والطاعة والأمل المتواضع . وقل أن تعاونت عقيدة ما مع الحكومة مثل هذا التعاون الوثيق . وضرب القيصر المثل في التمسك المخلص الصادق بالدين وفي البر بالكنيسة ، ولقاء هذا أحاطته الكنيسة ، بدورها ، بهالة من القداسة الرهيبة ، وجعلت من عرشه حرما منيعا لاتنتهك حرمته ، وغرست في الأذهان أن الخضوع له وخدمته واجب يلتزم به الناس أمام الله . وأسس بوريس جودونوف البطريركية الروسية مستقلة عن القسطنطينية (١٥٩٨) ولمده قرن من الزمان نافس مطران موسكوا المقام السامي للقيصر ومكانته العالية ، وفي بعض الأحيان تحدى سلطانه . وفي ١٥٩٤ عندما أوفد البابا كليمنت الثامن إلى موسكو ، بعثة تقترح اتحاد الكنيسة

الأرثوذكسية واللاتينية تحت زعامة البابا ، رفض بوريس الاقتراح قائلا : « أن موسكو هي الآن روما ذات المذهب القديم الحق (الأرثوذكسي) » . وجعل الجميع يوجهون الدعوات ويقيمون الصلو من أجله وهو وحده بوصفه « الحاكم المسيحي الوحيد على الأرض »[٤٤] .

٢ — بوريس جودونوف : ١٥٨٤ — ١٦٠٥

لم يكن بوريس في الواقع بعد إلا حاكما فقط . أما القيصر فكان فيودور الأول ايفانوفتش (١٥٨٤ — ١٥٩٨) ، الابن الهزيل لايفان الرابع الرهيب وآخر أفراد « آل روريك » (مؤسس روسيا) . وكان فيودور قد شهد موت أخيه الأكبر بضربة شيطانية من أبيه ، فلم يشأ أن يتشبث بارادته أو يعارض في شيء ، وانزوى هربا من مخاطر القصر ، منصرفا إلى العبادة والتبتل ، وعلى الرغم من أن شعبه لقبه « بالقديس » فإنه أيقن أنه كانت تعوزه القوة والصلابة ليحكم الرجال . وكان ايفان الرابع قد عين مجلسا لتوجيه الشاب وتقديم النصح والمشورة له . ولكن أحد أعضائه ، وهو أخو زوجة فيودور — بوريس جودونوف — سيطر وقبض على زمام الأمور ، وأصبح حاكم البلاد .

وكان ايفان الرابع قد خلف من زوجته السابعة والأخيرة ، ابنا آخر ، هو ديمتري ايفانوفتش الذي كان آنذاك (١٨٥٤) في الثالثة من عمره ، ورغبة من المجلس في أن يجنب الطفل أخطار الدسائس — بخلاف دسائسه هو ، أي المجلس — أرسل الطفل وأمه للاقامة في أوجليتش ، على بعد نحو ١٢٠ ميلا إلى الشمال من موسكو . وهناك في ١٥٩١ قضى ابن القيصر نحبه بطريقة لم يتم التحقق منها بعد . وقصدت إلى هذا البلدة لجنة للتحقيق في الحادث ، يرأسها الأمير فاسيلي شويسكي أحد أعضاء المجلس ، وجاء تقريرها يقول بأن الصبي قطع حلقومه في نوبة صرع ألمت به . ولكن أم ديمتري وجهت الاتهام بأنه قتل بأمر من جودونوف[٤٥] . ولكن جريمة بوريس لم تثبت قط ، ولا تزال مثار جدل بين بعض المؤرخين[٤٦] . وأجبرت الأم على الترهب ، ونفي أقرباؤها

من موسكو ، وأضيف ديمترى إلى قائمة القديسين الأرثوذكس ، وطواه النسيان إلى حين ..

وكان بوريس — مثل ريتشارد الثالث فى انجلترا — أكثر توفيقا فى الحكم أثناء وصايته على العرش ، منه بعد تربعه عليه فيما بعد . وعلى الرغم من إنه كان ينقصه التعليم الرسمى النظامى ، بل ربما كان أميا ، فقد أوتى مقدرة جبارة ، ويبدو انه بذل جهود مضنية لمواجهة مشاكل الحياة فى روسيا . فأصلح الإدارة الداخلية ، وحد من فساد القضاء ، وأولى الطبقات الدنيا والوسطى عطفا ورعاية ، وكلف الأشغال العامة بتهيئة فرص العمل للفقراء من سكان المدن ، وخفف من أعباء الأرقاء والتزاماتهم ، وكان — كما يقول أحد كتاب الحوليات المعاصرين — «محبوبا لدى كل الناس»(٤٧) . وحظى باحترام الدول الأجنبية وثقتها(٤٨) . ولما مات القيصر فيودور الأول (١٥٩٨) طلبت الجمعية الوطنية من جودونوف بالاجماع أن يتولى العرش . فقبله مع تظاهره بالمعارضة خجلا من أنه غير جدير به ، ولكن ثمة شبهة بأن عملاءه كانوا قد مهدوا السبيل فى الجمعية الوطنية . ونازع جماعة من النبلاء من الذين كرهوا منه دفاعه عن طبقة العامة(٤٩) . نازعوا فى حقه فى اعتلاء العرش . وتآمروا على خلعه . فأودع بوريس بعضهم السجن ونفى آخرين . وأرغم فيودور رومانوف (والد أول قيصر من أسرة رومانوف) . على أن يدخل فى سلك الرهبنة . ومات نفر من هذه المجموعة المغلوبة على أمرها . فى ظروف مواتية لبوريس إلى حد اتهامه بتدبير قتلهم . ولما كان يعيش آنذاك فى جو من الشك والفزع . فإنه بث العيون والأرصاد هنا وهناك . وأبعد المشتبه فيهم وصادر أملاكهم . وإعدم الرجال والنساء . وانهارت شعبيته الأولى . وتركته السنوات العجاف من (١٦٠٠ — ١٦٠٤) . بغير تأييد ومساندة من الأهالى الذين يتضورون جوعا فى مواجهة المكائد التى كان يديرها النبلاء فى تصميم وعناد .

وثمة مكيدة أصبحت ذات شهرة فى التاريخ ، والأدب والموسيقى . ففى ١٦٠٣ ظهر فى بولنده شاب ادعى أنه ديمترى المفروض أنه مات . والوريث الشرعى

لعرش فيودور ايفانوفتش . واعتبر بوريس ، الواثق من نفسه (٥٠) ، أن هذا الشاب ليس إلا جريشكا أوتريبيف الراهب الذى جرد من ردائه الكهنوتى ، والذى كان من قبل فى خدمة آل رومانوف . أما البولنديون الذين كانوا يخشون توسع روسيا ، فقد سرهم أن يجدوا بينهم وفى متناول يدهم ، من يطالب بالتاج المسكوفى ، وابتهجوا أكثر من ذلك بزواج « ديمترى » هذا من بنت بولندية ، واعتناقه الكاثوليكية . وتغاضى سجسمند الثالث الذى كان قد وقع لتوه (١٦٠٢) هدنة مدتها عشرون عاما مع روسيا ، عن حشد ديمترى لمتطوعين بولنديين . وناصر الجزويت بشده قضية هذا المدعى . وفى أكتوبر ١٦٠٤ عبر ديمترى نهر الدنيبر مع أربعة آلاف رجل ، فيهم المنفيون الروس ، وجنود مرتزقة ألمان ، وفرسان بولنديون . وأيده النبلاء الروس سرا ، ولو أنهم تظاهروا بالحياد . وانضم الفلاحون الآبقين إلى القوات المتقدمة . ورحب الشعب الجائع الذى طال انتظاره للتعلل بأمل كاذب ، بديمترى الجديد ، ورفع لواءه رمزا للملكية الشرعية والأمانى اليائسة . ووسط الهتاف تحرك الجمهور المتضرع نحو موسكو من الغرب ، وانقض من الجنوب القوزاق المستعدون دوما للنزال . وانقلبت الحركة إلى ثورة .

ولما رأى بوريس أن هذا بمثابة غزو بولندى ، بعث بجيشه إلى الغرب ، وهزم فصيلة من قوات ديمترى ، ولكنه لم يدرك البقية . ولم يتلق جودونوف وهو قابع فى قصر الكرملين إلا أنباء جمهور الرعاع الزاحف المتزايد عدده . والسخط الذى ينتشر ، والأنخاب التى يشربها البويار (النبلاء) حتى فى موسكو ، فى صحة ديمترى الذى أعلنوا على الشعب أنه ابن القيصر المقدس الذى اختاره الله ليكون قيصرا . وفجأة ، وبعد شكوك وآلام مبرحة معروفة لدى بوشكين وموسورجسكى ، ولا يعلم التاريخ عنها شيئا — مات بوريس (١٣ أبريل ١٦٠٥) وأوصى البطريرك بسمانوف والنبلاء بابنه خيرا . ولكن البطريرك والنبلاء تحولوا إلى المدعى . وقتل ابن جودونوف وأرملته ، وفى غمرة النشوة الوطنية رحب « بديمترى الزائف » وتوج قيصرا على روسيا بأسرها .

٣ — « زمن الشدائد » : ١٦٠٥ — ١٦١٣ :

لم يكن القيصر الجديد حاكما غير صالح ، كما هى شيمة الملوك ، ولم يكن ذا قوام يبعث على الرهبة ولا بهى الطلعة ، ولكنه كان برغم هذا وذاك قادرا على امتشاق الحسام وامتطاء الخيل ، مثل أى نبيل كريم المحتد وتحلى القيصر الجديد برجاحة العقل وسعة الادراك وفصاحة اللسان وحلاوة الشمائل ، وبساطة غير متكلفة صدمت قواعد السلوك والتشريفات فى حياة القصور . وأدهش موظفيه باهتمامه الجاد بالإدارة ، كما أدهش جيشه بتوليه تدريبه بنفسه . ولكن تعاليه على بيئته كان متعمدا واضحا أكثر مما ينبغى . فأبدى احتقاره صراحة لخشونة النبلاء وأميتهم وجهلهم ، واقترح ارسال أبنائهم لتلقى العلم فى الغرب ، وسعى إلى استقدام معلمين أجانب لتأسيس مدارس ثانوية فى موسكو . وسخر من للعادات الروسية ، وأغفل الطقوس الأرثوذكسية ، وأهمل تحية صور القديسين ، وتناول طعامه دون أن ترش مائدته بالماء المقدس ، وأكل لحم العجل الذى اعتبرته الطقوس نجسا . وأخفى — وربما لم يأخذ يوما بمأخذ الجد — تحوله إلى الكاثوليكية ، ولكنه أحضر إلى موسكو زوجته البولندية الكاثوليكية ، يحف بها أخوة فرنسيسكان وممثل البابا . وكان فى بطانته هو نفسه نفر من البولنديين والجزويت ، وأنفق فى سخاء من أموال الخزانة ، فضاعف رواتب ضباط الجيش ، وخصص لأصدقائه الضياع المصادرة من أسرة جودونوف . ولما كان لايهوى السكون ، كما كان رجلا عسكريا فإنه دبر حملة ضد خان القرم وأعلن الحرب عمليا بإرساله سترة من جلد الخنزير إلى الحاكم المسلم . وربما كاد أن يخلى موسكو من الجنود تماما ، بإصداره أوامره اليهم بالتحرك نحو الجنوب ، وخشى النبلاء من أنه كان يفتح العاصمة لغزو بولندى .

وبعد اعتلاء ديمترى عرش روسيا ببضعة أسابيع تآمرت زمرة من النبلاء بزعامة شويسكى على خلعه . واعترف شويسكى بأنه لم يقرأ أو يعترف « بالمدعى » إلا لمجرد التخلص من جودنوف ، أما الآن فيجب ابعاد الأداة

التى اصطنعت لهذا الغرض ، واجلاس نبيل أصيل على العرش (٥١) . وكشف ديمترى المؤامرة ، واعتقل زعماءها ، وبدلا من الإسراع باعدامهم ، كما تقضى بذلك التقاليد ، منحهم الحق فى أن يحاكموا أمام الجمعية الوطنية التى اختير أعضاؤها لأول مرة من بين جميع الصفوف والطبقات . فلما أصدرت حكمها على شويسكى وآخرين بالاعدام خفف ديمترى الحكم إلى النفى ، وبعد خمسة أشهر أباح للمنفيين العودة . وكان كثير من الناس يعتقدون أنه ابن ايفان الرهيب ، ولكنهم شعروا الآن — بعد تصرفه على هذا النحو — أن مثل هذا الاعتدال أو الرفق غير التقليدى يلقى ظلالا من الشك على أبوته الملكية. وعاد المتآمرون المعفو عنهم إلى تدبير المؤامرات من جديد . واشتركت فيها أسرة رومانوف التى احتمى ديمترى بظل الانتساب إليها . وفى ١٧ مايو ١٦٠٦ اقتحم شويسكى الكرملين بأتباعه المسلحين . ودافع ديمترى عن نفسه دفاعا مجيدا ، وقتل بيده كثيرا من مهاجميه ، ولكنه فى النهاية غلب على أمره وذبح . وعرضت جثته فى ساحة الاعدام ، وألقى على وجهه قناع حقير ، ووضع فى فمه مزمار ، ثم بعد ذلك أحرقت الجثة ، وأطلق عليها مدفع حتى تذرو الرياح رمادها فلا تبعث بعد الآن .

ونادى النبلاء المنتصرون بشويسكى قيصرا تحت اسم فاسيلى الرابع ؛ وآلى على نفسه الا يعدم أحدا ولا يصادر أملاكا ، دون موافقة « الدوما » (مجلس النبلاء) . وأقسم فى كاتدرائية أوسبنسكى أغلظ الأيمان بأنه « لن يلحق بأى انسان أذى دون موافقة المجلس «أى الجمعية العمومية التى تضم كل الطبقات». وغالبا ما انتهكت هذه الضمانات ، ولكنها كانت على أية حال خطوة تاريخية على طريق تطوير الحكومة فى روسيا .

وأخفقوا فى تهدئة تلك العناصر الكبيرة من السكان التى تولاها الحزن والأسى لخلع ديمترى . فاندلعت ثورة فى الشمال ، ونصب زعيما لها « ديمترى » زائف آخر ، أمده سجسمند الثالث ملك بولنده بعون غير رسمى . فالتمس

شويسكي العون من شارل التاسع ملك السويد ، عدو سجسمند ، وأرسل شارل قوة سويدية إلى روسيا ، فأعلن سجسمند الحرب عليها ، واستولى قائده زلكوسكي على موسكو ، وخلع شويسكي (١٦١٠) وحمل إلى وارسو حيث أرغم على الترهب في أحد الأديار . واتفقت زمرة من النبلاء على الاعتراف بلادسلاس - ابن سجسمند ، البالغ من العمر أربعة عشر عاما قيصرا على روسيا ، شريطة المحافظة على استقلال الكنيسة الأرثوذكسية ، ومساعدة الجيش البولندي للنبلاء في اخماد الثورة الاجتماعية التي كانت تهدد الحكومة الارستقراطية في روسيا .

وكانت الثورة في بداية أمرها استنكارا دينيا ووطنيا لتنصيب قيصر بولندي ، ومنع هرموجنس بطريرك الأرثوذكسية الشعب من حلف يمين الولاء لملك كاثوليكي . وقبض البولنديون عليه ، وسرعان ما قضى نحبه في سجنه ، ولكن نداءه جعل من المتعذر على لادسلاس أن يحكم البلاد . ودعا الزعماء الدينيون الشعب إلى طرد البولنديين بوصفهم كاثوليك مهرطقين. وبدا أن الحكومة تنهار ، وعمت الفوضى روسيا . واستولى الجيش السويدي على نوفجورود واقترح أن يتولى عرش روسيا أمير سويدي . ورفض الاعتراف بلادسلاس الفلاحين في الشمال والجنوب ، والقوازق في الجنوب ، واقاموا حكما خاصا بهم في المقاطعات . وأعملت عصابات قطاع الطرق لسلب والنهب في القرى والمدن ، ونكلت بكل من يقاوم . وتعطلت الزراعة ، ونقص انتاج الأغذية ، واختلت وسائل النقل ، وعمت المجاعة ، واضطر السكان في بعض الأقسام إلى أكل لحوم البشر[٥٢] . ودخل جمهور ثائر موسكو ، وفي غمرة الفوضى والشغب أشعل الحريق فأتت النار على معظم المدينة (٩ مارس ١٦١١) وتقهقرت الحامية البولندية إلى الكرملين ، ترقب عبثا قدوم سجسمند لنجدتها .

وفي نزني نوفجورد نظم قصاب يدعى كوزمامنين ، جيشا ثوريا آخر ، يحدوه الاخلاص للأرثوذكسية ، ودعا كل أسرة إلى التنازل عن ثلث ما تملك

لتحويل الهجوم على العاصمة . وتم هذا بالفعل ، ولكن الناس لن ينقادوا إلى زعيم غير ذى لقب . فدعا متين الأمير ديمترى بوجارسكى ليتولى القيادة ، فقبل المهمة ، وانطلق رجال الجيش الجديد إلى موسكو صائمين ضارعين ، وما أن وصلوا حتى حاصروا الحامية البولندية فى الكرملين ، وصمدت الحامية إلى حد أنهم أكلوا الفيران ولحم البشر ، وكانوا يغلون المخطوطات اليونانية ليحصلوا على المرق ، ثم استسلموا وفروا (٢٢ أكتوبر ١٦١٢) وظلت ذكرى هذا العام حية عزيزة فى أذهان الروس ، على أنه عام التحرير ، وعندما أجلى الفرنسيون بعد ذلك بقرنين من الزمان ، عن موسكو التى جللها رماد الحريق مرة ثانية ، أقام الروس المنتصرون نصبا تذكاريا لمنين وبوجارسكى ، الجزار والأمير اللذين ضربا لها أروع مثل للبطولة فى ١٦١٢ .

ودعا بوجارسكى والأمير ديمترى تروبتسكوى ممثلين علمانيين ودينيين عن كل أجزاء الامبراطورية إلى مجلس لانتخاب ملك جديد . واستخدمت مختلف الأسرات نفوذها بطريقة خفيفة لتحقيق أغراض خاصة ، ولكن كانت الغلبة آخر الأمر لأسرة رومانوف ، واختار المجلس ميكاييل الذى لم يتجاوز الخامسة عشرة من العمر آنذاك ، وفى ٢١ فبراير ١٦١٣ نادى به قيصرا سكان موسكو الذين يمكن تجميعهم وتوجيههم بسرعة . وبعد أن أنقذ الشعب الدولة ، نسب الفضل فى ذلك ، تواضعا ، إلى النبلاء .

وقضت الحكومة الجديدة على الخلل الاجتماعى والثورة ، وثبتت دعائم الرق وتوسعت فيه وهدأت من روع السويد بالتخلى عن انجريا ، ووقعت مع بولندة هدنة مدتها أربعة عشر عاما ، وفكت الهدنة أسر فيودور رومانوف ، والد ميخائيل ، الذى طال أمد أسره . وكان بوريس قد أرغمه على الترهب ، وأطلق عليه اسم الراهب فيلارت . وعينه ابنه ميخائيل بطريرك موسكو ، ورحب به مستشارا له وبلغ من القوة والنفوذ حدا أطلق معه الشعب عليه اسم « القيصر الثانى » . وتحت الحكم المزدوج الذى شارك فيه الوالد والولد

وبرغم المزيد من الثورات والحروب ، حققت روسيا بعد جيل من الفوضى ، سلاما مزعزعا مقرونا بالضغط والاستياء . أن زمن الشدائد والمتاعب الذى بدأ بموت بوريس ، اختتم باعتلاء ديمترى العرش ، وهذا بدوره كان ابتــــداء عهد أسرة رومانوف التى قدر لها أن تحكم روسيا حتى عام ١٩١٧ .

الفصل العشرون

الإسلام يتحدى

١٥٦٦ — ١٦٤٨

١ — الأتراك

فى غمرة الصراعات الداخلية — سياسية ولا هوتية — فى العالم المسيحى أحس بعض المفكرين بالانزعاج والقلق من أن العناية الإلهية أطلت ، فى حياد ظاهر ، على الصراع الأكبر بين المسيحية والإسلام . ولقد تم طرد الإسلام من أسبانيا ، ولكن « دار الإسلام » (العالم الاسلامى) كانت لا تزال شاسعة مترامية الأطراف ، ضمت أندونسيا وشمال الهند . والحق أن هذا كان عصر أسرة المغول الزاهر فى دلهى (١٥٢٦ — ١٧٠٧) . وضم الإسلام أفغانستان وآسيا الوسطى وايران كلها ، حيث آذنت عظمة الفن الفارسى بالغروب فى هذه الحقبة . وإلى الغرب من إيران كانت دولة الإسلام هى الامبراطورية العثمانية أو التركية - التى لم يكن ينافسها آنذاك فى أتساع أطرافها الا الامبراطورية الأسبانية ، واحتفظت بالسيطرة على شواطىء البحر الأسود ، وتحكمت فى مصبات الدانوب ، والدنيبر والدينستر ، وساعدت حلفاءها خانات التتار ، على السيطرة على القرم ومصب نهر الدون . وأستولى الأتراك على أرمينيا وآسيا الصغرى وسوريا وبلادالعرب - الشرق الأدنى بأسره - . وهناك كان فى حوزتها أشهر مدن العالم القديم والوسيط . بابل ، نينوى ، بغداد ، دمشق ، أنطاكية طرطوس، أزمير، نيقية، مكة وبيت المقدس - حيث كان المسحيون، بترخيص من المسلمين، يحجون إلى قبر المسيح . واستولو فى شرق البحر الأبيض على الجزر العظيمة قبرص ورودس وكريت ، وكانت الأغلبية الساحقة فى شمال افريقية

من المسلمين ، من البحر الأحمر إلى الأطلسى ، فكان يحكم مصر باشوات يعينهم السلاطين ، وكان يحكم طرابلس وتونس والجزائر ومراكش أسرات مسلمة محلية يختلف خضوعها للسلاطين باختلاف البعد بينها وبين الآستانة ، وكان هذا هو عهد أسرة السعديين (١٥٠٠ — ١٦٦٨) فى المغرب ، وكانت عاصمتها مراكش تعج بالتجارة وتتألق بالفن . وأمتدت الدولة العثمانية فى أوربا من البسفور عبر اليونان (بما فيها أثينا واسبرطه) والبلقان والمجر، على بعد مائة ميل من فيينا ، وعبر دالمشيا إلى أبواب البندقية ، وعبر البوسنه والبانيا ، وما كان ثمة الأقفزة واحدة عبر الادرياتيك حتى تصبح فى ايطاليا البابوية . وهناك، وفى فيينا الواقعة تحت الحصار ، لم يكن الحوار الكبير بين البروتستانت والكاثوليك بل بين المسيحية والإسلام . وداخل هذا النطاق الإسلامى عاشت المسيحية حياتها الممزقة .

ومهما كان من أمر امتداد الإسلام غربا فإنه ظل شرقيا . وكانت القسطنطينية نافذة على أوربا ولكن جذور العثمانيين أمتدت كثيراً إلى الوراء ، إلى آسيا وبذلك استطاعت تركيا المزهوة المبتهجة أن تقلد أوربا . وفى بعض بقاع العالم الإسلامى قتلت حرارة الصحراء أو الحرارة المدارية روح الحيوية . وعوقت المسافات الشاسعة غير المسكونة التجارة ، ولم يجد الناس فى أنفسهم تحمسا إلى كسب المعرفة وتحصيلها مثل الأوربيين الغربيين ، فشجعوا الجمود وعدم التحرك ، وكانوا أكثر استعدادا للقناعة ولم يتصفوا بالطموح . وكانت الحرف والصناعات غير المتغيرة فى الإسلام متقنة ، ولكنها كانت تتطلب وقتا ، وكان يعوزها الذوق ، ولم تتجه إلى الصناعة على نطاق واسع وكانت القوافل مثابرة صابرة ، ولكنها لم تقو على منافسة الأساطيل التجارية التابعة للبرتغال وأسبانيا وانجلترا والأراضى الوطيئة التى كانت تجوب كل المسالك المـــائية إلى الهند . على أن بعض الثغور الواقعة على البحر المتوسط مثل أزمير ، اذدهرت بفضل نقل البضائع بين السفن والقوافل . وينفخ الإسلام فى الناس روح

الشجاعة المفعمة بالأمل زمن الحرب ، ولكنه كان يغرس فى نفوسهم وقت وقت السلم روح التسليم بالقضاء والقدر التى تثبط من عزائمهم *) وأغراهم بحلقات الذكر والأحلام الصوفية . وعلى الرغم من أن الإسلام فى عصر الفتوة والشباب أجاز قدراً كبيراً من العلوم . فأنه هبط آنذاك بالفلسفة إلى حذلقة جوفاء قوامها التعاليم والأساليب التقليدية . وعمل العلماء من رجال الدين الذين سنوا القوانين على أساس القرآن الكريم على تنشئة الأطفال على الدين القويم ، وحرصوا على كل الحرص حتى لا يطل عصر العقل برأسه على العالم الإسلامى. وهناك هيأ الصراع بين الدين والفلسفة نصراً حاسماً للدين .

أضف إلى ذلك أن هذا الدين تيسر له غزو البلاد التى اقتطعت من العالم المسيحى . فقد كان للكنيسة الشرقيه بطاركتها فى القسطنطينية وانطاكية ، وأورشليم والاسكندرية ، ولكن عدد المسيحين فيها كان يتناقص بسرعة ، وظل الأرمن فى آسيا الصغرى والأقباط فى مصر على عقيدتهم المسيحية ، ولكن الجماهير عامة فى آسيا وأفريقية والبلقان اعتنقت الإسلام . وربما كان لهذا أسباب عملية ، فلو أنهم بقوا على عقائدهم المسيحية لحرموا من الوظائف العالية ، ودفعوا ضرائب باهظة مقابل اعفائهم من الخدمة العسكرية وسلموا واحدا من كل عشرة من أبنائهم ليربى تربية إسلامية تؤهله للانضمام إلى الإنكشارية ليعمل فى الجيش ، أو ليتولى الوظائف الحكومية .

وفيما عدا هذا ، تمتع المسيحيون فى العالم الإسلامى بتسامح دينى ما كان حاكم مسيحى ليحلم بمنحه للمسلمين فى أى بلد مسيحى . من ذلك ، على سبيل المثال ، أن المسلمين كان لهم فى أزمير ١٥ مسجدا ، وللمسيحيين ٧ كنائس ولليهود ٧ معابد[١] . وكانت السلطات فى تركيا والبلقان تتولى حماية الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية ضد أى تحرش أو ازعاج أثناء العبادة

---

* هذا كلام يدل على عدم التعمق فى فهم حقيقة الاسلام ؛ ولكننا نورده بنصه توخياً للامانة فى الترجمة — (المترجم)

والصلوات [٣] . وذهب صمويل بيبس فى يومياته إلى أن معظم المجر استسلم للاتراك لأن البــــلاد نعمت فى ظل الحكم العثمانى بحرية دينية أكبر مما نعمت به فى ظل الأباطرة الكاثوليك . وهذا حق كل الحق من جانب المسيحيين المهوطقين ، فقد ذكر سير توماس أرنولد : « أن الكلفنيين فى المجر وترنسلفانيا والموحدين فى هذا البلد الأخير آثروا الخضوع للاتراك على الوقوع تحت نير آل هبسبرج المتعصبين وأن البروتستانت فى سيليزيا تطلعوا إلى الأتراك، وربما ارتضوا عن طيب خاطر أن يشتروا حريتهم الدينية مقابل الخضوع للحكم الإسلامى [٤] » وما يلفت النظر أو يثير الدهشة أكثر من ذلك، حكم السلطات المسيحية القيادية على تاريخ اليونان الحديث : —

إن كثيراً من اليونان ذوى المواهب العظيمة والخلق الرفيع كانوا أكثر إدراكاً لتفوق المسلمين، حتى أنهم ، حين نجوا من سوقهم إلى خدمة السلطان فى نطاق « ضريبة الأطفال » ، اعتنقوا الإسلام طواعية واختياراً . ولابد من التسليم بأن السمو الخلقى فى المجتمع العثمانى كان له دخل كبير فى هذا التحول إلى إسلام ، قدر ما كان للطموح الشخصى لدى الأفراد [٥] .

ولكن من الصعب تحديد هذا « السمو الخلقى » لدى أتراك القرن السابع عشر . فان تافرنيه الذى تجول واشتغل بالتجارة فى البلاد الإسلامية فى ١٦٣١ — ١٦٣٣ ، ١٦٣٨ — ١٦٤٣ وما بعدها ، قال : « فى تركيا لصوص كثيرون يتجمعون فى عصابات تقطع طريق التجار [٦] ، وكان الأتراك معروفين بنزعتهم الهادئة إلى الخير ولكن نفس الديانة التى روضت دوافعهم غير الإجتماعية وقت السلم، أطلقت لهم العنان فى ضراوة وعنف فى حربهم مع « الكفار » وكان استرقاق الأسرى المسيحيين مباحاً . ووقعت غارات فى الأراضى المسيحية القريبة من الحدود العثمانية لاصطياد المسيحيين واسترقاقهم . ومهما يكن من أمر ، فإن اتجار العثمانيين فى الرقيق كان أقل بكثير ، عدداً وقساوة ، من الحملات التى قام بها المسيحيون لجمع الرقيق فى القارة السوداء . وكان الانغماس فى الشهوة الجنسية فى العالم الإسلامى أشد

وأكثر أرهاقا منه فى العالم المسيحى ، ولو أنه كان عادة فى نطاق الحدود المنظمة لتعدد الزوجات . وكان المجتمع التركى ، على وجه التحديد . بجتمع رجال ، ولما كان اتصال الرجال بالنساء محظورا خارج البيت . فقد أنس المسلمون بمعاشرة الغلمان ، عشرة عذرية (أفلاطونية) أو جسدية . وانتشر السحاق داخل الحريم[٨] .

وسادت حياة عقلية نشيطة ، ولو أنها مقيده ، بين أقلية كبيرة من المسلمين. وربما كانت نسبة معرفة الكتابه والقراءة فى تركية أوربا فى القرن السابع عشر أعلى منها فى العالم المسيحى وربما حكمنا على وفرة الكتب من ثبت جمعه حاجى خليفة (١٦٤٨) ، يضم أكثر من ٢٥ ألف كتاب فى اللغات العربيه والتركية والفارسية . وكانت هناك مئات المجلدات فى الدين والفقه والعلوم والطب والبلاغة والسير والتاريخ[٩] . وكان من أشهر المؤرخين أحمد بن محمد ، غالبا ما استندنا فى كتابتنا هذه إلى مؤلفه « تاريخ الأسرات الإسلامية فى أسبانيا » (نفح الطيب) . وقد عرفناه أساسا باسم « المقرى » ، وقد أشتق أسمه من اسم مسقط رأسه فى قرية فى الجزائر . ومعظم كتابه عبارة عن قطع منقولة أو مختصرة من كتب قديمة ، ومع ذلك فهو انتاج جدير بالذكر فى عصره ، لم يزودنا بأخبار السياسة والحرف فقط ، بل أمدنا كذلك بشىء عن الأخلاق والقانون والنساء والموسيقى والأدب والطب . وأحيا مدونته بالتفاصيل الممتعة والحكايات والنوادر التهذيبية .

ونظم الشعر كل من عرف القراءة والكتابة فى تركيا تقريبا . واشترك الحكام بحماسة فى هذه المباراة (كما هو الحال فى اليابان) . وألف محمد سليمان أوغلوا المعروف « بالفضولى » (وهو أسم أخف على السمع) ، أرق أغانى الحب فى ذاك العصر ، وربما بدت سخيفة ساذجة فى الترجمة . الإنجليزية الرديئة التى توفرت لنا ، ولكننا ندرك مراميه — تميزت غادات بغداد بالدفء والحرارة والطراوة ونعومة الملمس ، والخفر والرقه حتى

يتزوجن . أما محمود عبد الباقى (المتوفى ١٦٠٠) وهو أعظم الشعراء الغنائيين العثمانيين ، فانه بعد أن كان المغنى الأثير لدى سليمان القانونى ، ظل يشدو لمدة أربعة وثلاثين عاما بعد وفاة راعيه . وكتب نافع الذى عاش فى أرضوم ، هجاء لاذعا ، لابد أن شيئا منه صعد إلى السماء ، فانه بينما كان السلطان مراد الرابع يقرأ قصيدة منه نزلت صاعقة على قدميه ،فمزق السلطان الكتاب ونفى الشاعر من القسطنطينية ، وسرعان ما أعيد إليها ، ولكن قصيدة هجائية أخرى لذعت الوزير بيرم باشا ، فأمر بقطع رأسه (١٠) .

وظل الفن العثمانى ينتج التحف والروائع ، فقد بنى مسجد أحمد الأول فى ١٦١٠ ليشرف على العاصمة بمآذنه الست المحلقة فى الجو ، وسلسلة قبابه المنتفخة (البصلية الشكل) ، وأعمدته المحززة الضخمة فى الداخل ، وأقواس الفسيفساء ، والكتابات الفخمة والزخارف المتألقة . وبعد ذلك بخمسة أعوام أهدى السلطان لزوجته ذات الحظوة لديه مسجد ييتى فالدى جاميسى الرائع . وبنى فى هذه الحقبة فى دمشق مسجدان فخمان . أما فى أدرنه فإن المهندس المعمارى الذى لا نظير له . سنان الذى كان قد وضع تصميم مسجد سليمان شاد للسلطان سليم الثانى مسجدا يعده بعض الناس أعظم من أى مسجد آخر فى القسطنطينية .

ولم تتفوق أية حضارة على الإسلام فى صنع تربيعات القرميد الجميلة التى نشاهدها ، على سبيل المثال فى مسجد أحمد الأول ، وأجمل منها تلك التى تزين مدخل ضريح سليم الثانى بالقرب من أيا صوفيا بباقات من الأزهار البيضاء والزرقاء وسط أغصان وأوراق خضراء وزرقاء وحمراء ، ولا يمكن أن تكون الزهور الحية أجمل من ذلك ، بل قد تحسد نظيراتها المصنوعة على طول بقائها . وكانت أزنيق — حيث رأس قسطنطين منذ ثلاثة عشر قرنا المجمع التاريخى الذى ثبت العقيدة المسيحية — نقول كانت مشهورة بتربيعاتها البراقة وثمة نماذج مقنعة منها فى متحف المتروبوليتان للفن .

وكان رسم المنمنمات فى تركيا يحاكى نظيره فى فارس التى سنتحدث عنها وشيكا أما الخط فقد ذاع صيته (يقال أن سطرا واحداً بخط مير عماد بيع بقطعة

من الذهب أثناء حياته)[١١] إلى حد أنه لم يطبع أى كتاب فى تركيا قبل عام ١٧٢٨ . وفى النسيج كذلك كان الأتراك تلاميذ الفرس ، ولكن لم يتفوق عليهم فيه إلا هؤلاء . ولم يبلغ السجاد التركى درجة الإيرانى فى رقة النسيج ودقة التصميم والرسم أو الثراء فى الألوان . ولكنهم يحتلون مكانة عالية فى تاريخ هذا الفن . وكان السجاد التركى فى القرن الخامس عشر قد كسب شهرته بالفعل فى الغرب لأننا نراه فى لوحات الرسام الإيطالى أندريا ما نتنيا ، وبعده فى بنتوريكيو ، وفى باريس بوردون وهولبين . وكسى كثير من قصور التيودور بالسجاد التركى ، بل إن كرومول المتشدد نفسه كان لديه اثنتان وعشرون قطعة منه[١٢] . وإننا لنجد هذا السجاد ممثلا فى قطع النسيج المزركش (الكانفاه ، الجوبلان) ، يوضح للناس حياة لويس الرابع عشر . لقد كان الغرب يدرك أن الشرق لديه الفنون والمدافع سواء بسواء .

٢ — معركة ليبنتو

ومهما يكن من شيء ، فقد كان على حكام الغرب أن يرقبوا المدافع ، لأن سلاطين آل عثمان كانوا قد أعلنوا عن عزمهم على تحويل أوربا بأسرها إلى الإسلام . أن رصيدهم البشرى وثروات ممالكتهم الزاحفة فى كل مكان هيأت لهم أكبر جيش وأحسنه عتادا وعدة فى أوربا . وكان عدد الانكشارية وحدهم خمسين ألفا . وربما كان خلاص الغرب وخلاص المسيحية فى ترامى أطراف الإمبراطورية العثمانية على هذا النحو ، فما كانت المسافات البعيدة لتساعد على تجميع الموارد المبعثرة فى الوقت المناسب ، كما أن السلاطين ، ولو أنهم شكلوا أسرة حاكمة أبقى على الزمن من أية أسرة حاكمة مسيحية ، دب فيهم الفساد وانتابهم التدهور حيثما تهيأت « للحريم » فرصة لتحقيق مآربهن ، وكانوا يكلون أمور الحكم إلى وزراء مؤقتين سريعى الزوال ، نزع بهم تزعزع مراكزهم إلى التخفيف من وطأة سقوطهم واعتزال مناصبهم ، بجمع الثروات أيام سطوتهم .

وهكذا كان سليم الثانى الذى خلف سليمان القانونى ١٥٦٦ ، حاكما منحلا خاملا ، لم تتجل عبقريته إلا فى أنه عهد بالإدارة والسياسة إلى وزيرة القدير محمد سوكللى . وانقطعت غارات الأتراك على الإمبراطورية الرومانية المقدسة لأن الإمبراطور مكسيمليان الثانى اشترى السلام مقابل جزية سنوية قدرها ٣٠ ألف دوكات . وحول سوكللى وجهه شطر فريسة أقرب . فقد احتفظت بلاد العرب من قبل ، باستقلالها الدينى ، ولكن تم الآن للباب العالى فتحها (١٥٧٠) وكانت ممتلكات البندقية لاتزال متناثرة فى بحر إيجه ، تعوق أساطيل تركيا وتجارتها . وقصد لا لا مصطفى على رأس ٦٠ ألف مقاتل لمهاجمة قبرص وأهابت البندقية بالدول المسيحية لنجدتها ، فلم يستجب لندائها إلا البابا وأسبانيا . فإن بيوس الخامس لم يكن قد نسى أن الأسطول التركى فى ١٥٦٦ هدد أنكونا ثغر البابا وقلعته على الإدريانيك . كما علم فيليب الثانى أن عرب الاندلس استصرخوا السلطان لإنقاذهم من ويلات الحكم الاسبانى (١٥٦١) وأن السلطان رحب بمبعوثيهم إليه . وكان الموقف الدبلوماسى مواتيا . ذلك أن الإمبراطور لم يكن يشترك فى الحرب ضد تركيا ، لأنه كان قد وقع من فوره معاهدة سلام معها ولم يكن من الشرف ولا فى مصلحة أمنه أن ينقضها وعارضت فرنسا أية خطة تزيد من قوة أسبانيا وترفع من شأنها . ووثقت عرى الصداقة مع الاتراك عونا لها على مواجهة الإمبراطور . وخشيت انجلترا مغبة الدخول فى مغامرة مشتركة مع فيليب الثانى يجعلها تحت رحمة أسبانيا الكاثوليكية فى حالة انتصارها . وساور البندقية بعض القلق من أن الانتصار قد يأتى بالقوات الأسبانية إلى الأدرياتيك . فتقضى على احتكار البندقية لهذا البحر وسيطرتها عليه . وقضى بيوس عاما كاملا فى التغلب على هذه الحيرة والتردد . وكان عليه أن يرضى باستخدام البندقية وأسبانيا لأموال الكنيسة . وأخيرا فى ٢٠ مايو ١٥٧١ انضمت القوى الثلاث فى « عصبة مقدسة » واستعدت للحرب .

وفى أثناء هذه المفاوضات تقدم الهجوم التركى على قبرص ، مع خسائر

جسيمة تكبدها الطرفان . وسقطت نيقوسيا بعد حصار دام خمسة وأربعين يوما . وأعدم بحد السيف عشرون ألفا من سكانها ، وقاومت فاماجوستا زهاء عام . وعندما سقطت (٦ أغسطس ١٥٧١) سلخ البطل المدافع عنها ، مارك أنطونيو براجادينو ، حيا ، وحشى جلده بالقش وأرسل إلى القسطنطينية تذكارا للنصر .

وكانت الظروف تستحث العصبة المقدسة على العمل ، فجمعت قواتها . وأسهمت بالسفن والرجال ، كل من فلورنسة وبارما ولوكا وفرارا وأوربينو وجنوه ، عدو البندقية القديم . وفى نابلى تسلم دون جوان النمسوى لواء العيادة فى احتفال مهيب من الكاردينال دى جرانفل . وفى ١٦ سبتمبر ، بعد أن تناول البحارة والجنود القربان المقدس من يد الجزويت والكبوشيين الذين التحقوا بالحملة ، أبحر الأسطول الضخم (الأرمادا) من مسينا إلى جزيرة كورفو فى محاذاة جنوبى إيطاليا ، عبر مضيق أوترانتو . وهناك ترامت أنباء المذابح والفظائع التى اقترنت بسقوط قبرص . وتعالت صيحات النصر النصر ، فليحى المسيح ، عندما أصدر دون جوان أوامره بالانطلاق إلى القتال .

وفى ٧ أكتوبر ١٥٧١ تحرك الأرمادا عبر خليج بتراس إلى خليج كورنث . وكان الأسطول التركى ينتظر بعيدا عن ثغر ليبنتو ، وهو يضم ٢٢٢ سفينة شراعية كبيرة ، و ٦٠ سفينة صغيرة ، و ٥٧٠ مدفعا ، و ٢٤ ألف جندى ، و ١٣ ألف ملاح ، و ٤١ ألف مجدف . وكان لدى المسيحيين ٢٠٧ سفن شراعية ، وست سفن شراعية فينيسية ضخمة تحمل المدافع ، و ٣٠ سفينة صغيرة و ١,٨٠٠ مدفع . و ٣٠ ألف جندى و ١٣ ألف وتسعمائة ملاح ، و ٤٣ ألف مجدف[١٣] . ورفع الأسطول المسيحى علم المسيح مصلوبا . ورفع الأسطول التركى علم السلطان يحمل لفظ الجلالة « الله » موشى بالذهب . وتراجع جناح المسيحيين الأيمن أمام الأتراك ، ولكن الجناح الأيسر الذى كان يقوده البنادقة حول المقاومة الضارية إلى هجوم منظم ، وأودت مدفعيتهم

بحياة آلاف من الأتراك . وأصدر دون جوان أمره بأن تتحرك سفينة قيادته قد مانحو سفينة أمير البحر التركى موسيناد على . فلما التقت السفينتان ، قفز ثلثمائة من جنود دون جوان الأسبان المحنكين إلى السفينة التركية بقيادة راهب كبوشى ، يلوح بالصليب عاليا . وتقرر مصير المعركة ، عندما أسرت السفينة ، ورفع رأس علي المفصول عن جسده فوق سارية عليه(١٤) . وانهارت الروح المعنوية لدى الاتراك . وهربت ٤٠ من سفنهم ، وأسرت ١١٧ أخرى، كما أغرق أو أحرق خمسون سفينة . ولقى حتفه فى المعركة أكثر من ثمانية آلاف رجل من الاتراك ، وأسر عشر آلاف ، ووزع معظمهم رقيقا على المنتصرين . وحرر نحو ١٢ ألفا من الأرقاء المسيحيين الذين كانوا يقومون بالتجديف على المراكب التركية . وفقد المسيحيون ، وقتل منهم ٧٥٠٠ رجل من بينهم أفراد من أعرق وأشهر الأسرات فى إيطاليا . ولا نزاع فى أن معركة ليبنتو كانت أعظم معركة بحرية فى التاريخ الحديث . ووصفها سرفنتيز الذى كان من بين الجرحى المسيحيين البالغ عددهم ٧٥٠٠ بأنها « أعظم حدث بارز جدير بالذكر شهدته العصور الخوالى أو العهود الحاضرة . وقد لا يكون له نظير فى المستقبل(*) »(١٥) .

وكان يجدر أن تكون هذه أكبر معركة فاصلة فى التاريخ الحديث ، لولا أن استنزاف المجدفين والأضرار التى لحقت بالأسطول المنتصر ، وهبوب عاصفة عنيفة ، حال دون تعقب الاتراك . فقد ثار النزاع بين المسيحيين حول اقتسام المجد والغنائم . ولما كانت أسبانيا قد أسهمت فى القتال بنصف السفن والنفقات ، والبندقية بثلثها والبابا بالسدس ، فقد وزعت الغنائم بقدر هذا الاسهام . ووزع الأسرى الاتراك بهذه النسبة ، فخص أسبانيا ٣٦٠٠

(*) على بعد نحو مائة ميل إلى الشمال الغربى ، قرب اكتيوم ، على خليج آرتا الحالى ، انتزع اكتافيوس بأربعمائة سفينة حربية السيادة على عالم البحر المتوسط القديم من أنطونيوس وكليوبطره ، وسفنهما الحربية الخمسمائة (٢ سبتمبر ، ٣١ ق . م) .

عبد مكبلين فى الأصفاد ، ومن نصيب البابا منح دون جوان ١٧ عبدا مكافأة شرفية لقاء خدماته[١٦] . ورغب بعض الزعماء المسيحيين فى الاحتفاظ بالارقاء المسيحيين الذين حرروا من السفن التركية ، ولكن البابا بيوس الخامس حرم هذا التصرف[١٧] .

وابتهجت أوربا الكاثوليكية بأسرها حين وصلت أنباء النصر . وازدانت البندقية بأكاليل الزهر والتحف الفنية ، وتبادل الرجال القبلات فى الشوارع ، ورسم تيشيان وتنتورتو وفيرونيز لوحات ضخمة عن المعركة ، واحتفل بالقائد الفينيسى سباستيان فنييرو أياما وليالى كثيرة ، وأخيرا اختير لتولى منصب « الدوج » (القاضى الأول فى جمهورية البندقية) . أما فى رومه ، حيث قضى رجال الدين وعامة الناس ساعات كل يوم فى الصلوات وأحر الدعوات منذ غادر الارمادا مسينا ، فقد تعالت صيحات « الشكر للرب » فى مرح وابتهاج وارتياح ، وكاد البابا بيوس الخامس ، منظم النصر ، أن يرفع دون جوان إلى مرتبة القديسين وأطلق عليه عبارة الإنجيل « هناك رجل أرسل من عند الله اسمه يوحنا » (انجيل يوحنا ، ١ : ٦) وتليت القداسات وأطلقت الألعاب النارية ، ودوت طلقات المدافع . ورجا البابا من المنتصرين أن يحشدوا أسطولا آخر ، وتوسل إلى حكام أوربا أن ينتهزوا الفرصة ليتحدوا فى حرب صليبية لطرد الأتراك من أوربا ومن الأرض المقدسة . وأهاب بشاه إيران ، وبأمير اليمن السعيد أن ينضما إلى المسيحيين للانقضاض على الاتراك[١٨] . ولكن فرنسا الحاقدة على أسبانيا اقترحت على السلطان ، عقب ليبنتو مباشرة ، تحالفا مباشرا ضد فيليب الثانى[١٩] (*) .

(*) فى عام ١٥٣٦ حصلت فرنسا من تركيا على أولى « الامتيازات » . وجددت فى ١٥٦٩ ولم تكن تنازلات بل معاهدة اتفق بمقتضاها ، أساسا ، على أن يعامل الرعايا الفرنسيون فى الأراضى التركية ، ويحاكموا وفق القانون الفرنسى « القضاء خارج أراضى الدولة » ووقعت تركيا مثل هذه الامتيازات مع انجلترا فى ١٥٨٠ ، ومع المقاطعات المتحدة (فى الأراضى الوطنية) فى ١٦١٣

واشتركت أنباء هذا العرض مع عوامل أخرى فى ثنى فيليب عن عزمه على القيام بعمل جديد ضد القوة العثمانية الرئيسية . وتورط فى النزاع مع انجلترا ، وفى المأزق الذى أوقعه فيه دوق ألفا فى الأراضى الوطيئة ، كما استاء من إصرار البندقية على احتكار التجارة فى الأدرياتيك ، وخشى من أن انتصار ثانيا على الأتراك قد يبعث القوة والحياة فى امبراطورية البندقية المتداعية ، فتصبح منافسا قويا لأسبانيا . أما بيوس الخامس الذى أرهقته الانتصارات والهزائم معا ، فإنه لقى ربه فى أول مايو ١٥٧٢ ، وماتت معه العصبة المقدسة .

٣ — اضمحلال السلاطين

وفى نفس الوقت ، وبنشاط أفزع الغرب ، بنى العثمانيون أسطولا آخر ، فى مثل ضخامة الأسطول الذى كاد أن يدمر عن آخره . وفى بحر ثمانية أشهر بعد معركة ليبنتو ، كان ثمة أسطول تركى مكون من ١٥٠ سفينة يجوب البحار بحثا عن الأسطول المسيحى الذى بلغ من سوء النظام حداً لم يجرؤ معه على الخروج من مكمنه . وشجع الجميع البندقية على استئناف الحرب ، ولكن أحداً لم يمد لها يد المساعدة ، ومن ثم فإنها عقدت مع السلطان (٧ مارس ١٥٧٣) صلحا لم تتنازل بمقتضاه عن قبرص فحسب ، بل دفعت كذلك للسلطان تعويضا يغطى ما تكبده من نفقات فى فتح الجزيرة . لقــد خسر الأتراك المعركة ولكنهم كسبوا الحرب . ويبدو كيف أنهم لم يصبهم أى وهن ، من العرض الجرىء الذى تقدم به سوكوللى إلى البندقية (١٥٧٣) ، وهو أنها إذا انضمت إلى الأتراك فى حربهم ضد أسبانيا ، فلسوف يساعدونها فى غزو مملكة نابلى لتكون تعويضا سخيا لها عن ضياع قبرص . ورفضت البندقية هذا العرض لأنه يشجع السيطرة التركية على إيطاليا والعالم المسيحى . وفى أكتوبر أحيا دون جوان مجده بالاستيلاء على تونس لحساب أسبانيا ، ولكن فى بحر عام واحد استطاع الأتراك بأسطول ضخم آنذاك (٢٥٠ سفينة) استعادة المدينة

وذبح الأسبان الذين كانوا قد استوطنوها حديثا . وعلى سبيل الاحتياط أغاروا على سواحل صقلية . ومات سليم الثانى فى ١٥٧٤، ولكن ظل سوكوللى يتولى شئون الدولة ويدير دفة الحرب .

وقد يدعو إلى حيرة الفلاسفة أن يرى المؤرخون اضمحلال الدولة العثمانية فى عهد مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٥) على حين أنه كان يحب الفلاسفة . ولكنه كان مولعا بالنساء كذلك . وأنجب مائة وثلاثة أطفال من عدد غير كبير من الزوجات . وكانت «بافو» الزوجة ذات الحظوة لديه ، وهى أمة من أسرى البندقية ، أسرته بمفاتنها ، وتدخلت فى شئون الدولة ، واشترى نفوذها بالمال ، وتقلص نفوذ سوكوللى ، ولما أقترح بناء مرصد ثارت ثائرة الشعب ضده فى نعرة تعصب ذميم ، فقتلوه (١٥٧٩) ، وربما كان هذا بأمر السلطان مراد . وعمت الفوضى ، وانخفضت قيمة العملة ، وتمرد الانكشارية لهبوط قيمة أجورهم لأنهم يتسلمون نقداً رديئا ، وأفسدت الرشوة الموظفين ، بل أن أحد الباشوات كان يفاخر بأنه رشا السلطان . وانغمس مراد فى ملذاته الجنسية ومات متأثراً بالإفراط فيها .

وسيطرت « بافو » على أبنها محمد الثالث (١٥٩٥ ١٦٠٣) قدر سيطرتها على والده . وبدأ حكمه بالعملية التقليدية ، فقتل تسعة عشر من أخوته ، إغراء وحثا لآل بيته على أن يركنوا إلى الهدوء والمسالمة ، ولكن اخصاب مراد . أو ذريته الكبيرة ، جعلت من هذا السلام المنشود مشكلة عسيرة ، فإن كثيراً من أبناء السلطان بقوا على قيد الحياة تحدق بهم الأخطار . وأنتشر الفساد وسادت الفوضى . وضيعت الهزيمة فى الحرب مع النمسا وفارس قيمة الانتصارات التركية . وواجه أحمد الأول خطر ظهور الشاه عباس الأول حاكما قوياً فى فارس ، فقرر حشد قواته على الحدود الشرقية ، ورغبة فى التخفيف منها فى الغرب ، أمر السلطان وكلاءه بتوقيع صلح « زتفاتوروك » (١٦٠٦) ، وهى أول معاهدة تنازل الأتراك المزهوون بتوقيعها خارج القسطنطينية . ودفعت النمسا للسلطان مائتى ألف دوكات ، ولكنها أعفيت من أية جزية

بعد ذلك . وقبلت ترنسلفانيا السيادة التركية طواعية واختيارا ، كذلك عقدت فارس الصلح (١٦١١) ، وأعطت تركيا مليون رطل من الحرير ، تعويضا عن الحرب . وتميز هذا العهد فى جملته بالتوفيق والسلامة لولا ما شابه من استمرار الانكشارية فى تمردهم . وكان السلطان أحمد رجلا تقياً حسن النية ، وبذل للجهد ، ولكنه أخفق فى القضاء على قتل الإخوة أخوتهم فى الأسرة المالكة .

وأقترح عثمان الثانى (١٦١٧ — ١٦٢٢) تنظيم الانكشارية والإصلاح من شأنهم ، ولكنهم اعترضوا وقتلوه ، وأجبروا أخاه الأبله المعتوه مصطفى الأول على اعتلاء العرش ، ولكن مصطفى أوتى من رجاحة العقل ما جعله يتخلى عنه (١٦٢٣) لابن أخيه مراد الرابع البالغ من العمر أثنى عشر عاما (١٦٢٣ — ١٦٤٠) . واختار الانكشارية كبار الوزراء ، وكانوا يذبحونهم كلما لاح لهم أنه قد آن الأوان لأحداث تغيير . واقتحموا القصر الملكى وأجبروا السلطانة قسيم على أن تفتح لهم أقبية الكنوز استرضاء لهم . وفى ١٦٣١ عادوا إلى القصر ثانية ، وتعقبوا السلطان الشاب إلى جناحه الخاص وطالبوا برؤوس سبعة عشر موظفاً . وقدم أحدهم — حافظ — نفسه للجماعة ، فداء للباقين ، فمزقوه إربا . وقابلهم مراد ، وهو لايزال بعد غض الإهاب ، بما بدا أنه تهديد هين لين : « إنى لأرجو أن يمدنى الله بعون من عنده : يا رجال الدم ، يا من لا تخشون الله ، ولا تستشعرون الخجل أمام رسوله ، سيحل عليكم أشد الانتقام[٢٠] » وانتهز الفرصة الملائمة ليشكل قوة موالية له ، ودبر قتل الواحد تلو الآخر من زعماء التمرد . وسحقت محاولات أخرى للثورة والعصيان ، بقسوة شديدة . وفى بعض الأحيان ، شارك السلطان بنفسه ، مثل — بطرس الأكبر — فى تنفيذ أحكام الأعدام . وقتل كل أخوته فيما خلا واحداً ظنه أبله لا يخشى منه شيء . وفى نشوة سلطته الملكية فرض عقوبة الأعدام على تناول التبغ أو القهوة ، والأفيون أو الخمر . وقيل أن جملة من أعدموا فى عهده مائة ألف شخص ، باستثناء من لقوا حتفهم فى

الحرب[٧١] . واستتب لبعض الوقت النظام الاجتماعى ونزاهة الإدارة . ولما أحس الآن بأنه فى مأمن إلى حد معقول ، استأنف الحرب مع فارس ؛ وقبل أن يتحداه محارب فارسى فى نزال فردى ، فأرداه قتيلا ، واستولى على بغداد (١٦٣٨) ، وجاد بصلح على نصر ، ولدى عودته إلى القسطنطينية استقبله أهلوها استقبال المنتصر الظافر . ومات بعد ذلك بعام واحد متأثرا بداء النقرس الذى سبب له الادمان على الخمر . وكان فى الثامنة والعشرين من العمر .

وبعد وفاة مراد الرابع ، عاد اضمحلال تركيا سيرته الأولى . فإن ابراهيم الاول نجا من موت محقق بيد أخيه ، لكونه مخبولا ، أو لتظاهره بالخبل ، وتجددت الفوضى والفساد فى ظل حكمه الضعيف الطائش . وشن الحرب على البندقية وأرسل حملة إلى كريت . وسد البنادقة منافذ الدردنيل . وتضور أهالى القسطنطينية جوعا . وثار الجيش وشنق السلطان . وعادت إلى ذاكرة الغرب المسيحى قصة الحرس البريتورى فى رومه ، وانتهوا إلى أنه لم يعد ثمة مبرر لأن يرهبوا قوة الأتراك وفى بحر خمس وثلاثين سنة أخرى كان الأتراك على أبواب فيينا من جديد .

٤ — الشاه عباس الأكبر : ١٥٨٧ — ١٦٢٩

انه لمن حسن حظ الغرب المسيحى أنه فيما بين عامى ١٥٧٧ و ١٦٣٨ ، حين كانت فرنسا أولا ، ثم ألمانيا من بعدها ، قد شلت حركتها الحروب الدينية ، أن الأتراك الذين كان يمكن أن يمدوا حدودهم الغربية إلى فيينا ، وجهوا كل همهم وطاقتهم إلى فارس . وهنا أيضا كان الدين مبررا يستتر وراءه شهوة السلطان والسيطرة . فإن الأتراك الذين كانوا يتبعون المذهب السنى ، رموا الفرس بالمروق لأنهم اتبعوا مذهب الشيعة ، ودمغوا كل من ولى الخلافة بعد على ، وهو زوج بنت الرسول ، بأنه مغتصب لها . وكانت ذريعة

الحرب بطبيعة الحال دنيوية أكثر منها دينية — وهى الرغبة فى حكم الأقليات طمعا فى مزيد من الأراضى والموارد والسكان الذين يمكن أن تفرض عليهم الضرائب . ونتيجة لسلسلة من الحروب المتواصلة تقدم الأتراك نحو الفرات والقوقاز وبحر قزوين ، مستحوذين على العاصمة الفارسية الجديدة تبريز ، والعاصمة العربية القديمة بغداد، التى وصفها بيدرو تكسيرا (١٦١٥) بأنها مدينة غنية عامرة بالأتراك والفرس والعرب واليهود ، الذين يعيشو فى ٢٠ ألف بيت من الآجر ، تزحمها حركة الثيران والجمال والخيل والحمير والبغال المحملة ، والرجال نظيفى الثياب ، وكثير من النساء المليحات الوسيمات ، وعيونهن ، كاهن تقريبا ، جميلة تحدق فوق خمرهن أو من خلالها »[٢٢] . وقد كلف أحد الموظفين بالسهر على حماية الغرباء هناك .

وإلى الشرق من بغداد والفرات كانت تقع الولايات الفارسية الممزقة ، وتمتد إلى القوقاز وبحر قزوين فى الشمال الغربى ، وإلى تركستان فى الشمال الشرقى ، وإلى أفغانستان شرقا ، وإلى المحيط الهندى جنوبا ، وإلى خليج العرب (الخليج الفارسى) فى الجنوب الشرقى ، وكأنها أجزاء مبعثرة لجسم واحد ، تنتظر أن تحل فيها روح تضم شتاتها .

وكان عباس الأكبر خامس شاه ، أو ملك ، من الأسرة الصفوية التى كان قد أسسها إسماعيل الأول فى تبريز ١٥٠٢ . وفى عهد الشاه الثانى طهما سب الأول الذى امتد حكمه طويلا (١٥٢٤ ــ ١٥٧٦) تعرضت الدولة الجديدة لغارات كبيرة من الأتراك . وبعد موته فتح الأتراك الولايات الفارسية : العراق ولورستان وخوزستان وضموها إلى أملاكهم . وفى نفس الوقت جاء الأزابكة من بلاد فيما وراء النهر ، واستولوا على هراة ومشهد ونيسابور ، واجتاحوا الولايات الفارسية الشرقية . ولما ارتقى عباس العرش (١٥٨٧) وهو فى الثلاثين من العمر ، دون أن يكون له عاصمة ، عقد الصلح مع الأتراك ، وتقدم شرقا ليقابل العدو الأصغر شأنا وأقل نفرا . وبعد حروب دامت أعواما استرد هراة وطرد الأزابكة من فارس ، ومات بعد ذلك متلهفا

على ملاقاة الأتراك . ولكن الخسائر والأحقاد القبلية كانت قد استنزفت جيشه الفتى كان كذلك تعوزه أحدث وسائل الفتك والتدمير .

وحوالى هذه الفترة (١٥٩٨) وصل من انجلترا إلى فارس فى بعثة تجارية انجليزيان مغامران هما سير أنطونى شيرلى وأخوه الأصغر روبرت ، يحملان هدايا ثمينة وخبرة عسكرية . وكان برفقتهما خبير فى صنع المدافع . وتمكن الشاه عباس بمساعدتهما من إعادة تنظيم جيشه ، وزوده بالبنادق والسيوف معا ، وسرعان ما توافر لديه ٥٠٠ مدفعاً . وقاد قواته الجديدة ضد الأتراك وطردهم من تبريز (١٦٠٣) ، واسترد اريفان وشروان وكادن . فأرسل عليه الأتراك جيشا عرموما قوامه مائة ألف رجل ، هزمه عباس بستين ألفا فقط (١٦٠٥) ، واسترد بذلك أذربيجان وكردستان والموصل وبغداد وامتد حكم عباس من الفرات إلى السند .

وحتى قبل هذه الحملات الشاقة ، كان الشاه عباس قد شرع (١٥٩٨) فى تشييد عاصمة جديدة ، أبعد منالا على الغزاة من تبريز ، وأقل تدنسا بذكريات الأجانب واقدام السنين ، كانت أصفهان موغلة فى القدم لمدة ألفين من السنين (ولو لم تكن تحمل هذا الاسم) ، وكان عدد سكانها ثمانين ألفا . وعلى مسافة نحو ميل من المدينة القديمة أقام مهندسوه رقعة مستطيلة اسمها ميدان الشاه أو الميدان الملكى ، طولها ١٦٧٤ قدما وعرضها ٥٤٠ قدما ، وتحوطها الاشجار وعلى جانبين منها متنزهات مغطاة اتقاء المطر والشمس . وفى الناحية الجنوبية شيد مسجد الشاه أو المسجد الملكى ؛ وإلى الشرق بنى مسجد لطف الله والقصر الملكى ؛ وشغلت بقية المساحة بالحوانيت والخانات والمدارس . وإلى الغرب من الميدان شق طريق باتساع مائتى قدم « شاهار باغ » (البساتين الأربعة) تحف به الأشجار والحدائق تزينه البرك والنافورات وعلى جانبى هذا الطريق المزدان بالأشجار قامت قصور الوزراء . وجرى عبر المدينة نهر زاياند الذى بنيت عليه ثلاثة جسور ، كان أحدها « الله فردى خان » تحفة

جميلة فى فن البناء ، يمتد ١١٦٤ قدما مع طريق عريض ممهد ؛ وممر مقنطر على الجانبين للمشاة ؛ وكانت المدينة الجديدة تروى وتبترد بواسطة القنوات والخزانات والنافورات والشلالات . وكان التصميم فى مجموعة قطعة رائعة فى تخطيط المدن ، تضارع أروع ما عرفه ذلك العصر فى أى مكان آخر (٢٣) .

وعندما زار الرسام الفرنسى سيمون شاردان أصفهان (١٦٧٣) دهش عند رؤية حاضرة على مثل هذا النسق فى الإدارة والتجارة والصناعات والفنون « تحوطها ١٥٠٠ قرية ، ويسكنها ٦٠٠٠٠٠ ألف نسمة . وكان بالمدينة وضواحيها ١٦٢ مسجداً و ٤٨ كلية و ٢٧٣ حماما عاما و ١٨٠٠ خان (فندق صغير) . ووصف تافرنييه أصفهان عندما رآها فى ١٦٦٤ بأنها تضارع باريس فى الاتساع ولكن سكانها يبلغون عشر سكان العاصمة الفرنسية ، لأن كل أسرة فى أصفهان كان لها بيتها وحديقتها ، وأن الأشجار بها كانت كثيرة إلى حد أنها بدت « غابة لا مدينة » (٢٤) أنها صورة جميلة لولا أن تافرنييه يستطرد فيقول : « وأمام كل بيت حوض تلقى فيه كل أسرة فضلات بطونها . ثم يأتى الفلاحون يومياً ليحملوها ليستخدموها فى تسميد أراضيهم ، ولا بد أن تقابل فى كل البيوت فتحات فى الجدران تطل على الشارع . يقبع فيها الناس ، ولا يخجلون من المخاط والتبول على مرآى من الدنيا بأسرها » (٢٥) .

وكان الشاه عباس يدرك تمام الإدراك أن أوربا الغربية تحمد له شغله الأتراك فى الشرق ، فأرسل سير أنتونى شيرلى فى بعثة لاقامة العلاقات بينه وبين الحكومات المسيحية ، وفتح الطريق أمام صادرات فارس من الحرير دون تدخل الوسطاء الأتراك . وعندما قدم المندوبون الأوربيون إلى أصفهان أكرم وفادتهم وأباح لهم الحرية الدينية . وكان قد أسر خمسة آلاف من الأرمن أثنــاء حروبه مع تركيا ، فلم يستعبدهم ، ولكن أباح لهم النهوض بمقرهم فى جولفا بالقرب من أصفهان ، وأفاد من نشاطهم التجارى ومن مهاراتهم . وهناك شادوا كنيستهم الخاصة بهم وزينوها بخليط من الصور المقدسه

المسيحيةوالزخارف الإسلامية ولعبت برأس الشاه عباس فكرة صهر الأديان كلها في دين واحد « وفرض السلام على السموات والأرض »(٢٦) . وبطريقة أكثر واقعية استغل الشاه الحماس الشيعي لدى الفرس كأداة لرفع معنوياتهم وروحهم القومية ، وشجع شعبه على الحج إلى مشهد على أنها مكة مسلمي فارس ، وسعى هو بنفسه ثمانمائة ميل من أصفهان إلى مشهد ليؤدي المناسك ويوزع الهبات والصدقات .

ومن ثم فإن العمارة التي جعل أصفهان تتألق بها ، كانت دينية أساساً ، مثل كنيسه العصور الوسطى في الغرب . فكان يحول أموال الفقراء إلى أماكن للعبادة تكون عظمتها وجمالها وهدوءها مفخرة وملكا للجميع . وكان أعظم ما يثير الاعجاب في مباني العاصمة الجديدة مسجد الشاه الذي بنـــاه عباس (١٦١١ — ١٦٢٩) . وكان « الميدان » مدخلها الرائع وطريقها الفاخر ، وبدأ الميدان كله وكأنه يؤدي إلى البوابة التي ترحب بالداخلين إليها . وأول مايبهر العين المآذن التي تطوق المدينة بأبراجها الناتئه الممخرمة التي يوحد المؤذنون فيها الله ، والخزف اللامع الذي يكسو أطار الأبواب ، ثم الأفريز وما عليه من عبارة منقوشة . يتقرب بها عباس إلى الله بهذا الضريح . حتى حروف الهجاء في فارس كانت فنا . وكانت الحوائط داخل العقود مزدانة بعناقيدموشاة بزهور بيضاء . ثم الساحة الداخلية المكشوفة للشمس ، ومنها عبر أقواس أخرى إلى الحرم المقدس تحت القبة الكبرى . ويجدر بالمرء أن يقصد إلى الخارج مرة أخرى ليتفحص القبة ، والخط الكوفي الرائع عليها . وشكلها المنتفخ ، وهي مع ذلك رشيقة جميلة ، مغطاة بالتربيعات المطلية بالميناء ، في لون أزرق وأخضر في زخرفة عربية بديعة فوق أرضية لا زوردية . وعلى الرغم من جور الزمان فإن هذه « حتى في يومنا هذا من أجمـــل المباني في العالم »(٢٧) .

وثمه مسجد قد لا يثير الاعجاب بمثل هذا القدر ، ولـكنه أدق وأرق ،

وهو الذى شاده الشاه عباس تخليداً لذكر والد زوجته ، وهو من أولياء الله الصالحين ، وهو مسجد الشيخ لطف الله ، وله باب رشيق ، وحرم ومحراب من الفسيفساء الفاتنة ، وفوق كل هذا ، فإن جماله من الداخل يجل عن الوصف، وأبعد عن التصديق — الزخارف العربية ، والأشكال الهندسية والزهور والحليات الدرجية فى رسم متقن موحد . وهذا هو فن تجريدى ، ولكن فى منطق وتكوين واتساق لا يربك العقل أو يشوش الذهن ، بل فى نظام يسهل إدراكه ، يبعث فى النفس الارتياح والهدوء .

وفى الجانب الشرقى من الميدان بنى الشاه عرشاً مكشوفاً تحت قوس كبير « الباب العالى ». وفيه استقبل الناس أو شهد سباق الخيل أو مباريات البولو فى الميدان *) . وخلف هذه البوابة كانت تقع الحدائق الشاهانية ، وهى تضم عدة قصور استخدمها الشاه لأغراض خاصة . ولا يزال أحد هذه القصور موجوداً ، ولكن نال منه الزمن كثيراً . أربعون عموداً ، قاعة الاستقبال ، حجرة العرش قائمة على عشرين عموداً من شجر الدلب ، مكسوة بالمرايا ، وقاعة طويلة تزينها رسوم زيتية تحكى أحداث عصر الشاه . وكانت أبواب القصر مصنوعة من الخشب المصقول المزدان بمناظر الحدائق ومجموعات الزهر. وفى متحف المتروبوليتان للفن يوجد أثنان من هذه الأبواب . ولا تزال قائمة فى مكانها الزخارف الجصية اللامعة ، مذهبة ، وفى ألوان أخرى ، من سقف قاعة الاستقبال . وهنا أيضاً نجد الفن التجريدى ، وقد بلغ حد الكمال . فى المنطق وفى التصميم .

ووجه الشاه عباس من قصوره المتعددة ومن معسكره حيـــاة مملكته الآخذة فى الاتساع . لقد أهتم ، مثل معظم الحكام العظام ، بكل الجوانب فى حياة شعبه .فبنى الطرق والجسور ، ومهد الأميال الكثيرة من الطرق ورصفها

(*) لا تزال أعمدة المرمر الرخامية قائمة فى الميدان . وجاءت لعبة البولو إلى أوربا من فارس .

بالحجارة . وشجع الصناعات والتجارة الخارجية وإستخراج المعادن من بطن الأرض . وبنى السدود ، وتوسع فى رى الأراضى ، وأمد المدن بالماء النقى ، وجدد المدن التى لحقت بها أضرار — مشهد ، قزوين ، تبريز ، همذان قال تافرنييه : « كثيراً ما تنكر الشاه وجاب أنحاء أصفهان ، كأى مواطن عادى ، مدعياً أنه يبيع ويشترى . وكل همه أن يكشف عن التجار المطففين الذين يستخدمون موازين ومقاييس زائفة ...... فرأى اثنين مجرمين منهم ، فأمر بدفنهما أحياء »(٢٨) تلك هى الطريقة الشرقية لفرض إحترام القانون وتدعيمه وعند قصور الإشراف والرقابة والشرطة ، يكون الهدف من صرامة العقوبة كبح جماح النزعة الطبيعية فى الإنسان إلى التحلل من القانون أو خرقه . وربما كانت الحياة الحافلة بالحروب هى التى جنحت بالشاه عباس إلى اللجوء إلى هذه القسوة أداة لكبح جماح الناس أو للانتقام . فقتل أحد أبنائه وسمل عينى آخر(٢٩) . ومع ذلك فإن هذا الرجل نفسه نظم الشعر ، وقام بكثير من أعمال البر والاحسان ، ورعى كثيراً من الفنون .

وبموت الشاه عباس (١٦٢٩) أنقضى العصر الذى بلغ فيه الحكم والفن فى ظل الأسرة الصفوية ذروة المجد . ولكن النظام الذى أرسى دعائمه نشاطه المتصل فى كل الميادين ، ظل سائداً قرابة قرن من الزمان بعده . وعلى الرغم من تعاقب عدد من الملوك الضعاف أحتفظت الأسرة الصفوية بالعرش حتى دهمها غزو الأفغان المفاجىء العنيف لبلاد الفرس (١٧٢٢ — ١٧٣٠) وعلى الرغم من فترة الانحلال السياسى هذه ، ظل فن الصفويين محتفظاً بمكانته بين أعظم نتاج لذوق الانسان ومهارته .

٥ — فارس تحت حكم الأسرة الصفوية : ١٥٧٦ — ١٧٢٢

والآن نلقى بنظرة على عهد الصفويين ، من وفاة طهماسب الأول (١٥٧٦) ، حتى نهايته (١٧٢٢) ، لأن هذا تطور ثقافى لا يمكن اقتطاعه ، تمشياً مع تسلسل الأحداث فى أوربا . لقد ترك لنا كثير من السائحين الغربيين بيانات مشرقة عن

هذا العصر فى فارس . منهم بدرو تكسيبرا الذى كان هناك فى ١٦٠٠ والأب الجزويتى كروتنسكى الذى أقام فى أصفهان من ١٧٠٢ — ١٧٢٢ وكتب «تاريخ الثورة فى فارس» وهو يتناول الأسرة الصفوية بأسرها ، وجان تافرنييه الذى وصف بالتفصيل رحلاته (١٦٣١ — ١٦٦٨) فى تركيا وفارس والهند وجزر الهند الشرقية ، وجان شردان الذى دون فى عشرة مجلدات أنباء إقامته فى فارس (١٦٦٤ — ١٦٧٧) فإنه على الرغم مما لاقاه من ريح السموم بالقرب من الخليج ، وقع فى غرام فارس ، وآثر أصفهان على باريس وقت الصيف ، ووجد فى أصفهان من «الروعة والجمال» ما جعله يقول «أنا نفسى لا أستطيع أن أنساها أو أمسك عن ذكرها لكل إنسان» . وقال أن سماء فارس الصافية كان لها أثرها على الفن الفارسى فأضفت عليه بهاء ورواء ولونا براقاً . كما كان لها أثرها الطيب على أجسام الفرس وعقولهم [٣٠] (*) واعتقد أن الفرس أفادوا من إختلاطهم بأهل جورجيا والقوقاز الذين أعتبرهم أجمل وأشجع أهل الأرض — ولكنهم لا يضارعون الجياد الفارسية فى رشاقتها وجمالها [٣١] .

ولكن هذه البلاد التى كانت يوماً جنة عدن ، ومقر الخلفاء الذين ازدانوا بالجواهر الثمينة ، والشعراء الذين نظموا أعذب الشعر ، دمرتها غارات المغول وتمزق الحكومة ، وإهمال الترع وهى شرايين الحياة ، وامتلاؤها بالطمى ، وتحول طرق التجارة ، فإن اكتشاف طريق مائى فى كل أجزاء من غرب أوربا إلى الهند والصين قد أصاب تجارة فارس بالكساد . على أن بعض التجارة انتقل عبر الأنهار إلى الخليج . وفى ١٥١٥ استولى البرتغاليون على هرمز وهى أهم الثغور على الخليج ، وظلوا فيها لمدة قرن . وفى ١٦٢٢ طردهم منها جيش الشاه عباس بمعونة سفن شركة الهند الشرقية الانجليزية ،

(*) أنظر شيشرون حيث يقول : « ان هواء أثينا الطيب يقال أنه ساعد على توقد الذكاء عند أهل أتيكا »

وبنى الشاه بالقرب منها مرفأ تجاريا آخر هو بندر عباس (ثغر عباس) ، فساعدت التجارة التى نمت فيه على تمويل الفن والبذخ فى عهده . وظلت القوافل تسير من الغرب إلى الشرق عبر فارس ، وخلقت شيئا من الثراء فى المدن الواقعة على طريقها ، ووصف تكسييرا حلب بأنها مدينة تضم ٢٦ ألف بيت ، كثير منها مبنى من الحجر المصقول ، وبعضها يليق لسكنى الأمراء ، كما تضم المسلمين والمسيحين واليهود جنبا إلى جنب ، كما كان بها حمامات عامة نظيفة جميلة ، وعدة شوارع مرصوفة بالبلاط المصنوع من الرخام(٣٢) .

ولم تكن الصناعة قد تجاوزت بعد طور الصناعات اليدوية — صناعة العصور الوسطى التى تتسم بالمثابرة على بذل الجهد والتذوق الرفيع مع الأناة والبطء — ولكن كان فى حلب مصنع للحرير ، وكان التبغ يزرع فى كل مكان ويقول شاردان أنه كان للفرس طريقة فى ترشيح التبغ ، فكان الدخان يمر بالماء ، ومن ثم « ينقى التبغ من كل العناصر الزيتية والضارة (٣٣) » ، وأصبح التدخين ضرورة ملحة لدى الفرس ، « فكانوا يغفلون الطعام ولا يغفلون النرجيلة(٣٤) » وكان الشاه على النقيض من ذلك ، فكره عادة التدخين ، وحاول أن يشفى منها رجال حاشيته بحيلة . فأتى بروث الخيل وجففه ، ووضعه بدلا من التبغ فى الأوانى التى يملأون منها الأراجيل ، وأوضح لهم أن هذا تبغ غالى الثمن أهداه همذان ، فدخنوه ، وبالغوا فى إمتداحه . وأقسم أحد الضيوف أن له رائحة تعدل عبير ألف من الزهور . فصاح الشاه « بئس هذا العقار ، أنه لا يمكن التمييز بينه وبين روث الخيل (٣٥) » .

وكان أى رجل وهبه الله المقدرة والكياسة يستطيع أن يحتل مكانا فى حاشية الشاه ، فلم يكن هناك اعتبار لأرستقراطية المولد ، أو الحسب والنسب(٣٦) . فثياب الجنسين من كل الطبقات كانت فى أساسها واحدة . رداء يصل إلى الركبتين ، ذو أكمام ضيقة ، وحزام عريض (مصنوع أحيانا من الحرير الموشى بالزهور) حول الخصر ، وقميص من القطن أو الحرير تحت الرداء ، وسروال مضموم عند رسغ القدمين ، وعمامة تتوج هذا كله . وكتب تافرنييه:

« كانت ملابس النساء ثمينة ، وفيما عدا هذا لايفترقن عن الرجال فى شىء كثير ، فارتدين السراويل مثلهم »[٣٧] . وأقمن فى عزلة فى الحريم ، وقلما غادرن البيت ، فإذا فعلن فنادرا ماسرن على الأقدام . وكان ثمة ثلاثة أجناس ، فكان الرجال يوجهون كثيرا من شعر الغزل إلى الغلمان . ورأى توماس هربرت ، وهو انجليزى فى بلاط الشاه عباس — « سقاة من الغلمان فى صدرات من الذهب ، وعمامات مزدانة باللمع (الترتر) ، وأخفاف فاخرة ، تتدلى خصلات الشعر على أكتافهم ، عيونهم يقظة تحوم فى كل زاوية ، ووجناتهم متوردة »[٣٨] .

ولحظ شاردان نقصا فى السكان فى زمانه ، ونسبه إلى :

أولا : النزعة النكراء لدى الفرس إلى اتيان الفعلة البغيضة ، ضد الطبيعة مع الجنسين كليهما .

ثانيا : الترف المفرط (الحرية الجنسية) السائد فى البلاد ، فالنساء هناك يبدأن الحمل فى سن مبكرة ، ويستمر الإنجاب لفترة قصيره ، وما ان يجاوزن سن الثلاثين حتى ينظر إليهن على أنهن عجائز تقدمت بهن السنون . ومن ثم يسرع الرجال إلى التردد على نساء فى ميعة الصبا والشباب ، فى إفراط شديد ، وعلى الرغم من أنهم يستمتعون بعدد كبير من النساء ، فانهم لاينجبون منهم مزيدا من الأطفال قط . وهناك كذلك نساء كثيرات جدا يعمدن إلى الإجهاض ، ويلجأن إلى مختلف أنواع العلاج ضد الحمل ، لأنهن إذا بلغن الشهر الثالث أو الرابع من الحمل ،ينصرف عنهن أزواجهن إلى نساء أخريات حيث يرون أنه ينافى اللياقة أن يقربوا امرأة تقدمت بها أيام الحمل إلى هذا الحد .

وكان هناك ، على الرغم من تعدد الزوجات ، عاهرات أو بغايا كثيرة وانتشر شرب الخمر انتشارا واسعا ، رغم تحريم الاسلام للخمر . وكثرت المقاهى واشتق اللفظ الأوربى من نظيره العربى « قهوة » . وكانت النظافة

أكثر شيوعا فى المظهر منها فى الحديث . وكانت الحامات منتشرة ، وكانت أحيانا مزخرفة بشكل جميل . ولكن كثر هناك الابتذال والفحش . وقال عنهم تافرنيه ، إنهم مخادعون مراءون كبار ، ويقول شاردن أنهم اعتادوا كثيرا على الغش ، ولكنه يضيف أنهم ألطف الناس فى الدنيا ، ، متسامحون كرام ، أساليبهم جذابة غاية الجاذبية ، وطباعهم لينة غاية اللين ، وحديثهم ناعم غاية النعومة ... وهم فى مجموعهم أكثر الشعوب تمدنا فى الشرق وكانوا مولعين بالموسيقى وكان شعراؤهم ، فى العادة يغنــــون ــ القصائد التى ينظمونها .

ويمكن أن نحكم على تفوق الشعراء الفارسيين من مبلغ شعبيتهم وحظوتهم فى بلاط المغول فى دلهى ، ولكن لم يتهيأ لأحد منهم فى تلك الحقبة مترجم مثل فتزجرالد لينقل إلى أسماع الغرب قصيدهم . وانا لنعلم أن (عرفى الشيرازى) كان على رأس الشعراء فى القرن السادس عشر . وكان يرى أنه أعلى مكانة من (سعدى) على الأقل ، ولكن من منا ، نحن المحليين فى تفكيرنا واهتماماتنا سمع عنه ؟ . وكان شعره أحب إلى الناس من شخصه ، كما نستخلص من (الأصدقاء) الذين جاءوا ليستمتعوا بعلته القتالة .

لقد انحطت قواى إلى هذا الحد ، ووقف أصدقائى الفصحاء كالمنابر حول فراشى ووسادتى . واحد منهم يداعب لحيته بيده ، وينصب رقبته ويقول . (وا أبتاه) . لمن دامت الدنيا ؟ (سبحان من له الدوام) .

جدير بالإنسان ألا يتعلق قلبه بالمراتب الزائفة والثروة الزائلة . أين امبراطورية جامشيد وأين الاسكندر ؟ .

ثم يأتى آخر ، ويمسح بأكمامه عينيه المبللتين بالدموع ، ويقول فى صوت رقيق ولفظ حزين : « أيتها الحياة كلنا يسير على هـذا الطريق لنرحل عن هذه الدنيا . كلنا مسافرون نعبر عليه ، ويمضى بنا الزمن » .

وآخر ينمق كلامه بألفاظ أرق فيقول : استجمع قواك ، وهون عليك فانى ، لهدف واحد ، سوف أجمع أشعارك ونثرك وبعد نسخها وتصحيحها ، أقدمها عقوداً من الدر تعززن شأنك وترفع من قدرك .. فلعل الله يمن على بالشفاء فأسترد عافيتى . ولسوف ترى كيف أصب جام غضبى على رؤوس هؤلاء المنافقين التعساء .

وكان منافس « عرفى » فى الشعر هو « صائب الأصفهانى » الذى أخذ بسنة الهجرة إلى دلهى ، كما هاجر الفنانون الفرنسيون والفلمنكيون فى ذلك العصر إلى رومه . ولكنه عاد بعد عامين إلى أصفهان ، وأصبح شاعر البلاط لدى الشاه عباس الثانى (١٦٤٢ — ١٦٦٦) ، وكان ينحو قليلا نحو الفلسفة ، فنظم أبياتا تفيض بالحكمة :

أن الحديث عن الكفر والإيمان كليهما يؤدى فى النهاية إلى نفس المكان والعلم هو الحلم ، ولكن المفسرين هم الذين يختلفون .. وإن العلاج الوحيد لهذه الدنيا التى لا تستقيم أمورها ، هو إغفالها وتجاهلها ، فإن اليقظ فيها هو الذى يستغرق فى سبات عميق .

وأن الموج ليجهل الطبيعه الحقة للبحر . وكيف يدرك الفانى العابر حقيقه الخالد الباقى ، أن أشد مايقض مضجعى حول يوم البعث هو إنه لزام علينا أن نرى ثانية وجوه البشر .

وإذا فاتنا أن ننعم بموسيقى الشعر الفارسى ، فى مقدورنا أن نستمتع بفن فارس ففى الفن . حديث يمكن استيعابه وفهمه ، فان البراعة والأناقة والذوق ، أى كل ماتشكل فى فارس على مدى ألفى سنة . أينع وآتى أكله الآن فى العمارة والخزف والتذهيب والخط وحفر الخشب وأشغال المعادن والنسيج والأقمشة المزركشة والسجاد .وكل أولئك روائع تزدان بها متاحف العالم اليوم . وقد علمنا من قبل أن أحسن عمارة هذا العصر شيدت فى عهد الشاه عباس الأول فى أصفهان . وهناك بنى عباس الثانى (مسجد الأشرف

(١٦٤٢) ، وهناك فى غروب شمس الصفويين شاد الشاه حسين (مدرسة أم الشاه) التى قال عنها لورد كيرزون أنها من أفخم أطلال فارس ، وثمة مدن أخرى كانت تفاخر بمنشآت جديدة : مثل مدرسة الخان فى شيراز ، والضريح الضخم لخوجة ربيع فى مشهد ، والمقبرة المخربة الآن ، ولو أنها لاتزال جميلة، وهى مقبرة (قدم جاه) فى نيسابور ، والجامع الأزرق فى اريفان .

وأسس الشاة عباس فى أصفهان أكاديمية للرسم ، كان مطلوبا من الطلبة فيها — كجزء من برنامجهم ، وأن ينسخوا أشهر المنمنمات حيث يغلب جمال التصميم ودقة الرسم على الموضوعات والأشخاص . والآن ، وواضح أنه نتيجة لأثر أوربا ، استباح الرسامون العلمانيون التحول عن التقليد الإسلامى، برسم منمنمات يبرز فيها إنسان على أنه الفكرة الرئيسية والتسلسل هنا قلب الطراز الإيطالى رأسا على عقب . فنى الرسم فى عهد النهضة أهملت المناظر الطبيعية أول الأمر ، ثم أصبحت خلفية ثانوية ، (وربما باضمحلال النزعة الفردية فى ظل الإصلاح المضاد) طغت على الأشخاص . ولكن فى التصوير الإسلامى كانت رسوم الأشخاص مستبعدة أول الأمر ، ثم أبيحت على أنها شيء ثانوى عارض ، وفى المراحل المتأخرة فقط (ربما بنمو النزعة الفردية نتيجة للثروة) طغت رسوم الأشخاص وبرزت فى الرسم . ومثل هذا فى « مدرب الباز »(٤٦) : رجل عظيم يرتدى ثوبا أخضر يعبث بطائر على معصمه مع خلفية أقل بروزا من زهور ذهبية اللون . وفى « شاعر يجلس فى الحديقة(٤٧) تكشف كل التفاصيل عن الرشاقة الفارسية المتميزة ، وثمة ابتداع آخر فى الرسوم الحائطية ، التى رأينا مثالا لها فى « شهيل سوتون » . ولكن الأساتذة العظام تخصصوا فى زخرفة القرآن الكريم،أو تذهيب الآثار الأدبية القديمة مثل الشاهنامة للفردوسى ، أو جولستان لسعدى ، التى ذهبها « مولانا حسن » البغدادى بماء الذهب .

وتفوق فى الرسم فى هذه الفترة الصفوية الثانية ، رضا العباسى . الذى أضاف

إسم الشاه إلى إسمه تقديرا واعترافا بالرعاية الملكية . وفاقت شهرته شهرة بهزاد لمدة جيل . وتدهور بعده الفن ، فإن حساسية الفن وصفاء الرسم أو دقته ، انتهيا إلى إفراط مخنث . وفي نفس الوقت فإن الطراز الفارسي الذي تأثر بالفن الصيني ، أثر بدوره في رسم المنمنات في بلاط المغول ، بل حتى في عمارتهم . وذهب حروسيه إلى أن «تاج محل» لم يكن إلا فصلا جديدا في فن أصفهان(٤٨) .

وظل الخط فنا رئيسيا في فارس . وكاد مير عماد لنسخه الدقيق للمخطوطات القديمة ، أن يظفر بمثل الحب الذي حظي به لدى الشاه عباس رضا العباسي من أجل منمنماته . وكانت الكتب موضع إعزاز وحب لشكلها قدر ما هي لمحتوياتها . فالتجليد الرائع يبهج العينين واليدين كما تفعل الزهرية الرقيقة ووقع الفنانون تجليدات الكتب بمثل الفخر الذي وقعوا به الصور ، فنقش على جلدة كتاب مذهبة من أوائل القرن السابع عشر ، «من صنع محمد صالح التبريزي»(٤٩) . وثمة غلاف آخر مصنوع من الورق المعجن ، وعليه رسوم «بورنيش اللك» ، موقع عليه باسم علي رضا . ومؤرخة في ١٧١٣(٥٠) وكلاهما جميل إلى حد مغر .

إن التربيعات المحلاة بالرسوم في المدن الفارسية لتبهر الأنظار ، بعد القباب أو عليها ، إن طول عمرها ليثير الدهشة من فن صناعة الخزف ، الذي يهيء طول البقاء لمثل هذا البريق . وإطالة عمر اللون بترجيجه بالنار كانت من المهارات القديمة في فارس . لقد كانت التربيعات المزججة في سوسة عاصمة دارا الأول ملك الفرس (٤٠٠ ق . م .) فريدة من نوعها بالفعل . وكانت سبائك الذهب والفضة والنحاس وسائر المعادن تصهر لتخرج ألوانا أكثر لمعانا ، وخاصة الأحمر الياقوتي والأزرق الفيروزي ، وكانت مضاعفة الأحراق تزيد من صلابة الصلصال والترجيج ليقاوم فعل الزمن . ويحتمل أن يكون الأرمن قد استخدموا الخزافين الفرس لصنع التربيعات في كنيستهم المسيحية في جولفا وهي تبلغ في دقتها دقة المنمنات . وربما كان أجمل منها ، التربيعات المحلاة

بالرسوم فى مجموعة كوركيان ، المنسوبة إلى أصفهان فى النصف الثانى من القرن السابع عشر (٥١) .

واستمر الخزافون فى أصفهان وكاشان وغيرهما ، يبدعون أشكالا من الخزف — القنانى والزبديات والأباريق والأطباق والفناجين ، مطلية تحت التزجيج بألوان مختلفة على أرضيات متنوعة . وأصبح الخزف المزخرف الفسيفسائى مادة أثيرة لتغطية الجدران فى المساجد والقصور . واستورد الشاه عباس الخزف الصينى ، وحاول خزافوه أن ينسخوه طبق الأصل ، ولكن أعوزتهم الطينة والمهارة . ومرة أخرى بفضل استحثاث الحاكم وتشجيعه بذلت المحاولات فى أصفهان وشيراز لمنافسة زجاج البندقية . وتفوق صناع الأشغال المعدنية فى نقش النحاس وتطعيمه ، وثمة نموذج جميل منها يرجع إلى ١٥٧٩ شمعدان موجود فى متحف مترو بوليتان للفن ، وفى الارميتاج فى لننجراد غمد سيف من الذهب مرصع بقطع كبيرة من الزمرد دقيقة الصنع .

وكانت صناعة النسيج صناعة رئيسية وفنا . وشغل الرسامون والنساجون والصباغون حيزا كبيرا فى اصفهان . وكانوا يعدون بالآلاف . وكان إنتاجهم هو السلعة الرئيسية فى تجارة الصادرات . كما أنه أكسب فارس شهرة عالمية فى أقمشة الأطلس والمخمل والتفته والمطرزات والحرائر . وكان الشاه عباس كلما أراد أن يقدم هدية خاصة ثمينة ، اختار بعض التحف من إنتاج الأنوال الفارسية . ويقول شاردان « أن الثياب التى أهداها بهذه الطريقة لا حصر لها » (٥٢) والثياب التى كان يرتديها الشاة ورجال حاشيته من الحرير والأقمشة المقصبة والمطرزة كانت رائعة الجمال إلى حد ذهب معه شاردان إلى أنها لامثيل لها فى ملابس أى بلاط فى أوربا . وكتب يقول « إن فن الصباغة أدخل عليه فى فارس تحسين أكثر منه فى أوربا ، فكانت الألوان أكثر ثباتا ولمعانا ، ولا تحول بسرعة » (٥٣) . ولم يكن لمخمل كاشان نظير فى أى مكان آخر . ولا تزال بعض قطع منه من أروع المعروضات فى متاحف بوسطن ونيويورك

ومان فرانسسكو وواشنجطن . ومن بين التحف التى استولت عليها القوات المسيحية بعد ارتداد الأتراك عن فيينا بساط من المخمل الحريرى المقصب ،من الواضح أنه صنع فى اصفهان فى عهد الشاه عباس(٥٤) .

وبلغ النسيج الفارسى ذروته فى التصميم وصنع الجلد ، وشهد عصر الشاة عباس غاية مجد هذا الفن فى فارس . وكاد السجاد أن يكون ضروريا للفارسى قدر حاجته إلى الملابس ، وقال توماس هربرت فى القرن السابع عشر : « كان فى بيوت الفرس قليل من الأثاث والأدوات المنزلية ، اللهم إلا السجاجيد وبعض أشغال النحاس . . . وكانوا يتناولون الطعام وهم متربعون على السجاد على الأرض ، مثل حائكى الملابس . وليس ثمة إنسان مهما قل شأنه إلا جلس على سجادة ثمينة أو غير ثمينة . وكل الدار أو الحجرة . . . مغطاة بالسجاد(٥٥) وساد آنذاك اللون القرمزى القاتم أو الأحمر الخمرى الداكن ، ولكن التصميم أو الرسم كان هادئا مريحا للنظر ، بغية أحداث التوازن بين هذه الوفرة التى تزخر بها السجادة ، او أنها صممت لإبراز موضوع رئيسى بمنطق مقبول . وقد يكون هذا التصميم هندسيا ، وهنا تكون متنوعات لا حصر لها ، تضفى على أقليدس جمالا وبهاء . وكثيرا ما قام التصميم على الأزهار ، وهنا تستمتع العين بتشكيلة غنية من الأزهار ، ولكنها منسقة تنسيقا جميلا ، تمثل النتاج المحبب إلى الناس فى حدائقهم : أزهار مصفوفة فى أصص ، أو منثورة هنا وهناك ، أو أزهار يصورها الخيال ولا تراها العين ، مع زخارف عربية تنساب هنا وهناك فى رشاقة وروية . وفى بعض الأحيان كانت الحديقة نفسها تزود بالتصميم : الأشجار والشجيرات والمزاهر ، والمياه الجارية ، رتبت كلها فى شكل هندسى ، وقد يتركز التصميم حول رسم كبير نافر تتدلى منه نتوءات فى كل الأطراف ، وقد يعرض الزخارف الحيوانية أو مناظر الصيد .

ويأتى بعد ذلك الجهد المضنى والصبر الطويل : مد الخيوط طولا فى اللحمة على النول ونسجها مع خيوط السداة العرضية ، وحيا كة عقد صغيرة من

الصوف أو الحرير الملون فى اللحمة ، لتلوين « الوبر » والرسم ، وقد يكون فى البوصة المربعة ١٢٠٠ عقدة ، أو ٩٠ مليوناً من العقد فى سجادة مساحتها ٢٣ قدما مربعا[٥٦] . ويبدو أن العبودية قد نسجت هذا الفن أو ارتبطت به ، ولكن العامل كان يتيه عجباً بدقة وجمال ما أخرجت يداه ، محولا هذه التشكيلة العجيبة من المواد إلى كل منتظم متناسق متسلسل الأجزاء . وكان هذا السجاد يصنع فى أثنى عشر مركزاً فى فارس وأفغانستان والقوقاز ليضفى رواء وبهاء على القصور والمساجد والبيوت ، أو ليقدم هدايا ثمينة إلى الملوك والأصدقاء .

ومر السجاد الفارسى والتذهيب الفارسى بتطورات مشابهة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وتأثرا « بأشرطة السحاب » وغيرها من الرسوم من الصين . وكان لهما بدورهما أثر على الفنون فى تركيا والهند . وبلغا ذروة التفوق والامتياز على عهد الصفويين وما أن جاء عام ١٧٩٠ حتى أنتج السجاد الفارسى على أساس الكم ، فشرعوا فى تصميمه ونسجه لسوق أوسع وأقل إلحاحا على البراعة والإتقان ، وبخاصة السوق الأوربية . ومهما يكن من أمر ، فإنه حتى فى هذه الحقبة ، كانت هناك قطع نادرة فريدة ، لا نظير لها من حيث النسيج واللون والرسم فى أى مكان آخر فى العالم .

وهكذا كانت فارس ، وهكذا كان الإسلام فى آخر ازدهار لسلطانهما وفنهما — حضارة تختلف اختلافا عميقا عن حضارتنا فى الغرب ، وفى بعض الأحيان معادية عداء مقرونا بالازدراء ، تدمغنا بأننا مشركون ماديون ، وتسخر منا أخذنا بنظام الزوجة الواحدة وهو أشبه ما يكون بنظام الأمومة ، وأحيانا انقضت علينا تقتحم أبوابنا كالسيل الجارف ، وما كان ينتظر منا أن نتفهمها أو نعجب بفنها حين كان الجدل شديداً بين المسلم والمسيحى ، ولم يكن قد ثار بعد بين دارون والمسيح ، ولم تنته المنافسة بين الثقافتين بعد ، ولكنها فى الكثير الغالب توقفت عن سفك الدماء ، ولكل منهما مطلق

الحرية فى الامتزاج بالأخرى عن طريق التأثير المتبادل ، فالشرق يأخذ عنا صناعاتنا وأسلحتنا ، ويصبح غربيا . ولقى الغرب نصبا من الثراء والحرب ، وبات يلتمس شيئا من هدوء البال وطمأنينة النفس . وربما ساعدنا نحن الشرق على التخفيف من الفقر والخرافة ، وأعاننا الشرق على التواضع فى الفلسفة والتهذيب فى الفنون . فالشرق غرب ، والغرب شرق ، ولا بد عاجلا أن يلتقى الإثنان .

الفصل الحادي والعشرون

« هرمجدون »

أو

الحرب الإمبراطورية الفاصلة

١٥٦٤ — ١٦٤٨

١ — الأباطرة

فى عام ١٥٦٤ كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة — برغم أنها ، كما قال فولتير ، لم تكن ، لا إمبراطورية ، ولا رومانية ، ولا مقدسة — ، خليطا رائعا من دول نصف مستقلة : ألمانيا ، ولكسمبورج ، وفرانس — كونتيه ، واللورين ، وسويسرا ، والنمسا ، وبوهيميا ، ومورافيا ، وجزء من المجر . وكانت هذه كلها تدين بالولاء والسلطان للإمبراطور مكسمليان الثانى سليل بيت هبسبرج العريق ، الذى حكم الإمبراطورية منذ ١٤٣٨ وسيواصل حكمها حتى ١٨٠٨ . وبعد أن اعتزل شارل الخامس الملك (١٥٥٥ — ١٥٥٦) اقتسمت الأسرة نصف أوربا بين فرعيها ، فحكم الهبسبرج النمسويون الإمبراطورية ، أما الهبسبرج الأسبان فحكموا أسبانيا وولاياتها . وندر فى التاريخ أن تسلطت أسرة واحدة حقبة هذا طولها على أناس هذا عددهم .

وكان حكم آل هبسبرج أكثر تحررا فى الامبراطورية فى أسبانيا ، لأن الدول التى تألفت منها الامبراطورية كانت تختلف أشد الاختلاف سواء فى الحكومة ، أو اللغة ، أو الدين ، أو الصفات العرقية ، بحيث عجزت حتى

سلطة آل هبسبرج وهيبتها عن منع هـذه القوى المندفعة بعيدا عن المركز من أن تحيل الامبراطورية إلى رابطة واهية عن وحدات تحكم ذاتها فى عزة وكبرياء أما الديت الامبراطورى ، الذى لم يكن يلتئم شمله الا بين الحين والحين ، فقد وجد أن الحد من سلطان الامبراطور أيسر من تشريع قوانين تقبلها كل دولة ، وأما الناخبون الامبراطوريون السبعة الذين كانوا يختارون الامبراطور ، فقد سيطروا عليه بالعهود والمواثيق التى انتزعوها منه ثمنا لانتخابه . وهؤلاء الناخبون هم ملك بوهيميا ، وحكام سكسونيا ، وبراندنبورج ، والبالاتينات ، و « الناخبون الروحيون » -أى رؤساء أساقفة كولونيا ، وترير ، وماينز . ولم يحكم الامبراطور حكما مباشرا سوى النمسا ، واستريا ، وكارنثيا ، وكاربولا ، والتيرول ، وأحيانا بوهيميا ، ومورافيا ، وسيليزيا ، وغرب المجر . وكانت موارده المستقلة ثابتة من هـذه الأقطار ، فاذا أراد مزيداً من الموارد فعليه أن يتخذ سمته وقبعته فى يده ، إلى الديت الامبراطورى الذى بيده مفاتيح المال .

حين مات فرديناند الأول (أخو شارل الخامس) فى ١٥٦٤ ، نقل الناخبون التاج الامبراطورى لولده مكسمليان الثانى ، الذى ظفر من قبل بتاجى بوهيميا والمجر . وكان محببا للناس إلى حد لا يناسب امبراطورا . فقط اصطفى الجميع فى دفء طبعة الطيب وروحه المرحة ، ولطفه وأدبه مع كل الطبقات ، وعقله وفؤاده المفتوحين ، فاذا أضفت إلى ذلك كله ذكاءه وتسامحه وتشجيعه للعلم والموسيقى ، والفن ،اجتمعت لك صورة سيد مهذب «جنتلمان» لم يصدق الناس أنه توج . وكان قد عرض تبوأه العرش للخطر حين آثر الوعاظ اللوثريين على نظرائهم الكاثوليك ، وأصر على تناول الأسرار المقدسة بالخمر وبالخبز ، ولم يمتثل للطقس الكاثوليك ، امتثالا ظاهريا الا حين أكره على الخيار بين الرجوع إلى حظيرة الكنيسة الرومانيه أو اعتزال الحياة العامة على أنه حمى البروتستنت خلال ذلك من الاضطهاد . وقد ندد بمذبحة القديس برثلميو وقال انها قتل بالجملة (١) ، ومنح لوليم أورنج بتجنيد جيش فى المانيا

لقتال دوق ألفا فى الاراضى المنخفضة . وفى هذا العصر الذى ساده التعصب والحرب ، ضرب لدول الامبراطورية وعقائدها مثالا رائعا فى تسامح برىء من اللامبالاة ، وسلام لم يشبه الجبن . وحين حضرته المنية (١٥٧٦) أبى أن يتقبل آخر الشعائر من كنيسة رومه ، ولكن الامبراطورية بأسرها أجتمعت على الترحم عليه .

وكان قد أقنع الناخبين بقبول ولده رودلف خلفا له ، برغم مارآه فيه — بلاريب — من طباع أو آثار تعليم خطرة على الوفاق الدينى . فلقد كان رودلف الثانى بطبعه شكاكا مكتئبا . وكان من الجائز أن يصبح الوريث لفيليب الثانى لذلك بعث به إلى أسبانيا ليتلقى جزءا من تعليمه المدرسى ، فقضى اليسوعيون هناك على كل ميل فيه للتسامح . وما لبث عقب ارتقاء العرش أن فرض القيود الصارمه على حرية العبادة البروتستنتية وعمل على الحد من انتشارها زاعما — وله بعض الحق (٢) — أن عنف الجدل الدينى ، وتعصب الشيع البروتستنتية فيما بينها ، يقوضان سلام الامبراطورية واستقرارها . على أنه لم يكن خلوا من الفضائل التى حببت الناس فى أبيه فقد عاش فى بساطة وتواضع دون تكلف لأبهة الامبراطورية . وحين انتقد أحد أخوته رفعه الكلفة مع الفقراء والوضعاء أجاب : « ينبغى ألا ينسينا سمونا فوق الناس بمكانتنا وعراقة محتدنا أننا مرتبطون مع سائر البشر بنقائصنا وعيوبنا (٣) » .

والحق أنه آثر أن يكون عالما على أن يكون امبراطورا . تعلم ست لغات ، ومارس كل علم وفن تقريبا ، واقتنى مجموعات ثمينة من الصور والتماثيل وأنواع النبات وعينات الحيوان . وأعان الشعراء والمؤرخين ، وأنشأ الكثير من المدارس . وحذق الرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك والطب وكذلك الكيمياء القديمة والتنجيم ، وأمد بالمال البحوث الفلكية التى اضطلع بها تيكوبراهى وكبلر اللذان أهدياه جداولهما الرودلفية للنجوم . وإذ ايستغرقه العلم وهو فى قصره ببراغ — التى اختارها عاصمة له — فانه لم يجد

وقتا للزواج ، ولم يتسع له الوقت الكثير للحكم . فلم يحضر أى اجتماع للديت بعد ١٥٩٤ ، ورفض أن يوقع أوراقا رسمية بعد ١٥٩٨ وفوض بالسلطة نوابا ذوى حظوة لديه ، ولكن تعوزهم الكفاية . ولما تقدم به العمر انحدر عقله لا إلى درك الجنون ، بل إلى حال من العزلة يشوبها الاكتئاب وطول التفكير ويلازمها خوف الاغتيال . فانه رأى فيما يرى النائم — أو لعل تيكو براهى قد طالع فى النجوم[٤] — أن قاتله سيكون راهبا فانتهى به الأمر إلى الارتياب فى رجال الدين الكاثوليك ولا سيما اليسوعيين [٥] ، ثم أكرهته الضغوط الداخلية والخارجية على التخلى لأخيه الأصغر ماتياس فى ١٦٠٨ عن حكم النمسا والمجر ومورافيا ، وفى ١٦١١ عن عرش بوهيميا وكل ما بقى له من سلطات . ومات فى ١٦١٢ .

أما ماتياس فكان قد بلغ الخامسة والخمسين ، بعد أن أقعدته الحملات الحربية عن الاستمتاع بالحكم النشيط . لذلك عهـــد بالحكم والسياسية جميعا إلى ملشيور كليزل أسقف فيينا القدير الحى الضمير . ولكن كليزل أغضب الكاثوليك بما قدم للبروتستنت من تنازلات ، وأغضب البروتستنت لأن هذه التنازلات كانت دون ما يبتغون . وأعتقل فرديناند ، أرشيدوق استيريا ، وابن عم ماتياس ، الأسقف كليزل (١٦١٨) ، وظفر بإنتخابه إمبراطورا عقب موت ماتياس (١٦١٩) . وهنا كانت هرجدون قد أندلع لهيبها .

٢ — الإمبراطورية

لم تكن سويسره جزءاً من الإمبراطورية إلا صوريا ، وتركت الانتصارات المؤزرة التى أحرزتها البلاد على الأباطرة وكبار الأدواق ، الولايات السويسرية (الكانتونات) حرة فى التناحر فيما بينها . فانضمت سافوى وأسبانيا إلى الولايات الكاثوليكية التى تزعمتها لوسرن ، فى جهود دبلوماسية أو حربية لأرجاع الولايات البروتستنتية إلى حظيرة الكنيسة الرومانية . وبدأ اليسوعيون

من كلفيتهم بلوسرن فى ١٥٧٧ حملة من التعليم والوعظ والدس . وأصلح ممثلوا البابا فى سويسرة الفساد فى رجال الدين الكاثوليك، وقضوا على التسرى بين الكهنة، وصدوا التأثيرات البروتستنتية المنبعثة من زيوريخ وجنيف وبرن.

وكانت جنيف تفيق ببطء من سلطان كلفن. فقد خلف تيودور دى بيز أستاذه (١٦٦٤) زعيما لجماعة «الرعاة» الموقرة والمجمع الكنسى «للرعاة والعلمانيين»، وعن طريقهم وأصل عمل الكنيسة المنصلحة فى لباقة وكياسة لم يقو على إحباطهما سوى «الكراهية اللاهوتية»، وسافر فى أرجاء فرنسا ليحضر المجامع الكلفنية، وقد شهدناه يدافع عن قضية البروتستنتية فى مؤتمر بواسى. وكافح فى وطنه، وإن لم يوفق كل التوفيق فى كفاحه، ليحافظ على الفضيلة الصارمة التى فرضها كلفن على الناس. فلما إنحرف كبار رجال الأعمال أكثر فأكثر عن هذه الجادة، قاد بيز رجال الدين فى حملة للتنديد بالربا، والاحتكار، والإستغلال، وحين اقترح مجلس المدينة أن يقتصر الوعاظ فى وعظهم على مسائل الدين، أجاب بيز بأنه يجب ألا يقصى أى شأن من شئون البشر عن دائرة الدين[٦]. وهو من بين كبار زعماء الاصلاح البروتستنتى الوحيد الذى أدرك القرن السابع عشر، وقد مات فى ١٦٠٨ بالغا التاسعة والثمانين.

أما دور النمسا فى الإمبراطورية فكان مركزيا. ذلك أنها كانت عادة وطن الأباطرة، وكانت حصن الحضارة الغربية الحصين فى وجه الأتراك الطامعين، للاصلاح الكاثوليكى. ومقر القوة الكاثوليكية فى حرب الثلاثين. ومع ذلك فقد أتى عليها عهد كانت تتذبذب فيه بين الكاثوليكية والبروتستنية بل بين المسيحية والكفر. ففى عهد فرديناند الأول (١٥٥٦ — ١٥٦٤) قررت معظم الأبرشيات النمسوية كتاب التعليم المسيحى اللوثرى. وكانت اللوثرية المذهب السائد فى جامعة فيينا، وأباح الديت النمسوى تناول القربان بالخمر وبالخبز، وزواج رجال الدين. «كان الناس يعدونها علامة من علامات

العقل المستنير أن يحتقر صاحبه عادة الدفن المسيحى . وأن يدفن الميت دون مساعدة من قسيس .... وبغير صليب . ، وفى تقدير أحد الوعاظ فى ١٥٦٧ « أن الألوف وعشرات الألوف فى المدن – أجل . بل فى القرى – لم يعودوا يؤمنون بالله[٧] . » فلما خشى الإمبراطور فرديناند أنهيار الدعم الدينى للحكومة النمسوية وسلطة آل هبسبرج . دعا بطرس كانيسيوس وغيره من اليسوعيين إلى جامعة فيينا . وبدأت الكاثوليكية تستعيد مكانتها بفضل زعامتهم ، لأن هؤلاء الرجال المتمرسين جمعوا بين العقل المرهف الصابر ، وبساطة العيش التى وقعت أفضل موقع فى النفوس . فما وافى عام ١٥٩٨ حتى غدت كنيسة روما سيدة الموقف .

ومثل هذا التغيير طرأ على المجر المسيحية . فقد دان ثلثا المجر للحكم التركى منذ ١٥٢٦ ، وكانت الحدود التركية تبعد عن فيينا بأقل من مائة ميل ، ولم يقو الأباطرة على المحافظة على السلام مع تركيا إلا بدفع جزية سنوية للسلاطين حتى عام ١٦٠٦ .. وكانت ترانسلفانيا الواقعة إلى الشمال الشرقى من المجر التركية تؤدى مثل هذه الجزيه ، ولكن حدث فى عام ١٦٠٦ أن أوصى أميرها ستيفن بوكسكاى بالإقليم لآل هبسبرج قبيل موته دون عقب .

أما ديت المجر النمسوية فكان منذ ١٥٢٦ يؤيد حركة الإصلاح البروتستنتى ، فقد هيمن عليه النبلاء الطامعون فى الاستيلاء على أملاك الكنيسة الكاثوليكية[٨] . وفى ظل الحرية الدينية التى صانوها ظفرت البروتستنتية بمكان السيادة بين الطبقات المتعلمة . ولكن سرعان ما أنقسمت شيعا لوثرية ، وكلفنية ، وتوحيدية ، وتفرق التوحيديون مللا أصغر لاختلافهم على صواب توجيه الصلوات إلى المسيح . ولم ير النبلاء بعد أن استتب لهم الأمر فى ممتلكاتهم مبررا بعد ذلك للبروتستنتية . لذلك رحبوا ببطرس بازماني وغيره من اليسوعيين ، وقبلوا التحول « المثالى » إلى الكاثوليكية ، وطردوا « الرعاة » البروتستنت[٩] . واستبدلوا بهم القساوسة الكاثوليك . وفى عام ١٦١٨ أسبح فرديناند أرشيدوق

استيريا ملكا على المجر ، فعزز حركة الإصلاح الكاثوليكى تعزيزا نشيطا . وفى ديت ١٦٢٥ إستعاد الكاثيك أغلبيتهم . وأصبح بازمانى كردينالا وكاتبا من أبلغ مؤلفى العصر المجريين ، مع أنه ابن رجل كلفنى المذهب .

وأما بوهيميا والاقاليم التابعة لها — وهى مورافيا وسيليزيا ولوزاتيا — فكانت تغلب عليها البروتستنتية عام ١٥٦٠ . واعترفت الولايات الأربع بملك بوهيميا سيدا عليها ، غير أنه كان لكل ولاية مجلسها القومى وقوانينها وعاصمتها — براغ ، وبرون (برنو) ، وبرسلاو ، وبوتزن ، وكانت براغ فى ذلك الحين من أجمل مدن أوربا وأكثرها أزدهارا . ولم يكن مسموحا بالتصويت فى الديت البوهيمى الا لملاك الأرض البالغ عددهم ألفا وأربعمائة ولكن كان من بين أعضائه ممثلون لسكان المدن والفلاحين ، أتاح لهم سلطان المال نفوذا جاوز مجرد الكلام . وكان معظم النبلاء لوثريين ،ومعظم مواطنى المدن لوثريين أو كلفنيين ، ومعظم الفلاحين كاثوليكا . ولكن قلة منهم كانت «أوتراكية» ، تخلوا فى عام ١٥٨٧ عن تقاليدهم الهسية (مذهب المصلح الدينى البوهيمى ، والشهيد جون هس ١٣٦٩ — ١٤١٥) ، ولم يتمسكوا الا بتناول القربان بالخبز وبالخمر ، وأخيراً تصالحوا مع كنيسة روما (١٥٩٣) . أما أكثر الطوائف الدينية اخلاصا فكانوا «الأنيتاس فراتروم» — وهم الاخوان البوهيميون أو المورافيون — الذين أخذوا موعظة المسيح على الجبل مأخذ الجد ، وعزفوا عن كل الحرف والمهن الا الزراعة ، وعاشوا فى بساطة كبساطة تولستوى المسالمة .

وفى عام ١٥٥٥ جلب فرديناند الأول اليسوعيين إلى بوهيميا . فأنشأوا كلية فى براغ وربوا «كادرا» من الكاثوليك الغيورين ،واكتسبوا الكثيرين من النبلاء الذين تزوجوا بنساء كاثوليكيات . ثم أصدر رودلف الثانى مراسيم . نفى فيها الاخوان البوهيميين أولا ،ثم الكلفنيين ، غير أن الوسائل أعوزته لتنفيذ هذه المراسيم . وفى عام ١٦٠٩ أقنعه البروتستنت بأن يوقع

الميثاق الملكى « الشهير » الذى كفل حرية العبادة للبروتستنت فى بوهيميا . وبعد عامين نزل رودلف عن العرش لماتياس ، ونقل هذا قضية الامبراطورية إلى فيينا ، وترك براغ مغيظة ثائرة . وفى عام ١٦١٧ اعترف الديت البوهيمى بالارشيدوق فردیناند الاستيرى ملكا على بوهيميا ، وكان عدد الكاثوليك يتكاثر فى هذا الديت برغم أن البلاد مازال أغلب أهلها من البروتستنت[11] وكان فردیناند هذا قد تعلم على يد اليسوعيين وأقسم ان يستأصل شأفة البروتستنتية أن حكم . واتخذ بروتستنت بوهيميا أهبتهم للحرب .

أما المانيا فكانت أخلاطا من الأمم داخل كيان معقد ، كانت إسمالا شعبا ومزيجا من امارات تتفق فى لغتها واقتصادها ، وتتباين أشد التباين فى عاداتها ، وحكمها ، وعملاتها وعقائدها (*) . ولم تعترف أى من هذه الوحدات بسيد عليها الا الامبراطور فقط ثم هى تتجاهله خمسين أسبوعا فى السنة . وقد وجد بعض الأجانب عزاءا فى انقسام المانيا على هذا النحو فكتب سير توماس أوفريرى فى ١٦٠٩ يقول .لو أنها كانت كلها خاضعة لنظام ملك واحد لكان ذلك

(*) كانت ألمانيا فى القرن السادس عشر مقسمة إلى سبع دوائر ادارية :

١ — فرانكونيا : وتشمل ورزبرج ، بمبرج ، بايريت .

٢ — بافاريا : وتشمل ميونخ ، ورجنزبرج (راتسبون) وسالسبرج .

٣ — سوابيا : وتشمل بادن ، ستتجارت أو جزبرج ودوقية ورتمبرج .

٤ — الراين الأعلى: ويشمل فرانكفورت (آم مين) وكاسل ودرمستاد ويزبادن ومقاطعة ناسو واقليم هس ودوقية اللورين وجزء من لاراس .

٥ — الراين الادنى: ويشمل وستفاليا جوليش وكليف والبلاتينات وأسقفيات كولون وترير ومانيز .

٦ — سكسونيا السفلى: ويشمل مكلنبرج وبريمن ومجد برج ودوقيات برنزويك ولونبرج وهولشتين .

٧ — سكسونيا العليا : وتشمل ليبزج وبرلين ودوقية بوميرانيا الغربية ومقاطعة سكسونيا وبراندنبرج .

أمرا رهيبا بالنسبة لباقى أوربا [١٢] لا بل أن هذا الوضع ارتاحت الية المانيا من وجوه كثيرة . صحيح أنه أضعفها فى المنافسةالسياسية والحربيةمع الدول الموحدة ، ولكنه أعطاها حرية محلية ، وتنوعا دينيا وثقافيا قد يفضله الالمان بحق على أرستقراطيات متمركزة مضنية كارستقراطيات فيليب الثانى فىأسبانيا ولويس الرابع عشر فى فرنسا . فلم تمكن هنا باريس تطغى وتعج بسكانها وتمتص دم الحياة من قطر بأكمله بل كوكبة من مدن مشهورة لكل منها طابعها وحيويتها .

على أن المانيا لم تعد تحظى بذلك التفوق الاقتصادى الذى كان لها فى شمال أوربا قبل لوثر ، برغم هذه التشكيلة من المدن العظيمة والبلاطات الصغيرة . ذلك أن كشف طريق بحرى خالص من غرب أوربا إلى الهـــند ، وفتح الاطلنطى للتجارة ، أفادا البرتغال وأسبانيا أولا ، ثم إنجلترا والأراضى الوطيئة بعدهما ، وقد أضر بإيطاليا التى هيمنت من قبل على تجارة الشرق ، وشاركت فى اضمحلال إيطاليا تلك الأنهار والمدن الألمانية التى كانت تنقل التجارة من إيطاليا إلى الشمال . فأخذت ثغور الأراضى الوطيئة فى بحر الشمال، وثغور الدنمرك وبولندة فى البلطيق ، معظم التجارة والمكوس . أما عصبة الهانسا فكانت قد فقدت تفوقها الماضى منذ زمن طويل ، ودمرت لوبك فى حربها الطويلة مع السويد (١٥٦٣ — ١٥٧٠) . ولم تحتفظ بثرائها غير فرانكفورت على الراين ، وظلت سوقها السنوية أحفل أسواق أوربا بالقصاد ، وقد أحالت المدينة إلى مركز لتجارة ألمانيا الداخلية والمالية الدولية .

أما إقبال الناس على المال فظل على حاله . وتهرب الناس فى كل مكان من المراسيم التى حرمت تقاضى فائدة تربو على ٥ ٪ . قال قسيس فى ١٥٨٥ « إن رذيلة الربا الكافرة يمارسها الآن المسيحيون فى حرص أشد من حرص اليهود فى الماضى » ، وشكا واعظ فى ١٥٨١ من أن « ولعا غير مسيحى بالذهب

قد تسلط على كل الناس من جميع الطبقات . فكل من ملك شيئا يغامر به ، يفكر فى الإثراء . . . بشتى أساليب المضاربة ، والتعامل فى النقود ، وعقود الربا ، بدلا من القيام بعمل أمين شاق »[١٣] . واستثمر المئات من العاملين مدخراتهم مع أحد بيوت فوجر ، أو فيلزر ، أو هوخشتيتر المالية ، ثم خربت بيوتهم فى افلاسات متكررة . وفى عام ١٥٧٢ أفلس بنك إخوان لوتيز بعد أن جمع أموالا طائلة من صغار المستثمرين ، فأفقدهم بذلك مدخراتهم بل بيوتهم[١٤] . أما بيت فوجرز فقد جلب عليه الخراب افلاس فيليب الثانى ودوق ألفا اللذين شارك هذا البيت فى تمويلهما[١٥] . كذلك أفلس بيت فيلزر فى ١٦١٤ وبلغت ديونه ٥٨٦,٠٠٠ جولدن . ولعل الخوف من التضخم دفع الناس إلى مثل هذه الاستثمارات ، لأن كل أمير ألمانى تقريباً كان يسرق من شعبه بتخفيض العملة ، ولأن الذين زيفوا العملة أو اقتطعوا حوافها تكاثر عددهم . فما وافى عام ١٦٠٠ حتى كانت العملات الألمانية تتردى فى فوضى شائنة.

وزاد عدد السكان بينما تخلف الإنتاج ، ودفع برد الشتاء الناس إلى شفا الثورة . وأكره الفلاحون فى جميع الأقاليم — باستثناء سكسونيا وبافاريا على أن يصبحوا أقنانا . وفى بومرانيا وبراندنبورج وشلزويج وهولشتين وميكلنبورج شرعت القنية (رق الأرض) فى سنة ١٦١٦ أو بعدها[١٦] وقد تساءل كاتب فى سنة ١٩٥٨ « ترى فى أى أرض ألمانية ما زال الفلاح الألمانى يتمتع بحقوقه القديمة ؟ وأين يتاح له أى انتفاع أو ربح من الحقول أو المراعى أو الغابات المشاعة ؟ وأين يتوقف عدد الخدمات أو الالتزامات الإقطاعية ؟ وأين يجد الفلاح محكمته الخاصة ؟ ألا فليسبغ الله عليه رحمته »[١٧] وذهب الكثير من الفلاحين للعمل فى باطن الأرض ، ولكن أرباح التعدين وأجوره الحقيقية تضاءلت حين دخلت الفضة الأمريكية ألمانيا لتنافس المعدن المستخرج بشق الأنفس من عروق معدنية مستهلكة . أما فى المدن فإن زمالة النقابات القديمة أفسحت الطريق لاستغلال أرباب الصناعات لعمال اليومية . وكان يوم العمل فى بعض الصناعات يبدأ فى الرابعة صباحا وينتهى فى السابعة مساء ، يتخلل ذلك

« فترات لتعاطى الجعة » ، وقد انتزعت نقابة النحاسين من العمال فى عام ١٥٧٣ أسبوع عمل بلغت جملة ساعاته اثنتين وتسعين[١٨] . ومنذ عام ١٥٧٩ نسمع بإضرابات ضد استخدام الآلات فى صناعة النسيج بألمانيا[١٩] . وهكذا لم يبق إلا نشوب الحرب حتى يصبح الفقر المدقع كارثة لا نظير لها .

٣ — الأخلاق وآداب السلوك

إذا صدقنا مزاعم الأخلاقيين فى نصف القرن الذى نحن بصدده ، كانت صورة الأخلاق لا تقل قياما عن صورة الاقتصاد . فقد شكا المدرسون من أن الصغار الذين يعهد إليهم بتعليمهم ليسوا مسيحيين بل همج . وكتب ماتياس بريدينباخ عام ١٥٥٧ يقول : « أن الناس يربون أبناءهم تربية بلغت غاية السوء بحيث أصبح واضحا للمعلمين المساكين ... أن عليهم أن يتعاملوا ... مع وحوش ضارية »[٢٠] وقال آخر عام ١٥٦١ « يبدو أن كل نظام أصبح فى خبر كان ، إن التلاميذ جاوزوا الحدود فى العصيان والوقاحة »[٢١] . وفى معظم مدن الجامعات كان المواطنون يترددون فى الخروج ليلا خوفا من الطلاب الذين يهاجمونهم أحيانا بمداهم المفتوحة[٢٢] . كتب ناتان كترانسين فى ١٥٧٨ يقول : « لاشك أن من أهم أسباب انحلال أخلاق الطلاب الذى عم الآن هو تدهور التربية المنزلية . فلا عجب ، بعد أن خلعنا عن أعناقنا نير القوانين والشرائع القديمة ... أن نشهد بين الشطر الأعظم من شبابنا مثل هذه الإباحية المطلقة ، والجهل المطلق ، والوقاحة المستعصية ، والإلحاد الرهيب[٢٣] . ورأى غير هؤلاء « أن التمثيليات الهزلية والعروض والمسرحيات ليست من الأسباب الهينة التى ألقت بالشباب فى مهاوى الرذيلة والفجور »[٢٤] .

أما الكبار فقد قال الوعاظ فى وصفهم أنهم منافقون ، مشاكسون ، نهمون سكيرون ، زناة[٢٥] . وشكا الراعى يوهان كونو فى ١٥٧٩ من أن « الرذيلة بأنواعها استشرت حتى ليرتكبها الناس دون حياء ، لا بل أنهم يفاخرون بها مفاخرة اللوطيين ، وأصبحت أقبح الكبائر وأغلظها تعد فضائل . . . فمن

الذى ما زال يرى، او تسكاب الفحشاء خطيئة ؟[٢٦] كتب الراعى برتلماس رنجفالت فى ١٥٨٥ يقول : « هذا الزمان آخر الأزمنة التى نكب بها العالم ، وأشدها فسادا[٢٧] وأصبح التجديف وتدنيس المقدسات شائعا بين كل الرجال تقريبا من جميع المذاهب[٢٨] واستشرى الافتراء على الناس . وكتب كونت أولدنبورج فى ١٥٩٤ يقول : شكا لى ملاحظ أعمالى من الطريقة التى أساء بها الدكتور بيزل فى بريمن إلى سمعته و فترى عليه فى أحد كتبه ، إذ زعم أنه ينفق نهاره فى الشره والسكر والفجور ، وأنه ... ذئب مفترس للحملان ، وأفعى ، وتيس ، وسقط جهيض .. وأنه يجب التخلص منه أما بشنقه أو إغراقه أو سجنه ، وإما بدولاب التعذيب أو بحد السيف » . ووجد واعظ بلاط أمير سكسونيا الناخب أنه « فى طول ألمانيا وعرضها تقريبا اشيع كذبا « أننى أكسب أقداحا مذهبة كبيرة فى مباريات الشراب . . . وأننى أفرط فى شرب النبيذ . . حتى ليضطر القوم إلى مساعدتى ودفعى على عربة جر كأننى عجل أو خنزيرة مخمورة[٢٩] » .

وكان تناول الطعام والشراب شغلا شاغلا للناس ، فنصف نهار الألمانى الميسور ينفقه فى دفع الطعام من إحدى طرفى القناة الهضمية إلى طرفها الآخر وكان أهل المدن يفخرون بشهيتهم الطيبة التى تفصح عن ثرائهم كما تفصح عنه ثياب زوجاتهم . وقد ذاع صيته أحد لاعبى السيرك فى أرجاء ألمانيا كلها لأنه أكل فى وجبة واحدة رطلا من الجبن ، وثلاثين بيضة ، ورغيفا كبيرا من الخبز — وهى مهمة خر بعدها صريعا . ولم يكن من الأمور الشاذة أن يتصل الغذاء أو العشاء سبع ساعات يتخللها شرب أربعة عشر نخبا . أما حفلات الزفاف فكانت فى أكثر الأحيان قصفا صاخبا يحفل بالنهم والسكر وقد ألف أمير مرح أن يوقع رسائله بهذه العبارة (كن معافى وأسكر) . وقد أسرف كرستيان الثانى أمير سكسونيا الناخب فى تعاطى الخمر حتى أودت بحياته ، ولما يجاوز السابعة والعشرين . وكافحت جمعية الامتناع عن المسكرات لمقاومة هذه الرذيلة ، ولكن أول رئيس لها مات من السكر[٣٠] . وقد أكد

بعضهم أن البطنة قصرت أعمار الناس ، وكتب إرزمس فنتر في ١٥٩٩ يقول « إن الإسراف في الطعام والشراب قلل من عدد المعمرين ، وندر أن ترى رجلا في الثلاثين أو الأربعين لا يشكو مرضا ، سواء كان الحصى ، أو النقرس ، أو السعال ، أو السل ، أو غيره » (٣١) .

ولكن علينا ألا نأخذ هذه الشكاوى المعاصرة مأخذ الجد الشديد . فأغلب الظن أن كثرة الشعب كانوا قوما مجدين ، صابرين ، يخافون الله بالمعنى الحرفي للعبارة . إلا أن الفضيلة لا ينوه بها التاريخ كما لا تنوه بها الصحف — وهذا دليل عن أنها أمر عادي مألوف . فقد كانت زوجات أهل المدن يلزمن بيوتهن في عزلة متواضعة مستغرقات في عشرات الواجبات التي لا تترك لهن فراغا لارتكاب ذنوب أفدح من الثرثرة بالشائعات ، وكانت الكثيرات من نساء الطبقة العليا — مثل أنا زوجة أغسطس الأول أمير سكسونيا الناخب — مثلا يحتذى في الولاء الصادق للأسرة . ولم تخل ألمانيا الصاخبة تلك من الجوانب السارة ، محبة الأطفال والبيت ، وكرم الضيافة ، والرقص الطروب والموسيقى الجميلة ، والألعاب والمهرجانات المرحة ، وأول شجرة ميلاد في التاريخ المدون كانت جزءا من احتفال أقيم بألمانيا في ١٦٠٥ ، والألمان هم الذين أحاطوا « عيد ميلاد المسيح » بالمظاهر البهية التي تخلفت من ماضيهم الوثني :

وكانت الرقصات والأغاني الشعبية تلد أشكالا من الموسيقى المعزوفة ؛ وكانت التراتيل بسبيلها إلى أن تصير كورالات ضخمة . وغدا الأرغن أثرا فنيا يدخل في فن المعمار ، أما البيان القيثاري ، والعود وغيرهما من الآلات الموسيقية ، فكانت وليدة في التغني بالحب . وحليت كتب الترانيم أحيانا ، لا سيما في بوهيميا ، بزخارف رائعة . أما الترانيم البروتستنتينية فكثيرا ما كانت تعليمية أو جدلية ، وضحت في هذا السبيل برقة ترانيم العصر الوسيط المقدسة ، ولكن الكورالات البروتستنتينية كانت بشيرا بمقدم يوهان سبستيان باخ . وفرض التعليم الموسيقى على المدارس من جميع المذاهب ، وكان مقام الـ « كانتور » - أي معلم الموسيقى - لا يعلو عليه إلا مقام المدير

أو الناظر فى سلم المراتب المدرسية واشتهر عازفو الأرغن يومئذ شهرة عازفى البيان الآن ، وذاع صيت يعقوب هاندل فى براغ . أما الأخوة هاسلر — وهم هانز ، وكاسبار ، ويعقوب — فقد انتشت جماهير المصلين بموسيقاهم التى كانت من وضعهم فى كثير من الأحيان ، فى درسدن ، ونورمبرج ، وبراغ وقد نحا النبوغ الموسيقى إلى الظهور مرارا وتكرارا فى الأسرة الواحدة ، لا بفضل أية وراثة خفية ، بل نتيجة لعدوى البيت ، وهكذا اتخذ حشد حقيقى من آل شولتز اسم « بريتوريوس » ، ولم يكتف ميخائيل بريتوريوس بوضع مجلدات فى الموسيقى ، بل وضع فى كتابه « أصول الموسيقى » (١٦١٥ — ١٦٢٠) موسوعة شاملة رفيعة لتاريخ الموسيقى وآلاتها وأشكالها .

أما أعظم الأسماء فى هذا العصر وهذا الميدان فهو هنريخ شوتز ، الذى أجمع الكل على الإشادة به « أبا للموسيقى الألمانية الحديثة . وقد ولد لأسرة سكسونية فى ١٥٧٥ ، قبل قرن تماما من مولد باخ وهاندو ، وأرسى دعائم الأشكال والروح الموسيقية التى أوصلها هذان الفنانان إلى ذروة الكمال . وحين بلغ الرابعة والعشرين اتخذ سمته إلى البندقية ، حيث درس على جوفانى جابرييلى . فلما عاد إلى ألمانيا تردد بين الموسيقى والقانون ، ولكنه استقر آخر الأمر على العمل مديرا للموسيقى فى بلاط يوحنا جورج ، أمير سكسونيا الناخب ، بمدينة درسدن . وراح منذ ١٦١٨ يتدفق ألحانا كورالية مهدت السبيل كل التمهيد للعدد الكبير من الموسيقيين من آل باخ بفضل ما فيها من تناول بارع للكوارس (مجموعات المنشدين) وللأصوات المنفردة والآلات الموسيقية ، ومن مقابلة بين هده كلها ، ولأول مرة أذيب وخفف مزج الألحان الكورالى الألمانى الثقيل بأسلوب « التوزيع » الأكثر اتساقا ، والذى جمع بين الأصوات والآلات . واحتفالا بزفاف ابنة الأمير الناخب (١٦٢٧) لحن شوتز أولى الأوبرات الألمانية ، واسمها دافنى على أساس أوبرا بيرى التى تحمل هذا الاسم ، والتى أديت بفلورنسة قبل ثلاثة وثلاثين عاما . وتأثر شوتز

برحلة ثانية إلى إيطاليا ، فأعطى مزيدا من الوضوح للأصوات المنفردة والآلات الموسيقية فى « سيمفونيانة المقدسة » (١٦٢٩) إذ وضع موسيقى لنصوص لاتينية من المزامير ونشيد الانشاد . وفى ١٦٣١ غدت سكسونيا مسرحا نشيطا للحرب . فضرب شوتز فى الأرض متنقلا من بلاط إلى بلاط ؛ حتى أنه رحل إلى الدنمرك ، بحثا عن فرق المرتلين والتماسا للرزق ، ولم يرد إلى وظيفته فى درسدن إلا فى ١٦٤٥ ، وفى ذلك العام ابتكر أسلوب موسيقى « آلام المسيح » الألمانية بوضعه موشحة دينية « أوراتوريو » سماها « كلمات المسيح السبع على الصليب » ، هنا بدأت فكرة إعطاء كلمات شخص منفرد لنفس الصوت المنفرد ، ثم يسبق الصوت أو يقفوه بنفس الأنغام فى الآلات ، وقد اقتبس باخ من بعده هذه الطريقة فى موسيقى « آلام القديس متى » . ثم شق شوتز طرقا جديدة مرة أخرى ، إذ نشر فى ١٦٥٧ « الأنغام الألمانية » ، وهى « كانتاتات » (قصص موسيقية تنشدها المجموعة على أنغام الموسيقى من غير تمثيل) تضعه مع كاريسيمس فى مقام المنشىء المشارك للأناشيد الدينية الدرامتيه وقد هيأ لحنه « نشيد عيد الميلاد » (١٦٦٤) لباخ هدفا آخر يستهدف فيما بعد . ثم بلغ قصاراه بعدعام فى « آلام ربنا ومخلصنا يسوع المسيح وموته » . وهو نشيد وضعه بصرامة للأصوات وحدها دون أن يخفف بالألحان . وما لبث عقب هذا أن فقد سمعه ، فاعتكف فى بيته ، ومات فى السابعة والثمانين بعد أن لحن فقرة من المزمور ١١٩ تقول : « ترنيمات صارت لى فرائضك فى بيت غربتى » .

٤ — الآداب والفنون

كان أبرز إنتاج أدبى للامبراطورية فى هذا العهد ترجمة للكتاب المقدس قام بها الإخوان البوهيميين (١٥٨٨) ، وملحمة Zriny iasz (١٦٤٤) التى نظمها ميكلوس زرينيى . وخلفت ألمانيا الآن (حوالى ١٦٠٠) إيطاليا بوصفها أروج سوق لنشر الكتب ، لاسيما فرانكفورت وماين .. ففى ١٥٩٨

بدأت سوق فرانكفورت للكتاب تنشر كل نصف عام قائمة بالمطبوعات . وشجعت الجماعات الأدبية الشعر والدراما . ولكن الأدب كانت تخنقه الرقابة المدنية والكنيسة . فقد أجمع القادة اللوثريين والكلفنيون والكاثوليك على أن المؤلفات التي تعد ضارة بالحكومة . أو المذهب الرسمي ، أو الآداب العامة . يجب حظرها . ومن عجب أن مجموع الكتب التي حرمتها السلطات البروتستنتية فاق تلك التي أدانتها كنيسة روما (٣٢) . واضمحل العلم لأن الحقيقة شوهتها حدة الجدل . وآية ذلك أن ماتياس فلاكيوس الليريكوس ومساعديه صنفوا تاريخاً للكنيسة المسيحية في ثلاثة عشر مجلداً من القطع الكبير . ولكن « قرون مجد بورخ » ، وهو الاسم الذي انتهى الناس إلى إطلاقه على كتاب « تاريخ الكنيسة المسيحية » (١٥٥٩ — ١٥٧٤) نسبة إلى مكان تأليفه وإلى تقسيمه حسب القرون — هـذا الكتاب كان متحيزاً للكتب التاريخ الكاثوليكية الصادرة في ذلك العهـد ، يوم كان كل كتاب سلاحاً في القتال . مثال ذلك أن البابا جريجوري السابع صوره هؤلاء المقاتلون أشد وحشية من كل ما ولد من وحوش . وزعموا أنه قتل عدة باباوات قبل أن يرتقي « كرسي الوباء » (٣٣) . أما أروع التواريخ الرسمية الألمانية - في جيله فكتاب يوهان سلايدانوس الذي روى قصة الإصلاح الديني : « الأحوال الدينية والمدنية في عهد الإمبراطور شارل الخامس » (٥٥٥) ، وقد بلغ من الإنصاف مبلغاً لم يترك مجالاً — حتى لملانكوف — أن يغتفر له أي تحامل فيه .

وبعد الكتب المحشوة بالمطاعن كانت الدراما أكثر أشكال الأدب شعبية وقد استخدم البروتستنت والكاثوليك المسرح لبث الدعوة ! فسخرت التمثيليات البروتستنتية بالبابا سخرية مريرة ، واختتمت عادة بزجه في الجحيم وأخرج معلمو الموسيقى بسويسرة تمثيليات عن آلام المسيح والقيامة . والدينونة الأخيرة ابتداء من ١٥٤٩ ، وشارك في التمثيل أحياناً ٢٩٠ ممثلاً .

ومثلت مسرحية آلام «أوبرامير جاو» أول مرة فى ١٦٣٤ وفاء بنذر نذر خلال طاعون ١٦٣٣ . وكانت تعاد كل عشر سنوات ، ويستمر عرضها من الساعة الثامنة والنصف صباحا إلى السادسة مساء ، يتخلل ذلك إستراحة ساعتين فى الظهيرة . وقد دخل الممثلون الإيطاليون ألمانيا عام ١٥٦٨ ، ثم تلاهم الهولنديون والفرنسيون والإنجليز . وسرعان ما أحلت هذه الفرق التمثيلية عروض المحترفين محل العروض الخاصة، وقد أثارت الكثير من الشكاوى بسبب فحشها الذى در عليها الربح الوفير .

وحظى بشعبية فاقت حتى شعبية الممثلين ناقد ألزاسى هجاء ، فيه فحولة وله كفايات متعددة ، يدعى يوهان فيشارت فبعد أن تقمص فى مرح روح عصره ، أصدر سلسلة من التقليدات الساخرة ضد الكاثوليكية ، بلغت فى تدميرها الذكى مبلغا جعله بعد قليل أروج كاتب فى ألمانيا ، ففى كتابه « خلية النحل الرومانية المقدســـة الهائلة » ، هاجم (١٥٧٩) تاريخ الكنيسة ، وعقيدتها ، واحتفالاتها ، وكهنتها ، فى كاريكاتور عنيف ، فكل الأديار الكاثوليكية عنده مراتع للفجور والاجهاض ، والكنيسة فى زعمه قضت بأن « للكهنة » أن يستعملوا زوجات غيرهم فى غير حرج ، وقد وجدت ستة آلاف من رؤوس الأطفال فى بركة قرب دير الراهبات، وهكذا دواليك[٣٤] . وفى هجاء آخر سماه « القبعه اليسوعية الصغيرة » ، سخر من قبعة اليسوعيين ذات الزوايا الأربع وندد بكل أساليبهم وأفكارهم . وفى عام ١٥٧٥ ، نشر فيشارت ، بعنوان مرح فى ثمانية سطور ، ترجمة مزعومة ، هى فى حقيقة الأمر تقليد وتوسيع لكتاب رابليه « جارجانتوا » ، وقد هزأ الكتاب بجميع نواحى الحياة الألمانية — كظلم الفقراء ، وسوء معاملة التلاميذ ، ونهم الألمان وسكرهم ، وزناهم وفسقهم ، كل ذلك فى خليط من الأساليب ومن اللهجة الألزاسية ، مثيل بالبذاءة والظرف . ومات فيشارت فى الثالثة والأربعين بعد أن أفرغ ما فى جعبته من ألفاظ .

ولا يقل عن فيشارت حيوية رجل آخر مات فى نفس السنة، ١٥٩٠، بالغا نفس العمر، هو نيقوديموس فريشلين. الذى عاش أكثر من عشرة أعمار فى عمر واحد. فنى العشرين كان أستاذا للتاريخ والشعر فى توبنجن، ونظم الشعر اللاتينى فى رقة تذكرك برقة هوراس، وكتب شروحا علمية لفرجيل. وفى الخامسة والثلاثين طرد لهجائه النبلاء. وبعدها عاش عيشة الاستهتار والمرح، فأسرف فى الشراب، زاعما أن الخمر لا غنى عنها للعبقرية، وأن أشعار الزاهدين فى الخمر هزيلة هزالا حقيرا، وقد اتهم بإفساد فتاة وتسميم أخرى، وإذ كان مهددا بالمحاكمة الجنائية لعدوانه على الفضيلة، فقد ظل يفر من بلد إلى بلد، وأهدى محاضرة منشورة إلى أحد عشر رجلا من الأعيان المختلفين، الذين وزعهم توزيعا جغرافيا، ليوفروا له ملجأ يلوذ به فى أى مكان، ولكنه مات أثر كبوة قبل أن ينتهى من إبداء رأيه فى أعدائه. وجريا على عادة ذلك الزمان نعتوه بأنه: «شاعر قذر حقير، وسقط للشيطان كذاب لئيم[٣٥]». ولكنه كان ألمع شاعر استطاعت ألمانيا أن تنجبه فى ذلك الجيل الشقى.

أما الفن فقد أضر به عزوف البروتستنت عن الصور والتماثيل، واضمحلال الكنيسة بوصفها راعية للفن، وإفساد التأثير الايطالى الغريب على ألمانيا للطرز الوطنية، وتدهور الذوق نتيجة لخشونة الأخلاق وعنف الجدل، ثم نار الحرب الآكلة بعد ذلك. وأعجب العجب أن تنتج الحرفية الألمانية، برغم هذه المثبطات، فى العقود الستة السابقة للحرب، عدة قصور فخمة، ودور للبلدية بهية، وتنجب مصورا قديرا، وتبدع بعض التحف الثمينة فى الفنون الصغيرة. وكانت مجموعات الامبراطور رودلف الثانى والدوق ألبرت الخامس أمير بافاريا نواة لمتحف ميونخ الشهير «قاعة الفن القديمة» وكان ألبرت نفسه «مديتشيا ألمانيا»، فأحال بلاطه جنة «للفنانين، وجمّل

عاصمته بالعمارة ، وجمع التماثيل فى « الانتكواريوم » * ، — وهو أول متحف للتماثيل القديمة شمال الألب .

وفى ١٦١١ — ١٦١٩ بنى معمارى هولندى للدوق مكسمليان الأول فى ميونيخ « المقر » الذى ظل قرونا بيتا لأدواق بافاريا وناخبيها وملوكها . وقد أسف جوستاف أدولف لأنه لم يستطع أن ينقل إلى استكهولم ذلك المثال المحبب من عمائر فترة الاصلاح البروتستنتى المتأخرة فى ألمانيا . أما اليسوعيون فقد شيدوا بطراز الباروك ، على طريقتهم التى تعنى بالزخرفة والتنميق ، كنائس بديعة فى كوبلنز . وديلنجن ، وكنيسة هوف (كنيسة القديس ميخائيل) بميونيخ وصمم سانتينو سولارى كاتدرائية سالزبورج ، على طراز أكثر بساطة وفخامة ، قبيل اندلاع حرب الثلاثين ببضع سنين .

وإذ كان الأمراء قد استولوا على معظم الثروة الكنسية فى ألمانيا البروتستنتية ، فإن العمارة فيها لم تعد كنيسة بل مدنية ، وأحيانا عمارة قصور . وبنيت القلاع الضخمة ، كقلعة هايلينجبرج فى بادن ، المشهورة بسقفها المصنوع من خشب الزيزفون المنقوش ، فى قاعتها المعروفة بالريترزال (أى صالة الفرسان) ، وقلعة أشافينبورج على الماين ، وقلعة هايدلبرج ، التى ما زالت مشهدا من مشاهد ألمانيا الكبرى . وأقيمت دار بلدية « راتهاوس » الفاخرة لتضم إدارة البلدية فى لوبك وقلاع بادربون ، وبريمن ، وروتنبورج واجزبورج ونورمبرج وجراتز . وعهد تجار المنسوجات فى أجزبورج إلى الياس هول ، كبير معمارى المدينة ، ببناء قاعتهم « تزويج هاوس » أى قاعة الأقمشة . كذلك بنت بريمن قاعة للغلال « كورنهاوس » ، وفرانكفورت قاعة للملح « زالتسهاوس » لتجار الغلال والملح على التوالى ، ولكن من كان يتوقع أن يبنى الخل لنفسه بيتا رفيع الذوق يظله كقاعة الخل « ايسيجهاوس » ؟

---

* هذا المتحف وغيره من المنشئات الموسومة بعلامة نجمية فى هذا القسم دمرت أو لحق بها ضرر بليغ فى الحرب العالمية الثانية .

وارتفعت الآن ، وفى الأعوام المائة والخمسين التالية ، القصور فى كل مكان بألمانيا لتأوى الأمراء الظافرين ، وقد بنيت بطراز الباروك اللولبى البهيج . من ذلك أن حاكم « أنسباخ بايرويت » أنفق ٢٣٧٠٠٠ فلورين (٣٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار ؟) على قصر بلاسنبورج الذى يملكه ، فى إمارة من أفقر إمارات الامبراطورية . وأرفع من هذا القصر ذوقاً ، القصر الأميرى الذى أعد لرؤساء أساقفة ماينز . وتبدو عمارة بيوت هذه الفترة بهية إلى حد خلاب سواء فى تقاليدها أو رسومها . غير أن طبيباً ساخطاً وصف البيوت الألمانية فى ١٦١٠ بأنها تتألف من حجرات قذرة مظلمة خبيثة الرائحة قل أن يدخلها الهواء النقى[٣٦] ، ومع ذلك فإن داخل البيت فى المدينة كان الموطن الحقيقى لفنون ألمانيا الصغيرة ، فقد حفل بالزخارف التى أبدعتها أيد ماهرة كالحشرات الخشبية والسقوف المنقوشة ، والأثاث المتين المنقوش والمطعم، والدرابزينات الحديدية المشغولة ، والأقفال والقضبان المنصوبة فى أشكال فخمة ، وتماثيل العاج الصغيرة ، وأقداح الشراب الفضية أو الذهبية . لقد كان ساكن المدينة الألمانى لا يشبع من الزخارف فى بيته .

وازدهر الحفر ، لا سيما على النحاس ، فى ألمانيا حتى خلال الحروب . واستهل لوكاس كيليان وأخوه فولفجانج ، حوالى ١٦٠٠، عهد أسرة موهومة من الحفارين اتصل نشاطها طوال القرن السابع عشر بفضل ولدى فولفجانج، وهما فيليب وبرتلماوس ، وامتد حتى ١٧٨١ بفضل أبناء حفدة فيليب . على أن النحت الألمانى أضرت به المحاولات التى بذلها النحاتون لتقليد الأشكال الكلاسيكية الدخيلة على الطبيعة والمزاج الألمانيين . وكان الحفارون الوطنيون، إذا أرسلوا أنفسهم على سجيتها ، يبدعون تحفاً من أرفع طراز ، مثال ذلك مذبح الكنيسة الأوسط ، والمذبحان الجانبيان ، التى حفرها فى الخشب هانزديجلر لكنيسة أولتريش فى أوجزبورج ، أو التماثيل السبعون التى نقشها ميخائيل هونيل لكاتدرائية جورك بالنمسا . ومن المعالم البارزة فى هذا العصر

نافورات الماء العجيبة التى استلهمت المثل الايطالية . كنافورة «فيتلسباخر» المقامة أمام الرزيدنتز «بميونيخ» و «نافورة الفضيلة» (توجندبرونن) ، أمام كنيسة لورنز فى نورمبرج .

حين نمى إلى روبنز أن آدم الزهايمر قد مات لتوه (١٦١٠) وهو بعد فى الثانية والثلاثين قال «خليق بهذا الخطب أن يغرق مهنتنا فى حزن عميق . فلن يكون من السهل تعويضه ، إذ محال فى رأيى أن يكون له نظير فى (رسم) الصور الصغيرة والمناظر الطبيعية ، وأشياء أخرى كثيرة[٣٧]. وقد ولد آدم هذا فى فرانكفورت ثم قصد إيطاليا وهو فى العشرين ، وبعد أن أقام فى البندقية ردحا من الزمن انفق ما بقى من عمره فى روما . وقد تضرع روبنز إلى الله «أن يغفر لآدم خطيئة الكسل» ، ولكنا لا ندرى أهو الكسل «الذى جعل الزهايمر يقصر فنه على الرسوم الصغيرة على الأطباق النحاسية . إذ لا يمكن أن يكون الكسل هو الذى جعله يضفى على مناظر الطبيعة ذلك الصقل الدقيق الذى نراه فى «الهروب إلى مصر[٣٨] ، أو ذلك التجسيد للضوء والهواء الذى جعل منه على حدوده المتواضعة ، «رمبرانتا» قبل رمبرانت . ويلوح أنه كان يجزى جزاء طيباً على فنه ، ولكنه جزاء لا يكفى لإشباع حاجاته وميوله . وقد أفلس ، وسجن بسبب دينه ، ثم مات عقب الإفراج عنه .

كان الرسم على الزجاج فناً أثيراً فى هذا العصر . فى زيوريخ ومازال أولا ، ثم فى ميونيخ ، وأوجزبورج ، ونورمبرج ، وأصبحت النوافذ فى الأديار والمنازل غنية بالألوان كأنها نوافذ كنيسة من العصر الوسيط وظهر نقش الزجاج فى بواكير القرن السابع عشر فى نورمبرج وبراغ . واشتهرت أسرة هيرشفوجل بنورمبرج بالزجاج والخزف الفنيين ، وأدفأت كولونيا وزيجبورج قلوب الألمان بالأباريق والكيزان الأنيقة النقوش ، وكثيرا ما كانت المواقد تحاط بفخار مزجج بالألوان . ولم يكن للألمان قريع فى أشغال الخشب والعاج والحديد والأحجار الكريمة والمعادن النفيسة . وكان

لنجارى الأثاث مكان مرموق ، حتى أن واحداً منهم حكم عليه بالشنق عقاباً على السرقة صدر العفو عنه لأنه كان « نجاراً فنياً ، ماهراً جداً » . والدرابزين الحديدى المحيط بمقبرة الأمبراطور مكسمليان الأول فى انزبروك رائع جداً . وقد صنع أنطون آيزنهوت فى ١٥٨٧ آنية للطقوس الكنسية من فضة بلغت من دقة الرسم وغنى الحلية ما يضعها إلى اليوم فى قمة الآنية التى من نوعها . وكان الصاغة الألمان مطلوبين فى كل مكان ، ووجدت أشغالهم سوقاً أوربية لها فى غير عناء . وصنعت كئوس الشراب ، والأقداح ، والأباريق الفضية فى عشرات الأشكال المضحكة ، وكان فى وسع الألمان أن يترنحوا بالخمر يشربونه من طواحين الهواء ، والفوانيس ، والتفاح ، والقردة ، والخيل ، والخنازير ، والرهبان ، والراهبات . لقد كانوا يخوضون الحرب اللاهوتية حتى فى كئوسهم المتصارعة .

٥ — المذاهب المتصارعة

كان ديت أوجزبورج (١٥٥٥) قد وصل بالصراع الدينى إلى هدنة جغرافية حول مبدأ « الناس على دين ملوكهم » ، « إقليمه دينه » — أعنى أن دين الحاكم فى كل دور يفرض ديناً على رعاياه ، وعلى المخالفين أن يرحلوا . وكان الاتفاق يمثل قدراً ضئيلا من التقدم ، لأنه أحل الهجرة محل الإعدام ؛ ولكنه اقتصر على اللوثرية والكاثوليكية ، وكان من آثار اقتلاع عائلات كثيرة من جذورها اقتلاعاً أليماً زادت الفوضى والمرارة فى ألمانيا . وكان ينتظر من السكان أن يغيروا مذهبهم إذ خلف حاكم يدين بأحد المذهبين حاكماً يدين بالمذهب الآخر . وبات الدين مطية وضحية للسياسة والحرب

أما وقد انقسمت ألمانيا فى اللاهوتية على هذا النحو ، فإنها لا تقدم قبل حرب الثلاثين خريطة دينية بسيطة : ويمكن القول عموماً بأن الشمال كان بروتستنتيا ، والجنوب وأرض الراين كاثوليكيين ، ولكن بما أن مبدأ

أوجزبورج لم يمكن فرضه فرضا دقيقاً ولا سريعاً ، فقد بقى الكثير من البروتستنت فى مناطق كاثوليكية،والكثير من الكاثوليك فى بلاد بروتستنتية. وقد أتيح للكاثوليك ميزتان هما التقاليد والوحدة ، أما البروتستنت فقد تمتعوا بقسط أوفر من حرية العقيدة ، وانقسموا إلى لوثريين وكلفنيين وقائلين بتجديد العماد وموحدين ، وحتى فى صفوف اللوثريين نشبت حرب عقائدية بين أتباع ملانكتون المتحرر وخصومه . وفى ١٥٧٧ صاغ اللوثريين عقيدتهم فى «كتاب الوفاق» ، وبعد هذا التاريخ طرد الكلفنيون من الدويلات الألمانية اللوثرية . ولكن أمير البالاتينات الناخب ، فردريك الثالث ، رعى الكلفنية وجعل جامعة هايدلبرج معهدا لاهوتيا للشباب الكلفيني . وهناك ، فى ١٥٦٣ وضع اللاهوتيون الكلفنيون كتاب «التعليم المسيحى» فى مفهوم هايدلبرج، وقد صدم الكاثوليك واللوثريين جميعا برفضه عقيدة الحلول الحقيقى للمسيح فى خمر العشاء الربانى وخبزه . وسمح للكاثوليك بالعيش فى البالاتينات شريطة أن يقصروا عبادتهم على بيوتهم ، أما الموحدون فقد قمعوا بشدة . وفى ١٥٧٠ نازع رجلان فى ربوبية المسيح ، أو ضيقا حدودها ، فأعدما أثر أصرار الاساتذة الكلفنيين فى جامعة هايدلبرج على أعدامهما . على أن الامير الناخب لويس ابن فردريك ، آثر المذهب اللوثرى وفرضـــه ، ولكن أخاه يوحنا كازيمير ، أثناء وصايته (١٥٨٣ — ١٥٩٢) ، فضل الكلفنية وفرضها ، ثم وطد الامير الناخب فردريك الرابع (١٥٩٢ — ١٦١٠) تلك السياسة . وتزوج أبنه فردريك الخامس (١٦١٠ — ١٦٢٣) اليزابيت ستيوارت (ابنة جيمس الاول ملك انجلترة) . وطالب بعرش بوهيميا، وعجل بنشوب حرب الثـــلاثين .

وكان الصراع بين اللوثريين والكلفنيين لا يقل مرارة عنه بين البروتستنت والكاثوليك ، وقد أضر بتعاون البروتستنت خلال الحرب لأن تعاقب النصر والهزيمة على الفريقين كليهما ، تارة هذا وتارة ذاك ، ومن ثم اضطهاد المنتصر

للمنهزم كان يخلف ميراثا من الكراهية ، مثال ذلك أنه فى ١٥٨٥ طرد الكونت فولفجانج حاكم أيزنبورج رونيبورج جميع الموظفين اللوثريين فى إقليمه وأحل الكلفنيين محلهم ، ولكن أخاه وخليفته الكونت هنرى أنذر الوعاظ الكلفنيين فى ١٥٩٨ بأن عليهم أن يرحلوا خلال أسابيع برغم البرد القارس ، وفى ١٦٠١ ولى الحكم الكونت فولفجانج ارنست ، فطرد الوعاظ اللوثريين وأعاد المذهب الكلفينى . وحدث مثل هذا الاحلال للكلفنيين محل اللوثريين فى أنهالت (١٥٩٥) ، وهاناو (١٥٩٦، وليبى (١٦٠٠) . وفى بروسيا الشرقية أعدم يوهان فونك المتهم بميوله الكلفنية فى سوق كونيجزبرج وسط تهليل الجماهير (١٥٦٦) [٣٩] . كذلك أعدم المستشار نيقولا كرل فى درسدن (١٦٠١) لتوجيهه الطقوس اللوثرية وجهـة كلفنية ، ولتأييـده للهيجونوت الفرنسيين [٤٠] .

وفى ٦٠٤ أعتنق الشريف موريس حاكم هيس — كاسل المذهب الكلفينى ، ثم فرضه فى ١٦٠٥ فى هذا الاقليم وفى هيس العليا ، وهزم جنوده حشدا من اللوثريين المقاومين وحطموا الصور الدينية فى الكنائس ، أما الوعاظ الذين أبوا التحول من المذهب اللوثرى إلى الكلفنى فقد نفوا[٤١] . وفى أمارة براندنبورج الناخبة قام نزاع عنيف بين اللوثريين والكلفنيين حول خبز القربان المقدس ، وهل يتحول حقيقة بعـد تقديسه إلى جسد المسيح وأخيراً قضت الحكومة بأن الكلفنية هى المذهب الحق (١٦١٣ وما بعدها)[٤٢] .

ووسط تذبذبات الحقيقة هذه احتدم ذلك « السعار اللاهوتى » كما سبق أن سماه ملانكتون — احتداما لم يعرفه التاريخ من قبل ولا من بعد ، إلا فيما ندر . من ذلك أن راعيا لوثريا يدعى نيفاندر (١٥٨٢) عدد أربعين خصيصة من خصائص الذئاب ، وزعم أنها بالضبط السمات المميزة للكلفنيين ثم وصف الميتات الرهيبة التى لقيها أعداء اللوثريين ، وقال بأن

زونجلي حين خر صريعا فى المعركة ، « قطع جسده سيورا ، واستعمل الجنود شحمه ليشحموا به أحذيتهم، لأنه كان رجلا بدينا[٤٣] » . وجاء فى نشرة لوثرية فى ١٥٩٠ « إن أراد أحد أن يقال له فى بضع كلمات أية مادة من مواد الايمان نقاتل عليها جنس الأفاعى الكلفنية الشيطانى ، كان الجواب ، كلها بلا استثناء ... ذلك لأنهم ليسوا مسيحيين ، بل يهود ومسلمون معمدون[٤٤] » . وفى سوق فرانكفورت كتب ستانسلاوس رسكيوس (١٥٩٢) « لقد لاحظنا منذ سنين أن الكتب التى يؤلفها البروتستنت ضد البروتستنت ثلاثة أمثال تلك التى يؤلفها البروتستنت ضد الكاثوليك[٤٥] » . وقال كاتب بروتستنتى فى ١٦١٠ فى معرض الرثاء لهذه الحال « أن هؤلاء اللاهوتين المسعورين قد جعلوا الحرب المدمرة الناشبة بين المسيحيين المنشقين على البابوية من الهول والاتساع بحيث لا تبدو بارقة أمل فى أن يكف كل هذا الصراخ والقذف والشتم واللعن والحرم قبل مجىء اليوم الآخر[٤٦] » .

ولكى نفهم هذا « السعار اللاهوتى » علينا أن نتذكر أن جميع أطراف النزاع أجمعوا على أن الكتاب المقدس كلمة الله المعصومة ، وإن الحياة بعد الموت ينبغى أن تكون أهم شغل للناس فى هذه الدنيا . كذلك لابد أن تفسح الصورة مكانا للتقوى الصادقة التى أورثت الكثيرين من اللوثريين والكلفنيين والكاثوليك الاتضاع والتسامى فوق حمى المذاهب وهذيانها . فقد هرب « أهل التقوى » هؤلاء من المنابر اللاهوتية والتمسوا فى خلوتهم شيئا من الحضرة الإلهية المطمئنة . وما زال مؤلف يوهان آرنت « حديقة الفردوس الصغيرة » يقرأ فى ألمانيا البروتستنتية باعتباره كتيبا للتأمل الورع . وانتهى يعقوب بومى بهذه النزعة إلى فكرة الوحدة الصوفية لروح الفرد مع إله تصوره ينبوعا كونيا ، وأساسا لكل الأشياء ، ينتظم كل « شر » وكل « خير » وزعم بومى أنه رأى « كائن الكائنات كلها ، ورأى جهنم ، كما رأى مولد الثالوث الأقدس[٤٧] » ولا يجد العقل غير المتعاطف مع الصوفية فى كتاب بومى « فى شارة كل الأشياء » ١٦٢١ « إلا دوامة من السخافات ، ومن بواعثه

العزاء أن نعرف أن صوفيا آخر ، هو يوحنا وميسلى ، وصفه بأنه « هراء رفيع (٤٨) » . وأفضل من التراتيل البسيطة الحسية التى ألفها التقى اليسوعى فردريك فون سبي .

واليسوعيون هم الذين قادوا الحملة الصليبية الكاثوليكيه لإسترداد الأرض المفقودة فى ألمانيا كما فعلوا فى كل مكان فى أوربا ، وقد بدأوا بمحاولة إصلاح الاكليروس الكاثوليكى . كتب اليسوعى بطرس فابر من فورمز فى ١٥٤٠ يقول : « اسمح اللهم بأن يكون فى هده المدينة ولو كاهنان أو ثلاثة ليس لهم علاقات غرامية حرام ، أولا يعيشون فى خطايا معروفة أخرى (٤٩) . على أن أهم خططهم كانت اصطياد الشباب ومن ثم فتح اليسوعيون الكليات فى كولونيا ، وترير ، وكوبلنز ، وماينز ، وشبيير ، وديلجن ، ومونستر ، وفورتسبورج ، وانجولستات ، وبادربورن ، وفرايبورج ، وقد طاف بطرس كانيسيوس ، الرأس المفكر والروح والحركة لهذه الحملة اليسوعية ، بكل أرجاء ألمانيا تقريبا على قدميه ، منشئا الكليات ، موجها المجادلات اليسوعية العنيفة ، شارحا للحكام الألمان مزايا المذهب القديم . وقد حث الدوق ألبرت الخامس على أن يستأصل بالقوة شأفة البروتستنتية بأسرها من بافاريا (٥٠) . ويفضل اليسوعيين ، والكبوشيين ، وإصلاح الاكليروس ، وغيرة الأساقفة ، ودبلوماسية البابوات وسفرائهم ، استعيد إلى حظيرة الكنيسة فى النصف الثانى من القرن السادس عشر نصف الأرض التى كسبتها البروتستنتية الألمانيـــة فى النصف الأول منه . وقد استعملت بعض ألوان الاكراه هنا وهناك ، غير أن الحركة كانت فى جملتها سيكولوجية سياسية ، ذلك أن جماهير الشعب ملت طول الشك والجدل والجبرية ، ورأى حكامهم فى الكاثوليكية التقليدية سندا للحكومة والنظام الاجتماعى أقوى من سند بروتستنتية غارقة فى فوضى الانقسام ، محفوفة بالمخاطر التى تكتنف كل مذهب جديد .

فلما أدرك البروتستنت آخر المطاف أن انقساماتهم الداخلية أشبه بعملية انتحارية . وجهوا منابرهم وأقلامهم ضد عدوهم الرومانى. ومهدت حرب الكلام والمداد لحرب المدافع والدم ، وتفاقم التقاذف بالمطاعن حتى قارب نشوة القتل. ودخلت قاموس اللاهوت ألفاظ كالروث ، والنفاية ، والحمار ، والخنزير ، والبغى ، والقاتل. فى عام ١٥٦٥ اتهم الكاتب الكاثوليك يوهان ناس اللوثريين بممارسة القتل ، والسرقة ، والكذب ، والغش ، والشره ، والسكر ، ومضاجعة المحارم ، والجريمة ، دون ما خشية ، لأن الايمان فى زعمهم يبرر كل الأشياء، ورجح أن تكون كل امرأة لوثرية مومساء(٥١). وقد اعتبر الكاثوليك هلاك البروتستنت الأبدى إحدى بديهيات اللاهوت ، ولكن الواعظ اللوثرى أندرياس لانج كتب (١٥٧٦) بثقة مماثلة « أن البابويين كغيرهم من الترك واليهود والوثنيين هم خارج نطاق النعمة الالهية ، ومغفرة الخطايا ، والخلاص . فلقد كتب عليهم العويل والبكاء وصرير الأسنان إلى الأبد فى نار الجحيم المشتعلة وكبريتها (٥٢) . وراح الكتاب من الجانبين يتبادلون الافتراءات على نحو ما يفعل الآن فى حرب العقائد السياسية . وراجت أسطورة « البابة » (امرأة) يوانا فى الأدب البروتستنتى . وكتب أحد رجال الدين البروتستنت فى ١٥٨٩ يقول: « ما أشد نفاق هؤلاء اليسوعيين الأوغاد السفلة إذ يلجون فى إنكار هذه الحقيقة، وهى أن البغى الانجليزية آجينس كانت « بابة » فى روما وأنها ولدت غلاما خلال أحد المواكب العامة (٥٣) » . وجاء فى إحدى المواعظ أن البابوات كانوا وما زالوا بلا استثناء واحد ، لوطيين ومستحضرى أرواح وسحرة ، وأن الكثيرين منهم يستطيعون أن يبصقوا النار من أفواهم .. « كثيرا ما ظهر الشيطان بصورته المرئية للبابوات ... واشترك معهم فى لعن صليب المسيح ووطئه بالأقدام ، ثم الرقص رقصات عارية فوقه ، وهى التى سموها خدمة مقدسة (٥٤) » . وكانت جماهير العابدين ترتشف هذه المسكرات بشغف . قال قسيس بروتستنتى فى ١٥٨٤ ، « لقد تعلم الأطفال فى الشوارع أن يلعنوا عدو المسيح الرومانى وأتباعه الملاعين (٥٥) » .

وكان اليسوعيون أهدافا محببة. فرموا فى مئات الرسوم الهزلية، والنشرات، والكتب، والقصائد، باللواط، والزنى، والبهيمية. وفى أحد الكلشيهات الخشبية الألمانية، وتاريخه ١٥٦٩ (ومازال محفوظا فى مجموعة جوته بفايمار) صور البابا على شكل خنزيرة تلد رهبانا يسوعيين فى هيئة خنازير صغار. وفى ١٥٩٣ نشر اللاهوتى اللوثرى بوليكارب الايزر تاريخا الرهبنة اليسوعية باللاتينية. وصف اليسوعيين بأنهم يقارفون أقبح الرذائل مطمئنين إلى رضى البابا وعقوه الكاملين[٥٦]. وأخبرت «صحيفة جديدة صادقة» ١٦١٤ «قراءها بأن الكردينال اليسوعى باللارمين ارتكب الفاحشة ٢٫٢٣٦ مرة مع ١٦٤٢ امرأة، ثم استطردت لتصف عذاب الكردينال على فراش موته، مع أنه لم يمت إلا بعد سبع سنوات[٥٧].

وقد رد اليسوعيون أول الأمر فى ضبط للأعصاب. ونصح كانيسيوس باستعمال لغـــة بريئة من العنف، وكذلك فعل الراعى البروتستنتى يوهان ماتيسيوس، ولكن الجمهور كان يؤثر الطعن على الاعتدال. واتهم المجادلون البروتستنت المتطرفون خصومهم اليسوعيين بقبولهم عقيدة اليسوعى ماريانا التى تدافع عن قتل الطغاة من الحكام، ورد أحد اليسوعيين الألمان بأن هذه هى بالضبط العقيدة التى يجب تطبيقها على الأمراء الذين فرضوا البروتستنتية على رعاياهم. ولكن يسوعيين آخرين أكدوا للحكام البروتستنت أنهم يعتبرون أمراء شرعيين، وأن شعرة واحدة من رءوسهم لن تمس. ونشر اليسوعى كونراد فيتر (١٥٩٤ — ٩٩) عشر كتيبات استعمل فيها أقبح ألفاظ الشتم، معتذرا بأنه إنما يحذو فى ذلك حذو اللاهوتيين اللوثريين، وكان الجمهور يتهافت على شراء هذه الكتيبات بمجرد طبعها. وأعلن يسوعيو كولونيا أن «الهراطقة العنيديين الذين يبثون الانشقاق فى كل مكان، فى الأقاليم الكاثوليكية»

«يجب أن يعاقبوا كما يعاقب اللصوص والسارقون والقتلة»

لا بل بأشد مما يعاقب به هؤلاء المجرمون ، فهؤلاء لايؤذون سوى الجسد، أما أولئك فيزجون بالنفوس في الهلاك الأبدى.. ولو أن لوثر أعدم أو أحرق قبل أربعين عاما ، أو لو أن نفرا من الناس نخفف العالم من وجودهم ، لما نكبنا بمثل هذه الانشقاقات اللعينة ، ولا بمثل هذه الملل والنحل التى تكدر صفاء العالم كله(٥٩) .

وبمثل هذه الروح ناشد الكلفن داود باريئر، استاذ اللاهوت بهايدلبرج (١٦١٨) ، جميع الأمراء البروتستنت أن يشنوا حربا صليبية على البابوية ، وفى حملة كهذه يجب « ألا يتحرجوا من أى ضرب من ضروب القسوة أو العقاب(٦٠) » . وبلغ هذا السيل الدافق من الكتيبات ذروته بطبع ١,٨٠٠ نشرة فى سنة واحدة (١٦١٨) ، وهى أول سنى الحرب .

فلما قوى بأس الكاثوليك واشتد غضبهم ، ألف عدد من الأمراء البروتستنت « اتحادا من الأقاليم الانجيلية » (١٦٠٨) أو اتحادا بروتستنتيا ليتبادلوا الحماية . ووقف ناخب سكسونيا بمعزل عن الاتحاد ، ولكن هنرى الرابع ملك فرنسا بدأ على استعداد لمديد المعونة لأية مغامرة ضد الإمبراطور الهابسبورجى. وفى ١٦٠٩ ألف عدد من الحكام الكاثوليك يتزعمهم مكسمليان الأول دوق بافاريا ، اتحادا كاثوليكيا ، عرف بالحلف الكاثوليكى ، وما وافى أغسطس من عام ١٦١٠ حتى كانت كل دويلات الامبراطورية تقريبا قد انضمت إليه ، ثم عرضت أسبانيا أن تقدم له المعونة الحربية . ووافق الاتحاد البروتستنتى (فبراير) على أن يساعد هنرى الرابع على الاستيلاء على دوقية يوليس — كليفز ، ولكن مصرع الملك الفرنسى (١٤ مايو) حرم البروتستنت من أقوى حليف لهم . وسرى الخوف فى ألمانيا البروتستنتية ، ولكن الحلف لم يكن على استعداد للعمل . وفى يناير ١٦١٥ أنذر موريس حاكم هيس- كاسل الاتحاد البروتستنتى بأن « الحلف الكاثوليكى ، الذى يحميه البابا ، وملك

أسبانيـــا ، وبلاط بروكسل ، والامبراطور . . . أرسل فى طلب السلاح والذخيرة . . . رغبة . . . فى استئصال شأفة ـ المذهب الانجيلى[٦١] » . وزاد انطين بلة أن كاسبار سكيو بيوس حذر الكاثوليك واللوثريين من أن الكلفنيين يعتزمون تدمير الديانة والسلام العام والاطاحة بالامبراطورية الرومانية المقدسة بأسرها، ومحو مبدأ أوجزبرج والمذهب الكاثوليكى من الامبراطورية[٦٢] سواء بسواء ، وربما كان هذا محاولة لاشاعة مزيد من الفرقة بين الشيع البروتستانتية . وأضعف النزاعات الاقليمية بين النمسا وبافاريا العصبة الكاثوليكية فى ١٦١٦ . . وراود الناس من جديد حلم السلام !

ولكن فى براغ ناشد الكونت هنريك فون ثورن زعماء البروتستانت منع الكاثوليكى المتحمس الأرشيدوق فرديناند من اعتلاء عرش بوهيميا . وكان الامبراطور ماتياس قد عين خمسة نواب ليتولوا حكم البلاد فى أثناء غيابه . واستبد هؤلاء الحكام بالبروتستانت فى النزاع حول بناء كنيسة فى كلوستراجراب ، وأرسلوا المعترضين إلى السجن وفى ٢٣ مايو ١٦١٨ قاد ثورن حشداً بروتستانتيا غاضبا إلى قلعة أوسكين ، وصعدوا إلى الحجرات التى كان يجلس بها أثنان من هؤلاء الحكام ، وألقوا بهما من النافذة مع سكرتير كان يتحمس لهم ، وسقط ثلاثتهم نحو خمسين قدما ، ولكنهم وقعوا على كومة من الاقذار فتلوثوا أكثر مما أوذوا . فكان هذا «الالقاء من النافذة» تحديا مثيرا للامبراطور وللأرشيدوق وللعصبة المقدسة . وطرد ثورن رئيس الأساقفة والجزويت ، وشكل حكومة مديرين ثورية . وربما شق عليه أن يدرك أنه بذلك أطلق كلاب الحرب من عقالها أو أنه أشعل نارها .

٦ ــ حرب الثلاثين سنة

١ ــ طور بوهيميا : ١٦١٨ ــ ١٦٢٣ :

أرسل الامبراطور ماتياس إلى حكومة المديرين سالفة الذكر عرضاً

بإصدار عفو عام ، والدخول فى مفاوضات ، ولكن هذا العرض رفض(٦٣) .
وأنفذ الإرشيدوق فرديناند ، متجاهلا الامبراطور ، جيشين لغزو بوهيميا .
وحرض فردريك الخامس ناخب البالاتينات شارل عمانويل دوق سافوى
المعادى لآل هبسبرج ، على أرسال قوة لنجدة بوهيميا ، بقيادة القائد القدير
بيتر ارنست فون مانسفيلد وأستولى ما نسفيلد على بلسن ، معقل الكاثوليك
فى بوهيميا ، وتقهقرت جيوش فرديناند . واقترح كريستان دون برنزويك
مستشار فردريك على المديرين أنهم إنما يقوون دفاعهم ويستبعدون فرديناند
عن العرش ، إذا عرضوا العرش على فردريك . وفى ٢٠ مارس ١٥١٩ مات
ماتياس ، تاركا فردريك الملك الشرعى على بوهيميا، ووريثا افتراضيا للتاج
الامبراطورى . وفى ١٩ أغسطس أعلن مجلس الديت فى بوهيميا خلع فرديناند
عن عرش بوهيميا ، وفى السابع والعشرين نادى بفردريك أمير البالاتينات
ملكا على بوهيميا . وفى الثامن والعشرين أعلن ناخبو الامبراطور أرشيدوق
استيريا امبراطورا تحت اسم فرديناند الثانى .

تردد فردريك فى قبول هذا المنصب الجديد ، ذلك أنه أدرك أنه بوصفه
من زعماء الكلفنية لايمكنه أن يعتمد على تأييد اللوثريين ، على حين أنه قد
يواجه معارضة الامبراطورية والبابوية وأسبانيا . وأهاب بوالد زوجته
جيمس الأول ملك إنجلترا أن يمده بجيش ، ولكن بدلا من ذلك ، زوده
الملك الحذر البعيد النظر بالنصيحة — أن يرفض عرش بوهيميا . ولم تغره
أو تحثه زوجته المرحة الجريئة على قبول العرش ، بل وعدته أن تقاسمه عن
طيب خاطر كل ما قدر له أن يلقى ، نتيجة لما يقع عليه اختياره ، وكانت عند
وعدها . ونصح كريستيان أمير برنزويك بقبول العرش . وفى ٣١ أكتوبر
١٦١١ ، دخل الملك الجديد والملكة براغ ، ورحب بهما الديت والاهالى
ترحيبا حارا .

وكان فردريك بعد شابا فى العشرين من العمر ، يتحلى بحسن الخلق والشهامة

والكياسة ، ولكنه لم يكتمل نضجه إلى درجة يتولى معها شئون السياسة والحكم . وكان أول عمل له بعد تولية منصبه فى براغ ، أنه أمر بإزالة المذابح والصور من كنيسة سانت فيتوس ، وهى الحرم الوطنى المقدس ، وسرعان ماعمد أتباعـــه بالمثل إلى تجريد سائر المزارات المقدسة فى بوهيميا . واستنكرت الاقلية الكاثوليكية هذا التصرف ،واستاء منه اللوثريون البوهيميون ونظرت ألمانيا اللوثرية بفتور إلى هذا الكلفنى المتحمس وفى ٣٠ أبريل ١٦٢٠ أعلن فرد يناند أن فردريك مغتصب للعرش ، وأصدر إليه الأمر بمغادرة الامبراطورية فى أول يونية ، وإلا اعتبر خارجا على القانون وصودرت أملاكه . وعرض الامبراطور أن يضمن عدم تعرض الويات البروتستانتية الالمانية للهجوم ، إذا هى قطعت مثل هذا العهد للولايات الكاثوليكية . وفى معاهدة أولم (٣ يونية ١٦٢٠) قبل هذا العرض واحتج الأمراء البروتستانت بان فردريك عرض حريتهم للاخطار بتحديه فرد يناند . وانحاز الناخب جون جورج أمير سكسونيا بولايته اللوثرية إلى الامبراطور الكاثوليكى .

وفى أغسطس عبر جيش أمبراطورى قوامة ٢٥ ألف رجل ، الثمسا إلى بوهيميا بقيادة قائد مكسيمليان البافارى وهو جوهان تسركليس ، كونت تللى الذى تعلم التقوى على يد الجزويت ، وتلقى فن الحرب من دوق بارما وبالقرب من الجبل الأبيض ، إلى الغرب من براغ ، التقى هـذا الجيش بالبوهيميين وهزمهم هزيمة منكرة (٨ نوفمبر) . وفر فردريك واليزابث وحاشيتهما إلى سيليزيا . وعجز الملك والملكة عن جمع جيش هناك ، فالتمسا مأوى فى براند برج الكلفنية . وفى اليوم التالى للمعركة أحتل مكسيمليان أمير بافاريا براج . وسرعان ما أعيدت الكاثوليكية ، وأعيد وضع الصور فى الكنائس ، وأستدعى الجزويت ، ووضع التعليم تحت أشراف الكاثوليك ولم يبح إلا الديانة الكاثوليكية والديانة اليهودية ، وألغى العشاء الربانى بالخبز وبالنبيد على حد سواء ، وكان يوم القديس جون هس من قبل عيدا وطنيا فجعل يوم حداد تغلق فيه كل الكنائس ، وقبض على ثلاثين من زعماء العصاة وأعدم

منهم سبعة وعشرون . ولمدة عشر سنين ظلت اثنتى عشرة جمجمة تطل متجهمة غاضبة من برج جسر شارل على نهر ملدو (٦٤) وحرمت الهجرة على كل العصاه والمتمردين ، وصودرت أملاكهم — لجانب الملك فرديناد الذى باعها بيع السلعة للكاثوليك ، وقامت طبقة نبلاء كاثوليك جديدة على أكتاف رقيق الأرض . وكادت الطبقات الوسطى والتجارية أن تختفى .

وعلى حين كان مكسيمليان أمير بافاريا يقهر الكلفنية فى بوهيميا على هذا النحو ، فان سبينولا أثناء الهدنة فى الأرض الوطيئة ، قاد قوة كبيرة من الفلاندرز للاستيلاء على البلاتينات ، وأعد بعض صغار الأمراء البروتستانت قوة لمقاومته وانضم فردريك إليهم ، تاركا زوجته فى لاهاى . فلما استدعى سبينولا إلى الأرض الوطيئة عند تجدد الحرب بين هولنده وأسبانيا ، حل محله تلى ، وهزم البروتستانت (١٦٢٢) واستولى على هيدلبرج ، وأعمل فيها السلب والنهب وشحنت مكتبة الجامعة العظيمة فى خمسين عربة ونقلت إلى رومة هدية من مكسيمليان الباقارى إلى البابا جريجورى الخامس عشر . ولما عاد مكسيمليان منتصرا منح البلاتنات ميزتها الانتخابية ، لقاء ما أدى للامبراطور من خدمات . وأصبح للولايات الكاثوليكية الآن الأغلبية فى مجلس الديت الناخب .

أن مدى النصر الكاثوليكى وكماله وشموله أقلق بال الملوك الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء . فان تزايد هيبه فرديناند الثانى وسلطانه كان يهدد « حريات » الأمراء الالمان ، كما أن مكسيمليان قلق حين وجد أنه قد سمح له بالاستيلاء على البلاتينات وبافار مع بقاء تبعيتهما للامبراطور . وتعاطف البابا أربان الثامن مع وجهة النظر الفرنسية القائلة بأن آل هبسبرج أصبحوا من القوة بحيث باتوا خطرا على حرية البابوية وأغضى عما عمـــد إليه ريشليو من فرض ضرائب على الكاثوليك فى فرنسا لمساعدة الألمان البروتستانت وعن مساعدته بعد ذلك لملك سويدى ضد أمبراطور كاثوليكى . وفى ١٦٢٤ حول الكاردينال المدهش المنظر السياسى فجأة ،

بسلسلة متعاقبة من الضربات الدبلوماسية . ففى ١٠ يونيه وقع تحالفا مع هولندة البروتستانتية ضد الفلاندرز وأسبانيا الكاثوليكيتين . وفى ١٥ يونية ضم إنجلترا البروتستانتية إلى الحلف ، وفى ٩ يوليه ضم إليه السويد والدنمرك ، وفى ١١ يوليه أقنع سافوى والبندقية بالانضمام اليه فى محاولة لقطع خط الامدادات والقوات الأسبانية النمسوية عبر ممرات الفالتللين فى جبال الألب الايطالية السويسرية . وفى ١٦٢٥ جاء كريستان الرابع ملك الدنمرك بعشرين ألف رجل للانضمام إلى قوة مانسفياد المكونه من أربعة آلاف رجل فى سكسونيا السفلى . وتولى الجزع مكسيمليان ، فحث الامبراطور على أرسال نجدة إلى تللى الذى تناقص عدد جيشه من ١٨ ألفا إلى ١٠ آلالاف بسبب الجو والجوع والمرض واستجاب فرديناند باستدعاء فالنشتين من بوهيميا .

٢ — فالنشتين : ١٦٢٣ - ١٦٣٠ :

كان أسمه الحقيقى ألبرخت فون فالنشتين ، وهكذا كان يوقع أسمه دائما [٦٥] . وكانت اسرته من أعرق الاسرات النبيلة فى بوهيميا . ولد فى ١٥٨٣ ، وتلق تعليمه أولا على يد « الأخوة البوهيميين » ثم على يد الجزويت ، وتزوج من أرملة غنية طواها الردى سريعا ، تاركة له ثروتها . وضاعف منها بشراء ثمان وستين ضيعة بثمن بخس ، بفضل خفض قيمة العملة البوهيمية ، من الاملاك التى صادرها فرديناند . وكان مالكا ذكيا تقدميا ، فحسن طرق الزراعة والإنتاج ومول الصناعة ونظم المدارس والخدمات الطبية وأعانات الفقراء ، وأدخر بعض الفائض ليقدم الغذاء لشعبه زمن القحط . ولم يؤثر فى فى معاصرية بعبقريته العسكرية فحسب ، بل بجسمه الفارع النحيل ، ووجهه الشاحب الصارم ، وقلقه العصبى ، وزهوه وغطرسته وطبعه الحاد المسيطر . وجعلته « عفته التى لم يتحول عنها [٦٦] » يبدو وكأنه فوق مستوى البشر . وكانت ثقته بالتنجيم أقوى من إيمانه بالمسيح .

وملك قلب فرديناند وظفر بحبه ، بالوقوف إلى جانبه ومساندته فى كل

للمراحل التي رقى فيها الأرشيدوق إلى صولجان السلطان. ومن ١٦١٩ وما بعدها أقرض الامبراطور مبالغ ضخمة تكاد تسد نفقات العرش — على سبيل المثال مائتي ألف جلدن في ١٦٢١ ، وخمسمائة ألف في ١٦٢٣ . ولم يحصل على أية ضمانات لهذه القروض ، ويكفيه أنه كان يملك ربع بوهيميا ، ويستطيع أن يحشد جيشاً من شاء ، ويتولى قيادته بمهارة فائقة . وفي ١٦٢٤ عندما تحكم الفرنسيون والبنادقة في ممرات فالتللين ، ولم يعد في مقدور الجنود والمؤن الأسبانية الوصول من أيطاليا إلى النمسا ، عرض فالنشتين تجنيد خمسين ألف رجل ووضعهم في خدمة الإمبراطور . فتردد فرديناند لما يعلم من غرام فالنشتين بالقوة والسلطة ولكن تللي في ١٦٢٥ تعالت صيحاته يطلب المدد فكلف فرديناند فالنشتين بتجنيد عشرين ألف رجل . وفي سرعة مذهلة سار هذا الجيش إلى سكسونيا السفلى ، كامل العتاد ، حسن النظام والانضباط ، يحب قائده إلى حد العبادة ، ويعيش على ما يسلبه من الريف .

وصد فالنشتين مانسفيلد في دسو ، وهزم تللي كريستيان الرابع في لتر (١٦٢٦) وقضى منسفيلد نحبه ، ووجد كريستيان جيشه الذي يتناقص عدده عاجزاً متمرداً . وانفصمت عرى التحالف الكبير الذي كان ريشليو قد شكله نتيجة لحقد جوستاف أدولف على كريستيان الرابع ، وأعلان انجلترا الحرب على فرنسا ، وحملة بكنجهام لمساعدة الهيجونوت في لاروشيل . فكان على ريشليو أن يسحب قواته من ممرات فالتللين ، التي عادت الآن مفتوحة أمام النمسا وأسبانيا . وتقدم فالنشتين الذي يزداد جيشه عدداً يوماً بعد يوم ، إلى براندنبرج وأرغم ناخبها جورج وليم على أعلان الولاء للامبراطور ، واندفع نحو دوقية كريستان نفسه . وهي هولستين ، وتيسر له القضاء على كل مقاومة في غير عناء . وفي نهاية ١٦٢٧ كانت الأجزاء الداخلية من الدنمرك في قبضته .

ووسع هواء البلطيق الملح من خطط فالنشتين ، فالآن وقد دان كل الساحل الشمالي الألماني تقريباً ، ومعظم أرض الدنمرك ، للامبراطور ، فلم لا يبني بحرية

امبراطورية ، ويحمى « الهانسا » ، وبالتحالف مع بولندة الكاثوليكية يمد سلطان الامبراطور على بحر البلطيق وبحر الشمال ، ومن ثم لا يعود الهولنديون والانجليز قادرين على الاتيان بالخشب من ثغور البلطيق عبر مياه السوند ليشدوا أساطيلهم ؛ ويتحكموا فى بحر الشمال وتجارته ويسدوا القتال فى وجه الأسبان أن امتلاك الامبراطور للبلاتينات ممكنة من السيطرة على نهر الراين . ومن ثم يكون الطريق مسدودا أمام الهولنديين فى النهر والبحر . فتنهار قوتهم وثروتهم العتيدة . ولسوف يصبح جوستاف أدولف محصورا فى شبه جزيرة اسكنديناوه وفى ١٦٢٧ كان فالنشتين بالفعل يعد نفسه ليكون أمير البحر فى المحيط وفى البلطيق .

ولم ينظر الأمراء الألمان بعين الرضا إلى انتصارات فالنشتين . ذلك أنهم رأوا أنه بينما تقص جيش العصبة الكاثوليكية بقيادة مكسيمليان البافاري وكونت تللي إلى نحو ٢٠ ألف رجل ، فإن فالنشتين تولى أمرة قوات بلغ عددها ١٤٠ ألفا . كما أنه لا يعترف بأية مسئولية إلا أمام الامبراطور وحده ومادام الامبراطور مطمئنا إلى وجود جيشه من خلفه ، ففي مقدوره أن يحد من « حريات » الأمراء . والحق أن فالنشتين ربما كانت تراوده فكرة القضاء على الملكيات الاقطاعية وتوحيد ألمانيا بأسرها فى دولة قوية واحدة . كما كان يفعل ريشليو فى فرنسا ، وكما كان على بسمارك أن يفعل بعد ذلك بمائتين وأربعين عاما .

ولدى اجتماع الناخبين الامبراطوريين فى مولها وزن ، فى شتاء ١٦٢٧ - ١٦٢٨ ، تبادلوا الرأى فيما يراودهم من آمال ومايساورهم من مخاوف . ومال الناخبون الكاثوليك إلى تأييد فالنشتين ، ثقة منهم بأنه سوف يقتلع البروتستانتية من جذورها ويقضى عليها فى مهدها الأول . ولكن عندما أطاح فرديناند بدوق مكلنبرج البروتستانتى ، ونقل الدوقية إلى فالنشتين (١١ مارس ١٦٢٨) فإن الأمراء الكاثوليك أنفسهم تولاهم الجزع من استئثار الامبراطور بسلطة

خلع الأدواق وتعيينهم وفق مشيئته هو وحده . وما كان أمام الأمراء الاورقة واحدة يلعبون بها أمام فرديناند ، فإنه كان على وشك أن يطلب إليهم ضمان اعتلاء ابنه العرش الامبراطورى . وفى ٢٨ مارس أبلغوه أنه مادامت جيوشه تحت امرة فالنشتين . فإنهم لن يقدموا ضمانا مثل هذا . كما حذره مكسيمليان البافارى ، من أنه إذا لم ينتقص من جيش فالنشتين ومن سلطاته وقوته ، فلا بد يوما من أن يملى هذا القائد سياسة الامبراطورية .

وكأنما لحظ فالنشتين هذا التحذير ، فإنه شرع ، وواضح أنه على مسئوليته الخاصة ، فى إجراء مفاوضات سرية مع كريستيان الرابع ، انتهت بصلح لوبك (٢٢ مايو ١٦٢٩) . ولدهشة أوربا كلها ، أعاد إلى ملك الدنمرك جتلند وشلزويج والقطاع الملكى من هولشتين . ولم يفرض تعويضا ، بل أنه طلب فقط تخلى كريستيان عن أسقفياته الألمانية وسلطته العسكرية ، ولكن ما الذى دفعه إلى هذا الكرم ، إنه من ناحية، الخوف من ائتلاف الغرب ضد السيطرة الإمبراطورية على البلطيق والمضايق ، ومن ناحية أخرى الاعتقاد بأن جوستاف أدولف كان يخطط لغزو ألمانيا ، وأخيرا ، تنبأ فالنشتين بأن القضية ستكون بينه وبين جوستاف لا كريستيان .

وربما أقلق استحواذ فالنشتين على السلطة الدبلوماسية بال الإمبراطور ، ولكن كان لزاما عليه أن يخفى شكوكه وحقده المتزايدين ، لأنه كان الآن يخطط أجرأ حركة فى تاريخه ، وقد يكون فى حاجة ماسة إلى مساندة قوات فالنشتين فى كل مرحلة من مراحل هذه اللعبة الخطرة . أن مستشاريه الجزويت طالما ناشدوه الاستعانة بقوته الجديدة وبقرار إمبراطورى، لتسترد الكنيسة الكاثوليكية ، بقدر الإمكان ، أملاكها ومواردها التى اقتطعت منها منذ بداية الإصلاح الدينى ، أو على الأقل منذ ١٥٥٢ . ورأى فرديناند الكاثوليكى الشديد التمسك بعقيدته فى هذا المطلب شيئا من العدالة ، ولكنه لم يقدر كل التقدير صعوباته العملية ، فقد بيعت منذ ١٥٥٢ ممتلكات كثيرة من تلك التى كانت ملكا للكنيسة ،ودفع ملاكها الحاليون ثمنها . ولتنفيذ هذا ، أى استرداد

الكنيسة لأملاكها ، لابد من تجريد آلاف من الملاك من ممتلكاتهم ، والمفروض أن يتم هذا عنوة ، وقد تؤدى الفوضى الناتجة عن هذا بألمانيا إلى ثورة . وكان مكسيمليان أمير بافاريا يوما يحبذ هذه الفكرة ، ولكنه الآن فزع لمداها ومضاعفاتها ، وحث الإمبراطور على إرجائها حتى يدرسها مجلس الديت دراسة مستفيضة . وخشى فرديناند أن يرفضها الديت . وفى ٦ مارس ١٦٢٩ نشر « قرار إعادة أملاك الكنيسة » ، وجاء فيه « لم يبق أمامنا إلا أن نأخذ بيد الجماعة المظلومة ، ونبعث بموظفينا ليطلبوا إلى الملاك الحاليين غير المفوضين قانونا أن يعيدوا كل الأبرشيات والأسقفيات والأديار ، وسائر الممتلكات الكنيسية التى صودرت منذ معاهدة باسو ١٥٥٢ . وكان هـــذا «الإصلاح المضاد» اقترن بالانتقام وكان كذلك توكيداً للسلطة الإمبراطورية المطلقة . وهى سلطة مطلقة ربما تردد حتى شارل الخامس نفسه فى انتحالها لشخصه .

وقوبل القرار باحتجاجات صارخة على نطاق واسع ، ولكنه نفذ . وحيثما وجدت أية محاولة لمقاومته استدعى جنود فالنشتين وأخمدوها فى كل مكان باستثناء مجدبرج التى نجحت فى مقاومة حصار فالنشتين لها . وعادت مدن بأكملها أوجزبرج ، روتنبرج ، دورتمند ، وثلاثون بلدة صغيرة إلى أيدى الكاثوليك ، وكذلك عاد إليهم خمس أسقفيات ومائة دير ، ونظمت من جديد مئات الأبرشيات الكاثوليكية ، ولما طبق المالكون قاعدة « الناس على دين ملوكهم » . متطلبين من الرعايا أن يتقبلوا مذهب الحاكم ، اضطر آلاف البروتستانت أن يرتدوا أو يهاجروا . ومن أوجزبرج وحدها نفى ثمانية آلاف ، بما فيهم الياس هل الذى كان قد فرغ لتوه من بناء دار البلدية الفخمة وهام القساوسة البروتستانت المنفيون على وجوههم فى طول البلاد وعرضها يسألون الناس الخبز ، حتى أن القساوسة الكاثوليك الذين حلوا محلهم استصرخوا الحكومة أن تغيثهم(٦٧) . وما حال دون النجاح النهائى للقرار وللاصلاح المضاد فى ألمانيا ، إلا قدوم جوستاف أدولف .

وإذ استنفد فرديناند غرضه فى استخدام فالنشتين فى تنفيذ القرار . ولم يجد أية قوات بروتستانتية فى الميدان ، فإنه لم يعد حريصا على الاحتفاظ بقائده . فطلب إليه فى مايو ١٦٣٠ أن يتخلى عن ٣٠ ألفا من جنوده للخدمة فى إيطاليا،فاعترض فالنشتين محتجا بأن ملك السويد يخطط لغزو ألمانيا،فغلب أمره ، وأرسل الثلاثون ألف جندى إلى إيطاليا . وعاد الناخبون فى يوليه واقترحوا عزل فالنشتين . ووافق الإمبراطور، وفى ١٣سبتمبر أبلغ ضباط الجيش بأن مكسيمليان أمير باڤاريا قد حل فى منصب القيادة العليا محل قائدهم وعاد فالنشتين فى سلام إلى ضياعه فى بوهيميا ، وهو يعلم أن جوستاف قد دخل الأراضى الألمانية ، وأن الإمبراطورية لابد أن يكون وشيكا فى حاجة إلى قائد .

٣ — قصة جوستاف البطولية : ١٦٣٠ — ١٦٣٢ :

ينبغى ألا نصور العاهل العظيم فى صورة « جالاهاد » أى فى صورة رجل نبيل طاهر ، تقدم لإنقاذ الديانة الحقة من الوثنيين . . كانت مهمته أن يدعم ويحافظ على استقلال السويد السياسى ونموها الاقتصادى ومن أجل هذين الهدفين قاتل بولندة الكاثوليكية وروسيا الأرثوذكسية والدنمرك البروتستانتية فإذا تجاسر الآن ، بموارده المتواضعة على الدخول فى مباراة ضد الأمبراطورية والبابوية وأسبانيا ، مجتمعة ، فما ذلك بسبب الكثلكة ، بل لأنهم هددوا بتحويل بلاده إلى تابع ذليل لملوك غرباء معادين . وأحس بأن خير دفاع ضد مثل هذا الخطر المحدق ، هو إقامة معاقل محصنة سويدية فى الداخل . وترددت سكونيا البروتستانتية ، وانساقت فرنسا الكاثوليكية إلى التحالف مع جوستاف ، لأنها أدركت أن القضية لم تعد نظرية فى اللاهوت بل كفاحا من أجل الأمن عن طريق القوة . ومهما يكن من أمر ، فإن العقيدة ، على الرغم من أنها دافع ضئيل لدى القادة والزعماء ، حافز مثير قوى لدى الشعب ، ويجب أن تضاف طاقتها إلى الروح الوطنية ، لتدفع بالناس إلى ميدان القتال .

وهكذا نزل جوستاف بقواته البالغ عددها ١٠ ألفا فى بوميرانيا، وتقدم إلى الولايات الألمانية الشمالية بوصفها منقذة البروتستانتية ومخلصتها، وإلى فرنسا بوصفها سيفا مصلتا ضد أسرة هبسبرج المنتفخة. وانتظر المدد من السويد والدنمرك وبراندنبرج وبولندة حتى تجمع لديه نحو ٤٠ ألف جندى فى أحسن نظام، مسلحين ببنادق حديثة الطراز، مدربين على سرعة الحركة بمدفعيتهم الخفيفة. ولم يزل القائد بعد شابا فى السادسة والثلاثين، ولكن على الرغم من حملاته فقد اشتد عوده وقوى جسمه، ودوخ جياده كما دوخ أعداءه، وعلى الرغم من ذلك، كان غالبا ما يتقدم الصفوف، سائرا بلحيته الذهبية نحو النصر. وأحبه جنوده لا لأنه منصف. وعلى حين تبع الجيوش الألمانية أفواج من البغايا بلغ من كثرتهن تخصيص بعض الضباط لحفظ النظام بينهن، فإن جوستاف لم يسمح بمحظيات أو مومسات فى معسكره، ولو أن الزوجات سمح لهن بالقيام بخدمة أزواجهن من الجنود[٦٨]. وكانت كل كتيبة تؤدى الصلوات فى الصباح وفى المساء، وتستمع إلى عظة كل يوم أحد. وهذا كان نظام رجال كرومول الحديديين قبل وقوع حروب كرومول بعشر سنين وحرم جوستاف، كما حرم كرومول، الارتداد عن الدين قسرا، وحيثما دخل فاتحا ترك الديانة حرة.

وقضى جوستاف بقية عام ١٦٣٠ فى بسط سلطانه على بوامير انيا، وفى البحث عن حلفاء. فاذا تيسر له أن يجمع كل أعداء آل هبسبرج فى حرب صليبية واحدة. لاجتمع له مائة ألف جندى صالحين لملاقاة جيش فلنشتين. وفى ١٣ ديسمبر ١٦٣١ وقعت فرنسا والسويد ميثاقا يحصل الملك بمقتضاه على الرجال، ويدفع الكاردينال (ريشيليو) ٤٠٠ ألف تالر (٤ ملايين دولار؟) سنويا لحملة مدتها خمس سنوات، ولا تعقد أى من الدولتين صلحا دون موافقة الأخرى. والتزم جوستاف بألا يتدخل فى أمر ممارسة العقيدة الكاثوليكية ودعا ريشليو مكسيمليان للانضمام إلى هذا التحالف، ولكن الدوق الناخب بدلا من ذلك أرسل القائد تلى ليعوق تقدم الجيش السويدى. واستولى تللى

على نيوبراند نبرج (١٩ مارس ١٦٣١) وذبح حاميتها المكونة من ٣٠٠٠ رجل . وفى ١٣ أبريل أخذ جوستاف فرانكفورت وذبح حاميتها المكونة من ألفى رجل ، وبينما قضى الملك وقته فى بذل الجهد لضم جون جورج ناخب سكسونيا إلى الحلف ، حاصر تللى وكونت بابنهايم مجدبرج التى كانت لا تزال تقاوم « قرار اعادة أملاك الكنيسة » . وفى ٢٠ مايو وبعد صمود لمدة ستة أشهر ، سقطت المدينة ، وأعمل الجنود المنتصرون فيها السلب والنهب لمدة أربعة أيام . وقتل فى هذه الحرب عشرون ألف رجل ، لا الحامية المكونة من ثلاثة آلاف فقط ، ولكن قتل كذلك ١٧ ألفا من سكان المدينة البالغ عددهم ٣٦ ألفا ، وأحرقت المدينة عن آخرها فيما عدا الكاتدرائية . ووصف هذا المنظر فقال : —

لم يعد هناك شيء الا الضرب والحرق والسلب والنهب والتعذيب والقتل وحرص كل فرد من الأعداء، بصفة خاصة، على الحصول على أكبر قدر من الغنائم . وتحت التهديد بالضرب أو الرمى بالرصاص أو الذبح أو الشنق ، أرهب الاهالى المساكين وفزعوا ، فلو تبقى لديهم شيء لأخرجوه لو كان مخبأ فى ألف حرز مكين . وفى حماة الغضب المسعور ، إجتاحت ألسنة النيران المدينة العظيمة الفخمة التى قامت وسط الأرض كعروس جميلة وعذب وأعدم آلاف الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال . وسط ضجة رهيبة من صيحات وصرخات تمزق الفؤاد ، بطريقة وحشية مخزية ، تقصر أية كلمات عن وصفها . وأية دموع عن ندبها والتوجع لها (٦٩) .

وبذل تللى ، وهو الآن شيخ هرم فى الواحدة والسبعين ، كل ما فى وسعه لوقف المذبحة . وتنبأ بحق بأن الولايات البروتستانتية « دون ريب سوف تشتد كراهيتها » بسبب تخريب واحدة من أجمل مدنهم .

وفى ٢٢ يوليه ١٦٣١ وضع ناخب براندنبرج كل موارده تحت تصرف جوستاف وفى ٣٠ أبريل ألف جون جورج بين سكسونيا والسويد . وفى ١٧ سبتمبر سحقت الجيوش السويدية والسكسونية المجتمعة قوات تللى عند بريتنفليد بالقرب من ليبزج وكان هذا أول نصر بروتستانتى هام فى الحرب، وقد أحيا روح السكان البروتستانت . وأصبح شخص ملك السويد الذى كان يقاتل دون درع فى قلب المعركة يعلوه الغبار ، ويتصبب منه العرق ، يوجه ويقود رجاله غير هياب ولا وجل ، نقول أصبح رمزا يشد من عزم شعب كان منذ عهد قريب بزة عاجز يرهب جيش فالنشتين . واستردت مكلنبرج ، وأعيد الدوق المخلوع إلى عرشه ، ودخلت الولات ، الواحدة تلو الأخرى ، الحلف السويدى وسرعان ما سيطر جوستاف على خط يمتد عبر ألمانيا من الأودر إلى الراين واتخــــذ مقر قيادته فى ماينز فى قلب إقليم كاثوليكى عادة . وفى نوفمبر سار جون جورج بجيشه السكسونى إلى براج دون أن يلقى أية مقاومة ، وكان حريصا على عدم مهاجمة صياع فالنشتين فى طريقة .

والان وقد بقى فرد يناند بلا حليف اللهم الا أسبانيا الفقيرة المعدمة ، وبلا قائد سوى تللى العجوز ، فانه فى تواضع ذليل ولى وجهه شطر فالنشتين (ديسمبر ١٦٣١) وطلب اليه أن يجهز جيشا لانقاذ بوهيميا وحماية النمسا . ووافق القائد المزهو المغرور ، ولكن بشروط غريبة شاذة أن تكون له القيادة العليا على كل القوات الامبراطورية ، وتكون له سلطة التفاوض وتوقيع المعاهدات إلا مع جوستاف ، ويكون له فى البلاد التى يفتحها حق مصادرة الأملاك واصدار العفو وفى أبريل ١٦٣٢ قبلت هذه الشروط جميعها . وجمع فالنشتين جيشا ، كما جمع الأموال اللازمة له ، وعرض على جون جورج صلحا منفردا واستعاد براج دون طلقة واحدة . وانسحب الجش السكسونى إلى سكسونيا .

وفى الوقت نفسه أستأنف جوستاف القتال ، وهزم تللى عند « رين » (١٥ أبريل) . ومات تللى بعد ذلك بأسبوعين متأثرا بجراحه . واحتل

جوستاف ميونيخ ، وسار فالنشتين بجيشه من بوهيميا وأنضم إلى جيش مكسيمليان (وهنا تفوقت هذه القوات على جيش جوستاف عددا ، إلى حد بعيد ، وأوتاب حلفاؤه فى أن له أطماعا أمبراطوية، فانتابهم القلق وأصبحوا لايعتمد عليهم ، كما أن قواته كانت على شفا الموت جوعا ، فأعملت السلب والنهب فى البروتستانت والكاثوليك ونفرتهم منه ، على حد سواء . وأعرب جون جورج ، وقد لعبت الخمر برأسه يوما عن تلهفه على التخلص من ملك السويد وكان جوستاف يأمل فى الاستيلاء على فيينا ، ولكنه كان يخشى إنحياز جون جورج إلى فالنشتين ، فتحول إلى الشمال . وفى نورمبرج ، وهو يدرك تمام الادراك أن الريح غير مواتية له ، أرسل تعليماته الأخيرة إلى أوكسنستيرنا ليتولى شئون الحكومة السويدية والحرب . وفى أرفورت ودع زوجته ، وفى ١٦ نوفمبر ١٦٣٢ ، فى لوتزن بالقرب من ليبزج ، التقى القائدان العملاقان فى ذاك العصر ، وجها لوجه ، وجيش جوستاف ٢٥ ألفا ، وجيش فالنشتين ٤٠ ألفا . واقتتل الجيشان طول اليوم ونزفا ، وأضطربا ثم التأما ، وأضطرفالنشتين إلى التراجع ، ولكن بابنهيم قلب الهزيمة رأسا على عقب،إلى أن أصابته طلقة فى رئته فاختنق بالدم وقضى نحبة . أماجوستاف فانه رأى قلب جيشه يتقهقر ، فقام بنفسه ، على رأس كتيبة من الفرسنان ، وقاد هجمة ضاربة ، ولكن رصاصة أصابت يده اليسرى ، وأخرى أصابت جوداه فسقط عنه ثم نفذت رصاصة إلى ظهره . فتجمع الفرسان الدارعون الامبراطوريون حول وسألوه من يكون ، فأجابهم : أنا ملك السويد الذى قد ضمن عقيدة الأمة الألمانية وحريتها بدمه (٧٠) فانهالوا عليه بسيوفهم مرة ومرة ، ثم أعلنوا بأعلى أصواتهم نبأ موته ، وتولى القياده بعده برنهازد دوق ساكس ويمار . وأحرز السويديون الذين جن جنونهم بفقدمليكهم،أنتصارا باهرا واستخلصوا جثمان جوستاف الذى شوهته الطلقات والطعنات . وفى تلك الليه ابتهج المنهزمون فرحا ، واغتم المنتصرون حزنا ، لأن أسد الشمال قضى نحبه .

٤ ـ انحلال (١٦٣٣-١٩٤٨)

ومن ذلك الحين اختفت عظمة الحرب، وتولى ريشليو زعامة البروتستانت الالمان ونفذ أوكسنستيرنا وصيه سيده المتوفى فى دبلوماسية حكيمة. وقاد برنارد دوق ساكس ويمار الفرنسيين، وبانير وتورستنون السويديين إلى إنتصارات جديدة. ولكن الأمجادوات ولم يبق إلا الذعر والفزع. وتنفس الأمراء البروتستنت الصعداء إلى حدما، بموت جوستاف، وتذمروا من الثمن الباهظ الذى أجبروا على تقاضيه لقاء تخليصهم من فرديناند، وفى هذه العملية اتلفت الأطراف المتنازعة مزارعهم ودمرت مدنهم، وقاد ملك أجنبي الالمان ضد الالمان، وبلغ عدد الضحايا مائة ألف.

ويبدو أن فالنشتين فقد أعصابه مذ ذاق طعم الهزيمة لأول مرة. وبعد لوتزن عاد إلى بوهيميا وجهز فى أناة وروية جيشا آخر، ولكنه أيضا، وقد بلغ الآن الخمسين، سئم الحرب وتمنى بعض الفراغ ليعالج داء النقرس. فتفاوض، مستقلا، مع زعماء البروتستانت، حتى مع ريشليو[٧١] ولابد أن فرديناند يكون قد علم أن المنفيين البوهيميين، بموافقة أكسنستيرنا، كانوا يتآمرون لاجلاس فالنشتين على عرش بوهيميا[٧٢]. وعندما قاد برنارد دوق ساكس ويمار جيشا إلى بافاريا توسل مكسيمليان وفرديناند إلى فالنشتين أن يسرع لنجدتهما. ولكنه أجاب بأنه ليس فى مقدوره أن يعد الرجال لعمل من هذا القبيل. لقد وزع جيشه العاطل على الضياع الامبراطورية فى بوهيميا، وطلب إليه الامبراطور أن يخفف الأعباء المفروضة على هذه الأراضي الامبراطورية فأبى.

وفى ٣١ ديسمبر ١٦٣٣ قرر فرديناند ومجلسه أنه لابد من عزل قائدهم الأعظم، وتناثرت الشائعات فى جيش فالنشتين تقول بأنه يتآمر لينصب نفسه ملكا على بوهيميا ولويس الثامن ملكا على الرومان. وفى ١٨ فبراير وزعت

أوامر امبراطورية على الجيش تحله من قيادة فالنشتين، وبعد ذلك بأربعة أيام، ولى هاربا من بلزن، ومعه ألف رجل . وفى اليوم الخامس والعشرين انقض على غرفته فى إيجر نفر من الجنود الطامعين فى المكافأة، فوجدوه وحيدا أعزل . وأشبعوه طعنا بسيوفهم، ويقول أحد المعاصرين «وفى الحال جروة من قدميه، يصطدم رأسه بكل درجة من درجات السلم[٧٣]»، وأسرع القتلة إلى فيينا حيث نالوا ترقية ومالا وأرضا . أما الامبراطور الذى قضى ليالى وأياما، يستبد به الخوف، يتعبد ويتهجد، فقد حمد الله على معاونته سبحانه .

واستمرت الحرب تجر أذيالها أربعة عشر عاما أخرى . وحل ابن فرديناند وسميه البالغ من العمر ستا وعشرين سنة، محل فالنشتين فى منصب القائد الأعلى للجيوش الامبراطورية . وكان شابا جديرا بأن يحب، متعلما، عطوفا كريما، يحب الفلسفة، ويكتب الموسيقى، ويحفر العاج، ومع ذلك لم يكن جاهلا بفنون الحرب . ودحر بمساعدة القواد القدامى، برنارد فى نوردلنجن، وهى أعظم المعارك الامبراطورية حسما فى الحرب . وكادت القوات البروتستانتية أن تنهار تماما، لولا أن أوكسنستيرنا أنقذ الموقف بعقد معاهدة كومبين (٢٨ أبريل ١٦٣٥) التى هيأت لريشليو إسهاما كاملا فى الصراع . ولكن الأمراء البروتستانت فى ألمانيا لم يستسيغوا مشهد كردينال فرنسى يتحكم فى مصيرهم . وتبعوا، الواحد منهم يتلوا الآخر، جون جورج أمير سكسونيا فى عقد الصلح مع الامبراطور الذى رحب بهم، حيث ألفى نفسه تواجهه الجيوش والأموال الفرنسية معاً . وبمقتضى معاهدة براغ (٣٠ مايو ١٦٣٥) وافق الامبراطور على وقف العمل بقرار إعادة أملاك الكنيسة لمدة أربعين عاما . وفى مقابل ذلك وعد معظم الأمراء البروتستانت بمساعدته وحلفائه على استرداد الأراضى التى فقدوها منذ مجىء جوستاف أدولف . ولما كانت هذه الأراضى تشمل اللورين . فإن المعاهدة فى الواقع كانت موجهة ضد فرنسا . والسويد، وكانت توكيدا جديدا للوحدة الألمانية ضد الغزاة . وتوارت المشكلة الدينية عن ميدان القتال . وفى نهاية عام ١٦٣٥ كان جيش سكسونيا

البروتستانتية يقاتل السويد البروتستانتية فى ألمانيا الشمالية حيث كان بانير وتورستنسون يناضلان ، بعبقرية عسكرية جديرة بجوستاف ، من أجل الاستيلاء على بعض مواقع قارية من أجل أمن السويد .

وفى الغرب وقف برنارد بشجاعة فى وجه القوات الامبراطورية المتزايدة وفى ١٦٢٨ أمدته فرنسا بالأموال ، وأفضل منها بألفى جندى بقيادة تورن الذى صعد نجمه آنذاك كقائد . وشن برنارد ، بعد أن وصلته الامدادات على هذا النحو ، حملة جديرة بأن تسجلها حوليات الحرب ، من أجل التشبث بالهدف ودقة الاستراتيجية ، وهزم الامبراطوريين فى وينتوير . وأجبر قلعة بريساخ العظيمة على الاستسلام ، وأنهكت قواه وهو فى الرابعة والثلاثين فقضى نحبه (١٦٣٩) وذهب جيشه وفتوحاته ، بما فيها اللورين ، إلى فرنسا .

وفارق الامبراطور العجوز الحياة ، وخلا منه المسرح ١٦٣٧ . وورث فرديناند الثالث إمبراطورية تعانى فقرا وحرمانا لا سبيل للخروج منهما ، يكاد أن يكون من المستحيل معهما الإنفاق على جيوش تقف فى وجه ريشليو الذى ما زال قادرا على ابتزاز الفرنكات من فرنسا المعدمة . وفى ١٦٤٢ وصل تورستنسون بجيش السويد إلى مسافة ٢٥ ميلا من فيينا ، وأحرز نصرا مبينا فى معركة برتينفيلد الثانية ، حيث فقد الإمبراطوريون نحو ١٠ آلاف رجل ، مما حدا بالأرشيدوق المنهزم ليوبولد وليم ، أخى الإمبراطور الشاب إلى محاكمة ضباطه أمام مجلس عسكرى ، بتهمة الجبن والخور . وقطع رؤوس ذوى الرتب الكبيرة ، وشنق من هم أقل منهم رتبة ، وأطلق الرصاص على عشر الباقين على قيد الحياة من سائر الرتب[٧٤] .

وبدا الآن أن كل عام يأتى بضربات جديدة تنصب على رأس الامبراطور الجديد . ففى ١٦٤٣ تحطمت أسبانيا بانتصار دوق انجين فى ركروا . وفى ١٦٤٤ غزا انجين وتورن أراضى الراين حتى شمال ماينز ، وفى ١٦٤٥ تقدم تورستنسون حتى صار على أبواب فيينا تقريبا ، وانتصر الفرنسيون فى معركة دامية عند الليرهيم ، واجتاح جيش سويدى بقيادة كونت هانس كريستوف

فان كونجز مارك سكسونيا واستولى على ليبزج ، وأرغم جون جورج على الخروج من الحرب . وكان الجيش البافارى قد طرد من البالاتينات فى ١٦٣٤ أما الآن ، فى ١٦٤٦ فقد غزا تورن بافاريا نفسها وخربها ، وتوسل مكسيمليان الذى كان قد ركبه الغرور يوما ، إلى عقد الصلح ، والتمس من الامبراطور أن يفاوض فرنسا من أجل الصلح . ولم يكن فرديناند الثالث صلبا لا ينثنى ، مثل أبيه ، وكانت تصل إلى مسامعه صرخات الإمبراطورية المنهوكة ، فأرسل أقدر مفاوضيه إلى وستفاليا ، سـعيا وراء شىء من التوفيق بين العقائد وبين الأسرات .

كان الإمبراطور الشاب أصغر من أن يدرك أن المذبحة والخراب ربما كانا أفظع ما اقترفته أيدى البشر فى جيل واحد فى أى بلد من قبل . فلم يكن هناك جيشان ، بل ستة جيوش ـ الألمانى و الدنمركى والسويدى واليوهيمى والأسبانى والفرنسى معظمها من الجيوش المرتزقة أو الأجانب الذين لا تربطهم أية صلة بالشعب أو التراب أو التاريخ الألمانى، يقودهم عسكريون مغامرون يقاتلون من أجل أية ملة نظير أجر ، وهى جيوش تعيش على استسلاب الحبوب والفاكهة والماشية من الحقول ، تقيم أو تأوى فى الشتاء إلى مساكن الشعب ، جزاؤها هو حقها فى السلب والنهب ، وابتهاجها بالقتل والغصب . وكان مبدأ مقبولا مسلما به لدى كل الأطراف المتحاربة ، أن تذبح أية حامية كانت قد رفضت الاستسلام بعد أن أصبح الاستسلام أمرا لا مناص منه ، وأحس الجنود أن المدنيين فرائس أو ضحايا مشروعة ، فأطلقوا الرصاص على أقدامهم فى الشوارع ، وجندوهم لخدمتهم . وخطفوا أطفالهم من أجل الحصول على الفدية وأشعلوا النار فى مخازن التبن وأحرقوا الكنائس لمجرد التسلية واللهو . لقد قطعوا أيدى وأرجل قسيس بروتستانتى لأنه قاوم تحطيم كنيسته ، وربطوا القساوسة تحت العربات ، وأجبروهم على الزحف على أيديهم وأرجلهم حتى خارت قواهم من الإعياء[٧٥] ، وكان حق الجندى فى اغتصاب النساء أمراً مسلما به ، فإذا طالب والد أن يحاكم جندى اغتصب ابنته وقتلها ، أبلغه الضابط

المختص بأنه لولم تكن ابنته ضنينة بعذريتها إلى هذا الحد لبقيت على قيد الحياة(٧٦) .

وعلى الرغم من الاختلاط المتزايد تناقص عدد سكان ألمانيا بسرعة أثناء الحرب ، وكان التناقص مبالغاً فيه وكان مؤقتاً ، ولكنه كان فاجعاً . وتقول التقديرات المعتدلة بأن عدد سكان ألمانيا والنمسا هبط من ٢١ إلى ١٥ مليونا(٧٧). وقدر الكونت فون لوزو أن عدد سكان بوهيميا هبط من ثلاثة ملايين إلى ٨٠٠ ألف (٧٨) . وبين ٣٥ ألف قرية فى بوهيميا ١٦١٨ ، هناك نحو ٢٩ ألف قرية هجرها أهلوها أثناء الصراع(٧٩) . وهناك فى مختلف أنحاء الامبراطورية مئات من القرى لم يبق فيها ساكن واحد،وقد يقطع المرء فى بعض الأقاليم ستين ميلا دون أن يرى قرية أو بيتاً(٨٠) ، وكان فى ١٩ قرية فى ثورنجيا فى ١٦١٨ نحو ١٧١٧ بيتا ، لم يتبق منها فى ١٦٤٩ سوى ٦٢٧ بيتا ، لم يكن كثير منها آهلا بالسكان(٨١) .

وتركت آلاف الأفدنة الخصيبة دون فلح أو زرع بسبب نقص الرجال أو الدواب أو البذور ، أو لأن الفلاحين لم يكونوا على ثقة من أنهم سوف يحصدون نتاج مازرعون . واستخدمت المحصولات لإطعام الجيوش ، وكان ما تبقى يحرق لئـــلا يستفيد منه الأعداء . وأضطر الفلاحون فى كثير من الأماكن إلى أكل الفضلات المخبأة ، أو الكلاب أو القطط أو الفيران ، أو جوز البلوط أو الحشائش ،وقد وجد بعض الموتى وفى أفواههم بعض الحشائش وتنافس الرجال والنساء مع الغربان والكلاب على لحم الخيول الميتة . وفى الالزاس انتزع المعتدون المشنوقين من المشنقة ، تلهفا على التهام جثثهم . وفى أراضى الراين كانت القبور تنبش وتباع الجثث لتؤكل . واعترفت امرأة فى زويبروكن بأنها أكلت طفلها (٨٢) . وتعطلت وسائل النقل إلى حد تعذر معه نقل الفائض فى جهة إلى جهة أخرى بعيدة محرومة . وتهدمت الطرق بسبب المعارك ، أوبات من الخطر إرتيادها بسبب قطـــاع الطرق ، أو ازدحمت بالمهاجرين واللاجئين .

وعانت المدن الصغيرة أقل مما عانت القرى . وهبط عدد سكان كثير منها إلى نصف ما كان عليه من قبل . وأصبحت المدن الكبرى أطلالا خربة — مجدبرج ، هيدلبرج نورمبرج ، نيو ستاد ، بايريت . وتدهورت الصناعة لعدم وجود المنتجين والمشترين والحرفيين ، وكسدت التجارة . وصار التجار الذين كانوا يوما أثرياء يتسولون أو يسرقون ويسلبون من أجل لقمة العيش . وامتنعت الكوميونات عن دفع ديونها بعد أن أعلنت أفلاسها . وأحجم المموِّلون عن الإقراض خشية أن تتحول القروض إلى هبات أو منح . وأفقرت الضرائب كل الناس ، اللهم إلا القواد والجباة والقساوسة والملوك ، وبات الهواء ساما بسبب الفضلات والنفايات والجثث المتعفنة في الشوارع . وانتشرت أوبئة التيفوس والتيفود والدوسنطاريا والاسقربوط بين السكان المذعورين ، ومن بلدة إلى أخرى . ومرت القوات الأسبانية بمدينة ميونيخ فتركت وراءها طاعونا أودى بحياة عشرة آلاف ضحية في أربعة شهور[٨٣] . وذوت وذبلت في أتون الحرب الفنون والآداب التي كانت تضفي على المدن شرفا ومجداً .

وانهارت الأخلاق والروح المعنوية على حد سواء ، فإن اليأس المقرون بالإيمان بالقضاء والقدر دعا إلى الوحشية المقترنة بالسخرية . واختفت كل المثل الدينية والوطنية بعد جيل ساده العنف ، وكان البسطاء من الناس يكافحون الآن من أجل الطعام أو الشراب ، أو يقاتلون بسبب الكراهية . على حين عبأ سادتهم عواطفهم في التنافس على اقتناء الأراضي التي يمكن أن يجمعوا منها الضرائب ، وعلى السلطة السياسية . وهنـــا وهناك ظهرت بعض النواحي الإنسانية ، فكان الجزويت يجمعون الصدقات ليطعموا الأطفال الذين لا عائل لهم ، كما كان الوعاظ يطلبون إلى الحكومات وضع حد لسفك الدماء والدمار . وكتب أحد الفلاحين في مذكراته اليومية « اللهم أنا نتوسل إليك أن تضع نهاية لما نلاقي ، اللهم أما نتوسل إليك أن تعيد لنا السلام . يا إله السموات أنزل علينا السلام[٨٤] » .

٧ — صلح وستفاليا

كان الحكام ورجالهم الديلوماسيون منـــذ ١٦٣٥ يجسون النبض ويتحسسون الرأى من أجل السلام . وفى تلك السنة اقترح البابا أربان الثامن عقد مؤتمر لبحث شروط المصالحة ، واجتمع المندوبون للتفاوض فى كولون. ولـكنهم لم يصلوا إلى نتيجة . وفى همبرج فى ١٦٤١ صاغ ممثلو فرنسا والسويد والامبراطورية اتفاقية مبدئية لينعقد مؤتمر مزدوج فى وستفاليا فى ١٦٤٢ ، ففى مونستر تلتقى فرنسا مع الامبراطورية لمعالجة مشاكلهما فى ظل وساطة البابا والبندقية، وفى أوسنابروك، على بعد ثلاثين ميلا، تلتقى فرنسا والامبراطورية مع السويد لإجراء المفاوضات فى ظل وساطة كريستيان الرابع ملك الدنمرك . وكان هـذا الفصل « المطهر » ضروريا بسبب عدم رغبة المندوبين السويديين فى الاجتماع تحت رياسة ممثل البابا ، ورفض ممثل البابا أن يجلس فى صعيد واحد مع « الزنادقة » .

وجاء التأخير نتيجة إجراءات الأمن وقواعد البروتوكول . واستحث انتصار تورستنسون فى بريتنفيلد الامبراطور إلى الوعد بأن مندوبيه سيصلون فى ١١ يولية ١٦٤٣ ، وتلـكأ المندوبون الفرنسيون بينما كانت فرنسا تدبر التحالف مع المقاطعات المتحدة (فى الأراضى الوطيئة) ضد أسبانيا . وافتتح مؤتمر وستفاليا شكلا فى ٤ ديسمبر ١٦٤٤ ، وضم ١٣٥ عضوا بما فيهم رجال اللاهوت والفلاسفة . وانقضت منذ ذاك اليوم ستة شهور فى تحديد نظام الأسبقية فى دخول المندوبين إلى القاعات وجلوسهم وما كان السفير الفرنسى ليدخل فى المفاوضات إلا إذا خوطب بلقب « صاحب الفخامة » . وعندما وصل السفير الأسبانى تجنب السفير الفرنسى ونأى بنفسه عنه ، لأن أيا منهما لا يعترف للآخر بالأسبقية ، واتصل كل منهما بالآخر عن طريق شخص ثالث . ورفضت فرنســـا الاعتراف لفيليب الرابع بلقب ملك البرتغال وأمير قطالونيا . كما رفضت أسبانيا الاعتراف بلقب ملك نافار للويس الرابع

عشر . وتنازع المندوبون السويديون فيما بينهم وأضاعوا الوقت حتى صدرت إليهم أوامر الملكة الشابة الجريئة كريستينا بأن يصلحوا فيما بينهم. ثم يعقدوا مع العدو . وفى الوقت نفسه كان الرجال يذهبون إلى الحرب ليلقوا حتفهم .

وعلى قدر ما كانت جيوش كل فريق منتصرة أو مقهورة ، تلكأ المندوبون فى المفاوضات أو عجلوا بها ، وشغل المحامون أيما شغل بخلق الصعوبات أو إبتداع الحلول الوسط ووسائل التوفيق، يحلون العقد أو يزيدونها تعقيدا . وكان قواد فرنسا يسيرون بخطى واسعة ، ومن ثم فإنها أصرت على تمثيل كل أمراء ألمانيا فى المؤتمر ، على الرغم من أن معظمهم كان قد عقد الصلح مع الامبراطور منذ أمد طويل . وطاب إلى الزمن أن يتوقف حتى يرسل كل الناخبين والأمراء والمدن الامبراطورية ممثليهم ، ورغبة فى إضعاف مركز فرنسا ، عمدت أسبانيا (٨ يناير ١٦٤٨) إلى توقيع صلح منفرد مع المقاطعات المتحدة - التى كانت لتوها قد وعدت فرنسا بعدم توقيع صلح منفرد ، ولكن الهولنديين لم يكونوا ليضيعوا الفرصـــة التى لاحت لهم ليكسبوا بجرة قلم ما قاتلوا من أجله طيلة ثمانين عاما . فكان جواب فرنسا على هذا أنها رفضت عقد الصلح مع أسبانيا ، واستمرت الحرب بينهما حتى صلح البرينز فى ١٦٥٩ .

وكان يمكن أن ينفض المؤتمر دون نتيجة ، لولا اجتياح تورن لبافاريا ، وهجوم السويد على براغ (يولية ١٦٤٨) وهزيمة الأسبان فى انز (٢ أغسطس) فإن هذه الأحداث كلها أقنعت الامبراطور بالتوقيع ، على حين أن ثورة الفروند فى فرنسا (يولية) أكرهت مزران على تقديم بعض التنازلات التى تطلق يده للحرب فى الداخل . وعلى هذا ، وقعت آخر الأمر معاهدة وستفاليا فى مونستر وأوزنابروك معا فى ٢٤ أكتوبر ١٦٤٨ - واستمر سفك الدماء تسعة أيام أخر ، حتى وصلت الأنباء إلى جبهات القتال ، وتعالت صيحات « الشكر لله » خاشعة مبتهجة ، من ألف قرية ومدينة .

ولا بد من التسليم بأن المفاوضات واجهت من مشكلات التوفيق ما هو أكثر تعقيداً من أية مشكلات واجهها مؤتمر صلح قبل القرن العشرين ، وأنها عملت على تسوية المطالب المتعارضة بحكمة ، قدر ماسمحت الكراهية والغرور والكبرياء والقوة والسلطة بين المجتمعين . ولا بد من تلخيص بنود هذه المعاهدة التي أعادت تشكيل أوربا من جديد ، لأنها أوجزت وأخرجت قدرا كبيرا من التاريخ .

١ — حصلت سويسرا والمقاطعات المتحدة على اعتراف رسمي باستقلالهما .

٢ — حصلت بافاريا على البالاتينات العليا (الجنوبية) ، مع صوتها الانتخابي .

٣ — أعيدت البالاتينات الدنيا (الشمالية) ، بوصفها موطنا انتخابيا ثامنا ، إلى شارل لويس بن فردريك المتوفى .

٤ — حصلت براندنبرج على بوميرانيا الشرقية وأسقفيات مندن وهالبرستاد وكامين ، ووراثة أسقفية مجدبرج . وعاونت فرنسا أسرة هوهنزلرن الناشئة في الحصول على هذه الثمار اليانعة ، بفكرة إقامة قوة أخرى ضد آل هبسبرج ، وما كان منتظرا من فرنسا أن تتنبأ بأن براندنبرج ستصبح بروسيا التي سوف تتحداها على عهد فردريك الأكبر ، ثم توقع بها الهزيمة على يد بسمارك .

٥ — ونالت السويد ، بفضل انتصارات جيوشها أساسا ، وبفضل مساندة فرنسا لها في المؤتمر ، بشكل جزئي ، أسقفيتي بريمن وفردن ، ومدينتي ويزمار واستتن ، ومنطقة مصب نهر الأودر ، ولما كانت هذه كلها اقطاعيات امبراطورية ، فقد حصلت السويد على مقعد في الديت الامبراطوري ، ولما استولت بالفعل على ليفونيا وأستونيا وأنجريا وكاريليا وفنلنده فقد أصبحت الآن في عداد الدول العظمى ، وسيدة البلطيق حتى جاء بطرس الأكبر .

٦ — واحتفظت الإمارات الألمانية بما كان لها قبل الحرب من «حريات» في مواجهة الأباطرة .

٧ — وكان على الامبراطور أن يقنع بالاعتراف بحقوقه الملكية في بوهيميا والمجر . ومن ثم اتخذت امبراطورية النمسا والمجر شكلها على أنها حقيقةواقعه فيهيكل الامبراطوريةالرومانية المقدسة . لقد أنهارت اقتصاديات الامبراطورية المعمرة ، من جهة بسبب نقص السكان وتدهور الصناعة والتجارة أثناء الحرب ، ومن جهة أخرى بسبب مرور المنافذ النهرية الكبيرة إلى دول أجنبية من منافذ الأودر والألب إلى السويد ، والراين إلى المقاطعات المتحدة .

٨ — وكان أكبر الغنم لفرنسا التي مولت ثرواتها السويديين المنتصرين ، وفرض قوادها الصلح فرضا . فسلمت إليها الألزاس فعلا ، مع أسقفيات متزوفردون وتول وحصن بريزاك على الجانب الألماني من الراين . وسمح الآن للويس الرابع عشر بالاستيلاء على فرانشن كونتية واللورين ، وفق هواه وتحقيق هدف ريشليو — الذي كان الآن قد فارق الحياة — كسر شوكة آل هبسبرج ومد حدود فرنسا ، وتمكين وحدة فرنسا ودفاعها ، والإبقاء على فوضى الإمارات في الامبراطورية ، وعلى الصراع بين الأمراء والامبراطور ، وعلى النزاع بين الشمال البروتستانتي والجنوب الكاثوليكي ، مما يحمي فرنسا من خطر ألمانيا موحدة . وحلت فرنسا محل أسبانيا - أو احتلت أسرة البوربون مكان آل هبسبرج بوصفها قوة عظمى مسيطرة على أوربا ، وسرعان ما علا لويس الرابع عشر إلى منزلة الشمس .

أما الضحية الخفية للحرب فهي المسيحية ، لقد كان على الكنيسة الكاثوليكية أن تتخلى عن قرار إعادة أملاك الكنيسة ، وأن تعود سيرتها الأولى إلى الوضع الذي كانت عليه ممتلكاتها في ١٦٢٤ ، وترى الأمراء مرة أخرى يقررون عقيدة رعاياهم . ومهما يكن من أمر ، فإن هذا مكن الكنيسة من إخراج

البروتستانتية من بوهيميا موطن إصلاح هس . لقد قضى على الإصلاح المضاد ، ومثال ذلك أنه لم يكن محل نزاع أن تقيم بولندة المذهب الكاثوليكي فى السويد البروتستانتية ، بضعف ما كان عليه من قوة من قبل . ورفض ممثل البابا فى مونستر أن يوقع المعاهدة . وفى ٢٠ نوفمبر ١٩٤٨ أعلن البابا انوسنت العاشر « أنها غير ذات قوة شرعية ملزمة ، ملعونة بغيضه ، ليس لها أى أثر أو نتيجة على الماضى أو الحاضر أو المستقبل »[٨٥] . وتجاهلت أوربا هذا الاحتجاج . ومنذ تلك اللحظة لم تعد البابوية قوة سياسية عظمى ، وانحط شأن الدين فى أوربا .

وكذلك احتج بعض البروتستانت ، وخاصة أولئك الذين فقدوا مساكنهم فى بوهيميا والنمسا . ولكن المعاهدة فى جملتها ـ وهى ثمرة جهود كاردينال توفى وآخر حى ـ كانت نصرا للبروتستانتية التى أنقذت فى ألمانيا . لقد ضعفت فى الجنوب وفى الراين ، ولكنها فى الشمال قويت عن ذى قبل ، واعترفت المعاهدة رسميا بكنيسة الاصلاح أو الكنيسة الكلفنية . وبقيت خطوط التقسيم الدينى التى أقرت فى ١٦٤٨ ، دون تغيير جوهرى حتى القرن العشرين ، حين بدأ التغاير فى معدلات المواليد أو نسب تزايد السكان ، يوسع من رقعة الكثلكة بطريقة تدريجية سليمة .

ولكن على الرغم من إن الإصلاح الدينى قد أنقذ ، فإنه عانى ، مع الكاثوليكية ، من التشكك الذى شجعته بذاءة الجدل الدينى ، ووحشية الحرب ، وقساوة العقيدة . وأعدم أثناء المعمعة آلاف من الساحرات . وبدأ الناس يرتابون فى المذاهب التى تبشر بالمسيح وتقترف قتل الأخوة بالجملة . وكشفوا عن الدوافع السياسية والاقتصادية التى تسترت تحت الصيغ الدينية ، وارتابو فى أن حكامهم يتمسكون بعقيدة حقة ، بل أنها شهوة السلطة هى التى تتحكم فيهم ـ ولو أن فرديناند الثانى غامر بسلطانه المرة بعد المرة ، من أجل عقيدته . وحتى فى أظلم العصور الحديثة هذه ، ولى كثير من الناس وجوههم

شطر العلم والفلسفة للظفر باجابات أقل اصطباغا بلون الدم من تلك التى سمحت العقائد أن تفرضها فى عنف بالغ . وكان جاليليو يفرغ فى قالب مسرحى ثورة كوبرنيكس . وكان ديكارت يثير الجدل حول كل التقاليد وكل السلطة . وكان برونو يشكو إلى أوربا آلامه المبرحة وهو يساق إلى الموت حرقا . لقد أنهى صلح وستفاليا سيطرة اللاهوت على العقل فى أوربا ، وترك الطريق إلى محاولات العقل واجتهاداته ، غير معبد ، ولكن يمكن المرور فيه .

الكتاب الثالث

اجتهادات العقل

١٥٥٨ — ١٦٤٨

الفصل الثانى والعشرون

العلم فى عصر جاليليو

١٥٥٨ — ١٦٤٨

١ — الخرافة *

قد تولد الديانات ، وقد تفنى ، ولكن الخرافة باقية أبد الدهر . وسعداء الحظ هم الذين يحتملون العيش بدون أساطير ، والكثير منا يعانى فى جسمه وفى أعماق نفسه . وأفضل عقار مسكن فى « الطبيعة » جرعة مما هو فوق الطبيعة . وحتى كبلر ونيوتن مزجا علمها بالأساطير . وآمن كبلر بالسحر . وكتب نيوتن فى العلم أقل مما كتب عن « سفر الرؤيا » .

وكانت الخرافات الشعبية أكثر مما يحصيه العد . فآذاننا تلتهب عندما يتحدث عنا الآخرون . ولا تكون الزيجات التى تتم فى شهر مايو سعيدة . وتشفى الجراح إذا مسح السلاح الذى أحدثها بالزيت المقدس . وتستأنف الجثة نزف الدم فى حضور القاتل . وإن الجنيات والجن الصغير المؤذى والغيلان والأرواح الشريرة والشياطين لتحوم فى كل مكان . وثمة طلاسم معينة (مثل تلك التى وجدت عند كاترين دى مديتشى بعد وفاتها) تضمن الحظ السعيد ، وتمائم وتعاويذ تقى من التجاعيد ومن العنة ومن شر الحاسد ومن الطاعون . ويمكن أن تبرىء لمسة من الملك المصاب بسل الغدد اللمفاوية فى العنق . وللأرقام والمعادن والنباتات والحيوانات خصائص وقوى سحرية .

(*) يمكن الرجوع إلى الفصل السابع (الجزء ٢٨) الذى يعالج الخرافة والعلم والفلسفة فى انجلترا فى تلك الحقبة .

وكل حادث علامة على رضا الله أو غضبه ، أو من عمل الشيطان . ويمكن التنبؤ بالأحداث من شكل الرأس أو خطوط الكف . وتختلف الصحة والقوة والقدرة الجنسية باختلاف منازل القمر ، أهو بدر أم فى المحاق . وقد يسبب ضوء القمر الجنون أو يشفى الثؤلول . وتنذر المذنبات بالكوارث . إن العالم (فى الكثير الغالب) يسير إلى نهايته[١] .

وكان التنجيم لا يزال سائداً . على الرغم من تزايد استنكاره ونبذه لدى من يعرفون القراءة والكتابة . وفى ١٥٧٢ انقطع تدريسه فى جامعة بولونيا . وفى ١٥٨٢ استنكرته وشجبته محاكم التفتيش الأسبانية . وفى ١٥٨٦ حذر البابا سكستس الخامس الكاثوليك منه . ولكنه ظل بين الأبقاء والإلغاء فى جامعة سالامنكا حتى ١٧٧٠ . وكانت الغالبية العظمى من الناس ، وكثير من أفراد الطبقات العليا ، يستنبئون البروج عن المستقبل من مواقع النجوم ، وكانوا يكشفون عن « طالع » أى طفل مهما كان شأنه بمجرد ولادته ، وقد اختبأ أحد المنجمين بالقرب من مخدع آن النمسوية عند ولادة لويس الرابع عشر[٢] . وعندما ولد جوستاف أدولف طلب أبوه شارل التاسع إلى تيكو براهى أن يكشف عن طالعه ، فتنبأ المنجم فى حرص وحذر بأنه سوف يصبح ملكاً . وكان كبلر ينظر إلى التنجيم بعين الريبة والشك ، ولكنه كان يداهن فيقول : « كما أن الطبيعة هيأت لكل حيوان من الوسائل ما يحصل به على العيش ، فقد هيأت التنجيم للمنجم لتمكينه من العيش » . وفى ١٦٠٩ أجزل فالنشتين العطاء لمن أتاه بطالع سعيد ، وكان دائماً يصطحب معه فى رحلاته وجولاته منجماً[٤] ، وربما قصد بذلك تشجيع قواته . وكم من مرة استشارت كاترين دى مديتشى وحاشيتها المنجمين[٥] . وحظى جون دى بشهرة فائقة فى التنجيم ، حتى اكتشف أن النجوم تأمره أن يتبادل الزوجات مع أحد تلاميذه[٦] .

وكان التصديق بأفانين السحر آخذاً فى التقلص ، باستثناء واحد مخز حقير

ذلك أن تلك الفترة كانت ذروة التخلص من السحرة بالقتل المشروع بحكم القضاء. إن المعذبين ومن ينزلون بهم العذاب، على حد سواء، صدقوا بإمكان الحصول على معونة القوى الخارقة للطبيعة بالرقى والتعاويذ أو بوسائل مشابهة، وإذا كان من المستطاع الحصول على شفاعة قديس بالصلوات، فلم لا نلتمس معونة الشيطان بملاطفته والتودد إليه. وثمة كتاب صدر في هيدلبرج ١٥٨٥ تحت عنوان «بعض الأفكار المسيحية حول السحر»، جاء فيه كحقيقة ثابتة مقررة: «أن كل مكان في العالم بأسره، في الداخل والخارج، في البر والبحر، يعج بالعفاريت والأرواح الشريرة غير المرئية[٧]». وساد الاعتقاد بأن كل الكائنات البشرية يمكن أن «تلبسها» الشياطين وتحل فيها. وفي ١٥٩٣ «ساد الذعر الرهيب فريدبرج المدينة الصغيرة حيث قيل أن الشيطان قد حل بأجسام أكثر من ستين شخصا، وعذبهم عذابا أليما... بل أن القسيس نفسه استحوذ عليه الشيطان وهو يلقى عظته[٨]». وتصور قصة: «قطيع الخنازير (انجيل متى ٨ : ٢٧ - ٣٤)» كيف أن المسيح أخرج الشياطين من أجسام الذين حلوا بهم، ألم يمنح أتباعه القدرة على أخراجهم بأسمه (انجيل مرقس ١٦ : ١٧). وكان الناس يلجأون إلى القساوسة لعمل تعاويذ مختلفة — لإزالة النباتات والحشرات الضارة من حقولهم، أو لتهدئة الأعاصير في البحر، أو تطهير المباني من الأرواح الشريرة، أو تطهير كنيسة أصابها بعض الدنس.... وفي ١٦٠٤ أصدر البابا بول الخامس منشوراً بمثل هذه الخدمات الكهنوتية. واستنكر الكتاب البروتستانت مثل هذه الرقى والتعاويذ المقدسة على أنها ضروب من السحر. ولكن كنيسة إنجلترا اعترفت بقيمة التعاويذ على أنها طقوس شافية معافية[٩]. وهنا، كما هو الحال في كثير من الطقوس، كان الأثر النفسي عليها طيبا.

وكما أخذ الناس بزمام المبادرة في طلب التعاويذ، فإنهم كانوا كذلك أول من طالب بمحاكمة السحرة، فقد ساد الذعر من قوتهم ومقدرتهم. وجاء في

أحدى النشرات ١٥٦٣ ، أن الدخول فى علاقات مع الشيطان ، فيكون فى متناول يدك فى الخواتم أو البللورات ، فتستحضره أو تحالفه ، وتقوم معه بمثات من أفانين السحر ، أكثر الآن شيوعا عن ذى قبل ، بين الطبقات العليا والدنيا . وبين المتعلمين وغير المتعلمين » . وانتشرت «كتب الشياطين ، التى توضح كيفية الاتصال بالنافع منهم ومن معرضين اثنين فى ١٥٦٨ اشترى أحد الأفراد ١٢٢٠ كتابا من هذه الكتب[١٠] . وفى بعض الحالات نصح ضباط محاكم التفتيش قساوسة الأبرشيات ، أن يظهروا الناس على أضاليل السحرة وخرافاتهم ، وأشاروا بعدم التصديق «بسبب السحرة» ، وأوصوا بعزل قسيس كان يصغى فى سذاجة إلى اتهامات السحرة[١١] . وطالب البابا جريجورى الخامس عشر فى ١٦٢٣ بعقوبة الإعدام لنفر من الناس تسببت شعوذتهم فى الموت ، ولكن البابا أربان الثامن فى ١٦٢٧ أدان المحققين الكاثوليك ، لأنهم حاكموا المشعوذين محاكمة ظالمة تعسفية ... وانتزعوا من المتهمين إعترافات لا قيمة لها . . . وعاقبوهم دون بينة كافية[١٢] ، وأصدر الإمبراطور مكسيمليان الثانى (١٥٦٨) قراراً بإختبار صحة اعترافاتهم بتحديهم بأن يأتوا بأعمالهم السحرية علنا ، وأن يكون النفى أقصى عقوبة يحكم بها عليهم بعد إدانتهم ثلاث مرات . ولكن الأهالى المذعورين طالبوا بالصرامة فى الإختبارات وبالتعجيل بتنفيذ الأحكام .

أن السلطات المدنية والدينية التى كانت تشارك الناس خوفهم من السحر ، أو ترغب فى التخفيف من حدته ، عمدت إلى أقسى الإجراءات فى محاكمة المتهمين وعذبتهم لتنتزع منهم الإعترافات . وكان لمجلس مدينة نوردلنجن مجموعة خاصة من آلات التعذيب ، كان يعيرها للبلاد المجاورة مع التوكيد بأنه « بفضل هذه الآلات ، وبوجه أخص آلة الضغط على الإبهام ، يمن علينا الله بكرمه بإظهار الحق، أن لم يكن لأول وهلة ، ففى آخر الأمر على أية حال[١٣] أما التعذيب بإبقاء المتهم يقظا لا يذوق طعم النوم ، فكان وسيلة معتدلة

خفيفة . وكان التعذيب عادة هو طريق الوصول إلى الإقرار المرغوب فيه . وكانت الإعترافات غير الموثوقة التى لا يعتد بها . هى التى تحير القضاة أحيانا .

وكان الإضطهاد فى أسبانيا أقل قساوة . ففى مقاطعة لجرونو وجهت محكمة التفتيش الإتهام إلى ٥٣ شخصا من المشتغلين بالسحر ، وأعدمت منهم ١١ شخصا (١٦١٠) ورفضت الإتهامات الأخرى عادة لأنها وهمية أو إنتقامية . وكان الحكم بإعدام السحرة نادرا . وفى ١٦١٤ أصدرت رياسة محكمة التفتيش إلى ضباطها تعليمات بأن ينظروا إلى إعترافات السحرة على أنها تضليلات جنونية أو عصبية ، وأن يستعملوا الرأفة فى العقوبة[١٤] .

واجتاحت جنوب شرقى فرنسا فى ١٦٠٩ موجة عاتية من الذعر من السحرة ، وأعتقد مئات من الناس أن الشياطين حلت فيهم . وظن بعضهم أنهم تحولوا إلى كلاب وأخذوا فى النباح وعينت لجنة من برلمان بوردو لمحاكمة المشتبه فيهم وأبتدعت طريقة لإكتشاف المواضيع التى دخل منها الشياطين إلى جسم المتهم ، ذلك بعصب عينيه وغرز الأبر فى لحمه ، وأى مكان لا يحس فيه بوخز الأبر ، كان هو المكان الذى دخل منه الشيطان . وطمعا فى العفو عنهم اتهم المشتبه فيهم بعضهم بعضا . فحوكم منهم ثمانية وهرب خمسة ، وأحرق ثلاثة . وأقسم جمهور النظارة فيما بعد أنهم شاهدوا العفاريت على هيئة ضفادع تخرج من رؤوس الضحايا[١٥] . وفى اللورين أحرق ٨٠٠ شخص بتهمة السحر على مدى ١٦ عاما . وأحرق فى ستراسبورج ١٣٤ شخصا فى أربعة أيام (أكتوبر ١٥٨٢)[١٦] . وفى لوسرن الكاثوليكية ، أعدم ٦٢ شخصا فيما بين ١٥٦٢ — ١٥٧٢ . وفى برن البروتستانتية أعدم ٣٠٠ فى السنوات العشر الأخيرة من القرن السادس عشر ، و ٢٤٠ فى العقد الأول من القرن السابع عشر[١٧] .

وفى ألمانيا تسابق الكاثوليك والبروتستانت فى إعدام السحرة حرقا . وثمة رواية يمكن الاعتماد عليها , ولو أنها لا تكاد تصدق، بأن رئيس أساقفة ترير أمر بإحراق ١٢٠ شخصا فى فالزفى ١٥٩٦ بتهمة أنهم أطالوا فترة الجو البارد أكثر من المألوف بطريقة شيطانية[١٨]. ونسب طاعون الماشية فى إقليم سكونو فى ١٥٩٨ إلى السحرة . وحث مجلس بافاريا المخصوص فى ميونيخ المحققين « على إظهار مزيد من الجدية والصرامة فى الإجراءات » ، فكانت النتيجة إحراق ٦٣ ساحراً ، كما طلب من أقارب الضحايا دفع نفقات المحاكمة[١٩] . . وفى هاينبرج بالنمسا أعدم ثمانون بتهمة الشعوذة فى عامى ١٧ — ١٦١٨ وقيل أنه فى ١٦٢٧ — ١٦٢٩ أعدم أسقف وورنبرج ٩٠٠ من السحرة[٢٠] . وفى ١٥٨٢ أصدر الناشرون البروتستانت من جديد ، وبموافقة منهم «مطرقة السحرة» التى كان المحقق الدومنكانى جاكوب سبرنجر قد نشرها فى ١٤٨٧ ، وهى عبارة عن توجيهات وإرشادات تفيد فى الكشف عن السحرة وفى محاكمتهم . وأصدر أوغسطس ناخب سكسونيا فى ١٥٧٢ قراراً بإحراق السحرة حتى الموت حتى ولو لم يؤذوا أحداً . وفى اللنجن أحرق ١٥٠٠ من السحرة فى ١٥٩٠ ، وفى اللوانجن ١٦٧ فى ١٦١٢ ، وفى وسترستتن ٣٠٠ فى عامين[٢١] . وكانت ثمة موجات مماثلة فى أوسنابروك ١٥٨٨ ، ونوردلنجن ١٥٩٠ ، وفى ورتمبرج ١٦١٦ . على أن هذه الإحصاءات الأخيرة مأخوذة عن نشرات صحفية معاصرة معروفة بعدم الدقة . ويقدر الباحثين الألمان جملة من أعدموا بتهمة السحر بمائة ألف فى ألمانيا فى القرن السابع عشر[٢٢] .

وارتفعت أصوات قليلة تدعو الناس إلى العقل . وقد رأينا فى مكان آخر إحتجاجات يوهان وير وريجنالد سكوت ، كما رأينا كيف حول مونتيني مرحه المتشكك إلى هذه الحمى (حمى قتل السحرة) فى مقاله « الأعرج أو الكسيح » : « كم هو طبيعى ومقبول أن أجد رجلين يكذبان ، أكثر من أن رجلا يمكن فى أثنى عشرة ساعة أن تحمله الريح من الشرق إلى الغرب ... أو أن يحمل

أحدنا على مكنسة .... خلال مدخنة(٢٣) ، أن من يؤمنون بهذا أحوج مايكونون إلى الدواء والعلاج ، لا الموت ، « حتى إذا ماانتهى كل شيء ، فما هي إلا مغالاة في قدرة المرء على الحكم عن طريق الحدس والتخمين مما يؤدي إلى أحراق المرء حيا »(٢٤) . وهاجم كورنليوس لوس ، الأستاذ الكاثوليكي في ماينز ، مطاردة السحرة في كتابه « بين السحر الحقيق والزائف » (١٥٩٢) ، ولكنه قبل أن يتمكن من نشره ، أودع السجن واضطر أن يعترف علانا بأخطائه(٢٥) . وثمة جزويتي آخر ، هو الشاعر الورع فردريك فون سبي ، فإنه بعد أن عمل كاهن اعتراف لمائتي شخص متهمين بالسحر . استنكر الاضطهاد في كتاب جريء «Cautio Criminalis» . (١٦٣١) ، سلم فيه بوجود السحرة ، ولكنه رثى للقبض عليهم لمجرد شبهات لا أساس لها ، ولبعد المحاكمات عن شرعة الانصاف ، وللتعذيب الغاشم الذي كان يمكن أن يجبر ، حتى فقهاء الكنيسة وأساقفتها على الاعتراف بأي شيء(٢٦) .

ولكل خصم من هذا القبيل أثنيعشر محاميا ينبرون للدفاع عن الظلم ، فإن رجال اللاهوت البروتستانت مثل توماس أراستوس في ١٥٧٢ ، ورجال اللاهوت الكاثوليك مثل الأسقف بنزفلد (١٥٨٩) اتفقوا على أن السحر حقيق وأن السحرة يجب أحراقهم . وأقر الأسقف التعذيب ، ولكنه أوصى بشنق السحرة التائبين قبل أحراقهم(٢٧) . وأيد المحامي والفيلسوف الكاثوليكي جين بودين الاضطهاد والتعذيب في كتابه « حمى العفاريت » ١٥٨٠ ، وبعد عام واحد ترجم الشاعر البروتستانتي يوهان فسكارت هذا الكتاب ووسع فيه مع تقدير بالغ له ، وانضم إلى بودين في الحث على أخذ السحرة بشدة لا ترحم ولا تلين(٢٨) .

ومهما يكن من أمر فإن هذه الحمى خفت حدتها ، فعندما أصبحت حرب الثلاثين حربا سياسية بشكل صريح سافر ، لم يعد الدين يحتل مكانا هاما في كراهيات الناس وحزازاتهم . وانتشرت الطباعة وكثرت الكتب ، ونهضت

المدارس ، وفتحت الجامعات ، وأسهم المكافحون الصابرون سنة بعد أخرى ، بوضع لبنة فى البناء الناشىء ، بناء العلم والمعرفة . وفى مائة من المدن عكف المحبون للاطلاع على اختبار الفروض بالتجارب . وتقلص نطاق ماهو خارق للطبيعة ببطء ، ونما نطاق ماهو طبيعى ودنيوى . أنه تاريخ موضوعى بجرد قاتم ، مؤلف من شظايا ، وهو أعظم مسرحية فى الأزمنة الحديثة .

٢ – انتقال المعرفة

إن الأبطال الأولين هنا هم الطابعون الناشرون الذين غذوا مجرى المداد الذى تدفقت منه المعرفة من عقل إلى عقل ، ومن جيل إلى جيل . واستأنفت داراستين الكبيرة للنشر ، نشاطها فى جنيف على يد هنرى استين الثانى ، وفى باريس بفضل روبرت استين الثالث . ونشأت أسرة مثل هذه (نحو ١٥٨٠) فى ليدن كان على رأسها لويس الزفير ، ونهض أبناؤه الخمسة وحفداؤه وابن لأحد حفدته ، بالعمل ، وحملت اسمهم طريقة معينة للطباعة . وفى زيوريخ اكتسب كريستوفر فروشير شهرة فى تاريخ الطباعة والثقافة بطبعاته الدقيقة للكتاب المقدس .

وهيأت دور الكتب مأوى جديدا للذخائر القديمة . ولقد عرفنا مكتبة بودليان فى أكسفورد ومكتبة الاسكوريال ، ومكتبة امبروزيانا فى ميلان (١٦٠٦) . وضمت كاترين دى مديتشى كثيرا من المجلدات والمخطوطات إلى مايعرف الآن بالمكتبة الوطنية . وبدا لافلين أن مكتبة الفاتيكان الجديدة التى أسسها البابا سكستس الخامس (١٥٨٨) « هى أفخم وأجمل وأحسن مكتبة أثاثا فى العالم »[٢٩] .

وبدأ ظهور الصحف : ففى ١٥٠٥ كانت صحيفة « الأخبار » تطبع فى ألمانيا ، فى ورقة واحدة ، بشكل متقطع . وما جاء عام ١٥٩٩ حتى كانت

هناك ٨٧٧ نشرة من هذا النوع ، وكلها غير منتظمة . وأقدم صحيفة منتظمة معروفة فى التاريخ هى صحيفة Avis Relation oder Zeitung الأسبوعية التى أسست فى أوجزبرج ١٦٠٩ ، وكانت تضم تقارير لوكلاء منتشرين فى مختلف أنحاء أوربا، ينقلها التجار والصيارفة، واستمرت فى الظهور حتى١٨٦٦،صحيفة « بريد فرانكفورت» التى أسست فى ١٦١٦ . وبدأت صحف أسبوعية مماثلة فى الظهور فى فيينا ١٦١٠ ، وفى بازل ١٦١١ . وسرعان ما بدأ فيشارت يسخر من الجمهور « الذى يصدق الصحف » ومن تلهفه الساذج على الأخبار . أن النقل المفرض غير الملائم للأنباء فوت على الجمهور أى أسهام رشيد مخطط فى السياسة ، ومن ثم جعل الديمقراطية أمرا بعيد المنال .

وكانت الرقابة على المطبوعات عامة شاملة بطريقة عملية ، فى العالم المسيحى بأسره : الكاثوليك والبروتستانت ، ورجال الدين والعلمانيون على حد سواء وفى ١٥٧١ شكلت الكنيسة « لجنة من الكرادلة لتحديد الكتب المحظورة » ، لحماية المؤمنين من الكتب التى تعتبر مسيئة للكثلكة . ولم تكن الرقابة البروتستانتية بمثل قوة الرقابة الكاثوليكية وصرامتها ، ولكنها جادة مثابرة مثلها . وقد نشطت فى انجلترا واسكتلندة واسكندناوة وهولندة وألمانيا وسويسرا[٣٠] . وهيأ تباين التعاليم فى مختلف الدول للهراطقة أن يتغلبوا ، بشكل أو بآخر ، على الرقابة بنشر كتبهم فى الخارج ، وإدخال بعض النسخ منها سراً . والأدب الحديث مدين للرقابة ببعض ما يتسم به من سخرية وظرف وبراعة .

وفى مختلف الترجمات ، ظل الكتاب المقدس يفسر بأنه « كلمة الله » ، وواصل رسالته بوصفه أعظم الكتب شعبية وانتشارا ، وأعظمها أثرا فى العقيدة واللغة ، بل حتى فى السلوك ، فإن أسوأ الأعمال الوحشية - الحروب والاضطهادات - عمدت إلى اقتباس النصوص المقدسة لتبرير ارتكابها . ومذ انحسرت الروح الإنسانية التى تميز بها عصر النهضة ، قبل قيام الإصلاح

الديني ، فإن التعبد بالكتاب المقدس حل محل الإعجاب الأعمى بالآداب الوثنية القديمة . وثارت فتنة واضطراب حين اكتشف العلماء أن الإنجيل (العهد الجديد) لايكتب باللغة اليونانية الكلاسيكية بل بلغة الناس ، ولكن علماء اللاهوت أوضحوا أن « الروح القدس » استخدم الأسلوب العام المشترك حتى يتيسر للناس فهمه وأصاب الناس غم جديد عندما خلص لويس كابل - الأستاذ البروتستانتي للعبرية واللاهوت في « سومور » ، إلى أن الحروف اللينة وعلامات النطق في النص العبري الذي اعتمدته الكنيسة للعهد القديم (التوراه) ، إن هي إلا إضافات أضافها إلى النصوص الأقدم عهدا ، يهود طبرية المازوريون في القرن الخامس ق . م . أو بعده . وأن الحروف المربعة في النص المعتمد كانت آرامية بديلة عن الحروف العبرية . وتوسل جوهانس بوكستورف الأكبر ، أعظم علماء عصره . إلى كابل أن يطوى هذه الآراء عن الجمهور ويحتفظ بها لنفسه ، حتى لا تسيء إلى إيمان الناس بالإيحاء اللفظي للكتاب المقدس . ومع ذلك نشر كابل آراءه في ١٦٢٤ ، وحاول يوهانس بوكستورف الأصغر أن يدحضها ويفندها ، محتجا بأن النقط وعلامات النطق موحى بها من عند الله كذلك . واستمر الخلاف طوال القرن وتخلت الأرثوذكسية آخر الأمر عن النقط ، ومن ثم اتخذت خطوة متواضعة نحو اعتبار الكتاب المقدس أعظم أسلوب أو تعبير مهابة وجلالا لدى الشعب .

وينتمي إلى هذه الحقبة نفر من أشهر العلماء أو الباحثين في التاريخ . منهم جوستوس ليبسيوس ، الذي تردد على جامعتي لوفان وليدن ، وتأرجح بين الكاثوليكية والبروتستانتية وذاع صيته في أوربا بفضل طبعاته المصوبة لكتب تاسيتس وبلوتس وسنكا ، وتفوق على كل الأجروميات السابقة في كتاب « فن الأجرومية » (١٦٣٥) . ورثى افناء المدنية الأوربية الوشيك ، ولكنه هدأ من روعه واستبشر خيرا « بسطوع شمس امبراطورية جديدة في الغرب » - يعني « الأمريكتين »[٣١] .

وورث جوزيف جوستوس سكاليجر « وربما كان أعظم أستاذ فذ في

سعة المعرفة والاطلاع ظهر فى العالم[٣٢] » ، نقول ورث عن أبيه الشهير يوليوس قيصر سكاليجر ، عرش البحث العلمى فى أوربا . ففى آجن فى جنوب غربى فرنسا ، اشتغل بكتابة ما يمليه عليه هذا الوالد . ونهل العلم والمعرفة طوال حياته . فقرأ هوميروس فى ثلاثة أسابيع ، ووفق فى قراءة كبار الشعراء والمؤرخين والخطباء الإغريق . وتعلم العبرية وثمان لغات أخرى . وتجرأ على دراسة الرياضيات والفلك و «الفلسفة» (التى كانت آنذاك تشمل الفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والبيولوجيا) ودرس القانون لمدة ثلاثة أعوام . وربما ساعدت دراسته للقانون على شحذ ملكة النقد عنده ، لأنه فى الطبعات التى أصدرها للمؤلفين القدامى مثل كاتوللوس وتيبوللوس وبروبرتيوس وغيرهم أثار نقدا متعلقا بالنصوص لأحداس عشوائية لقوانين الإجراءات والتأويل أو التفسير . وكان ينظر بعين الاحترام الرشيد للتاريخ أو تحديد الأزمنة فى دراسة التاريخ . وفى أعظم مؤلفاته « فى تصحيح التواريخ » (١٥٨٣) ، وازن لأول مرة بين التواريخ التى أوردها المؤرخون اليونان واللاتين ، وتلك التى وردت أو حددت فى التاريخ أو التقاويم أو الأدب فى مصر وبابل وفلسطين وفارس والمكسيك . وجمع ورتب فى كتابه « تسلسل التواريخ » . (١٦٠٦) كل مادة تاريخية فى الأدب القديم ، وعلى هذا الأساس ألف أول تسلسل زمنى على أساس علمى للتاريخ القديم . وهو الذى قال بأن السيد المسيح ولد فى العام الرابع ق . م . وعندما ترك جوستوس لبسيوس ليدن فى ١٥٩٠ عرضت الجامعة على سكاليجر كرسى « الأبحاث القديمة » فقبله بعد أن ظل ثلاث سنوات مترددا فى قبوله . ومنذ تلك اللحظة حتى وفاته ١٦٠٩ ، كانت ليدن مقر العلماء .

وكان سكاليجر ، مثل أبيه مزهوا بما يزعم من تحدر أسرته من أمراء دللاسكالا فى فيرونا . وكان ناقدا لاذعا لزملائه العلماء والباحثين ، ولكن فى ساعة تغاض وصفح قال إن إيزاك كازوبون «أعظم الأحياء علما»[٣٣] . وإن حياة كازوبون لتكشف عن مزايا المحن . لقد رأى النور فى جنيف لأن أبويه

كانا من الهيجونوت الذين هربوا من فرنسا ، وعادا إليها وهو فى سن الثالثة وعاش لمدة ستة عشر عاما فى ظل المخاطر والإرهاب أيام الاضطهادات . وكان أبوه يتغيب لفترات طويلة للخدمة فى جيوش الهيجونوت . وغالبـــا ما اختفت أسرته فى الجبال لتكون بمنأى عن بطش الكاثوليك المسلحين . وتلقى إيزاك أول دروس فى اليونانية فى أحد الكهوف فى جبال دوفينى وفى سن التاسعة عشرة التحق بأكاديمية جنيف . وفى سن الثانية والعشرين صار أستاذا فى اليونانية ، وتولى هذا المنصب لمدة خمسة عشر عاما وسط العوز والفقر والحصار . وعاش بشق النفس على راتبه . ولكنه كان يقتر فى طعامه ليشترى الكتب . وكان يخفف من وحشية العزلة والعكوف على العلم ، بما يتلقى من رسائل سكاليجرا العظيم . ونشر طبعات لمؤلفات أرسطو وبللينى الأصغر ، وتيوفراستوس ، سحرت الألباب فى دنيا العلم والمعرفة ، لا بمجرد تصويب النصوص ، بل كذلك بالتعقيبات البارعة على الأفكار والطرق القديمة . وفى ١٥٩٦ عندما أخمد هنرى الرابع الصراع الدينى ، عين كازوبون أستاذا فى مونبلييه . ودعى بعـــد ذلك بثلاثة أعوام إلى باريس . ولكن الجامعة أوصدت أبوابها فى وجوه غير الكاثوليك ، فأحاطه هنرى برعايته ، كأمين للمكتبة الوطنية ، براتب محترم قدره ١٢٠٠ جنيه فى العام . وقال رجل الاقتصاد صلى للعالم كازوبون إنك تكلف الملك كثيرا ياسيدى . إن راتبك يفوق راتب قائدين ، ولا نفع يرجى منك لبلدك[٣٤] . فلما مات هنرى العظيم ، رأى كازوبون أنه قد حان الوقت لقبول دعوة من انجلترا . ورحب به جيمس الأول بوصفه رفيق علم وبحث ... ومنحه راتبا سنويا قدره ٣٠٠ جنيه انجليزى . ولكن الملكة الفرنسية الوصية على العرش رفضت أن تذهب مؤلفاته فى أثره وأزعجه الملك بالأبحاث ، ولم يغفر له المفكرون الإنجليز فى لندن عدم تحدثه بالإنجليزية وبعد أربعة أعوام قضاها هناك ترك المعترك (١٦١٤) فى سن الخامسة والخمسين . ودفن فى وستمنستر .

وكان لقب « العالم » فى ذلك الزمان أكثر احتراما وتشريفا من الشاعر

أو المؤرخ . فإن العالم كان ينظر إليه بعين الإجلال والإكبار لأن دراسته الدؤوبة حافظت على مواطن الحكمة والجمال الكامنة فى الآداب والفلسفة القديمة وعملت على تنقيتها وتوضيحها . ودخل سكاليجر جامعة ليدن دخول « الأمير الفاتح » ، ولقى هناك ترحيبا كبيرا . وكانت ثمة أمم كثيرة ترغب فى أن تحوز كاود دى سوميز الذى عرفته الدنيا « عالما » ، من أمثال سالاميوس وبعد موت كازوبون أجمع العالم بأسره على أنه « أعلم الأحياء فى ذلك الزمان » ، وأنه بصفة عامه معجزة الدنيا(٣٥) . فماذا فعل هذا العالم ؟ إنه ولد فى برجندى ، وتلقى تعليمه - وتحول إلى الكالفنية - فى هيدلبرج . وفى سن العشرين تألق نجمه فى نشر طبعة دقيقة محققة لمؤلفات اثنين من كتاب القرن الرابع عشر عن سلطة البابوات العليا المتنازع عليها ، وبعد ذلك بعام واحد ، نشر « خلاصة عن النبات » . وتوالت الكتب بعد ذلك ، حتى بلغت فى جملتها ثلاثين كتابا تميزت كلها بسعة الاطلاع وتناول كل ألوان المعرفة . وبلغ الذروة فى كتاب ضخم مكون من ٩٠٠ صفحة على نهرين بعنوان « أمثلة فى تعدد جوانب الثقافه والمعرفة » (١٦٢٩) . وكان سوليتوس ، وهو أحد النحاة فى القرن الثالث - قد جمع فى موسوعة تاريخ البلاد الأوربية الكبرى وجغرافيتها وأعراقها البشرية واقتصادها ونباتها وحيوانها ، وجاء بعد ذلك ناشر متأخر فأطلق عليه « ثقافة متعددة الجوانب » ، ثم جاء سالماسيوس فدون على هذا النص تعليقات واسعة تشمل كل رومه الإمبراطورية . وكان امامه أن يختار بين اثنى عشرة دعوة وجهت إليه ، فاختار الأستاذية فى ليدن ، ثم عين فى الحال رئيسا لكلية عظيمة وسارت الأمور سيرا حسنا ، حتى كلفه شارل الثانى ملك انجلترا الذى كان متغيبا آنذاك فى هولنده ، بأن يكتب عن إدانة كرومويل بقتل شارل الأول وظهر الدفاع عن الملك شارل الأول فى نوفمبر ١٦٤٩ بعد إعدام الملك بنحو عشرة أشهر . ولم يرق الكتاب فى عينى كرومويل ، واستأجر أعظم شعراء انجلترا للرد عليه . وسنعود للكلام عليه مرة أخرى . وكتب سالماسيوس ردا على ملتون ، ولكنه مات (١٦٥٣) قبل أن يتمه . ونسب إلى ملتون ... ل القضاء عليه .

وحظيت قلة ضئيلة بمثل هذا القدر الكبير من العلم والمعرفة ، بينما ظل ٨٠٪ من سكان أوربا الغربية أميين . وقضى جون كومنيوس أربعين عاما يكافح فى سبيل النهوض بخطط التعليم فى أوربا . ولد كومنيوس فى مورافيا (١٥٩٢) وارتقى إلى مرتبة أسقف الأخوة المورافيين ولم يتزعزع قط إيمانه بأن الدين هو أساس التعليم وغايته ، فإن رأس الحكمة مخافة الله . وعلى الرغم من أن الأحقاد الدينية فى زمانه جعلت من حياته سلسلة متصلة من المحن والبلايا ، فإنه بقى على إخلاصه لفلسفة التسامح فى الوحدة الأخوية .

> نحن أبناء عالم واحد ، يجرى فى عروقنا دم واحد . وأنه لمن أشد الحماقة أن نضمر البغض والكراهية لإنسان لأنه ولد فى قطر آخر ، أو لأنه يتحدث بلغة مختلفة عن لغتنا . أو لأن له رأيا مخالفا لنا فى هذا الموضوع أو ذاك . إنى لأتوسل إليكم أن تكفوا عن هذا ، فإننا بشر متساوون فى الإنسانية فليكن لنا جميعا هدف واحد وغاية واحدة ، هى خير الإنسانية جمعاء ، ولنطرح جانبا كل الأنانيات والأثرة القائمة على أسس من اللغة أو القومية أو الدين(٣٦) .

وبعد تدوين كثير من النصوص التربوية ، لخص كومنيوس مبادئه فى التربية المثلى (١٦٣٢) وهو من أهم الكتب فى تاريخ التربية . أولا : يجب أن يكون التعليم عاما ، بصرف النظر عن الجنس أو مستوى المعيشة . فيجب أن يكون فى كل قرية مدرسة ، وفى كل مدينة كلية ، وفى كل مقاطعة جامعة ، ويجدر أن يكون التعليم العالى متاحا لكل من يثبت القدرة على متابعته ، وينبغى أن تتولى الدولة الإنفاق على الكشف عن مواهب وقدرات المواطنين فيها ، وتدريبها والإفادة منها . ثانيا : يجب أن يكون التعليم واقعيا ، بحيث تربط الأفكار فى كل خطوة بالأشياء الملموسة ، كما يجب تعليم الألفاظ باللغة الوطنية أو بأية لغة أجنبية ، عن طريق مشاهدة الأشياء التى تمثلها أو لمسها أو استخدامها

ويجب أن يتأخر تعليم النحو (الأجرومية) . ثالثا : يجب أن تكون التربية بدنية وعقلية وأخلاقية . وأن يتلقى التلاميذ تدريبات على الصحة والقوة والنشاط عن طريق ممارسة الحياة والألعاب فى الهواء الطلق . ورابعا : ينبغى أن يكون التعليم عمليا ، وألا يكون حبيسا فى سجن التفكير النظرى ، بل مقرونا بالعمل والممارسة ، وأن يمهد ويعد للنهوض بمهمة الحياة . خامسا : يجب تدريس العلوم تدريجيا ، بتقدم الطالب فى العمر ، ويجب افتتاح مدارس البحث العلمى فى كل مدينة أو مقاطعة . سادسا : ينبغى توجيه كل التربية وكل المعرفة إلى تحسين الخلق وبث التقوى فى الفرد ، وإلى إشاعة النظام والسعادة فى الدولة .

وكان ثمة شيء من التقدم . فإن الأمراء الألمان جدوا فى تأسيس مدرسة ابتدائية فى كل قرية . ونادى دوق ساكس — ويمار فى ١٦١٩ بمبدأ التعليم العام الإلزامى لكل البنين والبنات من سن السادسة إلى الثانية عشرة[٣٧] ، مع عطلة مدتها شهر فى موسم الحصاد . وما وافى عام ١٧١٩ حتى عم هذا النظام ألمانيا بأسرها . وكانت المدارس الثانوية لا تزال موصدة أمام الإناث ، ولكنها تضاعفت وحسن مستواها . وفتحت فى هذا العصر اثنتان وعشرون جامعة جديدة * . وكانت جامعة أكسفورد سائرة على طريقة التقدم والنجاح كما وصفها كازوبون فى ١٦١٣ ، وقد تأثر بما رآه من رواتب الأساتذة ومكانتهم الاجتماعية ، بالمقارنة بنظرائهم فى القارة . فى ١٦٠٠ كانت رواتب الأساتذة فى ألمانيا ضئيلة إلى حد أنهم لجأوا إلى بيع الجعة والنبيذ احتيالا على العيش ، وكان الطلبة فى جامعة يينا يشربون ويلهون فى حانات يديرها الأساتذة[٣٨] . وتدهورت الجامعات الأسبانية بعد فيليب الثانى ، وساءت

(*) فى يينا ١٥٥٨ ، جنيف ١٥٥٩ ، ليل ١٥٦٢ . ستراسبورج ١٥٦٧ ، ليدن ١٥٧٥ هلمستد ١٥٧٥ ، ولنو ١٥٧٨ ورزبرج ١٥٨٢ أدنبره ١٥٨٣ فرانكر ١٥٨٥ جراز ١٥٨٦ ، دبلن ١٥٩٦ ، لوبين ١٥٩٦ ، هردريك ١٦٠٠ ، جيبسن ١٦٠٧ ، جرونتجن ١٦١٤ ، أمستردام ١٦٣٢ . دوربات ١٦٣٢ ، بودابست ١٦٣٥ أوترخت ١٦٣٦ نوركو ١٦٤٠ بمبرج ١٦٤٨ .

أحوالها تحت وطأة محاكم التفتيش ، فى الوقت الذى أسست فيه عدة جامعات أسبانية فى مستعمرات أسبانيا فى أمريكا — فى ليما ١٥٥١ ، فى مدينة المكسيك ١٥٥٣ ، أى قبل افتتاح كلية هارفارد (١٦٣٦) بزمن طويل . وافتتح الهولنديون الموسرون ست جامعات فى تلك الحقبة . وعندما نجحت ليدن فى مقاومة الحصار الأسبانى (١٥٧٤) ، وجهت الجمعية العمومية للمقاطعات المتحدة الدعوة لأهالى البلدة ، ليدن ، ليبروا رأيهم فيما يمكن أن يكافأوا به ، فطالبوا بإنشاء جامعة ، وكان لهم ما أرادوا . وكانت السلطات الدينية تسيطر على أمور التعليم فى الأقطار الكاثوليكية والكلفنية . وفى انجلترا والبلاد اللوثرية كان رجال الدين يديرون معظم التعليم تحت إشراف الدولة . وفى كل الجامعات تقريبا ، باستثناء بادوا ، كان مطلوبا من المعلمين والطلبة أن يعتنقوا المذهب الرسمى ، وكانت الدولة والكنيسة كلتاهما تحد من الحرية الجامعية بدرجة كبيرة . وقضت الخلافات الدينية على الصبغة العلمية للجامعات ، فانحصر الطلبة الأسبان فى أسبانيا ، ولم يعد الطلبة الانجليز يلتحقون بجامعة باريس . وظلت أكسفورد حتى ١٨٧١ تفرض على طالب الدرجة الجامعية ، الموافقة على مواد الكنيسه الرسمية التسع والثلاثين . ومال الفكر الأصيل الخلاق إلى الاختفاء من الجامعات ، والتمس ملجأ فى الأكاديميات الخاصة والدراسات غير النظامية أو غير النمطية .

وهكذا قامت فى هذا العصر أكاديميات خاصة ، لارقيب عليها ، للدراسة والبحث ، وخاصة فى مجال العلوم . وفى رومه ، فى ١٦٠٣ أسس فدريجو سيزى ، مركيز مونتيللو ، أكاديمية ذوى البصر الحاد ، التى التحق بها جاليليو ١٦١١ ، وحدد دستورها هدفها :

> إن جامعة ذوى البصر الحاد تتطلب من أعضائها الفلاسفة أن يكونوا تواقين إلى المعرفة الحقة ، وأن ينصرفوا بكليتهم إلى دراسة الطبيعة ، وبخاصة الرياضيات ، ولن تهمل فى الوقت

> نفسه أو تزيف مناهجها بالآداب والدراسات اللغوية الجميلة التي يزدان بها ، بوصفها حليا وجواهر كريمة ، نطاق العلم بأكمله ، وليس في خطة هذه الأكاديمية أن تفسح المجال للخطب والمجادلات ويجدربها أن تغضي في هدوء وصمت عن كل الخلافات السياسية . وعن أي لون من المهاترات الكلامية(٣٩) .

وحلت هذه الجامعة ١٦٣٠ ، ولكن في ١٦٥٧ واصلت السير على نهجها أكاديمية دل شيمنتو (التجربة والبرهان) . وسرعان ما تأسست جمعيات مماثلة في انجلترا وفرنسا وألمانيا . حتى يتسنى للروح العلمية الملهمة في العلوم أن تضع الأسس الفكرية والتكنولوجية للعالم الحديث .

٣ ـ أدوات العلم ومناهجه

كان لزاما ، منذ البداية ، أن تكون هناك آلات علمية . فما تستطيع العين المجردة أن تبصر بوضوح كاف ، على مسافة بعيدة ، أو بأشياء بالغة الدقة . إلى الحد المطلوب ، وما يستطيع الجسم أن يمس بدقة تامة ضغط الأشياء أو حرارتها أو وزنها . وما يستطيع العقل أن يقيس المسافه والزمن والكمية والنوعية والكثافة دون أن يخلط بين توازنه الشخصي وبين الحقائق ، ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلى المجهر (الميكروسكوب) ، والمقراب (التلسكوب) ، وبميزان الحرارة (الترمومتر) ومقياس الضغط (البارومتر) . ومقياس الثقل النوعي للسوائل (الهيدرومتر) وإلى ساعات أدق وإلى موازين أكثر حساسية .

كتب جامباتستا دللابورتا في « سحر الطبيعة » (١٥٨٩) بالعدسة المقعرة تبدو الأشياء أصغر ولكن أوضح ، وبالعدسة المحدبة تراها أكبر ولكن أقل وضوحا في معالمها ، فإذا عرفت على أية حال كيف تجمع بين النوعين على نحو سليم ، لأمكنك أن ترى الأشياء على البعد والقرب كبيرة واضحة معا(٤٠)

تلك كانت القاعدة التى بنى عليها المجهر ومنظار الميدان ومنظار الأوبرا، والمقراب، أى أنها مجموعة من المخترعات، وكلها متنوعة الأنسجة. وكان المجهر البسيط. أى العدسة المحدبة الواحدة، معروفة لأمد طويل. أما الاختراع الذى حول البيولوجيا فهو الميكروسكوب المركب الذى يجمع بين عدة عدسات لامة. ونمت صناعة شحذ العدسات وصقلها بصفة خاصة فى الأراضى الوطيئة وعاش سبينوزا عليها ومات بها. وحوالى ١٥٩٠ جمع صانع النظارات المدعو زخارياس جانس، فى مدلبرج، بين عدسة مزدوجة مقعرة وأخرى مزدوجة محدبة، ليضع أقدم مجهر مركب معروف: وبفضل هذا الاختراع ظهرت البيولوجيا الحديثة والطب الحديث.

وجاء بعد ذلك تطبيق آخر لهذه القواعد لحول علم الفلك. ذلك أنه فى ٢ أكتوبر ١٦٠٨ قدم صانع نظارات آخر فى مدلبرج، هو هانز ليبرشى. إلى الجمعية العمومية للمقاطعات المتحدة (التى مازالت فى حرب مع أسبانيا) وصفا لآلة يمكن بها رؤية الأشياء من مسافة بعيدة. إن ليبرشى وضع عدسة مزدوجة محدبة «العدسة الشيئية» على الطرف البعيد من أنبوبة، وعدسة مزدوجة مقعرة «العينية» على الطرف القريب. وأدرك المشرعون القيمة العسكرية لهذا الاختراع فكافأوا ليبرشى بتسعمائة فلورين. وفى ١٧ أكتوبر أثبت رجل هولندى آخر — جاكوس متيوس، أنه كان قد صنع من تلقاء نفسه ومن وحى تفكيره هو، آلة مماثلة. وما أن سمع جاليليو بهذه التطورات حتى صنع آلة التلسكوب (المقراب) الخاصة فى بادوا (١٦٠٩)، التى كبرت الأشياء إلى ثلاثة أمثالها، وتلك هى الآلات التى كبر بها العالم. وفى ١٦١١ اقترح كبلر أنه يمكن الحصول على نتائج أفضل، إذا عكست أوضاع العدسات فى اختراع جاليليو، باستخدام العدسة المحدبة فى «العينية» والمقعرة فى «الشيئية». وفى ١٦١٣—١٦١٧ صنع الجزويتى كرستوف شينر، على هذا الأساس، مقرابا «تلسكوب» أفضل، بيد أنه أدخل شيئا من التحسين على ما كان معروفا من قبله[41].

وفى الوقت عينه ، وعلى نفس الأسس التى كانت معروفة لدى « هيرو » السكندرى فى القرن الثالث الميلادى أو قبله ، كان جاليليو قد اخترع (حوالى ١٦٠٣) مقياسا للحرارة (ترمومتر) . بأن وضع الطرف المفتوح لأنبوبة زجاجية فى وعاء من الماء ، وكان طرفها الثانى عبارة عن بصيلة زجاجية (منتفخ الترمومتر) فارغة ، عمد إلى تسخينها بملامستها ليديه . فلما سحب يده بردت البصيلة ، وارتفع الماء فى الأنبوبة . وفى ١٦١٣ قسم جيوفنى ساجريدو ، صديق جاليليو ، الأنبوبة إلى مائة درجة .

وجاء أفانجلستا تورشللى ، أحد تلاميذ جاليليو ، فأحكم سداد أحد طرفى أنبوبة طويلة ، وملأها بالزئبق ، وأوقفها بطرفها المفتوح مغمورة فى وعاء به الزئبق ، فلم يفض زئبق الأنبوبة إلى الوعاء . وأرجع علماء الفيزياء هذه الظاهرة إلى « اشمئزاز الطبيعة من الفراغ » . وأرجعها تورشللى إلى ضغط الهواء المحيط على الزئبق فى الوعاء . وعللها بأن الضغط الخارجى لابد أن يرفع الزئبق فى الوعاء إلى الأنبوبة الخالية المفرغة من الهواء . وأثبتت التجربة صحة ما ذهب إليه . وأوضح أن التغيرات فى ارتفاع الزئبق فى الأنبوبة يمكن استخدامها مقياسا للتغيرات فى الضغط الجوى ، ومن ثم صنع فى ١٦٤٣ أول مقياس للضغط الجوى (البارومتر) الذى لا يزال الآلة الأساسية فى الأرصاد الجوية .

ومنذ تزودت العلوم بهذه الأدوات الجديدة ، فإنها اتجهت إلى الرياضيين تسألهم طرقا أفضل للحساب والقياس وللتدوين بالعلامات والرموز واستجاب نابيير وبيرجى — كما عرفنا — لهذا النداء باللوغاريتمات ، وأوترد بالمسطرة الحاسبة ، ولكن كانت ثمة نعمة أكبر باختراع الطريقة العشرية وكانت بعض آراء أو مقترحات اجتهادية قدمهدت الطريق ، كما هى العادة . فإن الكاشى السمرقندى (المتوفى ١٤٣٦) كان قد أوضح أن النسبة التقريبية بين محيط الدائرة وقطرها هى : ٣,١٤٩٢٦٥٣٥٨٩٨٧٣٢ ، وهـــذا كسر عشرى — مستخدما مسافة

بياضا بدلا من النقطة ، أى العلامة العشرية بين الكسر والرقم الصحيح . ثم جاء فرانسسكو بللوس من مدينة نيس ١٤٩٢ فاستخدم النقطة العشرية وشرح سيمون ستيفينوس الطريقة الجديدة فى رسالة تعتبر فاتحة عصر جديد ، هى « الطريقة العشرية » (١٥٨٥) عرض فيها كيف « تعلم بسهولة لم يسمع بها من قبل أن تؤدى كل المسائل الحسابية بالأعداد الصحيحة دون كسور » ونفذ « النظام المترى » فى قارة أوربا أفكاره فى قياس الأطوال والأحجام والعملة . ولكن الدائرة والساعة أقرتا بفضل الرياضيات البابلية ، فاحتفظتا بالقسمة الستينية .

وفى ١٦٣٩ نشر جيرارد دسارج رسالة ممتازة عن القطع المخروطى . وأحيا فرانسوا فيير الباريسى دراسة علم الجبر التى كانت قد ضعفت، باستخدام الحروف للدلالة على مقادير معروفة أو مجهولة على حد سواء واستبق ديكارت فى تطبيق الجبر على الهندسة ، وأنشأ ديكارت الهندسة التحليلية فى ومضة من ومضات الالهام ، حين اقترح التعبير على الاعداد والمعادلات بأشكال هندسية والعكس بالعكس (ومن ثم يمكن ايضاح التناقص المستمر فى قيمة العملة فى فترة معينة فى رسم بيانى احصائى) ؛ وأنه من معادلة جبرية تمثل شكلا هندسيا ، يمكن جبريا استخلاص نتائج تثبت صحتها هندسيا ، ولذلك يمكن استخدام الجبر لحل المسائل الهندسية العويصة . وافتتن ديكارت باكتشافاته إلى حد أنه ذهب إلى أن هندسته أسمى من هندسة اسلافه قد رسموا فصاحة شيشرون على حروف الهجاء عند الأطفال (٤٢) . أن هندسته التحليلية ونظرية كافا ليرى عن « غير القابل للانقسام أو التجزئة » (١٦٢٩) وتربيع لبلر التقريبى للدائرة . وقياس روبرفال للخط المنحنى ، وتورشللى وديكارت ، إن كل أولئك عبدوا الطريق أمام ليبنتز ونيوتن لاكتشاف التفاضل والتكامل .

وباتت الهندسة الآن هدف كل العلوم بقدر ما هى أداتها . ولحظ كبلر أن العقل إذا هجر « مملكة الكمية » فانه يهيم فى متاهات الظلام والشك[٤٣]. وقال جاليليو عن الفلسفة وهو يقصد « الفلسفة الطبيعية » أو العلوم :

> ان الفلسفة مدونة فى هذا السفر الضخم، ألا وهو الكون الذى يقف دوما مكشوفا أمام أعيننا نحملق فيه كيف نشاء . ولكن لن يتسنى لنا فهم هذا الكتاب إلا إذا تعلمنا، أول الأمر، كيف نعى اللغة ونقرأ الحروف التى تتألف منها . أن هذا السفر مكتوب بلغة الرياضيات[٤٤] ،

وتتطلع ديكارت وسبينوزا إلى تحويل الميتافيزيقا (علم ما وراء الطبيعة) نفسها إلى صيغة رياضية .

وبدأ العلم الآن يحرر نفسه من أغلال أمه وهى الفلسفة . لقد هز كتفيه لأرسطو غير مبال به . وأدار ظهره للميتافيزيقا متجها نحو الطبيعة ، وطور وسائل التمييز لديه ، وسعى لتحسين حياة الانسان على الأرض . أن هذه الحركة تنتسب إلى قلب عصر العقل ، ولكنها لم تؤمن كل الايمان ولم تثق كل الثقة « بالعقل الخالص » — أى العقل المستقل عن التجريب والاختبار . وكم من مرة ضل مثل هذا التفكير ، ونسج خيوطا واهية مضللة . أن العقل والتقاليد والسلطة يجب الآن ضبطها وكبح جماحها بدراسة الحقائق المتواضعة وتسجيلها . ومهما قال المنطق، فيجب بالعلم ألا يتقبل الا ما يمكن قياسه كمًا ، والتعبير عنه رياضياً ، واثباته بالتجربة

٤ — العلم والمادة

اندفعت العلوم خطوات إلى الأمام فى تسلسل منطقى، خلال التاريخ الحديث:

الرياضة والفيزياء فى القرن السابع عشر، والكيمياء فى الثامن عشر، والبيولوجيا فى التاسع عشر، وعلم النفس فى القرن العشرين .

والشخصية البارزة فى تلك الحقبة هى جاليليو . ولكن ثمة أبطال كثيرون أقل شأنا جديرون بالذكر فقد أسهم ستيفينوس فى تحديد قوانين البكرة والرافعة ، وأجرى دراسات قيمة فى ضغط الماء ، ومركز الجاذبية، ومتوازى أضلاع القوى ، والمستوى المائل . وحوالى ١٦٩٠ فى دلفت ، استبق جاليليو فى تجربته المزعومة فى بيزا ، حيث أوضح — على خلاف الاعتقاد القديم — أنه إذا ترك جسمان من نوع واحد مهما اختلفا فى الوزن، ليسقطا معا من عل فإنهما يصلان إلى الأرض فى وقت واحد[٤٥] . ووضع ديكارت قانون القصور الذاتى ، فى صيغة بالغة الوضوح — وهو أن أى جسم يظل فى حالة الجمود أو فى حركة مستقيمة إلا إذا تأثر بقوة خارجية . وسبق هو وجاسندى ، إلى نظرية الجزيئات فى الحرارة . وأسس رسالته فى « الأرصاد » (١٦٣٧) على الكوزمولوجيا (علم الكوينات يبحث فى أصل الكون وبنيته العامة وعناصره ونواميسه) التى لم تعد مقبولة ، ولكن هذه الرسالة أسهمت كثيرا فى وضع أسس الأرصاد الجوية كعلم من العلوم . وتوسع تورشللى ١٦٤٢ فى دراساته عن الضغط الجوى لتشمل ميكانيكا الرياح ، حيث ذهب إلى أن هذه هى التيارات الموازنة التى تنجم عن الاختلافات المحلية فى كثافة الهواء . أما جاسندى ، ذلك الرجل المشهور بالمامه بكل العلوم ، فانه تابع التجارب فى قياس سرعة الصوت ، وتوصل إلى أنها ١٫٤٣٧ قدما فى الثانية . وأعاد صديقه الكاهن ، مارتن مرسن ، التجربة ، وقرر أنها ١٫٣٨٠ قدما ، وهذا أقرب إلى الرقم السائد ، وهو ١٫٠٨٧ ووضع مرسن فى ١٦٣٦ السلسلة الكاملة للنغمات التوافقية التى يحدثها سلك رنان .

وتركزت أبحاث البصريات حول مسائل الانعكاس والانكسار العريضة، وبخاصة عند مشاهدتها فى قوس قزح . وحوالى ١٥٩١ وضع ماركو أنطونيو

دى دومنيس رسالة فى « الضوء » أوضح فيها تكوين قوس قزح الرئيسى ، (وهو الوحيد الذى يمكن رؤيته بصفة عامة) على أنه راجع إلى إنكسارين وانعكاس واحد لضوء على قطرات بخار الماء فى السماء أو الرذاذ . وتكوين قوس قزح الثانوى (وهو قوس من الألوان فى ترتيب عكسى ، يرى أحيانا بشكل باهت ، خارج القوس الرئيسى) . على أنه راجع إلى إنكسارين وانعكاسين . وفى ١٦١١ عالج كبلر فى رسالة « الانكسارات » موضوع انكسار الضوء فى العدسات . وبعد ذلك بعشر سنين جاء ولبرورد سنل من ليدن ، وصاغ قوانين الانكسار فى دقة جعلت من الميسور اجراء حساب أدق لعمل العدسات فى الضوء ، وصنع ميكروسكوبات وتلسكوبات أفضل . فطبق ديكارت هذه القوانين على الحساب الميكانيكى لزوايا الاشعاع فى قوس قزح . أما تفسير ترتيب اللون فكان لزاما أن ينتظر مجىء نيوتن .

وأدى بحث جلبرت — الذى يعتبر بداية عصر جديد — فى الجاذبية الأرضية إلى سلسلة طويلة من النظريات والتجارب . واقترح فيانوس سترادا عضو جمعية يسوع ، الارسال البرق (١٦١٧) ، وذلك بأن يتصل رجلان الواحد منهما بالآخر ، من بعيد ، عن طريق استخدام الفعل المتجانس لابرتين مغناطيسيتين وضعتا بحيث تشيران فى وقت واحد إلى حرف هجاء واحد بعينه ، وفى ١٦٢٩ أدلى جزويتى آخر ، نيقولو كابيو ، بأول وصف عرفه العالم للتنافر الكهربى . وجاء عالم آخر هو أثناسيوس كيرشر ، فوصف فى كتابه « المغناطيس » (١٦٤١) قياس المغناطيسية بتعليق مغناطيس فى إحدى كفتى ميزان ، ومقاومة تأثيره بوضع موازين فى الكفة الأخرى . وعزا ديكارت المغناطيسية إلى تأثير الجزيئات التى تنفثها الدوامة الكبرى التى اعتقد هو أن الأرض نشأت عنها .

وكانت الكيمياء القديمة (الخيمياء) لاتزال شائعة ، وخاصة كبديل ملكى لخفض قيمة العملة . فكان الامبراطور رودلف الثانى ، وناخبو سكسونيا

وبراندانبرج والبالاتينات ، ودوق برنزويك وكونت هس ، يستخدمون جميعا أرباب الكيمياء القديمة لصنع الفضة أو الذهب[٤٦] . ومن هذه التجارب ومن الحاجة إلى علم المعادن وصناعة الصباغة . ومن الحاح الطبيب الألمانى باراسلوس على الدواء الكيمياوى ، من هذا كله بدأ علم الكيمياء يتشكل . وكان أندريا ليبافيوس يمثل هذا الانتقال من «الخيمياء» إلى الكيمياء . وكان مؤلفه « الدفاع عن خيمياء تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة» (١٦٠٤) استمرارا للسعى وراء المطلب القديم ، ولكن كتابه « الكيمياء » (١٥٩٧) كان أول رسالة منهجية فى الكيمياء العلمية الحديثة . واكتشف باراسلسوس كلوريد القصدير ، وكان أول من صنع سلفات الأومنيوم، وكان من أوائل من اقترح نقل الدم كعلاج. وكان معمله فى كوبرج إحدى عجائب المدينة. ووضع جان بابتستافان هلمونت — وهو نبيل ثرى أكب على العالم وصرف همه فى تقديم الخدمات الطبية للفقراء — وضع اسمه بين مؤسسى الكيمياء بتمييز الغازات عن الهواء وتحليل أنواعها وتركيبها . ونحت لفظة « غاز » من اللفظة الأغريقية Chaos وحقق إكتشافات كثيرة فى مجاله المختار ، ابتداء من الغازات المتفجرة فى البارود ، إلى امكانات الاشتعال فى « ريح الإنسان»[٤٧] واقترح القلويات فى علاج الحموضة المفرطة فى الجهاز الهضمى . وأوصى يوهان جلوبر ببللورات سلفات الصوديوم للاستعمال كعلاج ممتاز من الظاهر أو من الباطن. ولا يزال « ملح جلوبر » يستخدم كملين . ان جوبر وهلمونت كليهما اشتغل بالخيمياء (أو الكيمياء القديمة) كهواية .

وأسهمت كل هذه « العلوم الطبيعية » فى تحسين الانتاج الصناعى ، وأدوات القتل فى الحروب. وطبق الفنيون المعرفة الجديدة بالحركات والضغوط فى السوائل والغازات ، وتكوين القلوى ، وقوانين التذبذب ، ومسارات الاسقاط والقذف، وتنقية المعادن. واستخدم البارود فى تفجير المناجم (١٦١٣) وفى ١٦١٢ اخترع سيمون ستورتفانت طريقة لانتاج فحم « الكوك» لتخليصه

من العناصر المتطايرة . فهذا « الكوك » له قيمته وأهميته فى صناعة المعادن ، لأن شوائب الفحم العادى تصر بالحديد ، وقد حل محل الفحم النباتى وأنقذ الغابات . وقلت تكلفة صناعة الزجاج ، حيث عم استعمال زجاج النوافذ فى ذاك العصر . وبنمو الصناعة تضاعفت المخترعات الميكانيكية. لأنها كانت تعود إلى أبحاث العلماء أقل منها إلى مهارات الصناع الذين يتوقون إلى توفير الوقت . ومن هنا فاننا نسمع لأول مرة عن المخراط اللولبى فى ١٥٧٨، واطار الحبك والربط فى ١٥٨٩ . والمسرح الدائر فى ١٥٩٧ ، وآلة درس القمح وقلم الحبر فى ١٦٣٦ .

وقام المهندسون آنذاك بأعمال فذة تستحق الاعجاب حتى فى أيامنا هذه، فقد رأينا كيف أن دومنيكو فونتانا هز رومه باقامة مسلة فى ميدان القديس بطرس . وابتدع ستفينوس مهندس موريس ناسو ، نظام البوابات للتحكم فى السدود — وهى حارسة جمهورية هولندة . واستخدم منفاخ ضخم فى تهوية المناجم ، والمضخات المعقدة فى رفع المياه إلى أبراج لتضخ المياه إلى البيوت والنافورات فى المدن مثل أوجزبرج وباريس ولندن وأنشئت قناطر ترووس على أساس القاعدة الهندسية البسيطة وهى أن المثلث لا يمكن أن يعدل شكله ألا يتغير طول أحد الجوانب . وفى ١٦٢٤ سارت غواصة تحت الماء لمسافة ميلين فى نهر التاميز(٤٨) . وتقدم جيروم كاردان وجامباتستا دللابورتا وسالومون دى كوز بنظرية الآلة البخارية خطوة إلى الأمام ، وفى ١٦١٥ وضع كوز وصفا لآلة لرفع الماء بفعل قوة تمدد البخار(٤٩) .

ولم تكن الجيولوجيا قد ولدت بعد ، حتى اللفظ نفسه لم يكن موجودا ، وكانت دراسة الأرض تسمى « علم المعادن » وجال النظر بعين الاجلال إلى قصة « الخلق » فى التوراة دون المقامرة بالبحث فى نشأة الكون . ورمى برنارد باليسى بالزندقة لآرائه الفكرية القديمة التى تقول بأن الأحافير والمستحاثات ليست إلا بقايا متحجرة لكائنات ميتة. وغامر ديكارت بالقول

بأن الكواكب السيارة بما فيها الأرض كانت يوما كتلا متوهجة مثل الشمس، وعندما برد الكوكب، كون قشرة من السوائل والمواد الصلبة فوق نار مركزية داخلية ، أنتج دخانها الينابيع الحارة والبراكين والزلازل(٥٠) .

وتقدمت الجغرافيا بفضل البعثات التبشيرية والرواد والتجار الذين أرادوا نشر دياناتهم أو التوسع فى العلم والمعرفة أو التجارة . وفى ١٥٦٧ وما بعدها ارتاد الملاحون الأسبان البحار الجنوبية،وكشفوا جزيرة جوادالقنال وغيرها من جزر سليمان — وسميت كذلك على أمل العثور هناك على كنوز سليمان . وزار المبشر البرتغالى بيكوياس (الذى أخذ أسيرا فى الحبشة (١٥٨٨) ، النيل الأزرق . وحل لغزا قديما بأن فيضان النيل المنتظم ليس له من سبب ألا فعل الأمطار فى مرتفعات الحبشة. وواضح أن وللم جانسزون كان أول من وطئت قدماه أرض استراليا (١٦٠٦) . وكشف آبل تسمان تسمانيا و نيوزيلند (١٦٤٢) وجزر فيجى (١٦٤٣) ودخل التجارالهولنديون سيام وبورما والهندالصينية . ولكن المعلومات عن هذه البلاد وعن الصين ، وردت إلينا أساسا عن طريق المبشرين الجزويت . وبأمر من هنرى الرابع ملك فرنسا ارتاد صمويل تشامن ساحل نوفاسكوشيا وصعد فى نهر سانت لورنس إلى قرب مونتريال، وأسس أتباعه مدينة كويك ، وبينوا على الخريطة البحيرة التى تحمل اسمه .

وكافح صانعو الخرائط حتى لا يتخلفوا كثيراً عن الرواد والمستكشفين، ومنهم جيراردوس مركيتور (جيرهارد كريمر) الذى درس فى لوفان،وأسس محلا لصنع الخرائط والأدوات العلمية والكرات الأرضية . وفى ١٥٤٤ قبض عليه وحوكم بتهمة الهرطقة ، ولكنه تفادى العواقب الوخيمة ، فوجد على أية حال أنه من الحكمة أن يقبل دعوة وجهت اليه من جامعة دوزبرج ، حيث أصبح رساما للخرائط لدى دوق جوليس كليفز (١٥٥٩) . وطوال حياته التى امتدت اثنين وثمانين عاما ، جهد مركيتور دون كلل أو ملل فى رسم خرائط

للفلاندرز واللورين وأوربا والأرض . وفى مؤلفه المشهور « الوصف الجديد الدقيق للارض وطرق الملاحة» (١٥٦٨) أدخل نظام « الأسقاط المركاتورى» فى الخرائط الذى أدى إلى تيسير الملاحة. باظهار دوائر خطوط الطول موازية بعضها لبعض ، ودوائر العرض خطوطا مستقيمة ، وكلتا المجموعتين من الخطوط تشكل زوايا قائمة ، الواحد منها مع الآخر . وفى ١٥٨٥ شرع فى اصدار « أطلسه» الكبير (ونحن مدينون له بالفضل فى استخدام هذا اللفظ)، محتويا على إحدى وخمسين خريطة،فى اتقان ودقة لم يسبق لهما مثيل،وصف فيها الأرض المعروفة آنذاك . ودخل صديقه أبراهام أورتل فى مبارات معه بكتابه الجامع « مدار الأرض » (أنتورب ١٥٧٠) . أن هذين الرجلين كليهما حرر الجغرافيا من ارتباطها الألفى السعيد بيطلميوس (الفلكى السكندرى فى القرن الثانى الميلادى) ، ووضعاها فى شكلها الحديث . وبفضلها احتفظ الهولنديون بمـــا يكاد يكون احتكارا تاما لصناعة الخرائط طيلة قرن من الزمان .

٥ — العلم والحياة

وكان على علم الإحياء (البيولوجيا) أن ينتظر قرنين من الزمان حتى يتسنم الذروة ، ونشأ علم النبات على مهل من خلال الدراسات الطبية للأعشاب العلاجية واستيراد النباتات الغريبة إلى أوربا وجلب المبشرون الجزويت لحاء الشجر من بيرو (الكينين) والونيلية (نبات أمريكى استوائى ، الفانيليا) والراوند . وأدخل البطاطس حوالى ١٥٦٠ من بيرو إلى أسبانيا ، ومنها انتشر فى أنحاء القارة . ووصف برسبيرو ألبينى أستاذ علم النبات فى بادوا خمسين نباتا أجنبيا زرعت مجددا فى أوزبا . ومن دراساته لنخيل البلح استدل على التكاثر الجنسى فى النبات الذى أوضحه تيوفراستوس فى القرن الثالث ق . م . يقول ألبينى : « إن إناث نخيل البلح لا تحمل ثمرا إلا إذا اختلطت أغصان الأشجار الذكور والأشجار الإناث بعضها ببعض ، أو كما يحصل عادة ، إلا إذا تناثر

الغبار الموجود فى غلاف الأشجار الذكور أو أزهار الأشجار الاناث[٥١] . وقد يقسم لناؤوس فيما بعد النباتات وفقا لطرق تكاثرها ، ولكن الآن فى ١٥٧٣ قدم أندريا سيسالبينو الفلورنسى أول تقسيم منهجى للنباتات ، ١٥٠٠ نوع منها ـ على أساس بذورها وثمارها المختلفة . وأورد جاسبار بوهين (من مدينة بازل) فى مؤلفه الضخم « جدول عالم النبات » (١٦٢٣) تصنيفا لنحو ٦٠٠٠ نبات ، وبذلك استبق ما أنجزه بعد ذلك ليناؤوس من تصنيف وتسمية ثنائية تبعا للجنس والصنف ، وقضى بوهين أربعين عاما فى إعداد « جدول النبات » ، ومات بعد سنة من صدوره ، وبقى مرجعا أساسيا لمدة ثلاثة قرون .

وبدأت « معشبات الأطباء الخاصة تتطور الآن إلى حدائق نباتية تديرها الجامعات أو الحكومات للجمهور . وكان لأقدمها التى أسست فى بيزا ١٥٤٣ ، شهرة كبيرة أيام سيسالبينو . وأسس فى زيوريخ حديقة نباتية فى ١٥٦٠ ، ثم فى بولونا وكاسل وليدن وليبزج وبرسلا وبازل وهيدلبرج وأكسفورد . وفى ١٦٢٥ نظم جى‌دى لابروس ـ طبيب لويس الثالث عشر « حديقة النباتات الطبية » المشهورة فى باريس . أما حدائق الحيوان ، بوصفها معارض للوحوش لتسلية الجماهير ، فقد وجدت فى الصين (١١٠٠ ق . م) وفى روما القديمة ، وفى المكسيك أيام الأزتيك (حوالى ١٤٥٠) ، أما الطراز الحديث فقد افتتح فى درسدن فى ١٥١٤ ، وفى فرساى فى عهد لويس الثالث عشر .

ولقى علم الحيوان عناية أقل مما لقى علم النبات ، لأنه قدم علاجات أقل ، اللهم إلا فى الطب الأسطورى أو الخرافى ، وفى ١٥٩٩ شرع يوليس ألدروفاندى فى نشر ١٣ مجلدا ضخما فى التاريخ الطبيعى ، وعاش حتى رأى ستة منها فى المطبعة ، ونشر سناتو بولونا السبعة الباقية من مخطوطات المؤلف على نفقة الدولة . ولم يحتل مكان هذه المجلدات أو ينسخها إلا كتاب بوفون « التاريخ الطبيعى » (١٧٤٩ - ١٨٠٤) . وابتدأ الجزويتى المتعدد الثقافات أثناسيوس

كيرشر علم الأنسجة العضوية بكتابه الذى وصف فيه (١٦٤٦) الديدان المتناهية الصغر التى وجدها مجهره (الميكروسكوب) فى المواد المتعفنة . أن الاعتقاد بتوالد الكائنات الدقيقة توالدا تلقائيا من اللحم المتعفن أو الفاسد ، أو حتى من الطين ، كاد يكون سائدا تماما ، ولو أن هارفى كان على وشك أن يدحضه فى كتابه « توالد الحيوان » (١٦٥١) . وكان علم الحيوان متخلفا ، لأن نفرا قليلا من المفكرين رأوا الأجداد العليا للحيوان كما رأوهم فى الإنسان ولكن فى ١٦٣٢ كتب جاليليو إلى دوق تسكانيا الأكبر : « ولو أن التباين بين الإنسان وسائر الحيوان هائل جدا ، فإنه يمكن القول بحق بأنه أكثر قليلا من التباين بين بنى البشر أنفسهم[٥٢] » . أن العقل الحديث كان يرتد ببطء إلى ما عرفه الاغريق قبل ذلك بألفى عام .

وآوى علم التشريح إلى شيء من الركود بعد جهود فيساليوس . وكان تشريح الجثث لا يزال محل معارضة ـ كما فعل هوجو جروتيوس[٥٣] . ولكن « دروس التشريح » الكثيرة فى الفن الهولندى تعكس الارتياح العام إلى هذا العمل . والاسم اللامع هنا ، مثلما هو فى الجراحة هو جيولامو فابرزيو أكوابندانت . تلميذ فللوبيو وأستاذ هارفى . وفى أثناء رياسته لجامعة بادوا شيدت هناك قاعة التشريح الكبرى ـ وهى المبنى الوحيد المحتفظ به كاملا من تلك الحقبة ، إن اكتشافه للصمامات فى الأوردة ، ودراساته فى تأثيرات الأربطة قادتا هارفى إلى شرح الدورة الدموية وتقدمت المعرفة بدورة السوائل فى الجسم خطوة إلى الأمام بكشف جاسبارو أسللى الأوعية اللمفاوية التى تنقل الكيلوس الشبيه باللبن (مستحلب الطعام المهضوم قبل امتصاصه) من الأمعاء الدقيقة . والحق أن أسللى ، على الرغم من اسمه « الجحش الصغير » وصف الدورة الدموية قبل أن ينشر هارفى نظريته بست سنين . وكان اندريا سيسالبينو قد شرح النظرية الأساسية (١٥٧١) قبل هارفى بنصف قرن . وظل يتعلق بالفكرة القديمة ، وهى أن بعض الدم يمر من الحجاب الحاجز للقلب ، ولكنه

اقترب ، أكثر من هارفى ، من شرح كيفية انتقال الدم من الشرايين إلى الأوردة إن أنبل الجيوش كانت تتقدم على مائة جبهة لتخوض أعظم الحروب والمعارك إنها معارك العلم .

٦ ـ العلم والصحة

وفى هذا النضال من أجل العلم والمعرفة ، كانت المعركة الأساسية هى معركة الحياة ضد الموت ، وهى معركة خاسرة على الصعيد الفردى ، ظافرة بانتظام على المستوى الجماعى . وكم للأطباء والمستشفيات ، فى نضالهم لعلاج الأمراض والآلام ، من أعداء بشريين فى القذارة الشخصية ، والقذارة العامة ، والسجون الكريهة الرائحة والمثيرة للاشمئزاز ، والدجالين وجرعاتهم السحرية ، والمتصوفين والعلميين ، ومعالجى الفتق ، ندبى الحجارة ، ومعالجى اعتام عدسة العين ، وخالعى الأسنان ، هواة تحليل البول . وصـــارت الأمراض الجديدة فى سباق مع العلاجات والأدوية الجديدة .

وكان مرض الجذام قد اختفى ، وقلت الوسائل الوقائية من الاصابة بمرض الزهرى ، وكان فاللوبيو قد اخترع (١٥٦٤) غلافات من الكتان لإتقاء عدوى هذا المرض . (وسرعان ما استخدم هذا لمنع الحمل ، وكان يباع لدى الحلاقين والمومسات أو أصحاب المواخير[٥٤]) . ولكن أوبئة التيفوس والتيفود والحمى والملاريا والدفتريا ، والاسقربوط والانفلونزا والجدرى والدوسنطاريا ، ظهرت فى تلك الحقبة فى عدة أقطار فى أوربا ، وبخاصة ألمانيا . وثمة احصاءات قد يكون مبالغا فيها ، بأن الوفيات بلغت ٤٠٠٠ من الطاعون الدملى فى بازل ١٥٦٣ — ١٥٦٤ ، وأن ٢٥٪ من سكان فريبورج ـ أم ـ بريزو ماتوا بالطاعون ١٥٦٤ ، و ٩٠٠٠ فى ردستوك ، و ٥٠٠٠ فى فرانكفورت ١٥٦٥ ، ٤٠٠٠ فى هانوفر ، و ٦٠٠٠ فى برونزويك ١٥٦٦[٥٥] وعزا السكان المذعورون مثل هذا الطاعون إلى دس السموم عمدا . وفى فرانكشتين فى سيليزيا أحرق ١٧ شخصا

أحياء حتى الموت للاشتباه فى أنهم دسوا السم[٥٦] . وكانت وطأة الطاعون الدملى شديدة جدا فى فرانكفورت فى ١٦٠٤ حتى لم يعد هناك من الرجال من يكفى للقيام بدفن الموتى[٥٧] . وتلك مبالغات واضحة ، ولكن يروى عن مصادر موثوقة أنه بسبب الطاعون الدملى فى إيطاليا ١٦٢٩ – ١٦٣١ مات فى ميلان ٨٦ ألفا ، وفى جمهورية البندقية ما لا يقل عن ٥٠٠ ألف ، وفيما بين ١٦٣٠ – ١٦٣١ كان عدد ضحايا الطاعون مليون شخص فى جنوب إيطاليا وحده[٥٨] ، وقلما سار معدل الانجاب عند النساء مع شدة الدهاء وسعة الحيلة فى إزهاق الأرواح . وضوعفت آلام الوضع بتزايد عدم جدواه . وكانت نسبة الوفيات فى الأطفال تبلغ خمس المواليد قبل إتمام السنة الثانية من العمر[٥٩] وكانت الأسرات كبيرة والسكان قليلين .

وكانت الصحة العامة آخذة فى التحسن ، والمستشفيات يتضاعف عددها وتعليم الطب يصطبغ بالتشدد والصرامة – ولو أنه كان من الميسور الاشتغال بالطب دون الحصول على درجة علمية . وكان فى بولونا وبادوا وبازل وليدن ومونبلييه وباريس مدارس طب ذائعة الصيت تجذب إليها الطلاب من كل أنحاء أوربا الغربية . وأمامنا مثال فذ من البحث الطبي الدؤوب طيلة ثلاثين عاما من التجارب حاول بها سانكتوريوس تحويل العمليات الفسيولوجية إلى نظم كمية . وأنجز قدرا كبيرا من عمله بينما كان جالسا إلى مائدة على ميزان كبير ، وسجل ما يطرأ على وزنه من تغيرات عند دخول أو خروج المواد الصلبة والسوائل ، بل إنه وزن العرق نفسه . ووجد أن جسم الانسان يخرج بضعة أرطال يوميا عن طريق التنفس العادى . وانتهى إلى أن هذا شكل جوهرى من أشكال الطرد أو التخلص من الزوائد . واخترع مقياسا طبيا للحرارة (١٦١٢) وآخر للنبض ، ليعاون هذا وذاك فى تشخيص الأمراض .

وكان العلاج يتدرج من الضفدعة إلى العلقة . ووصف بعض مشاهير الأطباء ، كعلاج ، الضفادع المجففة تخاط فى كيس يعلق على الصدر ، كصيدة

يتصيد ويمتص الهواء الفاسد المسموم المحيط بالجسم فى المناطق المصابة بالطاعون[٦٠] . وجمعوا بين امتصاص الدم بالعلقات أو بالحجم ، وبين تناول مقادير كبيرة من الماء ، على أساس أن بعض السائل الداخل إلى الجسم سوف يتحول إلى دم جديد غير ملوث .وكانت ثمة مدرستان للعلاج تتباريان على الفريسة ، وهو المريض : مدرسة العلاج الميكانيكى التى نشأت عن آراء ديكارت التى تقول بأن كل عمليات الجسم ميكانيكية ، ومدرسة العلاج الكيميائى التى بدأها باراسلسوس ، وطورها هلمونت . والتى تفسر كل وظائف الأعضاء بأنها كيمياوية . وكانت المعالجة المائية العلمية شائعة . وكانت المياه العلاجية موجودة فى باث انجلترا ، وفى سبا فى الأراضى الوطيئة ، وفى بلومبيير فى فرنسا ، وفى أماكن أخرى كثيرة على الراين وفى إيطاليا ، وقد رأينا مونتيني يجرب العلاج بالمياه فى هذه الأماكن ، ونثر حصى الكلى طوال الطريق . وأدخل إلى أوربا عقاقير جديدة ، مثل الناردين (حوالى ١٥٨٠) ، والأنتيمون (الأثمد) حوالى ١٦٠٣ ، وعرق الذهب (١٦٢٥) ، والكينين (١٦٣٢) .ودون دستور الصيدلة والأدوية فى انجلترا (١٦١٨) نحو ١٩٦٠ عقارا . ويذكر مونتيني علاجات خاصة ادخرها نفر من الأطباء لمرضاهم الصبورين

القدم اليسرى لسلحفاة ، بول السحلية ، روث الفيل ، كبد حيوان الخلد . الدم المستخرج من الجناح الأيمن لحمامة بيضاء . وبالنسبة للمصابين بحصى الكلى مثلى .... روث الفأر المسحوق ... وغير ذلك من السخافات التى توحى بالسحر والتعاويذ أكثر منها بالعلم الجاد[٦١] .

وكانت مثل هذه العلاجات التافهة الغريبة باهظة التكاليف إلى حد كبير وكان الناس فى القرن السابع عشر يئنون من أثمان الدواء أكثر مما يضجون من أجور الأطباء[٦٢] .

وترك طب الأسنان للحلاقين ، وكان يقوم فى معظمه على الخلع . وكان بين « الحلاقين الجراحين » آنذاك جماعة من المحترفين المهرة ، من أمثال امبرواز بارى ، فرانسوا روست ، اللذين أحييا الخلع القيصرى ، وجسباره طلياكوتسى المتخصص فى إعادة تشكيل الأذن والأنف والشفاة ، من لدائن البلاستيك . وقد اتهمه الأخلاقيون بالتدخل فى صنع الله ، ونبشت رفاته من الأرض المطهرة ، ودفنت فى أرض غير مقدسة (٦٣) . وكان ولهلم فبرى « أبو الجراحة فى ألمانيا » أول من أوصى ببتر العضو أو الطرف فوق الجزء المصاب . وأورد جيوفنى كول أقدم وصف معروف لعمليـــة نقل الدم (١٦٢٨) .

وامتعض المرضى من أجر الطبيب ، كما هو الحال فى كل العصور . وسخر الممثلون الهزليون من ردائه الطويل وحذائه الاحمر ، ومن رزانته ووقاره وهو إلى جانب فراش المريض ، وإذا كان لنا أن نصدق هجو الممثلين الهزليين الفكاهيين ، فإن مكانته الاجتماعية لم تكن تعلو كثيرا من مرتبة المعلم ، ولكننا لو رجعنا إلى تاريخ « درس التشريح » لرمبرانت ، لشهدنا طبقة من الرجال تتمتع بمنزلة رفيعة فى المجتمع ، قادرة حتى على الاسهام فى لوحة عظيمة . أن أعظم فلاسفة ذاك العصر ، الذى كان يحلم ، كما يحلم كل منا ، بمستقبـل أفضل للبشرية ، فكر فى تحقيق حلمه على أساس تحسين الخلق الانسانى والنهوض بالعلوم الطبية ، بوصفهما أكثر العوامل ملاءمة لمثل هذه الثورة : وفى هـذا يقول ديكارت : « إن العقل نفسه يعتمد كثيراً على سلامة أعضاء الجسم وتنظيم أدائها لوظائفها ، إلى حد أنه إذا كان من الميسور أن نفتش عن وسيلة تزيد بها من عقل الانسان وقدرته ، فاعتقادى أنه ينبغى أن نلتمسها فى الطب والدواء »(٦٤) .

٧ — من كوبرنيكس إلى كبلر

لقد تركنا علم الفلك لنعرض له فى خاتمة المطاف ، لأن أبطاله ، وهم يقتربون من نهاية هذه الفترة ، يشكلون العناصر الرئيسية فيها .

أن نفس الكنيسة التى كان عليها أن تخرس جاليليو ،قادت الطريق إلى أحد المنجزات العظمى فى علم الفلك الحديث — ألا وهو إصلاح التقويم . أن مراجعة التقويم التى كان قد قام بها سوسيتز ايوليوس قيصر حوالى ٤٦ ق . م. أدت إلى زيادة السنة باحدى عشرة دقيقة و١٤ ثانية . ومن ثم فانه فى ١٥٧٧ تخلف التقويم اليوليانى عن تعاقب الفصول بنحو ١٢ يوما ، وبذلك لم تقع أعياد الكنيسة فى المواعيد التى قصد لها أن تقع فيها . وكم من محاولات بذلت لاصلاح التقويم : فى عهد كليمنت السادس ، سكستس الرابع ، ليو العاشر — ولكن نشأت عوائق جمة ، منها عدم اتفاق الجميع على حل معين . وعدم توفر المعرفة الدقيقة بالفلك . وفى ١٥٧٦ قدم إلى البابا جريجورى الثالث عشر تقويم قام بتصويبه لويجىججليو . وأحاله البابا إلى لجنة من اللاهوت والمحامين ورجال العلم ، ومن بينهم الجزويتى البافارى كرستوفر كلافيوس الذى اشتهر بتضلعه فى الرياضيات والفلك ، وواضح أن المخطط النهائى كان من صنعه . واستمرت المفاوضات طويلة مع الأمراء والأساقفة لتحقيق تعاونهم فى هذا المجال وأثيرت اعتراضات كثيرة وأخفقت المساعى التى بذلت للحصول على موافقة الكنائس الشرقية . وفى ٢٤ فبراير ١٥٨٢ وقع البابا جريجورى الثالث عشر المرسوم الذى أقر « التقويم الجريجورى » فى العالم الكاثوليكى . ومن أجل التعادل بين التقويم القديم والحقائق الفلكية ، حذفت عشرة أيام من شهر أكتوبر ١٥٨٢ ، أى أن اليوم الخامس اعتبر اليوم الخامس عشر ، وعمدوا من أجل ذلك إلى ضروب معقدة من الحسم والخصم فى حساب الفوائد وغيرها من المعاملات التجارية . وللتعويض عن الخطأ فى التقويم اليوليانى ، فانهم زادوا فى سنوات القرون التى تقبل القسمة على ٤٠٠ ، يوما فى شهر فبراير ليصبح ٢٩ يوما .

وعارضت البلاد البروتستانتية هذا التغيير. وتمرد الأهالى فى فرانكفورت (على نهر السين) وفى بريستول، اعتقاداً منهم بأن البابا أراد أن يسلبهم عشرة أيام بل أن مونتينى نفسه زمجر وشكا، وهو الشديد الطمع فى الزمن، فقال «إن ما عمد اليه البابا أخيراً من اختصار عشرة أيام من السنة قد أزعجنى إلى حد أنى لا أكاد استرد عافيتى[٦٥]، ولكن التقويم الجديد — الذى لن يحتاج إلى تصويب آخر لمدة ٣٣٢٣ سنة — أخذ بالتدريج يلقى قبولا فى الولايات الألمانية فى ١٧٠٠، وفى انجلترا فى ١٧٥٢، وفى السويد فى ١٧٥٣، وفى روسيا ١٩١٨[*].

وثمة تلكؤ شبيه بهذا حدث فى ارتضاء وتقبل فلك كوبرنيكس. وكان من الممكن دراسته وتعليمه فى إيطاليا، لو أنه عرض على أنه فرضية قابلة للجدل، لا على أنه حقيقة واضحة[٦٦]. ودافع عنه جيوردانو برونو، وتساءل بالفعل كمبانللا إذا كان سكان الكواكب الأخرى ظنوا أنفسهم، كما يظن أهل الأرض، أنهم مركز الأشياء، وهدفها[٦٧]. وتسابق اللاهوتيين البروتستانت مع الكاثوليك عامة فى إستنكار الطريقة الجديدة، ودحضها بيكون وبودين على السواء[٦٨]. والأغرب من هذا كله أن أعظم الفلكين فى نصف القرن التالى لوفاة كوبرنيكس (١٥٤٣)، رفضها كذلك.

ولد تيكو براهى فى ١٥٤٦، فى مقاطعة سكانيا التى كانت آنذاك دنمركية

(*) من الناحية المثالية كان يمكن تقسيم السنة إلى ١٣ شهرا فى كل منها ٢٨ يوما، مع يوم أجازة لا تاريخ له (أو يومين فى السنة الكبيسة) فى نهاية العام. ومن ثم يكون التقويم فى الصحيفة الواحدة، مع بعض إشارات دوارة للدلالة على الشهر والسنة، نافعا لكل الشهور إلى ما لا نهاية، حيث يقع كل يوم من أيام الأسبوع فى نفس التواريخ على مر الشهور والأعوام. ويمكن أن تنقسم سنة العمل إلى شهور متساوية وارباع متساوية. ولكن هذا، مع اشد الأسف قد يزعج القديسين ويوقعهم فى حيرة.

وهى الآن فى الطرف الجنوبى للسويد ، وكان أبوه عضواً فى مجلس الدولة الدنمركى ، وأمه مديرة ملابس الملكة . أما عمه الثرى جورجن الذى انفطر قلبه غما لأنه لم ينجب أولاداً ، فقد اختطفه، وتملق أبويه واسترضاهما بكل الوسائل ، ابتغاء موافقتهما ، وهيأ للطفل كل فرص التعليم ووسائله . وفى سن الثالثة عشرة التحق تيكو بجامعة كوبنهاجن . وطبقا لما ذكره جاسندى ، انجذب تيكو إلى الفلك عندما سمع أحد المعلمين يناقش موضوع كسوف شمس قادم . ولحظ حدوث الكسوف كما تنبأوا به ، وعجب لهذا العلم الذى بلغ مثل هذه القدرة على التنبؤ ، واشترى نسخة من كتاب بطليموس « المجسطى » . وأكب عليها إلى حد أهمال سائر الدراسات . ولم يتخل قط عن النظرة الهندسية التى تجلت فى القرن الثانى من عصرنا .

وفى سن السادسة عشرة نقل إلى جامعة ليبزج ، حيث درس القانون بالنهار ، ودرس النجوم بالليل . وحذروه من أن مثل هذا العمل قد يؤدى إلى انحطاط فى الجسم وانهيار فى الأعصاب . ولكن تيكو أصر وثابر ،وأنفق كل ما يحصل عليه فى شراء الآلات الفلكية . وفى ١٥٦٥ مات عمه ، تاركا له ثروة كبيرة . وأسرع تيكو ، بعد تسوية أموره ، إلى وتنبرج ، لمزيد من الرياضيات والفلك ، ثم غادرها فراراً من الطاعون ، إلى روستوك ، وهناك اشترك فى مبارزة أطاحت بجزء من أنفه ، فاتخذ أنفاً براقاً جداً من الفضة والذهب ظل به بقية حياته . وانهمك فى التنجيم وتنبأ بموت سليمان القانونى ، ليجد أن السلطان قد فارق الحياة بالفعل(٦٩) . وبعد كثير من التجوال فى ألمانيا عاد إلى الدنمرك ، وشغل نفسه بالكيمياء . وأعاده إلى الفلك كشف نجم جديد فى مجموعة ذات الكرسى (١٥٧٢) . أن ملاحظاته السعيدة لهذا النجم المتنقل ، وما كتبه عنه فى أول مؤلف نشر له « النجم الجديد » أكسباه شهرة فى كل أنحاء أوربا . ولكن أزعجا بعض وجهاء الدنمرك الذين اعتقدوا أن التأليف ضرب من حب الظهور الذى لايليق بالدم الأزرق . وأذهلهم

تيكو بزواجه من بنت فلاحة . ويبدو أنه أحس بأن زوجة وربة بيت بسيطة، خير رفيق لفلكى منصرف بكليته إلى الفلك ، وأحسن صفو منفتح سمح لرجل ذى أنف ذهبى .

ولما لم يقنع تيكو بالتسهيلات الفلكية فى كوبنهاجن ، فإنه اتخذ طريقه إلى كاسل ، حيث كان الدوق وليم الرابع قد بنى ١٥٦١ أول مرصد ذى سقف دوار ، وطور يوست بورجى ساعة حائط ذات رقاص (بندول) جعلت من الميسور تحديد أوقات رصد النجوم وحركاتها فى دقة لم يسبق لها مثيل . وامتلأ تيكو حماسا جديداً فعاد إلى كوبنهاجن ، وأثار اهتمام فردريك بمشروع لإقامة مرصد . فوضع الملك تحت تصرفه جزيرة هفين (فينوس) فى مياه السوند . وأجرى عليه راتبا كبيراً، واستطاع تيكو بهذا المال بالإضافة إلى موارده الخاصة ، أن يشيد هناك قصراً وحدائق أطلق عليهما أورانيبرج (مدينة السماء) ، وكانت تضم مساكن ومكتبة ومعملا وعدة مراصد ومصنعا لما تحتاج إليه من آلات . ولم يكن لديه مقراب (تلسكوب) ، حيث كان لابد من انتظار ثمانية وعشرين عاما حتى يتم اختراعه — على أن أرصاد تيكو هى التى قادت كبلر إلى اكتشافات قيمة كانت فاتحة لعصر جديد .

وطيلة إحدى وعشرين سنة فى جزيرة هفين جمع تيكو وتلاميذه من المادة ما يفوق فى حجمه ودقته أية مادة معروفة من قبل . وسجل كل يوم ، ولعدة سنوات ، حركة الشمس الظاهرية ، وكان من أوائل الفلكيين الذين أدخلوا فى حسابهم انحراف الضوء وأخطاء الراصدين والآلات، ولذلك عاود أرصاده وملاحظاته مرات ومرات . وكشف عن التغيرات فى حركة القمر ووضعها فى صيغة قانون . وأدى به تدقيقه الشديد فى تفقد أحد المذنبات فى ١٥٧٧ إلى الاعتقاد السائد فى العالم الآن ، بأن المذنبات أجرام سماوية حقيقية تتحرك فى مدارات محددة منتظمة ، بدلا من كونها تنشأ فى الغلاف الجوى للارض . وعندما نشر تيكو الثبت الذى جمعه عن ٧٧٧ نجما ، وحددها بعناية فائقة على القبة السماوية الضخمة فى مكتبته، فإنه بذلك برر حياته .

وتوفى فردريك الثانى فى ١٥٨٨ . وكان الملك الجديد طفلا فى الحادية عشرة ، ولم يطق الأوصياء الذين تولوا الحكم صبرا على غرور تيكو براهى وحدته وإسرافه . كما فعل فردريك من قبل . وسرعان ما انخفضت المنح الحكومية ثم انقطعت فى ١٥٩٧ . فغادر تيكو الدنمرك ، واستقر به المقام فى قلعة بنائك ، بالقرب من براغ ، ضيفا على الإمبراطور رودلف الثانى الذى أمل فى الحصول منه على نبوءات تنجيمية . وأحضر تيكو آلاته وسجلاته من هيمن ، وأعلن عن مساعد . فجاءه كبلر (١٦٠٠) ، وعمل مع سيده الذى يصعب التعامل معه وإرضاؤه ، عملا متقطعا ، ولكنه كان مخلصا فيه . وفى الوقت الذى كان فيه تيكو يتوق إلى الخروج من المادة الغزيرة التى جمعها بنظرية معقولة عن السموات ، دهمه وهو جالس إلى المنضدة انفجار فى المثانة ، وبقى يتلوى من الآلام لمدة أحد عشر يوما ثم فارق الحياة (١٦٠١) . وهو حزين على عدم اتمام عمله . وقال خطيب الجنـــازة أنه « لم يطمع فى شىء سوى الوقت[٧٠] » .

٨ — كبلر : ١٥٧١ — ١٦٣١

كان انتقال تيكو إلى براغ من حسن حظ العلم ، لأن كبلر ورث أرصاده وملاحظاته ، واستنتج منها قوانين الكواكب التى مهدت لنظرية نيوتن فى الجاذبية . وبجمعت ، من براهى إلى كبلر إلى نيوتن . ومن كوبرنيكس إلى جاليليو إلى نيوتن ، خطوط أساسية لتكون علم الفلك الحديث .

ولد كبلر فى فيل Weil بالقرب من شتتجارت ، وكان أبوه ضابطا فى الجيش ، طالما خرج للحرب مؤثرا ميدانها على حياة المنزل ، وأخيرا عاد وافتتح حانة اشتغل يوهان نادلا فيها . وكان الصبى سقيما معتل الصحة ، شل الجدرى يديه وأضعف باستمرار بصره . ورأى منه دوق رورتنبرج أنه يمكن أن يصبح واعظا فاضلا . فتولى الانفاق على تعليمه . وفى توبنجن ، حول ميكائيل ماستلن الذى كان يقوم بتدريس فلك بطلميوس — حول كبلر سرا إلى

نظرية كوبر نيكس . وتحمس الشاب للنجوم إلى حد أنه تخلى عن التفكير فى أى عمل كنسى .

وبعد الحصول على الدرجة الجامعية أصبح كبلر مدرسا فى ستيريا ، يعلم اللاتينية والبلاغة والرياضيات مقابل ١٥٠ جلدن فى العام ، مع مسكن بالمجان ، يضاف إلى هذا ٢٠ جلدن لقاء تحرير تقويم تنجيمى سنوى . وفى سن الخامسة والعشرين تزوج كبلر من سيدة فى الثالثة والعشرين ، كانت قد شيعت زوجا لها إلى مثواه الأخير ، وانفصلت عن زوج ثان ، وقدمت له هذه السيدة مهراً وأتت إليه بابنة ، وأضاف هو ستة أطفال بمرور الزمن . وبعد سنة من الزواج أرغم كبلر على مغادرة جراز لأنه كان بروتستانتيا (١٥٩٧) ، وكان فرديناند دوق ستيريا الجديد كاثوليكيا صميما فأصدر أمره إلى كل رجال الدين والمعلمين البروتستانت بمغادرة بلاده . وكان كبلر قد اقترف إثما آخر بنشره « الكون الخفى » (١٥٩٦) الذى دافع فيه بحرارة عن نظرية كوبرنيكس ، وأرسل نسخا منه إلى تيكو وجاليليو ملاقى عونهما . وبعد سنة عانى فيها الفقر المدقع ، انقذته دعوة تيكو إياه إلى براج . ولكن كان من الصعب التعامل مع تيكو وارضاؤه . ولقى كبلر عنتا فى العقيدة وفى كسب العيش . وأنتاب الزوجة مرض عصبى . بعد ذلك توفى تيكو ، وعين كبلر خلفا له براتب سنوى قدره ٥٠٠ فلورين .

وكان تيكو براهى قد أوصى لكبلر بسجلاته ، ولم يورثه آلاته . ولما لم يستطع شراء أحسن الآلات ، فإنه وجد نفسه مسوقا إلى دراسة أرصاد تيكو وملاحظاته دون أن يضيف إليها شيئاً . وما كان له أن يقول مع نيوتن « إنى أخترع فروضا » ، بل على العكس . امتلأ رأسه بالفروض وبات يهيمهم بها ، « عندى ذخيرة من المخترعات أو من ثمرات الخيال[٧١] » . وكانت مهارته الفذة تكمن فى أختبار الفروض . كما تمثلت حكمته وعقله فى طرحها جانبا ، إذا ثبت أن النتائج التى توصل إليها رياضيا ، لا تتمشى مع الظواهر التى رصدها أو لاحظها[٧٢] . وفى محاولته لتعيين مدار المريخ جرب ٧٠ فرضا على مدى أربع سنوات .

وفى آخر الأمر فى ١٦٠٤ توصل إلى كشفه الأساسى الممتاز الذى فتح عصراً جديدا — وهو أن مدار المريخ حول الشمس عبارة عن قطع ناقص، وليس دائرة، كما ظن الفلكيون ابتداء من أفلاطون ومن جاء بعده بما فيهم كوبرنيكس. فالمدار المتخذ شكل القطع الناقص هو الوحيد الذى ينسجم مع الأرصاد المتكررة التى قام بها تيكو وغيره. وقفز ذهن كبلر المتوقد الذكاء إلى التساؤل: ماذا لو كانت مدارات كل الكواكب على شكل قطع ناقص؟ وبادر إلى تفحص الفكرة على أساس الملاحظات والأرصاد المدونة، فاتفقت معها اتفاقا يكاد يكون تاما. وفى رسالة باللاتينية عن حركات المريخ «الفلك الجديد وحركة المريخ» (١٦٠٩) نشر أول قانونين من «قوانين كبلر» أولهما: أن كل كوكب يدور فى مدار على شكل قطع ناقص، الشمس إحدى بؤرتيه، والثانى أن سرعة دوران الكوكب تزيد كلما قرب من الشمس، لا كلما ابتعد عنها، وأن نصف القطر الذى يمتد من الشمس إلى الكوكب يقطع، فى دورانه مسافات متساوية فى أزمنة متساوية، وعزا كبلر الاختلافات فى سرعة الكواكب إلى زيادة انبثاق الطاقة الشمسية التى يحسها الكوكب كلما اقترب من الشمس، ومن هذه الناحية طور كبلر عن جلبرت فكرة الجذب المغناطيسى وهى قريبة جدا من نظرية نيوتن فى الجاذبية.

وعند موت الامبراطور رودلف (١٦١٢) انتقل كبلر إلى لنز، وعاد ثانية إلى العيش على التعليم فى المدارس، وماتت زوجته فتزوج من بنت فقيرة يتيمة. وفيما كان يزود بيته الجديد بالخمر، افتتن بالصعوبة التى لقيها فى تقدير محتويات قنينة ذات جوانب منحنية. وساعد البحث الذى نشره عن هذه المسألة على التمهيد لاكتشاف حساب التفاضل (الكميات المتناهية الصغر).

وبعد أن فكر كبلر لمدة عشر سنوات تفكيرا عميقا فى إيجاد العلاقة بين سرعة الكوكب وحجمه، نشر فى كتابه «تناسق الكون» (١٦١٩) قانونه الثالث، مربع زمن دورة الكوكب حول الشمس يتناسب مع الجذر التكعيبى

لمتوسط بعده عن الشمس (مثال ذلك . أن زمن دورة المريخ يمكن إثبات أنه ١٫٨٨ من زمن دورة الأرض ، ومربع هذا هو ٣٫٥٣ والجذر التكعيبي لهذا هو ١٫٥٢ ، أى أن متوسط المسافة بين المريخ والشمس يصبح ١٫٥٢ من المسافه بين الأرض والشمس . وكان لكبلر أن يبتهج أيما ابتهاج لوضعه دوران الكواكب بمثل هذا الترتيب والانتظام إلى درجة أنه شبه كل سرعة فى المدار بنغمة على السلم الموسيقى ، وانتهى إلى أن الحركات مجتمعة شكلت « تناغم النجوم » الذى لاتسمعه ، على أية حال ، إلا « روح » الشمس . ومزج كبلر علمه بالتصوف موضحا مرة أخرى مقالة جوته الكريمة . إن عيوب الإنسان هى أخطاء زمانه ، على حين أن فضائله هى من عنده . ويمكن أن نغتفر غروره حين كتب فى مقدمة « تناسق الكون » ،

أن ما وعدت به أصدقائى فى عنوان هذا الكتاب . . . وما أثرته منذ ١٦ عاما كموضوع يستحق البحث . وهو الذى من أجله انضممت إلى تيكوبراهى . . . وهو الذى خصصت له أحسن سنى حياتى ، ، . . قد أخرجته اليوم إلى النور . . . لم تمض بعد ثمانية عشر شهرا حين سقطت الشمس المشرقة على . . . ان يعوقنى شىء ، سوف أطلق العنان لثورتى المقدسة . . . إذا غفرتم لى فلسوف أبتهج . . . ولئن غضبتم فلسوف أحتمل غضبكم . . . سبق السيف العذل . لقد وضع الكتاب ، وليس يهمنى كثيرا أن يقرأ الآن ، أو أن تقرأه الذرارى والأعقاب ، ولم لا ينتظر قرنا ليجد قارئا ، كما انتظر « الله » الاله ستة آلاف عام حتى وجد مستكشفا[٧٣] .

وفى « خلاصة فلك كوبرنيكس » (١٦١٨ — ١٦٢١) أوضح كبلر كيف أن قوانينه أيدت وشرحت وأصلحت من نظرية كوبرنيكس ، فقال « لقد شهدت من أعماق نفسى بأنها صحيحة ، وإنى لأتأمل جمالها فى ابتهاج غامر لا يكاد يصدق[٧٤] » ، ووضعت الرسالة فى عداد الكتب المحظورة لأنها نمت

عن أن نظرية كوبرنيكس كانت قد أثبتت . ولم ينزعج كبلر ، وهو البروتستانتى الورع . وعاش لفترة قصيرة فى بحبوحة من العيش وسط التهليل والتصفيق . وكان بصفة عامة يتقاضى راتبه بوصفه فلكى الامبراطور ، ومن بريطانيا الثانية دعاه جيمس الأول (١٦٢٠) ليذهب إلى هناك ليزدان به البلاط الملكى ولكنه رفض الدعوة خشية أن يعانى من أن يصبح حبيسا فى جزيرة[٧٥] .

وشارك كبلر أهل زمانه فى الإيمان بالسحر ، واتهمت أمه بممارسته . وادعى بعض الشهود أن ماشيتهم ، بل أنهم هم أنفسهم ، قد انتابتهم العلل لمجرد أن « فرو كبلر » قد مستهم ، وأقسمت إحدى المشاهدات على أن ابنتها البالغة من العمر ٨ سنوات قد أصابها سحر أم كبلر بالمرض ، وهددت بقتل الساحرة إذا لم تبادر بإبراء البنت . وأنكرت المرأة المتهمة كل ما نسب إليها ، ولكن قبض عليها وأودعت السجن مكبلة فى الأغلال ، ودافع عنها كبلر فى كل مراحل نظر الدعوى . واقترح المدعى العام فى الولاية أن ينتزع منها الاعتراف بالتعذيب ، واقتيدت إلى غرفة التعذيب لترى الآلات المستخدمه فيه ، ولكنها ظلت تؤكد براءتها . وأفرج عنها بعد أن قضت فى السجن ثلاثة عشر شهرا . ولكنها ما لبثت أن ماتت (١٦٢٢) .

أن هذه المأساة بالاضافة إلى آثار نشوب الحرب هنا وهناك ، ملأت سنى كبلر الأخيرة بالغم والقتام . وفى ١٦٢٢ احتلت القوات الامبراطورية مدينة لنز وقارب سكانها أن يهلكوا جوعا . وفى وسط هذه الفوضى واصل كبلر صياغة أرصاده وملاحظاته ، وأرصـــاد تيكو وغيره من الفلكيين وملاحظـاتهم ، وتدوينها فى « الجداول الرودلفية » التى ضمت وصنفت ١٠٠٥ نجما ، وبقيت ذات قيمة معترف بها لمدة قرن من الزمان . وفى ١٦٢٦ انتقل إلى أولم . وأبطأ به راتبه الامبراطورى ولاقى عنتا شديداً فى الانفاق على أسرته . وأهاب بدوق والنشتين أن يعينه منجما ، فكان له ما أراد ، وظل لعدة سنوات يتبع القائد يحسب له الطالع وينشر التقاويم التنجيمية . وقصد فى ١٦٣٢ إلى رجنز برج يلتمس من الديت أن يدفع له رواتبه المتأخرة .

واستنزفت الجهود ما بقى له من قوى جسمية ، فإنتابته الحمى ، وأودت بحياته فى أيام قلائل (١٥ نوفمبر ١٦٣٠) وهو فى التاسعة والخمسين من العمر وقد طمست الحرب كل معالم قبره .

وكانت رسالته فى تاريخ الفلك أن يتوسط بين كوبرنيكس ونيوتن . وتقدم على كوبرنيكس بإحلاله المدارات ذات القطع الناقص محل المدارات الدائرية ، وبالتخلى عن الانحرافات وأفلاك التدوير ، وفى وضعه الشمس فى إحدى بؤرتى القطع الناقص ، لا فى مركز دائرة . وبهذه التغييرات خلص نظرية كوبرنيكس من الصعاب التى كادت تبرر رفض تيكو براهى لها . وعن طريقه بدأت الآن فكرة القياس من مركز الشمس تلقى قبولا وتنتشر إنتشاراً واسعا . وحول ما كان مجرد حدس براق ، إلى فرضية مصوغة فى تفصيل رياضى . وأمد نيوتن بقوانين الكواكب التى قادته إلى نظرية الجاذبية . وعلى حين احتفظ كبلر بعقيدته الدينية راسخة لا تتزعزع ، أظهر أن الكون كيان له قانون ، ونظام كامل متناغم متناسق ، فيه قوانين تحكم الأرض كما تحكم هى نفسها النجوم . وهو يقول «أن كل ما أصبوا إليه أن أدرك كنه الذات الآلهية . فأنى أجد الله فى الكون الخارجى مثلما أجده فى داخلى أنا»[٧٦] .

٩ — جاليليو : ١٥٦٤ - ١٦٤٢ :

١ — الفيزيائى :

ولد جاليليو جاليلى فى بيزا يوم وفاة ميكلانجلو (١٨ فبراير ١٥٦٤) ، فى نفس العام الذى ولد فيه شكسبير . وكان أبوه فلورنسيا مثقفاً أسهم فى تعليمه اليونانية واللاتينية والرياضيات والموسيقى . ولم يكن من قبيل العبث أن يكون جاليليو ، على وجه الدقة تقريباً ، معاصراً لمنتفردى (١٥٦٧ — ١٦٤٣) لأن الموسيقى كانت من ضروب عزائه وسلواه الدائمة ، وبخاصة فى سنى شيخوخته التى فقد فيها بصره ، فعزف على الأرغن عزفا جديراً بالاكبار والتقدير ،

وعزف على العود عزفا جيداً . وأحب الرسم والتصوير ، وأبدى فى بعض الأحيان أسفه أنه لم يصبح فنانا . وفى إيطاليا العجيبة التى قضى فيها شبابه ، ظل تيار النهضة يلفح الوجوه موحيا إلى الناس بالكمال . وحزن جاليليو لأنه لم يتيسر له أن يصمم معبداً أو ينحت تمثالا أو يصور لوحة أو ينظم شعراً أو يؤلف موسيقى أو يقود سفينة(٧٧) ، لقد هفت نفسه إلى أن يقوم بهذا كله ، وإنا لنحس حين ندقق النظر فيه أنه لم يكن يعوزه إلا الوقت . وكان يمكن تحت أى الظروف على إختلافها ، أن يكون مثل هذا الانسان رجلا عظيما فى أية ناحية من النواحى . ونزع جاليليو فى صباه ، بطبيعته أو بحكم الظروف إلى صنع الالآت واللعب بها .

وأرسل وهو فى السابعة عشرة إلى جامعة بيزا ليدرس الطب والفلسفة . وبعد سنة واحدة أنجز كشفة العلمى الأول — وهو إن تأرجحات البندول ، بصرف النظر عن إتساعها ، تستغرق نفس الوقت . وبإطالة ذراع البندول أو تقصيره أمكنه أن ينقص أو يزيد من معدل ذبذبته حتى تزامنت مع نبضه ، وبهذه « البلسيلوجيا » (علم النبض) استطاع أن يقيس ضربات القلب بدقة .

وحوالى هذا الوقت اكتشف أقليدس ، حيث استمع مصادفة إلى معلم يدرس الهندسة لغلمان دوق تسكانيا الأكبر ، فبدا له أن منطق الرياضيات أسمى ، بما لا يقاس ، من الفلسفة الاسكولاستية (الفلسفة النصرانية فى القرون الوسطى وأوائل عصر النهضة) وفلسفة أرسطو ، اللتين تلقاهما فى قاعة الدرس فانصرف خفية ، وفى يمناه « مبادىء » إقليدس ، إلى متابعة دروس معلم الغلمان واهتم به المعلم ، ولقنه الدروس سرا . وفى ١٥٨٥ ترك جاليليو جامعة بيزا دون أن يحصل على درجة وانتقل إلى فلورنسة ، وبتوجيه من المعلم انصرف فى ولع شديد إلى الرياضيات والميكانيكا . وبعد ذلك بعام واحد اخترع ميزانا هيدروستاتيا ليقدر الأوزان النسبية المعادن فى سبيكة وأثنى عليه وامتدحه كلافيوس الجزويتى لبحث فى مركز الجاذبية فى الأجسام الصلبة . وفى تلك الأثناء انحطت موارد أبيه ، وكان عليه أن يواجه الالتزام بكسب قوته بنفسه

فتقدم بطلبات للتدريس فى بيزا وفلورنسة وبادوا ، فرفضوا تعيينه لصغر سنه وفى ١٥٨٩ ، بينما كان هو وأحد أصدقائه يسعيان للحصول على عمـــل فى القسطنطينية وفى الشرق ، نمى إلى علمه خلو كرسى الرياضيات فى بيزا . فتقدم لشغله ، وهو قليل الرجاء فى الحصول عليه . وكان بعد فى الخامسة والعشرين . وعين فى هذا المنصب لمدة ثلاث سنوات براتب قدره ٦٠ سكودى فى العام . وكاد بهذا الراتب أن يتضور جوعا . ولكنه استطاع أن يكشف عن نشاطه وجلده .

لقد اشتد عوده إلى حد كبير ، فبدأ لفوره ، من منصة التدريس ، فى شن الحرب على فيزياء أرسطو . لقد قال الإغريق « بأن الحركة إلى أسفل لأية كتلة من الذهب أو الرصاص أو أى جسم آخر يهبط نتيجة ثقله ، أسرع بالنسبة لحجمه(٧٨) . وذهب لكريشيس(٧٩) وليونارد ودافنشى(٨٠) إلى هذا الرأى . وفى الأزمنة القديمة نفسها ناقش هبارخس (حوالى ١٣٠ ق . م) رأى أرسطو عن هبوط الأجسام بفعل الثقل » . وذهب يؤانس فيليبونس (٥٣٣) وهو يعلق على أرسطو « إلى أن الفرق الزمنى بين سقوط جسمين وزن أحدهما ضعف وزن الآخر ، هو لاشىء البتة ، أو أنه فرق ضئيل جدا لا يمكن(٨١) ادراكه وهنا نأتى إلى قصة مشهورة ، ولو أنها محل نزاع ، وردت أولا فى سيرة حياة جاليليو ، التى كتبها صديقة فنشنزو فيفيانى فى ١٦٥٤ (بعد ١٢ عاما من وفاة جاليليو) ، مدعيا أنها مستقاة من كلام جاليليو نفسه .

ما كان أشد فزع الفلاسفة كلهم ، حين أثبت جاليليو أن كثيرا جدا من النتائج التى استخلصها أرسطو ، زائفة ، عن طريق التجارب والبراهين الدامغة . . . من ذلك أن سرعة الأجسام المتحركة من مادة واحدة ، ولكن مختلفة الوزن ، ومتحركة فى نفس الوسط لا تحتفظ بالتبادل بتناسب وزنها . كما قال أرسطو . ولكنها كلها تتحرك بنفس السرعة . مدللا على ذلك بتكرار التجارب من فوق برج بيزا ، بحضور

سائر المعلمين وكل الفلاسفة والطلبة ... أنه عزز مكانة كرسي التدريس وحظي بشهرة أهاجت حقد الفلاسفة منافسيه عليه حتى ثاروا ضده[٨٢].

أن جاليليو نفسه لم يذكر شيئا عن تجربة بيزا في كتاباته الباقية . كما أنه لم يرد ذكرها فيما دونه إثنان من معاصرية في ١٦١٢ و ١٦٤١ عن تجاربهما الخاصة بهما في إسقاط أجسام مختلفة الوزن من فوق البرج المائل[٨٣] ورفضت قصة فيفياني على أنها أسطورة من نسج بعض الباحثين في ألمانيا وأمريكا * . وليس من المؤكد كذلك أن زملاءه الأساتذة في بيزا استاءوا . وترك هذه الجامعة في صيف ١٥٩٢، وربما كان السبب في ذلك أنه عرض علية مركز أعلى ومرتب أكبر ، فنراه في سبتمبر أستاذا في بادوا يدرس الهندسة والميكانيكا والفلك ، وقد حول داره إلى معمل دعا إليه طلبته وأصدقاءه . وتجنب الزواج ولكنه اتخذ عشيقة أنجبت له ثلاثة أطفال .

ووضع جاليليو ما جمعه من أبحاث وتجارب ، في كتابه « محاورات حول علمين جديدين » ، وذلك في أيامه الأخيرة ، قبيل وفاته ، ويقصد بهذين العلمين الاستاتيكا والديناميكا وأثبت عدم قابلية المادة للفناء . وصاغ قواعد الرافعة والبكرة . وأوضح أن سرعة سقوط الأجسام سقوطا مطلقا تزيد بنسبة

(*) إن كتابات ارسطو هي في الغالب ملاحظات موجزة ، ربما توسع فيها أو عدلها في محاضراته . وربما قصد بقطعة «De Coelo» أنه في وسط مقاوم ، كما في ذلك الهواء الطلق ، تسقط الأشياء ذات الكتلة المكثفة مثل قطعة النقود ، أسرع ما تسقط الأشياء ذات الحجم الكبير والوزن الصغير مثل قطعة الورق . وهذا بطبيعة الحال صحيح . ولكن في فراغ ، تسقط قطعة النقود والورقة أو كرة من الرصاص وريشة ، بنفس السرعة . بل أنه حتى في الهواء الطلق ، فإن قطعة الورق إذا تحولت في كتلة متضامة تسقط بنفس السرعة التي تسقط بها العملة تقريبا . وإذا لاحظنا التعديل في بيان فيفياني أن الأشياء يجب أن تكون من نفس المادة ... وأن تسقط في نفس الوسط ، فإن الهوة بين فيلسوف اليونان وعالم بيزا تضيق كثيرا .

منتظمة . وقام بتجارب كثيرة على مستويات مائلة ، وحاول أن يبرهن على أن أى جسم يتدحرج إلى أسفل على مستوى ما يمكن أن يصعد على مستوى مائل إلى ارتفاع مماثل لسقوطه لولا الاحتكاك أو أية مقاومة أخرى. وانتهى إلى قانون القصور الذاتى (وهو أول قوانين نيوتن للحركة) — وهو أن أى جسم متحرك، يستمر بشكل غير محدود فى نفس الخط وبنفس معدل الحركة ، ما لم تتدخل معه قوة خارجية(٨٤) وأثبت أن أية قذيفة تدفع فى اتجاه أفقى تسقط إلى الأرض فى منحن قطعى مكافىء يقابل قوة الدفع وقوة الجاذبية . وحول العلامات الموسيقية إلى مسافات موجية فى الهواء ، وأوضح أن درجة النغم تعتمد على عدد الذبذبات التى يحدثها الوتر المعزوف فى وقت محدد . وقال بأن النغمات تبدو متوافقة متآلفة إذا طرقت الذبذبات الآذان فى انتظام إيقاعى(٨٥) . إن خواص المادة لا تكون إلا المادة التى يمكن معالجتها رياضيا — التمدد ، الوظيفة ، الحركة الكثافة . اما الخواص الأخرى — الأصوات والطعم والرائحة والألوان وما إليها ، فإنها تستقر فى الشعور فقط ، فإذا فنيت المخلوقات الحية انمحت هذه الصفات وأبطلت(٨٦) ، وراوده الأمل فى أن هذه « الصفات الثانوية » يمكن بمرور الزمن تحليلها إلى خواص طبيعية أولية المادة والحركة ، ويمكن قياسها رياضيا(٨٧) .

وتلك إضافات أساسية مثمرة للعلم ، عوقها عدم كفاية الآلات والأجهزة العلمية . ومن ذلك أن جاليليو استخف بعامل مقاومة الهواء فى سقوط الأجسام والقذائف . ولكن ما من رجل ، منذ أرشميدس ، أدى للفيزياء مثلما أدى جاليليو .

٢ — الفلكى :

كان جاليليو ، فى أخريات أيام إقامته فى بادوا ، يخصص جزءا أكبر فأكبر من وقته للفلك . وفى ١٥٩٦ كتب إلى كبلر (الذى يصغره بسبع سنين) رسالة يشكره فيها على كتابه « الكون الخفى » جاء فيها : —

إنى لأعتبر نفسى سعيدا لأجد فى شخصك زميلا عالما مثلك، فى بحثى عن الحقيقة . . . وساعكف على قراءة كتابك تحدونى كل الرغبة فى استيعاب ما فيه ، لأنى كنت لعدة سنوات من أنصار نظرية كوبرنيكس ، ولأنه (أى الكتاب) يكشف لى عن أسباب كثير من الظواهر الطبيعية البالغة الابهام والتى لا يمكن فهم كنهها فى ضوء الفرضية المقبولة عامة . ودحضا لهذه الفرضية جمعت براهين كثيرة . ولكنى لا أنشرها ، حيث يثنينى عن نشرها حظ أستاذنا كوبرنيكس الذى حظى لدى نفر قليل من الناس بشهرة خالدة ، ولكن لقى تجريحا واستنكارا من كثرة لا يحصى عديدها (لأن عدد الأغبياء كبير جدا) .

وقد أتجاسر على نشر تأملاتى إذا كثر أمثالك(٨٨) .

وأعلن جاليليو إيمانه بنظرية كوبرنيكس فى محاضرة ألقاها فى بيزا ١٦٠٤ وصنع فى ١٦٠٩ أول مقراب (تلسكوب) له ، وفى ٢١ أغسطس عرضه على السلطات الرسمية فى البندقية وإليك روايته فى هذه المناسبة : —

أن كثيرا من النبلاء وأعضاء السناتو ، برغم كبر سنهم، صعدوا أكثر من مرة إلى قمة أعلى كنيسة فى البندقية (سان مارك) لكى يروا الأشرعة والمراكب . . . وهى بعيدة جدا بحيث لا بد من انقضاء ساعتين قبل رؤيتها بغير منظارى المقرب . . . لأن تأثير آلتى يصل إلى حد أن أى جسم على مسافة خمسين ميلا . يظهر كبيرا كما لو كان على مسافة خمسة أميال فقط . . . إن السناتو الذى عرف كيف نهضت بخدمته لمدة سبعة عشر عاما فى بادوا . . . أصدر أمرا باختيارى للأستاذية مدى الحياة (٨٩) .

وأدخل جاليليو على تلسكوبه من التحسينات ما جعله يكبر الأشياء ألف مرة . وذهل لما رأى من عالم جديد من النجوم التى تبلغ عشرة أمثال ما دون عنها من قبل . وشوهد أن المجموعات الآن تحتوى على عدد كبير من النجوم لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة ، ورئى أن «بنات أطلس» ستة وثلاثون

بدلا من سبع ، وأن « كوكبة الجبار» ثمانون بدلا من سبع وثلاثين ، وظهرت « المجرة » ، لا كتلة سديمية ، بل غابة من النجوم الكبيرة أو الصغيرة . ولم يعد القمر سطحا أملس ، بل تغضن من الجبال والأودية ، ويمكن أن يفسر ضوؤه فى نصفه غير المواجه للشمس بأنه ، بصفة جزئية ، راجع إلى ضوء الشمس المنعكس من الأرض . وفى يناير ١٦١٠ اكتشف جاليليو أربعة من « الأقمار » التسعة ، أو توابع المشترى . وكتب يقول : « هذه الأجسام الجديدة تدور حول نجم آخر كبير جدا ، مثلما يدور حول الشمس ، عطارد والزهرة ، وربما غيرهما من الكواكب الأخرى المعروفة (٩٠) » وفى يولية اكتشف دائرة زحل الذى ظنه خطأ ثلاثة نجوم . وكان نقاد كوبرنيكس قد قالوا بأنه إذا كانت الزهرة تدور حول الشمس ، فلا بد أن يكون لها ، مثل القمر ، أوجه — أى تغييرات فى النور وأشكال ظاهرية ، وقالوا بأنه لا توجد أية علامة على هذه التغييرات . ولكن فى ديسمبر كشف تلسكوب جاليليو عن مثل هذه الأوجه ، واعتقد بأنه لا يمكن تفسيرها إلا بدوران الكوكب حول الشمس .

إننا لا نكاد نصدق ، ولكن جاليليو أكد فى رسالة إلى كبلر ، أن أساتذة بادوا أبوا أن يؤمنوا بصحة كشوف جاليليو ، بل أبوا أن يشاهدوا السموات من خلال مناظيره (٩١) . لقد سئم الحياة فى بادوا وتطلع إلى مناخ علمى أفضل فى فلورنسه (التى كانت الآن تتحول من الفن إلى العلم) فأطلق على توابع المشترى اسم « سيديرا مديشيا » ، وهو اسم كوزيمو الثانى دوق تسكانيا الأكبر وفى مارس ١٦١٠ أهدى إلى كوزيمو رسالة باللاتينية (Sidereus nuncius) لخص فيها كشوفه الفلكية . وفى شهر مايو كتب إلى سكرتير الدوق رسالة تلتهب بمثل الحماسة والزهو اللذين فاضت بهما رسالة ليونارد وإلى دوق ميلان فى ١٤٨٢ . وعدد فيها الموضوعات التى كان يدرسها ، والكتب التى يأمل أن يدون فيها ما انتهى إليه من نتائج ، وتساءل هل فى مقدوره أن يحصل له من سيده على وظيفة تتطلب أقل الوقت للتدريس وأكثر الوقت للبحث . وفى

يونية عينه كوزيمو « كبير الرياضيين فى جامعة بيزا ، وكبير الرياضيين فى والفلاسفة لدى الدوق الأكبر » ، براتب سنوى قدره ألف فلورين ، دون التزام بالقيام بالتدريس . وفى سبتمبر انتقل جاليليو إلى فلورنسه ، دون أن يصطحب معه خليلته .

وكان قد أصر على لقب الفيلسوف ولقب الرياضى على السواء ، لأنه أراد أن يؤثر فى الفلسفة والرياضيات كلتيهما . وأحس ، كما أحس راموس وبرونو وتلزيو وغيرهم من قبل ، وكما كان يدلل بيكون فى نفس هذا العقد من السنين . على أن الفلسفة (التى فهمها على أنها دراسة وتفسير للطبيعة فى جميع مظاهرها) قد ارتمت فى أحضان أرسطو ، وأنه قد حان الوقت للتحرر من الأربعين مجلدا اليونانية ، وللنظر إلى العالم بمقولات أكثر انطلاقا وعيون وعقول مفتوحة . أنه يمكن القول بأنه وثق بالعقل ثقة كبيرة . « إنى لكى أثبت لخصومى صحة النتائج التى انتهيت إليها ، اضطررت إلى أن أثبتها بتجارب كثيرة مختلفة . ولو أنى أنا وحدى لم أحس قط بأنه من الضرورى أن أقوم بتجارب كثيرة [٩٢] » .

وكان فيه من الغرور وروح المشاكسة ما يتسم به المبتكرون المجددون ، ولو أنه تحدث أحيانا فى تواضع حكيم ، « ما قابلت قط يوما رجلا جاهلا إلا تعلمت منه شيئاً [٩٣] » . وكان مجادلا عنيداً بارعا فى طعن غريمه بعبارة ، أو سلقه بألسنة حداد . وعلى هامش كتاب للجزويتى أنطونيو روتشو يدافع فيه عن ذلك بطلميوس ، كتب جاليليو : « جاهل ، فيل ، أحمق ، غبى ، خصى [٩٤] » .

ولكن هذا كان بعد انضمام الجزويت إلى إتهامه ، وقبل اصطدامه بمحكمة التفتيش كان له أصدقاء كثيرون فى « جماعة يسوع » ، وعمد كريستوفر كلافيوس إلى إثبات ملاحظات جاليليو بملاحظاته هو نفسه ، وأطنب جزويتى آخر فى مدح جاليليو على أنه أعظم الفلكيين فى ذاك العصر . وثمة لجنة من الباحثين الجزويت ، عينها الكردينال بللارمين لفحص كشوف جاليليو ،

فكتبب تقريراً أيدت فيه كل النقاط[٩٥] . وعندما قصد إلى رومه فى ١٦١١ أكرم الجزويت وفادته على أنه « زميل رومانى » لهم . وكتب يقول : « أقمت مع الآباء اليسوعيين وكانوا قد تحققوا من الوجود الفعلى للكواكب الجديدة ، وظلوا يوالون رصدها لمدة شهرين ، وقارنا ملاحظاتنا وأرصادنا فوجدناها متفقة كل الاتفاق[٩٦] » ورحب به كبار رجال الكنيسة ، وأكد له البابا بول الخامس شعوره الطيب الذى لا يتغير نحوه ورضاه عنـــه[٩٧] .

وفى أبريل عرض على المطارنة والأساقفة ورجال العلم فى رومه نتائج أرصاده التى كشفت عن وجود البقع الشمسية التى فسرها هو بأنها سحب . ومن الواضح أن جاليليو كان يجهل أن يوهان فابريكيوس كان قد أعلن بالفعل عن كشفها فى بحثه « البقع الشمسية » (ويتنبرج ١٦١١) ، واستبق جاليليو فيما استخلصه من أن « دورية » البقع تدل على دوران الشمس ، وفى ١٦١٥ وجه كرستوف شينر أستاذ الرياضيات الجزويتى فى انجلوستاد ، إلى ماركوس ولزر كبير القضاة فى أوجزبرج ، ثلاث رسائل زعم فيها أنه كشف البقع الشمسية فى أبريل ١٩١١ . فلما عاد جاليليو إلى فلورنسه تلقى من ولزر نسخة من رسائل شينر ، وناقشها فى بحث له « ثلاث رسائل عن البقع الشمسية » نشرته أكاديمية دى لنسى فى رومه ١٦١٣ ، وزعم أنه رصد البقع فى ١٦١٠ ، وعرضها على الأصدقاء فى بادوا . وفى ملحمة ادعاء السبق إلى كشف البقع تخلخلت أواصر الصداقة بين جاليليو والجزويت .

واقتناعا من جاليليو بأنه يمكن تفسير كشوفه على أساس من نظرية كوبرنيكس ، شرع يتحدث عن النظرية على أنها قد تم إثبات صحتها . ولم يكن لدى الفلكيين اليسوعيين أى اعتراض على اعتبارها مجرد فرضية . وأرسل شينر اعتراضاته على آراء كوبرنيكس مع رسالة يستميله ويسترضيه فيها : « إذا أردت أن تتقدم بحجج مضـادة فإنها لن تسيء إلينا فى شيء ، بل على

النقيض من ذلك ، إن كل هذا سيعيننا على إظهار الحقيقة[٩٨] . » وأحس كثير من رجال اللاهوت أن فلك كوبرنيكس كان واضحا كل الوضوح أنه لا يتفق مع ما جاء فى الكتاب المقدس . وأن الكتاب المقدس سوف يفقد قيمته وأن المسيحية نفسها سوف تتأثر إذا انتشرت آراء كوبرنيكس . ماذا يمكن أن يصيب العقيدة المسيحية الأساسية إذا كان الله سبحانه وتعالى قد اختار كوكب الأرض مقرا (كرسيا) دنيويا له — هذه الأرض التى يريدون اليوم أن يجردوها من مكانتها السامية ومنزلتها الرفيعة ، وتوضع طليقة بين كواكب أكبر منها مرات كثيرة ، وبين نجوم لا حصر لها ؟ » .

٣ — فى المحاكمة :

واجه جاليليو هذه المشكلة فى عناد وتشدد . وفى ٢١ ديسمبر ١٦١٣ كتب إلى الأب كاستللى : « حيث أن الكتاب المقدس يتطلب تفسيرا يختلف عن المعنى المباشر للألفاظ (مثلما يحدث عند تحدثه عن غضب الله ، وبغضه وتأنيبه ويديه وقدميه) . فإنه يبدو لى ليس للكتاب المقدس كبير شأن فى مجال الجدل والمناظرات الرياضية ... وأعتقد أن العمليات الطبيعية التى ندركها بالرصد الدقيق أو الملاحظة الدقيقة ، أو نستنتجها بالدليل المقنع . لا يمكن دحضها أو تنفيذها بآيات من الكتاب المقدس[٩٩] . وانزعج الكاردينال بللارمين ، وبعث إلى جاليليو عن طريق أصدقاء الطرفين ، بعتاب قاس ، وكتب إلى فوسكارينى تلميذ جاليليو يقول : « يبدو لى أنه ينبغى أن أنصحكما ، أنت وجاليليو ، ألا تتحدثا بمثل هذه اللهجة القاطعة (عن الفلك الجديد وكأنه قد ثبتت صحته) ، بل على سبيل الافتراض فحسب ، وهو ما أنا مقتنع بأن كوبرنيكوس نفسه قد فعل من قبل[١٠٠] » .

وفى ٢١ ديسمبر ١٦١٤ بدأ الهجوم توماسوكاتشينى ، وهو واعظ دومنيكانى ، اتخذ تورية بارعة من آية الانجيل « أيها الرجال الجليليون ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء » (أعمال الرسل ١ — ١١) ومضى يوضح أن نظرية

كوبرنيكس تتعارض تعارضا تاما لا يقبل الجدل مع الكتاب المقدس وأرسل معارضون أقل شأنا بشكاوي إلى محكمة التفتيش ، وفى ٢٠ مارس ١٦١٥ أودع كاسينى اتهاما رسميا ضد جاليليو فى المحكمة ، فكتب المونسنيور دينى إلى جاليليو أنه لن يمس بسوء إذا وضع فى منشوراته بعض عبارات تشير إلى أن رأى كوبرنيكس هو مجرد فرضية[١٠١] . ولكنه أبى ، كما قال ، أن يعدل أو يخفف من كوبرنيكس . وفى رسالة نشرت فى ١٦١٥ ، كتب إلى دوقة تسكانيا الكبرى يقول : « بالنسبة لترتيب أجزاء الكون ، أعتقد أن الشمس قائمة دون حركة فى مركز دوران الأجرام السماوية * . على حين أن الأرض تدور على محورها كما تدور حول الشمس[١٠٢] ، ثم مضى يمس فى الهرطقة :

« إن الطبيعة عنيدة ثابتة لا تتغير ، ولا تتجاوز قط القوانين التى فرضت عليها . ولا تكترث فى قليل ولا كثير بأن الناس لا يفهمون أسبابها ولا مناهجها العويصة المبهمة . ومن ثم فإنه يبدو أنه ليس ثمة شىء طبيعى تضعه التجربة الحسية أمام أعيننا ، أو تثبته لنا البراهين الضرورية ، ينبغى أن يكون محل نزاع بمقتضى نصوص الكتاب المقدس ، التى قد يكون لها معنى مختلف كامن وراء الألفاظ » .

على أنه وعد بالامتثال للكنيسة :

إنى أعلن (ولسوف يتضح صدقى وإخلاصى) لا مجرد أنى أقصد أن أستسلم حرا مختارا وأعترف بأخطائى التى يمكن أن أقع فيها فى هذا النقاش ، نتيجة الجهل بأمور تتعلق بالدين ، بل أنى كذلك لا أحب أن أدخل فى نزاع حول هذه الأمور مع أى إنسان كان . . . وهدفى

(*) من سخرية التاريخ أن هذه قضية لا يؤمن بها اليوم أى فلكى ، وربما كان الفلك بأسره ، مثل التاريخ برمته ، يجب أن يؤخذ على أنه مجرد فرضية . وليس ثمة تيقن من العالم الآخر ، كما أنه ليس ثمة تيقن من الأمس .

الوحيد هو أنه إذا وجد من بين الأخطاء التي قد تكثر في بحث موضوع بعيد عن اختصاصي، أي شيء يفيد الكنيسة المقدسة في اتخاذ قرار يتعلق بمنهج كوبرنيكس، فيمكن أن تأخذه وتنتفع به، كما يحلو لرؤسائها، وإلا فليمزق كتابي ويحرق. لأني لا أقصد ولا أزعم أن أجني ثمارا تجانبها التقوى والكثلكة(١٠٣).

ولكنه أضاف: «أني لا أشعر بأني مضطر إلى الايمان بأن الله الذي أمدنا بالاحساس والعقل والفكر، قصد بنا أن نضيع فرصة استخدامها والانتفاع بها(١٠٤)»

وفي ٥ ديسمبر ١٦١٥ قصد إلى رومة من تلقاء نفسه مزوداً برسائل ودية من الدوق الأكبر إلى ذوي النفوذ من المطارنة والأساقفة، وإلى سفير فلورنسة في الفاتيكان. وفي رومة أخذ جاليليو على عاتقه أن يحول الرجال الرسميين عن رأيهم فرادى، وعرض نظرية كوبرنيكس كلما سنحت له فرصة وفي كل مناسبة، وسرعان ما بات «كل فرد في رومة يبحث في النجوم(١٠٥)». وفي ١٦ فبراير ١٦١٦ أصدرت محكمة التفتيش توجيهاتها إلى الكاردينال بللارمين بأن يستدعي من يدعى جاليليو وينذره بأن يتخلى عن آرائه المزعومة، وفي حالة امتناعه... يعلنه أمام كاتب العدل وبعض الشهود بالأمر بالاقلاع عن تدريس آراء كوبرنيكس أو الدفاع عنها، بل حتى مناقشتها، فإذا لم يذعن لهذا يودع السجن(١٠٦). وفي اليوم ذاته مثل جاليليو أمام الكاردينال بللارمين وأعلن امتثاله للأمر(١٠٧). وفي ٥ مارس أصدرت المحكمة قرارها التاريخي:

إن الفكرة التي تقول بأن الشمس تقف بلا حركة وسط الكون فكرة سخيفة، وهي من الناحية الفلسفية فكرة زائفة، وهي كذلك هرطقة لا جدال فيها، لأنها تناقض النصوص المقدسة. والفكرة التي تقول بأن الأرض ليست مركزا للكون بل حتى أن لها دورة يومية، زائفة من الناحية الفلسفية، وأنها على الأقل اعتقاد خاطىء(١٠٨).

وفي نفس اليوم حرمت «لجنة فهرست الكتب الممنوعة» نشر أو قراءة

أى كتاب يدافع عن النظريات الممنوعة ، أما بالنسبة لكتاب كوبرنيكس « (١٥٤٣)» فقد حظرت إستخدامه حتى يتم تصويبه . وفى ١٦٢٠ أباحت للكاثوليك قراءة الطبعات التى حذفت منها تسع عبارت كانت تثبت أن النظرية صحيحة .

وعاد جاليليو أدراجه إلى فلورنسه وخلا إلى الدروس فى داره « بلو سجاردو » ، وكف عن الجدل حتى ١٦٢٢ . وفى ١٦١٩ نشر أحد مريديه ، ماريو جيدوتشى ، مقالا يجسم فيه نظرية جاليليو (المرفوضة الآن) وهى أن المذنبات عبارة من إنبثاقات فى الغلاف الجوى للأرض ، منتقدا بشدة آراء الجزويتى أورازيو جراسى فما كان من الحبر أو الأب الغاضب إلا أن نشر تحت اسم مستعار هجوما على جاليليو وأشياعه . وفى ١٦٢٢ أرسل جاليليو إلى المونسنيور شيزارينى فى رومه مخطوطة «للمحلل» يرد به على جراسى وينبذ فى مجال العلم أى استشهاد أو مرجع إلا الرصد والعقل والتجربة . وبموافقة المؤلف خفف أعضاء أكاديمية لنسى بعض عبارات قليلة وبهذه الصيغة قبل البابا أربان الثامن أن يهدى إليه ، وأجاز طبعه (أكتوبر ١٦٢٣) أنه ألمع تأليف جاليليو ، وإحدى روائع النثر الايطالى والقدرة والبراعة فى الجدل والمناظرة . وقيل إن البابا سر به ، وأن الجزويت تضايقوا منه .

وما أن ظفر جاليليو بهذا التشجيع حتى قصد ثانية إلى رومه (أول أبريل ١٦٢٤) أملا فى تحويل البابا الجديد إلى الايمان بآراء كوبرنيكس . وتلقاه أربان بالود والترحات — واستقبله ست مرات ى لقاءات طويلة ، وأغدق عليه الهدايا . واستمع إلى حجج كوبرنيكس ، ولكنه أبى أن يرفع حظر المحكمه . وقفل جاليليو راجعا إلى فلورنسه ، يعزيه تصريح أربان للدوق الأكبر : « لقد غمرنا بعطفه الأبوى لوقت طويل هذا الرجل العظيم الذى تتألق شهرته فى السماء كما تملأ الأرض[١٠٩] . وفى ١٦٢٦ شد من عزم جاليليو تعيين تلميذه بنديتو كاستلى رياضيا للكرسى البابوى ، وتلميذ آخر هو الأب نيقولو ريتشاردى كبير مراقبى المطبوعات ، فسارع الآن لاستكمال

مؤلفه الأساسى ، وهو عرض لمنهج كوبرنيكس والمنهج المعارض له . وفى مايو حمل المخطوطة إلى رومه ، وعرضها على البابا ، وحصل على ترخيص من الكنيسة بنشرها ،شريطة معالجة الموضوع على أنه فرضة. وعاد إلى فلورنسه حيث راجع الكتاب وأصدره فى فبراير ١٦٣٢ تحت عنوان طويل « محاورة جاليلى جاليليو ... حيث أنه فى اجتماعات دامت أربعة أيام ، نوقش فيها المنهجان الرئيسيان فى العالم : منهج بطلميوس ومنهج كوبرنيكس « مع عرض ، دون تحيز ولا تحديد ، الحجج الفلسفية والطبيعية المنهجين كليهما » .

وربما جلب الكتاب على مؤلفه بلايا أقل ، وكسب له شهرة ، لولا بدايته وخاتمته . تقول المقدمة : « إلى القارىء البصير الفطن » :

> منذ عدة سنوات نشر فى رومه مرسوم بابوى مفيد ، قضى — تجنبا للنزعات الخطيرة فى عصرنا الحاضر — بفرض نطاق من الصمت المعقول على الرأى الذى نادى فيه فيثاغورس. والذى يقول بأن الأرض تدور. ومن الناس من ذكر فى توقح وصفاقه — أن هذا المرسوم لم ينبع من تحريات وتدقيقات تتسم بالحكمة وحسن التمييز ، بل عن هوى ينم عن قلة الدراية والمعرفة ، وتعالت الشكاوى بأنه يجدر الايتاح للمستشارين الذين ليس لديهم أيه دراية بالأرصاد الفلكية فرصة التضييق على ذوى العقول المفكرة المتأملة عن طريق قوانين الحظر المتهورة الطائشة(١١٠) .

والحق أن فى هذا إشارة للقارىء بأن صيغة الحوار تتسم بالمراوغة تملصا من محكمة التفتيش . وكان فى الحوار شخصيتان هما سلفياتى وساجريدو ، وهذان أسمان لاثنين من أصدق أصدقاء جاليليو ، وهما يدافعان عن منهج كوبرنيكس ، وشخصية ثالثة — سمبلشيو ، يدحضه ، ولكن فى مغالطة صريحة واضحة ،وقرب نهاية الكتاب أورد جاليليو على لسان سمبلشيو عبارة ، كان أوربان الثامن قد أصر على إضافتها . وهى بالحرف الواحد تقريبا :

« إن الله هو القوى وهو على شىء قدير ، ومن ثم لا يجوز أن نقدم المد

والجزر دليلا ضروريا على حركتي الأرض لأننا بذلك نحد من سعة علم الله وقدرته » وعلى هذه العبارة يعلق سلفياتي تعليقا ساخراً فيقول : « أنها وأيم الحق حجة إنجيلية ممتازة »(١١١) .

أن الجزويت اللذين تناولت « المحاورات » كثيرا منهم فى لهجة قاسية (جاء فيها أن أفكار شينر عقيمة تافهة » ، أوضحوا للبابا أن عبارته سالفة الذكر أوردت على لسان شخصية أبرزها الكتاب ساذجة غافلة ، فعين أربان لجنة لفحص الكتاب ، وقررت اللجنة أن جاليليو لم يتناول نظرية كوبرنيكس على أنها فريضة ، بل على أنها حقيقة ، وأنه حصل على الترخيص بنشر الكتاب نتيجة لتحريفات وتشويهات بارعة ، وأضاف الجزويت إلى ذلك ، عن حكمة وبصيرة ، أن نظريات كوبرنيكس وجاليليو أشد خطرا على الكنيسة من هرطقات لوثر وكلفن . وفى أغسطس ١٦٣٢ حظرت المحكمة الاستمرار فى بيع كتاب « المحاورات » وأمرت بمصادرة النسخ الباقية . وفى ٢٣ ديسمبر دعت جاليليو للمثول أمام مندوب الحكومة فى رومه . وتوسل أصدقاؤه إلى أولى الأمر أن تشفع له لديهم سقامه وشيخوخته (٦٨ عاما)، ولكن على غير طائل . وبعثت ابنته إليه وكانت وقتئذ راهبة متحمسة بخطابات مؤثرة ترجوه فيها أن يمتثل للكنيسة ، كما نصحه الدوق الأكبر أن يذعن ، وزوده بمحفة الدوق الأكبر، ودبر مع سفير فلورنسه أمر اقامته فى السفارة. ووصل جاليليو إلى رومه فى ١٣ فبراير ١٦٣٣ .

وانقضى شهران قبل أن تدعوه محكمة التفتيش إلى المثول أمامها(١٢ أبريل)، واتهم بنقض عهده بالالتزام بقرار ٢٦ فبراير ١٦٣١ ، وحثوه على الاعتراف بذنبه ، فرفض محتجا بأنه لم يقدم آراء كوبرنيكس إلا على أنها مجرد فرضية، وظل سجينا فى قصر المحكمة حتى ٣٠ أبريل ، وهناك انتابه المرض ، ولم يعذبوه ، ولكنهم ربما أشاعوا فى نفسه الخوف من التعذيب. وفى مثوله الثانى أمام اللجنة اعترف فى ذلة وخشوع أنه أورد آراء كوبرنيكس بشكل أكثر

إنحيازا إليه منه ضده ، وعرض أن يصحح هذا فى « حوار » يلحق بالأول . فرخصوا له بالعودة إلى دار السفير . وفى ١٠ مايو أعادوا التحقيق معه ، وعرض أن يكفر عن خطيئته، وتوسل إليهم أن يرحموا شيخوخته واعتلال صحته . وفى التحقيق معه للمرة الرابعة (٢١ يونية) أكد أنه بعد قرار ١٦١٦ « لم يعد يخامرنى أى شك ، وآمنت ، ولا زلت أؤمن ، برأى بطليوس — أن الأرض لا تدور ، وأن الشمس هى التى تدور — على أنه حق كل الحق ، ولا يقبل الجدل »[١١٢] ، فاعترضت المحكمة بأن محاورات جاليليو اوضحت ، بما لا يدع مجالا للشك ، أنه يقر آراء كوبرنيكس، وأصر هو على أنه كان ضد هذه الآراء منذ ١٦١٦ . وظل البابا على اتصال بالتحقيق ، ولو أنه لم يشهده بشخصه . وكان جاليليو يأمل فى أن يمد له أربان الثامن يد العون ، ولكن البابا رفض التدخل . وفى ٢٢ يونيه أصدرت المحكمة قرارها بادانته بالهرطقة والتمرد والعصيان . وعرضت عليه الغفران شريطة تأدية القسم علنا أمام الجمهور بالتخلى عن آرائه ، وحكمت عليه « بالسجن فى هذه المحكمة لمدة تحددها هى وفق مشيئتها » ورأت للتكفير عن ذنبه أن يتلو مزامير الكفارة السبعة كل يوم طيلة السنوات الثلاث التالية، وجعلوه يجثو ويبرأ من نظرية كوبرنيكس ، ويضيف :

> بقلب مخلص ، وإيمان صادق ، ألعن وأبغض وأعلن التخلى عن الأخطاء والهرطقة المنسوبة إلى ، وبصفة عامة ، عن أى خطأ أو هرطقة أخرى أخالف فيها ... الكنيسة المقدسة. وأقسم أنى لن أذكر بعد اليوم أى شىء قد يثير مثل هذه الريب حولى ، وأنى إذا عرفت أى هرطيق أو أى شخص مشتبه فى أنه هرطيق فلابد أن أبلغ عنه هذه المحكمة .... وأدعو الله أن يمنحنى العون، وأرجو أن تساعدنى هذه الكتب المقدسة التى أضع يدى عليها[١١٣] .

ووقع على الحكم سبعة من الكرادلة ، ولكن البابا لم يصدق عليه [١١٤].
أما قصة أنه عند مغادرته قاعة المحاكمة غمغم متحديا « ومع ذلك فهي تدور فعلا » . فإنها أسطورة لم يظهر لها أثر قبل ١٧٦١ [١١٥] . وبعد قضاء ثلاثة أيام في سجن محكمة التفتيش ، سمح له ، بأمر من البابا ، بالذهاب إلى قصر الدوق الأكبر في ترنيتا مونتي في رومه . ثم نقل بعد أسبوع إلى مسكن مريح في قصر تلميذه السابق ، رئيس الأساقفة أسكانيو بتشولوميني في سيينا . وفي ديسمبر ١٦٣٣ . سمح له بالانتقال إلى داره الخاصة في أرستري بالقرب من فلورنسه أنه من الناحية العملية كان لا يزال سجينا ، محظورا عليه مغادرة مسكنه ، ولكنه كان حراً في مواصلة دراساته . وتعليم تلاميذه ، وتأليف كتبه واستقبال زائريه ـ وهنا زاره ملتون في ١٦٣٨ . وجاءت ابنته الراهبة لتقيم معه . واحتملت هي نفسها عقوبة تلاوة المزامير السبعة .

٤ ـ الشيخ الجليل :

واضح أن جاليليو كان الآن رجلا متهدما مغلوبا على أمره ، أذلته كنيسة أحست بأنها وصية على عقيدة بني البشر وآمالهم وأخلاقهم ، أن تخليه عن آرائه بعد قضاء عدة شهور في السجن . وعدة أيام في المساءلة والمحاكمة ، مما كان من الجائز أن يحطم عقل مكافح شاب كما يحطم إرادته ، نقول أن هذا التخلي كان أمرا يمكن التجاوز عنه لدى شيخ هرم علق بذاكرته إحراق برونو قبل ذلك بثلاثة وثلاثين عاما ولكنه في الواقع لم يهزم فقد انتشر كتابه في كل أنحاء أوربا في أكثر من عشر لغات ترجم إليها . ولم يمح أثره .

وخفف من أحزانه وآلامه في سيينا وفي أرستري اشتغاله بتلخيص أبحاثه الفيزيائية في مؤلف ضخم آخر : « محاورات ... حول علمين جديدين » . ولما كانت أبواب المطبعة الإيطالية موصدة دونه بمقتضى الحكم الذي صدر ضده، فإنه أجرى مفاوضات سرية مع طابعين أجانب، وانتهى الأمر بأن مطبعة الزفير أصدرت الكتاب في ليدن ١٦٢٨ . وهللت له دنيا العلماء على أنه سما

بعلم الميكانيكا إلى مستوى لم يبلغه من قبل . وبعد صدوره ، عكف جاليليو على إعداد محاورات إضافية درس فيها ميكانيكا القذف أو الإطلاق ، وأشار إلى ماجاء به نيوتن فيما بعد فى قانونه الثانى عن الحركة . ويقول أول مؤرخى سيرة جاليليو : « فى أخريات أيام حياته ، وفيما كان يعانى كثيرا من اعتلال صحته ، كان عقله مشغولا دوما بالمسائل الميكانيكية والرياضية»[١١٦]، وفى١٦٣٧ وقبيل أن يفقد بصره ، أعلن عن آخر كشوفه الفلكية ، نودان أوميسان القمر - تغيرات جانبه المواجه للأرض دائما . وفى١٦٤١ ، وقبل وفاته ببضعة شهور قلائل ، شرح لابنه طريقة صنع ساعة ذات بندول .

إن اللوحة التى رسمها له سوسترمان فى أرسترى (والموجودة الآن فى قاعة بيتى) هى العبقرية مجسمة : جبهة عريضة ، وشفتان مشاكستان مولعتان بالجدل والمناظرة ، وأنف دقيق ، وعينان حادتان ، نفاذتان ، وهذا وجه من أكرم الوجوه فى التاريخ . وفقد الشيخ الجليل بصره فى ١٦٣٨ . وربما كان التحديق المجهد سبب ذلك ، وكان يجد شيئا من العزاء فى اعتقاده بأن أحدا من بنى الإنسان من عهد آدم ، لم ير أكثر مما رأى هو ، فهو يقول : « إن هذا الكون الذى وسعت فيه وكبرته ألف مرة ، تقلص الآن وانحصر فى نطاق جسمى الضيق ، هكذا أراد الله ، ولابد أن أريد هذا أنا أيضا»[١١٧]. وفى١٦٣٩ حين كان يعانى من الأرق ومن مائة من الآلام الأخرى رخصت له محكمة التفتيش فى زيارة فلورنسه ، تحت مراقبة دقيقة ، ليرى أحد الأطباء ويحضر القداس . فلما عاد إلى أسترى ، أملى على فيفانى وتورشاللى ، وعزف على العود حتى فقد سمعه كذلك . وفى ٨ يناير ١٦٤٢ ، وكان قد قارب السابعة بعد الثمانين ، فاضت روحه بين أيدى حوارييه .

وأطلق عليه جروتيوس « أعظم عقل فى كل العصور»[١١٨] . وثمة شىء من القصور فى العقل والخلق بطبيعة الحال . فأخطاؤه — الغرور والزهو والانفعال والخيلاء — إن هى ببساطة إلا عشرات مناقبه أو ثمنها : الثبات

الشجاعة ، الأصالة . ولم يعترف بأهمية حسابات كبلر فى مدارات الكواكب وكان يتراخى فى الاعتراف بقيمة أعمال معاصريه، وقلما تحقق . كم من كشوفه فى الميكانيكا كانت قد أنجزت قبله . لقد أجرى بعضها رجل آخر من فلورنسه إسمه ليوناردو . ولكن الآراء التى عوقب من أجلها ليست هى بالضبط ما يعتنقه الفلكيون اليوم ، ومثله مثل معظم الشهداء تحمل أن يكون الصواب خطأ — ولكنه لم يكن على خطأ فى إحساسه بأنه خلق من الديناميكا علما كاملا ، وأنه وسع العقل البشرى وزاد من قدرة الناس على رؤية الأشياء وفقا لعلاقاتها الصحيحة وأهميتها النسبية ، بفضل إبرازه ، بمقياس أكبر كثيرا عن ذى قبل ، أن الكون واسع سعة رهيبة . وشارك كبلر شرف تقبل الناس لآراء كوبرنيكس ، كما شارك نيوتن شرف إظهار أن السماء نفسها تفصح عن عظمة القانون . ثم أنه ، بوصفه من أفاضل أبناء عصر النهضة ، كتب أحسن نثر إيطالى فى زمانه .

وانتشر أثره حتى عم كل أوربا . أن إدانته هى التى رفعت مكانة العلم فى البلاد الشمالية ، على حين حطت من قيمته لفترة قصيرة فى إيطاليا وأسبانيا وليس معنى هذا أن محكمة التفتيش حطمت وقضت على العلم فى إيطاليا ، فان تورشللى وكاسينى وبورللى وربدى ومالبيجى ومورجانى حملوا المشعل إلى فولتا وجلفانى وماركونى، ولكن العلماء الإيطاليين الذين علقت بأذهانهم قصة جاليليو اجتنبوا التورطات الفلسفية فى العلم . وبعد إعدام برونو حرقا وبعد تخويف ديكارت وتهديده بمصير جاليليو ، باتت الفلسفة فى أوربا احتكارا بروتستانتيا .

وفى ١٨٣٥ حذفت الكنيسة مؤلفات جاليليو من قائمة الكتب المحظورة وانتصر الرجل المحطم المقهور على أقوى النظم فى التاريخ .

الفصل الثالث والعشرون

١٥٦٤ — ١٦٤٨

الفلسفة تولد من جديد

١ — الشكاكون

في ظل صراعات الدول القومية ، والقوى الاقتصادية ، والأحزاب السياسية ، وتنوع المذاهب الدينية ، في غمرة هذا كله ، بدأت تتشكل المسرحية الأساسية في التاريخ الأوربي الحديث ، وما هي إلا نضال من أجل الحياة جهدت فيه ديانة عظمى ، ضيق عليها الخناق واستنزف قوتها ، العلم والطائفية والأبيقورية والفلسفة . هل المسيحية في الطريق إلى الفناء ؟ أو هل الديانة التي أمدت المدنية الغربية بالأخلاق والشجاعة والفن تعاني انحلالا بطيئا ، بفعل انتشار المعرفة واتساع الآفاق الفلكية والجغرافية والتاريخية ، والتحقق من الشر في التاريخ والنفس ، وتخلخل الإيمان بالحياة الآخرة وضعف الثقة في حسن توجيه العالم ؟ . وإذا كان الأمر كذلك ، فهذا هو الحديث الأساسي في الأزمنة الحديثة ، لأن الديانة هي روح المدنية ، والمدنية تفنى بفناء عقيدتها . ولم تعد القضية في نظر برونو وديكارت ، وهوبز وسبينوزا ، وبسكال وبل ، وهلباخ وهلفيش ، وفولتير وهيوم ، لبنتز وكانت ، قضية كثلكة ضد بروتستانتية ، بل قضية المسيحية نفسها ، قضية الشك والرفض والإنكار - لأعز الأساسيات في العقدة القديمة . أن مفكري أوربا - وهم طلائع العقل الأوربي - لم يعودوا يناقشون سلطة البابا ، بل كانوا يناقشون وجود الله .

وثمة عوامل كثيرة أدت إلى الكفر . إن مبدأ المحاكمة العقلية أو تكوين

رأى خاص ، وهو المبدأ الذى اتهمته الكنيسة الكاثوليكية وأدانته لأنه يدعو إلى الفوضى المذهبية والأخلاقية ، نادت به وأقرته كل الهيئات البروتستانتية تقريبا ، ثم شجبته وأدانته فيما بعد ، وفى الوقت نفسه قوض هذا المبدأ أركان العقيدة . أن الشيع المتزايدة قاتلت بعضها بعضا ، وكأنها ذرارى بالغة الكثرة ، وفضحت مطالب بعضها بعضا ، وتركت الديانة عارية فى مهب رياح العقلانية . وأهابت هذه الفرق والشيع لنصرتها فى أثناء صراعها ، الأسفار المقدسة والعقل كليهما . ودعت دراسة الكتاب المقدس إلى الشك فى معانيه وفى عصمته من الخطأ . وأنهى اللجوء إلى العقل عصر الإيمان . وحقق الاصلاح البروتستانتى أكثر مما كان يصبو إليه . وأضربت بصورة خاصة ، حملات النقد الذى أنصب على الكتاب المقدس ، بالمذهب البروتستانتى الذى أقيم فى طيش وتهور على كتاب مقدس منزل من عندالله . إن التحسينات التى أدخلت على النظام الاجتماعى وأمن الناس ، خففت من الأرهاب والقسوة ، وأحس الناس أنهم لابد لهم أن يدركوا أن الله سبحانه وتعالى أرحم وألطف مما صوره لهم بولص وأوغسطين وليولا وكلفن . ولم تعد الجحيم والقضاء والقدر أمورا يمكن تصديقها ، وأجزت الأخلاقية الجديدة اللاهوت القديم . وهيأ نمو الثروة لانتشار نزعة حياة ابيقورية التمست لها فلسفة تبررها . إن كارثة الحروب الدينية أنصبت على رأس الديانة نفسها فكانت هى ضحيتها . إن ازدياد المعرفة بالأخلاق والفلسفات الوثنية ، وبالعبادات والطقوس الأسيوية أثار مقارنات محيرة مزعجة بالمسيحية . ألم نسمع أرزم يدعو ويتوسل إلى « القديس سقراط » ، ألم نر مونتينى يرجع المذاهب الدينية إلى أحداث الجغرافيا وإلى حكم الحروب ؟ وكشف تقدم العلم عن عمل « القانون الطبيعى » فى كثير من الحالات ، ومثال ذلك مسار المذنبات الذى رأت فيه الديانة يد العناية الآلهية . ووجدت الطبقات المتعلمة أنه من الصعب عليها أن تصدق أو تؤمن بالمعجزات على حين ابتهج وفاخر بها غير المثقفين . ثم هذه

الأرض التى تقول الأساطير الأثيرة لدى العامة بأنها أحست «بأقدام الرب»، أليست كما ألمح كوبرنيكس وجاليليو مجرد فقاعة ومرحلة قصيرة فى هذا الكون البالغ السعة، وسعة لا يمكن تحديدها، بالنسبة للأرباب الحاسدين الحاقدين الوارد ذكرهم فى سفر التكوين؟ وأين ذهبت السماء، والتقلبات على أشدها حتى أنها لتغير المواقع مرتين فى اليوم الواحد.

وكان «الموحدون»، أكثر الشكاكين اعتدالا، وهم الذين، فى إيطاليا وسويسرا وبولنده وهولنده وانجلترا، أثاروا الشكوك حول ألوهية المسيح. وكان هناك بالفعل نفر قليل من الربوبيين (*) الذين آمنوا بالله متماثلا مطلقا مع الطبيعة، وأنكروا ألوهية المسيح، ورغبوا فى أن يجعلوا المسيحية مذهبا أخلاقيا لا عقيدة دينية، وكانوا حتى تلك اللحظة مشتتين حذرين، حتى اشتد عودهم وارتفعت مكانتهم فباتوا يزعجون الجلاد، كما فعل إدوارد هربرت من شربورى. ولسوف نجدهم بعد ١٦٤٨، وقد ارتفع صوتهم عن ذى قبل. وأشد جرأة منهم كان الابيقوريون فى ألمانيا، الذين سخروا من «يوم الحساب» الذى طال ترقبه، ومن الجحيم التى يحتمل ألا تكون رهيبة مزعجة، برغم كل شىء، مادام أكثر الناس ابتهاجا ومرحا سوف يحشرون[1] فيها. وفى فرنسا أطلق على مثل هؤلاء الناس «ذوو العقول الصلبة»، أو «الإباحيون»، وهم الذين بدأت أساليبهم المائعة الطليقة تضفى معناها الحديث على لفظة كانت تعنى فى الأصل «المفكرين الأحرار». وفى ١٥٨١ ألف فيليب دوبلسى — مورنى كتابا فى ٩٠٠ صفحة «حقيقة الديانة المسيحية، فى مواجهة الملحدين». وفى ١٦٢٣ نشر الجزويتى فرانسوا جاراس كتابا فى

(*) الربوبية : Deism الايمان بالله بغير اعتقاد بديانات منزلة — مذهب فكرى فى القرن الثامن عشر يدعو إلى الايمان بدين طبيعى مبنى على العقل، لا على الوحى، ويؤكد على الناحية الأخلاقية، منكرا تدخل الخالق فى نواميس الكون.

أكثر من ألف صفحة من قطع الربع ، حمل فيه على « الإباحيين » الذين « يؤمنون بالله شكلا أو من أجل دين الدولة » . . ولا يرتضون ألا « الطبيعة » والقضاء والقدر[٢] . وفى العام نفسه قدر مرين مرسن عدد الملحدين فى باريس بنحو ٥٠ ألفا[٣] ، ولكن هذه الكلمة كانت تستخدم فى هاتيك الأيام بشكل فضفاض ، وربما قصد بها مارين « الربوبيين » . وفى ١٦٢٥ أوضح جبرائيل نودى أن الشرائع التى نزل بها الوحى المقدس على « توما بمبليوس » (ملك رومه الأسطورى ٧١٥ — ٦٧٢ ق . م) رجلى موسى ، ماهى إلا خرافات ابتدعت لإقامة النظام الاجتماعى ، وأن رهبان طيبة لفقوا حكايات الصراع مع الشيطان ليزيدوا من شهرتهم ويرفعوا من مكانتهم ويغـــذوا الجمهور الساذج . وفى ١٦٢٣ نشر فرانسوا دى لاموث لافاى — سكرتير ريشيليو ، ومعلم لويس الرابع عشر ، الذى تولى الملك فيما بعد — كتابه المسمى « محاورات أورازبوس تابيرو » ، صرح فيه بشكوكيه عامة : « إن معرفتنا هراء فى هراء ، وأن حقائقنا خيالات وأوهام ، وأن دنيانا بأسرها . . . مهزلة متصلة »[٥] وكان فرنسوا هذا من بين الذين ضعف إيمانهم قبل تعدد المذاهب المعصومة : « ليس فى هذة العقائد التى لا حصر لها رجل لا يؤمن بأن مذهبه هو الحق ، وأن غيره هو الباطل »[٦] . وعلى الرغم من شكوكيته تزوج فى سن الثامنة والسبعين ، ووافته المنية فى الرابعة والثمانين وهو على فراشه . وكان ، وهو متشكك فاضل ، قد كف عن معارضة الكنيسة .

وكان قدر كبير من هذه الشكوكية الفرنسية صدى سلبيا لمونتينى . ثم أصبحت قوة إيجابية بناءة فى شخص صديقه بيير شارون ، وهو قسيس من بوردو ، قام له بالطقوس الأخيرة عند موته ، وورث مكتبته ، وكتب فى ١٦٠١ « رسالة عن الحكمة » فى ثلاثة مجلدات فى وصف الحكمة ، ولكن قيل عن هذه الرسالة بغير حق ، بأنها ترتيب منهجى لمونتينى ، ولكنها ، على الأصح ، رسالة مستقلة تدين بكثير من الفضل « للمقالات » ، ولكنها تحمل

طابع شخصية شارون الدمثة الوقورة . وهو يقول بأن كل المعرفة تنبع من الحواس ، وهي لذلك عرضة لتقييدات الحواس وعجزها وأخطائها الكثيرة، فليست الحقيقة من شأننا نحن . ويقول السفهاء من الناس بأن الحقيقة يثبتها قبول كل الناس لها وإن صوت الخلق من صوت الله . ولكن شارون يعتقد أكثر ما يعتقد أن صوت الناس هو صوت الجهالة ، وأنه صوت الآراء التي تلفق لهم ، وأن الإنسان يجب أن يتشكك خاصة فيما يؤمن أكثر الناس به[٧] . إن الروح قوة خفية حادة لا تهدأ ، متصلة بالمخ ، وظاهر أنها تفنى بفناء الجسم[٨] إن الديانة تنطوي على أسرار وخفايا لا يمكن إثباتها وعلى سخافات كثيرة . وعليها يقع وزر التضحيات الوحشية والقساوات التعصبية . وإذا كان كل الناس فلاسفة (كما قد يقول فولتير فيما بعد) ، يتعشقون الحكمة ويمارسونها ، فلن تعود ثمة حاجة إلى الديانة ، ويمكن أن تعيش المجتمعات بمقتضى علم أخلاقي طبيعي مستقل عن اللاهوت أو الدين ، ويمكن أن يوجد الإنسان الفاضل ، دون سماء ولا جحيم »[٩] . ولكن إذا أخذنا في الاعتبار ما فطر عليه الإنسان بالطبيعة من شر وجهل ، فإن الدين يصبح أداة ضرورية لازمة للأخلاق والنظام[١٠] . وبناء على هذا يتقبل شارون كل أساسيات المسيحية ، حتى الملائكة والمعجزات[١١] ، وينصح الحكماء بمراعاة كل المراسم الدينية التي تضعها الكنيسة التي ينتسب هو إليها عن غير قصد ، على أية حال[١٢] ، ولن يكون المتشكك الحق هرطيقا أبدا[١٣] .

وعلى الرغم من هذه النتائج القويمة التي خلص إليها شارون فإن أحد الجزويت المعاصرين يحشره في زمرة أخطر الملحدين وأشرهم وأخبثهم[١٤] . ولما مات شارون فجأة بالسكتة القلبية ، في سن الثانية والستين (١٦٠٣) قال الأتقياء بأن هذا عقاب من عند الله على كفره والحادة[١٥] . وقبيل وفاته أعد طبعة ثانية من كتابه ، خفف فيها من الأجزاء الأكثر تهورا وطيشا ، وأكد لزملائه من رجال الدين أنه إنما قصد « بالطبيعة » الله سبحانه وتعالى ،

وعلى الرغم من ذلك وضع كتابه فى عداد الكتب المحظورة . ولمدة نصف قرن من الزمان فاق كتابه مقالات «مونتيني انتشارا وشعبية . وطبع كتاب «محاورات» الحكمة خمسا وثلاثين مرة فى فرنسا فيما بين عامى ١٦٠١-١٦٧٢ . وفى القرن الثامن عشر كان أثر شارون أقوى من أثر أستاذه . ولكن نفس العرض المنظم الذى جذب القرن السابع عشر الكلاسيكى ، بدأ فى أعين القرن التاسع عشر وعظا كثيبا مدرسيا ، وضاع شارون وسط ما اكتشف من جديد ، من تألق وبهجة فى مونتيني .

٢ — جيوردانو برونو ١٥٤٨—١٦٠٠

كان كوبرنيكس قد وسع الكون . فمن ذا الذى يمكن أن «يوسع الله» اليوم ويعيد التعبير عن الألوهية فى لغة جديدة بهذه المجموعات من النجوم الهادئة التى لايحصى عددها ؟ أن برونو حاول هذا .

ولد برونو فى نولا على بعد ١٦ ميلا إلى الشرق من نابلى . وعمد باسم فلبو ، وغير اسمه إلى جيوردانو عندما كان فى سن السابعة عشرة ، دخل دير الدومنيكان فى نابلى . وفيه وجد مكتبة عظيمة غنية ، لا بكتب اللاهوت فحسب ، بل كذلك بالكتب اليونانية واللاتينية القديمة ، عن أفلاطون وأرسطو ، بل حتى عن مؤلفين عرب وعبرانيين كانت قد ترجمت إلى اللاتينية . وتعلقت طبيعته الشاعرية على الفور بالأساطير الوثنية التى رسخت فى فكره لوقت طويل بعد تبخر اللاهوت المسيحى . وافتتن بمذهب ديمقريتس الذرى تابعه أبيقور ، وبسطه كوبرنيكس فى صورة رائعة . وقرأ كتب المفكرين المسلمين ابن سينا وابن رشد ، والفيلسوف اليهودى ابن جابيرول . وتسرب إلى نفسه شيء من التصوف العبرانى ، مختلطا بأفكار ديونسيوس الزائفة وأفكار برناردينو تلزيو عن اتحاد الأضداد فى الطبيعة وفى الله ،

كما تسرب إليه كذلك شيء من فكرة نيقولا (من كوزا) عن كون لا نهائي ليس له مركز أو محيط ، تنفخ فيه الحياة روح واحدة . وأعجب بالتصوف الطبي الثائر عند باراسلسوس وبالرمزية الروحية ، وبوسائل تقوية الذاكرة عند ريموند للى ، وبفلسفة كورنيليوس أجريبا الغامضة . وعمل كل هذا على تشكيل برونو كما أشعل فيه نار البغض لأرسطو وللفلسفة النصرانية في العصور الوسطى (السكولاستية) ولتوماس أكويناس . ولكن برونو كان في دير الدومنيكان وتوماس أكويناس هو رائد الفكر عندهم .

ولم يكن بد من أن يزعج الراهب الشاب رؤساءه بالاعتراضات والأسئلة والنظريات . أضف إلى ذلك أن حاسة الجنس كانت تضطرم بين جنبيه ، واعترف فيما بعد بأن كان ثلوج القوقاز ما كانت لتنقع غلته أو تطفيء شهوته ، وأن ثمة علاقة دقيقة بين يقظة الجنس ويقظة العقل . وفي ١٥٧٢رسم كاهنا ، ولكن الشكوك ظلت تثور بين جوانحه وتلهبه خفية . كيف يمكن أن يكون هناك ثلاثة في واحد هو الله سبحانه وتعالى ؟ كيف يتسنى لكاهن مهما كانت مرتبته أن يحول الخبز والخمر إلى جسد يسوع المسيح ودمه ؟ . وبعد رسامته ، عنفه رؤساؤه مرتين تعنيفا رسميا ، وفي ١٥٧٦ ، بعد أن قضى أحد عشر عاما في الرهبنة ، فر فجأة من الدير ، وتوارى عن الأنظار لبعض الوقت في روما . وخلع رداء الرهبنة ، وعاد إلى اسمه الذي عمد به ، والتمس الأمان والتستر في الاشتغال بالتعليم في مدرسة للبنين في نولى بالقرب من جنوه .

وهكذا بدأت ست عشرة سنة من التجوال ، سرى فيها القلق والأرق في جسمه جنبا إلى جنب مع التردد والتذبذب في عقله . وبعد أربعة أشهر قضاها في نولى ، انتقل إلى سافونا ، ثم إلى تورين ، وإلى البندقية ثم إلى بادوا . وعاد فارتدى ثانية ثوب الراهب الدومنيكاني ليحظى بكرم الوفادة في الأديار . ثم سار إلى برسكيا ، وإلى برجامو ، وعبر جبال الألب إلى شامبرى حيث أستقبله

وأطعمه دير للدومنيكان . ثم إلى ليون ، ومنها إلى جنيف . وهناك فى معقل الكلفنية جرد نفسه من ثوب الرهبنة مرة أخرى ، وهناك قضى شهرين فى هدوء لا يلتئم مع مزاجه، يكسب قوته بتصحيح المخطوطات والتجارب للطبع ومن بين هذه ، كان نقده الخاص لمحاضرة ألقاها أحد رجال الدين الكلفنيين فى جامعة جنيف . وأشار فيه برونو إلى عشرين خطأ فى هذه المحاضرة. وألقى القبض على طابع النقد وحكم عليه بغرامة، أما برونو فاستدعى للمحاكمة أمام محكمة الكنيسة ، فقدم اعتذرا وصفحوا عنه. وتولاه اليأس والقنوط حين ألفى نفسه يهرب من شراك رقابة ليقع فى براثن أخرى ، فغادر جنيف وعاد إلى ليون ومنها إلى تولوز ، حيث ظهر ظل عابر من التسامح فى صراع الكاثوليك مع الهيجونوت ، وفى تدفق اليهود المرتدين إرتدادا يسيرا من أسبانيا والبرتغال . وربما حدث أثناء اقامته (١٥٨١) ، أن نشر فرانسوا سانكى فى تولوز ، رسالته الشكوكية « المعرفة الصحيحة الكريمة . . . . ليس ثمة شيء معروف » ، وحاضر برونو لمدة ثمانية عشر شهرا فى رسالة أرسطو « الروح » . ولأسباب غير معروفة . وربما من أجل شهرة أوسع وأعظم . رحل برونو إلى باريس .

وكان برونو قد أحرز شهرة ، لا بوصفه فيلسوفا فحسب ، بل كذلك بوصفه خبيرا فى فن تقوية الذاكرة . وأرسل هنرى الثالث فى طلبه واستولى على الأسرار السحرية من ذاكرة طيبة . وسرا الملك من دروس برونو وعينه مدرسا فى الكوليج دى فرانس . واحتمل برونو فى هدوء لمدة عامين، ولكنه فى ١٥٨٢ نشر رواية هزلية (كوميدية) تحت عنوان « حامل المشعل» يهجو فيها هجاء لاذعا ، الرهبان والأساتذة والمتحذلقين . . . ولندع المقدمة تتحدث :

ستترون ، فى فوضى مشوشة ، نتفا عن النشالين ، وألوانا من الزيف والخداع ، ومغامرات الأوغاد ، كما ترون الاشمئزاز الطريف .

والحلوى المرة ، والقرارات الحمقاء ، والايمان الخاطىء والآمال المشلولة ، والصدقات الشحيحة . . . . والنساء القويات الشكيمة (الرجوليات) والرجال المخنثين .... وحب الذهب (المال) فى كل مكان .

ومن ثم تنشأ الحيات الربعية (الراجعة) ، والسرطانات الروحية ، والأفكار الهزيلة ، والحماقات المتسلطة .... والمعرفة المتقدمة ، والعمل المثمر ، والصناعة الهادفة . وفى إيجاز ، ستَرون فى الرواية ، أمنا تافها ، وقدرا ضئيلا من الجمال ، ولن تروا شيئا طيبا أو حسنا .

ووقع على الرواية : « برونو النولى ، المتخرج فى أكاديمية تسمى الازعاج »[٦٠] .

وفى مارس ١٥٨٣ قصد انجلترا وكان هنرى الثالث أكثر استعدادا للتوصية به خيراً لدى الآخرين منه للاحتفاظ بخدماته لديه[٦٧] ، فزوده بخطابات يقدمه فيها للسفير الفرنسى فى لندن ، ميشيل دى كاستلنو ، سيردى لاموفيسير ، وهنا بدأت أسعد اللحظات فى حياة برونو . حيث أقام فى قصر السفير عامين يأكل ويشرب ، متحررا من أية نفقة أو ضرورة إقتصادية ، وهنا أيضا كتب بعضا من أهم مؤلفاته ، كما وجد ملجأ من العواصف التى يثيرها خلقه وشخصيته ، وكان يخفف عنه مناظراته ومجادلاته مع رجل متسامح عرك الدنيا ، وعرف أنه من الأفضل ألا ينظر إلى الميتافيزيقا بعين الجد . وفى هذا البيت التقى برونو بسير فيليب سدنى ، وأرلى لبستر ، وجون فلوريو ، وأدموند سبنسر ، وجرابيل هارفى وغيرهم من ألمع العقول فى انجلترا فى عصر اليزبث . إن أحاديث برونو مع هؤلاء الرجال زودته بالأسس التى بنى عليها « معرض آرائه » ، وحظى بمقابلة الملكة نفسها ، وامتدحها فى عبارات أخذتها عليه محكمة التفتيش فيما بعد .

وفى ١٥٨٣ طلب من جامعة أكسفورد أن تأذن له فى القاء المحاضرات فى قاعاتها ، ووصف بهذه المناسبة ، مؤهلاته فى لغة باعدت إلى الأبد بينه وبين وصفه بالتواضع[١٨] ، وحصل على الترخيص ، فتحدث عن خلود الروح ، وعن « الكرة السماوية المكبره إلى خمسة أمثالها ، أى عن نظرية كوبرنيكوس فى الكواكب. وتحداه وضايقه بالأسئلة كثير من بينهم رئيس كلية لنكولن ، كما يروى برونو بطريقته الخاصة : —

> هلا عرفت كيف استاعوا أن يردوا على حججه (برونو)؟ وكيف أنه لخس عشرة مرة ، وبخمسة عشر قياسا منطلقاً .ضيق الخناق على « الدكتور » المسكين الذى صدروه ، لهذه المناسبة الرهيبة ، بوصفه رئيسا للأكاديميه ، حتى وقف حائرا كعصفور فى قفص؟ وهلا علمت بأية فظاظة وأية غلاظة تصرف هذا الخنزير ، وبالصبر والروح الإنسانية اللتين تذرع بهما من أثبت أنه حقا مولود فى نابلى وأنه نشأ فى ظل سماء أكرم وأرحب ؟ وهلا عرفت كيف أنهوا محاضراته العامة[١٩] ؟

وأطلق برونو على أكسفورد فيما بعد اسم « أرملة التعليم الصحيح » ، « مجموعة من الجهل المتحذلق العنيد والوقاحة ، امتزجت بفظاظة خرقاء يمكن أن ينفد معها صبر أيوب[٢٠] » .

ولكن فيلسوفنا لم يكن « أيوب » . وكتب كتابة رائعة عن النجوم ، ووجد من بين أهل الأرض أغبياء إلى حد لا يطاق . وأحس بأن عرضه الفلسفى لفلك كوبرنيكوس كان خطوة طيبة فى سبيل فهمه ، وأنه كان « ناقدا لاذعا[٢١] » لكل من رفضوا آراءه . ولو أن فلوريو ألفاه ، بعد أن هدأ رعه « وديعا لطيفا[٢٢] وكان غروره امتحانا لأصدقائه ، مثل الريح فى شراعه . وخلع على نفسه ألقابا فخمة : « دكتور فى اللاهوت الأكثر تطورا ، استاذ فى الحكمة الخالصة غير الضارة[٢٣] » . وكان يتمتع بخيال النابوليتانى المتقد

وفصاحته المثيرة . وحيثما ذهب كانت شمس الجنوب تجعل الدم يغلى فى عروقه، « إنى لأرهق نفسى وأعذبها وأقهرها ، حبا فى الحكمة الحقة ، وغيرة على التأمل الصادق »[٢٤]

وفى أواخر عام ١٥٨٥ عاد إلى باريس ، فى أثر السفير الذى استدعى إليها . وحاضر فى السوربون مثيرا عداوة أنصار أرسطو ، كما هى العادة . وأغرته حروب العصبة ضد هنرى الثالث بأن يختبر الجامعات الألمانية، فتسجل فى جامعة ماربرج ، ولكنه رفض القاء المحاضرات ، وعرض برئيس الجامعة وقصد إلى وتنبرج ، وقضى عامين يحاضر فى جامعة لوثر ، ولدى مغادرته لها عبر عن شكره فى خطاب محلق ودع فيه الجامعة . ولكن لاهوت رجال الاصلاح لم يرقه ، فالتمس رعاية رودلف الثانى فى براغ . وظنه الامبراطور رحلا غريب الأطوار ، ولكنه منحه ٣٠٠ ثيلر ، وأذن له بالتدريس فى جامعة هلمستد فى برنزويك . وبقى سعيداً فى عمله لعدة أشهر ، إتهمه بعدها رئيس الكنيسة اللوثرية وأصدر قراراً بحرمانه من الكنيسة[٢٥] . ولسنا نعرف جوهر الحقيقة فيما جرى ، ولكن برونو رحل إلى فرانكفورت وزيوريخ ثم إلى فرانكفورت ثانية (١٥٩٠ — ١٥٩١) حيث استقر به المقام لينشر مؤلفاته اللاتينية .

وفى تلك الأثناء ـ قبل إيداعه السجن بأمر من محكمة التفتيش بعام واحد ـ كانت فلسفته قد اكتملت ، ولو أنها لم تصل قط إلى مرتبة الوضوح والترابط. أننا عند النظر فى أهم مؤلفات برونو لتصدمنا العنوانات التى وضعها فى صيغة مقتضبة . ويغلب عليها أن تكون شاعرية مبهمة ، تنذرنا بألا نتوقع فلسفة منهجية متماسكة ، بل هى على الأرجح أفكار خيالية صالحة وانجذابات صوفية أو نشوات . وقل أن نجد فى أى مؤلف آخر ، اللهم إلا رابليه ، هذا الخليط من النعوت والألقاب والمجازات البلاغية والرموز والخرافات والنزوات والفكاهات ، والكلام المنمق والتوافه والتمجيد والسخرية وخفة الدم، مكدسة بعضها فوق بعض ، فى فوضى من المبادىء والأفكار الثاقبة والفرضيات .

لقد ورث برونو براعة الكتاب المسرحيين الايطاليين والمرح الصاخب المؤذى لدى الشعراء الايطاليين الذين يحشون قصائدهم بألفاظ ايطالية إلى جانب ألفاظ من لغة أو لغات أخرى، كما ورث هجاء برنى وأرتينو اللاذع. وإذا كان المقصود بالفلسفة: القدرة على رؤية الأشياء رؤية هادئة وفقا لعلاقتها الصحيحة وأهميتها بالنسبة، والتحفظ أو التقييد المعقول المنطقى، والقدرة على الاحاطة بكل الجوانب، والتسامح مع كل وجهات النظر المخالفة، فأن برونو، على هذا الأساس ليس فيلسوفا، بل أنه محارب أو مصارع، يصم أذنيه ويغشى عينيه، لكيلا لا تصرفه الأخطار المحدقة عن هدفه — الذى كان قبل ظهور فولتير بقرنين من الزمان — هو عار الاضطهاد وظلمته فثمة مرارة أشد من فولتير فى برونو فى تهكمه الوحشى للمعالجة اللاهوتية المثالية للايمان الغافل الخالى من التفكير:

إنى لأقول وأكرر القول بأنه ليس ثمة مرآة توضع أمام أعين البشر، خير من الحماريه أو الحمار ليكشف بشكل أوضح عن واجب هذا الانسان الذى.. يفتش عن ثواب يوم الحساب.. ومن ناحية أخرى، ليس ثمة شىء أشد فعالية فى تردينا فى هاوية الجحيم من التأملات الفلسفية والعقلانية التى تنبع من الحواس... وتنمو وتنضج فى العقل البشرى المتطور. فحاولوا إذن أن تكونوا حميرا، يأيها الرجال، ويأيها الذين أنتم بالفعل حمير، وأدرسوا حتى تسيروا من حسن إلى أحسن، وتحققوا هذه الغاية والمكانة اللتين لايمكن الوصول إليهما بالمعرفة والجهود مهما عظمت، بل بالايمان، واللتين لايحول دونهما الجهل والأخطاء مهما كانت جسيمة ولكن يحول دونهما الكفر. وإذا كنتم بمثل هذا السلوك مقيدين فى سجل الحياة فلسوف تحظون ببركة الكنيسة «المحاربة»، وبمجد الكنيسة المنتصرة»، التى «يعيش فيها «الله» ويحكم فى كل العصور.. آمين[٢٦]

أن رؤية برنو للكون رؤية جمالية فى أصلها، وهى تقدير عميق يتسم

بالتعجب والدهشة من كون لا نهائي ساطع براق . ولكنها كذلك محاولة فلسفية لتكييف الفكر البشري مع كون يشكل فيه كوكبنا الذي نعيش عليه جزءا غاية في الصغر من اتساع لا يمكن إدراك مداه . أن الأرض ليست مركز العالم ، وكذلك الشمس ليست مركزا له . وفيما وراء العالم الذي نراه (ولم يكن هناك تلسكوب حين كتب برونو) عوالم أخرى (كما أوضح التلسكوب بعد ذلك بقليل وفيما وراء هذه العوالم الأخرى توجد عوالم أخرى أيضا كما أثبت التلسكوب بعد تحسينه) ، وهكذا إلى ما لا نهاية . أننا لا نستطيع أن ندرك نهاية أو بداية . وبدلا من النجوم « الثابتة » كما ظن كوبرنيكوس أنها ثابتة، فانها تغير مواقعها على الدوام ، وحتى في السموات كل الأشياء تجرى . والفضاء والزمن والحركة كلها أمور نسبية . وليس هناك مركز ولا محيط ، ولا ارتفاع وانخفاض . وتختلف نفس الحركة عند رؤيتها من أماكن أو نجوم مختلفة . ولما كان الزمن هو مقياس الحركة، فان الزمن نسبي كذلك، وربما كان هناك نجوم كثيرة تسكنها كائنات حية ذكية . فهل مات المسيح من أجلهم كذلك ؟ على أنه في هذا الاتساع الذي لا نهاية له ، هناك بقاء ثابت للمادة ، وولاء دائم لا محيد عنه للقانون .

ولما كان الكون لا نهائيا، فانه لا يمكن أن يكون هناك « لا نهائيان » فاذن يكون « الله » اللانهائي والكون اللانهائي شيئاً واحداً (وهنا قول سبينوزا « الله أو المادة أو الطبيعة) » ، وليس هناك « مدبر أول » كما قال أرسطو . بل هناك حركة أو طاقة متأصلة في كل جزء من هذا الكل » . وليس الله عقلا خارجيا . . . . والأجدر به أن يكون القاعدة الداخلية للحركة ، وهي طبيعته وروحه »[٢٧] . والطبيعة هي العقل الخارجي الالهي ، على أن هذا العقل ليس موجودا في « سماء عليا » بل هو موجود في كل جزء من جزيئات الواقع .

إن العالم يتألف من عناصر دقيقة جداً ومن وحدات لا تقبل الانقسام من القوة ، ومن حياة ، ومن عقل بدائى (وهنا كان برونو همزة الوصل بين لوكريشيوس وليبنتز) ولكل جزء صغير فرديته القائمة بذاتها وعقله الخاص به ، ومع ذلك فإن حريته لا تعنى التحرر من القانون ، ولكنها تعنى (كما قال سبينوزا) سلوكه وفق قانونه وطبيعته المتأصلتين الخاصتين به . وهناك فى الطبيعة قاعدة التقدم والتطور ، بمعنى أن كل جزء يكافح من أجل التطور والنمو . (Entelechia أرسطو) .

وهناك فى الطبيعة أضداد ، وقوى متعارضة ، ومتناقضات . ولكن عمل الكون بأسره فى « مشيئة الله » تتوافق كل المتضادات وتختفى . كذلك فان الحركات المتباينة للكواكب هى التى تحدث الانسجام فى السموات ، ووراء التنوع المحير الساحر فى الطبيعة توجد هناك وحدة أروع وأشد عجبا ، تظهر فيها كل الأجزاء وكأنها أعضاء فى كائن واحد . « أنها وحدة تسحرنى ، فأنا بقوة هذه الوحدة حر ولو كنت مستعبداً ، سعيد فى غمرة الحزن ، غنى فى حمأة الفقر ، حى حتى فى الموت »[٢٨] (إنى ، ولو أنى خاضع للقانون ، أعبر عن طبيعتى الخاصة . وبرغم أنى أقاسى فانى أجد عزاء فى التحقق من أن « شر » الجزء يصبح غير ذى معنى فى المشهد العام للكل) . ومن ثم تكون معرفة الوحدة الأسمى هى هدف العلم والفلسفة ، وهى الدواء الشافى للعقل . (الحب العقلى لله ، عند سبينوزا) .

إن هذه الخلاصة البسيطة لفلسفة برونو تهمل ومضاته وجنونه البطولى ، وهى تنطوى على اتصال وتماسك فى تفكيره مغايرين له كل المغايرة ، لأنها تحتوى على متناقضات وتوكيدات جازمة ، وعلى فيض من التقلبات ، لا تتفق إلا مع المذهلات الكونية . وثمة مجموعة أخرى من أفكاره يمكن أن تسلكه فى عداد المتصوفة المجوس . أنه تحدث عن المزايا الخاصة بكثير من الكواكب ، فذهب إلى أن الأشخاص الذين يولدون « تحت تأثير » الزهرة

ينزعون إلى الحب والبلاغة والهدوء والسلام ، أما الذين يولدون « تحت تأثير » المريخ فيميلون إلى النزاع والبغض . وآمن بالخصائص الخفية للأشياء والأرقام ، وأن الأمراض قد تكون عفاريت ، ويمكن علاجها فى بعض الحالات بلمسة ملك أو لعاب ابن سابع(٢٩) .

وكان وهمه الأخير أنه كان يؤمل ، فى حال عودته إلى إيطاليا واستجواب محكمة التفتيش له ، فى أنه يستطيع أن يقتبس بعض قطع رشيدة من مؤلفاته يخدع بها الكنيسة فتحسبه ابنها البار . وربما راوده الأمل فى أن إيطاليا لم تكن قد سمعت بكتابه الذى نشره فى انجلترا « طرد الحيوان المنتصر » . والذى كان يمكن أن يفسر الحيوان الذى طرد فيه على أنه الكاثوليكية أو المسيحية أو المبادىء الدينية عامة(٣٠) . ولابد أنه قد تاقت نفسه إلى إيطاليا وإلا كيف نفسر لهفته على قبول دعوة جيوفنى موسنيجو للقدوم إلى البندقية معلما له وضيفاً عليه ؟ وكان موسنيجو سليل أسرة من ألمع أسرات البندقية ، وكان كاثوليكيا ورعا ، ولكنه كان مهتما بالقوى الخفية ، وقد أبلغوه أن برونو كان على علم تام بفروع السحر ، وأنه يختزن فى ذاكرته القوية الكثير من الخفايا والأسرار . وكانت محكمة التفتيش قد أعلنت منذ أمد طويل أن برونو خارج على القانون ويجب القبض عليه فى أول فرصة . ولكن البندقية اشتهرت بحماية أمثال هؤلاء الخارجين على القانون ، متحدية بذلك محكمة التفتيش . وعلى ذلك سارع برونو إلى مغادرة فرنكفورت فى أواخر ١٥٩١ وشق طريقه عبر الألب إلى إيطاليا .

وأعد له موسنيجو مسكنا وتلقى عنه دروسا فى تقوية الذاكرة . ولكن تقدم التلميذ كان بطيئاً وظن أن معلمه قد حجب عنه بعض تقاليد السحر الخفية كما أنه فى نفس الوقت ارتعد فزعا من الهرطقات التى تمثلت فى الفيلسوف الثرثار القليل الحذر ، وسأل موسنيجو كاهن الاعتراف إذا كان يجب عليه أن يبلغ محكمة التفتيش عن برونو ، فنصحه الكاهن بالتريث حتى يتثبت من حقيقة برونو بشكل أدق . وامتثل موسنيجو لمشورة الكاهن ، ولكن عندما

أعلن برونو عن عزمه على العودة إلى فرانكفورت ، أبلغ موسنيجو المحكمة وفى ٢٣ مايو ١٥٩٢ وجد برونو نفسه نزيلا فى سجن المحكمة فى البندقية . وأوضح موسنيجو أنه « تصرف وفق ما أملاه عليه ضميره ، وبأمر من كاهن الاعتراف[٣١] . وأبلغ المتحققين أن برونو كان يعارض كل الأديان ، ولو أن الكثلكة كانت أحبها إلى نفسه ، ولكنه أنكر التثليث وتجسد المسيح وتحول القربان ، وأنه اتهم المسيح والرسل بتضليل الناس وخداعهم بالمعجزات المزعومة ، وأنه قال بأن كل الإخوة أو رجال الدين والرهبان حمير دنسوا الأرض بنفاقهم وريائهم وجشعهم وحياتهم المملوءة بالشرور ، وأن الفلسفة يجب أن تحل محل الديانة ، وأن الانغماس فى « الملذات الدنيوية » ليس خطيئة وأنه ، أى برونو ، أشبع شهواته قدر ما سنحت له الفرص[٣٢] ، وأن برونو كان قد قال له « أنه استمتع بالنساء كثيرا ، ولو أنه لم يبلغ بعد عدد نساء سليمان[٣٣] .

وحققت المحكمة مع السجين على مهل ، من مايو إلى سبتمبر ١٥٩٢ ودفع بأنه كان قد كتب ما كتب بوصفه فيلسوفا ، وأنه كان يستفيد من تمييز بمبوناتزى بن « الحقين » أنه يجوز للانسان أن يناقش ، بوصفه فيلسوفا ، نظريات قبلها بوصفه كاثوليكيا . وصرح بما يساوره من شكوك فى موضوع التثليث . واعترف بأنه مذنب فى أخطاء كثيرة ، وأبدى ندمه عليها ، وتضرع إلى المحكمة وهى تعرف سقامه وعيوبه ، أن تعيده إلى أحضان الكنيسة الأم وأن تزوده بما يلائمه من علاج ، وأن تستعمل معه الرأفة[٣٤] . ولم تستجب المحكمة إلى شيء من هذا وأعادته إلى زنزانته لمدة شهرين آخرين وفى ٣٠ يوليه حققوا معه مرة ثانية ، واستمعوا إلى اعترافه وطلبه الرأفة وأعادوه مرة ثانية إلى السجن . وفى سبتمبر طلبت محكمة التفتيش فى رومه من البندقية إرسال السجين إليها . فاعترضت حكومة البندقية ، ولكن المحكمة أوضحت أن برونو من مواطنى نابلى ، لا البندقية . ووافق السناتو على تسليمه . وفى ٢٧ فبراير ١٥٩٣ تم ترحيله إلى رومه .

وكان جزءاً من إجراءات محكمة التفتيش أن تترك السجين يقبع مكتئباً حزينا فى السجن لفترات طويلة قبل التحقيق وفى أثنائه وبعده . وكادت تنقضى سنة كاملة قبل أن يمثل برونو أمام محكمة روما فى ديسمبر ١٥٩٣ ، وحققوا معه، أو قل عذبوه بالتحقيق ، ثانية ، فى أبريل ومايو وسبتمبر وديسمبر ١٥٩٤ . واجتمعت المحكمة مرتين فى يناير ١٥٩٥ لتدرس الأوراق . وتقول أوراق المحاكمة أنه فى مارس ١٥٩٥ وأبريل ١٥٩٦ « مثل برونو أمام كبار الكرادلة، وأنهم زاروه فى زنزانته . وأستمعوا له وسألوه عما يمكن أن يكون فى حاجة إليه[٣٥] » ، وفى ديسمبر ١٥٩٦ استمعوا إلى شكواه « من الطعام » . وفى مارس ١٥٩٧ استدعى للمثول بين يدى المحققين الذين « استمعوا مرة أخرى إلى ما يحتاج إليه ». ولم تعرف ماذا كان يحتاج إليه « ولكن النداءات المتكررة توحى بمصاعب يتعذر وصفها ، ليس من بينها هذا التسويف الطويل، المفروض أن الهدف منه هو تحطيم الروح الجياشة إلى حـــد الإذلال المهذب للنفس » وانقضى عام آخر ، وفى ديسمبر ١٥٩٨ سمح له بورق وقلم ، وفى ١٤ يناير ١٥٩٩ استدعى مرة أخرى ، وتليت عليه ثمان مسائل هرطيقية مأخوذة من كتبه . وطلبوا إليه أن يشجبها علنا ، فدافع عن وجهة نظره ولكنه وافق على قبول حكم البابا فى المسائل سالفة الذكر . وفى ٤ فبراير قرر كليمنت الثامن وهيئة محكمة التفتيش أن هذه المقتبسات هرطيقية صريحة . ولم يرد فى أوراق المحاكمة ذكر لآراء برونو فى نظريات كوبرنيكس ، بل أن الهرطقة انصبت على التجسيد والتثليث . وسمح له بأربعين يوما أخرى للاعتراف بأخطائه .

واستمعوا له مرة أخرى فى ١٨ فبراير ، ثم فى أبريل وسبتمبر ونوفمبر . وفى ٢١ ديسمبر أعلن أنه لن يتراجع. وفى ٢٠ يناير ١٦٠٠ قدم إلى البابا مذكرة يدعى فيها أن المسائل الواردة فى الاتهام اقتبست من مظانها بشكل خاطىء ، ويعرض أن يتولى الدفاع عنها أمام رجال الدين ، ويقول مرة أخرى أنه يرتضى حكم البابا . وبناء على ذلك ، كما تقول سجلات المحاكمة « أصدر قداسة

البابا كليمنت الثامن أمراً بإتخاذ الإجراءات النهائية فى القضية .... وبالنطق بالحكم ، وبإحالة الأخ المدعو جوردانوس إلى المحكمة المدنية » . وفى ٨ فبراير استدعى المحققون برونو ، وكرروا على مسامعه الإتهامات الموجهة إليه ، وأبلغوه أنهم أمهلوه ثمانية أعوام ليراجع موقفه ويبدى الندم ، وأنه وافق على حكم البابا فى أمر مروقه عن الدين ، وأن البابا قرر أنه مارق ، وأن المتهم لا يزال مصراً على هرطقته ، « سادراً فى غيه ، عنيداً ، مكابراً » ومن ثم صدر الحكم بإحالته إلى المحكمة المدنية .... إلى حاكم رومه ، الحاضر هنا الآن ليقرر العقوبة التى تستحقها « ولو أننا نرجو جادين أن يخفف من صرامة القوانين ، بالنسبة لما تعانيه من آلام ، وألا يكون جزاؤك الاعدام أو بتر الأعضاء ». ووقع على الحكم ثمانية كرادلة ، من بينهم بللارمين . ويقول كسبار سكيوبيوس — وهو عالم ألمانى تحول حديثا إلى الكثلكة ثم أقام فى رومه — أن برونو ، عندما تلى عليه الحكم ، قال لقضاته : « ربما كنتم يا من نطقتم الحكم بإعدامى ، أشد جزعا وخشية منى أنا الذى تلقيته »[٣٦] .

ونقل برونو على الفور إلى سجن مدنى . وفى ١٩ فبراير ، وهو لا يزال مصراً على موقفه ، جرد من ثيابه وربط لسانه ، وشد إلى خازوق من الحديد فوق ركام من الحطب فى « بيازا كامبودى فيورى » وأحرق حيا على مشهد من جمع غفير متعظ . وكان فى الثانية والخمسين من العمر ، وفى ١٨٨٩ ، أقيم له فى نفس المكان ، تمثال ، جمعت له التبرعات من مختلف أركان الدنيا .

٣ — فانينى وكمبانلا

بعد تسعة عشر عاما من هذا الذى أسلفنا ، ظهرت نزعة مماثلة ، ولقيت من فورها نفس المصير .

ولد جيوليو سيزار لوسيليو فانينى فى جنوب إيطاليا لأب إيطالى وأم

أسبانية — بارود يتزوج ناراً . وبعد أن تجول فانينى فى أنحاء أوربا — كما فعل برونو — يختبر الأجواء واللاهوتيات ، ويؤلف الكتب ، وفيها ومضات عارضة من فكر ثاقب (مثل قوله أن الإنسان كان يوما من ذوات الأربع) لا تكاد تتوازن مع الهراء الغامض ، استقر به المقام فى تولوز (١٦١٧) ، حيث قضى — مثل برونو — عامين نعم فيهما بالهدوء . ولكن أحد المترددين على محاضراته وشى به على أنه يسخر من التجسيد ويعارض فكرة وجود « إله بشرى »[٣٨] . وثمة مستمع آخر ، هو سيردى فرانسون — كسب ثقة فانينى ، واستدرجه — كما فعل موسينيجو مع برونو من قبل — وأبلغ أمره إلى برلمان البلدة . فقبض عليه فى ٢ أغسطس ١٦١٨ ، لا بأمر الكنيسة ؛ بل بناء على أمر من مفوض الملك العام . وإستناداً إلى محاضراته اتهم بالإلحاد والتجديف ، وهاتان جريمتان تعاقب عليهما الدولة . وأكد فانينى إيمانه بالله ، ولكن فرانسون زعم أن السجين صرح بالحاده وكفره أكثر من مرة قائلا بأن « الطبيعة هى الاله الوحيد » ، وأقر القضاة شهادة الشاهد ، وعلى الرغم من إحتجاجات فانينى الصارخة ، وما أظهره من تقى وورع فى سجنه ، صدر الحكم عليه — وهو فى الرابعة والثلاثين : —

بأن يسلم إلى الجلاد ، الذى يجره إلى سياج نقال ، وهو فى قيمصه ، وحبل المشنقة حول عنقه ، حاملا فوق كتفيه إعلانا يقول « ملحد دنس اسم الله » ، وعلى هذه الحال يقوده أمام المدخل الرئيسى لكنيسة القديس ستيفن ، وهناك يجثو على ركبتيه ليطلب الغفران من الله ومن الملك ومن العدالة ، عن تجديفه وألحاده ، ثم يسوقه إلى ميدان سالين ، ويشده إلى خازوق مقام هناك ، ويقطع لسانه ، ويشنقه ، ثم يحرق جسمه ثم يترك الرماد لتذروه الرياح[٦٥] .

ويروون أن فانيني ، حين جيء به من السجن ليلقى عقابه (٩ فبراير ١٦١٩) صاح معجبا « دعوني أذهب ، دعوني أذهب فرحا مبتهجا لأموت موتة فيلسوف[٣٩] » .

كذلك ولد توماسو كمبانللا ، ودم كالاريا الحار يجرى فى عروقه ، وخفف من حرارته لبعض الوقت فى دير للدومنيكان ، ودرس تلزيو وامبيد وكليس ؛ ونبذ أرسطو ، وتناول بالتعريض والتسخيف « قرار البابا بالحرم » من الكنيسة فأودع بالسجن بأمر من محكمة التفتيش فى نابلى لبضعة شهور (١٥٩١-١٥٩٢) وبعد الإفراج عنه ألقى بعض الدروس والمحاضرات فى بادوا ، واتهم بالفسق والفجور ، وهناك دون أول مؤلف هام له فى الفلسفة (١٥٩٤) نصح فيه المفكرين — كما فعل فرانسيس بيكون بعد ذلك بأحد عشر عاما — بدراسة الطبيعة ، لا دراسة أرسطو ـ وأعد برنامجا للعودة إلى العلم والفلسفة . ولما عاد إلى نابلى انضم إلى مؤامرة لتخليصها من نير أسبانيا . ولكن المؤامرة أحبطت ، وزج به فى سجون الولاية لمدة سبعة وعشرون عاما (١٥٩٩-١٦٢٦) وعذب اثنتى عشرة مرة ، استمر التعذيب فى إحداها أربعين ساعة[٤٠] . وخفف من آلام السجن بالفلسفة والشعر وتصوره للدولة المثالية . وفى قصيدته (السونيت) وعنوانها « الشعب » يعبر عن استيائه عن عجز الأهالى عن مساعدته فى ثورته فيقول :

الشعب دابة لها مخ مشوش غبي ، لا تعرف قوتها ، ومن ثم
تقف محملة بالخشب والحجارة ، تقودها يدان هزيلتان لمجرد
طفل بالشكيمة واللجام ، إن رفسة واحدة تكفى لتحطيم القيد ،
ولكن الدابة تخاف وتجبن ، وتفعل مايطلبه الطفل ، ولا تدرك
قدرتها على إرهابه ، لأن « البعبع » التافه يذهلها ويربكها .
وأعجب من هذا أنها تكبل نفسها وتكمم لسانها بيدها ـ وتجلب
على نفسها الموت والحرب مقابل دريهمات (بنسات) يتصدق

بها الملولا عليها من خزاتها هى . إنها تملك كل ما بين الأرض والسماء ، ولكنها لاتعرف ذلك . وإذا هب إنسان لينطق بهذه الحقيقة اقتلته دون أن تغفر له ذنبه(٤١) .

وأهم إنتاج لكمبانللا فى سنوات الشقاء هذه « مدينة الشمس » التى تخيلها قائمة على جبل فى سيلان ، وكل موظفيها صفوة مختارة ـ وهم قابلون للعزل ـ عن طريق جمعية وطنية تضم كل من بلغ العشرين من سكان المدينة ، وهؤلاء الموظفون المختارون على هذا الأساس ، يختارون بدورهم رئيس الحكومة ، وهو كاهن يسمونه « هوه Hoh » يفصل هو ومعاونوه فى كل المسائل دنيوية أو دينية . ويشرفون كذلك على زواج الجنسين ، ليستوثقوا من أن النساء والرجال يتصلون بعضهم ببعض لينجبوا أحسن الذرية . إنهم حقا يسخرون منا حين نبدى اهتماما شديدا بنتاج الخيل والكلاب ، ونهمل نسل الإنسان(٤١) ومن ثم ليس هنا مكان للعاهات والتشوهات . والنساء فى مدينة الشمس هذه شركة بين الرجال على الشيوع فى انضباط صارم ، يقتضيهن القيام بتمرينات شاقة ، توفر لهن بشرة صافية ومظهرا عاما طيبا . . فإذا صبغت امرأة وجهها بالمساحيق ، أو استخدمت أحذية عالية الكعبين . . كانت عقوبتها الإعدام(٤٣) ويدرب الجنسان كلاهما على الحرب ، ويكون جزاء من يهرب من ميدان القتال أن يلقى عند الإمساك به فى عرين للأسود والدببة ليلقى حتفه(٤٤) . وكل فرد مكلف بالعمل ، ولكن لمدة أربع ساعات فقط ، يوميا (وينشأ الأطفال تنشئة مشتركة ، ويعدون إعدادا نفسيا لاقتسام السلع وفق أسس شيوعية ، أما ديانة هؤلاء الناس فهى عبادة الشمس بوصفها « وجه الإله وصورته الحية » إنهم يؤكدون أن الأرض بأسرها سوف تعيش فى التئام تام مع عاداتهم وأعرافهم(٤٥) .

وهذا البيان الشيوعى ، الذى يردد صدى أفلاطون . كتبه كمبانللا فى السجن حوالى ١٦٠٢ ، ونشر فى فرانكفورت آم مين فى ١٦٢٢ . وربما كان

البيان يعبر عن آمال المتآمرين النابوليتانيين ، وربما كان سببا فى احتجاز كمبانيللا فى السجن طويلا ، على أنه تصالح مع الكنيسة فى الوقت المناسب فأفرج عنه . وقد أدخل السرور على قلب أرمان الثامن بتوكيده ، على حق البابوات فى حكم الملوك . وفى ١٩٣٤ أرسله أرمان إلى باريس لينقذه من التورط فى ثورة نابوليتانية أخرى ورعاه ريشليو وحماه . ولكن الثائر المنهوك ، بعد أن استرد شبابه فارق الحياة وهو فى صومعته فى دير الدومنيكان (١٦٣٩) ، وكان يقول : « أنا الناقوس -كمبانللا- الذى يؤذن ببزوغ الفجر الجديد[٤٦] » .

٤ — الفلسفة والسياسة

١ — جوان دى ماريانا : ١٥٣٦ - ١٦٢٤ :

كان محور السياسة فى العصور الوسطى تثبيت سيطرة البابا على الملوك جميعهم وتوحيدهم كلهم تحت رايته . أما أبرز مظاهر التاريخ السياسى الحديث فهو صراع الدول القومية التى تحررت من سلطة البابا . ومن ثم كانت أول قضية شغلت بال الفلسفة السياسية فى القرن الذى جاء فى أعقاب الإصلاح الدينى ، هى أن المفكرين الكاثوليك كانوا يطالبون باستعادة سلطان البابا ، على حين طالب المفكرون البروتستانت بالقضاء على سيطرة البابا قضاء تاما ، وكان أنصار البابوية يحاجون بأن الملكية المطلقة التى تطالب بحقوق الملوك الإلهية وتنكر كل الضوابط والقيود التى يفرضها الدين والأخلاق والقانون ؛ قد تمزق إربا إربا ، ولكن دعاة الإصلاح ردوا على هذا بقولهم بأنه ليس ثمة سلطة « فوق قومية » (تتخطى الحدود القومية) يمكن أن توثق فى سعيها لتحقيق خير البشرية ، بل أنها على الأرجح لابد أن تسعى لتدعيم قوتها الخاصة ونفعها الخاص هذا بالإضافة إلى أن كنيسة ذات سلطة عليا قد تخنق كل حرية الحياة وحرية الفكر .

وكان الفلاسفة « السكولاسيون » فى العصور الوسطى ،قد استمدوا سلطة الملك — وهم فى هذا يرددون رأى المشرعين الرومان — من رضا الشعب ، لا من رضا الله ، ومن ثم لا تكون ثمة سلطة الهية للملوك ، ويعزل بحق أى حاكم غير صالح ، كما أن المفكرين الكلفنيين : مثل بليز وبوكانان ومؤلف « قصاص الطغيان » — أيدوا هذا الرأى أيما تأييد . ولكن اللاهوتيين اللوثريين والأنجليكانيين أيدوا حقوق الملوك الالهية كعنصر موازنة ضرورى ضد عنف الشعب ومزاعم البابا ،وقالوا بوجوب الامتثال للملك حتى ولو كان ظالما [٤٧] .

وكان بين المدافعين عن سلطة الشعب كثير من الجزويت الذين رأوا فى هذه النظرية وسيلة لاضعاف سلطان الملوك أمام سلطان البابا . ويحاج الكاردينال بللارمين فى هذا بقوله : إذا كانت سلطة الملك مستمدة من الشعب ، ومن ثم خاضعة له ،فانه من الواضح أن تكون تابعة لسلطة البابا المستمدة من الكنيسة التى أسسها المسيح ، وهى بذلك لا تخضع لغير الله . وانتهى لويس مولينا — وهو جزويتى أسبانى — إلى أنه مادام الشعب هو مصدر السلطة الدنيوية ، فانه يجوز له حقا وعدلا — ولكن وفق اجراءات سليمة — أن يخلع الملك الظالم [٤٨] . وجاء فرانشسكو سواريه ،وهو خير من أنجبه المجتمع المسيحى من رجال اللاهوت [٤٩] ، فقرر هذه النظرة من جديد ، مع بعض تعديلات دقيقة قاوم بها مزاعم جيمس الأول الاستبدادية ، واعتنق الرأى القائل بحق البابوات فى عزل الملوك . وأثار دفاع الجزويتى جوان دى ماريانا عن قتل الطغاة سخطا عالميا ، حيث زعموا أنه شجع على قتل هنرى الرابع .

أن ماريانا (الذى لاحظنا بالفعل أنه أعظم مؤرخى جيله) كان من كل الوجوه شخصا مرموقا ، اشتهر بعلمه وفصاحته وجرأته الفكرية . وفى ١٥٩٩ أهدى إلى فيليب الثالث ونشر ،باذن من الرقيب المحلى الجزويتى ، رسالته « الملك وتعليمه » ، واستبق هوبز بنصف قرن ، فوصف « حالة الطبيعة » قبل

نشوء المجتمع ، حيث عاش الأنسان آنذاك عيشة الحيوان فى البرية ، متحررا من أية قيود أو ضوابط ، اللهم إلا عجزه الجثمانى ، لا يعترف بقانون ولا بملكية خاصة ، يشبع غريزته فى التماس الطعام والرفيقة . ولكن كانت ثمة منغصات فى الحرية التى نادى بها روسو ، من ذلك تكاثر الحيوانات الضارية الخطرة . وعمد الناس إلى حماية أنفسهم عن طريق تنظيم اجتماعى ، وهو أعظم أداة اخترعت آنذاك ، ووسيلة ضرورية لمقابلة أعضاء الدفاع والهجوم الفسيولوجية التى زودت بها الطبيعة الحيوان . وبمقتضى ميثاق صريح أو ضمنى اتفق أعضاء الجماعة على تفويض سلطتهم الجماعية إلى رئيس أو ملك . ولكن السيادة بقيت فى الشعب ، وفى معظم الأحوال تقريبا ، قامت جمعية وطنية (مثل الكورتيز فى أسبانيا — الجمعية التشريعية ، من مجلسين) بالرقابة على السلطة المفوضة للملك أو الرئيس ، واحتفظت بالأشراف على الخزينة وسنت مجموعة من القوانين كانت سيادتها أعلى من سلطة الملك . »

وفى رأى ماريانا أن الديمقراطية أمر مستحيل ، بسبب تفاوت توزيع القدرات والذكاء بين الناس والدمار كل الدمار فى تحديد السياسة عن طريق الاستفتاء[٥٠] . فالملكية المقيدة أو الدستورية أحسن أنواع الحكومات ، فهى تلتئم مع طبيعة الانسان ، وتعاون على بقاء الدولة . ويجب أن تكون وراثية ، لأن الحكومة الانتخابية إن هى الامثار للفوضى فى فترات دورية .

ويجب أن يكون الملك مقيدا بالقانون وبالضوابط الدينية والأخلاقية ، ويحق الشعب فى عزله إذا طغى . ويجب عليه ألا يغير القوانين أو يفرض ضرائب دون موافقة الشعب . « ويجب عليه ألا يقرر شيئا بشأن الدين[٥١] ، لأن الكنيسة فوق الدولة وينبغى لها أن تحكم نفسها ، ومع ذلك فعليه أن يحمى ديانة البلد ، لأنه إذا أهملت الديانة فلن تقوم للدولة قائمة[٥٢] » . ويجب على الدولة أن تساند الدين فى محافظته على المبادىء الأخلاقية ، وتشجب مصارعة الثيران لأنها تشجع على الوحشية ، والمسرح لأنه يهيج الغرائز

الجنسية(٥٣)، وتنفق على العناية بالمرضى والفقراء عن طريق التوسع فى إنشاء المستشفيات وتوزيع الصدقات وأعمال البر. وينبغى على الأغنياء أن يعطوا الفقراء ما ينفقونه الآن على مظاهر البذخ وعلى الكلاب. ويجب أن تكون الضرائب عالية على الكماليات، منخفضة على الضروريات. فان السلع الموجودة فى البلاد يمكن أن تفى بحاجات الجميع إذا أحسن توزيعها توزيعا عادلا (٥٤). فالأمير الصالح يمكنه أن يحول دون تركز الثروة، ولم تحل الملكية الخاصة محل الشيوعية البدائية إلا لأن «الجشع العظيم وضع يده على كل النعم الالهية واستأثر بكل شىء لنفسه (٥٥)». أن هذا نظام ضرورى الآن، ولسوف تعاد الشيوعية فى السماء (٥٦).

ويجوز أن يعزل الطاغية، بل يجوز حقا وعدلا قتله، حتى بيد فرد، فى بعض الظروف: —

من هو الحاكم الذى يمكن أن يعتبر طاغية؟.... إننا يجدر بنا ألا نترك الفصل فى هذا لأى فرد، أو حتى لأفراد كثيرين، إلا إذا اشترك صوت الشعب فى هذا جهرا، وانضم المثقفون والمعروفون بالجدية والرزانة إليه للتداول فى الأمر... ولكن إذا جر الأمير البلاد إلى الخراب، وأساء استخدام ممتلكات الدولة أو الأفراد، وخرق القوانين العامة، وانتهك حرمة الدين، وبدأ يثبت أقدامه فى صلف ووقاحة وعقوق..... وإذا لم يتسن للمواطنين أن يجتمعوا لاجراء مشاورات ومداولات عامة، ولكنهم عاقدون العزم جديا على وضع حد لهذا الطغيان — ومع افتراض أن هذا عمل بغيض لا يحتمل.... فانه فى مثل هذه الحالة، إذا تقدم فرد، مستجيبا لهذه الرغبة العامة، وعرض القيام بالقضاء على هذا الحاكم. فانى لا أعتبر هذا الفرد آثما ولا شريرا.... وإنها لفكرة سليمة أن يقتنع الأمراء بأنهم إذا طغوا

وبغوا ... فانه يمكن قتلهم ، لاحقا وعدلا فحسب ، بل أن قتلهم يكون كذلك مدعاة للثناء والفخر[٥٧] .

وأعاد ماريانا إلى ذاكرة قرائه حوادث قتل الطغاة فى التاريخ — هارموديوس وأرستوجيتون اللذين قتلا الطاغية همبارخوس (أثينا - القرن السادس ق.م)، وبرونوس الذى أخرج الطاغية تاركينوس من رومه. وأشار إلى أن أثينا وروما ، بل فى الواقع كل أوربا المثقفة خلدت ذكرهم . ولكن ماريانا كشف عن تحيزه ، برضائه إلى حد ما عن ذبح هنرى الثالث بيد كليمنته منذ عهد قريب(١٥٨٩) :

ان هنرى الثالث ملك فرنسا خر صريعا بطعنة من أحد الرهبان بسكين مسمومة فى أحشائه . أن هذا منظر كريه .... إن جاك كليمنت درس اللاهوت فى كلية الدومنيكان التابعة لطائفته . وأبلغه رجال اللاهوت الذين استشارهم ، أن قتل الطاغية عمل مشروع . أن موت كليمنت شرف خالد لفرنسا ، كما بدا لكثير من الناس ، فقد اعتبر الكثيرون أنه مات وهو جدير بالخلود ، على حين أن آخرين من ذوى الحكمة البالغة والثقافة العالية استنكروا عمله ووجهوا إليه اللوم[٥٨] .

وقد نذكر أن هنرى الثالث كان يناهض العصبة الكاثوليكية ، وأنه أمر أعوانه بقتل هنرى دوق جيز ، زعيم العصبة . وكان فيليب الثانى ملك أسبانيا يؤيد العصبة ، وقد أمدها ببعض المال ، كما وافق على قتل اليزابث الأولى ملكة انجلترا ، ووليم أورانج . ولم يكن لدى فيليب الثالث أى اعتراض على قتل أى عدو لأسبانيا .

وفى ١٥٩٩ أمر كلوديو أكوافيفا رئيس «مجتمع يسوع»، بتصحيح كتاب ماريانا «الملك» . ولما قتل هنرى الرابع بيد رافاياك (٢٤ مايو ١٦١٠) أعلن

أكوافيفا استنكاره لمبدأ ماريانا فى قتل الطغاة (٨ يولية) وحظر إدراجه فى فى تعاليم الجزويت . وكان ماريانا فى الوقت نفسه قد اعتقل ، لا لتحبيذه قتل الطغاة، بل من أجل احتجاجه على خفض فيليب الثالث لقيمة العملة، وتحذيره اياه من مساوىء التضخم فى رسالة قيمة «تزييف العملة» (١٦٢٥) . واحتمل ماريانا عناء السجن بطريقة فلسفية ، وبقى على قيد الحياة بعد اطلاق سراحه. وتوفى ١٦٢٤ . وهو فى سن السابعة والثمانين .

٢ — جان بودين : ١٥٣٠ — ١٥٩٦

ما أشد الاختلاف بين بودين وماريانا ؟ إنه لم يكن لاهوتيا له قدمان فى السماء ، ولم يكن مناصرا كثيبا للعصبة ، ولكن كان من هواة السياسة (مثل ميشيل دى لوبيتال ، وهو من أنصار التسامح الدينى ، وكان مستشارا لهنرى الرابع ومن المعجبين به). ولد جان فى آنجرز،وربما كانت أمه أسبانيةيهودية وجاء إلى باريس ١٥٦٠،واشتغل بالقانون،ولكنه لم يدرعليه ربحا.وانصرف فى لهفة شديدة إلى دراسة الفلسفة والتاريخ. ودرس فى نهم . العبريةواليونانية والألمانية والايطالية ، وكتابات ليفى وتاسيتس والعهد القديم ، وشيشرون ، ودساتير دول غرب أوربا . وآمن بأن دراسة التاريخ هى بداية الحكمة السياسية . وكان أول ما قدم المطبعة «منهج لتيسير فهم التاريخ» (١٥٦٦) . وهو كتاب يجده الطالب تافها لاقيمة له ولامتعة فيه،محشوا بالتنميقات البلاغية، والاطناب الممل . إن العقل الفلسفى لايتم نضجه مبكرا . لقد اعتقد بودين وهو فى السادسة والثلاثين أن التاريخ يوحى إلينا بالفضيلة عن طريق الكشف عن هزائم الأشرار وانتصارات الأخيار[٥٩]، ومع ذلك فان الكتاب يعتبر بعد — «مقالات ميكيافللى» — أول كتاب هام فى فلسفة التاريخ .

وفى هذا الكتاب ، وفى كتاب «الجمهورية» الذى جاء بعده — وقبل قرن ونصف قرن من ظهور فيكو ومونتسكيو — نجد تفكيرا منهجيا منتظما فى

المناخ والسلالة باعتبارهما عاملين من عوامل التاريخ . فالتاريخ من وظائف الجغرافيا — الحرارة ، المطر ، التربة ، سمات السطح ... أن الجغرافيا تحدد الخلق ، والخلق يحدد التاريخ . وأن الناس لتتباين أخلاقهم وسلوكهم ، تبعا لحياتهم على الجبال أو فى الأودية ، أو على شواطىء البحار . ويتميز أهل الشمال بقوة الجسم والنشاط العضلى . على حين يتميز أهل الجنوب بالحساسية العصبية وحدة الذهن . أما سكان المنطقة المعتدلة ، مثل شعوب البحر المتوسط وفرنسا فانهم يجمعون بين خصائص الشمال والجنوب ، وهم عمليون أكثر من أهل الجنوب، ومفكرون أكثر من أهل الشمال.وينبغى أن تتكيف حكومة أى شعب مع خلقه الذى حددته الجغرافيا والسلالة ، والذى لايكاد يتغير بمرور الزمن.وعلى هذا الأساس يجب أن يحكم شعوب الشمال بالقوة.وشعوب الجنوب بالدين.

وفى كتاب أقل شأنا « الرد على تناقضات مالستروا » ، أسس بودين « الاقتصاد السياسى » تقريبا[٦٠] فحلل أسباب سرعة إرتفاع الأسعار فى أوربا، وناقش مساوىء خفض قيمة العملة ، ودافع عن حرية التجارة، فى عصر الحماية الطبيعية والاقليمية،وأكد العلاقة بين الواقع الاقتصادى والسياسة الحكومية.

ولكن أروع أعماله — وهو أهم اضافة للفلسفة السياسية فيما بين ميكيافللى وهوبز — هو كتابه « الجمهورية »(١٥٧٦) . وقد استعمل بودين هذه اللفظة بمعناها الرومانى : أى الدولة . وفرق بين الدولة والمجتمع . فالمجتمع قائم على الأسرة ، التى لها أساس طبيعى فى العلاقة بين الجنسين وبين الأجيال . أما الدولة فتقوم على قوة مصطنعة . وكانت الأسرة فى شكلها الطبيعى ، أبوية — أى أن للأب سلطة مطلقة على أزواجه وبنيه وممتلكات الأسرة ، وربما انقصت المدنية بشكل خطير من حقوق الأب . ويجب أن تخضع المرأة دوما للرجل لأنها أضعف منه عقلا ، وفى وضعها معه على قدم المساواة إغفال خطير.

« للطبيعة » . وينبغى أن يكون للزوج على الدوام حق الطلاق ، كما ورد فى التوراة . وذهب بودين إلى القول بأن انهيار سلطان الأب وتخلخل إنضباط الأسرة كانا بالفعل يقوضان الأسس الطبيعية للنظام الاجتماعى . لأن الأسرة ، وليست الدولة ، هى وحدة النظام والأخلاق ومصدرها ، فإذا إنهارت وحدة الأسرة والانضباط ، فلن يملأ فراغها أية قوانين مهما بلغ عددها(٦١) . والملكية الخاصة أمر لا غنى عنه لكيان الأسرة وبقائها . والشيوعية مستحيلة لأن كل الناس ولدوا غير متساوين(٦٢) .

وكان بودين أكثر واقعية من ماريانا وروسو فى مناقشته لأصل الدولة . فليس ثمة لغو وهراء حول ميثاق أو عقد اجتماعى ، فقد تنشأ الجماعات القروية على شىء من مثل هذا الاتفاق . أما الدولة . فقد نشأت بتغلب مجموعة من الأصوات على مجموعة أخرى ، ثم أصبح زعيم الفريق المنتصر ملكا(٦٣) . ولم ينبع اقرار القوانين من ارادة الشعب أو « سيادته » بل من القوة النظامية للحكومة » — ومن ثم فان الملكية المطلقة أمر طبيعى ، فإنها فى الدولة ، استمرار لسلطة الأب فى الأسرة الأبوية . فلن تكون هناك سيادة لأية دولة إذا خضعت لغير قوانين الطبيعة وقوانين الله(٦٤) . وكما انتهى هوبز إلى هذه النتائج فرارا من الفوضى التى سببتها الحرب الأهلية فى انجلترا (١٦٤٢ — ١٦٤٩) ، فان بودين رأى فى الحكومة الاستبدادية المخرج الوحيد من الحروب الدينية وتمزيق فرنسا ، مع ملاحظة أن كتابه نشر بعد أربع سنوات فقط من مذبحة سانت برتلميو ، وربما كتب بالدم الذى كان يجرى أنهارا فى شوارع باريس . وبدا لبودين أنه إذا كانت مهمة الدولة هى المحافظة على النظام ، فان هذا لن يتسنى لها إلا عن طريق سيادة مطلقة غير قابلة للتحويل أو التخلى عنها .

وبناء على هذا تكون الملكية غير المقيدة ، الوراثية . هي خير أنواع الحكومات : يجب أن تكون غير مقيدة حتى لاتنتهي إلى الفوضى ، ووراثية تجنبا لشرور النزاع على العرش . فالملكية مثل السلطة الأبوية — سادت في معظم أنحاء الأرض ، لأطول مدة من الزمن ، ولقد أقرها التاريخ .على حين أن الديموقراطيات لم تحكم الدول إلا لفترات قصيرة فحسب ، ولكنها تنهار، بسبب تقلب الشعب ، وعجز الموظفين الذين يختارهم ، وفسادهم وقبولهم الرشوة[٦٥] ، وفي أية جمعية شعبية يحسب عدد الأصوات دون وزنها أو تقدير قيمتها (من أجل نوعية التفكير الذي أدلى بالصوت) ، فإن عدد الحمقى والأشرار والجهال أكبر ألف مرة دائما من عدد الرجال الذين يقام لهم وزن « . وليس ثمة خلاص للديمقراطية إلا إذا تولى الحكم ، وراء ستار المساواة، نفر قليل من الناس ، ورجح وزن العقول عدد الرؤوس[٦٦] .

واعترف بودين بأنه لابد من إيجاد مخرج من الاستبدادية المطلقة إذا أصبح الحاكم طاغية ظالما . فأباح حق القيام بالثورة أو قتل الطاغية ، وربما كان ذلك على أساس غير منطقي . وسلم بأنه حتى ملكياته البالغة حد الكمال ، لابد أن يأتي يوم تنهار فيه ، وتعزل نتيجة تغييرات لامعدى عنها ، وتتعذر الحيلولة دون وقوعها . واستبق هيجل،فقسم التاريخ إلى فترات ثلاث : الأولى سيطرت فيها دول الشرق ، والثانية شعوب البحر المتوسط ، والثالثة أقطار شمالي أوربا . ومن خلال تعاقب القيام أو السقوط هذا ، ذهب بودين إلى القول بأنه يلحظ شيئامن التقدم.ولا يقع العصر الذهبي في الماضي الأسطوري، بل في المستقبل الذي سيجني ثمار أعظم الاختراعات على الاطلاق — وهي الطباعة[٦٧] . وكتب ، (قبل بيكون بنصف قرن .) أن العلوم تدخر في أعماقها كنوزا لن تقدر على استنفادها أية عصور مقبلة قط .

وكان بودين مفكرا حرا ، مع نظرة كريمة بعين الاعتبار إلى الكتاب المقدس ، (أو بالأحرى إلى العهد القديم، لأنه يتجاهل العهد الجديد تقريبا .) ،

مع انكار تام لحقيقة السحر والملائكة والعفاريت والتنجيم ، وضرورة إقامة دولة ملتئمة مع الخصائص الخفية للأرقام . ونادى بأقصى العقوبة للسحرة ، ونصح الأمراء بالمحافظة على وحدة العقيدة الدينية لأطول وقت ممكن ، ولكن إذا قويت الهرطقة وانتشرت ، فليس من الحكمة قمعها بالقوة ، بل أنه من الأفضل الاعتماد على عنصر الزمن لكسب الهراطقة إلى جانب الدين الرسمي .

أما ماذا عساه يكون هذا الدين ، فلم يفصح عنه بودين . وكان دينه مشكوكا فيه . وفي كتابه الغريب « حديث سبعة رجال » الذى تركه عن عمد دون أن ينشره ، (طبع لأول مرة ١٨٤١) ، صور كاثوليكيا ولوثريا وكلفنيا ويهوديا ومسلما ، وأبيقوريا وربوبيا ، في مناقشة في البندقية . وفازت اليهودية ، أما المبادىء المسيحية في الخطيئة الأصلية ، والتثليث والتجسد فقد كان الهجوم عليها أقوى بكثير من الدفاع عنها . ولم يثبت في النهاية إلا الإيمان بالله . أن نقاد بودين اتهموه بأنه يهودى وكلفنى وملحد ، وقالوا بأنه مات على غير دين « كالكلب » . ولكن الايمان بالتوجيه الإلهى للعالم ، واضح بأجلى بيان في « الجمهورية » ، والالحـــاد موضوع خارج نطاق التسامح ، لأنه يهزأ بالكون[٦٩] .

وكان بودين ، مثل هوبز ، رجلا هيابا يحاول أن يتلمس طريقه إلى الهدوء والاستقرار وسط طغيان الثورة والحرب . وأصاب أعظم مؤلفاته عدوى زمانه ، فكان فلسفة لعالم مضطرب مختل يتلهف على النظام والسلام . ولا يمكن أن تقارن بالحكمة المصقولة التى جاءت في «مقالات» مونتيني الذى كان أقل منه انزعاجا في تلك السنوات ذاتها . ومع ذلك فانه منذ عهد أرسطو ليس ثمة رجل ، ربما باستثناء ابن خلدون ، نشر الفلسفة السياسية على مثل هذا النطاق الواسع ، أو دافع عن آرائه وأهوائه بمثل هذه القوة والعمق ، مثل بودين . ولن تجد قبل ظهور « لفياثان هوبز » مثل هذه المحاولة الجادة لاكتشاف بعض المنطق في أساليب الدول .

٣ — هوجو جروشيوس : ١٥٨٣ - ١٦٤٥

إذا بقي ذكر هوبج جروتو عالقا بالأذهان ، على حين طوى النسيان تقريبا ذكر معظم الرواد الأول فى حقله ، وهو القانون الدولى (*) فقد يرجع هذا إلى أنه عاش كما كتب ، ولأنه ألف كتابه الممتاز فى فترة كانت تعج بدبلوماسية نشيطة وسياسة محفوفة بالمخاطر . ولد هويج (أوهوجو) فى دلفت ، ودرس الرياضيات والفلسفة والقانون فى ليدن . وامتدح سكاليجر أسلوبه اللاتيني وأثنى عليه ، وفى السادسة والعشرين حظى بتقدير بلاده له بسبب مؤلفه « حرية البحار » (١٦٠٤) الذى أوجز فيه القانون البحرى ، ودافع عن حرية البحار من أجل جميع البلاد ، وبخاصة هولنده التى كانت تتحدى البرتغال التى أدعت أحتكار الطرق البحرية إلى الشرق الأقصى . وعندما عين مؤرخا رسميا للمقاطعات المتحدة ألف بلغة لاتينية قاربت حد الامتياز تاريخا جريئا ، ولكنه دقيق للثورة الكبرى ، ولقد رأيناه يناضل إلى جانب مذهب التحرر الذى نادى به أرمنيوس فى النزاع بين أولد نبار تفلدت وموريس ناسو . فقبض عليه واعترف بأخطائه (٧٠) فحكم عليه بالسجن مدى الحياة . وتوصلت زوجته أن تقيم معه فى السجن ، فسمح لها بذلك . وبعد قرابة ثلاثة سنوات قضاها فى السجن ، خبأته زوجته فى صندوق للكتب ، فهرب من المعتقل ، وقصد إلى فرنسا حيث أجرى عليه لويس الثالث عشر معاشا ضئيلا . وعندما صعدت ألمانيا حرب الثلاثين ، ألف جروشيوس الذى كان يعانى الفقر والعوز كتابة « قانون الحرب والسلام » (١٦٢٥) .

(*) وعلى الأخص فرانسيسكو فكتوريا أستاذ اللاهوت فى سلامنكا فى « المحاضرات » (١٥٧٧) .

البريكو جنتيلى أستاذ القانون المدنى فى أكسفورد الذى استبق بكتابة « قانون الحرب » (١٥٨٨) كتاب جردشيوس « دفاع عن حرية البحار » ، ثم فرانسيسكو سورية الذى عرض فى كتاب ضخم فكرة إنشاء عصبة أمم يحكمها القانون الدولى .

رأيت أنه يسود العالم المسيحي نزعة إلى شن الحروب التي قد تخجل منها حتى الشعوب المتبربرة ، فيفزع الناس إلى السلاح لأتفه الأسباب ، أو بلا سبب ، حتى إذا ما حملوا السلاح، لم يعد هناك أي احترام لقانون سماوي أو قانون وضعي ، وكأنما أبيح للناس ارتكاب أية جرائم دون قيد(٧١) .

كان مكيافللي قد ذهب إلى أن الدول لايمكن الابقاء أو الحفاظ عليها إلا إذا تحررت من الالتزام بالقانون الاخلاقي المفروض على مواطنيها. فينبغي على رجال الدولة — بالتفويض عادة — أن يكونوا مستعدين للكذب والسلب والقتل ، قدر ما يرون أن هذا أو ذاك مرغوب فيه ، من أجل مصلحة الدولة، لأن الدول ، حتى تلك اللحظة تعيش في أدغال تتنازع فيها البقاء ، مثلما كانت تعيش الأسرات قبل قيام الدول . وهي لاتعرف قانونا إلا قانون « صيانة الذات » . ويسلم جروشيوس بأنه يجوز إعفاء الحكومات من « القانون الوضعي » الذي سنه الانسان ، ولكنه يرى أنها ملتزمة بطاعة القانون الطبيعي ويعرف هذا القانون « الحق الطبيعي » بأنه هو أن ما « يمليه ويفرضه « العقل الرشيد » ، ليكشف عن الفساد الخلقي أو الضرورة الخلقية لعمل من الأعمال، باتفاق هذا العمل أو تنافره مع الطبيعة العقلانية ، ومن ثم يوضح أن هذا العمل يحله الله أو يحرمه ، والله هو منشيء الطبيعة أو خالقها(٧٢) » . وعلى هذا يكون القانون الطبيعي هو نظام الحقوق والواجبات الذي ينبع من الطبيعة الأساسية للانسان بوصفه كائنا عقلانيا يعيش في مجتمع . فكل ما هو ضروري لوجوده واسهامه في المجتمع حق طبيعي له ، فهو ناشيء عن طبيعته وملائم لها . ويجب أن تلتزم الدول في تصرفاتها بمراعاة هذه الحقوق .

ويتابع جروشيوس كلامه فيقول بأن هذا يجب أن يكون خاضعا « لقوانين الشعوب » ، التي قصد بها القانون الروماني تلك التي لم تشملها « المواطنة الرومانية » ، فلما انهارت الامبراطورية الرومانية الغربية طبقها مشرعو

العصور الوسطى على علاقات الدول بعضها ببعض . وهذا يصبح فى نظر جروشيوس التجميع المبهم أو غير الواضح لكل القواعد والقيود التى قبلتها معظم الدول المتطورة أو النامية ، بحكم العرف ، فى اتصالاتها المتبادلة . وعلى هذين الأساسين : القانون الطبيعى ، وقوانين الشعوب ، يبنى جروشيوس الهيكل النظرى ، وهو أول صياغة حديثة لقانون دولى مرغوب فيه .

وهو بصفة عامة يحرم الحرب على الاطلاق . وهو يدرك أن الجماعة — مثل الحيوان — اذا أحست بأنها مهددة فى أعز ما تملك أو فى حياتها ، فانها ستدافع عن نفسها بأية وسيلة متاحة — وإذا أمكن بالحجة والبرهان أو بالقانون ، حتى اذا أخفقت هاتان الوسيلتان ، فأية قوة تأتمر بأمرها[٧٣] . وبناء على هذا فان أية دولة فى مثل هذه الظروف يكون لها الحق فى شن الحرب دفاعا عن حياة مواطنيها وممتلكاتهم . ولكن الحرب عمل مجاف للعدالة ولا يمكن تبريره ، اذا شنت من أجل الغزو والفتح ، أو السلب والنهب ، أو من أجل الأرض ، أو لرغبة صادقة أو مزعومة فى فرض حكومة صالحة على شعب غير راغب فيها[٧٤] . والحروب الوقائية جائزة كذلك . « نشر بعض الكتاب مبدأ لا يمكن التسليم به قط ، وهو أن قانون الشعوب يجيز لدولة ما أن تبد أعمالا عدائية ضد دولة أخرى تثير عظمتها المتزايدة فزع الدولة الأولى . وإذا كان هذا مجرد ذريعة نفعية ، فإنه اجراء يجوز اللجوء إليه ، ولكن مبادىء العدالة لا تؤيده[٧٥] . ويجب أن يلتزم الأفراد بالامتناع عن الخدمة فى حروب يرون بوضوح أنها جائرة[٧٦] .

فإذا افترضنا ، حينذاك أن ثمة حربا عادلة مشروعة ، فان لكل أمة تشترك فيها حقوقا ، فلها أن تلجأ إلى الخداع والتضليل ، وتثأر وتسترد الأرض ، وتستولى على الغنائم ، وتأسر وتستخدم الأسرى . ولكن على الأمة واجبات ، مثلما أن لها حقوقا ، فيجدر بها أن تعلن الحرب قبل أن تشنها ، كما تحترم أية معاهدة عقدت بشأنها ، وتلتزم بمسئولياتها فيها بصرف النظر عمن عقدت معه . كما يجدر فى حملات الغزو المحافظة على حياة النساء والأطفال

والمسنين ، بل على الأصح ، غير المحاربين عامة . ويجوز استرقاق الأسرى ، ولكن لا ينبغى قتلهم . واغتبط جروشيوش لظاهرة طيبة تبشر بالتقدم ، تلك أن المسيحيين والمسلمين لم يعودوا يستعبدون أسراهم الذين على دينهم .

وكانت مناقشة كريمة معتدلة برغم ما شابها من عيوب ، فإذا كان «القانون الطبيعى» أمرا من املاء «العقل الرشيد» ، فمن ذا الذى يحدد أى عقل هو الرشيد ؟ ففى الدولة انما تحدده الحكومة التى تملك قوة مسلحة ، فأساس الامتثال لقواعد السلوك الموصى به ، هو قدرة المشرع على فرضها فرضا . فالقوة لا تؤسس حقا بل تسن قانونا . فالقانون الدولى ينتظر هيئة تشريعية دولية تدعمها قوة دولية ، وهو أساسا لن يتضمن إلا قيودا متواضعة واتفاقات يمكن نقضها ، قبلتها الدول المعنية على أساس أنها ملائمة للظروف التى أبرمت فيها . وإذا عرفنا «قانون الشعوب» بأنه أعراف أكثر الشعوب تطورا فان هذا ، مرة أخرى ، يقتضى ضمنا وجود مرجع ثقة مؤهل وقادر على تحديد الشعوب الأكثر تطورا . وأين هذا المرجع الثقة ؟ فى أوربا ؟ فى الصين ؟ فى دولة الإسلام ؟ وهل تسمح حكومة لمواطنيها ليحكموا ويقرروا لأنفسهم أن الحرب عادلة أو غير عادلة ؟ أنها تستطيع ذلك لو أن جهاز صيانة المبادىء والتوجيه فيها كان جهازا صالحا للوفاء بهذا الغرض .

لقد كان الكتاب غير منطقى ، ولكنه كان ضروريا . لقد شنت ألف حرب جائرة ، وكان من الخير أن يفكر إنسان فى اتخاذ خطوات للتخفيف من أعمال القتل التى ترتكبها الأمم المتحاربة ، طبقا لقيود مقبولة بالتبادل ، ومن الخير استنكار حروب الغزو والسلب والنهب . ومن الخير أن يرتفع صوت ينادى بالرحمة لغير المحاربين والأسرى . وسخرت حرب الثلاثين سنة من هذه الامتيازات والالتماسات . ولكن عندما خفت حدة هذا الجنون المسعور ، بررت حالة ألمانيا بعد الحرب كتاب جروشيوس أبلغ تبرير .

أن ريشليو الذى عقد العزم على الدخول فى حرب الثلاثين سنة ، حبس عن جروشيوس المعاش الذى كان يتقاضاه ، وآوى المؤلف المعرض للمخاطر

إلى همبرج . وفى ١٦٣٣ أرسله أوكسنستيرنا إلى باريس سفيرا للسويد لدى فرنسا ، ولكن جروشيوس — شأن معظم الفلاسفة — كان أكثر إئتلافا مع أفكاره وآرائه منه مع الناس ، فكن بغضه لريشليو ، ثم لمزران من بعده، من أن يحدد دبلوماسيته . وفى ١٦٤٥ عاد إلى التماس الراحة والسلوى بين كتبه . ودعته الملكة كريستينا للاقامة فى بلاطها ، عاملا تجزل له العطاء ، ولكنه حظى بموافقتها على اللجوء إلى ألمانيا . فرتبت له الملكة أمر السفر إلى لوبك ، ولكن عاصفة جنحت بالقارب إلى الشاطىء ، فعانى جروشيوس كثيرا من هول الصدمة ومن افتضاح أمره ، وقضى نحبه فى روستوك فى ٢٩ أغسطس ١٦٤٥ ، وهو فى الثانية والستين من العمر .

وبعد انقضاء مائتين وسبعة وستين عاما غفرت له هولندة « تحرريته » ، وفى ١٨٨٦ أقامت له تمثالا فى مسقط رأسه . وفى ١٨٩٩ وضع مندوبو الولايات المتحدة إلى المؤتمر الدولى للسلام فى لاهاى ، على قبره أكليلا من الفضة ، اعترافا بأن كتابه أسهم لبعض الوقت فى الحد من « لعبة الملوك » .

٥ — الكاهن الأبيقورى

هلا وقفنا ، ونحن نمضى فى طريقنا إلى ديكارت ، وقفه أخيرة ، لنفكر مليا فى سر الكاهن الكاثوليكى الذى أحيا مادية أبيقور . فكان من مظاهر التطور العقلى فى أوربا أن فيلسوف اللذة اليونانى الذى ظل اسمه لعدة قرون مرادفا « للكفر والالحاد » ، يلقى الآن ، وفى غمرة النفور المتزايد من أرسطو، تكريما وتشريفا على يدى كاهن ورع لا عيب فيه ، نباتى مات من فرط تشدده فى الإمساك أيام الصوم الكبير .

بدأ بيير جاسندى حياته ابنا لأحد الفلاحين بالقرب من ديرفى بروفانس، وأظهر من حدة الذهن والشغف بالمعرفة ماهيأ له وهو فى السادسة عشرة

الاشتغال بتعليم « الأدب » ، وفى الخامسة والعشرين تدريس الفلسفة فى جامعة أكس . ورسم كاهنا ، وأصبح قسيسا ورئيسا لكاتدرائية دين . وفى تلك الأثناء كان قد فرغ من تأليف كتاب يتسم بالانفعال والثورة على أرسطو « تمرينات التناقض » . وقد أحرق معظم الكتاب بناء على نصيحة الأصدقاء ، ولكن الأجزاء التى نشرها منه فى ١٦٢٤ نمت عن تأييده «لفلك» كوبرنيكس ، و ذرية » لوكريشس و « فلسفة » ابيقور . وهنا كانت دعـــوة صارخة للاستشهاد . ولكن بيير كان شابا لطيف المعشر ، متواضع السلوك مواظبا على واجباته الدينية ، إلى درجة يبدو معها أن أحدا لم يفكر فى إحراقه . أنه أعلن طوال حياته عن إيمانه بنظرية « الحقيقتين » — أن الفلسفة يمكن أن ترتضى النتائج التى يفرضها العقل بوضوح ، على حين أنه فى الدين قد يظل المرء يتبع العقيدة والطقوس التقليدية بوصفه ابنا باراً للكنيسة . فأصاب بيير عصفورين بحجر واحد .

وبناء على طلب من مرسن صديق ديكارت ، قدم بيير عدة اعتراضات قوية على فلسفة ديكارت ويحسن أن نوجلها . وفى ١٦٤٥ عين أستاذا للرياضيات فى « الكلية الملكية » فى باريس ، ولكنه سرعان ما أصيب بالتهاب رئوى ، فعاد إلى جو دين ذى الشمس الأكثر دفئا . وهناك كتب أعظم مؤلفاته ، وكلها تدور حول أبيقور : « الحياة السعيدة فى نظرية أبيقور » (١٦٤٧) و « حياة اللذة عند ابيقور » (١٦٤٩) وكتاب يقع فى ١٦٠٠ صحيفة على نهرين « مبادىء فلسفة ابيقور » (١٦٤٩) .

وبينما واصل بيير تثبيت عقيدته الكاثوليكية ، شرح لقراء اللاتينية فلسفة كل من ابيقور ولولكريشس — المادية والذرية وشرعية اللذة . أن « العلة الأولى » لكل شىء هى « الله » ، ولكن بعد هذه الدفعة الأولى (التى استهل بها كل شىء وجوده) واصل كل شىء مسيرته أو تقدمه بفعل قواه وقوانينه الفطرية المتأصلة فيه . وكل معرفة تنبع من الحواس ، وهى ذات وجود فردى .

أما « الكليات » أو الأفكار العامة ، فهي أدوات نافعة للفكر ، ولكن ليس لها ترابط موضوعي . وليس من شك في أن الروح غير مادية ، وخالدة ، ولكنها تبدو معتمدة على الجسم . وواضح أن الذاكرة من وظائف المخ ، وليست اللذة الحسية لا أخلاقية إذا اتسمت باعتدال حازم . ولكن أقل الملذات تغريرا وغدرا هي ملذات الذهن ، فإن الرياضيات مثلا قد يطرب لها الإنسان ويبتهج بها . وكان جاسندي نفسه بطبيعة الحال « ابيقوريا » ، أي أنه ارتضى فلسفة ابيقور ، ولكنه لم ينغمس في اللذة الحسية ، بل على النقيض من ذلك ، اتسمت حياته باعتدال بالغ . وإنتابته الحمى بعد صوم طول أكثر مما ينبغي . وأجهز عليه أطباؤه بفصده ثلاث عشرة مرة (١٩٥٥) .

وكان موليير وسيرانو دي برجراك من بين مريديه في باريس . وارتضى فونتنل وسانت أفرموند ونينون دي لنكلوس فلسفته دون لاهوته . وأفاد هوبز من أحاديثه معه . وربما أخذ عنه بعض عناصر علم النفس الحسي ، عن طريق تلميذ جاسندي وصديق لوك ، فرانسوا برنييه الذي نشر «موجز فلسفة جاسندي » في ١٦٧٨ . وآثر نيوتن « ذرات » جاسندي على « جسيمات » ديكارت ، ووجد عند كاهن بروفنسال تلميحا إلى الجاذبية وفكرة غامضة عنها (٧٧) . وفي القرن الثامن عشر هيأت المادية الكامنة في جاسندي وتوكيده على العلم والتجريب مقابل منطق أرسطو وميتافيزيقا ديكارت — نقول هيأ له هذا وتلك ، بين الفلاسفة الفرنسيين ، مكانة أرفع من مكانة أي مفكر فرنسي آخر ، باستثناء ديكارت . إذن ماهذا الذي جعل من ديكارت لمدة قرن من الزمان معينا لا ينضب للفلسفه الحديثة ؟

٦ — رينيه ديكارت ١٥٩٦ — ١٦٥٠

أول مانذكره عن ديكارت أنه تلقى تعليمه على أيدي الجزويت . وكان هذا التعليم نقطة البداية وحجر الشحذ عند كل المراطقة الفرنسيين ، ابتداء

من ديكارت ثم فولتير ، ورينان وأناتول فرانس « بين جدران المعبد صنعت المعاول التى حطم بها المعبد » (٧٨) .

ولد فى لاهى ، وهى بلدة صغيرة بمنطقة التورين بفرنسا . وماتت أمه بالسل بعد ولادته بأيام قلائل ، وورث عنها المرض . وكان فى صباه شاحب اللون ، يسعل سعالا يثير الاشفاق ، إلى حد أن الطبيب لم يبشر بأى أمل فى إنقاذه ، ولم تتخل عنه المرضعة يأساً من بقائه على قيد الحياة ، ولكنها أمدته بالدفء والغذاء من جسدها هى ، فعاد إلى الحياة ثانية . وربما سمى لهذا السبب ، باسم رينيه (وهى لفظة مشتقة من أصل لاتينى بمعنى ولد من جديد) . وكان والده محامياً موسراً ، وعضواً فى برلمان رن Rennes ، وترك لابنه عند وفاته دخلا يقدر بستة آلاف فرنك فى العام .

والحق فى سن الثامنة بكلية « لافيش » اليسوعية « التى يقول عنهـا أحد المفكرين الأحرار المتحمسين ومشاهير الرياضيين » يبدو أنها زودته بقدر من الرياضيات أعظم كثيراً مما كان يمكن أن يحصل عليه فى معظم الجامعات فى ذلك العصر (٧٩) « وتبين معلموه ضعف جسمه ويقظة ذهنه فأباحوا له البقاء فى الفراش بعد الوقت المحدد للاستيقاظ ، ولحظوا أنه استغل الوقت فى التهام الكتب ، الواحد بعد الآخر ، وفى كل جولاته من الميتافيزيقا ، ظل يحتفظ بإعجابه الشديد بأساتذته الجزويت ، كما أنهم بدورهم « نظروا إلى شكوكه بشىء من التسامح الأبوى .

وقصد فى سن السابعة عشرة إلى باريس ليلهو ويعبث ، ولكنه لم يجد شيئا ينغمس فيه ، لأنه لم يكن بعد يحفل بالنساء أو يميل إليهن ، ولكنه بوصفه رياضياً ضليعاً ، انصرف إلى الميسر ، مقدراً أنه يستطيع الاستيلاء على خزانة نادى القمار . والتحق بجامعة بواتييه حيث حصل منها على درجات علمية فى القانون المدنى والقانون الكنسى . وما أن استرد عافيته وقوته ، حتى أذهل أصدقاءه ، بانخراطه فى جيش الأمير موريس ناسو (١٦١٨) . ولما نشبت حرب

الثلاثين عاما انضم إلى قوات مكسيمليان أمير بافاريا ، وتذكر رواية غير مؤكدة أنه اشترك فى معركة « الجبل الأبيض » .

وفى غضون هذه الحملات ، وبخاصة فى شهور الشتاء الطويلة التى تعوق مواصلة القتال ، كان ديكارت يتابع دراسته ، وفى الرياضيات بصفة خاصة . وذات يوم (١٠ نوفمبر ١٦١٩) فى نيوبرج بالقرب من أولم فى بافاريا ، اتقى البرد بالقبوع فى « موقد » (من المحتمل أن تكون غرفة مدفأة خصيصا له) وفيها – كما يقول هو – رأى فيما يرى النائم فى ثلاث رؤى أو ثلاثة أحلام، ومضات من النور ، وسمع رعداً ، وبدا له أن روحا سماوية كانت توحى إليه بفلسفة جديدة . وبعد خروجه من هذا « الموقد » (الغرفة) كان – كما يؤكد لنا – قد صاغ الهندسة التحليلية ، وتصور فكرة تطبيق المنهج الرياضى فى الفلسفة[٨٠] .

ورجع إلى فرنسا فى ١٦٢٢ ، ورتب أموره المالية . ثم استأنف جولانه، فقضى قرابة سنة فى إيطاليا : فقصد من البندقية (ويقولون سيراً على الأقدام) إلى لوريتو حيث قدم إجلاله للعذراء . ورأى روما فى فترة الغفران (١٦٢٥)، ومر بفلورنسه ولكنه لم يزر جاليليو . ثم قفل عائداً إلى باريس وهناك فى الريف تابع دراساته العلمية . وصحب الرياضى المهندس العسكرى جيرار ديسارج فى حصار لاروشيل (١٦٢٨) . وفى أخريات هذا العام قصد إلى هولندة، حيث قضى فى المقاطعات المتحدة بقية أيام حياته تقريبا ، اللهم إلا بعض فترات قصيرة قصد فيها إلى فرنسا لتدبير شئونه المالية .

ولسنا نعلم لماذا ترك فرنسا ، ويحتمل أن هذا يرجع إلى أنه « بعد أن أفصح عما لديه من أسباب للشك فى أشياء كثيرة[٨١] » خشى أن يتهم بالهرطقة، مع أنه كان له أصدقاء كثيرون من رجال الكنيسة هناك، مثل مرسن وبيرول . وربما حاول أن يتجنب الأصدقاء والأعداء على حد سواء ، أملا فى أن يجد فى بلد غريب عزلة اجتماعية (لاعسكرية) يستطيع فيها أن يشكل الفلسفة التى

كانت تعتلج بين جنبيه لقد كره ضجيج باريس وثرثرتها ، ولكن لم تقلقه الحركة النشيطة التي تلطفها القنوات — في امستردام ، وهو يقول « هناك ، وسط الجموع المكتظة من شعب عظيم نشيط ، استطعت أن أعيش وحيداً منعزلا، وكأني في صحراء نائية [٨٢] » . وربما كانت رغبته في أن يتوارى عن الأنظار ويخفي اهتماماته هي التي دفعته إلى تغيير أماكن إقامته أربعا وعشرين مرة في السنوات العشرين التالية ، من فرانكر إلى امستردام إلى دفنتر ، إلى امستردام إلى أوترخت ، ثم إلى ليدن ، ولكن بالقرب من جامعـــة أو مكتبة عادة . ومكنه دخله من الاستمتاع بطيبات الحياة الاجتماعية في قصر صغير مع عدد من الخدم . وامتنع عن الزواج ولكنه اتخذ خليله (١٦٣٤) أنجبت له طفلة . وإنا لنسر إذ نسمع أن الروح الإنسانية تجلت فيه حين بكى الطفلة عند موتها في الخامسة من عمرها . وقد نجافي الصواب إذا ظنناه فاترا لا تحركه الأحداث الدنوية ، ولسوف نجد أنه يبرر كثيراً من الأهواء والمشاعر التي يشجبها رجال الأخلاق عادة . وما كان هو نفسه ليتجرد منها ، فهو عرضة للزهو والغضب والغرور [٨٣] .

لقد بذل ديكارت جهداً جباراً لتحقيق هدفه . انظر إلى ما ألزم نفسه بدراسته الرياضيات، الفيزياء ، الفلك ، التشريح ، الفسيولوجيا ، علم النفس ، ميتافيزيقا ، نظرية المعرفة ، الأخلاق ، اللاهوت . فمن ذا الذي يجرؤ اليوم على أن يجول بين هذا كله ؟ . ومن ثم طمع في العزلة والاحتجاب عن الأنظار، وأجرى التجارب والمعادلات والرسوم البيانية . وقدر فرص تجنبه محكمة التفتيش أو تهدئتها ، وحاول أن يهيىء لفلسفته منهجا رياضيا . ولحياته منهجا فلسفيا .

ومن أين يبدأ ؟ إنه في « مقال في المنهج » ، وهو الكتاب الفذ الذي يعتبر

---

* كتبه ١٦٢٩ ، ونشر في ١٦٣٧ في مجلد يتضمن كذلك بحوثا في الهندسة والانكسار والشهب ، ثم أعقبه في ١٦٤١ كتاب « تأملات في الفلسفة الأولية » ، ثم كتاب =

فاتحة عصر جديد ، أعلن عن أول مبدأ «كان يمكن ، فى حد ذاته ، أن يقيم علية الدنيا ويقعدها ويثير عليه غضب أولى الأمر ، وهكذا كان . فقد كان الموضوع مكتوبا فى لغة فرنسيه واضحة متميزة ميسرة ، فى صيغة المتكلم الحية الساحرة . لقد أحدث ثورة كبيرة فى التفكير ، وقال ديكارت أنه كان سعيداً ينبذ كل النظريات والمبادئ والتعاليم ، ويطرح كل جهد ومرجع ، ويوجه خاص الفيلسوف أرسطو . وسيبدأ بصفحة جديدة خالية من أى شىء ، ويشك فى كل شىء . « إن السبب الأساسى فى أخطائنا يمكن فى أهواء طفولتنا(٨٤) . . . فالمبادىء التى اعتنقها فى شبابى ، استمر على الأخذ بها دون أن أتحرى حقيقتها ومبلغ الصدق فيها ، (٨٥) .

ولكنه كيف يمضى قدما ، إذا ساوره الشك فى كل شىء ؟ . ولما كان مولعا بالرياضيات ، وفوق كل شىء بالهندسة التى دأبت عبقريته على تحويلها ، فقد تاقت نفسه ، بعد ابتدائه بالشك الشامل إلى العثور على حقيقة يمكن التسليم بها على الفور بصفة عامة مثل بديهيات إقليدس ، . « إن أرشميدس ، لكى يتيسر له أن يزحزح الكرة الأرضية من مكانها وينقلها إلى مكان آخر ، تطلب أن تكون هنالك نقطة واحدة ثابتة لا تتحرك ، وأنا بالمثل ، سيكون لى الحق فى أن استبشر خيرا كثيرا إذا أسعدنى الحظ ، فأضع يدى على شىء واحد مؤكد لا نزاع فيه(٨٦) . » وأكد على هذه النقطة متهللا : « أنا أفكر . فإذن أنا موجود(٨٧)) » . وهذه أشهر عبارة فى الفلسفة* ولم يقصد بها أن تكون قياسا

= « مبادىء الفلسفة » فى ١٦٤٤ وجاء بعده « رسالة فى انفعالات النفس » فى ١٦٥٠ ، دراسة الإنسان » ١٦٦٢

* كان سانت أوغسطين قد استخدم نفس نقطة البداية هذه ، عند محاولته دحض آراء المتشككين الوثنيين الذين أعلنوا الشك فى كل شىء . ولكنه تساءل : من ذا الذى « يشك فى انه يعيش ويفكر ؟ » « لأنه إذا كان يشك فهو يعيش (٨٨) . واستخدم مونتيني نفس الحجة ضد المتشككين المتطرفين اليونان (أنصار برو ٣٦٥ — ٢٨٥ ق . م) فى « معذرة إلى ريموند سيبوند » وكان ديكارت قد قرأ مونتيني

منطقياً ، بل خبرة مباشرة لا سبيل لانكارها ، وهي أوضح وأجلى فكرة يمكن أن نحصل عليها ، وتكون سائر الأفكار « صحيحة » على قدر اقترابها من هذه البديهية الأساسية — الادراك الحسى المباشر، من حيث الجلاء والوضوح. وكان « منهج » ديكارت الجديد في الفلسفة هو أن يحال الأفكار المركبة إلى مكوناتها ، حتى تصبح العناصر غير القابلة للاختزال أفكاراً بسيطة واضحة جلية، ويبين أن مثل هذه الأفكار كلها يمكن أن تشتق من ، أو تعتمد على ، الشعور الأول لكائن يفكر . أننا على العكس ، يجدر بنا أن نحاول أن نستنتج من هذا الادراك الحسى الأول كل المبادىء الأساسية في الفلسفة .

ومرة أخرى كانت ثورة في الفلسفة حين اتخذ ديكارت نقطة البداية ، لا الأشياء الخارجيه المفروض أنها معروفة، بل الذات الواعية. لقد اكتشفت فلسفة النهضة « الفرد » ، ولكن ديكارت جعل منه همزة الوصل في فلسفته . «إنى لأرى بوضوح أنه ليس ثمة شيء أيسر على أن أعرفه ، من عقلى أنا[٨٩] » ، وإذا بدأنا بالمادة ، وسرنا قدما عبر مستويات الحياه العضوية إلى الإنسان فإن الاتصال أو الترابط المنطقى قد يغرينا بتفسير العقل بأنه مادى . ولكننا لا ندرك المادة إلا عن طريق العقل وحده. والعقل فقط هو الذى يمكن معرفته أو أدراكه مباشرة (دون واسطة) .وهنا تبدأ المثالية ، لا بمعناها الأخلاقى ، بل على أنها فلسفة تبدأ بالحقيقه المباشرة للأفكار، أكثر مما تبدأ بالأشياء التى تعرف عن طريق الأفكار « وليس ثمة تحقيق يمكن اقتراحه أجدى من تحقيق يحاول تحديد طبيعه المعرفة الإنسانية ومداها[٩٠] » . ولمدة ثلاثة قرون كانت الفلسفة تتساءل عما إذا كان « العالم الخارجى » موجودا إلا كمجرد فكرة .

وكما كان من العسير أن نعبر من الجسم إلى العقل ، بنظرية تقدر قدر كل من مصدر الأحاسيس وقوتها وواضح أنهما ماديتان ، وطبيعة الأفكار التى يبدو أنها طبيعة غير مادية ، فإن ديكارت كذلك ، وقد بدأ بالنفس ، وجد من العسير الانتقال من العقل إلى الأشياء . فكيف يتسنى للعقل أن يدرك أن الأحاسيس التى يبدو أنها تدلل على عالم خارجى، ليست شيئا أكثر من حالاته هو (أى العقل) ؟

وكيف يصدق الحواس التي غالبا ما تخدعنا وتضللنا ، أو الصور العقلية التي تكون مشرقة عندما تكون « زائفة » في النوم ، قدر اشراقها عندما تكون « حقيقية » في اليقظة ؟ .

وهربا من سجن النفس « الأنانة » يلجأ ديكارت إلى الله الذي لا يمكن بالقطع أن يجعل من كل حواسنا مجرد خدعة . ولكن متى يدخل الله في هذا المنهج الذي بدأ في جرأة بالشك في كل المعتقدات والمبادىء التي تلقاها الإنسان؟ إن ديكارت لا يستطيع اثبات وجود الله من شواهد بديع صنعه في العالم الخارجي ، ولأنه لم يوضح بعد وجود هذا العالم الخارجي . ولذلك أخرج ديكارت « الله » من « النفس المدركة » ، تماما مثل فعل آنسلم في « البرهان الوجودي » قبل ذلك بستة قرون . وهو يقول : إن لدى تصورا لكائن كامل مثالي قدير عليم ، ضروري ، خالد ولكن هذا الذي يوجد أقرب إلى الكمال من هذا الذي لم يوجد ، وعلى ذلك فان الكائن الكامل المثالي يجب أن يكون الوجود من بين صفاته . ومن الذي كان يستطيع أن يبث في هذه الفكرة إلا الله سبحانه وتعالى ؟ « ومن المستحيل أن أحمل في نفسي فكرة الله ، إذا لم يكن الله موجوداً حقا »[٩١] . وإذا كان الله يريد أن يخدعنا فلن يكون كاملا ومن ثم فانه لا يضللنا عندما تكون لدينا أفكار واضحة جلية ، ولا حين يتيح لحواسنا أن تكشف لنا عن عالم خارجي . « لست أدرى كيف يمكن الدفاع « عنه سبحانه » أو تبرئته من تهمة الخداع والتضليل إذا كانت هذه الأفكار ناتجة عن أسباب غير متعلقة بأشياء جسدية مادية . ومن ثم يجب أن نقر بأن الأشياء الجسدية المادية موجودة[٩٢] » ، ومن ثم تنسد بشكل رائع الهوة بين العقل والمادة ، بين الذات والموضوع ويصبح ديكارت ، بعون من الله ، واقعيا . والعلم نفسه — ايماننا الراسخ يكون منطقي خاضع لنظام ، مطيع للقانون ، يمكن التعرف عليه واحصاء ما فيه — يصبح أمراً ممكنا ، لا لشيء إلا لأن الله موجود ، وحاشا الله أن يكذب .

وإنا إذ نتتبع ديكارت لنشهد « عصر العقل » في طفولته يتراجع فزعا من مغامرات الفكر ، محاولا الولوج ثانية إلى حظيرة الإيمان الدافئة . ورغبة

فى بث الطمأنينة من جديد أطلق على « التأملات » : تأملات رينيه ديكارت فى فلسفه أولى ، أبرز فيها وجود الله وخلود النفس. وأهدى الكتاب إلى «الحكيم الألمعى عميد كلية اللاهوت المقدسة فى باريس » ، أى السوربون . وتقبل العميد الهدية ، ولكن فى ١٦٦٢ أدرج الكتاب فى قائمة الكتب المحظورة ، «حتى يتم تصحيحه » . وبدأ الكتاب على نفس النسق الجرىء الذى بدأت به « المقالات » «اليوم . . . وقد هيأت لنفسى انقطاعا أكيداً لرياضة روحية هادئة ، فلسوف أنكب أخيراً ، انكبابا منطلقا جاداً ، على استعراض عام لكل آرائى السابقة[٩٣] » . لقد ألقى بها جميعا من النافذة، ثم أجاز لها الدخول من الباب . ولم يكن من بين هذه الآراء ، إيمانه بالله عادل قدير فحسب ، بل كذلك إيمانه بارادة إنسانية حرة وسط آلية (ميكانيكية) كونية ، ونفس باقية (غير فانية) على الرغم من اعتمادها الواضح على جسد فان . ومهما سلمنا بمنطق العلاقة الوثيقة التى لا تنفصم عراها بين السبب والنتيجة فى عالم المادة والجسد ، فان حرية إرادتنا فكرة من احدى الفكرات الفطرية المتأصلة ، الواضحة الجلية ، الحية المباشرة ، إلى حد أنه لا يمكن أن يشك فيها أحد قط ، مهما حاول كثيراً أن يتلاعب بها (أى الفكرات) فى النظريات المجردة[٩٤].

أن فكرة الله ، وفكرة النفس ، وفكرة المكان والزمان ، وفكرة الحركة، والبديهيات الرياضية كلها فطرية متأصلة ، بمعنى أن النفس لا تستمدها من الاحساس والخبرة ، بل من جوهرها وعقلا نيتها .

(وهنا قد يعترض لوك ، ويوافق كانت) . ومهما يكن من أمر ، فان هذه الأفكار الفطرية قد تظل لا واعية حتى تخرجها الخبرة فى صورة واعية ، والنفس حينئذ لا تكون نتاجا للخبرة ، بل شريكها النشيط المبدع فى إنتاج الفكر . أن هذه النفس العقلانية « القدرة على التعقل » واضح أنها غير مادية ، وليس لأفكارها طول ولا عرض ، ولا موقع ولا وزن ، ولا أية خاصية أخرى من خواص المادة[٩٥] . « إنى أنا ، أى النفس التى أنا بها كما أنا عليه الآن ، هى أساسا متميزة عن الجسد بل حتى من الأيسر أن نعرفها مما نعرفه[٩٦] » . وعلى ذلك فان هذا العقل أو النفس غير المادية يمكن أن تبقى بعد الجسد ، ولا بد أنها تبقى .

ترى هل كانت تلك النتائج القويمة التى انتهى إليها ديكارت صادقة مخلصة، أو أنه أضفى عليها لونا وقائيا ؟ . هل كان ديكارت تواقا إلى متابعة دراسته العلمية فى هدوء وسلام بعيداً عن الاضطهاد والتعذيب، إلى حد أنه كان ينفث الميتافيزيقا مثل عشاوة مربكة تحول دون انقضاض الطيور الجارحة عليه ؟ لسنا نملك الجزم بشىء فى هذا الصدد . وقد يتسنى لامرىء أن يكون عالما فاضلا على الأقل فى الفيزياء ، والكيمياء ، والفلك ، إن لم يكن فى البيولوجيا — وفى نفس الوقت يتقبل التعاليم الأساسية فى المسيحية . وفى إحدى مقالاته أكد ديكارت أن العقل « لا يحول دون تصديق أشياء نزل بها الوحى الإلهى ، على أنها أكثر يقينية من أرسخ معرفتنا وأجدرها بالثقة[٩٧] » وتنم رسائله مع اليزابث أميرة البالاتين ، فى أسلوب فصيح عن التقى والتمسك بالصراط المستقيم . وزاره سالاميوس فى ليدن ١٦٣٧ فوصفه بأنه « كاثوليكى غيور جداً[٩٨] » .

على أنه تفرغ فى العقد الأخير من حياته للعلم . وحول داره إلى معمل ، وأجرى تجارب فى الفيزياء ووظائف الأعضاء ، وإذا طلب أحد زواره أن يرى المكتبة ، أشار ديكارت إلى ربع عجل كان يقوم بتشريحه[٩٩] . وكان فى بعض الأحيان يتحدث ، كما تحدث بيكون ، عن الفوائد العملية — الهائلة التى يجنيها الجنس البشرى حين يستطيع العلم أن يجعل الناس « سادة الطبيعة والمسيطرين عليها[١٠٠] » ، وكثيراً ما أدى توكيده الذاتى على الاستنباط وثقته فيه ، إلى نتائج غامضة . ولكنه — اشتغل شغلا خلاقاً بعدة علوم . وألح على أن يستبدل العلم بالأفكار التجريدية النوعية الغامضة التى سادت علم الفيزياء ، فى العصور الوسطى: إيضاحات كمية مصوغة فى صيغ رياضية .ولقد شهدنا تطويره الهندسة التحليلية وإشارته إلى حساب التفاضل والتكامل اللانهائى . وحل مشاكل تضعيف المكعب وتثليث الزاوية . وابتدع فكرة استخدام الحروف الأولى من حروف الهجاء لتمثل الكميات المعلومة ، والحروف الأخيرة لتمثيل الكميات المجهولة . ويبدو أنه اكتشف قانون انكسار الضوء مستقلا عن سنل Snell . وحالفه التوفيق فى دراسه القوى العظمى التى تحدثها وسائل صغيرة ، مثل البكرة

والأسفين والرافعة والمزمة والعجلة ، وصاغ قوانين القصور الذاتى والتصادم وكمية التحرك ، وربما أوحى إلى بسكال بأن الضغط الجـــوى ينخفض بالارتفاع (١٠١) ، ولو أنه أخطأ فى إعلان أنه لا يوجد ثمة — فراغ إلا فى عقل بسكال (١٠٢) . وأشار إلى أن كل جسم محوط بدوامات من جسيمات دقيقة تدور حوله — فى طبقات كروية — وهى فكرة تشبه نظرية المجال المغناطيسى الحالية . وفى البصريات حسب حساباً صحيحاً زاوية الانكسار ، وحلل التغيرات التى يتعرض لها الضوء بفعل العدسة البلورية للعين ، وحل مشكلة تصحيح الزيغ الكرى فى التلسكوب ، وصمم عدسات ذات تقوس بيضى الشكل أو زائدى المقطع ، خالية من هذا الزيغ (١٠٣).

وشرح جنينا ، ووصفه من الوجهة التشريحية ، وهو يقول أنه شرح رؤس حيوانات مختلفة ليتحقق فى أيها تكون الذاكرة والتصور وغيرهما (١٠٤). وأجرى تجارب على الفعل اللاارادى أو المنعكس، وشرح الطريقة (الميكانيكية) التى تطرف بها العين عند اقتراب الضربة أو اللطمة (١٠٥) . ووضع نظرية للانفعال شبيهة بتلك التى وضعها وليم جيمس وكارل لانج : إن السبب الخارجى للانفعال (مثل وقوع نظرنا على حيوان خطير) يولد ذاتياً أو آنيا فعلا مستجيباً (الهرب) والاحساس المرتبط به (الخوف) ، فالانفعال هو إنجاز الفعل لا سببه . والانفعالات متأصلة فى الفسيولوجيا . ويجب دراستها وتفسيرها على أنها عمليات ميكانيكية ، وليست فى حد ذاتها سيئة لأنها الريح فى أشرعتنا ولكن إذا لم يلطف منها العقل ويحد منها ، فإنها قد تستعبد الانسان وتدمره .

ويمكن اعتبار الكون كله ميكانيكيا ، فيما عدا الله والنفس العقلانية وعرض ديكارت هذه الفكرة وجاليليو ومحكمة التفتيش ما تلتان أمام عينيه — على أنها مجرد فرض : فإذا افترضنا أن الله خلق المادة ووهبها الحركة ، فيمكننا أن نتصور أن العالم يتطور بعد ذلك ، وفق قوانين الميكانيكا ، دون تدخل . إن الحركة الطبيعية للجسيمات المادية فى كون ليس فيه فراغ ، تأخذ شكلا دائرياً يؤدى إلى دوامات مختلفة من الحركة . ويمكن أن تكون الشمس والكواكب

والنجوم قد تكونت بفعل تجمع هذه الجسيمات فى مركز هذه الدوامات ، وكما أن كل جسم محوط بدوامة من ذرات دقيقة — وهذا يفسر التماسك والتجاذب — فإن كل كوكب كذلك محصور فى دوامة من الجسيمات تحتفظ بتوابعه فى مداره ، والشمس مركز دوامة هائلة تندفع الكواكب إليها حول الشمس فى دوائر . وكانت نظريه بارعة ، ولكنها سقطت عندما أثبت كبلر أن مدارات الكواكب بيضاوية الشكل .

ويقول ديكارت بأنه لو كانت معرفتنا تامة كاملة لكان فى مقدورنا أن نحول — لا الفلك والفيزياء والكيمياء ، فحسب — بل كل عمليات الحياة ، باستثناء العقل ذاته ، نحولها إلى قوانين ميكانيكية فإن التنفس والهضم ، بل حتى الشعور ، كلها ميكانيكية ، انظر كيف كان هذا المبدأ مفيداً فى اكتشاف هارفى للدورة الدموية . وطبق ديكارت ، فى ثقة تامة ، فكرة الميكانيكية ، على كل عمليات الحيوانات ، لأنه أبى أن يخلع عليهما القدرة على التفكير العقلى . وربما أحس بأنه مضطر ، من الوجهة الدينية ، الى ظلم الحيوانات على هذه الصورة ، لأنه كان قد أسس خلود النفس على عدم مادية الذهن العقلانى ، فإذا كان للحيوانات مثل هذا الذهن كذلك ، لكانت هى الأخرى باقية أو غير فانية ، وربما كان فى هذا ازعاج ، إن لم يكن لهواة الكلاب ، فهو على الأقل لرجال اللاهوت .

ولكن إذا كان جسم الانسان آلة مادية فكيف يتسنى للعقل غير المادى أن يعمل فيه . أو يحكمه بقوة غير ميكانيكيه مثل الارادة الحرة ؟ وهنا يفقد ديكارت ثقته ، فيجيب يائساً بأن الله يرتب تفاعل الجسم والعقل بطرق خفية لا يصل إليها إدراكنا المحدود . وربما أرتأى أن العقل يعمل فى الجسم عن طريق الغدة الصنوبرية الموضوعة بشكل مناسب فى قاع المخ .

وكان أكثر تصرفات ديكارت تهوراً وطيشاً طيلة حياته ، أنه طلب من مرسن أن يبعث مقدما بنسخ من كتاب « التأملات » إلى بعض المفكرين مع دعوتهم لارسال ما يعن لهم من اعتراضات عليه ، ورداً على ذلك دحض

جا سندى آراء ديكارت فى كياسة فرنسية[١٠٦] . فإن الكاهن لم يقتنع بحجة ديكارت الوجودية عن وجود الله . أما هوبز فاعترض على أن ديكارت لم يثبت استقلال العقل عن المادة والمخ . ويقول أوبرى بأن هوبز بصفة خاصة كان يميل إلى القول بأن ديكارت لو قصر نفسه على الهندسة تماماً لأصبح أعظم علماء الهندسة فى العالم ، وأنه لم ينسجم مع الفلاسفة[١٠٧] . واتفق هيجينز مع هوبز ، وذهبا إلى أن ديكارت نسج قصة خيالية من عناكب الميتافيزيقا .

والآن وبعد ثلاثة قرون من البحث والمناقشة قد يكون من اليسير أن نتبين نقاط الضعف فى أول منهج حديث جرىء للفلسفة . أن فكرة تحويل الفلسفة إلى صيغ هندسية ، ساقت ديكارت إلى طريقة استنباطية ، اعتمد فيها فى طيش زائد ، برغم تجاربه ، على نزعته إلى الاستنباط . وانه لعمل انتحارى أن نجعل من وضوح أية فكرة وجلائها وبهائها وبداهتها اختباراً لصحتها ، فمن ذا الذى يجسر على هذا الأساس ، على إنكار دوران الشمس حول الأرض ؟ والمحاجة بأن الله موجود لأن لدينا فكرة واضحة متميزة عن كائن لا نهائى بالغ حد الكمال (وهل هذا صحيح ؟) ، ثم المحاجة بأن الأفكار الواضحة المتميزة جديرة بالثقة لأن الله لا يمكن أن يخدعنا ، إن هى الا ضرب من التفكير دائرى غامض مثل مدارات كواكب ديكارت . إن هذه الفلسفة تتضح بمفاهيم سكولاستية العصور الوسطى ، التى نصحت بنبذها . إن شك مونتينى كان أثبت وأبقى من شك ديكارت الذى لم يفعل إلا أن زحزح الهراء التقليدى ليفسح مكاناً لهرائه هو .

ومع هذا كله ، بقى فى علم ديكارت ، أن لم يكن فى « ميتافيزيقاه » ، ما يشيع فى نفسه الخوف من الاضطهاد والتعذيب . فإن نظريته فى « ميكانيكية الكون » تركت المعجزات والارادة الحرة فى موقف خطر ومأزق حرج ، برغم اعترافه بالدين القويم والصراط المستقيم . أنه لما سمع باد أنه جاليليو (يونية ١٦٣٣) طرح جانبا مؤلفه الضخم « العالم » الذى كان قد اعتزم أن يضم فيه شتات أبحاثه العلمية والنتائج التى توصل إليها ، وكتب ، وقلبه يقطر أسى وحزنا ، إلى مرسن :

لقد كان لهذا النبأ أعمق الأثر فى نفسى ، حتى كدت أعقد العزم على أن أحرق كل مخطوطاتى ، أو على الأقل أخفيها عن الأنظار... وإذا كانت حركة الأرض غير صحيحة . فإن كل مبادىء فلسفتى عن «ميكانيكية العالم» خاطئة ... لأنها كلها مترابطة يؤيد بعضها بعضا ... ولكنى على أية حال لن أنشر شيئاً يتضمن كلمة واحدة تغضب الكنيسة . (١٠٨) وعند وفاته لم توجد إلا قصاصات قليلة من مخطوطة «العالم» .

ولم يأت الهجوم (فى حياته) من الكنيسة الكاثوليكية ، بل من رجال اللاهوت الكلفنيين فى جامعتى أوترخت وليدن . فقد اعتبروا دفاعه عن الإرادة الحرة هرطقة خطيرة تسىء إلى «القضاء والقدر» ، كما رأوا فى «ميكانيكية الكون» فكرة تنزلق به إلى حافة الإلحاد ، فإذا كان الكون يستطيع أن يسير لمجرد قوة دافعة يبدأ بهـــا الله ، فما هى إلا مسألة وقت حتى ينجز الله دفعته الاستهلالية أو الأولى هذه . وفى ١٦٤١ ، عندما تبنى أحد أساتذة أوترخت فلسفة ديكارت ، أغرى رئيس الجامعة ، جسبرت فوشيوس ، ولاة الأمور فى المدينة بإدانة الفلسفة الجديدة وتحريمها . فما كان من ديكارت إلا أن شن هجوما على فوشيوس ، الذى رد عليه رداً عنيفاً ، وعاود ديكارت الكرة ، وقارعه الحجة بالحجة . وفى ١٦٤٣ دعا القضاء الفيلسوف للمثول أمامهم . ولكنه رفض ، وصدر الحكم عليه . فتدخل أصدقاؤه فى لاهاى ، فقنع أولو الأمر فى المدينة بإصدار قرار بحظر أية مناقشه علنية تأييداً أو تفنيداً لآراء ديكارت .

ووجد بعض السلوى فى صداقته مع الأميرة اليزابث التى كانت تقيم فى لاهاى مع والدتها اليزابث ناخبة البلاتين ملكة بوهيميا المخلوعة . وكانت الأميرة فى التاسعة عشرة حين ظهر كتاب «المقالات» ١٦٣٧ ، فقرأته فى دهشة ممزوجة بالابتهاج والسرور بما رأت أن الفلسفة واضحة مفهومة يسهل إدراكها ، والتقت بها بديكارت وابتهج بما رأى من أن الميتافيزيقا قد تقسم

بالجمال . وأهدى إلى الأميرة الصغيرة كتابه « مبادىء الفلسفة » وكتب كلمة الأهداء فى لغة تفيض بملق بالغ البهجة والسرور . وماتت حيث كانت رئيسة دير للرهبات فى وستفاليا (١٦٨٠) .

ولم يطب المقام لديكارت فى هولنده ، كما كان من قبل ، فكان كثير التردد على فرنسا : (١٦٤٤ ، ١٦٤٧ ، ١٦٤٨) . وآثار فيه الروح الوطنية معاش أجرته عليه حكومة لويس الرابع عشر الجديدة (١٦٤٦) . واحتال للحصول على أحد المناصب الإدارية ، ولكن اقتراب نشوب الحرب الأهلية (حرب الفروند) عاد به إلى هولنده ، فزعا . وفى فبراير ١٦٤٩ تلق دعوة من كريستينا ملكة السويد ، ليحضر ليلقنها الفلسفه . وتردد فى قبول الدعوة ، ولكن سحرته رسائلها التى تمت فى لغة فرنسية ممتازة ، على ذهن متلهف ، انحاز بالفعل إلى « البهجة الغالية » (فلسفة ديكارت) . وبعثت إليه بأحد أمراء البحر يستميله ، ثم ببارجة حربية لتقله ، فاستسلم وأبحر فى سبتمبر من أمستردام إلى ستكهولم .

واستقبل بكل مظاهر الحفاوة والتكريم ، ولكن أزعجته رغبة الملكة فى أن تتلقى الدروس ثلاث مرات فى الأسبوع ، فى الساعة الخامسة صباحاً ، وكان ديكارت قد تعود أن يبقى فى فراشه إلى وقت متأخر ، والتزم بالمواعيد التى حددتها الملكة طيلة شهرين ، فكان يخرج من بيته إلى مكتبة الملكة فى فجر الشتاء وثلوجه ، وفى أول فبراير ١٦٥٠ أنتابه برد انقلب إلى التهاب رئوى ، وفى اليوم الحادى عشر فارق الحياة بعد أن تلقى الأسرار المقدسة الكاثوليكية الأخيرة .

وكان قد اتخذ لنفسه شعارا ، هو « يعيش سعيدا من يتوارى عن الأنظار ويتكتم كثيراً » . ولكن شهرته كانت قد طبقت الآفاق قبل موته بعدة سنوات . لقد نبذت الجامعات فلسفته واشتم رجال الدين رائحة الهرطقة فى

تقواه ، ولكن رجال العلم أطروا رياضياته وفيزياءه ، ولكن دنيا الاناقة فى باريس ، أقبلت فى سرور بالغ على مؤلفاته التى كتبها فى لغة فرنسية مشرقة جذابة . وسخر موليير من « السيدات العالمات » اللاتى تبادلن أنباء الدوامات فى الصالونات ، « ولكنهن لم يطقن الفراغ » وكان الجزويت حتى تلك اللحظة متسامحين مع تلميذهم النجيب ، وكانوا قد أسكتوا واحدا من طائفتهم شرع يهاجم ديكارت[١٠٩] . ولكنهم بعد ١٦٤٠ ، لم يعودوا يظلونه بحمايتهم . وكان لهم فى ١٦٦٣ ضلع فى ادراج مؤلفاته فى قائمة الكتب المحظورة . ورحب بوسويه وفنلون ببراهين ديكارت على المبادىء الأساسية فى المسيحية ، ولكنهم رأوا فى تأسيسها على العقل خطرا على العقيدة ، واستنكر بسكال الاعتماد على العقل ، على أعتبار أن هذا العقل ريشة فى مهب الريح .

ولكن اعتماد ديكارت على العقل ، هو الذى ، على وجه الدقة ، أيقظ ذهن أوربا ، وأوجز فونتنل الأمر بقوله « أن ديكارت ... هو الذى أمدنا بطريقة جديدة للتفكير . تدعو إلى الأعجاب أكثر مما تدعوا فلسفته ذاتها ، تلك التى يعتورها قدر كبير من الزيف والشك ، وفقا للقواعد التى علمنا أياها هو نفسه[١١٠] » . إن شك ديكارت أدى لفرنسا — أو للقارة بصفة عامة — ما أداه بيكون لانجلترا : — أنه حرر الفلسفة من أغلال الزمن وأطلقها لتبحر فى جرأة وشجاعة فى بحر مكشوف ، حتى ولو أنها مالبثت أن عادت ، عند ديكارت نفسه إلى شاطىء الأمان المألوف . ولسنا نقول بأنه كان ثمة انتصار عاجل أو فورى للعقل ، فإن التقاليد والأسفار المقدسة كانت أكثر ثباتا وقوة فى أزهى عصور فرنسا ، وهو « القرن العظيم » أى عصر لويس الرابع عشر ، أنها كانت حقبة بورت رويال وبسكال وبوسويه ، أكثر منها حقبة خلفاء ديكارت . أما تلك الحقبة نفسها فى هولنده فهى عصر سبينوزا وبيل ، وفى انجلترا عصر هوبز ولوك . أن الزرع كان يخرج شطأه .

وكان لأعمال ديكارت بعض الأثر على الأدب والفن فى فرنسا . إن

أسلوبه كان ابتداعا منعشا . وهنا كانت الفلسفة بلغة قومية فى متناول الجميع بشكل خطير ، وقلما يتحدث فيلسوف بمثل هذه الألفة الساحرة وهو يعدد مغامرات العقل وتجاربه المثيرة بمثل السلاسة والحيوية التى يعدد بهما فرواسار وبطولات الفروسية ومآثرها . ولم يكن كتاب « مقال فى المنهج » مجرد رائعة من روائع النثر الفرنسى . بل أنه كذلك ضرب ، للعصر الزاهر فى فرنسا ، مثلا ، فى لغته وأفكاره ، للترتيب وبراعة التفكير والاعتدال فى الآداب والفنون والسلوك والحديث . وتلاءم توكيده على الأفكار الواضحة الجلية مع الذهن الفرنسى ، وأصبح رفعه من شأن العقل أول قاعدة من قواعد الأسلوب الممتاز عند الناقد الفرنسى بوالو :

« أحب العقل إذن ، ولتستمد كتاباتك وقيمتها منه وحده(١١١) » .

وباتت الدراما الفرنسية لمدة قرنين من الزمان بلاغة العقل التى تنافس تمرد العاطفة والهوى وربما عانى الشعر الفرنسى بعض الشىء من ديكارت ، فإن مزاجه وآلياته (ميكانيكيه) لم يتركا للخيال أو الأحاسيس سوى مجال ضيق . إن فوضى رابليه المهتاجة واستطراد مونتينى الذى لا ضابط له ، بل حتى الاضطرابات العنيفة فى الحروب الدينية ، أن هذه كلها أفسحت المجال ، بعد ديكارت، لمناقشات كورنى العقلانية، ولوحدات راسين العارمة ، ولتقوى بوسويه المنطقية ، ولقانون الملكية والبلاط ونظامهما وشكلهما وسلوكهما فى عهد لويس الرابع عشر . وأسهم ديكارت ، عن غير قصد منه فى ابتداع طراز جديد فى الحياة الفرنسية ، كما فعل فى الفلسفة سواء بسواء .

وربما كان أثره فى الفلسفة أعظم من أثر أى مفكر آخر قبل كانت . لقد استقى مالبرانش منه ، وتتلمذ سبينوزا على منطق ديكارت ، واكتشف نقاط الضعف فيه عند شرحه . وقلد « المناقشات » فى نبذة عن سيرة حياته بعنوان « تحسين التفاهم » ، وتبنى المثل الأعلى الهندسى فى كتابه « الأخلاق » ، وبنى بحثه فى « استرقاق الإنسان » على بحث ديكارت « رسالة فى انفعالات النفس» .

وبدأت تقاليد المثالية فى الفلسفة الحديثة ، من بركلى إلى فخت، بتوكيد ديكارت على الفكر بوصفه الحقيقة الوحيدة المعروفة بطريق مباشر ، مثلما انحدرت تقاليد التجريبية من هوبز إلى سبنسر . ولكن ديكارت قدم للمثالية ترياقا — مفهوم كون موضوعى ميكانيكى تماماً — فإن محاولته لفهم العمليات العضوية وغير العضوية ، سواء بسواء ، على أساس ميكانيكى، هيأت للبيولوجيا وللفسيولوجيا قوة دافعة متهورة ولكنها مجدية . وتحليله الميكانيكى للاحساس والخيال والذاكرة والإرادة ، أصبح معيناً لا ينضب لعلم النفس الحديث . وبعد أن دعم القرن السابع عشر فى فرنسا العقيدة القويمة بديكارت ، وجدت استثارة القرن الثامن عشر أرضاً خصبة فى شكه المنهجى ، وفى اعتماده على العقل، وفى تفسيره لكل حياة الحيوان على نفس أسس الفيزياء والكيمياء(١١٢). إن اعتداد الفرنسى — المغترب بنفسه اعتداداً لم يتزعزع قط ، كان يبرره أثره المتزايد على الذهن الفرنسى .

إن « المناظرة الكبرى » بين العقل والإيمان كانت تتخذ شكلا واعياً . ولكن تاريخها الحديث كان قد بدأ فقط . إننا إذا ألقينا نظرة على الأعوام التسعين من ١٥٥٨ - ١٦٤٨ ، من اليزابث إلى ريشليو ، ومن شكسبير إلى ديكارت ، لأدركنا أن كل القضايا المستحوزة على الأذهان لاتزال محصورة فى المسيحية، بين المذاهب الدينية المتنافسة المؤسسة كلها على انجيل قبله الجميع على أنه « كلمة الله » وثمة مجرد أصوات شاردة كانت تقول بأن المسيحية نفسها يمكن أن توضع موضع الاختبار، وبأن الفلسفة لن تلبث أن تنبذ كل مذهب خارق للطبيعة .

وبعد هذه المراحل الأولى من الصراع بقيت الكاثوليكية مسيطرة فى أسبانيا والبرتغال حيث ظلت محاكم التفتيش تنشر الرعب والكآبة . أما فى إيطاليا فقد اتسمت الديانة العتيقة بروح أكثر إنسانية ، وأضفت بالفن على الحياة شيئاً من الجمال، وزينت الأخلاقيات بالأمل، وارتضت فرنسا حلا وسطاً، وعاشت المسيحية نشيطة مزدهرة بين الشعب ، كاثوليك أو هيجونوت ، على

حين أن الطبقات العليا كانت تسرح وتمرح فى الشك ، مرجئة التقى والورع إلى دنو الأجل المحتوم . وقامت فى الأراضى الوطيئة تسوية جغرافية ، فأبقت المقاطعات الجنوبية على الكثلكة ، وانتصرت الكلفنية فى الشمال . وأنقذ البروتستانتية فى ألمانيا كاردينال فرنسى ، وثبتت بافاريا والنمسا على ولائهما القديم ، على حين أعيدت المجر وبوهيميا إلى حظيرة البابا ، وأصبحت البروتستانتية قانون الأرض أو المبدأ الرسمى فى اسكندناوة ، ولكن ملكة السويد آثرت طقوس رومة ، واقترحت البزابث فى إنجلترا اتحادا كريما بين الطقوس الكاثوليكية والحرية الوطنية ، ولكن البروتستانتية الإنجليزية التى تفرقت شيعا أبرزت حيويتها وغامرت بحياتها .

وفى غمرة تناحر الجيوش والمذاهب ، كانت « دولية العلوم » تكافح للاقلال من الخرافة والخوف . كانت تخترع أو تعمل على تحسين الميكروسكوب والتلسكوب والترمومتر والبارومتر ، وكانت تبتكر اللوغاريتمات والنظام العشرى ، وتصلح التقويم ، وتبتدع الهندسة التحليلية ، وكانت تحلم ، لفورها ، بتحويل كل المواقع إلى معادلة جبرية . وكان تيكوبراهى قد قام بكل الأرصاد المتكررة الصابرة التى مكنت لكبلر من صياغة قوانين حركة الكواكب ، التى أنارت الطريق أمام نيوتن ليبصر بقانون كونى عام واحد . وكان جاليليو يكشف عن عوالم جديدة أوسع ، بمناظيره المقربة التى كان يعمل على تحسينها وتكبيرها باستمرار ، وفى قاعات محكمة التفتيش كان النزاع بين العلم والدين يفرغ فى قالب مسرحى . وفى مجال الفلسفة ارتضى جيوردانو برونو الاعدام حرقا حتى الموت ، فى محاولته لإعادة فهم الألوهية والكون على أسس تلتئم مع أفكار كوبرنيكس ، كما أن فرانسيس بيكون الذى يدعو ذوى العقول المفكرة إلى العلم ، كان يخطط مهام

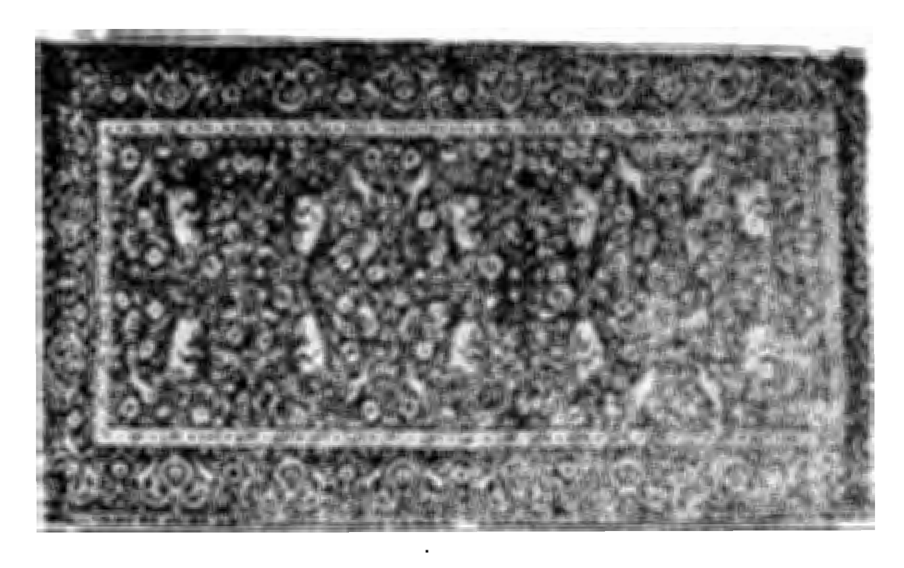
العلوم ومسئولياتها لعـــدة قرون مقبلة ، أما ديكارت ، بشكه العام الشامل ، فقد ألقى على عصر العقل عبئا جديدا . وتشكلت الأخلاق والعادات والسلوك تبعا لتقلبات العقيدة . وتأثر الأدب نفسه بالصراع ، وكان لآراء الفلاسفة صداها فى شعر مارلو وشكسبير ودون . وسرعان ما تتضاءل أهمية الثورات والحروب بين الدول المتنافسة إذا قورنت بالصراع السائد المتزايد بين الإيمان والعقل الذى أهاج ذهن أوربا وحوله ، بل ربما ذهن العالم بأسره .



فرانس هالس ـ متحف اللوفر بباريس (ص ٨٠)



أنتونى فانديك ـ متحف ميونخ (ص ٦١)



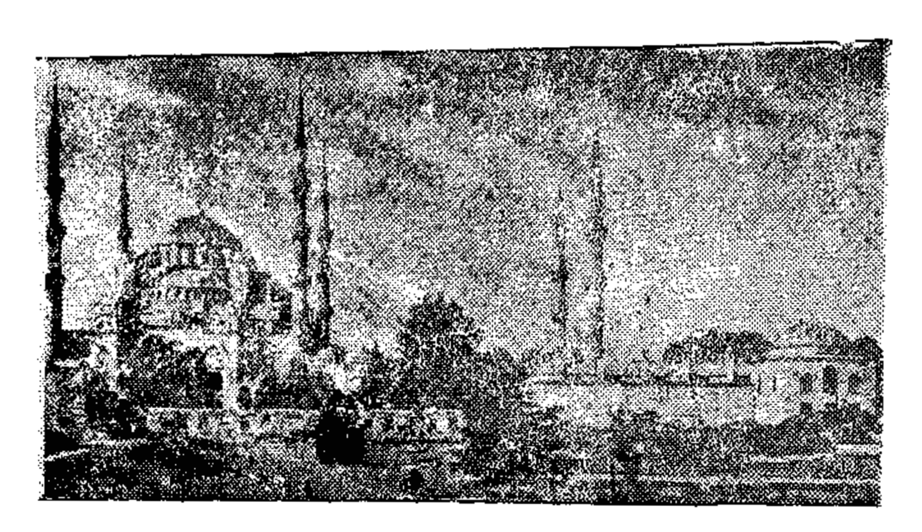
سجادة عجمى ـ متحف المتروبلتان بنيويورك (ص ١٦٤)



استیفن باتوری ملك هولنـدا (ص ١١٦)



شاعر يجلس فى الحديقة بأصفهان (ص ١٦٠)



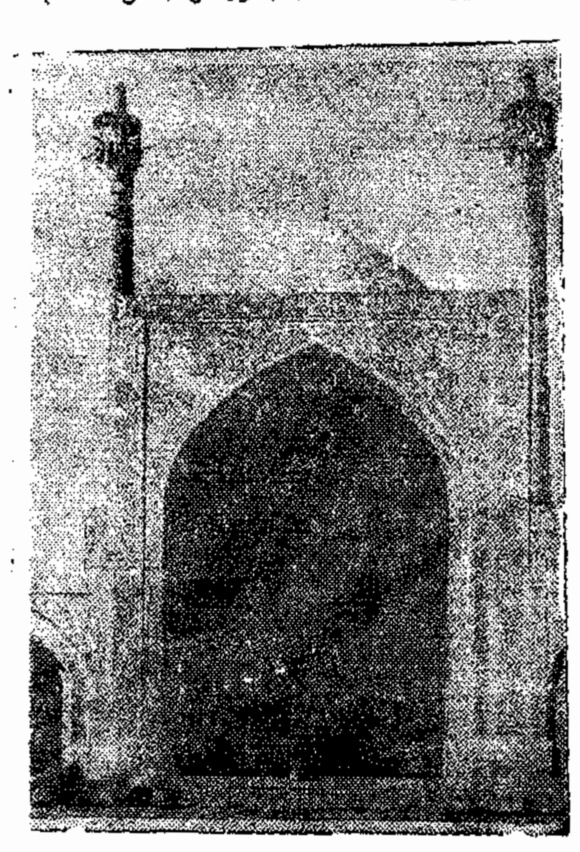
جامع السلطان أحمد بالقسطنطينية (ص ١٣٩)



الشــاه عبــاس الأكبر (ص ١٤٨)



جاليليو - متحف الفن بفلورنس (ص ٢٦٤)



مدخل ميــدان مسجد الشاه بأصفهان (ص ١٥٢)

المراجع

CHAPTER XVII

1. Geyl, *Revolt of the Netherlands*, 16
2. Sombart, *The Jews and Modern Capitalism*, 65; Sèe, *Modern Capitalism*, 31.
3. Motley, *Rise of the Dutch Republic*, I, 217; Janssen, *History of the German People* VIII, 13.
4. Motley, I, 217.
5. Janssen, VIII, 14f,
6. Voltaire, *Essai sur les moeurs*, ch. cxxxvi, in *Works*, XIVb.
7. Motley, I, 207.
8. Ibid., 206.
9. Blok, *History of the People of the Netherlamds*, III, 11; Motley, I, 375f.
10. Ibid., 283.
11. Geyl, 78.
12. Ibid., 86.
13. Janssen, VIII, 19.
14. *Cambridge Modern History*, III, 200.
15. Acton' *Lectures*, 144.
16. Motley, I, 453-4.
17. Ibtd., 465-8.
18. *Camb. Mod. History*, III, 207-8,
19. Motley, I, 478f.
20. Janssen, VIII, 23.
21. Motley. I, 526.
22. Janssen, VIII, 25.
23. Prescott, *Philip II*, II, 161.
24. Blok, III, 42,
25. Pastor, *History of the Papes*, XVIII, 97.
26. Blok, III, 51.
27. Pastor, XVIII, 101.
28. Motley. I, 628; Janssen, VIII, 123.
29. *Camb. Mod. History*, III, 232.
30. Motley, II, 72-4.
31. Geyl, 128; Lacroix, *Military and Religious Life in the Middle Ages*, 440.
32. Motley, II, 40.
33. Ibid., 101.
34. Voltaire, *Esssai*, ch. cxxxvi; *Works*, p. 294; Hume, *M., The Spanish People*, 372.
35, Pastor, *Popes*, XX, 3.
36. Motley, II, 151.
37. Ibid., 169.
38. 515.
39. Geyl, 165.
40. Ibid,, 130.
41. 128.
42. *Camb. Mod. History*, III, 250.
43. Blok, III, 121-3.
44. Geyl. 162; Pastor, XX, 9.
45. Motley, II, 646.
46. Robinson. J. H., *Readings in Europeam History*, 325; Motley, II, 637.
47. Figgis, *From Gerson to Grotius*, 228.

48. *Camb. Mod. History*, III, 258.
49. Blozo. III, 179.
50. Ibid., 239.
51. Geyl, 206, 215, 231; Ranke *History of the Popes*, II, 221.
52. Blok, III, 415.
53. *Camb Mod History*, III, 646.
54. Blok, III 413,

CHAPTER XVIII

1. Robinson, *Readings*, 556.
2. Prescott, H. F., *Mary Tudor*, 331.
3. Vienna.
4. Prado.
5. Brussels, Vienna, Louvre.
6. Brussels.
7. Rooses. *Rubens*, I, 9.
8. Pitti Gallery, Florence.
9. Uffizi Gallery, Florence.
10. Grenoble Museum.
11. Rooses, I, 638
12. Burckhardt, *Recollections of* Rubens, 21.
13. Janssen, XI, 161.
14. Dresden.
15. Knackfuss, H., *Van Dyck*, 4.
16. Munich.
17. Lichtenstein Collection, Vienna.
18. Vienna.
19. Geneva.
20. Munich.
21. London.
22. Pitti Gallery.
23. Dresden.
24. Louvre.
25. Vienna.
26. Madrid.
27. Vienna, Madrid.
28. London.
29. Craven, *Treasury af Art Masterpieces*, 105.
30. Antwerp.
31. Fülop-Miller, *Power and Secret of the Jesuits*, 422.
32. Munich.
33. Hartford, Conn.
34. Antwperp
35. Antwerp cathedral and Brussels Museum.
36. Vienna.
37. Vienna.
38. Sarasota, Fla.
39. Rooses, *Rubens*, I, 395.
40. Ibid., 417.
41. Pitti Gallery.
42. Boston.
43. Rooses, I, 414.
44. Munich.
45. Munich.
46. Hamburg.
47. Vienna.
48. Munich.
49. Munich.
50. Louvre.
51. Brussels.
52. The Hague
53. Frick Collection, New York.
54. Windsor Castle.
55. Burckhardt, *Recollection*, 15.
56. Rooses, I, 600.
57. Louvre.

58. Vienna.
59. Knackfuss, 8.
60. Munich.
61. Frick Collection.
62. Brussels.
63. Detroit.
64. Munnich.
65. Vienna.
66 Antwerp.
67. Knackfuss, 9
68. Pitti Gallery.
69. Wallace Collection, London.
70. Lovure.
71, Vienna.
72. Vienna.
73. Lichtenstein Gallery, Vienna.
74 Knackfuss. 76.
75 New York.
76. Ibid.
77. Frick Collection, New York.
78. Fitzwilliam Collection.
79 Dresden.
80. Munnich.
81, Uffizi Gallery.
82. Blok, III, 333, Mousnier, 160.
83. Maverick, L. A., *China a Model for Europe*, 5.
84. Adams, Brooks, *Law of Civilization and Decay*, 107.
85. Nussbaum, *History of Economic Institutions*, 123.
86. Gooch, *Democratic Ideas*, 45.
87. Geyl 211.
88. Ogg, *Europe in the Seventeenth Century*, 412.
89 Geyl, 238; Blok, III, 354.
90. Fischer. K., *Descartes and His School*. 212.
91. Taine, H., *Lectures on Art*, 322.
92. *En Br.*, X, 498d.
93. In Taine, *Lectures*. 183.
94. Day, Clive, *History of Commerce*, 200
95. Sée, *Modern Capitalism*, 32.
96. Wilenski, R H., *Dutch Painting*, 132
97. Baedeker, K., *Belgique et Hollande*, 383
98. Chute, *Ben Jonson*, 301.
99. Geyl, 206.
100 Honey, W.B , *European Ceramic Art*, 31.
101. Wilenski, *Dutch Painting*, 10.
102. Taine, *Lectures*, 333
103. Hauser, *Social History of Art*, I, 467.
104 Davies, G, S., *Frans Hals*, 19.
105. Amsterdam.
106. Haarlem.
107. Lord Northbrooke Collection.
108. Wallace Collection.
109. Devonshire House.
110. Haarlem.
111. Haarlem.
112. Haarlem.
113. Haarlem.
114 Amsterdam.
115. Antwerp.

116. Haarlem.
117. Berlin.
118. Louvre
119 Cassel
120 Mather, F. J , *Western European Painting of the Renaissance*, 461.
121 Chicago.
122 Berlin.
123. New York.
124 The Hague
125 Michel, E . *Rembrandt*, I, 63
126 Amsterdam
127 The Hague
128 The Hague
129 The Hague
130. Duke of Devonshire Collection.
131. Rothschild Collection.
132. Leningrad.
133 Louvre
134. New York.
135 Brussels.
136 Amstredam.
137. Michel, *Rembrandt*, II, 214.
138. Edinburgh
139. Louvre.
140 Louvre.
141. London
142. Berlin
143. Cassel.
144 Berlin.
145 New York.
146 Washington.
147. Leningrad.
148. London.
149. Glasgow.
150. Cassel.
151. Still with the Six family in Amsterdam.
152 Berlin
153 Frick Collection.
154 Wallace Collection
155. Beard, Miriam , *of the Business* 16.
156 Marcus Kappel Collection, Berlin
157 New York
158 Louvre,
159. Amsterdam.
160. Leningrad.
161. Amsterdam.
162. Froment in Wilenski, *Dutch Paining*, 93.
163. Self-portrait in the Louvre.
164. New York.
165. I de Bruyn Collection.
166. Rathenau Collection.
167. In Michel, *Rembrandt*, I, 259.
168. Wilenski, *Dutch Painting*,93.
169. Ibid.
170. Meier-Graefe, *Spanish Journey*, 313.

CHAPTER XIX

1 Gade, *Tycho Brahe*, 150.
3. Verner, *Copenhagen*, 3.
3. Ranke, *Popes*, II, 150

4 Fletcher, C R., *Custavus Adolphus*, 15.
ç. Bain, F W., *Christina, Queen of Sweden*, 8.
6. Fletcher, 43.
7. *Camb Mod History*, IV, 187.
8. Wedgwood, C. V., *Thirty Year's War*, 273.
9. Fletcher, 27.
10. Bain, 28.
11. Ibid., 10.
12. 42.
13. 162
14. 96
15. 97.
16. 95
17. 166.
18. Pascal, *Provincial Letters*, introduction, 25.
19. Ranke, *Popes*, II, 355.
20. Ortega y Gasser, *Toward a Philosophy of History*, 18.
21. Horn, F. W., *Literature of the Scandinavian North*' 332,
22. Cf. Ranke' *Popes*, II. 353.
23. Bain, 358-61.
24. Ranke, II, 359; Bain, 180.
25. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 60.
26. Gustafson in Bain, xvi.
27. Bain, 360.
28. Ogg, 446.
29. Bain, 224.
30. Ibid., 229.
31. Lewinski - Corwin, *Political History of Poland*, 216-18; *Cambridge History of Poland*, I, 566.
32. Lednicki, W , *Life and Culture of Poland*, 125-6
33. Ibid., 94.
34. *Camb. History of Poland*, I, 413; Robertson, J. M., *Hitory of Freethought*, I, 426.
35. Lednicki, 102n.
36. Robertson, *Freethought*, II, 37
37 *Camb History of Poland*, I, 403-5, 410-11
38. Rnake, II, 161
39. Pokrovsky, M., *History of Russia* 154.
40. Florinsky, M., *Russia: a History and an Interpretation*, 1. 213,
41. Kluchevsky, V., *History of Russia*, II, ch. xiii; III, 21; Florinsky, I, 217
42 Vernadsky, G , *History of Russia*, 65
43. Réau, L , *L' Art russe*, I, 285.
44. Ranke, II, 155.
45. Florinsky, I, 226.
46. E.g., Pokrovsky, 169-70.
47. Ibid., 177; Kluchevsky. III, 20; Florinsky, I, 223.
48. Rambaud, A., *History of Russia*, I, 320.
49. *Camb. Mod. History*, V, 496.

50. Florinsky, I, 227; Pokrovsky 182.
51. Kluchevsky, III, 31.
52. Rambaud, I, 341

CHAPTER XX

1. Tavernier, *Six Voyages*, ii, 7.
2. Brockelmann, C., *History of the Islamic Peoples*, 316.
3 Pepys, *Diary*, Nov 9, 1663.
4. Arnold, T., *The Preaching of Islam*, in Toynbee, A., *Study of History*, VIII, 165.
5. Finlay, G, *History of Greece*, V, 29, in Toynbee, ibid, 164.
6. Tavernier, 1, i,
7. Michelet, *History de France*, IV, 444.
8. Brantôme *Lives of Gallant Ladies*, 135; Landau, R., *Invitation to Morocco*, 64.
9. Gibb, E. J., *Ottoman Literature*, 3.
10. Ibid., 236.
11. Dimand, M. S., *Guide to Exhibition of Islamic Miniature Painting*, 4.
12. Pope, A. U., *Catalogue of a Loan Exhibition of Early Oriental Carpets*, 93-5
13 Pastor, *Popes*, XVIII, 419.
14. Voltaire, *Essai sur les moeurs*, ch. cxxxi, in *Works*, XIBb, 270.
15. Preface to Part II of *Don Quixote*.
16 Motley, *Rise of the Dutch Republic*, II, 338.
17. Pastor, XVIII, 422
18. Ibid., 427.
19 436.
20. Lane-Poole, S., *Story of Turkey*, 218.
21. *En. Br.*, XV, 969a.
22. Teixeira, p., *Travels*, 62-6.
23. Pope, A. U., *Survey of Persian Art*, II, 1406.
24. Tavernier, *Six Voyages*, iv, 5.
25. Ibid.
26 Michelet, *Histoire de France*, V, 130.
27. *En. Br.*, XII, 705. The account follows the eloquent description in Arthur Upham Pope, *Survey of Persian Art*, II, 1185, and the notes of my visit to Isfahan in 1948.
28. Tavernier, v, 2.
29. Browne, E. G., *Literary History of Persia*, IV, 111.
30. Chardin, John, *Travels in Persia*, 134-6.
31. Ibid., 183, 167.
32. Teixeira, 114, 117.
33. Chardin, 143.
34 Ibid.
35 146.
36. 279.
37. Tavernier, v, 14.

38. Arnold, Thomas, *Painting in Islam*, 89.
39. Chardin, 120.
40. Teixeira, 62.
41. Chardin, 187; Tavernier, v, 14.
42. Chardin, 191. 189.
43. Browne, E. G., *Literary History*, IV. 247.
44. Ibid., 287.
45. *En Br.*, XII, 705b
46. Sir Bernard Eckstein Collection.
47. Boston
48. Pope, *Survey*, I. 7n
49. Gulbenkian Collection. Pope, *Survey*, V, 978
50. Boston.
51. Pope, *Survey*, V, 549
52. Pope, *A.* U., *Introduction to Persian Art*, 162.
53. Chardin, *Travels*. 273
54. New York.
55. In Pope, *Catalogue*, 17
56. Pope, *Introduction*, 220.

CHAPYER XXI

1. Coxe, W., *History of the House of Austria*, II, 29
2. Ibid., 67-72.
3. 130.
4. 94.
5. *Camb. Mod History*, III, 719.
6. Tawney. R. H., *Religion and the Rise of Captialism*, 122-4.
7, Janssen, *History of the Germnn People*. VIII, 297-9.
8. Robertson, J.M., *Freethought*, I, 420.
9. Campbell, *The Jesuits*, 69.
10. Lutzow, Count von. *Bohemia*, 217.
11. *Acton*, *Lectures*, 182.
12 Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 136.
13, Janssen, XV, 32, 44
14. Ibid , 29-31.
15. Thompson, J W., *Economic and Social History of the Later Middle Ages*, 429; Rickard *Man and Metals*, II. 565.
16. Janssen, 148.
17. Ibid., 110.
18. 125
19 Marx Karl, *Capital*, I, 467.
20. Janssen, XIII, 147
21. Ibid., 307.
22. 301.
23. 300.
24. Id., XII, 183.
25. X, 279.
26. XII, 96.
27. XI, 363
28. Pastor in Janssen, XVI, 130.
29 Janssen, X, 277-8.
30. Wedgwood, *Thirty Years*, *War*, 46.
31. Janssen. XV, 421

32. Putnam, G. H., *The Censorship of the Church of Rome,* I, 51.
33. Janssen, X, 11.
34. Ibid., 23, 45.
35. Id., XIII, 363f.
36. XIV, 12-14.
37. Wilenski, *Dutch Painting,* 61.
38. Vienna.
39. *Camb. Mod. History,* III, 153.
40. Schaff, *The German Reformation,* I, 64.
41 Janssen, X, 287f.
42 Ibid., 303-7.
43. 262.
44 258
45. 257.
46 256.
47. Inge, W. R., *Christian Mysticism,* 277.
48 Ibid., 278.
49. Fulop-Miller, *Jesuites,* 346.
50. Janssen, X, 214.
51. Ibid., 103, 110.
52. 165.
53. 32.
54. 30
55. 24
56. 334-41.
57 345,
58. 386-90.
59. 215.
60. 219.
61. 589.
62. 594.
63. Wedgwood. 81.
64. Nosek, V., *Spirit of Bohemia,* 99f.
65 Michelet, IV, 389n.
66.Wedgwood, 171.
67. Ibid., 255.
68. Fletcher, *Gustavus, Adolphus,* 300.
69. Robinson, *Readings,* 345.
70. Fletcher. 283.
71. Guizot, *History,* IV, 160.
72. Wedg Wood, 353.
73. Ibid., 360.
74. 450.
75. 207, 256-7, 410
76. 475.
77. 516; *Camb. Mod. History,* IV, 418.
78. Lutzow, 311; *Camb. Mod. History,* IV, 418.
79. Ibid., 417.,
80. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe,* 294.
81 Jordan, G. J., *The Reunion of Churches,* 15.
82. Wedgwood, 412. Ogg, *Europe in the Seventeenth Century,* 168.
83. Wedgwood, 413.
84 Ibid., 229.
85. *Camb Mod History,* IV, 688

CHAPTER XXII

1. Thorndike, L., *Hisory of Magic and Experimental Science,* VI, 160-5, 221, 239-40,

295; IV, 247; Garrison, F., *History of Medicine*, 37.

2. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 18.
3. Smith, P., *History of Modern Culture*, I, 428.
4. Berry, A., *Short History of Astronomy*, 195.
5. Jackson, C., *Old Paris*, 25.
7. Smith, P., *Modern Culture*, I, 427.
7. Janssen, XII, 346.
8. Ibid., 329.
9. Los Angeles *Times*, July 2, 1958.
10. Janssen, XVI, 372-6, 495; XII, 325, 351
11. Lea, *Inquisition in Spain*, IV, 243-4.
12. Vacandard, E., *The Inquisitio*, 199.
13. Singer, Chas., *Studies in the History of Science*, I, 213.
14. Lea, IV, 235,
15. Michelet, IV, 183-6.
16. Janssen. XI, 388.
17. Id., XVI, 398, 478.
18. Lea, *History of the Inquisition of the Middle Ages*, III, 549.
19. Janssen, XVI, 416.
20. *Camb. Mod. History*, V, 758 (not 9,000, as in IV, 423).
21. Janssen, XVI, 512, 424.
22. Lea, *Inquisition in Spain*, IV, 246; cf. Janssen, XVI, 506.
23. Montaigne, *Essays*, III, xi, 285.
24. Ibid , 286.
25. Smith, *Culture*, I, 453.
26. Ibid., 454; Dampier, *History of Scince*, 157.
27. Janssen, XVI, 390.
28. Janssen, XI, 379.
29. Evelyn, *Diary*, I, 139.
30. Putnam, *Censorship of the Church of Rome*, II, 237-69.
31. In Haydn, *Counter-Renaissance*, 531.
32. Hallam, *Literature*, II, 44,
33. Sandys, Sir John, *Companion to Latin Studies*, 855.
34. Putnam, G. H., *Books and Their Makers*, II, 96.
35. Masson, David, *Life of John Milton*, IV, 164.
36. Nosek, *Spirit of Bohemia*, 110.
37. Paulsen, F., *German Eduation*, 136.
38. Janssen, XIII, 277,
39, Galileo, *Discoveries and Opinions*, ed. Stillman Drake, 77.
40. Singer, *Studies*, 407.
41. Wolf, A., *History of Science, Technology, and Philosophy in the Sixteenth and Seventeenth Centuries*, 47; Singer, *Studies*, 412f.
42. Bell, E T., *Men of Mathematics*, 55,
43. Butterfield. *Origins of Modern Science*, 67,

44. Galileo, *Il saggiatore*, in *Discoveries and Opinions*, 237.

45. Cooper, Lane, *Aristotle, Galileo, and the Tower of Pisa*, 14; Dampier, 143.

46. Janssen, XV, 281,

47. Wolf, 327.

48. Mumford, L., *Technics and Civilizaiion*, 440.

49. Wolf, 544-5; Usher, A. P. *Histroy of Mechanical Invetions*, 303.

50. Descartes, *Principia philosophiae* Part IV, in Wolf, 351.

51. *En Br.*, I, 689d.

52. Galileo, *Dialogue concerning the Two Chief World Systems*, Dedication. p. 3

53. Michel, *Rembrant*, I, 123.

54. Mumford, L., The *Condition of Man*, 213.

55. Janssen, XIV, 69.

56. Ibid., 83,

57. 80.

58. Castiglioni, *History of Medicine*, 561.

59. Garrison, 307.

60. Janssen, XIV, 81.

61. Montaigne, *Essays*, tr. E. J. Trechmann, II, 222, quoted in Craig, Hardin, *The Enchanted Glass*, 44.

62. Garrison, 291-2.

63. Ibid., 226.

64. Descarrtes, *Discours de la méthode*, Part VI, p. 62, in Vartanian, *Diderot and Descartes*, 18.

65. Montaigne, *Essays*, III,x, 262.

66. Putnam, *Censorship*, I, 128-9; Belloc, H., *How the Reformation Happened*, 281; Fülop-Miller, *Jesuits*, 399; Smith, P., *Culture*, I, 43,

67. Camqanclla, Letter to Galileo, Jan. 12, 1611, in Smith, *Culture* I, 45.

68. Buckle, I, 101, Thorndike, VI, 42.

69. Gade, *Tycho Brahe*, 35.

70. Ibide., 187.

71. Kesten, H., *Copernicus and His World*, 346.

72. Whewell, *History of the Inductive Sciences*, I. 290-3.

73. Hogben, *Science of the Citizen*, 207; Kesten, 353.

74. Dampier, 139.

75. Berry, 194.

76. In Inge, *Christian Mysticism*, 298.

77. Galileo, *Dialogue concerning the Two Chief World Systems*, 105 (end of First Day).

78. Aristotle *De coelo*, 4.2. 309, in Cooper, L., *Aristotle, Galileo, and the Tower of Pisa*, 64.

79. Lucretius, *De rerum natura*, II, 230-1.

80. Leonardo da Vinci, *Codex*

Atlanticus, fol. 123ra, in Cooper, 69.

81. In Cooper, 47.
82. Viviani in Cooper, 26.
83. Ibid,, 29-31.
84. Galileo, *Two Chief World Systems*, 147.
85. Galileo, *Dialogues concerning Tow New Sciences*, 103.
86. Galileo, *Il saggiatore*, in *Discoveries and Opinions*, 274.
87. Ibid., 276-7.
88. Kesten, 348.
89. In Singer, *Studies*, 228.
90. Letter of Jan. 30, 1610, in Singer, 232.
91. Walsh, J. J. *The Popes and Science*, 393; Wolf, 29.
92. In Singer, 251.
93. Kesten, 396.
94. In Smith, *Culture*, I, 53.
95. Singer, 240.
96. Fülop-Miller, *Jesuits*, 397.
97. Singer, 240.
98. Fülop-Miller, 398.
99. Ibid.
100. Ibid.
101. Kesten, 371.
102. Galileo, *Discoveries and Opinions*, 177.
103. Ibid., 180.
104. 183.
105. Drake in Galileo, *Discoveries and Opinions*, 217.
106. Singer, 252.
107. Kesten, 375.
108. Wolf, 36.
109. Kesten, 379; Singer, 258.
110. Golileo, *Two Chief World Systems*, 5.
111. Ibid., 460.
112. Kesten, 388.
113. Singer, 269.
114. *En. Br.*, IX, 98ob.
115. Ibid., Wolf, 37.
116. Viviani in Singer, 279.
117. Kesten, 93.
118. Ibid., 395.

CHAPTER XXIII

1. Janssen, XVI, 132-4.
2. Robertson, *Freethought*, 483.
3. Ibid., 484.
4. Mousnier, *Histoire générale*, IV, 203.
5. Ibid., 201.
6. Owen, John, *Skeptics of the French Renaissancé*, 676.
7. Ibid., 578-9.
8. Ibid.
9. 584.
10. 580.
11. Charron, Pierre, *Of Wisdom*, I, 61, 74, 79-80.
12. Owen, 598.
13. Cf. Charron, in Paşcal, *Pensées*, ed. Havet, introd. xii.
14. Bury, *Freedom of Thought*, 75.
15. Owen, 570.
16. Singer., D. W., *Giordano Bruno*, 22.

17. Ibid., 24.
18. Owen, 274.
19. Bruno, *La cena de le ceneri*, Dialogue IV, in Singer, D. W., 33
20. In Owen, 274
21. Singer, *Bruno*, 137.
22. Ibid, 35.
23 Symonds, *Catholic Reaction*, II, 53-4.
24 Owen, 125.
25. Singer, *Bruno*, 146.
26. In Owen, 294.
27. Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 41.
28. Bruno, Dedication to *De la causa, préncipio et uno*, in Singer, *Bruno*, 103.
29. Thorndike, *Magic and Experimental Science*, IV. 425-7.
30. Owen, 290-3,
31. Singer *Bruno*, 161.
32. Symonds, *Catholic Reaction*, II, 62.
33. Kesten, 323.
34. Singer, *Bruno*, 166.
35. Ibid., 172.
36. 179.
37. Owen, 390.
38. Ibid., 399.
39. 400.
40. Symonds, 128; Kesten, 328.
41. Tr. J. A. Symonds in Van Doren, *Anthology*, 599.
42. Campanella *City of the Sun*, in *Ideal Commonwealths*, 147.
43 Ibid, 157.
44 164.
45 168
46 Murray, R. H., *Erasmus and Luther*, 443.
47. Ranke, *Popes*, II, 13.
48 Carlyle, R. W., *Medieval Political Theory*, VI, 341.
49. Campbell, *The Jesuits*, 379.
50. Mariana, *The King and The Education of the King*, i, 2.
51. Ibid., i, 10.
52. Ibid, Preface, p. 108.
53. Ibid. iii, 15.
54. In Laski, *Political Thought in England, Locke to Bentham*, 85.
55. Mariana, *The King*, i, 1.
56. Ibid., iii, 2.
57. i, 6, pp. 144-9.
58. Ibid.
59. Bodin, *Method for the Easy Comprehension of History*, 11.
60. Allen, *Political Thought*, 395.
61 Bodin, *De republica*, i, 4, in Allen, 408-9.
62. Ibid., 410.
63. Bodin, *De republica*, i, 6.
64. Ibid., i, 9.
65. Ibid., vi, 4, in Dunning, *Political Theories from Luther to Montesquieu*, 107.
66. Ibid., in Allen, *Political Thought*, 436.

67. In Allen, 406.
68. Bodin, *Method for the Easy Comprehension of History*, in Allen, 399.
69. Allen, 400-1.
70. Blok, III, 463
71. Grotius, Prolegomena, in Dunning, 161.
72. Grotius, *Rights of War and Peace*, I, i, 10. p. 21.
73. Ibid., I, ii, 1,
74. II, xxii,
75. I, xvii,
76. II, xxvi.
77. Lange, F, E,, *History of Materialism*, I, 266,
78. France, A., *Elm Tree on the Mall*, 13,
79. Russell, B., *History of Western Philosophy*, 558,
80. Ficher, K., *Descartes*, 194f.
81. *Discours*, Part III, in Descartes, *Selections*, 27.
82. Ibid., p. 38,
83. Faguet, *Dix-septiéme siècle*, 6-7.
84. Descartes, *Principia philosophiae*, I, 71, in *Meditations and Principles of Philosophy*, 168
85. *Discours*, Part II, in *Selections*, 12.
86. Descartes, *Meditations*, II, in *Selections*, 96,
87. *Discours*, Part IV, and *Meditations*, II, in *Selections*, 29, 99,
88. St, Augustine, *De Trinitate*, x, 10,
89. *Meditations*, II, in *Selections*, 106.
90 "Rules for the Direction of Mind," VIII, in *Selections*, 69.
91. *Meditations*, III, in *Selections*, 125.
92 Ibid,, 154.
93. Ibid., 89.
94. *Principia philosophiae*, I, xxxix.
95. *Meditations*, IV, in *Selections*, 127.
96 *Discours*, IV, in *Selection* 30.
97. *En. Br.*, VII, 249d.
98. Ibid.
99. Lévy-Bruhl. *History of Modern Phlosophy in France*, 29.
100. *Discours*, in Vartanian, *Diderot and Descartes*, 16,
101. Fischer, *Descartes*, 406.
102. In Smith, *Culture*, I, 194.
103. Smith, D. E., ed., *Isaac Newton*, 18.
104. Fischer, 229.
105. Garrison, *History of Medicine*, 258.
106. *Selections*, 222-47.
107. Aubrey, *Brief Lives*, 95.
108. Fischer, 231.
109. Fülop-Miller, *Jesuits*, 124.
110. Fontenelle, *Digression sur les anciens et les modernes*, in Fellows and Torrey, *Age of the Enlightement*, 57.
111. Lévy-Bruhl, 33.
112. Vartanian, *Diderot and Descartes*, 205 and *passim*.

قصة الحضارة

28- بداية عصر العقل (الجزء الأول)

29- بداية عصر العقل (الجزء الثاني)

30- بداية عصر العقل (الجزء الثالث)

ويل ديورانت